

المركز القومى للترجمة

سدريك جى. روبنسون

الماركسية السوداء

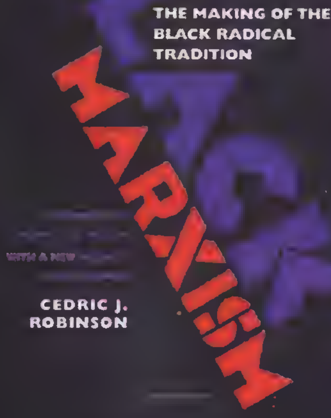
تكوين حراك ثورى للشعوب السوداء

ترجمة: عاطف معتمد

عـــزت زيـــان

2609





هذا الكتاب مرجع أصيل لفهم الجذور التي قامت عليها مشروعات استعباد البشر، والشعوب الزنجية بصفة خاصة. فقبل أن يسعى الأوربيون إلى احتلال أفريقيا وتشويه تاريخها وطمس مكانتها الرائدة في صنع حضارة الإنسان كانوا قد سلكوا نفس النهج مع شعوب داخل القارة الأوربية ذاتها، ولعل التجربة الأيرلندية خير مثال. يأخذنا هذا الكتاب في رحلة شائقة (وحزينة) مع الإنسان الأسود الذي تم استعباده وتسخيره لخدمة آلة الثراء الغربي. يضع الكتاب يده على المدن الأوربية التي أصبحت كبريات المدن في العالم اليوم، وكشف كيف قامت على الاتجار في البشر الأفارقة. يأخذنا الكتاب إلى عالم البحر الكاريبي والبرازيل وأمريكا الشمالية ليعطينا نماذج لا تنسى من قصص الكفاح والمعاناة والصراع والنجاح للإنسان الزنجي. ويرد هذا الكتاب الاعتبار إلى دور الإنسان الإفريقي في مسيرة الحضارة البشرية ويدفعنا إلى الاستفادة من تجربته الأليمة في استلهام روح من قدموا التضحيات من أجل رفع الظلم والمعاناة عن بقية البشر، ويذكرنا بضرورة التحريض الثوري ضد التوحش الرأسمالي والسعي إلى الفردوس المفقود: العدالة الاجتماعية.

تصميم الغلاف: نيرڤانا

الماركسية السوداء

تكوين حراك ثورى للشعوب السوداء

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2609
- الماركسية السوداء: تكوين حراك ثورى للشعوب السوداء
- سدريك جى. روبنسون
- عاطف معتمد، وعزت زيان
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Black Marxism: The Making of the Black Radical Tradition

By: Cedric J. Robinson

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الماركسية السوداء

تكوين حراك ثورى للشعوب السوداء

تأليف : سدريك جى. روبنسون
ترجمة : عاطف معتمد
عزت زيان



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

روبنسون ، سدريك جي.
الماركسية السوداء: تكوين حراك ثورى للشعوب السوداء /
تأليف: سدريك جي. روبنسون؛ ، ترجمة: عاطف معتمد، وعزت زيان.
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٩٨٨ ص ، ٢٤سم
١- الماركسية
(أ) معتمد ، عاطف (مترجم)
(ب) زيان ، عزت (مترجم)
(ج) العنوان ٣٣٥.٤

رقم الإيداع : ٢٠٨٢٩ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N 978- 977-718 -917-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الإهـداء

إلـى ليـونـارد وجـارى اللذين لم يحظيا بوقت كـاف

المحتويات

الجزء الثاني: جذور الراديكالية السوداء

الجزء الثالث: راديكالية السود والنظرية الماركسية

تقدمة

"عندما يسمع الدارسون السود الدعوة إلى تساوي الفرص في الظـلام، يجب أن يتذكروا أنهم لا ينتمون إلى ظـلام الثقافـة الأمريكيـة التـي ترفض الانتقال إلى النور. فليس المطلوب مـنهم أن يكونـوا أسـرى طائعين وعملاء لمؤسسات تنكر النور في كل أنحاء العالم. كلا، يجـب أن يقولوا الحقيقة لأنفسهم وللمجتمع ولكل الذين يدعونهم إلى الظـلام الجديد. ويجب أن يؤكدوا النور، وحركة النور في ماضـيهم، وحركـة النور في شعبهم. ويجب أن يؤكدوا قدرتهم على التحرك للأمـام نحـو بدائل جديدة من أجل النور في أمريكا".

فنسنت هاردنج، "مسئوليات الدارس الأسود تجاه المجتمع".

أستطيع أن أقول بدون أدنى قدر من المبالغة إن هذا الكتاب غير حياتي. فقد طاردني مثل الشبح منذ اليوم الذي أخرجته فيه من غلافه البني المـبطن منذ أكثر من ستة عشر عاما حتى اللحظة التي قبلت فيها كتابة هذا التقـديم. وقد أثبتت الساعات والأسابيع والشهور الطويلة التـي قـضيتها فـي هـذه المحاولة أنها منعشة ومحبطة ومحفوفة بالقلق، تماما مثل مواجهتي الأولـى مع أعظم ما أبدع سدريك روبنسون خلال سنتي الأولى في كلية الدراسـات العليا. فقد ظهر هذا الكتاب فجأة في شكل نسخة للمراجعة أرسلت إلى دورية "أوفاهامو Ufahamu"، وهي مجلة الدراسات العليـا التـي ينـشرها مجلـس الدراسات الأفريقية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. وقد لفت ظهور

الكتاب انتباهي بشدة؛ فلم يذكره أحد من زملائي، وأنا لا أتـذكر رؤيـة أي إعلان عنه في أي من المجلات الدراسية التي كنا نعرفها. ومع ذلك، كـان التوقيت بالنسبة لي غير متوقع، إن لم يكن هائلا في حقيقة الأمر. فبعد شهور قليلة في كلية الدراسات العليا، كانت تراودني فكرة كتابة رسالة عن يـسار جنوب أفريقيا. ولم يكن مبعث ذلك أكاديميا فحسب؛ فقد كنـت مهتمـا بـأن أصبح شيوعيا متفرغا أكثر من أن أكون دارسا متفرغا. ولم أكـن أسـتطيع تقليل اهتمامي بالتأريخ أو الحوارات الأكاديمية الجاريـة حـول الحركـات الاجتماعية. فقد أردت أن أعرف كيف تبنى حركة يسارية بـين الـشعوب الملونة، بحيث يمكن أن نقوم بالمهمة النهائية للقيام بثورة.

وهكذا فإنه عندما رأيت عنوان الكتاب: "الماركسية الـسوداء: تكـوين حراك ثوري للشعوب السوداء"، لم أتمالك نفسي دهشة. إذ لم أسمع من قبـل عن سدريك روبنسون، على الرغم من حقيقة أنه كان عضو هيئـة تـدريس ومدير مركز دراسات السود في جامعة كاليفورنيا في مدينة سـانتا باربـارا القريبة من جامعتنا. ومهما كانت شخصيته، فقد قلت لنفسي إنه كان واسـع الاطلاع بالطبع: فالهوامش والإحالات التي وضعها يمكن أن تشكل كتابا في حد ذاتها. وفي الحقيقة، فقد صدمت من حجم هـذا الكتـاب (حـوالي ٥٠٠ صفحة بخط صغير لا يكاد يقرأ) بينما كنت أبحث بلا جدوى عن أية مـواد عن تاريخ اليسار الأسود، ليس فقط في أفريقيا، ولكن في كل أنحاء الشتات. فوضعت هذا الكتاب الكبير بصورة استثنائية بسرعة في حقيبتـي، وأخـذت على عاتقي أن أقرأه باعتباري محررا لمراجعات الكتب في مجلة أوفاهامو.

وعندما قررت أخيرا أن أفتح الكتاب، أدركت لماذا كان كبيرا. إذ إن هذا الكتاب أكثر طموحا مما يتضمنه عنوانه المتواضع، وذلك لأن ما كتبه سدريك روبنسون يتخطى كثيرا حدود تاريخ يسار السود أو الحركات الراديكالية للسود. فمن خلال الجمع بين النظرية السياسية والتاريخ والفلسفة والتحليل الثقافي والسير الذاتية، وأشياء أخرى، أعاد روبنسون حقا كتابة تاريخ ظهور الغرب من العصور القديمة حتى منتصف القرن العشرين، حيث أرجع جذور الفكر الراديكالي للسود إلى المعارف المشتركة بين الشعوب الأفريقية المختلفة، ووجه نقدا لاذعا للماركسية الغربية وعجزها عن إدراك أي من الطبيعة العنصرية للرأسمالية والحضارة التي ولدت فيها، أو الحركات الشعبية خارج أوروبا. وعلى الأقل، يوجه هذا الكتاب انتقادا قويا "للاعتقاد السائد" بشأن تاريخ الحداثة، القومية، الرأسمالية، الأيديولوجية السلالية، أصول العنصرية الغربية، واليسار في العالم، منذ ثورات ١٨٤٨ وحتى الآن.

وربما تمكن هذا الكتاب، بدرجة أكبر من أي كتاب آخر، من نقل مركز الثورة والفكر الراديكالي من أوروبا إلى ما يسمى "الهامش" - أي إلى المناطق التي خضعت للاستعمار، والشعوب الملونة المهمشة في مراكز رأس المال الحضرية، ومن أطلق عليهم فرانز فانون تعبير "المعذبون في الأرض The Wretched of the Earth". وهو يقدم قضية مقنعة مفادها أن الممارسة والفكر الراديكالي، الذي ظهر في مواقع الاستغلال الرأسمالي السلالي والاستعماري، كان ناتجا عن المنطق الثقافي والمعارف لدى المقهورين، بالإضافة إلى أشكال السيطرة السلالية والثقافية الخاصة. وهكذا فإن روبنسون لم يقتصر على تحليل التاريخ والمسيرة التاريخية الماركسية، بل قام أيضا بتحليل ما يمكن أن نطلق عليه "عين العاصفة".

وعلى الرغم من كل اهتمام روبنسون بالهامش، فإنه يبدأ قصته في أوروبا. وبينما يبدو هذا متناقضا بالنسبة لكتاب يهتم أساسا بالشعوب الأفريقية، فإنه سرعان ما اتضح لماذا كان "يجب" أن يبدأ من هناك، حتى ولو لمجرد إزالة الغشاوة من على عيوننا. فبعد كل شيء، يقدم هذا الكتاب نقدا للماركسية الغربية وفشلها في فهم أوضاع وحركات الشعوب السوداء في أفريقيا والشتات. فلم يقتصر روبنسون على كشف حدود المادية التاريخية كطريقة لفهم تجربة السود، ولكنه كشف أيضا أن جذور العنصرية الغربية تضرب في أعماق الحضارة الغربية من قبل بزوغ الرأسمالية. وهكذا فإنه قبل الانفجار الحالي في "دراسات البيض" بعدة سنوات كان روبنسون قد سبق ذلك بطرح فكرة أن راديكالية البروليتاريا واختراع "التحيز الأبيض" بدأت داخل أوروبا ذاتها، وذلك قبل زمن طويل من المواجهة الحديثة لأوروبا مع العمالة الأفريقية ورق العالم الجديد. وقد أعطت هذه الرؤى "عصور الظلام" معنى جديدا. فعلى الرغم من الاتجاه البديهي غالبا في المسيرة التاريخية الأوروبية نحو الحديث عن الطبقات العاملة الحديثة المبكرة من منظور قومي -إنجليزي، فرنسي، إلخ - يقول روبنسون إن "المراتب الدنيا" كانت تتكون غالبا من العمال المهاجرين من مناطق خارج الأمم التي كانوا يعملون فيها. حيث استقر هؤلاء العاملون المهاجرون في قاع الهرم السلالي. ومثلا، كان السلاف والأيرلنديون من بين أوائل "زنوج" أوروبا، وما يبدو أمامنا في التاريخ الأمريكي في القرن التاسع عشر على أنه كفاح من جانبهم لتحقيق "التحيز العنصري الأبيض" يمثل قمة جبل جليد تمتد بقيته بعمق عبر عدة قرون.[١]

ولا يقتصر روبنسون على أنه وجد العنصرية ضاربة بجذورها في أعماق الحضارة الأوروبية قبل الحديثة، بل إنه حدد موقع أصـــول الرأســـمالية هنـــاك أيضا. وبناء على أعمال عالم الاجتماع الراديكالي الأســـود أوليفـــر كرومويـــل كوكس، وجه روبنسون مراجعة نقدية للفكـــرة الماركـــسية المتمثلـــة فـــي أن الرأسمالية كانت نقيضا ثوريا للإقطاع.(٢) وبدلا من ذلك، يقـــول روبنـــسون إن الرأسمالية ظهرت داخل النظام الإقطاعي ونمت بطريقة متقطعة وغير منتظمة، وازدهرت في التربة الثقافية للغرب- خاصة في العنصرية التي أصبحت تميـــز المجتمع الأوروبي. وبعبارة أخرى، لم تنفصل الرأسمالية والعنصرية عن النظام القديم، ولكنهما تطورا منه لإنتاج نظام عالمي جديد "للرأسمالية العنصرية" التـــي تعتمد على الرق والعنف والإمبريالية والإبادة الجماعية. وهكـــذا لـــم يقتـــصر روبنسون على البداية من أوروبا، ولكنه انطلق بعيدا في العديد مـــن الـــدعاوى والتأكيدات الجوهرية في المسيرة التاريخية الأوروبية، خاصـــة فـــي الأشـــكال الليبرالية والماركسية. فمثلا، نجد أن مناقشة روبنسون للطبقة العاملة الأيرلنديـــة مكنته من كشف أسطورة البروليتاريا "العالمية": فكما أن الأيرلنديين كانوا بمثابة منتجات تقاليد شعبية تربت وترعرعت في ظل الاستعمار، تشكلت الطبقة العاملة "الإنجليزية" في الجزر البريطانية المستعمرة عبر شوفينية أنجلوساكسونية، وهي أيديولوجية عنصرية مشتركة عبر خطوط طبقية سمحت للبورجوازية الإنجليزية بتبرير خفض أجور الأيرلنديين وسوء معاملتهم. ولم يكن هذا الشكل الخاص من العنصرية الإنجليزية من اختراع الطبقة الحاكمة من أجل التقـــسيم والمواجهـــة (على الرغم من أنها نجحت في هذا الصدد): ولكنه كان موجودا منـــذ البدايـــة وكان يشكل عملية التحول البروليتاري وتكوين وعي الطبقة العاملـــة. وأخيـــرا،

وفي هذا النظام الإقطاعي الحي، ولدت الاشتراكية كإستراتيجية برجوازية بديلة لمواجهة التفاوت الاجتماعي. وأعلن روبنسون متحديا ماركس نفسه أن: "النقد الاشتراكي للمجتمع كان محاولة لزيادة الثورات البرجوازية ضد الإقطاع".[٣]

ومع ذلك، كان هناك سبب آخر لقيام روبنسون بالبداية من قلب الغرب. ففي هذا المكان – وليس في أفريقيا – ظهر تعبير "الزنوج" لأول مرة. ولم تكن هذه مهمة سهلة، كما يذكرنا روبنسون، لأن اختراع مفهوم "الزنوج" – وبالتالي اختراع "العنصرية البيضاء" وكل المتعلقات بالحدود السلالية التي جاءت معه – تطلب "تكاليف باهظة من الطاقات النفسية والفكرية في الغرب". وفي الواقع، بذلت مجموعة من الدارسين الغربيين طاقة هائلة في إعادة كتابة تاريخ العالم القديم. واستباقا لعمل مارتن برنال "أثينا السوداء: الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية"[*]، المجلد الأول (١٩٨٧)، وبناء على الدراسات الرائدة لكل من شيخ أنتا ديوب[**]، جورج جيمس، وفرانك سنودن، فند روبنسون جهود المفكرين الأوروبيين لإنكار علاقة الاعتماد المتبادل بين اليونان القديمة وشمال أفريقيا. حيث عمل هذا الجيل من الدارسين الأوروبيين "المستنيرين" بجد على طمس الإسهامات الفكرية والثقافية لمصر والنوبة من

(*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة (العدد ١٦) وقام بالترجمة كل من لطفي يحيي، وفاروق القاضي، وحسين الشيخ، ومنيرة كروان، وعبد الوهاب علوب. وحرر الكتاب وراجعه وقدم له أحمد عتمان. القاهرة ١٩٩٧. (المترجم)

(**) شيخ أنتا ديوب Cheikh Anta Diop 29 (ديسمبر ١٩٢٣– ٧ فبراير ١٩٨٦) مؤرخ، وأنثروبولوجي، وفيزياني وسياسي، درس أصول الجنس البشري والثقافة الأفريقية في فترة ما قبل الاستعمار. ولد في السنغال الخاضع للاحتلال الفرنسي، في أسرة إسلامية عريقة. أكمل تعليمه الأساسي في السنغال ثم سافر إلى باريس للحصول عل تعليم جامعي في كل من الفلسفة والرياضيات والكيمياء. تكريما له حملت جامعة داكار (السنغال) اسمه. أولى عناية خاصة بإرجاع أصول الحضارات الأوروبية إلى الأصل الأفريقي. (المترجم)

التاريخ الأوروبي، و"تبييض" الغرب من أجل الحفـاظ علـى نقـاء الـسلالة "الأوروبية". وكذلك جردوا كل أفريقيا من كل ملامح "الحـضارة"، باسـتخدام المواد المطبوعة لمسح التاريخ الأفريقي، وبالتالي اختزال القارة كلها وسلالتها إلى مجرد مجموعة حيوانات حمل أو وثنيين متوحشين. وعلى الرغم مـن أن جهود إعادة ربط الغرب القديم بشمال أفريقيا تعرضت مؤخرا لموجة جديـدة من الهجمات من جانب دارسين مثل ماري لفكوفيتش، أظهر روبنسون لمـاذا تعتبر هذه الصلات والجدل الدائر حولها أمرا بالغ الأهمية.(٤) وهـذه ليـست مسألة "تفوق" أو "سرقة" أفكار أو حتى موضوع إثبـات أن الأفارقـة كـانوا "متحضرين". ولكن هذا الكتاب يذكرنا ثانية اليوم، كما فعل منذ سـتة عـشر عاما، بأن استبعاد السود من البحر المتوسط يتعلق بتصوير أوروبـا ككيـان مستقل نقي سلاليا مسئولا بمفرده عن الحداثة، من ناحية، وتحجيم "الزنوج" من ناحية أخرى. وفي هذا الصدد، فإن تدخل روبنسون يوازي تدخل إدوارد سعيد في "الاستشراق"، الذي يقول إن دراسة أوروبا واهتمامها "بالشرق" كان يـدور أساسا حول بناء "الغرب".(٥)

ويقول روبنسون إنه في الوقت نفسه الذي كانت العمالة الأوروبية تطرد من الأرض وتساق إلى النظام الصناعي المـشكل حـديثا، كانـت العمالـة الأفريقية تسحب إلى فلك النظام العالمي من خـلال تجـارة الرقيـق عبـر الأطلنطي. فلم تتغلغل الحضارة الأوروبية ببـساطة فـي الثقافـة القرويـة الأفريقية، لا من خلال الإقطاع ولا من خلال النظـام الـصناعي الوليـد. وبعبارة أخرى، فإنه لكي نفهـم جدليـة المقاومـة الأفريقيـة للاسـترقاق والاستغلال، نحتاج إلى النظر خارج فلك الرأسمالية - فنحن نحتـاج إلـى

النظر إلى ثقافة غرب ووسط أفريقيا. ويلاحظ روبنسون أن: "ماركس لم يدرك أن شحنات الرقيق عبر الأطلنطي كانت تحوي أيضا ثقافات أفريقية، وتوليفات وخلطات غريبة من اللغات والفكر، والكونيات والغيبيات، والعادات والمعتقدات والأخلاقيات. وهذه هي المكونات الحقيقية لإنسانيتهم. أي إن هذه الشحنات لم تكن تتألف فقط من رجال ونساء وأطفال سود معزولين فكريا أو مجردين ثقافيا أو منفصلين عن عالمهم السابق. فقد أحضرت العمالة الأفريقية ماضيها معها، وهو الماضي الذي أنتجها ووضع فيها العناصر الأولى للوعي والإدراك".

ولذلك فإن الموجات الأولى من الثورات الأفريقية في العالم الجديد لم تكن محكومة بنقد المجتمع الغربي، ولكنها كانت محكومة بالرفض الكامل لتجربة الرق والعنصرية. ونظرا لأنهم كانوا أكثر حرصا على الحفاظ على الماضي منهم على تحويل المجتمع الغربي أو الإطاحة بالرأسمالية، فقد أسسوا مستوطنات الهاربين، وهربوا، وأصبحوا خارج المجتمع، وحاولوا أن يجدوا طريقا للعودة للديار، حتى إذا كان ذلك يعني فناءهم. ومع ذلك، فإنه مع ظهور الاستعمار الرسمي وإدماج عمالة السود في هيكل اجتماعي محكوم بدرجة أكبر، ظهر نقد مباشر للغرب والاستعمار- وانطلقت الثورة في تغيير العلاقات الاجتماعية وتثوير المجتمع الغربي، بدلا من إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية الأفريقية. وأنتجت تناقضات الاستعمار البرجوازية المحلية، الأكثر قربا من الحياة والفكر الأوروبي، والتي كانت مهمتها المحددة تتمثل في المساعدة على الحكم. ونظرا لأنهم كانوا مدربين على أن يكونوا شركاء صغارا في الدولة الاستعمارية، كان أعضاء هذه البرجوازية يعانون من

ممارسة العنصرية من الأوروبيين ومن الإحساس العميق بالاغتراب عن ثقافاتهم وحياتهم المحلية. وكان دورهم المتناقض كضحايا للسيطرة والأدوات العنصرية في الإمبراطورية، وكنخبة متعلمة غربية تشعر بالاغتراب داخل المجتمع المسيطر وبين الجماهير، يجبر بعض هؤلاء الرجال والنساء على الثورة، وهكذا ظهرت إلى الوجود طبقة المفكرين الراديكاليين السود. وليس مصادفة أن الكثيرين من هؤلاء الراديكاليين والدارسين ظهروا خلال الحرب العالمية الأولى، عندما تعرفوا على هشاشة الحضارة الغربية، والأزمة العالمية الثانية - أي الكساد الدولي وظهور الفاشية.

ويمثل ظهور المفكرين الراديكاليين السود محور اهتمام الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب. فمن خلال دراسة الحياة وبعض الأعمال المختارة الخاصة بكل من دو بويز، جيمس، وريتشارد رايت، كان اهتمام روبنسون بهؤلاء المفكرين الثلاثة يتخطى السيرة الذاتية الفكرية والنقد. حيث أخذنا في رحلة عبر قرنين من تاريخ الولايات المتحدة والأفارقة في الشتات لدراسة عمليات التحرر الثورية التي سحرت أعين هؤلاء الرجال. وأظهر كيف أن كلا من هذه الشخصيات ظهر عبر التدرب على الماركسية، وكان متأثرا بشدة بالأزمة في العالم الرأسمالي واستجابات حركات العمال والحركات المناهضة للاستعمار، وقدم في خضم الكساد والحرب كتبا مهمة تتحدى الماركسية وتحاول التشبث بالوعي التاريخي المتجسد في "التراث الراديكالي للسود". وقد راجع كل من دو بويز، وجيمس، ورايت مواقفهم من الماركسية الغربية أو انفصلوا عنها تماما واعتنقوا راديكالية السود بدرجات متفاوتة. وكانت الطريقة التي وصلوا بها إلى "التراث الراديكالي للسود" أقرب إلى

عملية التعرف منها إلى الاختراع؛ فهم لم يضعوا نظرية راديكالية السود، ولكنهم وجدوها، من خلال عملهم ودراستهم، في الحركات الشعبية للشعوب السوداء.(٦)

وأخيرا، أكملت قراءتي الأولى للكتاب بعد أن أخذته إلى منزلي بشهرين. واستغرقني الكتاب كثيرا لدرجة أنني عانيت أزمة ثقة. فلم أكتب المراجعة- وهكذا ساهمت بدون قصد في التآمر بالصمت الذي أحاط بهذا الكتاب منذ نشره. وبدلا من ذلك، اتصلت بالأستاذ روبنسون ورجوته حقا أن يقبلني طالبا عنده. فوافق على ذلك، ولعب دورا كبيرا في تشكيل أطروحتي للدكتوراه (التي تصادف أن نشرتها مطبعة جامعة نورث كارولينا منذ عقد بعنوان: "المطرقة والسندان: شيوعيو ألاباما خلال الكساد العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين) كما ساعدني في كل أعمالي بعد ذلك.

وعلى الرغم من أن الكتاب أرعبني حتى الموت، فإن سدريك المعلم كان متواضعا وصريحا وبسيطا وكريما بوقته وجهده بصورة ملحوظة. وباعتباره قارئا متلهفا، فإني أعتبره من أعظم وأطرف الشخصيات التي يمكن أن يقابلها المرء في هذه المهنة - حيث يظهر إحساسه المرهف بالفكاهة حتى في أصعب فقرات هذه الكتاب. وما يدهشني أيضا أن الأستاذ روبنسون كان لا يزال في الثلاثينيات عندما نشر هذا الكتاب، وهو كتاب كان يمكن أن يلزم حتى دو بويز العظيم إلى الجلوس والاستماع.

ومثل دو بويز والشخصيات الأخرى في هذا الكتاب، فإن عمل روبنسون السياسي على تحرر السود دفعه إلى المكتبة بحثا عن "التراث الراديكالي للسود". وقد خرجت أفكاره مباشرة من الحركات الاجتماعية التي

شارك فيها، ومن أشكال الكفاح الاجتماعي والسياسي التي صارت تميز عصرنا. فمثلا، عندما كان روبنسون طالبا بجامعة كاليفورنيا في بيركلي خلال منتصف الستينيات، كان نشطا في "الجمعية الأفروأمريكية"، وهي جماعة طلابية قومية راديكالية مقرها في منطقة الخليج الشرقي من كاليفورنيا بقيادة دونالد واردن. حيث تأسست هذه الجمعية في ١٩٦٢، وأصبحت الأساس لدور كاليفورنيا في "حركة العمل الثوري" (RAM)؛ والتي ذهب بعض أعضائها، ومنهم هوي نيوتن، إلى تأسيس "حزب الفهد الأسود The Black Panther".

واستمدت هذه المجموعة الصغيرة المناضلة المكونة من المفكرين السود في منطقة الخليج الشرقي الكثير من أفكارها من مالكوم إكس وغيره من القوميين السود، وكانوا متأثرين جدا بالثورات في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وعلى الرغم من أنهم وجهوا اهتمامهم إلى المشاكل المحلية مثل الفقر الحضري والعنصرية والتعليم ووحشية الشرطة وكفاح الطلاب السود، فإنهم فهموا أوضاع الأمريكيين الأفارقة من خلال تحليل الرأسمالية العالمية والإمبريالية وتحرر العالم الثالث.[٧]

ويصعب ألا نرى العلاقات بين هذا الكتاب وتجارب روبنسون التكوينية في الجمعية الأفروأمريكية. وكان من بين الوثائق المهمة المتداولة داخل هذه المجموعة مقال هارولد كروز في ١٩٦٢ "القومية الثورية والأمريكيون الأفارقة"، الذي يقول إن الشعب الأسود في الولايات المتحدة كان يعيش في ظل استعمار محلي، وإن كفاحه يجب أن يعتبر جزءا من الحركة العالمية المناهضة للاستعمار. وكتب أن: "فشل الماركسيين الأمريكيين في فهم العلاقة

بين الزنوج والشعوب المستعمرة في العالم أدى إلى فشلهم في وضع نظريات يمكن أن تكون ذات قيمة للزنوج في الولايات المتحدة". وهكذا عكس كروز القول التقليدي بأن نجاح الاشتراكية في الغرب المتطور ضروري لتحرير الرعايا الخاضعين للاستعمار وتطور الاشتراكية في العالم الثالث. فبدلا من ذلك، كان يرى أن المستعمرات السابقة تمثل طليعة الثورة الاشتراكية الجديدة، وكانت كوبا والصين في المقدمة، "انتقلت المبادرة الثورية إلى عالم المستعمرات، وتنتقل في الولايات المتحدة إلى الزنوج، بينما الماركسيون الغربيون ينظرون ويماطلون ويتجادلون".(٨)

وتولى روبنسون مراجعة أعمال كروز نقديا مقدما نظريات جديدة للثورة حين تفشل الماركسية، ولكنه تخطى مواقف كروز. ففي الواقع، توصل روبنسون إلى استنتاج أنه لا يكفي إعادة تشكيل أو إعادة صياغة الماركسية لتناسب متطلبات ثورة العالم الثالث، ولكنه كان يعتقد أنه يجب رفض كل النظريات العالمية في النظام السياسي والاجتماعي. وفي الواقع، فإن كتاب روبنسون الأول "شروط النظام: العلوم السياسية وأسطورة القيادة" انتقد الافتراض الغربي- الكامن أيضا في الماركسية كما في النظرية الديمقراطية الليبرالية- بأن الحركات الشعبية تعكس النظام الاجتماعي، وتعمل سلطة القيادة على بقائها وتسويغها".(٩)

وكان الوضع السياسي الدولي المضطرب في الوقت الذي كان روبنسون يكمل فيه هذا الكتاب كافيا لاستبعاد أسطورة النظام. وعلى أي حال، فقد كان هذا العقد الأخير من الحرب الباردة، أي حقبة ريجان وتاتشر والحروب الإمبريالية الجديدة في كل من الشرق الأوسط، جرينادا، وجزر

فوكلاند. ومع ذلك، كانت أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات عصرا جديدا للثورة. حيث واجهت الدكتاتوريات في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تحدي الحركات الراديكالية من السلفادور إلى زائير ومن نيكاراجوا إلى جنوب أفريقيا. وكان العنف السياسي والتعذيب والاغتيالات منتشرا في أوائل الثمانينيات؛ وشملت الخسائر المؤرخ الجوياني الكبير والتر رودني Walter Rodney، وكان لا بد أن يضعها المفكر روبنسون في مكانها المناسب داخل "التراث الراديكالي للسود". ويجب ألا ننسى أنه في ظل حكم ريجان اجتاحت الولايات المتحدة جزيرة جرينادا في ١٩٨٣، وذلك تحديدا لأنها مرت بثورتها الاشتراكية الخاصة قبل ذلك بأربع سنوات. وقريبا من الديار، فإن تراجع التصنيع، وهروب المؤسسات الأمريكية إلى الأراضي الأجنبية، وتحرك ملايين من العمال عبر البلاد، أدى إلى المزيد من الاضطراب في المراكز الحضرية لرأس المال العالمي. وأصبحت البطالة الدائمة وانخفاض التشغيل والتشرد طريقة حياة. وبالرغم من تزايد وجود الأمريكيين الأفارقة في المناصب السياسية، تراجعت خدمات المدن، وتراجع الإنفاق الاتحادي على المدن، وتعرضت برامج العمل الإيجابية للهجوم. وكانت العنصرية في تصاعد أيضا، مما أدى إلى اضطرابات حضرية من مدينة ليبرتي سيتي في فلوريدا إلى الضواحي الإنجليزية (والسوداء غالبا) في بريستول وبريكستون. وفي الولايات المتحدة، تضاعفت عضوية الجمعية العنصرية "كو كلاكس كلان" ثلاث مرات، وشنت حملة إرهاب وتخويف ضد الأمريكيين الأفارقة. ففي المسيسبي في ١٩٨٠، وليس في ١٨٩٠، قتل اثنا عشر أمريكيا أفريقيا على الأقل خارج القانون، وحدثت على الأقل ٤٠ جريمة قتل بدوافع عنصرية في مدن مختلفة مثل بافلو، نيويورك، وأتلانتا، وجورجيا، وموبايل،

وإلباما. وشهدت هذه الحقبة في الحقيقة قيام الشرطة بالقتل، وظهرت الأعمال الوحشية والشروع في القتل كقضايا سياسية جوهرية بين السود على جانبي الأطلنطي. وبصفة عامة، فقد بشرت سنوات ريجان وتاتشر بحقبة جديدة من ثروة المؤسسات والاستبعاد الفج للفقراء والشعوب الملونة.

ومع ذلك، لم يمر الجنوح نحو اليمين بلا مقاومة وانتقاد. فقد ظهر هذا الكتاب خلال فترة حرجة في التنظيم السياسي، وذلك بعد سنوات قليلة من تأسيس الجبهة القومية المتحدة للسود (NBUF)، وحزب الاستقلال السياسي القومي للسود (NBIPP). وكانت قومية السود في صعود في هذه الفترة، وذلك بعد عقد تحول فيه عدد متزايد من الراديكاليين السود إلى الماركسية اللينينية والماوية كبدائل للتكاملية الليبرالية ورأسمالية "السلالة أولا". وخلال سبعينيات القرن العشرين، شغل الراديكاليون السود وظائف في المصانع للوصول إلى الطبقات العاملة، وحاولوا تحرير السجناء السياسيين وبناء حركات للسجناء، وتكريس طاقاتهم لبناء أفريقيا اشتراكية، وواصلوا الطريق الطويل للتنظيم على مستوى المجتمع. وفي تلك الأثناء، كانت النزعة الأفريقية والقومية الثقافية تأسر خيال أجزاء مختلفة من مجتمع السود عبر الخطوط الطبقية. وازدهرت مدارس السود المستقلة، وكانت الأقمشة الحمراء والسوداء والخضراء تزين الأجساد البنية؛ ووجد الأدب الأفريقي سوقه أخيرا. ومن ناحية أخرى، كان هناك سبب للتشاؤم. فبحلول ثمانينيات القرن العشرين، اختفت الوظائف، وكانت الأمم الأفريقية الأكثر تقدمية غير مستقرة، وكان نزلاء السجون السود يتزايدون بأعداد كبيرة بسبب سياسات العقوبات الإجبارية على حيازة الكوكايين.

وهكذا وقفت أنا والراديكاليون الشباب الآخرون في مفترق طرق سياسية وثقافية، مستعدين للعمل، ولكننا غير واثقين من اتجاه العالم. وكنا نحتاج إلى تحليل للحركات الاجتماعية التي حققت اختلافا. وكنا نريد أن نعرف كيف بنينا مجتمعات وحافظنا على أنفسنا في خضم الرق والزنوج. وكنا نحتاج إلى معرفة الصديق من العدو، في الحاضر والماضي. وكنا نحتاج إلى تواريخ جديدة راغبة في تبني منظور أكثر عالمية. واختصارا، كنا نحتاج إلى فهم أكثر وضوحا وراديكالية للماضي، لرسم الطريق في المستقبل. وكان الكتاب الذي بين أيدينا أحد الكتب العديدة التي كتبها المفكرون الراديكاليون السود في أواخر سبعينيات وأوائل ثمانينيات القرن العشرين لمواجهة هذه التحديات. وكان من بين هذه الكتب أيضا:

- Chinweizu, "The West and the Rest of Us" (1975),

- Angela David, "Women, Race, and Class" (1981),

- Vincent Harding, "There Is a River", (1983),

- V. P. Franklin, "Black Self-Determination", (1984),

- Manning Marable, "Blackwater", (1981) and "How Capitalism Underdeveloped Black America (1982),

- Cornel West, "Prophesy Deliverance", (1982).

وبالنسبة للشعوب السوداء ذات الميول الراديكالية، كان هؤلاء المفكرون بمثابة الأنبياء الجدد في ذلك العصر، ويبدو كما لو كان كل شعب قد احتفظ بهذه الأعمال المميزة غير المترابطة قريبا منه. وبالنسبة لبقية العالم، نادرا ما كانت تظهر هذه الكتب. ومع استثناءات قليلة، كانت تتعرض للتجاهل مبدئيا في خضم

التيار العام، وكانت المبيعات أقل من التوقعات. وحتى الكتب التي نشرتها دور نشر تجارية - مثل نقد شنوايتسو اللاذع والبارع للإمبريالية الغربية وتحالفها مع البورجوازية الأفريقية - كانت تتلقى مراجعات قليلة جدا.(١٠)

وكذلك فإن هذا الكتاب بصفة خاصة لم يحظ بمراجعات كبيرة ولا بإشارات كثيرة في المنشورات الدراسية. فالمراجعات القليلة التي حظي بها كانت من المنشورات ذات الميول اليسارية أو المجلات المتخصصة جدا، وكانت مقالات المراجعات الجوهرية الوحيدة التي تناولت هذا الكتاب باستفاضة قد كتبها كورنيل ويست والفيلسوف الراديكالي الأسود ليونارد هاريس، حيث نشرا بعد عدة سنوات من ظهور الكتاب.(١١) وكان ويست - الذي كان مقاله نقديا جدا ومحترما جدا في "المجلة الشهرية" الاشتراكية، ويمثل جهدا خاصا لتجديد الاهتمام بهذا الكتاب - يرى أن الكتاب "سقط في الشقوق" وذلك بسبب حالة اليسار الأكاديمي أساسا، والذي تشتت في "الخطابات المشحونة بالرطانة، والتي لا تحظى فيها السلالة بالاهتمام"، ويسار السود الذي كان ضعيفا جدا وغير منظم وغير قادر على تقديم ومتابعة "التبادل النقدي رفيع المستوى".(١٢)

ومهما كانت أسباب الصمت الذي أحاط بهذا الكتاب، فقد كانت النتائج سيئة. إذ إن المتخصصين في الدراسات الأوروبية- الذين تحدى روبنسون دراساتهم التاريخية - لم يستجيبوا أبدا على حد علمي لانتقاداته. وحتى الجيل الجديد من الدارسين الذين يدرسون السلالات وحركات السود، لم يهتموا كثيرا برؤى روبنسون. وشهدت التسعينيات انتشار الدراسات حول راديكالية السود، والشتات الأفريقي، وأصول العنصرية الغربية، وكتابات دو بويز

وجيمس ورايت، ومع ذلك لا يشير الكثير من هذه الدراسات إلى عمل روبنسون. ومن الأمثلة المحيرة كتاب وينستون جيمس:

- **Winston James, "Holding Aloft the Banner of Ethiopia: Caribbean Radicalism in Early Twentieth Century America (1980).**

فبينما يعتبر كتاب روبنسون أوسع من حيث المدى الزمني والنطاق من كتاب جيمس، حيث غطى كتاب روبنسون نفس الخلفية التي يغطيها جيمس، وتناقش الوجود الكاريبي الطاغي في الحركات الراديكالية للسود في الولايات المتحدة، وتدرس مجموعات مثل "أخوة الدم الأفريقي" و"جمعية تطوير الزنوج العالمية"، والمفكرين مثل هوبيرت هاريسون وكريل بريجس. وفي بعض الجوانب، كانت حجج روبنسون تسبق بعض ادعاءات جيمس؛ وفي جوانب أخرى، كان الاثنان يتعارضان. وعلى الرغم من ضخامة ودقة إعداد كتاب جيمس (أكثر من ٤٠٠ صفحة) فإنه لم يذكر روبنسون ولم يستشهد به.[١٣]

وكان كتاب بول جيلروي الذي حظي بالكثير من الإشادة "الأطلنطي الأسود: الحداثة والوعي المزدوج" (١٩٩٣) يتجاهل كتاب روبنسون بصورة مدهشة أيضا. فبينما يعترف جيلروي بروبنسون على الأقل في نصه،[١٤] إلا أن قلة تناوله أو حواره المكثف مع عمل روبنسون يعتبر أمرا مثيرا، لأنهما استكشفا نفس الأرضية. وأنا أعتقد أنه من الحري القول إن أجزاء من عمل روبنسون سبقت حجج جيلروي، لأن روبنسون أكد أهمية الشعوب الأفريقية في تكوين العالم الحديث وقبل الحديث. وقد مهد الطريق في بعض الجوانب أمام فكرة جيلروي عن ثقافة الأطلنطي السوداء "كثقافة مناهضة للحداثة". حيث كتب روبنسون "شكل الرقيق المتمردون – الذين حركهم الوعي العالمي

المستمد من التقاليد الأفريقية، وتحويل تجربتهم الأمريكية إلى فن متمرد - واحدا من الأسس الاجتماعية المهمة في التناقض مع المجتمع البرجوازي". وواصل روبنسون التراث المبكر لدراسات الشتات، ولكنه طور أيضا مفهوم البحر المتوسط الأسود كشرط مسبق لوجود الأطلنطي الأسود وتكوين أوروبا ذاتها. وبالنسبة لتركيز جيلروي على الوعي المزدوج والاختلاط الثقافي للمفكرين السود في العالم الجديد، مثل رايت ودو بويز، يعتبر هذا الاعتراف جوهريا بالنسبة لرؤية روبنسون حول البرجوازية الصغيرة الراديكالية. وفي الواقع، وبناء على كتابات أميلكار كابرال والتأملات المختلفة لكل من جيمس، وإيمي سيزار، وغيرهما، أظهر روبنسون أن استيعاب السود للحضارة الغربية وحياتهم الثقافية المختلطة كان أمرا مهما لتحولهم الراديكالي. فعند مواجهة حدود الديمقراطية في ظل الرأسمالية العنصرية والاستعمار، ومع اضطرابات جماهير السود التي كان وصولها إلى الثقافة الأوروبية محدودا، كانت البرجوازية الصغيرة للسود مضطرة لاختيار أحد الجانبين. ويقول روبنسون إن التخلي عن الغرب لم يكن خيارا، ولكن انتقاده وتحديه كان يمثل خيارا واقعيا.

وعلى الرغم من أن كلا من روبنسون وجيلروي كانا يتناولان نفس المسائل، فإن كلا منهما كانت له أجندة مختلفة. فقد كان موقف جيلروي، والذي يمثل أحد أهم تدخلاته النقدية، يتمثل في إظهار الحدود التحليلية للقومية الثقافية والعرقية المطلقة. وأظهر أن الشعوب السوداء عبارة عن منتجات العالم الحديث، مع تراث تاريخي فريد كامن في الرق؛ فالسود عبارة عن شعوب مختلطة تشترك في التراث الغربي مثل سادة الرقيق السابقين.

ومن ناحية أخرى، يتبنى روبنسون نفس الشرط الوجودي، ولكنه توصل إلى نتائج مختلفة: الرق "لم" يحدد وضع السود لأننا كنا أفارقة أولا، وكان لـــدينا رؤى عالمية وتصورات فلسفية عن الحياة والموت والملكية والمجتمع وكــل ما هو كامن في ذلك التراث الأفريقي. ويتضمن موقف روبنسون أنه بمجرد أن نفهم كيف نعرف أنفسنا من خلال هذه الهوية الجماعية، فربما نستطيع أن نفهم استمرار القومية والأشكال المختلفة للوعي السلالي (الذي لم يدخل أبـــدا تحت العنوان المحدود "للقومية"). وكان هذا الكتاب أقل اهتماما بما إذا كانت هذه الأشكال الجماعية من الكفاح والوعي "جوهرية". وبدلا من ذلـــك، كـــان روبنسون يريد أن يعرف من أين جاءت ولماذا تستمر. وكذلك، كان يحـــاول أن يكتشف كيف أن هذه الحركات الجماهيرية شكلت تفكير وأفعال الطبقـــات الوسطى للسود، وهي المستقبل المباشر "للحضارة" الغربية.

ويعني كل هذا القول إن جيلروي وروبنسون كانا يدرسان نفس القضايا في الواقع، ولكن كلا منهما كان يقدم رؤاه العبقرية وتساؤلاته العميقة لتاريخ أوروبا والشتات الأفريقي. وأنا لا أرى مطلقا أن أحدهما كان على صـــواب والآخر على خطأ، أو أن أي عمل يتجاهل تدخلات روبنسون يجب استبعاده. وبدلا من ذلك، يتمثل موقفي في أن فرصة الحوار قد ضاعت. إذ إن اختفاء كتاب قوي ومثير مثل هذا الكتاب من مشهد الدراسات الثقافيـــة والـــسياسية للسود – فضلا عن الكتابات الكثيرة عـــن ظهـــور الغـــرب، الرأســـمالية، الإمبريالية، الاستعمار، القومية، عبور القوميات، دراسات الشتات، السلالات، العمالة، والتاريخ الفكري – كان يمثل مأساة حقيقية.

وبفضل مطبعة جامعة كارولينا الشمالية، يجب أن يثبت أن هذه المأساة مؤقتة. فمثل موسيقى تيلونيوس مونك، سيظل هذا الكتاب جديدا وثريا كما كان عندما ظهر لأول مرة، لأنه لا يزال يتناول بصورة مثمرة القضايا الجوهرية التي تطرحها تواريخ الشتات الأفريقي. فمثلا، يحاول الكتاب أن يتناول الموضوع المهم المتعلق بكيف أعادت شعوب السود إنتاج ثقافة "أفريقية" في العالم الجديد على نطاق واسع. حيث طُرح هذا السؤال القديم بصورة مثيرة لأول مرة من جانب دارسين مثل ميلفي هيرسكوفيتس ولورنزو تورنر،(١٥) ولكنه عاد بصورة قوية في الأعمال الحديثة لكل من ميشيل مولين، جوندولين ميدلو هول، كارولين فيك، مارجريت واشنطون، ميشيل جوميز، وجواو رايس. وعلى الرغم من تركيز هذه الدراسات الحديثة على توثيق وتأكيد التنوع "العرقي" الأفريقي، فإنها تدعم نظرية روبنسون في أن المقاومة الأفريقية لرق العالم الجديد تشكلت أساسا بتأثير أصول الرقيق في أفريقيا الغربية والوسطى.(١٦) وكذلك، تناول الكتاب ما كان يمثل آنذاك الدراسات المتاحة عن ثورة هاييتي و"ثورة المسلمين Male Uprising " في باهيا في البرازيل، حيث سبق بعض الحوارات التي قدمها المؤلفون المذكورون سلفا. فمثلا، قال روبنسون مثل كارولين فيك لاحقا إن مؤرخي هاييتي يحتاجون إلى المزيد من الاهتمام بدور الهاربين. وفي الواقع، فقد انتقد روبنسون كتاب جيمس "اليعاقبة السود" لعدم اهتمامه بالاضطرابات الجماهيرية بشكل كاف.

ومع ذلك، وبينما كانت نظرية روبنسون تجد تأكيدا لها في الكثير من هذه الأعمال الجديدة، فإن الأسلوب الذي يعرض به موقفه يؤدي إلى إثارة انتقادات من الدارسين الذين يقاومون فكرة الثقافة أو الثقافات الأفريقية

"الأصيلة". ففي عصرنا الراهن الذي يتسم بمناهضة شديدة للفلسفة الجوهرية (الماهوية)، يطرح الفصل السابع المثير للجدل - "طبيعة التـراث الراديكـالي للسود" - ملاحظة متناقضة. إذ إن فكرة أن كل الأفارقة يشتركون فـي فهـم معين للعالم ومكانهم فيه، وأن هذا الفهم المشترك شكل فعلا كل المواجهات بين شعوب السود وسادتهم الأوروبيين، ستبدو حتما لبعض القراء نوعا من الخيال القومي. ولكن القراء الواعين يعرفون أن مقولة روبنـسون عميقـة تاريخيـا وتؤيدها الأدلة بقوة. فهو لا يدعي أن الأفارقة يمتلكون نوعا ما مـن الوجـود الثابت، لأن خصائص التراث الراديكالي للسود أكثر وضوحا لـدى الأفارقـة الأقل استيعابا في هوية مشتركة للعالم الجديد، كما يقـول. وكـذلك، يتحـدث روبنسون بصفة عامة عن الأفكار العامة ونظم المعتقدات - أي طرق الرؤية، طرق العبادة. فهناك القليلون الذين يبدون اهتماما عندما يواجهون أفكارا عامة مماثلة مثل "الفكر الغربي"، "الحضارة الغربية" و"الفلسفة الغربية".

ومع ذلك، لا تتمثل أهم فائدة لعودة ظهور هذا الكتاب في تأكيده علـى الدراسات الحديثة وتحديها نقديا، ولكنها تتمثل في قدرته على توجيه الدارسين إلى اتجاهات جديدة وتشجيعهم على الانطلاق من حيث انتهى روبنسون. فقد فتح طرقا كثيرة يجب أن نسير عليها، وهي طرق يمكن أن تقربنا من فهـم وحتى تنفيذ الأجندات الحقيقية التي كانت في ذهن روبنسون: أي التحـرر. فمثلا، كيف شكل النوع الاجتماعي والجنس ثورة السود؟ وكيـف يمكـن أن نفسر حقيقة أن نساء السود كن يتمتعن بقوى روحية عظيمة، أو أن الرجـال السود كانت لديهم فرص أكبر للسفر؟ ومن الذي يستحق مكانا فـي محفـل المفكرين الراديكاليين السود، ومن الذي سيروي قصصهم؟ وكيـف يتحـدى

الإطار النظري لدى روبنسون السرديات المألوفة عن راديكالية السود بعد ١٩٦٠؟ وماذا نفعل بالراديكاليين الذين ليسوا من البيض ولا من السود، والمناضلين مثل يوري كوشياما من هارلم، أو جريس لي بوجس من ديترويت، أو الكثيرين القادمين من جنوب آسيا إلى إنجلترا وغيرها، والذين يدلون بدلوهم في التراث الراديكالي للسود؟ وهل هناك مسارات أخرى بالإضافة إلى الماركسية وضعت المفكرين الراديكاليين السود وجها لوجه مع التراث الثوري للسود؟[١٧]

دعونا نتناول باختصار السؤال الأخير. فعندما نتناول حياة وأعمال المفكرين الراديكاليين السود مثل إيمي سيزار، سوزان سيزار، ويفريدو لام، إيتين ليرو، جاني مورتس، سيمون وبيير يويوتي، رينيه ديبستر، رينيه مينيل، وحتى ريتشارد رايت، فإنني أعتقد أنه يمكن القول إن السوريالية كانت بمثابة معبر بين الماركسية والتراث الراديكالي للسود. فكل هؤلاء المفكرين إما أنهم كانوا نشطين في الحركة السوريالية أو عبروا عن اهتمامهم بشكل سوريالي. إذ كانت حركة ثورية يمكن إرجاع أصولها الرسمية إلى باريس بعد الحرب العالمية الأولى، واعتمدت على ماركس وفرويد بينما ظلت تنتقد الماركسية. فما السوريالية؟ تقدم مجموعة شيكاغو السوريالية أحد التعريفات البليغة:

"السوريالية عبارة عن الشعور بالحرية، الثورة، الخيال، والحب.... وهي حركة ثورية قبل كل شيء. حيث يتمثل هدفها الرئيس في التقليل بل والحد الكامل من التناقض بين الحياة اليومية وأحلامنا الجريئة.... حيث تبدأ بإلغاء الرق المتخيل، وتتقدم إلى تكوين مجتمع حر يكون فيه كل فرد شاعرا – وهو مجتمع سيكون كل فرد فيه قادرا على تطوير إمكاناته بحرية كاملة".[١٨]

وعلى الرغم من أن الحركة السوريالية كانت بقيادة كتاب وفنانين أوروبيين، مثل أندريه بريتون، بول إيلوارد، وبنيامين بيريه، يمكن أن يرى المرء في تصريحاتهم لماذا جذبت السوريالية البرجوازية الصغيرة الراديكالية للسود. إذ كان السورياليون ينادون صراحة بالإطاحة بالثقافة البورجوازية، وارتبطوا بالحركات المناهضة للاستعمار في أفريقيا وآسيا، وتحولوا إلى الثقافات غير الأوروبية كمصدر للأفكار والإلهام في نقدهم للحضارة الغربية. وفي ١٩٢٥، أكدت مجموعة باريس السوريالية بمصطلحات مؤكدة: "إننا نأمل تماما أن تدمر الثورات والحروب والتمردات الاستعمارية هذه الحضارة الغربية التي تدافعون عن سلبياتها حتى في الشرق". وبعد ذلك بسبع سنوات، وفي خضم الأزمة الاقتصادية وانتشار الفاشية، أصدرت المجموعة وثيقة بعنوان "الإنسانية القاتلة" (١٩٣٢) وتتألف الوثيقة من هجوم شرس على الاستعمار والرأسمالية والكهنوت والليبراليين المهرطقين، وحتى على برجوازية السود. وأعلنوا الحرب قائلين: "نعلن نحن السورياليون أننا في جانب تحويل الحرب الإمبريالية، من شكلها المزمن والاستعماري، إلى حرب أهلية. وهكذا فقد وضعنا طاقاتنا تحت تصرف ثورة البروليتاريا وكفاحها، وحددنا موقفنا تجاه المشكلة الاستعمارية، ومن ثم تجاه مسألة اللون".(١٩)

وبالنسبة للمفكرين والنشطاء السود، كان عدم رضاهم عن الواقعية الاشتراكية يتعلق بقمع العناصر الرئيسة في ثقافة السود والتي احتضنتها السوريالية: اللاوعي، الروح، الرغبة، السحر، والحب. ومن المثير للسخرية أن عدم لحاق معظم الراديكاليين السود بمسيرة السوريالية كان يتعلق بتشابهها مع المحور الثوري الذي كان يعتبر موجودا دائما في حياة الأفارقة وشتات

السود. وحسب تعبير سدريك روبنسون، لم تكن السوريالية الطريق إلى اختراع نظرية لراديكالية السود، ولكنها ربما كانت طريقا إلى الاعتراف بها.

ويقول الرسام ذو الأصل المختلط (الكوبي الصيني الأفريقي) ويفريدو لام Wifredo Lam إنه كان مشدودا إلى السوريالية لأنه كان يعرف سلفا قوة فاقد الوعي الذي ترعرع في عالم الروح المتأفرقة في طقوس ديانة السانتيرياSanteria. ويصر إيمي سيزار على أن السوريالية أعادته ثانية إلى الثقافة الأفريقية. حيث فسر ذلك في مقابلة في ١٩٦٧: "زودتني السوريالية بما كنت هائما في البحث عنه. ولذلك قبلتها بسعادة لأنني وجدت فيها تأكيدا يتجاوز ما يتركه الوحي في النفس". وساعدته السوريالية أيضا على التوصل إلى قوى غير واعية قوية: "وكان هذا بالنسبة لي بمثابة دعوة إلى أفريقيا. فقلت لنفسي: صحيح أننا فرنسيون مصطنعون، فنحن نحمل آثار التقاليد الفرنسية؛ وقد تأثرنا بالفلسفة الديكارتية، وبالفصاحة الفرنسية، ولكن إذا تخلينا عن كل هذا، وإذا خضنا في الأعماق، فإن ما سنجده سيكون أسود أساسا". وكذلك، فإن ريتشارد رايت - الذي بدأ دراسة الكتابات السوريالية في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، ناقش تأثيرها على تفكيره في مقاله غير المنشور بعنوان: "ذكريات جدتي". حيث ادعى أن السوريالية ساعدته على توضيح "غموض" جدته، وبالتالي طبيعة وقوة ثقافة الشعب الأمريكي الأفريقي. واكتسب تقديرا جديدا للأشكال الغيبية والثقافية التي لا تتبع منطق العقلانية الغربية.[٢٠] وكان الفنان شيخ تيدياني سيلا أكثر صراحة بشأن كيفية كشف السوريالية عما كان مألوفا سلفا في الثقافة الأفريقية. حيث كتب: "في ثقافة القبيلة الأفريقية ذات التوزان البيئي، تتجسد الروح السوريالية عميقا

في التراث الاجتماعي. حيث يفترض "الغموض" السائد في كل الفلسفة الأفريقية للسود وجود عالم نفسي مشحون للغاية، يوافق فيه كل فرد على أن ينسى نفسه لكي يركز على تأثير الأمثلة الأقل وضوحا على حركة العقل، وهذه تجربة تحررية دقيقة". ويؤكد أيضا أنه في أفريقيا كانت ممارسة الشعر تمثل طريقة حياة دائما، بينما في الغرب كانت السوريالية ناتجة عن كفاح فلسفي وسياسي طويل "لاسترداد ما لم يفقده الأفريقي التقليدي أبدا".(٢١)

وفي جوانب عديدة، كانت تأكيدات سيلا وغيره من السورياليين السود تتردد بقوة مع وصف روبنسون لطبيعة التراث الراديكالي للسود. فبالنسبة للأفارقة الذين اعتبرهم روبنسون رواد هذا التراث في العالم الجديد، كان يصر على أن تركيز اهتمام ثورتهم "كان [دائما] على مكونات العقل. إذ إن معارفه منحت السمو للغيبيات وليس للماديات". (١٦٩) وهكذا يمكن أن يستخلص المرء بسهولة من هذا الكتاب أن السوريالية ربما كانت - على الأقل بالنسبة للبعض - الحلقة المفقودة التي وضعت المفكرين السود (خاصة في العالم الفرانكفوني) في مواجهة التراث الراديكالي للسود. ومن المؤكد أن العلاقة بين السوريالية وراديكالية السود تستحق مزيدا من الاستكشاف.

وبالطبع، هناك حلقات أخرى مفقودة وطرق لم تُسلك بعد يمكن أن تُلقي ضوءًا أكبر على تاريخ ومعنى الحراك الثوري للسود. وبالتحديد، فإنه نظرا لأن روبنسون كتب هذا الكتاب الطموح والجريء والمثير، كان لا بد أن يثير قدرا لا ينتهي من الأسئلة والتحديات. حيث يعتبر هذا الكتاب مهما ومناسبا سياسيا الآن كما كان منذ سبعة عشر عاما. فالأزمات التي ظهرت في أوائل الثمانينيات لم تتراجع. وقد دخلنا الألفية الجديدة بعدد أقل من الوظائف الجيدة

الأجر، وبحماية أقل لحقوق الشعوب المقهورة، وبرعاية صحية أضعف، وبمزيد من السجون، وبمزيد من تضخم ثروات زمرة الأغنياء، والمزيد من ردود الفعل العنصرية العنيفة، والمزيد من البؤس. وفي هذه الحالات، فإننا ننهي القرن العشرين حيثما أنهينا القرن السابق تقريبا. فهنا، في التسعينيات، تدعي ما تسمى بالدوائر الفكرية الشرعية صراحة وجود علاقة بين السلالة والذكاء؛ ويقترح بعضهم بلهجة جادة العودة إلى الاستعمار الرسمي كطريقة لحل المشاكل الأفريقية؛ وتستمر الولايات المتحدة في شن حروب إمبريالية؛ ولا تزال مشكلة حاجز اللون كما رآها دو بويز في مطلع القرن العشرين قائمة كما هي في مطلع القرن الحادي والعشرين.

ومع ذلك، وفي خضم الأزمة والهزيمة، شهدنا خلال منتصف وأواخر تسعينيات القرن العشرين أكثر من مليون رجل وامرأة وصغير وكبير من السود يرغبون في الزحف إلى واشنطون أو عبر هارلم باسم التعويض والحرية وحق تقرير المصير، وحتى الثورة. وفي يونيو ١٩٩٨، تجمع عدة آلاف منا في شيكاغو لعقد المؤتمر الراديكالي للسود. وكان الناس المشدودون إلى هذه الحركات يبحثون عن الاتجاه، ويحاولون تحديد توجهاتهم في عالم أصبحت فيه المعاناة الوجودية للسود تمثل أزمة داخلية نفسية وروحية وأيديولوجية، كما أنها أزمة بالنسبة للعالم المادي. ونحن نتناول هذه التوترات باستمرار - مثل الهيكل البنيوي مقابل الثقافة، الروحانيات مقابل الماديات. وقد استكشف سدريك روبنسون هذه التوترات في كتابه الذي بين أيدينا. وهذا هو السبب في أن الحركة الراديكالية للسود تحتاج هذا الكتاب بنفس حاجة المجتمع الأكاديمي إليه.

ولا شك عندي في أن عودة هذا الكتاب للظهور سيكون لها تأثير كبير على الأجيال الحالية والمقبلة من المفكرين، كما كان الأمر بالنسبة لي منذ حوالي عقدين تقريبا. وأنا واثق أيضا من أنه في هذه المرة سيصل إلى جمهور أكبر، وسيحظى بنقاش واسع في القاعات والمنابر والمنشورات التي تتناول الماضي والمستقبل بجدية. ولكن لماذا؟ إن ذلك يرجع إلى كل رؤاه الواضحة، وتصريحاته الجريئة، وتصويباته التاريخية الدقيقة، وجولاته الرائعة على مسارات لم تستكشف بعد، حيث يرجع الصعود الكبير لهذا الكتاب إلى سؤال رئيس واحد: إلى أين ننطلق من هنا؟ فهذا هو السؤال الذي أنتج هذا الكتاب في المقام الأول، وهو السؤال الذي سيجذب الجيل التالي إليه.

روبن دى چي كيلي

تصدير لطبعة عام ٢٠٠٠

"قام العمال في الأمم المتقدمة بكل ما كان في وسعهم أن يقوموا به، أو كانت لديهم النية للقيام به، غير أن ذلك كان دوما شيئا ما دون الثورة".

أوليفر كوكس، "الرأسمالية كنظام".

هناك الكثير مما يدعو للإعجاب فيمن كافحوا في ظل إلهام الماركسية. ولن يكون الإتيان على شجاعتهم وتضحيتهم مناسبا أو بليغا بما يكفي لعرض إنجازاتهم المدهشة – أو حالات فشلهم الحزينة. ولكن يمكن قول نفس الشيء عن الحركات الاجتماعية المتنوعة الأخرى عبر القرون، والتي تستمد إلهامها أيضا من مركبات معينة من التجارب الإنسانية. وبالطبع فإن ما تشترك فيه هذه المشاهد التاريخية للمساعي الإنسانية يتمثل في عظمة الروح الإنسانية: أي التصميم المستمر على إعادة تشكيل المجتمع طبقا لبعض الرؤى الأخلاقية القوية والمرنة.

وكانت أساطير ونظريات التحرر بمثابة ثوابت في السجل الحافل للتجارب الإنسانية. فهي بمثابة التوابع المصاحبة لفرض التبعية والقهر، مهما كان شكل النظام السائد. وحتى عندما يكون الظرف غير مناسب، أو حتى معاديا ة لأبسط تأكيد للتكامل الإنساني، فلا بد أن يكون هناك أثر – إشارة – للرغبة في النظام العادل. إذ إن صولون Solon، أرسطوفانيس Aristophanes،

أفلاطون، إيسوكراتيس Isocrates، وأرسطو، على الـرغم مـن ارتبـاطهم بالطبقات الثرية في أثينا القديمة، لم يستطيعوا أن يلغوا تمامـا أو يـستبعدوا فعليا التحديات الأخلاقية (للشعب) الفقير والرقيق والنساء.[1] وكان بين هؤلاء الكتاب بعض من أذكى صناع الهراء الارستقراطي.

ومن ثم فإنه ليس مدهشا أنه إذا كانت السلطة الأخلاقية التـي ظهـرت سعيا من أجل الحرية قد بددت عطاياها من أجل حجج واهيـة، فـإن نفـس الشيء يتكرر طوال الألفي سنة التالية في أعمال عدد كبير من أتباعهم. ولم تحقق محاكم التفتيش في العصور الوسطى - بمفكريها اللاهوتيين الكثيـرين ووصولها السلس إلى القوة المميتة - القضاء على التمردات الحضرية ضـد الفقر التي قام بها الفالدينس والفرانسيسكان والكاثار[*]، أو التمردات الشيوعية الريفية، والتي ظهرت بين القرويين ورهبان وأديرة الكنيسة ذاتها. وبعد ذلك بخمسمائة سنة، وعلى الرغم من الحجم الكبير لثلاثة قرون من التـشريعات والكتابات وقوة الدولة التي تساند الرق في أفريقيا والعالم الجديد والذي قـد يبدو مثبطا للهمم، يثبت التاريخ عكس ذلك - لقد انتصرت أجندة التحرريين المناهضة للرق.

(*) فالدينس Waldensian: حركة مسيحية (منسوبة إلى اسم مؤسسها) دعت إلـى التمـسك فقـط بتعاليم الإنجيل. ظهرت في مدينة ليون في فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، اعتبرتهـا كنيسة الروم الكاثوليك حركة مهرطقة وتعرض أعضاؤها للاضطهاد قبل أن تستعيد الحركة نشاطها وتنتقل إلى مناطق مختلفة من العالم في العصر الحديث. الفرانسيـسكانFranciscan : طائفة مسيحية تتبع تعاليم القديس فرانسيسكو (فرانسيس الأسيزي St. Francis of Assisi: نسبة إلى بلدة أسيز Assisi في وسط إيطاليا) تتبع هذه الطائفة الكنيسة الكاثوليكيـة. الكاثـار Cathar (من الأصل اللاتيني كاثاروي بمعني "الطاهر أو النقي": حركة مسيحية ظهرت في جنـوب أوربا فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. تقوم طائفة الكاثار على اعتقاد بالثنائية: أي إن الرب والخلق (العالم) شيئان منفصلان ولا يجمعهما سوى رابط غير مرئـي، وبالتـالي فالرب غير متابع للخلق ولا مهتم بـه. اعتبرتهـا الكنيـسة الكاثوليكيـة حركـة مهرطقـة واضطهدتها وأطلقت عليها اسم "كنيسة الشيطان". (المترجم)

وتعتبر هذه الأمثلة الثلاثة من أثينا القديمة وأوروبا في العصور الوسطى والعالم الجديد الحديث مجرد أمثلة أو لحظات في السياق التاريخي الاستثنائي للتحرر. ويمكن أن نستخلص حاليا أن هناك اهتماما أكبر بسجل التحرر مقارنة بأية فترة سابقة في مسيرة الغرب التاريخية. ويرجع هذا جزئيا على الأقل إلى تراث الماركسية. ومع ذلك، يتمثل الإلهام الأكبر في الوضع الراهن للعالم. فبالنسبة للغالبية العظمى من شعوب الكوكب، يعلن الاقتصاد العالمي عن نفسه في بؤس الناس. وهكذا تتمثل أبسط الحقائق في أن حركات التحرر انتشرت في العالم الحقيقي- وهذا سبب يدعو للاهتمام بدرجة أكبر من الغرور الذاتي لانتصار الرأسمالية، والهتافات المتواصلة للعولمة التي ظهرت عقب تفكك الاتحاد السوفيتي.

وكما قال فوكو، لم يكن ماركس ولا إنجلز جريئين بصفة خاصة عندما وصفا نمط الإنتاج الرأسمالي بأنه استغلالي بشراهة. ففي القرن الثامن عشر، عبر ديفيد ريكاردو وآدم سميث وغيرهما من غير الراديكاليين في مجال الاقتصاد السياسي الصاعد آنذاك عن شكوك وقلق مماثل.(٤) بل إن ملاحظات هيجل الاقتصادية على الرأسمالية الصناعية كانت أكثر مباشرة من الدراسات التي أجراها إنجلز وماركس. ففي أواخر القرن الثامن عشر، وبتحديد واختصار غير معهود، قال هيجل: "هذه قسوة كاملة. فالمصانع والصناعة تبني وجودها على بؤس طبقة واحدة".(٥) ولم يكن الشيء المدهش في كتابات ماركس وإنجلز يتمثل في اعترافهم بالكفاح الطبقي، ولكنه كان يتمثل في تعاطفهم مع هذا الكفاح. فبينما قدم كانط وهيجل تأييدهما للبيروقراطيين باعتبارهم الطبقة التي تكون ما سماه هيجل "الطبقة العامة"، اقترح ماركس وإنجلز البروليتاريا الصناعية والعاملين بأجر. ولكن ربما لم يكن ذلك خطأ

في الحكم (كما يقترح كوكس) بقدر ما كان خدعة: فحتى في عصرهما، وعلى الرغم من سياقهما التاريخي المختلف ومناوراتهما السياسية الخاصة، كان يجب أن يكون واضحا أن كانط وهيجل وماركس وإنجلز أخفوا إيمانهم بالفلسفة. فكما قال ماركس في ١٨٤٤: "بالطبع لا يستطيع سلاح الانتقاد أن يحل محل انتقاد الأسلحة؛ فيجب الإطاحة بالقوة المادية عن طريق القوة المادية. ولكن النظرية أيضا ستصبح قوة مادية بمجرد أن تجذب الجماهير".[٦] وفي ظل الفوضى الاجتماعية والسياسية البائسة في عصرهم (وفي عصرنا) يجب ألا نجد صعوبة في التعاطف مع الدافع إلى البحث عن ملجأ سياسي - أي أجندة اجتماعية - في النظام الخادع وسلطة المنطق البحت والتأمل.[٧]

وكانت "الجماهير" التي افترض ماركس أنها "ستنجذب" إلى النظرية تتمثل في العاملين بأجر من الرجال الأوروبيين والحرفيين في عواصم أوروبا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة. وهنا نجد أن كلا من النظرية وطرح ماركس للمادية التاريخية قد خدعه. فبدلا من العولمة الفوضوية للإنتاج والتبادل الرأسمالي الحديث، تخيل ماركس تنظيما متكاملا للأشياء: مواقع إمبريالية متماثلة تقوم من خلالها أجيال من الرأسماليين بتكوين وتوجيه وحكم المجتمعات التابعة. وبالنسبة لماركس، كانت الرأسمالية تتكون من كيان هندسي يمكن اكتشاف خصائصه الأولية والخفية غالبا (السعر، القيمة، التراكم، الربح) من خلال الوسائل واليقين الرياضي.

ومع ذلك، فنظرا للحاجة إلى تحقيق اللياقة العلمية والاقتصاد التفسيري الذي تتطلبه النظرية، أهمل ماركس السلالة والنوع الاجتماعي والثقافة والتاريخ. وعلى الرغم من إدراك ماركس الكامل للمكانة الكبيرة للنساء والأطفال

في قوة العمل، فإنه لا يزال يعتبرها غير مهمة كنسبة من العمل بأجر لدرجة أنه أهملها، مع عمالة الرق والقرويين، في الهاوية المتخيلة التي يدل عليها التراكم قبل الرأسمالي وغير الرأسمالي والبدائي.[٨] ويمكن أن نفترض كيف كان مفهوم ماركس عن التطور الداخلي للقوى الإنتاجية الأوروبية المرتبطة بنمط معين يستوعب الاستعارة التقنية من الصين والهند وأفريقيا والأمريكتين، والتي دفعت الغرب إلى التصنيع والإمبريالية؟[٩] فكما يعلن أندريه جوندر فرانك:

"تتمثل الخطيئة الرئيسة لماركس وفيبر وأتباعهما في البحث عن "أصل"، "سبب"، "طبيعة"، "آلية" و"جوهر" [الرأسمالية والتنمية والتحديث] وكلها في إطار الظروف الاستثنائية الأوروبية، وليس في النظام/الاقتصاد العالمي الحقيقي.[١٠]

وكان خيال ماركس يتمثل في افتراض أن نظرية المادية التاريخية تفسر التاريخ، ولكنها تعيد ترتيب التاريخ فحسب في أسوأ الظروف. أما في أفضل الظروف (لأنه يجب الاعتراف بوجود بعض الرؤى القيمة في الماركسية)، فإن المادية التاريخية لا تزال تحوي فقط إجراء تحليليا يتردد صداه مع البرجوازية الأوروبية، وهي مجرد جزء فقط من الاقتصاد العالمي.

ومع ذلك، لم تكن النزعة الأوروبية وعقيدة الخلاص الدنيوية تمثل العناصر الأيديولوجية الوحيدة التي عملت على الحد من خيال ماركس. فقد كان هناك أصل واضح وتشابه كبير بين معالجات أرسطو وماركس للرق والرقيق. إذ كان أرسطو يعتبر الرق ضروريا للاكتفاء الذاتي للمدينة، وفي حالات نادرة فقط كان متوقعا من الرقيق أن يحققوا حياة فاضلة. وفي ظل ذكائهم وتطورهم المحدود، وجد أرسطو أنه لا يوجد سبب ملزم للبحث في أخلاق أو وعي أو رغبات الرقيق، واكتفى بأن قرر أن "الرقيق جزء من سيده

بصورة ما، وهو جزء حي ولكنه مستقل عن جسده".(١١) وعلى الرغم من أن ماركس كان يعتبر الرق كريها، فإنه استبعد الرقيق من خطابه عن الحرية الإنسانية: "يعمل الرق مدفوعا بالخوف فقط، ولا يتعرض وجوده للخطر، لأنه مضمون له حتى إذا لم يكن ينتمي إليه".(١٢) ويعتقد ماركس أن دورهم في الإنتاج الرأسمالي كان بمثابة بقايا مربكة من نمط إنتاج قديم قبل الرأسمالية، مما حال دون ظهورهم التاريخي والسياسي في العالم الحديث. وهذا ليس الدليل الوحيد على تأثر ماركس بأرسطو كثيرا. فقد اعتمد ماركس مثل سابقيه مباشرة (كانط، هيجل، إلخ) على أرسطو بالنسبة لأفكار الطبقة والصراع الطبقي، حيث ظهر الصراع الطبقي كثيرا لدى الكتاب الإغريق القدامى. وكذلك اعترف ماركس في "رأس المال" بعبقرية أرسطو الذي سبقت مناقشته لقيمة الاستعمال وقيمة التبادل في كتاب "السياسة" بحوالي ألف وسبعمائة سنة أي نظام اقتصادي كان ماركس يرغب في الاعتراف بأنه رأسمالي.(١٣)

ويستكشف الجزء الأول من الكتاب الذي بين أيدينا كيف وقع ماركس وإنجلز في كل سوء الفهم هذا. ولكن الشيء المهم أو حتى الأكثر أهمية يتمثل في جهود المفكرين الراديكاليين المارقين لتحديد تلك الإغراءات وكيف يمكن تنقيح النظرية الراديكالية من أخطائها. فقد كانت هذه الانتقادات الخاصة للماركسية ناتجة عن تواريخ أخرى، وتقاليد فكرية أخرى، ومشاركين آخرين مهملين في الاقتصاد العالمي. وعندما توليت هذه المهمة، كنت مهتما جدا بهؤلاء المفكرين الراديكاليين الذين ظهروا مما سميته "التراث الراديكالي للسود"؛ حيث يعرض الجزء الثالث من كتابنا هذا كيف أن بعض أهم هؤلاء المفكرين البارزين قد توافقوا مع الماركسية. فلم يكن هؤلاء المفكرين ينتمون إلى الطبقات التجارية أو البيروقراطية أو التقنية في أوروبا الغربية، بل كان أسلافهم من الرقيق والمحررين في جزر الهند الغربية

وأمريكا الشمالية. وبالتحديد، فإن أسلافهم كانوا بشرا تصادف أنهم كانوا رقيقا. وهكذا فإنه في الجزء الثاني – وبدلا من وضع هؤلاء الأسلاف في فئة اقتصادية بسيطة أو سلبية – كان من الضروري استكشاف تواريخ ثقافتهم، ثم كيف استجاب هؤلاء الرقيق وتفاعلوا مع العنف الذي أحاط بحياتهم كرقيق. فمن خلال هذا البحث فقط كان يمكن توضيح أدوارهم في بداية التراث الراديكالي للسود.

ومن المثير للسخرية، بالنسبة للراديكاليين السود في القرن العشرين، أن أحد الملامح المهمة للماركسية كان يتمثل في عالميتها الواضحة. فعلى عكس الخطابات التاريخية السائدة في القرن التاسع عشر، كانت المادية التاريخية تتأثر بالدولية والدقة العلمية التي تتخطى الدعاوى الكريهة والشريرة للمصير الذي عرضته بعض الأفكار مثل القومية الألمانية والإمبريالية البريطانية وعنصرية "عبء الرجل الأبيض"، إلخ. وهكذا كانت الماركسية تبدو لفترة ترياقا فعالا للخطاب المعاصر. ولكن دولية الماركسية لم تكن عالمية، إذ كانت ماديتها تعتبر مفسرا غير كاف للقوى الثقافية والاجتماعية؛ وغالبا ما كانت حتميتها الاقتصادية تعرقل الكفاح من أجل الحرية سياسيا خارج العواصم. وبالنسبة للراديكاليين السود– الذين كانوا مرتبطين تاريخيا ومباشرة بالقواعد الاجتماعية التي تتكون أساسا من القرويين والمزارعين في جزر الهند الغربية، أو المشاركين في المحصول وعمال السخرة في أمريكا الشمالية، أو العمال المجبرين في المزارع الاستعمارية في أفريقيا– كانت الماركسية تبدو غافلة عن أقسى المظاهر المميزة للاقتصاد العالمي. وقد كشف هذا عدم ملاءمة الماركسية لفهم العالم الحديث، ولكن الشيء المثير للمشاكل أيضا كان يتمثل في إهمال الماركسية وسوء فهمها لطبيعة وجوهر الكفاح من أجل التحرر الذي حدث بالفعل، والذي من المؤكد أنه سيظهر بين هذه الشعوب.

وكان التراث الراديكالي للسود يمثل تراكما عبر الأجيال للذكاء الجماعي الذي تحقق نتيجة للكفاح. فمن خلال المواجهات اليومية والمقاومة البسيطة للهيمنة، كان الرقيق يكتسبون إحساسا بوطأة القهر وتنظيمه وتطبيقه الصريح. حيث دفعتهم هذه التجارب إلى الاستعداد لحركات مقاومة أكثر بطولة. وكانت الثورات المنظمة الأولى في قلاع الرقيق في أفريقيا، وعلى أسطح سفن الرقيق، تعتبر مجتمعية من حيث علاقات القرابة في العالم القديم (البامبارا، الجانجا، اليوروبا، إلخ). حيث كان هؤلاء المتمردون يحاولون العودة إلى الأراضي الأفريقية كعلاج للانفصال الناتج عن الاسترقاق والترحيل. وبعد ذلك، وفي المستوطنات الاستعمارية، عندما كانت الأوضاع مواتية، غالبا ما كانت الثورات تأخذ شكل الهروب، وهو ما يمثل امتيازا لإعادة توطين الرقيق وللهويات الثقافية التوافقية الجديدة الصاعدة من البوتقة الاجتماعية لتنظيم الرقيق. وكان الأفارقة "المارقون" المرحلون حديثا والسود الكريول(*)، وأحيانا الأمريكيون المحليون والرقيق الأوروبيون، ينسحبون بعيدا عن الوجود الصريح للاستغلال لتكوين مجتمعات عادلة.

ومع ذلك، فإنه مع كل لحظة تاريخية كان المبرر والآليات الثقافية للهيمنة يصبح أكثر وضوحا. فقد كانت السلالة تمثل المجال المعرفي والمبدأ المنظم والهيكل المنظم والسلطة الأخلاقية واقتصاد العدالة والتجارة والسلطة.

(*) الكريول Creole: مصطلح يطلق بصفة عامة على كل من ولد وتربى في مناطق المستعمرات خارج الوطن الذي جاء منه ويتحدث لغة أجداده، سواء كان أبيض اللون أو أسود أو مختلط اللون، والشرط هنا لانطباق المصطلح أن يكون سليلا للوافدين الذين أنشأوا أو سكنوا المستعمرات في العالم الجديد. وعلى هذا النحو هناك كريول فرنسيون، وكريول برتغاليون، وكريول إنجليز، وكريول سود (أفارقة). (المترجم)

حيث وجد أرسطو - وهو أحد المدافعين الأرستقراطيين الأكثر أصالة - إطاره في "القانون الطبيعي".

وبالنسبة لتدني وضع المرأة ("فإن الحقيقة المطلقة للروح ليست موجودة مطلقا في الرقيق؛ وهي موجودة في المرأة ولكنها غير فعالة" [أرسطو، السياسة 1260a12(*)]، وهذه الحقيقة المطلقة للروح مفتقدة أيضا لدى غير الإغريق وكل العمال (الرقيق، الحرفيين، الفلاحين، والعاملين بأجر، إلخ: "ومن الواضح أن أذواق معظم البشرية أذواق رقيق، حيث يفضلون حياة مناسبة للوحوش" [الأخلاق النيقوماخية(**)، 1095b20])، وهكذا فصل أرسطو نظاما عنصريا جامدا. ومنذ القرن الثاني عشر فصاعدا، كان كل نظام حاكم أوروبي تلو الآخر، وكان كل جيل من الدعاة الكهنوتيين أو الدنيويين تلو الآخر، يكرر ويجمل هذا النظام العنصري.(١٤) ومع تبلور التراث الراديكالي للسود من العداوات العنصرية التي كانت تتراوح من الإهانة العارضة إلى قواعد القانون المميتة التي لا ترحم؛ ومن تسجيل الأشياء في بيانات الشحنات البحرية، إلى محاسبة المزادات، وسجلات المزارع، والإعلانات والصحف؛ ومن أروقة المبشرين المسيحيين وتفسيرات الإنجيل إلى التفاصيل التافهة لتسمية الرقيق، الملابس، أنواع الطعام، وحشد من التعبيرات، كانت ثقافة

(*) هذه الأرقام منسوبة إلى التصنيف الذي أعده عالم الفهرسة والمكتبات أوجست إمانويل بيكر لأكاديمية العلوم البروسية لأعمال أرسطو (ومن ثم يعرف هذا الترقيم بترقيم بيكر Bekker Numbers. وفي الاستشهاد الحالي فإن الرقم ١٢٦٠ هو رقم الصفحة وفقا لتلك الطبعة، والحرف a يشير إلى العمود الأول (فالصفحة مقسمة على عمودين) والرقم ١٢ إشارة إلى السطر الذي جاء فيه الاستشهاد. (المترجم)

(**) الأخلاق النيقوماخية Nicomachean Ethics: مجلد من عشرة كتب في الأخلاق، ونيقوماخوس هو ابن أرسطو المهدى إليه النصائح والأخلاقيات التي تضمن للإنسان حياة أفضل. (المترجم)

العنصرية المرعبة تكشف عن نفسها. وفي أكثر صورها نضالا، لم يعد هناك قبول لقرار أن الهروب والانسحاب كان كافيا، إذ إن الغرض من الكفاح المتأثر بالتراث أصبح يتمثل في الإطاحة بكل النظام القائم على العنصرية.

وفي دراسات هذا الكفاح، ومن خلال التعامل معها غالبا، بدأ التراث الراديكالي للسود في الظهور والطغيان على الماركسية في أعمال هؤلاء الراديكاليين السود. حيث قام كل من دو بويز في خضم حركة مناهضة الإعدام خارج القانون، وجيمس في دوامة مكافحة الاستعمار، وريتشارد رايت ابن المزارع، بتقديم جوانب من التراث النضالي الذي أثر على الأجيال التالية من المناضلين السود من أجل الحرية. وكان هؤلاء الأسلاف أفارقة من حيث الأصل، وكانوا ينتمون إلى نفس المنظومة الثقافية أساسا، ويخضعون لنظم متشابهة ومتشابكة من الرق والقهر، وتحشدهم دوافع متشابهة لاسترداد كرامتهم. وعبر القرون، كانت مشروعات التحرر لهؤلاء الرجال والنساء في أفريقيا وآسيا والكاريبي والأمريكتين تكتسب أشكالا جماعية جديدة من التمرد والهروب، والتفاصيل الأخلاقية والمعنوية للمقاومة؛ وبصورة متزايدة، كانت تندمج فيما كان يمكن أن يسميه هيجل نقيض النقيض في النظام العالمي. وعلى سبيل المثال، كان "مكر التاريخ" لدى هيجل واضحا عندما هرب ملاك الرقيق الفرنسيين الهايتيين في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى لويزيانا وفرجينيا وكارولينا ومعهم أكبر عدد من الرقيق الذين استطاعوا نقلهم، وبالتالي نقلوا معهم أيضا ثورة هاييتي. حيث ساعد غضب وشجاعة ورؤية هذه الثورة على إلهام "مؤامرة بوانت كوب Pointe Coupee Conspiracy" في ١٧٩٥ في لويزيانا، والتمرد الذي قاده

جبريل في ١٨٠٠ في فرجينيا، والتمرد الذي نظمه دنمارك فيزي في ١٨٢٢ خارج شارلستون.[١٥] وبالتالي، أثرت حركة دنمارك على المسار الثـوري. وقد كتب ديفيد ووكر David Walker في بوسطون في ١٨٢٩ نداءه الشهير إلى الشعوب الملونة في العالم والذي حمل عنوان *"نداء من أربعة بنود؛ بالإضافة إلى الافتتاحية، إلى المواطنين الملونين في العالم، ولكـن بـصفة خاصـة، وموجه في المقام الأول، إلى مواطني الولايات المتحدة الأمريكية"*(*).

واعتمد دو بويز على جدلية هيجل وأفكار ماركس في الصراع الطبقي لتصحيح تفسيرات الحرب الأهلية الأمريكية وفترة "إعادة البناء" التي أعقبتها، والتي أصبحت سائدة في المسيرة التاريخية الأمريكية (مثل وودرو ويلسون: "تاريخ الشعب الأمريكي" (١٩٠٨)، والثقافة الـشعبية (تومـاس ديكـسون، وجريفيث: "مولد أمة" [١٩١٥]).[١٦] ونظرا لتشجعه بحقيقة أنه دخـل فـي مجال محظور في تفكير هيجل وماركس ومعاصريه من الأمـريكيين، فقـد غامر دو بويز أكثر وكشف عن هذا التراث. وفي نفس الوقت تقريبا، اكتشف جيمس التراث في ثورة هاييتي. وبعد ذلك بقليل فقط، سـاهم رايـت بنقـده لسياسة البروليتاريا من منظور التراث الراديكالي للسود. وبالنسبة لدو بويز وجيمس ورايت، أصبحت الماركسية مرحلة انطلاق للانغمـاس فـي هـذا التراث. ولم تكن ماركسية السود مجال نزاع بين الماركسية والتـراث، ولا حتى مراجعة. بل كانت رؤية جديدة تركز على نظرية الفساد الثقافي للسلالة. وهكذا أصبح الوصول للتراث وتلاقحه واضحا في الكفـاح الثـوري ضـد الاستعمار في أفريقيا والكاريبي والأمريكتين.

(*) جاء هذا المقال في جريدة "فريدوم جورنال Freedom's Journal " بالعنوان التالي:
Appeal in Four Articles; Together with a Preamble, to the Coloured Citizens of the World, but in Particular and Very Expressly to Those of the United States of America.

وكثقافة للتحرر، فقد تخطى هذا التـــراث الحـــدود المألوفـــة للروايـــة الاجتماعية والتاريخية. وكما في القرن الثامن عشر وأوائل القـــرن التاســـع عشر، مثلا، أثر هروب الأفارقة على الأمريكيين المحليـــين ومـــستوطنات الأفارقة في فلوريدا وأنتج أشباه الكريول السود الذين حاربوا ضد الولايـــات المتحدة لثلاثة عقود، حيث انتشر التراث في أشكال ومواقع عديدة. وبالنسبة للتنوع، يمكن دراسة كيف أن التراث تسلل بصورة غير متوقعة إلى الكتابات التي قدمتها هارييت بيتشر ستاو، وبصفة خاصة عملها الذي يحمل عنـــوان: "مدخل إلى كوخ العم توم"(*) (١٨٥٣)، وعملهـــا الآخـــر: "دريـــد، حكايـــة المستنقع العظيم الموحش"(**) (١٨٥٦)؛ كما تسلل هذا إلـــى الـــسود الـــذين تطوعوا خلال الحرب الأهلية، وتسلل أيضا إلى من خـــدموا فـــي الجـــيش الأمريكي وأرسلوا رسائل غضب من الفلبـــين خـــلال الحـــرب الأســـبانية

(*) "مدخل إلى كوخ العم توم A Key to Uncle Tome's Cabin " ليس عملا روائيا بل عملا تحليليا يبين أراء هارييت ستاو في قضية الرق والعبودية. وقد أصدرته ستاو بعد سنة واحدة مـــن روايتها الشهيرة "كوخ العم توم Uncle Tome's Cabin " التي كانت نقطة تحول في العلاقـــة بين الثقافة وتحرير الرقيق حيث عرضت الرواية لمعاناة العبد تـــوم وأســـرته فـــي ربـــق العبودية. ترجم منير البعلبكي رواية "كوخ العم توم" إلى العربية ونشرتها دار العلم للملايين، بيروت عام ١٩٥٣. (المترجم)

(**) "دريد، حكاية المستنقع العظيم الموحش Dred: A Tale of the Great Dismal Swamp" عمـــل روائي وثائقي يتعرض للعلاقات بين الرقيق والسادة البيض وفرار الرقيق من ربق العبودية. والاسم الذي يضمه العنوان هو إشارة إلى إقليم جغرافي في شرق الولايات المتحـــدة يـــسمى "المستنقع العظيم الموحش" ويقع في المنطقة الساحلية لفيرجينيا قرب ساحل المحيط الأطلنطي، وكان هذا المستنقع ملاذا للرقيق الهاربين رغم قسوته وبيئته البرية الموحشة. أما "دريد Dred" في العنوان فاسم الشخصية البطل في العمل وهو أحد الرقيق الفارين إلى منطقة المستنقعات، كان يبث في الهاربين العزم والتماسك ومقاومة عتاة العبودية والرق، كما كان يقـــدم العـــون للفارين الجدد وينقذهم من الكلاب المتوحشة التي كانت تجوب المنطقة بحثـــا عـــن الرقيـــق الهاربين. (المترجم)

الأمريكية(*)؛ ووصل أيضا إلى "الخمسينية "(**) في أوائل القرن العشرين، وإلى الأغاني الزنجية الكئيبة التي ألفها ريني وكل النساء اللائي يحملن اسم سميث؛ وإلى أفلام أوسكار ميشو خلال حقبة الأفلام الصامتة. وبمراجعة هذا القائمة، فإنني أشك في أنه التراث الراديكالي للسود يمتد إلى المجالات الثقافية والسياسية بصورة تتخطي قدرتي على الوصول إليها.

واختصارا، فإنني كدارس لم أكن أهدف أبدا إلى تغطية الموضوع تماما، ولكنني أكتفي بأن أشير إلى أنه موجود.

(*) الحرب الإسبانية – الأمريكية Spanish – American War: نزاع مسلح نشب في ١٨٩٨ بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا بسبب تدخل الولايات المتحدة في حرب الاستقلال في كوبا تحت شعار مساعدة الشعوب الخاضعة للاستعمار نحو التحرر. وترتب على ذلك هجوم الولايات المتحدة على الممتلكات الإسبانية في كل من الكاريبي والمحيط الهادئ، وكانت الفلبين من بينها. ساهم الانتصار الامريكي على إسبانيا في هذه الموجهات إلى انهيار الإمبراطورية الإسبانية لاحقا. (المترجم)

(**) "الخمسينية Pentecostalism": طائفة مسيحية حديثة تؤكد على دور الروح القدس في الحياة والخبرة المباشرة للمؤمن لوجود الرب. تؤكد الخمسينية على أن الإيمان ليس مجرد فكرة أو عقيدة نظرية بل "تجربة ممارسة فعالة". وتستند إلى وجود قوة الرب المحركة داخل نفوس وأجساد المؤمنين. تستمد هذا الطائفة اسمها من الاحتفال الخمسيني Pentecost الذي يوافق ذكرى مرور خمسين يوما على عيد القيامة (ويعرف بعيد الفصح من الكلمة العبرية القديمة "فيصاح Pesah" والتي تعني حماية ورعاية الرب لليهود في خروجهم من مصر). وفي المسيحية يخلد عيد القيامة ذكرى قيامة (بعث) السيد المسيح في اليوم الثالث لصلبه، وفقا للعقيدة المسيحية. وتعتبر الطائفة الخمسينية أن هذا اليوم "الخمسيني" للبعث هو نقطة ميلاد الكنيسة المسيحية وبداية مهمة المسيحية في العالم. (المترجم)

تصدير

من الضروري دوما أن نعرف عما يدور الكتاب الذي سنشرع في قراءته، ليس فقط ما كُتب فيه نصا، بل والمقاصد التي وقفت خلف كتابته.

يعتني الكتاب الذي بين أيدينا بكفاح شعبنا، الكفاح التاريخي للسود. ويفترض العمل في مسلمته الأولى أن أي شعب يخوض كفاحا من أجل البقاء يجب أن يفرض فيه شروطه، وفق الحكمة الجماعية التي تتكون من ثقافة وتجربة ذلك الكفاح. ويعتبر ماضي السود المشترك كنزا، ليس في حد ذاته، ولكن لأنه يعتبر أساس الوعي والمعرفة والوجود. ولا يمكن مبادلته في مقابل تحالفات منفعية أو انتهاكه بتجريدات أو مفاهيم جامدة. فهذا الماضي يضم فلسفة الوجود ونظريات التاريخ والمحددات الاجتماعية المرتبطة به. وهو مركب يمتلك معاييره، ويفرض حقائقه الخاصة.

وقد حاولت هنا أن أعرض مدى سلطة ذلك الماضي. كما أوليت عناية خاصة لاستكشاف الجهود الفاشلة التي عملت على تقديم الوجود التاريخي لشعوب السود في مركب من المادية التاريخية، وإبراز وجودنا على أنه مجرد معارضة للتنظيم الرأسمالي. ونحن كذلك (لأننا يجب أن نكون كذلك) لكننا نتجاوز ذلك إلى تأثير أبعد وأبعد. وبالنسبة إلى الإخوة والأخوات الأحدث عمرا، وبالنسبة إلى الذين يربطون أنفسهم بكفاح السود ممن أغراهم تحول تاريخ السود إلى النظرية الراديكالية الأوروبية، يمثل هذا الكتاب

أطروحة معارضة. وأقدم للقراء الأعزاء هذا الكتاب بتواضع، وأقدمه أيـــضا إلى أولئك الذين بدأ معهم هذا المشروع، وفي مقدمتهم: ماري أجنيس لويس، مارجوت داشيل، فريدريك دوجلاس لويس، ويلتون سميث، شيرمان ويليامز، نيبي لو كراوفورد، جيم لاسي، جوبالان شيامالا، جاي رايت، هيرمان بليك، دون هوبكنز، هنري رامسي، دونالد واردن... وغيرهم كثر ممن قابلتهم في طريق الحياة.

شكر وتقدير

بدأت إعداد هذا الكتاب حين كنت أقوم بالتدريس في بنجهامتون، نيويورك. وفي الوقت الذي انتهى فيه، كنت أنا وأسرتي قد انتقلنا إلى إقليم سانتا باربارا في كاليفورنيا. وفيما بين الفترتين، قضينا سنة في قرية رادونتر الإنجليزية الصغيرة، جنوب كمبردج. وإجمالا، غطى ذلك فترة ست سنوات تقريبا. وخلال هذه الفترة، جاءني الدعم للبحث والكتابة من مؤسسة صني SUNY بنجهامتون، بجامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا، والمجلس القومي للبحوث، وبرنامج مؤسسة فورد لمنح الأقليات لما بعد الدكتوراه.

وكان هذا الدعم مهما. ولكن الأكثر أهمية كان يتمثل في الدعم الذي قدمته الهيئة العلمية في مركز دراسات السود في جامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا، برئاسة أليس هويتيد، التي تمثل العون الإداري وقلب المكان. فقد كانوا جميعا بمثابة أسرة ثانية بالنسبة لي، حيث استطعت من خلالهم العمل في موضوعات جادة وهادفة. وفي انجلترا، تضاعف هذا الدعم من خلال أصدقائي في معهد علاقات السلالات، وفي مقدمتهم سيفاناندان، جيني بورني، كولين بريسكود، هازل والترز، بول جيلروي، لو كوشنيك، داني رايلي، هارش بونجا، وتوني بونيان. وأنا مدين أيضا بالشكر العميق إلى المحررين في دار نشر زد Zed، وأخص منهم روبرت مولتينو، وآنا جورلاي. حيث يرجع إليهما الفضل في الترابط الذي قد يبدو عليه الكتاب الذي بين أيدينا.

ومن بين أعداد الدارسين الذين أعترف بشكرهم فكريا، يجب أن أخص سانت كلير دريك. لأن صبره ومثاليته انعكسا على مكونات هذا العمل. فقد قدم معرفته بحكمة وجمال.

وأحتفظ بالكلمة الأخيرة لأسرتي: إليزابيث، التي قرأت الكتابات الأولى وأشادت بقيمتها؛ وناجدا، التي آمل أن تشاركها الرأي يوما ما. فقد كانت ست من سنوات عمرها الثماني الأولى فترة حرجة. وأنا أتوقع أنها ستشيد بالكتاب، ولو لم يكن هناك أي سبب آخر سوى سلطة أمها التي قرأت كل سطر من مسودة هذا العمل (واقترحت بعضها). وأنا أقدم تقديري العميق لكل منهما.

مقدمة

تهدف الدراسة التي بين أيدينا إلى رسم الملامح التاريخية والفكرية لتلك المواجهة الفكرية التي جمعت بين الماركسية والحراك الثوري الأسود، وهما مساران ثوريان لكل منهما خطته المميزة. وقد أقدمتُ على إعداد هذا الكتاب ظنا مني بأن لكل من المسارين نمطا مهما من الصياغة الاجتماعية، فضلا عن أن كلا منهما يدرك التاريخ بطريقة متمايزة ومنهج نقدي مختلف. وقد يبدو أن الاختلاف بين الماركسية والحراك الثوري الأسود يحول دون إخضاعهما معا للقياس. وإذا ثبت ذلك، فلا مفر من إجراء إعادة تقييم وبحث عن بديل للمعالجة.

وقد تطلب العمل في هذه القضايا إخضاع كل من الماركسية والحراك الثوري الأسود للبحث بطريقة غير تقليدية. فبالنسبة للماركسية، كان مدعاة البحث العميق أن نفرا قليلا من المتمسكين بها هم الذين جاهدوا بحق للتعرف على أنها مدينة بقوة وإن كان بصورة غامضة للحضارة الغربية؛ أما بالنسبة للحراك الثوري الأسود، فكانت مدعاة البحث الجاد أن ظروف ظهور هذا الحراك قد أدت به إلى سوء تفسير وتعتيم. وأود في كتابي هذا أن أسهم في تصحيح هذه الأخطاء، وذلك من خلال انتقاد ومراجعة نهج إزاحة التاريخ لصالح إقرار نظرية هلامية لها من البعد الرمزي ما يخدم الذات فقط. وسأترك للقارئ تقدير مدى نجاحي في ذلك. ولكن قد يكون من المفيد بداية أن أوضح بنية هذا الكتاب ومحتواه.

شهدت المجتمعات الغربية، خلال معظم القرنين الماضين، مزيدا من الزخم للحركة اليسارية المعارضة للحكم الطبقي وذلك من خلال رؤية النظام الاشتراكي القائم على ترتيب العلاقات الإنسانية بناء على المسئولية المشتركة والسيطرة على وسائل الإنتاج والتوالد الاجتماعي(*). وكانت أشكال هذه الرؤية متباينة، ولكن على مدى سنوات الكفاح أثبت أقوى تراث فكري مقروء أنه يرتبط بأعمال وكتابات كارل ماركس، فريدريش إنجلز، ولينين. وبدهي أن مصطلح "تراث فكري **tradition**" استخدم هنا بصورة فضفاضة نوعا ما، لأن التاريخ أثبت أن اختلاف الآراء والأفعال بين ماركس وإنجلز ولينين كان كبيرا بحجم ما كان بينهم من اتفاق.

ومع ذلك، فإنه في لغة العامة وفي اللغة الأكاديمية أيضا، يمثل هؤلاء المفكرون النشطون الشخصيات الرئيسة في الماركسية أو الاشتراكية الماركسية - اللينينية. فلقد تأسست الماركسية على دراسة مصادرة الرأسمالية للممتلكات واستغلال العمالة كما قال إنجلز أولا، ثم وضح ماركس ذلك من خلال "النظرية المادية للتاريخ"، والذي تجلي في إدراك ماركس بالنظم المتطورة للإنتاج الرأسمالي وحتمية الصراع الطبقي، والتي ضخمتها لاحقا مفاهيم لينين عن الإمبريالية والدولة و"دكتاتورية البروليتاريا"، ودور الحزب الثوري.

(*) التوالد الاجتماعي Social Reproduction: انتقال البنى والأنساق والأنشطة الإنسانية وأشكال التفاوت الاجتماعي من جيل إلى جيل آخر في مجتمع بعينه. وهناك عدة عوامل تتحكم في هذا الانتقال مثل الأبعاد الاقتصادية والثقافية والبشرية والاجتماعية. (المترجم)

وكان هذا الموقف من قِبل ماركس ولينين قد وضع المفردات الأيديولوجية والتاريخية والسياسية للكثير من الحراك الثوري الذي ظهر في المجتمعات الغربية الحديثة. وفي أماكن أخرى، أي في الأراضي التي تطفل عليها النظام العالمي الرأسمالي لاحقا، أو في تلك الأمثلة النادرة التي توقف فيها التغلغل الرأسمالي بسبب التشكيلات التاريخية المتنافسة، فإن بعض أنماط من الرأسمالية قد عبرت عن نفسها عبر اهتمامها بالتغير الاجتماعي الجوهري.

ورغم ما سبق، لا يزال من الإنصاف القول بأن الماركسية مركب غربي في الأساس، خاصة على مستوى القواعد المعرفية التحتية- فهي صياغة لمفاهيم الشئون الإنسانية والتطور التاريخي لتجارب تاريخية خاضتها الشعوب الأوروبية، والتي تأثرت بدورها بحضارتها ونظمها الاجتماعية وثقافاتها. ومن المؤكد أن أصولها الفلسفية غربية بلا جدال. ونفس الشيء يمكن قوله عن فروضها التحليلية، ورؤاها التاريخية، ووجهات نظرها.

غير أن ارتباط التحليل الماركسي بالتجربة الأوربية واقتصاره عليها كان نذير شؤم، لأن الماركسيين الأوروبيين افترضوا غالبا أن مشروعهم متطابق مع التطور التاريخي العالمي. ولكن يبدو أن ذلك تأثر بالحماسة الثقافية التي عادة ما تصاحب الحضارات الأخذة في التطور، وبالتالي أخطأ الماركسيون الأوربيون في إدراك الحقائق العامة التي استمدتها الهياكل والآليات الاجتماعية من ماضيهم القريب والبعيد. بل والأهم من ذلك، أن أعمق هياكل "المادية التاريخية"، أي المعرفة المسبقة لإدراك الحركة التاريخية، أدت إلى إعفاء الماركسيين الأوروبيين أنفسهم من الالتزام

باستكشاف جاد للآثار الواضحة للثقافة والتجارب التاريخية وإخضاع العلم الماركسي الذي يمارسونه لضوابط ذلك الاستكشاف الجاد.

أما الأفكار التي وجهت الحضارة الغربية فقد حافظت على بقائها في نسيج هذه الحضارة، وتكرر تعبيرها عن نفسها في "مراحل" متتابعة لتهيمن على ساحات الأيديولوجيا الاجتماعية. ولم يكن هناك مبرر "نظري" لوجود هذه الأفكار في الماركسية (وقد كان ماركس نفسه كما سنرى ميالا إلى الاعتراف بهذه الظواهر). وتتمثل واحدة من الأفكار المتكررة (الموجهة للحضارة) في النزعة العنصرية Racialism أي تأييد شرعية التنظيم الاجتماعي واعتباره طبيعيا بالإشارة إلى المكونات "السلالية" التي يتألف منها. وعلى الرغم من أن فكرة النزعة السلالية (العنصرية) لم تكن تقتصر على الشعوب الأوروبية، فإن ظهورها في المفاهيم الغربية وتدوينها خلال حقبة الإقطاع كان له نتائج مهمة ومستمرة.

وانطلاقا من هذا، خصصتُ الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب لاستكشاف ظهور وتشكل الوعي السلالي في الحضارة الغربية والتداعيات المترتبة عليه اجتماعيا وأيديولوجيا. فالفصل الأول يعيد تركيب تاريخ ظهور النظام العنصري في أوروبا الإقطاعية، ويحدد تأثيره لاحقا على تنظيم العمل في ظل الرأسمالية. ويبدو لي أن العنصرية لم تكن مجرد مفهوم لتنظيم علاقات الشعوب الأوروبية بالشعوب غير الأوروبية، ولكن أصلها يكمن في العلاقات "الداخلية" للشعوب الأوروبية. حيث تتردد أصداء هذه الظاهرة التي تمثل جزء من مخزون الحضارة الأوروبية داخلها وخارجها، وتنقل آثارها من الماضي إلى الحاضر.

وعلى عكس توقعات ماركس وإنجلز بأن المجتمع البرجوازي سيرشد العلاقات الاجتماعية ويظهر الوعي الاجتماعي، حدث العكس تماما. إذ إن تطور وتنظيم وتوسع المجتمع الرأسمالي سار في اتجاهات متحيزة عنصريا، وكذلك الأمر بالنسبة للأيديولوجية الاجتماعية. وهكذا كان من المتوقع أن تتغلغل العنصرية كقوة مادية في الهياكل الاجتماعية الناتجة عن الرأسمالية. وقد استخدمتُ مصطلح "الرأسمالية العنصرية" للإشارة إلى هذا التطور والهيكل الناتج عنه كعامل تاريخي.

ويتناول الفصل الثاني بشيء من التفصيل ظاهرة الرأسمالية العنصرية، من خلال مراجعة نشأة الطبقات العاملة في إنجلترا. ونظرا لأن الطبقات العاملة الإنجليزية كانت الأساس الاجتماعي لصياغة مفاهيم إنجلز للبروليتاريا الحديثة، جنبا إلى جنب مع اهتمام ماركس بتجربة اليسار المتشدد (من تيار الساكيلوت(*)) خلال الثورة الفرنسية، فإن طبيعة التطور التدريجي للطبقة العاملة سياسيا وأيديولوجيا، تعتبر ذات أهمية كبيرة في التعرف على الأساس الموضوعي للنظرية الماركسية. والشيء المهم هنا هو مدى تأثر وعي طبقة العمال في إنجلترا بالنزعة العنصرية (ثم القومية) كأساس واقعي وإطار أيديولوجي. ففي النظام الاجتماعي بالغ العنصرية في عصر التصنيع في إنجلترا، لم ينجح تنظير ظاهرة علاقات الإنتاج في تقديم أساس موضوعي لفصل عمومية الطبقة عن خصوصية السلالة وتحيزها العنصري. فقد ظلت

(*) سا كيلوت Sans-culottes تيار يساري متطرف في الثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٨٠٠) مناصر للطبقات العاملة والديموقراطية الشعبية والمساواة والدعوة للبقاء على أهبة الاستعداد لعناصر الثورة المضادة واستخدام العنف للدفاع عن الثورة. وتعني كلمة سا كيلوت "بدون سروال" في إشارة إلى أعضاء هذا التيار من الطبقة الدنيا أصحاب الملابس المهترئة. (المترجم)

البنى التحتية، المتجسدة سلفا في الثقافة، تميز خطاب وسياسة الطبقة العاملة. وبالإضافة إلى ما سبق جاء ظهور الاشتراكية الأوروبية وتطورها إلى تراث فكري متعارضا مع تأريخ الاشتراكية وأفكارها الأصولية.

ويتابع الفصل الثالث الأصول الغامضة للاشتراكية بين الطبقات الوسطى، والتناقضات التي أضعفت تعبيراتها السياسية والأيديولوجية. فقد هدمت القومية البناء الاشتراكي، بعد أن أصبحت القومية بمثابة توكيد آخر عبرت به "البرجوازية" عن نفسها. وقد بدت القومية توليفة من الوعي العرقي والسلالي والمصالح الاقتصادية للبرجوازية القومية. ثم صار للقومية نبض أيديولوجي قوي لا يقل عن غيره من عوامل تكوين تلك الطبقات الاجتماعية. ولكن القومية أربكت مؤسسي المادية التاريخية ومن تبعوهم، باعتبارها طابعا مكتسبا وقوة تاريخية التقت في ميادين الثورة الاجتماعية والسياسية. وكان لا بد أن تتجاوز القومية كلا من اتجاه التطور الرأسمالي والهياكل التشكيلية للمجتمعات الاشتراكية التي ظهرت في القرن العشرين. فقد كانت المسارات التاريخية لهذه التطورات غير متوقعة تماما من عالم نظري اتضح منه أن الأيديولوجية والوعي الزائف كانا من المفترض استبعادهما. وعندما أصبح الحراك الثوري الأسود ظاهرا في زمنه في المجتمع الغربي، بالإضافة إلى المجالات التي تماست فيها الشعوب الأوروبية والأفريقية، سيكون المرء على صواب حين يتوقع أن الحراك الثوري الغربي لم يكن متقبلا لظهور حركة راديكالية سوداء، وهو ذات الموقف الذي اتخذه الاعتذاريون المدافعون عن استخدام القوة ضد السود.

ويتولى الجزء الثاني من الكتاب هذا التراث الفكري الثوري الذي صنعه السود، وظروف نشأته التاريخية، وأشكاله، وطبيعته. فالفصل الرابع يعيد

استكشاف العلاقات السابقة بين الأوروبيين والأفارقة، وهو الماضي الذي تحول بسبب الأوروبيين ولصالح الأوروبيين إلى تهكمات غرائبية، وسلسلة من الأساطير ترى السود أقرب إلى كائنات "بليمي الخرافية(*)" الذين تنمو رؤوسهم على صدورهم".

ويرجع غموض التراث الراديكالي للسود إلى إخفاء الغرب للمعرفة السابقة بأفريقيا (وبماضيها المميز). وقد استغرق إنكار تاريخ الشعوب الأفريقية زمنا - عدة مئات من السنين - بداية من خروج الأوروبيين الغربيين من كنف السيطرة والسيادة الإسلامية. وكانت هذه العملية تهدف أيضا إلى نقل صورة أفريقيا عبر مستويات منفصلة من عدم الإنسانية بشكل يتشابك مع الأنماط الصاعدة للثقافة الغربية. ففي إنجلترا التي تأثرت بداية بالمسيحية الهستيرية المولعة بالقتال - واستكملت بالحروب الصليبية وحروب "الاسترداد" في إسبانيا، وبزوغ الرأسمالية الإيطالية - سجل المتدينون الإنجليز في العصور الوسطى أحلاما ظهر فيها الشيطان متجسدا في "المغربي الأسود"، أو "الحبشي". وكان هذا جزءا من قواعد التربية الكنسية، التي كانت المصدر الوحيد تقريبا للمعرفة في عموم أوروبا.

وبعد ذلك بقرون أفسح الشيطان الطريق لتمثيل الأفارقة كنوع مختلف من الوحوش، فبدا الإفريقي: أبكم، يعمل كالحيوان، يرزخ لحالة الرق باستكانة. على هذا النحو كانت صورة وإدراك "الزنجي". فإلغاء وتجاهل واحتقار الزنجي كان له جذوره في الافتراءات السلالية الغربية التي تجاهلت

(*) بليمي Blemmyes: اسم أسطوري (يعني "بلا رأس") لقبائل كان يعتقد أنها تعيش في أفريقيا وبالتحديد في النطاق الممتد من مصر إلى الحبشة. الشكل الخرافي لهذه القبائل يشبهها بأناس لا رؤوس لهم، حيث تبزغ العينان والأنوف والشفاه على الصدور. (المترجم)

الشعوب السلافية[*] (الموسومين بالعبودية)، والأيرلنديين وغيرهم. وكان إلغاء حضارة الزنجي من الوعي التاريخي الغربي يعفي الغربيين من الحاجة إلى تذكر أهمية النوبة لتكوين مصر، وأهمية مصر لظهور الحضارة الإغريقية، وأهمية أفريقيا لروما الإمبريالية، والأهم من ذلك تأثير الإسلام على التاريخ الاقتصادي والسياسي والفكري لأوروبا. وفي المقابل حفل التراث الفكري الغربي بصورة الزنجي ضمن الرقيق الأسود، وهي النتيجة التي ظهرت متنكرة ومرتدية عباءة التاريخ وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا).

ومن الواضح أن تكوين صورة الزنجي كانت على حساب التكاليف الباهظة للطاقات النفسية والفكرية في الغرب. وكانت هذه التجربة إجبارية. فقد كانت بمثابة جهد يتسق مع أهمية قوة عمل السود للاقتصاد العالمي الذي صنعته وسيطرت عليه الطبقات الحاكمة والتجارية في أوروبا الغربية. وكما يوضح الفصل الخامس، كانت تجارة الرقيق عبر الأطلنطي والرق في العالم الجديد جزءين مكملين للاقتصاد العالمي الجديد. وكانت علاقتهما بالرأسمالية تاريخية وعضوية، وليست عارضة ولا مصطنعة. وكان الممولون والتجار الإيطاليون قد ساعدوا برؤوس أموالهم على قيام إسبانيا والبرتغال باستكشاف المحيطين الأطلنطي والهندي. وكان هؤلاء الممولون أيضا سادة على مستعمرات الرقيق ("الأوروبية" أساسا) في البحر المتوسط. ومن المؤكد أن

(*) سلاف Slav: مجموعة عرقية – لغوية تتبع العائلة الهندو – أوربية. يتركز السلاف في شرق ووسط وجنوب أوروبا، وهناك موجات مهم وصلت إلى شمال غرب آسيا وسيبيريا. وعادة ما يصنف السلاف إلى: "سلاف الشرق" ويمثلهم الروس والبيلاروس والأوكرانيون)، وسلاف الغرب (ويمثلهم البولنديون والتشيك والسلوفاك) و"سلاف الجنوب" وتمثلهم أجزاء من الوحدات السياسية التي تفككت عن دولة يوجسلافيا (والتي تعني حرفيا "سلاف الجنوب Yug - Slav") في جنوب شرق أوروبا. وأحيانا يتم اللعب بالكلمات (لأغراض عنصرية) بين كلمة سلاف Slav وسليف (عبد/رقيق) Slave. (المترجم)

عمل الرقيق كان أحد أسس ما أطلق عليه ماركس "التراكم الأولي". ولكن سيكون من الخطأ أن نقصر هذه العلاقة على هذا، أي أن نقصر عمل الرقيق على مرحلة "ما قبل الرأسمالية" في التاريخ. فطوال أكثر من ٣٠٠ سنة، كان عمل الرقيق مستمرا قبل بدايات الرأسمالية الحديثة، مكملا للعمل بأجر، وعمل السخرة، والعبودية، والأشكال الأخرى للعمل القسري. وفي النهاية، كان هذا يعني أن تفسير التاريخ من خلال جدلية الصراع الطبقي الرأسمالي سيثبت أنه غير مناسب، وهو الخطأ الناجم عن انشغال الماركسية بمراكز الرأسمالية الصناعية، وهو الخطأ الذي تأسس على الافتراضات التي صاغتها أوروبا ذاتها، أي افتراض أن الدوافع والقوى المادية التي ولدت النظام الرأسمالي تقع كلها في كيان تاريخي وهمي. ولكن الرأسمالية من بداياتها الأولى لم تكن "نظاما مغلقا" بقدر ما لم تكن نظاما أوروبيا حصريا.

ومن الضروري بناء على ذلك، أن تبدو نظرية الثورة لدى ماركس وإنجلز غير كافية من حيث النطاق: إذ إن البروليتاريا الأوروبية وحلفاءها المحليين لم يكونا المادة الثورية للتاريخ، ولا كان وعي الطبقة العاملة منافيا بالضرورة للثقافة البرجوازية. فقد ظهرت قوى ثورية أخرى مما كان في الواقع بمثابة نظام عالمي رأسمالي معقد نوعا ما (وهو النظام الذي أبدى ماركس اهتماما كبيرا به في عقده الأخير). وكانت هذه الحركات المطلعة على الأفكار والثقافات المستمدة من تجاربها التاريخية الخاصة تأخذ أشكالا لا يمكن توقعها إلا بصورة غامضة فقط في التراث الفكري الراديكالي للغرب. فقد كانت هذه الحركات بمثابة نقيض للمجتمع الرأسمالي، ولم تكن مصدرا لوجوده. وكان من بينها مقاومة الشعوب الأفريقية المستمرة والمتواصلة والمتصاعدة ضد القهر.

ويتناول الفصل السادس تاريخ هذا التراث الراديكالي للسود في الشتات الأفريقي، وإلى حد ما في القارة الأفريقية ذاتها. وكما يحاول هذا الفصل والفصل السابع أن يوضحا، فإن سجل المقاومة لأربعة قرون أو أكثر – من إسبانيا الجديدة(*) إلى نياسالاند(**)– لا تدع مجالا للشك في السمة الأفريقية الخاصة بهذه الصور من الكفاح. حيث تشكلت المقاومة من المعاني التي أتى بها الأفارقة إلى العالم الجديد باعتبارها جزءا من مقوماتهم الثقافية، وهي مقومات متميزة عن زيف الأفكار الغربية المبنية على ملاحظات الشهود الأوروبيين، ولهذه المقومات من القوة المستمرة ما كان كافيا لاجتياز الرق وتشكيل أساس لمعارضته.

ويتابع الجزء الثالث والأخير من هذا الكتاب الخلفيات الاجتماعية والفكرية للعمليات التي أدت إلى الصياغات النظرية للفكر الثوري الأسود. وكانت شروط نظرية السود الحديثة حاضرة أولا في الشتات الأفريقي. فبعيدا عن أفريقيا، وفي ظل حصار مجتمعات معادية، اكتسبت المعارضة السوداء فهما عميقا. ولكن العملية الاجتماعية والسياسية والتاريخية أيضا هي التي طورت النظرية. وعند متابعة هذه العملية، اخترتُ ثلاث شخصيات ثورية سوداء بارزة، هي: وليام إدوارد بورخاردت دى بويز، كيريل ميونيل

(*) إسبانيا الجديدة Nueva Espana: مستعمرات تابعة لإسبانيا عبر البحار كانت تضم ما تمثله اليوم معظم أمريكا الشمالية (إلى الجنوب من كندا) وأمريكا الوسطى والأطراف الشمالية من أمريكا الجنوبية. وكان الاسم يطلق أيضا على مستعمرات إسبانيا في شرق آسيا فيما كان يعرف باسم جزر الهند الشرقية وبصفة خاصة في كل من الفلبين وتايوان وجزر الملوك. (المترجم).

(**) نياسالاند Nyasaland مستعمرة أنشأتها بريطانيا في جنوب شرق أفريقيا منذ عام ١٩٠٧. عرفت بعد الاستقلال باسم "ملاوي". وتعتبر النياسا واحدة من المجموعات العرقية المتفرعة عن شعوب البانتو المنتشرة في أفريقيا جنوب الصحراء. (المترجم)

روبرت جيمس، وريتشارد ناتانيل رايت. وكان اختيارهم بغرض المعالجة التفصيلية لما لهم من إسهامات كبيرة في النص النظري، ولأن حياتهم وظروفهم كانت بمثابة مجموعة من الأحداث المؤثرة والنابعة من التراث الراديكالي للسود. فردود أفعالهم تجاه المقاومة السوداء، والوسائل التي استخدموها للتعبير، كانت متميزة ولكنها مترابطة، وكانت تتسم بالواقعية والحساسية والتجربة.

وقد جاء ذلك رغم أن أنماط حياتهم كانت مختلفة كلية. فرايت فقط هو الذي يمكن القول عنه إنه كان ينحدر مباشرة من الطبقات الريفية والعاملة السوداء، فإنهم انتهوا جميعا إلى هذا التراث الفكري متأخرا (ويمكنني أن أقول الشيء نفسه ولكن بقدر من التردد عن دى بويز وجيمس). ومع ذلك، كانت الماركسية بالنسبة لكل هؤلاء الثلاثة بمثابة الالتزام الأول، وأول تجربة شاملة واعية للمعارضة المنظمة ضد العنصرية والاستغلال والهيمنة. وقد أثبتت مشاربهم الأولى بوصفهم ماركسيين أهميتها، ولكنها لم تكن مرضية في النهاية. ففي وقت ما، جذبتهم الأحداث والتجارب إلى راديكالية السود واكتشاف مقاومة السود الجماعية الناتجة عن التعقيد الثقافي المتواصل للإدراك التاريخي.

وقد حاولت في هذه الفصول الختامية أن أظهر كيف أن جهود دى بويز، جيمس، ورايت قد رسخت الخطوة الأولى نحو تكوين تراث فكري سيكمل القوة التاريخية لكفاح السود. وأنا أرى أن قدرهم لم يكن يتمثل في خلق فكرة ذلك الكفاح، بقدر ما كان يتمثل في صياغتها. وبغض النظر عن كل هذا، فقد استمرت مقاومة السود للهيمنة لتكتسب أشكالا جديدة. وبهذا المعنى الحقيقي أقدم الدراسة الحالية.

الجزء الأول

بزوغ وقيود الراديكالية الأوروبية

الفصل الأول

الرأسمالية الراديكالية

الطبيعة غير الموضوعية للتطور الرأسمالي

تأثر التطور التاريخي للرأسمالية العالمية بدرجة كبيرة بـــدور القـــوى العنصرية والقومية. ولم يكن ذلك أن يحدث لو لم تكن الجذور الاجتماعيـــة والنفسية والثقافية لهذه القوى قد توقعت ظهور الرأسمالية في حينهـــا. كمـــا ساهمت تلك الجذور في تكوين جزء من الأحداث وأدلت بدلوها في تنظـــيم عمليات الإنتاج والتبادل الاقتصادي. ويعتبر المجتمـــع الإقطـــاعي مفتـــاح القضية، فقد احتشدت في هذا المجتمع تعهدات معاديـــة، وبنـــى اجتماعيـــة، وطموحات متناقضة. وكان هذا الحشد دليلا على حضارة متطورة أكثر مـــن كونه مجرد عناصر في تراث فكري موحد.

وتنضوي العمليات التي انبثق منها النظام العالمي على تعـــارض بـــين التوجهات العقلانية للرؤية العالمية الاقتصادية من ناحيـــة والقـــوة الدافعـــة السياسية للمنطق الجماعي من ناحية أخرى. إذ إن الدولة الإقطاعية – وهي الأداة ذات الأهمية الكبيرة للبرجوازية – أثبتت أنهـــا تعـــارض باســـتمرار التكامل التجاري الذي يمثله النظام العالمي، كما فعلت مع فكرة "تكوين عالم مسيحي موحدChristendom". فلا الدولة ولا الأمة لاحقا كانت تستطيع محـــو

العوامل النفسية والمصالح الخاصة التي كانت تمثل تناقضات مع المجتمع العالمي. حيث تمثلت النتيجة الأولية للصراع بين هذين الاتجاهين الاجتماعيين في أن الرأسماليين - الذين يمثلون مهندسي هذا النظام - لم يحققوا أبدا تماسك الهيكل والتنظيم الذي كان يمثل الطموحات الواعدة للرأسمالية كنظام موضوعي.[1] بل على العكس، لم يميز تاريخ الرأسمالية نفسه أبدا عن الحقب السابقة وما دار فيها من حروب، وأزمات مادية، وصراعات اجتماعية.

لقد بنى مناصرو الرأسمالية تحليلاتهم على افتراض تمتع الرأسمالية برشادة اقتصادية محددة في تطور وتوسع هذا المذهب الاقتصادي. وهنا نجد أن نقد الرأسمالية كان يتصف بعدم القدرة على التوافق مع اتجاه تطورات النظام العالمي. ولكن الماركسية - التي مثلت الشكل السائد الذي تبناه نقاد الرأسمالية في الفكر الغربي - تتضمن أوجه ضعف نظرية وأيديولوجية نابعة من نفس القوى التي وفرت أسس تكوين الرأسمالية.

لقد كان تكوين الرأسمالية أكبر من مجرد إزاحة أنماط وعلاقات الإنتاج الإقطاعية.[2] فمن المؤكد أن تحول الهياكل الاقتصادية لأوروبا غير الرأسمالية (خاصة في أوروبا الغربية والبحر المتوسط، على مستوى السوق والتجارة ونظم الإنتاج) إلى أشكال الإنتاج والتبادل الرأسمالية، كان جزءًا كبيرا من هذه العملية. حيث تضمن أول ظهور للرأسمالية في القرن الخامس عشر[3] آليات أخرى أيضا. وقد ساهمت التعقيدات الاجتماعية والثقافية والسياسية والأيديولوجية للإقطاعيات الأوروبية بدرجة أكبر في الرأسمالية، مقارنة بمساهمة "القيود"[4] الاجتماعية التي دفعت البرجوازية إلى الثورات

الاجتماعية والسياسية. وليس هناك طبقة كونت نفسها بنفسها. ففي الواقع لم تكن الرأسمالية ثورة جلبت الكارثة (والإلغاء) للأوضاع الاجتماعية الإقطاعية، بقدر ما كانت امتدادا لهذه العلاقات الاجتماعية في ساحة أوسع من العلاقات السياسية والاقتصادية العالمية. ومن الناحية التاريخية، فإن الحضارة التي تطورت في الأطراف الغربية للقارة الآسيوية/الأوروبية، والتي تمثل أول تعبير عنها في أوروبا في العصور الوسطى،(٥) انتقلت (باستثناء فترات تقطع قصيرة) من الإقطاع كنمط إنتاج سائد إلى الرأسمالية كنمط إنتاج مهيمن. ومنذ البدايات الأولى، كانت هذه الحضارة الأوروبية - التي تحتوي على خصوصيات عرقية وقبلية ولغوية وإقليمية - مبنية على اختلافات متناقضة.

تكوين أوروبا

كان الأساس الاجتماعي للحضارة الأوروبية يرجع إلى من أطلق عليهم الرومان اسم "البرابرة".(٦) فقبل القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، كان استخدام المعنى الجمعي لمصطلح "بربري" يدل على الاستبعاد أكثر مما يدل على أي دلالة لوجود نسيج متماسك وقوي يجمع تلك الشعوب المسماة "برابرة". وكان هذا المصطلح يشير إلى أن "البرابرة" لهم أصولهم التاريخية المعزولة عن المجال المتحضر للقانون الروماني والنظام الاجتماعي الإمبراطوري الروماني القديم. إذ إن "أوروبا" القرن التاسع - التي زعمت الأسرة الكارولنجية(*) وما تلاها أنها راعية لها -.كانت محدودة نوعا ما من

(*) الكارولنجية Carolingian نسبة إلى الأسرة التي أسسها كارل مارتل Charles Martel في نهاية القرن السابع في شمال غرب أوروبا (شمال ألمانيا حاليا). (المترجم)

زاوية الجغرافيا السياسية[٧]، وكان الوجود السياسي لأوروبا خلال تلك الفترة قصيرا وتعيسا نوعا ما. ومن الطريف أنه لعدة قرون عقب وفاة شارلمان وورثته المباشرين (وآخرهم آرنولف الذي توفي في ٨٩٩ م) كان كل من الإمبراطور وأوروبا محط أساطير شعبية وحكايات كنسية، أكثر من كونهما يعبران عن واقع اجتماعي.[٨] إذ إن فكرة أوروبا - التي لم تعد مشروعا حقيقيا - تحولت من فكرة حول نظام اجتماعي دنيوي إلى فكرة حول مملكة روحية سماوية: "عالم مسيحي موحد".

وفي الحقيقة، كانت الشعوب التي سماها كل من الإغريق والرومان بصورة جماعية "برابرة" ذات أصول سلالية متنوعة وثقافات متباينة.[٩] وربما كان تنوع لغات "البرابرة" أحد مقاييس اختلافها. ولكن عند استخدام هذا المعيار، يجب أن نكون حذرين من محاولات تصنيف هذه اللغات لأنها تختزل الأعداد الحقيقية للشعوب "البربرية" إلى مجرد مجموعات بسيطة مثل: السلتية(*)، الإيطالية، الجرمانية، البلطو - سلافونية Balto-Slavonic، والألبانية.[١٠]

وتوضح الأدلة المباشرة وغير المباشرة أن التصوير الحقيقي للغات هؤلاء الذين يمثلون أجداد الأوروبيين سيكون أكثر صعوبة. فمثلا، استطاع منرو شادفيك H. Munro Chadwick بحلول ١٩٤٥ تحديد مواقع بقايا هذه اللغات العديدة بين لغات الغال(**) والويلز والبريتون في بريطانيا العظمى

(*) سلت Celt: مجموعة عرقية- لغوية من مجتمعات قبلية في العصر الحديدي وأوروبا العصور الوسيطة، جمعتهم لغة وثقافة مشتركة (المترجم)

(**) لغة الغال Gaelic: إحدى أفرع لغات الجزر السلتية، تمتد عبر رقعة جغرافية من أيرلندا إلى إسكتلندا. (المترجم)

وفرنسا؛ واللغات واللهجات البرتغالية والإسبانية والكتالونية والبروفنسية Provençal والفرنسية والإيطالية والسردينية والألبية والرومانية في جنوب وغرب أوروبا؛ واللغات الإنجليزية والفريزية(*) Frisian والهولندية والألمانية والدانمركية والسويدية والنرويجية والأيسلندية في إنجلترا وإسكتلندا وهولندا وألمانيا والدول الإسكندينافية؛ واللغات واللهجات الروسية والبلغارية واليوغسلافية والسلوفينية والسلوفاكية والتشيكية والبولندية واللوسيتية(**) في وسط وشرق أوروبا؛ واللغات اللاتفية والليتوانية في شمال أوروبا.(١١) ولكن حتى قائمة شادفيك كانت تقتصر على تلك اللغات التي اجتازت في عمرها "ألفية أوروبا". وكان لهذه القائمة أن تطول أكثرا إذا قصرنا لغات هذه المنطقة عند بداية هذه الحقبة والتي لم تعد مستخدمة (مثل اللاتينية والكورنية(***) والبروسية)، بالإضافة إلى لغات الشعوب التي سبقت الهجرات من الشمال والشرق من برابرة روما (مثل الباسك والإتروسكان والأوسكان والأمبريان(****)).(١٢)

(*) الفريز Fris مجموعة عرقية – لغوية جرمانية وموطنها في المناطق الساحلية من هولندا وألمانيا. تنسب إلى منطقة محلية في شمال ألمانيا تسمى "فريزيا Frisia".ولا يزال نحو نصف مليون إنسان يستخدمون اللغات الفريزية، وهي لغة رسمية في كل من هولندا وألمانيا. (المترجم)

(**) اللوسيت Lusit: لغة هسبانية قديمة، تعد إحدة لغات العائلة الهند-أوروبية، ويربطها البعض باللغة السلتية في شبه جزيرة أيبيريا. (المترجم)

(***) الكورنية Cornish لغة منسوبة إلى الشعب الكورني في المملكة المتحدة حاليا وبصفة خاصة في ويلز وبريطانيا. (المترجم)

(****) الإتروسكان Etruscan: لغة إيطالية قديمة تنسب لإقليم إترووريا Etruria؛ الأوسكان Oscan لغة قديمة منقرضة كانت تتركز في أجزاء من جنوب إيطاليا، كانت لغة حية خلال الفترة من ٥٠٠ قبل الميلاد إلى ١٠٠٠ ميلادية؛ الأمبريان: لغة منقرضة كان يتكلمها شعب الأمبري Umbri في إقليم أمبيريا في إيطاليا. (المترجم)

ولكن شعوب القوط الشرقيين والقوط الغـربيين والونـدال والسـوفي والبرغند والألامان والفرانك(*)- أي البرابرة وفقا للرومان- الـذين كـان تأثيرهم على مصير الفترة الأخيرة من عمر الإمبراطورية الرومانيـة منـذ القرن الخامس سريعا ومأساويا،(١٣) كانوا في الحقيقة مجرد أقليـة صـغيرة تتألف من بضعة آلاف بين ملايين من سكان الإمبراطوريـة المحتـضرة. واعتمادا على تقديرات إميلي فليكس جـاوتير Emile-Felix Gautier وشـمدت L. Schmidt، يقول هنري بيرنه Henri Pirenne إن القوط الـشرقيين والقـوط

(*) القوط Goth قبائل جرمانية، تركز نطاقها الجغرافي في البداية في شـرق أوروبـا وبـصفة خاصة من شمال البحر الأسود إلى بحر البلطيق ومن نهر الفولجا إلى نهر الدانوب. تمكنـوا في نهاية القرن الرابع الميلادي من الإغارة على الإمبراطورية الرومانية وتدميرها. خـلال القرون الثلاثة من الرابع إلى السادس انقسم القوط إلى شعبتين: "القوط الشرقيون" (في شرق أوروبا إلى الشمال من البحر الأسود) و"القوط الغربيون" (في غرب أوروبا وبالتحديد في شبه جزيرة أيبيريا)؛ الواندال Vandals قبائل جرمانية شرقية، تمكنت من غزو واحتلال أجزاء من شمال أفريقيا وأخضعت معظم جزر البحر المتوسط ونهبت في منتـصف القـرن الخـامس الميلادي مدينة روما، ثم سقطت مملكتهم في عام ٥٣٤ بعد أن دمرتهـا الدولـة البيزنطيـة؛ سوفي Suevi: قبائل جرمانية كانت تشغل نصف مساحة ألمانيا الحالية، اشتهرت في القـرن الأول الميلادي. كانت تتسم هذه القبائل بالحراك والانتقـال وخاصـة حـين كانـت تهـدد الإمبراطورية الرومانية بزحفها من الشمال من جهة بحر البلطيق باتجاه الجنوب نحو حـدود الإمبراطورية؛ البرغند Burgundians (البورغانديون): قبيلة في شرق ألمانيا هـاجرت مـن إسكندفيا ثم تحركت غربا، أسست في القرن الأول الميلادي مملكة البرغند، وظل اسـمهم موجودا في المنطقة الإقليمية في "بورغاندي" التي تقع اليوم في شـرق فرنـسا؛ الألامـاني Alemanni: اتحاد قبلي من السوفي السابق ذكرهم في الأجزاء العليا من حوض نهر الـراين. كان نشاطهم حاضرا بين القرن الأول والخامس الميلاديين. يعود اسم ألمانيا الحالي إلى تلـك القبائل؛ الفرنك Franks: اتحاد قبائل جرمانية عرفت منذ القرن الثالث الميلادي في الحوضين الأوسط والأدنى لنهر الراين. قام الفرنك بالاسـتيلاء علـى أجـزاء كثيـرة مـن ميـراث الإمبراطورية الرومانية وبصفة خاصة في شطرها الغربي حتى نهاية القرن الثامن الميلادي، تطور الفرنك لاحقا ضمن الإمبراطورية الكارولنجية. وفـي العـصور الوسـطى اسـتخدم مصطلح الفرنك (الفرنج) في حضارات الشرق مرادفا لأوروبا الغربية، نظرا لسيطرتهم على معظم أوروبا الغربية. (المترجم)

الغربيين يمكن أن يصل عدد كل منهما إلى ١٠٠ ألف، وأن يصل عدد الونداليين إلى ٨٠ ألفا، وعدد البرغنديين إلى ٢٥ ألفا.[١٤] وعلاوة على ذلك، عادة ما يقدر حجم الطبقات المحاربة لكل مملكة بحوالي ٢٠٪ من سكانها. ومن ناحية أخرى، كانت الإمبراطورية التي اكتسحوها تحتوي على ما بين ٥٠- ٧٠ مليون نسمة.[١٥] ويستخلص بيرنه بحذر أن:

"كل هذا مجرد حدس. ولا شك أن تقديرنا سيكون أعلى من الحقيقة إذا اعتبرنا أن العنصر الجرماني كان يشكل ٥٪ من السكان، في الإمارات الغربية وراء تخوم الإمبراطورية **Limes**".[١٦]

والأهم من ذلك، أن الغالبية العظمى من البرابرة "لم يأتوا كغزاة، ولكنهم جاءوا مثلما يأتي سكان شمال أفريقيا والإيطاليون والبولنديون في يومنا هذا إلى المدن الحضرية الكبرى في فرنسا بثا عن العمل".[١٧] وفي فترة قصيرة نسبيا، وفي أراضي أقصى جنوب أوروبا التي كانت تحدها الإمبراطورية الرومانية الغربية، تم استيعاب هذه الشعوب تماما في الشعوب المحلية باعتبارهم قوة عمل من الرقيق.[١٨] وكان هذا النمط مألوفا سلفا في الحضارة الرومانية المحتضرة في البحر المتوسط[١٩] والتي كانوا يرغبون في الانضمام إليها باستماتة.[٢٠] ومن الضروري أن ندرك أيضا أنه بالنسبة للحضارة الأوروبية الصاعدة، التي توافقت بداياتها مع وصول هؤلاء البرابرة، استمر عمل الرقيق كأساس ضروري للإنتاج بدون أي انقطاع يذكر حتى القرن العشرين.[٢١]

وقد استمر عمل الرق كأحد جوانب الإنتاج الزراعي الأوروبي حتى العصر الحديث،[٢٢] وذلك بداية من "عبيد المزرعة **familia rustica**" التي

ميزت إنتاج العبيد عند الرومان بل وقبلها مسمى العبيد (دولوس doulos) عند اليونانيين داخل الممتلكات الشاسعة للانتاج القروي، مرورا بمناطق حيازات الأراضي المعروفة باسم الكولونيك colonicae والمانسي mansi عند الميروفنج(*) (٤٨١- ٧٥٢) والفترات الكارولنجية، والأوغاد الإقطاعيين في أوروبا الغربية وإنجلترا في العصور الوسطى، و"عبيد sclavi" تجار جنوا والبندقية الذين سيطروا على الحياة التجارية في البحر المتوسط من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر. أي إنه لا الرق الإقطاعي ولا الرأسمالية أدت إلى التخلص أو الحد من الرق التاريخي.[٢٣] بل يذهب البعض إلى أن تنظيمه أدى فقط إلى إعادة توزيعه.[٢٤]

وعلى الرغم من اصطباغ القوط الجنوبيين بالصبغة الرومانية، فقد أرست القبائل الجرمانية الحدود الإدارية العامة التي ميزت أمم أوروبا الغربية المعاصرة لاحقا. إذ إن الممالك التي أسسوها، حسب قواعد الهوسبتالية(**) الرومانية وطبقا للإدارة الرومانية أساسا[٢٥]، كانت إلى حد بعيد بمثابة معالم الحدود الأولى للدول الحديثة التي ظهرت لاحقا تحت اسم فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا.

(*) الميروفنج Merovingian: أسرة فرعية من الفرنك، بلغت شهرتها السياسية في وسط أوروبا الغربية خلال الفترة من القرن الخامس إلى الثامن. تعود التسمية إلى ملكهم المؤسس ميروفتش Merovech. (المترجم).

(**) الهوسبتالية Hospitality نظام قانوني خلال حقبة الإمبراطورية الرومانية، كان يمنح ثلث عائدات (رسوم) الأراضي في منطقة معينة كامتياز للقبائل البربرية في مقابل أن تعلن هذه القبائل الولاء للإمبراطور وتوفر الدعم العسكري، بينما تحظى في ذات الوقت بالاستقلال. (المترجم)

ومع ذلك، يجب ألا ننسى أنه عند إعادة بناء التاريخ، يجب أن يكون هناك عصر وسيط يربط بين هذين العصرين. فأوروبا في العصور الوسطى - والتي بقيت زراعية في اقتصادها - كانت بمثابة فضاء خصب للرقيق والقرويين والمزارعين والحرفيين وملاك الأراضي ورجال الدين والنبلاء على السواء، مقارنة بما كانت عليه ظروف أسلافهم في الإمبراطورية. فقد تدهورت الحياة الحضرية، وتركت المدن القديمة أطلالا،[٢٦] وتدهورت تجارة المسافات الطويلة، خاصة على الطرق البحرية.[٢٧] ويلخص لاتوش Latouche ذلك بقوله:

"كانت كفة ميزان الاقتصاد الميروفنجي مختلة بوضوح. بل إن كلمة "عفن" - التي أصبحت عصرية الآن بالرغم من سوئها - هي التي تستطيع وصف ذلك الاقتصاد بدقة. وسواء كان ذلك في مجال حياة المدينة أو التجارة أو المقايضة أو العملة أو الأشغال العامة أو الشحن، فإننا نجد في كل مكان نفس سياسة الإهمال ونفس الرفض الأناني للقيام بمبادرة للإصلاح. ومن خلال هذا التسيب الجارف الكارثي الذي ترك الناس والأشياء على ما كانوا عليه دائما، ومواصلة طريقة الحياة التقليدية بلا تغيير، انطلقت خدعة أن العالم القديم لا يزال متحدا، ولكن ذلك لم يكن سوى سراب".[٢٨]

لم تفعل الإمبراطورية الكارولنجية الكثير لإصلاح "العفن" الذي كان سابقا على إعادة بناء أوروبا وفق شروط إقطاعية. فالغزوات الإسلامية للبحر المتوسط في القرنين السابع والثامن حرمت الاقتصادات الأوروبية من الحيوية الحضرية والتجارية والإنتاجية والثقافية التي احتاجتها لإعادة بنائها. ويوضح بيرنه هذا بشكل صريح قائلا:

"كانت الموانئ والمدن مهجورة. كما انقطع الاتصال بالشرق، ولم يكن هناك اتصال مع سواحل الساراسين(*). ولم يكن هناك شيء سوى الموت. كانت الإمبراطورية الكارولنجية تمثل النقيض الصارخ للإمبراطورية البيزنطية، إذ لم تكن سوى قوة برية لا منافذ لها على بحر أو محيط. وأصبحت أقاليم البحر المتوسط - التي كانت أنشط أجزاء الإمبراطورية سابقا، والتي وفرت الحياة للجميع - الأكثر فقرا والأكثر خرابا والأكثر عرضة للتهديد المستمر. وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ أوروبا التي ينتقل فيها محور الحضارة الغربية إلى شمال القارة، وظل هناك بين نهري السين والراين لعدة قرون. وأصبحت الشعوب الجرمانية - التي كانت حتى ذلك الوقت تقتصر على القيام بدور سلبي وتدميري - تقوم بلعب دور إيجابي في إعادة بناء الحضارة الأوروبية.(٢٩)

وعلى الرغم من أن لاتوش كان يختلف مع بيرنه في العديد من خصوصيات ردود الأفعال الكارولنجية على فقدان السيطرة على البحر المتوسط، فإنه وافقه أخيرا بالقول:

"انقسمت الإمبراطورية الكارولنجية بعد أقل من نصف قرن من تكوينها، ولم يفعل شارلمان شيئا لمنع، بل لم يحاول حتى تأخير، تطور

(*) سارسين Saracen: تسمية كانت أطلقتها السلطات البيزنطية على المسلمين والعرب في شبه الجزيرة العربية وسوريا، وشاعت بصفة خاصة خلال فترة الحروب الصليبية (القرون من العاشر وحتى الخامس عشر). ويرجع البعض أن الاسم كان قد عرف أول مرة في جغرافية بطلميوس حين أشار إلى قبائل عربية في شمال سيناء اسمها "ساراكيني Sarakene". ومن حيث التصنيف يلاحظ أن الساراسين تسمية تعني بصفة عامة "المسلمون العرب المشارقة" في مقابل "المورو Moors" التي تعني بصفة عامة "المسلمون البربر المغاربة". (المترجم)

المؤسسات الإقطاعية التي كانت محملة بتهديدات ثقيلة في المستقبل... مستقبل لم يكن للعالم فيه مصالح تجارية ولا صناعات كبيرة، وكان النشاط الزراعي يسيطر عليه".(٣٠)

ولم تعد هناك حياة حضرية ولا تجارة ولا نظم سوق تتضمن سلع تجارة المسافات البعيدة إلى أوروبا، واستمر ذلك حتى نهاية القرن الحادي عشر على الأقل، بل وربما خلال القرن الثاني عشر.(٣١) ففي ذلك الوقت، كان يمكن التعبير عن عمق التدهور الذي وصلت إليه الحياة الأوروبية بظهور أشكال افتراس وتوحش متدثرة بأثواب تجارية.(٣٢)

البرجوازية الأولى

في وسط هذه الأجواء من الأرض الجدبة ظهر كيان اجتماعي/ اقتصادي ينسب إليه المنظرون الاجتماعيون الأوروبيون، ليبراليون وماركسيون، نشأة الحضارة الغربية (البرجوازية). في هذه البيئة لم يكن هناك سوى قليل متحررين من سلطة الطبقة الحاكمة المتخلفة فكريا والراكدة تجاريا، والتي كانت فيها المجاعات والأوبئة تمثل الوضع الطبيعي للأشياء، وحيث تراجعت علوم العالم القديم منذ زمن كأساس للتطور الفكري بسبب الخرافات اللاهوتية والانشغال بدراسة الجن والشياطين.(٣٣) كانت شخصية البرجوازي بمثابة ذلك التاجر الغريب على المجتمع الإقطاعي، بمثل ما كان الغزاة البرابرة غرباء على الإمبراطورية. لكن على خلاف تجار البحر المتوسط،(٣٤) كانت أصول البرجوازية الأوروبية الغربية غامضة. ولا شك في أن هذا يرجع أساسا إلى حقيقة أن التوثيق التاريخي مبعثر ومتناثر، حيث

اختفت الحضارة بالمعنى الرسمي لثقافة المدن إلى حد بعيد، وحيث كانت وقائع الحياة هي فقط حياة الصفوة التي تسيطر على الأراضي والكنيسة، والمهتمين أساسا بتجاربهم الخاصة ممن يناصبون العداء للتجارة.(٣٥) ومع ذلك، كان واضحا أن طبقة تجار أوروبا الغربية - "طبقة المدفوعين للهجرة(٣٦) "Deracines" - تبلورت في نظام اجتماعي بدت فيه هذه الطبقة ظاهرة غريبة عليه.

وقد وصف بيرنه التنظيم الاقتصادي لإنتاج الأراضي المملوكة بأنه "اقتصاد محلي مغلق يمكن أن نسميه بدقة بأنه اقتصاد اللاسوق".(٣٧) صحيح أنه كانت هناك أسواق محلية، لكن دورها ووجودها لم يساهم في تطور أسواق تجارة المسافات الطويلة التي كانت أساس تطور طبقة التجار. وكان تاجر التجزئة "الميركانتي mercati" الذي سبق ظهور البرجوازي يتعامل فقط في تجارة المواد الغذائية على مستوى تجارة التجزئة.(٣٨) وكان العامل الوحيد "الداخلي" في النظام الإقطاعي - والذي ساهم فعلا في ظهور البرجوازية - يتمثل في النمو السكاني في القرن الحادي عشر. وقد فرضت هذه الزيادة في النهاية ضغوطا كبيرة على الإنتاج الإقطاعي، على نحو ما يعبر بيرنه قائلا:

"أدى النمو السكاني إلى عزل أعداد كبيرة من الناس عن الأرض بصورة متزايدة، وإلى ارتباطهم بنمط متنقل وخطر كان بمثابة مصير أولئك الذين لم يعودوا يجدون رابطا لهم مع جذورهم في تربة كل حضارة زراعية. وأدى ذلك النمو إلى تزاحم المشردين... ولا بد أن الشخصيات النشطة المتأثرة بتجربة الحياة المفعمة بالمجهول كانت تنتشر بينهم. وكان الكثيرون

منهم يعرفون لغات أجنبية، وكانوا يدركون عادات وحاجات شعوب مختلفة. وحين كانت الفرصة تتاح لهم... كانوا مؤهلين للاستفادة من هذه الظروف بصورة ملحوظة... وانتشرت المجاعات في أنحاء أوروبا، تارة في مقاطعة وتارة في أخرى، بسبب ضعف وسائل الاتصال، مما أدى إلى زيادة فرص الذين يعرفون كيف يستفيدون منها في تحقيق الثراء. إذ إن وجود عدد قليل من أجولة القمح في التوقيت المناسب ونقلها إلى المكان المناسب كان كافيا لتحقيق أرباح طائلة... ومن المؤكد أن الأمر لم يستغرق طويلا حتى ظهر "الأثرياء الجدد" في وسط هذا الحشد البائس من الفقراء الذين يتجولون حفاة في العالم".[٣٩]

وفي البداية، وقبل أن يطلق عليهم اسم البرجوازيين، كان هؤلاء التجار يسافرون من إقليم إلى إقليم، وكانت حياتهم تعتمد على حراكهم وقدرتهم على التربح من تكاثر السكان الغارقين في تربة المزرعة. وربما كان حراكهم يتأثر بحقيقة أن الكثيرين منهم لم يكونوا مولودين أحرارا، وهكذا كانوا يحاولون الانعتاق من وضعهم الاجتماعي بالفرار من أسيادهم و"كانوا يعتبرون أجانب في كل مكان، نظرا لتجوالهم المستمر".[٤٠] وغالبا ما كانوا يسافرون في مجموعات صغيرة طلبا للأمن، وهي العادة التي استمرت حتى المرحلة الأكثر استقرارا. ولم يستغرق الأمر طويلا حتى بدأوا في تأسيس "البورتي **Porti**" (متاجر أو نقاط نقل التجارة) خارج القلاع **Burgs** (قلاع النبلاء الألمان) والأسقفيات والبلدات **Towns** التي انتشرت عبر الطرق الرئيسة لمسارات الجيوش وطرق الاتصال، والتجارة الدولية لاحقا. وكانت هذه المواقع أو مستعمرات التجار **Porti** هي التي أسست مدن العصور

الوسطى في الظهير الأوروبي في الأساس. فعند هذه المرحلة أصبح تجار أوروبا برجوازيين. وبحلول بدايات القرن الثاني عشر، كان هؤلاء البرجوازيون قد بدأوا تغيير الحياة الأوروبية إلى أوضاع ممهدة لظهور الرأسمالية كتنظيم سائد للإنتاج الأوروبي.

وأعادت البرجوازية الأوروبية الغربية تأسيس المراكز الحضرية (المدن Cities) بإقامتها على التبادل بين البحر المتوسط، والشرق، وشمال أوروبا، ويمضي بيرنه قائلا:

"ظهرت [في القرن العاشر] في النصوص الأنجلوساكسونية(*) كلمة "بورت port" والتي استخدمت مرادفة للكلمتين اللاتينيتين "مدينة urbs" و"مستوطنة civitas"، وحتى الوقت الحاضر فإن مصطلح "بورت" يظهر عادة في أسماء المدن في كل البلاد التي تتحدث الإنجليزية.

وليس هناك شيء من تلك المرحلة يوضح العلاقة الوثيقة التي وجدت بين الانتعاش الاقتصادي في العصور الوسطى وبدايات حياة المدن. فقد كان الارتباط بينهما وثيقا لدرجة أن نفس الكلمة "بورت Port" التي كانت تشير إلى المستوطنة التجارية ظهرت في واحدة من أكبر لغات أوروبا لتشير إلى المدينة نفسها".(٤١) ويوضح بيرنه الأمر في موضع آخر بإيجاز فيقول:

"بسبب زيادة سكانها فإن أوروبا "استعمرت" نفسها".(٤٢)

(*) أنجلوساكسون Anglo-Saxons: قبائل جرمانية غزت وسكنت بريطانيا في القرن الخامس والسادس، قادمين من شمال ألمانيا وهولندا والدنمارك، حيث اتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية. وقد كانوا عندئذ ثلاث قبائل، هم الأنجل والسكسون والقوط. (المترجم)

وكانت شعوب الفلاندرز(*) أولى المراكز التجارية الأوروبية الكبرى، وكان تركزها الجغرافي يعمل على خدمة تجارة البحار الشمالية، فضلا عن أهميتها الاقتصادية الكبرى بسبب صناعة الأقمشة التي اشتهرت بها. وجاءت بعد الفلاندرز شعوب أخرى في مقدمتها: بروجس، غنت، يبريس، ليل، دواي، أراس، تورناي، كامبراي، فالنسيا، ليج، هوي، دينانت، كولونيا، ماينتس، روين، بوردو، وبايون(**).(٤٣) وكان القماش – الذي اعتبره كل من بيرنه(٤٤) وكارل بولاني(٤٥) أساس التجارة الأوروبية – صناعة ريفية أساسا، قد تحول على يد البرجوازية في فلاندرز إلى صناعة حضرية "منظمة على الأسس الرأسمالية للعمل بأجر".(٤٦) وهكذا بدأ التركز الحضري للصناعة. ويمضي بيرنه موضحا:

"ساعدت زيادة السكان بالطبع على التركز الصناعي. حيث تدفقت أعداد من الفقراء إلى المدن التي نمت بها صناعة القماش باعتبارها النشاط الذي تطورت منه التجارة بصورة تناسبية مع تطور التجارة، وضمنت لهم طعامهم اليومي...

واختفت الصناعة الريفية القديمة بسرعة كبيرة. فلم تستطع التنافس مع صناعة المدن، التي تتمتع بوفرة المواد الخام من التجارة، وتعمل بأسعار منخفضة، وتتمتع بأساليب أكثر تقدما...

(*) الفلاندرز Flanders : سكان الجزء الناطق بالألمانية في شمال بلجيكا. وكان هذا الإقليم من الناحية التاريخية يشغل بالإضافة إلى شمال غرب بلجيكا مناطق محيطة به في كل من فرنسا وألمانيا. وتعد العاصمة البلجيكية بروكسل هي المركز الثقافي والتاريخي للفلاندرز. (المترجم)

(**) انتشرت كل هذه الشعوب في شمال غرب أوروبا (المترجم).

ومهما كانت طبيعة الصناعة في الجوانب الأخرى، فإنها كانت تتبع في كل مكان قانون التركز الذي كان ساريا في مثل ذلك الوقت المبكر في الفلاندرز. ففي كل مكان كانت مجموعات المدن تجذب الصناعة الريفية إليها بفضل التجارة".[٤٧]

وصحيح أيضا أن البرجوازية عندما فعلت ذلك حررت بعض قطاعات من أقنان الأرض[٤٨] لكنها أعادت استعبادهم ثانية من خلال العمل بأجر. فقد واكب الصناعة الحضرية هجوما ناجحا على الرق الإقطاعي. ويعود بيرنه مؤكدا:

"لقد كانت الحرية القديمة حكرا على الطبقة المتميزة. ولكنها من خلال المدن استعادت مكانتها ثانية في المجتمع كصفة طبيعية للمواطن. فبعد ذلك كانت الإقامة على أرض المدينة تكفي لاكتسابها. إذ إن كل قن عاش لسنة ويوم داخل حدود المدينة كان يحصل على الحرية بالحق الطبيعي: فقد ألغى دستور الحدود كل الحقوق التي كان يمارسها سيده على شخصه وأمتعته. وكانت الحالة عند الميلاد لا تعني الكثير. فمهما كانت السمة التي وسم بها الطفل في مهده، فإنها تتلاشى في جو المدينة".[٤٩]

ومع تطور تجارة المسافات البعيدة، وتطور المراكز الحضرية في أوروبا الغربية، ظهرت بعض التخصصات في الإنتاج الريفي. وعلى الرغم من انتشار زراعة الحقول المفتوحة في أنحاء أوروبا في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فقد ظهر إنتاج الحبوب المتخصصة في بروسيا (الذرة)، وتوسكانيا ولومبارديا (حبوب الطعام) وإنجلترا (القمح) وشمال ألمانيا (حبوب الجاودار الشبيهة بالقمح). وبحلول أواخر القرن الخامس عشر، ظهرت زراعة الكروم في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وجنوب

غرب ألمانيا. وفي كل من بحر البلطيق وبحر الشمال، كوّن السمك والملح جزءًا مهما من شحنات سفن الهانزا(*). وفي إنجلترا وإسبانيا، بدأ إنتاج اللحوم بغرض التصدير.(٥٠)

وفي شمال أوروبا، شملت هذه الصادرات الصوف والأقمشة الصوفية كأساس مهم للتجارة الدولية. وفي جنوب أوروبا - وبالتحديد في البحر المتوسط - أصبحت تجارة المسافات الطويلة في القماش (الصوف والحرير والقطن مؤخرا) والحبوب والخمور تكمل تجارة كبيرة في سلع الرفاه، ويوضح هاي قائلا:

"وجدت المواد الثمينة من الشرق طريقها إلى كل أسرة ثرية، وهكذا فعلت السلع المتخصصة في مختلف أقاليم أوروبا: العنبر والفراء من الدول المجاورة للبلطيق، والأعمال الفنية مثل اللوحات من فلاندرز، والمطرزات من إنجلترا، والأشياء المطلية والمصقولة من ليموجس(**)، والكتب المخطوطة للكنائس والمخادع والمكتبات والدروع والأسلحة من ميلانو، والزجاج من البندقية.(٥١)

وكما يقول إيريس أوريجو Iris Origo، فإن معظم الحمولات الثمينة لتجار البحر المتوسط كانت تتمثل في الرقيق:

(*) الهانزا Hansa: رابطة تجارية واتحاد للدفاع عن المصالح التجارية والمدن والأسواق التجارية، سيطرت على سواحل شمال أوروبا: من بحر البلطيق إلى بحر الشمال، وذلك خلال أواخر العصور الوسطى والفترة الحديثة المبكرة (من القرن الثالث عشر إلى السابع عشر). أسست الرابطة نظاما قانونيا وجيوشا لحماية المصالح التجارية لكنها لم تكوّن نظاما سياسيا من دول - المدن، باستثناء عدد قليل منها كان يتمتع بالاستقلال الذاتي عن الرابطة. (المترجم)

(**) ليموجيس Limoges: مدينة في الجزء الغربي من وسط فرنسا. (المترجم)

"كان التجار الأوروبيون وتجار ساحل شرق البحر المتوسط يبيعون الخمور اليونانية والتين الليجوري(*)، والمواد الكتانية والصوفية من تشامبين ولومبارديا(**)، ويشترون الحرير النفيس من الصين، والسجاد من بخارى وسمرقند، والفراء من جبال الأورال، والتوابل من الهند، وكذلك منتجات الحقول والغابات السوداء الغنية في شبه جزيرة القرم. ولكن أكثر أنواع التجارة ازدهارا كان يتمثل في تجارة الرقيق - لأن كافا(***) كانت سوق الرقيق الرئيس في شرق البحر المتوسط".[٥٢]

وكانت أجناس الرقيق تأتي أساسا من التتار والإغريق والأرمن والروس والبلغار والترك والشركس والسلافون والكريت والعرب والأفارقة (المغاربة) وأحيانا الصينيين (الكاثي)[٥٣]. وكان ثلثهم من الإناث[٥٤]. وانتشر هؤلاء الرقيق في منازل الأثرياء، بل وفي بيوت الأسر الإيطالية والكتالونية المتواضعة نسبيا".[٥٥]

ومن القرن الثالث عشر حتى بدايات القرن الخامس عشر، كان الدور الاقتصادي لهؤلاء الرقيق (ذوي الأصول الأوروبية في المقام الأول) يتمثل في الخدمة المنزلية في جنوب أوروبا.[٥٦] ومع ذلك، نجد في إسبانيا (كتالونيا وقشتالة)، وفي المستعمرات الإيطالية في قبرص وكريت، وفي آسيا الصغرى (فوكايا(****) Phocaea)، وفلسطين، استخدم سادة جنوة والبندقية كلا

(*) ليجوريا Liguria: إقليم تاريخي في شمال غرب إيطاليا. (المترجم)

(**) تشامبين Champagne : إقليم تاريخي في شمال شرق فرنسا؛ لومبارديا : Lombardy إقليم في شمال غرب إيطاليا.

(***) كافا Caffa مدينة في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود في دولة أوكرانيا اليوم تعرف حاليا باسم فيودوسيا Feodosiya. (المترجم)

(****) فوكايا Phocaea: مدينة يونانية قديمة علي الساحل الغربي من المنطقة المعروفة بـ "الأناضول" في تركيا حاليا. (المترجم)

من الرقيق الأوروبيين والأفارقة في الزراعة في مـزارع الـسكر، وفـي الصناعة وللعمل في المناجم، وفي ذلك يقول تشارلز فرلندن:

"توضح هذه التوليفة من استخدام الرقيق درجة تمثيل رقيق مستعمرات العصور الوسطى لنموذج الرق الاسـتعماري العـابر للأطلنطـي. حيـث استخدمت قوة عمل الرقيق في المستعمرات الإيطالية في البحر المتوسط لكل أنواع العمل التي يمكن ستظهر لاحقا في مستعمرات مـا وراء الأطلنطـي. وكان التغير الوحيد المهم يتمثل في أن ضحايا الرق البيض حل محلهم عـدد أكبر كثيرا من الزنوج الأفارقة الذين تم أسرهم في غـارات قـنص البـشر أو عبر شرائهم من الأسواق". (٥٧)

وهكذا أثبتت هذه التجارة في الرقيق بصورة غير متوقعة أنها بمثابـة طوق نجاة لبرجوازية البحر المتوسط. ومع ذلك، ظهر في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر أن تجار الداخل الأوربي كان لا بـد أن يتفوقـوا على تجار دول المدن الإيطالية. فعلى عكس الإيطاليين، كما يقول جيوليـانو بروكاتشي Jiuliano Procacci، لم يكن يعيق تجار الداخل حجم السكان الصغير والكثيف في شبه الجزيرة، والمعدلات غير المواتية بصورة متزايـدة بـين سكان المدن وسكان الريف (كانت فلورنسا تعيش على المنتجات الزراعيـة لظهيرها الريفي لخمسة شهور فقط في السنة، وكانت جنوا والبندقية تعـيش كليا تقريبا على ما يقدمه البحر)؛ وأدى قطع الأخشاب السريع في الريف إلى تفاقم دمار فيضانات الخريف والربيع. (٥٨)

ومع ذلك، كان قدر هذه البرجوازية الوليدة ألا تزدهر. ففـي الواقـع، وللحظة تاريخية، يمكن أن يقال إنه حتى المزيد من تطور الرأسمالية كـان

موضع تساؤل. إذ إن أحداث القرنين الرابع عشر والخامس عشر تدخلت في العمليات التي من خلالها تراجع الإقطاع في النهاية لصالح أشكال عديدة للرأسمالية.(٥٩) وتمثلت نتيجة هذه الأحداث في تحديد أشكال العالم الحديث، المتمثلة في كل من: الكيانات البرجوازية التي حولت الرأسمالية إلى عالم حديث؛ والتطور المترتب على ذلك؛ والحيوية النسبية للاقتصادات الأوروبية العديدة؛ ومصادر العمل التي كان يعتمد عليها كل اقتصاد.

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التي نتحدث عنها تتمثل في: المجاعات الدورية التي ضربت أوروبا في تلك الفترة؛ الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر والسنوات التالية؛ وحرب المائة عام (١٣٣٧- ١٤٥٣)، وتمردات المزارعين والحرفيين.(٦٠) فقد كان لها تأثير مدمر على أوروبا الغربية والبحر المتوسط - حيث أهلكت سكان المدن والريف على السواء، وأربكت التجارة، وأدت إلى انهيار الإنتاج الصناعي والزراعي - مما أضر بمعظم أكثر الأقاليم تقدما في أنشطة برجوازية أوروبا الغربية. وقد لخص دينيس هاي Denys Hay هذا الأمر بصورة جيدة:

"كان يمكن رؤية تأثير الندرة المستمرة والطاعون المتوطن والمتفشي، والغزو المتقطع والكارثي للجيوش التي لا ترحم، والتهديد المستمر في مناطق عديدة من عصابات السطو جيدة التنظيم. وترتب على ذلك تناقص السكان وتدهور الطرق التي تركت للنباتات البرية، وفي إهمال الأراضي الصالحة للزراعة، وفي القرى المهجورة. وأدى تناقص مساحة الزراعة إلى أن تجسدت المجاعات أشباحا مخيفة. ويشير أحد التقديرات المعتدلة إلى أنه "في عام ١٤٧٠ انخفض سكان معظم القرى الأوروبية إلى النصف مقارنة

ببداية القرن الرابع عشر"؛ وكان استرداد الغابات وتبديد الأراضي الزراعية بمثابة "حقبة تساوي في أهميتها مأساة" قطع الغابات سابقا تمهيدا للسكن والزراعة".(٦١)

وكان هذا التدهور الاقتصادي العام في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ملحوظا بصورة واضحة وتجلت في اضطرابات اجتماعية أكثر وضوحا من الحروب الساعية للسيطرة على الأرض. فقد كانت هذه الحروب بطبيعتها مع المجتمع الإقطاعي على أي حال. أما ظهور الحركات الاجتماعية فلم يكن كذلك، وهنا يوضح هاي:

"شهد القرن الثالث عشر ذروة زيادة السكان في المناطق الريفية، مما جعل الكثير من القرويين - مثل عمال اليومية والأقنان الفقراء - معرضين لأوضاع بالغة السوء. الآن، صار الريف مسكونا بصورة أكثر تبعثرا، مما وفر حياة أفضل لمن تبقوا... ولكن الشيء الجديد في الأوضاع المنهارة في القرن الرابع عشر فكان يتمثل في العلاقة المريرة التي جمعت ملّاك الأراضي بالقرويين".(٦٢)

وكما يوضح هاي، حدثت أكثر تمردات القرويين ضراوة في منطقة الفلاندرز (١٣٢٥- ١٣٢٨)، وشمال فرنسا (تمرد الفلاحين(*) عام ١٣٥٨)، وإنجلترا (١٣٨١). ولكن مثل هذه الحركات اندلعت في معظم أوروبا الغربية

(*) تمرد الفلاحين أو تمرد الجاكري Jacquerie: تمرد شعبي في شمال فرنسا في صيف عام ١٣٥٨م خلال حرب المائة عام. عرف في اللغة الفرنسية نسبة إلى الوصف الذي أطلقته السلطة على الفلاحين ذوي الثياب الفقيرة الرثة التي تشبه "أردية الكهنوت المبطنة Jacques"، وبالتالي فالجاكري Jacquerie هو ذلك الفلاح المتمرد المرتدي لتلك الملابس. تمكنت الدولة من سحق التمرد بعد عدة أسابيع من الأحداث العنيفة والدموية. (المترجم)

خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر. ففي فرنسا، وخاصة في نورماندي (والذي تسارع بسبب توحش القرويين في النهاية بفضل قوات حرب المائة عام)، وكتالونيا (١٤٠٩-١٤١٣)، ويوتلاند في الدانمارك (١٤١١)، وفنلندا (١٤٣٨)، وألمانيا (١٥٢٤)، ثار المزارعون واستولوا على الأراضي وأعدموا ملاك الأراضي ورجال الدين وحتى المحامين، وطالبوا بإنهاء مستحقات أصحاب المزارع، وطالبوا بإقرار العمل بأجر، وأصروا على إلغاء القيود على حرية البيع والشراء.[٦٣]

وفي دوامة هذه الاضطرابات، تدهورت تجارة المسافات الطويلة كثيرا. ففي إنجلترا، انخفض تصدير الصوف والقماش، وبالتالي إنتاجهما، عن مستويات القرن الثالث عشر كثيرا.[٦٤] وفي جنوب غرب فرنسا (إقليم جاسكوني) تأثرت صادرات الخمور أيضا.[٦٥] ويلاحظ هاي أن "حالات الإفلاس في فلورنسا في النصف الأول من القرن الرابع عشر تكررت أيضا عند نهاية القرن الخامس عشر"[٦٦]، بينما يذكر رامسي الانهيار الحاد "للمصرفيين التجاريين الكبار في جنوب ألمانيا".[٦٧] وإلى الشمال، تفككت رابطة الهانزا،[٦٨] أما إلى الغرب، فقد انهارت صناعة القماش الفلمنكية.[٦٩] وأخيرا، فإنه حتى "دول المدن City -State" التي نشأت في شمال إيطاليا قد وجدت برجوازيتها تنهار. إذ إن صعود الإمبراطورية العثمانية، والذي أربك البيوت التجارية الإيطالية في البداية، فرض توافقات جديدة مع الإسلام والتجارة، مما أقنع بعض الإيطاليين بالانتقال بوصفهم مستعمرين رأسماليين في شبه جزيرة إيبيريا.[٧٠] ومع ذلك، ظهر في تلك اللحظة أن أسس الحضارة الأوروبية تنهار، على الرغم من أنها كانت لا تزال في طور التكوين شكليا.

برجوازية العالم الحديث

اعتبر هنري بيرنه أن البرجوازية كانت أحد أسرار ظهور الحقبة الحديثة في القرن السادس عشر لأنها كانت "طوق نجاة" من الفوضى واليأس اللذين كانا سائدين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكذلك توقع بيرنه السؤال البلاغي نوعا ما والذي طرحه ديفيس K. G. Davies في خضم الجدال الدائر حول المصداقية التاريخية لظهور الطبقة الوسطى، حين تساءل ديفيس قائلا:

"ما الخطأ إذًا في القول بأن البرجوازية قد حسنت من وضعها عبر عدة قرون، وإن هذا التحسن قد جاء بصورة متدرجة غير مطرْدة؟ وما الخطأ في الاعتقاد بأن ذلك كان بمثابة عملية بدأت مع ظهور البلدات towns ولم تكتمل بصورة نهائية بعد؟".(٧١)

وقبل ذلك بأربعين عاما، كان بيرنه قد أجاب بقوله:

"إنني أعتقد أن هناك طبقة رأسمالية متميزة ومستقلة ظهرت في كل فترة من فترات تاريخنا الاقتصادي. وبعبارة أخرى، إن مجموعة الرأسماليين في حقبة معينة لا تنبثق من المجموعة الرأسمالية للحقبة السابقة. فعند كل تغير في التنظيم الاقتصادي، يحدث انقطاع في الاستمرارية. ويبدو الأمر كما لو كان الرأسماليون الذين كانوا نشطين حتى ذلك الوقت يعترفون بأنهم غير قادرين على التكيف مع الأوضاع التي تفرضها الحاجات الجديدة التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت، والتي تتطلب استحداث أساليب لم تكن مستخدمة".(٧٢)

لقد تم تشبيه البرجوازية بأنها ترعرعت في العصور الوسطى اســتنادا إلى النزعة التجارية (الميركانتية) وإلى إدارة "أنظمة الحكم الملكي المطلــق Absolute Monarchies" في الفترة التقليدية بين الإقطاع والرأســمالية، واشــتد عودها على أنقاض أراضي وألقاب النبلاء، ثم حققت أخيرا النضج السياسي والاقتصادي مشكلة ما صار يعرف باسم الرأسمالية الصناعية. ويذهب بيرنه وديفس إلى أن هذا التشبيه ليس له أدلة تاريخية تــسانده، بــل هــو مجــرد "انطباع" تاريخي، أي عرض لظاهرة تشكلت أساسا منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى الوقت الحاضر نتيجة النشاط النظري للبرجوازية كطبقة مسيطرة. حيث يمثل تاريخ "ظهور الطبقة الوســطى" مزجــا بــين القــوة الــسياسية والاقتصادية للبرجوازية، والأيديولوجية التي تخدم ذاتها لــدى البرجوازيــة كطبقة حاكمة، ومن ثم الاستغراق الفكري والسياسي - والتي تتأثر من خلال مركبات نظرية التطور الداروينية:

"لقد استمدت اللغة الخطأ من داروين، وهي اللغة التي أغلقت التفكيــر التاريخي وفرضت نتائج سيئة وغير دقيقة حتى على الدارســين والبــاحثين المطلعين. إذ إن كلمات مثل "النمو"، "التدهور"، "التطور"، "النشوء"، "التحلل"، يبدو أنها بدأت كوسيلة، ولكنها انتهت كغاية (كانت خادمة فاستحالت إلهــة) ومن ثم دفعتنا إلى حافة الحتمية التاريخية".[٧٣]

ومن نفس التقاليد الميتافيزيقية تمت صياغة كل من جدلية هيجــل فــي مفهوم التسامي Aufhebung، وجدلية ماركس في مفهوم الــصراع الطبقــي، والتناقضات بين أنماط وعلاقات الإنتاج، وتطور الأنواع عند داروين، والبقاء للأصلح عند سبنسر. فلم تكن البرجوازية الأوروبية المتدهورة في القــرنين

الرابع عشر والخامس عشر تمثل في معظمها الأصول الحقيقية للبرجوازيـة التي ظهرت في القرن السادس عشر. إذ إن عمومية الرأسـمالية لا تعتبـر حقيقة تاريخية بقدر ما تعتبر بمثابة مركب "للغة الخطأ".(٧٤) فهذه "الطبقـات الرأسمالية البعيدة والمنفصلة" لم تكن بمثابة تمثيل لنظام تجاري رشيد ملازم، بقدر ما كانت امتدادا لآليات وثقافات تاريخية معينة. ولم تكن "نـواة" نظـام جديد يظهر جدليا في مجال محدد بصورة متزايدة (الإقطاع تحديدا) ولكنها كانت طبقات انتهازية تتكيف برغبتها مع الظروف والإمكانات الجديدة التـي تظهر في الأوقات المختلفة. فلم يقتصر الأمر على ظهـور البرجوازيـات الأوروبية الغربية المختلفة في القرن السادس عشر، ولكن هذه البرجوازيات الجديدة كانت متضمنة في الهياكل والمؤسسات والمنظمات التي عانت مـن التجمد الفكري في العصور الوسطى.

فأولا، انتقل محور تجارة المسافات بعيدة المدى في أوروبا الممتـد مـن مناطق البحر المتوسط وسكانيا(*) ليتحول إلى المحيط الأطلنطي. وكان أبـرز أشكال هذا التوسع في التجارة في جنوب وغرب شبه القارة الأوروبية يتمثـل في الرحلات التجارية والاستعمار. وثانيا، أصبحت "هياكل الدولة البيروقراطية المتوسعة"(٧٥) بمثابة قنوات التوصيل الكبرى للتوسع الرأسمالي: حيث حـددت اتجاه الاستثمار، وضمنت الاستقرار السياسي لهذه الاسـتثمارات، وشـجعت شبكات وعلاقات تجارية بعينها دون غيرها، وهنا يلاحظ كيرنان ما يلي:

"يمكن أن نرى أن مصفوفة الرأسمالية الحديثة في هذه الأوضاع، مثلها مثل القومية، هي نتاج الدولة الحديثة، وليست صانعة لها. وللرأسمالية سوابق

(*) إقليم صناعي في السويد، شمال أوروبا. (المترجم)

عديدة، ولكن ظهورها الكامل تطلب تضافر عوامل سياسية وأخلاقية واقتصادية. وكان بوسع هذا الظهور أن يحدث في الإطار المعقد لأحد أنماط الدولة الغربية الآخذ في التطور آنئذ؛ ومن المشكوك فيه أن الظهور المكتمل للرأسمالية قد تم في ظل أية ظروف أخرى نعرفها في التاريخ؛ فلم يحدث ذلك على أي حال".(٧٦)

ولأن المدينة city مثلت نقطة انطلاق للبرجوازية المبكرة وشبكاتها في تجارة المسافات البعيدة فقد أثبتت أنها غير قادرة على الحفاظ على استمرار الانتعاش الاقتصادي لهذه البرجوازيات التي وصلت معها البلدات towns التجارية لقمة تطورها، كما هو الحال في شمال إيطاليا، غرب ألمانيا، هولندا، والبلطيق.(٧٧) وقد أدت الدولة ذات السلطة المطلقة Absolutist State في ظل هيمنة الأرستقراطيات الأوروبية الغربية إلى ظهور برجوازيات جديدة. وقد تكونت هذه البرجوازية انطلاقا من سياسات إدارة أقاليم مثل قشطالة (في إسبانيا)، وإيل دو فرانس(*)، والمقاطعات الداخلية المحيطة بلندن Home Counties ومدينة لندن ذاتها، فضلا عن التطلعات التوسعية والاستعمارية لهذه الأقاليم وهياكل اقتصاداتها السياسية القائمة على القمع والاستغلال.

وقد تراكمت برجوازيات القرن السادس عشر في أركان الدولة. وقد اكتسبت الدولة آليات الحكم متمثلة في: بيروقراطيات الإدارة، المصالح التنظيمية والاستخراجية، وجيوش القمع الاستعمارية، والمنافسة الدولية، والقمع المحلي(٧٨). وبترسيخ تلك الآليات فإن الذين كانوا على وشك تكوين

(*) جزيرة فرنسا Île-de-France : المنطقة المحيطة بباريس، الأكثر ثراء وكثافة في السكان. (المترجم)

طبقة اجتماعية جديدة تمكنوا من السيطرة على الأدوار المتزايـدة للجهـات الاقتصادية والسياسية والتشريعية. ومع التوسع الضروري لأنـشطة الدولـة المالية والاقتصادية،(٧٩) تطفلت طبقة تجارية ومصرفية جديدة على الدولـة، وأصبحت الأنشطة المالية للدولة من قروض واحتكـارات وتجـارة بمثابـة الأعمدة المركزية لبناء هذه الدولة. وفي هذا الصدد يقول فيرناند بروديل:

"بينما حازت الدول والإمبراطوريات الإقليمية على الأراضي بوفرة، لم تكن هذه الدول قادرة على استغلال الوحدات الاقتصادية الـضخمة الناتجـة بدون مساعدة خارجية. وقد فتح هذا العجز الباب ثانية أمام البلدات والتجار. كان التجار يكونون ثرواتهم خلف واجهة التبعية. وحتى عندما كانت الـدول تستطيع السيطرة بسهولة على أقاليمها وعلى رعاياها، غالبا ما كانت تضطر إلى إجراء التعديلات والتوافقات".(٨٠)

ولا يزال الجدل دائرا حول ما إذا كان هذا نتيجة لما سماه آدم سـميث وإيلي هيكشر من بعده بنظام "النزعة الميركانتية(*) (٨١) أو نتيجة لما سـماه مؤرخون آخرون بأيديولوجية "الدولانية(**)".(٨٢) ومع ذلك، يتضح أنه بحلول القرن السابع عشر كانت البرجوازيات الجديدة ترتبط بالاتجاهات الـسياسية والتوجه السائد في الفكر الاقتصادي والذي كان ذو نزعة ميركانتية بحتـة. وفي ذلك يقول كولمان:

(*) الميركانتية: Mercantilism نزعة تجارية ومذهب اقتصادي يؤسسان لسيطرة الحكومـة علـى التجارة الخارجية بما يضمن الأمن العسكري للدولة وتوسيع نفوذها. انتشر هذا المذهب فـي أوروبا خلال القرون من السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر. وتسببت الميركانتيـة في حروب أوروبية متكررة في ذلك الوقت بدافع التوسع الاستعماري. (المترجم)

(**) الدولانية Statism : اعتقاد بأن على الحكومـة أن تـسيطر علـى الـسياسة الاقتـصادية أو الاجتماعية أو كليهما معا، وتبدو مصطلحا مقابلا لـــ- "الفوضـوية". وتتـدرج فـي مستوياتها من حماية الأمن القومي إلى ضبط مؤسسات الدولة بفروعها المختلفة. (المترجم)

"تتضمن مأساة "النزعة الميركانتية" الاعتقاد بأن ما يمثل مكسبا لفرد أو لدولة يمثل خسارة للآخرين... لقد كان ذلك العالم يمر بمرحلة ظل فيها عدد السكان ساكنا بصورة ملحوظة؛ وكان نمو التجارة والإنتاج يحدث بصورة تدريجية عادة، وكانت حدود العالم المعروف آنئذ تتوسع ببطء وصعوبة كبيرة، وكانت آفاقه الاقتصادية جد محدودة، والذي يقترب فيه الإنسان بدرجة كبيرة من تصور هوبس لحالة الإنسان الطبيعية التي اتسمت بحياة "بائسة، وكريهة، ووحشية، وقصيرة، وذلك بالنسبة لمعظم الفترات الحياتية لغالبية البشر".[٨٣]

وكان ضيق أفق تفكير البلدة town، الذي كان يميز منظور برجوازية العصور الوسطى، يتفق في هذه الحقبة الثانية من الحضارة الغربية مع ضيق أفق تفكير الدولة. حيث يعلق هيكشر بقوله:

"لم يكن الكيان الجماعي [لشعوب القرنين السادس عشر والسابع عشر] يتمثل في الأمة الموحدة على أساس السلالة واللغة والتقاليد المشتركة: ولكن العنصر الحاسم الوحيد كان يتمثل في "الدولة"... فقد كانت النزعة الميركانتية تفسر المفهوم السائد للعلاقة بين الدولة والأمة في الفترة السابقة على ظهور النزعة الرومانتيكية. فقد كانت الدولة وليس الأمة هي التي استوعبت الاهتمام".[٨٤]

وهنا نجد أن الطبيعة الخاصة لتشكيلات هذه البرجوازيات[٨٥] حجبت هيكلا نظاميا يسمى لاحقا الرأسمالية. إذ كانت الطبقة التي ترتبط بصورة متسقة جدا مع ظهور الرأسمالية الصناعية ترتبط بصورة وثيقة مع الهياكل

"الرشيدة" المحددة – وهي العلاقة التي أثرت بوضوح على تصورات وحقائق البرجوازية. وكانت الاقتصادات السياسية،[٨٦] أي الاقتصادات القومية، تحتويهم، وبالتالي أدركت البرجوازية ما اعتبره التحليل الحديث أنه بدايات نظام عالمي يمثل شيئا مختلفا تماما: ألا وهو النظام الدولي.[٨٧] فقد كانت برجوازيات الرأسمالية الحديثة المبكرة تحاول تدمير بعضها البعض أو سيطرة بعضها على البعض الآخر.

الطبقات الدنيا

على نحو ما كانت الطبقات الوسطى الأوروبية الغربية عالقة في نفس شبكات ضيق أفق التفكير التي عانت منها الدولة، كان الأمر كذلك بالنسبة للغالبية العظمى من الشعوب الأوروبية: أي الطبقات الدنيا. إذ إن طبقة النبلاء الحاكمة فرضت صبغتها على كل المجتمع الأوروبي، وذلك من خلال التحكم في أدوات الدولة. ونظرا لأن الكثير من هذه الصبغة كان يرتبط بالعنف،[٨٨] فإن الطبقات الدنيا كانت غارقة في نسيج النظام الاجتماعي العنيف. وكانت الطبقات الدنيا تشمل العاملين بأجر، القرويين، الأقنان، الرقيق، المشردين، والمتسولين. وكان تكامل هذه الطبقات في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية "للدولة المطلقة" رهينا بالشروط التي وضعها عملاء هذه الدولة. وكانت وظيفة الطبقات العاملة تتمثل في تزويد الدولة وطبقاتها المتميزة بالموارد المادية والبشرية المطلوبة لاستمرارها، وزيادة تراكم السلطة والثروة. ولم يكن ذلك مسألة بسيطة تتعلق بسيطرة الطبقة الحاكمة على الجماهير.

ولكن الجماهير لم تكن موجودة على هذا النحو. فكما حدث سلفا، عندما كون المفكرون الإغريق والرومان المركب الشمولي للبرابرة، فكر نبلاء أوروبا الإقطاعية الغربية وألفوا أسطورة مماثلة. وهنا يقول فريدريش هيرتس Friedrich Hertz:

"في العصور الوسطى وما بعدها، كان النبلاء، يعتبرون أنفسهم أصحاب دم أنقى من عامة الشعب، الذي كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء. حيث كانوا يفترضون أن القرويين ينحدرون من سلالة حام، والذي اشتهر بأن أباه نوح حكم عليه بالرق بسبب عدم صلاحه الديني. ومن ناحية أخرى، فإن طبقات الفرسان في العديد من البلاد كانت تعتبر نفسها من سلالة أبطال طروادة، الذين يقال إنهم استقروا في إنجلترا وفرنسا وألمانيا بعد سقوط طروادة. وقد استمرت هذه النظرية بصورة خطيرة في الأغاني والروايات العديدة لمناقب الفرسان، بل وفي العديد من الأعمال البحثية أيضا".[٨٩]

لقد كان ما أحياه الكونت جوبينو Gobineau في منتصف القرن السادس عشر أحد أشكال هذه الفكرة، حيث وسع صياغة مفهوم التفوق ليشمل عناصر البرجوازية.[٩٠] ومع ذلك، أثبت نبلاء القرن السادس عشر أنهم أكثر وعيا بشأن "الجماهير" مما يمكن أن تتضمنه أساطيرهم الخاصة بنسبهم. فلم يصبحوا ضحايا لتصوراتهم الوهمية. فعندما يتعلق الأمر بهياكل الدولة، كانت معرفتهم بالتركيبات الاجتماعية والثقافية والتاريخية للجماهير تنقح بصورة رائعة. وربما لا يظهر هذا بصورة أكثر وضوحا مما هو في واحد من أهم مجالات أنشطة الدولة: أي احتكار السلطة.

لقد كانت الدولة ذات السلطة المطلقة سببا ونتيجة للحرب. فقد كان اقتصادها اقتصاد حرب، وكانت تجارتها الخارجية مولعة بالهجوم،[٩١] وكانت بيروقراطيتها تدير استعدادات ومحاكمات الحرب.[٩٢] إذ كانت مثل هذه الدولة تحتاج إلى جيوش جاهزة (وقوات بحرية في الواقع). ولكن لأسباب سياسية مؤكدة ولأسباب اقتصادية أحيانا، لم يكن من السهل تجنيد الجنود من "جمهور المزارعين والفلاحين العاديين"، كما يقول كيرنان **Kiernan**. وقد لخص كيرنان الموقف ببساطة شديدة بالنسبة إلى فرنسا، على الرغم من أنه كان ينطبق على كل أنحاء أوروبا حين ذهب إلى القول: "نادرا ما كان الفرنسيون يتطلعون إلى خدمة ملكهم، ولم يكن ملكهم يتطلع إلى استخدام الفرنسيين". إذ كان الولاء للدولة الملكية من جانب الرتب المستغلة من الطبقات الدنيا نادرا. وعلى أي حال، لم تكن هناك دولة واحدة في القرن السادس عشر أو السابع عشر تعتمد على هذا الارتباط بين الجماهير وحكامها. إذ إن جنود جيوش فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، هولندا، بروسيا، بولندا، السويد، وروسيا في البداية، كانوا إما غرباء على الدول التي يحاربون من أجلها ويحرسونها، أو كانوا هامشيين جدا بالنسبة لها. وفي هذا الصدد يقول كيرنان:

"اعتمدت الحكومات الأوروبية... كثيرا جدا على المرتزقة الأجانب. وكانت إحدى المهام التي كانوا يقومون بها بصورة مناسبة تتمثل في قمع الرعايا المتمردين، وفي القرن السادس عشر (عصر تفشي الثورة) غالبا ما كان يتم استدعاؤهم لهذا الغرض... فقد كان على الحكومات... إما أن تنظر إلى المناطق المتخلفة بحثا عن أتباع أمناء بسطاء التفكير لا يتأثرون بالأفكار السياسية... أن تجد البديل في الأجانب.[٩٤]

وبناء على الثروات المتغيرة، و"هويات" المتحاربين، وجيوبوليتيكا الحروب، والمهمة المطلوبة، كان المرتزقة يأتون من السويد، اسكتلندا، بيكارديا، بريطانيا، الفلمنك، ويلز، الباسك، نافارايا، غالويا، دالماشيا، كورسيكا، بورغنديا، غولريان، أيرلندا، التشيك، الكروات، الماجيار، جاسكوني، أليجاو(*)، النرويج، وألبانيا. ونظرا لأن أحد أدوار ونتائج عمل هؤلاء المرتزقة كان يتمثل في قمع الشعوب الخاضعة، فإن درجة نجاحهم تتضح مباشرة من غيابهم معظم الوقت عن الجغرافيا السياسية لأوروبا الحديثة. ولكن الدولة ذات السلطة المطلقة (أو خلفاءها المباشرين)، وهي الأداة التي دفعتهم إلى الظهور في القرنين السادس عشر والسابع عشر (وحتى القرن الثامن عشر في فرنسا) هي التي استوعبت في النهاية القطاعات ذات الاستقلال الذاتي التي جاء منها المرتزقة.

وفي جيوش القرن السادس عشر، كان المجندون المحليون الموزعون بين المرتزقة الأجانب يختارون أيضا في ضوء تقليل المخاطر السياسية والاجتماعية على الملكية وحلفائها النبلاء. ففي فرنسا، كان الجيش "يحصل على المتطوعين من بين الأنماط الأقل "وطنية" والأكثر غموضا، وحثالة أفقر الطبقات"، كما يخبرنا كيرنان.[٩٥] وفي إسبانيا، كانت إمارات الباسك

(*) بيكارديا Picardy إقليم في شمال فرنسا، الباسك Basque جماعة عرقية تسكن المنطقة الحدودية بين فرنسا وإسبانيا في غرب جبال البرانس (بيرنيه) على ساحل خليج بسكاي الواقع على المحيط الأطلنطي؛ نفاريا Navarre إقليم في شمالي إسبانيا إلى جوار الباسك؛ جالويا Galloway منطقة في جنوب غرب اسكتلاندا، دالماشيا Dalmatia: إقليم ساحلي في جنوب غرب يوجسلافيا السابقة (في كرواتيا حاليا)؛ كورسيكا Corsica: جزيرة في البحر المتوسط بين فرنسا وإيطاليا، تتبع اليوم السيادة الفرنسية؛ جلدريا Gueldrian: إقليم في وسط شرق هولندا حاليا. أليجاو Allgaeu: إقليم في جنوب ألمانيا حاليا. (المترجم).

ومرتفعات الأراجون تؤدي وظيفة مماثلة. وفي بريطانيا، حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانت المرتفعات الاسكتلندية تمثل الموقع الأكثر شهرة للتجنيد، وأصبحت مهارة الجنود الويلزيين أسطورية.(٩٦)

وبنفس درجة الأهمية التي شكلها تكوين هذه الجيوش لبناء الدول التي سيطرت على أوروبا لأكثر من ٢٠٠ سنة، يجب ألا نغفل أيضا عن أهميتها التاريخية الأكبر على مستوى الثراء الرومانسي للدراما الاجتماعية والسياسية التي ساهمت فيها. وكان ابتكار لويس الحادي عشر في ١٤٧٤ لتنظيم "جيش فرنسي من غير الفرنسيين"(٩٧) ثوريا في نطاقه، وليس في طبيعته.(٩٨) وكان أسلوب تكوين جيوش من المرتزقة ومن الشعوب الهامشية والطبقات الاجتماعية يعود إلى العصور الوسطى وما قبلها. وكانت الجيوش الإمبراطورية، والجيوش الجمهورية، وجيوش اللصوص، والجيوش الغازية، والجيوش الدفاعية، وجيوش الرقيق المتمردين، وجيوش النبلاء، وحتى جيوش مدن العصور الوسطى المتعصبة، تستلهم أو تتضمن إلى حد ما أرواحا لا تهتم بها كثيرا في أحسن الأحوال في الأوقات الأقل توترا.(٩٩) والأهم من ذلك أنه عند مراجعة هذه الظاهرة في القرن السادس عشر وما بعده، لم تكن المشكلة تتمثل في أن المرتزقة كانوا يجندون من الخارج ومن بين أولئك الأقل أمنا في الداخل، فقد كان ذلك أفضل شكل موثق لنمط أكثر عمومية للتكوين الهيكلي والتكامل الاجتماعي.

ويتمثل المعنى المهم هنا في أن هذا الشكل من حشد الاحتياطيات البشرية لم يكن مقصورًا على الأجهزة العسكرية، ولكنه كان يمتد أيضا في أنحاء أوروبا إلى الخدمة المنزلية، والصناعات اليدوية، والعمالة الصناعية، وعمال السفن والأرصفة لدى الرأسمالية التجارية، وعمال الحقول لدى

الرأسمالية الزراعية. فلم تكن هناك لحظة في تاريخ أوروبا الحديث لم تكن فيها الهجرة والعمالة المهاجرة تمثل جانبا مهمًا من الاقتصادات الأوروبية.[١٠٠] ويبدو أن عدم فهم هذا الأمر على نطاق واسع كان نتيجة صياغة المفاهيم والتحليل: مثل الاستخدام الخاطئ "للأمة" كتصنيف اجتماعي وتاريخي واقتصادي؛ وما ترتب على ذلك من استمرار الإشارة إلى "أوعية" العمالة القومية (مثل الطبقة العاملة الإنجليزية)؛ وما ترتب عليه من فشل البحث التاريخي. وقد استطاع فالرشتاين Wallerstein في دراسته التفصيلية نوعا ما لأصول النظام الرأسمالي العالمي أن يخصص صفحة واحدة فقط لهذه الظاهرة، بما فيها فقرة واحدة عن التقسيمات العرقية للعمالة المهاجرة في القرن السادس عشر. وعلى الرغم من اضطراره إلى الاعتراف بأنه "يبدو أنه لم يتم إجراء بحوث كافية على التوزيع العرقي للطبقة العاملة الحضرية في بدايات أوروبا الحديثة"، فإنه استمر في الاعتقاد بأن وصف كازميري تيميمسكي Kazimiery Tymimecki للتمييز العرقي المنهجي للمكانة داخل الطبقة العاملة "في مدن إلبا الشرقية(*) East Elba في القرن السادس عشر كانت بمثابة النمط لكل الاقتصاد العالمي".[١٠١] وبالرغم من ندرة الدراسات، هناك سجلات تاريخية تميل إلى تأكيد هذه الرؤية. فقد اكتشفنا فيها وجود عمال نسيج فلمنكيين في لندن في أوائل القرن السادس عشر، وفي أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر كان هناك لاجئون هوجونوت(**)

(*) إلبا الشرقية East Elba جزيرة تتبع إقليم توسكانيا في إيطاليا وتقع قبالة الساحل الغربي الأوسط للبلاد.

(**) الهوجونوت Huguenot أعضاء في الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية في فرنسا في الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. استوحى الهوجونوت أفكارهم من كتابات "جون كالفين" في عام ١٥٣٠ م. وصل الهوجونوت إلى فرنسا فارين من الاضطهاد الديني في كل من انجلترا، وإسكتلندا، والدنمارك، والسويد، وسويسرا، وألمانيا، ودوقية بروسيا. (المترجم)

(ما بين ٤٠ إلى ٨٠ ألف)، كان الكثيرون منهم عمال نسيج أنوال يدوية، هربوا من فرنسا واستقروا في طرف شرق لندن، وبالتالي أسسوا صناعة الحرير الإنجليزية.[١٠٢] وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان العمال الأيرلنديون "يشكلون قلب جيوش العمالة المتحركة التي بنت القنوات والسفن والسكك الحديدية وغيروا وجه إنجلترا".[١٠٣] وعلى القارة الأوروبية أيضا، وبينما كان القرويون وعمال المزارع الألمان ينتقلون إلى القطاعات الحضرية والصناعية في وسط وغرب ألمانيا، حل العمال البولنديون محلهم في شرق ألمانيا.[١٠٤] وكذلك كانت فرنسا وسويسرا تعتمد كثيرا على استجلاب العمال من بولندا، وإيطاليا، وإسبانيا.[١٠٥] وبالطبع فإن تكوين المراكز الصناعية في الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كان يجذب العمال المهاجرين من شمال إيطاليا، ألمانيا، اسكتلندا، وأيرلندا؛ وبعد الحرب الأهلية من جنوب إيطاليا، وأراضي شرق وشمال ووسط أوروبا: روسيا، فنلندا، بولندا، اليونان، والبلقان.[١٠٦] (ربما كان الجانب الوحيد الفريد في العمالة الصناعية في أمريكا الشمالية يتمثل في ظهور العمالة الآسيوية بداية من أواخر القرن التاسع عشر، من الصين واليابان والفلبين).[١٠٧]

لقد بدأنا ندرك أن الأمة ليست وحدة التحليل للتاريخ الاجتماعي لأوروبا. فالدولة عبارة عن مركب بيروقراطي، أما الدولة فهي مركب أكثر ملاءمة من الكيان التاريخي والعرقي والثقافي واللغوي الذي يشير إليه مصطلح "الأمة".[١٠٨] حيث تندرج الطبيعة الحقيقية للتاريخ الأوروبي تحت دراسة ظاهرة الأمة والدولة. وبالنسبة لتكوين الرأسمالية الحديثة، يجب ألا ننسى الكيانات الخاصة، والحركات الاجتماعية والهياكل الاجتماعية التي استمرت وأثرت كثيرا على الحياة الأوروبية، وفي هذا الصدد يقول كيرنان:

"لقد حققت أوروبا الغربية ككل تنوعا كبيرا في الأشكال والحياة المؤسسية، وبلورة أكبر للعادات في المؤسسات، أكثر من أي مكان آخر معروف. فقد كان لديها قدرة ملحوظة على صياغة العلاقات الاجتماعية، بصورة أكثر قوة من غيرها، باستثناء علاقات الأسرة وامتداداتها كالعشيرة أو الطائفة؛ وهي العلاقات التي استطاعت الاستمرار من حقبة لأخرى، والتي يمكن تكوينها في توليفات أكثر وضوحا. ولكن على الرغم من هذا الثبات في علاقات معينة، كان هناك اضطراب أكثر راديكالية في النظام ككل".[١٠٩]

إن الحضارة الأوروبية ليست نتاج الرأسمالية. بل على العكس، فإنه لا يمكن فهم طبيعة الرأسمالية إلا في السياق الاجتماعي والتاريخي لهذه الحضارة.

تأثيرات الحضارة الغربية على الرأسمالية

بناء على ما سبق يمكن اعتبار أن تطور الرأسمالية تحدد من حيث الشكل من خلال المركب الاجتماعي والأيديولوجي للحضارة التي حملت مفاهيمها الأساسية خلال حقبة الإقطاع. إذ إن أنماط تشغيل الرقيق والمرتزقة التي راجعناها تنطبق أيضا على البرجوازيين والبروليتاريين. فكما يقول روبرت لوبيز Robert Lopez، كان اليهود والإيطاليون يسيطرون على تجارة المسافات الطويلة في الإمبراطورية الكارولنجية.[١١٠] ففي أوروبا في العصور الوسطى، وثق لوبيز وإيرفنج ريموند أهمية تجار البحر المتوسط في الأسواق الدولية، وتطور البيوت التجارية الأجنبية في بلدات الظهير الأوروبي.[١١١] وفي ذلك يقول فيرناند بروديل Fernand Braudel:

"انتشرت مراكز (ساحات piazze) مالية عديدة في أوروبا في البلدات حديثة النشأة. ولكن إذا نظرنا بدقة إلى هذه التطورات المفاجئة والكبيرة، سنجد أنها كانت في الواقع مجرد انعكاسات للصيرفة الإيطالية التي كانت قد أصبحت

تقليدية في ذلك الوقت. ففي أسواق تشامبين، كان المصرفيون من المناطق الإيطالية (سيينا، لوكا، فلورنسا، وجنوا) هم الذين وضعوا معايير صرافة النقود، وهم الذين صنعوا ثروة جنيف في القرن الخامس عشر، وبعدها ثروات مدن أنتفيرب (بلجيكا)، ليون (فرنسا)، و"مدينة ديل كامبو" (أسبانيا).

واختصارا، كان في أرجاء أوروبا مجموعة صغيرة من الرجال ذوي الإطلاع - الذين كانوا يتواصلون من خلال المراسلات النشطة - يسيطرون على كل شبكة التبادل في الكمبيالات أو العملات المسكوكة، ثم سيطروا على مجال المضاربات التجارية. وإذا عرفنا ذلك ستقل دهشتنا حول الانتشار الظاهري الواسع لتدفق المال والتمويل في تلك الفترة.[١١٢]

وبالنسبة لأسبانيا في ظل حكم تشارلز الخامس (١٥١٦- ١٥٥٦) وفيليب الثاني (١٥٥٦- ١٥٩٨)، كان الفويجر في ألمانيا ورجال المال في جنوة الإيطالية، و"المشروعات التجارية الدولية" الأخرى، ينظمون عوائد الدولة ويستغلون المناجم ويديرون العديد من الممتلكات المهمة.[١١٣] وفي القسطنطينية، كان التجار والمصرفيون من جنوة والبندقية وراجوزا[*] يرعون العلاقات التجارية والمالية بين أوروبا والإمبراطورية العثمانية.[١١٤] وبالنسبة لمدن البحر المتوسط في القرن السادس عشر، لاحظ براودل وظائف "المهاجرين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم". حيث قام التجار والصناع اليهود الإسبان والإيطاليون بإدخال تجارات جديدة إلى سالونيك والقسطنطينية وفالونا Valona لزيادة توسع البرجوازية متعددة الثقافات. ويؤكد براودل على ذلك قائلا:

(*) راجوزا Ragusa: إقليم في جنوب شرق أوروبا كان يتعرض للتأثير الإيطالي والنمساوي والعثماني، يتبع دولة كرواتيا حاليا. (المترجم)

"وكان هناك مهاجرون وافدون على درجة أخرى من الأهمية، حيث انجذب الفنانون المتجولون مثلا إلى البلدات الآخذة في النمو والتي كانت توسع مبانيها العامة؛ وكان هناك أيضا التجار، خاصة من المصرفيين الإيطاليين، الذين نشطوا بل وأسسوا مدنا مثل لشبونة، إشبيلية، مدينة ديل كامبو، ليون، أنتفيرب".(١١٥)

وفي البندقية نجد أن تقريرا مطولا كتبه سانك سافي Cinque Savii في يناير ١٦٠٧ يؤكد أن:

"كل النشاط "الرأسمالي" كما يجب أن نسميه كان في أيدي تجار فلورنسا الذين كانوا يمتلكون البيوت في المدينة؛ وتجار جنوة الذين جلبوا العملات الفضية، وسيطروا على كل المبادلات فيما بينهم".(١١٦)

ويؤكد براوديل أنه كما أن سلطة نوريمبرج خربت أقاليم بوهيميا وساكسونيا وسيليزيا (في ألمانيا ووسط أوربا)، كان تجار جنوة هم الذين "منعوا تطور الرأسمالية الإسبانية".(١١٧) وكذلك كان "المهاجرون الذين لا يمكن الاستغناء عنهم" هم أيضا من أكملوا البروليتاريا (الطبقة العاملة) الحضرية العاجزة عن الحفاظ على نفسها "فضلا عن التوسع بدون مساعدة الهجرة المستمرة".(١١٨) وفي راجوزا كان المورلاتشي(*)، وفي مارسيليا كان الكورسيكيون، وفي إشبيلية كان مسلمو الأندلس، وفي الجزائر كان الأراجون

(*) مورلاتشي Morlachs : تسمية لمجموعة عرقية ارتبطت بالرعي وعاش سكانها في جبال الألب الدينارية (غرب إقليم البلقان حاليا). كان السكان يهاجرون موسميا للبحث عن أفضل المراعي لقطعان الأغنام بين الجبال صيفا، وعلى سواحل البحر المتوسط شتاء. كانت أكثر الفترات التي اشتهرت فيها هذه المجموعة العرقية فيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر. (المترجم)

والبربر، وفي إسبانيا كان الرقيق الأسود، وفي البندقية كانت البروليتاريا المهاجرة تتزايد بسبب اليهود البرتغاليين والروماجنول Romagnoli والمارشيان Marchiani والإغريق والفرس والأرمن.(١١٩)

وكانت البرجوازية التي قادت تطور الرأسمالية تنتمي إلى جماعات عرقية وثقافية معينة، مثل البروليتاريا الأوروبية ومرتزقة الدول الكبيرة الوافدين من دول أخرى، والقرويين المهاجرين من ثقافات أخرى، وكذلك الرقيق المجلوبين من كل العوالم المختلفة. وهكذا لم يكن اتجاه الحضارة الأوروبية عبر الرأسمالية يسير نحو التجانس، بل نحو التمايز. كما كان المسير يمضي نحو المبالغة في الاختلافات الإقليمية والثقافية الفرعية وفي اللهجات وتحويلها إلى اختلافات "سلالية". وكما أصبح الجنس السلافي بمثابة الرقيق التقليدي، والفئة الأدنى سلاليا الخاضعة للسيطرة والاستغلال خلال أوائل العصور الوسطى، وكما أصبح التتار يحتلون مكانة مماثلة في المدن الإيطالية في أواخر العصور الوسطى، فإنه مع التشابك المنهجي للرأسمالية في القرن السادس عشر، بدأت شعوب العالم الثالث تشغل هذه الفئة الدنيا في الحضارة التي أعادت الرأسمالية إنتاجها.(١٢٠)

ولما كانت أوروبا تمثل حضارة البشر الأحرار المتساوين، كانت أيضا بمثابة اختراعا خياليا في القرن التاسع عشر (وما بعده) على نحو ما كانت وحدتها خلال الحقبتين الميروفنجية والكارولنجية. فقد كان كل من الكنيسة والنبلاء، الأكثر قوة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وسلفها، مصدر الخداع في هذه الفترات المبكرة. فمنذ القرن الثاني عشر فصاعدا، كانت البرجوازية وإداريو سلطة الدولة هم الذين بدأوا وروجوا أساطير المساواة،

بينما كانوا يقتنصون كل فرصة لتقسيم الشعوب من أجل السيطرة عليها.[١٢١] وقامت برجوازية أوروبا بارتكاب مجازر هائلة في شكل حروب وثـورات لتبرير أقنعتها.

ومع ذلك، أفسحت الأدوات القديمة الطريق أمام الأدوات الجديدة. فمـع نهاية الإقطاع وتوسع الرأسمالية ونظامها العـالمي تبـدت الطبيعـة غيـر المتوازنة للتنمية بين الشعوب الأوروبية ذاتها، وبين الأوروبيين وبقية العالم. وأثارت هذه الطبيعة المختلة معارضة جديدة بينما قدمت فرصـا مـستحدثة وتطلبت أطرافا "تاريخية" حديثة. وكانت "حركات الإصـلاح الـديني" فـي أوروبا الغربية ثم في إنجلترا، والتي دمرت آخر البقايا العمليـة للمـسيحية الموحدة الشامخة، مجرد مظهر من مظاهر عملية الاختلال هذه.

وفي إنجلترا مثلا، قام ممثلو كبار ملاك الأراضي والرأسمالية الزراعية - أثناء سعيهم لتحقيق مصالحهم الاجتماعية والماليـة الخاصـة - بتنظـيم الكنيسة أولا ثم المملكة وأخيرا "الجماهير" من خلال الأسيجة وقوانين الفقراء وسجون المدينين، و"الترحيل" (الهجرة القسرية) وغيرهـا.[١٢٢] وأصـبحت تناقضات الثروة والسلطة بين العمل ورأس المال والطبقات الوسطى قويـة جدا، بحيث لا يمكن الحفاظ على استمرار وجود الطبقـات المتميـزة فـي الداخل، ومساندة محركات السيطرة الرأسمالية في الخـارج. ولكـن أوهـام المواطنة في العصور الوسطى - والتي امتدت إلى الوقف الكنسي المشترك، واستمرت لخمسة قرون في أوروبا الغربية باعتبارها مبدأ المساواة العظـيم الفريد - حلت (محلها في القرنين السابع عشر والثامن عـشر) العنـصرية وتسلط شعب الأسياد Herrenvolk (بالتعبير الألماني).[١٢٣] وكانت وظائف هذه

المركبات الأيديولوجية الأخيرة مترابطة ولكنها مختلفة. وأصبحت السلالة مبررا للسيطرة والاستغلال و/أو القضاء على غير "الأوروبيين" (ومنهم السلاف واليهود). وسيكون لدينا فرصة في الجزء الثاني من هذا الكتاب لاستكشاف تطبيقاتها خارج أوروبا وخاصة على الشعوب الأفريقية بصورة أكثر قربا. ولكن طالما أننا لا نزال على التربة الأوروبية، فإن شعب الأسياد هو المهم. ففي إنجلترا في القرن الثامن عشر، يرى راينالد هورسمان Reginald Horseman بداياتها في الأنجلوساكسونية "الأسطورية" التي كانت تظهر كبطولة أيديولوجية من خلال الطبقة المثقفة ذات التوجه اليميني.[١٢٤] وفي فرنسا (مثلا بول دى رابين تويراس ومونتسكيو، ومن قبلهما فرانسوا هوتمان والكونت هنري دى بولانفيير)؛ وفي ألمانيا (هيردر، فيخته، شلايرماخر، وهيجل)؛ وفي أمريكا الشمالية (جون آدمز، وتوماس جيفرسون)؛ أظهر الأيديولوجيون "البرجوازيون" فكرة العرق الألماني البطولي.[١٢٥] وانتقلت الفكرة عبر أوروبا في القرن التاسع عشر، حيث استجمعت قواها وحيلها من خلال آثار روايات السير والتر سكوت التاريخية والخرافات الفلسفية عند فريدريش فون شليجل. وبالطبع كانت هذه الفكرة ترتدي رداء العلم الأوروبي في القرن التاسع عشر. حيث فسر مفهوم "شعب الأسياد" حتمية وطبيعية خضوع بعض الشعوب الأوروبية لبعضها الآخر. وقد اعترف لويس شنايدر Louis Snyder بهذا الأثر، على الرغم من أنه أعاد تشكيل الأجزاء المختلفة من الخلفية إلى الواجهة، حيث كتب يقول:

"شعر العنصريون غير الراضين عن مجرد إدعاء تفوق العرق الأبيض على الأعراق الملونة، بأنه من الضروري أيضا إقامة طبقات داخل العرق الأبيض ذاته. ولتحقيق هذا الهدف، طوروا أسطورة تفوق الآريين

أو الشماليين. وأصبحت أسطورة الآريين بدورها مصدر أساطير ثانوية لشعوب أخرى، مثل التيوتون(*) (ألمانيا)، والأنجلوساكسون (إنجلترا والولايات المتحدة)، والسلت (فرنسا).[١٢٦]

ثم ظهرت القومية الحديثة في القرن التاسع عشر.

ولم يكن ظهور القومية[١٢٧] مصادفة ولا منفصلا عن الطبيعة التي اكتسبتها الرأسمالية الأوروبية. فهنا أيضا رفضت برجوازيات ثقافات وهياكل سياسية معينة أن تعترف بالهوية المنهجية والمنطقية للرأسمالية كطبقة. وبدلا من ذلك، استمرت الرأسمالية الدولية في فوضى تنافسية - فكل برجوازية قومية تعارض البرجوازيات الأخرى باعتبارها أعداء "طبيعيين". ولكن على الرغم من قوة البرجوازية وحلفائها في الأرستقراطية والبيروقراطية بصورة ما، فإنها لا تزال تحتاج إلى تعاون بروليتاريتها "الرشيدة" من أجل تحطيم منافسيها. فقد حشدت القومية القوة المسلحة التي كونتها لتدمير القدرات الإنتاجية لمن يعارضونها، أو لضمان أسواق جديدة، أو عمالة جديدة، أو موارد إنتاجية.[١٢٨] وأخيرا، كان للتطورات غير المتوازنة للرأسماليات القومية نتائج مرعبة لكل من أوروبا والشعوب الخاضعة للسيطرة الأوروبية.

وفي ألمانيا وإيطاليا، حيث تأخرت البرجوازية القومية نسبيا في تكوينها، كان توجيه القوى الاجتماعية القومية (القرويين، المزارعين، العمال، الموظفين، الطبقات المهنية، والأرستقراطية، والدولة) يتحقق من خلال الأوهام الأيديولوجية للسلالة، "شعب الأسياد" والقومية. وأصبح هذا الخليط

(*) التيوتون Teutons: قبيلة جرمانية كانت تعيش في أقصى شمال ألمانيا (منطقة يوتلاند في الدانمارك حاليا). (المترجم)

من العنف يعرف في عصره باسم الفاشية.[١٢٩] ومع ظهور الفاشية، استعادت البرجوازية المدى الكامل من امتيازاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فقد جنت ثمرة السيطرة الكاملة على مجتمعها القومي، وهو الأداة الفعالة لتوسيع السيطرة والاستغلال إلى العالم الثالث، وهو الوسيلة النهائية لمعالجة جراح ومذلة الماضي. وهنا أيضا عاد الرق كأحد أشكال العمل إلى الظهور في أوروبا بصورة متوقعة.[١٣٠]

ولكن هذا يتخطى مجال اهتماماتنا المباشرة. إذ إن ما يهمنا هنا هو أن نفهم أن العنصرية وتعديلاتها استمرت وتعمقت ليس في حقبة معينة، ولكن في الحضارة ذاتها. وعلى الرغم من أن عصرنا قد يبدو مناسبا جدا لتحديد أصول العنصرية، فإن هذا الحكم يعكس فقط مدى مقاومة الفكرة للدراسة، وكيف أصبحت خصائصها قوية وطبيعية. ومع ذلك، لا يعتبر ارتباكنا هذا فريدا. فكمبدأ دائم للنظام الاجتماعي الأوروبي، كان لابد أن تظهر العنصرية في التعبير الاجتماعي لكل طبقة أو كل مجتمع أوروبي بغض النظر عن الهياكل التي تشكل عليها. فلم يكن هناك أحد محصن. وكما سنلاحظ في الفصلين التاليين، فقد ثبت أن هذا حقيقي بالنسبة إلى كل من البروليتاريا المتمردة والطبقة المثقفة الراديكالية. وكان هذا أمرا طبيعيا أيضا في الحالتين. ولكن بالنسبة للحالة الثانية – أي الطبقة المثقفة الراديكالية – كان هذا أمرا غير مقبول أيضا، بل ومستنكرا بعد ذلك. ومع ذلك، تسلل هذا الأمر إلى أفكار ونظريات الطبقة المثقفة. وهكذا فإنه أثناء السعي من أجل قوة اجتماعية راديكالية، وهي العامل التاريخي النشط، فرضت الطبقة المثقفة قدرا من التجاهل والإرباك الذي دمر بدوره ما لدى هذه الطبقة من أبنية

تحليلية ومشروع ثوري. ولكننا لا نزال نحاول توضيح ذلك. ولتحقيق هذه الغاية، سنعود الآن إلى تاريخ الطبقات العاملة الإنجليزية. فنظرا لأن هؤلاء العمال كانوا أحد المكونات الرئيسة لتطوير الطبقة المثقفة لفكرة البروليتاريا كطبقة ثورية، فإن البحث في تأثير العنصرية على أشكال وعيها يمثل خطوتنا التالية في إظهار حدود الراديكالية الأوروبية.

الفصل الثاني

الطبقة العاملة الإنجليزية باعتبارها مرآة للإنتاج

حتى وقت قريب للغاية، كان معظم المعروف عن ظهور الطبقات العاملة الصناعية في إنجلترا، ومعظم المفترض عن تطور الوعي الطبقي بينها، محاطا بغيوم أيديولوجية وتبسيط تاريخي. وقد يرجع ذلك إلى أن من ألفوا الملاحم البطولية للمآسي والانتصارات – ليبراليون كانوا أو راديكاليون– كثيرا ما وجدوا أن الاهتمام الوثيق بالتاريخ يقيدهم. ومع ذلك، يؤتي البحث التاريخي ثماره، وغالبا بشكل غير متوقع. وبرغم هذا، لم تكن الدراسات التاريخية عن الطبقات العاملة الإنجليزية قليلة. وبناء على هذه المواد الوفيرة، سنحاول فهم العوامل المادية والاجتماعية التي أثرت على تطور وعي الطبقة العاملة – مرآة الإنتاج – والأشكال التي اتخذها هذا الوعي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ونأمل أن نكون موجهين في دراستنا في هذا الفصل بتوقع ما كان "يجب" أن يحدث على المستوى المجرد، مقارنة بما "حدث" فعلا. فلن نعامل الحرمان والإفقار والاغتراب وتكوينات الوعي الطبقي والتعبير كأشياء مجردة أو كآثار باقية من نظام إنتاج، ولكننا سننظر إليها كأشياء حية. وسنهتم في هذا الفصل بكيف عانى الرجال والنساء (والأطفال) من الإبعاد والفقر واستغلال عملهم، ورد فعلهم على ذلك؛ وكيف أنهم استخدموا الرصيد الفكري والوجداني المتاح لهم من أجل التوافق مع

تجربتهم. ولهذا الغرض سأسعى لإلزام هذا البحث بالصيغة التقليدية بشأن الطبقة العاملة الإنجليزية، والتي أطلقها طومسون E. P. Thompson منذ عشرين سنة، وذهب فيه إلى أن: " الطبقة العاملة كونت نفسها بقدر ما تم تكوينها". ومضى يلخص الأمر قائلا:

"الوعي الطبقي هو الطريقة التي يتم من خلالها التعامل مع الخبرات والتجارب بمصطلحات ثقافية، بحيث يكون هذا الوعي متجسدا في كل من التقاليد، ومنظومة القيم، والأفكار، والأشكال المؤسسية. فإذا ظهرت التجربة على أنها محددة، فليس ضروريا أن يظهر الوعي الطبقي كذلك... حيث تعرف الطبقة بالناس الذين يعيشون تاريخا خاصا بهم، وهذا هو تعريفها الوحيد في النهاية".(١)

ونظرا لأنني أدعي أن النزعة العنصرية كانت من بين هذه "المصطلحات الثقافية"، فسوف ألزم طومسون بكلمته.(٢) ولكن من الضروري بداية أن نستبعد بعض المعتقدات المحددة بشأن الظروف التي ظهرت فيها الطبقات العاملة الصناعية الإنجليزية.

وعندما نراجع ظهور الاشتراكية في القرن التاسع عشر، فإننا نعلم مجددا من المؤرخين أن الحركة وأفكارها الأيديولوجية بدأت مع الثورة الصناعية والثورة الفرنسية.(٣) ومع ذلك، فإن السهولة التي وصل بها العديد من دارسي الاشتراكية إلى هذا الارتباط - بين النموذج المتعدد الأوجه والمحفزات المزدوجة للحداثة - تتحول إلى صعوبة تشبيه من خلال النظرة القريبة إلى الواقع الملموس الذي يكمن وراء ذلك التجريد والاختزال المعبر عن تغير مفاجئ غير قابل لإيقاف أو استرداد الأوضاع السابقة عليه. وذلك

لأن الثورة الصناعية لم تكن هي نفسها الظاهرة التي أضحت عليها في أيدي بعض مؤرخيها وفي أذهان العامة. فقد طُرحت نقاشات كثيرة منذ الانتشار الشعبي لعبارة "الثورة الصناعية" لآرنولد توينبي(*)(١٨٨٤). ولا زالت الأسطورة تتردد.

ويمكن أن يبدأ المرء بملاحظة أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية [التقنية] واسعة النطاق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر،(٤) والتي يشار إليها الآن كثيرا "بالثورة الصناعية"، أثرت على كل الإمبراطورية البريطانية بالإضافة إلى أجزاء من أوروبا الغربية. ويشير هذا إلى أن فهم نطاق عمل هذه "الثورة" يتطلب إحساسا بأن هذه الثورة تضمنت أكثر من مجرد تقديم أساليب إنتاج جديدة. وقد شمل ذلك تشغيل وتدريب وتنظيم العمل، ونقل السلع والمواد الخام، والهياكل السياسية والقانونية للتنظيم والتجارة، والأدوات المادية والتجارية للأسواق، وتنظيم واستخدام أدوات الاتصال، وأساليب الصيرفة والتمويل. ولم يكن ظهور الثورة لحظيا. بل على العكس، كان تكوينها يتحدد بالتطور الاقتصادي للقرون الماضية. بل ومن المحتمل أيضا – كما يقول موسون A. E. Musson – أن ظهور الإنتاج الصناعي لم يكن لا ثوريا (بمعني التغير الجذري المفاجئ)، ولا بريطانيًا فقط:

"من وجهة النظر التقنية... يمكن القول إن القرن الثامن عشر شهد القليل من الأشياء الثورية فعلا، وأن "الثورة الصناعية" المبكرة كانت تعتمد في الواقع على... التطورات السابقة؛ وحتى الآلة البخارية كانت نتاج

(*) مؤرخ اقتصادي بريطاني وُلد في ٢٣ أغسطس ١٨٥٢ وتوفي في ٩ مارس ١٨٨٣،عُرف بالتزامه نحو المجتمع ورغبته في تحسين الظروف المعيشية للطبقة العاملة. (المترجم)

النظريات والتجارب العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، في حين أنه في مجالات أخرى كانت أساليب أقدم - مثل الآلات التي تعمل بالمياه - متطورة ومنتشرة.

ويبدو أن معظم هذه التطورات التقنية منذ أواخر العصور الوسطى فصاعدا قد دخلت إلى إنجلترا من القارة الأوروبية.(٥) ولا يحظى تفسير موسون بالقبول العام، وكذلك فإن الحقائق(٦) التي يسوقها لتأييد مقولته ليست معروفة على نطاق واسع. ويرجع هذا أساسا إلى اتجاه معظم مؤرخي ومحللي عمليات التصنيع إلى الانطلاق من أسس قومية (وليس على أساس شبه القارة، أي أوروبا الغربية). وفي الحقيقة، يندر ألا يواجه القارئ في الدراسات الدقيقة جدا بيان أن "الثورة الصناعية" حدثت في إنجلترا بشكل ما: فهذا فرض عام يبدو أنه نبع من الخلط بين تحديد نقاط أصل التفكير التقني من أجل الإنتاج والاختراع الميكانيكي العملي؛ والخلط بين الاقتصاد القومي والأثر النهائي للاختراع العملي على النظام الاقتصادي الذي كان يتصف سلفا على نطاق واسع بالإنتاج العالمي (مثل القطن والسكر الإنجليزي). وبغض النظر عن هذا، فإن الدراسة المنهجية التفصيلية للنتائج التقنية والاجتماعية للإنتاج الصناعي لا تزال تنحصر أساسا في الصورة التاريخية لأواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في بريطانيا (على الرغم من أن على المرء أن يلاحظ أن هوبسباوم E. J. Hobsbawm كان على صواب حقا عندما قال إنه سيكون من الأكثر دقة أن نتصور وجود عدة ثورات صناعية حدثت عقب الفترة الأولية "للعصر الصناعي").(٧)

الفقر والرأسمالية الصناعية

بالنسبة للطبقات العاملة في بريطانيا العظمى، كانت النتـائج المباشـرة والمرعبة "للعصر الصناعي" معروفة، وبدرجة عالية من الدقة.(٨) فمن الناحية الاقتصادية البحتة، هناك دليل مباشر على أن بيوت العمال(*) بدأت في القـرن الثامن عشر، أصبحت نمطا مستقرا في العقدين اللذين أعقبـا تجربـة القـس روبرت لوفه Rev. Robert Lowe في الرفاهية الرادعة في ١٨١٨ في بنجهام.(٩) وعلى الرغم من أن العوز (الذي يعرفه هوبسباوم بأنه المحور الدائم للفقر(١٠)) كما ذكرنا سلفا لم يكن ظاهرة جديدة في إنجلترا أو أوروبا الغربية قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فإنه في إنجلترا على الأقل تزايد عدد المعـوزين بسرعة نوعا ما القرن التاسع عشر. ويبدو أن هذا كان نتيجة مباشرة لكل من

(*) بيوت العمال Workhouse في إنجلترا وويلز، مكان يتوفر فيه للمعـوزين والفقـراء الإقامـة والعمل. يرجع أول ظهور لهذا المصطلح إلى عام ١٦٣١، في كلمة لعمدة مدينة أبينجـدون مُصرحًا فيها "أنشأنا بيتا للعمال في بلدتنا لإلحاق الفقراء بالعمل". ترجع جذور بيت العمل إلى قانون الفقراء لسنة ١٣٨٨، والذي حاول تدراك النقص في العمالـة عقـب تفـشي مـرض الطاعون "الموت الأسود" في انجلترا عن طريق تقييد حركة العمال والتحكم فـي تـنقلاتهم، وأدّى في نهاية المطاف إلى أن تصبح الدولة مسئولة عن مساعدة الفقـراء. لكـن البطالـة الجماعية التي أعقبت الحروب النابليونية في عام ١٨١٥، والأخذ بتقنية جديدة تحـل محـل العمال الزراعيين بشكل خاص، وسلسلة من مواسم الحصاد السيئة، أثبتـت بحلـول أوائـل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أن النظام القائم لإعانة الفقراء غير مستدام. وتطلعت بعض السلطات إلى إدارة بيوت العمل بهدف الربح عن طريق الاستفادة من العمل المجاني لنـزلاء تلك البيوت، والذين يفتقرون بشكل عام إلى المهارات أو الدوافع التي تؤهلهم للمنافـسة فـي السوق المفتوحة، وكانت تسند لأغلبهم مهام مثل تكسير الصخور، طحـن العظـام لإنتـاج السماد. كان من المتعمد أن تكون الحياة في بيت العمل قاسيةً لتحديد القادرين على العمل من الفقراء، ولضمان أن يكون المتقدمين من المُستحقين فعلاً. حل القرن التاسـع عـشر بـبطء وتحولت بيوت العمل إلى ملاجئ للعجزة والمقعدين والمرضى بدلا من الفقراء القادرين على العمل، وفي عام ١٩٢٩ سُنّ قانون يسمح للسلطات المحلية بتسلم مستـشفيات بيـت العمـل كمستشفيات بلدية. على الرغم من إلغاء بيوت العمل بنفس القانون في عـام ١٩٣٠، اسـتمر وجود الكثير منها بمُسمى جديد وهو مؤسسات الأعانة العامة وكانت تحت سيطرة الـسلطات المحلية. وظل الأمر كذلك حتى إصدار قانون المعونة الوطنية لعام ١٩٤٨، والـذي قـضى على آخر أثر لقانون الفقراء ومعه بيوت العمل. (المترجم)

اضطراب الحياة الريفية بسبب حيازة آلات الحصد والدرس، وبسبب سياسة تسييج الأراضي التي أطلقتها الرأسمالية الزراعية، والتي شملت خمسة ملايين فدان من الحقول العامة فيما بين ١٧٦٠ و١٨١٠.(١١) وفي أماكن أخرى في المراكز الصناعية، صاحبت البطالة الدورات الاقتصادية الحادة في تلك الفترة.(١٢) وكانت بيوت العمال بمثابة الملاذ الأخير للفقراء، وإحدى استجابات الطبقات الحاكمة لهذه الأوضاع. ومن ناحية التوصيف، كانت هذه الاستجابة تمثل مبررا لسوء إدراك كامل لأساس العوز: أي افتراض أن المحرومين والمتعطلين يفتقرون إلى نظام العمل.(١٣)

وكانت دورات البطالة المتكررة في النصف الأول من القرن التاسع عشر تحدث على نطاق يجعل أي مراقب يتوقف ممعنا في التفكير. وتعتبر تعليقات هوبسباوم على أزمة عام ١٨٢٦، وملاحظات هنري مايهيو Henry Mayhew على ارتفاع البطالة التي استمرت من عام ١٨٤٧ إلى عام ١٨٥١ مفيدة جدا. حيث وجد هوبسباوم أن الأرقام:

"مذهلة لدرجة أنها يمكن أن تحمل قدرا كبيرا من المبالغة. فهي تشير إلى أنه في المناطق شديدة التأثر في لانكشاير ربما كان ما بين ٣٠٪ إلى ٧٥٪ من إجمالي السكان معوزين طوال هذه الأزمة، وفي أماكن صناعة الصوف في يوركشاير، كانت النسبة ما بين ٢٥٪ و١٠٠٪، وفي مناطق النسيج في اسكتلندا كانت النسبة بين ٢٥٪ و٧٥٪. وفي سالفورد Salford مثلا، كان نصف السكان كليا أو جزئيا خارج العمل، وفي بولتون Bolton وصلت النسبة إلى الثلث، وكانت النسبة في بورنلي Burnley ٤٠٪ على الأقل(*)".(١٤)

(*) لانكشاير، يوركشاير، وسالفورد، وبولتون، وبورنلي: أقاليم تاريخية في شمال وشمال غرب إنجلترا (المترجم).

ومع ذلك، فإن ما اعتبره هوبسباوم أمرا يصعب قبوله بوصفه مؤرخًا، وجده مايهيو – بوصفه مراقبًا معاصر (والذي وصفه طومسون E. P. Thompson بأنه "أعظم مستكشف اجتماعي لا يقارن في منتصف القرن")[١٥] – بمثابة أمور حقيقية، وفي ذلك يقول طومبسون:

"مع تقدير عدد الطبقات العاملة بما بين ٤ إلى ٥ ملايين، أعتقد أنه يمكن التأكيد بأمان – مع مراعاة... الأوقات والفصول والظروف والحوادث الخاصة، والكميات الكبيرة من العمل الإضافي والعمل العارض... وأعداد الأطفال والنساء... الذين ينجرفون باستمرار إلى الحرف المختلفة... أنه لا يكاد يوجد عمل يكفي للعمل "المنتظم" لنصف عمالنا، بحيث أن ١,٥ مليون فقط يعملون بشكل كامل ومنتظم، بينما يعمل ١,٥ مليون آخرون نصف الوقت فقط، وهناك ١,٥ مليون آخرون متعطلون تماما، ويحصلون على العمل نهارا "أحيانا" بإزاحة بعض الآخرين".[١٦]

ويخبرنا هوبسباوم بأن المعوزين الذين كانوا يسكنون في مساكن العمال العقابية عمدا في القرن التاسع عشر، على الرغم من أنهم كانوا ضحايا احتقار سادتهم اجتماعيا واقتصاديا، ربما كانوا يأكلون أفضل كثيرا من أجزاء كبيرة من عمال الزراعة وعمال الحضر.[١٧] وإذا أخذنا بقول هوبسباوم فإننا نتراجع عن التمييز المفترض بسهولة شديدة بين العاملين والمتعطلين والمعوزين. فكل هؤلاء يمثلون طبقة دنيا تمتد إلى صفوف العمال المهرة.[١٨]

وهناك أدلة أخرى على تأثير "العصر الصناعي" على الطبقة العاملة البريطانية والفقراء في دراسات الإسكان. وربما ينطبق الإسكان الفقير في تلك الفترة بأوضاع الحياة التي تتراوح من الإقامة ليلا بصورة مؤقتة في الطرقات،

والأزقة، والأقبية، وشوارع المدن وفي الحقـول المفتوحـة بجـوار الطـرق الريفية، وبيوت العمال والأوقاف الكنسية والاتحادية وأكواخ العمـال. وهـذه الأشكال مختلفة تماما شكلا وموضوعا عن الحياة الرعوية البسيطة التي ترتبط الآن بمصطلح العوز).[١٩] وهناك بالمثل أدلة اخرى علـى تـأثير "العـصر الصناعي" على دراسة الأمراض والوفيات وعمالة الأطفال والأوضاع المادية للعمل واستهلاك الغذاء.[٢٠] وبصفة عامة، فإنه كلما زادت مصداقية البيانـات، زادت قوة الانطباع عن السكان المقهورين باستمرار خـلال الفتـرة موضـع المناقشة. ولا تزال كل هذه الأرقام مصطنعة بصورة ما (على الرغم من أنها مفيدة للإدراك) بالنسبة للقضية الحقيقية وهي "تجربة" الرجال والنساء والأطفال الذين شكلوا الطبقات العاملة الفقيرة الإنجليزية.

ومعظم ما يمكن الوصول إليه عبر هذه الأرقام لا يعطي سوى صورة عامة عن أوضاعهم الحياتية، وليس محتواها الاجتماعي والأخلاقي والفكري. إذ إن الأوضاع الحياتية وإيقاعات وأنمـاط التحـول البروليتـاري للعمالـة الإنجليزية كانت تصنع إطار هذه التجربة، ولكنها لم تكن تحددها، وهكذا فإن الثورات الاجتماعية لهذه الطبقة قاومت باستمرار هذا الارتباط الرتيـب.[٢١] ففي ١٩٣٠، قام هاموند J. L. Hammond الذي ساهم كثيرا مع زميلته باربارا هاموند Barbara Hammond في وضع صورة تاريخية للعمالـة الإنجليزيـة، بتوضيح هذه النقطة على النحو التالي:

"إذا كنا نتناول نوعية الحياة الاجتماعية التي كونتها الثـورة الـصناعية، فإننا نجد أنه لا توجد طبقة عاملة واحدة أفلتت من الثورة الصناعية. فبالنـسبة لكل العمال على السواء، كانت هناك نفس الحاجة إلى الملاعب أو المتنزهات،

ونفس الحاجة إلى المواكب أو الاحتفالات، ونفس سرعة الصناعة، ونفس غياب أي شيء محسوب لتكوين ما أطلق عليه سوفوكليس "الروح التي تبني جدار المدينة"... وكان ذلك يجاوره قذارة الحياة الجديدة، وأكواخها المتزايدة، قبح المباني، وتدمير الطبيعة، وعجزها عن تلبية الحاجات العميقة للإنسان، ولم يكن ذلك يؤثر على هذه الطبقة أو تلك فقط، بل تترك بصماتها على كل أفراد الطبقات العاملة".[٢٢]

ومن حيث "سعادة وتعاسة الرجال والنساء"، كتب هاموند في مكان آخر، "إذا نظرت إلى حياة عصر الثورة الصناعية... سيصدمك فقرها الجلي للعيان".[٢٣]

رد فعل العمالة الإنجليزية

تحققت رؤية هاموند لنوعية الاهتمامات التي شغلت أذهان الطبقات العاملة أثناء مواجهتها مع مشاكل العالم الصناعي، والذي جاء بصورة جزئية عبر الحركات السياسية والاجتماعية بين الطبقات الدنيا التي ضغطت كثيرا على الطبقات العليا والوسطى في الأوقات المبكرة من تلك الفترة. (في ١٨٣١، كتب جيمس ميل إلى زميله قائلا: "ليس هناك شيء يمكن إدراكه بصورة أكثر إزعاجا من المذاهب التي تم ترويجها "لعوام الشعب".[٢٤] ويتمثل أحد التعبيرات الواضحة عن غضب الطبقة العاملة تجاه إفقار حياتها الاجتماعية، وسلب "خيالها" في حركة التمرد التي يسميها هوبسباوم حركة "محطمو الآلات".[٢٥] ومن خلال التمييز بين هذه الحركات التي كانت هجماتها على الممتلكات الخاصة والآلات ساعية إلى انتزاع الحقوق من أرباب العمل.

وكانت تلك الحركات يدعمها عمال لا يهتمون بالتقدم التقني المجـرد، بل بالمشاكل العملية المزدوجة لمنع البطالة والحفاظ على مـستوى الحيـاة المعتاد، والتي تشمل العوامل غير النقدية مثل الحرية والكرامة".[٢٦] وقد ربط هوبسباوم بين الثورات التي رددت الشعارات التي رفعت أساسا بين عمـال النسيج في ١٦٧٥ في منطقة سبيتال فيلدس[*] Spitalfields شرقي لندن. ومن مراجعته لهذه الثورات يخبرنا هوبسباوم عن الأجيال المتتالية مـن عمـال النسيج التي ثارت أيضا في منطقة سبيتال فيلدس عام ١٧١٩ ("ضـد مـن يرتدون الأقمشة القطنية المطبوعة calicoes"، كما يخبرنا عن ثـورات عـام ١٧٣٦، ثم عن ثورات سبعينيات القرن الثامن عشر ضد الآلات؛ حيث ظهر محطمو الآلات في لانكشير في ١٧٧٨-١٧٨٠. وظهرت حركـة تحطـيم آلات[**] في ١٨٠٢، ثم تصاعدت في الفترة ١٨١١-١٨١٣ (محطمة آلات الغزل الآلية القديمة)، قبل أن تختفي إلى حد بعيد بعد قمـع محطمـي آلات العمالة الزراعية في ١٨٣٠ في المقاطعات الجنوبية وفي إيست أنجليا وفـي ميدلاندس[***].[٢٧]

والأكثر لفتا للانتباه أن هذه الحركات التخريبية لم تقتصر على إظهـار مقاومتها للماكينات كأداة للإنتاج الرأسمالي من جانب العمال فحسب، ولكنها

(*) مناطق سكن للعمال كانت تتبع الأوقاف الكنسية إلى الشرق من مدينة لندن. (المترجم)

(**) حركة تحطيم الآلات Luddism حركة قادها النساجون الثائرون ذوو المهارة الذين احتجـوا متمردين على الآلات الحديثة التي تسببت في توفير العمالة وانتشار البطالة في الفترة مـن عام ١٨١١ وحتى عام ١٨١٧ نتيجة الثورة الصناعية، وما رافق ذلك من استبدال الحرفيين بعمالة أقل مهارة وأدنى أجرا. (المترجم)

(***) أنجليا الشرقية East Anglia: إقليم في شرق إنجلترا، وميدلاندس Midlands: إقليم في وسط إنجلترا. (المترجم)

عملت أيضا على الكشف عن وجود عداء اجتماعي كبير للصناعة الرأسمالية، وفي ذلك يقول هوبسباوم:

"شكل أنصار التنظيم الرأسمالي المتطور أقلية صغيرة... ولم يكن التاجر الصغير ولا الحرفي المحلي يريد اقتصادا يتصف بالتوسع بلا حدود، أو يتسم بالتراكم والثورة التقنية... بل كان ما يحلم به لا يتجاوز حلم عموم البشر في هذه الدنيا، ذلك الحلم الذي تكرر كثيرا في المطالب الثورية لدعاة المساواة(*) والجيفرسونية(**) واليعقوبية(***). كان ذلك الحلم يسعى إلى

(*) دعاة المساواة leveler: حركة سياسية ظهرت في منتصف القرن السابع عشر، إبان الحرب الأهلية الإنجليزية الأولى. دعت الحركة إلى السيادة الشعبية، والانتخابات الموسعة، والمساواة أمام القانون، والتسامح الديني، وغيرها من المبادئ التي ضمها بيان "اتفاق الشعب". لم يكن دعاة المساواة حزبا سياسيًا بالمفهوم المعاصر، ولم يتوافقوا حول بيان محدد لكن كانوا منظمين على المستوى المحلي. أصدروا بعضا من الصحف والعرائض والمنشورات ذات الأغراض السياسية. وكانت الشرائط ذات اللون الأخضر الفيروزي التي توضع على ملابسهم وسيلة لتمييز أنفسهم. بحلول عام ١٦٥٠ عملت السُلطة على تهميش دعاة المساواة على نحو ما فعلت تجاه باقي الجماعات المعارضة الأخرى، ولم يعد هناك تهديد حقيقي للنظام القائم. (المترجم)

(**) الديمقراطية الجفرسونية، نسبة إلى راعيها توماس جيفرسون Thomas Jefferson. كانت ضمن اثنين من الرؤى والحركات السياسية المهيمنة في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من تسعينات القرن الثامن عشر وحتى عشرينيات القرن التاسع عشر. شاع استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى الحزب الجمهوري الديمقراطي الذي أسسه جيفرسون في مقابل الحزب الفيدرالي ومؤسسه ألكسندر هاملتون. يؤمن أتباع جيفرسون بالنظام الجمهوري كشكل من أشكال الحكم، والمساواة في الفرص السياسية، يعلون من شأن المزارع العامل في مقابل النخبة الأرستقراطية من التجار والصناع. (المترجم)

(***) اليعقوبي Jacobin هو ذلك الشخص الذي يدعم النظام الجمهوري المركزي، بسُلطة مُمثلة في المستوى الفيدرالي. بدأت اليعقوبية خلال الثورة الفرنسية، وكان المصطلح يشير على المستوى الشعبي إلى كل المؤيدين للآراء الثورية. وعلى وجه التحديد كان يطلق على أعضاء جمعية اليعاقبة، وهي حركة ثورية سياسية يسارية متطرفة أصبحت أكثر جمعية سياسية مشهورة خلال الثورة الفرنسية. سُميت تلك الجمعية بهذا الاسم نسبة إلى الدير الذي كانت الجمعية تلتقي فيه دوما في باريس والواقع في طريق القديس يعقوب Rue Saint-Jacques (Latin: Jacobus). (المترجم)

مجتمع صغير النطاق مكون من أصحاب ممتلكات متواضعة يحصلون على أجر بصورة كريمة، بدون تمايز كبير في الثروة والسلطة... وكان هذا نموذجا غير قابل للتطبيق، وخاصة في المجتمعات سريعة التطور. ومع ذلك، دعونا نتذكر أن أصحاب ذلك الحلم المثالي في أوروبا مطلع القرن التاسع عشر شكلوا أغلبية أرباب العمل، وفي أوساط صناعية ليس من بينها صناعة القطن".(٢٨)

وهناك دراسات نقدية أخرى أكدت على أطروحة هاموند للأهمية التي يجب أن تعطى للقيود التي فرضها الإنتاج الصناعي على الإطار الاجتماعي والثقافي للمجتمع الإقطاعي في بريطانيا. حيث يبدو أن الاستجابة الفكرية والاجتماعية للطبقات العاملة الإنجليزية على السيطرة الكبيرة للنظام الاجتماعي الجديد لم تكن قاصرة على السلوكيات الطبقية أو الاقتصادية. إذ إن الوعي الطبقي للعمال الإنجليز لم يلتزم حرفيا بمنطق تكوين الطبقة العاملة القائم على الاستغلال الرأسمالي، والذي صاغه ماركس من تواريخ البرجوازية الفرنسية والإنجليزية.(٢٩) وفي الواقع، فإن رد الفعل الأكثر وضوحا تجاه نظام رأسمالي صناعي، والذي ظهر بين "المنتجين" الإنجليز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عرقل كثيرا النتائج السياسية والاجتماعية للتحول البروليتاري الذي كان قد أصبح سلفا بمثابة العقيدة الجامدة للفكر الراديكالي الإنجليزي، والتوقعات اللتس شهدتها الثورة الكبرى في فرنسا. إذ إن تطور التعصب القومي الأنجلوساكسوني، وهو أول أشكال القومية الإنجليزية، وظهور الأشكال المتطرفة من العنصرية داخل الطبقة العاملة الإنجليزية، هو الذي حدد شكل وخصائص وعي الطبقة العاملة

الإنجليزية. وكان ضيق أفق النزعة العرقية والعداء العرقي يمثلان الاستجابة التي كانت سببا ونتيجة لفقدان التكاملات الاجتماعية قبل الرأسمالية. حيث يذكر جورج رود George Rude عن التعصب الأنجلوساكسوني:

"يتمثل أحد المعتقدات السائدة بصورة واضحة في أن "الحريات" الكاملة ظهرت في ظل حكم الملوك الساكسون، وأن هذه الحريات سرقت كما سرقت أراضيهم من جانب الإنجليز "المولودين أحرارا" بفضل الفرسان النورمان بقيادة ويليام الفاتح(*) William the Conqueror (the Bastard) في ١٠٦٦. واستمرت أسطورة "عبودية النورمان" حتى زمن أنصار حركة الميثاق الشعبي(**) (في أربعينيات القرن التاسع عشر) وانتقلت عبر أجيال دعاة المساواة، وتربى اليمينيون على "مبادئ الثورة"، وترعرع الراديكاليون والديمقراطيون في لندن في القرن الثامن عشر على المناهج الأكثر حداثة "للسيادة الشعبية" و"حقوق الإنسان".(٣٠)

(*) ويليام "الفاتح the Conqueror " هو الاسم الذي أطلقه النورمان على ملكهم، أما وليام The bastard فتعني "الابن غير الشرعي" أو في أسوأ التعبيرات "ابن زنا"، وهو الاسم الذي أطلقه أعداء النورمان على هذا الملك. (المترجم).

(**) حركة أنصار الميثاق (الميثاقيون) Chartist movement، حركة سياسية لطبقة العمال البريطانية من أجل الإصلاح السياسي في الفترة من ١٨٣٨ وحتى عام ١٨٤٨، واكتسبت تسميتها من ميثاق الحركة الشعبية لعام ١٨٣٨. وكانت الاسم الجامع لعدد من الجماعات المحلية سيئة التنسيق، والتي شاع تسميتها "اتحاد الرجال العاملين" والتي بلغت أوجها في الأعوام ١٨٣٩ و١٨٤٢ و ١٨٤٨. بدأت تلك الحركة بين الحرفيين المهرة في الورش الصغيرة، مثل صانعي الأحذية، عمال الطباعة، الخياطين، وعمال النسيج بهدف حشد "القوة المعنوية"، لكنها سرعان ما جذبت دعاة الإضرابات والعنف الجسدي. طالب ميثاق الحركة الشعبية بـ ٦ إصلاحات أساسية لجعل النظام السياسي أكثر ديمقراطية: (١) حق التصويت لكل رجل بلغ ٢١ عامًا (٢) الاقتراع السري (٣) عضوية البرلمان ليست حكرا على الأثرياء (٤) منح رواتب لأعضاء البرلمان (ليتمكن الرجال الفقراء من الخدمة) (٥) مناطق انتخابات متساوية (٦) انتخابات برلمانية سنوية. وكانت الميثاقية دستورًا للقرن الثامن عشر تحارب الفساد وتدعو للديمقراطية في مجتمع صناعي.

وفي الواقع اتخذت الفكرة (التي تتكرر باستمرار في الفكر الشعبي والتاريخ الاجتماعي الإنجليزي) شكل القومية، وخاصة تلك القومية التي تتضمن رهاب الأجانب. وكانت العمليات الكامنة وراء ظهور قومية الطبقة العاملة الواعية عنصريا تحتاج بعض الاهتمام، ولو لم يكن ذلك لأي سبب سوى أنها طمست في التاريخ الإنجليزي الراديكالي الذي كتب بصورة مناسبة كاستجابة لأعمال أقل تعاطفا وأقل شمولا لأوضاع وكفاح الطبقات العاملة الصناعية الإنجليزية.(٣١)

لقد كان المجتمع الإنجليزي أول المجتمعات التي طورت البروليتاريا الصناعية بين طبقاتها العاملة.(٣٢) ومع ذلك، فإنه قبل ذروة احتجاجات تخريب الآلات وفترة حركة أنصار الميثاق الشعبي، وخلال ذروة الاشتراكية المثالية (الأوينية(*))، نجد أن الهوية الطبقية للقومية - التي لاحظها طومسون بين العمال الإنجليز، وفي "الثقافة البطولية" التي أنتجوها فيما بين الثورة الفرنسية وهزيمة أنصار حركة الميثاق الشعبي - قد بدأت تراجعها قبل فترة من ظهور القومية الأصلية.(٣٣) وكان هذا أحد جوانب "الرؤية المفقودة" للطبقات العاملة الإنجليزية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وهو الجانب الذي اضطر طومسون للاعتراف به على مضض، قائلا:

"من السهل أن نقول إن هذه الثقافة كانت تتطلع للوراء أو كانت على أقل تقدير ثقافة محافظة. حيث كان أحد اتجاهات الثورات الكبرى للحرفيين والعمال الخارجيين، التي استمرت طوال خمسين سنة، يتمثل في "مقاومة" التحول إلى بروليتاريا. وعندما عرفوا أن هذه القضية خاسرة، خرجوا ثانية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن ١٩ وحاولوا تحقيق أشكال جديدة متصورة للسيطرة الاجتماعية".(٣٤)

(*) الاشتراكية الأيونية (المذهب الأويني) Owenism، فلسفة اشتراكية طوباوية في القرن التاسع عشر منسوبة إلى مؤسسها المُصلح الاجتماعي روبرت أوين Owen ومن سار على نهجة من "الأوينيين". تهدف الأوينية إلى الإصلاح الجذري للمجتمع. أخذت الحركة على عاتقها الكثير من التجارب لإقامة مجتمعات طوباوية قائمة على مبادئ التعاونية والمجتمعية. (المترجم)

وقد ظهر ذلك من جديد في منتصف ستينيات القرن التاسع عشر، ولكن ما كان سيصبح في ذلك الوقت بمثابة حركة الاتحاد العام للعمال (الذي حل محل وعي مبكر وصريح للصراع الطبقي على السلطة السياسية) كان قد تقدم كثيرا ليكون تحت تأثير بيروقراطيي العمال، لدرجة أنه حتى التدخل المباشر من ماركس لم يكن كافيا لأكثر من مجرد صرف وعي الطبقة العاملة الإنجليزية مؤقتا عن القومية.[٣٥] وعلى الرغم من الدليل على أنه في ١٨٦٤، وهي السنة التي تأسست فيها "الجمعية الدولية للعمال" (أي I.W.M.A. أو "الدولية الأولي First International) ألزم المتحدثون باسم العمال الإنجليز أنفسهم صراحة بما وصفه رويدين هاريسون Royden Harrison بأن ما يحدث هو "حركات تحرر وطني واتحاد في أمريكا وإيطاليا وبولندا"، وبحلول ١٨٧١ كان حشد نقابات العمال أكثر انتشارا:

"في ١٨٧١، كان ماركس يعارض محاولة قيام ثورة بروليتارية في باريس. ولكن عندما حدثت، فإن ولاءه للطبقة العاملة وسجله الشخصي السابق لم يتركا له خيارا سوى منحها دعمه المطلق. ومن خلال ربط "الدولية International" "باللجنة الثورية الباريسية Commune"، تسبب ماركس في الانفصال عن معظم قادة العمال الإنجليز، وحسم مصير "جمعية الرجال العاملين الدولية"، وهو المسار الذي لم يكن هناك مهرب مشرف منه... فقد نفى ماركس وقادة نقابات العمال الإنجليز كل منهما الآخر".[٣٦]

إن صياغة تفسير لانتعاش وسيادة وعي اتحادات العمال بين الطبقات العاملة الإنجليزية ليست مهمة سهلة. فمن ناحية، يجب الأخذ في الحسبان ما سماه طومسون "الثورة المضادة" للطبقات المسيطرة التي وجهت ضربات حاسمة لراديكالية الطبقة العاملة في ١٨٣٤ و١٨٣٥ و١٨٤٨؛[٣٧] ويجب أن تشمل أيضا العمليات التاريخية التي ظهرت من خلالها أشكال الإنتاج

الصناعي في إنجلترا، بما في ذلك أنماط تشغيل العمالة من القرى والريف في إنجلترا (والأشكال اللاحقة لتنظيم العمل والتي وضعت من أجل التحول البروليتاري للعاملين)، وتقسيمات العمل التي ميزت الهيكل الدولي للرأسمالية البريطانية.[٣٨] ولكن ربما كان الأهم لفهم تطور قومية الطبقة العاملة في بريطانيا، والأكثر أهمية لموضوعنا هنا، يتمثل في الدور الذي لعبته قومية أخرى – القومية الأيرلندية – في فترة تشكيل تطور الطبقة العاملة الإنجليزية، وما صاحبها من تكوين لثقافة الطبقة العاملة الإنجليزية. وكذلك فإن الدور الذي لعبه العمال الأيرلنديون في ثورات العمال الإنجليز في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، والذي كان بمثابة التعبير الاجتماعي والتاريخي عن القومية الأيرلندية، يجب أخذه في الاعتبار أيضا.

استعمار أيرلندا

بمثل ما انشغل القرن التاسع عشر بالطبقات الحاكمة الإنجليزية، استهل ذلك القرن خطواته بالتمرد الأيرلندي الذي بدأت أحداثه في ١٧٩٨.[٣٩] ومع معاصرة الثورتين الأمريكية والفرنسية، فإن أيرلندا، "الشيء الساكن"، وما سماه الإنجليز "المسألة الأيرلندية" أصبحت "أكبر قضية في السياسة الإنجليزية في أواخر عهد الملكة فكتوريا(*)، وربما استمرت كذلك معظم

(*) أليكسندرينا فيكتوريا Alexandrina Victoria (٢٤ مايو ١٨١٩ – ٢٢ يناير ١٩٠١) ملكة على عرش بريطانيا العظمى وأيرلندا من ١٨٣٧ وحتى ١٨٧٦. وهي ابنة الأمير إدوارد. وتزوجت من ابنة عمها الأمير ألبرت في ١٨٤٠. أنجبت تسعة أبناء تزوجوا من أسر ملكية في عموم القارة الأوربية مما منحها لقب "جدة أوروبا". اعتلت العرش وهي دون العشرين وماتت عن عمر ناهز ٨٣ عاما، واستمر حكمها نحو ٦٣ عاما مما حدا بالمؤرخين إلى تسمية فترة حكمها بـ– "العصر الفيكتوري" وقد منح الرحالة الإنجليز في عهدها أسماء عائلتها الملكية أهم وأشهر مناطق منابع نهر النيل مثل : بحيرة فيكتوريا، وبحيرة إدوارد (احتفاء بالأب)، وبحيرة ألبرت (احتفاء بالابن). (المترجم).

القرن".[٤٠] وعلى أي حال، فإن استجابتهم لما اعتبروه مظهرا خبيثا للتآمر اليعقوبي والتدخل الفرنسي قد تمثل في إلغاء ما كان قد صدر للبرلمان الأيرلندي والإعلان في ١٨٠٠ عن "قانون الاتحاد" بين أيرلندا والمملكة المتحدة.[٤١] وفي الواقع، كانت الدولة الإنجليزية تنحي الهياكل والأدوات غير الفعالة للحكم المباشر لصالح هياكل وأدوات السيطرة المباشرة المألوفة.[٤٢] وقد أثبت هذا الإحلال بين مجموعتي المؤسسات في الأجل الطويل أنه يحقق الغرض للدولة الإنجليزية، الساعية إلى تحقيق مصالح رأس المال الإنجليزي والأيديولوجية الأنجلوساكسونية.[٤٣] وأصبحت المسألة الأيرلندية جزءًا مهما من القرن التاسع عشر، مقارنة بما كانت عليه في القرن الثامن عشر. ومع ذلك، قد يبدو أن ملامح هذه القضية كانت قد تبلورت منذ فترة طويلة.

ويقدم جيمس أنتوني فرود James Anthony Froude، في كتابه عن تاريخ "الإنجليز في أيرلندا" للقارئ ما يعتبر بمثابة تاريخ سياسي مفصل وإظهار لمدى وتنوع صور الأيرلندي التي أصبحت ثابتة في عقول الإنجليز. فقد بدأ فرود بإعلام القارئ بأنه عندما "قامت "الأرستقراطية العسكرية" للنورمانديين باكتساح أيرلندا في القرن الثاني عشر، "لم يكن الأيرلنديون... باستثناء رجال الدين، أكثر من مجرد مجموعة همج مسلحين".[٤٤] ويواصل فرود قوله بأنه بعد هزيمة المدافعين عن الجزيرة، كان لدى النورمانديين ثلاثة تقليدية للعمل تجاه الشعوب المهزومة: القضاء عليها، أو الاحتلال المسلح، أو الاستعمار المسلح.[٤٥] ويؤكد فرود أن النورمانديين اتخذوا مسارا مختلفا تماما:

"عندما احتل النورمانديون كلا من إنجلترا وأيرلندا، كانوا يقومون بالعمل الذي كانوا مؤهلين له وموهوبين فيه بصفة خاصة... فلم يدمروا الشعب الأيرلندي، ولكنهم تولوا حكمه فقط، كما فعل الإنجليز في الهند، حيث جردوا الزعماء من مناصبهم، وحولوا نظام الوراثة الضعيف إلى خلافة منظمة،

ومنحوا الأمان للحياة والممتلكات، ومكنوا الراغبين في ممارسة الصناعة من جني ثمار أعمالهم بدون الخوف من الإغارة أو النهب. وكان مبررهم في السيادة ناجما عن قدرتهم على الحكم وحاجة الأيرلنديين إلى الحكم".[٤٦]

كانت النتيجة النهائية سيئة بالنسبة لمهمة التحضر التي حملها النورمانديون. فبدلا من مد الحضارة "الإنجليزية" إلى سكان الجزيرة، امتصاص الشعب المهزوم حكامه النورمانديين عنصريا وثقافيا وسياسيا.[٤٧] فبحلول النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وبعد أن مرت إنجلترا بالكوارث المذكورة سلفا، كانت المحاولات التشريعية والسياسية لضمان وجود أنجلونورماندي تحديدا في المقاطعات الأربع الواقعة ضمن السياج الإنجليزي [*](دبلن، ميث، كلدير، ولوث) بمثابة مؤشرات في الواقع على عبث التصميمات التي أعقبت الغزو. ففي الواقع، كان مصطلح "غزو" أحد أفكار التاريخ السياسي الإنجليزي. وبالنسبة للعلاقات السياسية مع إنجلترا، فإن أيرلندا، والسياج الإنجليزي تحديدا، كانت تتأرجح ما بين الحكم غير المباشر والحكم المحلي، بناء على موارد الدولة الإنجليزية، والاهتمامات المسبقة للمجتمع الإقطاعي الإنجليزي، وقدرات وميول مختلف أمراء الإقطاع في أيرلندا تجاه كل من الولاءات القومية أو الإنجليزية. واستمر الوضع على هذا النحو حتى القرن السادس عشر. فمن الناحية الاقتصادية، ومن الناحية السياسية غالبا، كانت أيرلندا الإقطاعية تكاد تكون مستقلة كلية عن إنجلترا.

(*) السياج الإنجليزي English Pale، نطاق جغرافي في أيرلندا كان يقع مباشرة تحت سيطرة الحكومة البريطانية في أواخر العصور الوسطى. تم تقليصه في أواخر القرن الخامس عشر ليشمل منطقة بطول الساحل الشرقي لأيرلندا. ويعود أصلة كلمة سياج Pale إلى الكلمة اللاتينية Palus، والتي تعني الوتد، وبشكل خاص الوتد الذي يستخدم في دعم الأسوار. من هنا جاء المعنى المجازي للحدود. وتطور المفهوم ليشمل جملة ما هو واقع داخل ذلك السياج، الواقع وراء حدود الدولة التي دقت تلك الأوتاد. (المترجم)

تزعزع هذا النمط من السيادة الإنجليزية في أيرلندا بداية خلال حكم هنري السابع (١٤٨٥-١٥٠٩)، وأعيد تشكيله كلية خلال حكم هنري الثامن (١٥٠٩-١٥٤٧). وفيما بين هذين الملكين من أسرة تودور Tudor (١٤٨٥-١٦٠٣)، استطاعت السياسة الإنجليزية تجاه أيرلندا تحقيق سلسلة غريبة من النتائج: توحيد إداري لأيرلندا تحت حكم أسرة إيرل كلدير Earl of Keldare (أسرة نورماندية سلتية)؛ قمع تمرد بقيادة كلدير كزعيم للكاثوليكية الأيرلندية وذلك بعد انفصال الدولة الإنجليزية عن البابوية؛ ومع قمع التمرد وإعدام بعض قادته، تحقق إخضاع جديد لأيرلندا. وقد تمخض عن نجاح الطبقة الملكية الإقطاعية الإنجليزية في السيطرة على أيرلندا بدايات تحويل أيرلندا إلى مستعمرة إنجليزية.(٤٨)

وبمجرد أن استقرت إليزابيث الأولى(*) (١٥٣٣-١٦٠٣) على عرش إنجلترا - عقب الحكم القصير والمضطرب لأقربائها، إدوارد السادس (١٥٤٧-١٥٥٣) وماري الأولى (١٥٣٣- ١٥٥٨) - تغيرت سياسة إنجلترا تجاه أيرلندا جذريا، ولم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة، وفي ذلك يقول هيشتر:

(*) إليزابيث الأولى Elizabeth I of England (٧ سبتمبر ١٥٣٣- ٢٤ مارس ١٦٠٣) ملكة إنجلترا وأيرلندا من ١٧ نوفمبر ١٥٥٨ وحتى وفاتها. لقبت بألقاب مختلفة من بينها "الملكة العذراء" و"المجيدة"، أو "الملكة الصالحة بيس Bess". ورثت الحكم في فترة مضطربة سياسيا، وتبنت نهجا معتمدا على المشورة واستعانت بعدد كبير من المستشارين. كانت أول خطوة تقوم بها كملكة تأسيس الكنيسة البروتستانينية، وتبوأت منها موقع الحاكم العام. وتركت هذه الخطوة بصماتها على المذهب الديني في إنجلترا إلى اليوم. كان من المتوقع أن تتزوج إليزابيث لتقدم وريثا يكمل سلالة أسرتها، لكنها لم تفعل، على الرغم من طلبات الزواج الكثيرة. وكلما تقدم بها العمر، زادت شهرتها لعذريتها، والاحتفاء بها ظل ملازما لها في الصور، والمواكب، والأدب حتى اليوم. (المترجم)

"استقر الإنجليز على خطة تحويل أيرلندا إلى مزرعة واسعة، باعتبار ذلك الوسيلة الأفضل لإخضاعها. حيث كانت أوسع هذه المزارع في لندنديري(أيرلندا الشمالية) والتي تأسست في ١٦٠٨، وكانت تعاصر تقريبا مزارع الرق في فرجينيا (أمريكا الشمالية). وقد تم إغراء الإنجليز والاسكتلنديين القادمين من الأراضي المنخفضة للذهاب إلى أيرلندا بالوعد بالأراضي المجانية. وكانت مهمتهم تحصين قراهم ودفع الأيرلنديين إلى الغابات".(٤٩)

وكان قمع التمردات اللاحقة(٥٠) يتطلب نفقات باهظة لدرجة أن مؤرخا مثل آر. دي إدواردس R. D. Edwards، أكد على أن "فقر التاج، الذي كان عاملا خطيرا في صراع القرن السابع عشر مع البرلمان، كان يرجع، جزئيا على الأقل، إلى نفقات الحملات العسكرية في أيرلندا".(٥١) وسواء كان ذلك دقيقا أم لا، فإن السلام الأكثر استمرارا في أيرلندا لم يتحقق حتى السنوات الأخيرة من حكم إليزابيث، على الرغم من استمرار الأساطير التي ادعت غير ذلك، وفي ذلك يوضح نيقولا مانسيرغ:

"استمرت سمعة النجاح التي اقترنت بالمستوطنين الإنجليز في عهد إليزابيث على ما هي عليه؛ ولكن مشروعهم الأيرلندي الذي كان يفتقد إلى الإحساس المستمر بالهدف، أثبت أنه عرضه لفشل ذريع. وكذلك كان الأمر في القرون التالية بالنسبة إلى قصة المزارع الكئيبة، والتمرد، والعنف الذي

أشاعته حملة أوليفر كرومويل(*) في أيرلندا، والحرب الأهلية والدينية، والقانون الجنائي ضد المذهب الكاثوليكي، وزالت في النهاية خدعة الاستيطان في عهد الملكة إليزابيث".(٥٢)

وعلى الرغم من أن إدارة إليزابيث هي التي وضعت هذه السياسة أولا، فإنه في ظل حكم جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥) حقق استعمار أيرلندا من خلال جلب مزارعين وفلاحين من اسكتلندا والمقاطعات الغربية نجاحا كبيرا (أولا في أولستر Ulster، ثم تواصل الأمر إلى استبعاد الأيادي الأيرلندية في شمال وكسفورد Wexford، لونجفورد Longford، ولايتريم Leitrim). وبحلول ١٦٤١، أي في منتصف حكم تشارلز الأول (١٦٢٥-١٦٤٩)، قدر ويليام بيتي William Petty، الاقتصادي والإحصائي الإنجليزي في القرن السابع عشر، أنه كان هناك ٢٦٠ ألف متعهد Undertakers (كما كان يطلق على المستعمرين البروتستانت التابعين للتاج) بين ١,٥ مليون نسمة هم سكان أيرلندا آنئذ.(٥٣) وفي هذه السنة أيضا تمرد الأيرلنديون ثانية، حيث صعَّدوا أخطر وأشد جهودهم لرفض الحكم الإنجليزي منذ الغزو. ويعرف تاريخيا

(*) أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (١٥ ابريل ١٥٩٩- ٣ سبتمبر ١٦٥٨) قائد سياسي وعسكري إنجليزي. ولد في طبقة النبلاء الوسطى، وظل غامضنا نسبيًا في الـ- ٤٠ سنة الأولى من حياته. بعد قيامه بتغيير ديانته في الثلاثينيات من القرن السابع عشر، أصبح بروتستانتيا مستقلا. كان يعتقد أن انتصاراته ملهمة بدعم إلهي. تم انتخابه عضوا في البرلمان عدة مرات خلال الفترة من ١٦٢٨-١٦٥٠. دخل الحرب الأهلية الانجليزية إلى جانب القوات الثورية ضد القوات الملكية وترقى من قيادة فرقة واحدة من الفرسان إلى أحد القادة الرئيسيين للجيش النموذجي الجديد، مؤديًا دورًا مهمًا في هزيمة القوات الملكية. قاد حملة إنجليزية لقمع التمرد في إنجلترا بين عامي ١٦٤٩ و ١٦٥٠، وألحقت هزيمة ساحقة بالثائرين الأيرلنديين وأشاعت مناخا من الرعب والخوف في البلاد. (المترجم)

باسم مذبحة ١٦٤١. واستمر هذا التمرد لمدة أحد عشر عاما. ويطلق فـــرود Froude على تلـــك الفتـــرة مـــسمى حقبـــة العقوبـــات Penal Era (١٦٥٢-١٧٠٤).[٥٤] والتي اكتسبت أيرلندا خلالها الخصائص التي ميزت تجربتهـــا الفريدة حتى أوائل القرن العشرين[٥٥]، والتي جعلت منها مـــستعمرة، وتـــم الاستيلاء على أراضي مواطنيها المعتقلين أو المقتولين، وتعرضت ديانتهـــا الكاثوليكية للاضطهاد لصالح تمييز البروتستانتية، إضافة إلى نزع الأراضي من الطبقات العاملة فيها، وتعاقب الإدارات الدموية عليها وما شـــهدته مـــن إرهاب إنجليزي رسمي. وخلال هذه الحقبة الجنائية أيضا، ظهـــرت معظـــم التشريعات المقيدة التي أصدرها البرلمـــان الإنجليـــزي لاســـتكمال تـــشويه الاقتصاد الأيرلندي،[٥٦] وفي مقدمتها قوانين ضد تسويق الماشية الأيرلنديـــة في إنجلترا، ١٦٨١؛ وضد المنسوجات الأيرلنديـــة الكتانيـــة المـــصبوغة، ١٦٩٩؛ وضد الزجاج، ١٧٤٦. وبمجرد أن حققت هذه السياسات أهـــدافها، كان يمكن استعادة التجارة الحرة لصالح التاج، وهنا يؤكد هشتر:

"بحلول ١٨٠١، كانت التجارة الحرة بين بريطانيا العظمى وأيرلندا حقيقـــة واقعة، ومع ذلك، لم تستطع الصناعة الأيرلندية – باستثناء واحد هو الكتـــان – مقاومة المنافسة الإنجليزية. ولذلك فإنه بعد الاتحاد أصبحت أيرلندا أكثر ريفيـــة وأكثر زراعية وأكثر تخصصا اقتصاديا عما كانت عليه سابقا".[٥٧]

وتحولت أيرلندا إلى قطاع تابع للاقتصاد الإنجليـــزي. وتلـــك كانـــت التجربة التاريخية التي وجهت القومية الأيرلندية في القرون من الثامن عشر إلى العشرين. وأثرت هذه الأحداث بدرجة كبيرة على الخـــصائص النفـــسية

والفكرية للعمال الأيرلنديين الذين هاجروا إلى إنجلترا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لاستكمال عمالة البروليتاريا الإنجليزية المهاجرة. ومن المؤكد أن العلاقات الاجتماعية والسياسية للعمال الأيرلنديين المهاجرين بنظرائهم الإنجليز كانت مقيدة بصورة حادة بالماضي المحاصر بعداوات خلفها صراع الهوية القومية بين الجانبين.

وعي الطبقة العاملة الإنجليزية والعامل الأيرلندي

كان المهاجر الأيرلندي عنصرا مهمًا في الطبقة العاملة الصناعية الإنجليزية (فبحلول ١٨٤١، كان ٤٠٠ ألف من المهاجرين المولودين في أيرلندا يعيشون في بريطانيا العظمى).[٥٨] وكان هذا المهاجر - كما يصف طومسون العامل الأيرلندي في أوائل القرن التاسع عشر - "أرخص عامل في أوروبا الغربية".[٥٩] فقد كان العمال الأيرلنديون يستخدمون ويستغلون إلى أقصى حد، حيث يؤكد طومسون:

"كانت المهن اليدوية الثقيلة في قاع المجتمع الصناعي تتطلب تكلفة باهظة من الطاقة البدنية الكاملة - أي تناوب العمالة الكثيفة والاسترخاء الشديد الذي ينتمي إلى الإيقاع البطيء للعمالة في مرحلة ما قبل الطفرة الصناعة، والذي لم يكن يتناسب مع الحرفي أو النساج الإنجليزي، وذلك بسبب ضعفه البدني ومزاجه البيوريتاني[*]."[٦٠]

(*) بيوريتانية Puritanism أو تطهُرية: مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية، والسياسية، واللاهوتية، والأخلاقية. وقد ظهر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية. وتستند تعاليم هذا المذهب إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدرا وحيدا للعقيدة الدينية من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة. كثيرًا ما يستخدم مصطلح " البيوريتاني" بشكل خاطئ، ولاسيما على أساس افتراض أنه يعني "التزمت"

ولا يزال التفسير التاريخي الذي قدمه طومسون عن حاجة بريطانيا إلى العمالة الأيرلندية للحاجة إلى استكمال الطبقات العاملة الإنجليزية لا يمثل المبرر الذي كان سائدا في ذلك الوقت. وكان إنجلز أقرب إلى الطبقة العاملة الصناعية الإنجليزية، وربما كان أكثر دقة في تقييمه لدوافعهم عندما لاحظ أن "الأيرلنديين... اكتشفوا الحد الأدنى من ضروريات الحياة، وهم الآن يجعلون العمال الإنجليز على دراية بها".(٦١) لأنه مهما كانت قيمة العامل الأيرلندي، إلا أنه لم يكن متسقا مع النزعة الأنجلوساكسونية التي تعزل العامل الإنجليزي عن الهرمية العنصرية التي تناسب أكثر تصنيف عيوب "السلالة" الأيرلندية".(٦٢) فرب العمل الإنجليزي يرى أن العامل الأيرلندي ينحدر من سلالة متدنية، ومن ثم فإن القيمة السوقية الرخيصة لعمله كانت تمثل الشكل الأكثر منطقية له.

وعندما نترك التحيزات الشعبية مؤقتا، فإن الطبقات العاملة الإنجليزية، خاصة في القطاعات الصناعية، كان لديها فرصة أكبر من منافسيها لتكوين اتجاهات مختلفة تماما نحو نظرائهم الأيرلنديين. وفي الواقع، فإنه في أوائل القرن التاسع عشر كانت فرص تكوين حركات اجتماعية ناجحة قائمة على العمال الأيرلنديين والإنجليز كثيرة وتبدو واعدة. فقد قام قادة العمال الأيرلنديين بأدوار بارزة في تحريض الطبقة العاملة في إنجلترا (في حركة

و"الالتزام بالأحكام المتصلبة". وقد تم التضييق على البيروتانيين في إنجلترا عن طريق القوانين التي تحكم ممارسة الشعائر الدينية، ولكن انتقلت آراؤهم عن طريق الهجرة إلى هولندا ومن بعدها نيوإنجلند، ومع الكهنة الإنجيليين إلى أيرلندا ومن بعدها ويلز، وانتشرت بعد ذلك في المجتمع العادي عن طريق التبشير والوعظ وأجزاء من النظام التعليمي، وخاصة في بعض كليات جامعة كامبريدج. (المترجم)

الميثاق الشعبي مثلا)[٦٣] وهناك اعتقاد شائع بأن حركات ومنظمات الطبقة العاملة في إنجلترا بصفة عامة كانت منظمة بناء على الأساليب التنظيمية الأيرلندية.[٦٤] ولكن مدى ظهور اتجاه حركة الطبقة العاملة الراديكالية الموحدة، ثم انطلاقها بسهولة في أوائل القرن التاسع عشر، أربك على الأقل أحد مؤرخي الفترة بعمق لدرجة أنه أثار تأملا غير مسبوق. وبعد أن راجع طومسون الملاحظات التي أبداها إنجلز على الآثار (الثورية) الإيجابية لاختلاط هاتين السلالتين في الطبقة العاملة ("المزاج الأيرلندي الأكثر بساطة وإثارة وحماسا، والمزاج الإنجليزي الأكثر استقرارا وعقلا ومحافظة")،[٦٥] توقف ليفكر في الاحتمالات السياسية التي لا بد أن الإنتاج الرأسمالي الإنجليزي حققها، وخلص من ذلك بالقول:

"لقد كان ذلك ميزة لأرباب العمل، وذلك في وقت تواجدت فيه هندسة الدقة مع الحفر بوسائل الجاروف والمعول، ليكونوا قادرين على الاعتماد على هذين النوعين من العمل. ولكن السعر الذي كان يجب دفعه كان يتحدد من خلال كل من الراديكالية السياسية المتقدمة والثورية الأكثر بدائية وإثارة. وقد تحقق هذا الارتباط في حركة الميثاق الشعبي... فذات مرة قبل هذا، في تسعينيات القرن الثامن عشر، كان يبدو ممكنا أن اليعقوبية الإنجليزية والقومية الأيرلندية ستدخلان في إستراتيجية ثورية مشتركة. ولو كان أوكونور(*) قادرا على حمل

(*) فيرغوس أوكونور Feargus O'Connor: زعيم ميثاقي أيرلندي (١٨ يوليو ١٧٩٤-٣٠ أغسطس ١٨٥٥). ولد في عائلة أيرلندية بروتستانية وسياسية بارزة. أمضى فترة كبيرة من بداية حياته في رعاية أملاك عائلته في أيرلندا. درس فيرغوس القانون في كلية "الثالوث المقدس" (ترينيتي) في دبلن، في عام ١٨٢٠. لم يحصل على أي درجة علمية ولكنه دُعي إلى هيئة المحامين الأيرلنديين في عام ١٨٢٠. حيث حلف يمين الولاء ليصبح عضوا في الهيئة، وحرمه والده من الميراث لأنه رأى في ذلك انتقاصا من كرامته كسليل ملوك أيرلندا.

أيرلندا معه كما حمل شمال إنجلترا، فربما كانت حركة الميثاق الشعبي و"أيرلندا الفتاة" قد توصلتا إلى نقطة اتفاق على تمرد مشترك".(٦٦)

ومع ذلك، أثبتت حركة ميثاق أنها تمثل قمة التعاون بين العناصر الإنجليزية والأيرلندية في الطبقات العاملة في إنجلترا.(٦٧) إذ إن هذه الحركة - المنظمة على أساس ميثاق شعبي، ومنبر لحق الاقتراع العام، وبرلمانات سنوية، ومرتبات برلمانية؛ والتي تمثلها مظاهرات والتماسات واضطرابات وتمردات، على الرغم من أنها غير متجانسة لا سياسيا ولا فكريا - كانت تحمل أمل ظهور منظمة دائمة. ولكنها انهارت تماما، من الداخل والخارج. وبعد أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، أحبطت الجهود المختلفة التي كان يمكن أن تؤدي إلى تضامن طبقي مهم سياسيا بسبب الأحداث ذات الطبيعة السياسية والاقتصادية.

وفي إنجلترا ذاتها، تحققت هزيمة المحتجين الميثاقيين بسبب مدى ونوع رد فعل الطبقات الإنجليزية الحاكمة، كما وصفها طومسون بجدارة:

"كانت صحيفة التايمز - التي كانت لسان حال راديكالية الطبقة الوسطى - تقود الدعوة إلى ممارسة الشدة. وقد استجابت الطبقة الوسطى للنصيحة: "في التاسع من يناير [١٨٣١] صدر حكم بالإعدام على ٢٣ سجينا، عقابا على تدمير ماكينة ورق في بوكنجهام؛ وفي اليوم الحادي عشر في دورست، صدر حكم مماثل على ثلاثة أيضا عقابا على ابتزاز أموال، وعلى اثنين عقابا على السرقة؛ وفي نورفيتش، أدين ٥٥ سجينا بسبب تحطيم الماكينات وإثارة الشغب؛ وفي اسبفيتش، أدين ثلاثة بسبب ابتزاز أموال؛ وفي بتوورث أدين ٢٦ بسبب تحطيم الماكينات والشغب؛ وفي جلوسستر أدين حوالي ٣٠؛ وفي أكسفورد حوالي ٢٩؛ وفي ونشستر حكم على ستة بالإعدام من بين أكثر من ٤٠ ممن أدينوا.... وفي مدينة سالزبوري، أدين ٤٤ سجينا".

وكانت "الوزارة اليمينية" أيضا هي التي قضت بعد ذلك بثلاث سنوات بترحيل عمال قرية تولبودل Tolpuddle في مقاطعة دورستشاير Dorsetshire، لأنهم تجرأوا على تكوين اتحاد عمال.[٦٨]

وعقب هذه الحقبة من حالة الحرب الطبقية العلنية وما صاحبها من عمليات إعدام، تحولت الطبقة العاملة الإنجليزية كما رأينا إلى تكوين اتحادات العمال كشكل رئيس لنشاطها. وكان هذا انعكاسا جزئيا للنتائج الاجتماعية المصاحبة لنمو الإنتاج والتجارة الإنجليزية. حيث بدأ العامل الإنجليزي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في التمتع ببعض مزايا أرستقراطية العمل في النظام العالمي.[٦٩]

وفي أيرلندا، كانت أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر فترة كوارث الحصاد الكبيرة التي أصبحت تعرف باسم "مجاعة البطاطس" أو "المجاعة الكبيرة". وكانت نتائجها المباشرة تتمثل في كل من الهجرة الضخمة من أيرلندا إلى الولايات المتحدة، وإثارة القومية المتطرفة جدا بين الأيرلنديين في الداخل والخارج.[٧٠]

وقد أدت هذه الانتكاسات السياسية والاقتصادية - بالنسبة للعمال الصناعيين الإنجليز والأيرلنديين من ناحية، وبالنسبة للفلاحين والمزارعين والعمال الصناعيين في أيرلندا من ناحية أخرى - إلى التباعد الفكري والمادي بين "السلالتين". ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، حظيت أيديولوجية القومية الإنجليزية بين العمال الإنجليز بالأولوية على الأيديولوجية المضادة المتمثلة في التضامن الطبقي الدولي والآمال الاشتراكية. وكان هذا جزء من رد الفعل المحافظ (اتحادات العمال) على الهزيمة السياسية والنمو

الاقتصادي، ولكن هذا يرتبط أيضا بالاتجاهات الراديكالية التي تبنتها الطبقات العاملة الأيرلندية (والطبقة الوسطى الأيرلندية القومية).(٧١) كما كان ماركس يقول بطريقة أو بأخرى: "إن الطبقة العاملة الإنجليزية "لن تحقق أي شيء أبدا" قبل أن تتخلص من أيرلندا".(٧٢) فقبل ذلك طبعا كان وجود المهاجرين الأيرلنديين - كعامل مشوه وكابح في سوق العمل - هو الذي أدى إلى المشاعر المعادية للأيرلنديين بين العمال الإنجليز. حيث أدت هذه العداوة إلى تأكيد واستكمال مدى المشاعر السلالية بين الطبقات الحاكمة الإنجليزية، والتي تتبعنا أسسها التاريخية فيما سبق. وبعد ذلك، منذ خمسينيات القرن التاسع عشر فصاعدا، أصبح تطور التعاطف بين العمال الإنجليز تجاه القومية الأيرلندية أكثر بعدا مع ظهور قومية (الطبقة الوسطى) الراديكالية الأيرلندية - حركة الحكم الداخلي Home Rule - وكذلك الحركة القومية للطبقة العاملة والفلاحين الأكثر راديكالية، والتي أخذت شكل حركة زراعية ثورية.(٧٣) وبنهاية القرن التاسع عشر، كان الشعب الإنجليزي متوافقا بالنسبة للمسألة الأيرلندية. وأينما وجدت استثناءات، فقد كانت ترتبط بالضعف السياسي والتبعية.

البروليتاريا والطبقة العاملة الإنجليزية

استخدمنا المصطلحين "إنجليزي" و"أيرلندي" في المناقشة السابقة للتبسيط وتحقيق موائمة عامة للسياق. وكان من الصعب جدا أن يكونوا دقيقين مع معالجة الموضوع بقدر مناسب من الاستفاضة. ومع ذلك، يأمل المرء في ألا تكون هذه الملاءمة قد غابت عن اهتمام القارئ، وذلك في ظل التركيز المستمر هنا على التحفظات العرقية والثقافية وأهميتها. فعلى الرغم من أن

أيرلندا مجرد جزيرة صغيرة، فإن تكامل الشعب الأيرلندي لم يكن حقيقة واقعة في وقت "المجاعة الكبيرة" والهجرة الكبرى من أيرلندا في القرن التاسع عشر. ففي الواقع، هناك بعض دارسي الهجرات الذين يركزون على الأقاليم والثقافات المحلية ومجموعات اللهجات والمهن التي جاء منها المهاجرون المتتابعون، وكيف أن هذه الخصوصيات أثرت على الحركات التاريخية.(٧٤) إذ كان الشعب الأيرلندي يمر بعملية تشكيل الهوية القومية والثقافة القومية منذ الغزو الذي قاده النورمانديون. ولم يحققوا ذلك عندما جاء الوقت للتحرك الكبير الذي ميز تاريخهم الجمعي طوال المائتي سنة الماضية. إذ إن هويتهم القومية تأثرت كثيرا بالشتات الأيرلندي.

ولكن حتى بالإضافة إلى هذه النقطة، فقد رأينا أن المصطلحات العامة "الطبقة العاملة الإنجليزية" أو "البروليتاريا الإنجليزية" تخفي الحقائق الاجتماعية والتاريخية التي صاحبت ظهور الرأسمالية الصناعية في إنجلترا وإمبراطوريتها. إذ إن التقسيمات الاجتماعية وعادات وتقاليد الحياة التي سبقت الإنتاج الصناعي استمرت حتى الحقبة الحديثة، ونقلت إلى الطبقات العاملة في بريطانيا وعيا وحساسيات اجتماعية خاصة. ولم تكن الطبقة العاملة الإنجليزية تمثل الهوية الاجتماعية والتاريخية الوحيدة التي تقترحها هذه العبارة. إذ إن دراسة أكثر عمقا لعناصرها - لأننا راجعنا فقط الحالة الأكثر تطرفا مع أيرلندا - كشفت عن تقسيمات اجتماعية أخرى، بعضها عرقي (الويلزيين والإسكتلنديين، ومؤخرا المهاجرين من جزر الهند الغربية وآسيا)،(٧٥) وبعضها إقليمي، وبعضها الآخر صناعي ومهني أساسا. ولكن التناقضات الناتجة عن أنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج والأيديولوجية

الرأسمالية لم تظهر نفسها في صورة إزالة التناقضات بين الطبقات العاملة. وبدلا من ذلك، فإن جدلية التحول البروليتاري وجهت الطبقات العاملة إلى أهمية التمييز بين: العرقيات والقوميات، وبين العمال المهرة وغير المهرة، بل وبين السلالات كما سنرى لاحقا بشكل أكثر دراماتيكية. فقد كان ظهور واستمرار هذه التناقضات داخل الطبقات العاملة جانبا جوهريا لانتصار الرأسمالية في القرن التاسع عشر.

ولم يكن ماركس وإنجلز غافلين عن فشل البروليتاريا في تكوين طبقة عالمية.[٧٦] فقد درسا المسألة الأيرلندية عن كثب، وكانا نشطين في محاولة تخفيف أثرها المدمر على العمليات التاريخية لتكوين الطبقة العاملة الإنجليزية، وعلقا على أهميتها بالنسبة إلى التنظيم البروليتاري مستقبلا.[٧٧] ومع ذلك، يبدو أن تأثير "تجربتهما" مع البروليتاريا الإنجليزية على "نظريتهما" في الدور التاريخي للبروليتاريا كان بسيطا. فقد لاحظ شلومو أفنيري Shlomo Avineri أنه:

"ثمة حضور ملحوظ للطبيعة العالمية للبروليتاريا في كتابات ماركس المتأخرة، حيث تركز مناقشته أساسا على الأسباب التاريخية لظهور البروليتاريا. إذ إن ما كان في البداية بمثابة فرضية فلسفية أكدته التجربة والملاحظة التاريخية، والتي تشير إلى أن الطبيعة العالمية للبروليتاريا تتوقف على أوضاع الإنتاج في المجتمع الرأسمالي، الذي يجب أن يكافح من أجل العالمية على المستوى الجغرافي أيضا".[٧٨]

ويبدو أن هذا يؤكد إحدى أشهر تقديرات إنجلز التي ذهب فيها يقول لعملهما:

"أتحمل أنا وماركس جزئيا قدرا من المسؤولية عما آل إليه حال لاشباب الذين يفرطون في التركيز على الجانب الاقتصادي. ولكن يجب أن نؤكد المبدأ الرئيس في مواجهة خصومنا الذين ينكرونه، ولكن ليس لدينا دائما الوقت أو المكان أو الفرصة للسماح للعناصر الأخرى المتضمنة في هذا التفاعل بأخذ حقها. ولكن عندما يتعلق الأمر بحالة شريحة من التاريخ، ذات التطبيق العملي، يصير الأمر مختلفا، ولا يصبح هناك احتمال للخطأ".[٧٩]

وكان إنجلز محقا تماما، على الرغم من أن المثال الذي كان يشير إليه مباشرة يمكن أن يكون خادعا.

يمكن قراءة الفرق الذي قدمه إنجلز هنا على أحد المستويات بين التاريخ[٨٠] والنظرية على أنه محاولة للتمييز بين دور الصحفي ودور الفيلسوف العلمي. ولكن مثل هذا التفسير سيقلل من شأن قصد إنجلز. إذ إن إنجلز مثل ماركس يدرك أن محاولته تركيب نظام كلي "للمفهوم المادي للتاريخ" ستحمل تأثير فترة تجربته التاريخية.[٨١] فلا يقتصر الأمر على الأيديولوجية والفلسفة، ولكن كل النشاط البشري له نفس الطبيعة:

"إننا نصنع تاريخنا بأنفسنا، ولكننا نفعل ذلك في ظل ظروف وفروض محددة جدا بالدرجة الأولى. وتعتبر الظروف الاقتصادية حاسمة في النهاية. ولكن الظروف السياسية، وغيرها، وحتى التقاليد التي تسيطر على أذهان الناس تلعب دورا أيضا، ولكنه ليس الدور الحاسم".[٨٢]

لقد أظهر التاريخ لكل من ماركس وإنجلز أن التغير الجدلي لم يكن أبدا بمثابة تجاهل كامل للأوضاع التي ظهر منها، ولكنه كان بمثابة تحول

المعنى والمقصد والاتجاه لكافة العناصر التي كانت موجودة سلفا. وهذا يعني أن عملهما – الذي كان في حد ذاته نقدا "للمجتمع البرجوازي" والرأسمالية الصناعية – سيخضع يوما ما للنقد (النفي) عندما تتخطى القوى المادية للمجتمع مرحلة نموها في القرن التاسع عشر. أي إن ما كان أيديولوجيا ("الوعي الجزئي") في دراستهما للتاريخ سيتخطاه شكل أرقي "بالضرورة" من الفكر الاجتماعي الذي يقابل لحظته التاريخية.

وربما كانت أوضح المركبات الأيديولوجية التي تظهر في أعمال ماركس وإنجلز (ومعظم الماركسيين الذين اتبعوهما) تتمثل في فكرة البروليتاريا باعتبارها موضوعا ثوريا، وفكرة الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية. وقد استمرت الفكرتان في الفكر الماركسي في المصطلحات التي اقترحها إشعيا برلين Isaiah Berlin، حين ذهب يقول:

"إن المنهج الماركسي للحركة في التناقضات الجدلية ليس فرضية يمكن أن تكون محتملة بطريقة أو بأخرى من خلال أدلة الحقائق، ولكنه نمط كشفه أسلوب تاريخي غير تجريبي لا شك في صحته".(٨٣)

ولكي نفهم هذا "التردد" في الفكر الأوروبي الراديكالي، ونزعته الأوروبية، يصبح من المناسب أن نراجع الفكر الاشتراكي الذي بنى عليه ماركس وإنجلز أطروحاتهما، والذي كان سياقه التاريخي يتمثل في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فهنا سوف نكتشف أسس النمط الذي دفع الماركسية الأوروبية إلى حقبة لم تكن مستعدة لها: حقبة العالم الحديث.

الفصل الثالث

النظرية الاشتراكية والحركة القومية

يحدد أنصار الاشتراكية العلمية(*) نقطة انطلاقهم بتلك العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر، وإن كانوا يقصدون التوجه العلمي لذلك القرن أكثر ما يشيرون إلى ظهور الاشتراكية العلمية بدقة. في تلك الفترة التاريخية تجسد النقد السياسي والفكري للرأسمالية في صورة انتقاد حالة اغتراب العمال، ونقد تنظيم الحياة الاجتماعية وفقا لإملاءات ومتطلبات الملكية الخاصة التي يمكن إرجاعها إلى القرن التاسع عشر.

وإن أردنا الدقة، ترجع البدايات الفكرية والتحليلية والنظرية للاشتراكية العلمية إلى فترات سابقة على نهايات القرن التاسع عشر. فالاشتراكية الحديثة الملتزمة بصبغ المجتمع بصبغة علمية كانت تتأثر بمفهوم مختلف جذريا للمشروع الاشتراكي، مقارنة بتلك الاشتراكية التي نتجت عن تعارض الأيديولوجية الشيوعية مع الإنتاج الصناعي للمادية الألمانية، والأحداث الثورية في أوائل القرن التاسع عشر.(١)

(*) الاشتراكية العلمية Scientific socialism: مصطلح استخدمه فريدريك إنجلز لوصف النظرية الاجتماعية السياسية الاقتصادية، والذي كان كارل ماركس أول روادها. والسبب وراء تسمية تلك الاشتراكية بـ- "العلمية" (بدلا من الاشتراكية الطوباوية) هو أن نظرياتها تقوم على مستوى تجريبي، والملاحظات عنصر أساسي في تطورها، مما يؤدي إلى تعديل عناصر النظرية. (المترجم)

وقبل ذلك القرن، فإن ما كان يشار إليه أحيانا على أنه الرؤية الاجتماعية لم يكن سوى نوع من التقاليد الأخلاقية وأصول علمية للمعرفة تغلغلت في الفكر الأوروبي في شكل نظم أخلاقية واعتبارات استعيرت من حضارات مصر واليونان وآسيا الصغرى. وفي ذلك يقول نورمان كوهن Norman Cohen:

"مثل التصورات الخيالية الأخرى التي انتشرت في أوربا وذهبت إلى تكوين الإيمان بالغيب والآخرة، يمكن إرجاع خيالات المساواة والاشتراكية إلى حضارات العالم القديم".(٢)

وبالطبع كانت المسيحية موصلا جيدا بين تلك العصور البينية. لكن من اللافت أنه رغم ما كان لدى الكنيسة من قوة متنامية، وثروة، وممتلكات بشرية، لم يكن لها أن تتفادى ظهور وتبلور النهج الشيوعي، رغم أن الاشتراكية وقتها كانت تنتقد كلا من الثروة والسلطة الكنسية.(٣) فطوال أكثر من ألف وخمسمائة سنة، كانت هناك:

"سلطة كنسية مزيفة، وصار شائعا بين القانونيين والفلاسفة أنه في الحالة الطبيعية للمجتمع السابقة على ظهور السلطة الكنسية لم يكن هناك شيء اسمه الملكية الخاصة، لأن كل الأشياء كانت تنتمي إلى كل الناس".(٤)

وفي الواقع، كانت الطبقات الكهنوتية الكنسية تمارس دور التعليم والوعظ، بينما تمارس الطبقات الدنيا من الناس حياتها الاجتماعية خاضعة لكنف الكنيسة. وهكذا تضمنت الكنيسة تناقضات الامتيازات الإقطاعية والمبادئ المسيحية. وبالطبع كان لا بد أن ينفجر هذا التناقض، ليعلن عن نفسه في شكل هرطقة القرن الرابع عشر وما بعده، بالإضافة إلى الإيمان الثوري للتمردات العديدة التي شنها الفلاحون في أواخر العصور الوسطى.(٥)

وأصبح كل من نهج الاشتراكية البدائية وحركات العصيان جزءا من التقليد الاشتراكي.[٦] وبمراجعة تاريخ أوروبا الإقطاعيـة تمكـن مـاركس وإنجلز من التعرف على الأشكال التي سبقت الممارسات الاشـتراكية فـي بعض الحركات مثل حركة تجديد التعميد(*) في ألمانيا في القـرن الـسادس عشر، وحركة المنادين بالمساواة Levellers في إنجلترا فـي القـرن الـسابع عشر، واعتبرها إنجلز حركات ممهدة "للبروليتاريا الحديثة".

ومن جانبهم أرجع مؤرخو القرن التاسع عشر هذه الأشكال الاشتراكية الأولية إلى البيئة الفرنسية وزعموا أنها ظهرت أولا بين أبناء الطبقات الأكثر حراكا على المستوى الـسياسي والفكـري، وخاصـة بـين البرجوازيـة، والبرجوازية الصغيرة، وأرباب المهن الحرفية.[٨]

ويؤكد مؤرخو الحركة الاشتراكية أن الثورة الفرنسية (وهـي الحـدث الذي لا يتفقون عليه كثيرا فيما بينهم) كانت الأكثر ثورية في إطلاق الأفكار الاشتراكية مقارنة بالثورة الصناعية. وكما ذكرنا سلفا، فإن جانبا من الثورة الصناعية كان يعتبر ظاهرة إنجليزية، خاصة فيمـا يتعلـق منهـا بظهـور الرأسمالية الصناعية على المستوى الفني وتطور الآلات. ويمكـن اعتبـار الثورة الصناعية على هذا النحو بمثابة المحرك الثاني الذي سمح بـالتطور اللاحق للفكر الاشتراكي.

(*) تجديد التعميد Anabaptists : حركة إصلاحية راديكالية مسيحية ظهرت في القـرن الـسادس عشر في أوروبا، اختلف النقاد في مدى ارتباطها بالمذهب البروتستانتي. يشترط الانـضمام إلى هذه الحركة المرور بطقس إعادة التعميد (رش الماء الكنسي). وبينما يعتبر أنصار هـذه الحركة أن التعميد يستلزم أن يكون الإنسان واعيا وقادرا على الإدلاء بالاعترافات الإيمانية، يسخر في المقابل منتقدو هذه الحركة من أن طقس إعادة التعميد يعيد المنضمين إلـى هـذه الحركة إلى "طفولة جديدة" يرجع معها الشخص فيها إلى مرحلة الرضاعة. ويرفض أعضاء هذه الحركة اسم "مجددو التعميد"، مدعين أن تعميد الأطفال غير ديني ولاغ وباطل لأنه يـتم لمن لا إرادة عقلية لديهم، وأن ما يمرون به من تعميد لم يكن "تجديد" لتعميدهم، ولكنـه فـي الحقيقة أول تعميد بالنسبة لهم. (المترجم)

الفكر الاشتراكي: إلغاء الإقطاع أم الرأسمالية؟

كما أنه يمكن فهم الطبيعة التاريخية لتطور الرأسمالية والطبقات العاملة المرتبطة بذلك التطور بصورة أفضل من خلال حضارة العصور الوسطى التي ظهرت فيها، ينطبق نفس الأمر على تاريخ الاشتراكية. إذ إن الاشتراكية كقوى عارضت التفاوت الاجتماعي والفقر كانت موجهة أساسا إلى تكيف المجتمع البرجوازي مع الهياكل الإقطاعية. وكان النقد الاشتراكي للمجتمع بمثابة محاولات لتحفيز الثورات البرجوازية ضد الإقطاع. وعندئذ اكتسب هذا النقد طبيعة أخلاقية. وفي ذلك يذهب بعض الباحثين إلى القول:

"لم يكن نقد الملكية الخاصة التي ظهرت مع تحرير فرنسا في القرن الثامن عشر موجها مطلقا نحو النظام الصناعي. فباستثناء المناداة بإلغاء هذا النوع من الملكية، لم يكن ثمة توجه اقتصادي. ولكن اهتمام مفكر اشتراكي بارز في تلك الفترة مثل مورلي Morelly كان أخلاقيا تماما، وكان إلغاء الملكية الخاصة بالنسبة إليه يمثل ببساطة محور ارتكاز لهيكل اجتماعي وسياسي رشيد يمكن أن يحقق التجديد الأخلاقي للإنسان.[٩]

اهتم ماركس وإنجلز في "البيان الشيوعي" بتقديم رؤية جدلية تركز على انتقاد التقاليد الاشتراكية الأخرى التي سبقتهم، وليس التوافق معها. وكان من بين ما ذهبا إليه أن الاشتراكية التي كانا معاصرين لها تتأسس بصفة عامة على محاولة تمييز حقوق ملكية "البرجوازية" والحفاظ عليها من أخطاء ملكية "الإقطاع".[١٠]

فقد كانت الاشتراكية تعبيرا عن التنوير والتحرر الاجتماعي والفكري لطبقة من المجتمعات الأوروبية كانت ترى أن فظاعات الإقطاع وسلطة "الدولة المطلقة" لم تعد طبيعية ولا مباشرة ولا حتمية. ونظرا لأنها كانت أيديولوجية تلتزم بقوة العلم التاريخية والإلهية والعقل والرشادة، فقد كانت بمثابة انحراف عن تلك الأيديولوجيات والمركبات التي عملت على إضفاء الشرعية على الأشكال المتعددة للإقطاع والسلطة الإمبريالية. وقد تمثلت أشكال الإقطاع والسلطة الاستعمارية في: رتب الطوائف، امتيازات الأرستقراطيين، السلطة المطلقة للأمير (والدولة لاحقا) على الفلاحين، وسلطة وثروة الكنيسة، وأخيرا تمثلت في فقر وعجز الجماهير.[١١] على هذا النحو كانت القضية التي تتولاها الاشتراكية المبكرة تتمثل في تحرير الروح العلمانية من نير نظم الحكم المتسلطة. وفي ذلك يقول ماركس:

"تتمثل أعلى نقطة وصلت إليها المادية التأملية (غير الحسية) في التفكير المتمعن في الأفراد داخل "المجتمع المدني".[١٢]

وهناك فكرة كثيرا ما تطرح نفسها، وتتمثل في أن الفكر الاشتراكي المبكر كان بمثابة الإلغاء الفكري والنظري للمجتمع الرأسمالي، أي الرأسمالية الصناعية خلال مراحل رأسمالية المنافسة والاحتكار. ويعني قبول هذه الفكرة افتراض وجود علاقة تاريخية غير واضحة. وكما حذر شومبيتر Schumpeter بذكاء فإن لدينا تساؤلا يدور حول:

"ما إذا كان التفسير الاقتصادي للتاريخ أكثر من مجرد تقريب لا ينطبق بشكل ملائم على كل الحالات. فمن المعروف أن الهياكل والأنماط والاتجاهات الاجتماعية عبارة عن كيانات لا تقبل الذوبان بسهولة. فبمجرد

أن تتشكل فإنها تستمر ربما لقرون، ونظرا لأن الهياكل والأنماط المختلفة تظهر درجات متفاوتة من هذه القدرة على الاستمرار، فإننا دائما ما نجد أن السلوك الجماعي والقومي الحقيقي ينحرف بدرجة أو بأخرى عما نتوقعه. صحيح أن ماركس لم يتجاهل مثل هذه الحقائق، لكنه لم يدرك كل مضامينها".[١٣]

وترتبط المظاهر الأولية للاشتراكية الحديثة وأشكالها ارتباطا وثيقا بالمجتمع الإقطاعي، وذلك بدرجة أكبر مما افترضته الأشكال الحديثة من الفكر الاشتراكي. فقد بدأت الاشتراكية كتعبير عن الاعتراض على المجتمع البرجوازي والبرجوازية.

وهكذا أسيئ فهم ما تضمنه النزعة التاريخية المادية من مبادئ اشتراكية. وقد خصص بعض الدارسين مثل جورج لشتهايم George Lichtheim[١٤] اهتمامهم لتناول "طبيعة" الاشتراكية التي يرونها مركبا فلسفيا فكريا. ويهدف هذا المركب إلى تفسير تاريخ "الفكر" الاشتراكي من خلال التركيز على التراث الفكري الذي جاء استجابة للفشل الثوري في منتصف القرن التاسع عشر.

ومن المعروف أنه كان هناك اندفاع مستمر للفكر المادي الماركسي نحو أسس العلم الوضعي، والذي تجسد في انتقاد نمط الإنتاج الرأسمالي، والأساطير السياسية التاريخية الذي اتخذتها الثورة اللينينية، كما حلت الأسطورة المسيطرة على تراث الفكر الاشتراكي محل تاريخ الاشتراكية. وتمثلت وظيفة "التاريخ" البديل للاشتراكية في تشويه الحقيقة زعما بأن أصول الفكر الاشتراكي ليست مع البروليتاريا الأوروبية، بل مع الطبقات الوسطى.[١٥] وفي ذلك يقول ديفد ماكليلان:

"لم تكن الطبقات العاملة في ألمانيا هي التي تمثل مصدر الأفكار الاشتراكية، لكن الأفكار الاشتراكية انتشرت عن طريق مجموعة من النخب الفكرية التي اعتبرت الجماهير البروليتارية بمثابة أداة محتملة للتجديد الاجتماعي".(١٦)

وفي الواقع، كان تاريخ الاشتراكية الأوروبية حافلا بمعارضة مستمرة للوعي والنشاط العملي للطبقات البروليتارية. فكما أعرب ماركس:

"ليس السؤال ما الهدف "المتصور" في الوقت الراهن لدى هذا العضو أو ذاك من البروليتاريا؟ أو حتى لدى البروليتاريا ككل؟ ولكن المسألة هي "ما البروليتاريا؟" وما مسار العمل الذي ستضطر إليه تاريخيا بما يتفق مع "طبيعتها" الخاصة؟".(١٧)

كانت طبقة المفكرين هي الطبقة الأكثر قربا لتوضيح مسار العمل. وبالطبع فإن لينين عندما وضع الحزب الثوري محل البروليتاريا الواعية، كان يتفق مع كل من ماركس وإنجلز نظريا ومنهجيا.(١٨) وللأسف، لم يشر أي منهم (لينين-ماركس-إنجلز) إلى الغرض السياسي الدقيق للحزب الثوري أو البروليتاريا. فقد حذر ماركس في ١٨٥١ من طبيعة الطبقة الخاصة للبروليتاريا، كما ظهرت في باريس في ١٨٤٨، حين ذهب إلى القول:

"يجب ألا يستحضر المرء فكرة ضيقة متمثلة في أن البرجوازية الصغيرة ترغب من حيث المبدأ في فرض مصلحتها الطبقية الأنانية. لأن الصحيح أن البرجوازية الصغيرة تعتقد أن الأوضاع "الخاصة" لتحررها تتمثل في الأوضاع "العامة" التي يمكن من خلالها إنقاذ المجتمع الحديث وتجنب الصراع الطبقي. يقول لينين في كتابه "ما العمل؟":

"يمكن اعتبار أن الفرد الديمقراطي الذي يمثل البرجوازية الصغيرة يمثل في الوقت ذاته "طبقة انتقالية" تتعادل فيها مصالح كل من الطبقة الديموقراطية والطبقة البرجوازية معا. ويبدو أنه في ظل ذلك يتصور ذلك المرء نفسه متساميا فوق مستوى العداء الطبقي بصفة عامة".(١٩)

ونظرا لأن البرجوازية الصغيرة تمثل طبقة تضم في خصائصها التاريخية طابعا إداريا وفكريا لحكم وسيطرة البرجوازية، فإن هذ النوع من البرجوازية عادة ما يميل إلى إنتاج أعمال دقيقة: سياسية ومفاهيمية. ويمكن لهذه الأعمال أن توسع سلطتها المنبثقة عنها وتستوعب كل المجتمع.(٢٠)

وكما أن المذهب النفعي والنزعة الوظيفية كانا بمثابة أسس للبرجوازية الصغيرة التي تشملها البيروقراطية والتجارة والمهن (أي المسار العام للنظام الاجتماعي الرأسمالي) فقد أصبحت الاشتراكية بمثابة الراية التي رفعها أعضاء البرجوازية الصغيرة ممن روعهم افتقار البرجوازية لرؤية شاملة وراسخة.

من فرانسوا بابيوف(*) إلى كارل ماركس

في الوقت الذي بدأت فيه الاشتراكية الحديثة تتشكل كانت الطبقات العاملة الصناعية تمثل نسبة الأقلية بين عمال إنجلترا وفرنسا.(٢١) وفي الواقع، فإن كثيرا من الحراك الثوري الذي ميز هذه الفترة كان مدفوعا بالحشود التي سيطر عليها الحرفيون وأصحاب المتاجر. فعلى سبيل المثال يوضح ألبرت

(*) فرنسوا نويل بابيوف François-Noël Babeuf (٢٣ نوفمبر ١٧٦٠- ٢٧ مايو ١٧٩٧)، محرض ثوري فرنسي وصحفي في فترة الثورة الفرنسية. على الرغم من جهود أصدقائه اليعاقبة لإنقاذه، اعتقل بابيوف وأدين لدوره في مؤامرة الأقران. وعلى الرغم من أن كلمات مثل "أناركية" (فوضوية) و"شيوعية" لم تكن موجودة أيام بابيوف، فإن الباحثين استخدموها لتحليل أفكاره. (المترجم)

سوبول Albert Soboul أنه رغم أن البرجوازية كانت بمثابة أقوى عناصر الطبقة الثالثة(*) في الحقبة الثورية الفرنسية فإن ثلثي النظام – أي جناح اليعاقبة – كان يتكون من الحرفيين وأصحاب المحال التجارية الصغيرة.[٢٢]

كانت فرنسا في تلك الأثناء أكبر اقتصاد صناعي في القارة الأوروبية. وبينما كان كل من إنجلترا وفرنسا لا تزالان مجتمعين زراعيين، أخذت حركات الطبقة العاملة فيهما أشكالا فكرية وتنظيمية مميزة، وبصفة خاصة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر. لقد أشار رود Rude على سبيل المثال إلى أهمية "استمرار الأفكار والقيم التقليدية" في الحركات التي كانت توشك على الاقتراب من السلطة.[٢٣] فقد كانت العلاقة بين الحركات الاجتماعية للطبقات الدنيا والطبقة المثقفة الاشتراكية غامضة نوعا ما.

ويزعم دارسو الاشتراكية أن الفكر الاشتراكي الذي أصبح يرتبط ارتباطا وثيقا بالبروليتاريا الصناعية قد بدأ في ١٧٩٥ مع الحركة المتطرفة التي عرفت باسم "مؤامرة الأقران Conspiracy of Equals" التي أبدع فيها فرانسوا بابيوف أفكاره.[٢٤] وفي ذلك يقرر كول G. D. H. Cole قائلا:

(*) الطبقة الثالثة Third Estate (الطبقة العامة états généraux) جمعية تشريعية تضم ممثلين عن مختلف شرائح الجمهور العام الفرنسي أثناء حكم النظام السابق على الثورة الفرنسية. كان لكل طبقة من الطبقات الثلاث في المجتمع الفرنسي (رجال الدين – النبلاء – الطبقة العامة) جمعية منفصلة تعقد وتحل بواسطة الملك. لم يكن لها سلطة حقيقية قائمة بذاتها مثلما كان للبرلمان الإنجليزي، بل كانت هيئة استشارية للملك الفرنسي، مهمتها عرض الالتماسات من مختلف الفئات الاجتماعية وتقوم بالتشاور حول السياسة المالية. استمرت الطبقة العامة في الاجتماع بشكل متقطع حتى عام ١٦١٤، ونادرًا ما اجتمعت مرة أخرى بعد ذلك، ولكن لم يتم حلها بشكل نهائي إلا بعد الثورة الفرنسية. وتتشابه الطبقة العامة إلى حد كبير مع مؤسسات أخرى في أنحاء أوروبا مثل الطبقات العامة في كل من هولندا، البرلمان في إنجلترا، برلمان الملكيات في إسكتلندا، الكورتس في إسبانيا، والدايت Diet في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدايت في الملكيات التاريخية في ألمانيا. (المترجم)

"تعتبر "مؤامرة" بابيوف لدى الاشتراكيين الثوريين، ولدى الشيوعيين حتى اليوم، بمثابة أول مظهر صريح للبروليتاريا في العمل الثوري، فلقد نادت هذه "المؤامرة" بثورة جديدة قدر لها لاحقا أن تستكمل العمل الذي كان بدأ في ١٧٨٩."[٢٥]

ويبدي لشتهايم ملاحظة مماثلة قبل أن ينتقل إلى الإعلان عن التراث الفكري المتصل من بابيوف إلى لينين، فيقول:

" يبدو بابيوف وزملاؤه بمثابة الرواد في أعين أصحاب الفكر الثوري في القرن التاسع عشر أمثال بلانكي Blanqui، كما أن لهم نفس المكانة الرائدة لدى الشعبويين الثوريين الروس في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر الذين حمل البلشفيون تراثهم فيما بعد".[٢٦]

وعلى الرغم من أن التسلسل التاريخي الذي يقدمه لشتهايم قد يكون مثيرا للمشاكل، فإن هناك تشابهات واضحة في الأزمان التي ظهر فيها أتباع بابيوف والبلاشفة من مواقفهم الثورية الخاصة بهم. ونظرا لأن "مؤامرة الأقران" يمكن أن تكون بمثابة الدرس المستفاد، فإن ذكر بعض التفاصيل يمكن أن يكون مناسبا لإظهار هذا التشابه الواضح.

فبحلول ١٧٩٤، أي السنة الثانية لقيام الجمهورية الفرنسية، كان قد أطيح بالحكومة الأكثر راديكالية من بين الحكومات العديدة التي سيطر عليها البرجوازيون في باريس، وحُكم على قادتها (وخاصة روبسبيير Robespierre) بالإعدام أو النفي أو الإجبار على الفرار.[٢٧] وكان رد الفعل الذي تلا ذلك في فرنسا، في ظل حكومة المجلس التنفيذي[*]، يتمثل في إلغاء التشريع

(*) المجلس التنفيذي Directoire exécutif، أو المعروف اختصارا بمجلس المديرين، مجلس قوامه ٥ مديرين مثلوا السلطة التنفيذية في فرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية، وبالتحديد خلال الفترة من ٢ نوفمبر ١٧٩٥ حتى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩. عُرفت تلك الفترة بالعصر التنفيذي، والتي مثلت الدعم للمرحلة الأخيرة في الثورة الفرنسية. (المترجم)

الثوري وسياسات المساواة الخاصة بالاقتصاد الموجه التي أعلنت قبل عام.[٢٨] وكذلك فإن القيود على الأسعار ("الحد الأقصى")، والضرائب على الطبقات الغنية، والمساعدة الوطنية للفقراء، والتعليم الحر والإلزامي، ومصادرة وتوزيع ممتلكات الأثرياء المهاجرين على الفقراء، إما أنها ألغيت أو توقفت من الناحية العملية.

وكما كان الحال في مناسبات سابقة عديدة منذ تحدي سلطة الأرستقراطية، بدأت الحشود الثورية في مدن وبلدات وقرى فرنسا، يساورها اعتقاد في أن الثورة كانت تتعرض للخيانة.[٢٩] وهذه المرة كان الخائنون يمثلون البرجوازية الرجعية، أي أعضاء الطبقة التي كانت الثورة قد منحت الأمان لثروتها وسلطتها من قبل. إذ إن عمليات إعدام قادة "الجناح اليساري" اليعقوبي المعروف باسم "المجمع Convention"، استثنت من إعدام الجمهوريين الفرنسيين المتطرفين الباريسيين تلك العناصر المعروفة اصطلاحا باسم المونتانارد[*] التي كانت أكثر تجاوبا مع المطالب الثورية. ولكن عناصر الجناح اليساري الذين نجوا من القمع اختفوا تحت الأرض، ونظموا أنفسهم في جمعيات ونوادٍ سرية.

وكانت واحدة من تلك المجموعات التي نجت من الإعدام فلول "اتحاد البانثيون Union du Pantheon": أي أنصار حركة المتآمرين Conspirators. على هذا النحو فإنه بينما كان بابيوف ورفاقه يتفاوضون سرا في ١٧٩٦ مع

(*) المونتانارد Montagnards مصطلح ظهر في السياق التاريخي للثورة الفرنسية مشيرا إلى جماعة سياسية، يطلق على أعضائها اسم المونتانارد نسبة إلى كلمة جبل Mountain، والذين اعتادو أن يجلسوا في أعلى المقاعد في الجمعية التشريعية، واستخدم لأول مرة عام ١٧٩٣. ضمت الجماعة رجالا من مختلف الأطياف الفكرية القائمة على الممارسة الفعلية العنيدة، في مقابل بقية أعضاء الجمعية الذين كانوا يستندون إلى فلسفات نظرية. وكان المونتانارد أعلى أصواتا في الدفاع عن الطبقات الدنيا، ويستندون إلى المزيد من الخطب الأخلاقية. (المترجم)

الجناح اليساري اليعقوبي، كانوا يتعرضون للخيانة من رفيقهم كريسل Crisel، ذلك العسكري الذي كان يعمل جاسوسا "للمديرين التنفيذين".(٣٠) وفي المحاكمة التالية في العام الخامس (١٧٩٧)، اتضحت نية "مؤامرة الأقران" للمرة الأولى. ويوضح ذلك كول بقوله:

"لقد خططوا للاستيلاء على السلطة بمجموعة صغيرة من القادة الثوريين الذين كانوا سيشكلون بعد ذلك حكومة ثورية قائمة على أتباعهم في الجمعيات المحلية الباريسية، وذلك بهدف الدعوة لعقد جمعية وطنية بأسرع ما يمكن، حتى يتم انتخابها في ظل الامتياز الديمقراطي لدستور ١٧٩٣ المجهض الذي لم يسمح له بالتطبيق أبدا. ونظرا لتعطيل تطبيق هذا الدستور، اقترح بابيوف وأتباعه إقامة دكتاتورية مؤقتة، اعتمادا على عمال باريس في المقام الأول، ولكن لم يكن لديهم نظرية ديكتاتورية ثورية أكثر من مجرد حيلة للانتقال خلال فترة قصيرة إلى دستور ديمقراطي كامل بناء على اقتراع عام. ومع ذلك، اقترحوا الانتقال مباشرة إلى إجراءات كبيرة لمصادرة وإعادة توزيع حيازات الملكية على أساس الملكية المجتمعية وحرية تداول السلع".(٣١)

وهكذا كانت بدايات فكرة ديكتاتورية البروليتاريا قد استهلت عمرها في الاشتراكية الأوروبية. فهي ميراث يميل إلى تأكيد ما قدمه ماركس لاحقا من وصف للبرجوازية الصغيرة حين كان يقترح ظهور بعض الأشكال السياسية وما يترتب عليها من تداعيات لتلك الافتراضات المسبقة. ومن المفيد أيضا أن نذكر أن حركة "مؤامرة الأقران" لم تصبح أبدا حركة شعبية أو جماهيرية. حيث يلاحظ كول:

"أن حركة بابيوف لم تأخذ أبدا شكل حملة ثورية شاملة، ولكنها وجدت تأييدها، مثلما فعل الجناح اليساري، في المدن الكبرى وخاصة في باريس، حيث كان أتباعها ينجذبون إليها أساسا بسبب أوضاع الندرة والبطالة التي أعقبت رفض القرويين المحررين الاستمرار في تزويد المدن بضروريات الحياة. ولم تسيطر سوى على جزء صغير من البروليتاريا الحضرية. لقد كانت حركة "المؤامرة" مجموعة صغيرة تهدف إلى سحب عناصر كبيرة من السخط الحضري الناتج أساسا عن الجوع الشديد."[٣٢]

وقد مر ما يقرب من ثلاثين سنة أخرى قبل أن تقدم حركة الطبقة العاملة دليلا على تأثيرها الفعلي، ومرت فترة زمنية أطول من ذلك قبل أن تصبح مبادئ المجتمع الاشتراكي مستقرة في الحركات الاجتماعية الأوروبية.[٣٣]

وعقب إعدام بابيوف وشركائه المتآمرين، مر وقت حتى منتصف القرن (وهي السنوات التي شهدت ظهور ماركس وإنجلز) قبل أن يصبح المفكرون في التراث الفكري الاشتراكي مشاركين بنشاط في سياسات الطبقة العاملة.

ويأخذ مؤرخو الفكر الاشتراكي هذه الفترة على علاتها، بالنسبة إلى موضوعهم، ويلزمون أنفسهم جميعا بتفسيراتها. حيث يتم ترتيب الكتابات الأدبية والمذكرات والأعمال التاريخية لكتاب مجهولين أو يصعب تذكرهم، مع التفسيرات النادرة التي قدمها بوناروتي **Buonarroti**، أو بلانكي **Blanqui**، أو بلانك **Blanc**، لتكوين نسيج الفكر الاشتراكي.

لقد سيطر على هذه الفترة باحثون غريبو الأطوار وأصحاب رؤى حالمة ومنادون بالنصح والمواعظ. وكانت القصص الحزينة عند بعض المفكرين (من أمثال جودوين **Godwin**، بين **Paine**، فورييه **Fourier**، سان سيمون **Saint-Simon**، كابيت **Cabet**، بيكير **Pecquer**) تشغل اهتمام المؤرخين.

وكانت الثورات والتمردات والاضطرابات وصراعات الحرفيين والعاملين بأجر والقرويين والعمال الرقيق لا تناسب كثيرا هذا الفكر في أوائل القرن التاسع عشر، وغالبا ما كانت تمثل "ضوضاء" تسكن خلفية هذه الحقبة من الكتابة الاشتراكية.

وكانت القضايا "التاريخية" التي ظهرت في تلك الآونة تمثل إسهام كل كاتب في النظرية الاشتراكية، وذلك بغض النظر عما إذا كانت "النظم" التي تم بناؤها جيدة التصنيف من الناحية "الاشتراكية" أم لا. ولعل النقطة الأخيرة تمثل مشروعا فكريا تاريخيا مفيدا للغاية، لأن الكثيرين من المؤرخين - أتباع كول، لشتهايم، وبيير - كانوا متعاطفين مع الفكر الذي أعادوا بناءه دون فرز. وأصبح عملهم بمثابة إعلان عن استقلال النظرية الاشتراكية والحركات الاشتراكية عن بعضها. وعندما تعارضوا ثانية، في أربعينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تبنى كل منهم أشكالا وصلاحيات لا تتسامح مع أشكال وصلاحيات الآخرين. وبينما كانت حركات الطبقات العاملة تميل إلى التكيف مع الرأسمالية في شكل مطالب اتحادات العمال، مع التخلي عن المبادرات الثورية أصبح شبح البروليتاريا الثورية يسيطر على النظرية الاشتراكية بصورة متزايدة. وغني عن البيان أن الأصول الاجتماعية لتلك المبادرات الثورية كانت تتمثل غالبا في طبقات القرويين والبرجوازية الصغيرة.

لقد وقع ماركس تحت تأثير قراءته لهيجل ومواجهاته المكثفة مع عدد من المثقفين من جيله الذين اعتبروا أنفسهم من أتباع هيجل من أمثال ديفيد شتراوس، برونو باور، كارل كوبن، موسيس هيس، لورنتس فون شتاين،

لودفيج فويرباخ(٣٤). وقد حاول ماركس في ظل ذلك أن يبني نظاما معرفيا يقوم على المادية كنظرية وصفية، باعتبارها التيار الكامن تحت الهياكل والأشكال الاجتماعية، وفي ذلك يقول ماركس:

"قادني بحثي إلى استنتاج أنه لا العلاقات القانونية ولا الأشكال السياسية يمكن فهمها، سواء في حد ذاتها أو على أساس ما يسمى التطور العام للعقل البشري، بل إن إدراكها وفهمها يكون بإرجاعها إلى الأوضاع المادية للحياة. ومن أجل مزيد من الفهم يجب البحث عن تشريح هذا المجتمع المدني داخل الاقتصاد السياسي".(٣٥)

لقد أصبح التاريخ لدى ماركس بمثابة لعبة التناقض بين علاقات الفئات الاجتماعية الحية التي كان وجودها يستند إلى خصائص معينة للإنتاج والملكية التي كانت أساس الحياة الاجتماعية.(٣٦) وهكذا كان الاقتصاد السياسي المجال الأكثر أهمية في البحث التاريخي. وحدد المفهوم المادي للتاريخ القوى الموضوعية والضرورية للمجتمع، وميز هذا المفهوم أهمية تلك القوى عن فئات النشاط البشري التي تكونت نتيجة التأمل والبحث (المثالية) والأيديولوجية.

ومع تقدم العمل النظري لماركس، صار يولي عناية أكثر بدراسة أشكال الإنتاج والتبادل والتوزيع الرأسمالي. فبحلول ١٨٤٧، أصبحت الرأسمالية موضوعه الرئيس. وكانت أعماله المتقطعة لدراسة الثورات يفرضها عليه حدوث هذه الثورات ذاتها. فقد كان يكتب في ١٨٥٠ مقالات نشرت لاحقا بعنوان "الصراعات الطبقية في فرنسا"، وفي ١٨٥١، كتب مقال "الثامن عشر من برومير لويس بونابرت"، وذلك كدراسات للحركة الثورية

في فرنسا في ١٨٤٨؛ وفي ١٨٧١، كتب مقال "الحرب الأهلية في فرنسا"، كبيان للجنة الثورية الباريسية لنفس السنة. وقد اعتبر ماركس أن دراساته هذه بمثابة شهادات مهمة على الفعالية السياسية والمنهجية للمفهوم المادي للتاريخ.(٣٧)

ماركس وإنجلز والقومية

أمضى ماركس نحو عقدين تقريبا في إعداد نظرياته الاقتصادية، والتي كانت تقع بين ثورات ١٨٤٨ وحراك عام ١٨٦٤ الذي شهد ظهور مفهوم ماركس الغامض نسبيا عن "الدولية"(*). عانى ماركس خلال هذه الفترة من إحباط شديد، رغم أنه أمضاها مع ذلك في بحث مركز وكتابة والتحليل الرياضي والتطور النظري.

وعلى الرغم من معاناة ماركس مما كان يسميه دائما بمشاكل "البرجوازية" (الديون، والمتطلبات الأسرية، وحالة التشوش الذهني) وأمراضه الجلدية الموهنة (الدمامل والبثور)،(٣٨) دفعته صلابته الشهيرة وقناعاته القوية إلى معارك طويلة، بعضها بسيط، وبعضها لا يخلو من حدة وعنف (٣٩).

(*) الدولية International: الاسم الكامل: الدولية السياسية political international، منظمة متعددة الجنسيات تضم أحزابا ونشطاء سياسيين من أرجاء عالمية مختلفة. تعمل المنظمات الدولية معًا على نقط الاتفاق لتنسيق النشاط. زادت شهرتها وتأثيرها منذ بدايتها في اليسار السياسي في أوروبا في القرن التاسع عشر؛ حيث أولى النشطاء السياسيون مزيدًا من الاهتمام إلى التطورات التي تتفق أو تختلف مع أيديولوجياتهم الخاصة في البلدان والقارات الأخرى. بعد الحرب العالمية الثانية، سعت إلى التواصل مع المنظمات الحكومية الدولية وفوق الوطنية مثل الأمم المتحدة ومن بعدها الاتحاد الأوروبي. أنشأت الحركة السياسية الدولية فروعًا إقليمية وفوق وطنية (على سبيل المثال: الفرع الأوروبي، الفرع الأفريقي)، والحفاظ على الأخوة أو إدارة العلاقات في قطاعات و"أجنحة" (على سبيل المثال: جناح الشباب، جناح المرأة). وقامت منظمة "الدولية السياسية" في كثير من الأحيان بطرد أحزاب من عضويتها، للتجاوزات المختلفة مثل المخالفات السياسية أو الفساد المالي بين الأعضاء.

كانت معظم هذه المعارك نتيجة موقف ماركس الشخصي تجاه "الحزب" (أي الاتحاد الشيوعي the Communist League)، الذي أعلن ماركس نفسه في ١٨٦٠ أنه حزب لفظ أنفاسه الأخيرة منذ ١٨٥٢.(٤٠) ومع ذلك، يعتبر أحد هذه الصراعات مفيدا لنا لأنه يكشف بجلاء القيود الفكرية والنظرية التي وضعت ماركس وإنجلز في وضع سيئ في مواجهتهما مع ذلك الشكل من القومية الذي بدأ في الظهور في منتصف القرن التاسع عشر. ونظرا لأن القومية تعتبر أهم أيديولوجية في عصرنا، يمكن أن تكون معالجتها من خلال ماركس وإنجلز والماركسيين لاحقا أمرا مفيدا بالنسبة إلى كل من جوهر الفكر الماركسي وطبيعة الأيديولوجية أيضا.

لقد كان نقاش ذلك النوع من القومية ألمانيا في هويته، وهي تلك الهوية التي كان ينتمي إليها كل من ماركس وإنجلز في منفى إجباري (في لندن) لعدة سنوات. ومع ذلك، لا يعتبر المنفي دفاعا مقبولا في هذا المثال، لأن ماركس وإنجلز - كقائدين للحركة الديمقراطية (الاشتراكية) الألمانية - كانا في حالة اتصال يومي مع المراسلين الألمان. لكن ذلك لا ينفي أنهما كمهاجرين من ألمانيا كانا بعيدين بصورة مستمرة عن طموحات وأجواء منظمات الطبقة العاملة في الوطن.

ومن المهم هنا الرجوع إلى ما كتبه فرانتس ميهرنج Franz Mehring، وهو أحد كتاب السير الذاتية والتاريخية الأكثر تعاطفا مع ماركس. يذهب ميهرنج إلى أنه خلال جدال ماركس وإنجلز مع لاسال حول النتائج التي ستؤثر على الكفاح الثوري الألماني نتيجة للحرب بين ألمانيا (بروسيا واتحاد ألمانيا) وإيطاليا (مملكة سردينيا) وفرنسا، "كان على هذين الصديقين دفع ثمن عدم الاطلاع على الأوضاع في ألمانيا لفترة طويلة".(٤١)

ومع ذلك، فإنه في ضوء النطاق التاريخي العالمي الذي حاول ماركس وإنجلز تحقيقه في أعمالهما، يبدو أن تدخل ميهرنج بالتفسير يعتبر دفاعا تبريريا. فقد فشل في التوافق مع الأثر السياسي الفكري الذي يمكن أن تحققه فكرة ماركس عن منطق التطور الرأسمالي.

وللتدليل على عدم دقة ما ذهب إليه ماركس وإنجلز في المنفى، فإنه لا إيطاليا ولا ألمانيا ولا فرنسا (ولا النمسا في هذا المجال) تمكنت من تحقيق المكونات الإقليمية التي تتفق مع طموحات نخبها العسكرية والحاكمة. وكذلك لم تستطع الميول الطبيعية (العرقية واللغوية) للمواطنة القومية تحقيق ذلك. فعلى سبيل المثال فإن كيفور **Cavour**، رئيس وزراء مملكة سردينيا، قد تحول تدريجيا من حاكم قمعي مناهض للقومية إلى موحد ماهر للغاية، وذلك من خلال التطور والنمو المستمر للتعاطف والتنظيم القومي في شبه الجزيرة الإيطالية واحتضان المنفيين الذين لعبت حكومته دورا جوهريا في إعادة توطينهم.[٤٢]

ومع اندلاع حرب القرم في ١٨٥٤، أصبح كيفور مقتنعا بأن الجيش الفرنسي سيكون الأداة الحاسمة لطرد النمسا من وسط إيطاليا وتحقيق التفوق الحاسم لإقليم بيدمونت[*] (سردينيا القارية) على الولايات البابوية (يبدو أن كيفور كان يفترض أن مملكة الصقليتين **Two Sicilies** بعيدة عن متناوله).

(*) بيدمونت (بيمونت) Piedmont أحد أقاليم إيطاليا العشرين، ويقع في شمال غرب إيطاليا على الحدود مع فرنسا. ويسكنه حوالي ٤,٤ مليون نسمة. ومدينة تورين هي عاصمة هذا الإقليم. واللغة المحلية الرئيسة هي البيمونتية. ويأتي اسم بيدمونت من لاتينية العصور الوسطى، وتعني "عند سفح الجبال". وكان بيدمونت نقطة الانطلاق المبدئية لتوحيد إيطاليا في ١٨٥٩-١٨٦١، عقب الحروب السابقة غير الناجحة ضد الإمبراطورية النمساوية في ١٨٢٠-١٨٢١ و١٨٤٨- ١٨٤٩. وأصبحت أسرة سافوي الأسرة الملكية الحاكمة لإيطاليا، وصارت معها تورين عاصمة البلاد. ولكن مع ضم مزيد من الأراضي الإيطالية وتوحيدها حدث انخفاض في أهمية بيدمونت بالنسبة للمملكة ككل، وانتقلت العاصمة إلى فلورنسا، ثم إلى روما. (المترجم)

كان كيفور يرى أنه حين رافقت قوات سردينيا الجيوش البريطانية والفرنسية عند غزو روسيا في ١٨٥٤، فإن هذه الحرب (حرب القرم) أدت إلى إضعاف كل من النمسا وروسيا. وفي مؤتمر السلام في باريس (١٨٥٦)، أصبحت ممتلكات النمسا في إيطاليا (فينسيا ولومبارديا) موضوع نقاش بسبب انتهاك تسوية فيينا (١٨١٥). ويبدو أن الاعتبارات الدبلوماسية والقمع الوحشي المستمر من جانب النمسا للمتمردين الإيطاليين تضافرا لجعل وضع النمسا في إيطاليا لا يمكن الدفاع عنه.

وبحلول يوليو ١٨٥٨، صار نابليون الثالث(*)، بعد أن حمل لقب بونابرت(**)، مقتنعا من ناحية بأن إيطاليا كانت دولة ذات نظام وراثي(٤٣) ومن

(*) لويس نابليون بونابارت (نابليون الثالث) Louis-Napoléon Bonaparte (٢٠ إبريل ١٨٠٨ –٩ يناير ١٨٧٣) كان رئيسا لفرنسا من ١٨٤٨ الي ١٨٥٢ ثم إمبراطورًا لفرنسا تحت اسم نابليون الثالث من ١٨٥٢ إلي ١٨٧٠. وكان ابن شقيق ووريث نابليون الأول. انتخب رئيسًا عن طريق التصويت الشعبي في عام ١٨٤٨، وشرع في انقلاب عام ١٨٥١، قبل اعتلائه العرش حاملا اسم نابليون الثالث في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٢، الموافق الذكرى الثامنة والأربعين لتتويج نابليون الأول. حكم فرنسا كإمبراطور حتى ٤ سبتمبر ١٨٧٠. أول ما يُذكر لنابليون الثالث هو السياسة الخارجية الحيوية والتي هدفت إلى التخلص من القيود المفروضة على فرنسا منذ عام ١٨١٥ وإعادة التأكيد على نفوذ فرنسا في أوروبا والإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. في الشرق الأدنى، قاد نابليون مبادرة التحالف ضد روسيا في حرب القرم واستعاد الوجود الفرنسي في بلاد الشام، وادعى لفرنسا دور الحامي للمسيحيين المارونيين. وبالمثل أمنت الحامية الفرنسية في روما الدولة البابوية ضد ضمها إلى إيطاليا. وتم التأكيد على المصالح الفرنسية في الصين في حرب الأفيون الثانية وتمرد تايبينغ، وأطلقت حملة فاشلة ضد كوريا في عام ١٨٦٦، في حين فشلت المهمة العسكرية إلى اليابان في منع استعادة الحكم الإمبراطوري. وكان أيضًا التدخل الفرنسي في المكسيك فاشلا، وانتهي في عام ١٨٦٧ بسبب تصاعد المقاومة المكسيكية والضغط الدبلوماسي الأمريكي. محليًا، وازن نابليون بين المحافظين والليبراليين في المؤسسة الفرنسية، ولكنه مال تدريجيًا نحو العنصر الليبرالي. كان عهده هو عصر الازدهار والتصنيع في فرنسا، و مهّد لعملية تجديد رئيسية لباريس على يد هاوسمان Haussmann والذي وضع الخطوط العريضة للمدينة الحديثة. وفي النهاية، وقعت الحرب الفرنسية البروسية في عام ١٨٧٠، والتي أسفرت عن قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة و نفي نابليون الثالث إلى إنجلترا، حيث توفي في عام ١٨٣٧.

(**) قد يحدث التباس عند القارئ العربي الذي يرتبط اسم بونابرت لديه بنابليون الأول بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) الذي قاد الحملة الفرنسية على مصر والشام في عام ١٧٩٨، لكن في واقع

ناحية أخرى بأن قوة فرنسا كانت تؤهلها لأن تتبوأ مكانة أقوى من المصير الذي آلت إليه بعد هزيمة عمه جوزيف بونابرت(*). وفي ظل هذه القناعات التقى سرا مع كيفور(٤٤) واتفقا على خطة مشتركة ضد النمسا. وتألفت هذه الخطة من العناصر التالية: (١) أن يدفع إقليم بيدمونت النمسا إلى إعلان الحرب؛ (٢) أن يتدخل الجيش الفرنسي ضد النمسا المعتدية؛ (٣) أن تحصل فرنسا نظير مساعدتها إيطاليا على مكافأة تتمثل في تنازل إيطاليا عن إمارتي سافوي ونيس؛ وأن تتحول سردينيا إلى "مملكة إيطاليا الشمالية" بضم كل من لومبارديا وفينسيا والدوقيات الوسطى. ويواصل ميهرنج القصة:

"في عيد رأس السنة الجديدة، ١٨٥٩، قابل بونابرت السفير النمساوي وأبلغه نوايا فرنسا، بينما أعلن ملك سردينيا بعد بضعة أيام للعالم أنه لم يكن غافلا عن استغاثات الشعب الإيطالي التي تدمي القلوب. وكانت هذه التهديدات مفهومة تماما في فيينا... وكانت حكومة النمسا خرقاء لدرجة جعلتها تعرض نفسها للمناورة بدور المهاجم. ونظرا لأنها كانت شبه مفلسة، ومعرضة لهجوم فرنسا وتهديد روسيا، فقد كانت في موقف صعب... ولذلك فإنها حاولت كسب تأييد الاتحاد الألماني... وحاولت إقناع الاتحاد بأن تعرض المصالح النمساوية في إيطاليا للخطر كان مسألة ذات أهمية قومية حيوية لألمانيا".(٤٥)

الأمر فان بونابرت اسم يدل على "عائلة بونابرت" التي حمل اسمها عدد من السياسيين والحكام في فرنسا وأوروبا بعد نابليون الأول، وكان أبرزها عودة سلالة بونابرت لحكم فرنسا بين عامي ١٨٥٢ و١٨٧٠، في الإمبراطورية الفرنسية الثانية، حيث تولى الحكم نابليون الثالث بن لويس بونابرت. ولكن بعد الحرب الفرنسية البروسية، أطيح بالسلالة البونابرتية من جديد. (المترجم)

(*) جوزيف نابليون بونابرت، الأخ الأكبر لنابليون (الأول) بونابرت، ولد في ٧ يناير ١٧٦٨ وتوفي في ٢٨ يوليو ١٨٤٤. نصبه نابليون ملكا لنابولي وصقلية للفترة من (١٨٠٦-١٨٠٨)، وبعد ذلك لإسبانيا في الفترة من (١٨٠٨-١٨١٣) تحت اسم جوزيف الأول.(المترجم)

ولكي نفهم استجابة ماركس وإنجلز لهذا الموقف، يجب أولا أن نعرف المزيد عن ألمانيا التي جاءا منها، وألمانيا التي استغاثت بها النمسا. وفي ذلك تخبرنا عدة دراسات بما يلي:

"إن هزيمة جيوش نابليون، وتسوية فيينا في ١٨١٥ فيما بعد، لم تؤد إلى إعادة توحيد ألمانيا. إذ إن "التحالف المقدس" للرايخ الذي كان أحدث مظاهره يتمثل في التحالف بين بروسيا واتحاد الراين والنمسا – والذي تفكك لاحقا في ١٩٠٦ – كان محبطا تماما بسبب السياسة التي كان مهندسها النمساوي كليمنس مترنيخ، وهي السياسة التي كان تسيطر عليها مصالح النمسا وروسيا وبريطانيا العظمى. وفيما بين ١٨١٥ و١٨٦٦، كانت ألمانيا- الاتحاد الألماني **the Deutscher Bund** – تتكون من ٣٩ ولاية أو إمارة (تشمل المدن الحرة الأربع: هامبورج، بريمن، لوبك، وفرانكفورت).[٤٦]

وحتى خلال حرب التحرير (١٨١٢-١٨١٥) كانت خصوصيات الولايات الألمانية مستمرة، مما جعل والد يوهان فريدريش بوهمر يكتب إلى ابنه، المؤرخ مستقبلا قائلا: "للأسف، فإن الذين كانوا يحاربون من أجل القضية الوطنية العظيمة لا يمثلون المواطنين الألمان بقدر ما يمثلون مواطني بافاريا، فورتمبرج، هيسين، سكسونيا، ناسزاور، فورتسبورج، وحتى رعايا إمارة بيسنبورج الصغيرة".[٤٧] ففي إطار الاتحاد، ظهرت بروسيا كأقوى منافس للنمسا اعتمادا على جيشها وبيروقراطيتها (إرث الحكم الفرنسي).[٤٨]

ويوضح هندرسون أن ألمانيا في بدايات القرن التاسع عشر كانت أقل تصنيعا من فرنسا. حيث بدأ تصنيع ألمانيا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، مع دخول ماكينات الطاقة البخارية واستيراد الحرفيين المهرة

من إنجلترا (لتشغيل آلات الغزل في محالج القطن في سكسونيا، وصناعة آلات النسيج والسفن البخارية، وتدشين النسيج بأنوال الطاقة في سيليزيا الدنيا".[٤٩] ومع ذلك، فإنه حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت ألمانيا تعتبر دولة زراعية أساسا.

ويشير باراكلوف في دراسته إلى أنه "رغم زيادة الإنتاج الصناعي في ألمانيا بنسبة ٣٨٪ فيما بين ١٨١٥ و١٨٤٥ ظلت نسب سكان المدن والريف ثابتة. ولم يكن هناك سوى القليل من المدن التي تعافت من آثار حرب الثلاثين عاما وركود القرن الثامن عشر، ومع بدايات القرن التاسع عشر، كان إجمالي سكان كل المدن الحرة ومدن الجامعات في ألمانيا يضاهي بالكاد سكان باريس. ومن ثم فإنه لا الرأسمالية الصناعية ولا العمال الصناعيين كانوا يمثلون قوة سياسية خطيرة، وكانت المدن لا تزال كما كانت في القرن الثامن عشر تسيطر عليها الطبقة الوسطى المهنية والبيروقراطية، والتي لا تحقق الكثير من المكاسب من التغير السياسي الراديكالي.[٥٠]

وقد وجدت ليبرالية وقومية أوائل القرن التاسع عشر أساسها الاجتماعي في هذه الطبقة الوسطى.[٥١] وفي الواقع، عبر باراكلوف عن دهشته من أن "الشعور القومي والراديكالي" استطاع الاستمرار طويلا في ألمانيا حتى حقق المساندة الشعبية للثورات الألمانية في ١٨٤٨.

ومع ذلك، فإنه عندما ثارت حشود الحرفيين والعمال في فيينا وبرلين في تلك السنة، لم تكن العناصر الليبرالية من الطبقات الوسطى متحمسة، بل إنها اختارت التخلي سياسيا عن امتيازاتها الراهنة بدلا من تقديم مزيد من الدعم للثورات.[٥٢]

وسوف نرى أن ماركس وإنجلز، كأعضاء في هذا الجيل وتلك الطبقة التي التزمت بالتحول الديمقراطي وإعادة توحيد ألمانيا، كانا متورطين بشدة في متابعة الأحداث وبالتالي كانا مترددين تجاه الأحداث التي أثرت على هذه المصالح ومتأرجحين بين الارتداد الليبرالي في ١٨٤٩ وتولي بسمارك السلطة في بروسيا في ١٨٦٢. وكان لشتهايم على صواب حقا عندما لاحظ أنه "لا يمكن فهم النظرية الماركسية في الديمقراطية، ولا الرؤية الماركسية لتطور القومية، بصورة كاملة ما لم نتذكر أنهما تشكلتا عقب أسوأ هزيمة عانتها الديمقراطية والقومية في أوروبا".[٥٣]

وعندما تخلى البرلمانيون الليبراليون عن محاولة الإصلاح الديمقراطي في مايو ١٨٤٩، ظل مستقبل الليبرالية والقومية الألمانية في أيدي طبقة النبلاء (اليونكر Junker) البروسية. حيث طالب طبقة اليونكر بتحطيم الليبرالية باعتبارها تهديدا لها، بينما ظلت القومية سلاح تلك الطبقة ضد الطموحات النمساوية.

وفي ذلك يذهب باراكلوف في دراسته إلى أن "بسمارك أدرك أنه على الرغم من انتكاسة ١٨٤٨-١٨٤٩ فإن الليبرالية والقومية الألمانية التي تساندها النمسا كانت لا تزال تمثل تهديدا خطيرا للخصوصية البروسية وامتيازات طبقة الأرستقراطية البروسية. فقد كانت الليبرالية حيوية للنظام الاجتماعي الذي سانده بسمارك، ولكن القومية كان بوسعها أن تؤيد تحقيق أغراض بروسيا، كما يمكن أن تكون مفيدة أيضا في تمييز التطلعات القومية الألمانية عن الخلفية الليبرالية التي أعطتها معناها من ١٨١٣ إلى ١٨٤٨ وفي القرون السابقة. فضلا عن ذلك تزايدت قوة القومية كأداة للإصلاح

الليبرالي، وكأداة أساسية لكسر القبضة الخانقة للمصالح الخاصة على الشعب الألماني. كما عرض بسمارك قيام وحدة جامعة للشعب الألماني، ولكن على حساب الإصلاح الراديكالي الذي بدونه لا يمكن أن يكون للوحدة أهمية.[٥٤]

وكان بسمارك ناجحا كما نعرف، ولكن نجاحه لم يكن على أساس الطاقة الكبيرة أو الحنكة الدبلوماسية. إذ إن الرواج الاقتصادي في ألمانيا الصناعية فيما بين ١٨٥٠ و ١٨٧١ جعل الإصلاح الراديكالي (على المستوى "الليبرالي") أقل إلحاحا،[٥٥] بينما أدت الآليات الدولية الشاملة، وعداوة نابليون الثالث المستمرة للوحدة الألمانية، إلى إعلاء منطق القومية. وعندما نعود إلى الأشهر الأولى من الحرب، يجب أن نضع هذه الآليات وتاريخها في أذهاننا. وبينما تأخذنا حقبة بسمارك إلى ما هو أبعد من الحرب الإيطالية، علينا الاطلاع على الأحداث التي تلت لاحقا، لأن في ذلك فائدة في توضيح أن قوة بعض العمليات الاجتماعية كانت أكثر وضوحا لدى لاسال مقارنة بماركس وإنجلز.

وكان رد فعل إنجلز على اندلاع الحرب في ١٨٥٩ بين النمسا وسردينيا وفرنسا، وعلى الحركة القومية الألمانية التي صاحبت مقدمات الحرب، يتمثل في نشر مذكرة بعنوان "البو والراين".[٥٦] في هذه المذكرة يذهب إنجلز إلى أنه رغم أن حدود نهر البو لم تكن ذات أهمية عسكرية بالنسبة لألمانيا، وأن دعاوى فرنسا كانت أكثر قبولا، فقد كان انتهاك فرنسا لنهر البو يمثل من الناحية السياسية بداية محاولة الاستيلاء على حدود الراين. وعلى هذا الأساس أصر إنجلز على أن نهر البو يمثل الموقع الذي يفرض على ألمانيا تحديد موقفها مع النمسا.

وقد نشرت المذكرة في ألمانيا بدون توقيع، بناء على نصيحة ماركس حتى تعطي انطباعا بأن المؤلف ربما كان قائدا بروسيا، وكان واضحا أن هذه الحيلة نجحت لحسن حظ ماركس. حيث كتب إلى إنجلز يهنئه مداعبا بأنه من خلال هويته الصاعدة أصبح يحتفى به الآن في بلاده على أنه خبير عسكري.[٥٧] وقد أعاد ميهرنج صياغة هدف ماركس وإنجلز و"دافعهم الخفي" الذي صاغاه على النحو التالي:

"أولا وقبل كل شيء، اعتقد كل من ماركس وإنجلز أن الحركة القومية في ألمانيا كانت حركة حقيقية فعلا، طالبت الشعب بالحرب ضد لويس بونابرت كممثل لتقاليد الإمبراطورية الفرنسية الأولى، وكانت هذه الفطرة سليمة. وثانيا، افترض ماركس وإنجلز أن ألمانيا كانت محل تهديد من قِبل التحالف الفرنسي الروسي؛ وأخيرا كان من رأيهم أن الحكومات الألمانية تحتاج إلى التحفيز من خلال الحركة القومية.

وقد عبر إنجلز عما كانا يتوقعانه آنئذ في فقرة جاءت ضمن رسالة بعثها إلى لاسال يقول فيها: "مرحى بالحرب التي نتعرض فيها للهجوم من فرنسا وروسيا في آن واحد، لأنه في هذا الموقف البائس الذي يمثل كارثة تهدد بصورة مباشرة، ستستهلك كل الأحزاب نفسها وعندئذ ستلجأ الأمة في النهاية إلى أقوى الأحزاب لإنقاذ نفسها".[٥٨]

ولكن الذي لم يتعرف عليه ميهرنج كعنصر مهم في موقف كل من ماركس وإنجلز كان يتمثل في التاريخية الأصولية. حيث وضح إنجلز في مذكرة "البو والراين" أن منطق التطور الرأسمالي ساند القومية الألمانية، ولكنه لم يساند القومية الإيطالية. فقد ذهب إنجلز إلى القول:

"يجب أن تبدأ كل التغيرات (في خريطة أوروبا) - إذا كان يراد لها أن تستمر - ببذل الجهود لمنح الأمم الأوروبية الكبيرة والحيوية حدودها القومية الحقيقية، والتي تتحدد باللغة والتعاطف، وفي نفس الوقت، فإن بقايا الشعوب التي لا تزال موجودة هنا وهناك، والتي لم تعد قادرة على الوجود القـــومي، يجب استيعابها في الأمم الكبيرة، وإما أن تصبح جزءًا منها أو تحافظ علـــى نفسها كبقايا إثنوجرافية بدون أهمية سياسية".(٥٩)

وسوف نعود إلى مضامين هذه الفكرة أكثر من مرة.

ونحن نعرف سلفا أن لاسال اختلف مع ماركس وإنجلز. حيث جاء رد فعله سريعا على مقال إنجلز بكتابة مـــذكرة "الحـــرب الإيطاليـــة والمهمـــة البروسية". وفيها حث لاسال الحكومة البروسية على الوقوف إلـــى جانـــب فرنسا وإيطاليا ضد النمسا على أساس أن "الدمار الكامل للنمسا كـــان يمثـــل الشرط الأولي للوحدة الألمانية".(٦٠) وقد كتب لاسال إلى مـــاركس رســـالة، يخبره فيها أنه كتب بهذه الطريقة كي يناشد العقلية العامة (التي كان يعتقد أن ماركس وإنجلز لا يدركانها) من أجل سحب الثقة من سياسة بروســـيا فـــي الدفاع عن النمسا. وقد ذهب لاسال يقول:

"عزيزي ماركس، إنك ببساطة لا تستطيع أن تدرك حماقة الآراء هنـــا، والتي تتجه جميعها إلى الحرب مع فرنسا، والتي تهدد بأن تكتسح في طريقها حتى أولئك الديمقراطيين غير المستقلين بصورة حقيقية. وإنني أعتبر "شعبية" الحرب بمثابة كارثة أكبر من الحرب ذاتها - ولا شك في أنه فـــي الوقـــت الراهن ستكون الحرب شعبية للغاية. لقد اقترحت على الحكومة طريقة قومية

وشعبية للغاية، والتي يمكن أن تتبعها بصورة جيدة جدا "من الناحية المجردة"، ولكن سيثبت أنها غير عملية للغاية "من الناحية الفعلية". ولنفس السبب الذي سيجعل الحكومة "لا" تسلك هذا المسار، يبدو لي أنني وجدت وسيلة لجعله "غير محبب" تماما. ولكنني لا أعرف ما إذا كنت تقرأ ما يكفي من الصحف الألمانية لتكون على دراية جيدة بالمزاج العام. إذ إن الصحافة هنا تدعو بكل قوتها "لافتراس كل الفرنسيين" (نابليون مجرد ذريعة، ولكن السبب الحقيقي هو التطور الثوري لفرنسا)... فالحرب التي يساندها الاندفاع الأعمى للمشاعر الشعبية ستكون أكثر ضررا لتطورنا الديمقراطي."(٦١)

لقد تعاطى ماركس مع مذكرات لاسال بشكل سلبي ووصفها بأنه "خطأ هائل"(٦٢) و"خداع مخيف"(٦٣). واستمر لاسال يحث ماركس على أن ينكر لإنجلز أنه "يجب علينا الآن أن نصر تماما على تنظيم حزب وإلا فإن كل شيء سيضيع"،(٦٤). ويمكننا القول إن لاسال كان يتمتع برؤية أعمق من أي من ماركس أو إنجلز فيما يتعلق بطبيعة القومية الألمانية.(٦٥) وقد قام ميهرنج بعرض نظرية لاسال بقدر أقل من حرية التصرف وبلغة أكثر ملاءمة، فكتب يقول:

"كان لاسال يرى أن الحرب الفرنسية الألمانية هي حرب يمزق فيها أكبر شعبين أوروبيين بعضهما لمجرد أوهام قومية، وأنها حرب شعبية حقا ضد فرنسا بدون أية مصلحة قومية حيوية. وقد تمت تغذية تلك الحرب من خلال القومية المتوترة بصورة مرضية، والوطنية المغالية، والعداء الطفولي للفرنسيين. وكان كل ذلك لدى لاسال يمثل خطرا هائلا على الثقافة الأوروبية وعلى كل المصالح القومية والثورية الحقيقية.(٦٦)

وهكذا فإن النزاع بين لاسال وماركس وإنجلز لم يقتصر على مجرد إثارة التساؤلات حول طبيعة العلاقة السياسية بينهم (أي حول ما إذا كان لدى لاسال الحق في أن يختلف علانية مع موقف فكري لمؤلف مجهول) أو حول مدى كون ماركس وإنجلز ضحايا لشوفينية ألمانية.[٦٧] ومن المؤكد أن هذه كانت قضايا حقيقية، ولكن يمكن فهمها أيضا على أساس أنها مبالغة حتمية في الشخصية والطموح السياسي، والتي يتعرض لها المفكرون أمثال ماركس وإنجلز في أوساط الحركة العمالية.[٦٨] ومع ذلك، فإن الأهم من هذا هو الأثر الذي يحدثه الاقتصاد السياسي - وهو الأداة التحليلية الرئيسة لمفهومهما المادي للتاريخ - على قدرتهما على الصياغة الصحيحة لمفاهيم الطبيعة الأيديولوجية للحركات الاجتماعية الصناعية.

وفي ذلك يقول ماركس:

"يرتبط جوهر الرأسمالية الصناعية بصورة معقدة بتطور الدولة. ومن خلال هذه الدولة ظهرت البروليتاريا إلى الوجود، وتحولت من طبقة قروية منتجة إلى عمال بأجر"، وهكذا كانت الشعوب الزراعية تجرد من أراضيها بالقوة في البداية، ثم تطرد من ديارها، ثم تتحول إلى مشردين، ثم تجلد وتعذب بقوانين مرعبة بصورة غريبة، وتدخل في الإطار اللازم لنظام الأجور".[٦٩]

ثم يضيف ماركس:

"يتحول هؤلاء الأفراد كمستهلكين إلى سوق محلي. أما الزبائن المنتشرين بشكل مبعثر فيجدوا أنفسهم في سوق واحد كبير يموله رأس المال الصناعي. وهكذا فإنه بالإضافة إلى إفقار وتجريد القرويين المكتفين ذاتيا، وفصلهم عن وسائل الإنتاج، استمر تدمير الصناعة المحلية الريفية،

وتواصلت عملية الفصل بين الصناعة والزراعة. وكان بوسع تدمير الصناعة المحلية الريفية بمفرده منح السوق الداخلي للدولة فرصة التوسع والاتساق الذي يحتاجه نمط الإنتاج الرأسمالي.[٧٠]

وبعد ضمان السوق المحلي، فإن المزيد من توسع الرأسمالية تطلب من الدولة أن تأخذ أشكالا جديدة وتتولى وظائف إضافية. فالديون القومية كانت تعني انعزالا للدولة. وكان انعزال الدولة هذا قد صبغ الحقبة الرأسمالية في كل الدول، سواء كانت الدولة مستبدة أو دستورية أو جمهورية".[٧١]

فأولا في هولندا ثم في إنجلترا (ولكن مع سوابق في جنوه، فينسيا، إسبانيا، والبرتغال)، تحقق التراكم المبدئي لرأسمال المال الذي كان أساس التصنيع من خلال أدوات "النظام الاستعماري: الديون العامة، الضرائب الثقيلة، نظم الحماية، الحروب التجارية، إلخ"[٧٢] – وكل خصائص هياكل الدولة. واعتبر ماركس انتصار المجتمع البرجوازي على الإقطاع بمثابة انتصار حققته الأداة الأكثر استثنائية للصراع الطبقي: أي الدولة. فقد كان يميل آنئذ – كما ذكرنا سلفا عن إنجلز[٧٣] – إلى أن يعتبر الأمة (الشكل الظاهر من الدولة في القرن التاسع عشر) شرطا لا غنى عنه للحكم البرجوازي.[٧٤] وبالتالي، كان الحكم البرجوازي والإنتاج الرأسمالي ضروريين لتطور الإنتاج الاجتماعي الذي يتطلبه المجتمع المصاحب.[٧٥]

وبصفة عامة، تأثر تطور البروليتاريا الصناعية بتطور البرجوازية الصناعية. ففي ظل حكمها فقط، تستطيع البروليتاريا تحقيق الوجود القومي الواسع الذي يمكن أن يرفع ثورتها إلى المستوى القومي، وهكذا فقط تستطيع البروليتاريا ذاتها تكوين وسائل الإنتاج الحديثة، والتي تصبح بمثابة وسائل

كثيرة لتحررها الثوري. فحكم البرجوازية فقط هو الذي يستطيع تمزيق الجذور المادية للمجتمع الإقطاعي، وتمهيد الطريق الذي يمكن أن تقوم عليه ثورة البروليتاريا.(٧٦)

لقد افترض ماركس مبدئيا (بحماس الشباب كما يرى لشتهايم) أن البرجوازية ستعيد إنتاج نفسها في كل مكان، "وبكلمة واحدة، فإنها تشكل عالمها حسب تصورها الخاص".(٧٧) ومع ذلك، فإنه على الرغم من أن ماركس تصور بوضوح الدور التاريخي للبرجوازية في سياقات تاريخية عالمية،(٧٨) فإنه حافظ أيضا على الرؤية المتناقضة لتطورها التاريخي على أنه يحدث في سياق قومي.(٧٩) فقد كان توسع البرجوازية يعني امتداد الدولة القومية، وفي يقول ماركس:

"تتخلص البرجوازية بصورة متزايدة من حالة التشتت التي عليها السكان، ووسائل الإنتاج، والملكية المبعثرة. وتؤدي إلى تجمع السكان، ومركزية وسائل الإنتاج، وتركز الملكية في أيدي فئة قليلة... وتصبح الإمارات المستقلة أو المترابطة بصورة ضعيفة ذات المصالح والقوانين والحكومات ونظم الضرائب المنفصلة، مجتمعة معا في أمة واحدة، ذات حكومة واحدة ودستور قانوني واحد، ومصلحة طبقية قومية واحدة، وحدود واحدة، وتعريفة جمركية واحدة".(٨٠)

وفي هذه المرحلة من تطور فكر ماركس، ربما كان عالمه المكون من أوروبا الغربية قادرا على حل هذا التناقض من خلال تصور كيان أوروبي مصاحب. وربما كانت أفكاره تظهر تناقضا كبيرا بين ميوله كمنظر فلسفي مدرب أيديولوجيا وبحوثه ذات التحليل الاجتماعي والتاريخي. وكذلك، ربما

كان ماركس قد أظهر نزوعا في أعماله المتأخرة نحو خلــط نظريتــه فــي التطور التاريخي باستنتاجاته من التــاريخ الاجتمــاعي الفرنــسي إحــساسا بالطبيعة النهائية "للصراع الطبقي" في المجتمع الرأسمالي.

وقد تشكل هذا النزوع الفكري لدى ماركس رغم الحالة البدائية نــسبيا للرأسمالية الصناعية في فرنسا، وسيطرة البرجوازيــة البحريــة، ووجــود الأرستقراطية الرأسمالية، وطبقة عاملة قروية وحرفية أكثــر مــن كونهــا بروليتاريا صناعية. وبينما عاد ماركس إلى التجربة الفرنسية فــي التــاريخ الاجتماعي حدد طبيعة "الرأسمالية" من إنجلترا الأكثر تقدما صناعيا.[٨٤]

وأخيرا، ولأن ماركس كان دعائيا في طرحه، يبدو أنــه كــان أكثــر اهتماما بالأثر السياسي للبلاغة الخطابية على جمهوره أكثر مــن اهتمامــه بالدقة التحليلية. ومهما كان التفسير الذي يمكن أن يختاره المرء، فإنــه لــن يستطيع التوفيق بين وجود رأيين متعارضين في أعماله المبكرة حول طبيعة وخصائص المجتمع البرجوازي. وفي الوقت المحدد، كان يجب أن يتنــازل ماركس عن أحدهما لصالح الآخر.

ومن الطريف أن إنكار ماركس لنشأة الرأسمالية في أوروبا الغربيــة - "كنظرية فلسفية تاريخية" عامة - يتضح بصورة جلية في خطابات كتبها إلى الماركسيين الروس الذين أصبحوا منذ سبعينيات القرن التاسع عشر مشاركين في الجدل الدائر حول عملية التصنيع والتطور الاجتماعي الذي يجب علــى روسيا أن تبلغه كي تحقق ثورة اجتماعية. ففي نوفمبر ١٨٧٧، كتب ماركس خطابا (لم يرسله) إلى محرري المجلة الاشتراكية الروسية "حوليات وطنيــة **Otechestvenniye Zapiski**". يقول فيه:

"لم أكن أزعم في الفصل الخاص بالتراكم البدائي(*) القيام بأكثر من مجرد تتبع المسار الذي خرج فيه النظام الرأسمالي للاقتصاد في أوروبا الغربية من رحم النظام الإقطاعي للاقتصاد... وهذا هو كل شيء. ولكن هذا قليل جدا لمن ينتقدني. إذ إنه يشعر بأنه يجب أن يغير تماما تصوري التاريخي لنشأة الرأسمالية في أوروبا الغربية إلى نظرية تاريخية فلسفية للمسار العام الذي يجب أن يسلكه أي شعب، مهما كانت الظروف التاريخية التي يجد نفسه فيها، وذلك حتى يمكن أن يصل في النهاية إلى شكل الاقتصاد الذي يضمن - مع أعظم توسع للقوى الإنتاجية للعمل الاجتماعي - أكمل تطور للإنسان. ولكني أسأله المعذرة. (فقد شرفني وأخجلني كثيرا في نفس الوقت).[٨٢]

وبعد ذلك بأربع سنوات أرسل ماركس خطابا إلى فيرا زوسليتش Vera Zusulich، الثورية الروسية التي عملت لاحقا مع لينين في لندن. في ذلك الخطاب اقتبس ماركس من الطبعة الفرنسية لكتابه "رأس المال" إجابة على استفساراتها عن "المسألة الزراعية" في روسيا. وكان الاقتباس الذي أرسله يقول:

"وهكذا تقتصر "الضرورة التاريخية" لهذه الحركة صراحة على "دول أوروبا الغربية" (وليس روسيا). ويتضح سبب هذا الاقتصار... في الفصل الثاني والثلاثين".[٨٣]

ومع ذلك، ظلت الشخصية التاريخية للأمة - المدركة في ضوء الدور التاريخي في تطور الإنتاج الرأسمالي - أحد جوانب قبول أو رفض الحركات

(*) أحد فصول كتاب ماركس الشهير "رأس المال". (المترجم)

القومية لدى ماركس وإنجلز. فقد كانت القومية مقبولة إذا أدى نجاحها إلى بناء أمة صناعية "حيوية". وفي نفس الوقت، كانت الحركات القومية غير مقبولة ("تافهة"، "غير عملية"، "متحجرة") إذ هددت ما سماه إنجلز "الحدود القومية الحقيقية (أي الإنتاجية)".[٨٤] وبحلول ١٨٨٨، كان إنجلز لا يزال يمنح بركاته للقومية الألمانية على هذا الأساس، إذا مضى يقول:

"يستطيع المرء أن يرى من كل هذا أن الرغبة في "وطن" موحد لها أساس مادي. فلم يعد الأمر مجرد الدافع الضعيف لدى طلاب كلية فارتبورج Wartburg، عندما "كانت القوة والشجاعة تشتعل في قلوب الألمان"،... وكذلك لم يعد الأمر مجرد الدعوة البسيطة جدا للوحدة التي كان يطلقها المحامون وغيرهم من الأيديولوجيين البرجوازيين في المهرجان القومي الديموقراطي قرب قلعة هامباخ Hambach... كلا، فقد كان هذا المطلب ناتجا عن الاحتياجات التجارية المباشرة لرجال الأعمال والصناعة العمليين للتخلص من كل المخلفات القديمة تاريخيا، والتي عرقلت التطور الحر للتجارة والصناعة، وإزالة كل التوترات غير اللازمة، والتي تغلب عليها كل منافسيه، والتي يجب أن يقضي عليها رجل الأعمال الألماني في الداخل إذا رغب في القيام بدور في السوق العالمي".[٨٥]

وعلى الرغم من أن ماركس وإنجلز كانا متفقين كثيرا حول العناصر والخصائص التاريخية للدول الأوروبية الموجودة في منتصف القرن التاسع عشر، كانت هناك بعض الاختلافات بينهما بشأن القومية، أو ما اتفقا على تسميته بالمسألة القومية (كان الاختلاف يرتبط في جميع الحالات بالسبب وراء احتقار إنجلز للعرق السلافي).[٨٦]

ففي كل من "البيان الشيوعي" و"الأيديولوجية الألمانية"، ركز ماركس على الدولية البروليتارية أكثر من القومية، قائلا كما رأينا إنه من طبيعة البرجوازية أن يكون لها مصالح قومية وأن تحافظ عليها، ولكن من طبيعة الرأسمالية أن تبدد المصالح القومية سياسيا (من خلال تكوين طبقة عالمية هي البروليتاريا) واقتصاديا (من خلال تكوين نظام عالمي).

وكما لاحظنا لاحقا، خاصة في تناوله لأيرلندا،[٨٧] بدأ ماركس في التعامل مع مسألة التحرر القومي بصورة أكثر تحكمية، وربما واقعية. حيث أصبح ماركس يصر على أن التحرر القومي كان شرطا مسبقا للدولية البروليتارية، وفي نفس الوقت لنهاية الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والأيديولوجية للبرجوازية.[٨٨] ومع ذلك، لم يوسع تحليله ليشمل الهند أو المكسيك أو إيطاليا.[٨٩] ومن ناحية أخرى، مال إنجلز إلى الاعتراف والتركيز على الاتجاه الثوري المضاد لحركات التحرر القومي، والذي أدركه منذ ملاحظة الاضطرابات الاجتماعية في ١٨٤٨-١٨٤٩. حيث جمع إنجلز بين الأسكتلنديين والبريطانيين والباسك والسلاف الجنوبيين، وأعلن أن هذه الشعوب "أمم غير تاريخية" حين أعرب بقوله:

"إنهم كما قال هيجل بقايا أمة سُحقت بلا رحمة في مسار التاريخ، وهذه "البقايا القومية" تعتبر دائما الممثل المتعصب للثورة المضادة، وستظل كذلك حتى تتلاشى تماما أو تتجرد من القومية، لأن وجودها ككل يمثل في حد ذاته احتجاجا ضد الثورة التاريخية الكبرى".[٩٠]

يذهب ميشيل لوفي Michael Lowy إلى أن معالجة ماركس للتحرر القومي كانت تميل نحو الاقتصاد،[٩١] بينما كانت معالجة إنجلز تميل نحو

القانون[٩٢]. غير أن ما ذهب إليه لوفي يبدو مبسطا جدا إن لم يكن خاطئا بالمرة. ذلك لأن عادات تفكير ماركس وإنجلز تميل نحو الاعتراف بالقوى المختلفة في التجربة الإنسانية. فالمألوف في حالة ماركس كان يتمثل في الأشياء التأملية والجدلية فلسفيا، أما في حالة إنجلز فكان المألوف يتمثل في الغرائز الدنيوية والعملية لمكان السوق.

وبينما كان ماركس يميل على مستوى الملحمة التاريخية إلى اكتشاف قوى العالم الجديد المتخفية في أشكال ظاهرية ملحمية، كان التزام إنجلز بالرؤية الثورية يحدد له في النهاية استخدامات التاريخ (والعلم). وبالنسبة للقومية، كان ماركس أكثر ميلا إلى الاعتراف بأن أهميتها التاريخية كأيديولوجية كانت غامضة في أسوأ الأحوال، وكان إنجلز يعتبر أن هذا الغموض يمثل تهديدا غير مقبول.

وهكذا كان تراثهما كمحللين للقومية يعتبر غامضا. إذ يبدو أنه بالنسبة إلى الحركات القومية الحقيقية في عصرهما في ألمانيا أو بولندا أو شرق أو جنوب أوروبا، لم يحقق ماركس ولا إنجلز فهما حقيقيا غير عادي، ولم يفلتا تماما من ضيق أفق عصرهما. بل إن أسلوبهما التاريخي زودهما بوسيلة لتأييد مواقفهما من القيمة التاريخية للشعوب والقدرات المختلفة للحركات القومية الأوروبية العديدة. إذ إن قوميتهما الخاصة - سواء بلا قصد أو بشبه قصد، كما اضطر ديفس إلى الاعتراف[٩٣]، أو غير ذلك - جعلتهما غير متعاطفين بصفة عامة مع حركات التحرر القومي للشعوب (مثل الروس والسلاف الآخرين) التي هددت تاريخيا ما كان يعتقد ماركس وإنجلز أنه المصالح القومية للشعب الألماني.

وكان يمكن تبرير معارضة مثل هذه الحركات بفشلها في التوافق مع المتطلبات العملية للاقتصاد السياسي الحيوي. ومن ناحية أخرى، قدر لشعوب أوروبية معينة أن تتوحد عن طريق الدولة والتطور الرأسمالي. وبالنسبة للوقت الحاضر، كانت البروليتاريا في هذه المجتمعات تنصح من أجل الاشتراكية بمساندة برجوازيتها. ويقولان إن ألمانيا توافقت مع تلك الظروف. وفي ذلك يقول ديفز:

"بالنسبة لبعض الدول الأخرى، كانت القومية لا تزال تعني الكفاح من أجل الوحدة القومية، كما هو الحال بالنسبة لدول أوروبا الشرقية من بولندا حتى البلقان، أو الكفاح من أجل الاستقلال القومي ضد القوى الإمبريالية، مثل الأيرلنديين، التشيكوسلوفاكيين، والشعوب الشرقية والأفريقية. ولا يزال على الماركسية أن تجيب على التساؤلات المتعلقة بمدى تبرير هذه الحركات القومية، ومدى اعتبارها اهتماما مشروعا للطبقة العاملة، وما الموقف الذي يجب أن تتخذه البروليتاريا في كل الدول تجاهها. وهل كان هناك مبدأ عام في هذا الأمر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإن ماركس وإنجلز لم يعلنا عنه بوضوح".[٩٤]

الماركسية والقومية

بعد ماركس وإنجلز، كان أهم المساهمين في المسألة القومية هم البلاشفة واليسار الراديكالي (روزا لوكسمبورج **Luxemburg**، بانيكوك **Pannekoek**، شتراسر **Strasser**، وتروتسكي **Trotsky**)، والماركسيون النمساويون (كارل رينر و أوتو باور). حيث هاجمت روزا لوكسمبورج

فكرة حق تقرير المصير باعتبارها فكرة مجردة ومثالية وبرجوازية وغير طبيعية.[٩٥] وكانت حجتها تقوم أساسا على كل من القيود الاقتصادية في فكر ماركس، التي أبرزت العنصر الثقافي في التقسيمات القومية، وعلى توصيف إنجلز "للأمم غير التاريخية". وكان كل من أنتو بانيكوك وجوزيف شتراسر[٩٦] يعتبران الأمة بمثابة أيديولوجية مناظرة للدين، وأنها تختفي مع ظهور الاشتراكية. واعتراضا على موقف باور الذي عرَّف المسألة القومية بمصطلحات نفسية ثقافية،[٩٧] رفض بانيكوك وشتراسر نظرية الثقافة القومية التي يمكن أن تتبناها الطبقة العاملة لمصلحتها الذاتية.

وكانت التغيرات الأساسية (ولا تزال) تبدو بلا نهاية، وكان من الواضح أن كلا منها له منطقه الخاص. وعند توصيف المنظرين الماركسيين للقومية، كانت المبادئ العامة المفترضة ذات الطبيعة التاريخية أو الموضوعية تتعارض مع عوامل ذات أهمية خاصة قصيرة الأجل؛ ولكن كل حوار كان يستجيب للأحداث المعاصرة بمحاولة احتواء الأدلة من العلوم الحديثة والأحداث الجديدة، وآثار الصراعات السياسية والأيديولوجية المباشرة. وغالبا ما كان الخصوم يغيرون آراءهم حسب الأشكال المناسبة "للفهم الجديد".

وللأسف، فإن اختزال الوعي في المنطق الماركسي إلى مجرد انعكاس لعلاقات الإنتاج والاستغراق المتكرر في الرأسمالية كنظام يتحدد بقوانينه الموضوعية الخاصة وبالقوة الدافعة للتغير التاريخي، قاد بصورة تلقائية إلى استنتاج أن القومية بين الطبقات العاملة كانت ضد الحركة التاريخية للمجتمعات الحديثة.

وبهذا المعنى كانت القومية أيديولوجية خلفية، وغالبا ما كانت وسيلة لصرف الصراع الطبقي إلى حروب إمبريالية؛ وعلى أي حال لم تكن تمثل موضوعا مناسبا للدراسة الجادة في حد ذاتها، لأنها كانت مجرد مسار مناسب سياسي لقوى ومصالح أخرى. ويؤكد فرانتس بوركيناو Franz Borkenau ذلك بقوله:

"تعتبر القومية في المجال السياسي بمثابة صخرة الحقيقة التي تحطم النظرية الماركسية نفسها عليها. إذ إنها قوة أثبتت أنها أقوى كثيرا في العالم الحديث من الصراع الطبقي الذي يمثل جوهر التاريخ لدى الماركسيين التقليديين. وكانت النتيجة الطبيعية أن الماركسيين كانوا يميلون باستمرار إلى تقليل شأن القوة التي لم تتناسب بسهولة مع أفكارهم، والتي كانت تتعارض صراحة في نفس الوقت مع الأفكار المثالية الصراع الطبقي. وأصبحت إحدى العلامات المميزة للماركسية الأصولية تتمثل في احتقار أية مشاعر قومية".[٩٨]

لقد أدى استبعاد الثقافة، أي الوعي التاريخي المنقول، كأحد جوانب الوعي الطبقي، إلى عدم استعداد الحركة الماركسية للقوى السياسية التي كانت ستنطلق في أوروبا والعالم الثالث، بل وفي داخل الحركة ذاتها. وبالنسبة للعديد من الماركسيين، كان الأمر متروكا للنظام الأيديولوجي والسياسي الجديد الذي فرضه الانتصار البلشفي في الثورة الروسية، وليس النظرية الموروثة، لإبراز التقليد الماركسي في المسألة القومية. وفي النهاية، كان القرار سياسيا ولم يكن له سوى غطاء نظري. وهنا نحتاج فقط إلى تصوير الشكل السلطوي السياسي، لأننا سنعود إلى دراسة تطوره بصورة أكثر عمقا في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

وعلى الرغم من أن تروتسكي التزم مبكرا بفكرة أن الدول لها الحق في تقرير المصير،[٩٩] فإنه كان يرى أيضا أن "الحاجات الأساسية للتنمية الاقتصادية" ستؤدي في النهاية إلى تفكك الدول القومية. "الدولة المنفصلة عن الاقتصاد والمتحررة من الإطار القديم للدولة، سيكون لها حق تقرير المصير في مجال "التنمية الثقافية".[١٠٠] وهكذا يبدو أن صياغات تروتسكي كانت مستعارة كلها من ماركس في البداية، ثم بعد ذلك من لينين.

وفي الواقع، يبدو أن لينين فعل الكثير لتوسيع النظرية الماركسية في المسألة القومية. حيث كتب لوفي:

"كان لينين يفهم العلاقة الجدلية بين الدولية وحق تقرير المصير القومي أكثر من رفاقه في اليسار الثوري. فقد فهم أولا أن "حرية" الانفصال فقط هي التي تمكن من قيام الاتحاد "الحر" الاختياري. وثانيا، أن اعتراف حركة العمال في الدولة القامعة بحق الدولة المقموعة في تقرير المصير هو فقط الذي يمكن أن يساعد في التخلص من عداء وشك المقموعين، ويوحد البروليتاريا في الأمتين في الكفاح الدولي ضد البرجوازية".[١٠١]

وبالطبع فإن شهرة لينين كمهندس لثورة أكتوبر، وكقائد للدولة السوفيتية ومؤسس للدولية الثالثة، منحت آراءه السلطة اللازمة لتصبح عقيدة. ومع ذلك، فإن الطبيعة المعقدة والغزيرة نوعا ما لكتاباته عن المسألة القومية تركت أفكاره معرضة للتبسيط. وفي خضم الأشياء، كان خليفة لينين – ستالين – هو الذي استطاع تقديم أبسط وأقوى تصريحات عن المسألة القومية. ففي ١٩١٣، وبتوجيهات من لينين، كتب ستالين مذكرته الشهيرة حاليا، "الماركسية والمسألة القومية". ففي هذا المقال تولى ستالين على عاتقه مهمة تعريف الأمة (الأمة عبارة عن مجتمع مستقر تطور تاريخيا، له لغة

وإقليم وحياة اقتصادية، ومكون ثقافي يظهر في مجتمع له ثقافة... وبمجرد أن تتوافر كل هذه الخصائص معا يصبح لدينا أمة.[١٠٢] وأعلن أيضا تأييده لحق تقرير المصير القومي ("حق تقرير المصير يعني أن الأمة تستطيع ترتيب حياتها وفقا لإرادتها. فلها الحق في ترتيب حياتها على أساس استقلالها. ولها الحق في الدخول في علاقات اتحادية مع أمم أخرى. ولها الحق في الانفصال الكامل. فجميع الأمم ذات سيادة وكل الأمم سواسية").[١٠٣] وكانت صياغة ستالين هي التي سادت الخطاب في المسألة القومية لثلاثة عقود على الأقل بعد وفاة ستالين. وهذا أمر سيئ جدا، لأنه خلال هذه الفترة تحديدا دخل التنظيم والفكر الاشتراكي في مواجهات مستمرة مع أيديولوجية القومية.

ولكن الذي لم يفهمه الماركسيون بشأن الظاهرة السياسية والأيديولوجية للقومية هو أنها لم تكن (وليست) انحرافا تاريخيا (عن الدولية البروليتارية). ولم تكن العكس بالضرورة: أي مرحلة تطورية من الدولية. وقد هزمت القومية ماركسية الدولية الثانية (الحرب العالمية الأولى)، ولكن المثير للسخرية أنها كانت أساسا لماركسية الدولية الثالثة (الثورات الروسية؛ اشتراكية ستالين في دولة ما؛ شروط العضوية في منظمة الأممية الشيوعية "الكومنترن"(*))، ومع ذلك تم تجاهل أهميتها التاريخية العالمية المبدئية.

(*) الأممية الشيوعية (الكومنترن Comintern) تعرف أيضا باسم الأممية الثالثة (١٩١٩-١٩٤٣) منظمة أممية شيوعية تأسست في موسكو عام ١٩١٩. هدفت تلك الأممية إلى محاربة وإسقاط البرجوازية العالمية "بكل الوسائل المتاحة بما في ذلك القوة العسكرية"، وإنشاء الجمهورية السوفيتية الدولية كمرحلة انتقالية نحو الإلغاء الكامل للدولة. عقدت الكومنترن ٧ مؤتمرات عالمية بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٥، وكان لها أيضا ١٣ "جمعية عمومية موسعة" للجنتها التنفيذية الحاكمة، تقوم بنفس دور المؤتمرات بشكل أكبر. قام جوزيف ستالين بحل الكومنترن رسميا في عام ١٩٤٣. (المترجم)

وظلت ظاهرة ثانوية بالنسبة لمعظم الماركسيين الشماليين (بالنسبة للصراع الطبقي). وكما وضحت سلفا، فقد اعتبر لينين أن طبيعتها سياسية أساسا، بينما اعتبرت روزا لوكسمبورج طبيعتها ثقافية أساسا. وكان الخطأ يكمن بدرجة أقل في معالجات القومية النظرية أو التحليلية أو الأسطورية، ويكمن بدرجة أكبر في "الفهم القاصر للطبيعة الكلية وعمق التطور الرأسمالي".(١٠٤)

"تتمثل الحقيقة الخفية والعدائية لنمو الرأسمالية في العالم فيما يشير إليه العنوان العام "التنمية غير العادلة"...

وفي المصطلحات الفلسفية التقليدية، يصل هذا الوضع إلى درجة "التناقض". حيث يتمثل التناقض هنا في أن الرأسمالية - وحتى أثناء انتشارها بلا رحمة حول العالم لتوحيد المجتمع البشري في قصة واحدة متصلة بصورة أو بأخرى للمرة الأولى - تهدد "أيضا" بتفكيك جديد خطير ومتواتر لهذا المجتمع. وكانت التكلفة الاجتماعية التاريخية لهذا الزرع السريع للرأسمالية في العالم تتمثل في "القومية"...

وأدى السوق العالمي، والصناعات العالمية والأدبيات العالمية المتوقعة بهذا القدر من الابتهاج في "البيان الشيوعي" إلى عالم القومية في الواقع".(١٠٥)

وكانت نتيجة هيمنة الرأسمالية، أي ردود الأفعال الاجتماعية والسياسية، نادرا ما تظهر لمن يفكرون بمنطق يلتزم بقوانين "الرأسمالية". فلم يكن الأمر يتمثل في أن ردود الأفعال هذه كانت غير منطقية، بل في أنها فشلت في التوافق مع النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي ظهر في المجتمع الرأسمالي. إذ إن نفس هذا النظام هو الذي لا يزال يؤثر - ويحافظ كما كان - على الحدود المعرفية للنظرية الاجتماعية الراديكالية.

"إنه يعمم نمط الرشادة الاقتصادية على كل امتداد التـــاريخ البـــشري، باعتباره النمط العام للوجود البشري. ويحيط بتاريخ الإنسانية كله في نموذج محاكاة عملاق. ويحاول بطريقة ما التحرك ضد نظام رأس المال باســـتخدام الوهم الأيديولوجي الخـــادع، الـــذي أوضـــحه رأس المـــال نفـــسه، كـــأداة تحليلية".[١٠٦]

وليس غريبا أبدا على المفكرين الماركسيين أن يعلنوا، كما فعل أليكس كالينكوس Alex Callincos مؤخرا أن: "دور الفلسفة يتمثل في التفكير النظري في مواقف طبقة البروليتاريا".[١٠٧] ولا يبدو مهما أن هـــذا التقليـــد وضـــع تروتسكي وبوخارين في بروكلين Brooklyin قبل أسابيع فقط من الثورة ضد روسيا القيصرية.[١٠٨] ونحن نتذكر ثانية هنا تحذير لينين للجيل الماركـــسي في سنواته الأخيرة:

"إنني أنا وماركس نتحمل جزئيا اللوم على حقيقة أن الشباب يركـــزون أحيانا على الجانب الاقتصادي بدرجة أكبر ممـــا يـــستحق... ومـــع ذلـــك، وللأسف فإنه غالبا ما يحدث أن يعتقد الناس أنهم قد فهموا تماما نظرية جديدة ويستطيعون تطبيقها بدون المزيد من العمل من لحظـــة إدراكهـــم لمبادئهـــا الرئيسة، حتى وإن لم تكن هذه المبادئ مفهومة بصورة صحيحة دائما".[١٠٩]

وربما كان هذا المعيار ينطبق أيضا على الأعـــضاء الأكثـــر نـــضجا – والأكثر مسئولية في النهاية – من الأجيال اللاحقة من الماركسيين. ومع ذلـــك، كان يجب تعميقه لسبر غور بناء النظرية الماركسية.

وبالنسبة لفشل الماركسية فـــي تحديـــد القـــوة والطبيعـــة التاريخيـــة للأيديولوجية كالقومية، تعتبر ملاحظة أخرى لإنجلز مناسبة هنا، منه علـــى سبيل المثال ما ذهب إليه بالقول:

"بمجرد أن يدخل عنصر تاريخي في العالم لأسباب اقتصادية أخرى في النهاية، فإنه يتفاعل ويمكن أن يتفاعل مع بيئته وحتى مع الأسباب التي أدت إلى ظهوره".[١١٠]

وكما أن توسع الرأسمالية أدى إلى الحفاظ على جوانب معينة من أنماط الإنتاج غير ("قبل") الرأسمالية، هناك أيضا أدلة على أن القومية أخذت في أماكن عديدة أشكالا منظمة أساسا من خلال نظم فكرية نابعة من صميم تلك الشعوب المستغلة من قبل السوق العالمي. وليس دقيقا تماما أن ندعي مثل نيرن Nairn مؤخرا أن:

"القومية هزمت الاشتراكية في مجال التنمية العالية، ودفعتها نحو مجالات متتالية من التخلف، حيث اضطرت إلى أن تصبح جزءًا من دافعها التعويضي الكبير للحاق بها – أي إلى أيديولوجية تنمية أو تصنيع، وليس أيديولوجية مجتمع ما بعد الرأسمالية".[١١١]

ويقترح نيرن نقل الاشتراكية التي ظهرت في الأوضاع التاريخية في قلب الرأسمالية الصناعية. فهذه الاشتراكية هي القادرة على تغيير المكان بدون تغيير طبيعتها. ومع ذلك، لم يظهر نموذج واحد للتصنيع الاشتراكي أو التنمية من النظم الاجتماعية الثورية في الاتحاد السوفيتي، أو جمهورية الصين الشعبية، أو كوبا أو فيتنام أو كمبوديا أو موزمبيق أو أنجولا. ويرجع ذلك إلى أن كلا من هذه النظم الثورية تأثر بالافتراضات السياسية والأخلاقية والفكرية المتعلقة بالأولويات التي تسبق دخولها في النظام العالمي الحديث. وهنا أيضا قد لا تمثل الحالة التي شاهدناها "الإمكانات التاريخية الكاملة "للقومية".[١١٢]

الخاتمة

تتمثل بعض الموروثات السيئة والمريبة والعديدة في الحضارات الغربية في القرون الحديثة في نظام الرأسمالية والاعتقاد في الرشادة والعلم. ولكن ربما كان تعبير "موروث" غير مناسب بصورة ما، لإشارته للقضاء والقدر على الأقل، لأن أيا منها لم يندثر بعد. فالرأسمالية والرشادة والعلمية ليست مجرد أشكال نشاط (إنتاج) وانعكاس لذلك النشاط. فقد أصبح كل منها يمثل قوة تاريخية خطيرة، توضح كثيرا طبيعة العالم الصناعي الحالي - طبيعته فقط وليس بالضرورة اتجاهه التاريخي.

وبالطبع كانت هذه خيبة أمل محبطة للبعض - خاصة بالنسبة للذين اعتقدوا أنهم من خلال حركة رأس المال اكتشفوا طبيعة وأساس التغير التاريخي. فبالنسبة لهم، ربما كانت أكثر الظواهر الاجتماعية إرباكا تتمثل في "عودة" الأيديولوجية (التي سماها ماركس "الوعي الجزئي") إلى أهميتها غير العقلانية وغير العلمية في شئون البشرية. إذ إن الأيديولوجية، خاصة في القرن العشرين، أصبحت تلعب دورا متناقضا داخل هيكل الفكر الاجتماعي الحديث، يشبه نوعا ما الدور الذي لعبته العبودية داخل الأطر التحليلية العقلانية المصاحبة لظهور الرأسمالية. فالأيديولوجية ببساطة عبارة عن إلغاء لقيود البحث الاجتماعي المعاصر الذي أصبح سائدا. حيث ساعد "اقتحامها" لهذا القرن والقرن الذي سبقه على إحباط تلك العمليات الاجتماعية والتاريخية التي كان يعتقد أنها ضرورية وحتمية؛ وعلى تحفيز التمردات والثورات

في ظروف غير محتملة غالبا، وبين شعوب غير متوقعة، وساعد في تحقيق إنجاز تاريخي غير عادي، حيث كان الفشل سائدا "بصورة موضوعية". ونظرا لأن الأيديولوجية كانت حليفة لقوى تاريخية غير مفهومة جيدا، فقد عرضت الفكر الغربي في صورته كماركسية آلية من أجل اختزالها،(١١٣) وبطريقة مختلفة تماما من أجل أدواتها.(١١٤)

وتعتبر محددات الراديكالية الغربية التي تتضح في النظرية الماركسية عملية مزمنة في الحضارة الغربية. حيث ترتبط هذه المحددات مباشرة "بفهم" الوعي، وكان استمرار الراديكالية في الفكر الغربي مهما جدا. فقد كان من الصعب جدا ومن غير المحتمل فعلا أن مثل هذه الحضارة - خلال صعودها كقوة مهمة في العالم - يمكن أن تنتج فكرا يتمتع بالنقد الذاتي بما يكفي لعرض أحد أبرز أوضاع نظامها. فالراديكالية - كما أردت أن أوضح - تجري عميقا في قاع الثقافة الغربية، وتبطل علاقاتها الإنتاجية المختلفة وتشوه تناقضاتها الكامنة. ولذلك فإن فهم التصوير الخاص للأيديولوجية العنصرية والثقافة الغربية يجب أن يتابع تاريخيا من خلال مراحل متوالية من السيطرة العنيفة والاستبعاد الاجتماعي الذي أثر مباشرة على الشعوب الأوروبية خلال الجزء الأكبر من الألفيتين.

وقد تسللت المواقف العنصرية ليس فقط إلى الهياكل الاجتماعية الرأسمالية والإقطاعية والوسيطة، وأشكال الملكية، وأنماط الإنتاج، بل وأيضا إلى كل قيم وتقاليد الوعي الذي أصبحت شعوب هذه العصور تفهم من خلاله عوالمها وتجاربها. إذ إن الثقافة الغربية التي تكون الشكل الهيكلي الذي اتخذه الوعي الأوروبي، والهيكل الذي تبلورت فيه الهويات والمفاهيم الاجتماعية

في الماضي، نقلت راديكالية تكيفت مع المقتضيات السياسية والمادية للوضع القائم. ففي النظم الاجتماعية الإقطاعية والوسيطة في القارة الأوروبية والبحر المتوسط، كانت الراديكالية قائمة بسبب أشكال خاصة من الاستغلال الذي استطاعت من خلاله طوائف أو طبقات معينة استغلال وتجريد الشعوب المختلفة.

ومع البدايات الأولى للحضارة الأوروبية (بما يعني تحديدا عودة ظهور الحياة الحضرية عند نهاية الألفية المسيحية الأولى)، أدى اندماج المهاجرين الجرمان مع الشعوب الأوروبية القديمة إلى نظام اجتماعي للسيطرة ظهرت منه نظرية راديكالية في النظام؛ حيث غمر نبلاء العصور الوسطى أنفسهم وسلطاتهم في تواريخ خيالية، وفرضوا أصولا سلالية وعرقية محددة للحكام والمحكومين.

وقد أدى توسع الرق وتطبيق العنصرية على الشعوب غير الأوروبية كهيكل تنظيمي على أيدي الطبقات الإقطاعية الحاكمة أولا، ثم البرجوازيين في القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر، إلى استمرار هذا التقليد الاجتماعي وهذه العادة العملية. وكما سنرى في الجزء الثاني من الكتاب بعد قليل، فإنه من القرن السابع عشر فصاعدا، أدخل رأس المال التجاري الإنجليزي العمالة الأفريقية في هذه الظروف تحديدا، أي نفس الظروف التي تم من خلالها سابقا استيعاب العمالة الأيرلندية.

وكذلك، مرت المواقف العنصرية الأوروبية بنوع من التضاعف في حد ذاتها، لأنه فيما بين حقبة العنصرية بين الشعوب الأوروبية التي ميزت الظهور الأول للوعي الأوروبي والفترة العصيبة لاسترقاق الأفارقة، كانت

هناك الظاهرة الخارجية تماما تقريبا للهيمنة العنصرية على البحر المتوسط- أي الينبوع الحقيقي لإعادة الإحياء وإعادة التحضر الأوروبي. فبعيدا عن الروابط التاريخية للتطور الأوروبي، على الرغم من تقييد هذا التطور بصورة واضحة - أولا من خلال تأخير التطور الاجتماعي لأوروبا بعزلها عن الحياة المدنية والعلم والفكر التأملي، ثم من خلال تعجيل نهضتها بعد ذلك بأربعة قرون من القرن الثاني عشر فصاعدا - رسمت الحضارة الإسلامية خطوط النهضة الثقافية الأوروبية. وتركت هذه الأحداث بصمات واضحة على الوعي الغربي: خوف وكراهية من الأفارقة السمر blackamoors، شيطنة الإسلام، وإظهار النبي محمد على أنه معادٍ للمسيح. وليس مدهشا أن الأوروبيين، أي "المسيحية"، لا يزالون يعانون من تكرار نوبات الكراهية تجاه ما أصبح يمثل أوهامهم المشتركة.

واختصارا، كان هناك على الأقل أربع مراحل متميزة يجب استيعابها في المواقف العنصرية الأوروبية؛ اثنتان منها ترجع أصولها إلى جدلية التطور الأوروبي، والاثنتان الأخريان ليستا كذلك:

١- التنظيم العرقي (السلالي) للمجتمع الأوروبي من مرحلته التكوينية، التي تمتد إلى العصور الوسطى والإقطاعية، مثل "الدم" والمعتقدات والأساطير السلالية.

٢- الهيمنة الإسلامية (أي العربية والفارسية والتركية والأفريقية) على حضارة البحر المتوسط، والتأخر اللاحق للحياة الاجتماعية والثقافية الأوروبية: عصور الظلام.

٣- إدماج شعوب أفريقيا وآسيا والعالم الجديد في النظام العالمي الناتج عن الإقطاعية المتأخرة والرأسمالية التجارية.

٤- جدلية الاستعمار، ورق المزارع، والمقاومة من القرن السادس عشر فصاعدا، وتكوينات العمالة الصناعية واحتياطيات العمالة.

ومن المألوف حاليا أن يبدأ تحليل العنصرية في المجتمعات الأوروبية من المرحلة الثالثة، مع التجاهل الكامل للمرحلتين الأولى والثانية، والإشارة جزئيا إلى المرحلة الرابعة. وكما سنلاحظ في الجزء التالي من هذه الدراسة، كانت النتائج غريبة نوعا ما: حيث كرر بعض دارسي العنصرية بسعادة ما يفترضه أحد أنواع علم النفس الجماعي عن الصدمة اللونية، حيث كانت ردود الأفعال الأوروبية على الشعوب ذات البشرة الداكنة تعتبر طبيعية؛ بينما دعا آخرون - ومنهم الماركسيون - إلى "تجريبية" مبسطة، حيث كانت النتائج الحتمية للرق والهيمنة تمثل مبررات التفوق والدونية السلالية. وفي كلتا الحالتين، كانت أصول الأخطاء المنهجية والمفاهيمية واحدة: أي افتراض أن العمليات الاجتماعية والتاريخية المهمة والمؤثرة تعتبر أوروبية. ويبدو أن كل شيء آخر مترتب عليها.

وعلى هذا الأساس، كان اهتمام الراديكالية الأوروبية بالرأسمالية كنظام يخدم نفس الأغراض. وكان الماركسيون يدعون غالبا أن حركات التحرر الوطني في العالم الثالث تعتبر ثانوية بالنسبة لمصالح البروليتاريا الصناعية في العواصم الرأسمالية، أو أنها تحتاج إلى فهمها على أنها مجرد هروب اجتماعي من الرأسمالية العالمية. وتحتاج هذه الحركات إلى الوجود على هوامش نموذج للثورة الاشتراكية. ومع ذلك، فإن الشيء الذي يصعب الدفاع عنه يتمثل في ندرة الاهتمام بالمواقف العنصرية بين الشعوب الأوروبية.

لقد قمنا الآن بالاهتمام بالمرحلة الأولي من السلالية الأوروبية؛ وقد حان الوقت لاستكشاف المراحل الثلاث الأخرى. وسوف نقوم بهذا، ولكن بأسلوب مختلف. فلن نترك التاريخ ليدور حول الشعوب الأوروبية، أو لينبع من أوروبا كمركز له. ففي الجزء الثاني، وخاصة فيما يتعلق بالشعوب الأفريقية والشتات الأفريقي، سنستكشف أسس الحقبة الحديثة كما تمت صياغتها أو ترويجها من خلال أنشطة الشعوب الأخرى. وعند التركيز على تاريخ كفاح الشعوب السوداء من أجل نظام اجتماعي مختلف، سنتذكر ثانية محددات الراديكالية الأوروبية، ولكن الأكثر أهمية هو أننا سنستعد لفهم أوضح للتراث الثوري الأسود.

وبعد أن ننتهي من هذا الاستعداد، سندرس بعد ذلك الجهود الرائدة للمنظرين الثوريين السود. وهذا أيضا سيزودنا ببعض التعمق في مشاكل الراديكالية الغربية. وسيتمثل أساس الجزء الثالث في فكر ثلاثة من الأيديولوجيين السود: دو بويز Du Bois، كيريل جيمس James، وريتشارد رايت Wright، الذين أصبحوا واعين بأوضاعهم الخاصة، ووضع كفاح السود في الحضارة والفكر الغربيين. حيث أدت محاولاتهم للتوفيق بين وعيهم الاجتماعي وأولويات "المادية التاريخية" إلى انتقاد نفس الفكر الذي طلبوا الخلاص منه، وأخيرا إلى وعي راديكالي للسود.

ومع ذلك، كان أهم شيء يتمثل في مواجهتهم الحقيقية مع الفكر الراديكالي للسود. وتمثلت النتيجة في ظهور أول صياغة نظرية لتقليد ثوري كانت طبيعته ترتكز على دور تاريخي مختلف تماما للوعي، بخلاف ما كان متوقعا في الراديكالية الغربية. حيث يتمثل الهدف الذي يوجه هذه الدراسة في تجميع عناصر هذا التقليد الأسود الصاعد في مشروع متماسك بحيث يمكن أن تحتل رؤاه البارزة ومشروعه التاريخي ما هو مناسب من مكانة حقيقية.

الجزء الثانى

جذور الراديكالية السوداء

الفصل الرابع

تشويه التاريخ الأفريقي وما ترتب عليه

..

خلال الخمسمائة عام الماضية تأثر مصير الشعوب الأفريقية كثيرا بتطور البنى الاقتصادية والمؤسسات السياسية التي شهدتها الشعوب الأوروبية. وعلاوة على ذلك، وقفت طبيعة تلك العلاقات بين الأفارقة والأوروبيين خلف تشويه وتحريف كل من الحضارة الأوروبية وثقافات الشعوب الأفريقية بصورة متزايدة بمرور السنين.

وقد ترك تطفل أوربا على تاريخ أفريقيا آثارا نفسية وفكرية وثقافية ساعدت في التعجيل بتكوين آليات تدمير ذاتي كامنة في الحضارة الغربية، وتفاقم عنصرياتها المحلية، وفرض متطلباتها من السلطة والقوة الاستبدادية، مع تبديد إمكانات ترشيد دولها، وخصوصياتها الثقافية المتنوعة، وطبقاتها.

فعبر ذلك التاريخ كان كل مكان ينظر إليه المرء أو يلتفت إليه، تتضح ملامح العالم المنهار، سواء في المركز أو الأطراف، حين كان نظام القوة الغربية آخذا في التشظي. ومن ثم، كان كل من الإمبراطورية البريطانية في مطلع القرن العشرين، والإمبراطورية الألمانية في أواسط ذلك القرن، والإمبراطورية الأمريكية اليوم، تقدم بشكل تحذيرا ودليلا على هذا التفكك. وتطور كل منها نحو اتجاه مميز للمجتمعات الرأسمالية بهدف تضخيم العنف

من أجل السيطرة والاستغلال، وقطع الطرق على إيجاد مسار للعودة. على هذا النحو كانت الأشياء تتفكك، والمركز لا يستطيع الحفاظ على تماسكه. ومع ذلك، ليست لدي النية في هذا الفصل لمعالجة تفكك المركز وما طرأ على العالم الغربي الحديث من تشوه. بل إنني أريد التركيز هنا فقط على القرون التي شهدت سنوات المراهقة في العالم الحديث وتكوين وظهور الشعوب الأفريقية.

اضمحلال الشتات

قبل ظهور حركات تحرر السود في أفريقيا والعالم الجديد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم يكن لدى معظم الدارسين الغربيين للتجربة الأفريقية أي إدراك لوجود تراث تاريخي للحراك الثوري الأسود مؤسس فكريا أو متماسك معرفيا. إذ إن وجود مثل هذا التراث، واحتمالات وشروط وجوده كانت مغيبة شكلا وموضوعا عن هؤلاء الباحثين. على هذا النحو كان ثمة افتراضات مسبقة لدى هؤلاء الدارسين لكل من أفريقيا والشتات الأفريقي خارج القارة عن أسس الهويات والثقافات والعرقيات والتكوينات الجماعية لهذه الشعوب الأفريقية المختلفة. وأخذا في الاعتبار هذه الافتراضات المسبقة، لم يستطع المكان ولا الزمان، ولا الجغرافيا ولا التاريخ، أن يبعث في عقولهم ونفوسهم أية شكوك في وجود مثل هذا التراث الفكري لحراك ثوري.

وبدلا من ذلك، قام هؤلاء الباحثون بإعادة بناء وتخيل الحركات الاجتماعية والفكرية بين السود بما يتوافق مع ضرورات بعينها وقضايا اجتماعية آنية.[١] وما وجده هؤلاء الباحثون من تشابه عارض بين تلك

الحركات الاجتماعية والأيديولوجية، فمرده إلى حقيقة وجود نظام سلالي عام يشترك فيه معظم السود، سواء كانوا رقيقا أو رقيقا سابقين، وليس إلى وجود وعي تاريخي أو سياسي أو تراث اجتماعي بين السود. وكان يفترض أنه من الصعب وجود ارتباط فكري بسبب بعد المسافة بين المتمردين الأفارقة على متن سفينة أميستاد Amistad لنقل الرقيق، أو خاطفو السفينة دايـــن Diane، أو في مستوطنات المارون(*) في كل مـــن بيرنــامبوكو وفلوريـــدا وفرجينيــا وجامايكا وجويانا وكارولينا، وفي ثورة رقيق هاييتي؛ والمتمردين الرقيق في الكاريبي وأمريكا في أوائل القرن التاسع عشر؛ والمتمردين السود في مناطق نهر فش الكبير، ونهر ليمبوبـــو، ونهـــر زمبيـــزي فـــي جنـــوب أفريقيـــا؛ والمهاجرين السود في فترة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية، والحروب التي لا تحصى عبر المشهد الأفريقي في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومـــن سار على نهجهم في القرن العشرين في أفريقيا ومناطق الشتات الأفريقي.

وكانت هذه الأحداث تعتبر بمثابة أفعال محدودة جغرافيـــا وتاريخيـــا، وبمثابة حلقات متصلة بشكل وثيق بالتـــشابه بـــين عناصـــرها الاجتماعيـــة (مثل مجتمعات الرقيق أو المجتمعات الاستعمارية)، ولكنه كان من الواضح أنها غير مترابطة، أي إنها كانت حركة اجتماعية صاعدة لم تلهمها تجربـــة تاريخية وأيديولوجية اجتماعية لحركة سابقة.(٢)

(*) المارون Maroon: رقيق نجحوا في الهروب من نير العبودية، كانت أشهر موجات الهـــروب في اماكن مختلفة من كل من جزر الهند الغربية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، وفي مناطق الهروب والفرار كونوا مستعمراتهم المستقلة. كلمة "مارون" مشتقة من الكلمة الإسبانية cimarrón والتي تعني الهارب أو الفار أو الذي يعيش فوق قمم الجبال، حيث Cima تعني قمة. (المترجم)

وبالطبع فإن الدراسات الغربية التي نظرت إلى هذه الحركات الثورية السوداء كانت إما مدفوعة (أو متأثرة على الأقل) بالمسعى الفكري الأوربي إلى طمس تاريخ وحضارة الأفارقة. ولكن أتباع هذا التيار الفكري لم يكونوا أوروبيين دائما. فقد تغلغل في الثقافة الفكرية العالمية، بل وحتى كان يشوش أعمال البعض من أحفاد هؤلاء الأفارقة. وكان واضحا أن الأعمال الرائدة لدارسين سود أمثال كيريل جيمس C. L. R. James و دو بويز W. E. B. Du Bois، كانت غير مقبولة لدى المؤسسة البحثية الأنجلوأمريكية التقليدية نظرا لما فيها من نقد ومراجعة لهذا التراث العتيد.(٣)

ولم يكن الفرق يرجع إلى التفسير، بل إلى جذور الفهم والاستيعاب. إذ إنه كان من النادر العثور على ردود فعل بحثية أفريقية ذات قيمة، تنتشر عبر المجال الطبيعي والتاريخي للمجتمعات المدركة في الحضارة الغربية. ولكن بمرور الوقت دخلت سياقات هذه الأحداث في التراث الفكري العالمي.

ورغم أن البوتقة الاجتماعية لراديكالية السود كان مقرها المجتمع الغربي، فإن تطورها لم يكن حكرا على هذا المجتمع، فرغم أن المجتمع الغربي كان لراديكالية السود بمثابة الموقع الجغرافي والشرط الموضوعي، فإنه لم يكن ملهمها الخاص، باستثناء حالات نادرة جدا.

فالحراك الثوري الأسود كان نقيضا للحضارة الغربية، ولكن ليس بالمعنى المباشر للنقيض الجدلي البسيط. فمن المؤكد أن اللحظة الحرجة لتطور الحراك الثوري الأسود ترجع إلى ما لعبته العناصر الأوربية من توقيف تاريخي للحياة الأفريقية. وبهذا المعنى فإن التجربة الأفريقية طوال القرون الخمسة الماضية تمثل مجرد عنصر واحد في شبكة التاريخ الأوروبي: إذ إن

بعض المتطلبات الموضوعية للتطور الصناعي الأوروبي تحققت من خلال الاستغلال البدني والذهني للشعوب الآسيوية والأفريقية والأمريكية. ومع ذلك، كانت هذه التجربة مجرد شرط لقيام حراك ثوري للسود – أي دافعها المباشر وسبب وجودها – ولكنها لم تكن أساس طبيعتها أو خصائصها. وبالتالي لا يمكن فهم الحراك الراديكالي للسود في السياق الخاص بنشأتها. فهي ليست مجرد صورة من الراديكالية الغربية التي تصادف أن كان أنصارها من السود. ولكنها كانت استجابة أفريقية خالصة على القمع الناتج عن المحددات المباشرة للتطور الأوروبي في العصر الحديث، والتي تشكلت أطرها من خلال نظم الاستغلال البشري المتأصلة في الحياة الاجتماعية الأوروبية منذ بداية الحضارة الغربية. وفي ذلك يقول والتر رودني:

"لا يشير تشابه من بقى على قيد الحياة من الأفارقة في العالم الجديد إلى الخصوصيات القبلية، ولكنه يشير إلى التفرد الجوهري للثقافة الأفريقية. إذ إن هذه الثقافة كانت بمثابة الدرع الذي أحبط جهود الأوروبيين لتجريد الأفارقة من إنسانيتهم من خلال الرق والاستعباد. فربما كان الرقيق في حسابات الربح والخسارة الاستعمارية مجرد "بند"، و"شيء"، وقطعة من "الممتلكات"، ولكنه كان يواجه وضعه الجديد كأفريقي، وكعامل، وكإنسان. وعلى هذا المستوى من الإدراك، فإنه من غير المناسب أن نبحث عن الإقليم أو القبيلة التي جاء منها أفريقي معين".[٤]

وكما سنرى لاحقا، كان مغزى الثقافة الأفريقية متاحا في مجتمع الرق لأسباب فكرية بصورة غرائبية، وبالتحديد صورة عنصرية. فقد لاحظ الأيديولوجيون العنصريون أن كل السود كانوا متشابهين ويمثلون مضمون

هذه الهوية. ومع ذلك، اكتشف القليلون فقط من أنصار التقاليد الفلسفية أو المعرفية أو التاريخية للثقافة الغربية أن الحقيقة الصادقة يمكن فهمها بسهولة. إذ إن التقاليد المحورية الأوروبية للحضارة الغربية أخطأت طويلا في تصنيف تجارة الرقيق الأفارقة إلى العالم القديم أو العالم الجديد. وعلى الرغم من أن هيجل ظهر متأخرا نسبيا في هذه العملية، فإنه تحدث ببساطة نوعا ما عن هذه التقاليد عندما قرر بأن " المناطق المعتدلة في نصف الكرة الشمالي هي المسرح الحقيقي للتاريخ"، وأضاف:

"يصعب فهم الطبيعة الأفريقية الخاصة، ولنفس السبب المتعلق بها، يجب أن نتخلى عن المبدأ الذي يصاحب دائما كل أفكارنا – أي فئة "العمومية"... وهناك حقيقة مميزة أخرى عند الإشارة إلى الزنوج وهي الرق. فقد استرق الأوروبيون الزنوج وباعوهم لأمريكا. ومهما كان هذا سيئا، فقد كان وضعهم في أراضيهم أسوأ، لأن الرق كان موجودا هناك بصورة مطلقة؛ وذلك لأن المبدأ الرئيس في الرق يتمثل في أن الإنسان لم يصل بعد إلى الوعي بحريته، وبالتالي فإنه ينحط إلى مجرد "شيء" – أي إلى أي شيء لا قيمة له. ولا يمكن اعتبار أفريقيا جزءا من تاريخ العالم، فهي لا تظهر حركة ولا تطورا. إذ إن الحركات التاريخية فيها – أي في جزئها الشمالي – تنتمي إلى العالم الآسيوي أو الأوروبي".[٥]

أثبتت النزعة الأوروبية التي أبداها هيجل في الفقرة السابقة – ربما باستثناء طريقة التعبير عنها – أنها ليست قديمة ولا خلافية. وقد ردد كلامه هذا جحافل من الدارسين الأوروبيين (وأتباعهم من غير الأوروبيين) بعدد كبير من الطرق حتى القرن الحالي.[٦] وقد استمر هذا التقليد وتغير كثيرا.

لقد كانت هذه طبيعة الوعي العالمي الذي ساد الفكر في أوروبا الغربية. وكما رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب، فقد كانت أصوله أوروبية داخلية، وليست انعكاسا لمواجهات بين الأوروبيين وغير الأوروبيين. ففي الواقع، اتخذت القاعدة الاجتماعية - التي كان هذا المفهوم يمثل استجابة لها - أشكالها الاجتماعية لأكثر من ألف سنة قبل ظهور التجارة الأوروبية الكثيفة في العمالة الأفارقة، ولم تتغير كثيرا حتى بحلول القرن الثامن عشر.(٧)

ومع ذلك، كان هذا التقليد الثقافي للنظام الاجتماعي والأخلاقي المستند إلى التمييز العنصري متاحا سلفا للوصول إلى الشعوب الآسيوية والأفريقية والشعوب الأوروبية الأخرى عندما أصبح مناسبا. وبالنسبة إلى الأفارقة، عرضت هذه الفرصة نفسها في التجارة التي شهدت ثمارها الوافرة في العالم الجديد.

العناصر الأساسية في الفكر التاريخي الأمريكي

في صيف ١٨٥٦، كانت الحجة التبريرية المؤيدة للرق في ضوء الزعم بدونية الشعوب الأفريقية تتلخص ببلاغة في مقال ظهر في المجلة الأدبية الأمريكية الوليدة والشهيرة "شهرية بوتنام Putnam Monthly" والتي جاء فيها:

"لقد فشلت معظم البحوث الدقيقة والمتعمقة حتى الآن في اكتشاف أي تاريخ أو أية معرفة تتعلق بالعصور القديمة بين السلالات الزنجية. فلم تخترع هذه الشعوب أية كتابة، ولا حتى الكتابة بالصور البسيطة لدى القبائل البدائية. وليس لديها آلهة ولا أبطال، ولا شعر بليغ ولا أساطير، ولا حتى تقاليد بسيطة. ولم توجد لديها حكومة منظمة أبدا، ولم يحكم هناك أي نظام

هرمي أو مؤسسة كنسية. والقوة فقط هي الحق. ولم تعرف الفنون أبدا، وهي شعوب تجهل حتى الزراعة. وكانت مدن أفريقيا عبارة عن تجمعات كبيرة من الأكواخ والزرائب؛ والجدران الطينية والأسيجة الشائكة التي تحيطها، وبرك الدم وصفوف الجماجم التي تزين أفضل بيوتهم. وكانت الأدلة القليلة على الروعة أو الحضارة مستعارة كلها من أوروبا؛ وحيثما وجد دين أو عقيدة كان ذلك يخص الغرباء؛ وكانت كل أشكال المعارف والتقاليد والتقدم تأتي إليهم من الخارج. فالزنجي ليس لديه تاريخ - إنه لم يصنع تاريخا يوما ما".(٨)

لقد ظهر هذا التوصيف البائس لكاتب مجهول يزعم من خلاله تقديمه عرضا للتاريخ والتكوين الاجتماعي للشعوب السوداء. وقد ظهر هذا العمل في مرحلة وسطى بين حدثين كبيرين في التاريخ الأمريكي: (١) إصدار المرسوم العام بشأن "الرقيق الهارب"(*) والذي أصدره الكونجرس في ١٨٥٠ مستميتا لإصدار قانون عسكري للدفاع عن حق تملك الرق؛ (٢) والعزيمة المستميتة للضربة الأخيرة العنيفة والقاتلة التي وجهها جون براون(**) لإبطال الرق في ١٨٥٩.(٩)

ومع ذلك، لم يكن هذا بمثابة نوع من الوسط الحسابي بين المشاعر السياسية والمصالح الاقتصادية، والوعي الأخلاقي الذي ألهم هذين

(*) في التراث العربي يطلق على الرقيق الفار من سيده اسم "العبد الآبق". (المترجم)

(**) جون براون John Brown : مناضل أمريكي في سبيل حرية العبيد، ولد في ٩ مايو عام ١٨٠٠ وتوفي في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٩. رأى جون براون أن العصيان المسلح هو السبيل الوحيد للإطاحة بنظام العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية. في عام ١٨٥٦، ألقي عليه القبض في إحدى المعارك وحكم عليه بالإعدام شنقا. (المترجم)

المرسومين المتناقضين والمتكاملين تاريخيا (وبالطبع فقد أثبت كل منهما بطريقته الخاصة أنه شرط ضروري للحرب الأهلية التي تلته). ولم نستطع ربط انقسام الآراء بين البيض والمهاجرين الأوروبيين (الذين ربما سيكونون من "البيض" أيضا يوما ما) بدقة في مجموعات من المواقف الأخلاقية الثنائية والمتكافئة: دونية السود/تشجيع الرق؛ مساواة السود/مناهضة الرق. بل على العكس، فقد كان هذا الإعلان الواثق من الأعماق الصافية للمثقفين الأمريكيين في منتصف القرن التاسع عشر، والوعي التاريخي والتاريخ المشوه لدى الشعوب السوداء، بمثابة المبرر الفكري السائد للقمع العنصري في الولايات المتحدة.[١٠]

وكانت الغطرسة العنصرية، وزيف منهجها التأريخي - والتي كانت بذاتها نتيجة مباشرة ومشوهة لمرور ثلاثمائة سنة من الرق الأفريقي المنهجي في العالم الجديد - تمثل حقيقة مطلقة وعلامة بارزة لتبرير مجتمع الرق[١١]، وتطورا منطقيا لحضارة آثمة قامت لفترة طويلة على النظم العنصرية. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت الحضارة الغربية قد صادرت الماضي الأفريقي فعليا،[١٢] وذلك على مستوى الفكر العلمي والثقافي وعلى مستوى الرأي الشعبي والأساطير. إذ إن الجهود الخفية التي منحت قدرا من الاعتراف بإنسانية الرقيق السود والأفارقة، والتي استخدمت لرعاية الكثير من المشاعر والكتابات المبكرة المناهضة للرق، قد غرقت في تقليد العنصرية الأكثر انتشارا وعمقا أخلاقيا.[١٣]

ولكن إنكار وإلغاء تاريخ الأفارقة ونظمهم الاجتماعية، لم يكن مجرد مسألة تتعلق بالجهل والاستعمار الأوروبي والأمريكي بأفريقيا. إذ إن ديفيد

بريون ديفيس، عندما كان يعيد تركيب صورة الأفريقي في الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، تعمق في مواد بحثية أوضحت أن المعرفة لم تكن تراكمية في هذا المثال على الأقل:[١٤]

"كان معروفا منذ قرنين أن الزنوج عاشوا في مجتمعات زراعية مستقرة؛ وأنهم زرعوا مجموعة من المحاصيل، وربوا قطعانا كبيرة من الماشية، وزرعوا بساتين من أشجار الظل. وكان معروفا أنهم كانوا مهرة جدا في استخدام الحديد والنحاس، وفي صناعة الحلي والفخار، وفي نسج منسوجات قطنية جيدة... وكان معروفا أن الأفارقة عاشوا في قرى منظمة ومتباعدة كانت تسمح بالخصوصية للأفراد، بينما تحافظ على نظام متشابك من التباينات الطبقية والأسرية... وأخبرت كتب عديدة عن السلوكيات المهذبة للزنوج، وعن أنماط تجارتهم المستقرة، ومعرفتهم بالكواكب والمجموعات النجمية."[١٥]

وكان الرحالة والتجار الأوروبيون، الذين كانت حياتهم وثرواتهم تعتمد غالبا على المعرفة العملية بالشعوب الأفريقية، ينشرون كثيرا مثل هذه التقارير المفيدة، ويشرحون العلاقات الاجتماعية التي أصبحوا مطلعين عليها. فلماذا لم يستمر هذا الفهم في الفكر الأوروبي؟ هذا ما لم يستطع ديفيس تفسيره.

فبعد التوصل إلى افتراض أن الرقيق الأفارقة كانوا دوما محط إشكالية في الثقافة الغربية،[١٦] لجأ ديفيس مثل جوردان[١٧] إلى الأساطير فذهب يقول:

"لأسباب قد لا يمكن تفسيرها بالكامل أبدا، كان لون بشرة الأفريقي هو الذي أصبح يمثل سمته المميزة، والذي أثار أعمق ردود الأفعال لدى الأوروبيين".[١٨]

ونظرا لتوافق ديفيس مع التراث الفكري العنصري، فقد ورث منه تعاليمه، وفي مقدمة تلك التعاليم: الاختلافات العنصرية التي هي أساس التهيجات العنصرية. وكان يمكن أن يكون موقفه أفضل لو كان بحثه في التراث الفكري الكامن في التاريخ الغربي أقل غطرسة. وكان بوسعه أن يدرك أنه بعد بضعة عقود من الممارسات العنصرية كان جوهر الفكر الغربي غير مستعد لأي شيء آخر. وحتى التحول في الفكر الغربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - من أساس المعرفة الدينية والفلسفية إلى أساس العلم الحديث - لم يحدث اختلافا كبيرا.[١٩]

ولم يساعد هذا التحول سوى في نشر مصطلحات ومبررات متخيلة عن التدني العنصري (لليهود والأيرلنديين والسلاف والآسيويين بالإضافة إلى السود).[٢٠] وهنا احتل الفكر العلمي الغربي مكانه ببساطة على أنه آخر القواعد الرسمية للتعبير عن الغيبيات العنصرية التي كانت استجابته الطبيعية لها تتمثل في ضرورة إذعان هذه العناصر السلالية.

وفي الواقع، فإنه خلال معظم القرن التاسع عشر، كان أحد أكثر المشروعات التي استخدم العلم الغربي فيها استمرارا يتمثل في محاولة إقرار ما كان مفهوما سلفا على أنه النظام الطبيعي للسلالات.[٢١]

وفي أمريكا، خلق توافق الوعي التاريخي الغربي مع الأيديولوجيات العنصرية سلسلة معينة من سوء الفهم الاجتماعي والتشوهات التاريخية التي استمرت حتى القرن الحالي. فلم يقتصر الأمر على تأثر الفكر العام فحسب، ولكن الأسس الحقيقية لذلك الفكر الأكاديمي الأمريكي - التي بدأت أولا في النضوج في القرن التاسع عشر - كانت مشبعة بالافتراضات العنصرية.

وكانت البرجوازية الأمريكية الصاعدة - في جوانبها التجارية والصناعية وسلطة أصحاب المزارع على حياة الرقيق plantocratic - تحقق مراحلها الأولى من التكامل الأيديولوجي بصورة هادفة وتدريجية. وأصبح هذا التأصيل الفكري يستوعب ماضي أولئك الذين يقطنون أمريكا بالإضافة إلى حاضرهم. وكانت النتيجة تتمثل في بناء أساطير تاريخية شوهت أصول وخصائص الجمهورية والعلاقات الاجتماعية التي تقوم عليها.[٢٢] وتعرضت الحدود الصارمة للتقسيمات الطبقية - الكامنة في التقاليد الاجتماعية الاقتصادية الأوروبية للطبقات العليا الإنجليزية والأرستقراطية الأوروبية القارية وطبقاتها الدنيا - للتلاشي والغموض بسبب الوحدة السلالية الوهمية.

إذ إن وجود النخب الثرية بالأراضي الزراعية، والامتيازات الاجتماعية والسياسية لرأس المال التجاري والممتلكات الزراعية، حتى نشأة الأرستقراطية الأمريكية الجنوبية، كان قد غاب في خضم تمجيد التنوير السياسي - الذي استمد من أوروبا "أفضل" تقاليده الأخلاقية - والذي ربما قاد الناس إلى الاستقلال، وصنع أدوات الحكم شبه الكاملة، وحقق الحقوق الفردية التي تضمنتها النصوص القانونية الرسمية.[٢٣]

وحتى المعارضة الطويلة والشرسة والعنيفة أحيانا من "الديمقراطية الأمريكية" (الحزب الديمقراطي الذي سيطر على السياسة الاتحادية والوزارة الاتحادية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر) للديمقراطية الاجتماعية أو "حكم الغوغاء" (لمعارضيها) - الممثلين للطبيعة الحقيقة للنظام الاجتماعي والذين يمثلون أحد آخر مظاهره الواضحة - كانت تتلاشى حتى نسيت في أعقاب التوافق السلالي الصاعد.[٢٤] وكان جون براون - الأقرب إلى

الأصول الحرفية المرتبطة براديكالية الطبقة العاملة الإنجليزية قبل ذلك بربع قرن - يمثل اقتراحا لطبقات معينة ليست مفتونة تماما بالشكل الذي لا يزال حديثا للنظم الطبقية الغربية.

ويمكن أن يتأمل المرء في طبيعة واتجاه التشوه التاريخي في وقت مبكر بالطبع. ومن الصعب أن تكون بعض حقائق أمريكا الاستعمارية مادة يمكن منها صياغة أسطورة القومية بسهولة. فبحلول القرن الثامن عشر، كان الأيديولوجيون الأمريكيون قد بدؤوا في تكوين حقائق بديلة، فقد أعفوا أنفسهم- بسبب النصر الاستعماري وإخضاع المعارضين وإقرار نظام رق مستقر- من تحديات الشعوب غير الغربية التي كان يمكن أن تتحدى رواياتهم. وكان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تصبح مؤامراتهم روايات غير مقبولة. ومؤخرا، وبينما كان إدموند مورجان يراجع هذه البدايات ويعيد تركيب العلاقات بين مستعمري فيرجينيا الأوائل والشعوب المحلية، لخص الحالة النفسية الجماعية التي شعر بأنها كانت تصاحب دورة الأعمال الوحشية التي امتدت حتى القرن الحالي. وفي ذلك يقول إدموند مورجان:

"لو كنت مستعمرا، فأنت تعرف أن تقنيتك كانت متفوقة على الهنود. وأنت تعرف أنك متحضر، وأنهم كانوا بدائيين. فقد كان هذا واضحا في أسلحتك النارية وثيابك ومسكنك وحكومتك ودينك. وكان يفترض أنه سيتم التغلب على الهنود من خلال الإعجاب بك والانضمام إليك في استخراج الثروات من البلاد. ولكن تقنيتك المتفوقة أثبتت أنها غير قادرة على استخراج أي شيء. إذ إن الهنود الذين التفوا حول أنفسهم سخروا من أساليبك المتفوقة وعاشوا على الأرض برخاء أكثر وبعمل أقل مما فعلت. بل إنهم

زودوك بالطعام الذي لم تستطع الحصول عليه من حولك بما يكفي لتعول نفسك. ولكن عطف هؤلاء الهمج الوثنيين عليك لم يكن أمرا محتملا لديك. وعندما بدأ شعبك الأصلي في الرحيل ليعيش معهم، كان ذلك كثيرا جدا... ولذلك قتلت الهنود، وعذبتهم، وحرقت قراهم، وحرقت حقول الذرة التي كانوا يزرعونها. وأثبت بذلك تفوقك".[٢٥]

ومع ذلك، فإنه بحلول عام ١٧٥١، كان بنيامين فرانكلين – وهو مفكر استعماري شديد التوازن من الطبقة الحاكمة، وكان تأثيره الفعلي على المجتمع الأمريكي كبيرا من النواحي الأيديولوجية والمالية والمكانية – منهمكا سلفا في سجل مختلف تماما من هذه العلاقات. وفي ذلك يقول فرانكلين:

"وجد الأوروبيون أمريكا مأهولة تماما لأقصى مدى "بصيادي البر"، ومع ذلك، كان من السهل إقناع أصحاب "المناطق" الكبيرة بالتنازل عن "أجزاء من الأرض" لصالح "القادمين" الجدد، الذين لم يتدخلوا كثيرا مع "المحليين" في "الصيد"، وزودوهم "بأشياء" كثيرة كانوا يحتاجونها".[٢٦]

وهكذا فإن الحدث العنيف للعدوان الاستعماري، وما ترتب عليه من رق "الهنود"، كان قد تحول سلفا في عقلية فرانكلين "الأمريكية" القومية الجديدة إلى علاقة استرحام ضمنها مبرر اقتصادي؛ وفي الواقع كان اعتماد "القادمين الجدد" على المحليين قد انعكس سلفا. وهكذا بدأ ستار الأيديولوجية المؤمنة بسيادة مجموعة معينة نزوله على الفكر الأمريكي، مما أخفى العنف القمعي والاستغلال المتأصل في هيكل الجمهورية عن الأجيال غير الواعية أيديولوجيا من أحفاد المستعمرين الأمريكيين والمهاجرين لاحقا.

وكان العامل المهاجر المتعاقد مؤقتا – الذي كانت أصوله ترجع غالبا إلى إنجلترا – أحد مكونات القوى العاملة التي اعتمدت عليها المستوطنات الاستعمارية في القرن السابع عشر. وكان وضعه أفضل قليلا من الأمريكي المحلي في التقاليد التي كانت تتشكل في التأريخ الأمريكي على أيدي الأيديولوجيين في الطبقة الحاكمة. وبالطبع يفترض الآن عادة أن "العامل الأبيض" كطبقة قد اختفى سريعا في المستعمرات القارية الإنجليزية نتيجة للتجارة في العمالة الأفريقية والتي بدأت تصل إلى أعداد كبيرة في أواخر القرن السابع عشر.(٢٧)

ومع ذلك، يخبرنا ريتشارد هوفشتاتر بأن بنيامين فرانكلين قال في ١٧٥٩:

"إن العمل في المستعمرات يتم أساسا من خلال عمال متعاقدين مؤقتا مجلوبين من بريطانيا العظمى وأيرلندا وألمانيا، لأن السعر المرتفع الذي تتحمله لا يمكن أداؤه بأية طريقة أخرى".(٢٨)

وحتى السنوات التالية للثورة الأمريكية مباشرة، كان هؤلاء العمال لا يزالون يشكلون حوالي ١٠٪ من عدد بلغ ٢,٥ مليون نسمة ممن كانوا يقطنون المستعمرات المتمردة. وانضم العمال البيض – الذين كانوا مثل الرقيق المعرضين قانونا للبيع حسب تصرف السيد، والذين يتعرضون للعقاب الوحشي غالبا، والمحرومين من حقوق التملك، أو الزواج بدون إذن السيد، أو الشراب في حانة عامة – إلى الغالبية العظمى المستبعدة من سكان الجمهورية الشباب، وفي ذلك يقول سميث:(٢٩)

"لو كانت آراء جون لوك طبقت على كل السكان في أمريكا الشمالية البريطانية عشية الثورة، ولو كان قد سمح للجميع بالتمتع بالحقوق الطبيعية والقانونية للأحرار، لكان ضروريا أن تتغير مكانة أكثر من ٨٥٪ من السكان. ولكن في القانون وفي الواقع لم يكن أكثر من ١٥٪ من الجيل الثوري حرا في التمتع بالحياة والحرية وممارسة السعادة التي لا تحدها أية قيود سوى تلك التي ارتضوها.

ويمكن تصنيف غير الأحرار في أمريكا الثورية عادة إلى خمس فئات: الزنوج، العمال البيض، النساء، الصغار، والذكور البيض البالغين المعدمين".(٣٠)

لقد كانت مزايا الديمقراطية خادعة بالنسبة لمعظم الناس.(٣١) إذ إن العمال البيض أنفسهم لم يكونوا أقرب إلى الحرية عند نهاية القرن الثامن عشر مقارنة بأسلافهم المخدوعين الذين انضموا إلى بيكون Bacon (قاتل الهنود صاحب الطموح البالغ) في محاولة يائسة لإعادة رسم حدود السلطة والثروة للمجتمع الاستعماري في القرن السابع عشر.(٣٢)

ومع ذلك، فإن التجارب المأساوية لهذه الأجيال العاملة الفقيرة لم تتحول إلى ملاحم بطولية. وحتى أبوت سميث Abbot E. Smith الذي أثبتت دراساته أنها مهمة جدا في إصلاح الدور التاريخي لهذه الطبقة، وجد أنه يصعب التوصل إلى الأداة المناسبة. فبينما أضاع وقته في حساب أن الأهمية الحقيقية لطبقة العمال بالنسبة لمن نظموا المستوطنات يمكن قياسها بنسبتهم من السكان المستعمرين (وصلت نسبة العمال المتعاقدين مؤقتا إلى "النصف على الأقل، أو ربما الثلثين، من كل المهاجرين إلى المستعمرات جنوب نيويورك")،(٣٣)

أصر سميث أخيرا في توافق محير مع مصادره الأولية الأقل موضوعية على أن هذا المقياس كان تضخميا في النهاية. وفي ذلك يقول سميث:

"ينظر الكتاب المحدثون إليها بتساهل كبير بصفة عامة، حيث ضخموا تقديراتها إما بسبب الفخر البطولي أو نتيجة الرغبة في إظهار كيف أن الأشخاص عظيمي القيمة كانوا يستغلون بصورة محزنة من جانب السادة المسيطرين اقتصاديا في تلك الأيام السيئة البائدة. ولكن هناك شبه اتفاق تقريبا بين معاصريهم الذين عرفوهم وشاهدوهم على أنهم أقرب إلى عدم القيمة... وبعد مراعاة التخفيض اللازم بسبب غطرسة الطبقة الوسطى وضروريات الجدل، لا يمكن أن يتبقى أدنى شك في أن العمال البيض المتعاقدين مؤقتا كانوا في أعين معاصريهم أكثر كسلا وانعداما للمسئولية ومرضا وانعداما للأخلاق مقارنة بالعمال الإنجليز الممتازين. بل إن الشعور العام - وبدون دليل - يشير في الحقيقية إلى نفس الشيء".[٣٤]

وربما كان لدى سميث القليل من "التساهل" مع الطبقة العاملة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى هوفشتاتر. إذ إن رق البيض كان نتيجة للتدفق الحتمي "للعمال المؤقتين، وبروليتاريا عمال البناء، والمجرمين" من إنجلترا التي وصفها هوفشتاتر بأنها "اقتصاد متخلف... ينتقل نحو أساليب أكثر حداثة في الصناعة والزراعة".[٣٥] وكان هناك فهم غامض لحقيقة أن العمال البيض - الذين سكت معظم المؤرخين الأمريكيين عن تجاربهم [٣٦] - كانوا قادمين من القطاعات المتشبعة من المجتمعات الإنجليزية والأوروبية القارية التي كان تراجعها الاقتصادي والسياسي يمثل الأساس للحكم على "إفراط السكان". وحتى المؤرخين الصالحين كانوا مفتونين بالتفوق الأيديولوجي لأسلاف طبقتهم.

وكما يمكن أن يتوقع، جذبت طبقة العمال البيض إليها الفئات الاجتماعية التي كانت منذ فترة طويلة تمثل تيارا رئيسا في الثقافة الغربية. وقد سجل سميث الملاحظات التي دونها معاصرو هؤلاء العمال "البيض". حيث ذكر المحاولات التي جرت لتوصيف الطبقة الدنيا الاستعمارية بمصطلحات سلالية وقومية:(٣٧)

"قال فرانكلين إن الألمان كانوا أغبياء... ونادرا ما كان يثار أي انتقاد ضد الأسكتلنديين... وحتى إذا كانوا متمردين أو متشردين في ديارهم، إلا إنهم كانوا يعتبرون طموحين ومهرة وأذكياء بصفة عامة... وكان الأيرلنديون الأقل قبولا، بل إن بعض المستعمرات كانت تفرض ضرائب عليهم أو تمنع استقدامهم. وكان هذا يرجع جزئيا إلى دينهم الذي كان يعتبر خطيرا سياسيا، ولكنه كان يرجع أساسا إلى ميلهم إلى الكسل والهرب. وكتب [كريستوفر] جيفرسون أن الكثيرين منهم كانوا "لا يصلحون لشيء سوى الأذى"؛ ونحن نقرأ أنهم "تشردوا" في برمودا، وأنهم "شاغبوا" في باربادوس، وأنهم كانوا لا يستقرون أبدا كعمالة مطيعة ترضي سادتها. وكان الويلزيون يحظون بتقدير كبير".(٣٨)

ومع ذلك، كان تقدير سميث بعيدا عن الكمال. وكان خادعا أيضا نوعا ما، لأنه لم يكن الويلزيون ولا الأسكتلنديون يمثلون نسبة كبيرة مثل الأيرلنديين أو الألمان بين المهاجرين في القرنين السابع عشر والثامن عشر.(٣٩) وليس غريبا في ضوء تاريخ أيرلندا منذ القرن السادس عشر أن الأيرلنديين كانوا يمثلون المصدر الرئيس للمهاجرين المتعاقدين مؤقتا والمجبرين. ففي القرن الثامن عشر مثلا، ربما كان حوالي ١٠ آلاف رجل وامرأة وطفل قد "نقلوا" من أيرلندا إلى العالم الجديد "كمدانين".(٤٠) وفيما بين

١٧٤٥ و١٧٧٥ - وطبقا للسجلات البحرية لميناء ميريلاند في أنـــابوليس، وصل مهاجرا ٥٨٥٣ عاملا من أيرلندا، مقارنة بإجمالي من هـــاجروا إلـــى بريطانيا العظمى (لندن وبريستول و"غيرهما من المـــوانئ") الـــذين بلغـــوا ٤٧٢٥ عاملا، والذين كان بعضهم من الأيرلنديين طبعا.[٤١] وتنطبق الأهمية التي تمثلها هذه الأعداد على الدور الذي لعبه استعمار أيرلنـــدا فـــي تطـــور الاستعمار الإنجليزي للعالم الجديد. وفي ذلك يقول نيقولاس كالي:

"ادعى المغامرون الذين ذهبوا إلى أيرلندا أن هدفهم الرئيس كان يتمثل في إصلاح الأيرلنديين... "ورفع هذا البلد إلى مـــستوى تحـــضر وأخـــلاق إنجلترا". ومع ذلك، كان واضحا أنه لم تبذل أية جهـــود محـــددة لإصـــلاح الأيرلنديين، ولكنهم كانوا يطردون لأتفه الأسباب - مقاومة الإنجليز عامة - لأنهم "شعب شرير وغير مؤمن" ويخضعون للسيف. وقـــد تكـــررت هـــذه الصياغة في معاملة هنود العالم الجديد... ووجدنا أيضا نفس الاتهامات التي وجهت إلى الهنود، ثم إلى السود، توجه أيضا إلى الأيرلنـــديين فـــي العـــالم الجديد. وكان يقال إن الهنود كانوا شعبا غير مستقر ولم يحقـــق الاســـتغلال المناسب لأرضه، وهكذا يمكن حرمانه منها ببساطة عن طريـــق الإنجليـــز الأكثر تنظيما. وكان كل من الهنود والسود - مثل الأيرلنـــديين - يتهمـــون بأنهم خاملون وكسالى وأقذار ومستهترون، ولكن لم تبذل جهود جادة كبيـــرة لانتشال أي منهم من حالة الانحلال المفترضة."[٤٢]

وهكذا كان الأيرلنديون مثالا نمطيا للعمال البيض. ومع تزايد أعدادهم الكبيرة أصلا، وتزايد حجم طبقة العمال بـــسبب المهـــاجرين مـــن ألمانيـــا، وغيرهم من اللاجئين بسبب الاضطرابات السياسية في المجتمع الأوروبـــي

والارتجاجات الاجتماعية الاقتصادية في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر، تفاقمت أزمة السلالية داخل الشعوب الأوروبية والقمع الديني والعصيان الطبقي لتشمل معظمهم.[٤٣] وكان هذا الوضع السلالي الاجتماعي الشامل بمثابة تكيف أيديولوجي مع تجاهل أو تشويه الأصول الحقيقية والفئات الأكثر صدقا للطبقة العاملة البيضاء المتطورة. فإذا كانوا فقراء، فإن هذا يرجع إلى أنهم كانوا ضحايا السرقات الكبرى التي قامت بها الدول والطبقات الحاكمة؛ وإذا كانوا عنيفين وجامحين، فإن ذلك كان نتيجة الانتهاكات الضخمة التي تعرضوا لها. وكان القليل من هذا مناسبا أيديولوجيا عندما أدركته الطبقة الرأسمالية الصغيرة جدا التي كانت ستستخدمهم كعمال، وكمستوطنات حاجزة على الحدود، أو كأدوات لتنظيم الشعوب الأفريقية. وكان يكفي أن تعرف أنهم كانوا "الفقراء والمعتدلين الذي هاجروا"، كما قال كريفكير Crèvecoeur.[٤٤] وبالطبع كان هذا أبسط إطار للرواية.

وبحلول القرن الثامن عشر، كان الخليط السلالي للحضارة الأوروبية قد استقر على التضاريس الاجتماعية للمستعمرات الإنجليزية، ونشر غطاؤها حقائق السيطرة وإعادة خلط عناصرها في الأشكال المألوفة. ومع ذلك، نجد في الطبقات الدنيا - حيث كان الخليط أكثر سمكا وحيث علمتنا الحكمة الموروثة أن نتوقع "السواد" - كان الطيف المعاصر أكثر تعقيدا: حيث حصل السكان الأصليون في العالم الجديد على صفة الأحمر الوحشي savage red، وحصل العمال الأوروبيون على صفة الرمادي المرقط mottled grey.

ولكن يوجد فيما بيننا وبين شبح ذلك الماضي الأمريكي الخرافات التاريخية والسلالية التي تغطي الاستغلال والقمع للشعوب الأفريقية

والأوروبية والآسيوية والهندية الأمريكية خلال هذين القرنين. وكوسيلة لطمس هذه الأحداث، ظهرت أسطورة تضامن البيض وأصبحت تسيطر على الأحاسيس الأمريكية. وكان ذلك بمثابة كذبة معظم الوقت، ولكنها كانت مغرية بصورة مرعبة. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، كانت قد حلت سلفا محل الماضي وشوهت علاقات ذلك الوقت. واستمرت في مكانها.

تدمير الماضي الأفريقي

ومع ذلك، ولأسباب عديدة، فإنه من الإنصاف أن نقول إن أهم عمليات طمس ماضي العالم الجديد كانت تتمثل في العمليات التي أثرت على الأفارقة. حيث أصبح الأفارقة "العدو المحلي"[٤٥] الأكثر استمرارا، وبالتالي أصبحوا الموضوع الذي يدور حوله مفهوم للإنسانية أكثر تحديدا وخصوصية وشمولا. فقد كان كلمة "نجرو Negro"، أي صاحب اللون الأسود، تمثل نفيا للأفريقي، وكلمة جامعة لمعارضي الرجل الأبيض. إذ إن تعبير الزنجي - على عكس مصطلحات "الأفريقي" أو "البربري المغربي" أو "الحبشي" - لا يشير إلى أي وجود محدد في الزمان، أي في التاريخ، ولا في المكان، أي في الجغرافيا العرقية أو السياسية. فالزنجي ليس له حضارة ولا ثقافات ولا أديان ولا تاريخ ولا مكان، وحتى لا إنسانية يمكن أن تتطلب الاعتبار.[٤٦]

فمثل نظرائهم الأوروبيين الشرقيين والغربيين والوسطيين في عصرهم، ومثل القرويين الفرنسيين والسلاف والشعوب السلتية، و"الهنود" الأمريكيين مؤخرا، كان الزنوج يمثلون مجموعة بشرية هامشية، أي مجموعة من الأشياء القابلة للاستخدام و/أو الاستبعاد. وبالطبع لم يكن هذا مجرد تدريب بسيط في مشروع سلالي أو أخلاقي، لأنه كان يرتبط مباشرة بكم كبير جدا

من العمالة المنظمة والموجهة بطريقة استثنائية جدا. إذ إن عمل الرقيق في العالم الجديد - كما رأينا في المجتمعات قبل الرأسمالية في أوروبا - كان عنصرا مؤثرا في التطور المادي والتجاري والرأسمالي الذي تحقق. ومع إفساح المجال قليلا للخيال، ذهب ماركس في خطاب إلى أنينكوف P. V. Annenkov إلى ما يلي:

"يعتبر الرق المباشر بمثابة محور التصنيع اليوم، مثل الآلات والائتمان، إلخ. فبدون الرق لن يكون هناك قطن، وبدون القطن لن تكون هناك صناعة حديثة. فقد أعطى الرق قيمة للمستعمرات، والمستعمرات خلقت التجارة العالمية، والتجارة العالمية تعتبر الشرط الضروري لصناعة الآلات كبيرة الحجم... ولذلك فإن الرق يمثل فئة اقتصادية ذات أهمية قصوى".[٤٧]

وعلى الرغم من أن إعلان ماركس كان مجرد تبسيط شديد، فإنه أظهر نقطة استمرت طويلا، بل وسيطرت إلى حد ما على محاولات توصيف العلاقة بين عمل الرق والتصنيع:[٤٨] كانت صورة الزنجي الوحشي الأبكم الثقيل المناسب للرق فقط ترتبط بالمتطلبات الاقتصادية والتقنية والمالية للتطور الغربي من القرن السادس عشر فصاعدا.[٤٩] إذ إن عمل الرقيق، وتجارة الرقيق، والأسواق التي ارتبطت بهما من أجل السلع الرخيصة، وبناء السفن وتجهيزها، والأساطيل التجارية والحربية، وعلم الخرائط، واستغلال الغابات، والصرافة، والتأمين، والتحسينات التقنية في الاتصال، والإنتاج الصناعي (مثل التعدين) كل ذلك قد غير كثيرا من اقتصاديات هذه الدول المشاركة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الاستعمار والإنتاج باستغلال عمل الرقيق.[٥٠] ولم تكن التجارة فيما بين أوروبا وأفريقيا والعالم الجديد أكثر أهمية منها في إنجلترا. وفي ذلك يقول إيريك وليام:

"منحت التجارة الثلاثية... حافزا ثلاثيا للصناعة البريطانية. حيث كان البريطانيون يشترون الزنوج بالمصنوعات البريطانية، وينقلون إلى المزارع، وكانوا ينتجون السكر والقطن والنيلة والمولاس والمنتجات المدارية الأخرى، والتي أدى تصنيعها إلى ظهور صناعات جديدة في إنجلترا؛ بينما وفر استمرار الزنوج وأسيادهم في المزارع سوقا أخرى للصناعة البريطانية، وللزراعة في العالم الجديد والصيد في نيوفوندلاند. وبحلول ١٧٥٠، كان من الصعب العثور على مدينة تجارية أو صناعية في إنجلترا لم تكن مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالتجارة الاستعمارية المباشرة أو الثلاثية. إذ كانت الأرباح المحققة تمثل أحد المصادر الرئيسة لتراكم رأس المال في إنجلترا التي مولت الثورة الصناعية".[٥١]

ولم تكن إنجلترا فريدة في هذا المجال، ولم يكن الإنجليز وحدهم في الوصول إلى المرحلة التي كان ظهور ممثلي "السلالة السوداء" فيها يعتبر أمرا مريحا. حيث يتمثل أحد المعايير البسيطة لأهمية العمالة الأفريقية التي تكمن وراء تكوين هذا الكائن في أنه "قبل القرن التاسع عشر... وطوال ثلاثمائة سنة، كان عدد الأفارقة الذين يعبرون الأطلنطي كل سنة أكثر من الأوروبيين".[٥٢] وكانت المصالح المتراكمة والأنشطة التجارية للطبقات الحاكمة وبرجوازية البرتغال وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا وبريطانيا، هي فقط التي استطاعت تحقيق هذا القدر الكبير من الاستغلال.

وقد كان هذا "الزنجي" مركبا أيديولوجيا متميزا تماما عن صور الأفارقة الذين سبقوه. وكان يختلف في الوظيفة ثم في النوع في النهاية. وبينما كان الأفارقة ظاهرة مخيفة للأوروبيين سابقا بسبب ارتباطهم التاريخي

بحضارات أعلى ومسيطرة و/أو معادية للمجتمعات الغربية (وأحدثها حضارة الإسلام)، فقد أصبح مؤشر تميز السود الآن يشير إلى اختلاف النوع، وإلى مصدر طاقة يمكن استغلاله (طاقة العمل) ولا يهتم بالمتطلبات التنظيمية للإنتاج ولا يشعر بأوضاع العمل غير الإنسانية. فخلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة، فيما بين بدايات الإدراك الأول "للإثيوبي" وظهور "الزنجي"، انعكست العلاقة بين الأفريقي والأوروبي.

العلاقات قبل الحديثة بين أفريقيا وأوروبا

نظرا لأن إدراك المرء للماضي غالبا ما يتأثر من ناحية المفاهيم بالوعي الذي يمثل عالمه الطبيعي للأشياء والعلاقات في الحاضر، فإنه من الضروري أن نتذكر أن صدام "السلالات" البيضاء والسوداء كان قد بدأ منذ فترة طويلة قبل أحداث القرنين الخامس عشر والسادس عشر التي سبقت الرق الأفريقي الحديث.[٥٣] وكان طمس الماضي الأفريقي من الوعي الأوروبي يمثل ذروة عملية دامت لألف سنة في أعماق الهوية التاريخية الأوروبية.

وطوال أكثر من ألف سنة قبل بداية الحقبة المسيحية، كانت حضارات شرق وشمال البحر الأبيض تواجه على الأقل إحدى "الحضارات العليا" في أفريقيا.

البحر المتوسط: مصر واليونان وروما

كانت مصر القديمة أرض مزارعين وفلاحين أساسا، وكان اهتمامها الرئيس ينصب على عطاء النيل. من المرجح أن الدولة ظهرت كنتيجة

مباشرة للمتطلبات الإدارية المتضمنة في تخطيط ورقابة المياه التي يأتي بها النيل أو التي لا تأتي خلال فترة فيضانه. وأصبحت الخزانـات والحـواجز والقنوات والسدود تمثل وسائل الحفاظ على الأرض خلال فتـرات الجفـاف المتكرر. وبمجرد أن تأسست الدولة، أصبحت أساس النظام العـالمي الأول، ونشرت الحضارة المصرية مع النيل إلى أراضي البحر المتوسط الـشرقية والشمالية.(٥٤)

وفي وقت مبكر مع الأسرة المصرية التاسعة عشر (١٣٢٠-١٢٠٠ ق م)، سجلت لوحة الفرعون مرنبتاح الأعداء الذين هزمتهم مـصر وفـي مقدمـة هـؤلاء الأعـداء: اللوكـو Lukko (الليثيـين Lycians)، والتيـريش Teresh (التارسيان Tarsians)، والأكاياواشا Akaiawasha (الأخيون Achaeans) وكانت هذه الشعوب توصف بأنها مرتزقة أو حلفاء للحيثيين (والأكثر احتمالا أنهـم مرتزقة).(٥٥) بل إن التقاليد الإغريقية ذاتها تتحدث عن تأسيس مـستعمرات مصرية (أتيكا Attica، أرجوليس Argolis) في اليونان في القـرنين الخـامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد.(٥٦)

ومرت سبعمائة سنة قبل أن تكشف الأدلة التاريخية المحفوظة حاليا عن مواجهة أخرى. ففي القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، خـدم المرتزقـة اليونان من أيونيا Ionian وكاريا Carian كلا من الفرعـون بـسماتيك الأول (٦٦٣-٦٠٩ ق م) والفرعون بسماتيك الثاني (٥٩٤-٥٨٨ ق م).(٥٧) وكانوا يستخدمون - من بين الواجبات الأخرى - لتزويد الحامية في ثغر تل الفرما (بليسيوم Pelusian في شمال غرب سيناء)، وكانوا يـشجعون مـع التجـار الإغريق على الاستقرار في نوكراتيس Naucratis قرب عاصمة مصر آنذاك

سايس Sais (صا الحجر(*)) في غرب دلتا النيل. ويعتبر استقرار الإغريق في نوكراتيس أمرا طريفا، لأنهم قبل ذلك الوقت كانوا محرومين من الإقامة في مصر. وكان هذا الاعتماد على المرتزقة الأجانب للدفاع عن الحدود أحد أعراض ضعف الدولة المصرية التي استسلمت للآشوريين بعد ذلك بأقل من نصف قرن.[٥٨] ففي القرن الخامس قبل الميلاد، تتبع هيرودوت - أول مؤرخي أوروبا - المستوطنات الاستعمارية المصرية حتى إقليم البحر الأسود الشمالي. وأشار هيرودوت إلى وجود مصري ممثل في شعب أسود وأسماهم الكولش Colchians (أصحاب بشرة سوداء وشعر صوفي)[٥٩] وكانوا يستوطنون ما تمثله اليوم دولة جورجيا الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود.

وكان هيرودوت يعتقد أن الكولش كانوا بقايا جيش مصري بقيادة "الملك سيزوستريس" (ومن المعتقد أن هذا الجيش كان قد ساهم في تكوينه كل من سيتي الأول (١٣١٣-١٣٠١ ق م) ورمسيس الثاني، ١٣٠١-١٢٣٤ ق م).[٦٠] وذكر أيضا مشاركة الجنود الإثيوبيين تحت قيادة زيركسيس(**) Xerxes في الحروب الفارسية[٦١]. ويمكن تقبل إشارات هيرودوت إلى شعوب سوداء بصورة حرفية، لأن رحلاته المصرية (حوالي ٤٤٠ ق م) أخذته إلى أعالي النيل حتى فيلى (جزيرة مقابل أسوان الحديثة)، مما جعله يتعرف جيدا على الشعب الذي سماه الإثيوبيين.

ومن القرن السابع قبل الميلاد فصاعدا، بدأ القانون والعلوم والدين والفلسفة المصرية في إحداث تأثيرات جد كبيرة على تطور الفكر الأيوني

(*) "صا الحجر" في غرب الدلتا غير "صان الحجر" في شرق الدلتا. (المترجم)

(**) يعرف في بعض المصادر العربية باسم " خشايار شاه" (المترجم)

والإغريقي.[٦٢] وأصبحت "الأسرار الحضارية المصرية" - والتي كانت قد طردت من اليونان قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة، أثناء الصراع ضد الإمبريالية المصرية سابقا - أساسا لتطور الإغريق من جديد. حيث ساعدت هذه "الأسرار" - التي كانت تمثل غنائم دولة مفتتة - على تقدم التطور الفكري والعلمي، ولم تعد مجرد تقنية مطورة لأغراض الاستغلال الإمبريالي.[٦٣]

وبعد ذلك بقرنين، يبدو أن أفلاطون في كتابه "تيمايوس Timaeus" - عندما كان يعيد تركيب أسطورة أتلانتس Atlantis (التي ربما أخبر بها الكهنة المصريون سولون خلال زيارته لمصر) - قد تقبل بدون تردد فكرة أن المصريين كانوا معلمين للإغريق.[٦٤] وكما قالت مرجريت ستيفانا دروزر Margaret Stefana Drowser: "شعر الإغريق بأن حضارتهم كانت حديثة وقليلة الخبرة بالمقارنة بالمهارات والتقاليد العريقة لهذه الأرض القديمة حيث لا يزال الماضي يعيش في الحاضر".[٦٥]

وفيما يتعلق بأصول الحضارة المصرية ذاتها، كان هناك اتفاق بين المصادر المصرية وغير المصرية في العصر القديم. ويذهب المؤرخ الأفريقي شيخ أنتا ديوب إلى:

"المصريين أنفسهم يعترفون - ومن المؤكد أنهم يجب أن يكونوا أكثر تأهيلا من غيرهم للحديث عن أصولهم - بدون لبس أن أسلافهم جاؤوا من النوبة وقلب أفريقيا. حيث كانت أرض الأمام[*] Amam، أو أرض

(*) من غير الواضح ما المقصود بأرض الأمام Amam التي يشير إليها المؤلف فالمعروف تاريخيا أن هذه المنطقة كانت تعرف باسم "أرض يام Yam" وكان يعتقد لفترة طويلة أنها منطقة النوبة وترجح الآراء الحديثة أنها أقرب إلى أن تكون منطقة جبل العوينات في جنوب غرب مصر. (المترجم)

الأسلاف... وهي كل منطقة كوش Kush جنوب مصر، تسمى أرض الآلهة لدى المصريين".(٦٦)

وعلى نحو ما يذهب سنودين في دراسته فقد توصل ديودور الصقلي، الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد، إلى نتيجة مماثلة، وهي النتيجة التي تقبلها علماء الحفائر والمصريات الغربيون مؤخرا فقط:

"كما يقول ديودور،... كان الإثيوبيون المتحضرون أول من عبدوا الآلهة التي تمتعوا بنعمها [هكذا]، كما يتضح من حقيقة أنهم كانوا أحرارا من الغزو الأجنبي. فلم يكن هؤلاء الإثيوبيون عباقرة في الدين فقط، كما يخبرنا ديودور، بل كانوا أول من ابتكر الكثير من العادات التي كانت تمارس في مصر أيضا، لأن المصريين كانوا يستعمرون الإثيوبيين. وعلى سبيل المثال، فقد أخذ المصريون عن الإثيوبيين المعتقدات المتعلقة بالملوك وطقوس الدفن وأشكال التماثيل وأشكال الحروف".(٦٧)

وكما يمكن أن يتوقع المرء، فإنه طوال أكثر من ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المصري قبل المسيحية لم تكن العلاقة بين مصر الدنيا ومصر العليا مستقرة قط. فقد كانت المملكة الأولى أو الثانية هي المسيطرة. وخلال القرنين الثامن والسابع، وربما للمرة الأولى، فرض الجنوب (مصر العليا، أو النوبة، أو إثيوبيا) سيطرته، وهزم مصر الدنيا الحاكمة حتى تاريخ هزيمة مصر أمام الآشوريين في ٦٧١-٦٦١ ق م.(٦٨) ولا شك في أن علماء المصريات الغربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين وجدوا أن الألفي سنة التالية كانت أكثر قابلية للعلوم الكونية والنزعة العرقية مقارنة بماضي مصر الأكثر عمقا.

وبعد الإغريق جاء الرومان وورثوا الحضارة الإغريقية المسيطرة في شمال البحر الأبيض. وبمجرد أن تخطت حضارتهم أبعاد المغامرة الهيلينية، كانت معرفتهم بأفريقيا أكثر غزارة. وكما كان الحال بالنسبة للإغريق، كان الأفراد الأكثر اندماجا في الجهاز الإمبراطوري الروماني – القيادة العسكرية، البيروقراطية الإدارية والاستعمارية، والمفكرون المسئولون عن تعليم وتدريب ورثة الطبقة الحاكمة – هم الذين حققوا أكبر تواصل مع القارة. ولكن معرفة الإغريق الحقيقية بأفريقيا كانت مقصورة على مناطق النيل العليا (الجنوبية) والدنيا (الشمالية) إلى حد كبير. ومع ذلك، حقق الرومان الألفة مع الشعوب الواقعة على طول النيل، ولكنهم أقاموا أيضا علاقات مع شعوب شمال غرب أفريقيا (أي ليبيا وما وراءها) وجنوبا حتى الكاميرون والسودان.[٦٩]

وكما فعل الإغريق في مصر، وجد الرومان في شمال أفريقيا شعوبا مثل الجارامنت[*] Garamantes[*] الذين كانوا سودا أو مختلطين. وتميل الأدلة التي وجدت في قبرص عن فترة سابقة – القرن السادس قبل الميلاد – إلى تأكيد دور السود حتى في التاريخ المصري المتأخر.[٧٠] وقد واجه الرومان

(*) الجارامانت Garamantes، كلمة مشتقة على الأرجح من لغة البربر في شمال أفريقيا من كلمة Igherman، والتي تعني سكان المدن. أو من كلمة igarraman وتعني "شعوب مقدسة". وهي جماعة سكنت الصحراء واستخدمت نظام الري الجوفي بطريقة شديدة الإتقان، وقاموا بتأسيس مملكة بربرية مزدهرة في منطقة فزان والتي تقع حاليًا في صحراء ليبيا. شكلوا قوة محلية في الصحراء في الفترة من عام ٥٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ٧٠٠ ميلادية. هناك القليل من المعلومات المكتوبة عن الجارامنت، حتى إن اسم "جارامنت" هو اسم يوناني تبناه الرومانيون بعد ذلك. تأتي معظم المعلومات من مصادر يونانية ورومانية، وكذلك الحفريات الأثرية في المنطقة، وعلى الرغم من ذلك لا يزال هناك مناطق واسعة لم يتم التنقيب فيها بعد. هناك مصدر مهم آخر للمعلومات، وهي اللوحات الفنية الحجرية الكثيرة، والتي غالبا تصور الحياة قبل ظهور العالم. (المترجم)

أيضا جنودا سودًا في جيش هانيبال (حنا بعل) القرطاجي، الذي غزا أوروبا في ٢١٨ ق م. ومن المعروف أيضا أن الرومان أرسلوا حملات عسكرية وأقاموا قواعد عسكرية وعلاقات دبلوماسية مع شعوب جنوب مصر.

وكانت هذه الجهود تساير محاولات تأمين الحدود الجنوبية لمستعمرتهم المصرية والحفاظ على طرق التجارة إلى مروى(*) والصحراء الشرقية ووسط أفريقيا.(٧١) ومع ذلك، كان السلام خادعا، كما يتضح من الحروب المتعاقبة التي نشبت ضد جيوش الملك الإثيوبي كانديس Candace خلال الثلث الأخير من القرن الأول قبل الميلاد. وكذلك خاض البليميون Blemmyes – وهم شعب إثيوبي – حروبا مستمرة ضد الجيوش الرومانية من ٢٥٠ م إلى ٥٤٥ م.(٧٢) أما في غرب الدلتا المصرية، فربما وصلت الحملات العسكرية الرومانية في ٨٦ م وبعدها بسنوات قليلة حتى بحيرة تشاد.(٧٣) ويبدو أن الهدف كان يتمثل أساسا في الدفاع عن خطوط وقوافل التجارة، على الرغم من أن الجهود المشتركة مع جارامنتيين ربما كانت ترتبط مباشرة باهتمام الدولة بالحلفاء الأفارقة لروما. ومع ذلك، وعلى الرغم من علاقات الرومان الأقل ودية مع الأفارقة، مثل أسلافهم الإغريق، فإنهم لم يكن لديهم تحيزات لونية أو سلالية. وفي ذلك يقول جيرشتاد:

"لم يتسبب التفاعل الاجتماعي بين الإغريق والرومان في ظهور تحيز لوني لدى مجتمعات غربية متأخرة معينة. إذ إن الإغريق والرومان لم

(*) مدينة تاريخية في شمال شرق السودان على الضفة الشرقية لنهر النيل، كانت المدينة عاصمة مملكة كوش لقرون طويلة. وبصفة خاصة خلال الفترة التي ازدهرت فيها مملكة نباتا/مروى، والتي امتدت من عام ٨٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٥٠ ميلادية. لم يتبق من المدينة اليوم سوى أطلال، إضافة إلى المعلم المميز المتمثل في أكثر من ٢٠٠ هرم بنيت على الطراز النوبي الفريد. (المترجم)

يطوروا معتقدات تفوق البيض التي لا تؤيدها الحقائق أو المبررات النظريـة لحاجز اللون. وأدى وجود أعداد كبيرة من الزنوج في مجتمع أبيض، طبقـا لبعض الرؤى الحديثة، إلى ظهور مـشاعر معاديـة للزنـوج. ولـم يكـن الإثيوبيون من المشاهد النادرة في العالم الإغريقي الروماني، وخاصة العالم الروماني. ومع ذلك، لم يكن هناك ذلك التحيز اللوني الشديد الـذي يـشهده العالم الحديث. وعلى الرغم من استحالة تقدير حجم العنصر الزنجـي فـي العالم التقليدي من حيث الإحصاءات الدقيقة، فإنه من الواضـح أن الـسكان السود في اليونان وإيطاليا كانوا أكثر مما كان يعتقد بصفة عامة.[٧٤]

عصور الظلام: أوروبا وأفريقيا

بعد تفكك الإدارة الرومانية، في القرن الخامس الميلادي، بـدأت معرفـة الحقبة الأفريقية القديمة أو الحقب الأكثر معاصرة في التلاشي بصورة سـريعة بين الشعوب الأوروبية. فبالنسبة للأوروبيين الذين كانوا يعيـشون وراء البحـر المتوسط، لم تكن هذه المعرفة واسعة على أي حال، إذ كانت مقـصورة علـى أولئك الذي كانوا مطلعين على شئون الدولة، وعلى القليلين الذين كانوا يشاركون في التقاليد الأدبية المتناثرة. أما في أوروبا الغربية - التي كانت شعوبها معزولة عن مراكز الحضارة بحكم الجغرافيا، وصعوبات الانتجاع وإعادة الاسـتيطان، وغياب المراكز الحضرية، وتأخر تطورها، وسيطرة الشعوب الإسلامية علـى منطقة البحر المتوسط لاحقا - فقد أثبت كل ذلك أنه كان كارثيا بالنـسبة إلـى معرفتهم بالشعوب التي كانت وراء الهوامش الشرقية لشبه الجزيرة الأوروبيـة. وكمثال على ذلك، في منتصف القرن الثالث عشر، لاحظ بارثولوميو أنجليكوس **Bartholomew Anglicus** بقدر من اليقين غير المبرر أن:

"إثيوبيا، أرض الشعب الأزرق، حصلت على اسمها من لون شـــعبها. وذلك لأن الشمس قريبة، وهي تحمصهم وتشويهم. وهكذا فإن لون الـــشعب يظهر قوة النجم، لأن هناك حرارة شديدة... ويوجد في هذه الأرض شعوب كثيرة ذات وجوه متعددة تتشكل بصورة عجيبة ومرعبة. وهناك إثيوبيتـــان، إحداهما في الشرق والأخرى هي موريتانيا في الغرب، وهذه أقرب لإسبانيا. ثم هناك نوميديا(*) وإمارة قرطاج. ثم توجد جيتولا Getula، وأخيرا في مقابل مسار الشمس هناك الأرض التي تسمى إثيوبيا المحروقـــة Adusta، وتقـــول الخرافات إنه بعد المناطق المقابلة على سطح الأرض هناك شـــعوب تـــضع أقدامها مقابل أقدامنا".(٧٥)

وهكذا أصبحت الحضارات القديمة في العالم القديم في آســـيا وأفريقيـــا بمثابة أساطير محفوظة بصورة مستمرة في التواريخ الغامـــضة والمبهمـــة للروايات الإنجيلية. وبينما كانت المعرفة تصبح أكثر اقتصارا على الأديـــرة والرهبان، اتسمت الأعمال العلمانية بندرة معينـــة بـــسبب التـــزام الكنيـــسة بتفسيرها للتاريخ بما يتفق مع مفاهيمها عن الإرادة الإلهية.(٧٦)

وأصبحت النزعة العرقية أساسا لمعرفة العالم، وكانت هذه النزعة قـــد أصبحت مشروعة بسبب سلطات الكنيسة وجهلها، وهما مصدران لمعرفـــة العصور الوسطى. وفي النهاية، ومع تحول الأيديولوجية المسيحية إلى رؤية عالمية، كان يكفي أن تعرف أن الإنسانية كان يمكن تقسيمها إلـــى كيـــانين: جيش "النور" وجيش "الظلام"، وفي ذلك يقول شيلدون فيلون:

(*) نوميديا Numidia، مملكة أمازيغية قديمة في شمال أفريقيا قامت في الفترة مـــن ٢٠٢ قبـــل الميلاد وحتى ٤٦ قبل الميلاد، وكانت تقع فيما يقابل اليوم الجزائر وجزء صغير من غـــرب تونس. (المترجم)

"سواء كان الناس يكتبون عن "الإمبريالية المسيحية" أو "مملكة أوروبا" أو مؤخرا عن "المسيحية المجتمعية"، يكون هناك نفس الدافع للفصل بين ضمانات "الداخل" المعروفة، والظلام والقوى المخيفة للوثنية والهرطقة والانقسام التي تقع وراء الحدود".(٧٧)

لقد كانت أوروبا عالم الرب، وموضع رعاية السماء؛ وكان بقية البشر ينتمون في ذلك الوقت للشيطان. وطوال ألف سنة أو أكثر، كان الوعي بالتاريخ العالمي في أوروبا الغربية يتحول إلى التصوف والشياطين والأساطير.(٧٨)

وفي الواقع، وبصورة واضحة جدا، كانت التصورات الأوروبية للتاريخ- سواء اللاهوتية أو شبه اللاهوتية - تنفي احتمال حقيقة وجود حضارات سابقة. وكان كمال الإنسانية، أي الرؤية الأخروية، يستبعد احتمال أن تكون الحضارة قبل المسيحية قد حققت أي تطور ملحوظ في القانون الأخلاقي أو التنظيم الاجتماعي أو التاريخ الطبيعي (العلوم). وطوال ٦٠٠ سنة أخرى، كانت وصفة كاسيودورس Cassiodorus في القرن السادس لدفع "الشيطان وعمله للهرب" تسيطر على تعليم ومعرفة العصور الوسطى. وفي ذلك تنقل دراسة نورمان كانتور ما قاله كاسيودورس على النحو التالي:

"دعونا نحن الذين نتطلع بإخلاص لدخول الجنة من خلال المحاولات الفكرية نعتقد أن الرب يصرف كل الأمور حسب مشيئته، ودعونا... نرفض وندين أباطيل الحياة الحالية لنستطلع بحرص كتابات "الكتب الإلهية" بترتيبها الطبيعي، بحيث إنه بإرجاع كل الأشياء إلى عظمة الخالق يمكننا أن نطلع على الأسرار السماوية التي يبدو أن هؤلاء الناس كانوا يبحثون عنها بجد من أجل المجد البشري. ولذلك، وكما يقول المبارك أوجستين وغيره من الآباء

المطلعين، يجب ألا ترفض الكتابات الدنيوية بازدراء. ومع ذلك، فإنه من المناسب كما يقول الكتاب المقدس أن "تفكر في القانون (السماوي) ليل نهار"، لأنه على الرغم من أن بعض المعرفة القيمة ببعض الأمور تتحقق أحيانا من الكتابات الدنيوية، فإن هذا القانون هو مصدر الحياة الأبدية".[٧٩]

الإسلام وأفريقيا وأوروبا

من المثير للسخرية، أنه في جنوب جبال البرانس Pyrenees (إسبانيا) وحول البحر المتوسط الذي يمتد وراء نهر السند Indus، كان الدارسون بين الأحفاد الرمزيين للنبي إسماعيل، الابن الأول للنبي إبراهيم، قد أصبحوا الورثة المباشرين للعلم والفكر القديم. إذ يقول ليرنر ومهدي Lerner and Mahdi إن هذا كان ممكنا بسبب حقيقة أنه في الإسلام كان استيعاب "العلوم الحديثة والدخيلة" مسألة قانونية وليست دينية، وهكذا كان يتساوى المتخاصمون أمام القضاء. وكانت القضية تتعلق بما إذا كانت هذه العلوم تتعارض مع المعتقدات المستقرة في الشريعة كما يحددها القضاة. ويذكران أيضا أنه كان هناك غياب للسلطة الكنسية في الإسلام، وهي السلطة التي كان يمكن أن توازي الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى من حيث اهتمامها "بالهرطقات" المعارضة.[٨٠] ومن المعتقد أنه ربما كان الأهم من ذلك يتمثل في روح الثقافة العربية، وفي ذلك يقول رودنسون:

"تقبل وتشجع التقاليد العربية على تبني أية قبيلة للناس من جميع الأجناس وكل الجنسيات، حيث يصبحون عربا تماما... فقد انضم فرس وسوريون ومصريون وبربر وقوط وإغريق وغيرهم إلى العرب، واعتبروا أنفسهم عربا وأصبحوا عربا فعلا. ولكن هناك أعدادا كبيرة أخرى أصبحوا مسلمين".[٨١]

وبينما تجنبت السلطات الروحية، وكذلك السلطات الزمنية غالبا، في المسيحية الكثير من العلوم التي تراكمت لدى الحضارات قبل المسيحية، كان الدارسون المتحدثون بالعربية يعتبرون هذه المعرفة بمثابة غنيمة مشروعة من الحروب التي تنتصر فيها الجيوش الإسلامية. وهكذا بدأت الثقافة العربية تستوعب الفكر العلمي والفلسفي الأكثر تقدما من الثقافات المهزومة، وذلك كما فعلت مع الثقافات الفارسية والسريانية السابقة التي تم امتصاصها على نحو ما حدث مع عناصر مماثلة من الثقافة الإغريقية بمجرد طردها من روما المسيحية في القرن السادس، وكما فعل الإغريق قبلهم مع النتاج الفكري للثقافتين المصرية والبابلية.

ومع توفر الحماية والتسهيلات مع توسع الدول الإسلامية، استطاع الدارسون العرب فيما بين القرنين السابع والعاشر الوصول إلى أعمال أسلافهم في البحر الأبيض. وكانت أعظم فترة للترجمة إلى العربية من اليونانية والسنسكريتية والفارسية والسريانية فيما بين ٧٥٠ و ٩٠٠ م.[٨٢] ومع ذلك، يبدو أن هذه الترجمات كانت انتقائية، لأن الأعمال التاريخية أهملت بصفة عامة خلال المرحلة المبكرة من الاستيعاب. وأظهر المترجمون الذين كان معظمهم من الأطباء اهتماما يركز بصفة عامة على الأعمال التي في مجالات الطب والرياضيات والفلك.

وفي الشرق الإسلامي، كان المركز الفني والفكري ينتقل من دمشق وبغداد إلى القاهرة، حيث تراكمت بقايا غزوات جيوش الأتراك السلاجقة والصليبيين المسيحيين والبربر والبدو العرب والمغول. وفي الغرب، أي المغرب، كانت أعظم مراكز الثقافة الإسلامية موجودة في شبه جزيرة

أيبيريا. حيث كانت أعمال الترجمة تتركز في إسبانيا، وخاصة في طليطلة Toledo (التي استردها "المسيحيون" في ١٠٨٥ بعد أكثر من ٣٠٠ سنة من الحكم الإسلامي). وفي القرن الثاني عشر، وعقب ترجمات القرن الحادي عشر من العربية إلى اللاتينية - التي قام بها قسطنطين الأفريقي (توفي في ١٠٨٧) - للكتابات الطبية، أصبح الدارسون الأوروبيون وجها لوجه مع معرفة فلسفة وطبيعة ورياضيات وطب وكيمياء وفلك العالم القديم لأول مرة في حوالي ألف سنة:

"في بداية القرن الثاني عشر، كانت معارف الإغريق متاحة باللغتين اليونانية والعربية، ولكنها كانت أكثر انتشارا باللغة العربية. بل إن الكثير من الأعمال الإغريقية كانت قد فقدت أصولها، ولكنها كانت متاحة في الترجمات العربية. وعندما أصبح الغرب ناضجا بما يكفي للشعور بالحاجة إلى معرفة أعمق، وعندما أراد أن يجدد اتصاله بالفكر القديم، تحول إلى المصادر العربية.

وهكذا كانت المهمة الفكرية الرئيسة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر تتمثل في الترجمة. إذ إن كثيرا من الطاقة الفكرية للعصور الوسطى لم يستخدم في إنتاج قيم فكرية جديدة، ولكن في نقل القيم القديمة. فقد كانت المعرفة لا تكتسب بالبحث الحديث والمستقل، بل بالترجمة من العربية أساسا".(٨٣)

وبحلول نهاية القرن الثاني عشر، كانت قد تأسست جامعات ساليرنو وبولونيا في إيطاليا وباريس ومونبلييه في فرنسا، وأكسفورد (وكامبردج في القرن الثالث عشر) في إنجلترا على هذا الأساس الاستثنائي تماما.(٨٤)

ومع ذلك، لم يقتصر دور الحضارة الإسلامية على كونها مجرد قناة متأخرة في تطور الحضارة الغربية. إذ إن شمال أفريقيا التي كانت تمثل

نقطة النهاية لتجارة الذهب مع غرب أفريقيا كانت محظورة باستمرار على التجار الأوروبيين. ويبدو أن الهدف من ذلك كان يتمثل في الحفاظ على سر مصادر المناجم وطرق التجارة عبر الصحراء. ومع ذلك، بدأ التجار العرب في القرن العاشر في استخراج ثروة أكثر قيمة: أي الرقيق. فباستغلال الموانئ التي على ساحل البحر الأحمر، طوال التسعمائة سنة التالية، نهب تجار الرقيق العرب من المجتمعات الأفريقية ما يقرب من ١٧ مليون نسمة.(٨٥)

ومع ذلك، يمثل هذا الأمر قصة أخرى، وربما يمثل تاريخا آخر. ولكن المهم هنا هو رسم المسار التاريخي التالي الذي يتتبع بعض الآثار المتتالية للحضارة الإسلامية على الشعوب الأوروبية، وتواريخها ومؤسساتها. وبالطبع فإن الشيء المفترض هنا هو أن تأثير الإسلام على الأوروبيين يتخطى المعرفة المستقرة بالحضارة الإسلامية باعتبارها "كنز المعرفة القديمة". إذ كان هذا مجرد مفجر كبير. فهناك قوة أكبر كثيرا واجهت المصير الأوروبي.

ولم يكن الأمر يقتصر على مجرد وجود المسلمين كثيرا بين الشعوب الأوروبية باعتبارهم أحفاد العبرانيين الأسطوريين أو وسيلة لنقل المعارف القديمة. فالإسلام – كعقيدة تحتضن حضارة متعددة السلالات تضم شعوبا من الجزيرة العربية وأفريقيا والشرق الأدنى والشرق وجنوب أوروبا – أصبح مشهورا بجيوشه. وكان الأفارقة بارزين في جيوشه منذ البداية. فقد حارب الأفارقة في الحروب العربية قبل الإسلام؛ وخلال القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي)، كان وجودهم ملحوظا سلفا في إمبراطوريات

أوروبا.[٨٦] وبعد ذلك بأربعة قرون، عندما شنت المسيحية هجمة مضادة شرسة ضد العدو الذي كان مجرد وجوده يمثل سخرية من معتقدات أوروبا، ويضعف حياتها اليومية ماديا، أي الإسلام، كان "شديدو السمرة" هوية مألوفة. وكان للمواجهة المسيحية مع الإسلام انعكاسات سلالية واقتصادية.

وبناء على قدراتها اللوجستية، أسفرت الحروب الصليبية المسيحية - بداية من القرن الحادي عشر ضد "المسلمين" في القدس - عن ظهور دول المدن الإيطالية التجارية في العصور الوسطى. حيث سيطرت هذه المراكز التجارية على تجارة جنوب وغرب أوروبا مع العالم غير الأوروبي حتى منتصف القرن الرابع عشر.[٨٧] فمع بدايات ذلك القرن، وعلى الرغم من أن الجبايات البابوية والمَلَكية من أجل الحروب الصليبية زادت من حيث العدد والتكرار، فإن الحملات الصليبية الحقيقية كانت قد انتهت تماما تقريبا.

فبمجرد أن خبت الحماسة الدينية والتعصب الذي غلف مجزرة الحروب الصليبية، وبمجرد إشباع أو استيعاب طموحات ملاك الأراضي الإقطاعيين النورمان والفرنج وحلفائهم من الكهنة، بسبب ثقل الإدارات البيروقراطية وإغراءات الفساد، تحولت التجارة البحرية للدول الإيطالية الساحلية من تمويل الحرب ونقل الجيوش وتمويل الغزو إلى أساليب التجارة التقليدية والقرصنة طبعا.[٨٨] وتوسعت أوروبا التي كان سكانها يتزايدون بسبب ارتفاع إنتاجية الغذاء المرتبطة بتقنية الزراعة الجديدة، ونقل جيوشها الغازية، وربما التغيرات المناخية الحميدة.[٨٩]

ووسعت أوروبا نفسها أفقيا من خلال تأسيس مدن جديدة وإعادة استيطان مدن قديمة، كما وسعت نفسها جغرافيا بالاتجاه شرقا نحو أراضي

البروسيين والسلاف وبيزنطة المسيحية، وغربا نحو إنجلترا، وجنوبا إلى شعاب شبه الجزيرة الأيبيرية والإيطالية.(٩٠) وكان كبار التجار المسيحيين واليهود، والمصرفيون في البندقية وفلورنسا وجنوة - الذين كانوا منهمكين سلفا في فرص ومعاملات واستثمارات الفترة السابقة - يقاومون بنجاح اشمئزازهم من المسلمين الكفار وتجارتهم البشعة.(٩١)

وعقب الممارسة المنتشرة جدا بين الكهنة لشراء الإعفاءات لإضفاء الشرعية على ذريتهم غير الشرعية، اشترى التجار هذه الإعفاءات من أجل معاملاتهم التجارية مع الكفار. (وربما قام البابا يوحنا الثاني والعشرون (١٣١٦-١٣٣٤) باستخدام أحدها، لو لم يكن حالفه الحظ ليكون معصوما، لأنه اشترى أربعين قطعة من القماش المذهب من دمشق). وفي تلك الأثناء، كان ذهب أفريقيا والحرير والتوابل والسكر من الشرق وآسيا الصغرى يقدر لدى الإيطاليين ونظرائهم المسلمين مقابل الرقيق الأوروبيين (السلاف والترك والبلغار والشراكسة) والسلع.(٩٢)

أوروبا وتجارة الشرق

ومع ذلك، تخطى النظام الإقطاعي حدوده في أوروبا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. وظهرت الأزمة الأوروبية التي أعقبت ذلك في أواخر القرن الثالث عشر ووصلت إلى ذروتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وهناك اختلاف في تفسير أسبابها الرئيسة، حيث يذكرنا فالرشتاين بكيف أصبح الجدل بين الباحثين حادا بتذكر أن نظرية إدوراد بيروي Edouard Perroy كانت تتمثل في "التشبع السكاني"، وحدود التقنية الزراعية، بينما اعتقد

هيلتون R. H. Hilton أن السبب الرئيس كان يتمثل في النفقات الباهظة للبنى الفوقية الإقطاعية التي تضخمت بسبب الحرب وتبددت بسبب تمرد القرويين والمجاعات[٩٣]. وأيا كانت الأسباب، فقد كانت النتيجة تتمثل في انخفاض السكان وتقلص الأسواق والتجارة والمدن والقرى والمساحات المزروعة. ومع ذلك، لم يكن الأمر يتمثل في شأن داخلي بحت وحسب، ولم يكن يعتمد كلية على أحداث أو عناصر يحيط بها المجتمع البشري. وتتبقى هناك قوة واحدة يجب أن نذكرها بسبب الدور الكاسح الذي لعبته في أزمة أوروبا في القرن الرابع عشر.

ويرى عدد من المؤرخين، ومنهم تريفور روبر Trevor-Roper، أن الإمبراطورية المغولية تنضم إلى قائمة المتهمين بانهيار أوروبا وانحلالها في منتصف القرن الرابع عشر. حيث تشمل أسبابه الأهمية الأيديولوجية التي حظيت بها الحركة المغولية مباشرة في عقول الحكام المسيحيين الأوروبيين.

"كانت هنا جبهة ثانية قوية ضد المماليك والأتراك، وكانت هنا أيضا منطقة تجارة حرة كبيرة من بودابست إلى كانتون[*]؛ ويمكن استغلال كل منهما...

وهكذا فإنه عندما فشلت طريقة الصليبيين في الاحتلال الإمبريالي، نجحت الطريقة البديلة "للتعامل النقي والودي"، وفي القرن الذي تلا فشل الحروب الصليبية، كانت أوروبا لا تزال تعيش بنجاح على الشرق... أي الإمبراطورية المغولية العظيمة المنظمة المتسامحة".[٩٤]

(*) بودابست في المجر وكانتون في الصين، في دلالة على عظم اتساع المساحة بين غرب العالم وشرقه. (المترجم)

وفي البداية، أي في عشرينيات القرن الثالث عشر، كان الفرنجة قد أساءوا فهم نية المغول، حيث بنوا توقعاتهم على التقارير المتفرقة التي كتبها المسيحيون الشرقيون عن المغول، ومنها على سبيل المثال:

"أن المسيحيين الشرقيين قد جعلوا من الفاتح المغولي بمثابة "الملك داود" المسيحي، الذي سيدمر الإمبراطوريات الإسلامية، من أجل التوجه إلى الأراضي المقدسة وتحرير القدس".(٩٥)

وبحلول أربعينيات القرن الثالث عشر، وبعد سلسلة من المراسلات بين العواصم والجيوش المغولية ونبلاء وبابوات الفرنجة، تحررت المسيحية من أوهام خطئها. حيث تعلمت أن: "خطة المغول كانت تعتمد كلية على قاعدة واحدة وضعها جنكيز خان: "هناك إله واحد فقط في السماء، وعلى الأرض هناك سيد واحد فقط هو جنكيز خان".(٩٦)

فقد أمرت الإمبراطورية المغولية البابا والملوك المسيحيين بالخضوع. وحتى بحلول ستينيات القرن الثالث عشر، كان المغول والفرنجة لا يزالون يتفقون رسميا على الحروب الصليبية المشتركة ضد المماليك المسلمين، وبحلول العقود الأولى من القرن الرابع عشر، كانت "الجمهوريات التجارية" الإيطالية قد أبرمت اتفاقيات تجارية مع المغول. وكان هذا يعني أنه بغض النظر عن الاستقرار المغولي فإن التجارة والتبادل التقني (مثل بارود الصين وأساليب الطباعة) فإن أوروبا بقيت متمسكة بالعقيدة المسيحية ومصممة على كراهية وتجنب الكفار الجنوبيين، في وقت كان الذهب الذي كان يأتي من أفريقيا(٩٧) أساسا قد شق طريقه إلى وسط وشرق آسيا، وتم تمهيد الطريق إلى الطاعون الأسود ليجتاح أوروبا. ويصف ويليام مكنايل William McNeill مسار رحلة الطاعون بأقل التعبيرات بشاعة:

"لم يقتصر الأمر على سفر أعداد كبيرة من الأفراد لمسافات طويلة جدا عبر حدود ثقافية ووبائية، ولكنهم تخطوا أيضا طريقا شماليا شرقيا بعيدا لم يسبق السفر عليه بكثافة من قبل. فقد كان طريق الحرير القديم بين الصين وسوريا يعبر صحاري وسط آسيا مرورا بواحة تلو أخرى. أما الآن، وبالإضافة إلى هذا الطريق القديم، فقد كانت القوافل والجنود وحاملو البريد يمرون عبر الأراضي العشبية المفتوحة. وقد أدى هذا إلى ظهور شبكة بشرية منتشرة مكانيا تربط بين المراكز المغولية في قره قورم وقازان وأستراخان على نهر الفولجا، مع كافا Caffa في القرم، وخاناباليك في الصين ومع عدد آخر لا يحصى من محطات القوافل فيما بينها".(٩٨)

وظاهريا، كانت الثورة التي اندلعت في الطرف الشرقي من إمبراطورية المغول، وهي الثورة التي توجت بتأسيس أسرة منج في الصين، هي التي وفرت الظروف الفوضوية لتكاثر الطفيليات الوبائية. وكان التقرير الذي تركه ابن الوردي عن الطاعون (والذي مات بسبب الطاعون في حلب في ١٣٤٩) يحظى بقبول عام: حيث بدأ في مكان ما فيما يسميه ابن الوردي "أرض الظلام" (إقليم يونان بورما Yunnan-Burma في جنوب الصين حاليا) قبل ١٣٣١؛ ثم انتشر إلى الصين وشمال آسيا، ثم إلى وسط آسيا وشرق أوروبا – وكان طوال الوقت يتبع طريق تجارة المغول بين البحر المتوسط والصين؛ وبنهاية ١٣٤٧، عبر من كافا على البحر الأسود إلى ميناء مسينا Messina الصقلي؛ وخلال ثلاث سنوات، يقدر أن أكثر من عشرين مليون أوروبي (من ثلث إلى نصف سكان أوروبا) قد انضموا إلى أكثر من ستين مليون نسمة ماتوا في الصين.(٩٩)

الإسلام وتكوين البرتغال

مع الوضع في الاعتبار أن اهتمامنا بآثار الحضارة الإسلامية على أوروبا يرتبط بمحاولة إعادة بناء العمليات التي خرج بها الماضي الأفريقي من الوعي الأوروبي، ربما كانت أكبر سخرية في هذا التاريخ تتعلق بتأسيس دولة البرتغال والطبقة الحاكمة التي أدارتها. إذ إن توسع دولة البرتغال في أفريقيا يمثل طبعا بدايات العصر الحديث في تطور أوروبا: "عصر الكشوف". ويمثل أيضا بدايات تلك المواجهات بين شعوب شبه الجزيرة الأوروبية والقارة الأفريقية التي ستقدم الزنوج.

وكان ظهور وتطور دولة البرتغال نتيجة أيضا لعمليات ترتبط بصورة مباشرة وغير مباشرة بالحضارة الإسلامية. فعلى الرغم من وجود علاقات أنجلوسكسونية في بعض المعالجات باللغة الإنجليزية لتاريخ البرتغال (ولا شك أن ذلك يرجع جزئيا إلى علاقة البرتغال التابعة لإنجلترا منذ القرن الثامن عشر)، تحمل هذه القصص بعض العلاقات مع الماضي. فمثلا، وكما يقول تريفور روبر عن منتصف القرن الثاني عشر:

"أبحرت مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفلمنك(*) نحو البحر المتوسط للانضمام للحملة الصليبية الثانية، ووصلت إلى مصب نهر سورو Souro. واقتنعوا بسهولة بأنه لا حاجة إلى مواصلة الإبحار. فهناك كفار في البرتغال، وأراض خصبة مثلما في فلسطين: ووافق الصليبيون؛ واستقروا هناك. وبدلا من الزحف على الرها Edessa (في جنوب تركيا اليوم) زحفوا واستولوا على

(*) الفلمنك Flemish Region، أحد ثلاثة أقاليم تشكل بلجيكا الحديثة إضافة إلى إقليم والون وإقليم العاصمة بروكسل. (المترجم).

لشبونة؛ وهناك ذبحوا كل السكان المسلمين ونصبوا أنفسهم على أراضيهم، ونسوا أمر مملكة القدس المسيحية وأسسوا مملكة البرتغال".[١٠٠]

وباعتباره مؤرخا بريطانيا، منح تريفور روبر الاهتمام المناسب لتدخل الإنجليز، ولكنه تجاهل حلفاءهم الأيبيريين والفرنسيين (مثل هنري دوق بورجوندي). ومع ذلك، كان صحيحا أن الصليبيين الأوائل لعبوا دورا مهما في تأسيس البرتغال خلال الحروب الاستعمارية ضد المسلمين. وكما يعلن أمريكو كاسترو Americo Castro:

"رفع الأسطول المشارك في غزو لشبونة مرساته في إنجلترا مع ١٦٩ سفينة مزودة بالمؤن والإنجليز والألمان والفلمنك والفرنسيين والجاسكون (الغشقون). وكانت الأبراج التي صنعت لغزو المدينة من صنع الفلمنك والإنجليز ومهندس من بيزا. ومن خلال الاتفاق مع البربر كانت كل الغنائم من نصيب الأجانب الذين حصلوا على الذهب والفضة والقماش والخيول والبغال وسلموا المدينة للملك".[١٠١]

وبعد ذلك بثلاثة قرون، كما تقول الأسطورة، بدأت الدولة البرتغالية أول كشوفها الكبرى التي أدت إلى ظهور نظم العالم الحديث لأوروبا والمستعمرات الأوروبية. وتمت هذه الكشوف مع عدم الخبرة بالحروب والصراعات الداخلية التي تحيط بالقوى الكبرى في أوروبا الغربية؛ والقرب الجغرافي من الساحل الأطلسي لغرب أفريقيا؛[١٠٢] ومع كل من الخبرة المباشرة بالتجارة البحرية طويلة المسافة والخبرة المكتسبة من التجار الإيطاليين (الذي بدأوا استعمارهم التجاري للبرتغال بحلول القرن الثالث عشر)؛[١٠٣] ومع البقايا القوية للمغامرات المسيحية ضد الإسلام.

وبحلول القرن الخامس عشر، حوّل البرتغال وشركاؤهم الإيطاليون (والإنجليز) إنتاج السكر ونظام المزارع، ونظام الرق بالطبع، من جزر شرق البحر المتوسط إلى جزر شرق الأطلنطي. وبحلول القرن السادس عشر، ورثت إسبانيا الرأسماليين الإيطاليين وكل ما كان معهم، وجرى نفس الشيء بالنسبة للعالم الجديد.(١٠٤)

وكما حذر كاسترو: "يستحيل فهم تكوين الإمبراطورية البرتغالية الهائلة في ضوء التحليل الاقتصادي أو الإحصائي فقط."(١٠٥) ويمكن إضافة أن الأمر يكون على هذا النحو، عندما يعتمد مثل هذا التحليل على إعادة البناء التاريخي البسيط. إذ إن "سلمية" البرتغال في القرن الخامس عشر، والتي يؤكدها بوكسر (ويكررها فالرشتاين)(١٠٦) تصبح موضع شك عندما نعلم من مصادر أخرى أن هذا القرن كان يتميز بحرب مادية ودبلوماسية مع قشتالة، وأن القرن انتهى بالقمع الوحشي لكفاح الأسرة الحاكمة.(١٠٧) بل إن كاسترو ذاته توصل إلى استنتاج أنه يجب توجيه مزيد من الاهتمام بالقومية البرتغالية:

"أرادت البرتغال واعتنقت تاريخا خاصا بها، وقد فعلت ذلك بقوة لدرجة أنها نجحت تدريجيا في ذلك بإدماج كل من التاريخ المتخيل وممارسة تخيله في عملية وجودها الحقيقي. إذ إن المشروعات الإمبريالية؛ والتأثير المتواصل للبرتغال في البرازيل، وجزر الهند الشرقية، وفي أفريقيا؛ والشخصيات المؤثرة مثل فاسكو دا جاما، أفونسو دى ألبوكيرك(*) Affonso de Albuquerque، فرديناند ماجلان، وغيرهم؛ وأعمال جيل فيسنتي Gil Vicente وكاmomس Camoems – كل هذا وأكثر شجع على إعادة تكوين أصول البرتغال".(١٠٨)

(*) تعرفه المصادر الإسلامية باسم "ألبوكركه السفاح". (المترجم)

ومع ذلك، لم تكن هذه "قومية" بسيطة: أي روحا جماعية ترتبط بمصير قومي. إذ إن البرتغاليين في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر كانوا خليطا استثنائيا من شعوب أوروبا الغربية والبحر المتوسط. والأهم من ذلك، أن الطبقات الحاكمة للأمة الجديدة، النبلاء والبرجوازية التي نسجت البساط الفكري للقومية وشيدت الرموز التي أحاطت بعائلاتهم ومآثرهم، كانت قادمة من أرستقراطيات إسبانيا صاحبة الأراضي والألقاب (قشتالة وأراجون وكتالونيا) وفرنسا (فلاندر وبورجوندي) وإنجلترا.(١٠٩)

على هذا النحو كانت خيوط الهوية القومية البرتغالية نسجت من مصادر أوروبية. وبالتالي، فقد ورثت البرتغال بيوتها الملكية ومؤيديها من الرأسماليين الإيطاليين، بالإضافة إلى الهجرة التجارية والعلمية التي كانت بمثابة الهروب الاجتماعي والفكري من البندقية وجنوة وبيزا ومايورقة وفلورنسا وفلاندر وكتالونيا وإنجلترا. وجاء مع هذه العناصر المتناثرة أيضا قدر من الضيق والتصميم على بناء دولة تكون طبيعتها متميزة عن المجتمعات الفاسدة والمضطربة والمنحطة التي هربوا أو طردوا منها:

"لقد وجد الأوروبيون أوروبا بغيضة أخلاقيا، وتندلع فيها حروب مميتة باستمرار بين من يسمون أمراء مسيحيين، وتنتشر فيها الهرطقة، وبقي الشقاق حقيقة لحوالي أربعين سنة، مع وضوح العلاقات المضطربة بين السلطات الكنسية والعلمانية، مع غياب الأعمال الخيرية تقريبا، وأصبح الزواج موضع سخرية، وانتشر البغاء؛ وأصبح الكذب والسرقة الفجة منتشرين في كل مكان".(١١٠)

وهكذا كانت هذه "القومية"، وخاصة عنصر العداء للمسلمين، هي التي لعبت هذا الدور الحيوي في توسع البرتغال في القرن الخامس عشر. حيث سجل روبرت سلفربيرج Robert Silverberg – في تأريخه لافتتان البرتغال وأوروبا بأساطير بريستر جون(*) – ما يلي:

"في ١٤١١، عندما وصلت البرتغال إلى حالة مضطربة، تبني خواو حاكم أفيس Joao of Avis اقتراح ملكته فيليبا Philippa (المولودة في إنجلترا)، والتي دعته إلى أنه من أجل الحفاظ على قوة الاقتصاد القومي، يجب عليه أن يرسل حملة عسكرية إلى شمال أفريقيا. حيث تصور خواو وفيليبا أن غزو مملكة فاس Fez البربرية سيفتح الطريق للغزو البرتغالي برا لمملكة بريستر جون التي تقع في مكان ما في قلب أفريقيا. وبالتعاون مع بريستر جون، ربما يمكن فتح طريق توابل جديد، حيث تعبر القوافل أفريقيا من المغرب إلى البحر الأحمر حاملة التوابل إلى لشبونة".[١١١]

وبالطبع، كان الأمير هنري(**) (الملاح) بمثابة الابن الناسك الأعزب المنعزل لخواو وفيليبا الذين أصبحا ملكين حديثا، وذلك لأنه له الفضل في

(*) شاعت أسطورة بريستر جون Prester John في أوروبا فيما بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر، اعتقدت الأسطورة في وجود بطريرك يحكم مملكة مسيحية مفقودة وسط أراضي المسلمين والوثنيين في المشرق. تتألف التقارير المكتوبة عن تلك المملكة من مجموعة متنوعة من الخيال الشعبي في العصور الوسطى. وُصف بريستر جون بأنه حاكم ورع سخي تحت إمرته عالم كامل من الثروات والمخلوقات الغريبة. ضمت مملكته معجزات البوابات التي تفتح على عالم برابرة يأجوج ومأجوج، ونافورة الشباب، وأحاطت بها الجنة الدنيوية. من بين الكنوز كان هناك مرآة يمكن من خلالها رؤية كل إمارة تابعة لمملكته. (المترجم)

(**) هنري الملاح (Henry the Navigator 1394- 1460) هو الابن الثالث لخواو الأول ملك البرتغال. ويعتبر أول من بدأ التوسع الاستعماري الأوروبي، فقد أقنع والده عام ١٤١٥م بشن حملة على مدينة (سبتة) في المغرب عبر مضيق جبل طارق. وبالفعل شن الحملة واحتل المدينة. ثم عين حاكمًا لجماعة (فرسان المسيح) واستمر في هذا المنصب حتى وفاته بعد أن قام ببعض الاستكشافات التي كانت مصدر تمويل مهم للبرتغال. (المترجم)

حشد طاقات البرتغال، والموارد "بأمر المسيح"، ومهارات والأدوات البحرية الأوروبية الأكثر تطورا، والحكمة الملاحية لدى الرياضـــيين والخـــرائطيين والفلكيين والجغرافيين المسلمين والإيطاليين، من أجـــل استكـــشاف أفريقيـــا وسواحلها للعثور على طريق إلى جزر الهند الشرقية وإلى بريستر جـــون. وعقب استيلاء البرتغاليين على سبتة في ١٤١٥، وطوال أكثر من أربعـــين سنة، كرس الملك هنري نفسه لتحقيق حلم والديه. ومع ذلك، لم يكن هنـــري متميزا في هذا المجال. فقد كان في الحقيقة مجرد نسخة أكثر حدة نفسيا من أسرته والطبقة التي ارتبطت بمصيرها ارتباطا وثيقـــا.[١١٢] وهكـــذا يقـــول فرانسيس روجرز حقا:

"لم تكن تلبية البرتغال للأحلام الأوروبية المتعلقة بالشرق عبر ســبتة، ولكن عبر "المجلس البابوي" المعاصر. وحظيت بدافع أكبر من رحلات الأخ بيدرو Pedro... والتوجيه النهائي لعلاقات البرتغال بالبابا إيـــوجين الرابـــع والمجلس البابوي الفلورنسي...

وأنا مقتنع بأن المظاهر المختلفة للحلم الشرقي العظـــيم لـــدى أوروبـــا الغربية ألقيت على عاتق بيدرو أثناء تجواله، وأنه بحلول ١٤٣٣ أو ١٤٣٤ تقريبا (بداية حكم دوارت Duarte) كان الأخوة الأمراء ومنهم وأهمهم هنري قد تحدثوا مطولا عن التقارير المتاحة التي قدمها بيدرو عقب عودته".[١١٣]

وقد سجل جومز إيـــانيس آزورارا Gomes Eannes Azurara، المـــؤرخ المعاصر للأمير هنري، دوافعه كما يلي:

"١- كان هنري يرغب في معرفة الأراضي الواقعة بعد جزر الكناري ورأس بوجادور Bojador...

٢- إذا كان في هذه الأراضي أي سكان مسيحيين، أو أية موانئ يمكن أن يدخلها الرجال بدون خطر، فإنهم يستطيعون العودة إلى الديار بالكثير من البضائع بتكلفة قليلة...

٣- كان يقال إن قوة البربر في هذه الأرض الأفريقية أكبر كثيرا مما كان يعتقد بصفة عامة، وأنه لا يوجد بينهم لا مسيحيون ولا سلالات أخرى. ولأن كل رجل حكيم تحركه الرغبة في معرفة قوة عدوه...

٤- خلال إحدى وثلاثين سنة من المعارك مع البربر، لم يجد أي من أبناء ملوك إسبانيا أو البرتغال سيدا إقطاعيا أو ملكا مسيحيا خارج هذه المملكة كان يرغب في مساعدته في هذه الحرب من أجل محبة يسوع المسيح. وكان الأمير هنري يرغب في أن يعرف ما إذا كان في هذه المناطق أمير مسيحي مؤمن بالخير ومحبة المسيح بما يكفي للحصول على دعم في سبيل محاربة أعداء العقيدة هناك.

٥-... ضرورة إنقاذ الأرواح الضائعة.

٦- هناك سبب فلكي انطلق منه كل الآخرين، وهو أن هنري ولد في ٤ مارس ١٣٩٤، وكان تحت تأثير برج الحمل، الذي يقع في بيت المريخ، والشمس في صعود... وهذا يوضح أن هذا الأمير كان قدره أن يشارك في غزوات عظيمة ونبيلة، وفوق كل هذا كان قدره أن يحاول اكتشاف أشياء كانت مختفية وسرية عن الآخرين".(١١٤)

ويضيف سيلفربيرج، ليؤكد اهتمامه الخاص، أن هنري قد "أخبر أحد مرافقيه في ١٤٤٢ بأنه كان يرغب في معرفة أفريقيا، والهند الشرقية، بل

وفي معرفة "أرض بريستر جون أيضا، كلما أمكنه ذلك".(١١٥) وبعد ذلك بمائة سنة، عند بداية القرن السادس عشر، تحقق أخيرا الحلم الذي تملك أسرة أفيس منذ بدايتها (وأوروبا من قبلها طوال ثلاثة قرون). إذ إن بيرو دا كوفيلها Pero de Covilha مبعوث الملك البرتغالي إمانويل الأول (١٤٩٥-١٥٢١) إلى مملكة بريستر جون، اكتشف خلفاؤه المبعوثون أنه أصبح أسيرا مكرما مدى الحياة في بلاط إثيوبيا.(١١٦) وهكذا قدم الإسلام لأوروبا الصاعدة دافعا فكريا واقتصاديا وسياسيا قويا.

ومع ذلك، كان هناك عنصر واحد في الحضارة الإسلامية لم يكن له تأثير أو كان تأثيره قليلا على أوروبا في العصور الوسطى عندما كانت تتحول إلى مركز نظام عالمي مسيطر. وكان هذا العنصر يتمثل في المفهوم الإسلامي للرق. فقد كانت هناك اختلافات كبيرة بين الرق في المجتمعات الغربية والمسيحية والرق في الإسلام.

حيث قال الرسول:

"اتقوا الله في أرقائكم، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ. مَا رَضِيتُمْ فَأَمْسِكُوا، وإِنْ جَاءُوا بِذَنْبٍ لا تُرِيدُونَ أَنْ تَغْفِرُوهُ، فَبِيعُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَلا تُعَذِّبُوهُمْ".(١١٧)

وكان النموذج الإسلامي المتعلق بالرق بلا نظير في الشريعة والعقيدة المسيحية. فقد قنن الفقهاء المسلمون واجبات وحقوق الرقيق؛ وكانت التقاليد بين مذاهب السنة والشيعة والمالكية تحد من حقوق السادة وتوسع الحقوق القانونية والدينية والاجتماعية للرقيق. وحث القرآن على العتق كأحد أعمال التقوى، وفي حالات عديدة كان العقاب على المعاصي أقل قسوة على الرقيق

منه على الحر، وكان الرقيق يستطيع شراء حريته ويمكن أن يشغل وظائف المرتبة الثانية في إدارة الدولة والوظائف الدينية. ونظرا لأن الرق الإسلامي كان يرتبط طبيعيا بإمكانات غير محدودة للحراك الاجتماعي والقليل من العنصرية، فليس مدهشا أن نجد أسرا كاملة في التاريخ الإسلامي قد أسسها الرقيق (مثل المماليك المصريين) أو صعود الأفارقة للقمة جنودا وشعراء وفلاسفة وكتاب وساسة. ففي وقت مبكر في القرن الثامن:

"كان إبراهيم، ابن محظية سوداء للخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥) قد اقترب كثيرا من أن يصبح خليفة في (٨١٧-٨١٩) عندما ساند فصيل في بغداد ترشيحه ضد المرشح لخلافة الخليفة المأمون. فعلى الرغم من كونه "أسود تماما"، فإنه كان مفضلا لدى بعض الموالين للعباسيين على المرشح العلوي ذي الأصل الفارسي".[١١٨]

ويقول هونفيك Hunwick إن المستنصر، وهو ابن آخر بنفس الوضع، حكم في مصر فيما بين ١٠٣٦ و١٠٩٤. وفي القرن السابع، حكم مولاي إسماعيل، الذي كان في نفس الوضع، في المغرب. وحتى الخصيان السود، مثل كافور الذي حكم مصر لاثنتين وعشرين سنة استطاعوا تحقيق سلطة هائلة.

ولا يعتبر فشل المسيحية في التأثر بالشريعة والتقاليد الإسلامية في هذا الشأن أمرا مدهشا، لأن تقاليد الرق الأوروبي كانت قديمة جدا ومبررة بصورة واضحة جدا في وقت ظهور الإسلام في القرن السابع. وكذلك كان من المستبعد تماما أن تتقبل المؤسسة المسيحية في العصور الوسطى تبني تقاليد مما كانت تعتبره الهرطقة المسيحية الأخيرة - فقد كان الكثيرون يعتقدون أن الإسلام مبني على الإباحة الجنسية والإيمان القهري؛[١١٩]

وأخيرا، كان رهاب الأجانب لدى الغربيين - والذي كان حيويا في طبيعة الهوية الأوروبية ونظم الرق المسيحية - يعبر عن الاشمئزاز تجاه المثل الإسلامية. وقد صور نورمان دانيال هذه الحالة بقوله:

"كان هناك رصيد كبير من رهاب الأجانب يكمن في ثقافة أوروبا المتجانسة".(١٢٠) وكذلك:

"تفاقم رهاب الأجانب والهستيريا مع بداية الحروب الصليبية، وكان من الخطأ اعتبارها ظاهرة نادرة. فقد كانت مجرد نشاط أوروبي واحد. إذ إن الحرب والسرقة والقتل والتجارة وتحقيق الأرباح وتحصيل العوائد أو الضرائب، كل ذلك كان يرتبط ارتباطا وثيقا بالتحليل الفلسفي والديني، وبتركيب التاريخ والدعاية، وحتى بحب الجار. وقد جددت الحروب الصليبية فكرة أننا لا نحتاج إلى فعل ما يمكن أن يفعل بنا. وكان ذلك أيضا تعبيرا عن تاريخ قديم من الشك... حيث يرجع توقع الاختلاف إلى عدم التسامح الثقافي مع "البربر" وهو أقل ما تم تعلمه من تراث الإغريق".(١٢١)

ولكن هذا لا يعني إنكار أنه لم تكن هناك خلافات بين المسيحيين حول الرق. فقد كانت هناك خلافات في المسيحية في العصور الوسطى وما بعدها. وعلى الرغم من الخلافات بين السادة المسيحيين، يلاحظ ديفيد بريون ديفيس أن "الطابع المميز للاهوت العصور الوسطى [كان] يتمثل في تبرير العالم القائم مع تقديم وسائل الهروب منه".(١٢٢)

في أواخر العصور الوسطى، تحول المدافعون عن الرق مرارا - سواء كان استرقاق الأوروبيين أو الكفار أو "الهنود" أو السود - إلى كتابات

أرسطو لتبرير الرق كوضع طبيعي لبعض أجزاء الجنس البشري.[١٢٣] ففي أوائل القرن السادس عشر، عندما تحول فراي بارتولومي دى لاس كاساس Fray Bartolome de las Casas من كاتب استعماري إلى مناهض للاستعمار، كان يجب عليه مواجهة واستغلال أرسطو لتحقيق هدفه، فكتب يقول:

"لقد وصف أرسطو بأنه وثني يحترق في الجحيم ويجب علينا ألا نتبع منهجه، باستثناء ما يتوافق مع الحقيقة المسيحية"...

ولكن... لاس كاساس طبق نموذج أرسطو لكي "يثبت" أن الهنود كانوا كائنات رشيدة، وليسوا أقل شأنا من الإسبان أو غيرهم من الأوروبيين، القدماء أو المحدثين في هذا الشأن، بل إنهم كانوا في بعض الجوانب أكثر تفوقا من الأوروبيين".[١٢٤]

ومع ذلك، لاقى موقف لاس كاساس نجاحا محدودا فقط سواء في عصره أو لاحقا. إذ إن مؤلفه "تقرير مختصر جدا عن تدمير جزر الهند الشرقية" واجه استنكارا كبيرا من معاصريه وممن جاؤوا بعدهم. فقد أثبتت فكرة أرسطو "أرستقراطية السلالة" أنها أقرب إلى صميم الحضارة الغربية من انتقادات لاس كاساس، وزميليه الراهبين موتولينيا ودى لاندا، أو المتعاطفين معه مثل حاكم دى كاستانيدا في نيكاراجوا والمسئول المجهول الذي كتب عن التجاوزات الوحشية لنائب الملك في مندوثا في إسبانيا الجديدة. وكما قال مافيس كامبيل Mavis Campbell بحجة قوية:

"يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذا المفهوم للسلالة لم يكن بعيدا قط عن العقلية الأوروبية، وأنه كان يظهر بصورة متقطعة، مع العيون الزرقاء والبشرة البيضاء الزنبقية، سواء من خلال هذا الغريب سيبولفيدا Sepulveda

(أحد أشد معارضي لاس كاساس) الذي تحدث عن الإسبان "المتفوقين" وطبق الكلمة الإغريقية الصميمة "بربر" على الهنود، أو من خلال الكونت جوبينو أو ريتشارد فاجنر وصهره، هوستون سايوارت تشمبرلين، أو تماس كارليل الذي كان له تأثير كبير على رق العالم الجديد، والذي وصل إلى ذروته في التجاوزات المصابة بجنون العظمة لدى هتلر والنظم العنصرية في جنوب أفريقيا".(١٢٥)

وهكذا استمر تأثير أرسطو حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حتى ظهر مبرر أكثر علمية استطاع أن يتجاوز الحاجات الفكرية لإمبريالية العالم الجديد. ومن ثم فإنه من خلال أرسطو كان هناك تقارب صارخ بين التبرير الأخلاقي والضرورة العملية بين المجتمعات المسيحية في العصور الوسطى والحديثة ومجتمعات الرقيق قبل المسيحية، وفي ذلك يقول وليام ويسترمان:

"منذ عصر هوميروس فصاعدا، كان الارتباط العاطفي للإغريق بالرغبة في الحرية السياسية والشخصية يجعل من الصعب عليهم العثور على تفسير مقبول لنظامهم الخاص بالرق... حيث أخذ رد فعل أفلاطون شكل احتجاج طفيف على أن الإغريق يجب ألا يسترقوا زملاءهم الإغريق، بينما في الحقيقة كان الإغريق في عصره يستخدمون زملاءهم الإغريق كرقيق، وبدون أي تأنيب للضمير على ذلك. وكان تفسير أرسطو لأصل الرق يعتمد على النظرية التي كانت مقبولة آنئذ عن الاختلافات الفطرية والتي يمكن وراثتها في القدرات الإنسانية، كما يتضح بصورة فردية وجماعية... ولم يكن تعريفه للرقيق في كتاب "السياسة" متميزا كثيرا...

"الرقيق عبارة عن أداة بها روح. ويعتبر هذا صحيحا بالمعنى المادي والمصطنع فقط. فالرقيق كإنسان ليس أداة؛ والأداة ليس لها روح".(١٢٦)

ومع ذلك، نجد في المجتمعات الإسلامية أن طبيعة ودافع الوازع الديني لم تترك مجالا لاستخدام مبررات أرسطو أو غيره من مبرري الرق غير المسلمين على هذا الأساس.

الإسلام ونزعة المركزية الأوروبية

لم يكن تاريخ أوروبا في الألفية التي أعقبت القرن الخامس من العصر المسيحي مستقرا بصورة ملحوظة. إذ إن هذه الفترة الزمنية الطويلة لم تتضمن أي أساس لليقين الديني. ففي الواقع، كان وجود الثقافة العليا الغربية ضعيفا في فترات مثل القرن الثامن عشر، وإن وجدت ففي مواقع متناثرة كان مصيرها غير مؤكد بسبب الغزو البربري والأوضاع الاجتماعية والمادية البائسة في المجتمعات الوثنية المحيطة بها. وفي ذلك يقول تريفور روبر:

"بحلول سنة ٧٠٠، انتقل التعلم الأوروبي إلى مستنقعات أيرلندا أو الساحل المقفر في شرق إنجلترا (نورثمبريا Northumbria). حيث حافظ الدارسون الهاربون على معرفة اللاتينيين، وحتى على كلاسيكيات الإغريق، في أديرة أيرلندا. ففي أحد أديرة نورثمبريا، عاش وكتب الموقر بيدي Venerable Bede، أعظم دارس في عصره، وأعظم مؤرخ للعصور الوسطى كلها. وقد عاد الهاربون الإنجليز والأيرلنديون من أديرة أيرلندا وإنجلترا في القرنين الثامن والتاسع إلى أوروبا المدمرة".(١٢٧)

وتعافت المسيحية ببطء. وخلال ما أصبح يعرف بعصور الظلام، وبالتحالف مع زعماء وملوك البربر، سواء تنصروا أو بطرق أخرى، تطورت الكنيسة تدريجيا إلى قاعدة أكثر نضجا للتنظيم الإقطاعي الذي ميز أوائل العصور الوسطى. حيث استولت على الأراضي والقرويين والرقيق الذين جعلوا هذا الأراضي منتجة وذات قيمة. وبدون أدنى إحساس بالإفلاس الأخلاقي، استغل قادة الكنيسة المسيحية قاعدتها البشرية بلا رحمة، وأضفوا الشرعية على وحشية النبلاء، وأقاربهم العلمانيين، وشاركوا في الأرباح المحققة من العمل القسري والتجارة الخارجية لأكثر من ثمانية قرون، والتي قدمت الرقيق الأوروبيين (مع سلع أخرى) للتجار المسلمين. ومع ذلك، أثبتت أوروبا الإقطاعية لفترة أنها قادرة على التوسع، بينما كانت تتحلل من الداخل- ولكن ذلك كان لفترة محددة فقط.

وبحلول القرن الثالث عشر، أوشكت هذه المرحلة من التطور الأوروبي على الانتهاء؛ فقد انهار النظام. إذ جاء بعد الطبقات الحاكمة لأوروبا الإقطاعية عناصر من البحر المتوسط: كالتجار والمصرفيين. حيث قاموا بدورهم بتقديم أو تحديد أدوار أطراف أخرى وفرت رأس المال والخبرة التقنية والعلمية والمهارات الإدارية للدول التي كانت ستقود ظهور أوروبا الرأسمالية. ومع ذلك، وفي ذلك الوقت، كان الوعي والثقافة الأوروبية قد تأثرا كثيرا. حيث اكتسبت الأسطورة سلطة التاريخ كما رأينا. واستمرت السلطة الأخلاقية في التحلل. وتمزق القناع الغامض الذي صنعته الطبقات الحاكمة الإقطاعية لإخفاء أو على الأقل لتخفيف القمع الساحق الذي كانت تمارسه. وبالتالي، فإن ظهور بريستر جون في الخيال الأوروبي في القرن الثاني عشر كان أمرا مفهوما.

وإذا كانت الأسطورة قد نبعت في الواقع من داخل الطبقة الحاكمة، فإنها قد حققت هدفين مختلفين تماما: فأولا، زودت مفكري أوروبا بفكـــرة قويـــة، ألهمتها المثالية المسيحية، وخيال وروعة الإنجيـــل، والقـــانون الرومــــاني، والحرفية الإغريقية المصرية. فقد كان هناك المجتمع المـــسيحي المثـــالي، الآمن في وجوده السياسي وحياته الروحية. وكان بمثابة المقياس الذي يمكنه وصف الفشل والفساد المتنامي للمسيحية الفعلية بالتفصيل. أي الإمبراطورية المسيحية النموذجية، التي عندما تقارن بأوروبا، تظهر تلك الأخطـــاء التـــي ساهمت في عدم القدرة على هزيمة الإسلام روحيا أو عسكريا. وكان هـــذا بمثابة الوظيفة الداخلية للأسطورة.

ومع ذلك، كانت أهميتها الأخرى أكثر خطورة. إذ إن الأسطورة حولت العالم خارج أوروبا (جزر الهند الشرقية) إلى مادة للنزعة الأوروبيـــة.[١٢٨] فمهما كانت حقيقة هذه الأراضي وشعوبها، فقد أصبحت أقل أهمية. وطـــوال القرون الثلاثة التالية، فيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عـــشر، زودت أسطورة بريستر جون الدارسين الأوروبيين وإخوتهم في الدين الأقل تعلمـــا بنظام دقيق ومحكم يمكن من خلاله مراقبة وتقييم مصداقية كل البيانات، وكل تقارير الرحالة، وكل أخبار تجارتها الخارجية، وكـــل الحكايـــات الرمزيـــة لشعرائها، وكل نقاط ضعف جنودها. وحتى الأدلة المباشرة لم تكن محصنة، لأن هنتر G. K. Hunter يخبرنا بأن هذا "الإطار المرجعي" استمر في القـــرن التالي، وفي ذلك يقول:

"كانت المعلومات الجديدة التي أحضرتها الرحلات الإنجليزية في القرن السادس عشر إلى الثقافة القومية يجب أن تتفق بقدر الإمكان مـــع الـــصورة

المستقرة لما كان يعتبر مهما. وكان هذا يعني أن الحقائق لم تكن تستقبل بنفس الأسلوب الذي كانت تستقبل به في القرن التاسع عشر. إذ كان مؤرخو القرن الماضي مبهورين كثيرا بفكرة الخيال الإليزابيثي المتحرر بسبب الرحالة. ولكن هناك أدلة قليلة على هذا خارج الإطار غير التاريخي، "وهذا هو ما كنت سأرد عليه". فمن المؤكد أن الرحلات وسعت الأفق الطبيعي، ولكن ليس واضحا ما إذا كانت وسعت الأفق الثقافي في نفس الوقت... إذ إن صورة الإنسان في جوانبه الدينية والسياسية والاجتماعية لا يمكن أن تتأثر كثيرا باكتشاف أرض خالية أو بدائية".(١٢٩)

وقد بدأ مهندسو الوعي الأوروبي في بناء تلك الرؤية العالمية التي اعتبرت أن الهيكل الرئيس للمجتمعات غير الأوروبية كان في حقيقته هيكلا أوروبيا، وأن السلم الأخلاقي والفكري والروحي لهذه المجتمعات كان هو نفسه الهيكل السفلي الملحوظ في الثقافة الأوروبية، وأن مقياس الإنسانية كان في الواقع أوروبيا. وكانت أسطورة بريستر جون وعالمه العجيب، وصلابة هذا الملك المسيحي الذي انتظر بصبر حلفاءه المسيحيين على الطرف الآخر من العالم، كل هذا شكل الحافز في زيه المناسب للعصور الوسطى. وهكذا فإنه عندما لم يتمكن أحد من تحديد موقع هذه المملكة المعجزة في صحاري وسهوب وسط آسيا أو حتى الصين (كاثي Cathay)، لم يتوقف سحرها ولكنه انتقل إلى الجنوب وراء النيل الأعلى. وكان هذا الخيال وما صاحبه من قرار بتحويل جوهر وجود الشعوب الأخرى إلى أشكال مناسبة له بمثابة البدايات المهمة لتدمير الماضي الأفريقي. وبينما كان يبدو أن حيوية الإسلام قد سخرت من الضعف المؤسف لمن اختارهم المسيح، وأذلتهم بالهزيمة والتهديد

المستمر بالمزيد من الاحتلال والغزو، كانت الأسطورة تزداد قوة. وقد تعلمنا درسا مهما من الدعاية: إن مصير أوروبا لا يتوافق مع المعنى الحقيقي للعوالم غير الأوروبية. وكان العنصر المصاحب البارز بصورة متزايدة للألفية الأوروبية (من القرن العاشر إلى القرن الحالي تقريبا) يتمثل في رفض هذه المصطلحات.

ومع تحرير أوروبا لنفسها من الاستعمار الإسلامي، كان لديها مرة أخرى برجوازية قوية ومؤسسات دولة لتبدأ بناء استعمارها الخاص خارج أوروبا. فمن القرن الخامس عشر فصاعدا، كان هذا الاستعمار يشمل أراضي شعوب في آسيا وأفريقيا والعالم الجديد، ويحاصر أجزاء كبيرة من هذه الشعوب بالتقاليد الأوروبية في عمل الرقيق والاستغلال. ومن هذه النقطة فصاعدا، لم يعد الرأسماليون يعتمدون على القيود المادية التي فرضتها أوروبا على التراكم الأولي لرأس المال. أما ما حققه الرأسماليون القادمون من البندقية وبيزا واليهود للبرتغال وإسبانيا في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، فقد نقلوه إلى شمال غرب أوروبا عند طردهم من أيبيريا. وبعد ذلك مباشرة، حلت برجوازية إنجليزية محل برجوازية بلجيكا وهولندا في السيطرة على النظام العالمي الذي أصبح واسعا. ومع ذلك، فقد تخطينا اهتمامنا المباشر بدور المسلمين في تطور أوروبا. وهنا يجب أن نختتم مسحنا لأهمية الإسلام في التاريخ الأوروبي، وإن كان ذلك بصورة مفاجئة وتحكمية نوعا ما. أما الآن فيكفي أن نذكر أنفسنا بأن الإسلام قدم حضارة قوية جدا، وأنها كانت أكثر ارتباطا في العقلية الأوروبية بالشعوب الأفريقية والسوداء.

وفي وقت لاحق، اقتربت قدرة الغرب على صنع الزنوج من تحقيقهـــا. فقد كان الرصيد الثقافي والفكري متاحا. وأظهرت العنصرية المحلية فائدتها في تبرير النظام الاجتماعي، ومع بداية دخول الإسلام في التاريخ الأوروبي، أثبتت العنصرية قيمتها ثانية بتحويله إلى أداة للمقاومـــة الجماعيـــة ونفـــي الماضي غير المقبول. وحتى يظهر الزنوج إلى الوجود، كان كل المطلـــوب يتمثل في وجود سبب مباشر وغرض محدد. ومن ثم فإن التجارة في الرقيق الأفريقي - التي كانت بمثابة توسع للرأسمالية والغطرسة العنصرية - وفرت كلا من الدافع القوي والهدف المقبول سلفا.

الفصل الخامس

تجارة الرقيق عبر الأطلنطي

والعمال الأفارقة

تعتبر "برتغال" القرن الخامس عشر بمثابة الفاعل التاريخي الطموح الفريد الذي نواجهه في الدراسات البحثية التي لا تحصى وتبدو برتغال تلك الفترة أسطورة رمزية. فهي كما رأينا سلفا تعتبر نموذجا فئويا مضللا مناسبا لما كان في الواقع بمثابة خليط من القوى السياسية والاقتصادية، التي تعتبر أصولها قومية وفوق قومية. وبينما يرمز مصطلح "البرتغال" إلى أمة، فإنه شوه قوة وأهمية تلك الدولة التي بدأت صغيرة لم يكن سكانها يزيدون عن مليون نسمة.

وعلاوة على ما سبق، لعبت البرتغال دورا مهما في استغلال تحويل العمالة الأفريقية إلى العالم الجديد. وبالتالي، فإنه بالنسبة للمهتمين بتجارة الرقيق وأهميتها القصوى للسود، يعتبر فهم دولة البرتغال بصورة أفضل أمرا حتميا. ويرجع هذا الأمر كما أرى إلى أن نفس المصالح والآليات المتشابهة - ولكن غير المتطابقة - التي حولت البرتغال ببطء إلى "عنصر مهم في ساحة التاريخ الأوروبي"،[1] كانت متضمنة أيضا في تحويل العمالة الأفريقية إلى رأس مال. ولهذا السبب، كان الأمر جديرا باستغراق الوقت في مراجعة وتحديد هذه العوامل كما ظهرت في تاريخ البرتغال.

كانت هناك عدة أطراف حقيقية فعلا، وكانت مصالحها وأنشطتها تتعاظم مثل المصالح القومية للبرتغال في التاريخ العام للعمل الأكاديمي في أوروبا الغربية. ومع ذلك، غالبا ما كانت طبيعة وهويات هذه الأطراف مخفية عن غير قصد بسبب المستويات الأكبر من التعميم التي كانت تصاحب البحث عن روح هذا الشعب.

وبالنسبة لبعض دارسي هذه الحقبة، كانت دوافع التوسع الأوروبي مادية وطبيعية، حيث كتب فالرشتاين: "كان الغذاء والوقود هو ما كانت أوروبا الغربية تحتاجه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر".(٢) ومن ناحية أخرى، يقول براودل إن زيادة سكان غرب البحر المتوسط كانت المدخل إلى التوسع.(٣) وهناك أيضا من يزعمون مثل ليفرمور أن الدافع كان منهجيا تنظيميا، أي إن الآلة العسكرية "لاسترداد" أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) كانت تحتاج إلى "فرص مستهدفة" جديدة، حتى لا تتحول إلى الداخل.(٤) وكما ذكرنا سلفا، فإن آخرين أكثر اهتماما بالأيديولوجية افترضوا أن القضية الحقيقية كانت تتمثل في هزيمة المسلمين وإحياء المسيحية.(٥) ولا يبدو أن أيا من هذا التفسيرات يعتبر صحيحا تماما أو محددا بصورة كافية، على الرغم من عرضها كلها بطريقة مقنعة.

وكانت النتيجة على المستوى العام من التجميع تتمثل في أن تحليل البرتغال في القرن الخامس عشر ودورها التاريخي سيبدو أنه ليس لديه مقياس مناسب لتفكيك هذا التشابك في الحاجات والأطراف والقوى السياسية. وعلى الرغم من أن عدد هذه القوى يمكن أن يكون مربكا، فإن إعادة بناء علاقات القوة الحقيقية بين هذه الأطراف يمكن أن يبسط مهمة تحديدها وتقييمها.

وعندما نتحدث بالمصطلحات السياسية الدقيقة، فإن إحدى العلاقات الحيوية والمهملة بصفة عامة تتضمن طبقة حاكمة إقطاعية محلية ولكنها ضعيفة نسبيا، إلا أن لها حلفاء من الطبقات الحاكمة الأكثر قوة خارج الوطن. وبالتحديد، فقد وصل الأمر إلى تحالف بين أسرة أفيس House of Avis في البرتغال بنبالتها الأسرية وبرجوازيتها الحديثة،[٦] وسلسلة من الأرستقراطيات الرأسمالية التي ترعرعت في إنجلترا بسبب الحروب والحرب الأهلية، والفوضى السياسية، والركود الاقتصادي، والارتباط الوثيق بالبرجوازية البريطانية الصاعدة. حيث يقول بوستان Postan عن إنجلترا في القرن الخامس عشر:

"كانت فترة النمو الكبير للرأسمالية الإنجليزية تتمثل في المرحلة المبكرة من حرب المائة عام، فهي الفترة التي تضافر فيها كل من مقتضيات التمويل الملكي، التجارب الجيدة في الضرائب، مشروعات المضاربة في الصوف، انهيار التمويل الإيطالي، وبداية صناعة القماش الجديدة، من أجل ظهور سلالة جديدة من ممولي الحروب والمضاربين التجاريين وقادة الجيوش ومحتكري الصوف".[٧]

ومن الناحية التاريخية، فإن العلاقة بين الطبقات الحاكمة الناضجة في البرتغال وإنجلترا اختتمت في نهاية القرن الخامس عشر بمعاهدة وندسور (١٣٨٦)، التي أمنت العرش البرتغالي من طموحات مملكة قشتالة، واختتمت بذاتها بزواج خواو الأفيسي Joao of avis وفيليبا أميرة لانكستر Philippa of Lancaster ابنة جون الجونتي John of Gaunt.

وكان الإنجليز يعتقدون أن هذا التحالف سيؤدي في النهاية إلى الاستيلاء على عرش قشتالة.[٨] ولكن خطط الإنجليز في قشتالة لم تتحقق قط. إذ إن نهاية حرب المائة عام، ونتائجها الكارثية على المصالح الإقليمية الإنجليزية في القارة، والحرب الأهلية في إنجلترا والقوة القومية الخاصة بإسبانيا في نهاية القرن، بددت هذه المصالح. ولكن العلاقة مع البرتغال أثبتت أنها قيمة جدا لدرجة أنها لا تزال تحظى باهتمام المؤرخين الإنجليز. فمثلا، كتب كاروس ويلسون Carus Wilson أن:

" علاقات البرتغال مع بريطانيا كانت ودية دوما. فقد كانت هاتان الدولتان تتصرفان كحليفين طبيعيين، لأن كلا منهما لم يكن على وفاق مع قشتالة. وكذلك كانت هناك قرابة بين أسرتيهما الحاكمتين، وكان رجال الدولتين مولودين بحارة ومغامرين... واستمرت الصداقة... على الرغم من انقطاع العلاقات مؤقتا بسبب أعمال العنف وتغيرات الأسرة الحاكمة في إنجلترا؛ وطوال القرن الخامس عشر كانت النصوص الواردة في هذا الميثاق التجاري [معاهدة وندسور] سارية، وكان ملكا الدولتين ملتزمين بمعاقبة من ينتهكها".[٩]

ويقول بوكسر C. R. Boxer إن هؤلاء "الملوك" البرتغاليين كانوا بالطبع "أمراء شبه إنجليز". فقد ربطت الحرب هاتين الأسرتين النبيلتين معا. وكانت الحرب الأساس الحقيقي لوجودهما. وأخيرا، وسعت الحرب تحالفهما السياسي حتى حقق ما استطاع أن يستمر لفترات تاريخية، حيث استمر لعدة قرون على الرغم من "انقطاع العلاقات مؤقتا". وبغض النظر عن كل هذا، ففي القرن الخامس عشر – عندما توافرت الظروف اللازمة لتجارة الرقيق عبر الأطلنطي – وفرت العلاقة بين البرجوازية الصاعدة المقيمة في الدولتين الأساس لتجارة شمال الأطلنطي والأسس التجارية التي سيطرت على

اقتصادياتها طوال القرون الثلاثة التالية. وقد ثبت أن هذا لم يكن أمرا هينا بالنسبة للاتجاهات التي تطورت فيها تجارة الرقيق.

برجوازية جنوة وعصر الكشوف

ومع ذلك، كان الأكثر أهمية من هذه العلاقات السياسية، بل والأكثر ارتباطا مباشرة باهتمامنا بالبرتغاليين – باعتبارهم القوة التي أرست أساس تجارة الرقيق عبر الأطلنطي – يتمثل في التجار والمصرفيين ذوي الأصول الإيطالية الذين استعمروا البرتغال (والممالك الإسبانية) خلال هذه الفترة. وعلى الرغم من أن استخدام فيرلندن لمصطلح "أمة" يعتبر رمزيا أكثر منه سياسيا، فإن توصيفه للأهمية التاريخية لهؤلاء الرأسماليين يعتبر مفيدا، إذ يقول:

"كانت إيطاليا الأمة الاستعمارية الوحيدة حقيقة خلال العصور الوسطى. فمنذ بداية الحروب الصليبية فصاعدا، كان هناك اهتمام بالشرق وبالإمكانات الاقتصادية والاستعمارية المتاحة هناك بسبب التراجع التدريجي للإمبراطورية البيزنطية. وكان أكثر من أبدى هذا الاهتمام كل من البندقية وبيزا وجنوة ثم فلورنسا وجنوب إيطاليا تحت حكم الأنجيفيين Angevins والأراجونيين أيضا. وفي نفس الوقت تقريبا، ظهر التجار الإيطاليون في شبه جزيرة أيبيريا أيضا، ومارسوا تأثيرا استمر حتى الفترة الحديثة، في كل من الاقتصاد الأوروبي والاستعماري.[١٠]

وتقول فرجينيا راو:

"إن أقدم المراجع الموثقة لدينا بشأن أنشطة التجار الإيطاليين في البرتغال ترجع إلى القرن الثالث عشر. فعندما جذبوا اهتمامنا، كانوا قد شقوا

طريقهم بجرأة سلفا في سوق المال البرتغالي".[11] وكان هؤلاء "التجار الإيطاليون" في الحقيقة (حسب ترتيب الأهمية) من جنوة وأبناء بياتشينزا وميلانو وفلورنسا والبندقية.[12]

وعلاوة على ذلك، نعلم من "راو" أيضا أن لشبونة أصبحت بحلول القرن الرابع عشر "المركز الرئيس لتجارة البندقية. وكانت هذه الفترة الزمنية تتسم بوضوح بتعيين ملك دينيس لأحد أبناء جنوة (مانويل بيزانيو Manuel Pezagno)[13] في البحرية البرتغالية في ١٣١٧".[14]

وعندما أصبحت مدينة لشبونة وميناء أوبورتو Oporto قاعدتين للعمل، تسلل الرأسماليون التجاريون من جنوة إلى كل أنحاء هيكل القوة البرتغالية: حيث قدموا القروض للمملكة، ومولوا طموحات ومغامرات الدولة، واحتكروا الأمن بأوامر ملكية، وأصبحوا في النهاية نبلاء برتغاليين من خلال سلسلة من الأحداث تشمل قرارات ملكية والزواج من النبلاء المحليين والمشاركة في المشروعات العسكرية التي تنظمها الدولة.[15] وقد تعرضت دراسة راو بالتفصيل لأسرة لوميليني بداية من ظهور التاجر بارثولوميو لوميليني Bartolomeu Lomellini في البرتغال في ١٤٢٤، وانتهاء باندماج ورثته وأقاربه في أرستقراطية جزر ماديرا المستقرة ونبلاء شبه جزيرة أيبيريا بنهاية القرن. ومن خلال هذه الدراسة يتضح أن أمراء التجارة في جنوة كانوا أكثر تكيفا مقارنة بمنافسيهم (الإيطاليين). فعلى عكس تجار مدينة البندقية المتغطرسين، قدم تجار جنوة أنفسهم لضيوفهم ماليا وفكريا وأخويا. وكما يقول فالرشتاين:

"بقدر ما كانت [البرجوازية البرتغالية] تفتقر إلى رأس المال، فقد وجدوه متاحا لدى تجار جنوة الذين – كانوا لأسباب ترجع إليهم وتتعلق بمنافستهم

مع البندقية – مستعدين لتمويل البرتغاليين. وخفت الصراع المحتمل بين البرجوازية المحلية والأجنبية بسبب رغبة تجارة جنوة في الاندماج في الثقافة البرتغالية بمرور الوقت".(١٦)

وبينما استمر تجارة البندقية في التركيز على السيطرة على البحر المتوسط، وركز تجار فلورنسا على مصارفهم وتجارة الصوف في تجارة القارة وشمال الأطلنطي، هيأ تجار جنوة أنفسهم لاستغلال مزايا التجارة التي كانت تتقدم فعلا من المغرب إلى عرض المحيط الأطلنطي ثم اجتيازا للمحيط نفسه في النهاية.(١٧) وبحلول منتصف القرن الخامس عشر، كان رأسمالهم هو الذي حدد اتجاه وإيقاع "الكشوف". حيث يلاحظ فيرلندن:

"أصبح ميناء لاجوس Lagos البرتغالي منذ حوالي ١٣١٠ ميناء مهمًا على طريق القوافل الإيطالية إلى شمال غرب أوروبا. وإذا تذكرنا أن لاجوس كانت – أكثر حتى من ميناء ساجرس البرتغالي– نقطة البداية للاكتشافات البرتغالية الأولى، فإن أهمية الروابط المستقرة هناك مع البحارة والتجار الإيطاليين تزداد وضوحا".(١٨)

وكذلك، كانت لاجوس المكان المفضل لهؤلاء الإيطاليين في البرتغال، والذي سهل تلبية مطالب البرتغال في روما، مما أدى إلى تعاطف التأثيرات البابوية مع التجارة البرتغالية وإمبريالية الدولة،(١٩) وكان الرأسماليون من جنوة هم الذين حافظوا على العلاقات بين الطبقات الحاكمة الإنجليزية والبرتغالية بجعل العلاقة مع التجارة الإنجليزية والدولة مرتبطة مباشرة بوجودهم في البرتغال.(٢٠)

وفي إنجلترا، كما في البرتغال، كان تجار جنوة يمثلون معظم التجار

الإيطاليين الذين كانوا بدورهم يمثلون معظم التجار الغرباء في تلك المملكة خلال القرن الخامس عشر.[٢١] فهناك أيضا حصلوا على إعفاءات ملكية من الضرائب والقيود التجارية، واستطاعوا احتكار السلع المستوردة المتنوعة مثل الأدوية الأجنبية (مثل مولاس السكر الطبي) وغيره من العقاقير الرائجة خلال ذلك القرن،[٢٢] والسكر والفلين البرتغالي الذي أصبح محل عقود احتكار مطلقة في أماكن إنتاجه الأصلية.[٢٣] وأخيرا، أصبح تجار جنوة يحتلون مراكز خاصة في التجارة الإنجليزية في إنجلترا أيضا، وذلك كمقرضين للملوك، ووكلاء وتجار للاحتكارات الملكية، وفي ذلك يقول كاروس ويلسون:

"كان الإنجليز يتذمرون من الامتيازات السخية التي يحصل عليها هؤلاء التجار بقدر وافر من الملوك الممولين لهم، وكانوا يلتمسون قصر هذه الامتيازات على جلب السلع من صانعيها؛ ونظرا لعدم القدرة على التنافس مع المدن الإيطالية القوية بثروتها، حظيت البلدات الإنجليزية الصغيرة باهتمام قليل".[٢٤]

وفي إنجلترا الممزقة بسبب الحرب الأهلية، ومؤامرات البلاط، والطبقة الأرستقراطية العنيدة، كان الدعم المالي من الإيطاليين بالإضافة إلى تجارتهم ومصادر المعلومات المصاحبة لها أمرا حاسما. وهكذا ضمنت المملكة الإنجليزية – من خلال المتعاونين التجاريين والممولين الإيطاليين وغيرهم من الأجانب – الاستقلال عن الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية المحلية في ذلك الوقت.

وبهذه الطريقة رسخ الرأسماليون الإيطاليون أنفسهم للقيام بدور حيوي

في تحديد إيقاع وطبيعة وهيكل تجارة الرقيق المبكرة عبر الأطلنطي في القرن التالي. فلولاهم وبدون مشاركة جزء من الأرستقراطية الإنجليزية، والطبقات التجارية الإنجليزية والبرتغالية، والكهنة النبلاء في روما طبعا، لما كانت الإمبراطورية البرتغالية قد ظهرت إلى الوجود. ولولا تلك الإمبراطورية، لما كان أي شيء على ما هو عليه.

ومع ذلك، ظهرت الإمبراطورية البرتغالية إلى الوجود، ومن منتصف القرن الخامس عشر وطوال المائة سنة التالية - لحسن حظ كل من مواطنيها ورعاياها الأجانب - اجتاح العالم خليطها المكون من الجشع والتقوى، والوحشية والعسكرية والغطرسة الثقافية، وسياسة الدولة. في ظل الاهتمام الكبير لتجار المسافات الطويلة في العصور الوسطى لم يكن مدهشا أن هبت رياح المصالح التجارية على الإمبراطورية في الجنوب والشرق أولا، فازدهرت مدن مثل سنجامبيا Senegambia وإلمينا Elmina ولواندا Luanda على الساحل الغربي لأفريقيا؛ وصوفالا Sofala وموزمبيق وممباسا على الساحل الشرقي لأفريقيا؛ وهرمز على الخليج الفارسي؛ وجوا Goa على ساحل مالابار في الهند؛ وملقا في الملايو؛ وتيرنيت في جزر الملوك. وإذا كانت دوافعهم المتعددة لا تزال تحيرنا، إلا أن القضية كانت واضحة بالنسبة لبعضهم على الأقل. إذ يقول بوكسر:

"عندما وصل البرتغاليون أخيرا إلى الشاطئ في قاليقوط (الهند)، سألهم بعض التجار التونسيين المندهشين في الحشد: أي شيطان جاء بكم كل هذه المسافة. كانت الإجابة التي قدمها رجال دا جاما هي "المسيحيون والتوابل"... وشكل هذا الارتباط الوثيق بين الرب وشيطان الجشع الشكل المميز للإمبراطورية التي أسسها البرتغاليون في الشرق، وفي أفريقيا والبرازيل

أيضا بالنسبة لهذا الأمر".(٢٥)

وبمجرد أن دار البرتغاليون حول ما كان يمثل لهم "رأس الرجاء الصالح" (وربما حتى قبل أن يصلوا إلى تلك النقطة) أصبحت هذه الرحلات تشبه فعلا رحلات الصينيين الذين سبقوهم. ونحن نشير هنا طبعا إلى أساطيل البعثات الإمبراطورية "السبعة الكبار" التي قادها الأدميرال المسلم شنج هو Cheng Ho فيما بين ١٤٠٥ و ١٤٣٤ (مات "شنج هو" في ١٤٣٤) والتي اخترقت بثقة هذه المياه للتجارة والنهب.(٢٦) وكانت المغامرات الصينية بهذه الأساطيل من السفن الشراعية التي تحمل حوالي ٤٠ ألف فرد تشبه قوافل من "الصواريخ العابرة للقارات"، كما يقول ويليام أبلمان ويليامز William Appleman Williams(٢٧) حيث تحدث الإمبراطورية الصينية بأساطيلها بنجاح التجار العرب والمسلمين الذين تعودوا على سيطرتهم الخاصة على النشاط التجاري في شرق أفريقيا والمحيط الهندي. وهذا لم يسعد السادة السابقين لتجارة هذه البحار، ولكن يبدو أن هذا لم يهمهم. ومهما كان وزن مقاومتهم، إلا أنها لم تصل إلى أن تعتبر من بين الأسباب التي يحتمل أنها كانت وراء القرار الإمبراطوري المفاجئ بالتخلي عن المزيد من المغامرات في هذه المنطقة.(٢٨) إذ يبدو أن هذا الانسحاب كان شأنا داخليا بالنسبة للإمبراطورية الصينية.

واستطاع البرتغاليون - بجرأة قليلة وبمكر كبير - تحقيق إزاحة التجار "المقيمين" في المنطقة بحلول نهاية القرن وبدايات القرن التالي. وفجأة أصبحت الأسواق البحرية التي كانت مطمعا للأوروبيين في أيدي البرتغاليين/الإيطاليين - تجارة أفريقيا وجنوب الأطلنطي في الذهب، الملح، التوابل، الصمغ، الفلين، الحبوب، السكر، الرقيق؛ والتجارة مع الشرق في التوابل والخشب

والأصباغ.[٣٠] ومع ذلك، لم يكن هذا الاحتكار البرتغالي بلا منازع في أوروبا.[٣١] ففي منطقة الأطلنطي، ألقت الطبقات التجارية في قشتالة بظلالها على المشروعات المنافسة على ساحل غينيا منذ وقت مبكر من ١٤٥٣-١٤٥٤ على الأقل، وأطلقت ادعاءاتها من خلال تاج قشتالة على كل من جزر الكناري وغينيا[٣٢]. واستمر الجدل بين "الملكين الكاثوليكيين" حتى بعد حسمه رسميا بمعاهدة طليطلة (١٤٨٠) وحتى القرن التالي. وكان ذلك محاطا بغارات تشنها محطات التجارة والشحن التجارية لكل طرف منهما، وبالادعاءات والادعاءات المضادة في الامتيازات القديمة والبابوية.[٣٣] وعلى الرغم من أن فشلها أثبت أنها مجرد هدنة مؤقتة، فإن الأمر المهم هو أن الادعاءات الملكية لإسبانيا تلاشت. فمع إغلاق جنوب الأطلنطي أمام الاستغلال التجاري المشروع، بدأ التاج الإسباني وشركاؤه المحليون والإيطاليون في استكشاف احتمالات وجود طريق مختلف تماما إلى الشرق.[٣٤]

أموال جنوة والأطلنطي والأسطورة

تمكنت إسبانيا من اكتشاف طريق غربي يؤدي إلى "الشرق" بفضل تجار وبحارة جنوة، كما كان الحال بالنسبة إلى الإمبراطورية البرتغالية في جزر الهند الغربية. وبالتحديد، فإنه في إشبيلية في ١٤٩٢، تركزت خبرة وطاقات وطموحات تجارة جنوة في شخصية كريستوفلو كولومبو (كريستوفر كولومبس). ومع ذلك، لم يكن الأمر حدثا بسيطا أو مباشرا، فقد كانت هناك بعض عناصر هذه العلاقة بين الإسبان والإيطاليين تبدو غير متوقعة تماما.

وعلى الرغم من أن معظم ما نعرفه عنه قبل رحلته إلى إشبيلية في ١٤٨٥ يظل غامضا، كانت تجربة كولومبس من نواحٍ عدة نتيجة برجوازية طبيعية إن لم تكن نمطية لرأسمال وتجارة وصناعة جنوة.

ولد كولومبس في ١٤٥١ تقريبا لوالدين قد ترجع أصولهما إلى جمهورية ليجوريا(*)، وفي الرابعة عشرة من عمره، تولى مهنة أبيه: نسج الصوف.[٣٥] وعلى الرغم من التصورات الخيالية لماضيه، والتي يمكن أن يقدمها كولومبس وابنه فرديناند ولاس، يبدو أنه ظل نساجا حتى أوائل العشرينيات، وشارك في رحلات عارضة على هذا الأساس إلى ممتلكات تابعة لجنوة في البحر المتوسط.[٣٦] وحوالي ١٤٧٦، تضعه وثائق معاصريه على رحلة إلى إنجلترا قام بها المصرفيان جوفاني أنتونيو ودي نجرو نيكولاس سبينولا. ولكن هذه الرحلة تعرضت للقرصنة الفرنسية، ولجأ الناجون ومنهم كولومبس إلى لشبونة.[٣٧] واستقر كولومبس في لشبونة، ومثل بعض البرجوازيين الجنويين المشهورين، تزوج فعلا من نبيلة برتغالية. ففي حالته، أصبحت فيليبا مونيتز بيريستريللو – التي كان لأسرتها ممتلكات على جزيرة بورتو سانتو قرب ماديرا – زوجته ورفيقته في تيار التوسع البرتغالي عبر البحار.[٣٨]

ومن جميع الجوانب، فإن مفخرة إعادة اكتشاف كولومبس "للعالم الجديد" وراء المحيط كان يجب أن تنسب للتاج البرتغالي. فقد أقام كولومبس في لشبونة في ١٤٧٧، وبعد ذلك بخمس سنوات قام بمحاولته الأولى لطلب

(*) جمهورية ليجوريا The Ligurian Republic: دولة تابعة قصيرة الأجل أقامها نابليون في ١٤ يونيو عام ١٧٩٧. تكونت من جمهورية جنوة القديمة والتي تشمل معظم إقليم ليجوريا في شمال غرب إيطاليا والإقطاعيات الإمبريالية الصغيرة التي تملكها أسرة سافوي داخل أراضيها. صدر دستورها الأول في ٢٢ ديسمبر عام ١٧٩٧ مؤسسًا جمهورية إدارية. احتلتها القوات النمساوية لفترة وجيزة في عام ١٨٠٠، ولكن سرعان ما عاد نابليون بجيشه. وتم أيضًا نشر الدستور الجديد في عام ١٨٠١. في يونيو عام ١٨٠٥، تم ضم المنطقة مباشرة إلى فرنسا، وبعد سقوط نابليون في عام ١٨١٤، تم استعادة الجمهورية في الفترة بين ٢٨ إبريل و ٢٨ يولية. بعد مؤتمر فيينا، صارت تابعة لمملكة سيردينيا التي ضمتها في يناير عام ١٨١٥. (المترجم)

رعاية الدولة (ومنح الامتيازات الإقطاعية) إلى البلاط الملكي للبرتغال. ومن الطريف أنه لم يتضح بعد ما الذي كان يدور في ذهن كولومبس في هذه المرحلة بشأن ما كان يصفه باستمرار على أنه الرسالة المقدرة سماويا. فمن المحتمل أن الطلب الأول لكولومبس (١٤٨٢) كان يتعلق بجزر في الأطلنطي، وليس البحث عن الأرض؛ ولكن بحلول ١٤٨٤، تحدث طلب آخر عن اليابان والصين.[٣٩] ومن الواضح أن طلب كولومبس كان معدا بصورة غير جيدة (يعتقد ديفيز أن كولومبس لم يتقن اللاتينية المكتوبة حتى ١٤٨٩، وأنه لم يتقن كتابة الإيطالية أو البرتغالية قط)، وكانت حساباته غير مقنعة، وكان استخدامه للمعلومات الكوزموجرافية موضع شك.[٤٠] إذ إن المجلس الرياضي للبلاط - بعد سنة من دراسة مقترح كولومبس والتشاور مع مارتن بيهين Martin Behain[٤١] كارتوجرافي نورمبيرج - أقنع الملك خواو الثاني برفض مشروع كولومبس على أساس أن خواو لديه "معلومات تتعلق بالأراضي الغربية أكثر إيجابية من تصورات كولومبس".[٤٢]

وإذا كانت اللجنة الفنية لدى خواو تبدو الآن أنها كانت رافضة قليلا لمشروع كولومبس، فإنه يمكن قول نفس الشيء عن قشتالة، ودوقات الأندلس والتاج الإنجليزي (في إنجلترا، تم تمثيل كولومبس عن طريق أخيه بارثولوميو) - حيث رفض كل منهم طلبات الجنويين للمساعدة فيما بين ١٤٨٥ -١٤٨٩.

ومع ذلك، يبدو أن البرتغاليين كانوا يقفون على أرض صلبة، لأنه على الأقل بحلول ١٤٨٦ كان هناك بعض المؤشرات على أن بعض بحارتهم قد شاهدوا أرضا غرب الآزور. وكان فيرلندن واثقا جدا من هذا لدرجة أنه

استنتج أن: "الشيء المؤكد أنه في ١٤٨٦ لم يعد الحديث مقصورًا على "جزيرة" واحدة من "المدن السبعة"، ولكنه كان عن احتمال وجود أرخبيل أو حتى قارة. ومن الواضح إذن أن فترة الجزيرة المفترضة أو الأسطورية قد انتهت.[٤٣] وبالنسبة إلى البعض في البلاط - كان الطريق الغربي عبر البحار إلى اليابان والصين - وهي المسافة التي حسبها الرياضي والكوزموجرافي الفلورنسي توسكانيللي بحوالي ٥٠٠٠ ميل، وحسبها كولومبس بحوالي ٣٠٠٠ ميل - يبدو احتمالا واضحا.[٤٤]

وهكذا فإنه في ١٤٨٧، أعلن التاج البرتغالي استكشافه الخاص لطريق غربي، وهي نفس السنة التي شهدت رعاية بيرو دا جوفيلهاو وأفونسو دا بايفا لمصالح البرتغال في الهند والجزيرة العربية وإثيوبيا، ودوران بارثولوميو دياز حول رأس الرجاء الصالح (وهي الإسهامات الثلاثة في التزام البرتغال بالطريق الأفريقي إلى الشرق).[٤٥]

ونظرا لأن البرجوازية التي سادت احتلال تجار جنوة للشبونة كانت لا ترغب في إظهار أي اهتمام ملموس بالطريق الغربي، فإن مشاركة التاج البرتغالي في المشروع [٤٦] كانت مقصورة على التنازل عن السلطات التشريعية والحقوق الإقليمية في الأرض الجديدة. ومن الواضح أن التاج لم يكن قادرا على أكثر من هذا عندما حاول العمل بصورة مستقلة عن شركائه التجاريين الرئيسيين. ولسوء الحظ بالنسبة لمملكة البرتغال، لم يستطع فان أولمن وإيستريتو العودة من رحلتهما الشتوية.

وكان كولومبس أحسن حظا من سابقيه في الأطلنطي، لأنه استفاد من تجاربهم على الأقل. إذ إن فيرلندن مقتنع بأن "كولومبس لا بد أن يكون قد

علم بالرحلة في إشبيلية، لأنه كان هناك اتصال نشط بين المستعمرة الإيطالية في لشبونة وتلك التي في الميناء الأندلسي الكبير".(٤٧) وبالطبع فإن هذا يتضمن أن الأسر الجنوية وشركاتها المشتركة في رأس المال ومصارفها كانت تمارس تبادل المعلومات التي يمكن أن تكون ذات قيمة لمصالحها التجارية. ومهما كان الأمر، فقد وجد كولومبس شيئا ذا قيمة في إشبيلية:

"كان المصرفيون الإيطاليون – الذين كان الأتراك يعرقلون معظم أنشطتهم – يمولون جزءًا كبيرا من التجارة المحمولة عبر المحيط. وكانت هناك مستعمرة تجارية لتجار جنوة في إشبيلية، وروابط محلية مع أسرة سبينولا ودي نجري المصرفية الإيطالية، التي كانت تربطها علاقة صداقة سابقة مع كولومبس القديم. وتم توفير قرض لخطة كولومبس عن طريق فرانشيسكو بينيللي، وهو مصرفي جنوي في إشبيلية والمدير المشارك لشرطة الدولة الإسبانية (المعروفة باسم الأخوّة المقدسة Santa Hermandad). ولم يكن مدير الشرطة صديق بينيللي سوى لويس دى سانتاجيل Luis de Santagel وزير الخزانة الملكية".(٤٨)

وبمساعدة هذين الجنويين عظيمي الشأن على الأقل، وعدة أشكال من المساعدة من أسرة بنزون Pinzon القوية، التي سيطرت على ميناء بالوس دى لا فرونتيرا،(٤٩) كان لدى كولومبس مشروع يستحق المساندة الرسمية من التاج الإسباني. وإذا تذكرنا أن ظهور كولومبس أمام فرديناند وإيزابيلا تزامن تاريخيا مع اللحظة التي كان فيها التاج الإسباني عازما على تحقيق رسالته التي حددها لنفسه لتوحيد إسبانيا، وفرض مركزية سلطة الدولة، وقهر منافسيه داخل الأرستقراطية الإسبانية، والحصول على مصدر مستقل لرأس

المال لذاته، فقد كان كولومبس ومعاونوه ورفاقه الجنويـون يمثلـون الأداة المناسبة تماما. وفي ذلك يقول تشارلس فرلندن:

"كان الدعم الإيطالي مقبولا بلا تردد من الحكام. إذ إن الملك فرديناند الكاثوليكي كان يقدر أهمية رأس المال الإيطالي في ذلك الوقت الحرج بالنسبة لمملكته. ونظرا لقدومه من شرق شبه الجزيرة، كان معتادا على التطلع إلى البحر المتوسط وإيطاليا، وكان يعتبر العلاقات الاقتصادية مع تلك الدولة واضحة وطبيعية. وقد فرض هذا التوجه الذهني سياسة مماثلة في أندلسية، وجزر كناريا، وفي أمريكا، وذلك عندما وضع القدر السيطرة على هذه المناطق بين يديه".(٥٠)

لقد كان هناك مجتمع غني يعتمد وجوده على استمرار اعتماده على الدولة. إذ إن التجارة الاستعمارية التي سيطر عليها المجتمع الجنوي (والإيطالي)، ورأس المال الذي كانت تتحكم فيه، ورصيد العلوم والثقافة الذي كانت تملكه، كل ذلك كان إسبانيا لمصلحة الدولة، بغض النظر عن القوة والأهمية المستقلة التي يمكن أن تبدو عليها. وفي ذلك الوقت، كان من مصلحة الدولة أن توازن بين الإيطاليين (واليهود أيضا، وإن لم يكن لفترة طويلة) مقابل برجوازيتها وأرستقراطيتها التي لا تزال عسكرية.(٥١) وهكذا كان حظ كولومبس موفقا.

وحين نقدر الامتيازات الاستثنائية التي حصل عليها كولومبس من شركائه من الملوك الإسبان (في أبريل من تلك السنة في "سانتا في" Santa Fe) حتى وصول السفن تحت قيادته إلى جزر الهند الغربية في أكتوبر ١٤٩٢، فإنه يمكن القول دون مبالغة إن إنجازات كولومبس في ١٤٩٢ وصلت إلى مستوى

أعلى من الثروة المالية الضخمة التي كانت تكونها الأسر الرأسمالية الجنوية والإيطالية الأخرى في شبه الجزيرة الأيبيرية طوال ٣٠٠ سنة تقريبا.

فعندما توافق كولومبس مع فرديناند وإيزابيلا، كان الطريق ممهدا أمامه عن طريق أمراء البحار من جنوة الذين خدموا الملوك البرتغاليين والإسبان لقرون؛ وتجار جنوة وبيزا وفلورنسا الذين تحملوا المخاطر المالية الأولية لاستعمار جزر الآزور وماديرا البرتغالية، ومجموعة جزر كناريا الإسبانية. كما صار الطريق أيضا ممهدا أمام كولمبس إلى مقرضي الأموال الإيطاليين الذين جمعوا رؤوس أموالهم من الجزائر وسبتة في شمال أفريقيا، إلى بلدتي الميناء (إلمينا Elmina) ولواندا على الساحل الغربي من القارة الأفريقية، وشرقا إلى جزر الملوك في جنوب آسيا وناجازاكي في الطرف الجنوبي لليابان. وبالمثل كان توافق كولومبس مع فرديناند وإيزابيلا قد عبد الطريق أمامه للوصول إلى البرجوازية الإيطالية التي أصبحت مصالحها المالية والفنية وشئونها التجارية مرتبطة بمصالح الدولتين الإسبانية والبرتغالية وأرستقراطيتيهما شديدتي المغامرة.[٥٢]

وسواء كان كولومبس بحارا استثنائيا (كما يصر صمويل إليوت موريسون)[٥٣] وسواء كانت شخصيته الطاغية وحماسته الدينية قد أثرت على إيزابيلا ومستشاريها الدينيين،[٥٤] فإن كل هذا يحظى بأهمية ثانوية بالمقارنة بالحقيقة الفريدة لأصوله والتراث الذي ورثه كجنوي.[٥٥]

وحينما كان كولومبس ومن معه (والذين جاؤوا بعده) في مواجهة الشعوب الأصلية في نصف الكرة الغربي من الأراواك والتاينو والأزتيك والمايا والكوتشوا وغيرهم، فإن الدوافع التي كانت تحرك كولومبس وفريقه

هي خليط معقد من السلطة والامتيازات الإقطاعية الممزوجة بشهوات الرأسمالية التجارية الصاعدة، والطموحات الوطنية، والدوافع التبشيرية.

العمالة الأفريقية باعتبارها رأس مال

كان استخدام التاج الإسباني (والبرتغالي بعده سريعا) وأصحاب الامتيازات التجارية لعمالة الرقيق في العالم الجديد خطوة طبيعية جدا. فقد كان عمل الرقيق هو الأساس الذي قامت عليه التجارة الاستعمارية في البحر المتوسط،[٥٦] وأفريقيا وجزر الهند الغربية؛ وكذلك كانت أساس الاستعمار في جزر كناريا والآزور وماديرا. ففي البداية ظهرت العلاقة بين الرأسمالية والاستعمار وعمل الرق من قبيل الصدفة غالبا. ويرى البعض أنها لا تزال قائمة. وفي ذلك يقول فيليب كورتين:

"كان الاختيار بين الحرية والرق... يعتمد على المؤسسات الأوروبية و"العادات الذهنية"... وكان أحدها يتمثل في تقليد البحر المتوسط الذي يقضي بسد الفجوة بين طلب وعرض العمل عن طريق استيراد الرقيق الأجانب. حيث استخدم تجار البندقية هذه الوسيلة في مستعمراتهم شرق البحر المتوسط، حين لعب الرقيق المجلوبون دورا مهما في تطور الزراعة في كريت وقبرص وخيوس Chios. ولا شك أن هذه "العادة المؤسسية" كانت تزداد قوة بسبب حقيقة أن البندقية كانت دولة مدينة، وليست وحدة إقليمية كبيرة ذات موارد بشرية وفيرة يمكن حشدها وإرسالها عبر البحار في صورة قوة استعمارية.[٥٧]

وعلى الرغم من لغة فيليب كورتين العفوية نوعا ما في وصف هذه العملية، يجب أن نتذكر أن أوليفر كوكس Oliver Cox اعتبر شئون تجارة البندقية "أول تجارة منظمة رأسماليا في تاريخ البشرية".(٥٨) ومع ذلك، وكما ذكرنا سلفا، فإن تجارة الرقيق كانت أكثر أهمية بالنسبة لتجارة البندقية من عمل الرقيق.

ومع ذلك، فمع نضوج الرأسمالية الإيطالية، تغير هذا التركيز على التجارة لثلاثة أسباب. وباختصار، فقد كان هناك توسع لقوة الأتراك العثمانيين في شرق البحر المتوسط في القرن الخامس عشر، وامتداد زراعة قصب السكر من آسيا الصغرى إلى قبرص وصقلية وجزر الأطلنطي (ماديرا، الرأس الأخضر، والآزور) عند نهاية ذلك القرن، وتعاون رأسماليي جنوة مع الطبقات الحاكمة في أيبيريا. وتمكنت هذه الأحداث من تحويل العلاقات العرضية بين الرأسمالية وتجارة الرقيق إلى الأساس الحقيقي للمشروع الاستعماري في العالم الجديد.(٥٩)

لقد أصبحت ماديرا بمثابة المكان الطبيعي والتاريخي الذي تبلورت فيه هذه العمليات. حيث يلاحظ سيدني جرينفيلد Sidney Greenfield أنه:

"مع دخول قصب السكر ونجاحه التجاري... أدى سكان جزر كناريا وبربر المغرب – وبعدهم الأفارقة – العمل البدني اللازم الذي مكن المستوطنين ذوي الحراك الاجتماعي الصاعد في ماديرا من تطوير نمط حياة مشتق من تقاليد النبالة القارية، ولكنه يعتمد على الجهود البدنية للرقيق الذين ينتجون محاصيل تجارية لبيعها في أسواق القارة، والذي ميز المؤسسة الاجتماعية الصاعدة في مزارع الرقيق".(٦٠)

وكان "أدميرال البحر المحيط" بمثابة الرابط المجسم. إذ إن كولومبس، ابن جنوة، وعميل التاج الإسباني، التاجر الطموح الذي تزوج من إحدى الأسر البرتغالية الأقل نبالة، والتي كونت ثروتها الجديدة من الاستعمار المبكر لماديرا وزراعة قصب السكر، ومؤسس المستعمرات الإسبانية في الكاريبي، أحضر أيضا السكر إلى العالم الجديد.(٦١) وفي إنجلترا، تزايد الحسد تجاه الاحتكار الإسباني بسبب القوة البحرية للإمبراطورية الإسبانية طوال القرن ونصف القرن التاليين على الأقل. حيث أصبحت "جزر الهند الغربية" المرتبطة بكولومبس تعرف لدى التجار الإنجليز باسم "جزر السكر".(٦٢)

ومع ذلك، وبالنسبة لذلك الوقت - أي الجزء الأكبر من القرن السادس عشر - سيطر المشروع الإيطالي البرتغالي على التجارة مع الساحل الأطلنطي لأفريقيا. وهذا يعني أن هؤلاء التجار كانوا يوردون العمالة الأفريقية للمزارع الاستعمارية في كل من: ساو تومي، الرأس الأخضر، الآزور، ماديرا، وجزر الهند الغربية، ومناجم إسبانيا الجديدة وبيرو. إذ يقول ليسلي روت الابن Leslie Rout Jr. في توافق تام تقريبا مع غيره من دارسي التجارة:

"حتى ١٥٧٠، احتكر البرتغاليون تجارة الرقيق المربحة كلها لأنفسهم".(٦٣) ومع نمو المستعمرات، كما تزايدت شهوتهم لثروات جزر الهند الغربية،(٦٤) التي كانت بمثابة "غنائم الحرب الأهلية". فبالنسبة لأنجولا، وفي وقت مبكر حوالي ١٥٣٠، قدر يان فانسينا Jan Vansina أن: "أرقام الصادرات السنوية كانت تتراوح من أربعة إلى خمسة آلاف رقيق سنويا،

وكان العدد قابلا للزيادة لو كانت هناك سفن تحملهم".[٦٥]

ولذلك لا عجب في أن أفونسو الملك الكاثوليكي للكونغو والمتعاون في التجارة مع التاج البرتغالي صدم بدرجة كبيرة لدرجة أنه كتب إلى "شركائه" في ١٥٢٦: "هناك تجار كثيرون في كل أرجاء البلاد، وكل يوم يتم استرقاق وخطف الناس، حتى النبلاء، وحتى أعضاء من أسرة الملك ذاته".[٦٦] ويبدو أن التجارة كانت قد تخطت سلفا حدود أصولها التجارية. فحتى غزو إسبانيا للبرتغال في ١٥٨٠ لم يعرقل سرعة التجارة. ففي الواقع، ترك الإسبان التجارة لتلاميذهم البرتغاليين لإدارتها.[٦٧] واستمرت تلك العلاقة حتى استعادت البرتغال استقلالها الوطني في ١٦٤٠. وبحلول ١٦٥٠، يقدر أن نصف مليون أسود كانوا يعيشون في أمريكا الإسبانية. وخلال الخمس والأربعين سنة الأولى (١٥٩٥- ١٦٤٠) من تجارتهم الإسبانية، نقل التجار البرتغاليون أكثر من ٢٢٠ ألف أفريقي إلى موانئ العالم الجديد وخاصة إلى قرطاجنة وفيراكروث(*). وتقول إنريكيتا فيلا Enriqueta Vila:

"لا شك أن الحقبة البرتغالية هي التي ميزت التأثير العرقي الأفريقي في القارة الجديدة. فقد كان البرتغاليون هم الذين حققوا سوقا قادرة على استيعاب هذه الكميات الضخمة من خلال تكوين شبكة واسعة من التجار والعملاء والوسطاء، وبالاستفادة من انخفاض أعداد السكان الهنود... وأنا أعتقد أن الحقبة البرتغالية كانت حقبة خاصة في تجارة الرقيق، وأنها لم تتكرر قط".[٦٨]

(*) يقع ميناء قرطاجنة على الساحل الشمالي الغرب لأمريكا الجنوبية ضمن الحدود السياسية الحالية لدولة كولومبيا، بينما يقع ميناء فيراكروث على الساحل الشرقي للمكسيك (المترجم).

وكتب إينيكوري Inikori "بالنسبة للبرازيل، يظهر أول تعداد سكان موثوق به (عام ١٧٩٨) أنه كان هناك نحو ٢٠٠ ألف زنجي في ذلك البلد آنئذ".[٦٩] (وبحلول القرن الثامن عشر، كان احتكار البرتغال لتجارة الرقيق عبر الأطلنطي قد فاقه احتكار الهولنديين أولا، ثم أصبح يمثل نشاط التجار والطبقات الحاكمة في إنجلترا وفرنسا).

سجلات النظام العالمي

هناك سيل كبير من الدراسات التي عالجت تأريخ تجارة الرقيق في الأطلنطي، ولا تزال هذه الدراسات في ازدياد. وبالتالي، فهناك قدر من الفهم والمعرفة بالخطوط العريضة لهذه التجارة وخصائص تلك الاقتصادات والمجتمعات التي احتاجت عمل الرقيق. وعلى أي حال، فإنه حتى أبسط مراجعة للأدبيات ستتطلب مجلدات في حد ذاتها وربما تعوقنا عن الغرض الرئيس هنا، وهو التأكد من الأسس المادية والاجتماعية والفكرية لتراث الحراك الثوري الأسود. ومن ثم فإن اهتمامنا سيركز على العالم الذي يتصل بهذه المشكلة مباشرة.

لا يمكن قياس أهمية العمالة الأفريقية في تكوين وتطور النظم الرأسمالية التجارية والصناعية بشكل كامل من خلال الأرقام فقط. ويرجع ذلك إلى ما يلي:

أولا، إن الأرقام التي لدينا موضع شك، والأكثر إزعاجا أن العلاقة بين نمو الرأسمالية وعمالة الرقيق كانت دائما محل خلاف. فعلى الأقل، هناك "مدرسة" في التأريخ مؤثرة تنكر هذه العلاقة، وتتحدى حجم تجارة الرقيق، وربحيتها، وتجادل في بعض الأمثلة حتى لصالح خيرية التجارة والرق. وكما

يقول رودريك ماكدونالد Roderick McDonald: "تحوم ظلال آدم سميث وأولرش فيليبس حول مسألة الربحية، ولا تزال رؤاهما تؤثر كثيرا على الجدل الدائر".[٧٠] ولكن المسألة ليست ببساطة كما يقول ماكدونالد "إنك تدفع نقودك وتأخذ سلعتك".

وبالنسبة إلى أعداد الرقيق (أو ما كان يسمى بيسا (*) الهند الغربية) التي نقلت إلى العالم الجديد، يعتبر عمل فيليب كورتين في صميم القضية. ففي ١٩٦٩، قدر كورتين بصورة موثوق فيها أنه فيما بين ١٤٥١ و١٨٧٠ تم جلب نحو ٥٦ ألف عامل أفريقي إلى نصف الكرة الغربي. واستنتج أيضا أنه "من غير المتوقع أن يقل العدد الكلي النهائي عن ٨٠٠ ألف أو يزيد عن ١٠,٥ مليون".[٧١] وقد خفض هذا التقدير الرقم الشائع الاستخدام كثيرا (٥٠ مليون). ومع ذلك، ففي ١٩٧٦ نشر إينيكوري I. E. Inikori نقدا لكورتين وصل به إلى نقد استهتار حساباته الإحصائية والمنهجية، ومعرفته التاريخية الضحلة، وغرابة منطقه وأيديولوجيته في حوار لاحق.[٧٢] حيث كانت حجة إينيكوري تقوم على أن هناك عدم دقة في:

"أرقام السكان الرقيق وتجارة الرقيق في الأمريكتين؛ وتهريب الرقيق وعدم دقة بيانات صادرات الرقيق الرسمية في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا (أنجولا وموزمبيق)؛ وانخفاض تقديرات سجلات الجمارك لحجم

(*) بيسا الإنديز peça da India, and pieza de India : هي وحدة سعر لقيمة العبد (رجلا أو امرأة)، وكانت تساوي بيسا كاملة للعبد الذي يتراوح عمره بين ١٥ إلى ٢٥. أما العبد الذي يتراوح عمره بين ٢٥ و ٣٥ أو بين ٨ إلى ١٥ عاما فكان يُثمّن بـ ٢/٣ بيسا. وكان العبيد خارج هذه الفئة العمرية وأولئك العجزة فيقدّرون بقيم أقل تصل إلى نصف أو ربع بيسا. (المترجم)

وقيمة السلع التي يستخدمها التجار الإنجليز في شراء الرقيق على الساحل الأفريقي، وكذلك حجم أو وزن الشحنات المستخدمة".(٧٣)

ويبدو أن معالجة إينيكوري لسجلات الجمارك، وتعدادات السكان الرقيق المعاصرة، ووصف التقلبات السكانية بسبب الأمراض وأوضاع العمل المتغيرة، ودراسات كل من إلتيس، آنسيتي، داجيت، بيترود، وديفس، تؤيد زيادة تقديرات كورتين لأعلى بحوالي الثلث على الأقل.(٧٤) حيث يصل التقدير الأولي لأرقام إينيكوري للفترات الكبرى فقط من تجارة الرقيق إلى نحو ١٥,٥ مليون.(٧٥) ولكن مهما كان الرقم الحقيقي، فإن حجم التجارة كان هائلا. ومع ذلك، فإن أعمال إينيكوري، ماكدونالد، موراي، وغيرهم تعمل على إبراز ملاحظة كورتين أنه قبل القرن التاسع عشر كان عدد الأفارقة الذين يعبرون الأطلنطي كل سنة يفوق عدد الأوروبيين.(٧٦) وكذلك، وكما سنرى بعد قليل، فإن الانخفاض النسبي في أعداد المستعمرين الأوروبيين بالنسبة إلى السكان الأفارقة من نهاية القرن السابع عشر - وفي بعض الأمثلة كان انخفاض الأوروبيين مطلقا - ربما ساعد في تشويش مسألة ربحية نظام الرق.

وبالنسبة إلى أهمية العمالة الأفريقية في تطور الاقتصادات التي تديرها أوروبا على جانبي الأطلنطي، تعتبر الأدبيات المتاحة كثيرة أيضا. فقد ذكرنا سلفا تقييم ماركس في خطابه إلى أنيكوف في ١٨٤٦، ومعالجته اللاحقة لنفس القضية في المجلد الأول من رأس المال. فبالنسبة إلى ماركس، كان الرق "المحرك الرئيس للتراكم الأولي"، "والعامل الاقتصادي الأكثر أهمية".(٧٧) فأولا، كان العمال الأفارقة يتحولون بسبب القوانين الشاذة

للرأسمالية التجارية إلى ممتلكات. ثم كانت قوة العمل الأفريقية كعمل رقيق تدخل في المركب العضوي للصناعة والرأسمالية الصناعية في القرن التاسع عشر، مما ساعد على استمرار ظهور سوق عالمي أوروبي إضافي، بحيث كان تراكم رأس المال بداخله يوجه نحو المزيد من تطور الإنتاج الصناعي.

ومع ذلك، لم يكن ماركس أول من يعترف بوجود علاقة بين النمو الاقتصادي البريطاني وتجارة الرقيق. ويذكرنا ويليامز بأنه في ليفربول في القرن الثامن عشر "كان مبني الجمارك المبني بالطوب الأحمر مزركشا برؤوس السود".(٧٨) وفي ١٧٨٨، وفي بريستول Bristol التي سبقت ليفربول في تجارة الرقيق "كانت تجارة الهند الغربية تساوي أكثر من ضعف كل تجارتها الأخرى عبر البحار مجتمعة".(٧٩) بل إن الكتاب الإنجليز المعاصرين كانوا يدققون لدرجة مضاهاة علامات وأسماء الشوارع. ففي ١٨٣٩ في أكسفورد سبق هيرمان ميريفيل Herman Merivale ماركس عندما قال:

"نحن نتحدث عن النسيج الممزوج بالدم لازدهار نيوأورليانز أو هافانا: ودعونا ننظر إلى الداخل. ما الذي رفع ليفربول ومانشستر من مستوى المدن المحلية إلى مستوى المدن العملاقة؟ ما الذي حافظ على استمرار الصناعة النشطة فيهما وتراكم الثروة السريع فيهما؟ إنه تبادل منتجاتهما مقابل المنتجات التي أنتجها الرقيق الأمريكان؛ بل إن ثروتهما الحالية ترجع حقيقة إلى كدح ومعاناة الزنوج، كما أن أيديهم صنعت أحواض السفن وصنعت الآلات البخارية. فكل تاجر يمارس التجارة مع هذه الدول، بداية من البيت الكبير الذي يقدم اسمه وماله لدعم ائتمان المصرف الأمريكي، حتى تاجر برمنجهام الذي يرسل شحنة أغلال إلى كوبا أو ساحل أفريقيا، يشارك في الرق بطريقته

الخاصة: وأنا لا أرى كيف يستطيع أي مستهلك يشرب القهوة أو يرتدي القطن الهرب من نفس التهمة الكاسحة".(٨٠)

وبعد ذلك بقرن، كما ذكرنا، طرح إيريك ويليامز هذه النقطة ثانية. وكذلك فعل ماكدونالد مؤخرا:

"كان العمل أساس تطور الأمريكتين؛ حيث كانت الأراضي وفيرة بداية، وكان رأس المال متاحا "لتشغيل المضخة"، وكان العمل متوافرا من الرقيق الأفارقة والأمريكان الأفارقة. وكان مصدر كل القيم يتمثل في العمل؛ قيمة العالم الجديد، والثروة الهائلة التي صنعها الرقيق في سانتو دومينيجو، البرازيل، جامايكا، وكوبا، كان يتمتع بها ملاك المزارع في المستعمرات، وكذلك الوطن الأم. فقد كان يعاد استثمارها، وشراء السلطة والمكانة، وتحفيز التنمية في المجالات التجارية والصناعية.(٨١)

ويمكن تدعيم تأكيدات ميرفيل وماركس وماكدونالد والاقتصاد السياسي لتحليل ويليام بعدة طرق. حيث يوضح أحد الكتاب أنه في وقت مبكر كانت "مستعمرات إنجلترا بدأت تعطي ثمارها، وأنه بحلول منتصف القرن السابع عشر، كان يقدر أنه من بين السكان البالغ عددهم ٥,٥ مليون نسمة، كان هناك حوالي ٥٠ ألفا في البحر".(٨٢) وكذلك، فإن ثروة المزارع جذبت كلا من البرجوازية التجارية والدولة، وورطتهما في سلوكيات ومؤسسات تعتمد كلية على الرق وتجارة المسافات الطويلة. ففي إسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا، أدت ضخامة الأرباح المحققة إلى فساد كبير كعلامة مميزة.

وكان المستعمرون وملاك المزارع الإنجليز والفرنسيون أبطأ من معاصريهم الإسبان والبرتغاليين والهولنديين في الوصول إلى السكر، ولكنهم

عندما وصلوا إليه - أي عندما أنهى التبغ سيطرته على الثـروة[٨٣] - فقـد أظهروا فسادهم أيضا. حيث ساعدت المستعمرات على تحويل إنجلترا إلـى ديمقراطية برجوازية ذات اقتصاد رأسمالي وتجاري. وعند نهايـة القـرن التاسع عشر، تخطت العناصر التجارية في الأمة المسيحية المحاذير الدينيـة ضد المراباة، وأضفت الطابع المؤسسي على حريتها المالية بتأسيس مصرف إنجلترا رسميا في ١٦٩٤. وبالطبع فإن ظهور البرجوازية الإنجليزية ميـز بدايات تحول المجتمع الإنجليزي.

وكان الأعضاء البارزون في هذه العصبة التجارية تجمعهم منذ العقـد السابق روابط "جمهورية وتآمرية وهولنديـة". إذ يقـول ديكـسون P. G. M. Dickson: "لقد كانت هذه هي الخلفية التي توقع المعاصرون أن تقوم عليهـا خطط المصرف الوطني".[٨٤] وفي فرنسا، اضطرت البرجوازية البحرية إلى خوض مباراة أكثر خطورة. وفي ذلك يقول كيريل جيمس:

"كان الرقيق وتجارة الرقيق بمثابة الأساس الاقتصادي للثورة الفرنسية. إذ يعلق جور Jaures قائلا "يا للسخرية الحزينة للتاريخ البـشري". "فبـسبب الاتجار في البشر منحت الثروات التي جنتها مدن فرنسا الساحلية مثل بوردو Bordeaux ونانت Nantes ذلك الفخر المنادي بالحرية والمساهم في التحـرر الإنساني". وكانت مدينة نانت مركز تجارة الرقيق... وكانت كل الصناعات التي تطورت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر تقريبا ترجع أصولها إلـى السلع أو المنتجات التي كانت متجهة إما إلى ساحل غينيا أو إلى أمريكـا... فقد كان كل شيء آخر يعتمد على نجاح أو فشل هذه التجارة".[٨٥]

ومع ذلك، فإن إظهار العلاقة بين الرق وتطور أوروبا الغربية يجب ألا يتوقف هنا.

ويمكن أن نجد نوعا آخر من الأدلة المباشرة المتعلقة بربحية عمل الرقيق في العمل اللاحق لريتشارد بيرز Richard Pares، وهو دارس يذكرنا ماكدونالد بأنه تساءل مبكرا عن العلاقة بين الرأسمالية والرق.[٨٦] ففي مناقشته لثروة المزارعين أنفسهم في ١٩٦٠، كتب بيرز يقول:

"كان ملاك مزارع السكر، بالإضافة إلى أثرياء الهند الشرقية، أبرز الأثرياء في عصرهم. وكان ملاك المزارع الآخرون لا يمثلون شيئا بالنسبة لهم. فقد كان هناك بعض ملاك مزارع البن والنيلة في فرنسا، ولكن زراع التبغ في فرجينيا وحتى زراع الأرز في كارولينا لم يستطيعوا التصرف مثل زراع السكر في إنجلترا. وربما كانا يذهبون إلى إنجلترا لتعليمهم، ولكنهم على عكس زراع السكر كانوا يعودون إلى ديارهم عندما ينتهي الأمر؛ لأنه في فرجينيا وميريلاند كانت الحياة محتملة، وكان حب الوطن المحلي الحقيقي يأتي بصورة أسهل للمزارعين، وكذلك غالبا ما كانت ممتلكاتهم صغيرة على أن تعول الملاك طوال حياتهم. ومع ذلك، كانوا يعيشون حياة مترفة في ديارهم".[٨٧]

وهناك سبب آخر مستمد أيضا مما قاله بيرز ويتمثل في مصدر رأس المال الذي دفع المزارعين إلى الديون التي كانوا مشهورين بها، وفي ذلك يقول بيرز:

"جاءت النقود في النهاية من المزارعين أنفسهم... إذ إن النقود التي كان تحصل من أحد المزارعين كان يعاد إقراضها ثانية، إما إياه أو مزارع

آخر... وهكذا يمكن القول إن المزارع هو الذي كان يدفع من أجل استرقاقه. وكانت أرباح المزارع تمثل المصدر الذي يغذي المديونية المفروضة على المزارع ذاتها. وبهذا المعنى، كان آدم سميث على خطأ: إذ إن ثروة جزر الهند الغربية البريطانية لم تتحقق كلها من الوطن الأم؛ فبعد تقديم بعض القروض المبدئية في الفترة المبكرة التي أدارت المضخة، كانت ثروة جزر الهند الغربية تنتج من أرباح هذه الجزر ذاتها، ومع بعض المساعدة من دافع الضرائب الإنجليزي، كان معظمها يجد مقرا دائما في بريطانيا العظمى".[٨٨]

ولا يقدم التدهور الأسطوري للتجار الأوروبيين في العالم الجديد في القرن الثامن عشر تأييدا كثيرا لنظرية أن نظام الرق كان ذا أهمية اقتصادية محدودة للتطور الحضري الكبير. وهنا أيضا يتدخل الراحل بيرز بقوله:

"إن تفسير هذه الظاهرة يكمن في أن المزارعين الذين شاركوا في العملية التنظيمية قد حل التجار محلهم، كما حل الأفارقة محل الأوروبيين. فعندما تناقص السكان البيض في معظم الجزر البريطانية، وحل محلهم الرقيق المحرومون من استهلاك أي شيء، كان لا بد أن تتراجع سوق السلع الأوروبية كثيرا. (وبالمصادفة، فقد ساعد هذا الانخفاض في عدد المستهلكين على تفسير الانخفاض في طبقة التجار المقيمين)."[٨٩]

وأخيرا، يمكن أن نضيف شهادات المعاصرين. حيث تأتي التعليقات من فترات مختلفة كثيرا في نشاط الرق، ولكن مصادرها وخصوصياتها، وتوقيتها، كلها تصف الحماسة التي كان يمارس بها نظام الرق. ومن تلك الشهادات ما يقدمه فيلا Vila، من سجلات عن "أول دخول واسع النطاق للأفارقة" إلى العالم الجديد. ويقول في شهادته:

"في تقرير عن تصاريح الأسينتو(*) لبيع الرقيق الذين أخذوا إلى المجلس في ١٦١٢، تأكد أنه لو ضاعت التجارة، فلن يقتصر الأمر على فقدان الدخل الناتج عنها، ولكنه سيشمل أيضا ضريبة المبيعات وضريبة الصادرات والواردات على النقود التي وصلت من جزر الهند الغربية... وكذلك كان بيع وشراء الرقيق أحد أكثر المصادر المهمة والمربحة لضرائب المبيعات".(٩٠)

وبعد ذلك بحوالي مائتي سنة، في ٢٠ فبراير ١٧٩٣ تحديدا، كتب بريان إدواردز **Bryan Edwards** إلى هنري دونداس **Henry Dundas** من جامايكا قائلا:

"إن موانئنا مليئة برجال غينيا (سفن الرقيق الأفارقة)، ومع ذلك لا يزال السعر مرتفعا كثيرا. فقد دفع السيد شيرلي ١٠٠ جنيه إسترليني مقابل مجموعة من ٢٠ عبدا كورومانتيا(**) في سفينة تابعة للسيد لندو، ومادام أن فكرة إلغاء هذه التجارة مستمرة، فسوف يشتري الناس بأي سعر حتى لو أدى ذلك إلى دمار اقتصادهم، وهلاك نصف الزنوج، بسبب الحاجة إلى الإمدادات. (مما يعني أن المزارعين لا يحصلون بصفة عامة على الوسائل الكافية لمواجهة هذا التدفق الكبير للزنوج المستوردين حديثا بصورة مفاجئة)".(٩١)

(*) يعود مصطلح الأسينتو Asiento في تاريخ الرق إلى التصريح الذي منحته الحكومة الإسبانية للدول الأخرى بما يسمح لهم ببيع البشر كعبيد إلى المستعمرات الإسبانية، وذلك في الفترة الممتدة من ١٥٤٣ وحتى ١٨٣٤. (المترجم)

(**) كورومانتي Coromantee: مسمى مشتق من اسم المدينة الساحلية الغانية كورمانتسي Kormantse، وهو اسم أطلقه تجار الرقيق الإنجليز على الرقيق المجلوبين من شعب Akan من ساحل الذهب (غانا حاليا). وبفضل خلفيتهم العسكرية ولغتهم المشتركة، نجح الكورومانتيون في تنظيم العشرات من حركات تمرد العبيد في جامايكا وأماكن أخرى في منطقة البحر الكاريبي. وكان لشراستهم وطبيعتهم المتمردة أن استجابت الحكومات الاستعمارية لمطالب أصحاب المزارع البيض في القرن الـ١٨ بحظر جلب رقيق من منطقة ساحل الذهب على الرغم من سمعتهم كعمّال أقوياء. وقد ترك لأكان تأثيرا ثقافيا أفريقيا قويا على جامايكا. (المترجم)

ومهما كانت وجهة النظر التي نتبناها، فإن العلاقة بين عمل الرقيــق، وتجارة الرقيق، ونشأة الاقتصادات الرأسمالية المبكرة تعتبر واضحة. ومهما كانت البدائل، فإن القضية تظل كما يلي: تاريخيا، كان الرق أساسا جوهريــا للرأسمالية.

الرأسمالية البريطانية

يمكن أن يكون لدينا الآن أسس كافية للقول إنه في العالم الجديد، كــان المنظمون البريطانيون (والفرنسيون) - طبقا للنماذج التي قدمها البرتغاليون والإسبان والهولنديون - يحلون رأس المال البشري محل السلع في القــرنين السابع عشر والثامن عشر. وسوف نتتبع هذه التجارة البريطانية في السطور التالية، لأنها تبدو الأفضل توثيقا، ولأنها تتابع الــرق لحظــة بلحظــة مــن الرأسمالية التجارية إلى الرأسمالية الصناعية، ولأن الكثيــر مــن متابعــات التراث الراديكالي للسود يقود إليها ثانية.

وللتأكيد، فإن قادة الجهود الاستعمارية في بريطانيــا بــدؤوا بتــصدير الشعوب المستعمرة التي يسهل الوصول إليها مباشرة، أي الأيرلنديين. وقــد ذكرنا سلفا تلك الحقيقة بالإضافة إلى الاستخدامات المباشرة للعمالة من ألمانيا ومن بريطانيا العظمى ذاتها. ويبدو أن المستثمرين الأوائل في المستعمرات- ملاك الأراضي والسياسيين والتجار - كانت لديهم خطط اقتصادية كان يمكن تلبيتها في البداية من خلال عرض العمل المتواضــع. ولكــن المغــامرين المستقلين أصحاب الأراضي الأثرياء كانوا يتوقعون كثيرا أن مــستعمراتهم ستنتج دخلا يشبه من ناحية الشكل المستحقات الإقطاعية التي كانوا قد تعودوا عليها في إنجلترا.[٩٢]

ولكن الشركات المساهمة التي اهتم بها بعض الملاك والتجار والممثلين العموميين للبرجوازية، كانت أكثر تركيزا على التجارة. حيث كانت هذه الشركات تشجع على الزراعة الاستعمارية للقطن والتبغ والنيلة والزنجبيل، وإنتاج الصناعات الاستخراجية مثل الخشب والزجاج والحديد والمعادن النفيسة.(٩٣)

وهكذا فإنه حتى وصول السكر في أوائل أربعينيات القرن السابع عشر، وتطور المزارع الكبيرة، كان العمل يتوفر بصورة كافية من الأوروبيين: القرويين العاملين بالسخرة، المنبوذين سياسيا في مناسبات مختلفة بسبب الحروب الأهلية والوطنية، والإناث الفقيرات أو اليتيمات (كان لبعضهن فقط "سمعة سيئة").(٩٤) وكما يؤكد ريتشارد مور كانت معاملتهم قمعية:

"كانت معاملتهم أقل قسوة نوعا ما [من الرقيق الأفارقة]، ولكنها كانت لا تزال قمعية، فهكذا كان نظام الرق بالسخرة للأوروبيين، حيث كانوا يجبرون بطريقة أو بأخرى على العمل في المزارع سواء على القارة أو في الجزر. وقد كتب الراهب اليسوعي جوزيف ويليامز ليحكي كيف أن المزارعين الأيرلنديين كانوا "يصادون كما يصيد الرجل طريدته، وكانوا يجبرون على الصعود على سطح السفن، ويباعون للمزارعين في الباربادوس(*)".(٩٥)

(*) باربادوس Barbados: جزيرة ضمن أرخبيل جزر الأنتيل الصغرى في البحر الكاريبي. يبلغ طولها ٣٤ كم، وعرضها حوالي ٢٣ كم، وتغطي مساحة قدرها ٤٣١ كم٢. تبعد حوالي ١٧٠ كم إلى الشمال من جزر جرينادا، و٤٠٠ كم شمال ترينداد وتوباجو. (المترجم)

وفيما بين ١٦٢٤ و١٦٣٤، أصبح التبغ المحصول الرئيس للمستعمرات، وكان يحقق أرباحا في تلك الفترة جذبت المزيد من المزارعين الإنجليز والفرنسيين إليه. وبنهاية تلك الفترة، أغرقت وفرة التبغ السوق وانخفضت الأسعار. وأجبر الركود الطويل الناتج عن ذلك في أواخر ثلاثينيات وأربعينيات القرن السابع عشر الناس على البحث عن محصول آخر، علىالرغم من التوقعات الكبيرة بانتعاش التبغ.(٩٦) وفي إنجلترا كان هناك قيد إضافي يظهر إلى الوجود: "فمع التسرع الناتج عن الركود والتهديد المتزايد بالحرب الأهلية، كان الإنجليز يتركون ديارهم بأعداد كبيرة خلال ثلاثينيات القرن السابع عشر، لدرجة أن خروجهم هذا أطلق عليه "الهجرة الكبرى"(٩٧)، كما يقول باتي Batie.

واستقر الكثير من هؤلاء القادمين الجدد في جزر الهند الغربية، وخاصة في الباربادوس، مما جعل محاولة تقديم بديل للتبغ أكثر صعوبة. ثم تدخل دهاء التاريخ، حيث توقفت إمدادات أوروبا من سكر العالم الجديد نتيجة للحروب على ملكية البرازيل بين الإسبان والبرتغاليين والهولنديين والبرازيليين البرتغاليين.(٩٨)

وبدأت زراعة قصب السكر في المستعمرات الإنجليزية بعد ذلك في أواخر ثلاثينيات القرن السابع عشر. وبمجرد إتقان أساليب زراعة وتكرير السكر، حل بسرعة محل المحاصيل الأقل ربحية مثل التبغ والنيلة والزنجبيل في الجزر. ومع الطلب الكبير على العمل الذي يتطلبه إنتاج السكر، فاقت شهية الإنتاج الاستعماري للعمل العرض المتاح كثيرا. فبعد إهلاك الجزء الأعظم من السكان الأصليين الذين وجدوهم في جزر الهند الغربية، وجدت

البرجوازية التجارية والزراعية الإنجليزية أنه من الضروري والمناسب تطبيق إستراتيجيتها الأيرلندية (والمحلية) على غرب أفريقيا. وعندما فعلت ذلك، كان نطاق مشروعاتها ينمو أسرع من أي شيء آخر شهده تاريخ إنجلترا.

وخلال القرن السابع عشر ككل، يدعي كورتين Curtain أن ٦٠٪ من تجارة الرقيق في العالم الجديد "كانت تذهب إلى مستعمرات إسبانيا والبرتغال".[٩٩] وربما كان الأمر كذلك، أو غير ذلك، لأن أرقام كورتين ظهر أنها كانت غير دقيقة. فهنا على الأقل، كان كورتين يحافظ باستمرار على قدر من الحذر (في الاتجاه الخطأ)[١٠٠]، بل إنه اعترف ذات مرة بالخطأ (في تخفيض أعداد الأفارقة الذين دفعوا إلى الرق).[١٠١]

ومع ذلك، كان الاهتمام المباشر يتمثل في أنه في الربع الأخير من ذلك القرن، كان التجار الإنجليز الذين يوردون الرقيق أساسا إلى الكاريبي البريطاني تفوقوا على البرتغاليين والهولنديين الذين كانوا يسبقونهم في هذه التجارة. وتكشف تقديرات كورتين أنه بينما كانت واردات التجار البرتغاليين والهولنديين خلال النصف الأول من القرن تزيد على التجارة الإنجليزية بهامش كبير (حوالي ٣٢٧ ألفا للهولنديين والبرتغاليين معا، مقارنة بحوالي ٢٠٧ ألفا للتجار الإنجليز)، فإنه بحلول الربع الثالث تخطت المناطق الإنجليزية المستعمرات الإسبانية في واردات العمل. وبحلول الربع الأخير من القرن السابع عشر، ضاعف التجار الإنجليز أداءهم في تجارة البشر مقارنة بالربع السابق (حوالي ٦٩ ألفا للفترة السابقة مقابل ١٧٤ ألفا) مما جعلهم يتفوقون على معاصريهم التجاريين.[١٠٢] وكان هذا الإنجاز يرجع أيضا إلى الطلب على إنتاج السكر.

وبحلول نهاية القرن الثامن عشر، وإلغاء تجارة الرقيق البريطانية الرسمية في ١٨٠٧، كان التجار البريطانيون وحدهم مسئولين عن نقل نحو ٣,٧ مليون أفريقي إضافي إلى العالم الجديد.[١٠٣] فإذا كنا سنقبل قول كورتين المتعلق بمستويات الوفاة أثناء النقل في تلك الفترة، فربما يكون حوالي ٤٠٠ ألف أو أكثر من هؤلاء الناس لم يصلوا إلى الشاطئ الغربي من الأطلنطي.[١٠٤] فقد ماتوا "أثناء النقل"، وبالتالي قدموا مقياسا مأساويا جدا لمدى اعتماد تطور النظام العالمي الرأسمالي على العمل الذي لم تستطع عواصمه إنتاجه.

ومع ذلك، لم يكن الأفارقة هم فقط الذين استغلوا بهذه الصورة السيئة في تجارة الرقيق. إذ إن جشع التجار الإنجليز والأوروبيين تخطى بسهولة تعاطفهم السلالي والقومي. وهكذا فإن أطقم سفن الرقيق كانوا يموتون بمعدلات ربما كانت أعلى من نظرائهم الرقيق. ففي وقت ما، كان البحارة الإنجليز يغنون حول مصيرهم المشؤوم بأسلوب معبر جدا، وتقول إحدى أغنياتهم:

"تنبه واحذر

من خليج بنين:

ففي مقابل الفرد الذي ينجو

هناك أربعون (من البحارة) يهلكون".[١٠٥]

وبعد ثمانينيات القرن الثامن عشر، بدأت جامايكا تتفوق في صادرات السكر على الباربادوس وجزر ليوارد **Leeward**. وبحلول أوائل القرن الثامن عشر، حذا سكان جامايكا الرقيق حذوها، مما يعكس الدور البارز للجزيرة في التجارة الاستعمارية البريطانية. ومع نهاية التجارة الإنجليزية في الرقيق،

كان البحارة الإنجليز قد نقلوا حوالي ٣٨٪ من قوة عمل الرقيق إلى جامايكا.(١٠٦)

وبأجزاء متساوية تقريبا، كانت أصول هؤلاء الأفارقة تنتشر على طول الطرق التي غذت موانئ الرقيق في كل من خليج بيافرا(*)، ساحل الذهب، أفريقيا الوسطى، خليج بنين، وسيراليون. ومع ذلك، لم يكن هذا التوزيع العرقي نتيجة أنماط الجلب المتسقة أو المنتظمة. فمبدئيا، يستنتج أورلاندو باترسون أن المجموعات السائدة كانت من شعوب كورومانت، الأكان وجا – ندانجمي(**). وبعد ١٦٧٥، وطوال بقية القرن، انتقلت التجارة البريطانية لجامايكا إلى أنجولا والشعوب الناطقة بالإيوي(***) في داهومي. وفيما بين ١٧٠٠ و١٧٣٠، أصبح ساحل الرقيق (ساحل العبيد) وغانا بمثابة المصادر المفضلة، وتلاها بعد ذلك في السنوات ١٧٣٠ و١٧٦٠ دلتا نهر كروس ودلتا نهر النيجر. ومع نهاية القرن الثامن عشر، أصبح الكونغو ثانية المنطقة السائدة، يتلوها بعد ذلك دلتا نهر كروس ودلتا نهر النيجر، وساحل الذهب وساحل العاج (بترتيب أقل كثيرا).(١٠٧)

وقد اتبعت تجارة جامايكا نمطا أسسه التجار الأوروبيون السابقون على الإنجليز، حين وضعوا معظم العمال الأفارقة في جزر الأنتيل الصغرى والكبرى. وكان التبغ والسكر يرتبطان بهذا، لأن الجزر كانت تتمتع بالمناخ

(*) خليج بيافرا Bight of Biafra: خليج في غرب أفريقيا، محصور بين دلتا نهر النيجر شرقا ومصب نهر فولتا غربا. (المترجم)

(**) الأكان Akan : مجموعة عرقية موطنها الأصلي غانا وساحل العاج، ويقترب عددهم اليوم من حوالي ٢٠ مليون نسمة. جا- اندانجمي Ga-Andangme: مجموعة عرقية في توجو ومنطقة أكرا الكبرى في غانا. (المترجم)

(***) الإيوي Ewe : مجموعة عرقية في توجو وحوض نهر الفولتا. (المترجم)

النموذجي لإنتاج هذين المحصولين. وكان البرتغاليون - مع الخصوبة الاستوائية الكبيرة للأراضي البرازيلية - يمثلون الاستثناء، وهو الاستثناء الذي يقول كورتين عنه إنه يفسر حوالي ٣٨٪ من إجمالي عدد الشعوب الأفريقية التي جلبت إلى العالم الجديد.(١٠٨)

ويمكن أن نقدر أن التجار البريطانيين أرسلوا إلى مستعمرات أمريكا الشمالية حوالي ٢٠٪ من شحنات الرقيق في القرن الثامن عشر. وربما يكون مدهشا بالنسبة إلى الكثيرين من الأمريكيين الشماليين اليوم أن هذا كان يمثل أقل من ٥٪ من إجمالي عدد الأفارقة الذين جلبهم التجار الأوروبيون إلى العالم الجديد. ويقدر كورتين أن نحو ٤٠٠ ألف أفريقي جُلبوا إلى المستعمرات الإنجليزية طوال فترة تجارة الرقيق (ويرى أيضا أن ٢٨ ألفا آخرين جاؤوا إلى القارة عن طريق التجار الفرنسيين الذين كانوا يزودون منطقة لويزيانا.(١٠٩) ومع ذلك، يحذرنا إينيكوري من أن "تقديرات الواردات المعقولة للولايات المتحدة لم تظهر بعد".(١١٠) ومع ذلك، كان هؤلاء السكان الأفارقة يختلفون عن أولئك الموزعين في جامايكا، من حيث إن ربع هؤلاء الناس على الأقل جاؤوا من موانئ أنجولا. وجاء مثلهم تقريبا من خليج بيافرا، وجاء حوالي نصفهم من ساحل الذهب والسنغال وغامبيا، ثم جاءت نسب متناقصة باستمرار من موانئ سيراليون وخليج بنين وأفريقيا الوسطى.(١١١)

وفي كارولينا الجنوبية، كان السود يشكلون حوالي ٦٠٪ من سكان المستعمرة في القرن الثامن عشر. وفي فرجينيا كان الرقم المقابل ٤٠٪. حيث كانوا يستخدمون كعمال في مزارع التبغ، وبعد ذلك في مزارع القطن، ولكنهم كانوا يعملون أيضا في "المناجم، وأعمال الملح والحبال، وكانوا

يتدربون على نجارة السفن والحدادة وأنواع مختلفة من الأشـــغال الخـــشبية تشمل النجارة وصناعة البراميل وصناعة العجلات ونشر الخشب".(١١٢) وكان الذين يأتون مباشرة من أفريقيا يطلق عليهم "الدخلاء outlandish" لتمييـــزهم عمن كان سادتهم يسمونهم "الزنوج الجدد" في الحقول والرقيق الحرفيين الذين يفترض أنهم خُلعوا من أصولهم واندمجوا ثقافيا، حيث كان ســـادتهم أكثـــر "ارتياحا" لهم. وكانت هذه التفرقة بسبب الاعتبارات العمليـــة للمـــستعمرين، على نحو ما يخبرنا جيرالد مولين بقوله:

"في عينة من أعداد مجلة كارولينا الجنوبية في أوائل خمسينيات القرن الثامن عشر و ١٧٧١، كان هناك دليل واضح على التعاون ذي النزعة القبلية في الإعلانات من أجل عودة أربعة "رجال جدد من غامبيـــا"؛ وثلاثـــة مـــن أنجولا؛ "وكلهم قصار القامة"؛ وستة أنجوليين آخرين... وأربعة رجال مـــن قبائل الفولا(*)".(١١٣)

وكان ابتداع مصطلح "نجرو" (زنجي) يتقدم بسرعة مع نمـــو عمالـــة الرقيق. ولكن المحير نوعا ما أنه كلما زاد استيعاب الأفارقة وسلالتهم للمواد الثقافية من المجتمع الاستعماري، تدنت إنسانيتهم في أذهـــان المـــستعمرين. وكمثال على ذلك، فإن المتمردين بين الأفارقة و"الزنوج" كـــانوا يوصـــفون "بالهاربين"، وهو التعبير الذي استمر في تأريخ تلك الفترة. ومع ذلك، يجـــب

(*) الفولا Fula people: مجموعة عرقية تنتشر في عدة دول، معظمها في غرب أفريقيا، ولكـــن أيضا في أفريقيا الوسطى والسودان في شمال أفريقيا. البلدان الأفريقية هي ما يطلق عليهـــا حاليًا: موريتانيا، غانا، السنغال،غينيا، غامبيا، مالي، نيجيريا،سيراليون، بنين، بوركينافاســـو، الكاميرون، كوت ديفوار، النيجر، تشاد، توجو، وجمهورية أفريقيا الوسطى، ليبيريا، وإلى حد ما في السودان ومصر في الشرق. يمثل الفولا أقلية في البلاد التي يعيشون فيها، ولكن فـــي غينيا يمثلون نسبة ٤٠% من السكان. (المترجم)

تذكر أنه من خلال جهود أمثال هؤلاء الرجال والنساء تكونت المستوطنات السوداء في منطقة بيدمونت في فرجينيا والأفرو-كريك Afro-Creek، و"المنفيون من فلوريدا" (السكان الأصليون من السيمينول(*)).[114]

وبنفس الطريقة، كانت تتشكل شعوب المارون في الكاريبي وأمريكا الجنوبية. فقد كانوا أيضا عند نهاية القرن الثامن عشر من بين من قدروا بحوالي ٥٥ ألف هربوا إلى القوات البريطانية والمستوطنات الموالية لها.[115]

ومع ذلك، استمر قدر كاف من العمالة الأفريقية في مستعمرات أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية، للقيام بدور مهم في تطور الاقتصاد الإمبريالي البريطاني. حيث وسعت "التجارة الثلاثية" في الرقيق، كما يؤكد إيريك ويليامز، "السوق المحلية" بتشجيع إنتاج المصنوعات البريطانية التي كان التجار الإنجليز يبادلونها في أفريقيا مقابل العمال السود. فبمجرد وصولهم، كان هؤلاء العمال يشكلون قوة العمل للإنتاج المداري البريطاني، والعمل الحرفي، والصناعات الاستخراجية. وكانت النتيجة النهائية تتمثل في تراكم رأس المال لصالح تقدم القوى الإنتاجية في إنجلترا وأوروبا (الثورة الصناعية)، ونمو صناعات الحبوب في أمريكا الصناعية (المصايد، المحاصيل الغذائية، إلخ)، والأخشاب، وبناء السفن، والمنسوجات، وتوسع الاستعمار والاستيطان. ومع ذلك، ترتب على هذا تدهور هذه الشعوب الأفريقية ومؤسساتها الاجتماعية عندما تأثرت بتلك التجارة، كما يقول والتر رودني، أي انخفاض تنمية الاقتصادات الأفريقية.[116]

(*) السمينويل Seminole: شعب من الأمريكيين الأصليين تعود جذورهم إلى ولاية فلوريدا، واليوم يعيش أغلبهم في أوكلاهوما وأقلية منهم في فلوريدا. في الفترات الاستعمارية حدث بعض الامتزاج العرقي مع الزنوج. ويعتقد أن كلمة سمينويل هي تحوير للمصطلح الإسباني سيمارون cimarrón والذي يعني "الهارب" أو "الوحشي". (المترجم)

ومع ذلك، فإن هذه التجارة وحركة العمال السود لم تتوقف مع إلغاء الرق قانونا في القرن التاسع عشر. إذ إن الكونغو في عهد ليوبولد، وأفريقيا الوسطى في عهد هاري جونستون، وجنوب أفريقيا في عهد سيسل رودس، وغرب أفريقيا في عهد لوجارد، وأفريقيا البرتغالية، وأفريقيا الفرنسية، وكذلك أحفاد الرقيق في العالم الجديد، ساهموا جميعا في زيادة تطور النظام العالمي الرأسمالي.

وقد امتد استغلالهم إلى القرن الحالي، كقرويين، ومزارعين مسخرين، وعمال مهاجرين، وعمال باليومية، وخدم منازل، وعمال بأجر. وحتى في تدمير وسائل الإنتاج، أي الحروب التي اشترطها ماركس وإنجلز كحتمية في الرأسمالية، كان العمال السود يدفعون إلى الخدمة.(١١٧) ولم يُستثنوا من أي شكل من أشكال الاستغلال.

الفصل السادس

الأركيولوجيا التاريخية للتراث الثوري الأسود

لم يكن دور عمالة السود في توسع واستمرار الرأسمالية يمثل القصة كلها. إذ إن وضع الشعوب السوداء في العالم الجديد لا يزال له نتيجة أخرى- وهي نتيجة لم تكن مقصودة ولا متوقعة تماما لدى تجار ومفكري الرق. ولا تزال سذاجة الأوروبيين من صنع أيديهم أساسا: فالرق كنظام وطريقة حياة لم يكن سياقا يشجع كثيرا على أي شيء آخر. إذ إن الجهل "المنظم" الذي كان يصاحب حتما استخدام عمالة الرقيق أثر كثيرا على الفكر الأوروبي بصفة عامة، بغض النظر عن الأيديولوجية الاجتماعية.

وقد ربط ماركس ذات مرة الرق بتلك المرحلة من تطور الرأسمالية التي وصفها "بالتراكم الأولي". ولم يكن يقصد بهذا المصطلح أي معنى متحيز، ولكنه ببساطة كان يعني - جزئيا - التركيز على أن نمط الإنتاج الرأسمالي السائد كان لا يتحمل المسئولية الكاملة عن إنتاج وإعادة إنتاج الموارد البشرية التي كان يتطلبها في هذا المجال. وكان ماركس يعني بالتراكم الأولي أن البيسا الهندية (معامل الرق المعروف باسم بيسا الإنديز) كانت منتجا ماديا وفكريا أفرزته المجتمعات التي كانت تؤخذ منها، وليس من خلال المجتمعات التي كانت تستغلها. فقد كانت شحنات سفن الرقيق عبارة

عن كائنات بشرية حقيقية، على الرغم من طريقة نقلهم، وفـواتير شـحنهم، ودفاتر وسجلات القباطنة التي كانت تعتبرهم غير ذلك.

ومع ذلك، لم يدرك ماركس تماما أن شحنات العمال كانت تحوي أيضا ثقافات أفريقية، وأخلاطا جوهرية من اللغات والفكر، والكونيات والغيبيـات، والعادات والمعتقدات والأخلاقيات. حيث كانت هذه المصطلحات تمثل التعبير الحقيقي عن إنسانيتهم. أي إن هذه الشحنات لم تكـن تتكـون مـن الـسود المجردين من الثقافة أو المعزولين فكريا - أي من الرجال والنساء والأطفال المعزولين عن عالمهم السابق. فقد أحضرت العمالة الأفريقية ماضيها معها، وهو الماضي الذي أنتجها واستقر فيها في العناصر الأولى للوعي والإدراك.

وكان ذلك بمثابة جنين الشيطان الذي سيسيطر على كل مشروع التراكم الأولي. فمن خلال الوعي التاريخي والاجتماعي لهؤلاء الأفارقـة، تـأثرت تجارة الرقيق ونظام عمالة الرقيق بهذا التناقض. وبعد ذلـك بكثيـر، وفـي خضم الصراع ضد الإمبريالية البرتغالية في غينيا بيساو في هـذا القـرن، كشف أميلكار كابرال Amilcar Cabral طبيعة هذا التناقض حين قال:

"كانت السيطرة الإمبريالية - من خلال إنكار وتجاهل التطور التاريخي للشعوب المقهورة - تنكر بالضرورة أيضا التطور الثقافي لهـذه الـشعوب. ومن المفهوم... لماذا تحتاج السيطرة الإمبريالية - مثل كل أنواع الـسيطرة الأجنبية الأخرى التي تسعى لتحقيق أمنها الخاص - إلـى القمـع الثقـافي ومحاولة التذويب المباشر وغير المباشر للعناصر الأساسية لثقافة الـشعوب المقهورة... وبصفة عامة، توجد بذور المعارضة داخل هذه الثقافة".(١)

وكان نقل العمالة الأفريقية إلى مناجم ومزارع الكاريبي، ثم إلـــى مـــا أصبح يعرف بالأمريكتين، يعني أيضا نقل النظم المعرفية الكونية والوجودية الأفريقية؛ والافتراضات الأفريقية المتعلقة بتنظيم وأهمية البناء الاجتمـــاعي، والرموز الأفريقية التي تجسد الـــوعي التـــاريخي والخبـــرة الاجتماعيـــة؛ والتوجيهات الفكرية والسلوكية الأفريقية المتعلقة بحل التناقضات الحتمية بين ما هو حقيقي وما هو مثالي، ويدرك ميشيل كراتـــون Michael Craton هـــذا عندما يقول:

"من الواضح أن الجذور القروية الأفريقية جعلت كل الرقيق يميلون إلى اعتبار العمل المزرعي شيئا غير طبيعي كمؤسسة تعـــولهم. فمنـــذ الأيـــام الأولى، استقر الرقيق الهاربون حول أرض المؤن (التـــي تـــسمي "بولنـــك polinks" في المستعمرات الإنجليزية، و"بالنك palenques" في المـــستعمرات الإسبانية)، وكانوا يعملون بطريقة تشبه الزراعة الأفريقية، وتـــشبه أيـــضا زراعة "الكونوكو conuco" لدى الهنود الأمريكيين...

والأكثر من هذا، أن الرقيق حفظوا وطوروا مفاهيم الأسرة والقرابة بما يفوق إدراك وسيطرة الطبقة المسيطرة، ومفهوم حيازة الأرض بما يتعارض مع مفهوم الثقافة الأوروبية المسيطرة... فقد كانوا يريدون الحياة في وحدات أسرية، والوصول إلى أراضي يملكونها، وحرية تطوير ثقـــافتهم الخاصـــة، وديانتهم التوافقية. لقد كانت هذه هي تطلعاتهم الأساسية، التي اختلفت حسب الظروف المختلفة في كل من المستعمرات التي تأثرت [بالتمرد]".[٢]

وكانت هذه بمثابة المصطلحات التي ستقوم عليها ردود أفعال الرقيـــق ضد نظام الرق.

ولكن حتى بالنسبة لمن لا يألفون تاريخ الرقيق الأفارقة، فلا عجب من أن هذه الشعوب الأفريقية أبدت ردود أفعال مختلفة تجاه الرق. ففي تجربة رق أمريكا الشمالية، وخاصة بالنسبة للقرن التاسع عشر، فإن محاولات تصوير "نمط شخصية الرقيق"، لتحديد "نمط المزارع" أدت إلى تراكم رصيد كبير من الخصائص. وكانت هذه المحاولات هي الفكرة التي كانت سائدة سلفا عندما أفرز النظام أشهر المدافعين عنه بعد ظهوره، متمثلا في شخصية أولريخ بونيل فيليبس Ulrich Bonnel Phillips .

وفي هذا الصدد نتذكر أعمال جون بلاسنجيم John Blassingame، ذلك الكاتب الذي ساهم حديثا في كتابات تتراوح من ملاحظات رحالة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والجوالين المعارضين لهم على نفس المستوى أحيانا، وسجلات المزارع، والتذكارات، و"شهادات الرقيق"، والروايات المعاصرة، والتأريخ التقليدي. وقد بذل بلاسنجيم جهدا كبيرا لتنظيم تصوراته عن عمالة الرقيق.(٣) حيث عدد الأشكال، والمواقف، والآثار الأكثر تجريدا التي أظهرها العمال الأفارقة وأحفادهم: خادم المنزل البسيط، الذي يرتدي أحيانا أزياء وملابس الذين يملكون "المنزل" والذي يطلق دعاوى مماثلة بالنسبة للعمال الرقيق. فالفرد "الهجين" المطيع الخاضع المرعوب محطم بسبب الآلام النفسية والبدنية - والرجال والنساء يكبرون غير مبالين بصورة متزايدة بشبح العقاب والمعاناة الناتجة من الآخرين ومن أنفسهم. وكذلك فإن الانفصال وصدمة إدراك أن المرء ليس لديه الحق أو القوة لمقاومة ما كان يجب أن يبدو إبعادا قسريا أو وحشيا عن أحبائهم، ترك بصمات خاصة أيضا، وهنا يقول والتر رودني:

"لم يتعاف الرقيق أبدا من صدمة الانفصال، فكانوا غاضبين وساخطين ومقهورين بسبب الكارثة. وأصبح الكثير منهم عابثين وغير مبالين بأعمالهم. وأصيب آخرون بالجنون وأصبحوا يكلمون أنفسهم، وأصيبوا بالهلوسة بسبب محبوبيهم. وظهر لدى القليل من الرقيق ميول انتحارية".(٤)

وكان هناك آخرون على مسار "الارتباك" أصبحوا يقبلون تأكيد قداسة البشرة البيضاء وعار البشرة السوداء. ولكن بلاسنجيم كان مقتنعا بالشهادة والملاحظة المعاصرة أن معظم الرقيق ("عمال الحقول") عانوا من قهر النظام الذي فرض قيودا "اجتماعية" قبل أن تكون "نفسية". وحسب بلاسنجيم كان معظم العمال الرقيق "مطيعين بتجهم وخاضعين بعداء"، حيث يقول:

"نظرا لوجود مجموعة من العلاقات، بالإضافة إلى العلاقة مع السيد، كان الفرد من الرقيق قادرا على الحفاظ على احترامه لنفسه على الرغم من العقاب الوحشي الذي كان يلقاه". وكانت طاعة الرقيق متصنعة، وبمثابة قناع يخفي مشاعره الحقيقية وخصائصه الشخصية".(٥)

واستنتج بلاسنجيم - بصورة عرضية كما نرى - أن "أنماط الشخصية ذاتها كانت توجد في المساكن كما كان في القصور".(٦)

وأبدى ليسلي هوارد أوينز Leslie Howard Owens - وهو مؤرخ أسود آخر - تحفظات أقل من بلاسنجيم على "طبيعية" التمرد داخل مجال بنية الرق الأمريكية. فبينما يتحفظ بلاسنجيم، ويعترف صراحة بالثنائيات التي توجد أحيانا في أدبيات الرق الأمريكي بين "رقيق المنازل" و"رقيق الحقول"(٧) وبين "السيد القاسي" و"السيد المُحْسِن"(٨)، يؤكد أوينز على ما يلي:

"كان سخط الرقيق على استرقاقهم موثقـا بـصورة شـاملة بـالمواد المخطوطة والمروية".[٩] فبالنسبة لأوينز، كان التمرد مؤقتا وكان سياقه يتمثل في نظام الرق.[١٠]

ولاحظ أوينز بين العمال الرقيق تعدد ردود أفعالهم على أشكال السيطرة ممثلة في: تحطيم الآلات وإخفائها في غير أماكنها، حرق المحاصيل، تباطؤ العمل، مساعدة وحماية أقـرانهم الهـاربين، الـسرقة، الهـروب، تكـوين المجتمعات الملونة قصيرة الأجل، وحتى تعذيب الذات والانتحار.[١١] وفـي النهاية كان هناك العصيان المسلح طبعا.

وأدى استمرار وجود نظام الرق بمظاهره وممارساته الحتمية للرغبات الفردية والجماعية للطبقة المسيطرة، إلى استمرار الهجمات علـى النظـام. ولاحظ أوينز أنه: "لم يفلح النظام المستعبد للرق من قمع اضطرابات الرقيق الصغيرة والخطيرة في القضاء على عصيان الرقيق طويلا".[١٢] فقد ولد نظام الرق اضطرابه الخاص به. وبغض النظر عن هذه الجدلية، يبدو أنه لم يكن هناك أي شيء آخر ثابت أو ساكن، وخاصة الشخصيات التي كان الرقيـق يتقمصونها "علانية". وفي ذلك يقول أوينز:

"من الضروري الاعتراف بهوية الرقيق المتغيرة وغيـر الـساكنة إذا أردنا فهما للأسباب التي تجعل أمرا بسيطا في بعض الأحيان يثير عاصـفة من أعمال العصيان الصغرى والكبرى وينفث تهديدا بالتمرد".[١٣]

وربما كان الأكثر إرباكا على الإطلاق بالنسبة لطبقـة الـسادة يتمثـل في الخداع الهائل الذي يكمن وراء طاعة السود، تلك الطاعة التي كان السادة راغبين فيها بصورة يائسة. وفي ذلك يقول أوينز أيضا:

"لا يمكن إنكار أنه كان هناك قدر من الطاعة بين الرقيق. ولكن ذلك لم يكن يمثل العادة. فقد كان السادة يربطون كثيرا بين الرقيق الذين يبدون الطاعة الظاهرية وأعمال المقاومة الخفية".[١٤]

وكانت الآثار النفسية على من يسيطرون على هذا النظام مستمدة من الحذر اللازم، ذلك الحذر المتجسد في الخوف، وجنون العظمة، التدهور الأخلاقي، وأخيرا ضعف الإرادة، طبقا لبعض المؤرخين.[١٥]

وفي العشرين سنة الماضية قام مؤرخون من أمثال بلاسنجيم وأوينز وعدد من المؤرخين الآخرين السود وغير السود بتقديم مراجعات فكرية تستحق أن نتوقف عندها لأنها جزء من صميم الموضوع[١٦]. فمن الواضح أنهم كرسوا أنفسهم لادعاء واحد مسيطر: أن الرقيق آنئذ وصلوا إلى مرحلة قبول شروط الرق. حيث تمثلت الحكمة التقليدية المجسدة في العلوم الأمريكية، كالتاريخ والاجتماع وعلم النفس، في أن ممارسة الخضوع أصبحت تمثل للرقيق عادات الدونية؛ وبالنسبة لأحفادهم، هناك "علامات القهر" النفسية، وثقافة السيطرة، والعلاقات الأسرية المعكوسة والملتوية لنظام الأمومة (لاحظ، إذا شئت، كيف أن انتهاك الرقيق كان يشار إليه غالبا "بالخصي" وغيره). لقد حاول هؤلاء المراجعون الأمريكيون بالأساس رفض التراث المسجل في سجلاتهم ووعيهم القومي بأن "السود أصبحوا رقيقا" في النهاية. واختاروا أن يتوافقوا مع التخيل العام المتكرر بأن الأجيال التالية من "الأبناء المحليين" كانت تتميز ثقافيا ووجدانيا بالتكيفات التي فرضها أسلافهم.

وحاول هؤلاء المراجعون الأمريكيون تقديم المواد الأكاديمية لإصرار أجيالهم على أن الظروف المادية والسياسية والاجتماعية للسود في القرن العشرين ليست نتيجة اضطرابات نفسية فردية أو حتى جماعية بين السود.

وحولوا هذا الشعب الأفريقي إلى "كائنات بشرية" قادرة على الإدانة والخسارة والتكيف والبطولة.

وقد نفذوا مشروعهم حتى هذه النقطة بنجاح. حيث تتحدث الدراسات والروايات والوثائق عن نفسها بطريقة فصيحة للغاية. ولكن لا يزال هذا النصر "السياسي" يمثل نصرا جزئيا فقط، لأن الدفاع عن الرقيق يتناول خصومه بمصطلحاتهم. ومن المتوقع في مجتمع ما بعد الرق - حيث كان النصر التاريخي لطبقة الرقيق غير مكتمل- أن تتراجع مسألة إنسانية الشعوب المسترقة. ويترتب على ذلك أنه يجب الحديث عن هذه المسألة. فنحن "تعرف" الآن أن طبقة السادة كانت تعرف ذلك حتما، ولكنها كانت لفترة طويلة تتكره علانية حتى تواجه الحقيقة في كوابيسها وخيالاتها الجنسية ووعيها الاجتماعي المتحلل: فقد كان الرقيق كائنات بشرية.(١٧) ولكن المسألة الأكثر أصالة لم تكن تتمثل فيما إذا كان الرقيق (والرقيق السابقون وأحفادهم) بشرا. بل كانت تتمثل في أي "نوع" من البشر كانوا... ويمكن أن يكونوا. فقد غير الرق ظروف وجودهم، ولكنه لم يستطع أن ينفي وجودهم. فحتى قبل أن تصبح الجمهورية الأمريكية المضطربة في القرن التاسع عشر مجرد احتمال، بدأ جزء من الإجابة يفصح عن نفسه. وكما سنرى حالا، لا يزال أثرها التاريخي واضحا.

شعوب حمراء وبيضاء وسوداء

أصبحت العمالة الأفريقية في نصف الكرة الغربي ضرورة فقط عندما استنفدت العمالة المحلية وصارت العمالة الأوروبية غير كافية. ومن الواضح أن الأمر لم يستغرق أطول من الفترة ما بين رحلتي كولومبس الأولى والثالثة

(١٤٩٧) حتى تعترف الحكومة الإسبانية وتستجيب للمشاكل الخاصة التي واجهتها في الاعتماد على مواطنيها لتوفير العمالة الاستعمارية الإضافية.

ففي يونيو ١٤٩٧، "صدر أمر عام لكل القضاة في إسبانيا يرخص بنقل كل المجرمين المحكوم عليهم بأحكام الإعدام أو السجن إلى هيسبانيولا(*) – باستثناء الزنادقة، والخونة، والمزورين، والشواذ".(١٨) وعندما ثبت أن هذا الإجراء لم يكن كافيا، لجأ التاج بصورة متتابعة وآنية إلى رق البيض (١٥٠٤، ١٥١٢، ١٥٢١)، والمهاجرين الأجانب (١٥٢٦)، وتشجيع المهاجرين الإسبان من غير قشتالة (١٥١١)، وذلك عندما أصبح المعروض من عمالة الهنود الحمر أكثر ندرة في جزر الهند الغربية.(١٩) ومع ذلك، فإنه بحلول منتصف القرن السادس عشر، أصبح الرأسماليون الأيبيريون يفهمون شيئا استغرق خلفاؤهم الإنجليز مائة سنة ليفهموه بعدهم: ألا وهو أن إنتاج السكر يحتاج قوة عمل أكبر وأثقل سياسيا وأخلاقيا من قدرات أوروبا.(٢٠) وقد كان البديل يتمثل في "الهنود" في البداية على الأقل. وقد كتب إيريك ويليامز Eric Williams:

"كان يقال عن الغزاة الإسبان إنهم وقعوا على ركبهم أولا، ثم وقعوا على السكان الأصليين".(٢١) فقد كان يبدو منذ البداية أن كولومبس لم يكن لديه

(*) هيسبانيولا Hispaniola: جزيرة كاريبية كبرى تضم دولتين مستقلتين وهما جمهورية الدومنيكان وهاييتي. تقع الجزيرة بين كوبا في الغرب وبورتوريكو في الشرق. كانت هيسبانيولا اول موقع قامت فيه مستعمرات على يد كريستوفر كولمبس في رحلاته في عام ١٤٩٢ و ١٤٩٣. بحسب الحجم السكاني للعالم الآن تحتل هيسبانيولا المركز العاشر بين الجزر الأكثر اكتظاظا بالسكان في العالم، وهي أكثر الجزر اكتظاظا بالسكان في الأمريكيتين. ومن حيث الحجم والمساحة تعد هسيبانيولا ثاني أكبر جزيرة في منطقة الكاريبي (بعد كوبا) وفي المرتبة الـ ٢٢ بين أكبر الجزر في العالم. (المترجم)

شيء آخر في ذهنه بالنسبة لهذه "الشعوب البرية". حيث أصبح "تقسيم الهنود" (حسب المهام اللازمة للمستوطنات الاستعمارية) عند كولومبس وخليفته المباشر فرانسيسكو دى بوباديلا Francisco de Bobadiiia "عهدة" في أيدي حاكم جزر الهند الغربية الثالث نيكولاس دى أوفاندو Nicolas de Ovando.

ويقدم هارنج H. Haring مزيدا من شرح ذلك الأمر قائلا:

"كان الهنود يقسمون إلى مجموعات تتكون من خمسين أو مائة فرد أو أكثر، بشهادة أو وثيقة مكتوبة، للعمل في حقول الإسبان ومزارعهم أو في المناجم التي تحتوي على رواسب الذهب. وكانوا أحيانا يوزعون على المسئولين أو رهبان الأديرة في مقابل جزء من رواتبهم السنوية. وترتب على ذلك ببساطة توزيع السكان المحليين على المستوطنين ليفعل الإسبان بهم ما يريدون".(٢٢)

وكانت نتائج استغلالهم كارثية، وفي ذلك يقول هارينج أيضا:

"يمكن رؤية هذه الآثار في أفضل التقديرات التي أعدت لاتجاه السكان في هيسبانيولا. حيث تضع هذه التقديرات السكان الهنود عام ١٤٩٢ فيما بين ٢٠٠ ألف و٣٠٠ ألف. وبحلول ١٥٠٨، انخفض عدد السكان إلى ٦٠ ألفا؛ وفي ١٥١٠ شك أوفيدو Oviedo فيما إذا كان لا يزال هناك ٥٠٠ هندي من الأصل النقي. وفي ١٥٧٠، كان قد تبقى قريتان فقط من تلك القرى التي أكد كولومبس لسادته، قبل أقل من ٨٠ سنة، أنه "لا يوجد شعب أفضل ولا أرق منه في العالم".(٢٣)

ولا تزال جزر الهند الغربية تمثل مجرد البداية فقط.

ففي المكسيك، أو إسبانيا الجديدة كما كانت تسمى آنذاك، قدر شيربورن كوك Sherburne Cook وودرو بورا Woodrow Borah عدد السكان الأصليين بحوالي ٢٥ مليونا أو أكثر في بداية القرن السادس عشر.[٢٤] ومهما كان الرقم الحقيقي، فإن هؤلاء السكان الأصليين أصبحوا هدف أشد أنواع استغلال الغزاة الإسبان. حيث كتب شيلام بالام Chialm Balam، وهو أحد مواطني يوكاتان Yucatan، متذكرا أيام ما قبل الغزو، ما يلي:

"لم يكن هناك أي مرض؛ لم يكن لدى السكان الأصليين آلام العظام؛ لم تكن لديهم حمى مرتفعة؛ ولم يكن لديهم جدري؛ ولم يكن لديهم التهاب الصدر؛ ولم يكن لديهم ألم البطن؛ ولم يكن لديهم سل؛ ولم يكن لديهم صداع. ففي ذلك الوقت كان مسار الإنسانية منتظما. ولكن الأجانب قلبوا الأمور عند وصولهم هنا".[٢٥]

وقد انتهى ذلك العالم الذي أظهر شيلام له هذا الحنين الشاعري بسرعة. ففي خلال تسعة عقود نجد أن "الأمراض والحروب والتحركات السكانية والتغيرات البيئية التي سببها الاستيطان والسيطرة الإسبانية"،[٢٦] و(يجب أن نضيف) عمالة الرقيق، أدت إلى انخفاض عدد السكان المحليين إلى حوالي ١,٠٧٥,٠٠٠ نسمة.[٢٧] بل إن الغزو كان له أثر أكثر بشاعة. ففي وقت تعداد سكان ١٥١٤، كما يقول زاور C. O. Sauer، كانت سجلات "التقسيم" للسكان المحليين في سانتو دومينجو، أرض العمل المخصصة للتاج، توضح وجود أقل من طفل واحد في المتوسط للأسرة.

وقد وضح لاس كاساس أنه في الفترة التي سبقت الغزو مباشرة كان لدى المرأة الهندية في المتوسط ما بين ثلاثة إلى خمسة أطفال. وفي أماكن أخرى، "يلاحظ جاراميلو أوريب Jaramillo Uribe أنه عند بداية القرن السابع

عشر، كان من الشائع في نيوجراناادا New Granada أن نجد نصف الأزواج الهنود بلا أطفال. وفي المتوسط كان لديهم طفلان فقط، وكان من قبيل الاستثناء أن نجد أسرة ذات أربعة أطفال".

ويستنتج سانشيز ألبورنوز Sanchez-Albornoz قائلا: "من الواضح أن الهنود تناقصوا ليس بسبب الوفيات فحسب، ولكن جزئيا أيضا بسبب أنهم لم يضمنوا الإحلال العادي بين الأجيال".[٢٨] وأدى هذا الهلاك للسكان "الهنود" إلى طلب كبير على المزيد من العمالة قبيل النصف الثاني من القرن السادس عشر.[٢٩] وفي النهاية، أصبح مصدر تلك العمالة يتمثل في الساحل الغربي لأفريقيا. وكانت هناك أسباب جانبية هامشية الأثر مثل القرارات الملكية المثيرة للجدل في عام ١٥٤٢ (والتي عرفت باسم القوانين الجديدة) والتي "حظرت المزيد من استرقاق الهنود إلا في حالة عقاب لقيامهم بالتمرد على الحكم الإسباني".

ويضع لاس كاساس المسئولية كاملة في عنق الغزاة باتهامته المريرة المؤلمة لما ارتكبوه، وحساباته للأرقام المرعبة لوفيات الهنود. وكانت كتابته بهذا الشكل من أجل استصدار "القوانين الجديدة" من الإمبراطور الإسباني تشارلز الخامس.

ففي عام ١٥٤٢ كتب لاس كاساس عن نفسه في كتابه "التاريخ العام للهنود Historia general de las Indias يقول:

"كان الراهب لاس كاساس أول من اقترح أنه يجب نقل الأفارقة إلى جزر الهند الغربية، ولم يكن يعرف ما كان يفعله".[٣٠]

ومع ذلك، استطرد قائلا إن هذا كان خطأ يمكن تفهمه:

"في الأيام الماضية، قبل أن يكون هناك أي "مزارع **ingenios**"، تعودنا على أن نعتقد على هذه الجزيرة أنه إذا لم يشنق الزنجي فإنه لن يموت أبدا، لأننا لم نشاهد أبدا أحدهم يموت من المرض، وكنا متأكدين من أنهم قد وجدوا موطنهم مثل البرتقال، فهذه الجزيرة أكثر طبيعية لهم من غينيا. ولكن بعد أن وضعوا في العمل في المزارع، بناء على العمل المفرط الذي يجب تحمله، والمشروبات الكحولية التي كانوا يصنعونها من قصب السكر، كانت النتيجة تتمثل في الموت والأوبئة، ومات منهم كثيرون".(٣١)

وبالطبع، فقد أساء لاس كاساس تحديد دوره في دراما ومأساة استرقاق الهنود والأفارقة. وكان ذلك تكتيكا قديما منه. فعلى الرغم من أنه لم يكن بريئا تماما من الذنب في هذا الشأن، فقد كان مجرد حلقة في السلاسل المشدودة حول رقاب الرقيق. ولكن نظرا لأنه كان ابن أسرة أرستقراطية من إقليم أندلسية، كان في وضع أفضل من غيره ليفهم أن التماسه إلى الإمبراطور نيابة عن الهنود سيؤدي إلى إطراء الذات الإمبراطورية، كما سيصدم الأخلاقيات الإمبراطورية. فقد كان تشارلز الخامس ملك إسبانيا أكثر تورطا في "اجتياح جزر الهند الغربية" مما كان يعتقد لاس كاساس أنه من الحكمة مراجعته. ولكن هانز ماجنوس إنزنزبيرج **Hans Magnus Enzensberger** يصور هذا الوضع بدقة حين ذهب يقول:

"بالطبع، كان لاس كاساس يدرك تماما أن التاج الإسباني كان يعتمد كلية على دخل المستعمرات. وفي عام ١٥١٩ كانت شركة ويسلر **Wesler** التجارية في أوجسبورج **Augsburg** قد مولت انتخاب تشارلز الخامس، وكان

اعتماده على المصارف معروفا في كل مكان في أوروبا. حيــث قــال لاس كاساس... إن السلوك العنيف للغزاة كلف الملك مئات الآلاف من الكراونات سنة بعد أخرى... ومن المؤكد أن هذا النوع من الحجج كان لا بد أن يــؤثر على تشارلز الخامس أكثر من كل الأسباب الدينية والقانونية التــي طرحهــا لاس كاساس".(٣٢)

ولكن الأمر تطلب مرور عشرين سنة أخرى حتى يحقق لاس كاســاس النصر لادعاءاته. فقد كتب عنه أنه قام بأربع عشرة رحلة بين العالمين القديم والجديد خلال تلك الفترة حتى يؤدي رسالته (وكان بعض هــذه الــرحلات يعتبر تنفيذا للأوامر لأنه كان يضطر للعودة إلى إسبانيا للدفاع عن اتهامــات بالخيانة). وفي النهاية، كان هذا النصر قصير الأجــل وبــلا معنــى. إذ إن تشارلز الخامس ألغي القوانين الجديدة بعد صدورها بثلاث سنوات.(٣٣) وكان السكان الأصليون في الأراضي المهزومة في طريقهم إلى التلاشي. وكانــت حياة إسبانيا الجديدة تنتقل إلى أياد جديدة.(٣٤)

إحلال السود محل الهنود الحمر

يقول ديفيد ديفيدسون إنه: "من المؤكد الآن أنه بــين عــامي ١٥١٩-١٦٥٠ استقبلت منطقة [إسبانيا الجديدة] ١٢٠ ألفا على الأقل مــن الرقيــق، أو ثلثي كل الأفارقة الذين تم جلبهم إلى الممتلكات الإسبانية في أمريكا".(٣٥)

وكما رأينا سلفا، فإن دراسات إنريكيتا فيلا الأكثر حداثة تؤكد انطباعات ديفيدسون، بينما تضخم كثيرا إجمالي عــدد الأفارقــة المنقــولين.(٣٦) إذ إن الصناعات الاستعمارية في إنتاج السكر والقماش، ثم مناجم الفــضة، كانــت

تمثل المواقع الرئيسة التي كانت عمالة الأفارقة تذهب إليها. ومع تقلص عمالة الهنود خلال النصف الثاني من القرن نتيجة تناقصها غير الطبيعي أو القيود القانونية،[٣٧] ومع "تكالب المستوطنين على أغنى مناجم الفضة في العالم"،[٣٨] بدأ العمال الأفارقة يمثلون الأغلبية في عمالة المزارع والمناجم.

وبحلول ١٥٧٠، كانت المكسيك تحوي أكثر من ٢٠ ألفا أفريقيا؛ وبحلول ١٦٥٠، كان يعتقد أن أعدادهم قاربت ٣٥ ألفا- وفي ذلك الوقت، كان ذلك مكملا لأكثر من ١٠٠ ألف من المستيزو الأفارقة ذوي الأصول السوداء - الهندية. ويقرر ديفيدسون أنه بحلول هذه المرحلة المتأخرة أيضا، كان هناك من ٨ إلى ١٠ آلاف أفريقي يعملون في مزارع السكر ويرعون الماشية في المنطقة الشرقية حول الأراضي المنخفضة الساحلية بين فيراكروز Veracruz وبانوكو Panuco، ومنحدرات سيرا مادري الشرقية Sierra Madre Oriental؛ وكان هناك حوالي ١٥ ألفا آخرين تستوعبهم مناجم الفضة ومراعي المناطق الواقعة شمال وغرب مكسيكو سيتي؛ وكان ما بين ٣٠٠٠- ٥٠٠٠ مرابطين بصناعات مماثلة تقع ما بين بويبلا Puebla وساحل الباسفيك؛ ومن ٢٠ ألفا إلى ٥٠ ألفا يعملون في الوظائف الحضرية في مكسيكو سيتي ووادي المكسيك.[٣٩] وبحلول بدايات القرن التاسع عشر، أكد جونزالو آجويري بيلتران Gonzalo Aguirre Beltran، أن أحفاد هؤلاء العمال الذين كانوا يصنفون آنئذ بأنهم سود، ومولاتو Mulattos(تزاوج الأوربيين والأفارقة)، وزامبو zambos (تزاوج الأفارقة والهنود)، وصلوا في تعداد ١٨١٠ إلى نحو ٦٣٥ ألفا، أي أكثر قليلا من ١٠ ٪ من سكان المكسيك.[٤٠]

ومع ذلك، هناك الكثير جدا مما يجب فهمه عن وجود هؤلاء الأحفاد في المكسيك والمستعمرات الإسبانية في جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية، بخلاف أعدادهم المجردة. إذ إن النقل المنهجي لعمالة السود إلى العالم الجديد لم يكن بمثابة خطوة واضحة أو ضرورية دائما. وكما رأينا، لم يكن هذا يبدو ضروريا مطلقا لعدة عقود. ولكنه عندما بدأ، أدى إلى التغيير الكامل تقريبا للتطبيق العفوي للبنى السلالية الأيبيرية التي كانت تنتقل سلفا إلى المستعمرات.

وفي البداية، وربما في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، ولكن من المؤكد في العقد الأول القرن السادس عشر، جاءت مجموعات صغيرة من الرقيق الأفارقة إلى العالم الجديد "كمرافقين" للغزاة.(٤١) وعندما تولى نيقولاس دى أوفاندو حكم هسبانيولا في ١٥٠٢، كانت رفقته تشمل "عددا غير محدد من الخدم السود والخلاسيين".(٤٢) وكانوا من اللادينو ladinos، أي السود المصبوغين ثقافة ولغة بصبغة إسبانية وبرتغالية، ولكن أوفاندو طلب من ملكته إيزابيلا أن تمنع قدوم هذه الشعوب مستقبلا في نفس السنة، حين ذهب يقول:

"أبلغ بأن هؤلاء الموجودين على الجزيرة سلفا كانوا مصدر فضيحة للهنود، وأن بعضهم هربوا من سادتهم وأسسوا مستوطنات مستقلة في الجبال. ونظرا للخوف من أن يتراجع الهنود عن مسار الحق المسيحي، حظرت إيزابيلا شحن هؤلاء السود فورا."(٤٣)

ومع ذلك، وفرت ملكة قشتالة استراحة قصيرة فقط لهؤلاء العمال. حيث ماتت في ١٥٠٤، وأصبحت المستعمرات التي كانت تديرها قشتالة بصورة

مطلقة سابقا تحت إدارة زوجها فرديناند حاكم آراجون. غير أن فرديناند صار مقتنعا في وقت ما بأن "عاملا أسود يستطيع أداء عمل أربعة هنود". وقد أرسل فرديناند إلى أوفاندو يخبره بأن تهديد تمرد السود كان يقابله الحاجة إلى عمالة السود في المناجم والمزارع.[٤٤] ومنذ ١٥٠٥ حتى ١٥٢٢، كان الرقيق السود يحلون باستمرار محل قوة العمل المحلية التي كانت تتراجع بسبب جور نظام المتعهد[*] وتفشي المرض والفوضى. وفي السنة الأخيرة، أعيدت سياسة حظر استيراد هؤلاء العمال. وتكررت هذه السياسة في أعوام ١٥٣٠، ١٥٣٢، ١٥٤٣، و١٥٥٠، وفي الامتيازات التجارية المختلفة التي منحت فيما بين ١٥٩٥ و١٦٠٩. ومنذ ذلك الحين، كان البوزيل **bozales** – الأفارقة القادمون من أفريقيا – هم فقط الذين يسمح بنقلهم إلى العالم الجديد.[٤٥] وسوف نعرج على هذا التحول في الصفحات المقبلة.

ومع ذلك، لعب عدد قليل من هؤلاء العمال أدوارا أكثر شهرة في غزو العالم الجديد. حيث يصفهم ليسلي روت **Leslie Rout** بـ– "الرفاق". حيث رافق أحدهم في ١٥١٣.[٤٦] كما رافق جوان جاريدو **Juan Garrido** (جون الوسيم). وفي ذلك يقول بيرت جيرالد:

(*) المتعهد Encomienda: نظام قانوني تم توظيفه بشكل رئيسي بواسطة التاج الإسباني خلال فترة الاستعمار الإسباني للأمريكتين لتنظيم عمل السكان الأصليين. في المهمة، منح التاج الإسباني عددا محددا من السكان الأصليين للشخص الواحد ليتحمل مسئوليتهم. من الناحية النظرية، كان على متلقي المنحة حماية السكان الأصليين من القبائل المتحاربة، وتعليمهم اللغة الإسبانية ومبادئ العقيدة الكاثوليكية، وفي المقابل انتزاع الجزية منهم في شكل مقابل بجهد العمل، أو ذهب، أو منتجات أخرى. ومن الناحية العملية، لم يكن هناك فرق يذكر بين المتعهد ونظام العبودية الرسمي. فتم إجبار الكثير من السكان الأصليين على العمل الشاق وتعرضوا إلى العقاب الشديد والقتل إذا قاوموا. (المترجم)

"من الواضح أن جاريدو عبر الأطلسي كرجل حر، وشارك في حصار تينوختيتلان Tenochtitlan [١٥٢١] وقد حاول في الغـزوات والاستكـشافات التالية أن يجرب حظه كمنظم (مع كل من الرقيق الزنـوج والهنـود الـذين يملكهم) في البحث المبكر عن الذهب، واحتل مكانته كمـواطن فـي الحـي الإسباني من مكسيكو سيتي".[٤٧]

ومات جاريدو في حالة فقر، ويعتقد أنه كان ضحية الطـاعون الكبيـر الذي ضرب مكـسيكو سـيتي فـي ١٥٤٧.[٤٨] وكـان إيـستبان Esteban (إيستبانيكو Estebanico) مع سيده نارفايز Narvaez الأقل قسوة في فلوريدا في ١٥٢٨. فنظرا لأنه نجا من سيده، فقد أكمل إيسبان رحلة طولها ثمان سنوات من فلوريدا إلى مكسيكو سيتي مع ثلاثة غزاة آخرين، ولكنه هلك على أيدي هونود من قبائل الزوني Zuni في ١٥٣٨ بينما كان يعمل دليلا لسيد آخـر، هذه المرة هو فراير ماركوس دى نيزا Friar Marcos de Niza.[٤٩]

ورافق جوان فالينتي Juan Valiente جيش ألفـارادو فـي زحفـه مـن جواتيمالا إلى بيرو في ١٥٣٤. وفي ١٥٣٦ و١٥٤٠، حارب فـالينتي مـع فالديفيا Valdivia ضد هنود الأراوك Araucanian في شيلي. وفي ١٥٤٦، منحه فالديفيا عزبة، وفي ١٥٤٨، أصبح فالينتي أول عامل أسود يحـصل علـى ضيعة. ولكن المهم جدا أنه عندما مات في ١٥٥٣ (قتل فـي عمليـة ضـد الأراوك)، فإن سيده القديم ألونسو فالينتي بدأ في إجراءات قانونية لاسترداده هو وأية ممتلكات قد جمعها.[٥٠]

وكان هناك آخرون في حاشية أفيلا (١٥١٤)، ونارفايز (خلال ظهوره الأول في العالم الجديد في ١٥٢٠)، وألفارادو (فـي قوتـه الزاحفـة إلـى جواتيمالا في ١٥٢٣)، مونتيجو (في يوكاتان في ١٥٣٢)، وبيزارو أيضا.

ويذكرنا جوسي فرانكو Franco بما يلي:

"كان الإسبان يستغلون الزنوج والهنود كثيرا كقوات صدمة في حروبهم الداخلية".[٥١] وكذلك، يبدو أنهم كانوا غير واضحين تاريخيا مثل الرقيق البيض[٥٢] الذين شاركوهم وضعهم في العالم الجديد في أوائل القرن السادس عشر. ومع ذلك، ومن الناحية الاقتصادية، فقد كانت مرحلتهم أول مرحلة تؤدي في النهاية إلى إحلال الأفارقة في كل من جزر الهند الغربية، إسبانيا الجديدة، بيرو، كولومبيا، شيلي، فنزويلا، الأرجنتين، وأوراجواي في صورة خدم منازل؛ ومزارعين للسكر، القمح، العنب، الزيتون، الكاكاو؛ وعمال في مناجم الذهب والفضة؛ وعمال حرفيين (حدادين، إسكافيين، صناع طوب، نجارين، خياطين)؛ سائقين؛ رعاة ماشية؛ غواصين لجمع اللؤلؤ؛ ومحترفات بغاء.[٥٣]

ومع ذلك، لم تقتصر النتائج على الناحية الاقتصادية ببساطة. فقد تطلب عمل الرقيق إتقان نظم السيطرة والنظام. وكذلك، أدى تزاوج السلالات العديدة الموجودة في ممتلكات إسبانيا الجديدة إلى تكوين نظم وقواعد سلالية معقدة. وكانت النتائج عملية بينما كانت بربرية وغريبة أيضا:

"في أمريكا الإسبانية، كان الجلد والتقييد والحبس والحرمان يمثل الأساليب المعيارية التي كانت تستخدم لتقويم الرقيق المارقين والمتمردين. وكان بعض السادة معروفين بجلد رقيقهم حتى الموت، بينما استمر آخرون في تشويه ممتلكاتهم من الرقيق الأسود بحرق أجسادهم بأختام الحديد الحارقة حتى بعد أن ألغى التاج الملكي هذا العمل الوحشي. وكان هناك الأسوأ من هذا، وهم الساديون المنتقمون الذين أرغموا رقيقهم على أكل البراز وشرب البول".[٥٤]

وكان التنكيل عبر وسائل الخصي وقطع الأجـزاء التناسـلية شـائعا وقانونيا. ويقول أجويري بيلتران إن بعض الخلاسيين الرقيق الذين لم يعودوا يتميزون ظاهريا عن الطبقة الحاكمة كان يجب وسمهم بـ:

"الحديد الملتهب في أماكن لا يمكن أن تخفي علامـة الـرق للحظـة. وكانت وجوه العديد منهم مغطاة بالكامل بنقوش موسومة تقول: "أنـا رقيـق السيد مارك فالي"؛ أو"أنا رقيق دونا فرانشيسكا كاريو دى بيرالتا".[٥٥]

وأدت هذه المعاملة والأوضاع الكريهة حتما التي كـان يعمـل فيهـا معظمهم إلى انخفاض الحياة العملية النشطة للرقيق إلـى مـا بـين عـشر وعشرين سنة.[٥٦]

مقاومة السود: القرن السادس عشر

في البداية، وكقاعدة عامة، كانت المقاومة بين الرقيق الأفارقـة تأخـذ شكل الهرب إلى المستوطنات المحلية أو "الهندية". وعلى سبيل المثال، فـإن السجل الوثائقي لمكسيكو سيتي لبوبيلا دى لوس أنجلوس، والذي يعتبر "كاملا فعلا من ١٥٤٠ فصاعدا" يزخر برد الفعل الرسمي علـى "الهـاربين" فـي منتصف القرن السادس عشر".[٥٧] وقد جـذب الهـاربون اهتمـام هيرنـان كورتس منذ وقت مبكر حوالي ١٥٢٣، حيث يعتقد أن أول اضطراب عـام في إسبانيا الجديدة حدث في ١٥٣٧.[٥٨]

ومع ذلك، كان بعض هؤلاء الأفارقة لا يقطعون علاقـاتهم بالإسـبان تماما. فبمجرد أن يتحرروا عن طريق حيلهم الخاصة، كانوا يعودون للهجوم على المستعمرين الإسبان، ويستولون على الطعام والثياب والسلاح والأدوات

وحتى التحف الدينية من مدن المستعمرين وقراهم ومنازل المزارعين، ومن المسافرين على الطرق التي تربط الموانئ والمستوطنات. وبمجرد أن يسلحوا أنفسهم، كان الإسبان يسمون هؤلاء "الرقيق الهاربين" (السيمارون cimarrones).(٥٩) (وقد أدخل الإنجليز مصطلح السيمارون في لغتهم بعد تحريفه إلى كلمة مارون "maroons").

وفي ١٥٠٣، نتذكر أن أوفاندو لاحظ أنشطة هدامة بين السود في هسبانيولا. وفي الشهر الأخير من ١٥٢٢، تحققت نبوءة أوفاندو. ومن الطريف تماما أن رقيق مزرعة دييجو كولومبس (ابن الأدميرال) قد تمردوا، وقتلوا حوالي ١٥ مستعمرا قبل أن يتم أسرهم وإعدامهم.(٦٠) وكان هذا يمثل فرصة لحظر استخدام الأفارقة مستقبلا كعمال رقيق في المستعمرات. وحدثت تمردات مماثلة في بورتو ريكو (١٥٢٧)، سانتا مارتا في كولومبيا (١٥٢٩)، وبنما (١٥٣١). وانضم السود إلى السكان المحليين في ١٥٣٣ في هسبانيولا. واستمرت المقاومة لعشر سنوات.(٦١) وبعد ذلك بعقود، استمرت السلطات الإسبانية في الاهتمام بمثل هذه الأحداث. حيث كتب نائب الملك مارتن إنريك Viceroy Martin Enriquez إلى فيليب الثاني يقول له:

"يبدو يا صاحب الجلالة أن الوقت حان ليصبح هؤلاء الناس سادة للهنود، نظرا أنهم يولدون بينهم، وهم رجال يقدمون على الموت مثل أي إسباني في العالم. ولكن إذا فسد الهنود وانضموا إليهم، فأنا لا أعرف من ستكون له القدرة على مقاومتهم. فمن الواضح أن هذه الكارثة ستقع في غضون بضع سنين".(٦٢)

ومع ذلك، تزايدت أعداد هؤلاء الرقيق الهاربين سريعا بما يكفي لتكوين مستوطناتهم ومجتمعاتهم الخاصة التي أصبحت تعرف في المكسيك باسم البالينك palenques.

ويسترجع إدجار لاف Edgar Love تقدير بيلتران أنه بحلول ١٥٧٩ كان حوالي ٢٠٠٠ من السود قد هربوا من سادتهم. ويواصل لاف موضحا أنه "طوال أكثر من قرن، كان الرقيق الهارب يمثل مشكلة خطيرة في أجزاء عديدة من المكسيك."(٦٣) وأعلن ديفيد ديفيدسون في كتاباته عن الربع الثالث من القرن أنه:

"بحلول ستينيات القرن السادس عشر، كان الرقيق الهاربون من مناجم الشمال يرهبون المناطق الواقعة ما بين جوادالاخارا Guadalajara حتى زاكاتايكس Zacatecas، حيث كانوا يتحالفون مع الهنود ويغيرون على المزارع. وفي حالة واحدة، انضم المارون من مناجم جواناخاتو Guanajuato مع هنود تشيشميك Chichimec غير المسالمين في حرب وحشية ضد المستوطنين. وعلم نائب الملك بأنهم كانوا يهاجمون المسافرين ويحرقون المزارع ويرتكبون "جرائم" مشابهة. أما إلى الشرق، فقد لجأ الرقيق من مناجم باشوكا Pachuca إلى كهف يصعب الوصول إليه، حيث كانوا ينطلقون منه بصورة دورية لإزعاج الريف. وانضم الزنوج من مناجم أتوتونيلكو Atotonilco وتونافيستا Tonavista إليهم بالأسلحة، وكونوا مستوطنة يصعب اختراقها."(٦٤)

وكانت استجابة ممثلي الدولة الإسبانية لا لبس فيها. ففيما بين ١٥٧١ و١٥٧٤، فصلت قرارات ملكية النظم الجديدة للسيطرة والمراقبة، والتي فرضت معاملة أقسى بصورة تصاعدية للهاربين، حيث كانت تقوم

على عقاب ٥٠ سوطا للغياب أربعة أيام، ١٠٠ سوط وأغلال حديدية للغياب أكثر من ثمانية أيام، والإعدام للمتغيبين ستة أشهر، ويخفف في بعض الحالات إلى الخصي.

"ومع ذلك، لم يكن لأي من قوانين ١٥٧١- ١٥٧٤، ولا إصدار تشريعات مقيدة في سبعينيات وثمانينيات القرن السادس عشر، أية جدوى. فقد كشف أمر أصدره نائب الملك في ١٥٧٩ أن عدوى التمرد غطت تقريبا كل المنطقة المأهولة من المستعمرة خارج مكسيكو سيتي، وخاصة ولايتي فيراكروز **Veracruz** وبانوكو **Panuco**، والمنطقة ما بين واخاكا **Oaxaca** وجوالتوكو **Gualtuco** على ساحل الأطلسي، وكل منطقة جران تشيشميك **Gran Chichimec**. ولكن الإجراءات القمعية الطارئة واستمرار استيراد الأفارقة هو فقط الذي حافظ على استمرار عرض عمل الرقيق في المكسيك.(٦٥)

ومع ذلك، استمرت مقاومة الأفارقة في المكسيك في التصاعد من حيث الشكل والطبيعة. وكان الكفاح ضد الرق يتحول إلى معركة للحفاظ على الهوية الجماعية للشعوب الأفريقية. وبحلول أوائل القرن السابع عشر، حسب الوثائق الاستعمارية الرسمية، كان هناك مجتمع أسود واحد على الأقل (سان لورنزو دى لوس نيجروس **San Lorenzo de los Negros**)، والذي اكتسب حقه في الوجود بحرب ومعاهدة. وكانت هذه المعاهدة:

"تشمل شروط المعاهدة المحفوظة في السجلات أحد عشر شرطا اشترطها يانجا **Yanga**، زعيم التمرد الزنجي، وبموجبها يتوقف يانجا وشعبه عن الإغارة. حيث طالب هذا الأفريقي بتحرير كل أفراد شعبه الذين هربوا قبل سبتمبر من العام السابق (١٦٠٨)، ووعد بإعادة كل الذين هربوا من

الرق بعد ذلك التاريخ إلى سادتهم. واشترط أيضا منح المستوطنة مكانة المدينة الحرة، وأن يكون لها بوابتها الخاصة، وعمدتها العادل الذي يجب أن يكون شخصا عاديا إسبانيا. ولا يعيش إسبان آخرون في المدينة، على الرغم من إمكانية زيارتها في أيام الأسواق... وفي المقابل، وعد يانجا بأن تساعد المدينة نائب الملك في أسر الرقيق الهاربين في مقابل رسوم. وقال إن الزنوج سيساعدون التاج في حالة وقوع هجوم خارجي على المكسيك".(٦٦)

وفي الجبال القريبة من جبل أوريزابا Mt. Orizaba، وبقيادة هذا الرجل الذي يسمى يانجا، "المشهور بأنه زعيم كونغولي من مملكة أفريقية يحدها نهر نيونجا Nyonga"،(٦٧) اكتسبت مستعمرته (يانجويكوس Yanguicos) مكانتها الرسمية كمستوطنة سوداء حرة. ومع ذلك، كان يبدو أن الجبال كانت توفر حماية أكبر لبعض سكان هذه المستوطنة وغيرهم من الهاربين، مقارنة بكلمات ومعاهدات قاهريهم الإسبان. واستمرت هذه المستوطنات في الانتشار عبر إسبانيا الجديدة، وفي توفير الفرصة لتأسيس مجتمعات حرة معترف بها رسميا، وإن كان ذلك بصورة غير منتظمة بوضوح.(٦٨) ففي الفترة من ١٦٣٠ و١٦٣٥ مثلا، تم التوصل إلى اتفاق مع الهاربين الذين تأسست معاقلهم في جبال توتولا، بالميلا، تومباكاريتاس، وتوتولنجا قرب فيراكروز. وأصبحت مدينة سام لورنزو كيرالفو مستوطنتهم الحرة.

وفي ١٧٦٩، سبق تاريخ مماثل تأسيس نيوسترا سينورا دى جوادالوب دى لوس مورينوس دى أمابا، قرب الطرف الجنوبي من ولاية فيراكروز.(٦٩) حيث علمنا بوجودهم من خلال البحث الحديث في التاريخ الاستعماري المبكر لإسبانيا الجديدة. وفي كولومبيا كانت تمرداتهم واضحة

في ١٥٣٠، ١٥٤٨، ثم في خمسينيات القرن السادس عشر.[٧٠] وفي ١٥٥٢، واجهت فنزويلا أول ثورة رقيق كبرى. ولكن هذا التمرد من جانب الرقيق الذين كانوا يعملون في مناجم بوريا Buria تعرض للسحق والإبادة في ١٥٥٥. ومع ذلك، فبحلول بداية القرن السابع عشر، بدأت مجتمعات سوداء مستقلة ذات وضع قانوني في نظر مسئولي الدولة في الظهور.[٧١]

بالماريس والهاربون في القرن السابع عشر

في البرازيل - التي رأينا أنها سيطرت على تجارة الرقيق البرتغالية - كانت مستوطنات الهاربين (كويلومبو quilombos) التي بدأت في القرن السادس عشر مستمرة حتى في القرن التالي. حيث سجل إيرنستو إينيس Ernesto Ennes - وهو دارس كان بعيدا عن التعاطف مع الهاربين[٧٢] - من مراجعته لوثائق في "السجلات التاريخية الاستعمارية في إسبانيا" في ١٩٤٨ أنه وجد "آثارا في كل ركن في البرازيل" لهذه المستوطنات.[٧٣] وأعلن آرثر راموس Arthur Ramos، الذي لخص دراساته الخاصة للسود في البرازيل أن:

"من بدايات الرق، كان الهروب متكررا. وكان الرقيق الهاربون - الذين يسمون محليا كويلومبولا quilombolas - غالبا ما يتجمعون معا في مجموعات منظمة تعرف في البرازيل بكويلومبو... ومنذ البداية، كان الملاك يشكون من الهروب المتكرر للرقيق، ويطلبون الحماية والأمن من السلطات العامة. وبعد ذلك كانوا يعالجون الموقف باستخدام حراس الأدغال وبالإعلان في الصحف، والإعلان عن فقدان الرقيق والحث على التكاتف لإعادتهم لسادتهم".[٧٤]

وتشير دراسة شتوارات شفارتس Stuart Schwartz لصناعة السكر في منطقة باهيا Bahia الاستعمارية إلى أن الرقيق كانت لديهم أسباب وجيهة للقلق على حريتهم، على الرغم من وجود اقتراحات ماكرة من بعض الدارسين مثل راسل وود A. J. R. Russell-Wood بأن الشيء الوحيد الجدير بالاهتمام هنا كان يتمثل في "تكيفهم مع الطعام الجديد، والبيئة الجديدة، وأوضاع العمل الجديدة":(٧٥)

"بالإضافة إلى القسوة الكامنة في نظام إنتاج السكر، والأعمال العارضة للوحشية الفردية، كان الرقيق يعانون أيضا من سياسة مخططة للعقاب والإرهاب كوسيلة للسيطرة. حيث كان أصحاب المزارع يعتقدون أنه من خلال القسوة فقط يمكن إنجاز العمل والحفاظ على النظام، خاصة عندما يكون معدل العمل في الحقول عبارة عن أربعين رقيقا تقريبا لكل مشرف أبيض. وكان هذا النوع من القسوة المؤسسية - بالإضافة إلى العمل الشاق وظروف العمل السيئة - يساهم في دوافع الهروب".(٧٦)

وتوضح أعمال كل من راموس، كينت، إيرين ديجس، دونالد بيرسون، إديسون كارنيرو، شفارتس، وريموندو نينا رودريك أنه بالنسبة للبرازيل ككل- ومن القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر - كانت مقاومة وتمرد ومؤامرات الرقيق من الثوابت في تلك الأرض.(٧٧) ومع ذلك، فإنه في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كانت مستوطنات الهاربين هي التي تسيطر على رد الفعل على الرق.

وفي إقليم بيرنامبوكو Pernambuco، أعظم مستوطنة على الإطلاق، استمر الوضع الاستثنائي لمستوطنة الرقيق الهاربين في بالميراس من ١٦٠٥

إلى ١٦٩٥. فقد كانت بالميراس مجتمعا يضم المستوطنات المتعـددة التـي كانت تؤلف المجتمع، الذي – على الرغم من كونه ريفيا – كان أكثر اهتماما بالدفاع عن نفسه. ويقدم لنا ديجس Diggs هذا الوصف:

"كانت مستوطنة بالميراس التي تقع في منطقة جبلية منحدرة ومطيـرة بمثابة دفاع طبيعي عن السكان، ولكنها كانت في نفس الوقت أرضـا بكـرا تتمتع بأفضل حيوية في ولاية بيرنامبوكو. وكانت الأشجار المثمرة الكثيـرة تسهل الحياة للكثيرين الذين كانوا يعرفون أماكنها. وساعدت الأشجار المنتجة للأخشاب على استخدامات صناعية عديدة. وكان أهم هذه الأشجار يتمثل في نخلة جوز الهند، التي... كانت توفر طعاما ممتازا... وشرابا لذيذا".[٧٨]

وفي ١٦٤٥، كان بارتلميو لنتز Bartholomeus Lintz، الذي عمل كشافا للحملات التي كان الهولنديون سيقومون بها ضد بـالميراس، أول أوروبـي معاد يكتشف أن الولاية تتكون من عدة مستوطنات (اثنتين كبيـرتين بهمـا ٥٠٠٠ نسمة، وعدة وحدات صـغيرة بإجمـالي ٦٠٠٠ نـسمة). وبحلـول ١٦٧٧، كان هناك عشر مستوطنات كبرى، كانت إحداها العاصمة (ماكوكو Macoco)، حيث كان يقيم "ملك الزنوج" (جانجا زومبا Ganja-Zumba أي القائد العظيم)، وكانت الولاية كلها تمتد على مدى ستين فرسخا.[٧٩] وكان يقدر آنئذ أن السكان كانوا يتراوحون ما بين ١٥٠٠٠ و٢٠٠٠٠، وهم عبارة عن خليط من الكريول والأفارقة القادمين أساسا من أقاليم أنجولا والكونغو.

وطوال قرن تقريبا، لم يستطع أي من البرتغاليين أو الهولنديين الـذين تدخلوا بلا مبرر، أو السكان الكريول، تدمير تلك الولاية، على الرغم من أنهـم حاولوا لأكثر من سبعين سنة. وحتى في النهاية، فيمـا بـين ١٦٧٢-١٦٩٤،

يخبرنا كِنت Kent أنها "كانت تصد في المتوسط حملة برتغالية كل ١٥ شهرا".[٨٠] ومع ذلك، كان هناك تطور سياسي مهم خلال تلك الفترة.

ففي ١٦٦٨، "سعى جانجا زومبا إلى السلام كما كان يفعل سابقا عندما كان يأتي حاكم جديد إلى بيرنامبوكو". حيث يشير كِنت مقتبسا من نينا رودريك Nina Rodriques إلى أن المعاهدة التي وقعت فعلا قد "منحت أهمية حقيقية لولاية الزنوج التي أصبحت المستعمرة الآن تعاملها كما تتعامل أمة مع أمة أخرى". ومع ذلك، لم يكن للمعاهدة تأثير كبير على السكان الذين استمروا في ادعاء ملكية وتوزيع جزء كبير من "ولاية الزنوج" على أنفسهم.[٨١] غير أن سلطة جانجا زومبا قد تعرضت للانتهاك:

"فبحلول عام ١٦٩٧، اتحد قائد متمرد يدعي زامبي Zambi مع متمردين آخرين في مقدمتهم جواو مولاتو، كانهونجا، جاسبار، وأمارو، وتحالفوا ضد زعيم الولاية مما أدى إلى مصرع جانجا زومبا". وبحلول مارس ١٦٨٠، كان مطلوبا من زامبي أن يستسلم، وهو ما لم يحدث، فاندلعت الحرب داخل الولاية مرة أخرى ".[٨٢]

وكما يقول راموس، كان زامبي (زومبي) "زعيما مشهورا سلفا، وكانت مآثره تدهش حتى العسكريين البيض".[٨٣] فقد كان يحكم كملك على "تيو بالميراس" حتى سقوطها بعد ذلك بعقدين. ولكن بالنسبة لوصوله إلى السلطة، يمكن أن نعترف بما وصفه راموس وغيره بأن زامبي ينتمي أيضا إلى جذور من سكان "البانتو" في وسط وغرب القارة.[٨٤] فقد كان مفهوم اعتبار السلطة الحقيقية مماثلة للتكامل الاجتماعي الآمن نابعا فعلا من "وسط أفريقيا".[٨٥]

وسقطت بالميراس فعلا في ١٦٩٤، نتيجة حملات شنها الحكام البرتغاليون المتتابعون على بيرنامبوكو (جوا ودا كونها سوتو مايور، ماركيز دى مونتبيللو، وميلو دى كاسترو). وكانت الحملة الأخيرة التي انطلقت إليها تتكون من حوالي ٣٠٠٠ رجل، وظلت في الميدان عدة شهور. وفرض الحصار الأخير في ١٠ نوفمبر ١٦٩٣ واستمر حتى أوائل فبراير من السنة التالية. وقدر ميلو دى كاسترو التكاليف الكلية لهذه المغامرة بحوالي ١,٤ مليون كروزادو Cruzado برازيلي."(٨٦)

وفي ليلة ٥ فبراير ١٦٩٤، اكتشف "زومبي" منظم الدفاع عن بالميراس أن موقعه في جبل باريجا Barriga أصبح محاصرا تقريبا، فبحث عن فرصة يائسة أخيرة للهرب. وقد وصف الكولونيل دومينجوس جورج فيلهو Domingos Jorge Velho، قائد القوات البرتغالية النتيجة كما يلي:

"خلال المراقبة الثانية في تلك الليلة، فيما بين الخامس والسادس من فبراير، وبصورة مفاجئة وصاخبة، كان [زومبي] مع كل شعبه والمعدات التي كان يمكن أن تتبعه في ذلك المكان يبحث عن مخرج. ولم يلاحظهم حراس هذا الموقع حتى النهاية تقريبا. وكان زومبي نفسه يغادر في المؤخرة، وفي تلك اللحظة أطلقت عليه النار مرتين. ونظرا للظلام، ونظرا لأن كل هذا كان يحدث عند حافة جرف، فإن الكثيرين - حوالي المائتين - سقطوا من الجرف. وقتل آخرون كثر. وتم أسر ٥١٩ منهم رجالا ونساء ومن جميع الأعمار".(٨٧)

وكما يقول الحاكم ميلو دى كاسترو أيضا، في بيرنامبوكو "كان هذا النصر السعيد يعتبر أكثر أهمية من طرد الهولنديين. وبالتالي فقد احتفل به

الشعب كله باستخدام الألعاب النارية لستة أيام، بالإضافة إلى الكثير من مظاهر الفرح، وبشكل شعبي تلقائي دون إصدار أية أوامر إليهم". وفي هذا السياق، ينسب إينيس هذه الإثارة إلى "التأثير المعنوي الذي أحدثه في السلطات".(٨٨)

ويذكرنا راموس بأن "بالميراس لم تكن الحالة الوحيدة البارزة هنا. ففي ١٦٥٠، نظم الرقيق في ريو دى جانيرو عددا من الاضطرابات التي سببت لسلطات الشرطة في تلك المنطقة صعوبات جمة حتى تم قمعها على يد الضابط مانويل جورداو دا سيلفا".(٨٩)

وفي نفس هذا القرن السابع عشر، انضم رقيق جامايكا إلى سلوك أقرانهم في البرازيل والمكسيك. حيث لخصت باربارا كوبيتوف Barbara Kopytoff تلك الأوضاع قائلة:

"خلال حقبة الرق، انتشرت مجتمعات الرقيق الهاربين في أنحاء العالم الجديد. فحيثما وجدت مزارع الرقيق، كانت توجد مقاومة في شكل هروب أو تمرد الرقيق؛ وحينما كانت الجبال أو المستنقعات أو الغابات تسمح للرقيق الهاربين بالتجمع، كانوا يشكلون مجتمعاتهم. وكانت تتراوح في الحجم من بالميراس في البرازيل، ذات الأكثر من عشرة آلاف نسمة، إلى بضعة هاربين يختبئون في أطراف المزارع في الجنوب الأمريكي. وبينما تم تدمير معظمها... بقيت قلة منها لم يمكن تقليصها أو احتواؤها".(٩٠)

وفي منتصف القرن، اندلع في هذه الجزيرة ثورات في أعوام ١٦٦٩، ١٦٧٢ (مرتين)، ١٦٧٨، ١٦٨٢، ١٦٨٥، و١٦٩٠. وفي جامايكا، بدأ الهروب خلال فترة الاستعمار الإسباني (١٥٠٩– ١٦٥٥).(٩١) وفي السنوات

الأخيرة من المقاومة الإسـبانية (١٦٥٥- ١٦٦٠) للاحـتلال البريطـاني للجزيرة، لعب ثلاثة من معسكرات الهاربين أدوارا حاسـمة فـي مـساندة حملات العصابات التي قادها كريستوبال دى ياسي Christobal de Yassi ضد البريطانيين.[٩٢]

ومع ذلك، ففي الشهر الأول من ١٦٦٠، عقد الإنجليز سلاما مع أحـد زعماء الهاربين، جوان لوبولو Juan Lubolo (جوان دى بولا Juan de Bola)، الذي قام سريعا بمساعدتهم في تدمير معسكرات الهاربين الكبرى الباقية أولا، ثم معسكرات عصابات ياسي أخيرا. وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة شهور قليلا، لقي يوان دى بولا مصيره المناسب.

وفيما يبدو أنه تسجيل رسمي لوحظ ما يلي:

"في اليوم الأول من نوفمبر، تقابل الزنوج المنشقون مع يوان دى بولا وقطعوه إربا؛ وفيما عدا ذلك كان كل شيء هادئا في المكان".[٩٣] وبعد ذلـك بثلاثة قرون، قدر ديفيد بوسيريه وتيلور بنفس القدر من التعـاطف وبـلا تردد: "كان موته يبدو لنا نوعا من العدالة... فقد كان "الخائن" الكبير".[٩٤]

وخلال الثمانين سنة التالية، تشكل مجتمعان كبيران للهاربين في مرتفعات جامايكا. عرف أحدهما باسم "هـاربو ويـنـدوارد Winward Maroons" الـذين استقروا في الجبال الشرقية، وكانت نواته تتكون من الهاربين الإسبان ومـن انضم إليهم لاحقا من المزارع والبلدات الإنجليزية. أمـا الآخـر - هـاربو ليوارد Leeward Maroons - في داخل الغرب الأوسط، فقد ظهر إلى الوجود في ١٦٧٣، بعد ثورات الرقيق الأولى خلال الحقبة الإنجليزية.[٩٥]

وفي ١٦٩٠، حدث تمرد كبير آخر، بدأ في مزرعة ســوتون Sutton، مما أضاف أكثر من مائتي لاجئ إلى مستوطنات ليوارد. وكان هذا بمثابــة الأساس الأولي الذي تقوم وتنمو عليه هذه المستوطنات وتحافظ على نفسها. وفي ذلك يقول كوبيتوف:

"تكونت مجتمعات الهاربين وتزايدت أعدادها بسبب تمردات الرقيــق، وبسبب الهروب الفردي والجماعي من المزارع. وكذلك، كــان الهــاربون يأسرون الرقيق خلال الغارات، وكان الرقيق أو الزنوج الأحرار يرسلون إلى قتال الهاربين.

ووفرت التمردات أكبر الأرقام، بعدة مئات في المرة الواحــدة، ولكــن التمردات كانت مجرد واحدة فقط من فرص الهرب... فقد كان هناك تسرب مستمر للهاربين، وأصبح التسرب تيارا عندما فشلت حملات الإنجليز العقابية في تحقيق أهدافها".[٩٦]

ومن الواضح أيضا أنه بسبب انخفاض معدل النساء إلى الرجال، كانت مجتمعات الهاربين غير قادرة على التكاثر آنئذ.

وعلى الرغم من أنه كان يبدو أن المتحدثين بلغة الأكان Akan كانوا هم المسيطرين بين هاربي جامايكا، فإن التركيب السياسي لهاربي ليوارد كــان يتبع تقريبا التركيب الموجود بين مجتمعات الهاربين المجلوبين من أفريقيــا الوسطى إلى البرازيل. حيث نجد أن كودجوى Cudjoe، الذي أصبح زعيمــا بارزا لهاربي ليوارد في سبعينيات القرن الثامن عــشر، اســتخدم تنظيمــا برلمانيا يجمع بين السلطة المركزية والاستيطان غير المركزي. ومن ناحية

أخرى، يلاحظ كوبيتوف أنه، "بحلول سبعينيات القرن الثامن عشر تجمع الهاربون في الشرق في نوع من الاتحاد التعاوني".(٩٧) ومع ذلك، كان هناك فرق واضح بين السود في جامايكا والبرازيل يتمثل في وجود "سحرة وساحرات معروفون باسم الأوبيا obeah بين هاربي وينوارد وليوارد. وفي ذلك يقول ميشيل كراتون:

"بالنسبة إلى السادة، كانت الأوبيا مجرد شعوذة، وكانت بغيضة بسبب سريتها ومهاراتها المزعومة في تسميم الأعداء. وحتى بالنسبة للسود الذين تأقلموا، كانت الأوبيا تتصف بهالة شريرة بسبب ارتباطها بإلقاء التعاويذ التي تسبب الشر والخير أيضا. ومن ناحية أخرى، فإنه بالنسبة لغير المتأقلمين، كانت الأوبيا تمثل دينا حقيقيا ومصدرا قويا للعلاج. فقد كانت الأوبيا (مثل الفودو Voodoo في هاييتي، أو الميالية Myalism في جامايكا، أو الشانجو Shango في ترينيداد) تبحث عن علاقات طقوسية مع العالم الروحي وراء الظلال والأشجار المقدسة التي توفر إحساسا غامضا بالتواصل بين الأحياء والأموات والذين لم يولدوا بعد".(٩٨)

وفي بالميراس، وتمشيا مع المجتمعات الكونغولية والأنجولية، كان السحرة محظورين كمعادين لسلطة الملك.(٩٩) ففي هذه المجتمعات، كان الأمر يتمثل غالبا في أن شرعية السلطة ومجرد وجود النظام الاجتماعي يصاحبان القضاء على السحر والشعوذة.(١٠٠) ففي جزر الهند الغربية البريطانية، أصبح التخلص من الأوبيا مسألة رسمية.(١٠١) وهناك سبب وجيه. فقد كان رجال ونساء الأوبيا مصدر الأيديولوجية لتمرد السود غالبا.

"عملت الأوبيا الكثير في تمردات السود العديدة. وكان الأمـر كـذلك بصفة خاصة في حالة رجال ونساء الأوبيا في ساحل الذهب... فعند تخطيط هذه التمردات، كان هؤلاء الناس فعالين في أداء طقوس سرية، وفي توزيـع الأصنام التي كان يفترض أنها تحمي المتمردين من أسلحة البيض".[١٠٢]

وفي الواقع، أثبتت الأوبيا أنها أكثر مقاومة من خصومها. إذ إنهـا لـم تختف تماما أبدا. حيث واصلت تكيفها وتطورهـا المـستمر فـي جامايكـا (وأماكن أخرى) عبر القرون، حيث كانت تظهر نفسها بصورة تتابعية فـي مجتمعات الميالية Myalism في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحركـة بوكومانيا Pocomania فـي أواخـر القـرن التاسـع عـشر، وراسـتافاريا Rastafarians في ثلاثينيات القرن العشرين.[١٠٣] وكما سنرى، وكمـا كـان الحال مع الأوبيا، حدث نفس الشيء مع هروب الرقيق.

وعندما نعود إلى القرن السابع عشر، نجد أن مستوطنات الهاربين التي حققت وجودا متقطعا أحيانا، ومستمرا أحيانا أخرى، في المكسيك والبرازيل وجامايكا، وكانت تتكرر في أنحاء المناطق الإسبانية والممتلكات الاستعمارية الجديدة التي صاحبت توسع المـصالح البريطانيـة والفرنـسية والهولنديـة التجارية والزراعية والبيروقراطية.

وفي كولومبيا، قرب مدينة قرطاجنة، تأسست مستوطنة تعـرف باسـم سان باسيليو مع بداية القرن العشرين. وقبـل ذلـك، فـي ١٥٢٩ و١٥٥٠، حدثت ثورات على ساحل هذه المستعمرة المنتجة للذهب والسكر والكاكـاو أساسا. ولكن مع تحرك الصناعات الاستخراجية كثيرا نحو الـداخل، ومـع تزايد طلب كولومبيا على العمالة بما جعلها مستوردا كبيرا للعمالة الأفريقية

(٢٠٠ ألف)، أصبحت الثورات وتأسيس مستوطنات اللاجئين أكثر انتـشارا. ومع ذلك، يخبرنا أجويلس إسكالانتي Aguiles Escalante بما يلي:

"حدثت أقوى حركات التمرد على ساحل كولومبيا الكاريبي في قرطاجنة دا اندياز عند بداية القرن السابع عشر خلال إدارة جيرونيمـو دى سـانزو كاسارولا... وكان المتحمس والجرىء دومينجو بيوهو أول رقيـق يتمـرد علانية. حيث ادعى أنه كان ملكا على دولة أفريقية، واندفع بنفسه مع ثلاثين رجلا وامرأة من الزنوج إلى الغابات والمناطق الزراعية في ماتونا Matuna (جنوب مدينة تولو)... ووضع دومينجو الذي أصبح يعرف الآن باسم "الملك بنكوس King Benkos" نهاية لفترة السكون الاستعماري في كل من قرطاجنة، تولو، مومبوس، تينيريفي، وغيرها، وذلـك بالإغـارة وسـرقة المـزارع، الماشية، والمناطق المزروعة... وحتى الزوارق التي كانت تحمـل الرفـاق الزنوج الذين كانوا يرسلون إلى قطع أشجار الأخشاب الكبيرة".[١٠٤]

وفشلت حملات عديدة ضد سان باسـيليو، وفـي ١٦١٢ و١٦١٣، أبـرم الحاكم دييجو فرناندز دى فاليسكو معاهدة تـشمل العفـو. وقبـل العديـد مـن المستوطنات الشروط التي كانت تشمل التخلي عن الاستيطان. ولكن في ١٦١٩، عندما حدثت ثورة رقيق كبرى أخرى فـي قرطاجنـة، يقـول روت Rout إن الفرصة سنحت لحاكم لاحق ليحقق ما كان يعتبره ثأرا مـؤجلا طـويلا مـن المتمردين السابقين.[١٠٥] ومع ذلك، يصر إيسكالانتي على أن: "الحاكم جارسـيا جيرون Garcia Giron... اكتشف مؤامرة جديدة من بينكـوس وأسـره، وشـنقه في النهاية".[١٠٦] وظل أحفاد مستوطنة سان باسيليو يظهـرون فـي الأراضـي الداخلية حتى تسعينيات القرن الثامن عشر.[١٠٧] ولم يظهر تمرد كبيـر للرقيـق في كولومبيا سوى في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر (١٦٩٦).

وفي فنزويلا، نجد أن مستوطنة نيرجوا Nirgua - التي يطلق عليها البارون هومبولت ببعض السخرية "جمهورية الزامبو والمولاتو" - تأسست في ظروف مماثلة في ١٦٠١.(١٠٨) وهكذا كان ذلك يمثل اتصالا مباشرا بداية من التمردات التي بدأت في المستعمرة في ١٥٣٢ ثم في ١٥٥٥ مع تأسيس مستوطنة بوريا التي ارتبطت "بالملك ميجويل".(١٠٩)

وكانت فنزويلا التي يتشابه اقتصادها مع كولومبيا تستوعب تاريخيا أكثر قليلا من نصف عدد الرقيق (١٢١ ألفا). ومع ذلك، وطوال ثلاثة قرون تقريبا، كانت المستوطنات الإسبانية في فنزويلا تصب عليها انتقامها المضاعف من السود والمولاتو والهنود والزامبو. ففي المرتفعات والوديان التي أصبحت مواقع لمعاقل التمرد، أصبحت الحياة الاجتماعية لحركات التحرر تتمازج بصورة متزايدة بعد القرن السابع عشر. ويمكن قول نفس الشيء عن البلدات التي تطورت في تقارب وثيق مع موانيها وأسواقها الداخلية. وكما هو معروف حتى الآن، لم يكن هناك أي تصور لولاية أفريقية ترتبط بالهروب أو التمرد المسجل في فنزويلا.

ففي البلدات، أصبح شيء ما أقرب إلى الحروب الطبقية، ويؤلب كلا من السود الأحرار، الرقيق، البيض الفقراء، المولاتو، الزامبو، وأحيانا الهنود اللادينو ضد الطبقة الحاكمة. وربما كانت هناك نتيجة أخرى لاجتثاث السود والهنود تتمثل في أنه في القرنين السابع عشر والثامن عشر وصلت فنزويلا مستوى من العنف في تمرداتها وردود أفعالها لم يكن له نظير في أي مكان آخر في مجتمعات الرقيق.

وأخيرا، ففي جويانا البريطانية والفرنسية وسورينام الهولندية، ظهرت الأمثلة الأكثر غرابة على الهروب، وتكوين ما يشار إليه في الأدبيات حقا بأنه "قبائل زنوج الأدغال". حيث كانت هذه الشعوب - الساراماكا، الماتاواي، الكوينتي، الدجوكا، والباراماكا - تشكل الأمثلة الأكثر استمرارا وقدما للهروب المستمر.(١١٠) فقد كان هؤلاء يمثلون شعبا - في حالة سورينام - كان يوصف حتى وقت قريب من هذا القرن بأنه يشكل "دولة داخل الدولة". حيث بدأ تاريخهم أيضا في القرن السابع عشر في توقيت ما قرب ربعه الثاني. ويلاحظ ريتشارد برايز، أحد أفضل الدارسين المطلعين على هذه المجتمعات:

"على مدار ثلاثة قرون، كانت جويانا الموقع التقليدي لمجتمعات الهاربين. وعلى الرغم من القضاء على الهاربين المحليين في جويانا الفرنسية والبريطانية بنهاية القرن الثامن عشر، كان الهاربون في سورينام والذين يعرفون "بزنوج الأدغال" يمثلون أكبر سكان هاربين في نصف الكرة الغربي. وربما باستثناء هاييتي، كانت هذه تمثل المجتمعات والثقافات المستقلة الأكثر تطورا في تاريخ أمريكا الأفريقية".(١١١)

وعلى الرغم من أن أسلاف هذه الشعوب يمكن أن ترجع إلى ساحل الرقيق، ساحل الذهب، وساحل العاج، وإلى لونجو (الكونغو)/أنجولا، فإنها حاربت وحققت هوية جديدة متمثلة في تكوين "زنوج الأدغال". ومن ثم فإن هذا التاريخ يحتاج إلى اهتمام كبير.

كانت الظروف التي أنتجت مجتمعات الهاربين، ثم أساس الشعوب الجديدة في جويانا وسورينام، نتاج نظام الرقيق في حالته القصوى. فقد كانت أهم خصائصها تتمثل في أن سورينام أصبحت المستعمرة الأكثر إهلاكا لعمالة الأفارقة في العالم الجديد. وكما يلاحظ برايز:

"تتمثل أبرز خصائص التاريخ السكاني لسورينام في التكلفة الاستثنائية لنظام الرق من الأرواح البشرية". ويتعجب سيمونز R. D. Simons قائلا: "رأينا بعض المزارع التي تبتلع حتى أربع مجموعات مكملة من الرقيق في فترة خمس وعشرين سنة".(١١٢)

وكانت شركات جزر الهند الغربية الهولندية وخلفاؤها مضغوطين بشدة لتلبية وإعادة تلبية طلب المستعمرة من العمال الأفارقة الجدد. ومن ثم كان سكان سورينام العاملون ينشطون حيويا باستمرار، بل وثقافيا كما اتضح أيضا. ففي مستعمرة ما كان معدل السود إلى البيض فيها مرتفعا حتى ١:٢٥ (في القرن الثامن عشر)، والتي كان سكانها يحافظون على أقل من ١٠٪ من الكريول Creoles طوال القرن الأول، حيث كان العمل يتركز في المزارع الكبيرة للسكر، البن، الكاكاو، ثم القطن.

ويبدو أن برايز كان محقا تماما في تأكيده على أن: "التوفيق بين المعتقدات الأفريقية... كان يمثل العملية المركزية في كل مكان تقريبا".(١١٣)

"وهكذا يمكن أن نؤكد بقدر من الثقة أنه خلال العقود المبكرة من الوجود الأفريقي في سورينام، تطورت نواة لغة جديدة ودين جديد؛ وأن القرن التالي الذي شهد الواردات الأفريقية الجديدة الكبيرة أدى إلى مجرد تفصيلات ثانوية فقط".(١١٤)

ولم يدم الأمر طويلا حتى أصبحت الغابات المطيرة - التي كانت تحدد حدود الأراضي القابلة للزراعة - تحدد حدود المقاومة من نوع مختلف تماما.

وبالطبع كان الهروب أمرا ملازما للرق. وكانت الوحشية تمثل المحرك الأول للهروب كما كانت شرطا للرق. فقد كان الاستعمار الإنجليزي لسورينام قصير الأجل (١٦٥١-١٦٥٧)، ولكن الهاربين قد ظهروا حتى قبل الغزو الهولندي للمستعمرة وإبرام معاهدة بريدا Treaty of Breda (١٦٦٧)، التي تنازلت عن هذه المستعمرة للمتمردين.[١١٥] وفي ذلك يقول برايز:

"بحلول بداية القرن التاسع عشر، كان عدد السكان الهاربين يقدر بحوالي ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠. ومن الواضح أن هذا رقم غير صحيح، ولكنه مؤشر على الخوف الذي دفع المستعمرين لأن يحاصروا المتمردين فيه".[١١٦]

وكانت هناك مكافآت استثنائية ترصد لصيادي دعاة التحرر من الرقيق، ولكن الأكثر إثارة أن هذه "المكافآت" أصبحت عادية بالنسبة للهاربين. حيث يشير برايز إلى تقرير معاصر (١٧١٨) مبكر جاء فيه:

"إذا هرب الرقيق إلى الغابة ليتجنب العمل لأسابيع قليلة، فعند أسره من جديد يقطع من ساقيه وتر العرقوب Achilles tendon لشل حركة ساقيه، عقابا على الجريمة الأولى، أما إذا تكررت جريمة ثانية، فإن رجله اليمنى تبتر لمنعه من الهرب؛ وقد كنت أنا بنفسي شاهدا على رقيق يعاقبون بهذه الطريقة".[١١٧]

وكان آخرون يجلدون حتى الموت بما كان يعرف بالسوط الإسباني، أو يصلبون أحياء، أو يحرقون أحياء، أو تقطع رؤوسهم، أو يعلقون بخطاف اللحوم، أو تكسر عظامهم على سقالات.

ويقول برايز إن تعدد تقارير المسافرين والتقارير المحلية التـي تثبـت "الوحشية الاستثنائية" التي اقترفها أصحاب المـزارع فـي سـورينام ذوي الأصول اليهودية الهولندية والبرتغالية يؤكد تماما أن هذه الممارسات لم تكن معزولة ولا غير رسمية. وفي ذلك يقول برايز:

"كانت محاكم المـستعمرة بـنفس القـسوة التـي مارسـها أصـحاب المزارع".(١١٨)

ويستنتج برايز أن تقرير المرتزق الإنجليزي، ستيدمانStedman، بعنوان "سرد لحملة على مدار خمس سنوات ضد الزنوج المتمردين في سـورينام، وجويانا، وعلى الساحل البري لأمريكا الجنوبية، من سنة ١٧٧٢ إلى ١٧٧٧ (١٧٩٦)، يعتبر تقريرا تقليديا وصادقا عن مجتمع الرق الوحشي الـصارخ، وقد جاء فيه:

"إجمالا، فإن التطرف في سورينام الاستعمارية - من حيث كـل مـن الوحشية والرفاهية التي يعيش فيها المستعمرون من أصـحاب المـزارع - يجب أن يظل في الذهن دائما من أجل تحقيق قدر من الفهم عـن رد فعـل الرقيق".(١١٩)

هكذا كانت بدايات زنوج الأدغال في تلك الأرض، وكان أقدمها شـعب الساراماكا. وعند نهاية القرن الثامن عشر، وبعد أكثر من خمسة عقود مـن الحرب المكثفة، توصلوا إلى سلام رسمي.(١٢٠) ولكن ربما يجـب أن نخـتم بشهادة أحد زنوج الأدغال. ففي ١٨٨٥، ذكر يوهانس كيـنج مـن التـراث الشفهي لشعبه قصة كيف أن:

"آباءنا مجدوا الإله وأسلافهم الأوائل عندما جاؤوا لتلقي الهدايا [هـدايا الحكومة لزنوج الأدغال كتأكيد على معاهدات السلام] ثم عادوا إلى قـراهم. وعندما عادوا بأمان إلى قراهم، أطلقوا نيرانا كثيرة تحية لشعبهم الذي انتظر في الديار. وجاء هذا الشعب إلى ضفة النهر يغني، لمرافقتهم إلى الـشاطئ. وقرعوا الطبول ورقصوا ونفخوا الأبواق الأفريقية وغنوا ورقصوا واحتفلوا طوال ما بعد الظهر حتى حلول الليل وطوال الليل حتى الصباح... وقرعوا الطبول. وعندما انتهوا، أحضروا شراب الأدغال المصنوع من عصير قصب السكر والذي يسمى خمر الأدغال. وأراقوا الخمر على الأرض. وكان هـذا من أجل شكر الإله والأسلاف. وبعد ذلك، عزفوا من أجل الأوبيـا والآلهـة الأخرى التي ساعدتهم على القتال".(١٢١)

وهكذا فإن الكفاح الذي بدأ في القرن السابع عشر أتى أكله بـين هـذه الشعوب الأفريقية بعيدا عن أرض أسلافهم.(١٢٢)

مقاومة السود في أمريكا الشمالية

على هذا النحو استمرت دعوات التمرد والهروب حتى القـرن الثـامن عشر: في كل من جويانا بيربيس Guianas of Berbice، إيسكويبو Essequibo، وديميرارا Demerara في ثلاثينيات وستينيات القرن الثامن عشر؛ وفي جامايكا وكوبا في ثمانينياته؛ وفي فنزويلا في ثلاثينياته وثمانينياته.(١٢٣)

وبينما حققت الطبقات الرأسمالية في أوروبا الغربية نضوجها السياسي والاجتماعي والأيديولوجي، فإن مناورتها للهيمنة على النظام العالمي اختزلت العمالة الأفريقية في مواطنها وفي هوامش العالم الجديد إلى مجرد حـراس

للسلطة.[١٢٤] وأصبحت لصوصية الدولة كما يسميها تومبسون بمثابة طريقة العمل التي خلصتها من النبلاء أصحاب الأراضي ودمجت الناجين منهم في البرجوازية الصاعدة.[١٢٥] وأصبح الاستغلال المكثف للعمالة أساس الحصول على الأشياء الجديدة من داخل الهيمنة الأوروبية.[١٢٦]

وفي أقاليم ما وراء البحار، وفي مجتمعات الرقيق في كوبا والبرازيل وأمريكا الشمالية وجامايكا وهاييتي، جمعت النخب الاستعمارية الهائجة ثروات، ولكنها تصورت كيف يمكن أن تصبح هذه الثروات أكبر حجما وتنوعا بدون تطفل وقيود الدولة والتجارة المفروضة من النظم المهيمنة في الدول الأم. وبالنسبة لهذه النخب "الحاكمة" أيضا، فإن الاستغلال الجيد لعمالة الرقيق الأفارقة أصبح المدخل إلى تحررها.[١٢٧]

وكان الجميع – سواء النبلاء أو المستعمرون على الأرض أو سادة تجارة المسافات الطويلة – يعتقدون أن وحشية نظام الرق كانت حاجة عملية. وكان يجب تدمير مستوطنات الهاربين في جامايكا وكوبا وأمريكا الشمالية، أو عزلها في حالة الفشل في تدميرها. فلا يمكن السماح لها بعدوى انتقال إلى العمال الذين يعتمدون عليهم. ومع ذلك، فكثيرا – وكثيرا جدا بالنسبة للسادة – لم يكن هذا الأمر يبدو مهما. وفي ذلك تتساءل مونيكا شولر:

"من الذي قاوم الرق في القرن الثامن عشر إذًا؟ توضح السجلات المتعلقة بالثورات المسلحة أنهم كانوا من رقيق المزارع ورقيق الحضر المولودين في أفريقيا ذكورا وإناثا صغارا وكبارا. وربما كان هذا التأكيد على الولادة في أفريقيا بمثابة السبب البسيط في أن الأفارقة فاقوا عدد الكريول بسبب انخفاض معدل المواليد في المزارع والاستيراد المكثف للأفارقة".[١٢٨]

وهكذا كان يجب الاستمرار في شن الحروب القمعية والحفاظ على النظام الصارم. ومع ذلك، استمرت كوابيس السادة في التكرار وكانت حالات الهوس تتكرر دوريا بنسب كبيرة.(١٢٩) ويمكن أن نضيف أنه نظرا لأنهم مسيحيون، فقد كانوا مهووسين بأسطورة نهاية العالم ويوم البعث التي تتحول بسرعة إلى رؤى مخيفة.(١٣٠) وكما تذكرنا قصة يوشع جيدنجز Joshua Giddings عن فلوريدا، كان منطق الهروب يظهر عند كل فرصة. حيث يقول جيدينجز:

"أدت جهود سكان كارولينا في أسر الهنود إلى ظهور العقوبات الطبيعية والمناسبة. وبدأ الهنود سريعا في الهرب من الخدمة إلى الريف الهندي. وقلد الرقيق الأفارقة هذا المثال سريعا، حيث هربوا إلى الريف الهندي، ومن أجل تأمين أنفسهم من الملاحقة، واصلوا رحلتهم إلى فلوريدا. وليس بوسعنا تحديد التوقيت الدقيق الذي كون فيه الأشخاص المنفيون بهذه الطريقة مجتمعا مستقلا. حيث أصبحت أعدادهم كبيرة في ١٧٣٦، لدرجة أنهم شكلوا سرايا مسلحة، واعتمد عليهم سكان فلوريدا كحلفاء لمساعدتهم في الدفاع عن تلك المنطقة. وسمح لهم أيضا بالحصول على الأراضي بنفس الشروط التي منحت لمواطني إسبانيا؛ فقد أصبحوا من جميع الجوانب رعايا أحرارا تابعين للتاج الإسباني".(١٣١)

وفي أمريكا الشمالية، كانت مجتمعات الهاربين في منتصف القرن في فلوريدا وفرجينيا وكارولينا مسبوقة بثورات الرقيق في كل من مدينة نيويورك في ١٧١٢، وفي منطقة نهر ستونو Stono في كارولينا الجنوبية، في ١٧٣٩.(١٣٢) وفي السبعين سنة الأخيرة من القرن، وجد جيرالد مولن في صحف فرجينيا وحدها إعلانات عن حوالي ١٥٠٠ هارب من الرق.(١٣٣)

وكانت أمريكا الشمالية الاستعمارية معرضة بصفة خاصة لحركات تحرير الرقيق في الأقاليم التي كان السود يشكلون أغلبية فيها. وعند بداية القرن، كانت كارولينا الشمالية والمقاطعات الشرقية من فرجينيا تمثل هذه المناطق. وفي أوائل القرن الثامن عشر، عندما كان سكان كارولينا الجنوبية الأفارقة يتوسعون بسرعة - بمعدل أكبر من ١٠٠٠ نسمة في السنة في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، طبقا لبيتر وود(١٣٤) - كنتيجة مصاحبة لزيادة السيطرة على المستعمرة من خلال إنتاج الأرز، كتب هارفي وش أن "تظام المزارع قدم محاصيل وفيرة لتمردات وثورات الرقيق".(١٣٥) وشهدت سنوات ١٧١٣، ١٧٢٠ وثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بلاغات منتظمة إلى لندن تخبر عن مؤامرات وتمرادات حقيقية. فمنذ أوائل ثمانينيات القرن الثامن عشر، تشجع التحرريون السود أكثر بسبب أفعال الملك الإسباني، فيليب الخامس، الذي رخص بمنحهم الحرية بمجرد وصولهم إلى فلوريدا(١٣٦). ففي ١٧٣٨، عندما هرب ٦٩ رقيقا إلى سانت أوجستين، استقروا في بويبلو دى جارسيا ر-يال دى سانتا تريز دى موسي، أو "موسى Moose"، على بعد ميلين ونصف شمال المدينة.(١٣٧) وبعد ذلك بعشرة أشهر، أي في سبتمبر ١٧٣٩:

"اهتزت كارولينا الجنوبية بسبب حادثة أصبحت تعرف باسم "تمرد ستونو Stono Uprising". حيث وجهت مجموعة من الرقيق ضربة عنيفة من أجل التحرر، لكن الحركة أجهضت مما أدى إلى مقتل أكثر من ستين شخصا منهم، ونحو ٢٥ من البيض، وكانت خسائر الممتلكات محلية، ولكن هذه الحركة مثلت بعدا جديدا في المقاومة العلنية. إذ تزايد قلق المستعمرين من صعوبة السيطرة على الرقيق ورأوا مخاوفهم من العنف العلني تتحقق، وأدى هذا بدوره إلى ظهور مخاوف جديدة".(١٣٨)

ومرت عدة أشهر قبل أن يقتنع المسئولون عن المستعمرة بأن تمرد ستونو قد انتهى. ومع ذلك، وبعد ذلك الوقت، جذبت مؤامرة أخرى في يونيو ١٧٤٠ انتباههم.[١٣٩] واستمرت التقارير وردود الأفعال الرسمية على الهروب حتى أربعينيات القرن الثامن عشر، ولكن مع تكوين جورجيا كولاية خالية من الرقيق السود (حتى ١٧٥٠)، أصبح الطريق الجنوبي إلى الحرية أكثر خطورة (لكل من الرقيق ومستعمري جورجيا الذين حاولوا منعهم). ويسجل هنري لورنس، "المواطن المحلي المتميز"، ملاحظاته القيمة على "أكبر تمرد مرعب" في المستعمرة في خطاب بتاريخ ٢١ مارس ١٧٤٨.[١٤٠] ويقول في خطابه:

"في فرجينيا الاستعمارية، بدأت محاولات "تمرد الزنوج" تظهر في سجلات المقاطعات منذ وقت مبكر حوالي أواخر القرن السابع عشر.[١٤١] ونادرا ما كانت شاملة، وكانت سجلات الفترة تعكس شدة الحساسية الرسمية غالبا. ففي ٣٠ مايو ١٦٨٨، وفي مقاطعة جيمس سيتي، حسمت المحكمة العامة مداولات قضية رفعتها مقاطعة ويستمورلاند سابقا (٢٠ أبريل): "يبدو أن سام الخادم الزنجي لريتشارد ميتكالف حاول عدة مرات تشجيع تمرد الزنوج في هذه المقاطعة". ولن نعرف أبدا ما قاله هذا الرجل لمتهميه ولا أسباب فعله ولا إنجازاته. ولكننا نعرف أن سان حكم عليه بالجلد، وبربط طوق حديدي مثبت حول رقبته بأربعة مسامير يرتديه حتى موته. وكان ذلك على أمل أن هذا سوف "يردعه هو وغيره عن الممارسات الشريرة المماثلة بعد ذلك".[١٤٢] ولكن يمكن الحكم على مدى فعالية عقاب المحكمة العامة من خلال حقيقة أنه في مقاطعات سوري، جزيرة وايت، جيمس سيتي، ميديلسكس،

جلوسيستر، تم الإبلاغ عن اكتشاف عدة مؤامرات تتضمن الهنود والسود أولا، ثم السود وحدهم، في ١٧٠٩، ١٧٢٢، ١٧٢٣.[١٤٣] وفي ١٧٢٧، أبلغ مقيم سابق عن مجتمع هاربين من الهنود والسود، كان السكان يسمونه ديس ناتانابالي des Natanapalle.[١٤٤] وأبلغ ألان كوليكوف Allan Kulikoff عن المزيد من الهروب في فرجينيا وميريلاند المجاورة، وجاء في بلاغه:

"كون عدد قليل من الأفارقة مجتمعا في الحياة البرية في عشرينيات القرن الثامن عشر عندما كانت هجرة السود مرتفعة وكانت التخوم قريبة من إقليم تايدوتر Tidewater المطل على المحيط الأطلسي...".

وقد تأسس على الأقل مجتمعان متطرفان للهاربين خلال عشرينيات القرن الثامن عشر. حيث بدأ ١٥ رقيقا تكوين مستوطنة في ١٧٢٩ على الحدود القريبة من ليكسنجتون الحالية في فرجينيا. وكانوا قد هربوا من "مزرعة جديدة أعلى نهر جيمس"، حاملين الأدوات والأسلحة والملابس والطعام معهم. وعندما وقعوا في الأسر، كانوا قد بدأوا سلفا في تطهير الأرض". وتطور مجتمع صغير آخر بوضوح على حدود ميريلاند في ١٧٢٨ و١٧٢٩. وعاد هاري، أحد الهاربين، إلى مقاطعة برنس جورج الجنوبية ليبلغ عن مكان رفاقه السابقين. وأخبرهم بأنه "كان هناك الكثير من الزنوج بين الهنود في مونوكوسي Monocosy"، وحاول أن يقنعهم بالانضمام إلى المجموعة بادعاء أن الهنود كانوا سيذهبون حالا لمهاجمة البيض".[١٤٥]

ولكن تاريخ الهروب في فرجينيا الاستعمارية لا يزال بعيدا عن الكمال. ففي الفترة (١٧١٨-١٧٦٩) التي قدر خلالها فيليب كورتين أن نسبة الأفارقة الذين أحضروا مباشرة إلى المستعمرة قد زادت، كان عدم ذكر الهروب

في سنوات ١٧٥٠-١٧٨٠ يبدو غريبا".[١٤٦] وكان الأمر كذلك بصفة خاصة عندما أبلغنا جيرالد مولن بأن "الهاربين" المعلن عنهم كانوا بارزين، حيث اعتبر ١٢٪ منهم بأنهم مولودون في أفريقيا أو "أجانب"، وأن السادة كانوا يعتقدون أن ثلث الهاربين كانوا يتجهون إلى داخل كارولينا الشمالية.[١٤٧] ومع ذلك، هناك أدلة على مثل هذه المجتمعات في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٨١) فيما كان آنئذ بمثابة كومونويلث، بالإضافة إلى إشارات إلى تأسيس مجتمعات هاربين في مناطق كارولينا الجنوبية (١٧٦٥)، وجورجيا (١٧٧١، ١٧٧٢، وثمانينيات القرن العشرين) في الفترات الاستعمارية وبعد الاستعمارية.[١٤٨] وفي هذه الأماكن تحديدا كان السود يشكلون فيها نسبة مؤثرة من السكان، خاصة في كارولينا الشمالية، حيث قدر تعداد ١٧٩٠[١٤٩] نسبة الرقيق بحوالي ٢٦,٨٪؛ وميريلاند (ونسبة الرقيق بها ٣٤,٧٪) وجورجيا (٣٥,٩٪) وفرجينيا (٤٠,٩٪) وكارولينا الجنوبية (٤٣,٧٪). وتوضح مثل هذه التقارير أن نشاط الهروب والتمرد كان أكثر تكرارية وتوقعا.

وكذلك، كان هؤلاء السكان السود تحديدا في ثمانينيات القرن ١٨ هم الذين أظهروا القدرة على الاستجابة لمقترحات البريطانيين خلال التمرد الأمريكي ولوجود القوات والدعاية البريطانية. حيث كتب جاك فونر Jack Foner:

"في نفس الوقت الذي أنهى فيه الجيش الأمريكي ممارسة استغلال السود، تبناها البريطانيون، على أمل التغلب بهذه الطريقة على القصور الشديد في قوة عملهم، وعرقلة المستعمرات المتمردة اقتصاديا بتشجيع الرقيق على ترك سادتهم المتمردين واللجوء إلى الصفوف البريطانية، وإقناع السود بمنحهم الحرية مقابل الخدمة العسكرية، زعما بأن حريتهم تعتمد على نجاح القوات البريطانية".[١٥٠]

ومع ذلك، وكما يحذرنا جيفري كرو Jeffrey Crow، فإن "استجابة الرقيق لآليات الجنرال البريطاني توماس جيج ولـــورد دونمـــور، حـــاكم فرجينيـــا الاستعمارية، كان لها سياقها المستقل، وفي ذلك يشير كروز إلى أن:

"اضطرابات الرقيق التي صاحبت المراحل الأولية من الحرب كانـــت منتشرة جدا، بحيث لا يمكن أن تكون من عمل مؤامرة بريطانية واحدة، على الرغم من أن الحكام الملكيين والمراقبين العسكريين علقوا علـــى احتمـــالات حدوث تمرد كبير بين الرقيق في المـــستعمرات الجنوبيـــة. فمـــن منطقـــة شيسابيكي Chesapeake حتى ساحل جورجيا، تحول المتمردون الـــسود إلـــى العمل حتى قبل أن يعرض البريطانيون مساعدتهم".(١٥١)

وكان الرقيق المتمردون يهتمون دائما بالأزمات بين مـــستغليهم، وأيـــة فرص طارئة يمكن استغلالها، سواء كانت تتمثل في غياب السيد لعدة أيـــام، أو الحرب الفرنسية الهندية، أو التمرد الأهلي.(١٥٢) وفي تلك الفرص النادرة التي كان الرقيق يدركون فيها ظهور حليف قوي، كما حدث مع البريطانيين خلال سبعينيات القرن الثامن عشر،(١٥٣) كان يمكن أن تكون النتائج درامية: "يقدر المعاصرون أن الجنوب خسر حوالي ٥٥٠٠٠ اتحادي"، كمـــا يـــرى كرو. حيث تم إجلاء الكثيرين مع البريطانيين أو تـــم تحريـــرهم. وحـــاول البعض ببساطة الرحيل كسود أحرار.(١٥٤)

وبحلول ١٧٧٥، كان قادة الجيش البري مضطرين للتنافس مع السلطات البريطانية على السود، من أجل بذل جهودهم في الأرض والبحر.(١٥٥) وعلى الرغم من أن بعض طوائف الطبقة الحاكمة واصلت مقاومة توســـع تجنيـــد الرقيق – خاصة المجالس التشريعية في ولايتي جورجيا وكارولينا الجنوبية–

انخرط في النهاية المزيد من السود كمقاتلين بسبب القوميين أكثر من خصومهم البريطانيين. ومع ذلك، أثبت العسكريون البريطانيون بعد الحرب أنهم الحلفاء الأكثر إخلاصا للجنود الرقيق.[١٥٧] فليس مدهشا إذن أنه في كارولينا وفرجينيا وجورجيا كانت ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر أوقات تمرد في "الجمهورية" الوليدة. وفي ذلك يقول كرو:

"كشف إصرار السود في كارولينا الشمالية بعد الحرب وعيا جماعيا أكبر بين الرقيق وزيادة الرغبة في استخدام العنف لتحرير الأفراد، بل والمجموعات من الرقيق. ففي ١٧٨٣، حاكمت محكمة مقاطعة شوان Chowan العبد جرينج Grainge على "الجريمة الشنيعة لمحاولة إثارة الرقيق من أجل الغرض الشيطاني لقتل سادتهم وسيداتهم" ...

وفي صيف ١٧٩٥، عانت ويلمنجتون Wilmington من هجمات متقطعة من قبل "عدد من الزنوج الهاربين، الذين كانوا يخفون أنفسهم في النهار في المستنقعات والغابات"، وفي الليل كانوا يرتكبون "مختلف عمليات السلب والنهب في المزارع المجاورة".... وفي مقاطعة بيرتي Bertie في ١٧٩٨، كان رجال سود متهمين بقيادة مؤامرة تضم ١٥٠ رقيقا مسلحين "بالبنادق والهراوات والسيوف والسكاكين".[١٥٨]

ولم يقتصر الأمر على أن الرقيق كانوا ساخطين على الوضع السياسي للتمرد. فخلال الشهور الأخيرة من الحرب، انضم البيض إليهم في هجمات على المزارع في مقاطعتي جوشلاند Goochland وسيتي City (الملك جورج سابقا) في فرجينيا.[١٥٩]

ثورة هاييتي

انتهى القرن الثامن عشر بحركة رقيق تماثل دراما ولاية بالميراس في البرازيل، وتناظر أهمية مستوطنات الهاربين في جامايكا وسورينام خلال القرن السابق. ففي هاييتي، فيما بين ١٧٩١ و١٨٠٤، استطاعت جيوش الرقيق هزيمة القوات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية – وهي الجيوش الأكثر تقدما في ذلك الوقت. وهكذا أصبحت هاييتي المستعمرة الثانية في العالم الجديد التي تحقق استقلالا سياسيا عن السيد الأوروبي، وأول مجتمع رقيق يحقق التدمير الدائم لنظام الرق. حيث تؤلف هاييتي الحديثة الثلث الغربي من الجزيرة التي عرفها إسبان القرن السادس عشر باسم هسبانيولا.

وقد تناولنا سلفا تاريخها المبكر خلال الاحتلال الإسباني. فبعد التخلص من سكانها الأصليين إلى حد بعيد، واستنزاف مواردها من المعادن النفيسة، انتقل الغزاة إليها بسرعة. ومع تناقص سكان هسبانيولا، والسيطرة الكاملة على اقتصاد العالم الجديد لإسبانيا، من خلال مناجم ومزارع إسبانيا الجديدة وكولومبيا بعد منتصف القرن السادس عشر، تراجعت الجزيرة إلى الصفحات البعيدة من التاريخ. وقد احتفظت الأقاليم الشرقية فقط ببقايا قليلة من سكانها الاستعماريين، بينما يقول أوت T. O. Ott "كان السكان الوحيدون في الجزء الغربي من الجزيرة يتمثلون في القطعان المتنقلة من الماشية والخنازير التي هربت من الإسبان".(١٦٠)

وفي القرن السابع عشر، اكتسبت المناطق الغربية مما كان الفرنسيون يسمونه سان دومنيك Saint-Domingue بعض المستوطنات القائمة على أنشطة البحارة المارقين والقراصنة من تورتو Tortue (تورتوجا Tortuga). فقد

انجذبوا في البداية بسبب توافر اللحوم في تلك المنطقة، ثم تحـول هـؤلاء "القراصنة Boucaniers" (الذين سموا كذلك بسبب وجبتهم المكونة من اللحـم المحروق غالبا) إلى مزارعين بتشجيع من السلطات الاستعمارية الفرنـسية (ومنهم برتراند دأوجيون Bertrand d'Ogeron الذي أحضر نساء من بـاريس في ستينيات القرن السادس عشر).

وبالتدريج، أعادت مستوطناتهم الفرنسية في هسبانيولا الغربية إدخـال نظام الرق من جديد.[١٦١] حيث سجل تعداد ١٦٨١ حوالي ٢٠٠٠ من السكان الرقيق، بينما سجل تعداد ١٦٨٧ حوالي ٣٤٠٠. ولكن بعد معاهدة ريـسفيك Treaty of Ryswick (١٦٩٧) التي اعترفت فيها إسبانيا رسميا بسان دومنيـك الفرنسية، وتقييد لويس الرابع عشر نهب القراصنة على الرقيق فقط، تزايـد السكان السود بسرعة كبيرة.

وبحلول ١٧٠١، قدرت مذكرة رسمية موجهة إلى وزراء البحريـة أن عدد السكان الرقيق يبلغ نحو ٢٠ ألف نسمة. وفي ١٧٥٤ قدرت وثيقة مماثلة الرقم آنئذ بحوالي ٢٣٠ ألفا.[١٦٢] وفي عشية الثورة، كان عدد السكان الرقيق يقدر بحوالي ٤٥٠ ألفا و٥٠٩ ألفا، والسكان البيض بحوالي ٣٠ ألفا، وكـان السكان المولاتو (أما المستعمرات الفرنسية فبقيت على ما كانت عليـه"،[١٦٣] كما لاحظ نورمان ستون يساوون البيض تقريبا.

وبحلول ١٧٩٠، ربما كانت هاييتي المستعمرة الأكثر إنتاجا التي عرفها العالم الحديث. إذ كان يقال إن إنتاجها من السكر والبن والنيلة والتبغ أكبـر من إجمالي أمريكا الشمالية البريطانية. ويعلق جيمس قائلا إن ما فعلته جزر الهند الغربية البريطانية لاقتصاد بريستول ومنشستر وغيرها، فعلتـه سـان

دومنيك للمدن الفرنسية نانت، بوردو، مرسيليا، أورليانز، ديب Dieppe، بيرس-باريس Bercy-Paris وغيرها من عشرات المدن العظمى التي:

"استقبلت في موانيها ١٥٨٧ سفينة، وهذا عدد أكبر مما يتسعه ميناء مرسيليا، واستخدمت فرنسا لتجارة سان دومنيك وحدها ٧٥٠ ناقلة كبيرة تستخدم ٢٤٠٠٠ بحار. وفي ١٧٨٩، كان حجم صادرات بريطانيا ٢٧ مليون جنيه، وصادرات فرنسا ١٧ مليون جنيه، وكان منها تجارة سان دومنيك التي وصلت ١١ مليون جنيه تقريبا. ووصلت كل التجارة الاستعمارية البريطانية في تلك السنة ٥ ملايين جنيه فقط".(١٦٤)

وكان كل ذلك يعتمد على الرق. حيث أعلن اقتصادي فرنسي في أواخر القرن الثامن عشر أن "الزنوج، وطعام الزنوج؛ هذه هي القاعدة الوحيدة للمستعمرات".(١٦٥)

ومع ذلك، لم يكن السكان الرقيق في هاييتي يتكاثرون ذاتيا. بل كان الأمر يرتبط "بالخوف من الزنوج"، كما اعترف لوثروب ستودارد في تحليله. وقد وقع ستودارد أسيرا في تحليله للتبريرات الرسمية للتدهور المستمر للسكان السود، وفي مقدمة تلك التبريرات سوء الطعام، واستغلال الحوامل، وارتفاع وفيات الرضع، والأمراض التناسلية، إلى سخافات اقتراح حدوث "الضغط العصبي" على المتوحشين الذين دخلوا فجأة إلى العمل المستمر، وافتراض تماثل ذلك مع انخفاض القدرات الإنجابية للحيوانات البرية التي تقع في الأسر. واضطر ستودارد إلى الاعتراف بأنه: "يبدو أن الرأي العام كان يتمثل في أن الزنوج كانوا يعملون بمشقة كبيرة، ... وكان ذلك يتم عن عمد غالبا، حيث كان الكثيرون من السادة يعتبرون أن شراء الرقيق أرخص

من تربيتهم (إيوائهم وإطعامهم منذ الصغر حتى يكبرون)".[١٦٦] ونتيجة لذلك، اضطرت المستعمرة إلى استيراد الأفارقة بمعدل تزايد حتى وصل إلى ٤٠ ألفا سنويا على الأقل وقت الثورة. وبالتالي اعترف ستودارد بأن "أحد أهم الاعتبارات في تاريخ الثورة في سان دومينك يتمثل في حقيقة أن أغلبية السكان الزنوج كانوا مولودين في أفريقيا".[١٦٧]

وهكذا لخصت هاييتي أخيرا في حقبة الرقيق الثانية بعض مظاهر حقبتها الأولى. فقد كان نظام الرقيق فيها وحشيا كالإبادة الجماعية؛ وكانت طبقة السادة تتكون من أرستقراطية محرومة وغيرهم من المتلهفين لتحقيق الثروة وألقاب طبقة النبلاء؛ وكانت طبقتها العاملة تتكون من الأفارقة بصورة متزايدة؛ وكان البيض موزعين بين القلة التي نجحت ثم غيبت نفسها، والكثرة التي كان إنجازها الوحيد العمل كصغار موظفين. وكان الهروب كثير الحدوث. حيث يعلق ستودارد بطريقة نمطية:

"كان هناك دائما أقلية من الأرواح الجامحة التي تفجر قيودها وتبحث عن الحرية المحظورة. ففي منطقة جبلية مثل سان دومنيك كان هذا أمرا سهلا، وسريعا ما أصبح لكل مسار في الغابة والأدغال سكانه المتمردون.

... ومع مرور الوقت، تزايدت أعداد الهاربين باستمرار. فخلال سنة ١٧٢٠ وحدها، انطلق أكثر من ألف من الزنوج إلى الأدغال، بينما في ١٧٢١ قدر مسئول كبير عدد اللاجئين في جبال الحدود الإسبانية بأكثر من ثلاثة آلاف".[١٦٨]

وكان الإجرام في "البرية" أكثر الجوانب التي ألصقها الدارسون – ومعهم ستودارد – بالهاربين. فعلى الرغم من الجهود المتكررة لتدمير هذه

المجتمعات، فإنها استمرت، "مكتسحة الريف ومثيرة الخوف لدى المستوطنين في سان دومينك عند نهاية القرن الثامن عشر".(١٦٩) ولكن آخرين، مثل قائد الرقيق الشهير لو مانيل Le Maniel، أبرموا سلاما مع السلطات الاستعمارية عشية الثورة التي كان يمكن أن تجعلهم مهمشين فعليا. ومع ذلك، فقد كانت الأهمية التي يمثلونها بالنسبة إلى مفكري النظام الاستعماري، تتخطى إنجازهم الموضوعي. وكان وجودهم يتنبأ بما بعد ذلك، مثل الثورة، حيث تعرضوا للاحتقار وتقليل القيمة من جانب الذين رأوا فيهم تناقضا مع أساطير التفوق الأوروبي.

ولا تزال العلاقة التاريخية الدقيقة بين الهاربين وثورة هاييتي موضع جدل، خاصة بين مؤرخي هاييتي.(١٧٠) حيث ترى بعض التقاليد أن الهاربين لم يلعبوا دورا في الثورة مطلقا. ويعلن آخرون أن الهاربين كانوا "الأصل الرئيس لثورة ١٧٩١".(١٧١) فلو لم يكن الجدال الدائر يتعلق بهاييتي، لكان من الممكن حسم هذا الجدل جيدا بالأدلة المتاحة. فعلى أي حال، نجد أن شعوذة الفودو voodoo – التي سماها جيمس "وسيط التآمر" (في ١٧٩١) – أثارت أيضا ثورات الهاربين المبكرة، والتي حدث أهمها قبل ذلك بثلاثين سنة تقريبا تحت قيادة ماككاندل Mackandel؛ وكان اثنان من أوائل قادة الثورة من الهاربين: بوكمان "رقيق هارب من جامايكا"، وجان فرانسوا الذي قضى سنواته الأخيرة القليلة قبل ١٧٩١ هاربا"؛ وكذلك فإنه عندما ثار الهاربون من الولاية الغربية في أواخر أغسطس ضد الفرنسيين، فإننا نعرف أنه كان من بينهم المارون (الهاربون) الذين كانوا يسمونهم "السويسريين"، (والذين تعرضوا للخيانة في النهاية).(١٧٢)

وهكذا يبدو أن الهاربين كانوا جزءًا مكملا من العناصر اليائسة التي تبلورت في ثورة هاييتي. ولكنهم كانوا مجموعة من أصل أمة منبوذة، أي جمهورية سوداء، هددت في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر مجتمعات الرقيق التي كانت مجاورة لها وأربكت ورثة الأيديولوجية السلالية الأكثر حداثة. فقد كان الهاربون في هاييتي جزءًا من هوية غير مقبولة. وأصبح تاريخهم وطبيعتهم التاريخية رهينة؛ أي مجرد أشياء خلافية بين الأيديولوجيين في هاييتي الذين يمثلون ما يسميه ديفيد نيكولز **David Nicholls** "أساطير السود والهاربين في الماضي"؛ وارتبط باحتقار الثورة ذاتها من جانب المؤرخين والدارسين الأوروبيين والأمريكيين:(١٧٣)

"وكانت الانقسامات بين البيض، والهيكل السكاني، والوضع الدولي، تمثل كل العوامل التي يجب وضعها في الحسبان عند محاولة تفسير مسار الأحداث التي أدت إلى استقلال هاييتي. أما إذا استنتجنا من هذا أن السكان الرقيق السود لعبوا دورا سلبيا فحسب في الثورة، فإن هذا يعني إساءة فهم الوضع بصورة خطيرة.

وربما نعذر الأنثروبولوجي ليبيرن **Leyburn** على تناوله الساذج للماضي نوعا ما، عندما رأى أنه "لم يكن استياء الرقيق من سادتهم هو الذي أدى إلى الانفجار النهائي؛ فقد كان آخرون يستخدمون الرقيق ببساطة للحفاظ على استمرار اشتعال الحريق". ومع ذلك، كان أوت أقل براءة في عمله التاريخي الصريح، "ثورة هاييتي". فمن الواضح أن المؤلف يرى أنه "لم يكن هناك سبب وحيد لتمرد الرقيق"، ومع ذلك نجد أنه يلزم نفسه بالرؤية الاستثنائية المتمثلة في أن البيض والمولاتو "سلموا للرقيق المستعمرة بشكل افتراضي" وأنهم "أجبروهم على مسار عمل كان لا يمكن أن يتبنوه بخلاف ذلك".(١٧٤)

ولكن نيقولاس كان أقل رضا عن الجدلية التي استخدمها جيمس بفعالية في دراسته للثورة (والتي سوف نستكشفها في الجزء الثالث من هذا الكتاب) ولذلك استنتج أن: "الحركة نجحت بسبب علاقتها الهيكلية بالوضع العالمي. ولكن هذا لا يعني القول إن الرقيق كانوا سلبيين فقط."(١٧٥) ومع ذلك، يجب أن نعرف أن انتقادات نيقولاس تعتبر من التعبيرات الحديثة المعتدلة عن تراث أكاديمي ظهرت بعض عناصره في وقت مبكر في أكتوبر ١٧٩١.(١٧٦) وكان من بين المساهمين فيه بعض الذين أعلن جيمس في ١٩٣٨ أنهم مجموعة من الدارسين المرتشين، والوسطاء المنتفعين من ضياع الأمة، [الذين] تآمروا على طمس الحقيقة.(١٧٧)

ومع ذلك، لم تكن حقيقة ثورة هاييتي موضع شك طويلا في مجتمعات الرقيق في جزر الهند الغربية الأخرى والأمريكتين في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فطوال ١٣ سنة، كانوا جميعا – السادة على خوفهم والرقيق على رجائهم – شهودا على الصراعات بين جيوش الرقيق وقوات فرنسا وبريطانيا وإسبانيا، ثم فرنسا ثانية.

وقد سمعوا بعض صيغ قصة بوكمان العملاق، البابالوي Papaloi، الذي أعدت خطته لثورة عارمة في الشهور الأولى من ١٧٩١، واكتشفتها السلطات بسبب الثورة المجهضة التي قام بها الرقيق في ليمبي Limbe في أوائل أغسطس. وفهموا كيف أن الغطرسة العنصرية للمستعمرين خدعتهم وعطلتهم، وصرفت انتباههم إلى حشود البيض الصغار التابعين للضابط فرانسوا التي أخفاها جشعه، لأنه يجب أن تكون هناك مثل ثورية وراء أي تمرد للرقيق على هذا المستوى. فقد كانوا مبهورين بتفاصيل ليلة البرق والرياح والمطر، ٢٢ أغسطس، عندما جمع بوكمان رقيق من مزارع

توربن، فلافي، كليمنت، تريميَس، ونوي، في السهل الشمالي، وبــدأوا فــي التدمير الكامل للأشياء المتعلقة بقهرهم. وسمعوا كيف انتشر التمرد ســريعا. وفجأة، يبدو أن ١٠٠ ألف من السود الغاضبين في الولاية الشمالية وحــدها اكتسحوا السهل وطهروه من بقايا الرق التي دامت زهاء قرن من الزمــان، وفي الولاية الغربية، انضمت قوات المولاتو للثورة، وعندما كانت الظروف مواتية لهم، خانوها. وكانت خيانتهم للمتمردين قصيرة الأجل، ولم يحــصلوا على مكافآتهم الموعودة. فانضموا للثورة ثانية وخانوها مرة أخرى. وبحلول أواخر سبتمبر، مات بوكمان ورفيقاه جيليس Gillies وجــون بابتــست John Baptiste. ولكن الرقيق كانوا قد تحولوا إلى جيوش السود التي تزحف إلــى المعركة "على إيقاع الموسيقى العسكرية الأفريقية برايات مرفوعة مكتــوب عليها "الموت لكل البيض".(١٧٨)

ومن تلك اللحظة فصاعدا، استمر العرض التــاريخي الكبيــر لثــورة هاييتي. وعرف الشهود أسماء توسنت لوفرتشر Toussaint L'Ouverture، العبد السابق الذي كان لديه رقيق لحسابه الخاص قبل الانضمام ليصبح أول قائــد عام لثورة السود؛ وديسالين Dessalines، العبد الذي أدت براعته العــسكرية وكراهيته للبيض إلى لم شمل الحركة ثانية عندما أصابتها خيانــة نــابليون الغادرة لتوسنت، ودفعها إلى مستويات ثوريــة جديــدة مرتفعــة؛ وهنــري كريستوف، العبد الذي أغرته ألفته القديمة بمجتمع الضابط فرانسوا علــى أن يصبح إمبراطور هاييتي، ومقارنة وضعه بوجود نابليون الأكثــر عظمــة. وربما لو كانوا أكثر دقة، لاستطاعوا معرفة قادة آخرين خلال الجمهوريــة الفرنسية مثل مويزي، جينوت، جان فرانسوا، وسونتتاكس، ولكانوا ســمعوا بلا شك عن الإنجازات الغامضة لرجال مثل هياسنت.(١٧٩)

وهكذا لم يكن رقيق هاييتي مجرد مستقبلين سلبيين أبدا. فقد قطعت هاييتي ذيل ملاك الرقيق في العالم الجديد عند بداية القرن التاسع عشر. حيث همسوا باسمها، وتآمروا عبثا لإنكار أسطورتها وحقيقة وجودها بالنسبة لممتلكاتهم. ولكن المفكرين والمثقفين والأكاديميين فيها نجحوا في القمع الكبير للحقيقة. وكانت أسلحتهم تتمثل في السخرية، بينما كانت أسلحة سادتهم البرجوازيين تتمثل في الحصار الاقتصادي والدبلوماسي. وفي هذا القرن، وفي الوقت المناسب، وعندما خبت ذكرى الثورة لدى معظم أحفاد طبقات السادة والرقيق في العالمين القديم والجديد، ظهرت دراسة جيمس التي لا تزال رائدة وغير مسبوقة للثورة. وهكذا فإنه قد يكون من المناسب في هذه اللحظة أن تكون له الكلمة الأخيرة. حيث لخص جيمس إعادة ترتيبه لما حدث في هاييتي في ثورة الرقيق تلك كما يلي:

"لم يستطع أحد تخمين القوة التي تولدت لديهم عندما أطلق بوكمان إشارة الثورة في تلك الليلة العاصفة من أغسطس ١٧٩١. لقد أظهروا قدراتهم في التمرد، الحرب، السلام، التنظيم الاقتصادي، الدبلوماسية الدولية، والإدارة... حيث تفوق السود والمولاتو في جزيرة سان دومنيك وتوقعوا المقاومة الوطنية ضد بونابرت في إسبانيا، وحرق الروس لموسكو، مما شغل المؤرخين في تلك الفترة.

وبالنسبة للتضحية بالنفس والبطولة، كان الرجال والنساء والأطفال الذين طردوا الفرنسيين لا يقلون شأنا عن المقاتلين من أجل الاستقلال في أي زمان أو مكان. وكان السبب بسيطا. فقد تأكدوا أخيرا أنه بدون الاستقلال لن يستطيعوا الحفاظ على حريتهم".[١٨٠]

ولكن حتى قبل أن ينتهي تمرد السود هذا، كان تأثيره واضحا في أماكن أخرى. حيث امتدت الثورة من هاييتي إلى لويزيانا في ١٧٩٥، وفرجينيا في ١٨٠٠، ولويزيانا ثانية في ١٨١١.[١٨١] وقد لاحظ إيوجين الجنوي Eugene Genovese مؤخرا أن:

"كلا من جابريل بروسر في ١٨٠٠ ودنمارك فيسي في ١٨٢٢ إلى هاييتي من أجل الإلهام والمساندة، وبحلول ١٨٤٠ كان الرقيق في كارولينا الجنوبية يفسرون الأنباء القادمة من هاييتي على أنها بشارة بتحررهم أيضا... وكذلك فإن ملاك الرقيق... فهموا احتمالات ما رأوه. حيث ترددت أصداء الإشارات إلى مثال وإلهام هاييتي في أرجاء أمريكا السوداء. ويمكن أن نرى أثر ذلك على ديفيد ووكر من "ندائه" الكبير... ولم يكن ملاك الرقيق يتمتعون باحتفالات استقلال هاييتي كتلك التي أطلقها في ١٨٥٩ أبناء الزنوج الأحرار في ولايات الرقيق مثل سانت لويس، وميسوري... وأثارت الثورة في سان دومنيك ثورة أخرى في وعي السود عبر العالم الجديد".[١٨٢]

ومن خلال هاييتي و"الجيش الشعبي العظيم" [١٨٣] أشعل التراث الثوري أفق إقليم باهيا في البرازيل. ومن ١٨٠٧ إلى ١٨٣٥، سجلت وقائع باهيا ثورة بعد أخرى: ١٨٠٧، ١٨٠٩، ١٨١٣، ١٨١٦، ١٨٢٦، ١٨٢٧، و"ثورة الهوسا Hausa" العظيمة في ١٨٣٥. وهنا أيضا كانت أعمال نينا رودريجيو، آرثر راموس، وحديثا دراسات كل كِنت وستيوارت شفارتس - والتي لم تكن متوافقة دائما - هي التي شكلت الإطار لكل من استعادة هذه الأحداث وإعادة ترتيبها.

البرازيل السوداء والمقاومة

بحلول العقد الثاني من القرن التاسع عشر، كان عدد سكان البرازيل يبلغ نحو ٤ ملايين نسمة، نصفهم أحرار ونصفهم رقيق.(١٨٤) وكان ذلك في خضم عملية استيراد حوالي مليوني أفريقي، حيث تعطي سجلاتها دليلا على وصولهم بين سنتي ١٨٠٠ و ١٨٥٠.(١٨٥) وبطريقة ما، كان كل هذا النشاط بالنسبة إلى تجارة الرقيق يتوافق مع مجتمع أصبحت العمالة الأفريقية فيه تسيطر على اقتصاده وتركيبه الاجتماعي وأعرافه. فقد أصبحت البرازيل مجتمع رقيق حقق مستوى من التبعية لا نظير له.

كانت عمالة الرقيق منتشرة تماما في البرازيل بحلول تلك السنوات التي تخطى فيها استخدامها حدود الوظائف الأولية للإنتاج المادي. وغمر وجود الرقيق كل شيء "بهي" و"قبيح"، وقدم لطبقة السادة "بهجة معينة من القيادة والسلطة" على حد تعبير لويس لاسيردا، المراقب البرازيلي في منتصف القرن التاسع عشر.(١٨٦) وقد عرض روبرت كونراد نفس النقطة بصورة أكثر توضيحا:

"كشف أحد سكان باهيا، عندما كتب في ١٨٨٧، أنه قبل ١٨٥٠ لم تكن العربات تستخدم في مدينته لنقل الأحمال. حيث كانت الأثقال تحمل على رؤوس الرقيق أو "بواسطة الأداة الأكثر بربرية وأقل اقتصادية التي يمكن تصورها – العصا والحبل"، حيث كان ٨ أو حتى ١٢ رجلا يقومون أحيانا بحمل ثقل واحد. وكان الأشخاص الأثرياء يتنقلون بين مدن البرازيل أو حتى عبر الريف في المقاعد المحمولة والمحفات أو الأرجوحات الشبكية، مع نفس الإسراف في استخدام الرقيق".(١٨٧)

وكان الرقيق آنئذ أكبر من مجرد شيء ترفي، كما اعتقد لاسيردا. فقد أصبح الرقيق في البرازيل في القرن التاسع عشر كالزي الرسمي، وأحد بنود المكانة الاجتماعية وتقديم الذات للآخرين، ومصدرا للطاقة التي أنتجت الثروة الحقيقية للاقتصاد. وبالنسبة إلى ذلك الاقتصاد، فقد أعاد ليسلي بيتل Leslie Bethell تركيب طبيعته على النحو التالي:

ظل السكر المحصول النقدي الرئيس للمستعمرة، وكانت التجمعات الكبيرة من الرقيق توجد في مزارع السكر في ريكونكافو Reconcavo (المنطقة الساحلية الخصبة في باهيا) وفي بيرنامبوكو Pernambuco (في الشريط الساحلي لما يعرف الآن بولاية ريو دي جانيرو)، وفي ساو باولو (في جنوب شرق البرازيل حاليا) كتطور أكثر حداثة. وعمل الرقيق أيضا في مزارع القطن في بيرنامبوكو وفي مارانهاو الجنوبية الغربية (كان القطن يمثل ٢٠٪ من قيمة صادرات البرازيل في بداية القرن التاسع عشر) ومزارع التبغ والكاكاو في باهيا وألابواسAlaboas. وفي أقصى الجنوب - ريو جراند دى ساو بيدرو... وسانت كاترينا - كان الرقيق الزنوج يعملون في رعي الماشية... وفي إنتاج الحبوب وفي الزراعة الكفافية. وكان هناك أيضا أعداد كبيرة من الرقيق الذين يعملون في الزراعة الكفافية في مينا جيرايس Minas Gerais، حيث مناجم الذهب والماس، التي ازدهرت خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، ولكنها أصبحت الآن في حالة تدهور، مما ساعد على جذب عمالة الرقيق إلى المنطقة. وفي ريو دى جانيرو، العاصمة التي كان يقيم فيها نائب الملك منذ ١٧٦٣، وفي باهيا العاصمة السابقة، وفي كل مدينة كبرى أخرى في الواقع، كان الرقيق يعملون على

نطاق واسع كخدم منازل، وكان الرقيق الأفراد الذين كان سادتهم يستأجرونهم ويدفعون لهم أجرا يوجدون في العمل من أجل تحميل السفن وتفريغها، وحمالين على سطح السفن، وحمالين للمياه والمخلفات، وحتى كبنائين ونجارين. وكانت الكنيسة - الأديرة والمستشفيات - تملك الرقيق. وكانت الولاية تملك وتستأجر الرقيق لبناء وصيانة الأشغال العامة".[١٨٨] وهكذا يبدو أن الرق شغل معظم البرازيليين وأثر على الجميع. وأخيرا، يبدو أنه مما يرعب القليلين من البرازيليين أن ممارسة السيطرة امتدت خارج نطاق حدود السلالة واللون وفي ذلك يقول كونراد:

"شهد أحد أعضاء "مجلس النواب" الوطني على وجود رقيق بيض في البرازيل في ١٨٢٧. وكما يقول [روبرت] والش [Robert] Walsh بأسلوب الشك الأنجلوساكسوني: "هذا تلوث في الدم، ولا يمكن لأي فترة زمنية، ولا تغير في العلاقة، ولا تبديل في اللون، أن يقضي عليه".[١٨٩]

ولاحظ كونراد نفسه أنه: "إذا كان البيض أو القريبون من البيض يظهرون أحيانا في حالة رق، فإن المولاتو أو السود (الذين يكونون رقيقا في حد ذاتهم) كانوا يملكون رقيقا أيضا".[١٩٠]

ومع ذلك، نجد كما في الكاريبي وأمريكا الجنوبية عادة، أن أفارقة البرازيل كانوا كما وصفهم فيليب كورتين للأسف بأنهم "مجتمع رقيق يتناقص طبيعيا".[١٩١] وربما تشير كلمة "طبيعي" في مثل هذه الحالات إلى الطريقة التاريخية التي يتبعها علماء السكان في توضيح معدل المواليد المختل مقارنة بمعدل الوفيات في مجتمع ما، ولكن استخدامه هنا مؤسف وغير مقبول لسببين: فأولا، نظرا لأنه يبدو أنه يلفت انتباهنا بصورة ضيقة جدا إلى

الرقيق ككائن حيوي يعيش في بيئة طبيعية؛ وثانيا، لأن عبارة "يتناقص طبيعيا" تقلل من شأن الحقيقة المؤلمة والتجربة المأساوية لسكان البرازيل الرقيق. ومن ناحية أخرى، يضع بيثل Bethell هذا التناقص في سياقه التاريخي حين يقول:

"كان السكان الرقيق في البرازيل يحتاجون إلى التعويض المنتظم من خلال تجارة الرقيق عبر الأطلنطي. ويرجع أحد أسباب ذلك إلى معدل وفيات الرقيق المرتفع جدا. حيث لم يستطع الكثير من الرقيق اجتياز التكيف مع البيئة والتدريب الأولي، بينما مات آخرون نتيجة سوء الطعام، وظروف الحياة غير الصحية والمرض... والأهم من ذلك، فإنه نظرا لأن "استهلاك" الرقيق ثم إحلال آخرين محلهم كان يعتبر أكثر اقتصادا... مات الكثير جدا من الأفارقة نتيجة سوء المعاملة والاستنزاف الشديد. وفي نفس الوقت، كان معدل التكاثر الطبيعي بين الرقيق منخفضا جدا".[١٩٢]

ويلاحظ أيضا أنه "كان هناك في المتوسط ثمانية رجال لكل اثنين من الإناث الرقيق" وكان معدل وفيات الرضع مرتفعا. وكما رأينا استنتاج بيثل سلفا، كانت النتيجة النهائية تتمثل في: "كان السكان الرقيق في البرازيل يحتاجون إلى التعويض المنتظم".

وكان السبب الثاني لزيادة الرقيق في أوائل القرن التاسع عشر في البرازيل يتمثل في النمو السريع لاقتصاد المنطقة خلال هذه الفترة. ففي هذا المجال، كانت البرازيل تستجيب للقوى السياسية والاقتصادية والمالية في السوق العالمية. وفي الأساس، كان الانطلاق في الاقتصاد البرازيلي نتيجة لطلب السوق على السكر والقطن: "أدت الحروب الثورية الأمريكية،

والحروب الثورية الفرنسية، وحروب نابليون، والاضطرابات الدموية في جزيرة سان دومنيك الشهيرة بقصب السكر في الكاريبي، إلى عرقلة الكثير من المنافسين الاقتصاديين البرازيليين ورفع الأسعار العالمية للمنتجات المدارية". (١٩٣)

وشجعت مصالح موازية في الجزء الأول من القرن أيضا على توسع زراعة البن في البرازيل. وفي ذلك يقول بيتيل:

"تم إحضار البن إلى ريو دى جانيرو في سبعينيات القرن الثامن عشر، وبعد زراعته في مارانهاو في شمال البرازيل، وفي السنوات التي أعقبت تأسيس الحكومة الملكية البرتغالية في ريو مباشرة (١٨٠٨)، أصبح البن أهم محصول في مناطق الظهير الجبلي القريب". (١٩٤) وأصبحت البرازيل أهم موقع في نصف الكرة الغربي لمنتجات الرقيق خارج أمريكا الشمالية. وكان الاقتصاد العالمي ينطلق ثانية.

وبالطبع، كانت المصادر الجديدة لرأس المال المستثمر بصورة مباشرة وغير مباشرة في التجارة والإنتاج في البرازيل هي التي كانت تكمن وراء تجارة الرقيق الضخمة في تلك الفترة. وكانت طبقة التجار الإنجليز أساسا (بمساندة من تجارة البرتغال، والسفن الأمريكية، والمصالح الأخرى)، (١٩٥) المتلهفة على السيطرة أو احتكار السوق العالمية التي كانت سلعها المدارية تنتزع من المنافسين الفرنسيين بسبب ثورة هاييتي، هي التي دعمت جهود الاستقلال السياسي للبرازيل عن البرتغال، وزيادة أفرقة الاقتصاد البرازيلي. (١٩٦) ويقول إيريك ويليامز:

"كان يقال إن سبعة أعشار السلع التي كانت تستخدمها البرازيل لـشراء الرقيق كانت مصنوعات بريطانية، وكان يقال أيضا إن البريطـانيين كـانوا يرفضون تدمير ثكنات الرقيق على الساحل، لأن ذلك يؤدي بالتالي إلى تدمير مصانع أقمشة القطن البريطاني. وفي ١٨٤٥، رفض بيل Peel إنكار حقيقـة أن الرعايا البريطانيين كانوا يشاركون في تجارة الرقيق".[١٩٧] وعلى الرغم من إصرار الحكومة البريطانية والمعارضة العامة للرق، وجهودها لإلـزام البرازيل بإلغاء هذه التجارة لاحظ ويليامز أن الرأسماليين الإنجليز ظلوا غير متأثرين مع ذلك. ويذهب ويليامز إلى أنه في ٣٠ ينـاير مـن عـام ١٨٥٧ أعلنت افتتاحية مجلة التايمز اللندنية ما يلي:

"نحن نعرف أنه لكل الأغراض التجارية تعتبر إنجلترا إحدى الـدول، وأننا في الحقيقة شركاء مع مزارع الجنوب؛ ونحن نتمتع بالـسيطرة علـى سلعه وممتلكاته، وعلى حيواناته الحية والميتة، ونحن نحصل على نـصيب الأسد من أرباح الرق؛... ونحن لا نقتصر على كساء أنفسنا، بل نكسو العالم كله معنا، وذلك بنفس القطن الذي يجنيه وينظفه "العم توم[*]" والذين يعـانون

(*) العم توم: العم توم هو الشخصية الرئيسية في رواية "كوخ العم توم" التـي كتبتهـا الروائيـة الأمريكية هارييت بيتشر ستاو في عام ١٨٥٢. أصبحت عبارة "العم توم" لقبا يطلـق علـى الشخص الخانع والخاضع بدرجة كبيرة للمستبدين البيض في السلطة. هذا اللقب السلبي جـاء نتيجة للأعمال الأخيرة التي اقتبست من الرواية الأصلية. في وقت نشر الرواية الأولى فـي عام ١٨٥١ كان العم توم بمثابة رفض لهذه القوالب النمطية؛ ونجحت الرواية في أنسنة معاناة العبودية للجماهير البيضاء عن طريق تصوير توم في صورة شبيهة بالسيد المـسيح الـذي استشهد في نهاية المطاف حين ضُرب حتى الموت على يد سيده قاسي القلب بسبب رفـضه الوشاية بمكان امرأتين هربتا من العبودية. ودوما ما يترابط في الذهن مـسمى "العـم تـوم" بنقيضه "العم سام". وقد بدأ استخدام مصطلح "العم سام" لأول مرة في حرب عام ١٨١٢ التي خاضتها الولايات المتحدة ضد الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية (فيما عرف بحـرب الاستقلال الثانية للولايات المتحدة). خلال هذه الحرب كان هناك دور محوري فـي التـأمين

معه. فهذه تجارتنا ..." وقد دمرت الرأسمالية البريطانية الرق في جزر الهند الغربية، ولكنها لا تزال تكافح ضد الرق في البرازيل وكوبا وأمريكا".(١٩٨)

ولهذا السبب يقول ألان مانشستر إن عرقلة تجارة البرازيل لم تكن مقبولة في شمال إنجلترا، وإن جون برايت لفت الانتباه إلى وجود أربعة أو خمسة ملايين من رأس المال وثلاثة ملايين من الصادرات إلى البرازيل، وأظهر الضرر الذي لحق بالمصالح البريطانية نتيجة الجدل حول تجارة الرقيق".(١٩٩) وكانت هذه العلاقة أساس تهمة النفاق التي وجهت إلى بريطانيا من بعض النقاد في البرازيل والإنجليز في الولايات المتحدة.(٢٠٠)

وهكذا كانت أسباب كبر حجم استيراد الأفارقة إلى البرازيل، والذي حدث في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومن الناحية الاجتماعية، فإن هذا يعني أنه إذا اتبعنا حسابات راموس، فإن ثلثي (نحو ٢,٥ مليون نسمة) سكان البرازيل سيصبحون من السود أو المولاتو، ومنهم نحو مليونين من الرقيق.(٢٠١)

واستجابة لهذا الحجم المتزايد بسرعة من السكان الرقيق، كان لا بد أن يتبنى ملاك المزارع والمستوطنون البرازيليون في أوائل القرن التاسع عشر "طريقة اجتماعية" مناسبة للسيطرة على الرقيق. وعلى الرغم من أنه يبدو أن

الغذائي للقوات الأمريكية لعبه مورد اللحوم صمويل ويلسون Samuel Wilson. وكان الجنود يرحبون بلحوم صمويل ويلسون وينادونه بالعم سام Uncle Sam (تدليلا لاسم صمويل Samuel) . في تلك الأثناء كان صمويل يضع ختما على اللحوم الصالحة الموردة للجيش بالحرفين U.S، وقد اعتقد الجنود أن الحرفين يرمزان إلى اعتماد العم سام لصلاحية اللحوم، بينما كان صمويل يرمز بالحرفين إلى حكومة الولايات المتحدة United Sates. ومنذ ذلك الحين صارت الولايات المتحدة (الجيش الأمريكي أو حكومته تحديدا) تعرف بشكل غير رسمي باسم "العم سام". (المترجم)

هذا قد تطور مع تجاهل تام لتاريخ الهروب في البلاد في القـرنين الـسابع عشر والثامن عشر، والمقتضيات السياسية التي دمجت خصوصيات تجـارة الرقيق في الاقتصاد العالمي (أي اختلاف القدرة على الوصول إلى مـصادر العمالة الأفريقية) فإننا يجب أن نفترض أن هذا كان يؤخذ في الحسبان حتى ولو بأسلوب محير. وعند وصف هذه الأسطورة الجديدة والتـي قـد تبـدو مريحة للسيطرة على الرقيق، أعاد كِنت Kent بناءها بصورة مختصرة قـدر الإمكان، حين قال:

"كان المستوطن البرتغالي في البرازيل يفترض لفترة طويلـة أن كـل الرقيق القادمين من أفريقيا كانوا من أنجـولا أو البـانتو (وسـط وجنـوب أفريقيا)، ونظرا لأن الزراعة البرازيلية تطورت على أيدي مزارعي البانتو، فقد استمرت شهرتهم واسعة لفترة طويلة حتى بعد أن اتضح أن "كل الأفارقة" ليسوا "سواء". فبالنسبة "للأنجوليين"، الذين يعملون فـي منـاطق مطـاحن ومعاصر engenhos السكر (فـي المنـاطق الخلفيـة مباشـرة مـن باهيـا وريكونكافو) كان هناك اعتقاد مركب في "الانقياد" والرغبـة فـي التعـايش وفي"الميول العملية" الكبيرة، بالإضافة إلى الشهرة السباقة بالتفوق الزراعي. ومن ناحية أخرى، واجه عمال المناجم في منطقة مينا جيرايس طلبا مختلفـا تماما: حيث كانوا يعتبرون أكثر تنظيما وذكاء من "الأنجوليين"، وكانوا بمثابة عمالة زراعية رديئة في نفس الوقت، ولذلك كانوا يقدرون كرقيق منازل وفي التجارة والحرف الماهرة".(٢٠٢)

وبعبارة أخرى، فإن الشعوب التي كانت تمثل مـصدر العمالـة، فـي الأوقات المبكرة من تطور المستعمرة كاقتصاد يعتمد على الزراعة والتعدين،

كانت تعتبر شعوبا طيعة وزراعية بطبيعتها؛ أما الذين توافق تشغيلهم مع بداية تحضر الإقليم والصناعة التحويلية الثانوية فكانوا أيضا يميلون بطبيعتهم إلى تلك المجالات التي عملوا فيها. وكما قلنا سلفا، فإن الأسطورة الجماعية أنكرت احتمال المقاومة الأفريقية للرق، من خلال اعتمادها على الخصائص المقبولة: "الطاعة"، و"التنظيم". وربما كان هذا ممكنا بسبب حقيقة أن "الشكل الرئيس لمقاومة الرق"[٢٠٣] حتى هذه اللحظة كان يتمثل في "الإبعاد quilombos"، أي عادة الإبعاد المادي للأفارقة المتمردين من مجتمع البيض. ولكن على الرغم من استمرار الأسطورة في بعض دوائر المفكرين البرازيليين،[٢٠٤] فإنها تلاشت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، علق خواو بانديا كالوجيراس بقوله: "أصبح الزنوج يعتبرون عنصرا خطيرا في المجتمع، وتهديدا لحياة وأمان سادتهم".[٢٠٥] ويوافقه رولي بوبينو Rollie Poppino قائلا: "أثارت الزيادة الحادة في أعداد الرقيق شبح تمرد الزنوج"، وكذلك فإن "الزيادة المطردة في الجزء الزنجي من السكان كانت [تعتبر] خطرا على الثقافة الأوروبية أساسا في البرازيل".[٢٠٦]

وعلى الرغم من أن تفاصيل الأحداث التاريخية التي تفسر هذا التغير في الاتجاه لم يتم الاتفاق أو الاطلاع عليها تماما، فإن الطبيعة العامة لهذه الأحداث معروفة. فقد كانت تتمثل كما يقال في تمردات الفترة ١٨٠٨-١٨٣٥.

وبحلول عشرينيات القرن التاسع عشر، كانت عناصر إقليم باهيا والعناصر البرازيلية الأخرى قد أصبحت تمثل الأطراف المسيطرة على تجارة الرقيق في الأمة المستقلة حديثا. ومع تركز السيطرة المباشرة على سوق

الرقيق في أيدي المتعاونين القريبين من المزارعين، كان من المتوقع أن تكون الترتيبات المتعلقة بالأفارقة أكثر التزاما بالقواعد التي يتضمنها نظام المجتمع في السيطرة على الرقيق: ذهاب عمال المناجم إلى المناطق الحضرية، و"الأنجوليون" إلى المعاصر والمزارع المرتبطة بها. وكانت الأمور تسير كذلك في الأغلب الأعم ولبعض الوقت. ومع ذلك، كان لا بد أن تفرض المقتضيات الجديدة القيام بالتكيف. حيث يقول أحد المؤرخين إن هذا التغير كان مهما لتشكيل تمرد الرقيق الذي تلاه، بالإضافة إلى إعادة تشكيله لاحقا.

ويقول كِنت إنه في أفريقيا الغربية، أدى انهيار إمبراطورية أويو القديمة oyo لدى قبائل اليوروبا، والتتابع المستمر لحروب اليوروبا بعد ذلك في أوائل القرن التاسع عشر، إلى سهولة وصول إقليم باهيا إلى العمال الحرفيين الوافدين من قبائل اليوروبا، ويقول كِنت إن هذا ربما كان السبب أيضا في أن "عددا كبيرا من رقيق الهوسا [ذهبوا] إلى المطاحن في ريكونكافا".[٢٠٧] ويعتقد كِنت أنه ترتبت نتيجتان على الديموجرافيا المعقدة للرقيق، وهما:

أولا، أن السلطات المحلية المعاصرة (وبالتالي بعض الدارسين مثل نينا رودريجيوس وراموس) واجهوا صعوبة في إعادة تركيب الطبيعة التي يمكن إرجاعها إلى حركات الرقيق المحددة التي ظهرت خلال الفترة. ويقول كِنت إن "ثورات الهوسا" فيما بين ١٨٠٨ و١٨٣٥ كانت نتيجة كل من الحقائق الواقعة، ومحاولة المزارعين والتجار المحليين التلاعب بسلطات الدولة، والتلاعب المقصود بأدلة تورط المسلمين. ولاشك أن رقيق الهوسا كانوا نشطين في أعمال التمرد. حيث كتب جوزي رودريجيوس مؤخرا: "كان الهوسا أقل الزنوج خضوعا في البرازيل؛ حيث قادوا كل الاضطرابات

في باهيا والبرازيل، وكانوا بارزين جدا في أحداث ١٧٢٠، ١٨٠٦، ١٨٠٩، ١٨١٣، ١٨١٤، ١٨٢٢، ١٨٣٥، و١٨٣٨".[٢٠٨]

ففي ريكونكافا مثلا، حيث كان يتم إرسال الهوسا لزيادة عمل الرقيق في المطاحن، "كانت مستوطنات الهاربين تنمو بمعدل مثير في جميع أنحاء الولاية في مطلع القرن التاسع عشر. بل إن الرقيق الهاربين لم يعودوا يتجنبون حتى المدن، وكانوا يختبئون فيها أحيانا، وفي أوقات أخرى كانوا "يهبطون لنهبها".[٢٠٩] وكان الهوسا متورطين أيضا في الثورات الحضرية في سبتمبر ١٨٠٨ ويناير ١٨٠٩ التي وقعت في كل من ضاحية جاجواريب Jaguaripe وباهيا، على التوالي. وكذلك شارك الرقيق الهوسا في ثورة مزرعة في ضاحية إيتابوان Itapoan في باهيا، والتي اندلعت في أواخر فبراير ١٨١٤. ومع ذلك، ففي ديسمبر ١٨٢٦، كان لاجئو اليوروبا (من قبائل الناجو Nagos) هم الذين تخلوا عن باهيا لتأسيس مستوطنة هاربين. حيث كتب راموس:

"كانت الشخصية الرائدة في هذا الصراع تتمثل في زيفيرينا Zeferina، تلك المرأة السوداء، التي تم إخضاعها وأخذ أسلحتها منها في النهاية. وكشفت اعترافات بعض الأسرى أن الزنوج كانوا يخططون لثورة أكبر قوة، بحيث يمكن الشعور بآثارها في المستقبل".[٢١٠]

وكذلك كان اليوروبا أساس الثورة الحضرية التي اندلعت في باهيا في أبريل ١٨٣٠، ومن الأدلة على ذلك:

"أنه اقتحم عدد من الرقيق اليوروبا مخازن التجهيزات، حيث أخذوا منها الأسلحة والذخيرة، ثم انطلقوا إلى تسليح بضع مئات من الزنوج

الآخرين، وبكل هذا العدد الكبير، هاجموا نقطة شرطة سولداد Soldade في إحدى ضواحي المدينة. ونظرا للمفاجأة الكاملة، كانت السلطات عاجزة تماما. وقبل وصول المساعدات وتنظيم القوات، كان الزنوج قد نشروا الدمار في المدينة. وأخيرا تم قمع المتمردين بخسائر كبيرة في الأرواح، حيث هلك نحو خمسين، وأخذ أكثر منهم كثيرا كأسرى. وهرب الباقون في أرجاء البرية".[٢١١]

ومع ذلك، يقول راموس إن الثورة الكبرى في ١٨٣٥ في باهيا كانت ثورة الهوسا أساسا، وبالتالي كانت إسلامية في إلهامها. "وكانت عدوانيتهم تراثا اجتماعيا مباشرا من الحروب الدينية التي استمرت قرنا، والتي ضمنت انتشار الإسلام في أفريقيا... ولذلك نكرر أن الدافع الرئيس كان دينيا".[٢١٢] ولكن كِنت يزعم - عكس راموس (ونينا رودريجيوس) - أن هذه الثورة كانت تضم الهوسا واليوروبا أساسا، ولم يكن المسلمون فيها سوى على مستوى القيادة فقط، وعرف هؤلاء باسم المتمردين المسلمين "مالي Males" (إشارة إلى أصولهم من مسلمي مالي غرب أفريقيا). ولم تكن هذه الثورة ولا التي سبقتها تعتبر حروبا مقدسة. ويذهب كِنت إلى ما يلي:

"لم يكن هناك شك في أن "الكل تقريبا" من المتمردين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بخط غير معروف، ربما كان الخط العربي، بين الهوسا الذين يبدو أنهم "اتحدوا الآن مع الناجو"... حيث وصل ٢٣٤ منهم إلى ساحة القضاء، ولكن في ظل ظروف إلقاء القبض عليهم لا يمكن أبدا التأكد من كيفية تورط الكثيرين منهم فعلا... ومع ذلك كان الناجو والهوسا والنوبي (التاباس Tapas) والجيج Geges، و"البورنو Bornus" (الكانوري Kanuri) يمثلون ٢١٣ فقط. وكان هذا المجموع يتضمن ١٤ امرأة".[٢١٣]

ويرى كِنت أن راموس ونينا رودريجيوس وقعا في الخطأ بسبب الاعتماد كثيرا على سجلات محاكمة الرقيق المهـزومين، وعلـى الأوراق والتقـارير الشخصية لقائد شرطة باهيا، جونكالفيس مارتنز Goncalves Martins. فقد كـان هذان المصدران متحيزين بسبب افتراض أن "كل مسلم كان متمردا، وأن كـل متمرد كان مسلما".[٢١٤] ويستنتج كِنت أن "الثورة التي قادها المـسلمون فـي ١٨٣٥ لا يمكن فهمها من جميع جوانبها إلا من خلال دراسة أكثر دقة للبيانات المتعلقة بالعلاقات بين الأفارقة داخل باهيا ذاتها".[٢١٥]

وبغض النظر عن "جدل" الدارسين، يتضح تماما أن الثورات كانت تقوم على التوافق بين المواد الثقافية والفكرية الأفريقية. حيث يذكر راموس ونينا رودريجيوس وكِنت المجتمع السري لليوروبا، الأوبجوني Obgoni، كمصدر للقتال لدى ذلك المجتمع، ويبدو أن الجميع يتفقون على أن الإسلام لعب دورا تكتيكيا واستراتيجيا في هذه الحركات التي كـان الهوسـا مـسئولين عنهـا مباشرة.[٢١٦] ففي تمرد ١٨٣٥ تحديدا، يبدو أن التحذير الذي أطلقه كونـت آركوس، الذي كان حاكما لباهيا ذات مرة (١٨١٠-١٨١٨) قد تحقق كاملا. وفي ذلك يقول كِنت:

"يتمثل أقوى ضمان لتأمين المدن البرازيلية الكبيرة في عدم توافق الأمم الأفريقية المختلفة، لأنهم لو تغاضوا عن العداوة التي تفرقهم بصورة طبيعية، فإن عناصر الأجوم Agomes سيصبحون أخوة مع النـاجو Nagos، والجـيج سيصبحون أخوة مع الهوسا، والتابا Tapas مع السنتي Sentys، وبهذه الطريقة فإن الخطر الكبير والحتمي سيحدق بالبرازيل ويدمرها. ولا شك في أن سوء الحظ المشترك يمكن أن يؤدي إلى تحقيق أخوة البؤساء".[٢١٧]

وقد حدث ما كان متوقعا، فقد تمثل "سوء الحظ" في الثورة الصناعية والتطور المستمر للنظام الرأسمالي العالمي. إذ إن الحاجة إلى التراكم الأولي تحولت إلى الرق على نطاق واسع. ففي باهيا في ١٨٣٥، كانت النتيجة الحتمية تتمثل في تكوين "أخوة الشقاء".

المقاومة في جزر الهند الغربية البريطانية

في نفس العقود في القرن التاسع عشر، أظهر النظام العالمي وجها مختلفا ومناقضا بصورة واضحة لجزر الهند الغربية البريطانية. ففي جامايكا والمستعمرات القديمة، لا يبدو أن مجموعة الأحداث التي أثبتت أنها سعيدة للبرازيل وكوبا والمناطق الأخرى المنتجة للسكر، كانت في صالح منتجي السكر الاستعماريين. فبعد فقدان السيطرة على سوق السكر في النصف الثاني من القرن الماضي، استمرت ثرواتهم في الانهيار، وتأثرت سلبا بالأحداث المعاكسة مثل تشبع السوق، والجفاف وتدهور التربة وإفراط الإنتاج وإعادة توجيه رأس المال. وحتى قوة مزارعي جزر الهند الغربية كانت تتحول ضدهم: إذ إن القيود التجارية التي حافظت على "السوق المحلي" الإنجليزي لصالحهم أصبحت الآن قيدا مفروضا عليهم. بل إن التقنية كانت تسير ضدهم مع تطوير المصالح الفرنسية لسكر البنجر لمواجهة سكر القصب.[٢١٨] إذ يقول إيريك ويليام:

"كانت حالات الإفلاس منتشرة في ذلك الوقت. ففيما بين ١٧٩٩ و ١٨٠٧، تم التخلي عن ٦٥ مزرعة في جامايكا، وتم بيع ٣٢ مزرعة بسبب الديون، وفي ١٨٠٧، رفعت دعاوى ضد ١١٥ مزرعة أخرى. وكانت

الديون والأمراض والوفيات تمثل موضوعات الحوار الوحيدة في الجزيـــرة. حيث اكتشفت لجنة برلمانية شكلت في ١٨٠٧ أن الخسارة كانـــت تـضرب مزارع جزر الهند الغربية البريطانية... وأرجعت اللجنة السبب الرئيس إلى الوضع غير المواتي للسوق الأجنبية. وفي ١٨٠٦، وصل فائض السكر فـــي إنجلترا إلى ستة آلاف طن. ولذلك كان لا بد من تخفيض الإنتاج.[٢١٩]

وكما يقول ويليامز تحديدا، أصبح واضحا أنه باســـتثناء الباربـــادوس، كانت المستعمرات القديمة تنهار. فقد كان يبـــدو أن المـــستعمرات الجديـــدة أصبحت تحل محلها في إنتاج السكر.

"وفيما بين ١٨١٣ و١٨٣٣، انخفض إنتاج جامايكا بحـــوالي الـــسدس تقريبا؛ وانخفضت صادرات أنتيجوا، نيفيس، وتوباجو بـــأكثر مـــن الربـــع، وصادرات سانت كيتس بحوالي النصف، وسانت لوشـــا St. Lucia بحـــوالي الثلثين، وسان فنسنت St. Vincent بحوالي السدس، وجرينادا بحوالي الـــثمن. وأظهرت صادرات دومينيكا زيادة طفيفة، بينما ضاعفت باربادوس صادراتها تقريبا. ومن ناحية أخرى، زاد إنتاج المـــستعمرات الجديـــدة، فـــي جويانـــا البريطانية بحوالي مرتين ونصف، وفي ترينيداد بحوالي الثلث".[٢٢٠]

وكانت زيادة الإنتاجية في ترينيداد أقل توضـــيحا للأهـــداف الجديـــدة لفرص رأس المال البريطـــاني، مـــن توضـــيحها للمـــشاكل التـــي تواجـــه المستعمرات القديمة. إذ يقول ويليامز:

إن كلا من كوراكاو، سانت إيوستاتيوس، سابا، سان مارتن، توتـــولا، جريناد، وسان فنسنت، كانت - أو كانت تتحول إلى - "جزر جرداء"، حيث تدهورت تربتها بفعل زراعة السكر المفرطة.[٢٢١] ووجد ملاك المـــزارع أن

نقل الرقيق وأشكال رأس المال الأخرى إلى ترينيداد كان ضروريا ومناسبا.[٢٢٢] إذ إن نقص العمل في ترينيداد، وهي المشكلة الحادة التي كانت تعرقل الاستخدام الكامل لتربتها الخصبة، أمكن مواجهتها بهذه الطريقة فقط بعد إلغاء تجارة الرقيق.

ومن ناحية أخرى، كانت جويانا البريطانية تمثل فرصة لإعادة الإنتاج الضخم لرأس المال الجديد.

"كانت جويانا قد تقدمت كثيرا عندما كانت تحت الاستعمار الهولندي، حيث كانت تحوي ضعف عدد الرقيق وتنتج ضعف كمية السكر مقارنة بكل من ترينيداد وموريشيوس مجتمعتين. ولكن جويانا كانت تحوي أيضا مساحات كبيرة صالحة للزراعة لمن لا يرغبون في العمل في الإقطاعيات.[٢٢٣]

ومع ذلك كانت جامايكا تمثل المفتاح. فمع وجود نصف مجموع سكان جزر الهند الغربية البريطانية، سيطر مزارعو السكر في جامايكا على ثلث السكر المنتج في المستعمرات البريطانية.[٢٢٤] وكان تدهور دور جامايكا في الاقتصاد العالمي هو الذي أثار قوى رأس المال الصناعي ضد اقتصادات الرقيق.

وفي ١٨٠٧، كما يقول هيجمان Higman كان عدد سكان جامايكا الرقيق قد بلغ نحو ٣٥٠ ألف نسمة، وكان السكان البيض يمثلون ١٠ ٪ من ذلك العدد، وكان الرجال الأحرار أقل عددا من ذلك.[٢٢٥] وفي ١٨٣٢، انخفض كل من السكان الرقيق والبيض إلى نحو ٣١٣ ألفا بينما انخفض عدد البيض إلى ٢٥ ألفا، بينما زاد السكان الأحرار إلى ٣٥ ألفا.[٢٢٦] ومع ذلك، لم يكن المقيمون البيض يمثلون "الطبقة الحاكمة البيضاء" كما تفترض ماري ريكورد Mary Reckord.[٢٢٧] حيث كتب كراتون Craton مؤكدا أن:

"التغيب عن العمل أصبح يمثل القاعدة في إقطاعيات الهند الغربية بحلول منتصف القرن الثامن عشر".[٢٢٨] وكان أكثر المزارعين نجاحا - آل بيكفورد، هيبيرت، لونج، جلادستون، كودرنجتون، وارنر، بيني، ماريات - يعودون إلى إنجلترا بمجرد أن يسمح لهم ما تراكم لديهم بذلك.[٢٢٩] ويرى كراتون: "بعد ذلك، كانت المزارع تترك في أيدي الملاحظين والوكلاء، وهم أكثر الأعضاء بساطة في الطبقة الوسطى الاستعمارية". فقد كانوا:

"لا يتمتعون بشيء سوى لونهم والقدرة البدائية على كتابة الحسابات، والتي تميزهم عن السود الكريول الأكثر اندماجا. فقد كانوا طبقة محاصرة وساخطة، ذات موارد داخلية قليلة لا تقاوم إغراءات طغيان الصغار ولا أعراض الاغتراب...

وغرق كثير من السكان البيض في المزارع في بلادة معنوية بائسة، وكانوا يأكلون ويشربون ويذهبون بأنفسهم إلى القبور مبكرا. وكان بعض الذين تركوا في المزارع "لتقليل الخسائر" منحطين لدرجة أن إدوارد لونج سجل أنهم كانوا يلقون احتقارا شديدا ممن سماهم "النوع الأفضل" من الرقيق".[٢٣٠]

وظل قليل من المزارعين يعيشون في المدن "أو في بيت كبير"، ولكن "أفضل مجتمع في أفضل الأحوال في جزر الهند الغربية كان مجرد صورة باهتة وغير مستنيرة من الحياة في العواصم".[٢٣١]

وفي إنجلترا، كان تراجع أرباح قصب السكر في جزر الهند الغربية البريطانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر يواجه بجهود لإنهاء

تجارة الرقيق. إذ يقول ويليامز إنه كان هناك اعتقاد بأنه بدون هذه التجارة سينهار اقتصاد فرنسا الاستعماري. وذلك لأن رأس المال الإنجليزي، أي الجزء الصناعي الصاعد منه، لم يعد ملتزما بإمبراطورية استعمارية. وبالتالي "كان الاستقلال الاستعماري أرخص".

على هذا النحو أصبحت التجارة الحرة والتراكم الرأسمالي الوسيلة المناسبة للمزيد من النمو الرأسمالي، بما يعيد التراكم الأولي إلى الدور الثانوي. وكان الرأسماليون الصناعيون ومفكروهم ذوو النزعة الإنسانوية، الذين كانوا يتقمصون رهاب فرنسا القومي بداية، مستعدين بنهاية القرن الثامن عشر لتحقيق مصالح الهند الغربية في الميدان. ويعبر وليامز عن ذلك بقوله:

"وقع الهجوم على ثلاث مراحل: الهجوم على تجارة الرقيق، الهجوم على الرق، والهجوم على التسهيلات الجمركية لتجارة السكر. وقد ألغيت تجارة الرقيق في ١٨٠٧، وألغي الرق في ١٨٣٣، وجمارك السكر في ١٨٤٦. وهذه الأحداث الثلاثة لا تنفصل عن بعضها. إذ إن نفس المصالح المستقرة التي تراكمت بسبب نظام الرق تحولت الآن ودمرت هذا النظام. وكان دعاة النزعة الإنسانوية الذين هاجموا النظام في أضعف نقطه التي لا يمكن الدفاع عنها، يتحدثون لغة تستطيع الجماهير فهمها. وكان لا يمكن أن ينجحوا أبدا قبل ذلك بمائة سنة، عندما كانت كل المصالح الرأسمالية المهمة إلى جانب النظام الاستعماري.(٢٣٢) وبالطبع كان الرقيق الأفارقة في جزر الهند الغربية البريطانية يستمعون أيضا، وكان هؤلاء بمثابة طرف أكثر صمتا. فبعد أن حصلوا على مناسبة أو فرصة ضئيلة لتحديد موقفهم، ضمن بعضهم لنفسه شكلا قديما من التعبير: متمثلا في التمرد.

وكان المحرك المباشر لتمرد الرقيق في جزر الهند الغربية البريطانية يتمثل في "سجل الرقيق Slave Registry". فمبدئيا، صدر هذا "السجل" إلى "المكتب الاستعماري" كأداة لإصلاح حال الرقيق. وفي ١٨١٢، قال جيمس ستيفنز، محامي المكتب الاستعماري، الذي كان يعمل نيابة عن "الدائرة الداخلية لدعاة تحرير الرقيق" إن:

"هذا الإصلاح المعتدل... سيحقق أربعة أغراض: التأكد مما إذا كان استيراد الرقيق غير القانوني لا يزال يحدث على الرغم من قوانين حظره، تقديم إحصاءات دقيقة تتعلق بوفيات وخصوبة الرقيق (لزيادة نشر أوضاع الرقيق)، وبالتالي تشجيع المزيد من الإصلاحات".(٢٣٣)

وفي ١٨١٥، أدت حملة برلمانية إلى صدور أول "قرار في المجلس" لصالح "السجل". وأصبح تسجيل الرقيق قابلا للاستمرار الآن في مستعمرات التاج (تلك التي ليس بها مجالس)، ويقوم حكام المستعمرات بتشجيع المجالس الاستعمارية على تشريع إجراءات التسجيل الخاصة بها. ومع ذلك، اعترف ملاك المزارع بالتسجيل من أجل الغرض منه: أي تقديم مبادرة لتدمير نظام الرق.

وقد "قاوم ملاك المزارع إلغاء الرق حتى في ترينيداد، وتأخر تطبيقه في جويانا، ورفض تماما في جامايكا".(٢٣٤) وبعد مرور أربعة أشهر من سنة ١٨١٦ في الباربادوس، اتضح أن الأفارقة كانوا على علم بالأمر. وفي ذلك يكتب كراتون قائلا:

"اندلع التمرد بصورة مفاجئة جدا في ليلة أحد عيد الفصح في ١٤ أبريل ١٨١٦، وذلك في وقت كان الرقيق فيه متحررين من العمل وكانت لديهم فرص كثيرة للتنظيم تحت ستار الاحتفالات المسموح بها. فكانت حقول

القصب والبيوت المبنية من قش القصب تحرق كالمشاعل في أبرشيات الجنوب الشرقي، خاصة سان فيليب، وهي واحدة من أكثر المناطق جفافا، مع أعلى معدل للرقيق إلى البيض. حيث تأثرت حوالي سبعين ضيعة... وقتل اثنان فقط من البيض في القتال، ولكن ربما قتل ١٠٠ من الرقيق، مع إعدام ١٤٤ آخرين، وترحيل ١٧٠، وجلد عدد لا يحصى. وكان الرقيق الشاردون يقتلون بمجرد رؤيتهم، وأحرقت منازل الزنوج... وكان الأسرى يعذبون عادة... وكان المتمردون المدانون يعدمون علانية في أجزاء مختلفة من المدينة، وكانت أجسادهم - وأحيانا رؤوسهم فقط - تعرض في حالات عديدة على سكان الإقطاعيات التي تمردوا عليها ".[٢٣٥]

ولم تكن هناك شكوك كثيرة لدى مزارعي الباربادوس بشأن أسباب اندلاع التمرد. وكانت الخطابات التي نشرت في صحيفة التايمز اللندنية عقب التمرد مباشرة غاضبة، حيث كتبت تقول:

"يجب أن نشكر من اقترحوا مشروع السجل على ذلك. إذ يبدو أن الزنوج المغرورين التعساء وضعوا ذلك في أذهانهم، أي إن البرلمان الإنجليزي حررهم كثيرا، بحيث يسمح لهم بثلاثة أيام أسبوعيا لأنفسهم؛ وعندما رفض أسيادهم الخضوع لهذا الطلب، بدؤوا حرق الممتلكات بعدها مباشرة".

وتوقع كاتب آخر:

"يعتبر هذا أول مثال على الأمثلة العديدة التي يمكن أن تأتي بعد ذلك على الاتجاه المصيري للسلام والأمن لتلك الجزر نتيجة مشروع السجل الذي عرض على مجلس العموم السنة الماضية. وكانت هذه النتيجة متوقعة بصورة طبيعية من أي إجراء للتدخل غير الحكيم من جانب الحكومة في

الداخل بين مشرعينا والسكان الرقيق؛ ولكن أحدا لم يكن يتوقـع أن يـذوق طعمه المُر في مثل هذه الفترة المبكرة... ولكن المحرضين الكبار على هـذا التمرد، والذين كانوا زنوجا من أسوأ النوعيات، ولكنهم يتمتعون بفهم كبير، وكان بعضهم يقرأ ويكتب، استغلوا لأنفسهم هذا التدخل البرلمـاني، والقلـق العام الذي أحدثه، ليزرعوا في أذهان الرقيق عامة الاعتقـاد بـأنهم كـانوا أحرارا سلفا عن سلطة الملك والبرلمان".

وقد حذر السير جيمس ليث Sir James Leith حاكم جزيرة بربادوس في "خطاب مطول واستثنائي إلى السكان الرقيق في الجزيرة " قائلا لهم:

"لقد علمت أن هناك اعتقادا عاما انتشر بصورة خبيثة بينكم، باعتبـار أنني أملك تحريركم، وأن عودتي إلى الباربادوس سـتؤدي إلـى امـتلاككم لحريتكم. ولكنني أستطيع أن أؤكد لكم رسميا أن وصولي كان بمثابة واحـدة من أكثر الفترات إيلاما في حياتي، حيث لا يقتصر واجبي على أن أبلغكـم بالخدعة القاسية التي مارسها أعداء هذه الدولة، بالإضافة إلـى خـصومكم الأشرار، على كل منكم، بل إنني أشعر أنني طبقا للقوانين المنتهكة يجب أن أبحث عن المذنبين وأعاقبهم".[٢٣٦]

وهكذا فإن الحاكم – على الرغم من أنه "لم يقصد الدخول فـي أصـل وطبيعة الرق" – أكد لمستمعيه أن "الرق ليس مؤسسة ذات لون أو عمـر أو بلد محدد"، وأن "بريطانيا العظمى وحدها تمارس سلطتها لمنع زيادة الـرق، وتقدم خدمة عملية يتطلبها النزوع إلى الخير". ويعرف الأفارقة الذين شاركوا فيما سموه "تمرد بوسا Bussa Rebellion" هذه المؤسسة بصورة مختلفة عـن الحاكم. فلديهم ثورة "المِنجو Mingo" (هاييتي) كنموذج لهم، ولديهم مـصدر

المساعدة، ويعرفون أن المنعم عليهم، بريطانيا العظمى، تحتـاج مـساعدتهم الفعالة في الكفاح ضد الرق. وفي ذلك يذهب كراتون إلى القول:

"يقول روبرت، من ضيعة سيمون، إن ناني جريج Nanny Grigg "وهـي امرأة زنجية في سيمون قالت إنها تستطيع القراءة"، أطلقت شائعة في أواخر ١٨١٥ بأن كل الرقيق سيصبحون أحرارا في عيد السنة الجديدة، وأضاف:

"أنها قالت إنها قرأت ذلك في الصحف، وإن سيدها كان متضايقا جـدا من هذا: وإنها كانت تتحدث عن ذلك دائما مع الزنوج، وأخبرتهم بأنهم كانوا جميعا حمقى عندما كانوا يعملون طائعين لسادتهم، لأنها لم تكن لتفعل ذلـك، لتأكدها من الحصول على الحرية. وبعد أسبوعين من عيد الـسنة الجديـدة، قالت إن الزنوج سيتحررون في يوم اثنين عيد الفصح، وإن الطريقة الوحيدة للحصول عليها تتمثل في القتال من أجلها، وإلا فلن يحـصلوا عليهـا؛ وإن الطريق إلى تحقيق ذلك يتمثل في إشعال النيران، لأن هذه كانت الطريقة التي اتبعوها في سان دومنيك".[٢٣٧]

ومع ذلك، كان السجل السبب المباشر فقط، بينما كان الرق ذاتـه هـو السبب الأكثر استمرارا. ولنتذكر قبل ذلك بمائة سنة تقريبا في جامايكا، كانت هناك ناني أخرى، قائدة الهاربين في وندوارد، حيث ميزت نفسها بطريقـة مماثلة.[٢٣٨] فقد تركت ناني الأولى اسمها على خريطة جامايكا، ناني تـاون Nany Town، ولكنها شاركتها في "خصائصها" الأخرى. وكان من بينها روح التقليد الراديكالي. وبالطبع، فإنها لم تكن تنتمي إليها حقيقة. وفي الواقع فإنه لو كانت قضية الخصائص مطروحة أساسا، فإن الأمر سيكون في الاتجـاه المعاكس. أي إن التقليد هو الذي أظهرها كما فعل مع نانـي الباربادوس.

لقد كان السجل ثانية هو الذي عمل كمحفز على تمرد الرقيق الكبير التالي في جزر الهند الغربية البريطانية. حيث تأخر تطبيقه لعدد من السنوات، مما جعل الإصلاحات التي كانت مرتبطة به لا تتحقق حتى أوائل عشرينيات القرن التاسع عشر في بعض المستعمرات. فبالنسبة لجويانا، ظهر الشعور بأثر إصلاح الرق في ١٨٢٣. وكالعادة، كان رد فعل المزارعين شفويا وغير مقيد وعلنيا. ففي مجتمع كان يتكون من ٧٧ ألفا من الرقيق، ٣٥٠٠ من البيض، و٢٥٠٠ من الأحرار، كان هذا الجدل يعتبر خطيرا اجتماعيا.[٢٣٩]

وكانت تربة جويانا الغنية أساس الممارسة المكثفة لزراعة السكر.[٢٤٠] وبالنسبة للرقيق، فقد أدى هذا إلى قلب الأوضاع التي كانوا يعملون في ظلها بدرجة كبيرة.[٢٤١] وكان النظام – الذي كانت تطبقه دائما أقلية بيضاء متيقظة دائما – نظاما قاسيا واستبداديا غالبا. وكانت القسوة التي اعتبرها ملاك المزارع ضرورية تفوق حتما المستويات التي تمارسها الأجزاء الأكثر إنسانية من المجتمع الزراعي الاستعماري. ويبدو أن البعض وجد أنه من المستحيل التوقف عن نقد العداوة العلنية لدى المزارعين تجاه البرلمان البريطاني والمكتب الاستعماري، وتجاهلهم للمصالح الدنيا للشعوب المسترقة. وكان من بينهم جون سميث، قس جمعية تبشير لندن، حيث كان بليغا جدا في توصيف جشع المزارعين، والذي اعتبره بمثابة دعاوى خيانة، ومواقفهم غير الخيرية تجاه ممتلكاتهم البشرية.[٢٤٢] واندلع تمرد للرقيق في أغسطس ١٨٢٣، وشارك فيه نحو خمسين ضيعة وربما حوالي ٣٠ ألف أفريقي. ولكنه انتهى خلال أسبوعين: حيث قتل اثنان من البيض، وقتل مائة من الرقيق، بالإضافة إلى إعدام الكثيرين بعد ذلك.

وفي الشهور الخمسة التالية، تم تعقب المتمردين، وإعدامهم، ومحاكمتهم في بعض الأمثلة. وكان جون سميث من بين الضحايا. حيث مات جون سميث في السجن بمرض السل. أما كوامينا Quamina، وهو قائد متمرد كان ارتباطه بجون سميث ككبير الشمامسة، "فقد تم تعقبه بالهنود والكلاب، وأطلق عليه النار في ١٠ سبتمبر، وشنق على جانب الطريق أمام ضيعة ساكسيس في جلادستون".(٢٤٣) ولام ملاك المزارع والبرلمان البريطاني الإرسالية والسجل على هذا التمرد، ولم يلوموا الرق. ويقول كراتون، بناء على هذا المنطق: "كان الأثر العام يتمثل في إبطاء إيقاع حركة التحرير".(٢٤٤)

وأخيرا، كان تمرد جامايكا من بين التمردات التي وجدت إلهامها المباشر في حوارات أنصار إلغاء الرق وسجل الرقيق. وهناك ثلاثة مجلدات ضخمة تفرض نفسها بصورة مباشرة، جمعها المكتب الاستعماري حول هذا الحدث، تستقر في مكتب السجلات العامة البريطاني في كيو جاردنز Kew Gardens. وتحوي السجلات الرسمية من جامايكا لمحاكمات ٦٢٦ رجلا وامرأة شاركوا في "تمرد الرقيق في ١٨٣١".(٢٤٥)

ومن خلال الأقلام المختلفة للمسجلين الاستعماريين في شتى المقاطعات، ومواد المحاكم في هذه الجزيرة، كانوا يعلنون التهمة والشهود والإجراءات والخصائص المهنية للسود الذين اجتازوا التعبير المباشر عن العدالة (رسميا، كان هناك ٢٠٧ من الرقيق قتلوا أثناء قمع التمرد).(٢٤٦) ونظرا لأن الاهتمام الكبير كان ينصب على الاتهامات التي يمكن تحديدها، فإنها تخبرنا بالكثير عن الشبكات المكونة بين الرقيق، أكثر من الأسباب التي لديهم لتنظيم هذه الشبكات من المبادلات. وهي تخبرنا أيضا بالكثير عن صورة الرقيق في عيون "الأشخاص المعتدلين" من الطبقة الوسطى الاستعمارية، وليس رؤية الرقيق أنفسهم، ورؤيتهم لأنفسهم.

وأخيرا، فإنه نظرا لأن هذه الوثائق تمثل المصادر الأولية لمؤرخي التمرد مثل كراتون، ريكورد، وباترسون، بالإضافة إلى أنها لعبت دورا في التقارير المعاصرة مثل تقارير هنري، بليبي، فقد كان لها أهمية أخرى: ألا وهي تركيب الأحداث التي ورثها المحققون.[٢٤٧] حيث وصفتهم ماري ريكورد بقولها "تحول المشرفون والوكلاء إلى جماعة مسلحة، وكانوا مصممين على "عدم الاقتصار على استعادة النظام فحسب، بل وعلى الانتقام لخسائرهم وإذلالهم".[٢٤٨] وكتب كراتون عن "العقلية الزراعية" كمصدر لردود أفعالهم على التمرد، "وتركيزهم على الاغتصاب" كدافع بين الرقيق، "وعدم الأمان الجنسي العميق".[٢٤٩] وأكد باترسون على أنهم كانوا "أنانيين وعاجزين"، وعلى أن "موقفهم من ثورات الرقيق كان يتصاعد من الهستيريا المتطرفة والعجرفة التي لا تصدق".[٢٥٠] فلماذا إذن يترك المؤرخون هوية أنشطة الرقيق في جامايكا في ١٩٣١ في مثل هذه الأيادي؟

وربما تكمن الإجابة في إغراء التقرير الذي صدر. فإجمالا، تؤكد سجلات المحاكمات التي أدت إلى إعدام ٣١٢ من الرقيق وجود "تمرد عيد الميلاد" في ١٨٣١، حيث سمي هكذا لأنه اندلع في مساء الاثنين ٢٧ ديسمبر. وعرف بين العامة "بحرب المعمدان"، وأوضحت تحقيقات المنتصرين أن قائمة القادة كانت تضم من فوج السود كلا من: صمويل ("الحاكم الأب") شارب، جورج تيلور، جورج جوثري، وجونسون، توماس دوف، روبرت جاردنر، ديهاني، وثارب.[٢٥١]

وكان التخطيط لهذا التمرد قد بدأ في أغسطس، وتعرض للخيانة في سلسلة من الأحداث في ضيعة "سولت سبرنج" قرب خليج مونتيجو، وثلاث ضيعات

أبرشية أخرى قبل الموعد المخطط بعدة أيام. وقد أرجعت لجنة تحقيق الجمعية الوطنية في جامايكا هذا التمرد إلى عدة أسباب:

- الجدل حول إلغاء الرق الذي بدأ في مجلس العموم في أبريل؛

- دور المعمداني الويسلي **Wesleyan**، ومبشري مورافيا النشطين خاصة في أبرشية سان جيمس وخليج مونتيجو، التي تمثل مراكز التمرد؛

- إشاعات "ورقة الحرية" التي أصدرها الملك ويليام، التي تعتق الرقيق، والتي كان الرقيق يعتقدون أن البيض المحليين حجبوها، أو أنها ستصل مع المبشر المعمداني العائد توماس بورشيل.[٢٥٢]

وكان هذا بمثابة سيناريو مرسوم بإحكام. ونظرا للتزايد لاحقا بسبب انضمام عناصر الألفية المسيحية، وظهور "نخبة متميزة نسبيا" و"ذكية" من الرقيق لقيادة مثل هذا التمرد، والعناصر السياقية ("كثافة الرقيق"، الجغرافيا، والتغيب، مثلا)، أصبحت تمردات الرقيق مألوفة ومفهومة تماما.[٢٥٣]

"ومع ذلك، لا يبدو أن ما تم تصويره على أنه تمرد واحد كان على الأقل عبارة عن تمردين، وربما كان عدة تمردات. وذلك لأن التمرد الذي ارتبط به شارب ورفاقه المعمدانيون كان يتركز حول مناطق خليج مونتيجو، وكان المخططون له يواصلونه على أنه أحد أشكال الإضراب السلبي:

"طبقا للتقرير الذي أعطاه للمبشر الويسلي هنري بليبي، الذي كان له عدة حوارات معه في السجن، لم يخطط شارب للتمرد المسلح، ولكنه خطط للمقاومة السلبية. فبعد إجازات رأس السنة، وعندما اقترب حصاد القصب من بدايته، كان الرقيق سيجلسون ويرفضون العمل حتى يعترف سادتهم بأنهم

كانوا أحرارا ويدفعون لهم أجورا. وتوقع شارب أن البيض سيحاولون تخويف المضربين بإطلاق النار على المحتجزين كمثال؛ ولكن لم يكن متوقعا أن يقوم الرقيق بالرد، بل أن يستمروا في المقاومة السلبية ببساطة".(٢٥٤)

يقول بليبي إن شارب - الذي يتمتع بحضور شبه كاريزمي في التحقيقات الاستعمارية - "جعل مشاعر وعواطف سامعيه تحت سيطرته تماما"،(٢٥٥) - كان من الواضح أنه غير قادر على ضمان الالتزام الكامل بما وصفه بورن بدقة بأنه "خطة هيكلية لإضراب بعد رأس السنة".(٢٥٦) ومن ناحية، يبدو أن هذا كان نتيجة لأنه كان يجب عليه العمل من خلال شبكات تبشيرية لم يكن يألفها ثقافيا وفكريا سوى القليل من الرقيق. ونظرا لأن مواده الفكرية - كما يقول ريكورد - "كانت بلا شك لغة المنهجية الراديكالية في إنجلترا"، كان هناك العديد من الرقيق في الأبرشيات الخمس المعنية غير متعاطفين مع هذا النوع من الخطاب.(٢٥٧)

ومن منظور المبشرين المسيحيين: "كانت المجموعات الدينية بين الرقيق تنقسم إلى ثلاث فئات:

- المجموعات التي تتكون أساسا من أعضاء مبشرين يلتقون في الإقطاعيات وينظمون أنفسهم أساسا حسب الكنائس التبشيرية؛

- المجموعات المكونة من الداعين للتبشير، وهم غالبا من قادة الكنائس، بين الرقيق الذين لم يدخلوا الكنائس التبشيرية؛

- المجموعات التي يديرها قادة كانوا مستقلين عن الإرساليات، أو الذين يرفضونها تماما، بينما يربطون أنفسهم بالمسيحية. وكان هؤلاء يسمون أنفسهم "المعمدانيين"، "السكان المحليين"، أو المعمدانيين "الروحيين"".(٢٥٨)

وهكذا كان تأثير شارب وشركائه المتآمرين المعمدانيين يقتصر فقط على أولئك الرقيق الذين أعدهم تحولهم إلى المسيحية للمقاومة السلبية والتضحية. ومع ذلك، وجد بعض الرقيق داخل هذا التقليد أن مثل هذا الموقف غير مقبول. ومن الواضح أن جون فراي John Fray كان من هؤلاء. وفي ذلك يقول ريكورد:

"قبل يوم من حرق الأشغال، قال جون فراي لجون جاردنر [الرئيس]، إنني أرى بعض هؤلاء الناس يبدون متجهمين، ولكن إذا لم ينضموا إلى "الحرية"، و"النار"، فإننا سنقطع رؤوسهم ونجعلهم زنوجا مثلنا".(٢٥٩)

وهناك آخرون اعتمدوا على التراث الفكري القديم فيما بينهم، أي تراث مواصلة التمرد والهروب.

وفي داخل جامايكا الغربية، وبإلهام من مبادرة شارب، وبتسهيل من الإثارة والشبكات التي كونها شارب ورفاقه، بذلت جهود لتنظيم ثورة مسلحة على يد جونسون من ضيعة ريتريف Retrieve، وجاردنر من جرينفتش Greenwich، وديهاني Dehany، وثارب Tharp. واختاروا التخلي عن المقاومة السلبية واتحدوا معا لتكوين "فوج السود Black Regiment". ويبدو أن نموذجهم كان مستمدا من أفواج الهند الغربية البريطانية التي تشكلت فيما بين ١٨٠٨ و١٨١٥، ولكنها أصبحت مفككة آنئذ إلى حد بعيد. وعلى الرغم من أن معظم السود الذين جندوا للأفواج التسعة كانوا من سيراليون، كان القليل منهم من جزر الهند الغربية، بل كان بعضهم من المتمردين المحتجزين في سجن الرقيق في كنجستون. حيث حاربت أفواج الهند الغربية ضد جيوش نابليون في جزر الهند الغربية (وفي بعض الحالات كان السود يقودون قوات بيضاء)

وكانت قوات السود لا تزال موجودة في حامية جامايكا في وقت التمرد.[٢٦٠] وعلى أي حال، ذهب بعض الرقيق إلى ميدان المعركة راضين عن التقليد العسكري. وفي ذلك يخبرنا ريكورد بما يلي:

"كان المحور العسكري للتمرد يتمثل في فوج السود، والذي كان يتكون من حوالي ١٥٠ فردا لديهم ٥٠ بندقية. حيث قام فوج السود - بقيادة الكولونيل جونسون من ضيعة ريتريف - بعملية ناجحة في ٢٨ ديسمبر ١٨٣١ ضد مليشيا "الداخل الغربي، التي تراجعت من ثكناتها في الداخل إلى ضيعة مونبلييه القديمة، قرب خليج مونتيجو. ومن هناك، أجبرها فوج السود على التراجع ثانية إلى خليج مونتيجو، ووضع البلاد فيما بين خليج مونتيجو، لوسيا وسافانا لا مار في أيدي المتمردين. ثم نقل فوج السود التمرد إلى التلال، واكتسح الإقطاعيات وجمع العاملين، وحرق الممتلكات على حدود سان جيمس وأطلق مجموعة من النيران عبر وادي النهر العظيم في ويستمورلاند وسانت إليزابيث".[٢٦١]

وبالطبع كان جونسون، جاردنر، دوف، ديهاني، وثراب - وكلهم معمدانيون - من بين قادة فوج السود. وكتب ريكورد يقول "كان عملهم يكمله نشاط القادة الذين يعينون أنفسهم، والذين اقتنصوا الفرصة للتجول في البلاد وتجميع العاملين، والتخريب والتدمير وتخويف الرقيق الآخرين، والتمتع بسلطة قصيرة قليلة".[٢٦٢] وكان جون لنتون **John Linton** من بين هؤلاء. وطبقا لشهادة أنجوس ماكيل **Angus McCail**، كانت دعوة لنتون بسيطة ومباشرة: يا أنجوس ماكيل، أنا مندهش من ذهابك وانضمامك للسكان البيض، ألا تريد الحرية مثلي [؟]".[٢٦٣] ومع ذلك، وكما يدعي ريكورد حقا، كان "بعض الرقيق خائفين وعادوا إلى العمل". ولكن الأمر لم يكن كذلك

بالنسبة للآلاف من الآخرين. ومع ذلك، وخلال أسبوعين، وبسبب قلة الأسلحة والخبرة، كان التمرد المسلح "يصل فعلا إلى نهايته".

ومع ذلك، وبناء على مصادر موثوقة، شارك من ٢٠ ألفا إلى ٦٠ ألفا في التمرد.[٢٦٤] وكذلك، يؤكد ريكورد الذي كتب عن التمرد بالتفصيل ما يلي:

"لم تكن معظم الضيعات التي شاركت في التمرد جزءا من التنظيم العسكري الأولي للمتمردين، ولم تكن منظمة للمقاومة السلبية. وكان تمردها يتمثل أساسا في تدمير ممتلكات البيض، وتجاهل النظام السائد لفترة قصيرة، مع تأكيدات الحرية".[٢٦٥]

وكانت وحدات الهاربين تتكون من بينهم، وطوال شهرين بعد قمع فوج السود بفترة طويلة، استمروا في مقاومة الجيش، والميليشيات الاستعمارية التي أصبحت مدعمة الآن.[٢٦٦] وفي ضوء إطار سجلات المحاكمات، فإننا لا نعرف الكثير عن أنشطة هؤلاء الرقيق، بخلاف حقيقة أن العديد منهم انتهوا إلى ما صار إليه ديفيد أتكنسون، "قاذف القنابل"، الذي كانت نهاية محاكمته كما يلي: "يعلق من الرقبة، حتى يموت، يموت، يموت".[٢٦٧]

ولكن كم عدد الذين يمكن ألا نعرفهم أبدا؟ وكانت نتائج الأبرشية الرسمية مرعبة جدا وجاء فيها: محاكمة ٦٢٦، إعدام ٣١٢، وجلد أو سجن أو ترحيل ٣٠٠.

ومع ذلك، نجد في هذا السجل المأساوي أن تجمعات الرقيق في جزر الهند الغربية قد كتبت نهايتها أيضا. إذ إن قمعها الوحشي، واتهامها بالخيانة ضد الإمبراطورية، وحملاتها الحثيثة ضد المبشرين، جعلها تبالغ في دورها، وتقدم مواردها لقضية الرقيق.[٢٦٨] وبحلول ١٨٣٨، ألغي الرق في

الإمبراطورية البريطانية رسميا من جانب برلمان تم "إصلاحه" الآن لـدعم سلطة رأس المال الصناعي.(٢٦٩) وتقول ماري ريكورد: "إن الرقيق أظهروا لبعض من في السلطة على الأقل أنه يمكن أن يثبتوا أن الحفاظ على النظـام القديم يعتبر أكثر خطورة وتكلفة من إلغائه".(٢٧٠) ووقعت أحداث مماثلة فـي الولايات المتحدة في ١٨٦٣، وبعـد ذلـك بخمـس وعـشرين سـنة فـي البرازيل.(٢٧١) ولا يزال ميشيل كراتون يعبر عن رأيه عندما يستنتج ما يلي:

"كانت تمردات الرقيق بطولية، وحين فشلت كان فشلها بطوليا أيـضا. حيث أظهر أنطونيو جرامشي(*) بلا شك الطرق التي اتبعهـا المـستعمرون أصحاب المزارع لتشكيل مراتبهم، وعدل رأس المال الحضري من نغمتـه ببساطة، بحيث استمروا في الحكم لمائة عام أخرى على الأقل بعـد ١٨٣٨. أي إن "التحرير الرسمي" لم يكن سوى خدعة للسيطرة. حيث ظهرت أشكال جديدة من الرق من خلال استيراد "العمال البسطاء" الآسـيويين أو الرقيـق بأجور هزيلة".(٢٧٢)

وبالطبع، فإن القائمة لا ينبغي أن تنتهي بالرق الأجري، بل يجب أن تشمل أيضا السخرة، والمشاركة في المحصول، والزراعة بالأجرة، والعمل الإجباري، والعمل كعقوبة، والفلاحة الحديثة. ومع ذلك، يجب أيضا أن نذكر أنفـسنا بأنـه مهما كانت الأشكال التي يأخذها التراكم الأولي، فإن نتائجه الاجتماعيـة تـشمل

(*) أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci (٢٢ يناير ١٨٩١- ٢٧ أبريل ١٩٣٧) مفكر إيطـالي، كاتب وسياسي ومنظر سياسي واجتماعي ولغوي. كان عضوا مؤسسا وقائدا للحزب الشيوعي الإيطالي، وسجنه نظام بينيتو موسوليني الفاشي. كان جرامشي واحدا مـن أهـم المفكـرين الماركسيين في القرن العشرين، تركزت كتاباته على تحليل الثقافة والقيادة الـسياسية، وهـو معروف بأنه مفكر شديد الأصالة في الفكر الأوروبي الحديث. وهو مشهور بمفهوم "الهيمنـة الثقافية cultural hegemony" كوسيلة لاستمرار الدولة في المجتمع الرأسمالي. (المترجم)

أيضا أعمال المقاومة، والتمرد، والثورة في النهاية. وفي الأقاليم الهامشية وشبه الهامشية من النظام العالمي الحديث، على الأقل، كان حكم الطبقة المسيطرة عند جرامشي لا يمكن أن يكون أكثر من مجرد وجود لحظي.(٢٧٣)

أفريقيا: الثورة في المصدر

وفي أفريقيا ذاتها، لم يكن نفس التراث التاريخي أقل وضوحا في القرن التاسع عشر. ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أيضا التحذير الذي أطلقه كل من جيمس وجورج بادمور من أن التقليد الاستعماري كان يقضي بعدم الاحتفاظ بسجلات دقيقة لمثل هذه الأحداث، وفي ذلك يذهبان إلى ما يلي:

"تتمثل الصعوبة هنا في الحصول على تقارير مكتوبة بالتفصيل، حيث أرسل الإنجليز حملاتهم العقابية ضد القبائل المتمردة، ولكنهم لا يذكرونها بالضرورة في التقارير الاستعمارية السنوية. ولكن إذا أيقظت الثورة الاهتمام العام، فإن لجنة تستكشف الأمر وتعد تقريرا. وعادة ما يصطدم هذا التقرير مع تقارير المشاركين، وشهود العيان، ومراسلي الصحف المحليين والأوروبيين، والأشخاص الذين كانوا يعيشون في المستعمرة في ذلك الوقت. ومع ذلك، ينشر الفرنسيون والبلجيك القليل من هذا النوع".(٢٧٤)

وكانت إحدى النتائج العديدة لهذا التقليد والقصد من ورائه تتمثل في إنتاج كتابات أكاديمية مصاحبة تعمل كما يؤكد ماجوباني B. Magubane "كتغطية قوية على القوى الاجتماعية الحقيقية الفاعلة".(٢٧٥) ولم تظهر "صورة للهيكل الاجتماعي الاستعماري" في الأدبيات كما يقول ماجوباني. أما لوسي مير Lucy Mair – التي تتحدث نيابة عن زملائها الأنثروبولوجيين ممن درسوا الحقول الاستعمارية البريطانية – فتعتقد أن السبب واضح تماما، وتؤكد قائلة:

"أعتقد أنه يجب على المرء أن يرد على التعليق بأننا ركزنا على "القرية" أو "الناس" واعتبرنا المصادر الخارجية للتغيير التي وثقناها أمرا مسلما به. كما أعتقد أن السبب يتمثل ببساطة في أن المرء لا يستطيع تحقيق الاثنين معا".[٢٧٦]

ومع ذلك، صرحت لوسي مير أيضا بما يلي:

"تتمثل الحقيقة في أن أحدا منا لم يكن يعتقد أن الحكم الاستعماري يجب أن ينتهي حالا. فمن كان يعتقد ذلك في تلك الأيام؟"[٢٧٧] وترى مير أن محور وظيفة "القائمقام" كان يتمثل في "ضمان عرض عمل مناسب" للأرباب العمل الأوروبيين والحفاظ على السلم: "دعونا نعتقد أن الحفاظ على السلم يعني قمع التمرد، فقد كان هناك اهتمام أكثر بهجمات الأفارقة على بعضهم".[٢٧٨]

ولكي نعمم ملاحظة ماجوباني، فإن بعض الدارسين مثل مير كانوا متأثرين بشدة بالاعتقاد بأن " الاستعمار هو قوة وعملية اجتماعية، أكثر من كونه حقيقة وجودية تبدو جلية كمعالم سطح الأرض".[٢٧٩]

وكان وجود الأوروبيين في أفريقيا في بداية القرن يقتصر أساسا على مستوطنات قليلة في جنوب أفريقيا، وعلى المحطات والعناصر التجارية على السواحل الشمالية والغربية والشرقية. وحتى بحلول منتصف القرن، يؤكد جيمس وبادمور أنه:

"لم يكن متوقعا أن يكون أكثر من ١٠ ٪ من أفريقيا في أيدي الأوروبيين".[٢٨٠] ومع ذلك، بدأ القرن بالمقاومة. ففي جنوب أفريقيا، كانت حرب المائة سنة (١٧٧٩-١٨٨٠) بين الخوسا Xhosas والمستعمرين البيض قد دخلت عقدها الثالث. وقبل نهايتها أخذت هذا الشعب عميقا في التراث التاريخي مثل أي شعب أسود يجرؤ على ذلك، بما في ذلك شعب هاييتي.

وكانت عملية قتل الماشية في ١٨٥٦-١٨٥٧، التي أدت إلى موت عشرات الآلاف من الخوسا بسبب الجوع الذاتي، لا تزال تسيطر على العقل الغربي.[٢٨١] ووصل الزولو Zulu أيضا إلى مرحلة المقاومة المسلحة. فمنذ ظهور دولة الزولو في العقود الأولى من القرن، وحتى حروب سبعينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، حارب الزولو انتهاك وجودهم المادي والروحي. حيث سقط ثمانية آلاف من الزولو في معركة ١٨٧٩ وحدها، وهي نفس السنة التي هزمت فيها الرماح Assegais البندقية في المعركة الرهيبة في إيساندهالوانا Isandhalwana.

وبعد ذلك بثلاثين سنة، مع بداية القرن الجديد، ثار الزولو ثانية.[٢٨٢] ومع تقدم القرن، أصبح توغل الأوروبيين أكثر وضوحا وأصبحت المقاومة أكثر انتشارا.

وفي أنجولا، شن البرتغاليون حروبا لفرض السلم في خمسينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر.[٢٨٣] ففي تنزانيا الحالية، قام الياو Yao والهيهي Hehe بمواجهة الألمان الذين انتهكوا حدود السلوك القويم في تسعينيات القرن التاسع عشر. حيث كتب ماشيمبا Machemba، قائد الياو، إليهم باللغة السواحيلية:

"إذا كان الأمر يتمثل في الصداقة التي تريدونها، فإنني مستعد لها، الآن ودائما، أما إذا كان الأمر يتمثل في الخضوع، فأنا لا أستطيع ذلك".[٢٨٤] وفي غرب أفريقيا في سبعينيات القرن التاسع عشر، بدأ الأشانتي Ashanti حروبهم ضد البريطانيين، وفي الثمانينيات فعل الميندي Mendi في سيراليون نفس الشيء. وفي ١٨٩٦، واستكمالا لإنجاز رقيق هاييتي قبل ذلك بمائة سنة،

وجه منليك الثاني ملك إثيوبيا جيشا قوامه ١٠٠ ألف من أجل هزيمة الغزاة الإيطاليين. وبالطبع كان هناك آخرون كثيرون: اليوروبا في غرب أفريقيا، الباجاندا في شرق أفريقيا، وشعوب جبال أطلس في الشمال، والشونا، النديبيلي، الندلامبي، النجكيكا في الجنوب. وكان على الكثيرين منهم أن ينتظروا حتى يتم الاحتفاء بهم، ولا يزال الكثيرون منهم ينتظرون.

ومع ذلك، كان ولا يزال النمط والهيكل وشكل التطور هو الأكثر أهمية. وكان التكامل التاريخي الذي حققته تجارة الرقيق في العالم الجديد يتكرر الآن في القارة الأفريقية. وكانت مجتمعات منفصلة تحقق ببطء التنظيم الاجتماعي الذي يحتاجه الهجوم على الاستعمار. وكان تيرينس رانجر – على الرغم من عدم ارتياحه الكامل من العناصر "المتجاوزة للمنطق" التي نهتم بها – يعتقد أن هذه الحركات "بالغة النفعية"، حيث يقول:

"كانت المقاومة تمثل تحديا للسلطة التي كانت تتمتع بتفوق تقني كبير، والذي بدأ مع تفوق المعنويات بناء عليه وعلى الثقة في قدرتها على تشكيل العالم. وكان القادة الدينيون قادرين على مواجهة هذه المعنويات التي كانت شديدة الثقة آنذاك، بناء على قدرتها المفترضة على تشكيل العالم، إن لم يكن أكثر من هذا، وكانوا قادرين على مواجهة الأسلحة الحديثة بالميزة الكبيرة الوحيدة التي كان يتمتع بها الأفارقة، وهي أعدادهم. فلا توجد أية طريقة أخرى يستطيع بها الأفارقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين... أن يمثلوا تحديا للأوروبيين. وكذلك فإن ما يسمى الوصايا "الخرافية" لهؤلاء القادة الدينيين لم تقتصر على خدمة هدف تكوين إحساس بالمجتمع الجديد، بل ضمنت أيضا الحد الأدنى من النظام اللازم في مثل هذه الحركات".[٢٨٦]

كان هذا الإنجاز كظاهرة هيكلية مصاحبا للنظـام العـالمي والتوسـع الإمبريالي الذي تطلبه. ومع ذلك، كان تماسكه يعتمد على الهويات الأفريقية لشعوبه. وكانت ديناميكيته تكمن في توسع الإمبريالية كعملية هيكلية. وكـان هذا بمثابة جدلية الإمبريالية والتحرر، والتناقض الـذي أدى إلـى ظهـور المقاومة والثورة من رحم المعارضة، بل ومن أيديولوجيتها. وكمـا كتـب ميشيل تاوسج Michael Taussig، مع وجود كولومبيا الاسـتعمارية المبكـرة في الذهن فإن:

" التقارير النادرة عن التنصير تشير إلى أن التحول وتماسك الإيمـان ظل مجرد عملية شكلية طوال حقبة الرق. وفي الواقع،... فقد اعتبر مـلاك الرقيق أن الرقيق المتنصرين كانوا أكثر تمردا، وكانوا عمالا أقل مستوى من غيرهم، وكانوا يدفعون أقل لهم... إذ إن الدين العام للسود لا يمكن أن يكرس الرق وكل ما يتضمنه، ولا يمكن أن يظل الرقيق راضين بالمساواة أمام الإله فقط، وليس فيما بينهم أيضا".[٢٨٧]

لقد عانت الشعوب الأفريقية في أفريقيا وفي الشتات تجربـة متكاملـة تركتهم أمام مهمة مشتركة، وبرؤية مشتركة أيضا.

الفصل السابع

طبيعة الحراك الثوري الأسود

تقودنا مناقشات الفصول السابقة إلى الطبائع الأيديولوجية والفلسفية والمعرفية للحركة الثورية السوداء التي نعتقد أن مكونات عناصرها الجدلية كانت تتمثل في الرق الرأسمالي والإمبريالية. ولعلنا نتساءل الآن: ما الأحداث التي كانت موجودة بصورة دائمة في سياقها الظاهراتي؟ وما العمليات الاجتماعية التي كررتها بصورة مطردة؟ وعن أي العمليات الاجتماعية كانت تختلف تاريخيا بصورة واضحة؟ وكيف ترتبط بالنظام السياسي؟ وما المركبات الفكرية والرموز اللغوية التي تظهرها غالبا؟ وأين كانت حدودها فيما وراء الطبيعة ثابتة بصورة مؤكدة؟ وما نظمها المعرفية؟

هذه هي التساؤلات التي يجب أن نتناولها الآن، متحررين من القيود النموذجية والتصنيفية التي أثرت طويلا على الدارسين الغربيين، والتي ينبع استمرارها كثيرا من تطبيقها غير النقدي وافتراضها غير المسئول، والذي كان شاملا بغض النظر عن الأصول التاريخية. وبعد الوصل إلى لحظة تاريخية، وعند مفترق الطرق، نجد أنفسنا في وقت حرج لم تعد فيه حقائق التقليد الفكري والتحليلي مهمة بالنسبة للمفكرين السود، كما كانت من قبل. فقد اتضح ثانية أن تقاليد الفكر الغربي الحالية والسائدة لها علاقة سببية – وليست نظامية أو عضوية – بالتحولات الضخمة في تاريخ وتطور البشرية.

وقد تبين أن الأدوات المنيعة للهيمنة والسيطرة المادية قد تهاوت أمام المعارضات غير المتوقعة تماما (كما في الهند، الجزائر، أنجولا، فيتنام، غينيا بيساو، إيران، موزمبيق). وبالتالي فإن الشكيل العام للتجربة الإنسانية يحتاج لأشكال أخرى.

وتعتبر خطوتنا الأولى سهلة نسبيا، لأنها كانت موجودة وواضحة دائما في تواريخ الفكر الراديكالي. ومرارا وتكرارا – في التقارير والمذكرات العارضة والتقارير الرسمية وملاحظات شهود العيان، وتواريخ كل الحقب الفكرية، من القرن ١٦ إلى الأحداث التي وقعت في مجلات الأسبوع الأخير أو الشهر الأخير – ظهرت وتكررت ملاحظة واحدة: غياب العنف الجماهيري.(١)

فقد لاحظ المراقبون الغربيون الغارقون في دهشتهم غالبا أنه في السلسلة الطويلة من المواجهات بين السود وقاهريهم، والتي أشرنا إلى بعضها فقط سلفا، نادرا ما كان السود يستخدمون مستوى العنف الذي كان الغربيون يرون أن الموقف كان يتطلبه.(٢) وعندما نتذكر أنه في العالم الجديد في القرن التاسع عشر كان الستون الذين قتلوا من البيض في التمرد الذي قاده نات تورنر **Nat Turner** كانوا يمثلون واحدة من أكبر العمليات في ذلك القرن، وعندما نتذكر أنه في الاضطرابات الضخمة للرقيق في ١٨٣١ في جامايكا – حيث كان ٣٠٠ ألف من الرقيق يعيشون تحت سيطرة ٣٠ ألفا فقط من البيض – تم الإبلاغ عن ١٤ إصابة فقط بين البيض. وعندما نقارن في ثورة بعد الأخرى بين حالات الانتقام الضخمة وغير المميزة غالبا من جانب طبقة السادة المتحضرين (استخدام الإرهاب) على نطاق واسع من العنف ضد الرقيق (وأحفادهم حاليا)، يظهر انطباع واحد على الأقل يتمثل في وجود نظام مشترك ومختلف تماما للأمور بين هذه الشعوب المنتهكة بوحشية.(٣)

فلماذا قام قائد التمرد الأسود "نات تـورنر" – وهـو رجـل عنيـف صراحة– البيض الفقراء؟ ولماذا اصطحب توسنت Toussaint أسرة "سـيده" الغائب إلى مكان آمن قبل أن ينضم إلى ثورة الرقيق؟ ولماذا "لم يـتم قتـل شخص أبيض واحد في تمرد الرقيق في فرجينيا الاسـتعمارية؟"[٤] ولمـاذا يدعي إدموند مورجان أو جيرالد مولين أن وحشية الرقيـق كانـت تـرتبط مباشرة باكتساب ثقافة الغير، "أي أنه كلما اقترب الرقيق من التشبه بالأحرار الفقراء الذين حلوا محلهم، أصبحوا أكثر خطورة؟"[٥] وكان الأمر كذلك فـي كل القرون. حيث قام أنصار شيليمبوي Chilembwe في ١٩١٥ بإجبار النساء والأطفال البيض على الانتقال إلى الأمان في مستوطنة استعمارية.[٦]

وبناء على هذا التقليد، وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وجد جيمس بتردد أن ديسالينس Dessalines مطلوب بسبب انتهاكاته لهذا التقليد. وقد كان ديسالينس عسكريا عبقريا حقا. حيث كان داهية، وماكرا، ولكنه أيضا كـان من الواجب أيضا "الحد" من كراهيته".[٧]

لا شك في أنه كان هناك عنف، ولكنه في هذا التقليد كان يتحول إلـى الداخل غالبا: أي من النشط ضد السلبي، أو كما كانت حالة مدعيـة النبـوة نونجواسي[*] في ١٨٥٦، حين كان المجتمع المحلي يقـف مناهـضا ضـد مظهره المادي. ولم يكن ذلك "وحشية" على نحو ما حاول الجنود المحترمون

(*) نونجواسي Nongqawuse: امرأة من قبائل الخوصيا (جنوب أفريقيا) ادعت النبوة في ثلاثينيـات القرن الثامن عشر وتوفيت في عام ١٨٩٨.. كانت نبوءة هذه المرأة تزعم أن أرواح الأجداد ستطرد البريطانيين من أرض الخوصيا إذا قتل الشعب ماشيته عن آخرها، وقد استجاب كثير من الخوصيا للنبوءة وقتلوا ماشيتهم التي استمرت من عام ١٨٥٦ حتـى عـام ١٨٥٧ ولـم تتحقق النبوءة، وحدث نقص شديد في الغذاء ومجاعة أدت إلى تناقص عدد سكان الإقليم مـن مائة ألف إلى أقل من ٣٠ ألفا. (المترجم)

في الجيوش الأوروبية أن يقنعوا بغرور جماهيرهم المحبوبة في الوطن في القرنين التاسع عشر والعشرين. ولم يكن ذلك أيضا بمثابة "قتل الأخ لأخيه fratricide" كما في المذهب الفرويدي الممتد الذي قدمه الباحث فانون.(٨) ونادرا ما كان التمرد الأسود يصل إلى "الإرهاب الثوري" المفترس كما في "الثورة الديمقراطية البرجوازية الدولية" التي اعترف بها جينوفيس في مذهبة عن الماركسية الجديدة.(٩)

ولم يكن هذا العنف مدفوعا بعامل خارجي، ولم يكن مفهوما كجزء من هجوم على نظام، أو كمشاركة في تجريد لهياكل وعلاقات قمعية. ولكنه كان بمثابة إعادة توحيد الوجود الحقيقي من أجل الوجود التاريخي؛ والحفاظ على الكلية الوجودية التي منحها نظام ما وراء الطبيعة الذي لم يسمح أبدا للملكية بأي من المعاني المادية، الفلسفية، الزمنية، القانونية، الاجتماعية أو النفسية.

وبهذا المعنى فإن النصر أو الهزيمة أمر داخلي. ومثل أولئك الذين لجأوا في خمسينيات القرن التاسع عشر إلى جبال وغابات كينيا ليصبحوا "جيش الأرض والحرية"، كانت القوة المادية أو "الموضوعية" للعدو غير مناسبة لأقدارهم. إذ إن مدافعه التي كانت تطلق قذائف معدنية، وسفن الدخان والغاز والنار والمرض، كانت كلها أقل ملاءمة من الكل المتكامل للشعب ذاته. وكان هذا هو ما يعنيه شيليمبوي عندما توسل إلى شعبه "بأن يشنوا هجومهم قبل الموت". وكان هذا يمثل كل ما كان كل الرهبان الدومينيك اليعاقبة Jakobos يقولونه في حفلات الشراب التي أقامها السود على مدار عشرات الأجيال: "لا نلوم إلا أنفسنا فقط على الهزيمة".(١٠) وكان هذا بمثابة وعي ثوري نتج من كل التجربة التاريخية للشعوب السوداء، وليس من مجرد التشكيلات الاجتماعية لرق الرأسمالية أو علاقات الإنتاج الاستعمارية فحسب.

وهكذا أصبح واضحا أنه بالنسبة للفترة من منتصف القـرن الـسادس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، كان ذلك بمثابة تقليد أفريقي وضـع أساس المقاومة الجماعية للسود ضد الرق والإمبريالية الاسـتعمارية. وهـذا تحديدا ما اكتشفه جيرالد مولين وكتبه حين درس السود في فرجينيا في القرن الثامن عشر. حيث توصل إلى:

"مهما كان المعنى الدقيق لامتلاك الأفريقي كـشخص، فـإن مرافقتـه أو شعوره الوجداني، وهو مجال أساسي في السلوك الإنساني، ظل كما هـو دون تغير. فكان الأفارقة الذين يفترضون أن المقاومة نشاط جماعي، يهربون مع رفاقهم والرقيق المولودين في أمريكا بما في ذلك المولاتو".[١١]

كما أوضح مولين هذه النقطة ثانية، ولكن بطريقة مختلفة وأكثر قربـا من موقفنا المباشر، حين ذهب يقول:

"كان الأفارقة "في الخارج" يستجيبون إلى وضـعهم الجديـد بمحاولـة الهرب في كثير من الأحيان، إما للعودة إلى أفريقيا أو لتكوين مـستوطنات للهاربين لإحياء حياتهم القديمة في العالم الجديد. ولم تكن هذه الأنشطة تقوم على خبرة الأفارقة بحياة المزارع، ولكنها كانت تقوم علـى رفـض كامـل لمصيرهم".[١٢]

وهكذا كانت المادة التي نسجت منها الأساطير بين الأفارقة. فعندما نجد إنسان أفريقيا لا يأكل الملح ("البحر المحيط"؟)، نعرف أن هناك استبقاء لقوة للهرب، والهرب الحقيقي للديار.[١٣] وكان كل هذا جزءا من تقليد كان يختلف كثيرا عما كان يتكون من الدوافع الفردية والتلقائية غالبا، والتي كانت تحمس الهارب والمخرب والسجين. وكان ذلك يدعم الانتحار بـسهولة أكبـر مـن

الهجوم، وكانت تياراته الفكرية والنفسية الاجتماعية والثقافية والتاريخية أقرب إلى الشخصية منها إلى السياسية. وعندما كان يفشل في تحقيق ذلك، كان الأمر يتحول إلى طقوس الأوبيا والفودو والميالية والبوكومانيا، وهي أديان المقهورين كما قال فيتوريو لانترناري Vittorio Lanternari.[١٤]

وعندما كان ذلك يتحقق، كان الأمر يتحول إلى مستوطنات للزنوج في الأدغال والمرتفعات في هاييتي. ولكن تركيزها كان دائما على تركيب العقل. وكان الجانب المعرفي يمنح التفوق لما وراء الطبيعة وليس للمادة.

لقد كان العقل وما وراء الطبيعة والفكر والوعي هي الأدوات التي اعتمد عليها الثائر الأسود فرانسوا ماكانديل François Mackandal في هاييتي في منتصف القرن الثامن عشر. حيث أقنع السود وسادتهم بإدراك كراهية الرق بشروط واضحة. وكانت التدابير الاعتيادية غير مناسبة، وكان الشيء الذي يمكن منع الرقيق من تحقيقه ماديا غير مهم. فقد كانت كراهيتهم بمثابة قوة مادية، وكانت قادرة على نزع الحياة من السادة الذين تمادوا كثيرا في استيراد طعامهم من فرنسا، وكانوا يفرغون الشحنات الثمينة بأيديهم.

وقد حدث نفس الشيء مع دانيال هايسنت. فقد استطاع جيشه الانقضاض على مدافع القوات الفرنسية "بشجاعة لا تعرف الخوف أو اهتمام بالقذائف"، وكانوا يحشرون أذرعهم في فوهات المدافع. لأنهم كانوا يعرفون ويؤمنون بأنه "إذا قتلوا فإنهم سوف يبعثون في أفريقيا".

وفي ذلك اليوم الأخير من مارس ١٧٩٢، "مات" ٢٠٠٠ منهم، مقابل ١٠٠ فقط من خصومهم، ولكنهم كان سعداء سعادة مزدوجة: فقد كسبوا المعركة، وحتى موتاهم كانوا أحرارا.[١٥] وكان بوكمان Boukman يمتلك نفس الحقيقة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى رومين Romaine.

وكانت ناني Nanny – التي سبقت أختها الهاييتية بست سنوات – متحمسة في ملاذها الجبلي في جامايكا بنفس ذلك الوعي. فقد عاشوا حسب شروطهم، وماتوا حسب شروطهم، وحصلوا على حريتهم حسب شروطهم. وكان ذلك مع رفاقهم في معتقداتهم الدينية الأفريقية. وكانت هذه هي الشروط التي جلبها هؤلاء المزارعون والفلاحون الأفارقة معهم إلى الأسر.

وكانت هذه هي أيضا الشروط الوحيدة التي كان يمكن تحقيق حريتهم من خلالها. وفي ريتشموند، فرجينيا، في صيف ١٨٠٠، لم يدرك جابريل هذه الرؤية جيدا، ولكن جورج سميث أدركها. حيث كان سميث يؤمن بأفريقيا ويعرف الشعب "الموجود خارجها"، وأنهم كانوا يتعاملون مع "السحرة والعرافين، ومن ثم [سيكونون] مفيدين في الجيوش لتحديد متى ستقع أية كارثة عليهم".(١٦) وفي ١٨٢٢، في تشارلستون، كارولينا الجنوبية، أدرك دنمارك فيسي Denmark Vesey ذلك، ولكن جولاه جاك Gullah Jack كان يعرف القليل عنه. وفي ١٨٣٠، حقق نات Nat العجوز ذلك فعليا، على نحو ما يخبرنا مولن بالقول:

"كان نات تورنر فقط قادرا على تخطي عالم المزرعة والمدينة، وذلك من خلال شحن خطته بعلامات من معتقدات ما وراء الطبيعة ومن لغة مقدسة وشعرية تدفع إلى العمل . وكان تورنو فقط هو الذي قاد تمردا "مستمرا".(١٧)

وكان لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. وهذا ما أظهره التقليد الراديكالي للسود. فقد كان هناك وعي متضمن فيما سماه أموس توتولا Amos Tutula بعد ذلك بعدة أجيال "أدغال الأشباح". وفي القرن العشرين، عندما

اكتسب المفكرون الراديكاليون السود عادات تفكيـــر جديـــدة فـــي مـــسايرة الأوضاع الجديدة لشعبهم، كما يفترض البعض، أصبحت مهمتهم تتمثل حقيقة في الكشف عن التقليد القديم. وليس مدهشا أنهم اكتشفوه أولا في تـــاريخهم، وأخيرا من حولهم في كل مكان.

وكان التراث الثوري للسود يتشكل ليصبح بمثابة الأساس الذي سيقفون عليه، وكان السود يعيدون اكتشاف ذلك التراث من تجربتهم التاريخية، والتي تقع تقريبا تحت الوطأة الفكرية وسلطة الرؤية الأوروبية الرسمية للماضي.

ومن هذا المنظور، استطاعوا مراجعة الوســـائل النظريـــة والفكريـــة والسياسية التي تناولت بها الراديكالية الغربية مـــشكلة التغيـــر الاجتمـــاعي الثوري. ويثير التراث الثوري للسود الشك في مدى تغلغل الرأسمالية وإعادة تشكيلها للحياة الاجتماعية، وفي قدرتها على خلق مجموعات جديدة تماما من التجارب الإنسانية المجردة تماما من الوعي التاريخي المتجسد في الثقافة. فقد منحتهم الرأسمالية سببا للبحث في سلطة النخبة الفكرية الراديكالية المـــستمدة عن طريق تحليلها الخاص من الطبقات الاجتماعية الغامضة لتكوين مظهـــر مناسب لسلطة البروليتاريا.

كما جذبت الرأسمالية رواد الحراك الثوري الأسود نحو المسار الحقيقي للجماهير الثورية، أي الدافع إلى صناعة التاريخ بشروطهم الخاصة. وأخيرا، أجبرهم التراث الثوري للسود على إعادة تقييم الطبيعة والأدوار التاريخيـــة للفكر والوعي. وعلى أي حال، كان الأمر يبدو بمثابة ظهور شعب أفريقـــي جديد، وليس مجرد رقيق، عندما عارض الرجال والنساء السود اســـترقاقهم. وقبل ظهور "المجانين والمتخصصين" بفترة طويلة، (كما يقول وول سوينكا

Wole Soyinka)، أي الـــديكتاتوريات العـــسكرية والبرجوازيـــات الـــصغيرة الاستعمارية الجديدة، والتي أصبحت تسيطر في عصرها علـــى مجتمعـــات السود في أفريقيا والكاريبي، كان التراث الثوري للسود قـــد حـــدد شـــروط تدميرهم، والمتمثل في: التطور المستمر للوعي الجماعي المدعم بالصراعات التاريخية من أجل التحرر، والمدفوع بالإحساس المشترك بالالتزام بالحفـــاظ على الوجود الجماعي، أي الكل الوجودي.

الجزء الثالث

راديكالية السود والنظرية الماركسية

الفصل الثامن

تكوين النخبة المثقفة

يعتبر معظم المراقبين أن ظهور نخبة ثورية عالمية مثقفة من السود هي ظاهرة فريدة في القرن العشرين، ولا تقل أهمية عن الحراك الثوري الأسود ذاته. حيث ساهم عدد من الأسباب التي يسهل تحديدها في هذا الافتراض. وكما رأينا، يتمثل أحدها في أن تاريخ الشعوب السوداء أعيدت صياغته بصورة متسقة بطرق ساذجة ومنحرفة من قبل دارسين غربيين. وبصفة خاصة، فإن ذاكرة تمرد السود على الرق والأشكال الأخرى من القهر كانت تشوه وتغيب بصورة منهجية لصالح تأريخ عنصري يعمل فقط لصالح الطبقة الحاكمة الأوربية. وكانت النتيجة النهائية تتمثل في تجريد السود من الإنسانية. وإنكار الاستجابة المحلية للجنس البشري على الشعوب الأفريقية.

وكان يمكن اعتبار هذا التشويه مجرد مسألة بسيطة، لو كان مجرد مسألة فجوة في التسجيل، ولكن المجال كان ممتلئا بهراء أصبح مصدقا بسبب تقاليد الفكر العنصري. وبالنسبة لغير الواعين، لم يكن هناك شيء خطأ. وكانت الفصول السابقة مخصصة لتناول هذه المشكلة المعقدة، وإجراء محاولة من أجل تحقيق وعي أكبر بماضي الشعوب الأفريقية.

ومع ذلك، يتمثل الأساس الثاني لسوء فهم الأسس التي تطور عليها الثوريون السود في مجموعة مختلفة من التقاليد في التأريخ الغربي. حيث كانت تقاليد معينة تتعلق بوضع أطر الأحداث، خاصة بين الدارسين والأيديولوجيين المعتادين على افتراض وجود مراحل متميزة نوعيا من التطور الإنساني، تميل إلى تهميش أو تقليل أهمية تفسيرات سابقة قائمة منذ فترات طويلة جدا.

ونظرا لتورطهم في التقاليد التاريخية التي تتباهى بحقب إليزابيث وإدوارد، ومركبات جيفرسون أو جاكسون، وغير ذلك، فقد أصبحت العلامات المميزة الفردية نوعا ما والمصطنعة غالبا بمثابة القاعدة لإرساء سياق النشاط الإنساني. ويبدو أن تقسيمات الفترات التاريخية كانت تمثل أشياء سهلة جدا يمكن التعرف عليها وتحديدها وتوزيعها وإعلانها. وهكذا فإنه بالنسبة لهذه النخب كان القرن العشرون يبدو نصا في حد ذاته ينتظر القراءة. وفي لحظة ما، سوف نستكشف كيف كان هذا بمثابة إعداد سيئ لوضع المفكرين الثوريين السود في موقعهم الصحيح.

وأخيرا، كان هناك المشهد المسيطر للراديكالية والثورة الأوروبية، ومن الواضح أنه بدأ بالحرب العالمية الأولى. وبغض النظر عن التراث الفكري أو النظري، الليبرالي أو غيره، يبدو للبعض أن هذه الأحداث كانت مرتبطة بالقوى المباشرة التي استولت على النظام الرأسمالي القديم في القرن العشرين. شهد ذلك القرن بزوغ أسماء ثوار كبار من أمثال زاباتا(*)، لينين، تروتسكي، غاندي، ماو، فيدل، لومومبا، هوشي منه، كابرال (وغيرهم كثر).

(*) إيمليانو زاباتا (1879-1919) Emiliano Zapata مصلح الزراعي وقائد جيش تحرير الجنوب خلال الثورة المكسيكية. حملت اسمه حركة زاباتيستا Zapatista (جيش زاباتستا للتحرر الوطني (Ejército Zapatista de Liberación Nacional, EZLN) (اختصارا EZLN)، وهي جماعة يسارية ثورية مقرها تشياباس Chiapas، الولاية الواقعة في أقصى جنوب المكسيك.

وحمل هؤلاء الثوار في نفس الوقت أكثر مما توقعه ماركس وإنجلـز فـي القرن التاسع عشر. وعلى أي حال، كان من الواضح جدا لدى هؤلاء الثوار أن الفكر الثوري للسود وجد بداياته في الولايات المتحدة. ولم يكـن هنـاك سبب قوي للبحث في مكان آخر. ففي ١٩٦٦، أكد المؤرخ الراديكالي إيوجين جينوفيز كل هذه الفرضيات الثلاث في هجومه على فكرة التقليد الراديكـالي للسود في أمريكا:

"كان الراديكاليون الأمريكيون محاصرين لفترة طويلة بالفكرة الـشريرة المتمثلة في أن الجماهير تعتبر طيبة وثورية في نفس الوقـت بالـضرورة... وتسيطر هذه الرؤية الآن على حركة تحرر السود، التي كان يغـذيها لعقـود المؤرخون الراديكاليون البيض الذين فتحوا المسار الأيـديولوجي لـزملائهم الليبراليين في هذا المجال. وقد أصبح من قبيل تدنيس المقدسـات - أو علـى الأقل من شوفينية البيض - اقتراح أن الرق كان نظاما اجتماعيا عـاش فيـه السود والبيض في تناغم وعداوة أيضا، وأنه لا توجد أدلة كثير على المعارضة الشاملة المنظمة للنظام، وأن السود لم يؤسسوا تقليدا ثوريا علـى قـدر مـن الأهمية، وأن المشكلة الرئيسة تتمثل في اكتشاف أسباب انتشار التوافق، وربما الآثار طويلة الأجل لكل من التوافق والمقاومة التي حدثت فعلا".(١)

وهكذا كانت مقاومة الرق ضعيفة؛ في ظل "الغياب أو الضعف الـشديد لمثل هذا التقليد"، وكانت قومية السود "كحركة" من ظواهر القرن العـشرين؛ وكان الاهتمام الممنوح للسياسة الثورية لجماهير السود ينبع مـن راديكاليـة "البيض". وسوف نستكشف في الفصل الحالي بالتفصيل هذه الفكرة الأخيرة: أي العلاقة المفترضة بين راديكالية السود والحركة الراديكالية الأوروبيـة. فهذه أهم الافتراضات الثلاثة المتعلقة بسوء فهم راديكالية السود. ومع ذلـك،

يجب الاهتمام ببعض تقاليد البناء التاريخي. فأنا أعتقد أن هذا سيثبت أنه خطوة أولية في جهدنا للتعرف على الاستمرارية الموجودة بين تمردات السود في القرون السابقة والتفصيلات الأولى لنظرية السود الثورية العالمية في القرن الحالي.

الرأسمالية، والإمبريالية والطبقات الوسطى للسود

في الفصل السادس، ونظرا لأننا كنا نكرر أحداثا تبلورت أشكالها قبل ما لا يقل عن مائة سنة تقريبا، فإن روايتنا التاريخية كانت بمثابة سلم مناسب، في ضوء التقليد الغربي للقرون كأسلوب لتحديد الفترات. ومع ذلك، فإن العمليات الاجتماعية، أي التطورات التاريخية، لا تمثل منتجات لهذه الفترات الموزعة بالتساوي، ولا تقع في إطارها بصورة معنوية. وهناك مثال مهم، يتمثل في المؤرخ الفرنسي فيرناند براوديل، الذي وضح هذه النقطة بجعل القرن السادس عشر - أي اللحظة التاريخية لظهور العالم الرأسمالي الحديث في الغرب - أطول كثيرا من حده الرسمي المتمثل في مائة سنة.(٢)

وبأسلوب مختلف، فإن الثوري الروسي ليون تروتسكي، ولمجرد أنه شخصية مناسبة لموضوعنا هنا، واجه هذه الافتراضات الشكلية مبكرا باعتبارها بمثابة أشكال من عقيدة الألفية المختصرة أو الإيمان بالعصر الألفي السعيد.(٣) فقد أدرك براودل أن القرن يمثل أحيانا فترة قصيرة جدا بالنسبة للعمليات التاريخية؛ وكان تروتسكي يتسلى باقتراح أن النشاط البشري يمكن أن ينتهي أو يبدأ مع بدايات القرون ونهاياته. حيث تتمثل النقطة الجوهرية هنا في أن تحديد الفترات الزمنية يمثل مجرد نوع من تحديد الأحداث.

ومع ذلك، فإن فائدتها المحدودة تضيع غالبا عندما ننتقل من "تنظيم" الأحداث، إلى "نظام" الأحداث، أي ترتيب أهميتها ومعانيها وعلاقاتها. فنادرا ما تتوافق الزيادات الزمنية المحيطة بمقياس مجرد مع إيقاع النشاط البشري. ومن الضروري أن نضع هذا في أذهاننا عندما نبحث عن التوافق مع المنظرين السود الذين ظهرت كتاباتهم وأفكارهم أساسا في القرن العشرين. حيث بدأت هذه الحقبة مع نهايات الرق. ويمكن أن يقال إنهم كانوا أبناء الرقيق. أي إن ظاهرة الرق شكلتهم وعلمتهم. وفي خضم هذه النهاية، وخاصة في أعقاب القوى الاجتماعية التي فرضت مواقف جديدة ومختلفة على السود وغيرهم من الذين قدر لهم المشاركة في القوى العاملة، اكتشف هؤلاء المنظرون موقعهم الاجتماعي والفكري المشترك. فقد كان القرن العشرون بمثابة محطة سيرتهم الذاتية عموما، ولكنه كان مجرد موقع في منطقة بحثهم.

وفي النظام العالمي فيما بعد الرق، والذي كان يمثل سياقهم الجديد، لم يستطع الأيديولوجيون السود الذين عملوا في القرن العشرين أن يكونوا أكثر من مجرد غرباء. وكان هذا قدرهم في أي مكان في عالم السود الذي شكلوه. وربما كان جيمس يتحدث إليهم جميعا عندما كتب عن نهاية أيام دراسته: "لم يكن هناك عالم أعتبر نفسي الأقل ملاءمة له من العالم الذي سأدخله الآن".[٤]

ففي أفريقيا وجزر الهند الغربية، كانت الإمبراطوريات والمستعمرات الأوروبية إما يعاد تشكيلها بصورة جوهرية بسبب مقتضيات الدولة والتجارة، أو تتكاثر في نقاط كانت أبعد منالا من التوسع الرأسمالي سابقا.[٥] وفي الولايات المتحدة والكاريبي، لم تعد الشعوب السوداء تستقر أو تنتظم في نظم

الرق بصورة مناسبة. ولم يعد السود في العالم الجديد يستطيعون تقبل أن يشير إليهم الفضوليون عرضا بأنهم رقيق، أو أحرار على هامش مثل هذه النظم. ومن المؤكد أن مجتمعاتهم وثقافاتهم الفرعية التي اعتمدت عليها هذه النخب كانت تصبح أقل أصالة بصورة متزايدة.

إذ إن الأنماط الاجتماعية، وعادات التفكير، واللغة، والتقاليد التي تجمدت في مجتمعات العمال في نظم الرقيق في نصف الكرة الغربي - على الرغم من أنها كانت محافظة أساسا في العديد من الجوانب - لم تعد منيعة أمام تغلغل الثقافات الغربية كما كانت سلفا في ظروفها "المحلية". وذلك لأن جماهير الشعوب السوداء في العالم الجديد وفي ديار أسلافهم - كمزارعين، فلاحين، وعمال سخرة، وعمال زراعيين، وعمال مهاجرين، وخدم منازل، وعمال صناعيين مهرة وشبه مهرة وغير مهرة، وكاحتياطي عمالة - أصبحت الآن تشغل مواقع متعددة ومنتشرة جدا في النظام الاقتصادي.

وكان الحراك والتنظيم والتكيف الجديد لعمالة السود يعني أن الثقافة الفرعية التي كانت محصورة فيها تاريخيا كانت تتعرض بصورة مستمرة لاقتحام عناصر مادية وفكرية من جوانب النظام الاجتماعي المحدد اقتصاديا. وعلى الرغم من أنه يمكن القول صدقا إن الكثير من هذا التغلغل كان عرضيا في البداية، فإن بعضه لم يكن كذلك صراحة. وكانت اللغة - أي لغات ووعي الحكم والطبقات الحاكمة - مثالا على الحالة الثانية. وكان لهذه التراكمات آثار كبيرة على الأيديولوجيين في عالم السود.

وإذا تذكرنا، فقد أدرك ماركس وإنجلز فكرة أن برجوازية أوروبا الغربية ستنجح في تحويل كل أمم العالم إلى مجتمعات برجوازية - أي إلى

مواقع تختصر إلى نظم اجتماعية تتكون من الطبقات الحاكمة والبروليتياريا، كما أعلن ماركس في تصديره للمجلد الأول من كتاب"رأس المال".

ومع ذلك، ومن الناحية التاريخية، فإن التوسع الرأسمالي حقق فقط أقرب علاقة بالتقسيمات الاجتماعية المتوقعة عند ماركس. ففي تلك الأجزاء من العالم التي واجهت فيها الطبقات الحاكمة المحلية الغنية بناة الإمبراطوريات، كانت الصدامات حتمية. ولكن النتائج لم تكن بنفس الحتمية: حيث انهارت واختفت بعض النخب المحلية، ولكن البعض الآخر استمر. حيث حافظ بعض الذين قادوا دفاعات منيعة ضد الإمبريالية على الكثير من ثقافاتهم المستقلة، وقصروا التأثيرات الأجنبية على المبادلات العادية التي تتطلبها الإدارة الاستعمارية. ومع ذلك، أصبح العديد منهم (وذلك داخل الإمبراطورية البريطانية التي تقدم أفضل الأمثلة) جزءًا من جهاز "الحكم غير المباشر"، وهو النظام الذي عرض أساسه المنطقي بصورة دقيقة أحد مهندسيه، وهو الأنثروبولوجي البريطاني مارجيري بيرهام Margery Berham الذي يقول:

"حين نفرض حكما "غير مباشر" نجد أن الصعوبة الأساسية تتمثل في أن مظاهر مختلفة من هذا الحكم- مثل التعليم، حيازة الأرض، الإنتاج الاقتصادي، القانون – ستظهر صعوبة تطبيقها في كل مناقشاتنا التالية. وينبع ذلك من أن ثمة فجوة كبيرة بين ثقافة الحكام وثقافة المحكومين (وأنا أتكلم هنا عن أفريقيا تحديدا). ففي الإدارة المختصرة إلى أبسط صورها، يعني هذا أن معظم الشعب لا يفهم ما نريد منه أن يفعله، أو إذا فهموه فإنهم لا يريدون القيام به... ونحن نسعى إلى تعليم قادة هذه الشعوب في مجالات سياستنا،

على أمل أنهم سوف ينشرون بسلطتهم الطبيعية هذا التعليم سريعا ويظهرون الطاعة اللازمة".(٦)

وكان تعاون النخب المحلية كافيا للسلطات الإمبريالية والاستعمارية لفترة. وعلى هوامش النظام العالمي، حيث ظهرت أشكال العمل القسري، وجود ملاك المزارع قرب العمال الزراعيين، والعمال غير المهرة قرب العمال شبه المهرة، وكانت احتياطيات العمالة ترتبط بصورة مباشرة وغير مباشرة بأولئك الذين استوعبتهم الأدوات السياسية للسلطة: الجيوش والميليشيات والشرطة المحلية. ومع ذلك، وبحلول العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت القوى الاجتماعية - التي ضعفت بسبب الغزو الاستعماري والحروب والاحتلال والإدارة والاستقطابات المشتركة - في طريقها إلى النضوج.

واستقرت البرجوازية الصغيرة المحلية في الدائرة الوسطى في هذه المجتمعات، محصورة بين الطبقات العاملة من تحتها، ومشغلي رأس المال ومسئولي الدولة الأجانب والمحليين من فوقها. وكانت أصولهم الاجتماعية معقدة ومتشابكة. وكان أحد أسسها يتمثل في السكان "المولاتو" في مجتمعات ومستعمرات الرقيق السابقة. وكانت هذه الطبقة "البنية" كثيرا ما تمثل القضية الطبيعية للنظم السلالية، حيث كانت امتيازات المكانة والتعليم تمنح أحيانا من جانب الآباء (أو الأمهات) البيض. وفي أمثلة أخرى، كان ذلك يحدث نتيجة إجراءات سياسية مقصودة. وقد عرض أوليفر كوكس Oliver Cox القاعدة العامة في دراسته الضخمة "الطائفة والطبقة والسلالة".

"عندما يكون البيض حكاما مؤقتين أساسا، فإن أعدادهم تكون قليلة نسبيا. حيث يتمثل "الوطن" المعتاد في أوربا أو أمريكا، ونادرا ما يغرسون جذورهم في المنطقة. وهنا يقل الأمل في تطوير مجتمع أبيض كبير. حيث لا تتمثل حاجة الإنسان الأبيض الأساسية في الوطن، بل في وجود شعب قانع قابل للاستغلال لتوفير الموارد للدولة. وتتبنى هذه الطبقة الحاكمة سياسة "التعاون"؛ ومع بقاء الأشياء الأخرى على ما هي عليه، توزع المنح على المولاتو على أساس درجة بياضهم الظاهرة بين الملونين. حيث تصبح درجات اللون محددا للمكانة في مدى طبقي اجتماعي متصل، يحتل فيه البيض قمته... وكلما كانت البشرة أفتح، زادت الفرص الاقتصادية والاجتماعية".(٧)

وهناك أساس آخر للبرجوازية الصغيرة يتمثل في الملكية. حيث استطاع بعض السود - ولكن من المؤكد أنه بدرجة أقل مما حدث مع ما يسميه المستعمرون الفرنسيون "الطبقة البيضاء الصغيرة" - تحويل مهارات خاصة ومواقع تقليدية ومعارف إلى ممتلكات (بما في ذلك الرقيق خلال حقبة الرق). ومع إلغاء الرق، تحول بعض رأس المال الذي كان يسيطر عليه السود إلى مهارات مهنية في الأجيال التالية.(٨) ومع ذلك، كثيرا ما كانت الطبقات الوسطى المحلية تتحول مباشرة إلى موظفين في الدولة - موظفين مدنيين، صغارا ومتوسطين - ووكلاء عن أصحاب الأراضي أو رأس المال الصناعي والتجاري (المتغيب غالبا).(٩) ومن المؤكد أنه كانت هناك مسارات أخرى تؤدي إلى امتيازات هذه الطبقة، بعضها أقل "شرعية" أو تقليدية.(١٠)

ومع ذلك، وبالنسبة للمديرين الاستعماريين، كانت أكثر الأصول إثـارة للمشاكل للبرجوازية الصغيرة المحلية تتمثل في مدارس التبشير. فمنذ القرن الخامس عشر وما قبله، كانت كل البعثات التبشيرية تعمل كجزء من مبـرر وجود التطلعات الاستعمارية والإمبريالية. ولكن التطابق بين أغراض العمل التبشيري وأهداف الإمبريالية لم يكن حقيقيا أبدا. إذ إن المبـشرين أنفـسهم في حالة الإمبريالية الإنجليزية كانوا يأتون غالبا من الشعوب التي خـضعت سابقا للاستعمار: أي من أسكتلندا وأيرلندا وويلز.(١١)

وغالبا ما كان جنود المسيح هؤلاء مترددين بشأن السلطة الاستعمارية. وكانت الصراعات المحتملة بين العقيدة والمصالح الإمبريالية مثيرة للمشاكل بنفس القدر أيضا. فخلال تكوين نظم الرقيق وما بعدها، كان تعلـيم مبـادئ المعتقدات المسيحية يعتمد في إحدى فرضياته المتمثلـة فـي التعامـل مـع البربري أو الوثني وما يمكن تقديمه لهما.

وهكذا كان من البديهي أن إثبات نجاح المبشر كان يتمثل فـي تـشكيل مسيحيين متحضرين - أي المحليين الذين تكون ألفتهم مع الثقافات والعادات الأوروبية (أو الأوروبية الأمريكية) وثيقة مثل تجربتهم مع المسيح.(١٢) ومع ذلك، كان هذا يعني أن المبشرين المسيحيين كانوا يـشعرون فـي بعـض الحالات بالتردد تجاه مثل هذه السياسات الاستعمارية باعتبارها "حكما غيـر مباشر"، خاصة "عندما [كانت] تتضمن تقوية الأرواحية(*) أو الإسلام"، كمـا يقول فيكتور موراي.(١٣)

(*) الأرواحية Animism (من اللاتينية بمعنى "الروح، الحياة) عبارة عن الاعتقاد الديني بأن الظواهر الطبيعية، بما في ذلك الحيوانات والنباتات وحتى الجمادات أحيانا، لها جوهر روحي. وبالتحديد، تستخدم الأرواحية في أنثروبولوجيا الأديان كمصطلح لأديان الشعوب القبلية المحليـة، خاصـة قبل تطور الحضارة والأديان المنظمة. تشمل الأرواحية الاعتقاد بأنه ليس هناك فصل بين العالم الروحي أو المادي (الطبيعي)، وأن الأرواح لا توجد في البشر وحسب، ولكنها توجـد أيـضا في كل الحيوانات والنباتات والصخور والملامح الجغرافية مثل الجبال والأنهـار أو الكيانـات الأخرى في البيئة الطبيعية. بل إن الأرواحية يمكن أن تنسب الروح إلى مفاهيم مجـردة مثـل الكلمات أو الأسماء الحقيقية أو الاستعارات في الأساطير. (المترجم)

والأهم من ذلك، كان يتمثل في المواقف التي طورهـــا الاســـتعماريون تجاه أنشطة البعثات التبشيرية. فقد كان تكوين الأوروبيين السود يمثل طموحا مفرطا بالنسبة لهم. وفي ١٩٣٨، قال آرثر مايهيو Arthur Mayhew في جلسة صيفية بجامعة أكسفورد بأنه "قبل الحرب العظمى كان التعليم "أدبيـــا" بـــلا شك". ثم قال بعد ذلك، بقناعة، إنه "من ١٩٢٥ فصاعدا كان التركيز منصبا على التدريب المهني".[١٤] وبعد ذلك بأربعين سنة، فند بينيلوب هيثرنجتـــون Penelope Hetherington اعتراضات مايهيو:

"في الماضي كان المبشرون يعتبرون أنفسهم ناجحين إذا أنتج عملهـــم في مجال التعليم إنجليزا سود، أي أفارقة يبدو أنهم استوعبوا الثقافة الغربية. ولكن هؤلاء الأفارقة المتعلمين في الإرساليات كانوا مكروهين لدى الكثيـــر من الإداريين وغيرهم. فقد كانوا يتسمون "بالوقاحة" ويطـــالبون بالمـــساواة والحقوق السياسية".[١٥]

وهكذا أصبح من الضروري ترشيد الـــسياسات الاســـتعمارية وتعلـــيم الإرساليات. وكان تكوين النخب المحلية يجب أن يصبح أكثر انتقائية. ففـــي البداية، كان يجب أن يوجد فريق مناسب من الموظفين وعدد محـــدود مـــن المهنيين، وليس المثقفين القوميين، في جزر الهند الغربية، وهكذا وضـــعت السياسة التعليمية بصفة عامة عند نهاية القرن التاسع عشر. ففـــي أفريقيـــا، حيث كان عدد السكان كبيرا ومدارس الإرساليات قليلا نسبيا، بـــدأت نفـــس السياسة في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى،[١٦] ثـــم أصـــبحت شائعة بحلول ثلاثينيات القرن العشرين. وفي ١٩٣٣، تضمن "تقرير الشئون الأفريقية " ما يلي:

"كان هناك أمران مهمان جدا وضعا في الحسبان عند وضع إطار السياسة التعليمية في نيجيريا. حيث كان الأمر الأول يتمثل في نشر تعليم سليم على أوسع نطاق ممكن بين الجماهير من أجل إنتاج شعب متعلم قادر على المشاركة بكفاءة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد بمرور الوقت. وكان الأمر الثاني يتمثل في تدريب عدد من الرجال والنساء بأسرع ما يمكن من أجل أداء بعض المهام في العمل الحكومي والمشروعات الخاصة، مما يتطلب استيراد الأوروبيين لتحقيق الأثر الأول للحضارة الأوروبية".[١٧]

ومع ذلك، أصبح واضحا سريعا أن الحكومات الاستعمارية قد تحركت متأخرا جدا. حيث كانت "قومية النخبة" - وهي أحد التعبيرات السياسية الأولى عن البرجوازية الصغيرة للسود - تدفع مكونات الطبقة إلى تقليد الراديكالية الأقدم والأكثر وضوحا. ويقول إليوت سكنر Illiot Skinner:

"بحلول عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، انتشر الصراع والتفكك في كل جوانب الحياة تقريبا في أفريقيا الاستعمارية. حيث ظهرت مجموعة من الأفارقة الذين اكتسبوا ثقافات المستعمرين واعتبروا أنفسهم بريطانيين وفرنسيين وبرتغاليين. وتعلموا أن يعتبروا أوروبا وطنا، وتبنوا الملابس والخطاب والسلوكيات الأوروبية".[١٨]

وكذلك كان الحال أيضا في الكاريبي وأمريكا (حيث كان يمكن إرجاع ظهور طبقة وسطى بين السود إلى القرن الثامن عشر).[١٩] وحتى في هاييتي المستقلة - حيث تفككت الجيوش الثورية للسود والمولاتو بحلول بدايات القرن التاسع عشر إلى فصائل سلالية وطبقية - ظهرت قومية برجوازية صغيرة. وتعرض قطاع تصدير السكر في اقتصاد هاييتي للتدمير خلال الحروب الثورية، حتى أصبح غير قادر على التنافس مع الصادرات الكوبية والهندية في النظام العالمي.

وعلى الرغم من أن سلسلة من الاضطرابات السياسية من أسفل قسمت الأراضي بين كبار ملاك الأراضي (السود والمولاتو) والمــزارعين، فـإن معظم المزارعين كانوا بلا أراض وتحولوا إلى متمردين. وأصبحت الأنشطة التجارية والسيطرة على إدارة الدولة بمثابة مجالات للصراع بين مجموعات السود والمولاتو داخل الطبقة الحاكمة. ويؤكد أليكس دوبوي أنه في خـضم هذا الصراع "لجأ فصيل السود وحلفاؤه الذين يملكون الأراضـي أساسـا - بسبب إحباطهم من محاولة المولاتو السيطرة على الدولة - إلى أيديولوجيـة قومية للسود، مدعين أنهم الممثلون الوحيدون للشعب بسبب لـون بـشرتهم المشترك".[٢٠]

وخلال النصف الثاني من القرن، كان لا بد من تفـصيل أيديولوجيـة راديكالية للسود على أيدي المارقين من نخبة البرجوازية الصغيرة للـسود. حيث نضجت فعلا في أعمال جان مارس، جورجس سـيلفين، وكـارلوس ديمبروسيس مارتنز.[٢١] وفي كل قطاع من عـالم الـسود، كانـت جدليـة الاستغلال تهز الأوضاع من جذورها الراسخة. وفي وقت من الأوقات، ومع تزايد ضغوط انشقاقات وتناقضات السيطرة الغربية، أصبح وجودها وهدفها واضحا بصورة صارخة.

الحضارة الغربية والنخبة الفكرية السوداء المارقة

أصبحت "الطبقات الوسطى" للسود - في المنـاطق الناطقـة بالإنجليزيـة والفرنسية واللاتينية في نصفي الكرة الأرضية - تتحدد أساسا من خلال الثقافـة واللغة، أي قدرتها على استيعاب ثقافات طبقاتها الحاكمة وقراءة اللغات الأوروبيـة ونطقها. وأصبح الاجتثاث والاغتراب الاجتماعي والثقافي يمثل معـايير

"التحضر" والولاء والفائدة. وبالطبع كانت تشترك مع جماهير السود في معرفة أن هذه المظاهر الخادعة كانت بمثابة الحيل التاريخية لبناء السلطة والطائفة والسلالة والطبقة، وأن التكيف معها كان علامة على التميز والمكانة.

وكوسيط بين عمالة السود والنظام العالمي في أفريقيا والكاريبي وأمريكا الشمالية، وبين العمال السود والنسيج الاجتماعي المنسوج بأشكال الإنتاج التي تحددها الرأسمالية، كانت مهاراتهم جوهرية، وكانت البساطة التي يحصلون عليها مجرد أمر ظاهري فقط. ففي جزر الهند الغربية كما في أفريقيا، كانت نظم التعليم الاستعمارية تعلم هذه المكونات المكملة للإمبريالية.[٢٢] وفي أمريكا الشمالية، في العقود التي أعقبت الحرب الأهلية، ظهرت أدوات مماثلة في الولايات الجنوبية. إذ يقول جيمس عن قطاعه من الشتات الأفريقي:

"في كل جزر الهند الغربية، وفي تلك الأيام من بداية القرن العشرين وطوال العشرين أو الثلاثين سنة التالية، كانت توجد دائما مدرسة ثانوية.... وفي المدرسة التي كنت أذهب إليها، كان هناك تسعة من المعلمين، وكان ثمانية منهم إما من أكسفورد أو كمبريدج، وكان المعلم الذي ليس كذلك معلم الرسم. حسنا، فأنت لا تحتاج إلى الذهاب إلى أكسفورد أو كمبريدج حتى تصبح معلم رسم".[٢٣]

وبالنسبة لتلك الطبقات الوسطى من السود، كما كان الحال مع الغالبية العظمى من السود، لم تكن الطبقة السائدة والبيض بصفة عامة قريبين بأية صورة مباشرة. وفي الكاريبي وأفريقيا بصفة عامة، كانت أعداد البيض صغيرة نسبيا. وفي أمريكا اللاتينية والشمالية، حيث كان السكان الأوروبيون

مسيطرين إحصائيا، كان وجود البيض بالنسبة لمعظم السود يمثل وجودا بعيدا ومخيفا وقمعيا. حيث رسم البيض ملامح المشهد، وحدود حياة السود ومعيشتهم وعاداتهم ومظهرهم، وتفاصيل النظام القمعي الفاشل للتنظيم الاجتماعي والروحي بطريقة ما. وبالنسبة للأيديولوجيين السود الراديكاليين - الذين كانوا محاطين تماما تقريبا بالبرجوازية الصغيرة المحلية - لم يكن الأمر حتميا فحسب، بل كان إجباريا أيضا، أن يكتسبوا أولا موقف الحلفاء الداخليين. وهناك عدد من الكتاب يؤيد ذلك بوضوح، وهم محل اهتمام من جانبنا.

فقد جاء من ترينيداد كل من جورج بادمور (الذي ولد باسم مالكولم إيفان ميريديث نيرس) وجيمس، وأوليفر كوكس. حيث كان بادمور وجيمس ابني مديري مدرستين.[٢٤] وكان إيريك ويليامز، الذي كان أحد الأمثلة الشهيرة على الطلاب المسرفين، ناتجا عن نفس البرجوازية الصغيرة للسود- في مرتبة أقل قليلا.[٢٥] وكان أوليفر كروموبل كوكس، كما يوضح اسمه، ينحدر من أسرة من الطبقة الوسطى يبدو أنها حملت سلطة "سادتها الأفضل حالا" الاستعماريين بمعناها الحرفي.[٢٦] وفي أمريكا الشمالية، تربى دو بويز وسط الأطفال البيض الأكثر ثراء في جريت بارنجتون، ماساشوستس.

وكما كان يتذكر طفولته في إحدى سيره الذاتية - التي تحمل عنوان "دارك ووتر Darkwater" - يقول دو بويز:

مرت فترة قبل أن يكتشف أنه كان "ملونا"، وأنه في ذلك الوقت كان قد استوعب سلفا الاتجاهات المتعالية نوعا لدى أقرانه تجاه الأسر المهاجرة الأوروبية الجنوبية القليلة التي ظهرت في جريت بارنجتون.[٢٧]

وكان ريتشارد رايت فقط – من بين المفكرين السود الراديكاليين الذين سنركز عليهم – هو الذي ينحدر من الطبقة الفرعية للسود. ولكن حتى هنا، فقد كان ابن مزارع مسيسيبي متجول نوعا ما وعاملا عاديا، ولكنه كان أيضا سليل أسرة تتمتع بمظاهر الطبقة الوسطى من جانب أمه. وهكذا فإنه باستثناء رايت أيضا، كانوا جميعا قد بدأوا حياتهم العملية محكوما عليهم بمسارات مهنية. وكانت طفولتهم تحمل علامات خاصة بالطبقة الوسطى للسود – أي افتراض أن كونهم من السود كان طارئا على مكاناتهم الاجتماعية المتوقعة. حيث انطلقوا إلى مرحلة النضوج، كما أعلن رايت عن نفسه خلال إحدى لحظات الاغتراب الحاد، كممثلين "للغرب".(٢٩) وفي الواقع، فقد أثبت هذا أنه مصدر دوافعهم المناقضة، وقوتهم وضعفهم.

وبالطبع كانت الكلمات من بين أهم الأدوات الحيوية للنخبة الثقافية الراديكالية. حيث كانت الكلمات وسيلتهم لتحديد مواقفهم والتعبير عن مرادهم وأدوات اكتشافهم وظهورهم. فقد استطاعوا بالكلمات تكوين معانٍ جديدة، وبدائل جديدة، وحقائق جديدة لأنفسهم وللآخرين. ولكن اللغة – أي الثقافة الغربية – كانت أكثر من مجرد منتج ساكن يستخدم أو لا يستخدم حسب حاجة النخبة. فقد استقر مكانها في حياتهم منذ فترة طويلة قبل أن يجدوا وسيلة للسيطرة عليها. ففي الواقع، كانوا هم أنفسهم يتحددون جزئيا بهذه اللغات المستخدمة في الحكم والتجارة. ففي وصف فرانتس فانون الشعري، كانوا بمثابة بشرة سوداء تحت أقنعة بيضاء. وقد صور جيمس هذا التناقض بكفاءة:

"كنت أتحدث أنا وآمي سيزير Aime Cesaire يوما ما وسألته: "من أين أنت؟" فقال "حسنا لقد نشأت في المارتنيك [وذهبت إلى] مدرسة فيكتور شولشر".... فسألته: "ماذا فعلت هناك؟" فأخبرني: "الأدب اللاتيني واليوناني والفرنسي". فقلت: "ثم ماذا؟" فقال: ذهبت إلى فرنسا، والتحقت بمدرسة المعلمين العليا". فقلت "نعم، أنا أعرف هذه المدرسة. فهي شهيرة بتخريج الدارسين والشيوعيين". (وكان سيزير واحدا من الأوائل في كل قسم: فقد كان واحدا من أفضل الدارسين، وكان شيوعيا مشهورا). وقلت: "ماذا فعلت هناك؟" فقال: "الأدب اللاتيني واليوناني والفرنسي". فقلت: "وإلى أين ذهبت من هناك؟" فقال: "ذهبت إلى السوربون". فقلت "أفترض أنك تعلمت هناك الأدب اللاتيني واليوناني والفرنسي؟" فقال: "تماما". ثم قال: "ولكن هناك شيئا آخر". فسألت: "ما هو؟" فقال: "عدت لأدرس في المارتنيك، وذهبت إلى مدرسة فيكتور شولشر، حيث درست هناك الأدب اللاتيني واليوناني والفرنسي". وهكذا فإنه عندما كتب سيزير هجومه الكبير على الحضارة الغربية، "العودة إلى وطني"، وقال إن الزنوجة كانت بيانا لبعض مفاهيم الحضارة التي لدى الشعوب السوداء، والتي ستكون مهمة في أي تطور للحضارة بعيدا عن المجتمع الرأسمالي، فقد كان قادرا على أن يشن هذا الهجوم الشرس على الحضارة الغربية لأنه كان يعرفها من داخلها... لقد قضى حوالي عشرين عاما يدرسها".(٣٠)

وكما كان الحال مع سيزير، كان الأمر كذلك بالنسبة للباقين. فقد مروا جميعا عبر الدعاوى الخلابة للأيديولوجية البرجوازية بتفوق الثقافة الغربية مع عنصريتها المتنكرة بتواضع. ولكنهم كانوا يخرجون مقتنعين بأنهم حققوا إنجازا كبيرا ومختلفا. ففي البداية كانوا يعتقدون أن الإجابة تكمن في رؤية الصراع الطبقي، والحرب بين الأشقاء، كما وصف جوليوس نيريري

النظرية الاشتراكية الماركسية لاحقا.[٣١] ولكن سيثبت أن هذا المفهوم غير كاف أيضا. فكما كتب كوكس في تعليقاته المختصرة الخاصة على ماركس وإنجلز، كانت صياغتهما لمفهوم الرأسمالية مجرد إدراك جزئي للقوى التاريخية التي كونت الأيديولوجيين السود، وأنهما حاولا الفهم وفشلا.[٣٢]

وكما سنرى حتما، فإن الأحداث التي فعلت الكثير لتشكيل حقبتهما - أي أزمات الرأسمالية العالمية، والجدلية المدمرة للإمبريالية، والتجليات التاريخية والفكرية لسذاجة الاشتراكية الغربية - دفعتهما إلى فهم أعمق. أي إن الذي وجده بادمور ضروريا أن يفعله في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وما وجده رايت كذلك في أوائل الأربعينيات، وكذلك ما وجده جيمس ضروريا في نهاية ذلك العقد، ردده إعلان سيزير لاحقا في ١٩٥٦، حين كتب يقول:

"ما أطلبه من الماركسية والشيوعية هو أن تخدما الشعوب السوداء، وليس أن تخدم الشعوب السوداء الماركسية والشيوعية. إذ يجب أن تخدم الفلسفات والحركات الشعوب، ولا تخدم الشعوب المنهج والحركة... فالمنهج لا قيمة له إلا إذا أدركناه وأدركنا أنه لنا، وراجعناه بأنفسنا... ونحن نعتبر أن واجبنا هو أن نثير قضية مشتركة مع كل من يبحث عن الحقيقة والعدالة، من أجل تكوين منظمات قادرة على مساندة الشعوب السوداء بفعالية في كفاحها الراهن والمستقبلي - كفاحها من أجل العدالة والثقافة والكرامة والحرية... ولهذا أرجو قبول استقالتي من الحزب".[٣٣]

ومن مثل هذه اللحظات، قام كل منهم في عصره بالتحول إلى التقليد التاريخي لتحرر السود وأصبح راديكاليا أسود. فقد بدأوا بإدراك تاريخهم

ومهمتهم النظرية. وسوف نتناول الآن كيف تحقق هذا، وماذا كانت دلالاتــه النظرية والفكرية العديدة. وسوف نتقدم تاريخيا، ملتــزمين بقــدر الإمكــان بالعمليات التي شملت الدراسة والممارسة والوعي، والتي غطت في الواقــع تأريخ وتطور نظرية كفاح السود. وكما سنكتشف، فــإن إســهامات هــؤلاء المثقفين تعتبر هائلة، وتعتبر إنتاجيتهم عارمة. ولهذه الأسباب، سنستكــشف بالضرورة مجرد جزء فقط من أعمالهم. ونأمل أن تكشف مراجعتنا هذه عن الأجزاء الأكثر أهمية. ومع ذلك، سيظل هناك الكثير الذي يجب قوله وفهمه ومناقشته. فتراثهم لا يزال حيا. فالعبقري الحقيقي هو الذي كان وسط الناس الذين كتب عنهم. فهناك كان الكفاح أكثر من مجرد الكلمات أو الأفكار، لقــد كان الحياة ذاتها.

الفصل التاسع

تاريخ التراث الثوري الأسود

يجب على أية مناقشة تحاول أن تحدد بدايات تأريخ الحراك الثوري الأسود، وتهدف إلى تقييم أهمية ذلك الحراك، أن تأخذ في حسبانها شخصيتين: دو بويز W. E. B. Du Bois، وكيريل جيمس C. L. R. James. ونظرا لأن دو بويز هو الأكبر سنا (ولد في ١٨٦٨) فسوف يحظى بشرف الصدارة.

دو بويز وأساطير التاريخ القومي

كان ويليام إدوارد بورجهاردت دو بويز واحدا من أخلص المؤرخين الذين ظهروا في الولايات المتحدة على الإطلاق. ومع ذلك، كانت كتابة التاريخ مجرد أحد إنجازاته. وعلى الرغم من خجله الشديد، فقد جمع بين كونه باحثا ورجل دولة وناشطا سياسيًا. واستطاع بهذه الطريقة أن يؤثر على حياة وأفكار الكثيرين. وعلى الرغم من صعوبة البحث، فإنه وجد الوقت لبداية التطوير المنهجي لدراسات السود؛ فأسس وحرر لأكثر من عشرين سنة صحيفة "كرايسيس Crisis"، التي تعتبر أكثر صحيفة سياسية للسود تأثيرا في عصره؛ وتولى القيادة الفكرية لحركة الأمريكيين السود؛ وحفز تطور "الوحدة الأمريكية الجامعة Pan-Americanism"؛ وفي أواخر أيامه، تولى دور القيادة في حركة سلام ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك، كانت هذه مجرد خطوط عريضة لحياة معقدة امتدت أطول من تسعين سنة.[١]

ومع ذلك، لم يكن دو بويز شخصية لطيفة تماما، ولم تحظ أعماله بالاحترام اللازم دائما. ويمكن أن نستنتج أن تعدد أنشطة دو بويز هو الذي أدى إلى إضعاف أهميته كمؤرخ. ولكن، كما سنرى، لم يكن مدى هذه الأنشطة هو المهم لدى منتقديه. فقد كانت معارضة دو بويز تعتمد على تحفظات أعمق، في مقدمتها: الاعتراف بأن أعماله لها أصول مستقلة عن دوافع الفكر الراديكالي والليبرالي الغربي. وهكذا فإنه بينما كان يجب الاحتفال بإسهامه في التراث التاريخي الأمريكي من جانب مؤرخيه ودارسيه، نجد أن رد فعل المجال الأكاديمي تمثل في تشويه سمعته وإهماله غالبا.

وبينما كان يجب الاعتراف به كواحد من عمداء تأريخ الحراك الثوري الأسود - ففي عقده السابع أصبح واحدا من أشهر منظري الماركسية في أمريكا[٢] - اتهمه المثقفون التقليديون و"الرسميون" بالهرطقة الماركسية، والشوفينية الراديكالية، وصياغة المفاهيم المغلوطة. ومع ذلك، كانت هناك أسباب تاريخية أكثر للتسامح تجاه أعماله. ويمكن تحديد هذه الأسباب وفهمها بمراجعة وتحليل السياقات التاريخية والفكرية والأيديولوجية التي ظهرت منها.

ومن المعروف الآن بصفة عامة أن تكوين الدول القومية والأقاليم السياسية قد أدى إلى ظهور أساطير التأسيس - أي أساطير الأصل، بلغة الأنثروبولوجيين.[٣] وعلى الرغم من أن العملية ربما أصبحت غامضة بفعل الزمن في الحقب الأكثر بعدا، فإن ظهور برجوازيات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر جعلتها واضحة. فاستخدام الطباعة والصحافة، ودعواتها وإغراءاتها للطبقات المستهدفة، جعلت صناعة الأساطير القومية واضحة تماما. وكان يجب الاعتراف بهذه الأساطير في الأدوات الرسمية لسيطرة

الطبقة، تلك الأساطير المتمثلة في المعتقدات القومية، والأيديولوجيات الاجتماعية، والمبادئ الفلسفية، والدساتير، وخلافه، والتي كانت وظيفتها إضفاء الشرعية على النظم الاجتماعية التي ظهرت إلى الوجود. حيث جعلت هذه الأساطير الوضع الجديد أمرا ضروريا، وحدثا حتميا وعظيما. وأظهرت للجمهور القومي أن أصول الحداثة التاريخية، وعدم الأمان والقلق المصاحب للتخلص من الأشكال المستقرة كانت أمورا مؤقتة، وأن التغير كان طبيعيا وعضويا وسليما. وحلت أساطير التأسيس محل التاريخ، وأدت إلى ظهور رواية تاريخية لما كان في الحقيقة بمثابة مبررات حقيقية جزئيا ومبررات خادمة للطبقة جزئيا أيضا. وبعد الدراسة الدقيقة، كانت هذه الأساطير ناتجة عن أيديولوجيين ارتبطوا بالعقيدة السائدة واعتمدوا على طبقات المجتمع التي تملك القوة والقدرة على توسيع الامتيازات الاجتماعية.[٤]

ولا يمثل تكوين الدولة الأمريكية استثناء. فالدستور الأمريكي، وإعلان الاستقلال، والاعتبارات التي أثارتها الأوراق الفيدرالية، كانت كلها بمثابة تعبيرات عن مصالح وعقيدة البرجوازية الأمريكية.[٥] وتضخمت هذه الأساطير بسرعة بأساطير الحدود، والمزرعة الأبوية، والرأسمالية التنافسية لأبناء إنجلترا في الولايات المتحدة، وشجاعة رجال السهول، ثم أكملتها لاحقا مأساة الحرب بين الولايات، والفردية الصارمة، وإثارة الثورة الصناعية الأمريكية، ووجود بوتقة الانصهار. وكانت هذه بمثابة الخيالات الرومانسية التي أصبحت تكون الأيديولوجية الاجتماعية لبرجوازية الأمة.[٦] وعلى الرغم من ذلك، كانت هناك أسطورة أقدم، وهي التي سبقت تطور البرجوازية الأمريكية بمشاعرها القومية وحرب الاستقلال. إذ كان الاستعمار في أمريكا يتطلب مبررا مختلفا، تمثله وجود شعوب وحشية.

وكما رأينا في الفصل السابق، كان لدى الاستعمار الإنجليزي شعب وحشي يمثله الأيرلنديون ليعتمد عليها بصورة مناسبة. حيث انتقلت هذه الفكرة بصورة جيدة. فعندما ظهرت الحاجة إلى العمل، تم تجميع الأيرلنديين، وفقراء المدن الكبيرة، والأفارقة والأمريكيين المحليين، معا كالقطيع تحت مسمى الشعوب الوحشية. وعندما كانت المشكلة تتمثل في الاستيلاء على أراضي السكان المحليين، لم يكن هناك سبب بسيط لاحترام دعاوى المتوحشين أو تقبل مقاومتهم.[٧] ففي الواقع، كان الفكر الاستعماري يتوقع العكس. إذ كان المستعمرون يمثلون "الحضارة المتقدمة". وأثبتت هذه المجتمعات أهميتها التاريخية بالتدمير أو السيطرة على المتوحشين والشعوب المتخلفة.

وفي الواقع، انصهرت أيديولوجيات ما قبل البرجوازية مع البرجوازية. فمع اقتراب نظم الصناعة وسلطة أصحاب المزارع والزراعة معا في اقتصاد قومي متكامل يشترك في استغلال الأرض والعمل والموارد الطبيعية، اكتسبت الأيديولوجية الاجتماعية والوعي التاريخي للطبقات الحاكمة عدوين محليين: الهنود والزنوج. ففي أوائل القرن التاسع عشر، أصبح تدمير الوحشية المحلية، والسيطرة على الوحشية المستوردة، بمثابة دليل مزدوج على تفوق الأمة الجديدة. حيث أصبحت الشعوب الأمريكية المحلية عاجزة عن المقاومة فجأة، بل إنه تم ترحيلهم وتهميشهم وأصبحوا بمثابة بقايا رومانسية لماض سحيق، وقطع متحفية حية[٨]. أما بالنسبة للزنوج، فقد كانت القصة مختلفة.

فطوال معظم القرن التاسع عشر، ظل الأفارقة يمثلون قوة العمل الرئيسة للمزيد من تطور البلاد. ونتيجة لذلك، كانت الأهمية السياسية والاجتماعية والثقافية للأفارقة أكثر استمرارا. وكان هذا يعني - كما يقول

كرافن في المثال التالي من فرجينيا في القرن السابع عشر - أن الجهود التي بذلت لمواجهة معارضة السود في الفكر الأمريكي كانت غالبا تحكمية وثابتة، بحيث ظلت واضحة وواعية:

"يستدل على الاتجاه الذي كان سائدا بين البيض تجاه السود من خلال السخرية الفجة التي استمدها أصحاب سفن الرقيق ومشترو الرقيق، استعارة هؤلاء من التاريخ القديم أو الأساطير أسماء مثل قيصر، هانيبال، نيرون، جوبيتر، بلوتو، أو منيرفا؛ والأول والثاني على رأس إحدى القوائم، ومناداة لا رقيق باسم القرد او النسناس في غيرة مرة".(٩)

وخلال الحقبة التالية، عندما أصبحت الصناعة شكل الإنتاج الأكثر تقدما، وأصبحت المؤسسات الديمقراطية المبدأ السياسي الأهم، كان الأفريقي بمثابة ملكية منقولة في الصورة الاقتصادية، ورقيق في الصورة السياسية والاجتماعية، ووحشي وبالتالي غير قابل لمزيد من التطور، وأخيرا زنجي، أي بدون تاريخ. وبعد ذلك، أثناء تصنيع اقتصاد البلاد، عندما كانت الفردية وأساليب التلاعب على أشدها، كان الأسود مثيرا للشفقة، وزراعيا، وغير طموح، أي كان بمثابة "الأسود السعيد" الذي يتحمل المجتمع التزاما أبويا تجاهه. وأخيرا، في عصرنا هذا، ومع تطور الهياكل المؤسسية وأسطورة المجتمع الرشيد، أصبح السود يمثلون الوحوش الهائجة العنيفة المجرمة المحبوسة في القفص. وكان هذا القفص يتمثل في الحضارة والثقافة الغربية، والذي كان متاحا بوضوح للسود ولكنه كان بعيدا جدا عن إدراكهم.(١٠)

وتطور تأريخ الحراك الثوري الأسود في اتجاه عكس هذا الفكر المستنسخ ضد الطبيعة الحساسة للوعي الأمريكي. ولم تكن هناك نية تجاه

إحداث هذا، ولم يكن ذلك أمرا متوقعا في البدايات، لأن الجهود الأولى لكتابة تاريخ السلالة حدثت بعد عقود من انتهاء الأعمال الفكرية التي صاحبت حركة إلغاء الرق. ومع توقيع قوانين تحرير الرقيق، لم تعد هناك حاجة إلى مغامرات تاريخية في الماضي الأفريقي للزنوج للتأكد من إنسانيتهم وما تعرضت له هذه الإنسانية من إهانة بسبب العبودية والرق. ولم تعد هناك حاجة للتدليل على صفة الوحشي النبيل. ولكن كتاب "إعادة بناء السود" أجج الهجوم الأيديولوجي على الشعوب السوداء مجددا. وبعد تجدد الهجوم بستين عاما، لم يتردد دو بويز في تحديد مصدر ذلك الهجوم:

"انطلق الهجوم الشامل الحقيقي على "إعادة البناء"، كما فسره قادة الفكر القومي في ١٨٧٠ ولبعض الوقت بعدها، من الجامعات وخاصة من كولومبيا وجون هوبكنز. فقد بدأت الحركة في جامعة كولومبيا، ومع قدوم جون بورجس **John W. Burgess** من جامعة تينيسي، وويليام دوننج من جامعة نيوجيرسي، كأستاذين للعلوم السياسية والتاريخ".[١١]

وأصبح حكمهما الجماعي على الشعوب السوداء – أي "صمتها وعصيانها" كما وصفه دو بويز – بمثابة تاريخ أمريكي. ونظرا لأن بعض الرجال مثل هؤلاء كانوا متورطين بشدة أيضا في بناء جدول أعمال الأمة للدراسة الأكاديمية وعملياتها وهياكلها السياسية، فقد كان تقييمهم المشترك للسود محددا سلفا أيضا، وهنا يقول دو بويز:

"لكي نصور الجنوب الأمريكي على أنه ضحية لمصير محتوم، ونصور الشمال على أنه المحرر العظيم، ونسخر من الزنجي على أنه النكتة المستحيلة في كل هذا التطور، فقد قمنا في خمسين سنة – من خلال التشهير

والإساءة والصمت - بتشويه وطمس تاريخ الزنوج في أمريكا وعلاقة هــذا التاريخ بالعمل والسلطة لدرجة أنه أصبح تاريخا مجهولا تقريبا الآن... ولم يقتصر الأمر على أنه أصبح أساسا جزئيا من انعدام القانون فــي حاضــرنا وفقدان المثل الديمقراطية، بل أصبح أكثر من هذا، بل قاد العالم إلى اعتناق وعبادة حاجز اللون كنوع من الخلاص الاجتماعي، ويــساعد علـــى دفـــع الإنسانية في مراتب الكراهية والاحتقار المتبادل، بناء على دعاوى أسطورة رخيصة وزائفة".[١٢]

وكانت المخاطر مرتفعة خلال العقود التي أعقبت الحرب الأهلية. فكما رأي توماس رينبورو Thomas Rainboro في إنجلترا خلال تــوترات القــرن السابع عشر، كانت القضية المطروحة في السنوات التي تلت الحرب الأهلية الأمريكية كما يلي: "إما أن الفقر يستخدم الديمقراطية لتدمير السلطة الملكية، أو أن الملكية تدمر الديمقراطية خوفا من الفقــر".[١٣] وكمــصدر للتنظيــر الأيديولوجي لكل من رأس المال الصناعي الشمالي المنتصر، ورأس المــال الجنوبي المتراجع آنئذٍ، أعادت النخبة الأكاديمية المثقفة البيضاء وغيرها نسج الأساطير الاجتماعية والتاريخية التي تروج للمــشاريع الاســتغلالية لتلــك الطبقات الحاكمة. وكان يجب احتواء الوعي السياسي لعمالة السود وعمالـــة البيض وعمالة المهاجرين من خلال النظام الاجتماعي المتضمن فـــي هـــذه الأساطير. وبالإضافة إلى الإرهاب الذي مارسته ميليشيات الدولة، وشــرطة الشركات، والجهات الأمنية، والتهديــدات المــستمرة لقيــود المهــاجرين، والصفوف المتراكمة من العمالة الاحتياطية، أعيد كساء النزعـــة الــسلالية بحيث يمكن أن تأخذ مكانها ثانية في رصيد أنظمة العمل. ونظــرا للحاجـــة

للاستجابة السريعة لاندفاع حشود الطبقة العاملة عقب الحرب، لم يتأخر رأس المال ومنظروه الأيديولوجيون، وهنا يشير آرثر ميهيو إلى ما يلي:

"في سنة ١٨٧٧، انطلقت الإشارات لبقية القرن: حيث سيرجع السود إلى ما كانوا عليه؛ ولن يتم التسامح إزاء إضرابات العمال البيض؛ وستستولي النخبة الصناعية والسياسية في الشمال والجنوب على البلاد وتنظم أعظم انطلاق إلى النمو الاقتصادي في تاريخ البشرية. وسوف يقومون بذلك بمساعدة - وعلى حساب - عمالة السود وعمالة البيض وعمالة الصينيين والعمالة الأوروبية المهاجرة، وعمالة الإناث، مع تعويض كل منهم بصورة مختلفة حسب السلالة والنوع والأصل القومي والطبقة الاجتماعية، وذلك بطريقة تخلق مستويات مختلفة من القمع - وهذا مسار رائع لتثبيت هرم الثروة".(١٤)

وكان هذا القمع الجديد لعمالة السود بمثابة السبب المباشر والظرف المناسب لانتشار مواد الاحتجاج التي أنتجتها النخبة الفكرية للسود في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وكان تاريخ السود يمثل اختراعهم المستميت.

ونظرا للدهشة الناتجة عن مفاجأة تراجع كل من أوضاعهم وأوضاع جماهير السود، استجاب المتحدثون الأكثر تمثيلا للبرجوازية الصغيرة للسود بالبلاغة الصحفية والأدبية، التي كانوا يعتقدون أنها ساعدتهم كثيرا وساعدت الرقيق في حقب سابقة. وبينما انتظمت جماهير السود - سرا أحيانا، ولكن علانية بصورة متزايدة، لحماية حقوقها السياسية، ثم عندما شعرت بالضياع، من أجل الهجرة إلى الداخل الأمريكي أو إلى ليبيريا - ظلت النخبة الفكرية للسود تعتنق أساليب التوسل. حيث أصر هؤلاء الملونون الممثلون، كما

وصفهم بينتر Painter،[١٥] على هويتهم التي افترضوا أنهم يشتركون فيها مع طبقات البيض المناظرة. وكما أعلن محرر إحدى صحف السود في سان فرانسيسكو في ١٨٦٢ فإن الأمريكيين السود حسب رؤيته "كانوا مدفوعين بنفس الدوافع، وموجهين بنفس الحوافز، ولديهم نفس توجهات الأمريكيين البيض الطموحين".[١٦] ومثل الكثيرين الذين تبنوا موقفه، كان هذا الصحفي يُلح على جمهوره في التغاضي عن التحيز للون الأسود بل وإخفاء الهوية الحقيقية لهذا اللون. ومع ذلك، كانت هذه الفترة عصيبة على الكثيرين منهم. فقد عملوا بجد في صحفهم ومذكراتهم ومحاضراتهم العامة وظهورهم في المؤتمرات من أجل تأسيس هويتهم الأمريكية، ولكنهم قوبلوا بالرفض المطلق من جانب الأيديولوجيين المسيطرين على الأمة.[١٧]

ولا بد من أنه تأكد لدى بعض أعضاء البرجوازية الصغيرة للسود أن خسارتهم في المعركة الأيديولوجية تكمن جزئيا في فشلهم في المشاركة في الأسطورة الأمريكية. ففي وسط البلاد التي كان مفكروها يحاولون باستماتة أن يشكلوا هوية قومية مؤسسة تاريخيا، تقلص نصيبهم إلى مجرد الارتباط بالرعب الذي انتهى به الرق. ففي أمريكا التي كان يتم بناؤها الآن على أيدي الأيديولوجيين بناء على "المصير الواضح" الموروث من أصولها الأوروبية،[١٨] كان لدى النخبة الفكرية للسود أساس تاريخي ضحل جدا لا يساند مطالبتهم بالاندماج في المصير القومي. فقد أنكرت الأسطورة والتاريخ عليهم حقوقهم وقدراتهم أيضا.[١٩] وكانت تطلعات الطبقة الوسطى للسود تتطلب تاريخا يغفر شعورهم بالذنب بالارتباط بالنهاية الكارثية للرق؛ بما يعطي وزنا تاريخيا للكرامة التي يطالبون بها كطبقة؛ ويشير إلى إمكاناتهم

كشركاء في مستقبل الوطن. وكانوا يحتاجون إلى تـأريخ للـسود يتحـدى استبعادهم من ضيق الأفق الفكري العنصري، مع الاستقرار على هذه القيم. وعندما بدأ تأريخ مسيرتهم، لم تكن تمثل مبادرة قوية ضد ثوابت التـواريخ القومية والسلالية كذريعة للتعاطف.

وهكذا بدأ تاريخ السود في ظل الأساطير القوميـة الأمريكيـة، تلـك الأساطير التي كانت بمثابة النقيض الجدلي لتاريخهم. وبالتالي، فقـد كـان يحتوي على تناقضاته (مثل تهميش العمل الاجتماعي) مع احتواء تلك التـي حدثت داخل التاريخ الأمريكي السائد. وبعد ذلك بأجيال، أدى هذا إلى ظهور معارضة أكثر نقدا وصدقا، ولكن في الوقت الحاضر، كان يجب أن تـساير التاريخ الأمريكي في صياغة العالم، أثرا بأثر، وحضارة بحضارة، وعظيما بعظيم. ولم يترك جورج واشنطون ويليامز - أول مؤرخ أمريكي أفريقـي مرموق - شكا في هذه الاهتمامات.[٢٠] ففي ١٨٨٢، نشر ويليـامز عملـه الكبير "تاريخ سلالة الزنوج في أمريكا من ١٦١٩ إلى ١٨٨٠"، والذي يتكون من مجلدين يحويان حوالي ١١٠٠ صفحة. وربما يقدر المرء أنه على الرغم من حدود عنوانه، فإن ويليامز لم يقصر نفسه على الأحداث التي بدأت فـي القرن السابع عشر. ففي الواقع، ومثل العديد من المتحدثين المعاصـرين،[٢١] وجد أنه من المناسب أن يبدأ بحثه في الماضـي بمراجعـة دور الأفارقـة في عصر ما قبل المسيحية، عندما كانت "الحضارة الغربيـة"، التـي تـدين بحوافزها المباشرة للثقافة المصرية، تتركز حول البحـر المتوسـط. إذ إن التناقض بين هاتين الحقبتين، والذي يمثل القمة في عقلية التطور الأفريقـي لدى ويليامز، وقرون استرقاق الزنوج التي أعقبت ذلك بألفي سنة، زودتـه بفرصة الإعلان عن معتقداته، وهنا يشير بعض الدارسين إلى ما يلي:

"في الحقيقة، كان وضع الزنجي في التاريخ كله حتى الوقت الحاضر عرضيا وتصادفيا ومصاحبا لغيره... وكانت أزهى أيامه عندما كان التاريخ وليدا؛ ومنذ أن أعرض عن الرب مبكرا، فقد وجد الوجه العبوس للكراهية واليد المؤذية للقوقازيين ضده. فالجنس الزنجي ناتج عن الإهانة. وهو ليس سوى أدنى مرتبة في السلالة الأفريقية... ودمه ملوث بسموم مسكنه الوضيع، وجسمه مشبع بالأمراض، وعقله مليء بخرافات وثنية، وأنبل تطلعات روحه مخنوقة منذ الميلاد بالعواطف الوحشية للطبيعة المتروكة للحس - فالزنجي الأفريقي البائس يستحق شفقتنا أكثر من احتقارنا".[٢٢]

وكان الارتباك في فكر ويليامز حقيقيا. فقد كان يكتب انطلاقا من كل من المنظور الصفائي المتزمت وأصداء اختيار الرب، ولكنه كان أيضا مشبعا بالطبيعة العنصرية التي أهانت وقهرت شعبه. ولكن في الحالة الثانية، نجد أنه تحول عكسيا، لأن قراره بكتابة "التاريخ الحقيقي للإنسان الأسود" نبع من رغبته في "تحريضه على بذل جهد أكبر في الصراع على المواطنة والإنسانية". وبينما كان يهاجم أكثر الأشكال الأيديولوجية تطرفا، والمتمثلة في كراهية السود الناتجة عن ("أبناء حام" و"لعنة كنعان") وبينما كان يستنكر مؤسسة الرق، كان لا يزال يظهر قدرا من التناقض. وبالطبع كان هناك شيء ضمني غير معلن، وهو فكرة أن نخبة السود فقط هي التي تستطيع تحقيق مهمة بعث الزنوج من جديد.[٢٣]

وبحلول العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان البناء الأيديولوجي للبرجوازية السوداء الصغيرة قد وصل مرحلة النضج. وقد أظهرت النخبة

الفكرية السوداء نزوعا نحو تكوين وعي بإشكاليات العنصرية، تلك الإشكاليات التي مدت جذورها في عنصرية المركزية الأوربية ذات الأطر الإمبريالية. فالعمليات الاجتماعية والنفسية والفكرية المصاحبة لتكوين الطبقة الوسطى للسود، والتي بدأت في القرن الثامن عشر، كانت في ذلك الوقت قد حققت تشكيلا واسعا وموضوعيا.[٢٤] ونظرا لأن طموحات البرجوازية الصغيرة للسود لم تعد تعطلها الهياكل السياسية والاقتصادية للرق، ونظرا للتحرر من الالتزام الأخلاقي بالارتباط باستعباد السود نتيجة الحرية المزيفة التي حصلوا عليها،[٢٥] فقد وجدت هذه الطموحات التعبير الحقيقي عنها في المؤسسات التي صاغتها بنفسها وبمساندة رعاة استمرار الطبقة ونموها.[٢٦]

ونظرا لموقعها كطبقة وسيطة تبدو محمية من أعلى بالطبقة الحاكمة التي تمنحها قدرا من الامتيازات، بينما تقمع الحشد الجماهيري للسود بلا هوادة،[٢٧] لم يعد واضحا بشكل كامل ذلك القيد الأيديولوجي الذي كان يمثل جزءًا من طبيعة الأجيال المبكرة للطبقة الحاكمة. وتستطيع البرجوازية السوداء الصغيرة أن تغرق الآن في وهم أنها قادرة على تحدي النظام الرأسمالي العالمي، بناء على ما تعتبره شروطها الخاصة: أي قوة البعد السلالي.[٢٨] ولكن الأيديولوجية السياسية التي ظهرت من جامعات وكليات "الزنوج"، ومنابر تجمعاتهم الطبقية طائفيا، وجمعياتهم المهنية، وأدبهم المبدع، وتأريخهم، كانت شوفينية بصورة غامضة باستمرار،[٢٩] وكانت سلطوية وأبوية أيضا. فمنذ فترة إعادة البناء في التاريخ الأمريكي وحتى القرن التالي، كان منطق تكوين البرجوازية الصغيرة للسود ونخبتها الفكرية يتمثل في الاعتماد على هذه النتائج. وكما يقول يرميا موسي:

"كان يتضح لجيل ما بعد الحرب الأهلية من قادة السود أن الإنجـازات الفردية لا تحمي من تهديدات وانتهاكات النظام الأمريكي شبه الطائفي. فقـد استمر زنوج الطبقة الوسطى ضحايا للتحيز، طالما ظلت الجمـاهير غيـر متعلمة، وفقيرة وغير أخلاقية. وكان هدف النهوض بالزنوج المحررين يشبه هدف النهوض بإفريقيا. إذ إن بناء ثقافة أمريكية أفريقية سيظهر للعالم أجمع أن السود كانوا قادرين وراغبين في تقديم إسهام في الحياة الأمريكية، ولذلك كانوا صالحين ليكونوا مواطنين أمريكيين. ومع ارتفاع مستوى الجمـاهير، فإن البرجوازية سترتفع بالتالي".[٣٠]

كانت هذه هي الأسباب التي ألهمت المطران ديفيد بايني **Bishop David A. Payne** من الكنيسة الأسقفية الأفريقية البروتستانتية (الميثودية) نحـو تـشكيل "الجمعيـة التاريخية والأدبية بكنيسة بيتل[*]" في عام ١٨٨١،[٣١]. وقد تم إدماج هذه الجمعيـة في عام ١٨٩٧ في الأكاديمية الزنجية الأمريكية. وقد سعى إلى هذا الدمج مؤسس الأكاديمية نفسه: ألكسندر كروميل **Alexander Crummell** مبشر الكنيسة المشيخية الأسود الذي تدرب في كمبردج،[٣٢] وكانت هذه الأكاديمية قد أكملـت الدراسـات النسوية في الجمعية القومية للملونات (التي كانت تسمى الاتحاد القـومي للنـساء

(*) الجمعية التاريخية والأدبية بكنيسة بيتل Bethel Literary and Historical Society: جمعية أسسها دانيال باين Daniel Payne مطران الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية في عام ١٩١٥ علـى أقل تقدير. كانت تمثل تطورًا مهمًا للغاية في المجتمع الأفرو-أمريكي في واشنطن العاصمة. كان معظم أعضائها الأوائل أعضاء في مطرانية الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية، حيـث كانت تُعقد اجتماعاتهم، مع الحفاظ على الدعوة العامة للسود مـن جميـع أنحـاء واشـنطن. وسرعان ما تطورت لتصبح جمعية بارزة تناقش القضايا العنصرية في واشنطن العاصـمة، ونوقش مشهد فصل الأطفال السود في المدارس بشكل حماسي في الأعـوام ١٨٨١/١٨٨٢، وأيضًا أفكار بروكر. تي. واشـنطن Booker T. Washington و دو بـويز W. E. B. Du Bois في عام ١٩٠٣. (المترجم)

الأمريكيات الأفريقيات). وكان في طليعة من حفزوا تلك الجمعيـة علـى العمـل رائدات مثل جوزفين سانت بيير روفين، ماري شـيرش تيريـل، إيـدا ويلـز، مارجريت موراي واشنطون، وغيرهن في ١٨٩٥؛[٣٣] وأثبتت الأكاديمية دعمهـا الشجاع لبعض كليات الزنوج.[٣٤]

ولا شك أن المتحدثين كانوا مدفوعين إلى المبالغة البلاغية: حيث أعلن ويليام فيريس أنه يفضل اسم "زنجي ساكسوني" على "زنجي"، بينمـا تبنـت نخبة المولاتو في بوسطن اسم "أمريكي أفريقي"، واستخدم ويليام نيل مبكـرا اسم "ساكسوني أسود"،[٣٥] بينما رأى كروميل أنه لا حاجة للمراوغة. فبالنسبة إليه، كانت هوية ووظيفة وطبيعة طبقتهم واضحة على النحو التالي:

"من بوسعه أن يكون ذلك القادر على رفع هذا الشعب إلى مستوى راق من الجنس البشري؟ سوف تنعكس الإجابة سريعا على أذهانكم. إنها تتـأثر بالدارسين الذين خرجوا للتو من المدارس. ومن المنتظر أن يصبح هـؤلاء الدارسون علماء؛ فتحويل وتحفيز ورقي شعب يمثل عمل النخـب الفكريـة. فهذا عمل يتطلب استنباطا واضحا للحقائق التاريخية وتطبيقها على الظروف الجديدة، إنه العمل الـذي يتطلـب أمهـر المـوارد والممارسـة الحكيمـة للمتميزين".[٣٦]

وكما يقول موسى، كان كروميل هو الذي بدأ تجميع اهتمامات طبقتـه في أيديولوجية متماسكة.[٣٧] ولكنني أرى أنه كان هنـاك آخـرون - مثـل جورج ويليامز، و كارتر وودسون - اللذين صاغاها في تعبير تأريخي ينفي الأسطورة القومية.[٣٨] ولكن ما حققوه كان لا يزال يمثل مجرد بناء هـش، حيث كان تماسكه عرضة لتهديدات كلما تبدد أو انسحب التسامح الرأسـمالي

الذي كان يمثل الأساس الذي يعتمد عليه. ومن حسن الحظ، أن احتمال حدوث هذا كان أبعد من إدراك معظمهم. فلم تكن الداروينية الاشتراكية ولا مؤلفاتهم البعثة على الارتياح والسكينة تقترح أي شيء سوى التحولات المؤقتة بقدر الإمكان. وعندما تحققت الأزمة، واحتشد الشعب الأسود للكفاح ضدها، كانت البرجوازية الصغيرة للسود غير مستعدة أساسا للتخلي عن شراكتها الوهمية مع السلطة. فقد كان دو بويز - مثل سابقيه ومعاصريه: ويليام براون، كارتر وودسون، المطران هنري تورنر، جورج ويليامز، وإدوارد ويلموت بليدن المولود في الهند الغربية[٣٩] - منهمكا بعمق في التراث التأريخي "لإعلاء مكانة السلالة الزنجية".

"كان دو بويز واحدا من بين الأربعين الذين يمثلون النخبة الفكرية للسود المسجلين في أكاديمية الزنوج الأمريكية، التي كان كروميل أول رئيس لها. وفي الأوراق العارضة للأكاديمية، نشر دو بويز مقالا عن كروميل، وكان المقال يحمل عنوان "الحفاظ على السلالات"، وفيه يوضح دو بويز أنه لم يخرج عن خط كروميل المحافظ خلال سنواته في أكاديمية الزنوج الأمريكية... حيث كانت الخصائص القومية التقليدية للسود، مثل الغموض والسلطوية والحضارية والجماعية، تمثل عناصر قوية في هذا المقال.

في ذلك المقال دعا دو بويز الأكاديمية لممارسة قيادة صلبة لتصبح "مثالا وتعبيرا عن فكر الشعوب السوداء في أمريكا". ولم يكن القادة السود ليعملوا على التنظيم من أجل أغراض دنيوية مثل الاستيلاء على المغانم السياسية، ولا "مجرد الاحتجاج وإصدار القرارات". بل يجب على قيادة السود أن توحد جهودها لتحسين أوضاع جماهير السود، والكفاح ضد التسكع

والقمار والجريمة والبغاء... والكفاح من أجل "تنشئة سلالة مثالية في أمريكا وأفريقيا، لمجد الرب ورفعة الشعب الزنجي".(٤٠)

وفي المرحلة الأولى من هذا المسار، وتحت التأثير المباشر لكروميل، والأكاديمية، والسياسات التنظيمية الشاملة التي قام بها بوكر واشنطون Booker T. Washington، وجد دو بويز فكرة النخبة (أو العُشر الموهوب(*)) - فكرة جذابة حيث كتب يقول:

"سيتم إنقاذ سلالة الزنوج - مثل كل السلالات - على أيدي رجال استثنائيين. ومن ثم فإن مشكلة التعليم بين الزنوج يجب أن تعالج أولا قضية "العُشر الموهوب"؛ فهي مشكلة تطوير "أفضل" ما في هذه السلالة، والذين يمكن أن يقودوا "الجماهير" بعيدا عن تلوث وموت "الأسوأ"، في سلالتهم والسلالات الأخرى".(٤١)

وفي ذلك الوقت، لمس دو بويز أن الفرق بين رؤيته ورؤية بوكر واشنطن كان كبيرا. وقد تعلم أكثر في الوقت المناسب. ففي سيرته الذاتية الأخيرة، التي كتبت في "العقود الأخيرة من عمره البالغ ٩٥ سنة"، وضح أنه

(*) العُشر الموهوب The Talented Tenth: عبارة ظهرت في عام ١٨٩٦ بين الليبراليين البيض الشماليين، وتحديدًا في الجمعية الإرسالية المعمدانية الأمريكية، وهي جمعية تبشيرية مسيحية دعمها بشدة جون روكفلر John D. Rockefeller. كانت تهدف إلى إنشاء جامعات للسود لتدريب المعلمين الزنوج والنخب السوداء. استخدم دو بويز Du Bois مصطلح "العُشر الموهوب" لوصف احتمالية أن يكون واحدًا من كل عشرة زنوج مُلهما لبنى جنسه في العالم، عن طريق أساليب مثل مواصلة تعليمهم، تأليف الكتب، أو الانخراط بشكل مباشر في التغيير المجتمعي. فقد آمن أن السود بحاجة إلى التعليم التقليدي للاستفادة من طاقتهم، بدلا من التعليم الصناعي الذي روجت له تسوية أتلانتا التي أيدها بوكر تي واشنطون وبعض الأسخياء من البيض. (المترجم)

في السنوات الماضية توصل إلى التعرف على أن الاختلافات بينهما كانت كبيرة عند المقارنة بما لم يفهماه. فلم يكن خلافهما على الأيديولوجية، بل كان على السلطة، وفي ذلك يقول دو بويز:

"إنني أؤمن بالتعليم العالي للعُشر الموهوب الذي يستطيع من خلال معرفته بالثقافة الحديثة توجيه الزنوج الأمريكيين إلى حضارة أعلى. وأنا أعرف أنه بدون ذلك، يجب على الزنوج قبول قيادة البيض، وأن هذه القيادة لا يمكن أن تكون موضع ثقة دائما... ومن ناحية أخرى، اعتقد السيد بوكر واشنطون أن الزنجي كعامل كفء يستطيع تحقيق ثروة، وأنه من خلال ملكيته لرأس المال يمكن أن يكون قادرا على تحقيق مكان مرموق في الثقافة الأمريكية... ودعا إلى التركيز في ذلك الوقت على التدريب في مجالات المهارة وتشجيع الصناعة والعمل العام.

ولكن هاتين النظريتين في تقدم الزنوج لم تكونا متناقضتين مطلقا. فلم أفهم أنا ولا بوكر واشنطون طبيعة الاستغلال الرأسمالي للعمل، والحاجة إلى الهجوم المباشر على مبدأ الاستغلال كبداية لرفعة العمال الزنوج".[٤٢]

وكان الشيء الذي استاء منه دو بويز بصورة متزايدة يتمثل في السلطة التي أحاطت حول بوكر واشنطون وكانت تدور بين أصابعه، فيقول دو بويز:

"لم يقتصر الأمر على قيام رؤساء الولايات المتحدة باستشارة بوكر واشنطون، ولكنه شمل المحافظين ورجال الكونجرس، وكان السياسيون يجتمعون معه، وكان الدارسون يكتبون إليه. وأصبحت مدينة تاسكيجي[*]

(*) في ولاية ألاباما حاليا. (المترجم)

Tuskegee مكتب استعلامات كبيرا ومركزا استشاريا... وبعد فترة لم تكن أية مؤسسة زنجية تستطيع جمع الأموال بدون توصية أو موافقة السيد واشنطون. ولم تكن التعيينات السياسية للزنوج تتم في أي مكان في الولايات المتحدة إلا بموافقته، بل إن مستقبل الشباب الملونين الجدد غالبا ما كان يتحدد بناء على نصيحته، ومن المؤكد أن معارضته كانت حيوية ...

وكذلك، يجب ألا نعتقد أن نشاطه كان مقصورا على تاسكيجي فحسب، بل كان يحظى بالتشجيع ويتحصل على التمويل من أفراد ومجموعات من البيض في الشمال. وكان لهذه المجموعة الشمالية أهداف واضحة. فقد كانت تتكون من الرأسماليين وأرباب العمل... وكان لا يجب تشجيع الزنوج على التصويت في الديمقراطية الجديدة، ولا على تركهم تحت رحمة الجنوب الرجعي. فقد كانوا عمالا مهرة، وكان يمكن تحقيق فوائد هائلة منهم للشمال. وكان يمكن أن يصبحوا قوة عمل قوية، ويمكن من خلال التوجيه المناسب تقييد المطالب المطلقة لعمالة البيض، المولودين في اتحادات عمال الشمال والذين ينتشرون الآن في الجنوب وتشجعهم الاشتراكية الأوروبية".[٤٣]

ولكن الأمر لم يكن كذلك تماما، كما قال لورنس ريديك في ١٩٣٧،[٤٤] بمعنى أن أفكار النهوض بالزنوج التي انطلق منها دو بويز كانت تتصف بالسذاجة. وسيتضح أن الجزء الأكبر من عدم فاعلية تلك الأفكار يرجع إلى أقنعة الخداع التي كان الصراع على السلطة داخل البرجوازية الصغيرة للسود يتخفى ورائها. ولم يكن الفشل راجعا فقط إلى مجرد اختلاف حول قواعد التقسيمات الطبقية.[٤٥] بل كانت العوامل المادية كبيرة: ففي ١٩٠٣ مثلا، قدم أندرو كارنيجي منحة قدرها ٦٠٠ ألف دولار إلى تاسكيجي.[٤٦]

وكان الأكثر أهمية يتمثل في البرجوازية الصغيرة للسود والمرتبطة بإستراتيجية طبقية ضيقت أفقها السياسي: حيث كان لا يمكن السماح لاحتجاجات جماهير السود بتخطي حالة الانتشار، وفي نفس الوقت كان يجب أن تعطي مظهر التضامن السلالي للزنوج. وكان الحافز الذي تحدى دو بويز من أجله بوكر واشنطون يتمثل في السلطة وليس القيادة. ومع ذلك، كانت طبيعة وسياق هذا الصراع هي التي دفعت دو بويز لتخطي الحدود المقبولة للصراع داخل الطبقة.

لقد حدث التحول الراديكالي في فكر دو بويز خلال فترة تاريخية كانت تتصف بتكثيف قمع السود في الولايات المتحدة، وردود أفعال السود العارمة لاحقا. ففي الجنوب والغرب الأوسط، أدت الحركة "الشعبية" في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر إلى حشد جماهير السود من جديد. وكانت تلك الحركة الشعبية قد أطلقتها أزمة تحول الرأسمالية العالمية في ظل التحالف بين المزارعين/القرويين البيض والسود والعمالة المنظمة.[٤٧]

وكان العنف القانوني وغير القانوني والفساد الانتخابي وتجدد التأكيد على تفوق البيض يمثل الاستجابات المجتمعة للطبقات الحاكمة، الصناعية والزراعية، التي سيطرت على الدولة والسلطة الاتحادية وأدوات الدعاية.[٤٨] وكانت القيود الانتخابية التي تحرم السود والبيض الفقراء من التصويت مفروضة في ولايات عديدة؛ وتصاعدت عمليات الإعدام خارج نطاق القانون (وكان عدد الضحايا السود يفوق عدد الضحايا البيض في ١٨٨٩)؛ وتحولت الحركة الشعبية إلى حالة فوضى بسبب إطلاق العنان للمناورات العنصرية.[٤٩] وكانت أكثر استجابات جماهير السود دراماتيكية تتمثل في

الهجرة. وعندما اجتمعت دورة الجفاف، ثم المطر الغزير وتفشى حشرة سوسة اللوز التي دمرت إنتاج القطن في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦، مع صناعة الحرب وتوقف الهجرة الأوروبية، أصبحت هجرة جماهير السود بمثابة "الهجرة العظمى"، وفي ذلك تقول دراسة فلوريتي هنري :

"تراجعت الهجرات المبكرة بسبب اندفاع السود شمالا بعد عام ١٩٠٠، وخاصة بعد ١٩١٠. وطبقا لتقديرات معاصرة مختلفة، فيما بين ١٨٩٠ و١٩١٠، هرب حوالي ٢٠٠ ألف من الجنوبيين السود إلى الشمال؛ وفيما بين ١٩١٠ و١٩٢٠، تبعهم ما بين ٣٠٠ ألف إلى مليون مهاجر. وأبلغت وزارة العمل أنه في الشهور الثمانية عشر في الفترة ١٩١٦-١٩١٧، كانت الهجرة تقدر بنحو ٢٠٠ ألف إلى ٧٠٠ ألف".[٥٠]

وأصبح وجود السود في القطاعات الصناعية الشمالية من البلاد يمثل حقيقة جديدة في التجربة الأمريكية.[٥١]

وتألفت ردود فعل الحشود الجماهيرية من تحالف قصير الأجل مع التمرد الزراعي للشعوبية والهجرة الحضرية، وترتب على ذلك زيادة انصراف المزارعين السود عن "قيادة" البرجوازية السوداء الصغيرة. وأظهر مئات الآلاف من السود أنهم لم يعودوا يرغبون في التسامح مع المخاوف الاجتماعية والاقتصادية للحياة في الجنوب الريفي، والعمل فيما يشبه الرق كأرخص عمالة في البلاد، والهلاك تحت القمع المزدوج للرعاية العنصرية للطبقة الحاكمة الجنوبية من البيض، والانتهازية الطبقية للبرجوازية الصغيرة الطموحة المتغطرسة من السود.

وهكذا فإنه ليس مدهشا أنه في هذه الظروف كان يجب على بعض أعضاء الطبقة الوسطى للسود أن يكتشفوا في هذا فرصة لنبذ أولئك الذين سيطروا على رؤيتهم السياسية والتاريخية الطبقية من بينهم. وفي نفس المجال، كان هؤلاء المارقون ينجذبون إلى مدار جماهير السود والتراث الراديكالي. وهكذا فإن ويليام مونرو تروتر - زميل دو بويز في هارفارد - سبقه إلى إدراك ذلك، وفي إطار "حركة نياجارا Niagara Movement"، التي بدأت في ١٩٠٥، انخرط دو بويز في هذا الكفاح الجديد. وكان تروتر - أكثر من أي فرد آخر - مسئولا عن تحول دو بويز من ناقد حذر إلى ناشط مناضل.[٥٢]

ومع ذلك، كان دو بويز بطبعه وتدريبه وخبرته قادرا على أن يحقق هذا التمرد ثماره؛ فكما تشهد أعماله، كان يبني فكره ببطء وتروٍ. وكان الدليل على تطوره يتضح من منافحته عن الكفاح المسلح في دراسته التي تحمل عنوان "جون براونز John Browns"[٥٣] والتي نشرها دو بويز في ١٩٠٩؛ ومن خلال تجربته القصيرة مع الحركة الاشتراكية،[٥٤] وتحليله للأساس الإمبريالي للحرب العظمى؛[٥٥] وردود أفعاله على روسيا البلشفية؛[٥٦] والإحباط والتوافق الذي عانى منه خلال الدفاع عن بني جلدته على المستوى القومي والدولي في ظل "سياسة ديمقراطية برجوازية" تأتي رد فعل على وعي سلالي يزعم تفوق البيض.[٥٧] وفي الوقت الذي حدثت فيه أكبر أزمة في تاريخ الرأسمالية العالمية، كان دو بويز ينفصل بوعي عن الأسطورة وتعديلاتها أيضا.

دو بويز وإعادة بناء التاريخ والفكر السياسي الأمريكي

في ١٩٣٥، نشر دو بويز عمله التاريخي الثالث عن القوى الاقتصادية والآليات الديناميكية التي أعطت أمريكا في القرن التاسع عشر طبيعتها. وعلى عكس الدراستين السابقتين - "قمع تجارة الرقيق الأفريقي" و"جون براون" - اللتين كانتا أكثر تقليدية من حيث الرواية والتحليل، كانت دراسة "إعادة بناء السود في أمريكا Black Reconstruction in America" تملك نظرية للتاريخ . وكانت تلك النظرية تعتمد على أساس التحليل الاقتصادي والكفاح الطبقي(٥٨) ولم تكن مجرد عمل تاريخي بسيط، بل كانت تمثل إخضاع التاريخ لنظرية. وكانت تركز على العلاقات بين الأشياء.

ومع ذلك، لم يهمل دو بويز لعبة التاريخ، أي السيناريو. فقد كان ينوي- وقد فعل - أن يتتبع الظاهرة الجوهرية للحرب الأهلية الأمريكية وما تلاها، أي "إعادة البناء". حيث ظهر من بحثه تركيب منقح جيدا لتلك الفترات التي تمثل نقدا للرواية التاريخية الأمريكية مع تحيزاتها السلالية، وإقليميتها الاستبدادية، والتزاماتها الفلسفية المشوهة. وكذلك، من الناحية المنهجية، كان عمل "إعادة بناء السود" يتمتع بحالة من الدقة والوعي تناظر وتتخطي عمل أولريش فيليب المبكر الذي يحمل عنوان "رق الزنوج الأمريكيين".

ويبدو أن دو بويز - في محاولته للتحديد الدقيق لما كان يعتبره السمة الحقيقية لحقبة إعادة البناء - قد أدرك الحاجة إلى العودة إلى التجربة والتدريب في البحث التاريخي والكتابة التي جمعها في جامعة هارفارد وجامعة برلين في أواخر القرن التاسع عشر، ولكنه تجنب ذلك في عمله "جون براون". وكان يجب أن يتطابق تفسيره المختلف جذريا للحرب ومع بعدها مع القواعد المنهجية للتأريخ، حتى يستطيع تغيير جوهر ذلك التراث.

ومع ذلك، جاء عمل "إعادة بناء السود" نتيجة لهدف آخر، وهو الاهتمام الذي كان مختلفا عن مهمة المراجعة التاريخية. فقد ألــزم دو بــويز نفــسه بتطوير نظرية للتاريخ، والتي من خلال تركيزها على العمــل الجمــاهيري كانت ستمثل نقدا لأيديولوجيات الحركات الاشتراكية الأمريكية، ومراجعــة لنظرية ماركس في الثورة والصراع الطبقي. ومن خلال الحــرب الأهليــة الأمريكية و"إعادة البناء"، حاول دو بويز أن يحدد السمة الفريدة لكــل مــن الممارسة الجماهيرية، الوعي الطبقي، الأيديولوجية، والتناقض، وذلك كمــا حدثت في جدليات التطورات الاجتماعية والتاريخية الأمريكية. وبذلك، كــان يتخطى دعوى "الاستثنائية" الأمريكية التي استمرت في أيديولوجية اليــسار الماركسي الأمريكي.(٥٩) فقد كان يحاول أن يحدد بصورة تاريخية وتحليليــة تلك العمليات التي منحت الديناميكية الاجتماعية الأمريكية سماتها وإمكاناتها خلال سنوات "الكساد".

وفي النهاية، كان عمل "إعادة بناء السود" عملا سياسيا. ففي المواجهــة مع النخب الأمريكية القومية والرجعية على مستوى التأريخ، وفي المواجهــة مع اليسار السياسي من حيث نظرية الرأســمالية وأيديولوجيــة الاشــتراكية الصاعدة، كان دو بويز يحاول إيقاظ وتوجيه القيادة الثورية السوداء.

وبالنسبة لهذه الاهتمامات المتعددة، فقد وضح موقفه تماما في ١٩٣٣ – وهي الفترة التي تتوافق مع كتابة "إعادة بناء السود" – في محاضرة شــهيرة ألقاها على المشاركين في مؤتمر برعاية "صندوق روزنفالــد" فــي جامعــة هوارد. حيث كرس نفسه للدور الذي لعبته النخبة الفكرية الأمريكية قائلا:

"إذا قدمنا تفويضا للسيد روزفلت في التدخل في إدارة الدولار، وإذا منحنا السيد هتلر الحق في طرد اليهود، وإذا منحنا موسوليني الحق في تقرير مصير إيطاليا بدلا عن الشعب الإيطالي، فإننا نفعل ذلك لأننا لا نعرف شيئا بأنفسنا. فنحن كأمة نجهل وظيفة ومعنى المال، ونحن نتلفت حولنا يائسين لنرى ما إذا كان هناك آخرون يعرفون. وهذا ليس فشلا للديمقراطية، كما يفترض البعض بل إنه فشل التعليم والعدالة والحقيقة. لقد كذبنا طويلا بشأن النقود والتجارة، ونحن لا نعرف الآن أين هي الحقيقة".(٦٠)

ومما شك فيه، أن دو بويز كان يربط فشل الأمة الأمريكية في تحقيق سياسة فعالة في خضم "الكساد" "بحقيقة أنه لم تكن لديها ديمقراطية ذكية ...". حيث كان يعتقد أن هذا كان نتيجة للخداع وسوء الفهم الأيديولوجي الذي ميز الفكر الأمريكي الليبرالي. وبالعودة إلى اليسار الأمريكي، كان دو بويز أكثر انتقادا. فبالنسبة للحزب الشيوعي الأمريكي (CPUSA)، أعلن دو بويز:

"تتمثل المهمة التي أعد نفسي لها حاليا في إضعاف حدة الشقاق الذي يدقه الحزب الشيوعي في مجموعتنا... وأنا أفعل هذا ليس بسبب أية عداوة أو خوف أو خلاف جوهري مع الشيوعيين. فلو كنت في روسيا، لكنت شيوعيا متحمسا. ولو كان لدى الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة القيادة والمعرفة التي يتطلبها وضعنا، فمن المؤكد أنني كنت سأنضم إليه، ولكنه يجهل الآن حقيقة وتاريخ المشهد الأمريكي، ويحاول أن يركز بشدة على حقيقة أن القادة الطبيعيين للشعوب الملونة، والطبقات المتعلمة والمدربة لديها اهتمامات وأهداف تختلف عن جماهير الزنوج.

وهناك حقيقة جزئية في هذا، وهناك زيف جزئي أيضا... إذ إن التحيز السلالي الأمريكي ربط جماهير الزنوج معا بشدة لدرجة أنها لم تنقسم إلى مثل هذه الطبقات الاقتصادية؛ ولكنها من ناحية أخرى، لا شك أن لديها أيديولوجية، ولو كانت متحررة لكنا رأينا داخل سلالتنا نفس هيكل الاستغلال الذي نراه حولنا".(٦١)

ونظرا لانهماكه في البحث في "تاريخ العمالة" بعد الحرب الأهلية، كان دو بويز مدركا للمشاكل التي أحاطت بالحركات الجماهيرية التي تجمع البيض والسود – وهي المشاكل التي شعر أن المتحدثين عن الشيوعية قد تجاهلوها.(٦٢) وعلى الرغم من أنه كان الآن بوضوح تجاه البرجوازية السوداء الصغيرة، فإنه كان لا يزال يعتمد على فكرة التضامن السلالي (المفروضة من الخارج) للدفاع عن طبقته من هجمات اليسار. ولكن دو بويز كان قد بدأ في تعديل برنامج "العُشر الموهوب" للتعبئة الاجتماعية. ففي المؤتمر، كان يبدو متضايقا على الأقل من "الطليعة" التي كان مرتبطا بها سابقا. وعلى قدر من الحقيقة، كان يبدو أنه يراجع موقفه. إذ إن نخبة السود التي كان متفائلا بها من حيث وظيفتها "الطبيعية" في القيادة، أصبح يعتبرها الآن رجعية أيديولوجيا، وهذا هو الدرس الذي كان يتعلمه داخل "الجمعية القومية لتقدم الشعوب الملونة".(٦٣) حيث أصبحت مسألة الأيديولوجية وتأثيرها على الدوافع الإنسانية والعلاقات الاجتماعية موضوعا مسيطرا في "إعادة البناء". ولكن أهميتها المباشرة كانت تتمثل في التأثير على فكر دو بويز. فقد أجبرته على إعادة تقييم جماهير السود وأهميتها الثورية. حيث بدأ على الأقل في تشكيل استجابة ملزمة لاتهام الطبقة الوسطى للسود ونخبتها الفكرية، والتي مثلتها الأحداث الأخيرة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وفي مقدمة تلك

الأحداث: ظهور الحركة الجماهيرية، وتشكيل الرابطة العالمية لتحسين أوضاع الزنوج"؛ وتحويل القوميين المسلحين أنفسهم إلى رابطة "إخوان الدم الأفريقي"؛ والانكسار في حادثة سكوتسبورو(*)، وهي الحادثة التي تسببت في تحريض الرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة NAACP ذات التوجه المحافظ ضد موقف الحزب الشيوعي في "دفاعه عن العمال عالميا".(٦٤)

وطبقا لانتقاداته للحزب الشيوعي الأمريكي، كان دو بويز يكرس نفسه مباشرة لمشكلة اغتراب نخبة السود عن جماهير السود. وقد فعل ذلك جزئيا بمهارة من خلال تذكير هذه النخبة باعتمادها على الجماهير.(٦٥) ومع ذلك، لم يكن هو نفسه قد وصل بعد إلى مستوى الإدراك التاريخي الذي أظهره لاحقا في عمله "إعادة بناء السود". حيث توصل فيه إلى إدراك القوى التاريخية الصاعدة من الشعب، خاصة قدرات جماهير السوداء على القيام بخطوات حاسمة على طريق تحررها.

(*) قضية سكوتسبورو Scottsboro (وتعرف أيضا باسم صبية سكوتسبورو)، حادثة تم فها اتهام ٩ من المراهقين السود باغتصاب سيدتين من البيض خلال رحلة قطار إلى بلدة سكوتسبورو في ولاية ألاباما عام ١٩٣١. تضمنت الحادثة مجموعة مميزة من القضايا القانونية المنبثقة عن هذا الحادث العنصرية وحق المحاكمة العادلة. اشتملت تلك القضية على التلفيق، وتكوين هيئة محلفين جميعهم من البيض، ومحاكمات سريعة، ومحاولة إصدار حكم بالإعدام خارج الإطار القانوني وحشد جماهيري غاضب ضد السود، وبشكل عام تعد مثالا لسوء تطبيق العدالة. صدر حكم باتهام الصبية جميعا بالاغتصاب وحُكم عليهم بالإعدام عدا صبي عمره ١٣ عامًا، وكانت الجملة الشائعة في ألاباما في ذلك الوقت هو أن الرجال السود أدينوا باغتصاب السيدات البيض. تمكن الحزب الشيوعي الأمريكي من الدعوة لإعادة المحكمة أمام محكمة أخرى، وهنا ظهرت مفاجأة جديدة حيث اعترفت إحدى السيدتين بأن القصة لها مفبركة، لكن المحكمة أقرت معاقبة الصبية وتم في النهاية تخفيف أحكام الإعدام إلى السجن مدى الحياة والحكم بالإعدام على فرد واحد منهم. تمكن المحكوم عليه بالإعدام من الفرار من السجن وظل مختفيا إلى أن صدر بحقه عفو. تمثل القضية مثالا على العنصرية وفساد القضاء الأمريكي خلال تلك الفترة. (المترجم)

وأخيرا، نجد في محاضرة مؤتمر روزنفالد أن تحليل دو بويز "للكساد"، الذي كانت تعانيه الرأسمالية العالمية في ثلاثينيات القرن العشرين، يوازي تحليله للأزمة التي سببها الرق في المرحلة الأولى من تطور الرأسمالية الأمريكية. فمن الناحيتين السياسية والاقتصادية، كان "الكساد" وأزمة الرق يحدثان تحولا كبيرا في نمط العلاقات الرأسمالية. وكذلك، أدى كل منهما إلى إثارة الحركات الثورية والتغير الاجتماعي الثوري.(٦٦)

"يتمثل الأمر الأكثر أهمية هنا في أنه بدلا من مواجهة عالم مستقر يتحرك بمعدل تقدم منتظم نحو أهداف محددة جيدا، فإننا نواجه اليوم ثورة. وأنا واثق من أنكم لن تكونوا خائفين بسبب هذه الكلمة كما كنتم يوم الخميس [كان دو بويز يشير إلى رد فعل الجمهور على خطاب د. برواداس ميشيل من جامعة جون هوبكنز]. وأنا لا أناقش ثورة قادمة، ولكنني أحاول أن أؤكد لكم على حقيقة أنكم بالفعل في خضم ثورة؛ وأنكم بالفعل في غمار حرب؛ وأنه لم تكن هناك حرب في العصور الحديثة أخذت الكثير من التضحية بالحياة الإنسانية والأرواح البشرية مثلما أخذته الفترة الاستثنائية التي نمر بها اليوم.

ويتصور بعض الناس أن الثورة عبارة عن دماء وبنادق، ووسائل مكشوفة من ممارسة القوة. ولكن كل هذا مجرد مظهر خارجي مؤقت. فالثورة الحقيقية في الداخل. وهذا يحدث قبل أو بعد الانفجار، إذ هي موضوع المعاناة والحرمان الطويل، وموت الشجاعة وانتصار اليأس المرير. وهذه هي المقدمة الحقيقية للتغيير الحاسم والهائل، وهذا هو الشيء الذي نعيشه الآن.

ونحن لسنا مدعوين لمناقشة ما إذا كنا نريد ثورة أم لا. فنحن نعيش فيها فعلا. ولكن مشكلتنا هي كيف سنخرج منها".(٦٧)

وهكذا فإنه عند المراجعة نجد أن دو بويز علق على ضعف الثقافة الأمريكية ومؤسساتها السياسية في وجه أزمة عميقة في هيكلها الاقتصادي. وقبل ٢١ عاما من تاريخ إلقاء محاضرته هذه جرب دو بويز الاعتماد على الحزب الاشتراكي الأمريكي ووجده عاجزا، وكان مهتما بعدم قدرة اليسار الأمريكي ممثلا في الحزب الشيوعي الأمريكي CPUSA على أن يحدد بوضوح القوة المادية للتحيز السلالي المرتبطة بكفاح اليسار من أجل تدمير الرأسمالية واستبدالها بالاشتراكية. وعرض دو بويز للأيديولوجية التاريخية والمادية التي سادت النخبة السوداء وقادتها. وأخيرا، أظهر فشل الثوريين الأمريكيين في التعرف على أن أحد الشروط الموضوعية للثورة - وهو الشرط الذي يتخطى الهجوم على الأزمة الاقتصادية والبؤس - يتمثل في الوعي بالعمليات الاجتماعية للثورة.

ومع ذلك، كان دو بويز مهتما بالأسباب التي جعلت هذه الأشياء حقيقية بالنسبة للمجتمع الأمريكي في ثلاثينيات القرن العشرين. وكان مهتما بتحديد كيف كان بوسع الثقافة الأمريكية ومؤسساتها أن تصبح مغتربة عن المثل الديمقراطية التي ارتبطت بها طويلا على المستوى الهيكلي والأيديولوجي، وكيف كان الاشتراكيون الأمريكيون غير مؤهلين هكذا للتعامل مع العمال السود، ومجتمع السود، والعلاقات الاجتماعية للشعوب السوداء؟ وكيف أصبحت نخبة السود مرتبطة أيديولوجيا بالرأسمالية، ونمت مغتربة ومحتقرة للشعوب السوداء؟ ولماذا أسيئ فهم النظرية الثورية الأمريكية في القرن

العشرين، وأصبحت الحركة الثورية غير معترف بها، وأصبح التغير والتحول الثوري مسألة طارئة وليست واقعية؟ وكان يعتقد أن الإجابة عن هذه الأسئلة تكمن في تاريخ الجمهورية. وبالتحديد، كان يبحث عنها في تناقضات ذلك التاريخ.

الرق والرأسمالية

لقد حدد دو بويز في بداية عمله "إعادة بناء السود" التناقض الرئيس في التاريخ الأمريكي؛ وهو التناقض الذي سيدمر الأيديولوجية المؤسسة لأمريكا، ويشوه مؤسساتها، ويهدد علاقاتها الاجتماعية وتكويناتها الطبقية، بل وسيربك متمرديها وثورييها في القرن العشرين، حيث يقول:

"منذ يوم ميلادها، كانت مساوئ الرق تضرب الأمة التي كانت تؤكد على المساواة بين الجميع، وتحاول أن تستمد سلطات الحكم من موافقة المحكومين. وفيما بين أصداء أصوات الذين قالوا هذا، كان يعيش أكثر من نصف مليون من الرقيق السود، الذين يشكلون خمس سكان الأمة الجديدة.(ص ٣)[٦٨]

وهكذا كان العمال السود – الذين مثلوا حجر الأساس للنظام الاقتصادي الجديد في القرن التاسع عشر وللعالم الحديث – هم الذين أشعلوا الحرب الأهلية في أمريكا. وكانوا سببها الرئيس، عى الرغم من جميع الجهود لتأسيس الكفاح على الوحدة والقوة القومية". (ص ١٥)

ودعونا الآن نهتم بتركيز على ما كان يقوله دو بويز: فقد كان الرق يمثل المؤسسة التاريخية الخاصة التي دخل من خلالها "العمال" السود إلى النظام العالمي الحديث. ومع ذلك، لم يكن "الرق" هو الذى يمكن أن يجعل

المرء يدرك أهمية هؤلاء الرجال والنساء والأطفال السود بالنسبة للتطور الأمريكي. بل كان "العمل". ولذلك كان الفصل الأول في كتابه "إعادة بناء السود" بعنوان "العامل الأسود".

وكانت شروط تحليل دو بويز عن العمالة السوداء مهمة. حيث كانت أطروحته في هذا الصدد جزءا من بدايته لتحويل تأريخ الحضارة الأمريكية، أي تسمية الأشياء بأسمائها. فعند تغيير أسماء الأشياء، حاول أن يضع الأساس لصياغة جديدة لمفاهيم علاقاتها. وفي الفصول الثلاثة الأولى من عمله، وضع دو بويز قواعد تحليله. ولم يستطع أن يصوغ مفهوم مؤسسة الرق الأمريكي بفعالية كشيء مستقل بذاته. ولكنه كان تطورا تاريخيا خاصا للرأسمالية العالمية التي استولت على عمل العمال الأمريكيين كتراكم أولي. فقد كان الرق الأمريكي "نظاما فرعيا" من الرأسمالية العالمية. وهنا يقول دو بويز:

"أصبح العامل الأسود حجر الأساس، ليس للهيكل الاجتماعي الجنوبي فحسب، بل وللصناعة والتجارة الشمالية، ونظام المصانع الإنجليزي، والتجارة الأوروبية، والبيع والشراء على نطاق عالمي؛ وكانت المدن الجديدة تبنى على نتائج عمل السود، وهكذا ظهرت مشكلة عمالة جديدة تشمل كل عمالة البيض في كل من أوروبا وأمريكا". (ص ٥)

وكان الرق الأمريكي يتكون أيضا من علاقات اجتماعية أخذت طابعها من أيديولوجية التفوق السلالي للبيض. وهنا يقول دو بويز:

"في ١٨٦٣، كان هناك معنى حقيقي للرق يختلف عما نطبقه على العامل الآن. فقد كان هذا المعنى نفسيا في جزء منه، ويمثل الشعور الفردي المفروض بالدونية، ونداء الآخر الأبيض بلقب "سيدي"، والوقوف تبجيلا مع

إمساك القبعة في اليد. فقد كان هذا هو العجز. وكان يمثل عدم القدرة على الدفاع عن الحياة الأسرية. وكان يمثل الخضوع للرغبة الاستبدادية لأي نوع من الأفراد. (ص ٩)

"لقد عاد القادة الدينيون الخاضعون [في الجنوب] إلى "لعنة كنعان(*)"؛ وجمع العلماء المزيفون كل المناهج المتاحة عن الدونية السلالية واستكملوها؛ وكررت مدارسه المتناثرة ودورياته المتشدقة هذه الأساطير... واعتبرها أساسا للتفسير، وتم بناء الإنسانية والعلم من أجل رق الزنوج". (ص ٣٩)

وكان كل هذا ضروريا لاستمرار الرق طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولتطوره السريع في أوائل القرن التاسع عشر. أي إن نسيج الأمة سيتطور مشبعا بماضي الرق.

العمل، ورأس المال، والرق

كان دو بويز يقول إنه بمجرد تناول الرق بصورة شاملة، من منظور التاريخ العالمي، سيتم الكشف عن طبيعته الحقيقية. حيث تكمن تحت مظهرة

(*) لعنة كنعان Curse of Canaan هو الخطأ الشائع الذي اكتسب صفة الصواب للاسم الصحيح "لعنة حام Curse of Ham": التي جاء في التوراة أن نوحا أنزلها على ابنه. كان حام بن نوح ارتكب فعلا مشينا، لكن بدلا من ان ينزل نوح لعنته على ابنه حام مباشرة أنزلها على ابن حام: كنعان (على نحو ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١٨-٢٧). وعلى مدار قرون طويلة دارت مناقشات جدلية حول طبيعة اللعن، ولماذا وجه نوح اللعنة إلى كنعان الذي لم يرتكب شيئا بدلا من أن يكون الملعون هو حام المتهم. وتم استغلال تفسير القصة لأهداف عنصرية، فقد استغل اليهود جانبا من القصة لتبرير الإخضاع القسري للكنعانيين (أجداد الفلسطينيين). ثم جرى تفسير عنصري آخر، وهو الترويج بأن حام (ذو اللون الداكن) تلقى لعنة من أبيه ليكون عبدا لأخويه سام ويافث! وكان ذلك مبررا دينيا للاستعماريين لاستعباد الشعوب السوداء (الملعونة) بقرار إلهي. (المترجم).

(كزراعة إقطاعية) العلاقة الحقيقية للرق بظهور الرأسمالية الحديثة. ونظرا لأن أمريكا كانت قطاعا فرعيا حيويا لهذا النظام المتطور، فإن الصراعات بين العقيدة والحقيقة الأمريكية، وتناقضات المجتمع الأمريكي، وتشوهات هياكله الاجتماعية ومؤسساته السياسية الناتجة عن اعتمادها على الرق، سوف تستمر في أرجاء النظام حتى القرن العشرين.[٦٩] وهكذا لم يكن الرق مجرد انحراف تاريخي، ولم يكن "خطأ" في عصر ديمقراطي برجوازي. بل كان "منهجيا"، ولا تزال آثاره مستمرة كذلك. وفي ذلك يقول دو بويز:

"هنا تكمن مشكلة العمالة الحديثة. وهنا لب مشكلة "الدين" و"الديمقراطية" عند "الإنسانية". فالكلمات والإشارات العقيمة لا تحقق شيئا. فقد تحقق "فائض القيمة" من استغلال البروليتاريا الملونة، وانتزع هذه الأرباح من صدور البشر التي تضمه وتخفيه في الأراضي المزروعة و"الآلات" و"الطاقة" المسخرة. إذ إن تحرير الإنسان هو تحرير العمال، وتحرير العمال هو تحرير تلك الغالبية العظمى من العمال الصفر والملونين والسود". (ص ١٦)[٧٠]

وفي أمريكا، كان "العامل الحر" - الذي يقدم غالبيته العظمى المهاجرون الأوروبيون من أيرلندا وإنجلترا وإيطاليا - يتأثر بصورة واضحة أيضا، وفي ذلك يقول دو بويز:

"بينما كانت العمالة الجديدة القادمة إلى الولايات المتحدة فقيرة، كانت معتادة أيضا على القمع وانخفاض مستوى المعيشة، وبعد وصولها إلى أمريكا، لم تكن راغبة في اعتبار نفسها طبقة عاملة دائمة، ولذلك يجب دراسة الحركة العمالية بين الأمريكيين البيض في ضوء هذه الحقيقة. حيث تكونت الطبقة العاملة الأمريكية الناجحة التي تحصل على أجور جيدة بسبب

سماتها ومُثلها، فقد كانت برجوازية صغيرة مستعدة دائمـا للانـضمام إلـى رأس المال في استغلال العمالة المشتركة، سواء كـانوا بيـضا أو سـودا، أجانب أو محليين". (ص ١٧)

ومع تجنب التقاليد التي كانت تتشكل في حركات العمـال الأوروبيـة، والتي كانت تتحول إلى الاشتراكية الدولية الأولى والثانية في القرن التاسـع عشر، والحركات النقابية والفوضوية، أصبح العمال الأوروبيون المهاجرون مهتمين بإمكانية تراكم الثروة والسلطة، ليصبحوا رأسماليين.

وهكذا أصبحت الليبرالية الأمريكية في القرن التاسع عشر، بمُثلها فـي الفردية ومعاداة الاشتراكية، واضحة بطريقة خاصة. وتشكلت طبيعتها عبـر نظام اقتصادي يحد بشدة من الرفاهية المادية، ووعي عنصري قام في نفس الوقت بإبعاد جزء كامل من الطبقات العاملة – السود – عن إمكانية الوصول إلى تلك الرفاهية، مع تقديم مقياس زائف لمكانة العمال غير الـسود. وهنـا يقول دو بويز:

"لم يستطع أعقل القادة أن يتصور بوضوح كيف أن عمالة الرق – من خلال الاقتراب والمنافسة مع العمالة الحرة – كانت تميل إلى سحب العمالـة كلها إلى الرق". (ص ١٩)

وقد استطاعت أقلية فقط من هؤلاء العمال غير الـسود أن تنـضم إلـى الأحرار والمثقفين الليبراليين لتكوين حركة إلغاء الـرق.[٧١] وقـرر دو بـويز في وقت مبكر في ١٩١٥ أن "أرستقراطية العمل" التي نتجت عن نقابات العمال في حركة العمال المسلحة – في ألمانيا، إنجلترا، وفرنسا وفي الولايات المتحـدة

أيضا - كانت سندا قويا للإمبريالية والاستعمار في أواخر القرن التاسع عشر.[٧٢] ففي الولايات المتحدة، أصبحت عمالة السود وغير السود متعارضتين سياسيا "بدلا من أن تصبح حزبا كبيرا واحدا". إذ إن حركة الطبقة العاملة لغير السود في الشمال استبعدت فعليا الأحرار والرقيق والخمسة ملايين من البيض الفقراء في الجنوب. (بل إنها كانت أكثر إقصاء بصورة خاصة بعد ١٨٥٠، حيث ركزت على قاعدة العمال والحرفيين الصناعيين المهرة). ولكن العداء العام كان هو الذي يغلف العمال السود وغير السود. فخلال الحرب الأهلية ذاتها، كان هذا الصراع يندلع في صورة حروب عنصرية ضد السود. ومع إقرار مشروعات قوانين ١٨٦٣، ومع تشجيع الديموقراطيين من شمال الولايات المتحدة المعروفين باسم "الرؤوس النحاسية(*)" المؤيدين للرق والمؤيديين للجنوب، تحوّل إحباط العمال غير السود (بسبب ظروف حياتهم وعملهم والحرب) إلى موقف عدائي ضد السود. ففي صيف ١٨٦٣، قتل الغوغاء من العمال البيض في مدينة نيويورك مئات من السود. وهنا يقول دو بويز:

"يقول تقرير لجنة ميركانتس Merchants' Committee عن مشروع مكافحة شغب الزنوج: "تعرض الزنوج لحملة إرهاب بعد تعرضهم للقتل على أيدي الغوغاء، الذين قتلوا عددا من السود بوحشية الأسبوع الماضي بشنقهم على الأشجار وأعمدة الإنارة، وسلبوا وضربوا بوحشية كثيرين آخرين، وحرقوا

(*) الرؤوس النحاسية Copperhead: مجموعة صاخبة من الديمقراطيين في شمال الولايات المتحدة الأمريكية من الائتلاف الذي عارض الحرب الأهلية الأمريكية، وطالب بتسوية سلمية عاجلة مع الولايات الكونفدرالية. بدأ الجمهوريون في نعت الديمقراطيين الرافضين للحرب بـ"الرؤوس النحاسية" تشبيها لهم بالأفاعي السامة. بينما قبل الديمقراطيون السلميون تلك التسمية، وأعادو تفسير "الرأس" النحاسي باعتباره رمزا للحرية. انتهى بهم الحال إلى الهزيمة بعدما وجهت لهم تهمة التآمر مع الجنوب. (المترجم)

وسلبوا المساكن، وطردوهم كلهم تقريبا من الشوارع والأزقة وأحواض السفن التي كانوا يحصلون منها على حياة شريفة على الرغم من تواضعها. وفي ذلك اضطر هؤلاء الزنوج إلى اللجوء إلى جزيرة بلاكويل، ومراكز الشرطة، وأطراف المدينة، والمستنقعات والغابات خلف بيرجين ونيوجيرسي في ويكسفيل، وفي الحظائر والمساكن الخلوية لمزارعي لونج أيلاند وموريسانيا". (ص ١٠٣)

وكان دو بويز يعود لأكثر من مرة في عمله "إعادة بناء السود" وفي افتتاحيته التحريرية في صحيفة "كرايسيس"، وغيرها من الأعمال، إلى هذه الفترة لكي يحدد جذور العنف العنصري في الحركة العمالية في القرن العشرين. إذ كان يعتقد أنها تقدم تفسيرا لتراث الشك الموجود لدى السود تجاه العمل المنظم.

وما كان ينطبق على التيار العام للحركة العمالية الأمريكية كان يمثل أيضا عاملا في التقاليد الراديكالية في البلاد. فعلى الرغم من أن اشتراكية منتصف القرن التاسع عشر كانت قد جاءت إلى هنا من دول أوروبية، حيث كانت الكراهية تجاه السود غير منطقية، فإن أنصار هذه الاشتراكية لم يكونوا قادرين بصفة عامة على مقاومة الآثار السلبية للرق. وكان هذا ينطبق على كل من الاشتراكيين الماركسيين وغير الماركسيين. وكانت السوابق التي استقرت خلال هذه الفترة لا تساعد الاشتراكيين كثيرا في القرن العشرين، سواء كانت برامجهم موجهة بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى "مشكلة الزنوج".

"وحتى عندما وصلت الأفكار الماركسية، كان هناك انقسام؛ حيث اتفق الممثلون الأوائل للفلسفة الماركسية في أمريكا مع الحركة النقابية القديمة على استنكار أي تورط في جدل إلغاء الرق. وعلى أي حال، كان إلغاء الرق يمثل

رأس المال. وكانت الحركة كلها تقوم على مشاعر عاطفية، ولـيس علـى مطالب العمال، والعمال البيض على الأقل. وهكذا تخلت الماركسية الأمريكية المبكرة عن فكرة دخول العمال السود في الكومنولث الاشتراكي فـي ذلـك الوقت". (ص ٢٤-٢٥).

وعلى الرغم من وجود استثناءات،(٧٣) فإن عدم وجـود تطـابق بـين مصالح العمال السود وغير السود كان واضحا تماما في الحركة العماليـة. ففي كل مكان - فيما بين الذين ينظرون للحركة من منظور سياسي انتخابي، أو الذين يؤيدون العنف الثوري، أو الذين كانوا ملتزمين بالاتحادات العمالية الاقتصادية - كانت الحركة العمالية غالبا مترددة تجاه تحرير وتقدم الـسود في أفضل الأحوال. حيث عملت الأيديولوجية العنصرية مع المصلحة الذاتية على إثارة العمال البيض الفقراء ضد العمال السود والرقيق.

وبعد الحرب الأهلية، قام هذا الوعي الاجتماعي ذاته بفصل الطبقـات العاملة - من المهاجرين والبيض - عن الرقيق السابقين. ومنذ أكثـر مـن عشرين سنة قبل ظهور "إعادة بناء السود"، وبينما كانت تجربته مع الحـزب الاشتراكي لا تزال ماثلة في ذهنه، اعترف دو بويز بأن هـذا كـان يمثـل تناقضا في الحركة العمالية.(٧٤)

وخلال السنوات الوسيطة، لم يتبدد غضب الوعي الاجتماعي. وعنـدما ظهر هذا الوعي ثانية في "إعادة البناء"، لم يعد يمثل مجرد تحـذير بـسيط لحركة عمالية مهملة، بل أصبح يمثل إدانة لها. ففي ذلـك الوقـت، كانـت الحركة العمالية ورأس المال أطول عمرا، وفي أزمة عميقة فعلا. وفي ذلك الوقت أيضا، تحدث دو بويز كثوري أسود قائلا:

"في الحقيقة، يمكن إرجاع مأزق الطبقة العاملة البيضاء في أنحاء العالم الآن مباشرة إلى رق الزنوج في أمريكا، حيث قامت عليه الصناعة والتجارة الحديثة، والذي استمر يهدد العامل الحر حتى الإطاحة به جزئيا في ١٨٦٣. ووجدت الطائفة الملونة حديثة التكوين دعما ورعاية من الرأسمالية، وتشجيعا من العمال البيض، مما أدى إلى خضوع عمالة الملونين لصالح البيض في أنحاء العالم. وهكذا أصبح معظم عمال العالم، بسبب إصرار العمال البيض، أساسا لنظام صناعي دمر الديمقراطية وأظهر أحسن ثماره في الحرب العالمية الأولى والكساد. ولذلك يحاول كتابنا "إعادة بناء السود" كتابة هذه القصة". (ص ٣٠)

الرق والديمقراطية

لاحظنا سلفا كيف أن فكرة الرق في ذهن دو بويز كانت تتعارض مع مُثل الديمقراطية. إذ إن الأيديولوجية اللازمة لتبرير الرق لا تسمح بمزيد من تطور الديمقراطية الليبرالية، إلا كأسطورة فقط. وقد أدرك دو بويز أن العلاقة بين الرق والديمقراطية أكبر من مجرد صدام أفكار. وكان موقفه من التاريخ مشابها في هذا المجال لموقف ماركس وإنجلز في "الأيديولوجية الألمانية". وفي ذلك يقول ماركس وإنجلز:

"يتوصل هذا المفهوم للتاريخ إلى استحالة تفكيك كل أشكال ومنتجات الوعي عبر النقد العقلي، أو باللجوء إلى "الوعي الذاتي" أو التحول إلى "أشباح" أو "أوهام" أو "خيالات"، إلخ، ولكن ذلك يتأتى من خلال الإطاحة العملية بالعلاقات الاجتماعية الفعلية التي أدت إلى ظهور هذا الخداع النموذجي".[٧٥]

وبالنسبة إلى دو بويز، كان خلق هذه المؤسسات والهياكل السياسية التي تتطابق مع الديمقراطية الأمريكية، يتضمن التوافق مع الطبيعة الاقتصادية للبلاد، أي مع نظام الرق والرأسمالية. وهكذا فإنه على الرغم من أن الدستور الأمريكي يعكس سلطة نظام الرق المزرعي(*) في أدوات التمثيل النيابي فقط، كان هذا بمثابة ميزة كافية لسيطرة تلك الطبقة على الحكومة الاتحادية خلال العقود العديدة الأولى للجمهورية. وكان هذا يعني سيطرة طبقة تتكون من ٧٪ فقط من سكان الجنوب. ويوضح دو بويز الأمر قائلا:

"تمكنت طبقة أصحاب المزارع عبر التاريخ الأمريكي من اختيار ١١ من ١٦ رئيسا، و١٧ من ٢٨ قاضيا في المحكمة العليا، و١٤ من ١٩ نائبا عاما، و٢١ من ٣٣ متحدثا عن المجلس، و٨٠ من ١٣٤ وزير خارجية". (ص ٤٧)

وترتب على هذه السلطة أن أسس هذا الحكم كيانا قانونيا يتخلص فعليا من الحقوق المدنية لتسعة ملايين من العمال البيض الفقراء والسود الذين كانوا موجودين في الجنوب في منتصف القرن التاسع عشر. واجتاز هذا الانقلاب في أدوات الديمقراطية النيابية الحرب الأهلية وإعادة البناء، واستمر حتى القرن التالي، على الرغم من تحديات الشعوبية والعمل المنظم والراديكالية السياسية والكساد والحركة الجماهيرية السوداء (يونيا UNIA).[٧٦]

(*) سلطة نظام الرق المزرعي Plantocracy: سلطة نظام الرق، والتي تعرف أيضا بالرقّراطية Slavocracy: طبقة حاكمة، نظام سياسي او حكومة تتألف من (أو يهيمن عليها) أصحاب المزارع. كان عدد من أوائل المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد يقوم على هذا النظام، والتي كانت عادة ما تتكون من المستوطنات الأوروبية الصغيرة، والتي يعتمد سكانها في أغلبهم على رقيق غرب أفريقيا (بالإضافة إلى أعداد أقل من رقيق عاملين بالسخرة، سواء كانوا في الأصل أوروبيين أو غير أوروبيين) وبعد ذلك من السود المحررين أو الفقراء البيض كأيد عاملة. ثبت أن تلك السلطات كانت القوة الحاسمة في الحركة المناهضة لإبطال الاسترقاق. (المترجم)

وانتقلت الفيدرالية إلى حقوق الولايات والغطاء الأيديولوجي للرق أولا، ثم قوانين السود، الزنجية، وأشكال القمع المعاصرة. وكان كل تحرك في أدوات القمع يرتبط بأشكال متغيرة من الاستغلال، وذلك مع انتقال السود من كونهم رقيقا إلى كونهم مشاركين في المحصول وعمال سخرة، وأخيرا، إلى كونهم بروليتاريا أو عمالة احتياطية.

وفي الشمال، كانت "ديكتاتورية الملكية الخاصة" واضحة في رأس المال والاستثمار. ولكن نظرا لأنهم لم يكونوا أثرياء أو أقوياء مثل أصحاب المزارع في البداية، تطور التجار والمصنعون والصناعيون على حساب زراعة الجنوب والعمل الأوروبي. واستغل الشمال عمالته بصورة أكثر كفاءة، ولم يكن عليه تحمل تكاليف تطويرها في السنوات غير المنتجة. حيث تحمل هذه التكاليف القطاعات الاجتماعية الاقتصادية في أيرلندا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا. وقدم الشمال الوسطاء بين الجنوب وأسواقه الأوروبية والمحلية؛ ووفر الشحن والنقل لمنتجات الجنوب. وشارك أيضا في عملية تطوير الاقتصاد القومي المتكامل تماما قبل الحرب الأهلية، بينما كان الجنوب يتحول إلى تابع بصورة مستمرة. ويقول دو بويز عن ذلك:

"في السوق العالمية، كان التجار والصناع يتمتعون بمزايا الاتحاد والمعرفة والهدف، وكانوا يستطيعون تخفيض أسعار المواد الخام. ولذلك، كان أصحاب الرقيق يعتبرون أن التجار والصناع في الشمال يحققون الثراء من نتائج زراعة الجنوب (ص ٤١). وكان المنافسون الرأسماليون في الشمال يعملون بجد، وكانوا متعصبين يعيشون ببساطة ويكرسون كل طاقتهم وذكائهم لبناء نظام صناعي. واحتكروا سريعا النقل والمناجم والمصانع، وكانوا أكثر رغبة في الحصول على مزارع كبيرة... وكانت النتيجة أن

الصناعة الشمالية والأوروبية أصبحت تحدد الأسعار لقطن وتبغ وسكر الجنوب، مما ترك هامشا ضيقا للربح للمزارع". (ص ٣٧)

واستمر رأس المال الصناعي والتمويلي في النمو حتى استطاع الصناعيون الشماليون تحدي السلطة السياسية لأصحاب المزارع. وبينما كان رأس المال ينمو، كان يقوض هياكل الديمقراطية أيضا:

"استسلم الشمال للديمقراطية، ولكن ذلك كان لمجرد أنها كانت مقيدة بديكتاتورية الملكية والاستثمار التي تركت في أيدي قادة الصناعة مثل هذه القوة الاقتصادية التي حققتها سيطرتهم وأرباحهم. وكانوا يعرفون تماما أنهم لا يستطيعون أن يحققوا لا أكثر ولا أقل من ذلك". (ص ٤٦)

وبمجرد أن ظهرت سيطرة الطبقة الصناعية في الأمة، كانت تمتلك أساس قوتها والعلاقات الاجتماعية التي ترتبط تاريخيا بالسلطة، بل وكان متاحا لها أدوات القمع الناتجة عن الطبقة الحاكمة الجنوبية الخاضعة الآن. ففي صراعها مع العمالة، استطاعت تنشيط النزعة العنصرية لتقسيم الحركة العمالية إلى قوى متناحرة. وكذلك، ظهر أن تبديل أشكال الأدوات لا نهاية له، حيث تباين ما بين تأليب الأنجلوساكسون ضد الأوروبيين الجنوبيين والشرقيين، والمحليين ضد المهاجرين، والبروليتاريا ضد المشاركين في المحاصيل، والبيض الأمريكيين ضد الآسيويين والسود والأمريكيين اللاتينيين، وهكذا.

إعادة البناء والنخبة السوداء

كان أحد أهم الجوانب الكاشفة في كتاب "إعادة بناء السود" يتمثل في تقييم دو بويز للبرجوازية الصغيرة للسود، حيث كان دو بويز أكثر ارتباطا

بهذه الشريحة من مجتمع السود خلال معظم سنوات عمره التي بلغـت ٦٧ سنة آنئذ. فللمرة الأولى في تصريحاته العامة، قرر دو بويز أن يكشف إلـى أي مدى ابتعدت نخبته المفضلة عن جماهير السود، من خلال منطق تطورها الخاص. فكما كان يرى، لم تكشف عملية التحول البرجـوازي والاغتـراب التي بدأت خلال الرق عن تناقضاتها حتى "إعادة البناء". وفجـأة، واجهـت البرجوازية الصغيرة التعبير السياسي عن عمالة السود:

"كان الفرق الذي تحقق الآن يتمثل في أن عددا كبيرا جدا من الزنـوج حصل على حق الاقتراع فجأة، وأن ٩٩٪ منهم كانوا ينتمون إلـى الطبقـة العاملة، بينما كان الزنوج الذين صوتوا حسب القانون في التـاريخ المبكـر للبلاد أصحاب ممتلكات في أغلب الأحوال، وكانوا يمثلون جمهورا متوقعـا، إن لم يكن فعليا، في البرجوازية الصغيرة". (ص ٣٥٠)

وخلال الأيام العصيبة الأولى التي أعقبت تحرر الزنوج ونهاية الحرب الأهلية الأمريكية، كانت البرجوازية الصغيرة للسود تتولى القيادة. ومع ذلك، بدأ فراغها الأيديولوجي والسياسي يظهر سريعا، وكانت قيادتها اسمية، وفي أفضل الأحوال كانت مجرد وسيط بين مطالـب جمـاهير السـود وسـلطة الطبقات الحاكمة:

"عندما تحققت الحرية، لم يكن هذا الحشد من عمالة السود بدون قيـادة فكرية، وهي القيادة التي لم تستطع الانفصال عن الجماهير العاملة، بسـبب التحيز العنصري السابق والحاجز اللوني الحالي، كما كان الحال مع البيض الفقراء... إذ إن الزنوج الأحرار من الشمال، والـذين ولـد معظمهـم فـي الجنوب وكانوا يعرفون أوضاعه، عادوا ثانية بأعداد كبيرة خلال إعادة البناء

واحتلوا مواقعهم كقادة. وكانت النتيجة أن الزنوج لم يكونوا، كما يـصورون أحيانا، مجرد مجموعة من الكادحين شديدي الجهل ...

ومع ذلك، لم تكن هذه القيادة واضحة تماما من حيث فكرها الاقتـصادي. فإجمالا، كانت تؤمن بتراكم الثروة واستغلال العمل كطريقـة عاديـة للتطـور الاقتصادي. ولكنها كانت تؤمن أيضا بالحق في التصويت كأساس للـدفاع عـن الحياة الاقتصادية، واضطرت تدريجيا، ولكن بيقين، بـسبب مطالـب جمهـور العمال الزنوج إلى مواجهة مشكلة الأرض. وهكذا تحول قادة الزنوج تـدريجيا، ولكن بيقين، إلى التركيز على التحرر الاقتصادي. (ص ٣٥٠-٣٥١)

ومع ذلك، كان لا بد من أن تتفكك هذه العلاقات المتوترة بين طبقـات النخب وعمالة السود. ويعتقد دو بويز الآن أنه يفهم القوى التـي أدت إلـى السخرية من التضامن الراديكالي الذي كانت تبشر به النخبة. فأولا كان هناك تناقض برجوازية السود الصغيرة، والتي يقول عنها دو بويز:

كانت قيادة السود متعددة الأنواع طبعا. فكان بعضهم مثل البيض ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة، ويحاولون الوصول إلى الثـروة؛ وكـان هنـاك آخرون متعلمون ويساعدون على تطور أمة جديدة بغض النظر عن الحواجز العنصرية البحتة؛ بينما كانت هناك مجموعة ثالثة مثالية تحاول أن تـنهض بالسلالة الزنجية وتضعها على نفس مستوى البيض.... ولكن لم يكـن فـي أذهان أي منهم أية خطة واضحة متميزة لتطوير طبقة عاملة لتصل إلى موقع السلطة والسيطرة على الدولة الصناعية الحديثة". (ص ٦١٢)

وكان عليهم التضحية بأنفسهم أحيانا عندما تعرضوا لأوضاع صـعبة بسبب الأحوال المتقلبة للامتيازات المصاحبة للتطور المستمر فـي الثـروة الصناعية في الشمال، وهنا يشير دو بويز:

"تركت مساومات ١٨٧٦ رأس المال الذي تمثلـه طبقـة المـزارعين القديمة، والرأسماليون الشماليون الجدد، والرأسماليون الـذين بـدؤوا فـي الظهور من البيض الفقراء، يسيطر على العمالة أكثر مما فـي أيـة دولـة صناعية حديثة في أيد متحضرة (ص ٦٣٠). وأصبحت الفوضـى - التـي كانت لا تزال متقطعة وعرضية في الفترة ١٨٦٥-١٨٦٨ - أمرا منظمـا، وكانت أسبابها الصناعية الحقيقية مشوهة بسبب الأعذار السياسية والكراهية العنصرية. وباستخدام أسلوب القتل الجماعي الليلي، بـدأ الجنـوب عـدوانا منظما واسعا على الزنوج.... وقتلـت حـرب العـصابات المـسلحة آلاف الزنوج؛ واندلعت الاضطرابات السياسية، وبينما كانت أسبابها أو مناسـباتها غامضة دائما، كانت نتائجها مؤكدة دائما: حيث كان يقتل من الزنـوج مـا يتراوح ما بين عشر مرات إلى مائة مرة مثلما يقتل من البيض". (ص ٦٧٤)

إن العنف والإرهاب الذي وقع على السود خلال الخمسين سـنة التـي أعقبت "إعادة البناء"، ترك نخبة السود مهزوزة وفريسة للانتهازيين. وهنـا يقول دو بويز:

"لم يستسلم الزنوج للاقتراع بسهولة أو بشكل مباشر... ولكنها كانـت معركة خاسرة، حيث كان الرأي العام والصناعة والثروة والـدين ضـدهم. وكان قادتهم يشجبون "السياسة" ويدعون للخضوع. وتراجعت كل جهـودهم من أجل التأكيد الذاتي للإنسانية بسبب الانهزامية ودعاة اليأس، الذين تساندهم الدعاية القوية للدين (المسيحي) الذي يعلم الوداعـة والتـضحية والتواضـع (ص ٦٩٢-٦٩٣). ويقودنا هذا إلى الموقف الذي أصبح فيه بوكر واشنطون قائد سلالة الزنوج، ونصحهم بالاعتماد على التعليم الـصناعي بـدلا مـن

السياسة. وتوقفت الطبقة الأفضل من زنوج الجنوب عن التصويت لنحو جيل من الزمن". (ص ٦٩٤)

ومن خلال الثروة والمؤسسات التعليمية، عاشت نخبة السود وتطورت بعيدا عن جماهير السود مع تزايد قدرتها على التوالد، وهنا يقول دو بويز:

"لقد تجنبوا خطأ محاولة مواجهة القوة بالقوة. وانحنوا لعاصفة الضرب والإعدام خارج نطاق القانون والقتل، وحافظوا على أرواحهم على الرغم من الهجوم العام والخاص من كل نوع؛ وبنوا ثقافة داخلية اعترف بها العالم على الرغم من حقيقة أنها لا تزال شبه مقيدة وغير مفصلة". (ص ٦٦٧)

وفي ظل هذه العزلة الاجتماعية النسبية، استمرت ثقافتهم في تبني أشكال من رفاق الطبقة التي اغتربوا عنها بسبب السلالة. ولكن من خلال الإرهاب المستمر، تقوقع مجتمع السود كله على ذاته؛ ومن خلال استمرار الفقر، استقرت ترتيباته الطبقية الاجتماعية. ومع ذلك، كانت موارد مجتمع السود أقل من أن تتحمل حراكا يتسم بأهمية متزايدة. ومع هجرة السود إلى الشمال والغرب، والتي حدثت عند مطلع القرن، تغير هذا الوضع قليلا فقط.[٧٧] وفي تلك الأثناء، وعلى الرغم من أن دو بويز لم يستطع التصريح بذلك، تحولت مثالية البرجوازية الصغيرة للسود إلى أيديولوجية تعمل على الحفاظ على مجتمع السود كشبه احتياطي للمزيد من الاستغلال الفعلي من جانب النخبة. وكما وضح دو بويز في مؤتمر روزنفالد، كان التضامن السلالي لا يزال يتجاوز النقد الراديكالي لطبقته، حيث ذهب يقول:

"يجب أن نخلص أنفسنا من الفكرة المسيطرة المتمثلة في أن تقدم الإنسانية كان يتكون من تدريج الطبقات التي أصبحت مندمجة في الطبقات

العليا والحاكمة العالمية، ويترك دائما الموتى والكسالى تحت الجماهير الجاهلة وغير المستنيرة. فطبقاتنا المهنية ليست أرستقراطية، وسادتنا يجب أن يكونوا أكفأ العمال والمفكرين، حيث تتمثل مكافآتهم المشروعة في تقدم الجماهير العظيمة من الزنوج الأمريكيين، ومعهم رفعة الإنسانية كلها".(٧٨)

دو بويز، وماركس، والماركسية

ثمة جانب شديد الأهمية في "إعادة بناء السود" يستدعي اهتماما كبيرا. فمن وجهة نظر تأريخ الحراك الثوري الأسود، كان دو بويز واحدا من أوائل الأمريكيين الذين واجهوا الفكر الماركسي بتعاطف بمصطلحات نقدية ومستقلة. ونظرا لشجاعته بسبب الاهتمام السياسي والشخصي للسود بالحزب الشيوعي الأمريكي، والذين غالبا ما كانوا يفصحون عن أنفسهم في البحث عن التقليد الأيديولوجي في أعمالهم وكتاباتهم، لم يكن لدى دو بويز سبب ولا وعي لكي يحتل بحذر موقعا أيديولوجيا بين كل من: روتنبيرج، ولوفستون، وفوستر في الحزب الشيوعي، أو تروتسكي، بوخارين، وستالين في "الدولية الشيوعية".(٧٩) وهكذا كان يمكن لدو بويز أن يحاول التوافق مع ماركس نفسه بدون وساطة لينين، أو المناهج الصاعدة التي عرفت باللينينية الماركسية.(٨٠)

على هذا النحو كان دو بويز يصوغ بمصطلحات نظرية التقاطعات بين التراث الراديكالي للسود والمادية التاريخية، التي كان يشار إليها بغموض فقط في المنظمات الرسمية في ذلك الوقت. ومن خلال هذه الأدوار التي كان لا يمكن التوفيق بينها في ذلك الوقت - كمفكر راديكالي أسود، وناقد متعاطف للماركسية - كان دو بويز يستطيع تحقيق بعض أهم إنجازاته

المتعلقة بالحركات الاجتماعية للسود. ومع ذلك - وما لم نحرك الوعي باللحظة التاريخية التي كان دو بويز يعمل فيها - ستكون فرصتنا قليلة للتعرف على طبيعة الفكر الذي التزم به في "إعادة بناء السود".

ومنذ البداية، كانت الماركسية تعني لدى البعض نظاما علميا نقديا، وطريقة للفهم، والاستيعاب، والتأثير على التاريخ.(٨١) وتوضح طريقة تعبير تروتسكي عن إثارته بشأن الماركسية هذه النقطة، حين يقول:

"الشيء المهم... هو أن ترى بوضوح. وعلى أي حال، يمكن أن يقول المرء عن الشيوعية إنها تعطينا مزيدا من الوضوح. ويجب أن نحرر الإنسان من كل ما يحجب الرؤية عنه".(٨٢)

ومع ذلك، كان تاريخ الفكر الماركسي والمنظمات الماركسية أكثر غموضا. فقد صاحب هذا الوضوح المفترض، وهذه الطريقة في الرؤية، ظهور ما يبددها ويناقضها. إذ إن طبيعة التغير المطروحة في الماركسية - الجدلية - ستقود المرء إلى توقع مثل هذه التناقضات في الماركسية. وبالتحديد، فإنه مع ظهور العقيدة السياسية، واليقين التاريخي، والتباينات المعرفية في التجريبية، أكد تاريخ المفكرين الماركسيين هذا التوقع. فهذه ليست مجرد مسألة تمييز الماركسيين الحقيقيين - أي "المؤسسين" ماركس وإنجلز - عن أتباعهما الأقل موهبة.(٨٣) وهي ليست مشكلة فكرية ولا نظرية.

ومن المؤكد أن العقيدة والحقيقة تعتبران من الظواهر الاجتماعية والسياسية. ففي الماركسية، ظهرت هاتان الظاهرتان في سياق متطلبات تنظيمية معينة، ومن متطلبات جماعية وفردية محددة الشكل بإطار آليات تاريخية وسياسية خاصة. وفي ضوء هاتين الظاهرتين - كما ظهرتا في

تنظيم الحزب الشيوعي الأمريكي في أواخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين – ركز دو بويز عمله على النظرية الثورية. ولفهم أهمية ما كان يفعله دو بويز للفكر الماركسي، يجب فقط أن نتذكر أن الحزب الشيوعي الأمريكي في الثلاثينيات كان يقع في أكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما في العالم. وبعد ذلك أصبح سريعا ثاني أهم حزب شيوعي في العالم، حيث حل محل الحركة الألمانية، بعد البلاشفة مباشرة. وبالنسبة للشيوعيين الماركسيين، كان الدور التاريخي للحزب الشيوعي الأمريكي يتحدد بمبادئ اللينينية: فقد كان هذا الحزب طليعة أكثر الحركات البروليتارية تقدما.[٨٤] وكانت العقيدة الأيديولوجية لهذا الحزب، وعقيدته الوجودية وتقاليده النظرية المرتبطة بالسود، هي التي أجبرت دو بويز على إعادة تقييم ماركس.

وكانت الحرب الأولى في العالم في القرن العشرين تمثل الحد الفاصل بين الأحداث التي أثرت مباشرة على الطبيعة الخاصة للحركة الشيوعية الأمريكية وسياسات الحزب تجاه السود. فخلال الحرب، أو بسبب الحرب، أو في أعقاب الحرب، وقعت هذه الأحداث. فأولا، كان هناك تحول في الاشتراكية الدولية: حيث جاءت الكومنترن (حركة الدولية الشيوعية) بعد "الدولية الثانية" كقوة رائدة للحركة الاشتراكية. وثانيا، وفي الولايات المتحدة، أدت هجرة السود من الجنوب إلى تكوين مجتمعات حضرية للسود في الشمال، وبالتالي ظهور شكل جديد من الوعي السلالي: أي الوعي بقومية السود. وثالثا، بداية مع تكوين الحزب الأمريكي تقريبا، كانت هناك وساطة من الكومنترن، وبالتحديد من قبل لينين ثم ستالين في "المسألة الزنجية". لقد كانت هذه هي الأحداث الجوهرية. ومن الضروري أن ننظر إليها الآن بمزيد من التفصيل.

خضعت "الدولية الثانية" لقوتين: القومية والفشل الثوري. فبالنسبة للقومية، وجدت الحرب العالمية الأولى معظم عمال إنجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والمجر راغبين في الذهاب إلى ميادين المعارك تحت القيادة القومية من أجل الحرب ضد بعضهم بعضا. وتحلل تضامن العمال الدولي الذي كانت الاشتراكية تقوم عليه. وفشلت الحركة الاشتراكية في الحفاظ على الانقسام بين مصالح العمال ومصالح الطبقات الرأسمالية الحاكمة. وانتصرت قومية الدولة كأيديولوجية سائدة في الطبقات العاملة. وأثبتت الأساليب السلمية للاشتراكيين فعاليتها فقط في البلاد التي كانت إما غير مقاتلة أو كانت بطيئة في دخول المعركة مثل الولايات المتحدة.(٨٥)

وكذلك، فشلت كل الحركات الثورية التي قادها اشتراكيون، باستثناء واحدة. حيث حقق الحزب البلشفي السيطرة على الثورات في روسيا، أما في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا والمجر وغيرها، فإن الثورات الاشتراكية إما فشلت أو أجهضت.(٨٦) وهكذا فإنه في معظم المجتمعات الصناعية المتقدمة – أي في الموقع المفترض للثورة – لم تتحقق أية ثورات، ولم تصل حركات عمالية إلى السلطة. وفي الحقيقة، فإن الثورتين الوحيدتين اللتين نجحتا في تلك الفترة حدثتا في مجتمعين كان سكانهما زراعيين أساسا: المكسيك وروسيا. ولم يقتصر الأمر على كونهما مجتمعين زراعيين، ولكن الحركات الزراعية لعبت دورا جوهريا في انتصار ثورتيهما، مما طرح افتراض أن عمال الصناعة كان يجب أن يكونوا "أدوات الفلسفة".(٨٧) وهكذا فإنه ليس مدهشا أن تضاءل تنظيم الحركة الاشتراكية الدولية.

وكذلك وصلت "الدولية الثانية" إلى إظهار أن الثورة ستتحقق من خلال أدوات وهياكل المجتمع البرجوازي: أي الإصلاح السياسي عبر مؤسسات الديمقراطية البرجوازية.[٨٨] وعندما انهارت "الدولية"، انهارت أيضا قراراتها التكتيكية والأيديولوجية. وما ظهر على أنه سيحل محلها كان يتمثل في "الدولية الثانية" التي سيطر عليها لينين وسياسات كوادره البلشفية. ومن الناحية التكتيكية، أصبح تجدد الالتزام بالكفاح العنيف واضحا في الحركة. وكذلك، ومع تكون "الدولية الثالثة" (الذي مثله الكومنترن)، أصبح ضروريا للأحزاب القومية الأعضاء أن تعلن ولاءها للكومنترن والاتحاد السوفيتي، والحزب البلشفي بصورة عملية. وكان الدفاع عن الاتحاد السوفيتي يمثل الأولوية الأولى. وكان يجب أن يتطابق تنظيم الحزب مع مقتضيات اللجنة التنفيذية للكومنترن – وهي اللجنة التي كان يرأسها زينوفييف Zinoviev، القائد البلشفي الثاني[٨٩]. وفي ذلك ينادي وليام نولان في دراسته عن العلاقة بين الشيوعية والزنوج قائلا:

"يجب على كل حزب راغب في الانضمام "للدولية الشيوعية" أن يلتزم بتقديم كل مساعدة ممكنة للجمهوريات السوفيتية في كفاحها ضد كل القوى المناهضة للثورية. ويجب أن تنفذ الأحزاب "الشيوعية" دعاية دقيقة ومحددة لتشجيع العمال على رفض نقل أي نوع من المعدات العسكرية التي توجه إلى الحرب ضد الجمهوريات السوفيتية، ويجب أن يكون هناك دعاية بوسائل قانونية أو غير قانونية بين القوات المرسلة ضد جمهوريات العمال، وتعتبر كل قرارات مؤتمرات "الدولية الشيوعية"، وكذلك قرارات "اللجنة التنفيذية" ملزمة لكل الأحزاب التي تنضم إلى "الدولية الشيوعية".[٩٠]

ولم يكن للقوة التي مارستها الكومنترن وفرضت بها سيطرتها أي تأثير مباشر على الحركة الشيوعية الأمريكية. فقد كان تاريخ ومنظمات حركات العمال والاشتراكيين الثوريين في الولايات المتحدة متفاوتا، بالنسبة لأية سلطة محلية أو غيرها، بما لا يتفق مع فرض التماسك أو التبعية.

وكان الأساس الاجتماعي الحيوي لحركات العمال الراديكالية في الولايات المتحدة يقوم على قوى العمالة المستخدمة في الإنتاج الصناعي الأمريكي. وتعليقا على أول عقد ونصف من القرن العشرين، يقول ناثان جليزر:

"يجب أن نتذكر حقيقة جوهرية واحدة بشأن الطبقة العاملة الأمريكية في هذه الفترة، وخلال العقود التالية أيضا: فهي تتكون أساسا من مهاجرين. وكانت القوى العاملة في مصانع الصلب ومناجم الفحم ومصانع النسيج ومتاجر القماش مولودة في الخارج أساسا، أما الجزء الذي لم يكن كذلك، فقد كان يتركز في الوظائف الإشرافية وفي الوظائف الماهرة الأعلى أجرا".[٩١]

وكما رأينا مبكرا، فقد قدم العمال الزراعيون الأفارقة والأمريكيون الأفارقة فائض القيمة الضرورية التي ساندت تحول الاقتصاد إلى اقتصاد صناعي، ثم إلى اقتصاد كثيف في حجم رأس ماله في النهاية. وبالتالي، فإن المهاجرين الأوروبيين في نهاية القرن التاسع عشر- والذين جلبتهم ودربتهم ورعتهم ونظمتهم القطاعات الأوروبية من الاقتصاد العالمي (في ألمانيا وإنجلترا وأيرلندا وإيطاليا أساسا) - كونوا القوى العاملة التي تطورت بصورة فريدة وكانت ضرورية للتحول الصناعي الأمريكي. ولكن معظم هؤلاء العمال المهاجرين الأوروبيين جاؤوا من مجتمعات كانت حركات العمال فيها متطورة سلفا. وفي الحقيقة، فإنه بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان معظم هذه

الحركات قد طور مجموعات فريدة وخاصة من الأساليب والاستراتيجيات والأيديولوجيات. وظهرت تقاليد كاملة في هذه الحركات العمالية، وظهرت تناقضات في هذه التقاليد أيضا. وكان كل هذا يمثل جزءا من الثقافات السياسية والتنظيمية والأيديولوجية التي صاحبت قدوم العمال الأجانب إلى أمريكا. ويلاحظ تيودور دريبر Theodore Draper أنه:

"من البداية، كانت الحركة الاشتراكية الأمريكية مدينة بصفة خاصة للمهاجرين من حيث كل من تقدمها ومشاكلها. حيث كان الانعقاد الأول لحزب العمال الاشتراكي في ١٨٧٧ يتكون من ممثلي ١٧ شعبة ألمانية، ٧ إنجليزية، ٣ بوهيمية، وشعبة فرنسية وشعبة عامة للنساء. وبالطبع تولى المهاجرون أدوار المعلمين والمنظمين، ولكنهم كانوا مهتمين أساسا بتعليم وتنظيم أنفسهم. ولم يكن حزب العمال الأمريكي أكثر من مجرد رأس أمريكي على جسد مهاجر".(٩٢)

ومع انتشار وتركز هذه الشعوب حسب المحددات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة في الولايات المتحدة، فإن تقاليدهم إما أنها استمرت أو تكيفت أو تبددت. حيث تم الحفاظ عليها بطريقتين: من خلال الخصوصية العرقية، والمجتمعات الصناعية الخاصة. وكانت الحركة العمالية - سواء كانت نقابات عمال أو أحزابا منتخبة، أو ثورية - تنتظم أساسا على أساس مجموعات قومية وعرقية وصناعية. وفي ذلك يقول جلازر في دراسته:

"كانت العضوية في الحزب الاشتراكي في ١٩١٤ في الولايات الشمالية الشرقية والغربية الوسطى تتكون أساسا من اليهود والألمان والبولنديين

والتشيك والسلوفاك والمجريين وسلاف الجنوب وغيرهم كثر. ومـع ذلـك، شكلت مجموعات المهاجرين لاحقا أحزابا أو مجموعـات كانـت لا تـزال مرتبطة بالأحزاب الاشتراكية في بلادها، وكان العديد منهم أعـضاء فيهـا. ولعبت اتحادات العمال المهـاجرين هـذه دورا خاصـا فـي الاشـتراكية الأمريكية".(٩٣)

وكان هذا واحدا من التناقضات الجوهرية في تطور الاشتراكية الأمريكية المبكرة. حيث كان المبدأ المنظم يتمثل في العرقية، بينما كانت القومية – وهي النتيجة المنطقية للعرقية – تهدد وتحبط الوحدة الاشتراكية. إذ سيطرت العرقية على الحركة من الناحية التنظيمية والأيديولوجيـة والنظريـة، ومـن ناحيـة المفاهيم. وكان هذا التناقض الموضوعي سمة دائمة للاشـتراكية والحركـات العمالية، وكانت تصل إلى مستويات مرتفعة اسـتجابة لكـل مـن الأحـداث الأوروبية والأمريكية (أي الحرب الفرنسية البروسية في سـبعينيات القـرن التاسع عشر؛ والحرب العالمية الأولى؛ والتنافس العرقـي علـى الوظـائف والعنف المترتب على ذلك).(٩٤) وحتى بين أجزاء الأقليـات داخـل الحركـة الاشتراكية – الاتحادات الناطقة بالإنجليزية – كان هناك صراع كبيـر بـين القومية والاشتراكية. وكانت معظم عضويات هذه الاتحادات تتكون في الحقيقة من مجموعات مهاجري الجيل الثاني. ويقول جابرييل ألمونـد Gabriel Almond إن دافع التماثل كان من بين العوامل المتـضمنة فـي قـرار التحـول إلـى الاشتراكية والشيوعية. وقال أيضا إن الاتحادات الناطقة باللغة الإنجليزية كانت تتأثر بكل من الأولوية التنظيمية للأمركة، بحيث تؤثر علـى تطـور الطبقـة العاملة الأمريكية "المحلية"، والحاجات الاجتماعية النفسية لأعضائها.(٩٥)

وهكذا تكون الحزب الشيوعي الأمريكي خلال فترة تعاني قدرا من الاضطراب النظري والأيديولوجي. وفي الحقيقة، انقسمت الحركة في الولايات المتحدة إلى عدة فصائل أيديولوجية متنافسة في أوائل عشرينيات القرن العشرين، بحيث أصبح من الضروري أن يقوم الكومنترن بفرض النظام، وتوحيدهم في حزب واحد.(٩٦) وكان الحزب الذي نتج عن ذلك تسيطر عليه اتحادات ذات لغات أجنبية، وكان من أقواها الاتحادات الروسية والفنلندية. ومع ذلك، كانت الاتحادات لا تزال أكثر اهتماما بمقدرات الحركة في أوطانها أكثر منها في أمريكا. وبالتالي كانت القومية والمتنافسون القوميون جزءا من السمة التاريخية للحزب.(٩٧) وعندما نضيف إلى هذا الوضع النزاعات الموروثة من الدولية الثانية بشأن طبيعة الرأسمالية والشكل الذي يجب أن تأخذه الثورة الاشتراكية، يمكن فهم ظهور الهيمنة البلشفية على أنه قوة إضافية لكل من الفوضى والنظام. حيث أعطى نجاح الحزب البلشفي التجمع المتحدث بالروسية ميزة – لفترة – في التأثير على سياسة الحزب، ولكنه أدى أيضا إلى زيادة كثافة النزاعات الأيديولوجية والخلافات النظرية، لأن البلاشفة كانوا استثناء تاريخيا في المصطلحات الماركسية التقليدية. ولكن شكل القومية الروسية سيطر على الحركة الأمريكية كما فعل عبر الكومنترن.

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة كانت مقبولة لدى الكثيرين في الحركة الأمريكية، كان من المتوقع أيضا أن تواجه معارضة، خاصة بين تلك الشعوب التي كانت خاضعة تاريخيا لإمبريالية روسيا القيصرية.(٩٨) ففي حركة يسيطر عليها الأحزاب والأحزاب الفرعية القومية، كان لا بد أن تؤدي طبيعة الكومنترن والتضخم اللاحق للتأثير السياسي للقوميين الروس في الولايات

المتحدة إلى ظهور أو تنشيط القوميات المضادة. وأدت القوة المتزايدة لليهود الروس تحديدا في الحركة إلى ظهور أو تفاقم الخلافات داخل الحركة الشيوعية، والتي لم يتم حلها حتى بحلول أواخر العشرينيات.[٩٩] وبغض النظر عن هذا، فإن التأثير المباشر للبلاشفة على الحركة الأمريكية التي بدأت مبكرا في أواخر ١٩١٦ - أي قبل شهور من نجاحها المثير، وقبل ثلاث سنوات تقريبا من المؤتمر العالمي الأول للدولية الشيوعية - نادرا ما واجه أي تحد جاد في الأربعين أو الخمسين سنة التالية.

قومية السود

بالنسبة للسود، ومن الناحية الاجتماعية والسياسية، كان أحد أهم الأحداث في التاريخ الأمريكي في وقت الحرب العالمية الأولى يتمثل في الهجرة إلى مواقع الصناعة الحضرية، وخاصة في الشمال. فمع اندلاع الحرب، تراجعت هجرة العمال الأوروبيين كثيرا بسبب صعوبات الحرب والقيود التي فرضها الكونجرس. وكذلك، أدى التجنيد الإجباري وقت الحرب إلى إبعاد آلاف العمال البيض عن وظائفهم، وفي نفس الوقت أدت الحرب إلى فتح أسواق للسلع الأمريكية وزيادة الطلب على العمل. وهكذا أدت الحرب إلى ندرة في العمالة في الصناعة الأمريكية. وفي مثل أسواق العمل هذه، يتمتع العمال بميزة عند المطالبة بزيادة الأجور، ومع زيادة فترة الحرب، يصبح الاعتصام والإضراب الخيار الأكثر انتشارا بين العمال، بما في ذلك العمال شبه المهرة. وحاول رجال الصناعة في الشمال الشرقي ونظراؤهم في الغرب الأوسط حل مشكلة زيادة تكاليف العمالة وكفاح العمال باستقدام السود من الجنوب والكاريبي.

وكما ذكرنا، كانت الأغلبية العظمى من السود تعيش في الجنوب الريفي في ذلك الوقت. وعلى الرغم من حملات العنف والإرهاب الموجهة ضدهم، والتي كانت بمثابة تيار مستمر في حياتهم منذ كتاب "إعـادة البنـاء"، كـان معظمهم يرفض الهجرة لخوفه من قطع روابطـه التاريخيـة والاجتماعيـة والثقافية وقلق وخوف من مواجهات ضـد كراهيـة الـشمال الأمريكـي. ولمواجهة هذه المشكلة، طور مديرو المؤسسات حملة دعاية متقدمة لإثـارة اهتمام العمال السود الجنوبيين. حيث أرسلوا مشغلي العمال إلـى الجنـوب بتعليمات لملء عربات الشحن الفارغة المصاحبة لهم غالبا؛ ونشرت صحف السود (التي كانت تحظى بدعم رجال الصناعة الـشماليين أحيانـا) بقيـادة صحيفة "شيكاغو دفيندر Chicago Defender"، مقالات عن فرص العمل فـي الشمال، مصحوبة بتقارير عن الأنشطة المناهضة للسود من جانب البيض في الجنوب. وكان روبرت أبوت Robert Abbott، رئيس تحرير دِفيندر شخصية متشددة. وفي ذلك يقول فلوريتي هنري في دراسته:

"طرح أبوت "طبعة قومية" من صحيفته الأسبوعية موجهة إلـى سـود الجنوب. وكانت عناوينها الرئيسة بالحبر الأحمر كما يلـي: "١٠٠ زنجـي يقتلون أسبوعيا في الولايات المتحدة على أيدي الأمريكيين البيض؛ الإعـدام خارج نطاق القانون - فضيحة قومية؛ السادة البـيض يغتـصبون فتيـات ملونات". وكان يصاحب قصة عن الإعدام خارج نطاق القانون صورة لرأس الضحية المقطوعة، مع تعليقات مثل: "هذه ليست بلجيكيا - إنهـا أمريكـا". وظهرت قصائد بعناوين مثل "أرض الأمل" و"متجه إلى الأرض الموعـودة" تحث السود على التوجه للشمال، واعتبر المحررون شيكاغو أفـضل مكـان

يمكنهم الذهاب إليه. وكانت إعلانات الوظائف تعرض وظائف بأجور مغرية في شيكاغو وحولها. وفي عناوين الأخبار والنكت ورسوم الكاريكاتير والصور، كانت الصحيفة تبلور الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لمعاناة السود في صورة تحريض مباشر على الفرار".(١٠٠)

وكان الوعد بالاندماج في بعض أكثر قطاعات الإنتاج الأمريكية تقدما أمرا له أثره. فكما ذكرنا، يقدر أنه من ربع مليون إلى المليون من العمال السود وأسرهم قد هاجروا خلال سنوات الحرب، مما أدى إلى زيادة كبيرة في سكان مجتمعات السود الواقعة في المناطق الصناعية الحيوية شرق المسيسبي.

وكان الفقر والأوضاع المعيشية المتدهورة للسود في الكاريبي يمثل الموروث المباشر للاستعمار. حيث جاء عشرات الآلاف من سكان جزر البحر الكاريبي إلى الولايات المتحدة خلال العقود الأولى من القرن العشرين. وكان العمل أيضا هو الذي جذبهم، وهكذا دخلوا أيضا في نفس مجتمعات السود التي استقبلت الهجرة الداخلية من قبل:

"كان أحد الملامح غير العادية والمعقدة لمعزل نيويورك في حي هارلم تتمثل في وجود شعبين مختلفين تماما من غير البيض. حيث كان الشعب الأكبر يتكون من مجموعة المهاجرين من الجنوب، ولكن كانت هناك أقلية لا يمكن تجاهلها نشأت في جزر الكاريبي، وخاصة جزر الهند الغربية البريطانية، مع البعض من جزر الهند الغربية الهولندية، وكوبا وبورتوريكو. حيث أضيف إلى الخمسة آلاف من السود المولودين في الخارج، الذين كانوا يقيمون في نيويورك في ١٩٠٠، حوالي ٢٨٠٠٠ آخرين خلال عقد الحرب.

ففي ١٩١٧، قدرت صحيفة نيويورك تايمز أنهم كانوا يشكلون ربع سكان حي هارلم".[١٠١]

وأدى تجمع هذه الشعوب، والاضطرابات العميقة التي صاحبت عمليات انتقالها، والعداوة المستمرة التي واجهتها، إلى إجبارها على الارتباط ببعضها سياسيا واجتماعيا. وهكذا أصبح ضروريا لهم أن يطوروا أشكالا اجتماعية وسياسية تتخطى الهويات الخاصة بسبب الاختلافات التاريخية. وفي داخل هذا الإطار الخاص، ظهر كل من جمعية تطوير السود المتحدة "يونيا UNIA" وأخوية الدم الأفريقية ABB؛ وكان لكل منهما تأثير كبير على جهود الحزب الشيوعي الأمريكي في تنظيم السود.

ولم يكن ممكنا أبدا توصيف "يونيا" بمصطلحات دقيقة. إذ إن أيديولوجيتها السائدة كانت انتقائية: حيث كانت تضم عناصر من المسيحية والاشتراكية والقومية الثورية والتضامن السلالي. وكمنظمة، فقد أظهرت عددا من الهياكل المستجيبة للظروف والشخصيات. وكانت المسئولية عن صناعة السياسات والقرارات تختلف أيضا. وكانت تتشكل طبقا للعوامل الأيديولوجية، مثل: ظروف الشخصيات أصحاب المواقف المهمة، طبيعة القضايا المطروحة، والموارد المتاحة للمنظمة. وكذلك، تغيرت المنظمة بمرور الزمن، وكان ذلك استجابة للعوامل المهمة الاجتماعية والسياسية في التفاعل بينها وبين بيئتها الاجتماعية والسياسية. ومع ذلك، كثيرا ما كان المراقبون للحركة يعتبرون المنظمة بمثابة حركة "للعودة إلى أفريقيا"

أيديولوجيا؛ أو بمثابة حركة "ماركوس جارفي(*)"، وذلك لأسباب مختلفة جدا، وبخصائص تنظيمية ضمنية. فلم تكن أبدا بسيطة ولا واضحة.(١٠٢)

ويبدو أن الاتجاه الرئيس ليونيا كان نحو تطوير أمة قوية للسود، تكون منظمة اقتصاديا حسب شكل معدل من الرأسمالية.(١٠٣) وكان هذا الكيان القوي سيصبح الحارس لمصالح السود في أفريقيا (حيث كان يجب أن يكون) وأولئك المنتشرين في الشتات الأفريقي أيضا. وكان يجب أن تتأسس الأمة على أكتاف نخبة تكنوقراطية يتم اختيارها من شعوب السود في العالم. حيث تقوم هذه النخبة بدورها بتأسيس الهياكل اللازمة لحياة الأمة وتطورها حتى تصبح قوية بما يكفي للقيام بدورها التاريخي، واستيعاب وتنشئة الأجيال التالية من القوميين المدربين والمنظمين.

(*) ماركوس جارفي Marcus Garvey : ماركوس موسيا جارفي، زعيم سياسي، ناشر، صحفي، منظم، وخطيب جامايكي، ولد في ١٧ أغسطس عام ١٨٨٧ وتوفى في ١٠ يونية عام ١٩٤٠، والذي كان من أشد المؤيدين لحركات القومية السوداء والقومية الأفريقية، ولتحقيق تلك الغاية أسس الجمعية العالمية لتقدم الزنوج، وعُصبة المجتمعات الأفريقية". وأسس خط النجمة السوداء، وهو جزء من حركة العودة لأفريقيا، والتي شجعت عودة الشتات الأفريقي إلى أراضي أجدادهم. كان جارفي متفردًا في تعزيز الفلسفة الأفريقية لإلهام الحركة الجماهيرية العالمية والتركيز على التمكين الاقتصادي في أفريقيا، والتي عُرفت بالجارفية. نتيجة للدعم من قبل الجمعية العالمية لتقدم الزنوج UNIA كحركة الخلاص الأفريقية، ستصبح الجارفية في نهايةُ المطاف مُلهمة للحركات الأخرى التي سترى في جارفي "نبيًا". وكان القصد حركة جارفي هو أن يقوم ذوو الأصول الأفريقية بـ "تخليص" أفريقيا، وأن ترحل عنها القوى الاستعمارية الأوروبية. وردت أفكاره الأساسية عن أفريقيا في مقاله الافتتاحي في دورية "عالم الزنوج" تحت عنوان "الأصولية الأفريقية"، حيث كتب : " اتحادنا يجب ألا يعرف المناخ أو الحدود أو الجنسية... دعونا نستمر معا تحت كل المناخات وفي كل البلاد". (المترجم)

وكما ذكر عدد من المؤرخين، شملت يونيا بطرق عديدة مباشرة وغير مباشرة عناصر من حركة المساعدة الذاتية التي ارتبطت ببوكر واشنطون؛ ولكن بدون القيود المفروضة على تلك الحركة، دفعت يونيا هذا المفهوم إلى غايته المنطقية.[١٠٤] ففي سعيها لتحقيق مُثلها، طورت المنظمة هياكل سبقت التشكيل القومي. إذ كانت يونيا تمتلك بيروقراطية داعمة للقومية؛ وقوات أمنية بها ملحقات إضافية من العناصر النسائية؛ وكنيسة قومية، وشبكة دولية من الفروع المحلية (أو القنصليات)؛ وبدايات قاعدة اقتصادية تتكون من سلسلة من المشروعات والصناعات الخدمية الصغيرة. وكان مئات الآلاف - وربما الملايين - من السود ينضمون إلى هذه المنظمة. وعلى الرغم من أن الانضمام كان يتم أساسا في الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية، كان لدى يونيا أعضاء يدفعون الرسوم في أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وجعل نطاق التنظيم من يونيا أكبر منظمة قومية تظهر بين السود في أمريكا. ومن هذه الجوانب، فإن أهمية المنظمة لا تزال لا نظير لها في تاريخ الولايات المتحدة.[١٠٥]

ونظرا لأن معظم تواريخ المنظمات كتبها نقادها، تنتشر انحرافات يونيا في الأدبيات المتاحة. حيث يتعلق معظمها بمؤسسها ومنظمها الرئيس، ماركوس جارفي Marcus Garvey.[١٠٦] وحتى حينما كان دو بويز يشارك في معارضة يونيا، فإنه ساهم في كشف ممارساتها المالية والتوصيفات المريرة لجارفي.[١٠٧] ولكن التكتيك الرئيس لدى نقاد يونيا كان يتمثل في ربط المنظمة بجارفي، وهكذا كانوا يقصرون انتقاداتهم على دراسات الشخصية المنحرفة أو الانتهازية السياسية. حيث كتب أحد النقاد، روبرت باجنال Robert Bagnall، في ورقة فيليب روندولف وشاندلر أوين التي تحمل عنوان *الرسول* "The Messenger"، واصفا جارفي:

"إنه زنجي جامايكي من أصل غير مختلط، ممتلئ، بدين، سمين، لامع اللون، له فكان بارزان، وخدان ثقيلان، وعينان صغيرتان لامعتان مثل الخنزير، ووجه يشبه كلب البولدوج. وكان متبجحا، أنانيا، طاغيا، متعصبا، ماكرا، مراوغا، داهية، جشعا؛... ماهرا مثل الأخطبوط في تشويه قضية لا يستطيع مواجهتها، مولعا لأقصى درجة بابتكار مشروعات للحصول على المال من الزنوج الفقراء الجهلة؛ موهوبا في الإعلان عن ذاته، لا يخجل من إطراء ذاته، يقدم وعودا ولا يوفى بها أبدا، لا يراعي الحقيقة، ويحب البذخ والملابس المبهرجة والاستعراض الصارخ، أسد على ذويه وحمل وديع في حضرة البيض العنصريين، انتهازي محض ودجال غوغائي".(١٠٨)

وتوصل آخرون أكثر صدقا إلى نفس النقطة. حيث كتب كلاود مكاي Claude McKay في عمله "هارلم: مدينة زنجية" إلى ما يلي:

"كانت حركة ماركوس جارفي في مدينة هارلم متألقة بعواطف رومانسية وصاخبة متناقضة. فمثل حكماء العالم القديم، فإن هذا الزنجي المختال مثل الطاوس في العالم الجديد، المنحوس "بهوس الزنجية" في أفريقيا، كان يتبع نجما في السماء – نجما أسود. وكان ينسج الأحلام، ويترجم المسارات المبهرجة من الرغبات الدفينة لدى الأعضاء المغمورين من سلالة الزنوج إلى نمط خيالي عن الحقيقة.

ولم يكن هناك زعيم زنجي مثل جارفي. ولم يتمتع أحد قبله بجزء من شهرته العامة. فقد شق طريقه إلى سماء عالم البيض رافعا نجمة سوداء ويحض الشعب الزنجي على التطلع إليها واتباعها".(١٠٩)

وبهذه الطريقة أصبحت يونيا معروفة باسم "حركة جارفي". وكان هذا يتضمن أو يدل دائما على وجود السلطة المستبدة والغوغائية. وأصبح جارفي المتحدث الرئيس وممثل يونيا موضع الدراسة بدلا من جماهير الشعب المشارك في الحركة. ويعتبر كل من روبرت هل، توني مارتن، وتيودور فانسنت، ثلاثة مؤرخين بدؤوا مؤخرا في تصحيح هذا الخطأ.

"كانت المطالب الرسمية ليونيا – والمطروحة في "إعلان حقوق الشعوب الزنجية في العالم" – تتمثل في حق التصويت، النصيب العادل في الرعاية السياسية، التمثيل في المحاكم وعلى منصات القضاء، والحرية الكاملة للصحافة والخطابة والتجمع للجميع. وكانت يونيا تبحث عن هذه الحريات الأساسية من أجل تكوين وتقوية عالم السود المنفصل، بينما كانت جماعات مثل " الرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة" NAACP تريد أن تستفيد من هذه الحريات من أجل تكوين عالم متكامل أساسا.

ومن الناحية الاجتماعية، كانت يونيا ناديا كبيرا ونظاما أخويا... وبالنسبة لأتباع جارفي، كانت هناك الصداقة الأخوية لكل شعوب السود في العالم. وكان لعروض يونيا، وحفلات ليلة السبت، ومآدب غداء مجموعات النساء، إلخ، أهمية تتخطى كثيرا مجرد تحقيق التنوع الاجتماعي. حيث هدفت أنشطتهم إلى بناء الثقة والفخر بين سلالة السود.[١١٠]

ومن الواضح أن يونيا كانت تمتلك كوادر كبيرة وعدة حلقات من قيادات الصف الثاني. فقد كانت منظمة معقدة تعمل على عدد من المستويات آنيا. وكانت جاذبيتها الشعبية ونمطها السياسي الجذاب يرتبطان بالبرامج العملية للإنجاز السلالي. وبالنسبة للسنوات الخمس لقمة تطورها – من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ – أصبحت أكبر حركة منيعة في تاريخ الأمريكيين السود.

ومثل حركة يونيا، كان الكادر التنظيمي "لأخوية الدم الأفريقية" يتكـــون أساسا من الهنود الغربيين والأمريكيين الأفارقة الذين تطوروا مهنيا وأصبحوا محركين اجتماعيين وخبراء دعاية فـــي الـــصحف. وكـــان أشـــهر قادتهـــا المؤسسين في ١٩١٩ كل من: كريل برجس (جزيرة نيفيس Nevis)، ريتشارد مور (الباربادوس)، ودمومينجو (جامايكا).[١١١] ولاحقا، في الفترة مـــا بـــين ١٩٢٠ و١٩٢٢، انضم أوتو هويسوود (سورينام) وعدد مـــن الراديكـــاليين الأمريكيين الأفارقة المهمين إلى الحركة، ومنهم أوتو هول، هـــايوود هـــول (هاري هايوود)، إدوارد دوني، جريس كامبل، فيليبس، جـــوردون أوينـــز، ألونزو إيزابيل، ولوفت فورت هوايتمان.[١١٢]

"كان المكتب الرئيس في نيويورك يضم أكبر عدد من أعضاء أخويـــة الدم الأفريقي، ولكن كانت هناك مكاتب كبيرة في شيكاغو، بالتيمور، أوماها، وفرجينيا.... وأسست أخوية الدم الأفريقي أيضا مجموعـــات فـــي منطقـــة الكاريبي؛ في ترينيداد، سورينام، وجويانا البريطانية، سانتو دومينجو، وجزر وندوارد. وفي ذروتها، كانت عضويتها تتراوح من ثلاثة إلى خمـــسة آلاف عضو فقط، وكان معظمهم من الخدم السابقين.... واستمر العـــدد صـــغيرا، بسبب التصميم جزئيا، ولكن احتمالات الخطـــر، والأيديولوجيـــة اليـــسارية والقومية الكفاحية لأخوية الدم الأفريقي أدت إلى اغتراب وارتباك الكثيرين. وكانت تعتبر نفسها جماعة شبه سرية شبه عسكرية منظمة بإحكام تتطلع إلى العمل من أجل "اتحاد عالمي" لمنظمات السود. وكـــان البرنـــامج الرســـمي لأخوية الدم الأفريقي ينص جزئيا على ما يلي: "لكي نبني حركة قوية وفعالة على أساس تحرر شعوب الزنوج، وحماية حقهم في الحياة، والحرية وتحقيق السعادة، إلخ، يجب على كل منظمات الزنوج أن تجتمع على أساس فيدرالي، مما يكون حركة مركزية موحدة".[١١٣]

وطوال معظم سنوات وجودها، كانت أخوية الدم الأفريقي منظمة سرية شبه عسكرية مكرسة "لحماية السود والتحرير النهائي للزنوج في كل مكان".[١١٤] ومع ذلك، لم يكن هذا الجانب من أيديولوجيتها يمثل انعكاسا حقيقيا لأصولها أو مستقبلها.

وعندما تم اقتراح الأخوية لأول مرة في مجلة برجس الشهرية "المحارب الصليبي The Crusader"، كان اسمها المقترح "أخوية الدم الأفريقي لتحرير وعتق الأفارقة". بل إن هذه المجلة سبق وأن:

"أعلنت عن نفسها باعتبارها "المعبر الشعبي عن عصبة أبناء حام في العالم" وتولت مقراتها الرئيسة في أوهاما ونبراسكا مهمة توحيد ما يسمى الشعوب الحامية، وهي المجموعة العرقية الرئيسة في شمال أفريقيا. واتصل أحد قادتها، جورج ويلز باركر، مع برجس واتفقا على مساندة بعضهما.... ولكن الإشارة إلى "عصبة أبناء حام" اختفت من المجلة في عدد يناير ١٩٢١".[١١٥]

وكانت بدايات أخوية الدم الأفريقي قد أظهرت علنا قدرا من ارتباك الهوية بين مؤسسيها. وكان هناك ارتباك مماثل يميز دعواتها وتحديدها لجمهور المنظمة المفترض مخاطبته.[١١٦] وفي العقد التالي، تحول هذا الجمهور من الحاميين إلى الأفارقة ثم إلى الزنوج، وأخيرا إلى العمال السود. ومع ذلك، كان وراء هذه التقلبات تلك الفرضية التي أعلنها برجس في ١٩١٧، حيث قال:

"انطلاقا من خطة جارفي لتكوين دولة للزنوج في أفريقيا، قدم فكرة أن "مشكلة السلالة" يمكن حلها بتكوين أمة مستقلة للزنوج على الأراضي الأمريكية. "مع مراعاة أنه كلما قل عددنا، زاد ضعفنا، وأنه كلما زاد ضعفنا، قل الاحترام أو العدالة أو الفرصة التي سنحصل عليها، فإنه لم يحن الوقت للتفكير في وجود سياسي مستقل، بحكومة تمثلنا وترعانا وتطورنا".[١١٧]

لقد تحرك برجس بعيدا عن المشروعات الأبوية للاستعمار الأفريقي والتبشير الأمريكي التي شغلت "رجال السلالة" مثل كروميل، تورنر، ودو بويز، وزملائه الهنود الغربيين مثل بليدن، جارفي، وألبرت تورني.[١١٨]

وحري بنا القول إن أخوية الدم الأفريقية بدأت كمنظمة قومية ثورية.[١١٩] ومع ذلك، سرعان ما تأثرت باشتراكية لينين وتروتسكي وستالين وبلشفية الدولة. وبمجرد استيعاب عدد من كوادرها في الحزب الشيوعي الأمريكي، أصبح مقبولا في كل من الولايات المتحدة وأفريقيا أن الأخوية ستعمل كطليعة أيديولوجية وتنظيمية وعسكرية. وفي تقاربها الشديد مع الحزب الشيوعي الأمريكي، كانت تعتبر محور قوة التحرر المتطورة في الظهير الأفريقي، والقوات الرادعة للحركة الثورية للبيض والسود في الولايات المتحدة.[١٢٠] وأخيرا، يبدو أن الأخوية - أو على الأقل الأعضاء البارزين فيها مثل برجس، مور، وخاصة هاري هايوود - قدموا للحزب الحافز الأيديولوجي المباشر لتطور مكانة الكومنترن بعد ١٩٢٨. والتي اعتبرها السود "مسألة قومية" في أمريكا".[١٢١]

وخلال سنة أو سنتين من تأسيسها في ١٩١٩، كانت قيادة الأخوية في نيويورك وشيكاغو تعمل بالتنسيق مع مسئولين في الحركة الشيوعية في محاولة لاختراق و/أو تدمير حركة يونيا. وأصبح قادة حركة يونيا - الذين وجدوا صعوبة في احترام القوميين السود الذين تنازلوا عن مبادئ القيادة المستقلة وعمل "السلالة أولا" - موضع مؤامرات، واتهامات عامة وتبادل اتهامات، وخيانات. وعلى الرغم من أن عددا من المؤرخين أرجع العداوة بين "أخوية الدم الأفريقي" و"يونيا" إلى اختلافات مفترضة على قضايا أدوار الاشتراكية والعمال البيض في حركة السود، لا يبدو أنها كانت تمثل صلب الموضوع. إذ إن معظم الكراهية بين المنظمتين كان نتيجة التكتيكات الغادرة للأخوية، وتزايد اعتمادها وتبعيتها للحزب الشيوعي الأمريكي، ومحاولاتها المستمرة من خلال برجس، دومنجو، كور، وغيرهم - لخلع جارفي وبقية قادة "الصهاينة الزنوج" في "يونيا". وكما يقول توني مارتن، بدأت الدورات العديدة لتحول مواقف برجس تجاه يونيا في ١٩٢١. واستباقا لاجتماع الدولية الأولى ليونيا، فإن برجس:

" عرض على جارفي اقتراحا - يدخل بموجبه جارفي (بحركته الشعبية الدولية التي ربما تضم الملايين) في برنامج عمل مشترك مع الأخوية (وهي منظمة غامضة عدد أعضائها ألف أو ألفان) لتحرير الأفارقة.... وبعد ذلك انتهز برجس الفرصة التي منحها إياه جمهور جارفي المجتمع للقيام بالدعوة لنفسه ووزع نسخا من برنامج الأخوية.

وكانت الحيلة الثانية في محاولة برجس لفرض جبهة موحدة شيوعية على جارفي تتمثل في جعل صديقته الشيوعية البيضاء "روز باستور يتوكس"

تخاطب الحضور. حيث أسهبت في رغبة روسيا في تحرير أفريقيا والحاجة إلى وحدة الطبقة العاملة للبيض والسود. ثم طلبت من جارفي أن يتخذ موقفا من اقتراحاتها الشيوعية. وبدا جارفي مرحبا ولكنه لم يلزم نفسه بما سمع. وكانت الضربة الأخيرة في إستراتيجية برجس تتمثل في جعل مندوبي الأخوية في المؤتمر يقومون بعرض مذكرة لتبني البرنامج الشيوعي. وعرضت المذكرة للحوار والمناقشة. ونظرا لانزعاج الأخوية من هذا الإخفاق، فقد خرجت بعد ذلك مباشرة "مجلة المؤتمر الزنجي Negro Congress Bulletin" في ٢٤ أغسطس، وكان العدد مخصصا كله تقريبا للتشهير العنيف بمؤتمر يونيا".[١٢٢]

ومهما كانت دوافع برجس وزملائه، فإن هذا النمط من المواقف المتناقضة تجاه يونيا كان يميز العلاقات بين المنظمتين حتى نهاية الأخوية في ثلاثينيات القرن العشرين. أما في الحزب، فقد وجد برجس، ومور، وهايوود، وأوتو هول، وفورت هوايتمان، وغيرهم، عنصرا راديكاليا مكملا وحليفا دوليا محتملا للكفاح ضد الاستعمار ورأس المال العالمي. ففي داخل يونيا، شعر جارفي بتعاطف أكثر مع الشيوعيين الروس مقارنة بالأخوية وزملائها الشيوعيين الأمريكيين.[١٢٣]

السود والشيوعية

في البداية، لم تكن الحركة الشيوعية الأمريكية تتطلب سياسة خاصة بالنسبة للسود. إذ إن تكوينها من الجناح اليساري المتمرد من الحركة الاشتراكية لم يمثل لهؤلاء الشيوعيين ابتعادا عن افتراض أن السود كانوا ببساطة جزءًا من الطبقات العاملة غير الماهرة.[١٢٤] وكذلك، فإنه مع خروج

الحركة الاشتراكية الأمريكية أساسا من الأقليات العرقية والقومية المهاجرة، كانت فكرة التضامن الطبقي مهمة جدا للحركة نظريا وعمليا. حيث قدمت الحركة نوعا من النشاط السياسي تمكنت من خلاله العناصر الاجتماعية المتنوعة في الحركة الثورية - العرقيات، والقوميات، والعمال، والمثقفين - أن تتوافق وأن تتخطى مصالحها الخاصة العديدة. وكان غياب مثل هذا الوعي الطبقي بين السود، ووجود الوعي السلالي بدلا منه، يعتبر لدى الشيوعيين الأمريكيين الأوائل بمثابة تخلف أيديولوجي وتهديد محتمل لتكامل الحركة الاشتراكية ذاتها.(١٢٥)

وبقدر ما أصبحت الحركة المبكرة واعية بقومية السود، بقدر ما كان ذلك مرفوضا. فقد كانت قومية السود غير مقبولة لدى حركة قريبة جدا من الانهيار بسبب الانقسامات القومية والعرقية. وكان هذا الاهتمام واضحا من تكرار وصف أيديولوجيات "العودة لأفريقيا" بأنها "صهيونية" ومقارنتها بحركات "العودة إلى فلسطين" بين اليهود - وهم أقلية مهمة ومؤثرة في أوائل الحركة الاشتراكية.(١٢٦) وكان الحزب يعارض باستمرار قومية السود حتى ظهر شكلها الخاص، المتمثل في حق تقرير المصير، في الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٨. وكانت يونيا - باعتبارها أقوى منظمة بين السود ذات أيديولوجية قومية - تتصف بأنها مجموعة رجعية برجوازية وتركز على الهجوم على قومية السود. ولم تبرر التحيزات السلالية الأمريكية برنامجا بشأن قومية السود. وكذلك كان المهاجرون الأوروبيون من أصول غير أنجلو ساكسونية يمثلون أهدافا للانتهاكات والتمييز العنصري. حيث كانت العنصرية آنئذ مجرد عنصر في أيديولوجية الطبقة الحاكمة، وكانت "شوفينية

البيض" تمثل موقفها السياسي. وهكذا فإن السياق الاجتمـاعي للـسود كـان يتكيف بسبب الأيديولوجيين في الحركة الاشتراكية مع التجارب الاجتماعيـة للعمال المهاجرين الأوروبيين.(١٢٧)

ولم تضم الأحزاب الشيوعية أيا من السود في عضويتها حتى ١٩٢١. ويبدو أن هذا التغير في السياسة كان مسئولية لينين أساسا، بل كان ملحوظا بدرجة أكبر عندما نتذكر أن اسم لينين لم يكـن معروفـا تقريبـا لأي مـن العناصر القومية في الحركة الأمريكية قبل ذلك بأربع سنوات.(١٢٨) ومع ذلك، كان لينين هو الذي أثار "قضية الزنوج" في المؤتمر الثاني للدولية الشيوعية في ١٩٢٠. وكان لينين أيضا هو الذي كتب إلى الحزب في أمريكـا، "فـي وقت ما في ١٩٢١ معبرا عن دهشته من أن تقاريرهم إلى موسكو لم تـذكر عمل الحزب بين الزنوج، ويحث على الاعتراف بهم كمكون مهم إستراتيجيا في النشاط الشيوعي.(١٢٩) ثم بدأ الحزب الشيوعي الأمريكي آنئذ فـي ضـم السود، وبخاصة المنظمون القوميون والمثقفون السود الراديكاليون. وكانـت نواتهم كما ذكرنا سلفا تتكون من أولئك الذين شكلوا أغلبية "المجلس الأعلـى لأخوية الدم الأفريقية". وكانت السوابق التاريخية والنظرية للحزب الشيوعي الأمريكي لا تزال تعمل بين السود الأمريكيين، وكانت مواقفها الحقيقية مـن قومية السود مستمدة أساسا من تجربة الثوريين الروس.

وفي نفس السنة التي خاطب فيها لينين المؤتمر الثاني للكومنترن، كتب عملا يحمل عنوان "شـيوعية اليـسار: اعـتلال فـي المهـد" "Left-Wing Communism – An Infantile Disorder" جاء فيه:

"إن رفض التوافقات "من حيث المبدأ"، ورفض إمكانية التوافقات بصفة عامة، بغض النظر عن نوعها، يعتبر عملا طفوليا، يصعب النظر إليه بجدية.... فهناك أنواع مختلفة من التوافقات".(١٣٠)

وكان لينين هنا يُصَعِّد هجومه على ما سماه "انتهازية اليسار"، أي الأحكام والعمل السياسي الذي يستخدم نصوص ماركس وإنجلز لنقد ومعارضة لينين وقيادة الحزب البلشفي. وكان السياق هنا يتمثل في عام ١٩٢٠، حين كانت روسيا غارقة في حرب أهلية لا تزال غير محسومة؛ وفي أوروبا، لقيت الحركة الثورية هزيمة "مؤقتة". وكان لينين يحث على تراجع تكتيكي. وكانت هذه الوثيقة تهدف إلى إثارة النقد الذي ظهر من الثوريين الروس الآخرين الذين أصروا على أن الثورة يجب أن تحافظ على مجال ونطاق دولي، ولا يمكن ضمانها في نطاق قومي واحد. وطوال الوثيقة وغيرها من الأنشطة، كان لينين يأمل في نزع فتيل "منحرفي اليسار" قبل أن يصبحوا قوة مدمرة يصعب السيطرة عليها في المؤتمر الثاني، ويحطموا سيطرة وتوجيه الحزب البلشفي على الدولية الثالثة. وعلى الرغم من عدم اتساقها المنطقي، وسقطاتها التاريخية، وانحرافاتها، وتناقضاتها مع النظرية الماركسية، أصبحت وثيقته واحدة من أهم الأعمال في العقد الأول من الدولية الثالثة. وكان معظم هذا يرجع إلى سلطة لينين في الحركة باعتباره أقوى شيوعي في العالم؛ ولكن المهم أيضا هو إضفاء هذا العمل مشروعية على التكيف مع الرأسمالية والإمبريالية العالمية. حيث قدمت تسوية مؤقتة عملية للأحزاب الشيوعية في الأماكن الأخرى للبقاء على قيد الحياة بينما تحافظ على خدعة كونها ثورية بدلا من كونها إصلاحية.(١٣١)

ويمكن إرجاع أصل حجة لينين وإعلاناته السياسية نمطيا إلى نقده "للشيوعيين اليساريين" في ١٩١٨، عندما كان لينين مضطرا أثناء ما كتبه عن "طفولية الجناح اليساري" وعقلية البرجوازية الصغيرة إلى الدفاع عن تطور بيروقراطية رأسمالية الدولة ومعاهدة بريست(*) مع الحكومة الأوكرانية. ومن الناحية الواقعية، يمكن أن يوجد هذا الأصل في توصيفه للحزب الثوري كطليعة للجماهير الثورية. وهنا يقول لينين:

"من خلال تعليم وتنوير حزب العمال، تقوم الماركسية بدورها بتعليم طليعة البروليتاريا القدرة على تولي السلطة و"قيادة الشعب كله" إلى الاشتراكية، وتوجيه وتنظيم النظام الجديد، وأن تكون معلما وموجها وقائدا لكل العمال والشعوب المستغلة في تنظيم حياتها الاجتماعية بدون البرجوازية، بل وضد البرجوازية".(١٣٢)

وبالنسبة إلى لينين، كان الحزب هو مالك الوعي التاريخي الحقيقي، وكان يمثل الأداة الحقيقية للتاريخ. وكان الحزب يمثل النظرية الماركسية في التطبيق. وكان يفعل ما يفعله لأن البروليتاريا أظهرت أن وعيها الطبقي

(*) معاهدة بريست Treaty of Brest-Litovsk: معاهدة سلام عُقدت في ٣ مارس عام ١٩١٨، بين الحكومة البلشيفية الجديدة في روسيا (جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية) ودول المركز (ألمانيا، النمسا، بلغاريا، تركيا)، والتي أنهت مشاركة روسيا في الحرب العالمية الأولى. تم توقيع الاتفاقية في بريست-ليتوفيسك (الآن بريست، بيلاروسيا) بعد شهرين من المفاوضات. اجبرت الحكومة السوفيتية على تلك الاتفاقية عن طريق التهديد بمزيد من التقدم للقوات الألمانية والنمساوية. بموجب تلك المعاهدة تخلفت روسيا السوفيتية عن التزامات روسيا الإمبريالية تجاه حلف الوفاق الثلاثي. على الرغم من أن تلك المعاهدة اصبحت بائدة بحلول نهاية العام، فإنها قد وفّرت التفرغ للبلاشفة، والذين يحاربون بالفعل في الحرب الأهلية الروسية، بالتخلي عن مزاعم روسيا في بولندا، وفنلندا، ولستوانيا، ولاتفيا، وبيلاروسيا، وأوكرانيا، وليتوانيا. (المترجم)

لم يكن كافيا.[١٣٣] وهكذا ترتب على ذلك بالنسبة إلى لينين أن معارضة المهام المحددة لها عن طريق الحزب يمكن أن تأتي من مصدرين اثنين فقط: البرجوازية الرجعية في اليمين، والانتهازيين من "مفكري" البرجوازية الصغيرة ذات التوجه الماركسي المزيف في اليسار. فإذا تصرف الحزب لكي يستمر، كما توافقت الدولة مع ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا (التحالف الرباعي) في معاهدة بريست فإنه لا يمكن اتهامه بالتوافق "بصفة عامة". إذ إن البديل كان يتمثل في استمرار الحرب والهزيمة. ويقول لينين إن المرء يجب أن يميز بين التوافقات "الإجبارية" (المحافظة) وتلك التوافقات التي تحول المرء إلى "متواطئ في اللصوصية". وكان الحزب البلشفي يجري التوافقات الإجبارية فقط... إلا في الحالات التي كان يرتكب فيها أخطاء "صغيرة يسهل إصلاحها". وأعلن لينين بقدر طفيف من السفسطة:

""ما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضا - مع التعديلات الضرورية - على السياسة والأحزاب. فليس الذكي من لا يرتكب الأخطاء. فلا يوجد مثل هؤلاء الرجال، ولا يمكن أن يوجدوا. ولكن الذكي هو من لا تكون أخطاؤه خطيرة، وهو الذي يستطيع إصلاحها بسهولة وبسرعة".[١٣٤]

ومن ناحية البرامج والتكتيك، كان لينين يرسي القواعد للأحزاب الأعضاء في الكومنترن في أوروبا وغيرها لتولي المواقف غير الثورية في ذلك الوقت. حيث كان أعضاء الحزب يكلفون بالانضمام إلى الأحزاب والحركات والمنظمات، ومحاولة التأثير على سياساتها بالاتجاه نحو المطالب الإصلاحية المناهضة بالضرورة للرأسمالية." ويجب ألا يكتفي الشيوعيون بتعليم البروليتاريا أهدافها النهائية، بل يجب أن يقدموا الحافز لكل حركة عملية تقود البروليتاريا إلى الكفاح من أجل هذه الأهداف النهائية.[١٣٥]

وفي ١٩٢٠، وفي ١٩٢١ أيضا، أظهر لينين خيبة أمله مـن الاتجـاه والأولويات التنظيمية التي أقرها الحزب الشيوعي الأمريكي. حيث اقترح أنه يجب أن يلعب السود دورا حيويا في الحزب، وفي طليعة حركة العمال، لأن السود يمثلون القطاع الأكثر تعرضا للقهر في المجتمع الأمريكي، وكان من الواضح أنه يتوقع أن يكونوا العنصر الأكثر غضبا في الولايـات المتحـدة. وكان كل هذا ينطبق على لينين نوعا ما عندما كان يبرر الانتهازية الكبيـرة التي سادت تاريخ الحركة البلشفية.(١٣٦)

ومع ذلك، لم يجد لينين أساسا لتأييد إعلاناته داخل البعثـة الأمريكيـة للمؤتمر الثاني. ففي الواقع، كانت البعثة الأمريكية مهتمة بـصورة حركـة "يونيا" في شخص الكاتب الثوري الذي تدرب في هارفـارد، جـون ريـد، وتنكرت هذه الحركة لمكانة لينين، وكتبت تقول:

"حدد ريد مشكلة الزنوج الأمريكيين على أنها "مشكلة حركـة سـلالية اجتماعية قوية، وحركة عمالية بروليتارية تتقدم سريعا جـدا فـي الـوعي الطبقي". وقد أشار إلى حركة جارفي بطريقة استبعدت قوميـة وانفـصالية الزنوج، فأعرب قائلا:

"ليس لدى الزنوج مطالب بالاستقلال القومي. فقد فشلت كل الحركـات التي كانت تهدف إلى وجود قومي مستقل للزنوج، كما حدث مـع "حركـة العودة لأفريقيا" منذ بضع سنوات مضت. فهم يعتبرون أنفسهم قبل كل شيء أمريكيين في وطنهم في الولايات المتحدة. وهذا يجعل الأمر أبـسط كثيـرا بالنسبة للشيوعيين".(١٣٧)

وبالنسبة للوقت الراهن، كانت الكومنترن راضية بالخطة الغامضة لدعوة الثوريين السود إلى مؤتمر مقبل.

وحضرت شخصيتان مهمتان في المؤتمر الرابع للدولية الاشتراكية في ١٩٢٢، حيث حضر أوتو هويسوود، كمبعوث رسمي، وحضر كلاودي مككاي، كمراقب غير رسمي وغير شيوعي. وكان كل من مككاي وهويسوود ("المبعوث المولاتو"، كما كان مككاي يشير إليه في سيرته الذاتية "طريق طويل بعيدا عن الوطن") يميلان إلى إكمال بعضهما في المناقشات الرسمية وغير الرسمية "للمسألة الزنجية".

"عندما دعي المبعوث الزنجي الأمريكي لحضور الاجتماعات، وذهب زميلي المولاتو، تساءل الناس: "ولكن أين الأسود؟ فقال المبعوث المولاتو: "حسنا أيها الرفاق، إنكم مناسبون تماما للدعاية. ولكن من المؤسف أنكم لن تكونوا أعضاء أحزاب ملتزمين".[١٣٨]

وبمساعدة الثوري الياباني صن كاتامايا Sen Katamaya الذي قضى بعض الوقت في الولايات المتحدة يعمل طاهيا وفي مهن أخرى على السواحل الغربية والشرقية، وكان مؤسس الحزب الأمريكي البلشفي الموحد، والمشارك الآن في لجنة المسائل القومية والاستعمارية،[١٣٩] عرض مككاي وهويسوود بنجاح على جلسات الكومنترن أساسا أكثر واقعية للمناقشة. وفي هذا المؤتمر الرابع قدمت الكومنترن إعلانها الرسمي الأول عن سياستها تجاه السود الأمريكيين: وفي بداية السنة التالية، عادت روز باستور ستوكس (الزوجة الراديكالية لفيلبس ستوكس أحد الرعاة المليونيرات للرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة NAACP) إلى الولايات المتحدة وقالت لزملائها الأعضاء في الحزب:

"كان أحد أهم التطورات في المؤتمر الرابع للدولية الشيوعية يتمثل في تأسيس "لجنة الزنوج" وتبني "نظرة اللجنة" في "المسألة الزنجية" التي انتهت إلى إعلان أن "المؤتمر الرابع يعترف بالحاجة إلى مساندة كل أشكال حركة الزنوج الساعية إلى تقويض الرأسمالية والإمبريالية أو عرقلة تقدمهما"، وتدعو الدولية الشيوعية إلى الكفاح من أجل "المساواة السلالية للزنوج مع البيض، وتساوي الأجور والحقوق الاجتماعية والسياسية"، وإلى "بذل كل جهد لدخول الزنوج إلى نقابات العمال" و"القيام بخطوات مباشرة لعقد مؤتمر زنجي عام في موسكو".

وكان هناك زنجيان أمريكيان ضيفان على المؤتمر: أحدهما شاعر والآخر متحدث ومنظم، وكانا شابين مفعمين بالطاقة، وملتزمين بقضية تحرير الزنوج ومستجيبين لمبادئ البروليتاريا الثورية. وسحرا المندوبين بشخصيتيهما الرائعتين".(١٤٠)

وطبقا للسيدة ستوكس، كانت عضوية لجنة الزنوج ذاتها دولية، حيث كانت تتكون من مندوبين من الولايات المتحدة، وبلجيكا، وفرنسا، وإنجلترا، وجاوا، وجنوب أفريقيا البريطانية، واليابان، وهولندا، وروسيا. وهكذا كان مستقبل اللجنة دوليا، مما يعكس دولية المنظمة الماركسية، ونظرية الرأسمالية، وعضويتها. وقد أعلن رئيس اللجنة الرفيق ساشا **Sasha** [وهو اسم تدليل الباحث ستوكس **Stokes**] ما يلي:

"يجب تنظيم حركة الزنوج العالمية: في أمريكا، باعتبارها مركز ثقافة الزنوج ومحور احتجاجهم؛ وفي أفريقيا، باعتبارها مستودع العمالة البشرية وعرضه لمزيد من استغلال الرأسمالية وتقدمها على حسابهم؛ وفي أمريكا

الوسطى، (كوستاريكا، وجواتيمالا، وكولومبيا، ونيكاراجوا، والجمهوريات "المستقلة" الأخرى)، حيث تسيطر الإمبريالية الأمريكية؛ وفي بورتوريكو، هاييتي، سانتو دومينجو، وغيرها من الجزر التي تشملها مياه الكاريبي.... وفي جنوب أفريقيا والكونغو... وفي شرق أفريقيا".[١٤١]

وهكذا كان العمل بين السود في أمريكا يمثل مجرد قطاع واحد في حركة عالمية ضد الاستعمار والإمبريالية حسب المراحل المعاصرة من الرأسمالية العالمية. وكانت الدولية الشيوعية بمثابة الوسيلة التي يستطيع من خلالها العمال البيض الخاضعين للعبودية في أوروبا وأمريكا و"العمال الثوريون والفلاحون في العالم كله" مواجهة العدو المشترك. وفي ذلك يقول ستوكس في دراسته عن الشيوعة العالمية:

"تتمثل مهمة الدولية الشيوعية في أن تُظهر للشعوب الزنجية أنهم ليسوا الشعب الوحيد الذي يعاني من قهر الرأسمالية والإمبريالية؛ وأن العمال والمزارعين في أوروبا وآسيا والأمريكتين عبارة عن ضحايا للإمبريالية أيضا؛ وأن الكفاح ضد الإمبريالية ليس كفاح شعب واحد فقط، ولكنه كفاح كل شعوب العالم؛ وأنه في الصين والهند وإيران وتركيا ومصر والمغرب تثور الشعوب المستعمرة الملونة المقهورة ضد نفس الشرور التي يثور ضدها الزنوج، أي ضد القهر والتمييز العنصري، والاستغلال الصناعي المكثف، وأن هذه الشعوب تكافح لتحقيق نفس الأهداف التي يكافح الزنوج من أجلها – الحرية والمساواة السياسية والصناعية والاجتماعية".[١٤٢]

وعلى الرغم من تناقضاتها وتشكيلاتها الأيديولوجية، فإن وثيقة "أطروحات في مسألة الزنوج" كانت مهمة جدا. ومن المؤكد أن الرؤية التي

تركز على العالم الجديد قلصت منهـا (مثـل افتـراض أن "مركـز ثقافـة الزنوج... واحتجاجهم" كان في أمريكا). ومن المؤكد أن افتراض أن الشعب الزنجي البروليتاري في أمريكا كان يمثل القطاع الأكثر تقدما من عالم السود كان بمثابة تبسيط لماركس وليس نتاج تحليل. ولكن من المؤكد أيضا أن هذا البيان كان بمثابة عرض متقدم للنظام العالمي، أكثر مما تطور في التـدويل المبكر لحركة "يونيا". فقد حثت اللجنة بنجاح المؤتمر الرابع على الاعتراف بالعلاقة بين "مسألة الزنوج" و"مسألة الاستعمار".

وكان هدف لجنة الزنوج في المؤتمر الرابع يتمثل في إحـلال النظـام والوعي الطبقي محل الوعي السلالي بين السود الأمريكيين. ومع ذلك، يتمثل أحد الدروس القديمة المستفادة من يونيا في أن السود كانوا قـادرين علـى التنظيم على نطاق دولي. حيث اقترحت لجنة الزنوج أن يونيا كانت شـكلا خاصا من الوعي السلالي، وأنه يمكن للوعي السلالي أن يتحول إلـى قـوة تقدمية. فالوعي السلالي التاريخي العالمي، الذي يعترف باسـتغلال السـود لأنهم سود، ولكنه يمثل مجرد جزء من الاستغلال المتعلق بعمـال آخـرين، يمكن أن يتطور من شكل أسبق. حيث كانت المشكلة التاريخية المطروحـة على الكومنترن والأحزاب الأعضاء فيها – وخاصة للشيوعية الأمريكيـة – تتمثل فيما إذا كان لدى الحركة الشيوعية القدرة على القيام بهـذا التحـول. فبداية من جهود كل من هويسوود، مككاي، كاتاياما، أصبح واضحا بصورة متزايدة لقيادة الكومنترن – راديك، زينوفييف، تروتسكي، لينـين، وسـتالين لاحقا – أن برنامجا خاصا فقط هو الذي يستطيع أن يجذب أعـدادا كبيـرة من العمال السود إلى الحركة. فبعد ١٩٢٢، كان تعليم وتدريب كوادر السود

في الاتحاد السوفيتي يؤخذ بجدية. وكانت أهم النتائج تتمثل في صياغة فكرة "أمة داخل أمة" التي أعلنت في المؤتمر السادس في ١٩٢٨.

وكان هايوود هول (هاري هايوود) واحدا من السود الأمريكيين الـذين جاؤوا إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة في "جامعة كادحي الشرق University of Toilers of the East (KUTVA)". وعندما وصل في أبريل ١٩٢٦، انـضم إلـى مجموعة صغيرة من الطلاب السود تشمل كلا من أوتو هول (جون جونز)، جان جولدن، هارولد ويليامز (ديسالين)، روي ماهوني (جيم فارمر)، مودي هوايت (الذي وصل في ديسمبر ١٩٢٧)، وبـانكول (مـن سـكان سـاحل الذهب).[١٤٣] ومن بين الطلاب السود السبعة في هذه الجامعة، والسود الذين وصلوا إلى الاتحاد السوفيتي كمندوبين إلى المؤتمر السادس في ١٩٢٨، أيد هايوود فقط وضع "تقرير المصير" للسود الأمريكيين. حيث حـدث تحـول هايوود في شتاء ١٩٢٨ عند الاستعداد للمؤتمر، فاستجاب لتقرير رافض عن يونيا كتبه أخوه أوتو جاء فيه:

"أشرت في المناقشة إلى أن موقف أوتو لم يكن مجرد رفض لأسـلوب جارفي، ولكنه كان أيضا إنكارا للقومية كاتجاه مشروع في حركـة حريـة السود. وقد شعرت أن الأمر يشبه التخلص من القضية: خيرها وشرها. ومع اتضاح رؤيتي بسبب المناقشات السابقة، فإنني أقول أيضا إن القومية التـي تعكسها حركة جارفي لم تكن جسما غريبا أو وافدا. بل على العكـس، فقـد كانت منتجا داخليا نابعا من تربة القهر والاستغلال الشديد للسود في الولايات المتحدة. حيث عبرت عن تطلعات ملايين السود إلى تكوين أمة لهم. وفـي ذلك كتب هاري هايوود ما يلي:

"مع مواصلة هذا المنطق، فقد ظهر لي فكر جديد تماما، وكان هذا أمرا فاصلا بالنسبة لي. فأنا أعتقد أن حركة جارفي قد ماتت، ولكن قومية السود لم تمت. فالقومية – التي حرفها جارفي تحت شعار "العودة إلى أفريقيا" – كانت اتجاها صادقا، ويحتمل أن تنبعث من جديد في فترات الأزمات والضغوط. ويمكن أن تقع هذه الحركة ثانية تحت قيادة مفكرين مثاليين يحاولون تحويلها عن كفاحها ضد العدو الرئيس – الإمبريالية الأمريكية – إلى مسار انفصالي رجعي. وتتمثل الطريقة الوحيدة لتحقيق مثل هذا التحول في الكفاح في تقديم بديل ثوري للسود.

... لقد كنت أول شيوعي أمريكي (ربما باستثناء برجس) يؤيد نظرية أن السود الأمريكيين أمة مقهورة".(١٤٥)

وكان ناسانوف Nasanov (بوب كاتس Bob Catz) ممثلا روسيا في "عصبة الشيوعيين الشبان" – والذي قضى بعض الوقت في الولايات المتحدة– مقتنعا تماما بأن السود الأمريكيين يمثلون قضية قومية. وكان كاتامايا كذلك أيضا، حيث أخبر هايوود أن لينين يؤيد الفكرة. ولكنهم – بالإضافة إلى الشيوعيين السوفيت ممن لديهم نفس العقلية – وجدوا صعوبة في جعل أي سود أمريكيين يؤيدون موقفهم.(١٤٦) فبعد أن سمع ناسانوف حجج هايوود سرعان ما طلب تعاونه. ومن لحظة نطق هايوود بتعليقه على قومية السود، ظهرت القوة الدافعة لمسار تقرير المصير التي أصبحت السياسة الرسمية للكومنترن بعد هذا الاجتماع. وتصاعدت لغة القرارات وأوراق المناقشات التي قدمها هايوود وناسانوف عن "مسألة الزنوج الأمريكيين" الواردة في تقرير المؤتمر، ذلك التقرير الذي حمل عنوان "أفكار في الحركة الثورية في المستعمرات وأشباه المستعمرات"، في ١٢ ديسمبر ١٩٢٨، وجاء فيها:

"من الضروري أن نقدم شعار "حق تقرير المصير" للزنوج في أقاليم الجنوب التي تعيش فيها جماهير غفيرة من الزنوج. ويعتبر التحول الراديكالي للهيكل الزراعي للولايات الجنوبية إحدى المهام الرئيسة للثورة. ويجب أن يشرح الشيوعيون الزنوج للعمال والمزارعين غير الزنوج أن الاتحاد الوثيق مع بروليتارية البيض والكفاح المشترك معهم ضد البرجوازية الأمريكية هو فقط الذي يمكن أن يؤدي إلى تحررهم من الاستغلال البربري، وأن الثورة البروليتارية المنتصرة هي فقط التي سوف تحل المسائل الزراعية والقومية بصورة كاملة ومستمرة في الولايات المتحدة الجنوبية لصالح الأغلبية العظمى من السكان الزنوج في البلاد".[١٤٧]

وقد عرض حق تقرير مصير السود على الحزب الشيوعي الأمريكي كأمر واقع. وطوال سنوات كانت الأصول الحقيقية لهذا المسار تمثل سرا لأعضاء الحركة الشيوعية الأمريكية ولمؤرخيها أيضا.[١٤٨] ومع ذلك، كان معناها واضحا: كما وصفها جوزيف بوجاني (جون بيبر) (أو كما صورها، حسب قول هايوود) في الطرح الأمريكي الأول للمسار، سوف ينتهي منطق تقرير المصير إلى "جمهورية سوفيتية زنجية".[١٤٩]

وكإستراتيجية، فقد كرس حق تقرير المصير للسود نفسه لعدة اهتمامات داخل الكومنترن والحركة الأمريكية. فأولا، ومن خلال الإجراء الذي قامت عليه، رفعت قيادة الكومنترن فوق أحزابها القومية. وكذلك، ومن خلال إضفاء الشرعية بوجود حركات تحرر قومية أخرى والتاريخ المبكر للسود الأمريكيين، خففت نوعا ما من خيبة أمل بعض المشاركين في الدولية الثالثة

الناتجة عن فشل ظهور ثورة عالمية مباشرة - حيث كانت حركات التحـــرر القومي بطبيعتها تصور على أنها كذلك. وكنموذج سياسي، كانت مفيدة أيضا كوسيلة للتعبير عن القوميات والشوفينيات ذات التاريخ الطويل في الحـــزب الشيوعي الأمريكي: حيث ربط الكثير مـــن الأيـــديولوجيين فـــي الحركـــة الأمريكية مشاعرهم القومية بقومية السود.(١٥٠) وأخيرا، كان هناك اعتقاد أنها كانت أفضل وسيلة لتناول أحد أقدم الشعوب الأمريكية، (الزنوج)، أولا مـــن خلال مفكريها الراديكاليين القوميين، ثم من خلال جماهيرها. وكان يقال إن الأمر لن يقتصر على أن تحديد المصير سيجذب السود، بل إنه يمكن أيـــضا أن يكون اختبارا لتحديد درجة التقدمية بين مجاهدي الحزب غير السود، مع إضعاف الطبقة الحاكمة بعزل الأرستقراطية الزائفة المتغطرسة عن رعاتها الرأسماليين الصناعيين والماليين.

وكان الأساس النظري لاحتساب الحزب السود كأمـــة لا يـــزال غيـــر تقليدي في ضوء النظرية الماركسية.. فقد ميز ماركس وإنجلز بين "الأمـــم" و"القوميات"، حيث اعترفا للأولى بالقدرة على الوجود الاقتصادي المـــستقل، مع عدم قدرة الثانية على ذلك. حيث عبر إنجلز عن نفسه بوضوح قائلا:

"لا توجد دولة في أوروبا لا يوجد فيها قوميات مختلفـــة تحـــت نفـــس الحكم.... وهنا ندرك الفرق بين "مبادئ القوميات" وعقيدة الطبقـــة العاملـــة والديمقراطية القديمة، بالنسبة إلى حق "الأمـــم" الأوروبيـــة العظيمـــة فـــي الانفصال والوجود المستقل. حيث تبتعد "مبادئ القوميات" تماما عن المسألة الكبيرة لحق الوجود القومي للشعوب التاريخية في أوروبا؛ بل إنه إذا اقتربت منها فإنها ستثيرها. ويثير مبدأ القوميات نوعين من القـــضايا: أولا، قـــضايا

الحدود بين الشعوب التاريخية الكبيرة؛ وثانيا، قضايا الحق في الوجود القومي المستقل لتلك المجموعات الصغيرة العديدة من الشعوب التي – بعد ظهورها لفترة طويلة أو قصيرة على مسرح التاريخ – تم استيعابها أخيرا كأجزاء مكملة في واحدة من تلك الأمم الأكثر قوة التي مكنتها حيويتها الكبيرة من التغلب على عقبات كبرى".(١٥١)

وكان الانطلاق المنطقي من ماركس وإنجلز يتمثل في اعتبار سود أمريكا أقلية قومية أو قومية، ولكن ليس أمة. فبالنسبة إلى ماركس وإنجلز، كانت الأمة تمثل ظاهرة تاريخية خاصة:

"فمنذ نهاية العصور الوسطى، كان التاريخ يتحرك نحو أوروبا المكونة من دول قومية كبيرة. وكانت هذه الدول القومية فقط هي التي تشكل الإطار السياسي العادي للطبقة البرجوازية الأوروبية المسيطرة، وكذلك كانت تمثل الشروط المسبقة التي لا يمكن الاستغناء عنها... فلا يمكن أن يوجد حكم البروليتاريا بدونها".(١٥٢)

ويرى إنجلز فكرة الأمة بمثابة أداة للبرجوازية؛ حيث كان ظهورها مصاحبا لتطور المجتمع البرجوازي، أي المجتمع الرأسمالي. وبمجرد أن تتحقق الأمة ثم تتخطى حدودها، يمكن للحركة الثورية العالمية أن تسيطر على المجتمع الذي أنتجها. وبالنسبة لماركس، يبدو أن اللغة والثقافة يمثلان ظاهرتين ثانويتين، حيث ترتبط الأولى بالقومية، بينما ترتبط الثانية بالطبقة السائدة. وللأسف، فطوال القرن التاسع عشر وحتى القرن الذي تلاه، كان معظم القواعد النظرية التي قدمها ماركس، وإنجلز، ولينين، وغيرهم من الماركسيين في تحليل الظواهر والعمليات الأمريكية ساذجا أيضا. فقد كان ساذجا بسبب عدم تاريخيته وميله نحو استخدام المفاهيم العمومية بما لا يفيد.

وفي النهاية، كانت سذاجته متناقضة: فعند النقطة التاريخية التي شهدت الهجرة الكبيرة، كان تطبيق السلالة والطبقة، وهما الفئتان الأكثر أهمية في هذه القواعد، يفترض وجود طبقة عاملة بيضاء بين أغلبية العمال الأمريكيين؛ وهكذا فإن الظهور الحقيقي لأمة السود يشير إلى حركة تاريخية معاكسة.(١٥٣)

وقد أثبت لينين أنه الوسيط النظري والأيديولوجي، ولكن ستالين هو الذي قدم الأساس النظري لموقف الحزب من أن السود كانوا أمة داخل أمة، كما أصبح سائدا لدى الحزب الشيوعي الأمريكي ومؤرخيه. فقد أعلن تيودور دريبر أنه "إذا كان هناك 'عبقري' في هذا المشروع، فلا شك أنه كان ستالين".(١٥٤) ومع ذلك، كان التناقض بين ستالين وماركس وإنجلز كبيرا. ففيما أصبح واحدا من أكثر المبررات المذكورة كثيرا "لبرنامج زنوج" الكومنترن، تخلى ستالين تماما عن التقدم التحليلي، وكتب يقول:

"الأمة عبارة عن مجموعة من الناس المستقرين المؤصلين تاريخيا، وهي تظهر إلى الوجود على أساس مجتمع يتميز بمشتركات في اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والمكونات السيكولوجية، وهي تظهر نفسها في صورة مجتمع له ثقافة".(١٥٥)

وربما تمثل هذه الفقرة الاستثنائية علامة مميزة على إسهامات ستالين في الفكر الماركسي والمعرفة العالمية. فأولا، تعتبر غير تاريخية أيضا، لأنه لم تظهر أمة معاصرة بهذه الطريقة، وثانيا، تعتبر مجردة وغامضة، وتستخدم عبارات مثل "المؤسسة النفسية"؛ وثالثا، تعتبر حشوا زائدا: (المجتمع) يظهر نفسه (كمجتمع)؛ وأخيرا، فإنها ليست ماركسية، حيث يبدو

أنها تميل إلى نموذج تطوري في مقابل المادية التاريخية. وتتمثل ميزتها المناسبة في أنها كانت تساير الانتهازية الأيديولوجية والبرامجية لسلف ستالين المباشر. فمضامين السياسات لهذه العبارة تتناسب تماما مع المبررات الموجودة في "شيوعية اليسار". وربما يمثل هذا نوعا آخر من الإثبات على أن السياسة كانت مجرد ملحق على تاريخ حركات السود، وليست ناتجا مستقلا للنخبة السياسية للاتحاد السوفيتي. فمثل صياغات حركات التحرر القومي الأخرى التي يكتشفها المرء في إعلانات الكومنترن، كان ذلك بمثابة انتهازية تبحث عن مبررات نظرية. وهكذا مثلت الأهمية الحيوية للحزب السوفيتي لتكوين تحالفات مع حركات كانت تظهر من مجتمعات "قبل الرأسمالية". وفي ضوء الضرورة التاريخية، وفقت الماركسية اللينينية نفسها نظريا مع القومية، وهكذا أضفت الطابع المؤسسي على القوة التي وضعت الدولية الثانية تحت سيطرتها. ويمكن أن يقال في أبسط قراءة عقلية لهذه الجدلية إن الدولية الثالثة كانت تجمع بين النظرية (الاشتراكية) والنظرية المضادة (الشوفينية القومية) من الدولية الثانية.

وكسياسة رسمية للحزب الشيوعي الأمريكي، فإن حق تقرير المصير – فكرة حزام السود – تتخطى ستالين، ولكن قليلا فقط. وبينما كان ستالين شخصية مسيطرة في الحركة الشيوعية العالمية، كان لهذه الشخصية تقلباتها، حيث كانت تستجيب للآليات القومية والدولية للحركة الثورية.

"لقد عاشت سياسة حق تقرير المصير للسود مرتين وماتت مرتين أيضا. فبعد الإطاحة "بمراجعات" لفستون، جعل براودر حق تقرير المصير أحد المقومات الرئيسة للإيمان بقيادته. وفي نوفمبر ١٩٤٣، وبعد أن توقفت

عن إظهار أية علامة على الحياة طويلا، أقام طقوسا جنائزية على جثمان حق تقرير المصير؛ وشرح كيف أن الشعب الزنجي مارس سلفا الحق التاريخي في تقرير المصير - برفضه هذا الحق. وبعد الإطاحة بمراجعات براودر، جعل فوستر حق تقرير المصير واحدا من المقومات الرئيسة للإيمان بقيادته. وفي ١٩٤٦، بعث حق تقرير المصير بصيغة مخففة - كمطلب برامجي وليس كشعار عمل مباشر.

وفي ١٩٥٨، دفنت القيادة الشيوعية جثمان حق تقرير المصير ثانية. حيث قررت أن الشعب الزنجي الأمريكي لم يعد "مجتمعا مستقرا"؛ وأن المسألة القومية الزنجية لم تعد "مسألة زراعية أساسا"؛ وأن الزنوج لا يملكون أي "مركب نفسي مشترك" متميز؛ وأن التيارات الرئيسة لفكر وقيادة الزنوج- "تاريخيا وعالميا في الوقت الراهن" - اتجهت نحو المساواة مع الأمريكيين الآخرين؛ وأن الشعب الأمريكي الزنجي لا يمثل أمة؛ ولذلك فإن حق تقرير المصير لا ينطبع عليهم".[١٥٦]

وقد ألزم لينين الحزب الشيوعي الأمريكي باعتبار الأمريكيين السود بمثابة عنصر حيوي في سياسته وتنظيمه. وكان ستالين - وهو ذاته عضو أقلية قومية روسية - يمثل السلطة التي من خلالها وصل الكومنترن والحزب الشيوعي الأمريكي إلى الاعتراف بالسود كأمة مقهورة.[١٥٧] وكانت السياسات التي تأثرت مباشرة لفترة بهذين البلشفيين ناجحة: حيث انضم آلاف السود إلى الحزب الشيوعي الأمريكي خلال ثلاثينيات القرن العشرين استجابة لاهتمامات الحزب ونواياه المعلنة.[١٥٨] ومع ذلك، كانت حركة يونيا وأخوية الدم الأفريقي في خلفية المشهد. حيث وضعا الشروط السابقة

السياسية والأيديولوجية لسياسات الحزب ونجاحاته. وكانت حركة يونيا هي التي جسدت التراث الراديكالي للسود وعبأت جماهير السود بمعنى الأمة. وكانت يونيا وأخوية الدم الأفريقي هما اللتان مر من خلالهما معظم النشطاء السود الأوائل في الحزب. وكانت يونيا والأخوية أيضا هما اللتان أظهرتا قدرات السود على التنظيم السياسي والاستجابة الأيديولوجية. وهناك نقطة مهمة عن طبيعة الحركة الشيوعية الأمريكية المبكرة، وهي أن أهمية هذه الأمثلة يجب أن تعتمد على السياسة التي يوجهها السوفييت، والتي يجب الكشف عنها.

وفي ضوء هذا التقرير عن تدخل الروس والكومنترن في شئون الحزب الشيوعي الأمريكي، يبدو أنه من السخرية التاريخية أنه جرت محاولة لإعادة تقييم أولي للنظرية الثورية الماركسية من خلال عمل دو بويز. إذ إن دو بويز هو الذي أدخل إلى الماركسية الأمريكية التفسير النقدي لطبيعة وأهمية الثورة، وذلك بناء على تطورات الثورة الروسية وفترة إعادة البناء الأمريكية.

دو بويز والنظرية الراديكالية

نظرا لأن دو بويز كان من السود، فقد كان حساسا للتناقضات في المجتمع الأمريكي، وخاصة للقوة المادية للعنصرية. بل إنه كان أكثر "وعيا" بالعنصرية نظرا لأنه عانى منها في سنواته الأولى. فقد كان شابا في الوقت الذي اضطر فيه صراحة لمواجهة ثقافة العنصرية. ولاحقا، كانت له كدارس أسود تجربة مباشرة وواضحة مع التاريخ المزيف الموجود في هذه الثقافة. إذ إن كلا من تدريبه في هارفارد وقسم التاريخ المتأثر كثيرا بالتأريخ الألماني، ودراساته في برلين، تركاه بحساسية شديدة تجاه الأسطورة والدعاية

في التاريخ. وكما أشرنا سلفا، وباعتباره ناقدا لماركس، لم تكن على دو بويز التزامات تجاه العقيدة الماركسية أو اللينينية، ولا تجاه تقلبات التحليل والتفسير التاريخي الذي ميز الفكر الشيوعي الأمريكي. وفي ضوء هذه السمات، التي غلفتها أحداث فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، حصل دو بويز على مهارات لاقتناص الميزة التي وفرتها هذه الأزمة في الرأسمالية، ويعبر هو عنها بكلماته التالية:

"يجب على شخص ما في كل حقبة أن يوضح الحقائق التي تتعارض تماما مع رغبته وأمنيته واعتقاده. ويتمثل ما توصلنا إلى معرفته حتى الآن، بقدر الإمكان، في الأشياء التي وقعت فعلا في العالم... فلا يحق للمؤرخ الذي يكتب كعالم أن يخفي أو يشوه الحقائق؛ وحتى نفرق بين هاتين الوظيفتين لمؤرخ النشاط الإنساني، سنجعل من السهل بالنسبة للعالم المشوش نتيجة الجهل العميق أن يرتكب نفس الأخطاء عشر مرات". (ص ٧٢٢)

لقد كتب هذه الكلمات والتأريخ الأمريكي في ذهنه. ولكن يمكن أن نفترض أيضا أنه كان لديه تطبيق إضافي في متناوله.

ومن بين الحقائق العديدة التي قدمها دو بويز في "إعادة بناء السود"، كان هناك عدد منها يرتبط مباشرة بالنظرية الماركسية واللينينية. وبالتحديد، هناك أفكاره المتعلقة بظهور الرأسمالية؛ طبيعة الوعي الثوري، وطبيعة التنظيم الثوري. وكما نتذكر، فقد أصر دو بويز أولا على الأهمية التاريخية العالمية للرق الأمريكي في ظهور الرأسمالية والإمبريالية الحديثة. وإن كان لم يسبق ماركس في هذا المجال، إلا أن هذا كان يمثل بدايته فقط. ثم أظهر تاريخيا القوة الثورية للعمال الرقيق والمزارعين – وهو ما يتعارض مع

الطبقة العاملة الصناعية الرجعية. وأخيرا، ومع وضع لينين في ذهنه، تساءل دو بويز عن الأدوار المفترضة للطليعة والجماهير في تطور الوعي الثوري والعمل الثوري الفعال.

وبالنسبة إلى القضية الأولى، أي العلاقة بين القضاء على الرق وظهور الرأسمالية والإمبريالية الحديثة - يقول دو بويز إن فترة إعادة البناء الأمريكية كانت بمثابة لحظة تاريخية في تطور النظام العالمي. فقد كانت هذه هي اللحظة التي اتخذت فيها الرأسمالية العالمية طابعها الذي استمر حتى القرن العشرين، إذ يقول:

"بدأ إلغاء الرق الأمريكي بنقل رأس المال من الدول البيضاء إلى الدول السوداء، حيث يسود الرق، مع نفس النتائج الخطيرة والمخيفة على الطبقات العاملة في العالم الذي نراه حولنا اليوم. فعندما لا يمكن الحصول على المواد الخام في بلد مثل الولايات المتحدة، يمكن الحصول عليها من المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية تحت ديكتاتورية الصناعة والتجارة، مع عدم وجود طبقة زراعية حرة.

وأدت منافسة الزراعة التي يديرها الرقيق في جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا، إلى تحطيم الكفاءة الاقتصادية فعليا للزراعة في الولايات المتحدة وأوروبا، وبداية التدهور الاقتصادي الحديث لمزارع البيض، بينما وضعت في أيدي ملاك الآلات احتكار المواد الخام لدرجة أن سيطرتهم على عمالة البيض أصبحت تكتمل باستمرار". (ص ٤٨)

وكما يقول دو بويز، لم يكن هذا تطورا ضروريا، ولكنه ترتب على تحلل وتفكك "ديكتاتورية العمل" التي استقرت في الولايات المتحدة الجنوبية خلال إعادة البناء:

"بدأ يظهر في أمريكا في ١٨٧٦ رأسمالية جديدة واسترقاق للعمل ... وبكى العالم بسبب المجموعة المستغلة من سادة العالم الجديد، ولأن الجشع والغيرة أصبحا شديدين لدرجة أنهم حاربوا من أجل التجارة والأسواق والمواد والرقيق في كل أنحاء العالم، حتى اندلعت الحرب في العالم في ١٩١٤ أخيرا. وسقط الهيكل الرائع، مخلفا الأرباح الهائلة والفقر، والوفرة والجوع، والإمبراطورية والديمقراطية، يحدقون في بعضهم عبر الكساد العالمي".(ص ٦٣٤)

ولكن بدلا من اعتبار هذه العملية حتمية بسبب التناقض بين أنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج، يقول دو بويز إنها حدثت أساسا بسبب أيديولوجيات العنصرية، وبسبب الفردية بدرجة أقل. إذ إن هذه الأيديولوجيات كقوى تاريخية هي التي منعت ظهور حركة عمالية قوية في الولايات المتحدة - وهي الحركة التي كانت نواتها تتكون من التسعة ملايين من الرقيق السابقين والعمال الزراعيين البيض في الجنوب. حيث ظهرت قوة هذه الأيديولوجيات بعد الحرب عندما لم يتحرك هؤلاء العمال إلى الخطوة المنطقية التالية: إضفاء الطابع المؤسسي على التقارب التاريخي من أجل السيطرة على "ديكتاتورية العمل" في إعادة البناء. وبدون هذه الحركة، لم تكن الثورة التي بدأت في ١٨٥٥ بالحملات التي شنها جون براون كانساس تستطيع الاستمرار.[١٥٩] إذ إن الفشل في تحقيق الوعي بالذات كطبقة لم يكن نتيجة لعدم تركيز الإنتاج في الزراعة - كما يفترض بعض الماركسيين - لأن العمال في الشمال كانت لديهم نفس التجربة، ومع ذلك كانت حركة العمال نقابية أساسا.[١٦٠] ومن ناحية أخرى، فإنه في الجنوب حيث كانت طبيعة

الإنتاج من حيث تركز العمالة أكثر غموضا، كان هؤلاء العمال السود والبيض هم الذين حققوا "الإضراب العام" الحاسم في إنهاء الحرب الأهلية.

ولم يكن الإضراب العام مخططا ولا منظما بصورة واعية. ولكن ما سماه دو بويز "الإضراب العام" كان بمثابة الأثر الكلي على الجنوب الانفصالي نتيجة سلسلة من الأعمال التي ترتبط ببعضها عرضيا: إذ أصبح ٢٠٠ ألف عامل أسود معظمهم من الرقيق جزءًا من القوات المسلحة الاتحادية. حيث سحب هؤلاء وعدد أكبر من السود عملهم المنتج وخدماتهم شبه العسكرية من الكونفدرالية، وحولوا جزءًا كبيرا منهم إلى الاتحاد. وكذلك، هاجر عشرات الآلاف من الرقيق والبيض الفقراء من الجنوب. وكان السابقون يهربون من الرق، بينما كان اللاحقون يهربون من الفقر ومتطلبات وويلات الحرب التي لم يكن لهم فيها مصلحة. وتمثلت النتيجة في إضعاف الانفصاليين كثيرا. وكان ترتيب هذه الأعمال المتنوعة نتيجة للنظام الاجتماعي الذي كانت تستجيب له. إذ إن التناقضات داخل مجتمع الجنوب، وليس الطليعة الثورية، هي التي حولت هذه الظواهر إلى قوة تاريخية. وبعد الحرب، كانت هناك حاجة إلى ترتيب مختلف لتحقيق تكامل هذه الظواهر في حركة سياسية. وكان يمكن تحقيق ذلك لو تم تجاوز الأيديولوجيات الحاكمة للمجتمع. ولكن ذلك لم يحدث. وهنا يستعرض دو بويز الموقف قائلا:

"كان من المؤكد أن تتجه قوة تصويت الزنوج في الجنوب تدريجيا نحو الإصلاح. وكان هذا الحدث غير المتوقع هو ما يخشاه البيض الفقراء من جميع المستويات. إذ كان يعنى بالنسبة لهم إعادة فرض تلك التبعية في ظل عمالة

السود التي عانوا منها أثناء الرق. ولذلك، تدخلوا بـالعنف لزيـادة العـداء الطبيعي بين الجنوبيين المنتمين لطبقة المزارعين والشماليين الذين يمثلـون الديكتاتورية العسكرية بالإضافة إلى رأس المـال ... ولـذلك فـإن جهـود الإصلاح التي كانت مستحسنة في البداية بدأت في الاختفاء واحدا تلو الآخر أمام فلسفة جديدة تمثل التفـاهم بـين المـزارعين والبـيض الفقـراء.... وكانـت مصحوبة... بلهفة من جانب البيض الفقراء لمواجهة مطالب السود بأية وسـيلة، وبالرغبة في القيام بالأعمال القذرة للثورة التي كانت قادمـة، بكـل وحـشيتها الدموية، وكلماتها المريرة، واضطراباتها وتقلباتها. وكـان هـذا بمثابـة مولـد وظهور حركة الكوك كلوكس كلان(*)". (ص ٦٢٣)

ولكن الأمر لم يقتصر على مجرد عداوات البيض الفقراء تجاه الـسود، والتي ثارت بسبب بروز السود خـلال إعـادة البنـاء. إذ كـان "الأسـاس الاقتصادي العميق" لهذه العداوات يواجه في الحقيقة تحديات مقترحات التغيير الراديكالي لحيازة الأرض التي قدمها المشرعون السود. ولكن بقايا الطبقـة الحاكمة الجنوبية هي التي ركزت اهتمام البيض الفقراء على العمال الـسود. فقد كانت هذه الطبقة الحاكمة ضعيفة جدا بسبب الحرب لدرجة أنها اضطرت للمرة الأولى إلى استخدام البيض الفقراء بعدوانية كحلفاء لها. "كان الـسادة

(*) الكوك كلوكس كلان Ku Klux Klan: تعرف بشكل غير رسمي بـ الكلان أو "النظام المقنـع"، هو اسم يندرج تحته ثلاث منظمات يمينية متطرفة قديمة وحديثـة فـي الولايـات المتحـدة الأمريكية، والتي دعمت التيارات الرجعية مثل التفوق الأبيض، والقومية البيضاء، ومناهضة الهجرة، وتم التعبير عنها تاريخيًا عن طريق الإرهاب. منذ منتصف القرن العـشرين كانـت هذه الحركة مناهضة أيضا للشيوعية. تصنفها المراكز الحقوقيـة فـي الولايـات المتحـدة باعتبارها جماعة تبث الكراهية، ويتراوح عدد أعضائها اليـوم مـا بـين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠. (المترجم)

يخشون رفيقهم السابقين.... وكذبوا بشأن الزنوج.... وكانوا يواجهون خطر الحركة العمالية الجنوبية الموحدة باللجوء إلى خوف وكراهية البيض.... حيث شجعوهم على السخرية من السود وضربهم وقتلهم وحرق جثثهم. بل إن المستعمرين أصحاب المزارع منحوا بناتهم للبيض الفقراء للزواج بهن". (ص ٦٣٣)

وبناء على هذا الأساس، فشلت الرابطة بين عنصري الطبقة العاملة الجنوبية في التحقق. وشعر دو بويز أن السود ثبتوا بالضرورة تحالفاتهم الطبقية مع الجمهوريين الراديكاليين الرأسماليين والبرجوازية الصغيرة الشمالية. وكان هذان التحالفان قصيرى الأجل بطبيعتهما. فبمجرد أن تغلغل رأس المال الشمالي بصورة كافية في القطاع الاقتصادي الجنوبي، بما يجعله مؤهلا للسيطرة على تطوره مستقبلا، توقف هذا المال عن الاعتماد على الناخبين السود ومشرعي الدولة المستجيبين للسود والبرجوازية الصغيرة للسود. وانتهى التحالف بانسحاب القوات الاتحادية من الجنوب وتدمير الحكومات التي تساندها بيروقراطية الاحتلال. وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، ظهرت الطبيعة دون الرأسمالية للإنتاج الزراعي الجنوبي، واتضحت الحاجة إلى مصادر خارجية للمواد الخام. ففي كل من المكسيك، والفلبين، وهاييتي، وجزر المحيط الهادئ والكاريبي، وفي أماكن أخرى، بنى رأسماليو الشمال أشكالهم الخاصة للرق؛ ولكنها كانت أشكالا لا يمكن أن يكونوا مسئولين عنها بسهولة، ولا يجب عليهم أن يعيشوا فيها.

وننتقل الآن إلى مسألة الوعي والتنظيم الثوري، حيث كان عرض دو بويز أيضا للإضراب العام هو الذي قدم نقدا للفكر الماركسي. ولكن يجب أن نتذكر أولا ما الذي كان يشكل النظرية الماركسية في أمريكا في ذلك الوقت.

في الوقت الذي كان دو بويز يكتب فيه "إعادة بناء السود"، جاءت الرأسمالية في أشكال عديدة بناء على التراث الثوري أو الفكري الذي يتناوله المرء. ويقول رافائيل صمويل إن هذه "التحولات في الماركسية" كانت متوقعة، بل وسبقتها تغيرات في كتابات ماركس ذاته:[١٦١]

"ظهرت الماركسية في الاتحاد السوفيتي كاتجاه نقدي داخل الشعوبية، وفي إيطاليا في شكل توافق مع الاجتماع الوضعي، وفي النمسا – وبافاريا – في شكل تناغم مع فكر لاسال. وكانت ماركسية الدولية الثانية أمرا غير متجانس، حيث كانت اتجاهات عديدة تتنافس على الاهتمام السياسي، ولم يظهر نوع من المنهج المكتمل. فقد كانت الماركسية مفروضة بالضرورة على أنماط فكر موجودة سلفا، بحيث تضمنتها ولم تحل محلها، بينما كانت تعتبر أصيلة في النظرة الجديدة... وتغيرت الملامح كثيرا في فترة الدولية الثالثة، ولكن الماركسية كانت بعيدة كثيرا عن كونها مكتملة بإحكام، على الرغم من طبيعتها ذات العقلية الحزبية باستمرار. ففي العشرينيات، كان هناك جدل فلسفي عنيف وشرس في الواقع داخل الاتحاد السوفيتي ذاته، حيث كانت مدارس متنافسة تتصارع باسم المادية الجدلية".[١٦٢]

ولكن وبصفة عامة، فإنه من حيث ترتيب المكانة في الاشتراكية الثورية، تأتي أولا أعمال ماركس وإنجلز وأقرب معاصريهم في أوروبا وروسيا.[١٦٣] حيث قدم هؤلاء النصوص التقليدية للماركسية. وثانيا، كانت هناك أعمال المفكرين السوفييت، وبليخانوف، ولينين، وبوخارين، وتروتسكي، وستالين.[١٦٤] فمنذ ١٩١٧ فصاعدا، أصبحت هذه الكتابات أكثر أهمية بالنسبة للحركة الاشتراكية. ومع التحول البيروقراطي للثورة الروسية والتحول

المؤسسي للكومنترن، تخطى ستالين وتفسيراته لفكر لينين في النهاية كل الكتاب الماركسيين الآخرين من حيث السلطة.

"وتوقفت كل الأعمال النظرية الجادة في الاتحاد السوفييتي بعد الحركة الجماعية. حيث دفع تروتسكي إلى المنفى في ١٩٢٩، واغتيل في ١٩٤٠؛ وجرد ريزانوف من مناصبه في ١٩٣١ ومات في معسكر عمل في ١٩٣٩؛ وأسكت بوخارين في ١٩٢٩، وأطلق عليه الرصاص في ١٩٣٨؛ وتحطم بريوبرازنسكي في ١٩٣٠ وسحق في السجن في ١٩٣٨. وأصبحت الماركسية مجرد تذكار في روسيا مع وصول حكم ستالين إلى ذروته".(١٦٥)

وفي الولايات المتحدة، كانت هناك الثنائيات التي تعكس الصراعات في أوروبا وروسيا. أما في أمريكا، فقد كان دعاة الحزب أكثر بروزا من المنظرين المستقلين. وانخفض وجود المنظرين في الحزب كثيرا بسبب أحداث أواخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين. إذ إن طرد اليسار "التروتسكي" وما تبعه من طرد يمين "لفستون"؛ ومشهد تطهير السياسيين المحنكين في الثورة الروسية من الحزب البلشفي؛ وتوافقات فترة الجبهة الشعبية بعد ١٩٣٣؛ والتراجع المستمر للرأسمالية؛ قد ألقى بظلاله على النظرية الثورية، وفي ذلك يقول ميلتون كانترو في دراسته:

"كان تركيز ماركس على الحتمية التاريخية للثورة يحظى بأهمية متناقصة لدى أعضاء الحزب، وترك المفكرين كذلك في الثلاثينيات. وربما ادعى الشيوعيون أن الماركسية تخصهم، ولكنه كان مجرد ادعاء شكلي بعد إعلان الجبهة الشعبية. ومع ذلك، كانت هناك مرات قليلة في تاريخ الحزب الشيوعي عندما تم تطبيق النظرية الماركسية بتحليل جيد ومتصل للمجتمع

الأمريكي. بل إن المفكرين غير الشيوعيين... وجهوا انتقادات قليلة وغير مكتملة لمثل هذه التحليلات".[١٦٦]

وقد تراجعت الثورة إلى الخلفية، بينما حظيت حاجات ملحة بالأولوية - مثل مساندة "العهد الجديد"؛ ومتابعة "الأمن الجماعي" للاتحاد السوفيتي؛ وتنظيم الحركة النقابية الجديدة التي مثلها مؤتمر المنظمات الصناعية (CIO)؛ والكفاح من أجل مساعدة الدولة للعاطلين والمسنين؛ وأخيرا، فإنه على الرغم من أن الماركسية كانت تتطور في أماكن أخرى في إطار الأحزاب الشيوعية، يبدو أن زيادة تطورها في أوروبا في الثلاثينيات كانت مقصورة على ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا. وحتى هناك، كان التراث مقيدا حسب ما قاله بيري أندرسون:

"من المدهش في كل جسد الماركسية الغربية أنه لا يوجد تقييم واحد جاد أو نقد متصل تجاه مقدم نظرية جديدة تجاه صاحب نظرية أخرى، مما يكشف عن معرفة نصية وثيقة أو اهتمام تحليلي أدنى في معالجتها. وعلى أقصى تقدير، لم يكن هناك سوى نقد شكلي عابر أو تعديلات عارضة، وكلها سيئة الكتابة ومصطنعة. وتظهر الأمثلة النمطية على هذا الإهمال المتبادل في الملاحظات القليلة الغامضة التي وجهها سارتر إلى لوكاس؛ والتعليقات الجانبية المتفرقة والبالية التي سجلها أدورنو على سارتر؛ والانتقادات الخبيثة من كوليتي ضد ماركوس؛ وارتباك الهواة لدى ألتوسير بين جرامشي وكوليتي؛ واستبعاد ديلا فولبي نهائيا لألتوسير".[١٦٧] وكان لا يزال هناك الكثير من الفوضى.

وعلى الرغم من أن المقدمة المشتركة القائلة بأن التحرر الإنساني يجب أن يتطابق مع تحقيق الثورة الاشتراكية، فإن الكتابات التي قدمها المنظرون الماركسيون كانت تحتوي على خلافات واختلافات خطيـرة بالنـسبة إلـى العمليات التاريخية والعناصر الهيكلية المتضمنة في ظهور الثورة. وفي إطار مجالات الخلاف، كانت هناك قضايا تتعلق بطبيعة الـوعي الطبقـي؛ ودور الحزب الثوري؛ والطبيعة السياسية للزراعة والطبقات العاملة الأخرى "قبـل الرأسمالية". ونظرا لأنه يستحيل حتى تلخيص حجم نقاط الخلاف الموجـودة في الأدبيات الماركسية، سنقصر أنفسنا في الصفحات المقبلة في هذا الفصل على تلك الجوانب التي تناولها دو بويز بنفسه.[١٦٨]

يقول ماركس وإنجلز إن الاغتراب اللصيق بنمط الإنتاج الرأسـمالي، والتناقضات الناشبة بين ذلك النمط والعلاقات الاجتماعيـة المـصاحبة لـه، وتوسع الاستيلاء على ممتلكات الغير، يمكن أن يؤدي إلى ثـورة اشـتراكية بقيادة الطبقات العاملة الصناعية. وعلى الرغم من أن الثورة ذاتها لـم تكـن حتمية (يمكن أن يتصاعد هذا إلى الحتمية الاقتصادية)، فإن دور هذا النـوع المحدد من العمال في مثل هذه الثورة كان مؤكدا.[١٦٩] واعتبـرت الجدليـة التاريخية عمال الصناعة - البروليتاريا - نقيضا للمجتمع الرأسـمالي، أي القوة التي أنتجتها الرأسمالية والتي يمكن أن تدمرها فـي النهايـة. وكانـت الرأسمالية، تحرض طبقة (البرجوازية) ضد الطبقة الأخرى (البروليتاريا).

وكان هذا يمثل الطبيعة الخاصـة للـصراع الطبقـي فـي المجتمـع الرأسمالي. ومع ذلك، فنظرا لأنه كان هناك أكثر مـن طبقتـين فـي كـل مجتمعات القرن التاسع عشر التي درسها مـاركس وإنجلـز، أصـبح مـن

الضروري بالنسبة لهم أن يحددوا هذه الطبقات الأخرى ويسندوا إليها أدوارا تاريخية محددة. فقد كانت البرجوازية الصغيرة اسميا وتاريخيا وسيطا للرأسمالية: المديرين، والفنيين، وصغار التجار، وأصحاب المتاجر. وعلى عكس البرجوازية، فإن البرجوازية الصغيرة لم تكن تملك أو تتحكم في وسائل الإنتاج. إذ كانت طبقة يعترف أعضاؤها باعتمادهم على البرجوازية من أجل الامتيازات الاجتماعية. وكانت ولاءاتهم السياسية للبرجوازية، وكذلك كانوا يعتبرون رجعيين بحكم طبيعتهم الطبقية.(١٧٠) وكانت هناك طبقة رابعة - بروليتاريا العوام - والتي كانت رجعية أيضا. حيث كانت هذه الطبقة تتصف بأنها تعيش على البروليتاريا بصورة تطفلية. وتشمل هذه البروليتاريا اللصوص، السفاحين، البغايا، "والأفراد الذين ليس لهم مهن محددة وإقامة مستقرة".(١٧١) ومن هذه الطبقة، يحصل المجتمع على الكثيرين من الذين سيشكلون أدواته القمعية: الجيش، ميليشيات الدولة، والشرطة. وكانت الطبقة الخامسة تتمثل في المزارعين. وكانت هذه الطبقة هي الأقرب إلى البيض الفقراء والعمال السود في فترة ما قبل الحرب الأهلية من حيث علاقتها المنتظمة بالرأسمالية الصناعية، وتنظيمها الاجتماعي، وأصولها التاريخية.(١٧٢) وبالنسبة لماركس وإنجلز، كان ملاك المزارع يمثلون بقايا المجتمع قبل الرأسمالي. ولكن على عكس البقايا الأخرى من الإقطاع - مثل رجال الدين، الأرستقراطية، والحرفيين والصناع - استمر ملاك المزارع في الاحتفاظ بأهميتهم في المجتمع الرأسمالي. وكان كل من ملاك المزارع والبرجوازيين يمثلون نقيضا للإقطاع، ولكن المصلحة الذاتية "ضيقة الأفق" لدى ملاك المزارع جعلتهم يهدفون إلى تحطيم العلاقات الإقطاعية بالتحرك تاريخيا للوراء إلى حيازات الأراضي الفردية الصغيرة، والابتعاد عن الهياكل الاقتصادية المتكاملة قوميا، والتي كانت البرجوازية تتطلع إليها. ففي ظل الإقطاع، كانت البرجوازية تمثل تناقضا تقدميا تاريخيا، وكان ملاك

المزارع يمثلون نقيضا رجعيا تاريخيا. ومع تدمير الإقطاع بسبب القوى الرأسمالية، أصبح ملاك المزارع رجعيين بطريقة مختلفة. وأصبح هؤلاء الملاك الآن حليفا محتملا للبرجوازية، ويمكن أن يقف ضد القوة السياسية للعمالة الصناعية والثورة الاشتراكية.

وكان لينين وتروتسكي – القادمان من روسيا القيصرية، وهي مجتمع تسوده الزراعة الكفافية أو اقتصاد "متخلف" – ينظران إلى المزارعين بصورة مختلفة عن ماركس أو إنجلز.[١٧٣] ففي ريف روسيا الأوسط والغربي عند نهاية القرن التاسع عشر، كانت بقايا "الإقطاع" الروسي توجد في الأرستقراطية والمزارعين الفقراء. وكان هناك أيضا نظام مزارع "الكولاك kulaks[*]"، الذي يمثل برجوازية ريفية تساندها زراعة رأسمالية، ومزارعون متوسطون محصورون أساسا في أنماط معدلة من الزراعة

(*) الكولاك Kulaks: فئة من المزارعين الأثرياء نسبيًا في روسيا والاتحاد السوفييتي سابقًا. يرجع أصل كلمة كولاك Kulak، إلى المزارعين المستقلين في الإمبراطورية الروسية، والذين تركوا طبقة عموم الفلاحين وأصبحوا من الأثرياء في عام ١٩٠٦. توسعت تسمية الكولاك في عام ١٩١٨ لتشمل أى فلاح قاوم تسلسم محاصيله إلى كتيبة من موسكو. خلال الفترة من ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣، أدرجت الحملة الشاملة لتجميع الفلاحين بقيادة ستالين " الفلاحين المالكين لبقرتين أو خمسة أو ستة فدادين أكثر من جيرانهم" تحت اسم الكولاك. وفقًا للنظرية السياسية للماركسية اللينينية في أوائل القرن العشرين، كان الكولاك أعداء طبقيين بالنسبة للفلاحين الأفقر منهم. وصفهم فيلاديمير لينين بـ "مصاصي الدماء، الخفافيش، لصوص الشعب وسارقي قوته، الذين سمنوا، بينما كان الناس يموتون في المجاعة". هدفت الماركسية اللينينية إلى ثورة لتحرير الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين إلى جانب البروليتاريا (العمال في المناطق الحضرية والصناعية). عمليًا، أدت تلك النظريات الماركسية اللينينية إلى خراب الإقتصاد الزراعي، حيث سيطر المسئولون الحكوميون على مزارع الكولاك وقاموا بقتل المقاومين، ثم تم ترحيل الآخرين إلى معسكرات العمل. بداية من عام ١٩٣٢ وحتى عام ١٩٣٣، حدثت مجاعات كبيرة، خلفت وراءها ملايين القتلى في مجاعة أوكرانيا وحدها. كشفت الوثائق في العقود الأخيرة لتلك الفترة الزمنية، أن "قيادة ستالين" كانت على علم بما يحدث في الريف، وكانت في الواقع تستخدم " المجاعة كوسيلة للإرهاب والانتقام من الفلاحين الذين أبدوا مقاومة". (المترجم)

الكفافية. ويقول لينين إن المزارعين الرحل، والبروليتاريا الريفية، ظهـروا من بين المزارعين الفقراء الذين عملوا إما لحـساب الكـولاك، أو مـلاك الأراضي أو بعض المزارعين المتوسطين الاستثنائيين. واتفق كل من لينين وتروتسكي على أن علاقات الإنتاج الريفية كانت خاضعة للعداوات "الداخلية" للصراع الطبقي (الكولاك ضد المزارعين الفقراء)، والأهم مـن ذلـك، أن المزارعين يمكن أن يكونوا حلفاء لحركة الطبقة العاملة. ففي ١٩٠١ مـثلا، كتب لينين يقول:

"لا يزال عمالنا الريفيون وثيقي الصلة بالمزارعين، ولا يزالون مثقلين جدا بمساوئ الزراعة بصفة عامة، بحيث لا يمكن لحركة العمال الزراعيين أن يمثلوا أهمية قومية، سواء الآن أو في المستقبل القريب... فكـل جـوهر برنامجنا الريفي يتمثل في أن البروليتاريا الريفية يجـب أن تحـارب مـع المزارعين الأغنياء لإلغاء بقايا الرق، من أجل الأراضي المقتطعة".[١٧٤]

ولكن في ١٩٠٥، وبعد عدة سنوات من تكرار اضطرابات المزارعين، كانت هذه الرؤية "للبروليتاريا الريفية" أكثر تفاؤلا: "يجب أن نشرح لهـا أن مصالحها تتعارض مع مصالح الزراعة البرجوازية؛ ويجـب أن نـستدعيها للكفاح من أجل الثورة الاشتراكية.[١٧٥] وعلى الرغم من أن تروتسكي ولينين كانا معارضين "لتقسيم السود" (وهو المصطلح الذي استخدمه ماركس للحيازة غير القانونية وتقسيم الأراضي إلى ممتلكات فردية صغيرة)، كانا يعتبرانـه تكتيكا مؤقتا لجذب المزارعين إلى جانب الثورة. وبمجرد ضمان ديكتاتورية البروليتاريا، يمكن إجراء أية ترتيبات أخرى لصالح المزارعين.[١٧٦]

ويرتبط جزء من أسباب الأحكام التي أصدرها ماركس أو إنجلز علـى المزارعين بأوضاع العمل التـي حـددت الإنتـاج الزراعـي، والعلاقـات

الاجتماعية التي قيدت المزارعين بعلاقات تبادل محددة. فقد اعتبر ماركس المزارعين "جمهورا كبيرا" يتكون من مجموعات وظيفية: مزارعين بسطاء، علاقات مباشرة ولكنها بلا أهمية؛ يفتقدون كل شيء سوى منظمة سياسية أو وعي بدائي.[١٧٧] وكذلك كان إنجلز أيضا متأثرا "بالحيز الكبير" الذي كان المزارعون يشغلونه ونسب إليهم تراث الخضوع والولاء لسادة معينين.[١٧٨] ولم يقترح أي منهما أن المزارعين كانوا قادرين على العمل السياسي المستقل. وإذا قارنا بين الأوصاف الموجودة لدى ماركس وإنجلز لحياة المزارعين، ووصفات دو بويز للرقيق والبيض الفقراء، سنكتشف أوجه تشابه قوية ومهمة. حيث علق دو بويز على العمال الرقيق قائلا:

"قبل الحرب، كان الرقيق معزولين تماما؛ فقد كانت السياسة كذلك، والسياسة الفعالة لنظام الرق، الذي جعل المزرعة مركز مجموعة السود في شبكة من الشعب الأبيض حولها، وجعل الرقيق معزولين عن بعضهم. وبالطبع، كان الاتصال السري موجودا دائما؛ وانتقال الزنوج ذهابا وجيئة في مهمات شبه حرة والاختلاط في المدن؛ ومع ذلك، كان معظم الرقيق قرويين وكانوا معزولين عن تيارات المعلومات". (ص ١٢١-١٢٢)

وفي أماكن إقامة السادة، كانت تعقيدات العلاقات بين العمل ومن يستغلون هذا العمل تشمل روابط عاطفية كثيرة، ولكن الأكثر أهمية واستمرارا أن خدم المنازل كانوا يدركون أن "السادة كانوا يقفون حائلا بينهم وبين عالم لا يجدون فيه حماية قانونية سوى لدى هؤلاء السادة". وأن "السادة كانوا مصدر معلوماتهم" (ص ١٢٣). وقد رأي دو بويز مبكرا في هذا العمل أن "أية حركة شعبية في ظل هذه الظروف يجب أن تتحقق ببطء وبألم" (ص ٥٧).

وبالنسبة للعمال البيض الفقراء - الذين كان يعتقد أن حركة العمال الأمريكية تجاهلتهم - والمنادين بإلغاء الرق، والرأسماليين الشماليين والمزارعين الجنوبيين، كان دو بويز يعتقد أنه يمكن إصدار أحكام متشائمة مماثلة. حيث كان يكرر وصف فرانسيس سمكنس وروبرت وودي الكئيب لأوضاعهم:

"هناك كوخ خشبي محطم أو اثنان فقط للسكن في الأفق. وهنا يسكن، أو يجد المأوى بالأحرى، مزارعو الأرض البؤساء، أو طبقة أكثر فقرا تعيش حياة بائسة ببيع "الخشب سريع الاشتعال" في المدينة....

وهذه الأكواخ... عبارة عن أوكار للقذارة.... ووجوههم ملوثة بتراكم القذارة لأسابيع... ويبدو البؤساء الفقراء مندهشين عندما تخاطبهم، ويجيبون عن أسئلتك وهم يرتعدون مثل المتهمين". (ص ٢٦)

ويضيف دو بويز أيضا أن البيض الفقراء كانوا مرتبطين أيضا بطبقة السادة: "في الواقع، كان زعماء البيض الفقراء، والمزارعون الصغار، والتجار، والحرفيون، ومراقبو الرقيق والمعدات البيض، مرتبطين بأصحاب المزارع ومنفصلين عن الرقيق.... وكان الشيء الوحيد الذي يجذبهم يتمثل في حياة كبار أصحاب المزارع الجنوبيين" (ص ٢٧). ومع ذلك، وأثناء الحرب الأهلية، كان هذان الشعبان، العمال السود والبيض، هما اللذان صعدا التمرد، و"الإضراب العام"، مما أضعف الآليات الثورية التي وصفها دو بويز بأنها "الخبرات الأكثر استثنائية للماركسية، والتي شهدها العالم قبل الثورة الروسية" (ص ٣٥٨). حيث قام مائة ألف من البيض الفقراء بترك الجيوش الكونفدرالية، وربما تخلى حوالي نصف مليون عامل أسود عن المزارع. وفي الواقع، كان هذا هو نفس النمط الذي أدى إلى النجاح في روسيا. فمثل

الرقيق الأمريكيين والبيض الفقراء، ترك المزارعــون الــروس جيوشـــهم في الميدان في خضم الحرب. وكان تمردهم هذا يشير إلى بدايات ثورة.

ومثل معظم النساء والرجال المتعلمين في عصره، كان دو بويز متأثرا بشدة بالثورة الروسية، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يكتب ويتحدث عنها بدون أن يكون ملزما "بأن يتفق مع ماركس أو لينين".(١٧٩) وقد أشار إلى ما اعتبره عنصرا مهما في الثـــورة مبكـــرا فـــي ١٩١٧، عنـــدما قـــام المنظـــرون الأيديولوجيون في الحزب الاشتراكي الأمريكي بالإشادة بنجاحات المزارعين الروس، بينما تجاهلوا إنجازات السود الأمريكيين، وفي ذلك يقول دو بويز:

"لقد نوقشت الثورة، ولكنها كانت الثورة الناجحـــة للـــشعب الأبـــيض، وليس الثورة غير الناجحة للجنود السود في تكساس. ولكـــنكم لا تتوقفـــون لتحديد ما إذا كان المزارع الروسي لديه ما يمكن أن يتحمله أكثر من الجنود السود في الفرقة ٢٤ مشاة(*)".(١٨٠)

لقد كانت عمليات الثورة الروسية تمثل إطارا لتفسير دو بويز أفكـــاره في كتاب "إعادة البناء"، لأنها بدأت أيضا بين شعب زراعي ريفي. وكانـــت هذه سمة مشتركة بين كل الثورات التي ربطها دو بويز من حيث الأهميـــة بالحرب الأهلية الأمريكية و"إعادة البناء": أي فرنسا، وإسبانيا، والهند، والـــصين

(*) الفرقة ٢٤ مشاة The 24th Infantry Regiment: كانت الفرقة ٢٤ مشاة إحدى الوحدات في جـــيش الولايات المتحدة الأمريكية، والتي نشطت في الفترة من عـــام ١٨٦٩ حتـــى عـــام ١٩٥١، واستأنفت نشاطها مرة أخرى في الفترة من عام ١٩٩٥ حتى عـــام ٢٠٠٦. اشـــتهرت تلـــك الفرقة بتاريخها الحافل المتقلب المشفوع بسجل من الخدمات الجليلة والأداء القتالي الـــشجاع، شابته بعض الحوادث مثل أحداث الشغب في هيوستن في عام ١٩١٧، و القصور في أوامـــر القيادة خلال الحرب الكورية. (المترجم)

(ص ٧٠٨). وكذلك، ومن قبل زيارته للاتحاد السوفيتي في ١٩٢٦، كان حذرا بشأن طبيعة الوعي الطبقي بين العمال في روسيا، والولايات المتحدة وأماكن أخرى. وفي ١٩٢٧، عندما عاد من الاتحاد السوفيتي، كتب ما يلي:

"هل يعني هذا أن روسيا "ارتدت" ثوبها الجديد؟ كلا مطلقا. فهي تحاول وتحاول بجد، ولكن هناك الكثير من الناس في روسيا لا يزالون يكرهون ويحتقرون ثياب العمال وأحذية المزارعين المصنوعة من القش؛ وهناك الكثير من العمال الذين يندمون على ضياع النبلاء الروس، والذين يفتقدون الأبهة الرائعة للقياصرة والذين يتشبثون بالشعارات والخرافات الدينية باستماتة".(١٨١)

وعلى الرغم من ملاحظته على الفصل العاشر في "إعادة بناء السود"، والتي فسرت لماذا لم يكن يستخدم عنوانه الأصلي لهذا الفصل ("ديكتاتورية بروليتاريا السود في كارولينا الجنوبية")،(١٨٢) كان دو بويز يعرف أن الثورة الروسية بمثابة ديكتاتورية بروليتارية أقل ديمقراطية وأقل اعتمادا على الوعي العمالي، مقارنة بما كان موجودا في فترة ما بعد الحرب الأهلية في أمريكا:

"نظرا لأن العامل [الروسي] اليوم ليس ماهرا ولا ذكيا بأي قدر يتناسب مع متطلبات مسئولياته، فإن الحزب الشيوعي يوجد داخل صفوفه ليوجه البروليتاريا نحو ديكتاتوريتها المستقبلية. فليس هناك شيء جديد".(١٨٣)

وفي ١٩٣٨، أعلن دو بويز أنه:

"عندما أصبحت حقائق الموقف معروضة على الرجال الآن، ظهر فجأة اثنان من الحلول الراديكالية: الشيوعية الروسية والفاشية. وكلاهما بعيدان

عن الديمقراطية، ويفرضان سيطرة حكم الأقلية للحكومة والصناعة على الفكر والعمل. حيث تهدف الشيوعية إلى الديمقراطية الفعلية، بل وتهدف إلى التخلص من الدولة، ولكنها تحاول تحقيق هذا ببرنامج عقائدي وضعه منذ تسعين سنة مفكر عظيم، ولكن لم تثبت سلامته طوال قرن من الأحداث الاجتماعية الاستثنائية".[١٨٤]

وقد أدرك دو بويز - مثل لينين، ولكن لأسباب مختلفة وبطريقة مختلفة - أن ماركس لم يتوقع التحولات التاريخية للرأسمالية، خاصة الظواهر المعقدة للإمبريالية. وكان الحذر مطلوبا أيضا في أي تطبيق لماركس على وضع السود الأمريكيين:

"كانت هناك خسارة كبيرة للسود الأمريكيين، لأن العقلية العظيمة لماركس ورؤيته الاستثنائية للأوضاع الصناعية لم تستطع بداية أن تؤثر على تاريخ الزنوج الأمريكيين فيما بين ١٨٧٦ والحرب العالمية. ولذلك، فإن كل ما قاله وما فعله من أجل رفعة الطبقة العاملة يجب أن يعدل فيما يتعلق بالزنوج، وذلك نتيجة لحقيقة أنه لم يدرس بداية المشكلة العرقية الخاصة هنا في أمريكا".[١٨٥]

وقد ترك هذا فجوة كبيرة في تحليل الرأسمالية وتطوراتها، وقصر عمل ماركس على فترة تاريخية محددة. واستنتج دو بويز - بينما كان يعمل في "إعادة بناء السود" - أنه "يمكن أن نقول فقط إن الفلسفة الماركسية تمثل تشخيصا حقيقيا للوضع في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، على الرغم من بعض صعوباتها المنطقية".[١٨٦]

وفي الماركسية الأمريكية، حل لينين كثيرا محل ماركس كمفكر ثوري حاسم بحلول أوائل عشرينيات القرن العشرين. وبينما توقع ماركس ظهور الوعي الطبقي واعتمد عليه، حقق لينين استقرار الحزب في موضعه. فبالنسبة إلى لينين، كان الحزب - وهو المجموعة الصغيرة من الثوريين المدربين والمنظمين والمحترفين - يمثل المرحلة الأولى الضرورية في تطور ديكتاتورية البروليتاريا. حيث يوفر الحزب بصورة تحكمية وعلمية الأوضاع المناسبة لتطور وعي العمال والاشتراكية. وبينما افترض ماركس أن المجتمع البرجوازي الذي تكونه ثورة برجوازية كان يمثل شرطا ضروريا لتطور حركة اشتراكية واعية، أعلن لينين في أبريل ١٩١٧ أن العملية اكتملت في روسيا في أقل من ثلاثة شهور.[١٨٧]

وكان دو بويز متشككا في ماركس ولينين في هذين الجانبين. ففي كتابه "إعادة بناء السود"، راجع دو بويز أحداث ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وذلك بإحساس هيجلي "بدهاء العقل". ويرى دو بويز أن الرقيق حرروا أنفسهم، ليس عن طريق الوعي الموضوعي بوضعهم، ولكن عن طريق مقتضيات أسطورة دينية، وفي ذلك يقول:

"كانت جماهير الرقيق، حتى الأكثر ذكاء، وخاصة المجموعة الكبيرة من العاملين في الحقول، تعيش حماسة دينية وهستيرية. وكان هذا من تجليات الرب، وتحقيقا للنبوءة والأسطورة. وكان هذا هو الفجر الذهبي، بعد القيود لألف سنة. لقد كان كل شيء معجزة وكاملا وواعدا". (ص ١٢٢)

وكانت الشخصيات الأخرى في مشهد التحرر - من لينكولن حتى البيض الفقراء - تعيش مفاجأة النتائج غير المقصودة لأعمالها:

"لم يكن لينكولن يوما من أنصار إلغاء الرق، ولم يكن يؤمن بمواطنة الزنوج الكاملة قط، وحاول مستميتا أن يكسب الحرب بدون جنود زنوج، ولم يتجه إلى تحرير الرقيق سوى بسبب الضرورة العسكرية. (ص ١٥٣)

وكانت حرية الرقيق نتيجة منطقية لمحاولة مجنونة لشن الحرب وسط أربعة ملايين من الرقيق السود، مع محاولة تجاهل مصالح هؤلاء الرقيق في نتيجة القتال". (ص ١٢١)

وهكذا كان القادة يحققون إضافات. إذ إن ضباط الميدان الشماليين الذين فرضوا العمل على الرقيق الهاربين لم يكونوا يقصدون تحريرهم... ولكنهم فعلوا ذلك. وكذلك تحركت الفيدرالية للحفاظ على الرق... ولكنها ساعدت على نهايته. وكانت الجماعات تتحرك إلى منطق المصلحة الذاتية المباشرة وإلى اللغز التاريخي. فعندما تطور الوعي، نجد أنه جاء متأخرا في تسلسل الأحداث. إذ إن الثورة "سببت" تكوين الوعي الثوري، ولم تكن ناتجة عنه. فقد كانت الثورة تلقائية.

وبالنسبة للنقطة الثانية، أي الشرط المسبق للمجتمع البرجوازي، يقول دو بويز إن المجتمع البرجوازي لم يكن يمثل سياق هذه الثورة. بل كانت الأيديولوجية السائدة في هذا المجتمع تتمثل في سيطرة نظام الرق الزراعي، أي ديكتاتورية "العمل" و"الأرض"، بدون ادعاءات ديمقراطية. ولكن الأكثر أهمية هو أن هذه الأيديولوجية لم تكن أيديولوجية الرقيق. فقد أنتج الرقيق ثقافتهم الخاصة ووعيهم الخاص بتعديل أشكال مجتمع غير السود حسب المفاهيم المستمدة من جذورهم الثقافية وأوضاعهم الاجتماعية الخاصة. وفي

الواقع، وفي بعض الأمثلة، أصبحت العناصر التي أنتجتها ثقافة الرقيق تمثل العناصر السائدة في ثقافة الجنوب الأبيض. وقد استغرقت هذه العملية أجيالا: "إذ إن الفترات المتتالية للنبوءة العبرية والأسطورة الإنجيلية قدمت كلمات غير دقيقة ولكنها رائعة. وكذلك الفولكلور الأفريقي الرقيق، بغرائبه وأمثاله، كان يخفي الرغبة والحكمة؛ وفوق كل ذلك كانت هناك مسحة سحر موسيقى الرقيق، وهي الهبة الوحيدة للفن البحت في أمريكا" (ص ١٤). وقد كانت هذه هي التجربة الإنسانية التي ظهر منها التمرد. وانطلقت منها مبادئ "الصواب والخطأ، الانتقام والحب،... الجمال والحقيقة" التي كانت بمثابة محطات التوجيه للرقيق السابقين. وكان هذا يمثل التراث الحيوي الذي شكل إطار حياة هذا الشعب الجديد.

وعلى الرغم من كل الانحرافات والاضطرابات في الفكر، والأصول الاجتماعية، والطموح الذي ميز حياته الطويلة آنذاك، رجع دو بويز في النهاية إلى التراث الراديكالي للسود. وفي خضم الاضطرابات المرعبة التي شهدها عصره، ومع رد الفعل البسيط للمعارضة الثورية المعلنة في ذهنه، دفعه بحثه الهادف في الماضي إلى الشبح الخفي للثوريين السود. لقد فشلت ثورتهم طبعا. وذهب مع فشلهم الاحتمال الثاني والحقيقي للديمقراطية الأمريكية. ولكن حتى تاريخ كتابة "إعادة بناء السود"، كانت العلامة الوحيدة على الوعي التاريخي الأمريكي، والتي تركتها هذه الحركة، تتمثل في مراجعة أسطورة وحشيتها. وأخيرا، أدرك دو بويز أن هذا لم يكن كافيا. "حيث كتب: "لا بد أن يقوم شخص ما في كل عصر بتوضيح الحقائق". وبهذا الإعلان، بدأتُ كتابة المجلد الأول في تأريخ الحراك الثوري الأسود".(١٨٨)

لقد جاهد دو بويز في كتابه "إعادة بناء السود" من أجـل إثـراء نقـد الرأسمالية والمجتمع البرجوازي الذي اندمج في المسارات السائدة للراديكالية الغربية. ولم يكن لديه خيار، إذا كان يريد أن يفهم أزمات الحرب والكساد التي اجتاحت النظام العالمي في عصره، والتمرد والثورة في آسيا وأوروبا وأفريقيا والعالم الجديد، والذي كان مصاحبا لهـا. وانتهـى دو بـويز إلـى الاعتقاد بأن الحفاظ على النظام العالمي الرأسمالي، وتوسـعه الكبيـر فـي القرنين التاسع عشر والعشرين، كان يتضمن استيعاب مصادر قـوة العمـل الجديدة، ليس بتحويلها إلى عمل أجري، ولكن بالقهر. ومن ناحية التوصيف، فقد عظمت الإمبريالية الرأسمالية القدرة على تـراكم رأس المـال بـالقوة المتنكرة في أشكال مختلفة، مثل قومية الدولة، الاستعمار الخيري، المـصير السلالي، أو الرسالة الحضارية. وباستثناء الأمثلـة المتنـاثرة، لـم يـصبح مزارعو العالم الثالث لا بروليتاريا ريفية ولا حضرية، ولكنهم أصبحوا شبه رقيق. فبالنسبة لمعظمهم، توقف تطورهم الاجتماعي فعليا. وكانت النتيجـة تتمثل في التأخر، مقارنة بماضيهم القريب ووضع العمال الأوروبيين. وفـي الواقع، فقد تم القضاء على شعوب كاملة إما من خلال "فرض السلم" أو مـن خلال العمل القسري. وقد أثبت الاعتقاد بأن الرأسمالية ستطور المـزارعين في أفريقيا وآسيا وغيرهم أنه خطأ في معظم الأحوال.

ففيما عدا أوروبا الغربية، أدى النظام الرأسمالي العالمي إلـى حـدوث فوضى اجتماعية واقتصادية. ولا توجد نظرية في التاريخ تعتبر الرأسـمالية قوة تاريخية تقدمية – بمعنى أنها تزيد نوعيا من سيطرة البشر على الأسس المادية لوجودهم – كانت تناسب مهمة جعل تجارب العالم الحديث مفهومـة. فبالنسبة إلى دو بويز، كانت أمريكا في النصف الأول من القرن التاسع عشر مجتمعا ارتبطت فيه الصناعة والرأسمالية الصناعية بإنتاج الرقيق، فكانـت

بمثابة مجسم صغير للنظام العالمي. وكانت القطاعات المتقدمة من الاقتصاد العالمي تستطيع التوسع طويلا مادام أنها تستطيع السيطرة والتحكم بالقوة الغاشمة في استغلال العمل الريفي غير الصناعي أساسا. فلم يكن توسع الرق الأمريكي في القرن التاسع عشر مفارقة تاريخية، بل كان بمثابة إنذار مبكر، وكذلك كانت هزيمته.

وكما توقع ماركس وإنجلز وغيرهما، كان صحيحا أنه كانت هناك تناقضات في الاقتصاد العالمي وفي نظم القهر التي كان يعتمد عليها. ومع ذلك، توصل دو بويز إلى إدراك أنها لم تكن مقصورة على التناقضات التي أدركها المفكرون الغربيون الراديكاليون. ففي الأجل الطويل، أي بحلول بدايات القرن العشرين، كانت رؤية تدمير المجتمع البرجوازي التي تمتع بها الاشتراكيون الغربيون قد اتضح أنها ذات ملاءمة جزئية فقط. إذ إن الطبقات العاملة في أوروبا وأمريكا صعدت هجماتها المسلحة على طبقاتها الحاكمة. ولكنهم أظهروا في الهزيمة أيضا مدى ضعفهم أمام القومية البرجوازية والمشاعر العنصرية. وفي أماكن أخرى، ظهرت حقائق أخرى في المقدمة أيضا. إذ إن الصدمات التي تعرضت لها الإمبريالية الغربية، والتي ظهرت للراديكاليين الأوروبيين في القرن السابق على أنها كانت على هوامش الثورة العالمية، أصبحت تحتل مرحلة جوهرية بحلول الثلاثينيات. وكذلك فإن تمرد الهنود، وتمرد بوكسر(*)، والصراعات القومية التي اندلعت في السودان،

(*) تمرد بوكسر Boxer Rebellion: حركة قامت بها جمعية الوفاق الصالح في الصين في الفترة بين عام ١٨٩٧ و عام ١٩٠١، والتي عارضت الإمبريالية الأجنبية والمسيحية المرافقة لها. حدثت تلك الانتفاضة على خلفية الجفاف الشديد والاضطراب الاقتصادي الذي تسبب به النفوذ الأجنبي المتزايد. وتراوحت الشكاوى من الغزو السياسي بدءا من حرب الأفيون والتوغلات الاقتصادية إلى العمل التبشيري المسيحي، والتي لا تستطيع دولة الأمير تشينج

الجزائر، المغرب، الصومال، بلاد الرافدين، غرب وجنوب أفريقيا، ووصلت إلى القرن العشرين - "الحروب الشعبية" - قد حققت انجازا تاريخيا كبيرا في الثورات في المكسيك والصين وروسيا. وفي كل مثال، كان أصحاب الأراضي الزراعية والعمال الزراعيون يمثلون القواعد الاجتماعية الرئيسة للتمرد والثورة. ولكن لا يوجد أي مكان، ولا حتى في روسيا، كانت فيه البروليتاريا الحضرية المتمردة تمثل فصيلا من الطبقات العاملة المحشودة، ومثل فيه النظام الاجتماعي البرجوازي شرطا مسبقا للكفاح الثوري. فقد تكون الوعي الثوري أثناء عملية مناهضة الإمبريالية والكفاح القومي، وغالبا ما كانت بدايات المقاومة تبدأ بمركبات أيديولوجية بعيدة عن الوعي البروليتاري الذي كان يمثل مسلمة في نظرية الثورة لدى ماركس.

فقد كان اصطلاح الوعي الثوري تاريخيا وثقافيا، وليس "مرآة الإنتاج". وكانت المعارضات التي أثرت تأثيرا عميقا على السيطرة الرأسمالية والإمبريالية تتمثل في تلك التي تشكلت خارج منطق الهيمنة البرجوازية. حيث حاول دو بويز في "إعادة بناء السود" أن يعطي لهذه العمليات مظهرا

الضعيفة التغلب عليها. بعد عدة شهور من العنف المتزايد ضد الوجود الأجنبي والمسيحية في شاندونج والسهل الشمالي الصيني؛ في يونيو عام ١٩٠٠ كان مقاتلو البوكسر مقتنعين بأنهم محصنون ضد الأسلحة الأجنبية، وتمركزوا في بكين واتخذوا شعار "دعم تشينج، إبادة الأجانب"، وأجبروا الأجانب والمسيحيين الصينيين على البحث عن ملجأ في حي الانتداب. ظل الدبلوماسيون، والمدنيون الأجانب، والجنود، والمسيحيون الصينيون تحت الحصار في حي الانتداب بواسطة الجيش الإمبراطوري الصيني (الذي ساند البوكسريين) لمدة ٥٥ يومًا. أوفد تحالف الدول الأجنبية ٢٠ ألفا من القوات المسلحة إلى الصين، أوقعت هزيمة بالجيش الإمبراطوري الصيني والبوكسريين، واستولت على بكين في ١٤ أغسطس، ورفع الحصار عن الدبلوماسيين. وتلا ذلك عمليات نهب للعاصمة وإعدام كل من يشتبه في انتمائه للبوكسريين.

تاريخيا قويا. وهنا أيضا لم يكن لديه اختيار كبير في الموضوع. حيث ظهرت أيديولوجية كفاح السود، والوعي الثوري للرقيق، في عينيه الغربيتين، كجزء أسطوري وجزء سحري وجزء فني. ومع ذلك، أدرك أنها كانت كافية لدفعهم إلى المقاومة الشعبية، وزودتهم برؤية للعالم الذي يفضلونه. فقد حقق عملهم الجماعي القوة المنطقية التاريخية المناهضة للعنصرية والرق والرأسمالية.

الفصل العاشر

كيريل جيمس والتراث الراديكالي للسود

عمالة السود والطبقة الوسطى للسود في ترينيداد

في البحر الكاريبي الدافئ، تجمعت مستعمرات العمالة الأفريقية بشكل كثيف في أرخبيل الأنتيل. تترامى جزر الأنتيل الاستوائية بين المخلب المفتوح لشبه جزيرتي يوكاتان وفلوريدا في أمريكا الوسطى والشمالية إلى النتوءات الشمالية لفنزويلا وكولومبيا في أمريكا الجنوبية. وفي هذه الجزر واصلت أوضاع السود السيئة تسللها إلى القرن العشرين. وفي القرن السابق، كان قد تم تدمير اقتصاد الرق المزرعي الذي اعتمدت عليه سلطة استعباد الأفارقة.[1] ولكن أفرقة الجزر- أي تحويلها من العمل القسري إلى الاقتصاد الريفي، حيث تتأثر الحياة اليومية بالتوافقات الثقافية بين معتقدات الشتات - كانت غير مكتملة. وتحولت السلطة السياسية من النظام الفاسد لحكم المزارع إلى التكيف الصعب بين البيروقراطية الإمبريالية في العواصم والطبقات العليا بين الأقليات البيضاء الراسخة. وحتى هاييتي - إذا استعرنا كلمات رينبورو - كانت تشهد تدمير الديمقراطية بالملكية خوفا من الفقر.[2] وفي الممتلكات البريطانية، احتل الغرور العنصري مكانة الوصاية على السكان السود بالجزر، وقرر أن التركيب المناسب لهم يجب أن يتمثل في نظام مستعمرات التاج. وفي ذلك يقول ديفيد ماكنتير:

"أدرك المكتب الاستعماري سريعا... أن جزر الهند الغربية كانت غير مناسبة للحكم الذاتي. حيث تساءل المسئول المدني القديم، السير هنري تيلور، كيف يمكن منح المسئولية لتجمعات لا تمثل أبدا مجموع السكان؟ وبينما كانت الجزر تتحول إلى تحقيق خسائر مالية، أصبحت الدساتير النيابية القديمة حاجزا أمام الحكم الرشيد. وكان لا يمكن "تمثيل" السكان الأحرار الجدد في ظل الأوضاع السائدة. ومن هنا بزغت فكرة أنه يجب إقناع جزر الهند الغربية بإعادة النظر في دساتيرها لتصبح مستعمرات تابعة للتاج.

وبحلول ١٨٧٥، وافقت كل مستعمرات الكاريبي - باستثناء الباربادوس (ويمكن أن يضاف إليها الباهاما وبرمودا) على التخلي عن دساتيرها القديمة وأن تصبح مستعمرات تابعة للتاج. وفي ١٨٦٨، أعلن السكرتير الاستعماري أن المجالس التشريعية الجديدة ستجمعها كلها سمة أساسية، وهي "أن سلطة التاج في المجلس التشريعي، إذا ضغطت إلى حدها الأدنى، ستسود لتطغى على كل مقاومة يمكن أن تظهر ضدها". وبعبارة أخرى، فإن تدخل الحكومة البريطانية في جزر الهند الغربية يأتي حماية للسكان من سلطة الطبقة المالكة للرقيق سابقا".[٣]

وكما اتضح من تمرد السود في جامايكا في ١٨٦٥، كان البديل يتمثل في المعاناة من بطش حكم الأقلية الاستعمارية، التي لم تؤد سوى إلى مزيد من الكفاح والمقاومة المسلحة.[٤] ويمكن أن نرجح أن هذا كان مخاطرة سياسية غير مقبولة بالنسبة لمهندسي وحراس الإمبراطورية، الذين استطاعت مسئوليتهم المتوسعة للغاية أن تستوعب التمرد الخطير في جيش السيبوي[*]

(*) السيبوي Sepoy: قوات عسكرية هندية دربتها القيادة البريطانية الاستعمارية. (المترجم)

الهندي في ١٨٦٧ (وما تلاه من احتلال القوات البريطانية للهند)،[٥] وكان أيضا عاملا كبيرا في "التدافع" الأوروبي على أفريقيا وآسيا. ولم يكن الشعب الإنجليزي نفسه، ولا جماهير الرعايا الخاضعين للاستعمار، يتوقعون أن يقبلوا بصورة دائمة الأسطورة الإمبريالية التي تزعم نشر التحضر بينما الواقع يشهد على مصالح كارثية وأنانية صريحة للمستعمرين المستوطنين البيض.

وبالنسبة للقرويين والعمال السود في جزر الهند الغربية البريطانية، كانت "الإمبريالية الجديدة" التي حلت محل حكم الأقلية النخبوية في الكاريبي تمثل العدو الأكثر قسوة. وبينما كانت سلطة الحكم في الجزر البريطانية تتردد بين الأحزاب الليبرالية والمحافظة، كما حدث بعد وثائق الإصلاح في ١٨٦٧ و١٨٨٤، في وقت تراوحت فيه سياسة الدولة بين "التجارة الحرة، الإنتاج الحر، وحرية القوميات" (أي الحكم الذاتي للأيرلنديين والويلزيين)، ومناهضة الإمبريالية[٦] وبديل الإمبريالية الشوفينية العدوانية، كان التأييد الشعبي للوجود البريطاني العالمي غير مستقر بدرجة كبيرة. وحتى "اللجنة المختارة من مجلس العموم" في أوائل ١٨٦٥ قد: "أوصت بأنه يجب التخلي عن معظم المستعمرات البريطانية بأسرع ما يمكن، وأنه يجب إعدادها للاستقلال".[٧] إذ إن بريطانيا الصناعية كانت آنذاك أكبر من مجرد ند لمنافسيها الأوروبيين، وكان اقتصادها المحلي يعكس سيطرتها الدولية على التجارة. ولكن في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، "كانت بريطانيا تعرف نفسها بأنها مهددة "بإمبراطوريات".[٨] حيث كانت محاصرة بين القوى الدبلوماسية والتجارية لكل من ألمانيا، وفرنسا، وروسيا، والولايات المتحدة، وكانت تعاني من الفضائح المالية وسوء الإدارة، وأدى ضعف الاقتصاد

البريطاني والجمهور المضطرب إلى تشجيع وإجبار الفصيل الإمبريالي على الاقتناع بأنه لن يستطيع مواصلة تحقيق رؤيته إلا بقيود. بل إن الحكومة الليبرالية الأخيرة في القرن التاسع عشر (١٨٩٢-١٨٩٥) كانت تسيطر عليها الروح الإمبريالية.[٩] ومع الانتصار الحاسم للمحافظين في ١٨٩٥، أصبحت الإمبريالية تسيطر على عقلية الجمهور. ومع توفيرها لأسواق جديدة للتجارة المتقلصة، وأراض جديدة للاستيطان البريطاني، وصحف قومية جديدة رخيصة السعر، وأدباء ومفكرين إمبرياليين،[١٠] يبدو أن إمبريالية برلمان رجال الأعمال المقتنع بالمصير والمصلحة القومية قد حققت أوسع خيال. وفي ذلك يقول هالفي:

"لا شك في أن سكان بريطانيا العظمى [في ١٨٩١] قد تخطوا بالكاد تعداد ٣٨ مليون نسمة، ولكن كان هناك حوالي مليونين من رعايا بريطانيا في مستعمرة الكيب وناتال (جنوب أفريقيا)، وأكثر من ٦٠٠ ألف في نيوزيلندا، وأكثر من ٣ ملايين في استراليا، و٥ ملايين في كندا. ويضاف إلى هذه الأرقام الرعايا الهنود لبريطانيا العظمى، حوالي ٣٠٠ مليون، وحوالي ٤٦ مليونا آخرين في المناطق الباقية تحت بعض أشكال الحكم أو النفوذ البريطاني، بحيث يصل المجموع إلى ٣٩٤ مليون نسمة. فما هي الدولة الأخرى التي يمكن أن تنافس على مثل هذا الرقم.... وكذلك كانت مساحة الإمبراطورية في تزايد: ففي سبتمبر ١٨٩٦، قدر أحد رجال الدولة أنه في ١٢ سنة أضيف ٢,٦ مليون ميل مربع إليها - أي حوالي ٢٤ ضعف مساحة بريطانيا العظمى. وفي ١٨٩٥، كانت المساحة أقل من ١,٤ مليون ميل مربع. وبإضافة عدد قليل من الملحقات، ستصل المساحة إلى ربع إجمالي مساحة يابسة الكرة الأرضية. وكان هذا هو الهدف الذي كان يسعى

إليه الإمبرياليون".[١١]

وطوال جيلين تاليين، كانت حياة شعوب جزر الهند الغربية ورعايا المستعمرات الأخرى تتأثر مباشرة بممثلي الطبقة الحاكمة المنغمسة في مجدها ذاتي الصنع، والتي أخفى عنها غرورها الهائل مصدر وحجم الرعب الذي سيلحق بها. وبدا الأمر كما لو كانت البرجوازية البريطانية تحقق توقعات ماركس، وتضيف إلى الإذلال الطبقي عند إنجلز، حيث كانت هي وحلفاؤها الأوروبيون يغرقون في المستنقع التاريخي للإمبريالية الطموحة والقوميات غير المتأنقة، والذي خرج منه دعاة الحرب العالمية. حيث دفعت الاستفزازات المتهورة، والحماقة الدبلوماسية (المتبوعة بالحماقة العسكرية) والهوس بالإمبراطورية، الطبقات الحاكمة في أوروبا إلى تدمير وسائل إنتاجها وقواها العاملة التي حشدتها باسم "الحرب العالمية".

وفي ترينيداد، وخلال أكثر من سبعة عقود فيما بين الإلغاء الرسمي للرق في الممتلكات البريطانية ومذبحة الجيل في أوائل القرن العشرين، أدى الانسحاب الجماعي للعمالة من المزارع من جانب الأفارقة والكريول[١٢] إلى حدوث تحركات مضادة من جانب شركات مزارع السكر وأصحاب المزارع.[١٣] فبينما كانت أصداء الحجج الأخلاقية لأنصار إلغاء الرق لا تزال تتردد في الخطاب العام، لجأ الملاك السابقون لعمالة السود إلى خطاب كالفيني زائف لجذب العون من البرلمان من أجل تجربتهم التالية في استغلال العمالة. حيث قال ويليام بورنلي المتحدث البارز بأسى:

"إن ندرة السكان العاملين، والتي تحول دون تحقيق منافسة بينهم، وتمكينهم من تحقيق ميزات لهم وكسب مال كاف، أرى أنها السبب الرئيس

في تدهورهم في الفترة الحالية، بدلا من التقدم في مجال التطور المعنـــوي؛ لأنني أعتقد أنه يستحيل أن يحدث أي تطور معنوي في مجتمع لا تفرض فيه الحاجة إلى الصفات الجيدة والسمعة الحسنة أية عقبات خطيرة على الشخص الذي يحصل على عمل مربح".(١٤)

وقد اتفق الجميع على الحاجة الماسة للمهاجرين الجدد. إذ إن المنافسة بين العمال المهاجرين سوف تفتح أعين عمال ترينيداد السود على الأجور المعقولـــة وساعات العمل المنتظمة. ويساعد هذا بدوره منتجي السكر البريطـــانيين علـــى تقليل نتاج السكر الذي ينتجه الرقيق لـــدى منافـــسيهم الأجانـــب فـــي الـــسوق الأوروبية. "فالتجارة الحرة تعني الانتقال الحر للأفراد والسلع في النهاية".(١٥)

وكانت هناك ثلاثة مصادر محتملة للعمالة المهاجرة التي كانـــت متاحـــة بصورة سريعة: الجزر الأخرى في جزر الهند الغربية؛ الزنوج الأحرار فـــي الولايات المتحدة؛ والأفارقة الذين حررتهم البحرية الملكية من ســـفن الرقيـــق "غير الشرعية" على طول ساحل غرب أفريقيا. ومع ذلك، لم يكن أي من هذه المصادر كافيا. فعلى الرغم من أن حوالي ١٠٢٧٨ هنديًا غربيًا هاجروا إلـــى ترينيداد فيما بين ١٨٣٩ و١٨٤٩ (في نفس الفترة ذهب ٧٥٨٢ آخرون إلـــى جويانا البريطانية)، ووصل حوالي ٣٥٨١ فيمـــا بـــين ١٨٤١ و١٨٦١ مـــن الأفارقة المحررين من سيراليون وسانت هيلانه(*)، بل إن عددا أصـــغر مـــن السود المحررين جاؤوا من أمريكا الشمالية، من كل من ديلاوير، ماريلانـــد،

(*) سانت هيلانه St.Helena: جزيرة بركانية صغيرة في جنوب المحيط الأطلنطي على مقربة من ساحل جنوب غرب أفريقيا (قبالة أنجولا). لاتزال المملكة المتحدة تحتفظ بهـــا إلـــى اليـــوم. (المترجم)

نيوجيرسي، بنسلفانيا، ونيويورك، فإن إغراء مزارع سكر ترينيداد كان قصير الأجل، وكانت مصادر الهجرة غير منتظمة.(١٦) وبصورة متأخرة نوعا ما، واتباعا لخطوات البرلمان، وشركة الهند الشرقية، والمزارعين في جويانا البريطانية، حولت الطبقة الحاكمة في ترينيداد وشركاؤها في العواصم اهتمامها إلى الهند.(١٧) وطوال السبعين سنة التالية، من ١٨٤٥ إلى ١٩١٧، أصبحت العمالة الهندية المتعاقدة أساس مزارع السكر في ترينيداد الغربية.(١٨) حيث أصبح الهنود المتعاقدون والأحرار العمود الفقري لقوة عمل مزارع ترينيداد بحلول ١٨٦٠".(١٩) وفي ذلك تخبرنا دراسة بريتون بما يلي:

" حتى ١٩١٧ كان قد وصل نحو ١٤٣ ألفا من الهنود (من شبه القارة الهندية) إلى ترينيداد. حيث بدأت الهجرة في ١٨٤٥؛ وحدث انقطاع فيما بين ١٨٤٨-١٨٥١؛ ثم كان الهنود يصلون بانتظام من ١٨٥١ حتى ١٩١٧ سنويا. وفيما بين ١٨٤٥ و١٨٩٢، جاء ٩٣٥٦٩ عاملا من خلال ميناءين هنديين رئيسين: كلكتا في الشمال، ومدراس في الجنوب. ومع ذلك، جاءت الغالبية العظمى من كلكتا، وبعد ١٨٧٢ لم يكن هناك قادمون جدد من مدراس".(٢٠)

وكان أغلبهم قرويين من شمال شرق الهند، من المقاطعات المتحدة (أوتار براديش الآن)، وبيهار، وكانوا يمثلون مجرد جزء من مئات الآلاف من الهنود الذين هجروا المنطقة في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ليشقوا طريق الهجرة إلى كل من جزر الهند الغربية، فيجي، وناتال، ونيبال(*).

(*) فيجي Fiji: أرخبيل من الجزر (يكون اليوم جمهورية فيجي التي استقلت عن المملكة المتحدة في ١٩٧٠) في غرب المحيط الهادئ قبالة السواحل الشمالية الشرقية لأستراليا. (المترجم)

"كانت هذه المنطقة من الهند، مهد الثقافات القديمة، مكتظة بالسكان ومتدهورة اقتصاديا في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر. إذ إن الحرارة المتطرفة في الصيف، وفيضانات الرياح الموسمية التي كانت تؤدي إلى دمار شامل للمحاصيل، والمجاعات المتكررة، جعلت الحياة صعبة في ظل الحكم البريطاني. وكانت المديونية الريفية مروعة وكانت الزراعة "عملا شاقا جدا لكسب العيش". وكذلك، كان للثورة الناتجة عن التمرد في ١٨٥٧ آثار اجتماعية واقتصادية خطيرة على هذه المنطقة".[٢١]

ونظرا لاندفاعهم بسبب هذه الظروف إلى أقاصي النظام الاستعماري البريطاني، فقد أحضروا معهم ثقافتهم: لغاتهم، وطوائفهم، وموسيقاهم، وأديانهم.[٢٢] وحتى الحرب العالمية الأولى، كان مقبولا أن يعملوا في ترينيداد "كثقل موازن كبير ضد المشاكل مع الزنوج، والعكس صحيح".[٢٣] وقد وفر عمل "الكولي Coolie" الدعم السريع لإنتاج السكر. وتميز اقتصاد ترينيداد بالتنوع الناجم عن إنتاج الكاكاو وصناعات النفط والإسفلت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.[٢٤] وساهم هذا التنوع في تجاوز الكساد الذي ضرب الزراعات الأحادية الأخرى في جزر الهند الغربية في الربع الأخير من ذلك القرن. ولكن كانت هناك عملية اجتماعية أعمق تحدث،

ناتال Natal: إقليم في أقصى جنوب شرق قارة أفريقيا، بين جبال دراكنسبرج غربا ونهر الليمبوبو شمالا. نظرا لموقعة الإستراتيجي على طرق التجارة، فقد وقع تحت رب الاحتلال البرتغالي ثم البريطاني قبل أن يصبح في النهاية جزءا من جمهورية جنوب أفريقيا في العصر الحديث. (المترجم)

نيبال Nepal: إقليم جبلي مغلق في جنوب آسيا بين الهند والصين في جبال الهيمالايا، ظل النظام السياسي بالإقليم منذ القرن الثامن عشر ملكيا حتى عام ٢٠٠٨ حين تحولت البلاد إلى جمهورية. (المترجم)

وذلك تحت التناقض الظاهري بين "الكولي" و"الكريول". فعندما كانا يجتمعان معا، فإن الطبيعة الوجودية للعمل كانت تجمع الهنود الشرقيين والغربيين معا في تقاربات ثقافية:

"في ١٨٦٥، اندلع اضطراب عنيف على الأسبقية بين هنود "وودفورد لودج Woodford Lodge" و"انديفور أيستيت Endeavour Estate" في شاجوانا Chaguanas. وذهب الكريول والصينيون إلى مساعدة زملائهم، حيث تخطى الولاء للمؤسسة الولاء للسلالة في المعركة. ...

وكانت عناصر مشاكسة بين الكريول تنضم إلى الاحتفالات الحسينية (طائفة المسلمين الشيعة) في خمسينيات القرن التاسع عشر. لأنها بالنسبة لهم كانت تشبه "احتفال دونيبورك Donnybrook Fair"، حيث يذهب الناس على أمل العراك. ولكن الزنوج بدؤوا أيضا يقومون بدور أكثر احتراما في الموكب كقارعين للطبول، حيث كانوا يحصلون على مقابل إما بالخمور أو النقود، وكما في موريشيوس في خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الزنوج يحملون محمل التعزية الحسيني أحيانا".[٢٥]

وكان لا بد أن تكون أهمية هذه الأحداث واضحة، ولكن البيض خُدعوا بخطابهم عن السيطرة.[٢٦] وكان هذا الخطأ إستراتيجيا في مجتمع كانت تركيبته في العقود الأولى من القرن التالي كما يلي: ٤٪ من البيض، ١٥٪ من المولاتو، ١٪ من الصينيين، و٨٠٪ من أصول أفريقية وهندية شرقية.[٢٧]

وكان الموسم الميت للمقاومة الجماعية في ترينيداد، وهو الوقت السابق على السنوات الأولى من القرن العشرين، حقيقيا ومتخيلا بشكل جزئي.

ونظرا لأن السكان الكريول انسحبوا جميعا من العمل تقريبا"،[٢٨] فقد كان من المؤكد أنه قبل سحبهم كعمال إلى السفن والسكك الحديدية والأشغال العامة وحقول النفط وتصنيع الإسفلت، لم يكن لديهم سبب فعال وظروف موضوعية لتحدي التاج والأقلية البيضاء علانية، وفي تلك الأثناء، ادعوا تحررهم بطرق أخرى، على نحو ما يوضح بريريتون:

"تفاعل العمال السود في ترينيداد خلال هذه الفترة مع المجتمع القمعي الذي كانوا يعيشون فيه بمحاولة تخفيض اعتمادهم على المزارع، وبمحاولة تكوين مجالات حرية لأنفسهم، وإن كانت محدودة. وحاولوا أن يصبحوا قرويين أو حرفيين، وعندما فشلوا نزحوا إلى المدن. وفي المدن، كان الاضطراب الحضري المستمر يعكس الوعي بالقهر. حيث كانت العصابات تحارب بعضها لأنها لم تكن قادرة على مهاجمة المصدر الحقيقي لبؤسهم أو عجزهم، وليس لأنها لم تكن واعية به.[٢٩]

وهكذا كانت المكونات الأيديولوجية والاجتماعية للتراث الراديكالي للرقيق محفوظة بفضل الكريول الأفارقة (الذين كانوا يتزايدون بسبب الأفارقة المحررين) في ثقافتهم: في لغتهم، ولهجتهم العامية "غير المفهومة لدى رجال الشرطة، والقضاة والمسئولين"،[٣٠] وفي احتفالاتهم الوثنية مثل الكانبولاي Canbulay ومهرجان جاميت jamet، حيث كان يجتمع الاحتقار المقنع للأخلاقيات الإنجيلية والكاثوليكية؛ وفي طوائفهم الدينية التوافقية وسهراتهم الصاخبة؛ وفي موسيقاهم ورقصهم.[٣١] وكان هذا يثير العداوة والسخط بين الطبقات الملونة الإنجيلية، ويصدم الطبقات العليا من البيض، ويثير القلق في الجهات الرسمية في ترينيداد. ففي ١٨٦٨، تم حظر الأوبيا

obeah؛ وفي ١٨٨٣، حظرت رقصات الطبول (الكالندا، Calenda، والبيليـــر Belaire، والبونجو Bongo) لأنها "غير أخلاقية"؛ وفي ١٨٨٤ و١٨٨٥، قمعت الاحتفالات أو بعض جوانبها (استعراض مهارات القتال الجماعي بالعــصا، وارتداء الأقنعة). وفي ذلك الوقت أيضا كان هناك اعتقاد وتوقع أن التعلــيم الابتدائي العام سيقضي على الكريول. ولكن نص كاليبسو يشير إلـــى روح التحرر، فقد كان الإحساس بالكرامة لا ينطفئ. فهناك لا يجد المــرء ســوى التعبير المكبوت عن الغضب.

"محروم من قرع طبولي،

في أرض وطني،

حرموني من الاحتفال في مهرجان،

في أرض وطني،

منعوني من شرب خمري،

في أرض وطني....

في أرض وطني....

في أرض وطني...

(من أغنية "لا أســتطيع أن أرقــص كمــا أتمنـــى Moen pasca dancer, common moen vlel".[٣٢]

وكان العمال المتعاقدون الوافدون مـــن الهنـــد، الـــذين تولـــوا الـــدور الاقتصادي للرقيق (ومكانتهم الاجتماعية أيضا في أعين الكثيرين من البيض

والكريول)،[٣٣] بعيدين نوعا ما عن المقاومة الجماعية. فكما يقـول دونالـد وود، فإنه خلال ٢٠ سنة من وصول أول ٢٢٥ هنديًا على متن سفينة "فـتح الرزاق" في ١٨٤٥، بدأت مجتمعاتهم وقراهم شبه المعزولة بنجاح في نـسخ الكثير من التنظيم الاجتماعي لشبه القارة الهندية: حيـث ظهـرت فجـوات شاسعة بين الأثرياء الذين حصلوا على الأراضي أو المتاجر أو استطاعوا أن يقرضوا الأموال؛ وجماهير الكولي.[٣٤] وخلال ٢٠ سنة أخرى، وفي عـدة مئات من القرى التي ظهرت حول صناعات السكر والصناعات الخاصة بهم المتعلقة بالأرز والذرة والبازلاء،[٣٥] غطى رداء مجتمعهم المنقـول علـى استجابتهم لتعرضهم للخداع والانتهاك والابتزاز والاسـتغلال مـن جانـب البيض والقرويين على السواء. وكانت هناك إضرابات عمالية بصورة دورية في العقارات (حدثت سلسلة منها في ثمانينيات القرن التاسع عـشر)، ولكـن التعبير المبدئي عن الوعي الهندي كان متسامحا وليس مقاوما.[٣٦] وانـصهر العمال الصينيون - الذين انخفض جلبهم فجأة إلى أقل مـن ٢٥٠٠ عامـل إجمالا - من الناحية السلالية في أحد مجتمعات السود، أو حققوا اسـتقلالهم من خلال الحرف والزراعة وتسويق خضروات الحدائق، أو واصلوا الهجرة إلى محطات أخرى.[٣٧]

وبالنسبة للبيض، وخاصة "الكريول الفرنسيين"[٣٨] الأكثر عددا وانتشارا ثقافيا، كان التاج ومحافظته وإدارته الاستعمارية ومجلسه التشريعي مـصدر إزعاج. وكان يمكن أن يكون التمثيل الانتخابي مفضلا، ولكن تقديم عـرض وفير من العمل الرخيص في الهجرة الهندية قلل كثيـرا اهتمـامهم بنظـام مستعمرات التاج. وكانت "الطيور المهاجرة" - أي المسئولين الاسـتعماريين

وأسرهم – يحصلون على مكانتهم بين الطبقات العليا احتراما لمواقعهم. وفي أغلب الأحيان، لم تؤهلهم ثقافتهم بالمعنى القومي، ومن حيث الحجم، ولا تعليمهم أو أصلهم للقبول بخلاف ذلك.

"كانت السلطة الحاكمة من "الأوروبيين الشماليين" طبعا، وكانت الطبقة العليا من العاملين في نظم الحكم والقانون والتعليم تنتمي إلى البريطانيين. ولكن كانت هناك نخبة مهمة تتمسك بالأفكار والقيم اللاتينية والفرنسية، وليس الأنجلوساكسونية. وكان الكريول البيض من أصول إسبانية وفرنسية يفوقون عدد الكريول الإنجليز والمقيمين البريطانيين، ومن المؤكد أنهم كانوا أكثر تأثيرا في تحديد إيقاع المجتمع".[٣٩]

وقبل أن يصبح الكريول الفرنسيون الأرستقراطيون إنجيليين بالفعل، وقبل أن يحل محلهم رأس المال البريطاني وأسر الطبقات العليا البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن هناك أي احتمال لأي استقبال حار في هذا المجال. ولكن الفصيل البريطاني (من الإنجليز والأسكتلنديين أساسا) تعرض للضعف منذ فترة حكم جوردون في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، وذلك بعد أن كان هذا الفصيل قد حاول – أثناء تدهور ثروات صناعة السكر المملوكة للكريول الفرنسيين – أن يخضع الكريول "الأجانب" للسيطرة الإنجليزية.[٤٠] وكانوا راضين بترك الاستقرار في هرمية البيض لفترة.[٤١] ولكن على الرغم من اختلافاتهم، أمسكت نخبة البيض بزمام الأمور في مجالين. حيث كان الأول يتضمن الحكومة النيابية. وكانت هذه النخبة تثير هذه القضية في المناسبات التي تتعرض فيها طموحاتها الكبيرة لعرقلة مسئولي التاج أو البرلمان البريطاني. وكانت لاضطرابات ووتر في ١٩٠٣

والمشاكل المصاحبة للحرب العالمية الأولى تمثل هذه المناسبات.(٤٢) بينما كان الثاني يتمثل في الطبقات الوسطى من الملونين والسود، والذين كان يصعب تجاهل وجودهم بصورة متزايدة. حيث كانوا "يمثلون تهديدا كبيرا لاستمرار سيطرة البيض على المجتمع [مقارنة بجماهير السود والهنود] حتى على الرغم من قلة أعدادهم نسبيا؛ فقد كانوا يحتلون المدخل إلى المستقبل السياسي والاجتماعي لترينيداد، وكان بعض بعيدي النظر في ترينيداد يدركون ذلك".(٤٣)

وكانت الطبقات الوسطى الملونة والسوداء فقط – التي توقف تطورها لفترة فقط قبل أن يتصاعد إلى ذروته في الربع الأخير من القرن التاسع عشر – غير مستريحة كطبقة لازدهار ترينيداد، وغير راضية عن دهاليز علاقات الطبقة والسلالة.

"كانت الطبقة الوسطى من الملونين والسود تتكون من مجموعتين متميزتين. وكانت هناك مجموعة صغيرة من الأسر ذات الأصول الأفريقية والأوروبية المختلطة، والذين كانوا يمثلون أحفاد الشعب الحر الفرنسي من الملونين الذين استقروا في ترينيداد منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر. وثانيا، كان هناك الشعب الأسود والملون الذي كان يمكن أن يوصف بأنه "تكون ذاتيا". فقد كانوا أحفاد رقيق ترينيداد السابقين، أو المهاجرين الأفارقة "المحررين"، أو المهاجرين من شرق الكاريبي. وقد اكتسبوا مكانة الطبقة الوسطى أساسا من خلال إجادتهم للثقافة البريطانية ووظائفهم الراقية".(٤٤)

أما المجموعة الثانية من طبقتي الملونين – والتي ظهرت إلى الوجود بينما كانت ترينيداد تحت نظام استعماري بريطاني – فلم يسمح لها أبدا بأن

تحصل علـــى مكانـــة الرومـــان Romains، الفيليـــبس Philips، الأنجرنـــون Angernons، المونتريشارد Montrichards، المـــاريس Maesses، والبـــوبرون Beaubruns، في المجموعة الأولى (والتـــي وصـــفها بـــورد P. G. L. Borde، المؤرخ الكريولي الفرنسي، بأنها "شكلت مجتمعا ثانيا موازيا للمجتمع الأول؛ ولم تكن أقل تميزا منه").[٤٥] وفي ترينيداد البريطانيـــة، ســـقطت طبقـــات الملونين والسود من مكانتها السابقة، ولم تعد قادرة على ادعاء نصيب فـــي الطبقات العليا في الجزيرة، وهنا يقول بريرتون:

"ربما كانت أغلبية الرجال السود والملونين المتعلمين في هذه الفترة من العاملين المدنيين. فعندما كانت التجارة مقصورة عليهم فعلا، كـــان التعلـــيم والمهن والخدمات تقدم البدائل الحيوية الوحيدة، باستثناء عدد قليل نسبيا مـــن المزارعين الملونين. وكانت أقلية صغيرة فقط تستطيع أن تأمل في الحصول على التعليم الجامعي الذي يؤهلها للقانون أو الطب. وأدى هذا إلـــى جعـــل العمل في الخدمات – بما في ذلك التدريس في المدارس الحكومية – المصدر الوحيد للوظائف الراقية المقبولة".[٤٦]

وأدى توزيع الامتيازات والمزايا في المجتمع بناء على أسس ســـلالية إلى إحباط رؤيتهم الأوسع: أي تحقيق المساواة مع الأقلية البيضاء، والوصول إلى السلطة. وكانوا مثل نظرائهم بين البرجوازية الصغيرة للسود في أماكن أخرى، يرفضون التحيز الذي كان يلصق بهم الاعتقاد بدونية السود:

"فقد كتب مراسل إلى صحيفة التلجراف قائلا إنه لا يوجد أي قـــدر مـــن الثروة أو التعليم يمكن الإنسان في ترينيداد من التمتع بمكانة اجتماعية، إذا كان يفتقر إلى "اللون السليم". وكان أصحاب المزارع والثروة والجدارة والشخصية

"محظورين"، بدون جواز السفر الاستعماري"... وهو الأكثر أهمية من التعليم والعادات والمبادئ والسلوك والثروة والموهبة وحتى العبقرية ذاتها. ولم يكن لدى الناس خارج جزر الهند الغربية فكرة عن الوضع الحقيقي للرجل المتعلم "الذي ينتمي إلى اللون غير السليم". وكان الأمر مزعجا حقا عندما يتعرض الرجل الملون المنتمي إلى أسرة "جيدة" للتمييز".[٤٧]

وهكذا فإنه على الرغم من أنه لم يكن الرد على أنتوني ترولوب ضروريا عندما نشر في ١٨٥٩ مجلده الكبير المناهض للسود "جزر الهند الغربية وإسبانيا الأم"، فإنه في ١٨٨٨، عندما ظهر كتاب فرودى **Froude** "الإنجليز في جزر الهند الغربية" كان تحدي العناصر الجديدة في الطبقة الوسطى حتميا.[٤٨] ومن الطريف أنه جاء من نائب أسود وليس من نائب ملون، وأنه كان راديكاليا أساسا. وقد وضع يعقوب توماس،[٤٩] في كتابه "الفرودية: تفسير الخرافات الهندية الغربية" أمام قرائه لوحة أوسع من "الإهانات الطفولية للسود" التي كان فرودى راضيا عنها فكريا، وهنا يشير جيمس قائلا:

"من الواضح أن الزنجي في أفريقيا عاجز عن الكفاح ضد استعباده، وإلحاقه بغيره، أو التطوع (أو القتال) لحماية أراضيه. والسؤال الذي نطرحه: هل ستتغير في العصور القادمة آراء واتجاهات الأفارقة في الخارج، والذين يفوق عددهم عشرة ملايين في نصف الكرة الغربي، منتشرين على نطاق واسع على سطح الأرض ومنخرطين في كل جوانب الثقافة المتحضرة. وهل سيظل هؤلاء الناس فقراء إلى الأبد، ومنعزلين عن بعضهم، وتائهين في المزيج السلالي الكبير، أم أن المهد الطبيعي الخصب لهذا الشعب، الذي كان مكانا للعنف والجشع غير المقدس طويلا، سيصبح الشاهد المقدس على جيل راغب وقادر على الغزو أو الفناء حسب تطلعاته".[٥٠]

لم يدافع توماس عن الطبقة الوسطى السوداء، على الرغم من أن أبويه كانا من الرقيق حتى قبل مولده بسنوات قليلة، وعلى الرغم من أنه هو ذاته ترعرع وتعلم في المدارس الريفية الصغيرة الرثة بشكل مثير للشفقة، والتي وزعتها الحكومة على تجمعات السود الريفية. وكان إتقانه "اللهجة العامية" قد ساعده في كتابة "قواعد الكريول" في ١٨٦٩. ورفض توماس طموح تلك الطبقة، غير أن الطبقات الوسطى لم تستطع أن ترفضه. فقد كان أهم مفكر أسود في ترينيداد خلال حياته. وكانت "جهوده مهمة بالنسبة للطبقة الوسطى للسود وللملونين، لأنها كانت تظهر أن هذه المجموعة كانت أكثر ثقافة من البيض المسيطرين. وكانت أنشطة توماس الأدبية توضح أن غير البيض كانوا بمثابة القادة الثقافيين".[٥١] وعلى الرغم من أن معظم الطبقات الوسطى للسود والملونين كانت تعاني لمواصلة حياتها، وكانت أسرهم وسمعتهم بعيدة عن الارتباط بجماهير السود، واقترب عدد قليل من الأدباء السود من فهم توماس - مثل صمويل كارتر وجوزيف لويس (محرري العصر الجديد)، وويليام هربرت (محرر صحافة ترينيداد، ثم مستعمر ترينيداد)، ونيرس (والد جورج بادمور)، والمحامي في المحاكم العليا هنري سلفستر ويليامز.[٥٢] وبالطبع، كان ويليامز صاحب مبادرة "مؤتمر اتحاد كل الأفارقة" الذي عقد في لندن في يوليو ١٩٠٠، أكثر اقترابا من فكر توماس[٥٣] وتبنى أفكاره المثالية. فقد بدأ وليامز وتوماس التعاون معا برفقة بعض الشخصيات السياسية الشجاعة الأخرى في الطبقات الوسطى للملونين والسود (مثل هنري الكازار، وإدجار ماريس سميث، وبرودوم ديفيد)، والتي كانت شخصيات نشطة في الشئون الرسمية لترينيداد. وتكاتفوا جميعا من أجل إحداث تحول راديكالي في الخطاب العام في الجزيرة. ومع ذلك، كانت هذه دفعة ثانية للطبقات الوسطى التي حددت الإيقاع ومنحت هذا الخطاب طابعه الخاص.

وكان المجتمع الذي رتبته هذه الأجيال من الطبقات الوسطى للملـــونين والسود في ترينيداد شديد التأثير على صورة الطبقات العليا للبـــيض. إذ إن أولوياته لم تكن ترتبط بعناصر التراث الراديكـــالي الظـــاهر فـــي النزعـــة الفرودية Froudacity لدى توماس.[54] ففي هذا المجتمع، كان التميز والمكانة، والقبول والتسامح، وأساليب تعامل الملونين مع السود، بمثابة فن اجتمـــاعي دقيق يمكن ابتكاره من المواد الثقافيـــة والتاريخيـــة والـــسياسية والتعليميـــة والأسرية والمالية المتاحة. وكان يجب أن يكون المرء من أهل ترينيداد، وأن يكون لديه حدس خاص تجاه الأمر، حتى يعرف المطلوب والمتوقع، وما هي احتمالات أن يدخل أي من الشباب إلى فلك حياة البالغين. فبينما كان يبدو أن نخبة البيض تملك ملاءمة المزايا الطائفية الواضحة، ومساحات الأراضي أو الثروة التي يمكن قياسها بسهولة، وملكية الأسماء التي يمكن تحديد موقعهـــا في التراث التاريخي الواضح تماما فـــي أدب وصـــحافة ترينيـــداد، كانـــت الانحرافات المعيارية بين الطبقات الوسطى للملونين والسود أضعاف ذلـــك التدرج البسيط، لدرجة أن البساطة الاجتماعية الفطرية كانت شرطا لا غنى عنه. فقد كانت هناك تباينات كبيرة، ولكنها كانت تظهر نادرا جدا لدرجة أنها لا تعتبر دليلا كاملا بالنسبة للتقاليد أو العادات. وعلى أي حال، فإن المكانـــة المحترمة جدا للنخبة صاحبة البشرة الفاتحة كانت تتحقق ببساطة عبر جيل أو جيلين. وعلى الرغم من أن قيمتها لم تكن تنخفض كثيـــرا بـــسبب الـــزواج "المختلط"، كان اللون البسيط يعتبر بمثابة مقياس خام وبـــسيط فـــي أفـــضل الظروف. وكان أي فرد طموح من السود لديه مواهب كافية أو تطلعات أو يحظى بالتدريب المهني أو الثراء العائلي، يستطيع ضمان أن أحفاده ســـيكونون مـــؤهلين لقمة الاعتراف داخل الطبقة. ومع ذلك، كان هناك ســـقف لا يـــستطيع الـــسود

اجتيازه. وتحسبا لهذه العقبة، كان العديد من السود، وخاصة من المفكـرين، يحاولون إحلال التعليم والأدب كعملة في التبادل داخل الطبقة. وبينما نجـح توماس، كان آخرون يحاولون طبعا على أمل جذب الاهتمام المشروع مـن البيض والملونين على السواء، وبالتالي الاقتراب من مركز الطائفة لأنفسهم، وربما لأطفالهم. وكان الأدب يمثل أفضل عملة، كما كان الحال بين طائفـة المفكرين الإنجليز الفيكتوريين أنفسهم. وكان ذلك علامة السود المتعلمـين، وفي ذلك يقول بريريتون:

"لأهميته البالغة في الترقي الاجتماعي، مـنح التعلـيم أعـضاء هـذه المجموعة أهمية كبيرة للحياة الثقافية والفكرية. وتفاخروا بإتقـانهم للثقافـة البريطانية، وبقدرتهم على التحدث والكتابة بالإنجليزية "جيـدا"، واهتمـامهم بالأشياء الفكرية. وكان ذلك يتمثل في التعليم والألفة بالكتب وامتلاك "الثقافة" المهمة، بالإضافة إلى المهن التي لا تتضمن العمل اليـدوي. وكانـت هـذه الأشياء بمثابة معايير أكثر أهمية لعضوية الطبقة الوسطى، مقارنة بالثروة أو بياض البشرة.... وبصورة ما فإنهم كانوا يشكلون طبقة مفكرين، من حيـث إنهم كانوا يفخرون بكونهم القطاع الأكثر ثقافة في المجتمع، على الرغم من أنهم لم يكونوا جزءًا من الطبقة الحاكمة.

وقد منحوا أهمية كبيرة للثقافة لأنه لم يكن لديهم أيـة ممتلكـات قيمـة أخرى يتمسكون بها ... ولذلك فإنه ليس مدهشا أن أعضاء الطبقة الوسـطى من الملونين والسود أمسكوا بزمام الأنشطة الأدبية والثقافية".[٥٥]

وقد تفوقوا في الصحافة والنقد الأدبي، حيث تفوقوا على البـيض فـي اهتمامهم بخطاب الأفكار الاجتماعية الأكثـر تقـدما، والأشـكال الأدبيـة، والاهتمامات المتاحة لجمهور يتحدث الإنجليزية. وهكذا فإنه عنـدما حـان دورهم لمواجهة الاستعمار والسيطرة العنصرية، كـان تعلـيمهم وثقـافتهم المتفوقة بمثابة المبرر والأداة لديهم.[٥٦] ففي الواقع، كـانوا بمثابـة أسـاس القومية التي عرضها كيريل جيمس في عمله السياسي الأول "حالـة الحكـم الذاتي في جزر الهند الغربية" والتي جاء فيها:

"عندما وصل [المسئول الاستعماري] إلى جزر الهند الغربيـة أصـيب بصدمة. حيث وجد مجتمعا متحضرا بشدة، ووجدهم يرتدون نفس الملابـس التي يلبسها، ولا يتحدثون لغة أخرى سوى لغته، بل إن بعضهم كان أفـضل منه أحيانا. فما التأثير الذي يمكن أن يتعرض له الإنجليزي المستعمر عندما يعترف، لأنه يجب أن يعترف، بمستوى أولئك الذين أرسلوا ليكونوا حكامـا عليهم؟ وكان على هذا المسؤول أن يجد تبريرا للحكم، غير أنه اكتـشف أن قدرة الأنجلوساكسون على الحكم قد تراجعت للخلف، كما تراجعت الثقة فـي "وصاية الدولة الأم حتى ذلك الوقت" (وفي المستقبل البعيد) وذلك لأن هـذا السؤال اكتشف "قدرة هذه المستعمرات على الاستقلال بذاتها، إلخ، إلخ".[٥٧]

وبالنسبة إلى مجتمع مثل مجتمعنا - حيث لا توجد عداوة سلالية على الرغم من وجود تحيز سلالي - وحيث وصل الناس إلى مستواهم الحالي مـن الثـروة والتعليم والثقافة العامة - فلا يوجد مكان لنظام حكم التاج الاستعماري. لقد كـان هذا النظام مفيدا في عصره، ولكنه لم يعد كذلك الآن. فهو نظام مضلل، لأنه يقوم على افتراضات التفوق التي ليس لها أساس في الواقـع. فعلـى الـرغم مـن

الإعجاب بمواهبهم في هذا الاتجاه، فإن القدرات الإدارية ليست حكرا على الإنجليز، خاصة في هذه الأوقات الصعبة".(٥٨)

حين يتحول الفيكتوريون السود إلى يعاقبة سود

ولد كيريل ليونيل روبرت جيمس في ترينيداد في ١٩٠١، "وهو ابن مدرس أسود، وحفيد بعد أكثر من نصف قرن من إلغاء الرق لسائق وعامل في مزرعة سكر".(٥٩) وقضى سنواته الأولى في تونابونا Tunabuna، وهي قرية تعدادها ٣٠٠٠ نسمه حسب تقديره، وتقع في منتصف الطريق بين العاصمة (بورت أوف سبينPort of Spain) غربا وأريما Arima شرقا. ذلك الطريق الذي أسس عليه الرقيق السابقون العديد من قراهم الجديدة في أربعينيات القرن التاسع عشر.(٦٠) واستقر الأفارقة "المحررون" في الوديان المحيطة بتونابونا، وزرعوا حدائقهم على سفوح التلال، وبعد ذلك بثلاثين سنة، أي في سبعينيات القرن التاسع عشر، كان ذلك واحدا من المواقع التي انتشرت فيها عصابات الرقص والعراك ذات الرموز الإقليمية وشبه السرية. وكانت تونابونا "تتباهي بالعصابات التي تحمل أسماء مثل: أجراس المساء الجميلة، ودبابيس أربطة العنق، والكلاب السلوقية، وبناة الجزيرة".(٦١) ويتذكر جيمس نفسه منذ طفولته كيف بدأ في استيعاب الكثير من أخلاقيات الحياة التي ربطت نفسها بالطبقة الوسطى للسود، إذ يقول:

"كنت في السادسة من عمري تقريبا عندما اطلعت على نسخة أمي من أعمال شكسبير. وكان فيها ٣٧ أو ٣٦ مسرحية، وكان هناك توضيح أمام كل مسرحية. وكان تحت التوضيح "العمل والمشهد" الذي يوضحه، وأنا أتذكر أن التوضيح الذي كان قبل "يوليوس قيصر" كان يقول، "كيف تحترق هذه الشمعة

بصورة سيئة". وأنا لا أستطيع الآن قراءة مسرحية لشكسبير، ولكنني أتـذكر جيدا التطلع إلى "العمل والمشهد" الوارد أسفل التوضيح وقراءة ذلك المـشهد الخاص. وأنا متأكد من أنني قرأت كل هذه المشاهد قبل أن أبلغ السابعة.(٦٢)

وعلى الرغم من توافر قصص المغامرات في مكتبة أمه، فإن قـراءات الطفل كانت كما وصفها ريتشارد أسمول بمثابة "اهتمام الـشباب العـادي". حيث كان جيمس يتدرب على دروس طبقته ويظهرها. وكان هذا الرصـيد المحدد يحتوي أيضا على الأهمية البوريتانية لآداب الطبقة:

"لقد كنت مفتونا بمن يغنون أغاني الكاليبسو الشعبية الهزلية، والأغاني البذيئة أحيانا، والتي كانوا يغنونها في خيامهم خلال وقت المهرجان. ولكن - مثل الكثيرين من الطبقة الوسطى - كانت أغاني الكاليبسو بالنسبة إلى أمـي شيئا للدهماء أو للعامة في أفضل الأحوال. وقد جعلتني أدرك أن الطريق إلى خيمة الكاليبسو هو الطريق إلى الجحيم، وأن هناك دائما الكثير من الأمثلـة على سكان الجحيم الذين يمكن أن تشير إليهم".(٦٣)

وكانت التقاليد الجنسية والأخلاقية للطبقات الدنيا للسود، على الرغم من كل حيويتها وجاذبيتها، تمثل رفضا لأحاسيس البرجوازية الإنجليزيـة، فقـد كانت تمثل تحديا لأخلاقيات النموذج الاستعماري المطروح علـى الـسكان المحليين. ولا جدال في أنه في الأسرة السوداء التي تعرف القواعـد، لـيس لهذه العبارة السياسية ضمنيا أي مكان في مستقبل الشاب الأسـود المـتعلم بصورة مناسبة. فالمجتمع "الصالح" الأبيض أو الأسود أو الملون، يتآمر ضـد ما يعتبره مزاجات شيطانية ديونيسية **Dionysian**. ومـع ذلـك، كانـت لعبـة الكريكيت محترمة في ثقافة طبقة جيمس. ففي الواقع، ومن جميع الجوانـب، كان وجودها ينتشر في كل طبقات مجتمع ترينيداد. حيث قال ريتشارد أسمول:

"كانت عضوية النوادي المختلفة تتحدد بالمهنة والطبقة الاجتماعية، وكان التمييز على أساس اللون أكثر حدة مما هو عليه الآن. إذ إن "نادي كوينز بارك" المسيطر على لعبة الكريكيت في الجزيرة، كان يضم البيض الأثرياء؛ الشامروك (مزارعي الكاكاو والتجار الكريول الفرنسيين الكاثوليك)؛ المابل (الطبقة الوسطى بنية اللون)؛ الشانون (الطبقة الوسطى السوداء) المسئولين أصحاب الوظائف الراقية والمدرسين، ثم الاستنجو (التجار، الحرفيين، العمال).... وأضف إلى هذا أن كل فرد تقريبا كان يلعب أو يهتم بالكريكيت، وأن اللعبة كانت تستمر حتى ثمانية أشهر من السنة، ويقدر البعض أن قدرتها على التعبير الاجتماعي كانت عالية وملموسة".[٦٤]

وكانت الكريكيت لعبة والد جيمس، ولعبة عمه كوفي وعمته جودت، وابن عمه كدجو: بل إن الاهتمام بها كان موجودا لدى جده المميز جوش رودر. فقد كانت لعبة تلاميذ المدارس الإنجليزية. "وكان الترفيه يعني الكريكيت، لأنه في تلك الأيام – باستثناء اللقاءات الرياضية البدنية القليلة – كانت الكريكيت اللعبة الوحيدة. وكان منزلنا يقع خلف ملعب الكريكيت تماما ويطل عليه بصورة رائعة. وهكذا كانت هذه اللعبة تمثل لجيمس هوسا طبيعيا؛ فقد كانت اللعبة التي يمكن أن يتحول إليها بينما كان يحاول أن يشق طريقه إلى عالم الكبار؛ وكانت اللعبة التي يمكن أن يعود إليها عندما يريد أن يجعل حياته والعالم الاستعماري الذي نشأ فيه أمرا مفهوما.

على هذا القدر من الإثارة كانت ترينيداد التي ترعرع فيها جيمس. ففي ١٨٩٧، وبعد إغراء النجاح الذي حققته "جمعية العمال الإنجليز" في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، و"جمعية الإصلاح البرلماني لعمال ليدز"

في ١٨٦١، تأسست "جمعية عمال ترينيداد". ونظرا لأن عضويتها كانت تضم خمسين من العمال المهرة وغير المهرة، وتشمل النجارين والبناءين والخياطين السود، وصيدليا وكيميائيا على الأقل، فقد كانت كما يقول برنسلي سامارو أول منظمة من نوعها في جزر الهند الغربية البريطانية:

"كانت منظمة ترينيداد تهتم بكل من أنشطة جماعات الضغط السياسي ونقابات العمال. حيث تأسست مباشرة قبل زيارة اللجنة الملكية في ١٨٩٧، التي أرسلت إلى جزر الهند الغربية البريطانية لدراسة التداعيات الخطيرة المترتبة على كساد السكر والتوصية بإجراءات للتخفيف على المستعمرات. وكان رئيس الجمعية الأول، والتر ميلز، صيدليا، وأدلى بشهادته أمام اللجنة.... حيث اشتكى ميلز من الأوضاع غير الصحية لمدن ومساكن وعقارات المستعمرة... وضغط من أجل تخفيض الضرائب، خاصة على المواد الغذائية والأدوات الزراعية التي يستخدمها العمال... وتحسين تسهيلات النقل، وإنشاء صناعات صغيرة، وإدخال بنوك الادخار وفتح المزيد من أراضي التاج. وكذلك، كانت الجمعية تعارض بشدة هجرة الهنود التي تساندها الدولة، حيث ادعى ميلز أنها زادت المنافسة على "أجور الكفاف التي تدفع في مزارع السكر".... وفوق كل ذلك، قال ميلز إن المستعمرة يمكن منحها الحكم النيابي".(٦٦)

وتراجعت الجمعية سريعا قبل أن يمكن إعادة تنشيطها، حيث ربطت نفسها بحزب العمال البريطاني الجديد في ١٩٠٦.(٦٧) ومع وجود المئات من الأعضاء الآن، بدأت تعمل كممثل للطبقات العاملة، وتشن حملات لإصلاح أوضاع العمل وتقليل ساعاته، ومن أجل الإجازات المرضية، وضد "حاجز

اللون"، ووسعت عضويتها بجذب عمال الهند الشرقية "غير المسيسين عادة". وكانت الحكومة الاستعمارية معادية بصورة مدهشة، حيث أبلغت المركز الاستعماري بالطبيعة المريبة للجمعية، وهنا يقول سامارو:

"إن أعضاءها – وبعضهم مشكوك في سمعته – ليسوا من العمال في أغلب الأحيان، وليس لهم شأن في المستعمرة. ولكنهم يتبنون اسمها ببساطة بغرض ضمان اعتراف حزب العمال الإنجليزي بهم، وبالتالي يحققون لأنفسهم أهمية لا يستطيعون تحقيقها بغير ذلك.[٦٨]

ولكن أوروبا والحكومتين الاستعماريتين في الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية تورطتا سريعا في الحرب العالمية الأولى. وقد ثبت أنها قوة تاريخية لا تستطيع الإمبراطوريات الإفلات منها. إذ إن الحرب ذاتها، وفوق كل الخسائر التي سببتها في أوروبا (والتي لم تكن أوروبية كلها)، كانت تتناقض جوهريا مع جوهر وجود الإمبراطورية البريطانية، القائم على فرضية "الدفاع عن مستعمرات الحكم الذاتي من الهجوم الخارجي والحفاظ على القوة البحرية هو مسئولية بريطانيا".[٦٩] فخلال الحرب، قدمت الهند وحدها نصف مليون رجل وامرأة بالأزياء البريطانية بأشكالها المختلفة، وهذه القوات تفوق عددا كل ما قدمته الممتلكات والمستعمرات الأخرى مجتمعة (كانت كندا، وإستراليا، ونيوزيلندا، وجنوب أفريقيا من الممتلكات).[٧٠] وما فعلته الهند لبريطانيا، فعلته أفريقيا لفرنسا: حيث كتب جورج بادمور أن "أكثر من ٥٤٥ ألف جندي محلي أفريقي كانوا يخدمون فرنسا، كقوات صدمة أساسا لصد مد الزحف الألماني خلال الفترات الأكثر حرجا في الحرب".[٧١] وكذلك خدم عشرات الآلاف من الأفارقة مع ألمانيا، وبلجيكا، والقوات

البريطانية في شرق أفريقيا، في حين أنه من بين ٣٤٢٢٧٧ من قوات السود الذين خدموا الولايات المتحدة، كان هناك ٢٠٠ ألف منهم يحاربون مع الجيش الفرنسي، مرتدين زي الجنود الفرنسيين.(٧٢) وحشدت أيضا قوات من جزر الهند الغربية، وكان معظمهم – حوالي ٢٠ ألفًا – يخدمون في فوج الهند الغربية البريطانية. ومع ذلك، كانت هناك مشاكل. فبالنسبة إلى البعض، كانت هناك اعتبارات معينة تعلو على الولاء لبريطانيا، وفي ذلك يقول سامارو:

"في ترينيداد، كانت الصحافة تستخدم تعبير "طبقة أفضل" لوصف البيض والمولاتو أصحاب البشرة الأفتح، الذين كانوا يشكلون طبقة التجار والمزارعين. وفي الباربادوس كان التعبير المستخدم هو "الطبقة الأفضل". وعندما بدأ تسجيل المستخدمين في ١٩١٥، رفض شباب الطبقة الأولى عبر جزر الهند الغربية البريطانية الانضمام، إلا كضباط، في نفس الأفواج مع الجنود السود. وكان آرثر آندرو كبرياني، وهو كريولي من كورسيكا كان يقود حملة التجنيد، يشكو من أن "شباب الطبقة الأفضل كانوا يتجنبون " الانضمام إلى الأفواج العامة "بسبب مسألة اللون المؤسفة التي تكمن في صميم كل شيء في هذه الأنحاء".... وجاء بعض جنود "الطبقة الأفضل" إلى لندن وانضموا إلى الأفواج البريطانية، حيث انضمت الأغلبية مع جنود "الطبقة الأفضل" في المستعمرات الأخرى لتكوين فوج التجار والمزارعين".(٧٣)

ولكن حلول الحرب العظمى دفع إلى المقدمة بعدو أكثر خطورة ودهاء للمصالح الاستعمارية، حيث يشير سمارو:

"لم يكن الجميع مستعدين لتقديم تضحيات للصالح العام. إذ إن تجار المستعمرة اعتبروا بداية الحرب في أوروبا بمثابة إشارة للزيادة المباشرة في الأسعار. ففي نفس اليوم الذي أعلنت فيه الحكومة بداية الحرب في أوروبا، كتبت صحيفة "بورت أوف سبين" أن الأسعار ارتفعت بشدة".(٧٤)

وقد قصم تضخم الأسعار ظهور الطبقة العاملة من السود في الاقتصاد النقدي للجزيرة، وكان السبب الرئيس في الإضرابات التي اندلعت عقب ذلك: حيث أضرب عمال النفط في ١٩١٧، وعمال السفن والسكر وعمال السكك الحديدية وعمال الشحن والتفريغ والكناسون في ١٩١٩، وأضرب عمال الطرق والسكك الحديدة ثانية في ١٩٢٠.(٧٥) وانضمت إلى الأحزاب جمعية عمال ترينيداد، بعد أن التئمت من جديد بعد الحرب بإعادة الجنود السابقين الغاضبين من التمييز العنصري الذي تعرضوا له في الخدمة العسكرية،(٧٦) وتبوأت مكانها في مركز التحريض. وكان هذا أساس القوة الاجتماعية التي قادها الكابتن كبرياني - العائد من نفس الحرب - في حزب العمال الترينيدادي في ١٩٣٢، وهنا يقول سامارو:

"منح الاتصال بأوروبا خلال الحرب العالمية الأولى للراديكاليين في جزر الهند الغربية فرصة نادرة للتعلم من أوروبا، وهكذا كانت فترة ما بعد الحرب "اشتراكية" بصورة متزايدة بالطريقة التي استوعب بها الهنود الغربيون هذا المفهوم. حيث وضع كبرياني زرا أحمر على طية سترته، وكان الكثيرون من أتباعه يرتدون القمصان الحمراء تقليدا "للحمر" في الثورة البلشفية في ١٩١٧".(٧٧)

وفي هذه السنوات، أصبحت ترينيداد جزء من حركة السود بعد الحرب، والتي مزقت كل الإمبراطوريات خلال عشرين سنة تقريبا:

"وكما أن حرب ١٩١٤-١٩١٨ شهدت القوميين الهنود وهم يحققون خطوات كبيرة، كانت هناك تحركات مهمة في أماكن أخرى. ففي ١٩١٥، دفعت الاضطرابات في وسط سيلان الحاكم المنزعج إلى إعلان الأحكام العرفية، وسجن الكثيرين من السنهاليين البارزين. وكان من بينهم ستيفن سيناناياكي (أول رئيس وزراء بعد ذلك) الذي لم يسامح البريطانيين أبدا. وفي ١٩١٨، تشكل المؤتمر الوطني السيلاني على خطى نظيره الهندي. وفي نفس السنة، وبينما أثارت اضطرابات سيلان محاولة فاشلة في نياسالاند، بقيادة القس جون شيليمبوي، أظهرت هذه الاضطرابات هذه العاطفة المتزايدة للقومية الأفريقية.... وفي أفريقيا الغربية كان لدى القوميين الهنود معجبون متلهفون. فعندما دعيت الهند إلى مجلس الحرب في ١٩١٧ صاحوا: "لماذا ليس أفريقيا الغربية أيضا؟" وعندما دعيت الهند والممتلكات البريطانية إلى مؤتمر السلام في ١٩١٩، أرسل د. نانكا بروس من ساحل الذهب داعيا القوى الغربية إلى سماع "صوت أفريقيا الغربية" أيضا في فرساي. وعقد "مؤتمر عموم أفريقيا" في باريس في ١٩١٩. ...

وفي نفس الوقت، بدأ الكيكويو في كينيا التعرف على الجمعيات السياسية. وزهقت أرواح في اضطرابات نيروبي في ١٩٢٢.... وبالمثل، كانت حركات سياسية قليلة تنمو في جزر الهند الغربية، مثل "جمعية الحكم النيابي" في جرينادا التي تأسست في ١٩١٤، وجمعية عمال ترينيداد" التي أسسها الكابتن كبرياني، والتي ازدهرت في نهاية الحرب. وأسس ماركوس جارفي في جامايكا تحت اسم "الجمعية العامة لتطوير الزنوج" ذات التوجه القومي الزنجي، والتي حظيت بشهرة دولية قصيرة عند نهاية الحرب".[٧٨]

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن جيمس كان يدرك هذه الأحداث، فإنه حافظ على موقفه، وكان يقول "أنا لا أهتم كثيرا بالسياسة".[٧٩] فقد أنهى دراسته في ١٩١٨ وكان قانعا بممارسة هوايتيه: الكريكيت والأدب، ويقول في مذكراته بشأن ذلك:

"لدى مجموعة من الأصدقاء (معظمهم من البيض) أتبادل معهم الأفكار والكتب والسجلات والمخطوطات. ونشرنا مجلات محلية وألقينا محاضرات وكتبنا مقالات عن الدراما الإنجليزية، والشعر "كنقد للحياة". ونحن نعيش وفق مبادئ ماتيو أرنولد، وننشر الجمال والنور وأفضل ما يمكن التفكير فيه وقوله في العالم.... وأنا لا أفقد رؤية خطتي للسفر للخارج والكتابة، فقد درست ومارست فن الخيال بدأب".[٨٠]

ومن المؤكد أنه كانت له خيارات، خيارات سياسية، وكان يجد معها أنه من الصعب بصورة متزايدة أن يعيش بينما تؤثر كل قوى العالم عليه، وأن التراث الراديكالي للسود اكتسب شكله الثوري. وكان اتجاهه المبكر لا يزال متناقضا مع اتجاه زميل طفولته مالكولم نيرس.[٨١] إذ إن نيرس - الذي تخرج في "كلية الحمل الطاهر الكاثوليكية الرومانية" و"المدرسة العليا البامفيلية" الخاصة - تخرج أيضا في ١٩١٨. وطوال بضع سنوات، كانا يعملان معا مراسلين لصحيفة الجارديان الأسبوعية. وفي ١٩٢٥، هاجر إلى الولايات المتحدة، وخلال سنتين من وصوله انضم إلى الحزب الشيوعي الأمريكي. وفي ذلك الوقت أصبح نيرس يُدعى جورج بادمور. ولكن حتى قبل أن يغادر ترينيداد، كان قد تبنى العداوة العلنية للإمبريالية. حيث زودته الجارديان بالهدف:

"أصابته الوظيفة بالملل، فلم يكن هناك مجال للكتابة الفكرية وكان يكره مديره في شؤون التحرير، إدوارد بارتريدج، الإنجليزي الذي كان ينتظر الخضوع من السود. وعندما مات بارتريدج كتب نيرس أنه كان "واحدا من أكثر عملاء الإمبريالية البريطانية غرورا من بين الذين قابلتهم. وأنا أنظر إليه بازدراء مطلق، وكنت آمل أن أستخدم قلمي في فضح دوره أمام العمال والمزارعين الاستعماريين الذي قهرهم من خلال صحيفته القذرة الجارديان".(٨٢)

والتقى جيمس وبادمور في لندن في ١٩٣٢.(٨٣) وفي ذلك الوقت كان جيمس قد أصبح من أتباع تروتسكي، وكان بادمور على بعد سنة من نهاية العمل مع الحركة الشيوعية.(٨٤) وبدأ تعاونهما السياسي في ١٩٣٥.

وبينما كان جيمس في ترينيداد، كان يدرس في مدرسة ويلعب الكريكيت (لصالح بلدة مابل)، ويعمل مراسلا لبعض الوقت. وباعتباره صحفيا أسود على الجزيرة في أوائل العشرينيات، فقد شهد نضوج السياسة القومية في ظل كبرياني. ومع ذلك، يقول ريتشارد اسمول: "لم يظهر جيمس أي اهتمام بخطب [كبرياني] قبل ١٩٢٤، ولم يصبح من أتباعه قبل ١٩٣١".(٨٥) وكان حواره مع ليري قنسطنطين لاعب الكريكيت هو الذي أثاره، وربما كان هو الذي بدأ هذه العملية:

" كنت أطرح بعض الأمثلة على معنويات كريكيت الهنود الغربيين المتدنية عندما أصبح قنسطنطين متجهما وظهر تعبير عدائي على وجهه.

– وقال ببرود: "لقد فعلت كل شيء خطأ، هل تعلم ذلك"

- "ما الذي فعلته خطأ؟"

- "يكفي أنك تصدق كل ما تقرؤه في هذه الكتب. ولكنهم ليسوا أفضل منا".

فتلعثمت، إذ إنني لم أقصد أن أقول إنهم كانوا أفضل منا. ولكن الكثير مما كنت أقوله كان يعني ذلك.

وتحول قنسطنطين إلى موضوع قديم.

- "لقد أخبرتك أننا فزنا بتلك المباراة. لقد فزنا بها".

وتوقف الحوار وكنت مرتبكا نوعا ما.

- "إنهم ليسوا أفضل منا". إنني أعرف أننا كنا جيدين مثل الآخرين رجلا لرجل. وكنت أعرف ذلك منذ أيام دراستي. ولكن إذا كانت الحقيقة كذلك، فإنها لم تكن كل الحقيقة".[٨٦]

ومع ذلك، ظلت سياسة جيمس مثل سياسة كبرياني في إطار التمثيل البرلماني. وكان يحتاج إلى الماركسية، واستمر طويلا حتى تخلى عن هذا الافتراض.[٨٧] وبحلول أواخر عشرينيات القرن العشرين، كان قوميا، ولكن عل الرغم من أنه قرأ كتاب جارفي "عالم الزنوج"، وقابل جارفي نفسه عندما زار ترينيداد بعد طرده من الولايات المتحدة، وكان مطلعا أيضا على بعض أعمال دو بويز المبكرة، فإن رؤية جيمس لم تتقدم كثيرا عن التراث الأيديولوجي الذي تربى عليه، وهو يقول في ذلك: "لم تكن لدي في الحقيقة أبسط فكرة عن سياسة السود آنئذ، ولم يكن هناك أي حديث عن أية ثورة أفريقية

أو سوداء".[٨٨] وكان يلتزم بالكتابة الخيالية، وهو الأمر الذي أتى ثماره في نشر بعض قصصه القصيرة، وطور إحدى مخطوطاته لتصبح بعد ذلك رواية "زقاق منتي Minty Alley".[٨٩] ومع ذلك، كانت قدراته السياسية قد بدأت، وكان يستعد لكتابة السيرة الذاتية لكبرياني، حيث مضى في مذكراته يقول:

"لقد بدأت دراسة تاريخ الجزر. وجمعت أوراق وقرارات البرلمان (الهانساردHansards)، والوثائق القديمة، وتقارير اللجان الملكية. وكان هناك الكثير حول ما لا يحتاجه أحد. وكان كل ذلك بسيطا ومباشرا. وبالنسبة للخلفية، كان لدي تفسير البيض للتاريخ وإعلانات حزب العمال البريطاني. وبالنسبة للمقدمة، كانت هناك جماهير السود، والطبقات الوسطى البنية اللون من المهنيين والموظفين، والأوروبيون والبيض المحليون، وكانت أمامي مشاهد الأماكن: ستنجو، شانون، مايل، ونادي كوينز بارك. وكانت أفكاري الغامضة آنذاك عن الحرية تتبلور حول قناعة سياسية: يجب أن نكون أحرارا لنحكم أنفسنا".[٩٠]

وتدخل قنسطنطين في ذلك الوقت، حيث كان القوة السياسية الأكثر تأثيرا على الأجواء المحيطة بجيمس. فقد أراد قنسطنطين أن يكتب كتابا، حيث كان يريد أن يعبر فيه عن رؤيته للعبة الكريكيت والمجتمع الإنجليزي، وذلك من خلال تجربته في هذه اللعبة في إنجلترا منذ ١٩٢٩. ودعا جيمس إلى إنجلترا للتعاون في هذا المشروع. وفي مارس ١٩٣٢، سافر جيمس إلى إنجلترا. ولم يعد إلى ترينيداد لمدة ٢٦ عاما."[٩١]

الاشتراكية البريطانية

حين وصل جيمس إلى إنجلترا كانت التقاليد الاشتراكية في العاصمة البريطانية، والتي كان يتعرض لها السود الناطقون بالإنجليزية في أفريقيا والكاريبي، تختلف كثيرا عن تلك التي كان يتعرض لها نظراؤهم الناطقون بالفرنسية والأمريكيون. إذ إن تاريخ تطور الحركات الاشتراكية والفكر الاشتراكي في بريطانيا كان يتسم بأحداث تاريخية فريدة تمثلت في: تكوين أول طبقة عاملة صناعية مهمة؛ هزيمة حركات الإصلاح الثورية ثم البرلمانية (الدستور) في أوائل القرن التاسع عشر؛ السيطرة البريطانية على رأس المال الدولي والتجارة خلال معظم القرن؛ الوجود الغامض لماركس وإنجلز في بريطانيا منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى موتهما في ١٨٨٣ و١٨٩٥ على التوالي؛ وتأسيس الدولية الأولى في ١٨٦٤؛ وظهور الإمبراطورية البريطانية الجديدة، والتبلور المصاحب لها للأنجلوسكسونية كأيديولوجية قومية. وكانت إحدى النتائج التاريخية لهذه الأحداث العديدة تتمثل في استمرار حركة الطبقة العاملة حتى القرن العشرين مع تعاطف قوي من نقابات العمال:

"في ١٨٩٥، كان إجمالي عضوية نقابات المملكة المتحدة بما في ذلك النقابات التي لم تكن ممثلة في المؤتمر [نقابات العمال البريطانية في تلك السنة] يقدر بحوالي مليون ونصف مليون عضو - أي حوالي خمس إجمالي عدد العمال الذكور البالغين. ولم يكن هناك أي شيء مماثل في أية أمة عظيمة أخرى. وكذلك فإن تقدير قوة الطبقة العاملة الذي لا يقتصر على الرؤية العامة للبلاد ككل والذي يميز بين المناطق والفروع المختلفة للصناعة في الدولة) يعطي نتائج أكثر وضوحا.... وفي كل من لانكشاير، درم،

نورثمبرلاند، كانت نقابات العمال تحوي على الأقل عشر مجموع السكان، ونصف العمال الذكور البالغين. وسيكون من الصواب القول بأنه بالنسبة إلى عمال غزل ونسج القطن في لانكشاير، أو عمال المناجم في درم أو نورثمبرلاند، كانت عضوية نقابة العمال إجبارية.

وربما كان حجم هذا الجيش من العمال يمثل في الواقع أفضل ضمان لأن تمارس نقابات العمال سياسات حكيمة. ففي دولة متحضرة كثيرا، لن يكون هناك مليون أو مليون ونصف ثوري؛ وبالنسبة للنقابات البريطانية، حوالي سنة ١٨٩٥، كانت النقابات الأكثر تحفظا وحذرا هي تحديدا التي تشمل في عضويتها النسبة الأكبر من الرجال العاملين في التجارة".(٩٢)

وانضم إلى هذا الدافع تكوين جيوش سياسية وانتخابية من الحركة الاشتراكية تحديدا: حزب العمال المستقل (تأسس في ١٨٩٣) وحزب العمال (حوالي ١٩٠٠). حيث كان لكل من نقابات العمال والأحزاب البرلمانية معا تأثير حاسم على كفاح العمال:

"بينما يوجد دليل يشير إلى وجود قدر من عدم ثقة الطبقة العاملة في الدولة في أشكالها المختلفة، كانت حركة العمال البريطانية تميل إلى إدخال كل من أنشطتها الصناعية والسياسية في الهيكل السياسي القومي القائم؛ وبتعبير جرامشي، كانت تفتقر إلى منظور مسيطر بصورة كافية لتحدي المؤسسات المركزية لسلطة الدولة".(٩٣)

وأخيرا، فإن القومية الإنجليزية أو الأنجلوساكسونية - التي كانت ظاهرة أيديولوجية قوية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر - عزلت الاشتراكيين البريطانيين إلى حد ما عن قبول أو الخضوع للتيارات

الاشتراكية التي نشأت في القارة.[٩٤] وكانت الآثار السياسية والأيديولوجية للمنظمات ذات أهمية غير مباشرة، وخاصة لدى "الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي الماركسي لهنري هيندمان (١٨٨٣) التي أظهرت عداء مؤسسها لنقابات العمال،[٩٥] الاتحاد الاشتراكي "الأرستقراطي" لويليام موريس (١٨٨٥)، وحزب العمال الاشتراكي (حوالي ١٩٠٠) والتي ألهمها المفكر الأمريكي الخيالي دانيال ديليون.

"قبل ١٩١٧، كانت هناك منظمتان ماركسيتان مهمتان فقط. وهما الحزب الاشتراكي البريطاني (.B.S.P)، وحزب العمال الاشتراكي (.S.L.P). حيث كان الأول بمثابة الوريث المباشر للاتحاد الديمقراطي الاجتماعي (.S.D.F) الذي تأسس في ١٨٨٣ بقيادة هيندمان، والذي تحول في ١٩١١ إلى تحالف بين الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي، وأجزاء من حزب الاستقلال الليبرالي .I.L.P غير الماركسي، وحركة كلاريون ومختلف الجمعيات الاشتراكية المحلية. ولم تزد عضوية الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر عن ٤٠٠ عضو؛ وانخفضت العضوية الاسمية المبدئية للحزب الاشتراكي البريطاني من ٤٠ ألفًا إلى ما لا يزيد عن ثلث هذا الرقم مع اندلاع الحرب، وكانت العضوية النشطة أقل كثيرا. وانفصل حزب العمال الاشتراكي عن الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي مع بداية القرن. وكان أكثر نقاء من حيث المنهج، وبالتالي كان أصغر كثيرا؛ حيث لم تزد عضويته عن الألف، وكانت الأغلبية مركزة في اسكتلندا".[٩٦]

وكانت الجمعية الفابية أكثر شهرة (وثراء) (سيدني وبيلاريس ويب، جورج برنارد شو، أني بيسانت، جراهام والاس، سيدني أولفييه، كول،

ومارجريت كول) حيث كانت ميولهم أوسع كثيرا لتشمل الإمبريالية، واشتراكية الدولة، والفوضوية.(٩٧) وكان تأثيرهم أكثر دواما في الفكر البريطاني، وليس أقله تأسيس مدرسة لندن للاقتصاد.(٩٨) ولكن كانت "اشتراكية العمل" - المناهضة للماركسية، الإصلاحية، الأخلاقية، والحل العملي للحرب الطبقية - هي التي وجهت سياسات نقابات العمال البريطانية وحزب العمال، والتي كان العمال البريطانيون يهتمون بها غالبا:

"بطبيعة الحال فإن العمال - الرجال والنساء الذين يشترون ويبيعون الأدب ولا يكتبونه، والذين يستمعون إلى الخطب ولا يلقونها - كانوا ينتجون القليل جدا من المواد لحسابهم. ونحن نريد أن نعرف المزيد عن هؤلاء الرجال والنساء المجهولين الذين شغلوا مقاعد مجالس النقابات، والأحزاب المكونة وفروع حزب الاستقلال الليبرالي في طول البلاد وعرضها. ولكن مثل هذه الشهادة التي لدينا، والتي تكملها صحافة العمال المحلية والسجلات التاريخية الأخرى، تشهد على التأثير الكبير "لاشتراكية العمل". وتكرر سماع عبارات بعينها- مثل "الوعي الاجتماعي الأعلى"، "التنظيم الاجتماعي"، والكومنولث الاشتراكي"، "دعونا ندع إلى الرجل الذي يكشف الفضائح"، "صناديق الاقتراع وليس الرصاص".(٩٩)

وبعد الثورة الروسية وتأسيس الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى، وعندما ظهر حزب ماركسي ثوري "بلا توافقات"، كان الأمر لا يزال يتمثل في تحقيق نجاح قليل للماركسية بين الطبقات العاملة. فكما يقول نيل وود: "كانت الشيوعية البريطانية تتشكل إلى حد بعيد بتطورها في ظل ما أصبح أكبر وأقوى حزب ديمقراطي اجتماعي في العالم". وربما يمكن تفسير الكثير

من تاريخ الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى واختلافه عن الأحزاب الشيوعية في أماكن أخرى بالقوة والفعالية الكبيرة لحزب العمال.(١٠٠) ولم يستطع أي من الركود الاقتصادي بعد الحرب في العشرينيات، ولا حتى الكساد الكبير، الذي حدث في أعقاب فشل الحزب في الإضراب العام في ١٩٢٦،(١٠١) أن ينقذ الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى كحزب جماهيري.(١٠٢)

وهكذا فإنه في معظم الأحوال بعد الكساد الكبير، أصبحت الماركسية الإنجليزية شيئا يتعلق بأبناء وبنات الطبقات الوسطى والطبقات الوسطى الأعلى، وليس بالعمال الإنجليز. إذ إن البطالة الكبيرة في صفوفهم، وظهور الحركات الفاشية في أوروبا، ومرور عقد على ظهور الفساد وعدم كفاءة "ديمقراطية البرجوازية"، والإنجازات المشهودة للثورة الروسية، قد مارست سحرها، وفي ذلك يشير إيان دو فيلد قائلا:

"غالبا ما يمكن إدراك التغيرات في الحياة الثقافية للأمة في مرحلة مبكرة بين طلاب الجامعات. فقبل الثلاثينيات، لم يكن الطلاب البريطانيون يبدون الحماسة السياسية التي كانت تميز القارة. وبالتالي، فإنه لا بد أن يكون مقبولا نوعا ما أن كارل راديك كان قادرا على أن يعلن أمام "مؤتمر الكتاب السوفييت" في ١٩٣٤ أنه: "في قلب إنجلترا البرجوازية، في أكسفورد، حيث حصل أبناء البرجوازيين على شكلهم النهائي، نلاحظ تبلور مجموعة ترى الخلاص مع البروليتاريا فقط". حيث حدثت بداية ثورة سياسية غير مسبوقة في ١٩٣١، عندما تأسست منظمات شيوعية وليدة في جامعتي لندن وكمبردج على أيدي طلاب عائدين من ألمانيا.... وظهرت "جمعية ماركسية" إلى النور

في مدرسة لندن للاقتصاد في ١٩٣١، وحلت "الجمعية الكونية" الراديكالية محل "الجمعية الدولية" القديمة. بل إن "منتدى أكتوبر" الشهير في أكسفورد – الذي تأسس في يناير ١٩٣٢ – حظر في نوفمبر من السنة التالية، وذلك لانتقاده فيلق تدريب الضباط".[١٠٣]

ومع ذلك، كان كل من الغرور الطبقي، والانقسامات المريرة بين العمال وطبقة المفكرين،[١٠٤] وبقايا رهاب الأجانب (الظاهرة جدا في القرن السابق بالنسبة لدور العمال الأيرلنديين في حركة الطبقة العاملة البريطانية، ولاحقا كمساندة للإمبريالية)، يعمل ضد احتمال أن تصبح الحركة الشيوعية البريطانية قوة مسيطرة بين البروليتاريا في البلاد. وفي الواقع، كانت القوى المضادة للحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى والبلشفية قد تطورت في العشرينيات بين العمال البريطانيين مع ظهور "اتحاد عموم الشعب، اتحاد النقابات القومية، أجزاء من حزب الاستقلال الليبرالي، الاتحاد الاشتراكي للعمال والجمعية الاشتراكية لجنوب ويلز".[١٠٥] وبحلول الثلاثينيات، حققت الماركسية البريطانية – البقية الفكرية والأخلاقية للشيوعية البريطانية – أكثر آثارها استمرارا بين مفكري الجامعات؛[١٠٦] وتحولت الاشتراكية البريطانية إلى ظاهرة انتخابية، وكان حزب العمال وحزب الاستقلال الليبرالي من أهم مظاهرها.[١٠٧]

الراديكاليون السود في العاصمة

خلال نفس هذه السنوات، لم يكن رعايا الإمبراطورية البريطانية من الأفارقة والكاريبيين يزورون العاصمة كثيرا. ففي الواقع، كانت فرصتهم في الوصول إلى بريطانيا أقل من فرصة نظرائهم الناطقين بالفرنسية في

الوصول إلى القارة الأوروبية. ومع ذلك، كان التجار الأفارقة يترددون على لندن، وكان الطلاب السود من الطبقات الوسطى الصاعدة، أو الذين ترعاهم الجمعيات التبشيرية، يشقون طريقهم إلى الجزر البريطانية.[١٠٨] وكان الكثير من الشخصيات التي أصبحت من الأيـديولوجيين والمنظـرين والنـشطاء المهمين في الحركات المناهضة للإمبريالية في المستعمرات البريطانية بعـد الحربين الأولى والثانية، يضطرون إلى سلوك طرق ملتوية نوعا مـا قبـل الوصول إلى بريطانيا. حيث جاء بادمور - مثل أزيكيـوي مـن نيجيريـا، ونكروما من ساحل الذهب، وسيم من جنوب أفريقيا - إلى بريطانيـا عبـر الولايات المتحدة. فمع تقاليد كليات وجامعات السود، كانت أمريكا تعتبر أكثر كرما وطريقا أسهل للمزيد من التعليم، ولكن الخبرة في العاصمة كانـت لا تزال مهمة. وقد جاء راس ماكونين (جورج جريفث) إلـى بريطانيـا عـن طريق أمريكا والدنمارك. وهناك قلة أخرى، مثل جونستون (جومو) كينياتـا من كينيا، قضت عددا من السنوات البائسة في العاصمة لندن وعلى القـارة الأوربية، محصورين بين الرسمية الاستعمارية، والشبكات التبشيرية محدودة الموارد، والعمل الارتجالي نوعا ما.[١٠٩] فكما رأينا، كان مديرو المستعمرات البريطانية - خاصة في المستعمرات التي حدث فيها اسـتيطان أوروبـي - يعادون بصفة عامة السكان المحليين الذين يحصلون على تعليم غربي خارج رعاية المدارس التبشيرية، أو أعلى من المستوى الابتدائي. وقد ذهب بعض السود في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى بريطانيا من أجـل التدريب المتقدم أو لمواصلة مساراتهم المهنية. وعادة ما كان أبناء الطبقـات الوسطى الاستعمارية الوليدة يتوزعون في كل أنحاء الإمبراطورية، حيـث كانوا يستمرون داخل حدود ما هو متوقع منهم. ومع ذلك، كان مـن بيـنهم

شخصيات مثل هنري سيلفستر ويليامز (ترينيداد)، كما سبق، هارولد مودي (جامايكا)، ماكونين (جويانا البريطانية)، محمد علي دوس(*) (مصر)، وجيمس - وكانوا جميعا يلعبون أدوارا بارزة في سياسات السود في بريطانيا، ولكنهم سافروا إلى بريطانيا وفي أذهانهم مصالح مهنية على الأقل. وبمجرد وصولهم كان يحدث لهم نوع من التغيير في أفكارهم، مما كان يضخم نواياهم الأصلية أو يحولهم تماما إلى تحرير السود. وكان من بين إنجازاتهم في بريطانيا تأسيس صحف مثل صحيفة محمد على دوس "أفريكان تايمز وأورينت ريفيو African Times and Orient Review " (حيث حصل ماركوس جارفي على مقدمته الأولى "للرابطة الأفريقية")؛(١١٠) ودور النشر الصحفي مثل "دار نشر الرابطة الأفريقية" التي أسسها ماكونين؛ وتأسيس سلسلة من المنظمات الاجتماعية والسياسية: جمعية الأدب الهندي الغربي الأفريقي (١٩٠٠)، الجمعية التقدمية الإثيوبية (١٩٠٦)، اتحاد الطلاب ذوي الأصول الأفريقية (١٩١٧)، واتحاد طلاب غرب أفريقيا (١٩٢٥)، واتحاد الشعوب الملونة (١٩٣١).(١١١)

وخلال فترة ما بين الحربين العالميتين، كان عدد قليل من أعضاء المجموعة الفكرية السوداء القادمين من المستعمرات والعاملين في بريطانيا أكثر ارتباطا بالحركات الماركسية أو الشيوعية. حيث قام بادمور - الذي

(*) محمد على دوسي Dusé، مفكر من أصل مصري داع إلى حركة الوحدة الأفريقانية، منافح عن الإسلام، سافر بشكل مكثف عبر أرجاء مناطق الشتات الأفريقي. أسس في عام ١٩١١ مجلة أفريكان تايمز وأورينت ريفيو African Times and Orient Review، والتي اعتنت بنشر الفكر المنادي بالقومية الأفريقية وأسس في النهاية مجلة "الكومت" في لاجوس بنيجيريا. ولد محمد علي دوسي في الإسكندرية عام ١٨٦٦ وعاش صباه في مصر قبل أن يسافر للدراسة في إنجلترا، وانتهى به المطاف في بنيجيريا حيث توفي هناك عام ١٩٤٦. (المترجم)

كان بارزا في الدولية الثالثة حتى ١٩٣٣ – بقيادة "اللجنة الدولية الحمراء لنقابات العمال" (لجنة نقابة العمال الدولية للعمال الزنوج). وأصبح راجاني بالمي دوت، وهو أوراسي ولد في إنجلترا ودرس في أكسفورد، المُنَظِّر الرئيس للحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى طوال أربعين سنة؛ وأصبح بيتر بلاكمان، وهو من الباربادوس وعمل مبشرا في غرب أفريقيا، متحدثا وصحفيا بارزا في الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى (حيث سبقه اثنان آخران من الباربادوس – كريس جونز من جمعية بحارة المستعمرات، وآرنولد وارد)؛ وكان شاربورجي ساكلاتفالا، وهو طبيب ولد في بومباي، واحدا من أول شيوعيين ترشحا للبرلمان وتم انتخابهما، حيث مثل إقليم بترسي Battersea الشمالي في ١٩٢٢؛ وجيمس طبعا الذي أصبح مشهورا ككاتب ومتحدث عن الحركة التروتسكية.[١١٢] وكان السياسيون اليساريون يشاركون جميعا في الفصيل الراديكالي من هذه النخبة الفكرية من السود في بريطانيا، وكان أبرزهم ويلي جالاشر، النائب الشيوعي، فينر بروكواي Brockway والقس رينالد سورينسون، من بين الجناح اليساري في حزب العمال (وفي حزب العمال المستقل في حالة فينر بروكواي)، والمستقل رينالد رينولدز.[١١٣] ولكن كما أن بعض الأحداث – مثل الكساد العالمي في أواخر العشرينيات والثلاثينيات – دفعت بعض أعضاء هذه النخبة الفكرية نحو اليسار، هناك أحداث أخرى جعلتهم يتساءلون جديا حول مدى التزام الراديكاليين الأوروبيين، وخاصة الشيوعيين الأوروبيين، بقضاياهم. ففي أوائل ومنتصف الثلاثينيات، كان هناك حدثان ثبت أنهما جوهريان: قيام الدولية الثالثة بحل لجنة اتحاد العمال الدولي للعمال الزنوج في ١٩٣٣،

وكشف الصحافة عن تجارة الاتحاد السوفيتي مع إيطاليا في مواد حربية خلال الحرب الإيطالية الإثيوبية (انتهاكا لعقوبات عصبة الأمم).[١١٤] وفي بريطانيا، تحول النشطاء السود الأكثر راديكالية بصفة عامة نحو الرابطة الأفريقية كشكل لعملهم السياسي، بينما حافظوا على جوانب الماركسية لنقدهم للرأسمالية والإمبريالية.

وفي هذه العقود المبكرة من القرن، كما كان الحال في معظم القرن السابق، كانت أهمية العاصمة للمفكرين السود القادمين من المستعمرات تتمثل في اهتمامهم بالاستعداد للقيام بدور في الإمبراطورية، وللمشاركة فيها. وكان آخرون - مثل السلطات القبلية أو المبشرين - يظهرون في لندن يبحثون عن حلول رسمية لمظاهر الجشع أو الظلم من جانب المديرين أو المستوطنين الاستعماريين. ولكن بالنسبة للطموحين، كان هذا مجرد تضييع لمقعد الإمبراطورية. فبالنسبة لهم - كما شهد جيمس عند وصوله إلى بريطانيا - كان هذا غالبا ما يمثل حالة "المفكرين البريطانيين الذاهبين إلى بريطانيا".[١١٥] وبالطبع، فقد عاد الكثيرون منهم إلى أراضيهم الاستعمارية - خاصة الذين جاؤوا من غرب أفريقيا وجزر الكاريبي الأكثر ازدحاما - ولكن القليلين منهم ظلوا في إنجلترا لبقية حياتهم. ومع مرور سنوات هذا القرن، كانت أعدادهم تتزايد بصورة كبيرة وإن كانت متقطعة بسبب وصول السود أصحاب خلفيات الطبقات العاملة الحضرية والريفية، والذين اندفعوا إلى العاصمة بسبب القوى الفوضوية التي تراكمت أو كانت نتيجة للأزمات في النظام العالمي: أي الحروب وقصور عرض العمل.[١١٦] وأخيرا، جاء عدد أقل من هؤلاء السود - ولكن من المؤكد أنهم كانوا الأكثر بروزا - إلى

العواصم الغربية لمتابعة مساراتهم في الرياضة والترفيه، وهي المسارات التي من المؤكد أنها كانت محدودة، إن لم تكن محددة تماما في بلادهم الأصلية.(١١٧) وفي بعض الأحيان، كان أعضاء نخبة المفكرين السود الذين كانوا يقيمون في بريطانيا يعملون كوسطاء للعمال السود في العاصمة والمستعمرات. وكأطباء - مثل بيتر ميلارد (جويانا البريطانية) - كانوا يميلون إلى مراعاة احتياجات الطبقات العاملة من السود والبيض في المعازل الصناعية؛ وكمحامين - مثل ويليامز وليري قنسطنطين - غالبا ما كانوا يعملون وكلاء قانونين للاستعماريين، أو كانوا نشطاء في الحقوق المدنية والاجتماعية.(١١٨) وهناك آخرون - مثل ماكونين في مانشستر، وصمويل أوبوبا ("سام أوكوه") و"جوكا" في ليفربول - افتتحوا مطاعم ونوادي رقص للطلاب والبحارة والعمال المهاجرين السود والبيض من المستعمرات. وهناك آخرون - مثل إدوارد سانكي الذي أصبح لاحقا رجل أعمال نيجيري - كانوا يعملون كمحررين ومستشارين شخصيين.(١١٩) لقد كانت بريطانيا بمثابة "مركز الجذب".(١٢٠) وكانت مصدر السلطة بالنسبة للإمبراطورية، وكانت أعلى جهة للاستئناف ضد انتهاكات السياسات والسلطات الاستعمارية المتعنتة أحيانا. وكانت بمثابة المقر المتصور ببهجة باستمرار في النصوص الأدبية والتاريخية المستخدمة في "مدارس المستعمرات" التي تحيط بالإمبراطورية، وحيث يمكن توسيع التحصيل الفكري والمهني، وتوقع السماح بالوصول إلى التراث الصحيح. أي إن إنجلترا كانت باختصار المقر الطبيعي لهذه الطبقة الوسطى البريطانية، وإن كانت سوداء، والمحبطة في ديارها لأن الكثيرين منهم اعترفوا بوجود "كيانين لإنجلترا - إنجلترا المستعمرات، وإنجلترا

العاصمة".[١٢١] وكانوا يعرفون أن الأولى كانت محاصرة بالحدود شبه الطائفية للنظام العنصري؛ بينما كانوا يعتقدون أن الثانية كانت متفتحة وعادلة وتقوم على الجدارة.

وكان قليلون فقط من بينهم قد جاؤوا إلى بريطانيا لأغرض سياسية صريحة. وكان ماكونين وبادمور من بينهم، ولكن آخرين مثل ويليامز الذي سبقهما، وجيمس الذي عاصرهما، حققوا هذه الأغراض بينما كانوا يعيشون في بريطانيا. حيث ساعدا معا على تكوين ذلك الجيل من المفكرين السود الذين افترضوا أو ربما أدركوا – في مرحلتهم التاريخية – أن مشروع مناهضة الإمبريالية يجب أن يكون متمركزا في العاصمة. ولكن بعد عصرهم، ونتيجة لأعمالهم، عاد التحرر من الاستعمار وتحرير السود إلى أراضيهم الأصلية.

وقد وصل ماكونين لأول مرة إلى بريطانيا في ١٩٣٥. وعاد بعد ذلك بسنتين، وواصل الإقامة لمدة ٢٠ سنة. وكان من دعاة الرابطة الأفريقية عندما وصل، واستمر كذلك، وكان يستحق أن يذكر مع دو بويز، كوامي نكروما، وبادمور في تلك الحركة. وفي الواقع، فقد كان أكثر مسئولية من أي شخص آخر عن لم شمل الحركة في مانشستر في ١٩٤٥ للمؤتمر الخامس للرابطة الأفريقية – وهي المرة الأخيرة التي التقى الكثيرون منهم فيها كأيديولوجيين بلا سلطة.[١٢٢] وكناشر، كان ماكونين أول من نشر عمل إيريك ويليامز، ونشر بعض كتابات كينياتا وبادمور أيضا.[١٢٣] فبالنسبة إلى ماكونين – الذي عاش لفترة في الولايات المتحدة – كان مركز الإمبراطورية البريطانية يمثل منبرا مهما له. حيث كشف التناقض بين تحرريتها وتحرر

مجتمعه في جويانا البريطانية. ولم يستغرق الأمر منه طويلا للتوصل إلى الاعتقاد بأن الراديكاليين بالمستعمرات يستطيعون الاعتماد على التراث البريطاني في الخطاب الحر والصحافة الحرة في هجومهم على الإمبراطورية.

"كيف كانت الأمور بالنسبة إلى رجل أسود في بريطانيا في الثلاثينيات؟ من المؤكد أننا لم نكن أثرياء؛ بعيدا عنها. ولكننا كنا سعداء بصفة عامة في أماكننا - وذلك لمجرد معرفة أننا كنا نتحدى واحدة من أعظم الإمبراطوريات في العالم. ولنتخيل ماذا كان يعني لنا أن نذهب إلى حديقة هايد بارك لنتحدث إلى حشد من الناس الذين كانوا يعتبرون سادتنا، وأن نخبرهم مباشرة بما كنا نشعر به تجاه إمبراطوريتهم وتجاههم... وأن نكتب أية ورقة دعاية نريدها؛ وأن نلقى خطبا حماسية؛ كل هذا ونحن نعرف تماما أنه بمجرد العودة إلى المستعمرات فإن مجرد قول "الله محبة" يمكن أن يثير السلطات لملاحقتك".[١٢٤]

وكان ماكونين مناهضا للشيوعية طوال حياته، وكان هو الرجل الذي استطاع أن يقنع إخوته: "إذا كنتم مهتمين بالشيوعية، فلتشتروا الكتاب.... ولا تنضموا للنادي".[١٢٥] وكان يقدر "المساواة" في الحياة السياسية البريطانية، والتي تحجم المجموعات القومية وتلغي "مشكلة الزنوج" التي اعتبرها متفشية في أمريكا.

"كان الهنود الغربيون القليلون، أو مواطنو غرب أفريقيا، أو الصوماليون، الذين عملوا في الموانئ أو في لندن، يعيشون في ظروف مرعبة طبعا، ولكنها لم تكن تختلف عنها بالنسبة إلى عمال المناجم في ويلز،

أو المنطقة المزرية لأكواخ جلاسجو.... لقد كنا قادرين على رؤية العامل، وكفاح البروليتاريا بصورة أكثر وضوحا منها عبر الأطلنطي".(١٢٦)

أما الأكثر أهمية بالنسبة له، فهو أن نفس نوع التضامن كان ينطبق على السود أيضا. إذ كان يعتقد أنه نظرا لأن السود كانوا قليلين في لندن، فإن القرابة كانت تعلو على الطبقة. وعلى عكس أمريكا - حيث أصبحت الطبقة العاملة الحضرية الطموحة السوداء مغتربة عن أغلبية السود من الطبقة العاملة - فإن الذين كانوا في بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية شكلوا أخوية مستجيبة. وعندما أصبح بعضهم في إنجلترا مشوشا، "قدمنا لهم المال لدفع تكاليف العودة إلى الديار، بدلا من وصمهم بالعار".(١٢٧) وكان "اتحاد الشعب الملون" الذي أسسه هارولد مودي، والأعضاء المختلفون في اليسار الراديكالي، جزءًا من شبكة الخدمات هذه. ومع ذلك، كان يبدو أن السمة المميزة الجوهرية لإنجلترا لدى ماكونين كانت نتيجة الإهمال الإمبريالي. فبينما كانت الطبقات الحاكمة في بريطانيا تسيطر على المجتمع بفضل قدر من الفطنة، استمرت الآلية الأكثر وحشية للسيطرة في المستعمرات. ومن ثم فإن السود الذين عاشوا الرحلة بين هذين النقيضين قد تغيروا تماما، وهنا يقول ماكونين:

"عندما تنظر إلى نتائج هؤلاء الأفارقة الذين عاشوا في إنجلترا، لن تكون مخطئا في القول بأن إنجلترا هي التي قضت على إمبراطوريتها الاستعمارية بنفسها. وذلك بمعنى أنها سمحت لهؤلاء السود بأن يشعروا بالتناقض بين الحرية في العاصمة والرق في المستعمرات".(١٢٨)

ويبدو أن بادمور كان يشارك ماكونين في حماسه للعاصمة، على الرغم من معارضته الشديدة للإمبريالية البريطانية. فقد كان متأثرا أيضا بالتقاليد

التحررية لما كان يعتبره "ديمقراطية البرجوازية" باعتباره ماركسيا. وقد قيل لنا إن نفس هذا الرجل الذي قدم شرحا تفصيليا للاستغلال الاستعماري في ١٩٣١، وذلك في فكرتين عن "الأعمال الدموية"، و"نفاق" الإمبراطورية في أفريقيا وجزر الهند الغربية (في "حياة وكفاح الكادحين الزنوج") كان قادرا أيضا على أن يدعو ماكونين بإعجاب شديد إلى القول:

"إن رجال الأمن يعرفون أننا هنا، وقد جاؤوا إلى مكاتبنا زاعمين أنهم يشترون الكتب أو المجلات، وعندما نعود أحيانا من رحلة إلى روسيا، فإنهم يحتجزوننا بعد عبور القناة. ولكن يمكن أن تمزح معهم وتقول، "لقد عبرنا توا لنحصل على بعض الذهب الروسي، وسوف نعود لإثراء البلد القديم". وبدلا من أن يعاملوك بطريقة وخز الماشية الأمريكية، فإنهم سيضحكون".[١٢٩]

وبالطبع كان كل هذا وهما. ففي الثلاثينيات، لم يكن هناك سوى القليل من الأشياء التي تعتبر طريفة أو تحررية في السياسة البريطانية، أو التي تعتبر كريمة فيما يتعلق بالدولة البريطانية. وبينما كان صحيحا أن "الجبهة الشعبية" وحلفاءها في الدولية الثالثة ازدهرت في جزء صغير من المجتمع البريطاني، وأن الكتاب والفنانين الراديكاليين استطاعوا إنتاج صحف أدبية وسياسية مثل "العاصفة"، "يسار كمبردج"، "مجلة اليسار"، "النشر الحديث"، وغيرها، وأنه أمكن نشر الصحف الأسبوعية مثل التريبيون أو "الأسبوع" التي أسسها كلود كوكبيرن، وأنه أمكن تنظيم "نادي كتب اليسار"، وأن المجموعات المسرحية مثل "مسرح الوحدة" و"مسرح المجموعة" كانت تستطيع الأداء، وأن الحشود الجماهيرية التي خرجت في مسيرة الاعتراض على البطالة

(١٩٣٦) استطاعت التظاهر، وأن الآلاف تطوعوا للفرقة الدولية في الحرب الأهلية الإسبانية (يعتقد أن حوالي ٢٧٦٢ قد ذهبوا إلى إسبانيا، حيث جرح منهم ١٧٦٢، وقتل منهم ٥٤٣)،[١٣٠] كان صحيحا أيضا أن السلطة في المجتمع البريطاني كانت تستخدم لأشياء أخرى. ففي الشوارع، مارس عشرات الآلاف من الفاشيين المنتمين إلى "الاتحاد البريطاني"، التابع للسير أوزوالد موسلي، عنفا بدنيا قاسيا ضد مناهضي الفاشية، ودمروا المتاجر كما حدث للمتاجر التي يملكها اليهود في طريق مايل إيند في لندن.[١٣١] وتتذكر جوليان سيمونز أنه: "من المؤكد أن قوة الشرطة التي لم تكن متعاطفة أبدا مع الحركات اليسارية، كانت تبدو دائما وكأنها تتولى مهمة حماية الفاشيين من المعارضة".[١٣٢] ولكن الوجوه الرسمية في السياسة البريطانية لم تكن أقل فسادا. ففي ١٩٣٦، وفي مؤتمر أدنبره، قام حزب العمال "بالإعراض عن احتياجات إسبانيا الجمهورية"،[١٣٣] بل إن الحكومة الوطنية انطلقت مبكرا في مسار "محايد" بين الدول الفاشية وضحاياها.[١٣٤] ومع ذلك، لم يكن لدى نفس الدولة أية ميول للحياد عندما كان الأمر يتعلق بإمبراطوريتها. وكان النشطاء السود في بريطانيا في الثلاثينيات يخضعون لنفس "الأساليب العنيفة" - كما يقول الهنود الغربيون - مثل سابقيهم. وكما حدث في العشرينيات، كان محمد على دوس "ملاحقا باستمرار" من جانب قوات الأمن البريطانية MI5، واسكوتلاند يارد، وعملاء "المكتب الاستعماري"،[١١٥] وكان كلود مككاي - المدرج في سجلات الخدمة السرية البريطانية - ممنوعا من العودة إلى جامايكا لعقود بعد السنة الوحيدة (١٩١٩-١٩٢١) التي قضاها في الصحافة الراديكالية في إنجلترا،[١٣٦] وقامت المخابرات البريطانية والمكتب الاستعماري بتسجيل بادمور (في وقت مبكر في ١٩٣١) وسعت إلى تحييد

عمله في أفريقيا.[١٣٧] وفي الكاريبي، وخاصة خلال إضرابات العمـــال فـــي ١٩٣٧-١٩٣٨، تم قمع نشاط السود بلا هوادة. وعنـــدما انـــدلعت الحـــرب العالمية الثانية، تم اعتقال العديد من هؤلاء "المخربين" بلا مبرر.[١٣٨] ولكن وهم الليبرالية الذي تحدث عنه ماكونين وبادمور كان وهما ذاتيا أيضا، وكان جزءًا من سوء فهم كبير. فبالنسبة إليهما وإلى العديد مـــن زملائهمـــا، فـــإن إنجلترا الثانية، إنجلترا الجديرة بالقصص الرومانسية والتواريخ الإصلاحية، كانت تجسيدا للعمل العادل والتنظيم الأخلاقي العميق. فقد كانت نموذجا وجد أكثر المناهضين للإمبريالية التزاما أنه من الصعب هزه. بـــل إن العيـــوب الكبيرة والعنصرية التي واجهوها في العاصمة لم تغير موقفهم. فقـــد كـــان الأمر يبدو كما لو أنهم قبلوا كرجال إنجليز سود أن يصححوا أخطاء الوطن الأم كجزء من رسالتهم السياسية. وكان جيمس من بينهم جميعا الأقرب إلى فهم ملابسات ذلك. فلا شك في أن فهمه للمجتمع الإنجليزي هو الـــذي زوده برؤيته إلى الإمبريالية البريطانية والليبرالية البريطانية واليسار البريطـــاني. وعلى هذا الأساس، استطاع أن يتخطى التوجه الاقتـــصادي لـــدى إنجلـــز وماركس والكثيرين من الماركسيين البريطانيين المعاصرين.[١٣٩]

وربما يتمثل أحد أسباب رد فعل جـــيمس الأقـــل ابتهاجـــا بـــالمجتمع الإنجليزي في أن دخوله إلى البلاد كان مختلفا كثيرا عن دخـــول مـــاكونين وبادمور. إذ إن الحياة في لانكشاير مع ليري ونورما قنسطنطين، والبعيـــدة ماديا عن المواقع التقليدية لراديكالية الطبقة الوسطى والـــسياسة المنظمـــة، غمرت جيمس بالعمل الأكثر تأملا والسياسة العادية. وعن طريق قنسطنطين، استطاع الوصول إلى مانشستر جارديان، ثم حل سريعا محل نيفي كاردوس، مراسل الكريكيت في الصحيفة. ولكن اهتماماته الكبرى المتمثلة في: التعاون

مع قنسطنطين في تأليف "أنا والكريكيت"، والمحاضرات العامة عن جزر الهند الغربية، وتحرير دورية "حياة الكابتن كبرياني"، زوده بفرصة قراءة لينين وستالين وتروتسكي، لمراجعة أكذوبة سياسة العمل في بريطانيا، ومقابلة العمال البريطانيين من أجل المناقشات البعيدة عن الظروف المثيرة. وفي الواقع، فقد صرح لاحقا بأن تطور موقفه النقدي المتعلق بحزب العمال (الذي ارتبط به كقومي "كبرياني") كان يرجع إلى المناقشات مع عمال لانكشاير، والتي سببت ضعف الثقة في قيادة الحزبن وهنا يقول جيمس: "حصلت على أفكاري العمالية والاشتراكية من الكتب، ولذلك كانت مجردة نوعا ما. وكان هؤلاء العمال الساخرون بصورة طريفة بمثابة الإلهام بالنسبة لي، وجعلوني أعيش الواقع على الأرض".[١٤٠] ومن الواضح أن مشاركتهم في خيبة الأمل في حزب العمال جعلته يجد بديلا سريعا:

"إنني أقرا "تاريخ الثورة الروسية" [تروتسكي] لأنني كنت مهتما جدا بالتاريخ، ويبدو أن هذا الكتاب يقدم بعض التحليل للمجتمع الحديث. ومع نهاية قراءة الكتاب، ربيع ١٩٣٤، أصبحت من أتباع تروتسكي – من الناحية الفكرية أولا ثم انضممت إليهم لاحقا، وكان واضحا في ذهني أنني لن أكون من أتباع ستالين".[١٤١]

وبناء على هذه القاعدة والأيديولوجية السياسية، قام بكتابة "الثورة العالمية: ١٩١٧-١٩٣٦". و"صعود وسقوط الدولية الشيوعية" في ١٩٣٧، وترجمة كتاب بوريس سوفارين "ستالين" في ١٩٣٨.[١٤٢] ونظرا لأنه كان تروتسكيا، فقد ألف "اليعاقبة السود"، وهو العمل الذي اشتهر به. وكان هذا الكتاب الذي نشر لأول مرة في ١٩٣٨ لا يزال يمثل دراسة جادة وضخمة

لثورتي فرنسا وهاييتي وأهميتهما لإلغاء الرق البريطاني، وفي نفس الوقت كان يمثل تحليلا للعلاقة بين الجماهير والقيادة، ومحاولة لتأسيس التراث التاريخي للكفاح الثوري الأفريقي. وفي نفس هذا المجلد، لا يصعب اكتشاف وجود نقد للستالينية، والتعبير عن مفهوم تروتسكي في الثورة المستمرة، وتوضيح لنظرية لينين في دكتاتورية البروليتاريا - وكل هذا مبني على تحديد ماركس الدقيق لتراكم رأس المال الأولي، أي الإمبريالي. وكان هذا العمل معروفا منذ البداية بأنه عمل استثنائي. ولذلك سنعود إليه بعد قليل.

ومع ذلك، حدث تحول آخر في الوعي، مما زود جيمس برؤية جديدة للمجتمع الإنجليزي. حيث ظهر هذا التطور في عمله "وراء الحدود"، الذي يمثل أروع بيانات جيمس عن الإمبريالية البريطانية وتطور المجتمع البرجوازي الإنجليزي. حيث نُشر في ١٩٦٣، وكان نوعا من دراسة السيرة الذاتية - وأطلقت عليه سيلفيا وينتر "نظام السيرة الاجتماعية " للعبة الكريكيت. حيث كشف جيمس هنا عن كيفية دخوله إلى المجتمع الإنجليزي كعضو مناسب في الطبقة الوسطى الإنجليزية، وتشبعه بنظام المدارس العامة. حيث كانت ذكرياته المتعلقة بكونه شابا أسود "بالكلية الملكية" في ترينيداد تميز العقلانية والأخلاقيات التي تربى عليها هو وزملاؤه في المستعمرات:

"لم يكن النظام داخل الفصل ناجحا كثيرا. فقد كان التسلل محظورا، ولكننا كنا نكذب ونغش بدون أي إحساس بالخجل. وأنا أعرف أنني فعلت هذا....

ولكن بمجرد الوصول إلى ملعب كرة القدم أو الكريكيت، وخاصة ملعب الكريكيت، كان كل شيء يتغير.... فقد تعلمنا طاعة قرارات الحكم بدون

مناقشة، مهما كانت غير منطقية. وتعلمنا أن نلعب في فريق، مما يعني إخضاع الميول الذاتية، وحتى المصالح الذاتية، للصالح العام. وكنا نلتزم بعدم الشكوى من سوء الحظ. ولا نستنكر الفشل، ولكننا كنا نقول دائما وبسهولة "محاولة جيدة"، أو "حظ سيئ". وكنا كرماء مع المنافسين، وكنا نهنئهم على الانتصارات، حتى عندما كنا نعرف أنهم لا يستحقونها.... فقد كنا نفعل ما يجب فعله في الملعب".(١٤٤)

وكتب أن لعبة الكريكيت أصبحت أحد اهتماماته. حيث كان يلعبها ويقرأ عنها، وكما ذكرنا فقد وصل إلى حد الكتابة عنها في وقت ما. حيث سيطرت هذه اللعبة على شبابه بطريقة ما؛ إذ كانت الوسيلة لدخوله إلى الطبقة الوسطى الملونة في الجزيرة؛ وساعدته على اختيار أصدقائه الشخصيين؛ وأسست مفاهيمه عن الرجولة والأحكام التي يكونها عن الرجال الآخرين؛ وفي الواقع، كانت هذه اللعبة السبب في وصوله إلى إنجلترا عن طريق قنسطنطين. وكان هوسه الآخر يتمثل في الأدب. وكان هذا نابعا أيضا من البرجوازية الإنجليزية. فبالنسبة لجيمس، بدأ هذا الهوس مع ويليام ميكبيس ثاكيراي: "كنت أضحك بلا توقف على نكات وسخرية واستهزاء ثاكيراي من الأرستقراطية والمنتمين للطبقات العليا. فكان ثاكيراي، وليس ماركس، هو الذي يتحمل المسئولية الكبرى عني".(١٤٥)

"كان هناك بعد ثاكيراي كل من ديكنز، جورج إليوت، وكل مجموعة الروائيين الإنجليز. وجاء بعدهم الشعراء مثل ماتيو آرنولد، شيلي، كيتس وبيرون؛ ميلتون وسبنسر.... واكتشفت النقد على يد: هازليت، لامب، كوليردج، سانتسبوري، وجزس.... ودفعني بوركه إلى الخطابة لدى: كاننج، لورد بروجهام، جون برايت".(١٤٦)

ولكن الكريكيت والأدب الإنجليزي كانا مكملين لبعضهما. حيث كان كل منهما - كما اتضح له في إنجلترا - بمثابة تعبير ثقافي وأيديولوجي عن نفس النظام الاجتماعي، أي النظام البرجوازي القائم على الرأسمالية، والذي نظمته في القرن التاسع عشر فلسفة توماس آرنولد في المدارس العامـــة، والـــذي درسه توماس هوجز بالإقناع الأدبي، والذي تجسد فـــي مـــسرحية جـــريس "لاعب الكريكيت".(١٤٧) وتحكي هذه اللعبة ومكانتها في التاريخ الاجتمـــاعي لإنجلترا الرواية كلها على النحو التالي:

"لقد ساهم في ظهور هذه اللعبة كل مزارع مـــاهر، ومراقـــب صـــيد، وعامل متجول، وعمال مناجم الفحم في نوتنجهام، وعمال مصانع يوركشاير. فقد ساهم في ظهورها كل هؤلاء الرجال، وكل من له يد وعين. حيث ساهم الشباب النبلاء الأثرياء والعاطلون، وبعض الرجال المهمين فـــي المدينـــة، بالمال والتنظيم والنفوذ.

وكانت الطبقة التي يبدو أنها الأقل إسهاما في هذه اللعبة هي الطبقة التي قدر لها أن تتولى هذه اللعبة وتحولها إلى مؤسسة وطنية. وكانت هذه هـــي الطبقة الوسطى الفيكتورية الصلبة. حيث كانت تقوم بتجميع الثروة. وحققت أول انتصار سياسي لها في "وثيقة الإصلاح" في ١٨٣٢، ثم حققت انتصارها الثاني "بإلغاء قوانين الحبوب الزراعية" في ١٨٤٦. وكانـــت تمـــضي فـــي طريقها. وكانت أكثر بساطة من معظم القادمين الجـــدد.... حيـــث كانـــت الطبقات الوسطى الفيكتورية تقرا لديكنز، وتحب ديكنز، وتعبد ديكنز، وهو ما حدث مع كتاب قليلين قبله أو بعده. وهناك افتراض جرىء جدا يتمثـــل فـــي أنهم لم يفهموا ما كان ديكنز يقوله.... فقد كان ديكنز يرى إنجلترا الفيكتورية

دائما بعيون ما قبل الفيكتورية. وكانت إنجلترا المثالية لديه تتمثل في الأدب الإنجليزي الذي قدمه وليام هازليت William Hazlitt والشخصيات التي جاءت في رواية ديكنز الشهيرة "أوراق وبكويك The Pickwick Papers". وعلى الرغم من أنه كان عبقريا، فإن الفيكتوريين كانوا ثاقبي الفكر أكثر منه. فلم يكونوا ينظرون للوراء. وكانوا يريدون ثقافة وطريقة حياة خاصة بهم. ووجدوا أن ذلك يتمثل بالنسبة لهم في أعمال ثلاثة رجال: أولا، لدى توماس آرنولد، لاعب الركبي الشهير؛ وثانيا، في توماس هوج، مؤلف "أيام دراسة توم براون"؛ وأخيرا، لدى جريس. حيث قام هؤلاء الرجال الثلاثة بتشكيل الفيكتورية أكثر من غيرهم، ويمثل إغفال جريس إساءة فهم للرجلين الآخرين".[١٤٨]

لقد بدأت لعبتا الكريكيت وكرة القدم كلعبتين منظمتين كتعبير عن "المواهب الفنية" لدى الطبقات الريفية والحرفية الإنجليزية. ولو كان متاحا لجيمس ما كان يصوغه طومسون في نفس الوقت في "تكوين الطبقة العاملة الإنجليزية" (والذي يمكن إساءة فهمه بسبب التزامن، لو لم يدرك المرء أن كلا من جيمس وطومسون كانا مؤرخين ماركسيين؛ وكان كلاهما يستجيب لتجربة معاصرة في الخداع السياسي الصريح؛ فبالنسبة إلى جيمس، كانت هزيمته على يدي إيريك ويليامز عقب عودته إلى ترينيداد،[١٤٩]، وبالنسبة إلى طومسون، كانت استقالته من الحزب الشيوعي البريطاني الذي اعتبره مغيبا معنويا وسياسيا بسبب الستالينية؛[١٥٠] وكان كلاهما بتعبير طومسون "يحاولان الدفاع وإعادة الدراسة والتوسع في التراث الماركسي في وقت كارثة سياسية ونظرية")[١٥١]. ولم يكن لديه سبب للتردد في إرجاع ظهور هاتين اللعبتين

المنظمتين إلى عملية تكوين الطبقة العاملة في إنجلترا. وكانت هاتان اللعبتان، وخاصة تنظيمهما وروحهما قبل الصناعية "غير الملوثة بأي فساد خطيـــر"، تمثلان أحد جوانب الإصلاح الثقافي الذي قامت به الطبقات العاملة كاستجابة للعمليات التاريخية التي سببتها الرأسمالية مـــن الاســتبعاد والتجريـــد مـــن الممتلكات وتعميق الاغتراب. ومع ذلك، استطاع جيمس أن يشير فقط إلـــى إدراك هذه الأهمية: "عندما يكون الناس العاديون خارج العمل، فإن أهم مـــا يريدونه هو ممارسة الرياضة والألعاب المنظمة".(١٥٢) وقد جـــذب المنطـــق الانعكاسي لهذا التطور الخاص انتباهه في مكان آخر. حيث ركز تحليله على ما أصبحت تشير إليه هاتان اللعبتان بالنسبة للطبقات الحاكمة، وهي الطبقات التي أدت قدراتها في المجالات الأدبية والتفصيل الفلسفي إلى تقـــديم الكثيـــر لتشكيل وعيه الخاص.

وبالنسبة لجيمس، كانت نقطة البداية لفهم الطبقات الحاكمة الإنجليزيـــة وهيمنتها على الطبقات العاملة في الداخل والخــــارج، تتمثـــل فـــي التـــشابه التاريخي الذي اكتشفه بين اليونان القديمة وبريطانيا الإمبريالية في القـــرنين التاسع عشر والعشرين. وكان ذلك يمثل نقطة بداية طبيعية بالنسبة له، فهـــو بريطاني و"نحن الإغريق والرومان".(١٥٣) حيث تعرف في هذين المجتمعـــين على العلاقة التي جمعت بين السلطة والرياضات المنظمة؛ وهـــي الهـــوس المتعصب للألعاب الرياضية، بالإضافة (كما كتب عن الإغريق) إلى تأكيـــد "الوحدة القومية للحضارة الإغريقية والوعي بأنفسهم كمستقلين عن البرابـــرة الذين يحيطون بهم".(١٥٤)

"يتمثل أول تاريخ مسجل في التاريخ الأوروبي في سـنة ٧٧٦ ق. م. وهو تاريخ الألعاب الأوليمبية الأولى. حيث كانت الولايات الإغريقية تـشن حربا لا تتوقف ضد بعضها. ولكن عندما اقتربت المباريات التي تجري كل أربع سنوات، أعلنت هدنة قومية، وتجمع المتنافسون المختلفون في أوليمبيا، وأقيمت المباريات، وعندما انتهت المباريات اندلعت الحروب ثانية.... حيث ذهب المبعوثون من أوليمبيا إلى كل مدينة إغريقية وإلى كل مستعمرة (حتى إيطاليا وصقلية وأفريقيا ومصر ومرسـيليا) حـاملين الـدعوات، وكانـت المجتمعات ترسل ممثليها ومندوبيها الرسميين. وتجمع أربعون ألف شخص، بما في ذلك الأعضاء المتميزين في المجتمع الإغريقي".[١٥٥]

ولكن جيمس أصر على أن المشهد كله والتشابه الظاهر والخادع مـع المجتمع البريطاني يحتاج إلى تحليل أعمق. إذ إن مثل هذا التحليل سيكـشف عن الجدلية البسيطة بين الثقافة وممارسة السيطرة:

"لم تدخل الألعاب إلى اليونان عـن طريـق الديمقراطيـة الـشعبية. ففي الحقيقة، عندما وصلت الديمقراطية إلى السلطة رفعت نوعا آخـر مـن الاحتفال [الدراما المأساوية] إلى موقع الصدارة، واحتلت الألعـاب المرتبـة التالية بعدها سريعا.

فقد كانت الألعـاب الأوليمبيـة احتفـالا للأرسـتقراطية الإقطاعيـة والبرجوازية في اليونان. وكانت البرجوازية فقط هي التـي لـديها المـال وتستطيع تحمل تكاليف المتنافسين.... وكانت الأسر الأرستقراطية فقط هـي التي تتمتع بمكانة للمشاركة في مسابقات العربات".[١٥٦]

وفي إنجلترا، كانت الرياضة المنظمة ظاهرة شعبية، وكيانا تلقائيا وعاما. وبعد ذلك، كما في حالة الأرض والعمل، استولت عليها البرجوازية الصاعدة لأغراضها الخاصة. ونظرا لأنها كانت غير منظمة وسوقية وتفتقد الثقة بالذات،[١٥٧] شعرت بأن اعتمادها على القوة المجردة في أداء دورها في التجريد والاستغلال والإمبريالية سوف يدمرها في النهاية، إذا لم تستطع أن ترسخ حقها في الحكم لصالحها: "فقد أرادت ثقافة، وطريقة حياة خاصة بها".

" آمن آرنولد بالدين وآمن بالشخصية السوية. وكان دور المثقفين أقل قوة في مفاهيمه.... وقبلت الطبقات الحاكمة في إنجلترا أهدافه، وقبلت أيضا أساليبه بصفة عامة. ولكنها بفطرتها السليمة فصلت عنها تنمية الثقافة ووضعت مكانها الألعاب المنظمة، وكانت الكريكيت في صميم المناهج".[١٥٨]

وكانت المدرسة العامة ونظمها المتعلقة بالألعاب المنظمة والرياضة توفر لهم طريقة حياة. ويؤكد ذلك جون راي الذي كان مدير مدرسة:

"كانت الرياضة ظاهرة معقدة، وكان في صميمها اعتقاد بأن ألعاب الفرق الإلزامية المتنافسة تحدد وتطور الخصائص التي كانت مرغوبة في حد ذاتها، وضرورية من أجل "الكفاح الحثيث الطويل في الحياة".... وطوال حوالي ستين سنة، من ١٨٥٣ إلى ١٩١٤، ساد هذا الاعتقاد ليس فقط في نظام المدارس العامة فحسب، ولكن حتى في مجالات المجتمع البريطاني والإمبريالي التي لعب فيها رجال المدارس العامة أدوارا رائدة. ...

وبحلول ١٩٠٠، كان المبرر الأصلي للألعاب المنظمة قد نسي منذ فترة طويلة، وطورت الرياضة مبررها الأيديولوجي الخاص بها. ولم تقتصر

الرياضة على مجرد تأجيل المعاناة الذهنية للجنس. ولكنها علمت الأخلاقيات أيضا. حيث طورت الرجولة والقوة التي لا يمكن إدارة الإمبراطورية المتوسعة بدونها. وشجعت على البطولة لأن الولاء الشديد للبيت والمدرسة كان يتوجه إلى النظام والبلاد".(١٥٩)

وعلى الرغم من أنه يمكن القول إن: "الطبقة الحاكمة استغلت الرياضة في تنظيم وتدريب نفسها من أجل الممارسة الفعالة والسلسة للسلطة"،(١٦٠) يعتقد جيمس أن مثل هذا التفسير يعتبر ميكانيكيا جدا، ويمثل تلاعبا ذكيا، وترجمة حرفية دقيقة لما كان يريده آرنولد. وكان التعبير النفسي عن البرجوازية الإنجليزية الصاعدة مستمدا من المواد التاريخية والثقافية التي ظهرت داخلها. وكان جيمس يفضل أن يرى أشكال هذه الهيمنة مستمدة من مرحلة الثقافة القومية؛ وتجديد الحياة الإنجليزية اعتمادا على الماضي البيوريتاني المنتشر بصورة كافية ليؤثر على شعوب أخرى بعيدة عن أصولها: "يشير هذا - كما في أية حركة قومية عميقة - إلى أنه يحتوي عناصر عالمية تتخطى حدود الأمم الأصلية".(١٦١) ويقول أيضا إنه سيكون بمثابة الإسهام الوحيد الذي قدمه التعليم الإنجليزي للأفكار التعليمية العامة في الحضارة الغربية. ولكنه لم يكن متأكدا (ولا واضحا) كما يمكن أن يكون في صحبة طومسون من العملية التي سماها "الحضارة الحديثة". إلا أنه كشف عن إحدى نتائجها. فأولا، تطلبت البرجوازية الحاكمة الإنجليزية نظاما لنفسها، وذلك كمبرر لوجودها وإعادة إنتاجها. ووجدت ضالتها في السلع الثقافية التي تنتجها الطبقات العاملة. وكان ما استخرجته أو جسدته في الرياضة يتمثل في قواعد الطبقة، القيم الأخلاقية، والعقلانية النفعية. وأصبح ما شاركته في المشهد

الاجتماعي للمباريات جزءًا من الرباط الذي يجمع النظم الاجتماعية المتعددة في رسالة إمبريالية متطابقة - وهي الرسالة التي يمكن أن تشمل حتى هؤلاء السكان المحليين في الأطراف، والذين يمكن أن تصل مطالبتهم بالهوية الإنجليزية إلى مستوى الخطأ المأساوي. وفي غياب الأدلة الأكثر وضوحا، يجب أن نفترض أن جيمس اكتشف هذا الخطأ في إنجلترا قبل ثلاثين سنة من جلوسه لكتابة "وراء الحدود".

وعندما ظهر جيمس ومعاصروه في العاصمة في العشرينيات والثلاثينيات، كانت إنجلترا التي غرق خيالهم فيها قد رحلت. ففي الواقع، وباستثناء الخيالات العريضة التي صنعتها الطبقات الحاكمة ومفكروها، فإنها ربما لم تكن موجودة أصلا. فمن بين العناصر التي حققت اختلافا حقيقيا، كان هناك انفصال الطبقات العاملة عن ارتباطها بالبرجوازية والنبالة. فقد كان العمال الإنجليز يظهرون بشدة أنهم لم يعودوا مقتنعين بأن مستقبلهم ومستقبل الطبقات الحاكمة كانا متطابقين. إذ إن خداع الرأسمالية لهم - الذي اتضح من ملايين العاطلين - جعل الكثيرين منهم حاليا لم يعودوا راغبين في خوض الحروب الإمبريالية. وبحلول منتصف الثلاثينيات، كان يمكن معرفة مصالحهم المعلنة من "مسيرة الجوع Hunger March" في ١٩٣٤، و"مسيرة الاعتراض على البطالة Jarrow Crusade" في ١٩٣٦؛ والتي تبلورت في جماعات شعبية مكافحة مثل "حركة العمال العاطلين الوطنية"، والتي كانت أعدادها تزيد على أرقام أعضاء الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى CPGB (في سنة واحدة، ١٩٣٥-١٩٣٦، ارتفع عدد أعضاء الحزب من ٧٠٠٠ إلى ١١٥٠٠).[١٦٢] إذ إن الأزمات المادية للرأسمالية العالمية والضعف السياسي للطبقات الحاكمة،

على الرغم من الخداع المتكرر من قيادات حزب العمـــال وحركـــة النقابـــات العمالية، وفرت الأساس لتجديد حركة الطبقـــة العاملـــة الرســـمية وجوانبهـــا الانتخابية. فقد توسعت عضوية نقابات العمال،(١٦٣) وحقق حـــزب العمـــال - الذي كان في ورطة في ١٩٣١ - مكاسب (كمـــا فعـــل الحـــزب الـــشيوعي لبريطانيا العظمى) في انتخابـــات المحليـــات فـــي ١٩٣٢، ١٩٣٣، و١٩٣٤، والانتخابات العامة في ١٩٣٥.(١٦٤) ومع ذلك، لم يكن اليسار المنظم مـــستفيدا كبيرا من ذلك.

وبالنسبة إلى بادمور وماكونين وزملائهما الأفارقة - والاس جونسون، وكينياتا في اليسار المناهض للإمبريالية - كان هناك اختلاف آخر. فحتـــى جيمس أدرك أن خدعة الإمبراطورية كأخوية عالمية - تـــديرها الـــسلالات المتقدمة بصورة خيرية لصالح السلالات المتخلفة - كانت في أحسن الأحوال بعيدة عن الحقائق التي يواجهها. إذ إن إنجلترا كانت تثير الاحتقـــار ولـــيس الثقة، وذلك بسبب الفقر المدقع الحقير المتوسع باستمرار، والفاشيين "أصحاب مستويات الحياة المتدنية" الذين يرتبطون بقوة بفصائل من الطبقات الحاكمة، ومظاهر العنصرية البشعة (والتي ضحت "لسبب غير مفهوم" ببعض ســـكان المستعمرات الذين كانوا يفخرون بـــأنهم بريطـــانيون)، وضـــعف قـــدراتها السياسية. وأدى التهافت الشديد للخطاب السياسي، والنفاق البيروقراطي، إلى تبديد ما يمكن أن يتوقعه المرء من "التراث الإنجليزي"، أو حتى مـــن عـــدو محترم. فلم يكن الأمر يقتـــصر علـــى تـــصرفات وطموحـــات الإداريـــين الاستعماريين، ولكنها كانت مظاهر واضحة في البلد الأم ذاتها. وفي الوقـــت الذي كان هناك تبلور واضح ورؤية هادفة لدى الحركـــات الثوريـــة بـــين الشعوب "المتخلفة" في الهند وسيلان وأفريقيا، وقامـــت الطبقـــات اليابانيـــة

الحاكمة باحتضان إمبراطورية إقليمية ضخمة، وكان الـروس يحتـضنون إمبراطورية تبحث عن هدف للاستمرار والبقاء، أظهر اليسار في بريطانيـا تفككا حزبيا شديدا، و"تملقا" أيديولوجيا، وسياسة بعيدة بصورة غير مـشرفة عن الطبقات العاملة وكفاحها. وكما يعتقد بادمور، فإن الحركـة الـشيوعية العالمية التي تخلى عنها أقوى حلفائها، ونفرت بشدة من ازدواجية السياسات الإمبريالية، تحولت إلى التراث الراديكالي للسود.

نظرية اليعاقبة السود

كانت ثلاثينيات القرن العشرين ثرية بالدراما السياسية التي كان يمكـن أن ترسخ المفكرين الراديكاليين السود في تراثهم التاريخي. إذ إن مشاركتهم في خطاب الكفاح في اليسار الأوروبي الغربي، والتـي أثـارت تـصورات الطبقات الدنيا الثورية الصاعدة لذاتها، كان من المنطقي أن تصل إليهم فـي الواقع. لأنه بالمعنى القديم للكلمة، من الذي كان أكثر بروليتاريا من الـسود في النظام الإمبريالي والرأسمالي؟ ولكن كان هناك منطق تاريخي مختلف – وإن لم يكن منفصلا. وقد قرؤوا عمل دو بويز "إعادة بنـاء الـسود"، مـع استعادته لذكريات بريق راديكالية السود في أمريكا في القرن التاسع عـشر، وعرفوا تأثره الواضح بجماهير السود في أوائل القرن العـشرين، والـذين شكلوا جماعات من أتباع شيلمبو **Chilembwes**، وجارفي **Garveys**، والأمـين سنغور **Lamine Senghors**، وسيمون كمبان**Simon Kimbangus**.(١٦٥) ثم انهـار الحاجز في ١٩٣٤-١٩٣٥، عندما اجتاح الجيش الإيطالي الفاشي إثيوبيـا، حيث يتذكر ماكونين:

"من الضروري أن نضع استجابة عالم السود على الحرب الإثيوبية في سياقها، خاصة أنه من السهل ظهور انطباع بأن الرابطة الأفريقية كانت نوعا من نشاط الاحتجاج البسيط - حيث كان عدد قليل من السود يجتمعون بصورة عارضة في مؤتمر ويرسلون بقرارات هنا وهناك. ولكن الأبعاد الحقيقية يمكن التأكد منها فقط من خلال تقدير نوع المساندة الكبيرة التي تمتعت بها إثيوبيا بين السود في كل مكان. فقد كنا مجرد مركز واحد، "أصدقاء إثيوبيا الأفارقة الدوليون"، ولكن هذا العنوان كان دقيقا. حيث انهالت الرسائل على مكتبنا ببساطة من السود في ثلاث قارات يسألون عن المكان الذي يمكنهم التسجيل فيه.... وكان نفس الشيء ينطبق على أفريقيا. فعندما دخل الإيطاليون أديس أبابا، قيل إن أطفال المدارس بكوا في ساحل الذهب....

فقد أظهر هذا للكثيرين من السود في الداخل حقيقة الاستعمار، وكشف طبيعته الحقيقية. حيث استطاعوا رؤية أن قصص ستالين أو تروتسكي، أو صن ياتسن San Yasten، لا بد أن يكون لها نظيرها الأفريقي.... فقد كان من الواضح أن الإمبريالية كانت قوة لا يجب الاستهانة بها، لأنها هنا كانت تهاجم آخر قلاع السود".(١٦٦)

ومع ذلك، كانت هناك اختلافات داخل "أصدقاء إثيوبيا الأفارقة الدوليون"، حول ما كان يجب القيام به. إذ كان ماكونين يعتقد أن "الأمن الجماعي" لعصبة الأمم (التي كانت إيطاليا تنتمي إليها، والذي من المحير أن عضوية إثيوبيا قبلت من خلال إيطاليا) يجب استدعاؤه، مدعيا أنه سيكون بمثابة خرافة ما لم تتوقف إيطاليا الفاشية. ومع ذلك، كان جيمس - الذي رأس "أصدقاء إثيوبيا الأفارقة الدوليون" - مترددا. فنظرا لأنه "اشتراكي

دولي"، فقد قبل موقف "حزب العمال المستقل" المتمثل في أن جل ما كان الرأسماليون البريطانيون والفرنسيون يهتمون به هو استخدام إثيوبيا كذريعة لتدمير منافسيهم.[١٦٧] وكان "الدفاع" عن إثيوبيا قناعا لحرب إمبريالية. وعارض عصبة الأمم والامتيازات (مقابل العقوبات ضد إيطاليا) التي حصل عليها "دبلوماسيوها" من الإمبراطور، فهو ذاته رجعي إقطاعي.[١٦٨] ومع ذلك، ونظرا لكونه رجلا أسود، فقد كانت لديه واجبات أخرى. ومع وجود جارفي في هايد بارك، لشجب موسوليني باعتباره "الهمجي الأكبر في هذا العصر" وحث السود بحيوية على مساندة الحبشة على الرغم من رفض الإمبراطور لتعريف نفسه كرجل أسود،[١٦٩] مع الاستجابة الجماهيرية العالمية بين السود، تحدد موقف جيمس:

"لقد عرضت نفسي من خلال السفارة الإثيوبية هنا للمشاركة في الخدمة تحت إمرة الإمبراطور، عسكريا أو غير ذلك.

وكانت أسبابي لذلك بسيطة. فالاشتراكيون الدوليون في بريطانيا يحاربون الإمبريالية البريطانية لأنه من الواضح أنه من الأنسب فعل ذلك بالمقارنة مثلا بمحاربة الإمبريالية الألمانية. ولكن الرأسمالية الإيطالية تمثل نفس العدو، وإن كانت أبعد قليلا فقط.

وكان أملي أن ألتحق بالجيش. فقد كان ذلك سيمنحني فرصة للاتصال ليس فقط بالجماهير الحبشية والأفارقة الآخرين، ولكن أيضا ستصبح لدى أفضل فرصة ممكنة لطرح قضية الاشتراكية الدولية في الصفوف معهم. واعتقدت أيضا أنني يمكن أن أكون مفيدا في المساعدة على تنظيم الدعاية المناهضة للفاشية بين القوات الإيطالية.

وأخيرا، كنت سأحصل على فرصة ثمينة لاكتساب خبرة عسكرية حقيقية في الميدان الأفريقي، حيث ستندلع واحدة من أشرس الحروب بين الرأسمالية ومناهضيها قبل مرور سنوات كثيرة. ...

ولم أكن أهدف إلى قضاء بقية حياتي في الحبشة، ولكنني مع مراعاة كل الأشياء، اعتقدت ولا زلت أن قضاء سنتين أو ثلاث سنوات هناك كان أمرا جديرا بالمحاولة، في ضوء حقيقة أنني زنجي ومهتم جدا بالثورة الأفريقية".[١٧٠]

ومن الواضح أن جيمس كان يعاني من تناقض. ولكن بحلول أوائل ١٩٣٦، تغير الموقف من تلقاء نفسه في ذلك الوقت: إذ كان احتلال إثيوبيا حقيقة واقعة، وكان الإمبراطور في المنفى في بريطانيا.[١٧١] ولكن الحرب الأهلية الإسبانية اندلعت مع نهاية تلك السنة. وأصبح اليسار الدولي كله في حالة حرب الآن.[١٧٢] وانضم السود من أفريقيا والكاريبي وأمريكا إلى الفرق الدولية للحرب ضد القوى الفاشية لإسبانيا وألمانيا وإيطاليا.[١٧٣] (وحارب بعض السود لصالح الفاشية: الجنود المغاربة، و"قوات العاصفة" التابعة للجنرال فرانكو). ولكن حتى قبل انسحاب الفرق الدولية من إسبانيا في ١٩٣٨-١٩٣٩، انفجرت جزر الهند الغربية بالإضرابات والقمع الوحشي.[١٧٤] وظهر العالم منهمكا في الصراع، وأصبح السود وكفاح السود جزءًا من هذا العالم. وبالنسبة للكثيرين من الراديكاليين، كان الدرس المستفاد من هذه الحقبة يتمثل في الحاجة إلى المقاومة المسلحة للقهر والاستغلال. ولكن بالنسبة إلى جيمس، كان ما فعله الجيش الإيطالي في إثيوبيا واضحا تماما: قتل عشرات الآلاف من القرويين، وتواطؤ "الديمقراطيات البرجوازية":

"كان الأفارقة والشعوب المنحدرة من أصول أفريقية، وخاصة الذين تلوثوا بالتعليم الإمبريالي البريطاني، يحتاجون إلى درس. وقد حصلوا على هذا الدرس. فكل يوم جديد يُظهر تماما الدوافع الحقيقية التي تحرك الإمبريالية في علاقتها بأفريقيا، ويُظهر الوحشية التي لا تصدق ونفاق الإمبريالية الأوروبية في سعيها للأسواق والمواد الخام. فلنجعل هذا الدرس يترسخ فينا".(١٧٥)

وقد ترسخ هذا الدرس أعمق مما تخيل. فقد توقف تعليمه في ظل الفكر الراديكالي الأوروبي. ومن هذه النقطة فصاعدا، كان عمله يتخطى التعليمات المنهجية لليسار المناهض لستالين وإنجلز وماركس أيضا. فقد اندمجت قوة التراث الراديكالي للسود مع متطلبات جماهير السود في التحرك نحو تكوين نظرية وأيديولوجية جديدة في كتابات جيمس:

"من وجهة نظر جيمس، ومع المساندة المتقطعة جدا من الطبقات العاملة الأوروبية واليسار الأوروبي فقط، أصبح المفكرون الراديكاليون السود مضطرين الآن إلى البحث عن تحرير شعوبهم بوسائلهم الخاصة.(١٧٦) ولكن بعض الآخرين الذين كان يجب أن يرتبط بهم في "أصدقاء إثيوبيا الأفارقة الدوليون"، ومكتب الخدمة الأفريقي الدولي (١٩٣٧)، لم يوافقوا على ذلك. فعندما عبر بادمور مثلا عن تحفظاته الخاصة في "كيف تحكم بريطانيا أفريقيا"، أثار جيمس انتقادا حادا:

"إن المؤلف – الذي ينحدر من أصول أفريقية – يثير خيبة أمل محزنة بشأن مستقبل أفريقيا. حيث وضع عنوانا لأحد الأجزاء كما يلي: "هل ستخون بريطانيا أمانتها؟"، كما لو كان أحد المبشرين، أو رجل سياسة في حزب

العمل. ففي التراث الحقيقي للينين، يصر على حق الشعب الأفريقي في اختيار تطوره الخاص به. ولكن المثير للدهشة أنه يرحب بدعوة "الشرائح المستنيرة وبعيدة النظر من الطبقات الحاكمة في أوروبا ذات المصالح الاستعمارية في أفريقيا" إلى التعاون مع الأفارقة. وهذا جنون. فكيف يتعاون الأسد مع الحمل؟

يجب أن يفوز الأفارقة بحريتهم. فلن يمنحها أحد لهم. وهم يحتاجون إلى التعاون، ولكن هذا التعاون يجب أن يكون مع الحركة الثورية في أوروبا وآسيا. وليس هناك طريق آخر. وكل حركة ستهمل الأخرى في ورطتها، ولكن لم يعد هناك وقت لذلك".[١٧٧]

ولم يستبعد جيمس نشوب ثورة بروليتارية صناعية، ولكنه أصبح مدركا لوجود معارضة من السود أكثر قوة من تلك التي كان يعرفها في طبقته.[١٧٨] حيث شاهد جيمس الوجه السافر للإمبريالية الغربية عند اجتياح الشعب الإثيوبي. ومع ذلك، كان الأكثر أهمية أنه شاهد في إثيوبيا وأسبانيا والكاريبي قدرات المقاومة لدى الناس السود العاديين، وتحول القرويين والعمال إلى قوات مقاومة. وعلى عكس بادمور - الذي جعلته إقامته المؤقتة في ذروة الشيوعية الدولية مشوشا، عندما لم يعد بوسعه الاعتماد على هذا المصدر، أو كينياتا ووليامز، اللذين أثرت عليهما مواجهاتهما مع العواصم الإمبريالية والرأسمالية بما ينصح بالحذر - أصبح جيمس مقتنعا بأن التمرد المسلح الناجح بين شعوب السود كان ممكنا. وكان "كفاح المستعمرات وكفاح العواصم" متطابقين على هذا المقياس.[١٧٩] حيث انتشرت لفترة وجهة النظر القائلة بأن التمرد المسلح بين السود أصبح يمثل المعارضة الرسمية. ولكن

بعد ١٩٣٨، عندما ذهب جيمس إلى أمريكا في جولة لإلقاء محاضرات استمرت ١٥ سنة، تغير هذا الموقف، حيث يقول جيمس:

"استمر عمل المكتب طوال فترة الحرب، وفي ١٩٤٥ حدث انفصال حاد عن النظرية.... حيث غير المكتب موقفه من تحقيق الاستقلال بالتمرد المسلح إلى تحقيق الاستقلال بالعمل الجماهيري غير العنيف. ولكن قول هذا يمثل شيئا، في حين أن تنفيذه في الواقع يمثل شيئا آخر.... ولذلك فإن تحقيق الاستقلال بناء على تمرد مسلح كان يفترض شرطا مسبقا يتمثل في الانهيار أو الشلل العسكري لحكومة العاصمة. وبعبارة أخرى، كان ذلك يعني إلقاء مبادرة الكفاح الأفريقي على كاهل البروليتاريا الأوروبية. ...

ولكن بنهاية الحرب لم تتحدث بروليتاريا بريطانيا وفرنسا. فقد كانت الإمبريالية لا تزال مسيطرة في الداخل. وكان التغيير الراديكالي في النظرية فقط هو الذي يستطيع صنع أساس للعمل. فتم التخلي عن منظور التمرد المسلح (على الرغم من وجوده في الذاكرة) وحل محله العمل الجماهيري غير العنيف".[١٨٠]

وبينما كانت آمالهم مبنية على القوى المفككة التي تسببها الحرب للإمبراطوريات، وعلى بعث الأيديولوجية الليبرالية التي تعبر عنها الطبقات الحاكمة والتي أصبحت يائسة بسبب الحرب، وعلى النتائج السياسية للمساندة العملية التي قدمتها المستعمرات للدول الإمبريالية خلال الحرب، غمر جيمس نفسه في الحركة التروتسكية الأمريكية وكفاح العمال السود.[١٨١] وأصبح أيضا متوافقا مع العمل غير العنيف: "نتيجة للحرب والثورات والأزمات التي هزت المجتمع المعاصر من أساسه لحوالي أربعين سنة متوالية، فقدت

البرجوازية ثقتها بنفسها في وجه الحركة الجماهيرية الموحدة.... وبعد قول وفعل كل شيء، فإن التوجه السياسي الجديد - الذي انفصل عن الأفكار المستقرة في فترة ما قبل الحرب - أصبح يحقق إنجازات نظرية كبيرة في الفترة الحالية، وربما كان أول انطلاق حقيقي نحو ما كانت الحركة الماركسية تحتاجه اليوم يتمثل في تطبيق المبادئ التقليدية للماركسية باستقلال تام عن الانحراف الستاليني. ويجب أن نذكر أن النظرية لم ترفض التمرد المسلح، ولكنها كانت تحتفظ به في حالة فشل الضغوط السياسية والأخلاقية المتصورة في التأثير على الإمبريالية البريطانية".(١٨٢)

ولكن "العمل الجماهيري غير العنيف" أعاد كفاح السود ثانية إلى أيدي البرجوازية الصغيرة، على الرغم من أنها كانت برجوازية صغيرة راديكالية. فقد أصبحت بمثابة الوسيط بين الحركة الجماهيرية وممثلي الإمبريالية. ولم يتوافق لا جيمس ولا غيره مع هذا الخطأ النظري.(١٨٣) فقد كان الأمر يتمثل ببساطة في أن المطالبة بحق الشعوب السوداء في حكم أنفسهم (وهو الموقف الذي تم تبنيه في مؤتمر الرابطة الأفريقية الخامس في مانشستر في ١٩٤٥) والتي فصلها المفكرون الراديكاليون المتحدثون نيابة عن المقهورين، كانت لها نتائج تاريخية تختلف كثيرا عن تلك التي نتجت عن جماهير السود التي حققت حريتها.(١٨٤)

ومع ذلك، كان تدخل جيمس مؤثرا. فقد قدم إسهاما فريدا تأريخ الفكر الثوري الأسود، عندما كان هو وزملاؤه في "اللجنة الدولية للخدمة الأفريقية" **International African Service Bureau (IASB)** يفصلون مواقفهم المتناقضة في السنوات الأخيرة من العقد الثالث وخلال العقد الرابع من القرن. فبعد ذلك كتب بادمور "كيف تحكم بريطانيا أفريقيا"، وكتب إيريك ويليامز "الزنوج

في الكاريبي"، وكتب كينياتا "كينيا: أرض الصراع"، وكتب جيمس "اليعاقبة السود". حيث كانت الأعمال الثلاثة الأولى تقترح الاستقلال الوطني للشعوب الأفريقية، ولكنها كانت موجهة إلى القوى الاستعمارية. ولكن العمل الرابع لم يكن كذلك. إذ إنه كان إعلانا للحرب من أجل الحرية. "إن هؤلاء العمال الهايتيين السود والمهجنين قدموا لنا مثالا يحتذى.... والإمبرياليون يتصورون دوام الاستغلال الأفريقي: والأفارقة متخلفون، وجهلة،... وهم يعيشون بالأحلام".(١٨٥)

وبالطبع، كان الإطار النظري لكتاب "اليعاقبة السود" يتمثل في نظريات الثورة التي طورها ماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي. حيث أكد جيمس هذه الحقيقة مرارا في النص. ومع ذلك، لم يكن الأمر على هذا النحو. حيث أخذ من ماركس وإنجلز مفهوم الطبقة الثورية والأسس الاقتصادية لظهورها التاريخي. ولكن رقيق هاييتي لم يكونوا بروليتاريا ماركسية. ولم يكن هذا مهما بالنسبة إلى جيمس: فقد كانت عمليات التكوين الاجتماعي متماثلة:

"كان الرقيق يعملون في الأرض، مثل القرويين الثوريين في كل مكان، وكانوا يهدفون إلى القضاء على الطغاة. ولكن الحياة والعمل معا في مجموعات بالمئات في مصانع القصب الكبيرة التي تغطي السهل الشمالي، جعلتهم أقرب إلى البروليتاريا الحديثة أكثر من أية مجموعة من العمال الموجودين في ذلك الوقت، وهكذا ظهرت حركة جماهيرية مستعدة ومنظمة بدقة". (ص ٨٥-٨٦)

وكذلك، ظهر جيمس مستعدا لتحدي ماركس وإنجلز على نفس الأسس التي وضعاها للأهمية الاجتماعية والسياسية للرأسمالية المبكرة. فبينما كانا

راضيين بوضع تكوين البروليتاريا الثورية الحديثة في صميم الإنتاج الصناعي الرأسمالي، كان جيمس يصر على توسيع هذا المجال. "وفي نفس الوقت كانت [الجماهير] الفرنسية، والرقيق شبه المتوحشين في سان دومينجو، يظهرون خضوعهم لنفس القوانين التاريخية مثل العمال المتقدمين في باريس الثورية"(ص ٢٤٣). فقد أنتجت الرأسمالية نقيضها الاجتماعي والتاريخي في كل من طرفي التجريد من الممتلكات: حيث أدى التراكم الرأسمالي إلى ظهور البروليتاريا في القلب الصناعي؛ وأرسى "التراكم الأولي" الأساس الاجتماعي للجماهير الثورية في الأطراف. ولكن الذي كان يميز تكوين هذه الطبقات الثورية كان يتمثل في مصدر تطوراتها الأيديولوجية والثقافية. فبينما تكونت البروليتاريا الأوروبية من خلال أفكار البرجوازية (يقول ماركس وإنجلز إن "الأفكار الحاكمة كانت أفكار الطبقة الحاكمة")، في هاييتي وربما في أماكن أخرى بين السكان الرقيق، بنى الأفارقة ثقافتهم الثورية الخاصة بهم، وهنا يقول جيمس:

"لا يحتاج المرء إلى التعليم أو التشجيع حتى يتعلق بحلم الحرية. ففي احتفالات الفودو الليلية، وهي من طقوسهم الأفريقية، كانوا يرقصون ويغنون أغنيتهم المفضلة عادة، والتي تقول موسيقاها:

إيه! إيه! بومبا! هى هى !

كانجا، بافيوتى

كانجا، مونو دى لى

كانجا، دو كى لى

وتقول معان كلماتها:

"أقسمنا بأن نُهلك البيض وما يملكون؛ فلا بديل لنا عن الحرية سوى الموت!"

وكان الاستعماريون يعرفون هذه الأغنية ويحاولون القضاء عليها، وعلى طقوس الفودو التي كانت ترتبط بها. ولكن دون جدوى. (ص ١٨)

وكانت طقوس الفودو بمثابة وسيلة المؤامرة. فبالرغم من كل أساليب الحظر، كان الرقيق يسافرون أميالا للغناء والرقص وممارسة الطقوس والكلام؛ والآن ومنذ الثورة، كانوا يفعلون ذلك من أجل سماع الأخبار السياسية ووضع الخطط المقبلة. (ص ٨٦)

وكان هذا انحرافا تاما عن الطريقة التي صاغ بها ماركس وإنجلز مفاهيم الأهمية التحويلية والتبريرية للبرجوازية. حيث كان هذا المفهوم "يتضمن" (خلافا لما رآه جيمس) أن ثقافة وفكر وأيديولوجية البرجوازية كانت غير مناسبة لتطور الوعي الثوري بين السود وشعوب العالم الثالث الأخرى. وانفصل عن السلسلة الثورية في الجدلية المغلقة للمادية التاريخية. ولكن بينما كان جيمس مترددا، كان كابرال يتقدم بشجاعة للأمام كما رأينا سلفا، إذ يقول كابرال:

"يمثل التحرر الوطني الظاهرة التي يرفض فيها الكل الاجتماعي/الاقتصادي نقيض عمليته التاريخية. وبعبارة أخرى، فإن التحرر الوطني لشعب يمثل استعادة المسئولية التاريخية لهذا الشعب، وعودته إلى التاريخ من خلال تدمير السيطرة الإمبريالية التي كان يخضع لها".[١٨٦]

ولكن مجهود جيمس لرفع نظرية ماركس إلى مستوى متطلبات التـأريخ الراديكالي للسود لم يكتمل. فعلى الرغم من أنه كان يحمل احتراما كبيرا لعمل وفكر لينين، فقد اقترح أيضا معالجة أكثر خيالا. فمع فكرة لينين عن الثوريين المحترفين، وبدايات حزب الطليعة في الأذهان، انطلق جيمس إلى تحديد طبقة كاملة، واصفا بمصطلحات دقيقة كيف تكونت، حيث مضى يقول:

"إن قادة الثورة هم عادة من كانوا قادرين علـى الاسـتفادة بالمزايـا الثقافية للنظام الذي يهاجمونه" (ص ١٩).

وكان هذا اعترافا بفخر طبقة لم يكن لينـين ولا مـاركس ولا إنجلـز مستعدا له.[١٨٧] وعلى الرغم من أن هذا كان اعترافا غير مقـصود، فإنـه كشف الأصول الطبقية لجيمس، وعكس أيضا وضوحا تاريخيا محـددا.[١٨٨] وقد لعب مفكرو البرجوازية الصغيرة الأدوار البارزة في الفكر الماركـسي وفي الانتصار البلشفي في روسيا أيضا. وكانت نظرية وأيديولوجية الثـورة من صنعهم، وكذلك الدولة الروسية بلا جدال. حيث قدموا إلى حركة الطبقة العاملة "معرفتهم المتميزة والعيوب السياسية التي كانت تصاحبها عادة"، كما يقول جيمس عن توسنت (ص ٩٥).

وفي سان دومينجو، وجدت الجماهير الثورية شخصية أكثـر تـشجيعا يمثلها توسنت لأوفرتشر Toussaint L'Overture. فقد كان يعرف العدو أفـضل منهم. حيث كان هذا أحد مكافآته كموظف في نظام الرق.

"منحته وظيفته في رعاية الماشية خبرة في الإدارة، والسلطة والتفاعل مع أولئك الذين يديرون المزرعة. فالرجال الذين يجـدون أنفـسهم بـسبب قدراتهم وصفاتهم الطبيعية يشغلون مناصب تحجز عادة لأشخاص من نـشأة

وتربية وطبقة مختلفة، عادة ما يؤدون هذه الوظائف بدقة استثنائية وعمل مخلص. وكذلك،... [فإنه] قرأ تعليقات قيصر... وقرأ وأعاد قراءة المجلد الكبير الذي كتبه أبي رينال.... وكانت لديه خلفية دقيقة في الاقتصاد والسياسة، ليس فقط عن سان دومينجو، بل وعن كل الإمبراطوريات العظيمة في أوروبا.... ولذلك فإن فكره الرائع قدم له فرصة لتنمية نفسه في الشئون العامة في الداخل والخارج". (ص ٩١)

ولكن توسنت فشل في الثورة في النهاية. وكان جيمس يتعاطف مع بعض جوانب فشل توسنت، حيث كتب يقول:

"عرف توسنت مدى تخلف العمال؛ فقد كان هو الذي يشغلهم، ولكنه أراد أن يراهم متحضرين ومتقدمين في الثقافة.... وكان متلهفا لرؤية السود يكتسبون السلوك الاجتماعي للبيض من الطبقة الأفضل صاحبة سلوك فرساي". (ص ٢٤٦).

وكان جيمس يعتقد أيضا أن توسنت كان على صواب في اعتقاده أن البيض ملاك الأراضي الذين بقوا أو رجعوا إلى سان دومينجو كانوا مطلوبين لمساعدة الرقيق السابقين لبناء الدول الحديثة، فكتب يقول: "إن اتجاهه غير الواقعي تجاه السادة السابقين، في الداخل والخارج، لا ينطلق من أية إنسانية أو ولاء مجرد، ولكنه ينطلق من الاعتراف بأنهم هم فقط الذين لديهم ما يحتاجه مجتمع سان دومينجو" (ص ٢٩٠). وقد استمر هذا في تناقض مباشر مع معتقداته لثلاثين سنة لاحقة: "الرقيق يديرون المزارع؛ هذه المزارع الهائلة، المصدر الكبير لثروة كثير من الأرستقراطيين والتجار البريطانيين، وأمراء التجارة الذين يمثلون هذه الشخصية في المجتمع

الإنجليزي (والمجتمع الفرنسي أيضا، ولكننا نتحدث عن المجتمع الإنجليزي).[١٨٩] ومع ذلك، اتفق آخرون مؤخرا مع آراء جيمس المبكرة.[١٩٠] ومع ذلك، ففي ١٩٣٨ عرف جيمس أن الرقيق السابقين المعاصرين لتوسنت لم يتفقوا معه. فعندما تصرفوا بناء على هذه المعتقدات وتمردوا ضد توسنت لأنهم لم يعودوا راغبين في قبول توافقاته الأنانية مع البرجوازية الاستعمارية ونظام بونابرت في فرنسا، جعلهم توسنت يلاحقون ويعدمون (ص ٢٨٥). ويقول جيمس إن هذه المأساة حدثت لأن توسنت "لم يفسر شيئا، وسمح للجماهير بالاعتقاد بأن أعداءها القدامى كانوا يفضلون على حسابهم" (ص ٢٨٤). ويصر جيمس على أن الأهم من ذلك هو أن فشل توسنت كان نتيجة لأحداث خارجة عن سيطرته: "إذا كان قد فشل، فإن فشله يرجع إلى نفس أسباب فشل الثورة الاشتراكية الروسية، حتى بعد كل إنجازاتها - أي هزيمة الثورة في أوروبا" (ص ٢٨٣). ولكن جيمس كان يدرك جيدا أنه كان هناك الكثير في متناول توسنت، والكثير بعيد عن متناوله. وكان يبدو أنه يدرك أنه بالرغم من كل الأهمية التي يمكن أن تمنح حقا للثورة المضادة في أوروبا، وكل العبقرية التي يمكن أن تنسب إلى توسنت في الفترات الأولى من الثورة، كان لا يزال هناك شيء خاطئ جدا في تركيبة الرجل. ففي الواقع، صرح جيمس بأن قادة هاييتي أصحاب الخبرة والتعليم الأقل من توسنت استطاعوا التغلب على الصعوبات التي لم تستطع نفسيته مواجهتها. وحاول في سلسلة استثنائية من الفقرات أن يوفق بين إعجابه بالرجل، والجماهير الثورية التي شكلته (كما أدعي)، وتلك الشخصيات التي منحها التاريخ فرصة إكمال ثورة هاييتي. وتكشف هذه الفقرات مصادر تناقضات جيمس في ١٩٣٨، حيث كتب يقول:

"لم يكن هناك اختلاف كبير بين توسنت وشعبه من حيث الرؤية أو الهدف. فنظرا لمعرفته بمسألة السلالة من أجل القضية السياسية والاجتماعية المطروحة، حاول أن يتعامل معها بطريقة سياسية واجتماعية بحتة. وكان هذا خطأ فادحا. فقد حذر لينين في رسالته إلى المؤتمر الثاني للدولية الشيوعية الثوريين البيض - وهو التحذير الذي كانوا يحتاجونه بشدة - من أن هذا كان من تأثير السياسة الاستعمارية على العلاقة بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة، لدرجة أن الشيوعيين الأوروبيين يجب أن يقدموا تنازلات كبيرة لمواطني دول المستعمرات من أجل التغلب على التحيز المبرر الذي يشعر به هؤلاء تجاه كل الطبقات في الدول القاهرة. ولكن توسنت نسي هذا مع تزايد سلطته. وتجاهل العمال السود، وأربكهم في الوقت الذي كان يحتاجهم فيه بشدة، وكان إرباك الجماهير يعني توجيه الضربة القاتلة إلى الثورة.... فقد كان البيض تابعين للنظام القديم. ولم يهتم ديسالينز بما كانوا يقولون أو يفكرون. وكان على العمال السود القيام بالقتال - وكانوا هم الذين يحتاجون التشجيع. ولم يكن لدى توسنت أي خداع بشأن البيض. فلم يكن لديه أي شيء.... .

ومع ذلك، كان خطأ توسنت نابعا من نفس الخصائص التي جعلته على ما كان عليه. فمن السهل أن نرى اليوم، كما رأي قادته بعد وفاته، ما الذي أخطأ فيه. ولكن هذا لا يعني أنهم أو أن أي أحد منا كان سيتصرف بشكل أفضل لو كان في مكانه. ولو استطاع ديسالينز الرؤية بوضوح وبساطة، فإن ذلك يرجع إلى أن العلاقات التي تربط هذا الجندي غير المتعلم بالحضارة الفرنسية كانت ضعيفة جدا. حيث رأى مع يقع تحت بصره جيدا، ولم يكن يرى أبعد من ذلك. فقد كان فشل توسنت بمثابة فشل التنوير، وليس فشل الظلام". (ص ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨).

وللأسف، فإننا نعرف من شخصية بمكانة جيمس أن هذا الدفاع الأخير عن توسنت لم يكن بدون عنصر تبرير. فكما تراجع توسنت في سجنه في جبال جورا Jura، أثناء كتابة رسائل الاسترحام إلى الإمبراطور الصغير، ضاعت منه رؤيته أيضا: "فعلى الرغم من خيانة فرنسا، فإنه كان لا يزال يرى نفسه جزء من الجمهورية الفرنسية "والموحدة التي لا تنقسم". ولم يستطع التفكير في غير ذلك... فقد كان هناك حد لا يستطيع أن يتخطاه" (ص ٣٦٤) ونحن نتعرف طبعا على جيمس (وربما حتى انطباعاته عن بادمور) في هذه التأكيدات. ونستطيع أن نرى الارتباط المعلن للمفكرين الثوريين السود بالجماهير؛ والرغبة في الاستمرار في الخضوع "للاشتراكية العلمية" بإنكار المصدر المادي للأيديولوجية، مع إظهار خيبة الأمل المريرة من الحركة الشيوعية؛ وموقف الرعاية نحو القادة العضويين للجماهير؛ والفخر المتردد بالمكانة التي احتلها المفكرون المستغربون. وكذلك، كان من الواضح أن جيمس كان ينظر إلى طبقته نظرة ناقدة. وعلى عكس حلفائه، كان مضطرا إلى مواجهة الحدود التي لا يمكن الوثوق في البرجوازية الصغيرة الثورية بعدها. ولهذا السبب كان يصر غالبا على أن الجماهير الثورية يجب أن تحافظ على اتجاه الحركة الثورية بنفسها، وألا تتنازل للثوريين المحترفين أو الأحزاب أو المفكرين. ولكننا سنعود إلى هذا بعد قليل.

التوافق مع التراث الماركسي

في السنة التالية لطباعة كتاب "اليعاقبة السود"، نشر جيمس "تاريخ ثورة الزنوج". وكان هذا بمثابة آخر بيان مستمر عن الرابطة الأفريقية حتى ظهور "نكروما وثورة غانا". ومع ذلك، كان عملا صغيرا يلخص باختصار

تاريخي بعض مناسبات تمرد السود في الشتات وأفريقيا في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين.[١٩١] وقد ثبت أن له بعض الفائدة بعد ذلك بثلاثة عقود، ولكنه كان مكتوبا بصورة عرضية وكان أقرب إلى محاضرة عامة منه إلى الدراسة. كان جيمس في هذا الكتاب في قلب الحركة الدولية التروتسكية،[١٩٢] منهمكا في المسرح الأمريكي سريعا، ومتابعا عن كثب لجريان الأمور في نيويورك، ويتنازع فكريا مع تروتسكي على "مسألة الزنوج"،[١٩٣] وتنظيم المزارعين المستأجرين والمشاركين في المحاصيل في جنوب شرق المسيسبي.[١٩٤]

وبعد كتابة "اليعاقبة" بعشر سنوات، كتب جيمس مسودة ثانية تتناول أزمة كان قد تورط فيها بشدة. حيث وجد في هذه المناسبة أنه من الضروري أن يهاجم صراحة بعض الشخصيات الرئيسة في الحركة الماركسية. ومن ثم كتب "ملاحظات على النهج الجدلي" في أواخر أربعينيات القرن العشرين،[١٩٥] وذلك في الوقت الذي خبت فيه الاهتمامات بالحرب العالمية الثانية، تاركة الماركسيين الأمريكيين أحرارا يتأملون في الظروف المتغيرة التي تواجههم، وفي مقدمة تلك الظروف: ترتيبات ما بعد الحرب بين الاتحاد السوفيتي و"القوى الغربية"؛ وردود أفعال الطبقات العاملة على سيطرة رأس المال الأمريكي على الاقتصاد العالمي؛ والطرد المنظم للشيوعيين من حركة العمال الأمريكيين؛ والضغوط المتزايدة على الحركة الشيوعية من الحكومة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، ومستقبل الدولية الرابعة بدون تروتسكي، الرمز الموحد لها.[١٩٦] وفي ذلك الوقت كان جيمس قد أصبح مفكرا ومنظما بارزا في حزب العمال الاشتراكي (SWP)، الممثل الأمريكي في الدولية

الرابعة. ففي هذا المجال المحدود، نجد أنه من الإنصاف أن نقول إنه كان معروفا بأنه: أحد المؤرخين/الفلاسفة الماركسيين البارزين في هذا القرن. ومع ذلك، انسحب هو وماكس شاختمان Shachtman وآخرون من الحزب، وفي أوائل الأربعينيات، شكلوا حزب العمال وكان عدد أعضائه حوالي ٦٠٠ عضو.[١٩٧] ثم حدث انقسام آخر في ١٩٤٢، حيث قامت مجموعة تدور حول جيمس ورايا دونايفسكايا - اتجاه جونسون فوريست - بترك "الشاختمانية".[١٩٨] وأخيرا، في ١٩٤٩ تقريبا، عاد اتجاه جونسون فوريست للانضمام ثانية إلى الحزب ليصبح مستقلا بقوة ثانية بعد سنتين.[١٩٩] فقد كانوا يحتاجون للمزيد، وهنا يقول جيمس:

"لقد تخلينا عن تحليل تروتسكي لطبيعة الدولة الروسية منذ موت ستالين.... وتوصلنا إلى استنتاج أن البحث العميق لم يتم بعد في "علم منطق" هيجل (ويجب أن يرتبط بهذا طبعا "المنطق" الصغير، وهو جزء في موسوعة هيجل)".[٢٠٠]

لقد كان كتاب "ملاحظات على النهج الجدلي" إسهام جيمس الأساس، إذ كان يمثل اهتمامه وبناءه المنطقي والفلسفي لتاريخ الحركة العمالية وعلاقتها بتكوين العمل الثوري والأحزاب والفكر الثوري في التجربة الأوروبية. وكانت قواعد الكتاب، وهيكله المنطقي، تعتمد على البناء الجدلي لدى هيجل. وفي وقت ما، كان بمثابة عرض لأسلوب هيجل الفلسفي والحركة التاريخية للطبقات العاملة. وكان الغرض المباشر من الكتاب تقديم مبرر وهدف تاريخي للنشاط السياسي لمنظمته الصغيرة، وكان هذا هو الهدف، أي الاحتفاظ لرفاقه بالدعوى اللينينية الاشتراكية الأصيلة.[٢٠١]حيث كانوا

يحاولون احتواء كارثة، وإنقاذ الماركسية من جراحها الذاتية (الستالينية والتروتسكية) بما يحافظ على روحها النظرية والسياسية (المادية التاريخية والبروليتاريا الثورية). ولم تكن مهمتهم سهلة. فلم يكن الأمر يقتصر على مجرد شن المعركة السياسية: منظمة صغيرة في مواجهة الزملاء (التروتسكيين) السابقين، وفي مواجهة الستالينية، وبيروقراطيات نقابات العمال، وأجهزة الدولة الأمريكية، والرأسمالية العالمية. فقد كانوا يعتقدون أن هذه القوى أكثر من متوازنة، لأنها كانت مصاحبة للجماهير البروليتارية. وكان التاريخ والأرقام في صالحهم. وكانت التناقضات التي يريدون تبريرها أكثر حدة. ونظرا لأنهم ماركسيون، فقد كانوا مضطرين إلى معالجة دوافع متناقضة. وكانوا مفكرين راديكاليين يحتقرون البرجوازية الثورية، وأنفسهم بصورة ما أحيانا. فقد كانوا أيديولوجيين ثوريين مشحونين بتراثهم "لنقد كل شيء" مع الحفاظ على شخصيتي ماركس وإنجلز. وكانوا ملتزمين بإلغاء الأحزاب، ولكن تاريخهم السياسي كله كان في حالة ارتباط وخلاف مع الأحزاب الثورية. وكانوا أيديولوجيين برجوازيين مارقين، حيث تدربوا على الأفكار الحاكمة لعصرهم، ومع ذلك كانوا يؤمنون بحتمية غزو وعي الطبقات العاملة لفهم النشاط التاريخي للبروليتاريا. وعلى الرغم من طاقاتهم الكبيرة أحيانا، كانوا أساسا معلمين تأمليين مرتبطين بالعمل الثوري. ولم يستطع جيمس الإفلات من هذه التناقضات بدرجة أكبر من جريس لي (بوجس) أو دونايفسكايا. فلم يستطع أحدهما ذلك في كتاب "ملاحظات على النهج الجدلي". وكانت تحتوي على خيالات لم يكن جيمس ينوي التخلص منها، ولكنه كان مضطرا لتركها وراءه. وكان يفترض أن جدلية هيجل ستحل المعضلة.

وقد أعاد جيمس صياغة الفرضية الجانحة في طبعة عام ١٩٨٠ من العمل، حين تساءل: ما هي إذاً بداية الحركة العمالية؟ لقد وجدنا البداية التاريخية في الثورة الفرنسية "كما رآها ماركس" (ص ١٠). وكان هذا بمثابة الفرض الذي لا يمكن تحديه: يجب على الماركسيين أن يبدؤوا كما بدأ ومن حيث بدأ ماركس. وكان هذا يعني أن الافتراض الذي ورد في رؤية ماركس للتاريخ الحديث يجب أن يستمر في تناول جيمس للثورة الاجتماعية: وهي الفكرة التي تتضمن أن البروليتاريا شكلت طبقة مثل البرجوازية. فمثل معظم الماركسيين، كان جيمس غير راغب في التأمل في هذا، كما أظهر كورنيليوس كاستورياديس بصورة أوضح من غيره، فنظرا لأن ظهور البرجوازية كان تاريخيا أصل فئات الطبقات، كان يستحيل فلسفيا وتاريخيا على البروليتاريا تلخيص التجربة الاجتماعية والأيديولوجية للبرجوازية. ولم تستطع أن تصبح طبقة بهذه الشروط.[٢٠٢] ولكن كان يجب أن تكون هناك حدود يستمر في إطارها اتجاه جونسون فوريست. حيث أدركوا متأخرا جدا أنهم كتروتسكيين تعاملوا مع تفكك الماركسية بدون أن يدركوا ذلك فكتب يقول: "استمر التفكير التروتسكي، وقاد طرح قضية تفكك النظرية الماركسية، وتساءل عما إذا كان يجب ألا نسأل أنفسنا عما إذا كان ذلك صحيحا" (ص ٥٦). وأصبحت حاجتهم إلى أداء الأمور بطريقة مختلفة حاجة منهجية. وعندما تناول جيمس لينين وتروتسكي وستالين وماركس، أحسن استغلال سابقيه والتزم بشدة بأضواء التراث. وعلى الرغم من احترامه الشديد، كان نقده حقيقيا من حيث الشكل: متسقا داخليا، قويا جدا، واسع الاطلاع، وسليما منطقيا. فمن خلال مصطلحاته الخاصة، سلك جيمس المسار الفلسفي للتراث الماركسي حتى تحقيقه الكامل تماما في سنوات ما بعد الحرب.

وقد بدأ بالتأكيد لرفاقه أن ظهورهم وعملهم وسياساتهم، المبنية على تطور رأسمالية الدولة والدافع البروليتاري للشكل التنظيمي الذي يتخطى الحزب الثوري، كان متوقعا في عمل هيجل "علم المنطق": فقد كانت أفكارهم تمثل "الأفكار الجديدة". حيث توقع هيجل ذلك. ولكن معارضتهم من أتباع ستالين وتروتسكي وشاختمان ضاعت بسبب الشكلية والانتهازية. ويؤكد جيمس مقتبسا من عبارات هيجل:

"أصبحت الأفكار الجديدة مألوفة تدريجيا حتى لمن يعارضونها، والذين استولوا عليها، والذين كان عليهم أن يقبلوا نتائجها، على الرغم من تجاهل وإنكار مصادر ومبادئ هذه الأفكار.

ويمكن أن نرى هذا في كل تطورنا. ويتمثل المثال الرئيس، أو أحد الأمثلة الصارخة، في تطبيقنا لقانون القيمة على الاقتصاد الروسي. والآن يصيح هؤلاء الأوغاد الذين يلعنهم الرب ويقولون "بالطبع"! ولكن يمكن الاطلاع على أدبيات الدولية الرابعة لصفحات وصفحات. وأنا لا أتذكر أية بيانات لهذا الأثر". (ص ١٣)

وقد ذكرهم بأن هيجل يميز بين التجريبية المألوفة، والفهم، والعقل (الفكر الجدلي)، مع شحن كل منها بقيمة معينة، وحد أدنى معين من الفكر. وكانت الجدلية بمثابة التحقيق النهائي للعقل، والذات. وكان يرى أنه من الواضح أن لينين كان قادرا على الفكر الجدلي، وقادرا على تخطي التصنيف القديم (الدولية الثانية) من خلال ما ورثه من فكر، حين كتب يقول:

"سببت ثورة فبراير الروسية تغيرات عنيفة في نظرية لينين. وجعلته الحرب العالمية الأولى يراجع فكرة "الدولية الثانية" (ص ١٧). ومع ذلك،

ومن ناحية أخرى، كان تروتسكي يقتصر علـــى "الفهــم"، وهـــذه مرحلـــة ضرورية ومفيدة في الفكر، ولكنها لا يمكن أن تنتهي إلى اختزالها إلى أحكام مطلقة: "كان قادرا على أن يلقي عليك محاضرة عن الأحكام المتغيرة بصورة واضحة. فقد كان يتحدث عنها طوال الوقت. ولكن التصميم الثابت والنهائي كان يكبله حتى النهاية" (ص ١٨). ولم يكن تروتسكي راغبا في الاعتـــراف بالأهمية الحقيقية للستالينية:

"تعد الستالينية شكلا ضروريا وحتميا لتطور الحركة العمالية. فالعمـــال لا يخطئون، ولا يخدعون، بأي معنى حقيقي من هذه المعاني. فهم يصنعون تجربة ضرورية لتطـــورهم" (ص ٣٠). وكـــان تروتـــسكي مقتنعـــا بـــأن بيروقراطية العمال (كما حدث مع الفركرة القديمة: الدولية الثانية) ســـتحمي الملكية الخاصة؛ وكان تروتسكي ملتزما حتى النهاية بانتـــصار أطروحاتـــه الجدلية مع ستالين حول الثورة المستمرة مقابل الاشتراكية في دولة واحـــدة. وبينما كان أتباع ستالين عمليين وحاولوا الوصول إلى السلطة ثم الاحتفاظ بها (وملكية الدولة عرضا)، استمر تروتسكي في الـــدفاع عـــن نفـــسه بـــأكثر المصطلحات قوة: مختلفا مع أشباحه حول من كان الأقرب إلى لينين:

"وهكذا فإن الجدل – الذي بدأ بالاشتراكية في دولة واحـــدة – اســـتمر للنهاية داخل النظرية اللينينية. وقال ستالين: "كل ما أفعل فهو من اللينينيـــة. ولكن تروتسكي لا يرى ذلك، ولم يكن ستالين جادا فيما يقول، وكانت أفعاله تجريبية بحتة. أما تروتسكي فكان مخلصا في لينينيته، وكان مستغرقا فيهـــا وكان مقيدا بها. وكان على خطأ كامل في كل استنتاج نظري وعملي استمده من الجدال.... فقد كان الجدال حول أن الاشتراكية "لا يمكن" أن تبنى في بلد

واحد. وهل يعتقد أحد أن ستالين أو أي أحد من شعبه يعتقد أن ما يحدث في روسيا هو الاشتراكية؟ فالأحمق تماما فقط هو الذي يمكن أن يفكر هكذا. فقد كان الجدال يدور حول ما إذا كان نظام ملكية الدولة في الغرب سيستمر بدون ثورة، عاجلا أم آجلا". (ص ٣٥٠)

وبالطبع فإنه بينما كان تروتسكي مستغرقا ومستقرا عند مستوى "الفهم"، لم يكن يمتلك الطاقة ولا الرؤية لإدراك أنه لا يمكن فهم الستالينية إلا بكشف أساسها الاقتصادي: "إنه لم ير أن الدولية الثالثة الثورية استسلمت لرأسمالية الدولة بمساعدة الإمبريالية الروسية. ولم يكتب أبدا عن التغيرات الاقتصادية، ومهما فكر فيها، إن كان قد فكر فيها، فإنه لم يفكر بالأهمية الكافية المطلوبة.... "وهذا أمر مدهش، أليس كذلك؟" (ص ٣٧). أما الذين رغبوا في الاستمرار مع كفاح البروليتاريا، لفهم ظهور الستالينية، فلم يعودوا قادرين على التساهل مع تروتسكي:

"إن الترتيب الطبقي والدوافع والأعمال الغريزية الجديدة، والعقد القوية التي تشكلت، كانت ملحوظة وكان هناك حوار حولها، ولكنها كانت متضمنة دائما في كل من: الإطار القديم؛ رأسمالية الدولة أو الدولية الإصلاحية التي ستدمر الملكية الخاصة وترفض مساندة البرجوازية في حرب إمبريالية، وبيروقراطية مناهضة للبروليتاريا ازدهرت على ملكية الدولة وستدافع عنها حتى النهاية ضد الملكية الخاصة. وكان مسموحا بكل العقد والدوافع مادام أنها تصب في التصنيفات النهائية التي تركها لينين. وهذا هو السبب في أن ما كان يمثل نتائج "العقل" في جيل أصبح يمثل "الفهم" في جيل آخر، ولم يتحقق النقيض وتخطي المحددات إلى وحدة أعلى". (ص ٣٤)

وهكذا أخطأ تروتسكي في الستالينية بشأن بيروقراطية العمال، فلم يكن قادرا على تخطي التصنيف الفئوي القوي المشتق من تجربة الدولية الثانية (ص ٥٩) لكي يتعرف على نضوج تناقضات حركة العمال في المجتمع الرأسمالي. وبالطبع، فقد توقع هيجل خطأ تروتسكي: الوعي الذي اكتشف ما "كان حقيقيا فقط للرؤية والمعايير والقيم الخاصة التي نظر بها للعالم" (ص ٥٤).[٢٠٣] أي إن المظهر طغى على الحقيقة:

"ولكن أنت وأنا من الجدليين. ونحن نعرف أن الستالينية اليوم تمثل الحالة الحقيقية لحركة العمال. فهي ثورية وترفض التمثيل النيابي والملكية الخاصة والدفاع الوطني والحدود القومية. ومع ذلك، فهي راعية الإمبريالية، وهي بيروقراطية وتهدف إلى السيطرة الكلية على العمل ثم على رأس المال. (ص ٤٣)

... ولكي نعرف الحقيقة الواقعية، ونفهم حركة العمال، يجب أن نعرف أنها عند كل مرحلة تتجدد ولكنها تنقسم لإعادة فرض هويتها الذاتية، ووحدتها، ولكن هذه الوحدة تأتي من انقسامات داخلها هي ذاتها...

وتعتبر الستالينية عقبة كبيرة. ولكن يمكن أن ننظر إليها كجزء من العملية. فمن خلال تطورها الذاتي والجدية والمعاناة والصبر، تمر الحركة العمالية خلال كل تجاربها وتصل إلى تحقيق وجودها الكامل بتجاوزها واحدة تلو الأخرى. وفي النهاية فقط، وعندما تجد الحركة العمالية ذاتها محققة بالكامل، سنراها على حقيقتها الفعلية". (ص ٦٥)

وتعرف لينين على العمال في مناقشات هيجل حول "مناهج الوجود والجوهر". ويمكن أن نرى أن ملاحظته على "المنطق" احتوت على برنامجه الثوري في التكوين (ص ٩٨-١٠٦). حيث راقب الحركة الذاتية للبروليتاريا، وهي الحركة التي كانت تمثل وجود الطبقة العاملة. وأدرك أن:

" جوهر الشيء يتمثل في حقيقة أنه يجب أن يتحرك ويعكس ذاته، وينفي الانعكاس، الذي يمثل العدم، ثم يصبح موجودا، ثم يصبح منعدما ثانية، في حين أن الشيء ذاته يجب أن يتحرك لأن من طبيعته أن يفعل ذلك.... ويتمثل جوهر البروليتاريا في حركتها لتشمل في تجاربها شرور الرأسمالية، حتى تتغلب على الرأسمالية ذاتها". (ص ٧٨)

وأصر جيمس على أن لينين كان يجب أن يفهم أن "تاريخ الدولية الثالثة هو تاريخ قمع اللينينية على يد الستالينية"، وأنه في النهاية، "إذا أرادت الدولية الرابعة أن تتخطى الستالينية، فإنها يجب أن "تحتوي" الستالينية في مفهومها لذاتها. حيث تبدأ من كل الأشياء التي أخذتها الستالينية من اللينينية وحافظت عليها.... ويتمثل "نقيض" الستالينية في النظام الاقتصادي الاشتراكي الدولي، الذي يشمل من البداية كل القارات" (ص ٨٧). ونظرا لأن لينين "ذلك الرجل المدهش والمذهل" (ص ١٣٨) فهم السوفييت عندما ظهروا في ١٩١٧[٢٠٤] (وليس في ١٩٠٥) فقد كان عليه أن يعرف أنه في حركة يسيطر عليها الفساد الرأسمالي للحزب الثوري الذي كونه، وهنا يقول جيمس:

"تستطيع تنظيم العمال كعمال، وتستطيع تكوين منظمة خاصة من العمال الثوريين، ولكن بمجرد أن تحقق هذين الشيئين، فإنك تكون قد وصلت للنهاية. فالتنظيم كما نعرفه يقع عند النهاية. وهكذا تتمثل المهمة في إلغاء

التنظيم. ومن ثم فإن المهمة اليوم تتمثل في المطالبة والتعليم والتوضيح وتطوير التلقائية - أي النشاط الإبداعي الحر للبروليتاريا. وسوف تجد البروليتاريا طريقتها للتنظيم البروليتاري. وعند هذه المرحلة، تستطيع الطليعة تنظيم نفسها فقط على أساس التخلص من القبضة الخانقة التي تفرضها المنظمات الحالية على البروليتاريا، والتي تعاني بسببها من هذه الهزائم المروعة". (ص ١١٧)

وسوف تتعرض الستالينية، أي الثورة المضادة التي ظهرت من اللينينية "الموضوعة رهن الاعتقال" (ص ١٥٠) حتميا وتلقائيا لمعارضة الحركة العمالية، لأن "الجماهير أو الطبقات الكبيرة" تتعلم فقط من خلال "الكفاح ضد شيء محدد ملموس" (ص ٩٣).

"ستقوم البروليتاريا ذاتها بتحطيم الستالينية. وسوف تعلمها هذه التجربة درسها الأخير، أي أن المستقبل يكمن داخلها، وليس في أي شيء يدعي أنه يمثلها أو يوجهها". (ص ٩٢)

لقد أنجز جيمس العمل، وحصد كل هذه النتائج. وقد حصدها كلها لكي يقدم واحدا من أكثر الإنجازات التاريخية التي قدمها مفكر ماركسي إثارة. فبكل صبر وإرادة ومنهجية، ولكن من خلال "صوته" الأدبي المزعج أحيانا والعذب دائما، استخلص من ٣٠٠ سنة من التاريخ الأوروبي العمليات والعلاقات بين القوى المتعارضة داخل الحركة البروليتارية: إذ يقول إن الأولى (القوة المتعارضة) ظهرت لأول مرة في الحرب الأهلية الإنجليزية في القرن السابع عشر في صورة الديمقراطيين الراديكاليين؛ في حين أن الثانية (البروليتاريا) كانت بمثابة الأساس الاجتماعي للجماهير الثورية خلف

الثورة الفرنسية. ومع ذلك، مر كل منهما بتحولات خلال السنوات الطويلة منذ ظهورهما حتى الوقت الحاضر (أي ١٩٤٨). ولم تكن هذه التغيرات ناتجة عن مرور السنين، ولكنها نتجت عن الرأسمالية. وقد وصلت هاتان القوتان التاريخيتان المتعارضتان في النهاية إلى تفصيلهما النهائي في الستالينية والفاشية. ففي الستالينية، نظمت البرجوازية الصغيرة محاولة تدمير البروليتاريا الثورية. حيث بدأت البرجوازية الصغيرة باستخدام العمال لتدمير البرجوازية، ثم قمع حركة العمال التي أعقبتها. وفي الفاشية، أصبحت البرجوازية الصغيرة الأداة الاجتماعية للبرجوازية اليائسة بصورة متزايدة في سعيها لتدمير نفس الشيء التاريخي: الحركة العمالية. وقد شكل كل من الفاشية والستالينية الحركة الموضوعية (مركزية الحكم) للتنظيم الرأسمالي (ص ٢٠١). حيث استدعى التطور المستمر لتنظيم الإنتاج الرأسمالي، والإدارة البيروقراطية لرأسمالية الدولة، الطبقة البرجوازية الصغيرة ذات المهارات والمسئوليات والطموحات الهائلة. وفي إطار نفس هذه القرون، وعلى الرغم من أنه كان يمكن تتبع تطور ظهور البرجوازية والطبقات العاملة، ("كان من الضروري أيضا الاعتراف بتحول البرجوازية الصغيرة. وكان ذلك ضروريا لأن هذه الطبقة تولت قيادة الحركة البروليتارية ثم خدعتها"). والآن، أصبح على المفكرين الراديكاليين الذين يخدمون ثورة البروليتاريا - مثل نشطاء تيار جونسون فوريست - أن يستجيبوا لهذه الأحداث. فأولا، يجب أن تستوعبها، وأن تتوقف عن ربط فساد قيادة البرجوازية الصغيرة بالقوى الحقيقية للثورة. وثانيا، يجب على "طليعة الطليعة" أن تساعد البروليتاريا في تدمير بيروقراطية "البروليتاريا الثورية". فقد كان اتجاه العالم في أيدي العمال: "والبروليتاريا هي التي ستحدده. والمهم أن نخبر البروليتاريا أن تحدده" (ص ١٨١).

ومن سوء حظ "ملاحظات على النهج الجدلي" أنها كانت وثيقة داخليــة. ومن ثم كان توزيعها محدودا طوال عقدين، وكان ذلك يرجع إلى أن الحركــة التي كانت موجهة إليها كانت صغيرة. ولم تقرأ على نطاق واسع طوال ثلاثين عاما. ولكن على الرغم من أن جيمس اعتبر أنها كانت أكثر أعماله استثنائية، فإنها احتوت بعض المحددات. حيث كانت أوضح مشكلة تنبــع مــن افتتــان جيمس بنمط جدل هيجل القائم على: تفكيك التاريخ إلى تكتلات ثرية تــستخدم فقط لبناء الخطاب المجرد. وكان الأمر يتمثل أيضا في أن هذا التــاريخ كــان أوروبيا كاملا - وهذا إثبات طبيعي وإن كان غير متعمد لتأكيد هيجل للمكــان الذي يمكن أن يحدث فيه التاريخ. وكان نمط جيمس مألوفــا أيــضا بطريقــة أخرى: فقد كانت اللغة تتمثل في اللغة القتالية للتفاسير الماركسية (الموروثــة من الفلسفة الألمانية) - وكانت بمثابة لسان رافض يستخدم لإذلال المعارضة. وكانت نتائجها عبارة عن توابع متوقعة: انتقاص مطلق من "التابعين" (ستالين، تروتسكي، شاختمان، الخ) في مقابل مديح "المفكــرين الحقيقيــين" (هيجــل، ماركس، إنجلز، لينين). واستمتع جيمس بهذا الشكل واستغله باستمرار حتــى أصبح قادرا على إنقاذ مضمون حجته في الازدهار التاريخي الذي انتهى إليه. وكانت "ملاحظات على النهج الجدلي" لا تزال تمثل إنجازا ملحوظا. فقد كانت مثالا نادرا جدا على الماركسية الحية النشطة المصارعة. وكانت أوهامها قليلة في ضوء الرفقة التي حققتها. وعلى الرغم من أن مؤلفها لم يتردد في تــولي دور رائد الماركسيين الغربيين، كانت أسسه جوهرية: حيث كانــت القــضايا المطروحة آنئذ في الحركة الماركسية يساء فهمها كثيرا لدرجة أنه كان يجــب اقتراح إلغاء التراث ذاته. ولكنه نجح بطرق عديدة في إنقاذ الفكر الماركــسي

في القرن العشرين، عندما بدا لكثيرين أن لينين حقق العكس تماما: أي القضاء عليه كمرجعية. وأظهر اتجاها جديدا عندما بدا أن كـل الاحتمـالات كانـت تؤدي إلى النهاية.

ويجب أن ينتهي تناولنا لجيمس هنا. ولكن كتابته وسياسـته مـستمرة. فعندما رحل من الولايات المتحدة في ١٩٥٢، عاد إلى بريطانيـا، وقـضى سنوات قليلة في الوطن في ترينيداد ليعود إلى الولايات المتحدة ثم بريطانيـا ثانية. وعقب كتابة " ملاحظات على النهج الجدلي"، كتب "رأسمالية الدولـة والثورة العالمية" (١٩٥٠). وفي جزيرة إيليس (قبالة نيويورك)، بينما كـان ينتظر إجراءات "وزارة الهجـرة والجنـسية الأمريكيـة"، ألـف "البحـارة والمارقون والمنبوذون"، وهو عبارة عن نقد أدبي سياسي للرواية التي كتبها هيرمان ميلفي، والتي تحمل عنوان "موبي ديك Moby-Dick" والرواية الأخرى التي تحمل عنوان "بيير Pierre "، التي شـملت ملاحظـات عـن الاحتجـاز ومواجهاته الشخصية المحملة بالصراع مع السجناء الشيوعيين "الأمريكيين". وخلال السنوات العشرة التالية نشر جيمس كتاب "مواجهـة الحقيقـة" (مـع جريس لي وبيير شوليه، ١٩٥٨)، وكتاب "السياسة الحديثة" (محاضراته في ترينيداد في ١٩٦٠)، وكتاب "وراء الحدود، وهو ملحق مهم لإعادة إصـدار "اليعاقبة السود" (١٩٦٣)، والكثير من المراجعـات والمقـدمات والمقـالات والأوراق، التي يتضح مداها في مجموعتين نشرتا حـديثا: "المـستقبل فـي الحاضر"، و"مجالات الوجود". ومن بين أعمال جيمس الكبرى، كان عملـه الأول (اليعاقبة السود) هو الذي جذبه إلى مدار الفكر الراديكالي في ستينيات القرن العشرين وما بعدها.

وكان شتات السود، وخاصة البرجوازية الصغيرة المكافحة للسود التي فقدت صبرها تجاه التفرقة العنصرية الأمريكية، هم الذين أعادوا اكتشاف كتاب "اليعاقبة السود". حيث ساعدهم الكتاب أولا، ثم المؤلف ثانيا، على تأكيد كفاحهم الأيديولوجي ضد ثقافة البرجوازية. وقدمت حركة السود الجماهيرية الدافع. وأذهل جيمس هؤلاء المفكرين السود الجدد بفكره الرائع، وتحليلاته المثيرة، وفهمه لتاريخ السود. وأصبح ذلك الكتاب بمثابة المرجع الأساس بالنسبة إلى جمهور أصغر بجيلين من معاصريه، كما أصبح المعلم الذي يبجلونه، وأصبح بمثابة العلاقة الحية المستوعبة بينهم وبين الماضي الذي لا توجد لدى الكثيرين منهم سوى فكرة غامضة عنه (أو توقع عميق كما يحدث كثيرا). ولكنه كان يحزنهم أحيانا أيضا، حيث كان يشن معارك شرسة في ميادين مشحونة بأشباح ماركسية فقط.[٢٠٥] وعندما استعادوه إليهم، أصبح ثانية معتادا على تقديم نفسه "كأوروبي أسود".[٢٠٦] وتوصل بعضهم إلى شيء ما عما كان يتوقعه منهم. ولكن جيمس تعلم منهم أيضا ما عبر عنه بقوله:

"لقد قضيت قدرا كبيرا من وقتي في رؤية مقدار فشلي في الفهم عندما كنت صغيرا، وكانت حياتي كلها مكرسة للأدب الأوروبي والاجتماع الأوروبي. أما الآن، فقد بدأت في رؤية ذلك، حيث تساعدني الكتابة كثيرا"[٢٠٧].

وربما ستظهر سيرته الذاتية التي طال انتظارها كيف أن النغمة المنعكسة من تفكيرهم الراديكالي الأسود قد أثرت عليه. إذ إن ما منحهم إياه لم يعد سرا غامضا.

الفصل الحادي عشر

ريتشارد رايت ونقد النظرية الطبقية

النظرية الماركسية والمفكر الراديكالي الأسود:

ظهر أول بناء منهجي للتأريخ الراديكالي بصورة ما على أيدي شخصيات مثل ويليامز، توماس، دو بويز، جيمس، بادمور، وذلك لنفس الأسباب المعقدة التي قدمها جيمس عندما كتب عن القادة الثوريين: حيث استفادوا بصورة مباشرة من "المزايا الثقافية" للنظام الذي شنوا عليه هجومهم الأيديولوجي. ونظرا لأن هؤلاء القادة كانوا ورثة البرجوازية الصغيرة للسود، فقد تمتعوا بطبيعة الحال بالحسنات الفكرية للنظام الحاكم الذي صاغوا منه انتقاداتهم. وهناك عملية أقل وضوحا أشعلت تمردهم. فنظرا لأنهم كانوا طموحين وحققوا إنجازات في نفس المهارات التي أدركوا أنها تؤهلهم للأدوار القيادية في المجتمع البرجوازي - الذي ميز "بالطبع" بين الأفراد غير العاديين (أصحاب النفوذ) والجمهور العادي - فإن ولاءهم للنظام القائم كان يتوقف فقط على مدى اتساقه.

وعندما هدم النظام العنصري تجربتهم مع "عموميات" الحضارة الغربية، كان لا بد أن يواجهوا بديلين فقط: إما تحمل استمرار الوهم الشامل بصورة ساخرة على مضض، أو محاولة تحقيقه في الواقع. ومن الواضح أنه عندما اختارت هذه الشخصيات البديل الثاني، لم يكن هذا خيارا خاصا يمثل

طبقتهم. فنظرا لأنهم كانوا لا يزالون خاضعين لما وصفه جيمس بأنه "العيوب السياسية" الكامنة المرتبطة بأصولهم الاجتماعية، يمكن فهم افتتانهم ببعض جوانب الماركسية التي ترجع إلى مصادر تكوينها. إذ إن الأصل والقوة الفكرية للماركسية، وادعاءها امتلاك الحقيقة الخفية، ومعارضتها العلنية للنظام الاجتماعي الغادر، وتصوراتها البديلة للأصول التاريخية للطبقات الحاكمة، التي أصبحوا يحتقرونها، وارتباطها بالطبقات الدنيا، جعل الماركسية رفيقا لا يقاوم.

وكذلك، كان الماركسيون غير ملتزمين بتخفيف ما كان التيار العام للفكر البرجوازي يحاول إخفاءه، والمتمثل في أن النظام الاجتماعي "الطبيعي" يميل إلى الاضطراب والفوضى. بل على العكس، كون المنطق الماركسي نظاما تاريخيا من القوى الاجتماعية الفوضوية المشوهة داخل النظام العالمي الرأسمالي. وكانت الماركسية (ولا تزال) قاعدة عليا لتجميع العمالة المفككة مع تزايد اضطراب الإنتاج الرأسمالي وتسارع التطور التقني؛ وزيادة اللجوء إلى قوة الدولة من خلال الترشيد البيروقراطي؛ وخنق أقاليم كاملة (معظمها مستعمرات سابقة) من خلال آليات التسعير، والتلاعب بالأسواق، واحتكار التقنية المتقدمة، والتنظيم الدولي للإنتاج، والنظام المصرفي الدولي، والمساعدات العسكرية، والقضاء على استقلال الاقتصادات أحادية الثقافة. وكذلك، تضمنت الماركسية أن الميزة الخاصة للمفكرين الثوريين والمتمثلة في فهم هذا النظام العميق الخارج عن الوجود. وفي جيل هؤلاء المفكرين السود، تأكدت الماركسية بصورة نهائية في سلطتها التاريخية بالثورة الروسية.

ومع ذلك، اتسم هذا الارتباط الأخير بالغموض، ففي أذهان المفكرين السود، طوال ربع قرن، تدهورت أهمية الدولية الثالثة. فبالنسبة للبعض، مثل بادمور، ثم كوكس، كانت الشيوعية الدولية (الستالينية) ببساطة مجرد اختراع غربي مضلل؛ وبالنسبة لآخرين، مثل جيمس، كانت الشيوعية تمثل نقيض الدولية الثالثة؛ وأخيرا، فإنه بالنسبة للذين كانوا يشاركون دو بويز تجربته، كانت الشيوعية الدولية مجرد وسيلة مناسبة للاحتجاج. ومع ذلك، وبعيدا عن الحركة الشيوعية، استطاعت النظرية الماركسية أن تحتفظ بقدرات خاصة. وعلى الرغم من ضعفها، كان في الماركسية خطاب حيوي لم تستجب له أية أيديولوجية برجوازية بصورة مناسبة. واستمر انتظام الحروب العالمية للرأسمالية، وانتشار الفقر والاستغلال، وتركز الثروة، وانتشار القمع. ووضع المفكرون البرجوازيون في مكان هذه الظواهر الوبائية فكرة "العيوب المؤقتة" التي يمكن علاجها. ولكن الماركسيين أعلنوا صراحة أنها لم تكن كذلك.

ومع ذلك، كان هناك الكثير بالنسبة لهؤلاء المفكرين السود الراديكاليين، أكثر من أصولهم الطبقية، والتناقضات التي مروا بها في ظل النظام العنصري للحضارة الغربية. والأكثر أهمية مما يمكن أن تقترحه الماركسية "العلمية" هو أن هؤلاء المفكرين كانوا عناصر في قوة اجتماعية صاعدة تاريخيا: أي الحركة الراديكالية للسود. وعلى الرغم من أنهم تربوا فكريا بهذه الطرق لمعارضة تحقيقها الواعي، فإن التربية الفكرية للمفكرين السود الراديكاليين أعدتهم للاعتراف الفعلي بالماركسية العلمية. ويمكن أن نرى، حتى لدى المفكرين المستغربين مثل جيمس ودو بويز، أن القوة التاريخية لحركة السود كانت الأقوى تأثيرا. بل إن اكتشافهم للراديكالية الغربية لم يكن

كافيا. وكما رأينا، فقد أصبح ضروريا لكل منهما أن يحاول جعل النظرية الماركسية تؤثر على ظاهرة تاريخية، في حين تعتبر مفرداتها التحليلية غير مناسبة لها. ومنذ بداية هذه الجهود، لم يستطع لا دو بويز ولا جيمس ولا بادمور ولا كوكس أن يحافظ على الالتزام بالماركسية التقليدية.

ولكن كان هناك أيضا آخرون كانت لديهم معارضة مماثلة في أعمالهم؛ حيث ظهر هؤلاء من مجتمعات السود وكانوا يبحثون عن معارضة شاملة للعنصرية الغربية والمجتمع البرجوازي. وكان أحد أهم هؤلاء هو ريتشارد رايت **Richard Wright**. فعلى عكس الذين ركزنا عليهم سلفا، لم يكن رايت من البرجوازية الصغيرة. حيث ترجع أصوله إلى الطبقة القروية السوداء في الجنوب الأمريكي. ولم تتأثر مواجهته مع الماركسية والحركة الشيوعية بالتوجهات الثقافية السيئة التي صاحبت اليقظة الفكرية لرجال ونساء الطبقة الوسطى. وزودته طفولته ومراهقته في المسيسبي – والتي خضعت للتعرض المباشر للوحشية العنصرية – بقدر قليل من تقدير أو توقعات المجتمع البرجوازي وثقافته.[١] وقد ولج رايت في الماركسية لأسباب كانت تختلف كثيرا عن أسباب ولوج الشخصيات السابقة فيها. وعندما انسحب منها، كان مختلفا عنهم أيضا. حيث تشير رؤيته لتجربته في الحركة الشيوعية والفكر الماركسي إلى تغلغل بديل في العلاقة بين الفكر الراديكالي الأوروبي والتصورات التاريخية للحركة الثورية السوداء.

وكان الغموض الذي يحيط برايت يرجع جزئيا إلى سلسلة جولاته الفكرية. وبالتحديد، كان ذلك يرجع إلى أمانته العامة بشأن رحلته في الحياة. هذه الرحلة التي أخذته من الماركسية، عبر الوجودية، وأخيرا إلى الفكر

القومي الأسود وهي الرحلة التي يمكن تتبعها من ناحية السيرة الذاتية من عضويته في الحزب الشيوعي الأمريكي في أوائل الثلاثينيات إلى وفاته في فرنسا في ١٩٦٠.

وكان هناك مصدر آخر على نفس القدر من الأهمية للطبيعة غير المحددة لتراث رايت، ألا وهو حملات تشويه السمعة العديدة والمكثفة بصورة ملحوظة، والتي شنها ضده اليسار الأمريكي والمفكرون الليبراليون والبيروقراطيون الأمريكيون. حيث كانت هذه الهجمات تتراوح من الهجمات الأدبية التي يشنها كتاب مثل جيمس بالدوين،[٢] إلى الغارات السياسية من شخصيات مثل جيمس فورد،[٣] بن بيرنس،[٤] محرر إيبوني Ebony آنذاك، والتقارير المشوهة عمدا في صحيفة التيمز عن رايت وآخرين،[٥] وعمليات وكالة الاستخبارات المركزية،[٦] والتهديدات من مناهضي الشيوعية الذين كانوا أقوياء ثم أصبحوا منسيين، مثل ديفيد شاين.[٧] ويبدو أنه من العدل أن نقرر أنه على الرغم من أن هذه الفصائل السياسية المتميزة والمتعارضة في بعض الحالات كان لها مصالح مختلفة في تدمير تأثير رايت على الأدب والسياسة الأمريكية، فإنها كانت تتفق على الرغبة في قمع أعماله وأفكاره.[٨]

وعلى أي حال، كانت النتيجة سواء: حيث تحول النفي الجغرافي الذي فرضه رايت على نفسه إلى عزلة فكرية وسياسية. وكذلك، حاولت بعض هذه القوى فرض مزيد من العقاب على رايت بملء حياته في أوروبا وبريطانيا العظمى بمضايقات من جميع المستويات التافهة والمرعبة.[٩] وكان ذلك بهدف أن يدرك رايت العواقب الكاملة لانتقاده السياسات العنصرية المحلية الأمريكية ومهاجمة السياسة الأمريكية الخارجية في العالم الثالث.

ومع ذلك، وعلى الرغم من منتقديه ومسانديهم، وعلى الرغم من السلطات السياسية والثقافية القوية المستقرة في المجتمع الأمريكي، استمرت بعض أعمال وأفكار رايت. وقد تبدو عودة ظهور أهمية رايت في الفكر الأمريكي مثيرة للسخرية في البداية. إذ إن الكثيرين من نقاده أصبحوا الآن مجرد ظلال صغيرة في التاريخ. ولكن بصورة أدق، كان ذلك نتيجة التناقضات الاجتماعية والتاريخية للرأسمالية الأمريكية ونظامها الاجتماعي.

وفي خضم وعي السود والحركات القومية في ستينيات القرن العشرين، فرضت مقتضيات السوق إغراء إعادة نشر روايات رايت التالية(١٠):

- غريب **Outsider (1965)**
- ابن البلد **Native Son (1966)**
- صبي أسود **Black Boy (1966)**
- ثمان رجال **Eight Men (1969)**
- جوع أمريكي **American Hunger (1977)**

وكانت هذه الأعمال تتحدث إلى جيل لم يعش رايت حتى يراه، ولكنه كان قد توقعه. وكان من المهم أيضا ظهور كُتّاب ومؤلفي مسرحيات من الشباب السود على نفس المستوى من الكفاح (في مقدمتهم اليوم جون ويليامز، ليروي جونز، إد بولينز، ميلفن بيبلز، إسماعيل ريد). وكان معظم أعمالهم يدخل بسهولة فيما سماه الناقد الأمريكي، روبرت بون، "مدرسة رايت".

في مدرسة رايت رايت، تعد الكتابة تفريغا للعواطف – أي وسيلة لتبديد التوترات الداخلية للسلالة. حيث كانت رواياتهم تصل غالبا إلى مستوى صرخة طويلة من الغضب واليأس. ومع ذلك، وعلى الرغم من الاقتراب الشديد من هذه المواد، والشعور بها بكثافة، كان هؤلاء الروائيون يفتقدون إلى الإحساس بالشكل والخط الموضوعي".(١١)

وعلى أي حال كان روبرت بون قد أعلن سلفا موت تلك المدرسة قبل ذلك بعشرين سنة، حين قال: "بحلول أواخر الأربعينيات، كان مصدر المواد الأدبية التي كشفها ريتشارد رايت قد نضب. فقد أصبح سوق الاحتجاج متشبعا".(١٢) ويبدو حقا أن بون كان متعجلا قليلا.

ومع ذلك، كان الأهم من استمرار أعمال رايت بقاء القوة النظرية والتحليلية لأفكاره. إذ إن إنجاز رايت التنظيري، مع حافز المادية التاريخية والتحليل النفسي، يقترب كثيرا من الأدب الأوروبي الصاعد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (سارتر، ميرلو لونتي، كوستلر، لوكاس، ماركوس، كولاكوفسكي)، مقارنة بأي نمط أمريكي. فمثل العديد من المفكرين اليساريين الأوروبيين، كان رايت يتخطى الماركسية التقليدية والماركسية التي ألهمها لينين لكي يصل إلى توافق مع عالم يتكون من قوى مادية وروحية فريدة تاريخيا. وبالتالي فإنه يمكن أن يقال إن المجال الذي نظر إليه رايت كان أبعد كثيرا مما تتضمنه المصطلحات التي استخدمها العديد من نقاده الأمريكيين. فلم يكن مجرد "روائي راديكالي"، ولا "كاتب محتج" ولا "متمرد أدبي".(١٣) ففي الحقيقة، كان معظم أعماله بمثابة مواجهة مباشرة مع الأفكار السائدة والنظم الفكرية في الفكر السياسي والاجتماعي الأوروبي المعاصر. فقد كان

مجاله يتمثل في مجموع الحضارة الأوروبية وعناصرها المكونة: التصنيع، التحضر، الاغتراب، الطبقة، العنصرية، الاستغلال، وهيمنة الأيديولوجية البرجوازية. وهكذا كانت أعماله تمثل استقصاء بحثيا.

وكان إصرار رايت على استكشافه للمجتمع الغربي عاملا مهما في المساهمة في تحقيق اتساق معين في أعماله. فباعتباره فنانا، وكاتبا، وناقدا، وناشطا سياسيا، كان من الواضح أنه رتب وأعاد ترتيب العناصر المكونة لظواهر التطور الغربي مرات عديدة. فقد كان يعرف أسماء التجارب الغربية، ولكنه كان أقل تأكدا مما كان يعرفه عن طبيعتها وعلاقاتها النظامية والتاريخية. وكان هناك تساؤلات تنتظر أن يجد إجابات لها، ومنها: هل كانت الطبقة العاملة حقيقة اجتماعية؟ هل يستطيع الوعي الطبقي أن يشكل أيديولوجية تتجاوز العنصرية؟ هل كان الحزب يمثل طليعة البروليتاريا؟ هل كانت الماركسية أكبر من مجرد نقد للرأسمالية؟ وكانت هذه بمثابة بعض القضايا التي لم يجد رايت إجابات مرضية لها في السياسة المنظمة والتنظيمية. وفي النهاية، فإنه بفضل مهارته في تحويل التجريدات والمركبات النظرية إلى تجارب إنسانية يمكن التعرف عليها، استطاع أن يتلمس الفروق بين المبادئ والواقع.

ومن الناحيتين النظرية والأيديولوجية، توصل رايت إلى توافق مع الفكر والحياة الغربية من خلال قومية السود. ومع ذلك، كان أساس نقده للمجتمع الغربي يرجع إلى تجربته مع التكوين التاريخي للشعوب السوداء في أفريقيا والشتات، من ساحل الذهب إلى دلتا المسيسبي.(١٤) ومن الناحية الطبيعية والفكرية، كان مهتما بنفس القوى التي أنتجت الاستكشافات النقدية لكل من دو بويز، جورج بادمور، وجيمس. وكما يقول ميشيل فابر:

"تتمثل أصالة رايت في أنه فهم تماما وألح على أن وضع السود في القرن العشرين - وخاصة خلال الفترة الحرجة من "كساد" ثلاثينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة – أدى إلى ظهور استثنائي "لقوة السود". حيث شهدت هذه السنوات يقظة العالم الثالث والتحول الهائل لحضارتنا. وكانت عبارة "يعتبر تحرر الشعوب الملونة في العالم أهم حدث في قرننا" تتكرر كثيرا في أعمال رايت. ولكن نفس الرسالة التي قدمها دو بويز قبل نصف قرن لم تحقق نفس البعد الوجودي".[١٥]

ولم يصنع رايت هذه القوى التي كانت تحدث تحولا في المجتمع الغربي، ولكنه كان يهدف إلى منح هذه الأحداث معنى مستقلا عن التفسيرات التي تحددها مصالح الحضارة الغربية التي صاغها المفكرون والمنظرون.

ولا يزال هناك البعض ممن يدعون أن رايت حقق القليل من وعوده. وكان من بينهم هارولد كروز الذي كتب أن رايت "لم تكن لديه رؤية أيديولوجية بسبب ضباب القومية اليهودية الماركسية لدرجة أنه لم يستطع رؤية قوميته هو بوضوح"؛ وأن رايت لم يفهم "أن أعمال ماركس وإنجلز لم تكتب للبروليتاريا، ولكنها كتبت لطبقة المفكرين"،[١٦] وأخيرا، أنه "لم يستطع أن يجمع لنفسه كل مكونات القومية؛ لتكوين القيم وصهر المفاهيم التي تستطيع سلالته من خلالها 'الكفاح والحياة والموت'".[١٧]

إذن، هناك اثنان من التفسيرات العديدة يضفيان على رايت أهمية خاصة. حيث يضعه أولهما في إطار المفكرين السود الراديكاليين. بينما يخرجه الثاني من نفس هذا الإطار. وسوف ندرس في الصفحات التالية أي هذين التفسيرين لعمل هو الأكثر ملاءمة.

الرواية مرآة للسياسة:

كان ريتشارد رايت بأعماله روائيا في الأساس. ولكنه روائي مشارك في العمل الاجتماعي، حيث كانت رواياته أكثر من مجرد شكوى ضد الأوضاع الإنسانية أو مجرد ملاحظات عليها. فقد كان رايت يهدف بكتاباته أن يشارك ويواجه الحقيقة السياسية للحركة. وكان روائيا يعرف أن جزءا من عمله يتمثل في التوصل إلى توافق مع طبيعة التغير الاجتماعي والجهات التي ظهرت كمحاولات لتوجيه هذا التغير. وكان تطوره المبكر يعكس اهتماماته بوعي، بداية من مقاله في ١٩٣٧ "برنامج عمل للكتابة الزنجية". حيث نرى في هذا المقال المقترحات الأولى للاستقلال النقدي للفكر لدى رايت.

"يتمثل المنظور... في تلك النقطة الثابتة في الفضاء الفكري، حيث يقف الكاتب لرؤية كفاح وآمال ومعاناة الناس.... ومن بين كل المشاكل التي يواجهها الكتاب الذين لم يربطوا أنفسهم ككل بالحركات العالمية، فإن المنظور الفكري هو أصعب الإنجازات".[١٨]

وكان رايت يعلن صراحة أنه كان يريد أن تعكس أعماله مفكرا ملتزما، أي المفكر الذي علمته النوايا السياسية وعملية حركة التاريخ. وكان سيكرس نفسه أيضا للمهمة التي ستشغله طيلة ٢٣ سنة مقبلة حتى وفاته: أي موقع "رؤيته النظرية" في مركب الكفاح من أجل تحرير العالم الثالث. وكما سنرى، فإن ما اكتشفه رايت في النهاية كان بمثابة موضع نفسي وفكري لا يشبه أي شيء آخر شملته تجربته في الراديكالية والحراك الغربي. ولحسن الحظ، فإن قدرا كبيرا من استعداده لهذا الاكتشاف كان موجودا في رواياته.

وعندما نتناول أعمال ريتشارد رايت الخيالية والسياسية صراحة، تبرز لنا ثلاث روايات: "ابن البلد"، و"غريب" و"جزيرة الهلوسة Island of Hallucination " ونشرت الرواية الأخيرة بعنوان "جوع أمريكي American Hunger" إضافة إلى مجموعة من القصص الصغيرة بعنوان "أبناء العم توم Uncle Tom's Children". وتمثل هذه الأعمال معا تسلسلا زمنيا، وتفسر تجارب رايت مع الشيوعية الأمريكية والعمل السياسي. وتمثل أيضا دراسات للماركسية كنظرية في التاريخ والثورة الاجتماعية، والتطور الاجتماعي والنفسي للطبقة العاملة الأمريكية، والتطور التاريخي والأيديولوجي للسود الأمريكيين. ويجب ألا يتأثر الاهتمام الجاد بهذه الأعمال بالشكل الذي حاول من خلاله رايت أن يصيغ أفكاره. ففي الواقع، يجب أن نعترف بأن أعماله تناسب مهامه بصورة فريدة. فباستخدام هذا الشكل، استطاع رايت أن يعيد تركيب ووزن التعقيدات والأشياء الدقيقة في السياسة الراديكالية كما مر بها هو والآخرون. واستطاعت شخصياته الروائية أن تعيش وتكافح عبر الأزمات التي واجهتها. واستطاعت "اختبار" المعاني والأهمية التي منحها لهذه التجارب. وبالتالي كانت رواياته بمثابة وثائق أكثر "أصالة" من الأشكال التقليدية للتاريخ والسير الذاتية والمسارات السياسية، لأنها بنيت على قصص حياة كان مطلعا عليها. فقد استطاع رايت في هذه الروايات أن يحقق أهداف نسج الوعي بالحياة في إطار النظرية والأيديولوجية الاجتماعية.(١٩)

لقد انضم رايت إلى الحركة الشيوعية الأمريكية في أوائل الثلاثينيات. حيث توافقت هذه الفترة مع زيادة كثافة عمل الحزب بين السود بعد صدور "قرار بشأن المسألة الزنجية" عن المؤتمر السادس للكومنترن في ١٩٢٨،

وبدايات محاكمات سكوتسبرو Scottsboro Trails في ١٩٣١. ولكن رايت ترك الحزب بعد ذلك بعقد. وخلال هذه السنوات، كان يعمل في الحركة بقدراته المختلفة مسؤولا عن التنظيم وعضوا في خلية بأحد الأحزاب السوداء بشيكاغو، ومسئول في نوادي جون ريد John Reeds، وكاتب للصحافة الشيوعية. ففي البداية، كانت أعماله الخاصة بالحزب تتم في شيكاغو أساسا؛ وبعد ذلك، انتقل إلى هارلم Harlem.[٢٠] وبالطبع، كانت كتاباته خلال تلك الفترة تتأثر بالحزب الشيوعي بصورة مباشرة. وبحلول ١٩٣٧، وهي السنة التي نشر فيها "برنامج العمل ..."، كان قد أصبح كما يقول دانيال آرون: "المؤلف البروليتاري الأكثر وضوحا للحزب".[٢١]

وتولى رايت بجدية هذه المسئولية ككاتب بروليتاري. حيث كان ملتزما بمهمة التعبير عن فكر ووعي وتجارب الطبقة العاملة. وتتمثل إحدى ذكريات هذه الفترة في انطباعه الأول عن الحزب: "إنني أشعر بأن الشيوعيين أفرطوا في تبسيط تجربة من يحاولون قيادتهم.... ولكنهم أخطأوا فهم معنى حياة الجماهير".[٢٢] وكان رايت يهدف إلى صياغة ذلك بصورة صحيحة، فقد كان يجب السماح للبروليتاريا بالتعبير عن نفسها بصوتها. وكان يدرك جيدا أنه يحمل مسئولية سلالية خاصة تجاه الطبقات العاملة للسود، ويعبر رايت عن ذلك بقوله:

"يتحمل الكاتب الزنجي الذي يحاول أن يعمل بشكل هادف في إطار سلالته مسئولية كبيرة للغاية، ويحتاج إلى وعي مركب عميق مطلع؛ أي وعي يستمد قوته من تقاليد شعبه العظيم، ويدمج هذه التقاليد في المفاهيم المعاصرة التي تحرك وتوجه قوى التاريخ... والكاتب الزنجي يُستدعى للقيام

بما هو أكبر من مجرد تكوين القيم التي تستطيع سلالته من خلالهــا الكفــاح والحياة والموت... لأن كتاباته تحظى بإمكانية التسلل إلى أعماق خبايا القلب الإنساني، ويستطيع من خلالها تكــوين أســاطير ورمــوز تلهــم الإيمــان بالحياة".(٢٣)

وكان رايت ككاتب أسود يفترض أن الطبقة المفكرة عليها التزام بتقديم الوسائل الأيديولوجية والرمزية التي يمكن من خلالها أن تتكون حركة السود الصاعدة، على أن تتأصل أولا أعمال هذه الطبقة في ثقافة شعبها.

ومن خلال العمل بهذه المفاهيم، كان رايت يعكــس بوضــوح تراثــا ماركسيا مبكرا، وهو التراث الذي حول فيه لينــين البرجوازيــة الــصغيرة "المارقة" إلى طليعة ثورية.(٢٤) (يبدو أن رايت كان يعارض دائما مناهــضة الرؤية الستالينية التي ميزت الحركة الشيوعية محليا ودوليا في الثلاثينيات). ولكن رايت كان مهتما أيضا بتراث آخر مستقل، كان قد ظهر بين السود في الولايات المتحدة خلال أواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القــرن التاســع عشر. ففي هذه اللحظات التاريخية، ومن بين صــفوف الــسود الأحــرار، ظهرت نخبة فكرية وسياسية واقتصادية تولت القيادة نيابة عــن الجمــاهير السوداء الخاضعة للاستعباد. حيث ساهمت هذه النواة لاحقا في تكوين الطبقة الوسطى للسود. وقد منح دو بويز روح هذه الطبقة وتراثهــا الاجتمــاعي التاريخي اسمها الذي استمر طويلا: العشر الموهوب.(٢٥) وهكذا كان رايــت ينشر تراثين متميزين ومتعارضين. ولكن حتى هنا فإن الأهم من ذلك أنــه بينما كان يخاطب المفكرين السود ظاهريا، إلا أنه كان يحاول أيضا العمــل على إعادة خلق عالمه بمصطلحاته الأيديولوجية الخاصة.

النظرية الاجتماعية لدى رايت

تعتبر شخصية بيجر توماس هي بطل رواية "ابن البلد"، وقد نسب إليه رايت مجموعة من الإنجازات والأهداف والاهتمامات. إذ يقول أديسون جايلي- مرددا أقوال العديد من النقاد السابقين - إن رايت جسد النمط التوراتي للرجل الأسود، وهكذا فإنه حرر الوعي الأمريكي من تراكم حمل ثقيل.[٢٦] وفي أماكن أخرى، يجد المرء أن هذه الرواية فهمت على أنها "تكملة للأسطورة الخرافية التي كتبت الرواية أساسا لتفنيدها. إذ إن بيجر هو حفيد العم توم، من لحمه ودمه، كما لو كان صورته في مرآة"،[٢٧] كدراسة في نفسية المنبوذين؛[٢٨] وكبيان للمأزق الإنساني.[٢٩] وبعبارة أخرى، كانت أعمال رايت المبكرة تتصف بمجموعة من الانتقادات التي تتراوح من الاحتجاج المحدد سلاليا إلى الإعلان العام. ومع ذلك، قد يكون من المفيد أن نضيف بعدا آخر مختلفا إلى هذه الرواية - وهو بعد ظهر في وعي رايت بأعماله.

"في ١٩٤٤، وبناء على إعلانه الرسمي ترك الحزب الشيوعي الأمريكي (كان الانفصال قد حدث فعليا قبل ذلك بعامين)، أظهر رايت عددا من الاهتمامات الأخرى بوضوح. وكان بعضها يتعلق بأنه أصبح أولا جزءا من الراديكالية الأمريكية.

لم يكن اقتصاد الشيوعية، ولا كبر قوة نقابات العمال، ولا إثارة السياسات السرية، هي التي جذبتني؛ ولكن اهتمامي تأثر بتشابه تجارب العمال في مناطق أخرى، وباحتمال توحد الشعوب المنتشرة والمتصلة في كيان واحد.... فهنا على الأقل، في مجال التعبير الثوري، يمكن أن تجد تجربة الزنوج موطنا لها، وقيمة ودورا وظيفيا".[٣٠]

وتشير الدعاية الماركسية لديه إلى أن السود يحتاجون إلى ألا يكونـــوا وحدهم (دون البيض) في الكفاح من أجل التحرر والكرامـــة. وكـــان أمـــل البروليتاريا العالمية الموحدة والقوية السوداء والبيضاء يستهوي رايت.

وقبل لحظة هذا التحول الفكري، كان ينظر إلى الحزب الشيوعي على أنه منظمة للبيض، وبالتالي فهو ليس محل ثقة، خاصة فيما يتعلق بادعاءاته المتعلقة بالسود. والأهم من ذلك، أنه حتى هذه اللحظة كان قد استبعد تنظـــيم الفقراء والمقهورين كخيال شخصي وحلم محبط مؤلم. وفي نفس تلك الأمسية أيضا - في زيارته الأولى إلى نادي جون ريد - علق رايت قائلا: "كنـــت أقابل رجالا ونساء كان يجب أن أعرفهم لعقود تالية، ممن كـــانوا يـــشكلون الصداقات الأولى الدائمة في حياتي".[٣١]

وبغض النظر عن الرؤية الاجتماعية للماركـــسية وأخويـــة الـــشيوعية الأمريكية، كان قرار رايت بأن يصبح جزءا من هذه الحركة مدفوعا بعنصر آخر، ألا وهو فرصة تحويل نفسه من ضحية "سلبية" إلى مدافع نشط، وهنـــا يقول رايت:

"لقد كان هناك شيء أستطيع أن أفعله وأكشفه وأقوله. فقد شعرت بـــأن الشيوعيين أفرطوا في تبسيط تجربة الآخرين الذين كانوا يحاولون قيـــادتهم. وخلال محاولاتهم لتعبئة الجماهير، ضاع منهم معنى حياة هـــذه الجمـــاهير، ونظروا إلى الناس بطريقة بالغة التجريد. وسوف أحاول أن أستعيد بعـــض هذه المعاني، وسأخبر الشيوعيين بما يشعر به الناس العـــاديون، وســـأخبر الناس العاديين بالتضحية الذاتية للشيوعيين الذين كافحوا لتحقيق وحدتهم".[٣٢]

وكان رايت يرى أن مهمته تتمثل في تطعيم الحركة بلغة وتصورات تعطي معنى للبروليتاريا المجردة في أيديولوجية الحزب. وكان لديه مركب من الدوافع - رؤية، أخوة، وهدف - الكافية ليفسر لقراء رواياته اهتماماته الاجتماعية والسياسية في أعماله المبكرة. ومع ذلك، وكما سنرى، كان لدى رايت تجربة مختلفة تماما عبرت عن نفسها في موضوعات متمايزة، حملتها روايته "ابن البلد".

لقد دخل رايت الحزب وهو لا يدرك تاريخه ولا فصائله ولا مصطلحاته الشائعة.[٣٣] وكما رأينا، فإنه لم يكن مقتنعا من البداية بإخلاص الشيوعيين الأمريكيين. وهذا أمر مدهش في ضوء الحيوية الكبيرة "لعمل الزنوج" في الحزب في ذلك الوقت. وهو العمل الذي شمل الدفاع عن شباب سكوتسبورو؛ والمواجهة مع منظمات السود المحافظة؛ وتنظيم "مجالس المتعطلين" و "اتحادات المستأجرين"؛ وتطور "نظرية حزام السود" في حق تقرير المصير؛ وتنظيم "اتحاد الكفاح من أجل حقوق السود"، وعلى المستوى الدولي، تكوين "لجنة نقابات العمال الدولية للعمال الزنوج".[٣٤] وعلى الرغم من أنه كان عاملا بمستشفى آنذاك، فإنه اعتبر نفسه كاتبا، ونظرا لكونه كاتبا فقد صنفه المسئولون في صفوف الحزب على أنه "مفكر". وكان هذا يعني أن رايت يجب أن يتعرض لعدم الثقة التي يتعرض لها المفكرون، ولكن الأهم لدى رفاقه السود، هو أنه كان موضع شك "لميوله البرجوازية الصغيرة" - أي المصالح الأنانية - بل والأسوأ من ذلك وهو الميول التروتسكية. وهكذا كانت النتيجة حتمية على النحو الذي يشير إليه أحد الدارسين بقوله:

"لقد تسببت الأوهام المتتابعة في صرف حماسه الأصيل وإخلاصه التام إلى الوقوف حذرا. فقد كانت فرديته ضد هويته؛ وكان تحت رحمة قادة مثل أوليفر لو وهاري هايوود، وكان منبوذا من الوحدة ٢٠٥ من جانب بعض الرفاق السود، بل كان يتعرض للإساءة وتشويه السمعة".[٣٥]

وعندما دعي رايت إلى محاكمة الحزب لعضو أسود آخر (وهو الذي بنى عليه رايت قصته القصيرة "صبي يافع يترك البيت **"Big Boy Leaves Home**")، أدرك رايت أن المحاكمة كانت موجهة إلى شخص آخر:

"إن قصور حياتهم المحدودة - وهي الحياة المقتضبة والفقيرة بسبب القهر الذي عانوا منه طويلا حتى قبل أن يسمعوا عن الشيوعية - جعلهم يعتقدون أنني كنت مع أعدائهم. فقد أفسدت الحياة الأمريكية وعيهم لدرجة أنهم كانوا غير قادرين على التعرف على أصدقائهم عندما يرونهم. وأنا أعرف أنه لو وصلوا إلى سلطة الدولة فسيرموني بتهمة الخيانة العظمى".[٣٦]

لقد اطلع رايت على قدر كبير من الغضب بين زملائه السود، والذي وصل إلى مستوى تدمير الذات. ولم يكن ذلك بمثابة أيديولوجية ترجع إلى الحاجة إلى العقاب البدني للرفاق المنحرفين. وكانت وجهة نظرهم بمثابة درع واق ضد قتل النفس. وقد كتب رايت بعد ذلك: "إنهم مصابون بالعمى.... فقد سبب لهم أعداؤهم العمى نتيجة القهر الشديد".[٣٧]

وهذه هي الأزمة التي أثرت على تطور بيجر توماس: الشخصية المحورية في رواية "ابن البلد". وقد كتب رايت الرواية الأخيرة حين أراد أن يعلن رأيه، ومراجعته للماركسية الأمريكية كما ظهرت في حياة وتجارب الشيوعيين الأمريكيين:

"سوف أطلق الكلمات في هذا الظلام وأنتظر صداها، فإذا ظهر صداها، ومهما كان خافتا، فسوف أطلق كلمات أخرى لأقول وأتقدم وأكافح وأكون إحساسا بالتعطش للحياة التي تهدر فينا جميعا، وأحافظ على الإحساس بالإنسان ليبقى حيا في قلوبنا".(٣٨)

وقد حاول رايت في "ابن البلد" أن يعرض صورة أكثر صدقا وتاريخية ودقة للبروليتاريا التي ألزم الحزب نفسه بها. وكان قد بدأ تلك المهمة في روايته السابقة "Lawd Today" وأتت ثمارها في شخصية بيجر توماس. وواصل رايت – الذي تردد في مواجهة الماركسية على أسس نظرية – نقده لأيديولوجية اليسار الأمريكي بطريقته الخاصة: أي الرواية. وكان افتقار بيجر توماس في "ابن البلد" للوعي الطبقي– وبالتحديد المسافة الطويلة التي استغرقها تطور وعيه – أمرا مقصودا وهادفا. فلم يكن ذلك مجرد وسيلة أدبية، ولكنه كان وسيلة للوصول إلى استيعاب تجرد ورومانسية البروليتاريا التي أثرت على الأيديولوجية الشيوعية الغربية.

وأثناء وجود رايت في الحزب الشيوعي الأمريكي (١٩٣٤-١٩٤٢)، كان التركيز الرئيس للحركة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة على هزيمة الفاشية. فقد كانت العقيدة الرئيسة لعمل الحزب تتمثل في أن الفاشية كانت أداة الطبقة الحاكمة المعنية بمواجهة أزمة الرأسمالية العالمية المتمثلة في "الكساد". وهكذا كان يفترض أن الفاشية كأيديولوجية تعتبر غريبة على الطبقة العاملة. حيث قام إيرل براودر – الأمين العام للحزب الشيوعي الأمريكي – بجعل هذا الموقف واضحا جدا في التقارير والخطب والمقالات خلال أواخر الثلاثينيات.(٣٩) وكما أعلن براودر المتحدث الرسمي باسم الحزب الشيوعي الأمريكي أن كفاح الحركة كان سياسيا أساسا:

"فما هي الرسالة التي يبعثها هذا الصوت القوي للحزب الشيوعي إلى أمريكا؟ أولا وقبل كل شيء، هذه هي رسالة الحاجة إلى قيام جماهير الشعب العظيمة – العمال والفلاحين – بتنظيم ذاتها من أجل حماية نفسها".[٤٠]

وكانت إستراتيجية براودر بسيطة: "يمثل نمو الحزب الشيوعي أكبر ضمان ضد الرجعية والفاشية".[٤١]

وقد أدت إدارة براودر إلى وضع الحزب في جانب تأييد "السياسة الاقتصادية الجديدة" وإدارة روزفلت في ظل افتراض أن العمال الأمريكيين لم يكونوا مستعدين لمواجهة مسألة الاشتراكية.[٤٢] وفي الواقع كان الحزب يسعى إلى تحقيق الأهداف المتناقضة للإصلاح والثورة. وكما قال فيلهلم رايش بالنسبة إلى الحركة الشيوعية الألمانية خلال جمهورية فايمر، كان هذا نتيجة جزئية للفشل في التمييز بين تجريد الوعي الطبقي وشكله التاريخي المحدد.[٤٣] ومع ذلك، كان هناك أمر حيوي يتمثل في أن الحزب كان ملتزما بتعليمات الكومنترن بتكوين جبهة موحدة لمواجهة أعداء الطبقة العاملة.

وبالنسبة لرايت، كانت مسألة وعي العمال وبالتالي وعي التنظيم السياسي مسألة أكثر تعقيدا. وذلك لأنها تتضمن – كما كتب دفاعا عن "ابن البلد" – "الأماكن المظلمة والخفية للشخصية الإنسانية".[٤٤] ففي مقاله "كيف ولد بيجر"، كان رايت أكثر صراحة:

"كانت الحضارة التي ولد فيها بيجر لا تحتوي على جوهر روحي، ولم تكون ثقافة يمكن أن تصمد وتدعي إخلاصه وإيمانه بها، وجعلته حساسا وتركته هائما طليقا يجوب في شوارع مدننا، يعاني دوامة سريعة وساخنة من الدوافع غير المنظمة وغير الموجهة.

...لقد دهشت من التماثل بين التوترات العاطفية لدى شخصية بيجر في أمريكا، وبيجر في ألمانيا النازية، وبيجر في روسيا القديمة. فكل شخصيات بيجر توماس، من البيض أو السود، كانت تشعر بالتوتر والخوف والعصبية والهستيريا والقلق.... إذ إن بعض التجارب الحديثة المحددة كانت تشكل أنماطا من الشخصيات التي يتجاهل وجودها الخطوط السلالية والقومية الفاصلة".(٤٥)

وكان رايت يحاول التوافق مع النتيجة النفسية للوضع التاريخي الذي كانت قيادة الحركة الشيوعية تدركه بصورة غامضة. وكان رايت يصر على الحاجة إلى فهم الطبقة العاملة في حد ذاتها. وكان مهتما بقدرة جماهير البروليتاريا على إعادة إنتاج نفسها روحيا وثقافيا. فإذا لم يستطيعوا إعادة إنتاج الأيديولوجيات الاجتماعية التي حافظت عليهم، لن يستطيعوا القيام بالدور التاريخي الذي أسندته لهم النظرية الماركسية. وكذلك، فإن تفتت الشخصية والعلاقات الاجتماعية والأيديولوجية، والذي لاحظه وأعاد تكوينه رايت، كان شاملا لدرجة أن مضامينه السياسية والتاريخية كانت تتحدى بصورة خطيرة افتراضات الحركة الشيوعية:

"لقد شعرت بأن بيجر – وهو نتاج أمريكي، وابن هذه الأرض – كان يحمل معه احتمالات إما الشيوعية أو الفاشية.... وسواء كان سيتبع قائدا مهووسا مهرجا يدعي بتهور أنه سيسد الفراغ الذي لديه، أو كان سيتوصل إلى تفاهم مع الملايين من العمال الزملاء الأقارب في ظل نقابات عمال أو توجيه ثوري، فإن ذلك سيعتمد على المسار المستقبلي للأحداث في أمريكا.... ولكن... بيجر توماس، المتأثر بطبيعة تكوينه، لن يصبح مؤيدا للوضع القائم لا متحمسا ولا حتى فاترا.

لقد أدرك أن أية حركة سياسية تتصف لأسباب أيديولوجية بالطابع التقدمي للطبقة العاملة لن تنجح.

وبالتالي كانت رواية رايت تمثل رفضا للعقيدة الراديكالية من منظور تجارب السود. وقد حاول أولا أن يعيد تكوين تلك التجربة، وبهذا يفرض مواجهة بينها وبين الأيديولوجية الاشتراكية. وكانت شخصية بيجر توماس خاصة بالتجربة التاريخية للسود في الولايات المتحدة، ولكن طبيعته كانت بروليتارية، أي تاريخية عالمية. وعندما منح رايت وعي بيجر توماس صفة قومية، كان يوجه نفسه إلى كل من هذين الجانبين في شخصيته. وكتب أنه كان "يواجه هذا الجزء منه، والذي كان مزدوجا في جوانبه... وهو جزء لدى "كل" الزنوج ومن "كل" البيض".[٤٧] فإذا لم تستطع الحركة الثورية الأمريكية أن تتوافق مع "دعاوى" الفاشية، فإنها لن تستطيع أن تبدأ في فهم "الطبيعة" المباشرة للطبقة العاملة.[٤٨] واتفق مع ماركس على أن الرأسمالية كشكل من التنظيم تؤدي إلى تدمير الوعي الاجتماعي القائم على نظم اجتماعية غير رأسمالية. ومع ذلك، لم يقبل فكرة أن هذه العملية أدت إلى مركب أيديولوجي جديد. فالنتيجة الحقيقية، والنتيجة المشاهدة، كانت تتمثل في "عالم ظهر على مستوى الإحساس الحيواني فقط".[٤٩] حيث نجحت الحركة النازية لأنها قدمت – في مواجهة خطر وجودي – نظاما اجتماعيا واضحا جديدا، وقدمت أيضا الافتراضات والمُثل الضمنية غير الواعية أو قبل الواعية التي تعمل بها وتعيش عليها أمم وسلالات كاملة".[٥٠]

ومع ذلك، لم يتوقف تحليل رايت عند هذا الحد. فقد كان لديه المزيد ليقوله بشأن طبيعة العمل الثوري. حيث أبرز تحليله الطبيعة المجردة للالتزام الثوري، وتناول التحليل الطبقي الماركسي أيضا.

"إنني أتذكر قراءة فقرة في كتاب يتناول روسيا القديمة جاء فيها: يجب أن نستعد لتقديم تضحيات لا تنتهي إذا كنا نريد أن نكون قادرين على الإطاحة بالقيصر"…. حيث تساعدني أعمال ومشاعر الرجال على بعد عشرة آلاف ميل من الوطن على فهم مزاج ودوافع الذين يسيرون في شوارع شيكاغو وديكسي Dixie".(٥١)

وقد تعرف رايت من خلال شخصيات بيجر توماس على اليأس الذي كان يمثل الشرط المسبق لتكوين الالتزامات الثورية الشاملة والعنيفة، وأدرك أن تلك الالتزامات ليست ناتجة عن الاختيار بقدر ما هي ناتجة عن الإجبار. وكلما كانت إهانة الإنسان كبيرة، كلما كان رد الفعل كبيرا - "الحاجة إلى حياة كاملة والعمل بناء على هذه الحاجة".(٥٢)

ورفض أيضا أن يستبعد شخصيات بيجر توماس على أساس أنها بروليتاريا محرومة، أو أن يميزها عن البروليتاريا. ففي "ابن البلد"، توقع فعلا نظرية عن العنف والبروليتاريا المحرومة التي ستصبح مشهورة لاحقا من خلال عمل فرانتس فانون. فبالنسبة لرايت، لم يكن عنف البروليتاريا المحرومة مجرد قوة موضوعية للثورة، ولكن هذا العنف لا يمكن فصله عن تكوين الوعي.

لقد صاح بيجر: "أنا لا أريد أن أقتل أحدا، ولكنني قتلتُ من أجل نفسي".(٥٣)

ولم يستطع رايت أن يجيب عن هذا التساؤل: ما الذي يمكن أن يدفع شخصيات بيجر توماس لارتكاب القتل؟ فقد وضع نظريته، ثم تركها "لمسار الأحداث مستقبلا" لتقوم بهذا التحديد، أي قدرة الحركات الراديكالية الأمريكية على تطوير نظرية سياسية نقدية. ولكن الأمر لم يكن كذلك طبعا.(٥٤)

لقد خرج رايت من الكساد بتصور قوي وواضح للمجتمع الأمريكي وتاريخ العالم. فمع كتابة "أبناء العم توم" و"ابن البلد"، استخرج من بؤس الفقر والانهيار الاجتماعي الكبير إدراكا للتكامل المنهجي الذي كانت العنصرية فيه بمثابة ظاهرة ثانوية جانبية. ولم يكن لديه شك في أن تفكك العالم الرأسمالي كان وعدا حقيقيا بالتحرر - وهو الوعد الذي كان يشمل كل الإنسانية. ومع ذلك، كان لديه بعض الأوهام بشأن عملية التفكك هذه. فهو يعرف من الناحية الاجتماعية، وحتى من الناحية الإنسانية، أن التكاليف المباشرة ستتمثل في العنف والوحشية والانتقام غير المسبوق. ففي البداية، كان يأمل في أن يكون التحول التاريخي دقيقا في نظامه. وكان يؤمن بحركة عمالية واعية ناضجة وقادرة على الإدارة. ومع ذلك، ففي الوقت الذي كان يكتب فيه "ابن البلد"، تحولت هذه الثورة المنظمة إلى فوضى تتكون من الأعمال الجماعية لقوة بشرية وحشية. إذ إن تدمير الرأسمالية سيتحقق على أيدي القوى الاجتماعية الوحشية التي كونتها بنفسها. وكان رايت لا يزال يرى في هذه الجماهير الوحشية "الأمل" في المستقبل. فعلى عكس ماركس، توقع رايت البربرية "و" الاشتراكية".

إلغاء الرأسمالية من خلال الشعوب السوداء

بالنسبة إلى رايت، لم يكن يكفي لتحرر السود أن يتوافق شعبه مع نقد المجتمع الرأسمالي. حيث لاحظ أن: "الماركسية ليست إلا نقطة بداية. فلا توجد نظرية في الحياة يمكن أن تحل محل الحياة ذاتها".[55] وبالطبع، كانت الماركسية ضرورية كنقد للمجتمع الرأسمالي، ولكنها كانت نقدا "داخليا"

في النهاية. إذ إن الطبيعة المعرفية للمادية التاريخية أخذت المجتمع البرجوازي على ما هو عليه، أي افتراض أولوية القوى والهياكل الاقتصادية.(٥٦) وهكذا فإن التطور التاريخي من إقطاع البرجوازية كطبقة كان بمثابة نموذج منطقي لظهور البروليتاريا كنقيض للمجتمع الرأسمالي.(٥٧) ويبدو أن رايت ظهر مبكرا ليعتبر هذه النظرية خطأ جوهريا في الفكر الماركسي. ففي وقت مبكر، ١٩٣٧، بدأ يقول إنه من الضروري أن يحول السود النقد الماركسي إلى تعبير عن ظهورهم كنقيض للرأسمالية الغربية.

وعلى الرغم من أن رايت كان منهمكا في الحركة الراديكالية الأمريكية ذات الأيديولوجية الأوروبية، لم يستغرق الأمر طويلا منه حتى توصل إلى استنتاج أن التطور التاريخي للسود في الولايات المتحدة كان يشكل أكبر نقيض للمجتمع الرأسمالي الغربي:(٥٨)

"يشكل عمال شعوب الأقليات التي تعاني من الاستغلال أشكال كفاح تنظيمية... ونظرا لغياب معوقات الطموح الزائف والملكية، فإنهم يصلون إلى رؤية اجتماعية شاملة ووعي اجتماعي عميق.... وتظهر منظماتهم قدرا أكبر من القوة والتكيف والكفاءة مقارنة بأية مجموعة أو طبقة أخرى في المجتمع".

وافترض رايت أن اغتراب العمال السود عن المجتمع الأمريكي كان أكثر شمولا مما مرت به الطبقات العاملة "البيضاء" التي تشكلت في أوروبا وأمريكا. وكان هذا في الواقع يمثل الأهمية الكبرى لقومية السود، وهو ما استطاع المفكر الأسود التوافق عليه:

"إن التعبير العاطفي عن الشعور الجماعي الذي يحير الكثيرين من البيض ويدفعهم إلى الأسى على ما يسمونه "شوفينية السود" لا يمثل سمة كامنة لدى الزنوج، ولكنه يمثل التعبير اللاإرادي عن حياة تضرب جذورها بعمق في تربة الجنوب. ويجب على الكتاب الزنوج أن يتقبلوا المضامين القومية لحياتهم.... ويجب أن يقبلوا مفهوم القومية، لأنه يجب أن يدركوه ويفهموه حتى يتخطوه. وتعني الروح القومية في كتابات الزنوج أنها قومية تحمل أعلى مستوى ممكن من الوعي الاجتماعي. وتعني أنها قومية تعرف أصولها ومحدداتها، وتدرك مخاطر موقعها، وتعرف أن أهدافها النهائية لا يمكن أن تتحقق في إطار أمريكا الرأسمالية؛ وهي قومية يكمن سبب وجودها في حقيقة الثقة بالنفس وفي الوعي بعلاقات الاعتماد المتبادل بين الشعوب في المجتمع الحديث".(٥٩)

وتشير أقوال رايت ولغته إلى العناصر التي دخل معها في صراع أيديولوجي داخل الحزب. فمن خلال استخدام عبارة "شوفينية السود" - والتي يتمثل عنصرها الثاني في مصطلح يستخدم كثيرا داخل الحزب كتفسير أكثر موضوعية لما كان يشار إليه عادة بالقومية - حدد رايت هدفه الأول: الأيديولوجيين الماركسيين البيض. وكان هدفه الثاني، المفكرون السود غير العنصرين، يخاطبهم كمستقبلين لتاريخ جديد. وكان يجب أن يجعلهم يدركون أن قومية السود كانت مرحلة أولية ومنطقية تاريخيا في سبيل وعي عام أكثر وضوحا.

وكان رايت يقول إن السود الأمريكيين أعيد تكوينهم من أصولهم الأفريقية بسبب النظام القمعي للاستغلال الرأسمالي الذي كان يدمجهم

في نفس الوقت في التنظيم الصاعد للإنتاج الصناعي، بينما يمنعهم من التأثر الكامل بالأيديولوجية البرجوازية. وربما طرح رايت هذا بصورة أكثر إيجازا بعد عدة سنوات في رواية "غريب" عندما قال على لسان إيلي هوستون (أحد أبطال الرواية) :

"إن الطريقة التي نقل بها الزنوج إلى هذه البلاد، وبيعهم كرقيق، ثم تجريدهم من ثقافتهم القبلية، ووضعهم في الأسر، ثم السماح لهم بطريقة مثيرة جدا وعلى مدى فترة زمنية طويلة جدا بالدخول في طريقة حياتنا، يمثل شيئا يشبه ظهور كل البشر. ...

إنهم غرباء... وسوف يصبحون واعين بأنفسهم؛ وسوف يكونون رؤية مزدوجة، ونظرا لأنهم زنوج فإنهم سيصبحون "داخل" و"خارج" ثقافتنا في نفس الوقت.... وسوف يطور الزنوج أنماطا نفسية فريدة ومحددة بصورة خاصة. وسوف يصبحون رجالا معقدين نفسيًا مثل اليهود.... ولن يكونوا من الأمريكيين أو الزنوج فحسب، بل سيكونون بمثابة مراكز المعرفة كما يقال.... وستكون النتائج السياسية والاجتماعية والنفسية لذلك هائلة".[٦٠]

وكان رايت يعتقد أن العنصرية – وهي السمة المميزة للنظام الذي استغل العمال السود – مارست تأثيرها على استيعابهم للأفكار الحاكمة للمجتمع الأمريكي. ومضى يؤكد أنه على عكس القطاعات السائدة في البروليتاريا الأوروبية والأمريكية، كانت بروليتاريا السود – منذ النظم القانونية والسياسية للرق، حتى وضعها الخاص كعمالة حرة بأجر، من الناحية التاريخية – قد كونت هوية نفسية وثقافية مستقلة عن الأيديولوجية البرجوازية. وقد دفع مركب رايت هذا رؤى دو بويز[٦١] وغيره إلى تخطي

نقد تضامن العمال السود والبيض. بل إن ما كان يقترحه رايت كان يتخطى حتى أكثر المواقف تطرفا في الثلاثينيات لدى الراديكاليين الأمريكيين، وهـو أن السود كانوا طليعة الطبقة العاملة الأمريكية.(٦٢)

وكان رايت يؤكد أن الحركة الثورية للسود – أثناء عملية تخطي القومية الشوفينية – كانت تبدو كقوة تاريخية ستتحدى أسس الحضارة الغربية:

"ستولد أفكار الكتاب الزنوج في أبسط صورها من فهم معنى انتقـالهم من ثقافة "وحشية" إلى ثقافة "متحضرة". وسيضع الكتـاب الزنـوج نـصب أعينهم الصورة المختصرة "للكل"، الذي يغذي الثقافة التي اقتلعوا منها فـي أفريقيا، والكفاح الطويل والمعقد (وغير الواعي في معظم الأحوال) لاستعادة ثقافة "شاملة" ثانية بصورة ما، في ظل ظروف حياة غريبة".(٦٣)

وكان رايت يرى أن الحاجة إلى الكتاب والمفكرين الآخـرين تظهـر في هذا الوقت تحديدا، أي عند توسيع الثقافة من ناحية الأفكـار والمفـاهيم والأيديولوجيا. وعند بناء الأساطير والرموز التي ظهرت من تجربة الشعوب السوداء، فإن مسئولية المفكرين تتمثل في "تقديم قيم تستطيع سـلالتهم مـن خلالها أن تمارس الكفاح والحياة والموت". وهذه تحديدا هي المهمة التي كان رايت يتولاها بعد ذلك بستة عشر عاما في رواية "غريب".

رواية "أوتسايدر" بوصفها نقدا للمسيحية والماركسية

اكتملت هذه الرواية بعد أن ترك رايت الحركة الشيوعية الأمريكية بعدة سنوات. ومع ذلك، اعتبرت بمثابة توضيح إضـافي لأسـباب قيـام رايـت بذلك.(٦٤) ومع ذلك، كانت معالجة الرواية للحزب أقل مستوى من منظـور

النقد اللاذع الذي قدمه شيستر هيمس في "حملة صليبية وحيدة Lonely Crusade" أو سخرية رالف إليسون في "الرجل الخفي The Invisible Man" أو لدى آرثر كوستلر في "ظلام في رابعة النهار" Darkness at Noon.[٦٥] وعلى الرغم من أن رايت طور في هذه الرواية نقدا للسياسات العنصرية لليسار الأمريكي والستالينية، فإن هدفه كان أكبر من هذا، وكان هدفه بعيد المدى.

والرواية عبارة عن مثل أو حكاية شعبية. وهي تجربة أخلاقية وفلسفية وسياسية. ومثل الأساطير في التعبيرات الشعورية، يتمثل الغرض منها في إظهار النتائج المرعبة بالنسبة للروح الإنسانية والتنظيم الاجتماعي عندما يتخلى كيان عن الأيديولوجية الاجتماعية. وقد أعرب رايت في عمله الذي يحمل عنوان "اسمع أيها الرجل الأبيض White Man, Listen!" عمل يلي:

"إنني أقول إن الأثر النهائي الذي فرضته أوروبا البيضاء على آسيا وأفريقيا كان يتمثل في إلقاء الملايين في نوع من الفراغ الروحي؛ وأقول إنها غمرت حياتهم بالإحساس بالعدمية. وأقول إنه لم تكن المعاناة البدنية أو الحرمان الاقتصادي فحسب هو الذي وضع أكثر من مليار ونصف من الشعوب الملونة في حركة سياسية عنيفة.... ولكن المفهوم الديناميكي للفراغ الذي يجب ملؤه، وهو الفراغ الناتج عن الأثر الوحشي للغرب على مليار ونصف من البشر، كان أقوى من مفهوم الصراع الطبقي، وأكثر انتشارا".[٦٦]

وبدون وجود الأساطير، أي بدون وجود المعاني، ينجرف الوعي إلى الرعب. إذ إن اليأس – الذي يمثل حالة هذه الدرجة من الاغتراب (أو "الاستياء" عند ماكس شيلر، أو "الأزمة" عند هُسيرل)[٦٧] يؤدي إلى العنف حتما. فالعنف هو النتيجة النهائية، وآخر شكل محتمل يمكن أن يأخذه العمل الاجتماعي.

وكذلك، كان رايت يظهر ضرورة وحتمية الأيديولوجية وتعسفاتها. فمهما كانت المعاني التي يقدمها الأيديولوجيون، فإنهم يخضعون دائما لانتهاكات السلطة. وعندما تستخدم الأيديولوجية من أجل السيطرة، يجب معارضتها، ليس بأيديولوجية مضادة، ولكن بنقيض الأيديولوجية: أي النظرية. واختصارا، فقد كان يؤيد الحاجة إلى التزام نقدي، أي الالتزام الذي يحقق هدفه بالاستناد إلى الشرعية التاريخية: أي ثقافة الناس. ولا يتحقق هذا الالتزام إلا من خلال الوعي القادر على إعادة تكوين المعاني.

وفي رواية "غريب"، حاول رايت أن يمزج التراثين الأيديولوجي والفلسفي في صميم الثقافة الغربية الحديثة. فأولا، سخر من التراث اليهودي المسيحي بتقديم بطل رواية يدل اسمه على التناقض: شيطان الصليب – المسيح الشيطان. حيث هرب شيطان الصليب من الأخلاقيات اليهودية المسيحية من خلال الاعتراف بقوتها النفسية العملية، المتمثلة في الخطيئة المهينة الرهيبة. وكما اعترف ماركس سابقا بأن الدين (أي اليهودية) "يمثل أنين الكائن المقهور، ومشاعر العالم القاسي، وروح الأوضاع عديمة الروح"،[٦٨] أدرك رايت الأهمية التاريخية الحقيقية للمسيحية بين السود، فهي وإن لم تكن أداة للسيطرة، فإنها كانت تكيفا فلسفيا مع القهر.

وكذلك أدرك أن عزل مسيحية السود يمثل مجرد عنصر واحد في ثقافة السود. ففي موسيقى السود، يوجد صوت آخر أكثر حدة يعارض تلك الخطيئة:

"كانت هذه الموسيقى تمثل استعراضا إيقاعيا لمشاعر الخطيئة، والتدفق الموسيقي للمتعة المذعورة الموجودة في المظاهر الممنوعة التي يحتقرها الآخرون.... فقد أصبح الزنوج يعيشون في أي مكان سوى الأرض التي

ولدوا فيها. وكانت وصايا المسيحية الغربية وقيود قوانين البيض تثير فيهم نفس التطلعات والرغبات التي كان هذا الدين وذلك القانون يهدفن إلى كبتها... وكانت موسيقى "بلو جاز Blues Jazz" نمطا من الفن المتمرد المحـــرض تحـــت إدانـــة الأخلاق البروتستانتية.... وكانت هذه الموسيقى بمثابة إيماءه احتقار لأناس بلـــغ بهم الشطط مداه... أي كانت ترفيها للمجرمين الأبرياء".(٦٩)

وكانت قوى العلم والتقنية، وعمليات التحول البروليتاري للعمال السود، تقود التراجع الكبير في التخلي عن مسيحية السود من خلال هـــذا الـــوعي الثاني الغاضب بسخرية.

ومع ذلك، كان رايت ينتقد الماركسية أيضا، وهي ثاني وأحدث تـــراث غربي راديكالي. فقد كانت قاصرة نظريا أيضا، وكانت تخضع لانتهاكـــات مصالح سياسية ضيقة. وفشلت الماركسية في النهاية في التوافق مع القومية، والوعي، والعنصرية، والحضارة الغربية، والتصنيع، وتاريخ الـــسود. وقـــد أظهر رايت سلفا بعض عيوبها في "ابن البلد"، ولاحظ دانيال آرون ما يلي:

"حتى بوريس ماكس لم يفهم بيجر حقيقة، وكان مرعوبا من نظرة بيجر لنفسه".(٧٠) وقد أبرز رايت نفس هذه النقطة بصورة أكثر وضوحا في رواية "غريب". وقال رايت إن أهداف الماركسية المستخدمة في الشيوعية الأمريكية كانت سياسية أكثر منها تحليلية. وكانت النتيجة لا نظرية ولا تطبيقية، ولكن تحقيق السلطة. ومن المثير للسخرية، في الرواية الثانية، أن شخصية هيلتون، الذي كان مسؤولا حزبيا أيضا، هي التي كانت تتحدث نيابة عن رايـــت. إذ كان هيلتون - مدفوعا إلى الصراحة بسبب اليأس - يخون الاتفاق المبـــدئي الذي اعتمدت عليه مساندة الحزب لتحرر السود. ثم أصبح رايت (من خلال شخصية الصليب) يتحدث إلى نفسه:

"هل يشك الأمريكي الأبيض العادي في أن هناك رجالا مثل هيلتون، أي الرجال الذين يستطيعون السمو فوق الكراهية العنصرية لدى العامة بسهولة، ويستغلون الاتجاهات الدفاعية الكامنة لدى الزنوج كأسلحة في كفاحهم المرير من أجل السلطة؟"(٧١)

ولكن رايت يعلمنا ألا نتوقع أن نسمع مثل تجليات هيلتون. فقد سمعها كجزء من تجربته، وهي التجربة التي سيخضعها للنقد الماركسي الذي أصبح الآن جزء من طريقة صراعه مع الواقع.

"يقول رايت إن الماركسية كأيديولوجية وكنظرية للتاريخ كانت ناتجة عن البرجوازية الصغيرة، وخاصة برجوازية المفكرين:

يجب أن تفترض أنني أعرف علام يدور كل هذا. ولا تحدثني عن نبالة العمل، والمستقبل المجيد. فأنت لا تؤمن بذلك. فهذا موجه للآخرين، وأنت تعرف ذلك جيدا.... وأنتم "المتمردون الغيورون" المفكرون الذين يعرفون تاريخهم، وأنتم مهتمون بعدم ارتكاب أخطاء أسلافكم في عمليات التمرد".(٧٢)

ولم يعد مقتنعا بأن الماركسية كنظرية للتاريخ أو الثورة الاجتماعية كانت صحيحة، ولكنه أدرك إغراءاتها. وكتب في ١٩٦٠: "الأيديولوجية الماركسية بصفة خاصة ليست سوى ترتيب مؤقت انتقالي يتطلب تشخيصا أكثر دقة.... ويمكن أن تكون الشيوعية مجرد توافق مؤلم يحتوي تعريفا للإنسان بالافتراض المحض".(٧٣) وكان يشك في أن الماركسية - مثل المسيحية كأيديولوجية - كانت تخفي "تعقيدات التاريخ والتجربة الاجتماعية". فقد كانت وظيفتها الحقيقية تتمثل في تحقيق التماسك الاجتماعي والفكري للبرجوازية الصغيرة - وهذه طبقة تختلف تماما عن البروليتاريا. وفي عمله "اسمع أيها الرجل الأبيض!" يقول رايت:

"سيقدم أحد فصائل الأقليات في المجتمع الأبيض الذي تعيش فيه أو تحته للنخبة المتعلمة في أسيا وأفريقيا أو أمريكا السوداء تفسيرا للعالم يدفع إلى العمل، وبالتالي يزيل مشاعر الدونية. ويمكن أن نوضح بسهولة في ٩٠٪ من الحالات أن الأيديولوجية المطروحة لا علاقة لها بمأزق النخبة المتعلمة السوداء أو الملونة أو الصفراء.... ولكن هذه الأيديولوجية تحل شيئا ما.... فهي تمكن الزنوج أو الآسيويين أو الأفارقة من مواجهة الفصائل الثورية للسلالة المعادية على قدم المساواة".[٧٤]

وكان رايت في انتقاده العنيف للماركسية لا يزال يعتمد على فكرة الصراع الطبقي:

"هؤلاء الرجال الذين يطمحون إلى الوقوف في وجه الحكام رجال غيورون. فهم يشعرون بأنهم ليسوا أقل شأنا من الرجال الذين يحكمون، بل إنهم يشكون في أنهم أفضل منهم. فهم يرون الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها الرجال الذين يحكمون، ويعتقدون أنهم يستطيعون القيام بعمل أكثر أمانة وطهرا وكفاءة".[٧٥]

وهكذا كانت نظرية رايت في تطور الماركسية كأيديولوجية خاصة بطبقة معينة. وفي بعض الحالات، كان يردد تفسير ماركس الأكثر غموضا للماركسية:

"وأخيرا، فإنه في الأوقات التي يقترب فيها الصراع الطبقي من الساعة الحاسمة، تبدأ عملية التفكك السارية داخل الطبقة الحاكمة، أو بالأحرى داخل المجتمع ككل، في اكتساب صفة عنيفة غاضبة، لدرجة أن جزءًا صغيرا من

الطبقة الحاكمة يعزل نفسه وينضم إلى الطبقة الثورية، وهي الطبقة التي تمسك بالمستقبل في يدها... وهكذا ينتقل جزء من البرجوازية إلى البروليتاريا، وخاصة من الأيديولوجيين البرجوازيين تحديدا، والذين كانوا يرتقون بأنفسهم إلى مستوى فهم الحركة التاريخية ككل نظريا".[٧٦]

وبحلول أوائل خمسينيات القرن العشرين، كان رايت قد توصل إلى استنتاجه المماثل – وهو الاستنتاج الذي رأينا أنه احتفظ به طوال بقية حياته – ولكنه كان بمعنى مختلف: كانت النظرية الماركسية تعبيرا عن وعي البرجوازية الصغيرة، وكان نقدها للمجتمع البرجوازي والرأسمالية موجها أساسا إلى خنق تلك الطبقة على أيدي سلطة الطبقة الحاكمة البرجوازية.

ومع ذلك، كانت معارضة النظرية الماركسية للمجتمع الرأسمالي مفيدة لرايت، "من الناحية النظرية". وفي الحقيقة، كان الدور التاريخي والثوري الذي أعطاه رايت للسود فيه جدلية مادية بالأساس. فكما اتضح سلفا، اعتبر رايت قومية السود منتجا من كل من الحاجات الموضوعية للتطور والتراكم الرأسمالي، ونظامه الاستغلالي. وعندما تحول إلى أيديولوجية قومية السود، حاول أن يفسر ظهورها بتناقضات التجارب اليومية:

"في كل يوم في هذه الأرض، يقوم رجل أبيض بطرد زنجي. ولكن ذلك الوغد الأبيض أغبى من أن يدرك أن أعماله تتكرر مليون مرة في مليون مكان آخر على أيدي بيض آخرين يشعرون بكراهية الزنوج مثله. وهو أعمي لا يرى أن هذه الموجة اليومية التي تضم ملايين الاعتداءات الصغيرة تتراكم وتشكل خزانا كبيرا من الغضب لدى الزنوج".[٧٧]

وهكذا اجتر رايت إسهاما قويا آخر في تطور الماركسية، والذي تمثل في مفهوم هيجل عن "مكر العقل the Cunning of Reason".

وكان مجال الاختلاف الكبير بين رايت والآخرين - الذين استطاعوا توظيف الاتجاه الماركسي - يتمثل في توصيفه للقوى التاريخية للأيديولوجية. فقد كانت الأيديولوجية تمثل الأداة السياسية الخاصة للبرجوازية الصغيرة. وكان رايت يقول إن المارقين من هذه الطبقة التي ساعدت تاريخيا على تقديم الأفكار السائدة لدى البرجوازية، أصبحوا هم أنفسهم يحتقرون الطبقة الحاكمة. وقد أعلن "المتمردون الغيورون"، كما كتب ماركس نفسه، أن: " البرجوازية لم تعد مناسبة لتكون الطبقة الحاكمة في المجتمع، وأن تفرض شروط وجودها على المجتمع كقانون شامل. فهي غير مناسبة للحكم لأنها عديمة الكفاءة".(٧٨)

وهكذا لم يكن رايت في نقده للماركسية يرفضها كلها، بل كان يحاول أن يحدد موقعها، وأن يقدم إحساسا بحدود سلطتها. فقد وجد أنها غير مرضية "كنظرية" للمجتمع، بل كان يعتبرها اختزالية. وكان يرى أن الماركسية في حد ذاتها غير مطلعة على المستويات المختلفة للوعي الجماعي. أما "كأيديولوجية"، فقد اعترف بأنها لم تتجاوز أصولها أبدا. فقد ظلت الماركسية أيديولوجية "يجب أن" تتبناها الطبقة العاملة، وليست أيديولوجية "عن" الطبقات العاملة. ومع ذلك، اعتبرها مناسبة "كأسلوب" للتحليل الاجتماعي. فلم يترك مفهوم علاقات الإنتاج كأساس لنقد المجتمع الرأسمالي، ولا أهمية علاقات الإنتاج الطبقية. ولا يزال نقد الرأسمالية يمثل مجرد البداية للكفاح من أجل التحرر.

ومن هذا المنظور النقدي، اتفق رايت في الرأي مع سارة هنتر، وهي واحدة من النساء السود القليلات اللائي جذبن رايت فكريا. وقالت له ذات مرة - وهي ترقب زوجها بوب، وهو رجل أسود مسؤول عن تنظيم حفل للبيض - : "في كل مكان نظرت إليه... لم أكن أشاهد سوى البيض يضربون الزنوج الراكعين أمامهم" ثم أكملت " أريد أن أكون ممن يعطي الأوامر للآخرين فأطاع ..هل ترى؟ عد من جديد واقرأ كتبك الماركسية ونظم مشروعاتك الفكرية".(٧٩)

وقد توصل رايت - من تجربته في الحزب الشيوعي الأمريكي، ومن قراءته لماركس - إلى استنتاج أنه لا يوجد شعب يمكن أن يتحرر نتيجة الخضوع المطلق للأحكام النقدية. ومن المؤكد أنه لم يكن من حق المفكرين السود أن يسلموا تراث شعبهم الثقافي: الوعي الثوري الصاعد بقومية السود.

وهكذا يتبقى القليل عن سيرة رايت يقدمها لنا بشكل سلبي هارولد كروز. وبما كان كروز مثل بالدوين قد شعر خلال هجومه على رايت بالحاجة إلى "قتل الأب". ولا شك أيضا أن تفسير خطأ كروز أكثر تعقيدا. ولكن بغض النظر عن أصول تصوير كروز لرايت، فإن القراءة القريبة للأعمال الأساسية التي كتبها رايت طوال فترة تزيد على عقدين تكشف عن مفكر أسود قوي واثق بنفسه. فقد كافح رايت من أجل الجمع بين الماركسية والفكر القومي للسود ليساير زميليه، جورج بادمور، وجيمس. حيث تعتبر أعمالهم العديدة مجتمعة - بالإضافة إلى أعمال دو بويز - بمثابة تراث غير

عادي للسود في نصف الكرة الغربي وأماكن أخرى. ففي هذه الأعمال، يستطيع المرء أن يكتشف نقدا ثريا للعالم الحديث - وهو النقد الذي يعتبر صوته أصدق تعبير عن الأعماق الوحشية للحضارة الغربية وتاريخها. حيث تكمن بدايات النظرية الثورية للسود في هذه الأعمال. "ففي اللحظة التي يبدأ الناس فيها إدراك "معنى" معاناتهم، فإن الفشل هو مصير تلك الحضارة التي خلقت ذلك النوع من المعاناة".(٨٠)

الفصل الثاني عشر

كلمة ختامية

لعل القارئ المثابر قد أصبح يدرك الآن القضايا الشائكة التي حاصرت الدراسة الراهنة، رغم كل جهودي. ولكن هناك تقليدا مهما لدى الراوي والدارس يتمثل في تلخيص الرواية، وعرض الكلمة الختامية. فهذه هي الفرصة الأخيرة للراوي لوضع الأمور في نصابها، واستنتاج العبر أو عرض المفارقات الخفية. وفي الحقيقة، هناك شيء إضافي يمكن قوله عما يمكن أن يمثل أهمية الحوار ولماذا أخذ هذا الشكل الخاص. وكعادتي، فسوف ألخص هذه الموضوعات من الخاتمة إلى المقدمة.

لقد اعتبر كثيرون أن الدراسة الحالية بمثابة خطاب نظري. ويبدو أن بعض القراء سيجدون هذا لاحكم مدهشا نوعا ما، لأنني كنت أتحاشي اللغة النظرية عمدا في أغلب الأحيان. وبدلا من ذلك، فإنني أعتقد أنه من الضروري أن أحيل عرض الحوار إلى المواد التاريخية. فمن المؤكد أن هذا يقلل مخاطر التجريد الاختزالي. ولكن الأهم من ذلك أنه حقق هدف إعادة إحياء الأحداث التي كانت معرضة للتهميش بصورة منهجية من وعينا الفكري. وكان هذا العمل يتطلب قدرا من تفكيك التأريخ الأمريكي والغربي. ولكي نتوصل إلى نظرية جديدة، فإننا نحتاج إلى تاريخ جديد. وكما ظهر في معظم التراث الفكري الغربي، فإن ممارسة النظرية تتأثر بالصراع.

وهنا نجد أن نقاط الصراع ثلاث: معارضة الأفكار التي تهدف إلى تحديد وضع الشعوب الأفريقية والتي سيطرت على الأدب الأوروبي؛ انتقاد التراث الفكري الاشتراكي الذي لم يفند أسباب وجوده كثيرا؛ ومعالجة مضمون التناقضات التي بدأ المفكرون الراديكاليون السود المستغربون بناء عليها تكوين النظرية الراديكالية للسود. فهذا المجال لم ينشأ نتيجة الاختيار، ولكن فرضه التراث التاريخي.

وعندما بدأ البحث في الصراعات الموجودة بين الراديكالية الغربية والكفاح من أجل تحرر السود، كان يتضح من الحدس البسيط أن الشيء الذي يعتبر أساسيا في التجربة الغربية كان يعتبر هامشيا في التراث الراديكالي الأمريكي. وكان هناك إحساس بين زملائي بأن هناك شيئا مهما يتحدى الأسس الحقيقية للسياسة والفكر التقدمي، ويكمن وراء صياغة المفاهيم التي ألهمت صراحة الاستعراضات القوية للعمل والنشاط التقدمي. وهناك بعض المعارف، وبعض جوانب وعي السود، التي لم تحظ بتفسير في التحليل الماركسي للعمليات التاريخية، ومصدر الدوافع التي نسبت إليها التشكيلات الاجتماعية للعالم الحديث. ومن خلال رد الفعل القوي من ناحية المفاهيم ضد السلطة غير المسئولة، والتدمير الاجتماعي المحسوب، والاستغلال المنهجي للبشر، يبدو لنا أنه كان هناك رفض واضح في الراديكالية الغربية، أو بعبارة أكثر قوة، كان هناك هروب من الاعتراف بأن شيئا أكبر من القوى المادية الموضوعية كان مسئولا عن هذه "الوقاحة"، كما يقول بيتر بلاكمان. لقد كان هناك إحساس بأن هناك شيئا له طبيعة أكثر قوة من الهوس بالتملك يكمن في الحضارة التي تنظم وتحتفي - على نطاق يتخطى التجارب الإنسانية

السابقة- بالانتهاك الوحشي للحياة وأشد الانتهاكات حدة للكرامة الإنسانية. ويبدو من المؤكد أن نظام الرأسمالية كان جزءا من هذا الهوس ومتعاطفا معه أيضا. وكان ذلك يحتاج إلى اسم خاص به كما قال الفيلسوف هوبس. ولم يكن ذلك مجرد مسألة غضب أو قلق على حياة السود. بل كان مسألة تتعلق بالمفاهيم الأساسية.

وأنا أعتقد أن الغضب كان ناتجا حتما عن الطبيعة الأفريقية لوعينا - فبعض المعايير المعرفية الراسخة ثقافيا في أذهاننا تعتبر أن الرأسمالية الراديكالية التي كنا شهودا عليها كانت تمثل معيارا غير مقبول للسلوك الإنساني. وكان الأمر يتمثل في أن مصدر غضبنا كان يرى استحالة تفسير هذا السلوك. وكانت الأعماق التي تغلغل فيها السلوك الراديكالي في المؤسسات الغربية ينتهك حدود الوعي العالمي الكامن في ماضينا الأفريقي. ومع ذلك، يعتبر الإحساس بالحزن العميق من مشهد القمع الراديكالي الغربي عاملا مشتركا مع شعوب غير أوروبية أخرى. وفي مثل هذه الظروف، وبمعنى معين فقط، يجب أن تعتبر مسألة حياة السود مفعمة بالمشاكل. ولكن أهميتها الحقيقية تحددت من خلال التراث المنقول.

لقد قلت إن البحث فيما يكمن وراء الإحساس بعدم ملاءمة انتقادات الماركسية فرضته مسألة الفهم. فقد كانت المواجهة بين الأوروبي والأفريقي مفاجئة، ليس من الناحية التاريخية فحسب، ولكن من الناحية الفلسفية أيضا. إذ إن الحضارة الغربية التي انطلقت من عزلتها في العصور الوسطى كانت تلاحق إحساسها العنصري بالنظام الاجتماعي وعادات السيطرة الإقطاعية بالانتقام. فبنهاية العصور الوسطى، أصبحت الراديكالية ظاهرة تقليدية، وكان

التعبير عنها يظهر حتى في الخبايا العقلية الغربية للهوس والهستيريا. فطوال ٤٠٠ سنة، من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، عندما كان نمط الإنتاج الرأسمالي في أوروبا يضم العمال الزراعيين والحرفيين، ويجـردهم عبر الاجيال من ممتلكاتهم ويحولهم إلى مجرد وقود لتشغيل الآلات، حسب إيقاع واضطرابات عملية التصنيع، استولى منظمو النظام العالمي الرأسمالي على قوة عمل السود كرأسمال "ثابت". حيث سحب السود من تشكيلاتهم الاجتماعية من خلال آليات كانت تقلل اضطراب إنتاج العمالة، من خلال التصميم والتوافق التاريخي. وبينما كانت أعداد ضخمة من قوة العمل تتجمع في بيوت وأكواخ الفقراء في المدن الأوروبية والمدن الصناعية والقرى، استمر قدر من التشابه في الحياة التقليدية في الظهير الأفريقي يعيد إنتاج نفسه، ويشارك ناتجه الاجتماعي (أي البشر) مع نظام تجارة الرقيق عبر الأطلنطي. وبالنسبة لهؤلاء الرجال والنساء الأفارقة الذين اضطربت حياتهم بسبب الاسترقاق والترحيل، فمن المعقول أن نتوقع أنهم كانوا سيحاولون، وسيحققون ببعض الأساليب، إعادة بعث حياتهم. ومع ذلك، لم يكن فهم الأوروبيين هو الذي أبقى هؤلاء الأفارقة في قبضة ملاك الرقيق والمزارعين والتجار والمستعمرين. ولكنها كانت قدرتهم على الحفاظ على وعيهم المحلي بالعالم من الاقتحام الخارجي، والقدرة على إحياء الغيبيات السابقة بصورة خيالية بينما كانوا خاضعين للاسترقاق، والسيطرة العنصرية، والقهر. وكان هذا بمثابة المادة الخام للتراث الراديكالي للسود، والقيم والأفكار والمفاهيم وتشكيل الواقع الذي صنعت منه المقاومة. وفي كل أمثلة المقاومة، نجد أن الآليات الاجتماعية والنفسية المشتركة بين المجتمعات البشرية في الأزمات طويلة الأجل وفرت للمتمردين اللحظة المناسبة، أي المكونات الجماعية

والشخصية التي تحولت إلى حركة اجتماعية. ولكن كانت المواد المكونة من الفلسفة المشتركة التي تطورت في الماضي الأفريقي وانتقلت كثقافة، هي التي خرج منها الوعي الثوري، وتكونت منها أيديولوجية الكفاح.

وكما علقنا سلفا، فإنه على الرغم من أن التمرد كان يبدو متوقعا للأوروبيين الذين شهدوا اضطرابات الشعوب الأفريقية، فإن الأشكال التي اتخذتها مقاومة السود كانت غير مفهومة. ففي النهاية وقع الكثيرون من هؤلاء الشهود بسهولة فيما يثير الغموض في أية لغة متاحة: كان المشاركون في مقاومة السود يرون الرقيق وقد توحشوا، وكانوا تحت تأثير جنون شيطاني، وأنهم قد تخطوا حدود الصحة العقلية. وبالنسبة إلى الأوروبيين المكلفين بمسئولية الحفاظ على عمالة السود أو السيطرة عليها، كانت الاستجابة الفعالة الوحيدة لتمرد السود تتمثل في العنف الجماعي العام، ثم ممارسة نظام الوحشية بعد ذلك. وكثيرا ما كان منطق السيطرة العنصرية الذي استمر لقرون لا يقدم بدائل. ففي هذا الشأن كان الأمر أشبه بمباراة غير متكافئة دائما، ليس بسبب تفوق الأسلحة ولا كثرة العدد، ولكن لأن هذا العنف لم يكن طبيعيا بالنسبة للشعوب الأفريقية. حيث كانت حضارات أوروبا وأفريقيا مختلفة في هذا الشأن. فطوال أكثر من ألف سنة، كان تاريخ أوروبا عبارة عن سلسلة متواصلة من الحروب بين الأخوة والاحتفال بها. وتعتبر متاحف الحضارة شاهدا معاصرا على هذا الأمر وتقارير تاريخه التي تقشعر لها الأبدان. أما في أفريقيا، حيث كان ظهور الدولة والتكوينات الإمبراطورية والحرب الشاملة أكثر ندرة، فكان الصراع يحل كثيرا من خلال الهجرة والاستقرار. وفي الحقيقة، فإن دخول الإسلام إلى أفريقيا وتنظيم تجارة الرقيق في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر قد حقق بعض الاختلاف

الحقيقي، ولكن نطاق تجارة رقيق الأطلنطي والنفور السلالي من الاستعمار الأوروبي هو الذي فرض التكيف الواضح مع العنف. وقد أساء الأوروبيون فهم هذا أيضا، وترجموه كما هو متوقع إلى خطاب عنصري. وبينما كانت الطبقات الحاكمة الأوروبية تقهر عمالها بالقوة والهيمنة الثقافية، كانت نقاط الاتصال بين الأوروبيين والسود تتسم بالعنف.

ومع ذلك، لم تكن الأشكال الأولى للكفاح في التراث الراديكالي للسود تتأثر بنقد المجتمع الأوروبي، ولكنها كانت تنطلق من رفض الاسترقاق الأوروبي واستهجان العنصرية في مجملها. وكان الدافع الرئيس لمقاومة السود يتمثل في الحفاظ على وعي اجتماعي وتاريخي معين، وليس التحول الثوري لأوروبا الرأسمالية الإقطاعية أو التجارية. ولكن لماذا كانت الأمراض العنصرية تمثل جزءا مسيطرا في الوعي الأوروبي، أو ما الذي يمكن عمله لتغيير هذه الصفة، فقد كان أقل أهمية من كيفية اجتياز السود لهذه المواجهة. وربما يمثل هذا جزءا من تفسير تطور الرقيق السود لتأخذ شكل الهروب والعزلة كإظهار لتصميم الأفارقة على الانعزال والتراجع عن الاتصال. فقد كان الراديكاليون السود يلجئون إلى الأحراش والجبال والداخل من أجل إعادة بناء المجتمع.

وكما كان الحال في أفريقيا حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان التراجع يمثل الاستجابة المحتملة للشعوب الأفريقية، وكان الأمر كذلك في مواقع عمالة الرقيق. ففي جزر الكاريبي وأمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، كانت الشعوب السوداء تجد وسائل للانفصال. حيث كان يعاد تأسيس مجتمعات السود بعيدا عن المزارع، في أمان كهوف الجبال، وعلى

الأرض تجاه منابع الأنهار الكبرى التي كانت تصب في المحيط على السواحل. وكان مجرد وجود هذه المستوطنات يدعم معنويات الذين لا يزالون في الأسر. وعبر الأجيال، كانت الدفعات المتتالية من العمالة الجديدة، ومستوطنات الآبقين، وأساطير هذه المجتمعات تثري التراث الراديكالي. وكان كل جيل من الرقيق يسهم في زيادة اتساع وعي السود وأيديولوجية التراث. وبينما توسعت التجارة ذاتها نتيجة صفقات التبادل، والمتطلبات المجتمعية وفائض الإنتاج في النظام العالمي، تطورت شعوب السود داخل مجتمعات الرقيق. وكانت التعبيرات الظاهرة عن راديكالية السود مثل الهروب وإحراق الممتلكات عمدا وتدمير أدوات العمل، وحتى التمرد العلني، تكملها أشكال أقل صراحة. وعندما لا يكون الفصل ممكنا، يمكن أن تتسارع الثورات العلنية، وعندما يكون التمرد غير عملي، يعبئ الناس أنفسهم من خلال طقوس "الأوبيا" و"الفودو" وطقوس إسلامية ومسيحية بين السود. فمن خلال هذه الطقوس يثيرون التوقعات الشخصية، ويحشدون ويجهزون أنفسهم وشبابهم بالمعتقدات والأساطير والرؤى المسيحية التي تعدهم بتحقيق المستحيل يوما ما. ويؤكد تاريخهم هذه العمليات، ويمكن رؤية ثمارها في الطقوس الاحتفالية الموسيقية المسماة "بابالوي papalot" في ثورة هاييتي، ورجال ونساء "الأوبيا" الذين ملأوا سجلات محاكمات المتمردين الرقيق في الكاريبي وأماكن أخرى؛ وفي ثورات المسلمين في البرازيل؛ ودعاة التمرد الذين ظهروا في قلب المقاومة في جامايكا وسورينام وأمريكا الشمالية. وخلال كل هذا، كانت اضطرابات النظام العالمي تشكل معالم وظروف مقاومة السود.

وقد ظهر الهروب لأول مرة في القرن السابع عشر في أمريكا الشمالية الاستعمارية. ولكن بحلول القرن الثامن عشر، أصبح الهروب الذي كان يمثل الشكل السائد لمقاومة السود أكثر صعوبة، وذلك لأن الرأسماليين التجاريين والصناعيين توسعوا في رق المزارع، ورشدوا أدوات السيطرة بين المستعمرات، وهزموا الأمريكيين المحليين. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر، كان التدفق المستمر للأفارقة الجدد عبر الأطلنطي، وعبقرية مسيحية السود، وظهور اللهجة الكريولية، وتأسيس مستوطنات الهاربين، والهروب إلى مناطق السود في المدن الجنوبية، وتخطيط وتنفيذ التمردات، وإقامة العلاقات الأسرية والمجتمعية في مناطق الرقيق، يمثل جزءًا من الحفاظ على الشعب الأفريقي وتربية التراث الراديكالي للسود. ومن ناحية أخرى، كان الانجراف نحو التشبه بالأوروبيين من جانب جزء من السكان السود أمرا قليل الأهمية. وكانت الراديكالية الفظة التي أحاطت بالثقافة الأمريكية قد ألحقت أضرارا جسيمة لا يستطيع أن يتحملها سوى أكثر الناس اغترابا ويأسا على الهوامش السلالية والنفسية لمجتمعات السود والبيض. وبنهاية ذلك القرن، ظهرت احتمالات جديدة لراديكالية السود مع تمرد المستعمرات أولا، ثم مع ثورة هاييتي. وقد حارب السود مع الإنجليز ضد المتمردين وشهدوا المقاومة الأكثر ملاءمة في هاييتي. ومع حلول القرن التاسع عشر، فإن التجربة التي استوعبها المشاركون السود في تمرد الطبقة الحاكمة الاستعمارية ضد سادتهم الإنجليز، ومثال ثوار هاييتي (ومساعدتهم غير المباشرة، إن لم تكن المباشرة)، قد أدت إلى تسهيل المقاومة الشعبية كتعبير سائد عن راديكالية السود. ومثل رقيق هاييتي، كان الانفصال يمثل التيار الأيديولوجي للسود الأمريكيين المتمردين؛ والرفض المطلق للمجتمع

الأمريكي والاستنكار المستمر للعنصرية كأساس للسلوك المتحضر. وقبل الحرب الأهلية، عندما كان إنتاج الرقيق أكثر أهمية اقتصادية من أي وقت مضى، كنتيجة مباشرة للثورة الصناعية في الصناعة الإنجليزية، تردد الالتزام براديكالية السود بين المنظرين الأيديولوجين لتمردات الرقيق واللاجئين السود من الرق. وظهر التعبير عنه بين السود المناضلين، "أنصار إلغاء الرق"، في تجمعات حركة الهجرة، وبين السود من متآمري تشاتام الذين خططوا مع جون براون للإطاحة بنظام الرق. وكان الدليل على استمرار التراث والحيوية الأيديولوجية بين جماهير الرقيق السود موجودا ليس في التمردات والأنشطة السرية فحسب، ولكنه كان موجودا أيضا في الصيحات، والروحانيات، والخطب، ونصوص مسيحية السود. وبعد الحرب الأهلية الأمريكية، وفي أعقاب سنوات الحرب، والسنوات التالية التي شهدت الوقوع ضحية الإرهاب والتلاعب من جانب طبقات الصناعيين والممولين والزراعيين، بحثت تيارات جديدة من المهاجرين عن الأمان الذي توفره الأماكن البعيدة. وفي أواخر القرن التاسع عشر، ومثل نظرائهم الذين هاجروا في جنوب أفريقيا والبرازيل وكوبا، والذين حاولوا يائسين الابتعاد عن المستوطنات الأوروبية، كان السود الأمريكيون مقتنعين مجددا بأن بقاءهم كشعب صار في خطر. ومع ذلك، كانت احتمالات هذا الخيار تتراجع سلفا. حيث كانت الأوضاع الجديدة، والقرارات الجديدة، والحيل الجديدة، تلاحقهم.

وميزت النهايات الرسمية لنظم إنتاج الرق في القرن التاسع عشر بدايات إعادة تنظيم واضح للنظام العالمي الرأسمالي. ففي أوروبا وأفريقيا وآسيا والأمريكيتين، ومن خلال التغلغل العميق للرأسمالية الاحتكارية وفرض الهيمنة الاستعمارية، كان الرقيق يتراجعون كمصدر لقوة العمل

الرخيص ليحل محلهم القرويون والعمال المهاجرون. وفي أفريقيا، وبينما أدت تجارة الرقيق إلى إرباك الدورات الإنجابية لتشكيلات اجتماعية معينة على سواحل غرب وجنوب أفريقيا، تطلبت "الإمبريالية الجديدة" لرأسمالية الاحتكار شكلا أكثر تدميرا من الحيازة والاستغلال. وقامت الدولة الاستعمارية بالتطفل على القرويين في الظهير الزراعي للقارة، وحولت القطاعات الاقتصادية التقليدية من مشروع إعادة الإنتاج إلى مصدر ودعم للعمل المستأجر بالقوة، ومواقع للزراعة الأحادية للمحاصيل النقدية، واستخراج المعادن والمواد الخام. وبقدر انتشار العمل بأجر في أفريقيا، كان مستوى دعمه قاصرا على استمرار وليس إعادة إنتاج العمل. وكانت هناك تغيرات في العالم الجديد أيضا. إذ إن نظم إعادة بناء مجتمعات السود كانت تتعرض أيضا لأشكال العمل القسري: عمل السخرة، المشاركة في المحاصيل، والزراعة التي لا ترقى لمستوى الكفاف. وكذلك، كان العمال السود يخضعون للطرد من الأراضي المنتجة، وحملات الإرهاب والتخويف المنظمة سرا وعلنا. فكان حتما أن تتجه المقاومة نحو أشكال جديدة ووعي جديد وأيديولوجيات جديدة.

وكان الكفاح ضد الاستعمار الذي كان يتصاعد بصورة متزايدة منذ منتصف القرن التاسع عشر يمثل بدايات تحول راديكالية السود إلى مواجهة مباشرة مع السيطرة الأوروبية. ففي الواقع، كان ذلك استجابة للمقاومة الشعبية للاستعمار، حيث تبلورت التناقضات الإنسانية الأخرى التي كانت تتعرض لها السيطرة الاستعمارية بطبيعة الحال. حيث كانت طبيعة السيطرة الاستعمارية تتطلب التكيف أو تكوين طبقات متميزة بين الشعوب المقهورة.

ومن هذا الصراع الذي كان حتميا بين "البرجوازية" المحلية وسادتهم الاستعماريين، ظهرت طبقة المفكرين المارقين، وهي الطبقات التي كانت تعتبر فكرة المعارضة الكاملة والمواجهة القومية ونقد المجتمع الغربي ضرورية وطبيعية. وكانت تجربة البرجوازية الصغيرة للسود، وقربها من السلطة والثقافة والمجتمع والعنصرية الأوروبية وعلاقاتها المتناقضة معها، تعتمد في الوقت المناسب على أعداد من القوميين والقوميين الراديكاليين منهم. وبينما يقصر القوميون اهتمامهم عامة على الكفاح الداخلي، حيث يمكن أن تتحقق طموحاتهم بصورة مباشرة، فإن القوميين الراديكاليين كانوا عالميين حقيقة، حيث ينخرطون في أشكال من الروابط الأفريقية أو الاشتراكية. وكان بعض الراديكاليين ينجذبون أيديولوجيا إلى حركات المعارضة الموجودة في المجتمع الغربي ذاته. وكان تناقضهم تجاه الشعوب السوداء، وارتباطهم الاجتماعي والنفسي بالثقافة الأوروبية، يجعل القوة التحليلية والنظرية للاشتراكية الأوروبية بمثابة أيديولوجية سياسية لا تقاوم. وقد كان هذا كافيا بالنسبة للبعض. ومع ذلك، نجد بالنسبة للبعض الآخر أن التكوين المستمر لحركات العمال والحركات القومية المناضلة في العالم الاستعماري قد أثار أسئلة حول اتساع وحدة الاشتراكيين الأوروبيين. وبينما تكيفت راديكالية السود الشعبية مع أداة حروب الشعوب كشكل من الكفاح ضد الإمبريالية، بدأ المفكرون الثوريون في نقد أو تعديل النظرية الاشتراكية. فبالنسبة لهم، كان كفاح الطبقات العاملة الأوروبية يرتبط بالحركات المناهضة للإمبريالية في العالم غير الصناعي. وبدأت الفجوة تضيق بين الكفاح الطبقي والنشاط القومي المناهض للإمبريالية.

وفي الكاريبي وأمريكا الشمالية (حيث ولدت طبقة متكاملة من المفكرين الراديكاليين السود جراء سياسة عنصرية مناظرة للسياسة الاستعمارية) ضربت أزمات الرأسمالية الاحتكارية النظام العالمي في معظم النصف الأول من القرن العشرين، وكان جيل من هؤلاء الأيديولوجيين قد تشكل سلفا وكان مستعدا للاستجابة إلى الاضطرابات الاجتماعية في أوروبا وأمريكا والعالم الاستعماري. وربط آخرون أنفسهم بالحركات الاشتراكية بعد أن هدأت تمردات العمال الأوروبيين، وبعد أن قامت الديمقراطية البرجوازية والتمثيل الليبرالي للرأسمالية الاحتكارية بإفساح الطريق في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا أمام الوجه الأكثر قمعا للدولة الفاشية. وبالنسبة للراديكاليين السود في أمريك والمستعمرات، كانت الاعتراضات المثارة ضد الفاشية من جانب الأيديولوجيين الليبراليين والاشتراكيين قد دفعت إلى المقدمة بالتشابهات بين الاستعمار والفاشية، وتناقضات ونفاق وعجز المفكرين في عواصم الإمبراطوريات الأوروبية. وهكذا وجد الكثيرون من النشطاء البارزين بين المفكرين السود، والذين التزموا سابقا بوضع كفاحهم في فلك الحركة الاشتراكية، أنه من الضروري أن يتخطوا رفاقهم الأوروبيين. فقد كان من الطبيعي والمنطقي تاريخيا أن يبعث البعض رابطة الوحدة الأفريقية كأيديولوجية راديكالية، وأن يعترف أيضا بإمكاناتها كنظرية ثورية للكفاح والتاريخ. ومنذ أوائل الثلاثينيات، ظهرت الرابطة الأفريقية الراديكالية. حيث كانت عناصر مراحلها الأولى ظاهرة في أعمال دو بويز، جيمس، رايت، أوليفر كوكس، إيريك ويليامز، وجورج بادمور.

وعندما بدأ دو بويز وجيمس في استعادة تاريخ كفاح السود الثوري، كانا مدفوعين بانتقادات ضمنية وصريحة للماركسية. فنظرا لأنهم رجال سود كانت لديهم حساسية تجاه البطولة اليومية التي يتطلبها استمرار وجود السود، وكانوا مرتبكين جدا بسبب التطبيق العارض للأفكار التي صيغت سلفا من الحركات الاجتماعية للسود. وبدا لهم أن الماركسيين الغربيين، المرتبطين بلا وعي بالمنظور الأوروبي، لم يستطيعوا تقديم التفسير ولا التقييم السليم للقوى الثورية الصاعدة من العالم الثالث. وكانت الغيبيات السلالية للوعي الغربي – تحمي زملاءهم الاشتراكيين من الاعتراف بتأثير العنصرية على كل من تطور وأسس النظام الرأسمالي، وأعفتهم من ناحية المفاهيم من البحث الدقيق في نظريات الفكر الخاص بهم. وبدون شكل ما من التدخل، كان لا بد أن تتعرض الحركة الاشتراكية لكارثة.

وكانت المبادرة الأولى لدو بويز – والذي نضج شخصيا بسبب مواجهته مع قومية السود الأمريكيين – تعيد تقييم الدور التاريخي للطبقات العاملة الصناعية. ففي البداية، كان يهدف إلى تقديم مقترح متواضع، يقوم على افتراض أنه بدون مساعدة جماهير السود، لن تنجح أية حركة للطبقة العاملة الأمريكية في الإطاحة بالطبقة الحاكمة الرأسمالية. ومع ذلك، نجد أن استكشافه للتراث الراديكالي للسود في منتصف القرن التاسع عشر قد دفع تحليله للتقدم والتعمق، ليتخطى افتراضات النظرية والسياسة الثورية في عصره. واستباقا للعروض الأكثر استمرارا من إيريك ويليامز وأوليفر كوكس، أصبح دو بويز مقتنعا بأن الرأسمالية والرق كانا مرتبطين منهجيا؛ وأن الرأسمالية الاحتكارية وسعت هذه العلاقة ولم تقيدها؛ وأن القوى

المتضمنة في انهيار الرأسمالية يمكن أن تظهر من تناقضات هذه العلاقة. وقد قدم التاريخ أدلته. ففي خضم اضطرابات الحرب الأهلية الأمريكية والثورة الاجتماعية التي قام بها الرقيق المحشودون والعمال الزراعيون البيض، كانت الطبقات العاملة الصناعية هي التي ترددت، وانجرفت إلى ثورة مضادة بسبب العنصرية والفهم القاصر لمصالحها الطبقية. وانحرف الصراع الطبقي، وتأثر الوعي الثوري البروليتاري بين العمال الأمريكيين في القرن التاسع عشر بسبب القوة الأيديولوجية للعنصرية وإغراء أسطورة البرجوازية بالحراك الاجتماعي. وكان الرقيق (والقرويون المسترقون في الحقيقة) وغيرهم من العمال الزراعيين هم الذي شنوا الهجوم على الرأسمالية. ولاحظ دو بويز أن أقوى تهديد للنظام الرأسمالي الأمريكي تحقق من الهامش وليس المركز. إذ إن الرقيق المتمردين - الذين أثارهم الوعي العالمي المستمد من التقاليد الأفريقية، والذي حول تجربتهم الأمريكية إلى فن متمرد - شكلوا واحدا من الأسس الاجتماعية المهمة المتناقضة مع المجتمع البرجوازي. وبالنسبة لدو بويز، أصبحت استعادة هذه الحقيقة الأخيرة أمرا جوهريا للنظرية الثورية كاعتراف بالجماهير الريفية الذين عصفت ثوراتهم في روسيا والمكسيك والصين بالطبقات الحاكمة في القرن العشرين. ومع ذلك، كان الشيء المهم أيضا بالنسبة له يتمثل في إدراك أن عنصرية الطبقات العاملة "البيضاء" الأمريكية، وقصورها الأيديولوجي العام، قد قلل المدى الذي يجعل أوضاع الإنتاج الرأسمالي وعلاقاته وحدها يمكن أن تكون مسئولة عن التطور الاجتماعي للبروليتاريا الأمريكية. إذ إن الهويات الجماعية والفردية للعمال الأمريكيين استجابت كثيرا للسلالة كما استجابت للطبقة. ولم تكن علاقات الإنتاج محددة. وتابع دو بويز هذه المسألة سياسيا

وليس نظريا. ومع ذلك، اتضح له أنه في النظرية الماركسية هناك قدر كبير من عدم التأكد بالنسبة إلى الأهمية التي يمكن أن تمنح للظهور التاريخي لطبقة البروليتاريا في ظل الرأسمالية وتطور وعي الطبقة العاملة.

ومن خلال إعادة تركيب ثورة هاييتي، تعمق جيمس بهذه الطريقة بدرجة أكبر في التراث الراديكالي للسود وفي مسألة موقعها داخل الماركسية. وكان جيمس أكثر عالمية من دو بويز، بالرغم من الخبرة الكبيرة والاهتمامات المتعددة لدى دو بويز، حيث استوعب جيمس فكريا التقاليد المتناقضة المرتبطة بسبب الوجود الثقافي للإمبريالية الفيكتورية، ومناهج الماركسية اللينينية، والقومية الراديكالية الوليدة في ترينيداد الاستعمارية. ولكنه كأيديولوجي في حركة الدولية الرابعة، كان مدفوعا إلى نقدها كلها وإلى رفض أي توافق سهل. وتوافقا مع حدس دو بويز بأن الراديكالية الغربية انهمكت في اتجاه تهميش الكفاح ضد العنصرية والإمبريالية، حاول جيمس تحقيق توافق نظري بين التقاليد الراديكالية السوداء والغربية. ومع وضع الثورة الروسية في الذهن، وضع إطارا لثورة هاييتي على عكس النموذج البلشفي. ولكن محاولته لتقديم السلطة الماركسية لثورات الرقيق أظهرت على السطح اعتبارا مهما. فبينما كان يمكن أن يؤجل الإدراك المزعج لحقيقة أن الثورة قد حدثت في غياب هذه الشروط وذلك الوعي الخاص، الذي اعتبرته النظرية الماركسية ضروريا للثورة الاجتماعية الحديثة، لم يستطع تجنب مشكلة ذات صلة: أي إعادة تقييم الطبيعة والدور التاريخي لمفكري البرجوازية الصغيرة الثورية وفروضها. فطوال عقد بعد ظهور "اليعاقبة السود"، كان جيمس يكافح التناقض الاجتماعي والأيديولوجي لهذه الطبقات "المارقة"، حيث صاغ نقدا لها كمصدر لقيادة الجماهير الثورية.

وفي هاييتي كما في روسيا، كان يظهر أن نظرية لينين في "دكتاتورية البروليتاريا" غير كافية. فلا توجد كوادر ثورية تنفصل عن الجماهير - وتتخفى في بيروقراطية الدولة وتدعي لنفسها تحديد أفضل المصالح للجماهير - يمكن أن تحافظ على الثورة أو على نفسها. وهكذا توصل جيمس إلى موقف نظري يتمثل في أنه "في الساعة الحاسمة" (كما تعود ماركس وإنجلز على قول ذلك) كان وعي ونشاط الجماهير الثورية هو القادر فقط على الحفاظ على الثورة من الضياع، أو من اغتصاب السلطة الثورية في أسوأ الظروف. وكانت دراسته للجماهير الثورية في هاييتي وفرنسا وروسيا وأفريقيا، وعمله في إنجلترا وأمريكا وترينيداد، وليس الدولة البلشفية، هو ما أقنعه بالحقيقة الواقعية لقول لينين: "بوسع أي طباخ أن يصبح حاكما".

ولكن ريتشارد رايت كان في وضع أفضل من دو بويز وجيمس وبادمور وويليامز وكوكس من حيث صياغة الوعي الثوري لجماهير السود، وتقييم الضعف الثقافي للسياسة الماركسية. فقد نبعت وجهات نظر رايت من أصوله في الطبقات العاملة السوداء الريفية والحضرية، وتجربته في الحركة الشيوعية الأمريكية. فعلى عكس دو بويز، الذي جاء إلى الحياة الثقافية للسود من هوامشها ووقف من بعيد ليصف الأفكار الثورية للرقيق الأمريكيين بأنها خليط من الأسطورة والنزوة والفن؛ وعلى عكس جيمس الذي كان إدراكه لثقافة السود عقليا غالبا (كان "المقياس" يتمثل في كيف أن جيمس استطاع وصف أيديولوجية الفودو لدى الثوريين في هاييتي، والكاليبسو لدى جماهير جزر الهند الغربية) وعندما لم يكن حازما (بشأن الكريكيت وروايات زملائه وأقرانه)، استحضر رايت في كتاباته لغة وتجربة الرجال والنساء السود "العاديين". وبهذه الطريقة فرض الاعتراف بأنه مهما كانت القوى

الموضوعية التي تدفع الناس نحو الكفاح والمقاومة والثورة، فـإنهم سـوف يتوصلون إلى هذا الكفاح من خلال المصطلحات الثقافية الخاصة بهم. فقـد نبعت ثقافة الشعب الواعي بذاته بين السود من الحضارة الأفريقية، وقـرون مقاومة الرق، ومعارضة النظام الاجتماعي العنصري. ومن خلال المقـاطع الموسيقية، والعمل البدائي وقرع الطبول، وفي الأغاني الشعبية وألحان لغـة السود، ومعتقدات السود، ولغة السود، والعلاقـات والمواجهـات الجنـسية والاجتماعية، كانت أعمال رايت تعيد تركيب أصداء الوعي الأمريكي للسود في صراعه مع الواقع. وكانت المساعي التي يتابعها في رواياتـه ومقالاتـه تتعرض للاحتمالات الارتجالية المتوقعة في التضارب بـين ثقافـة الـسود ومعالمها المميزة، والمعالم التي تفرضها قـوى الـسوق ومتطلبـات عمـل الرأسمالية والثقافة العنصرية. حيث وضح من الخطاب المعياري لثقافة السود حدود الحركة الاشتراكية التي تتواصل في تجريدات كثيرة جدا، وبعيدة جدا، وكانت ضحية غطرسة التكبر العنصري.

ووضح رايت أن الاعتراضات التي أثارها دو بويز، بادمور، جـيمس، ويليام كوكس، وغيرهم من الراديكاليين السود، كانت نابعة من أسفل في الوعي التاريخي لجماهير السود. ففي عصر رايت، وبـسبب المكونـات القوميـة والعرقية المحلية والمهاجرة المختلفة التي تكونها، لم تكن الطبقـة العاملـة "للبيض" قادرة على تحقيق التكامل التاريخي والثقـافي الجمـاعي لـذاتها. وباعتبارها طبقة ظهرت إلى الوجود في نهاية القرن التاسع عـشر وبدايـة القرن العشرين نتيجة الرأسمالية السلالية، ظل الوعي الجماعي للعمال وعيا سلاليا يخضع للأيديولوجيات المنظمة للطبقة البرجوازية، ويستجيب لما كانوا يدفعون إلى الاعتقاد بأنه "الثقافة الأمريكية". وبينما كان ذلك صحيحا، فـإن

جزء صغيرا فقط من هذه الطبقة كان قادرا على التحالف مع الكفاح من أجل تحرر السود. وفي تلك الأثناء، أصبح واضحا بصورة متزايدة لرايت وزملائه أن مشروع التغيير الثوري يتطلب إعادة التقييم وإعادة صياغة المفاهيم.

وبعد أن انقضى جيل، كان التراث الراديكالي للسود قد نضج في السنوات التي مضت، واتخذ أشكالا جديدة في الحركات الثورية في أفريقيا والكاريبي وأمريكا الشمالية. وظلت راديكالية السود مصدر المقاومة والثورة في أفكار الثوريين مثل باتريس لومومبا، كوامي نكروما، أميلكار كابرال، جوليوس نيريري، روبرت موجابي، أوجوستينو نيتو، إدواردو موندلاني، مارسلينو دوس سانتوس، فرانز فانون، إيمي سيزار، والتر رودني، وأنجيلا ديفز. ومع ذلك، حدث تطور في راديكالية السود بينما لم تكن واعية بنفسها كتراث. ولا شك في أن هذا كانت له مزاياه. فلم تكن هناك نصوص مقدسة يجب الحفاظ عليها من تخريب التاريخ. ولم يكن هناك مفكرون ولا قادة تضمن سلطتهم تحقيق التطابق الأيديولوجي والنظري، وتحمي أفكارهم من الانتقاد. ولم تكن هناك نظرية تطعم حركات المقاومة من خلال التغيير. ولكن من المؤكد أيضا أنه كان هناك بعض المساوئ؛ مثل الفهم الجزئي بأنها أصبحت شيئا آن الآوان لتخطيه. إذ إن تفرق الشعوب الأفريقية أمر غير عملي.

وفي تلك الأثناء كان إيقاع "العصور الحديثة" يتسارع. ففي الثقافة الغربية، أي في تلك الحضارة التي غطت ربع العالم في القرون الحديثة، ولم تخقق وعيا كبيرا بوجودها مع بقية الحضارات، فإن ما كان مجرد علامات

باهتة على الانهيار أصبح الآن يمثل دليلا قويا عليه. ولا يستطيع حتى السحر العبقري للإنجازات التقنية العالية أن يكتم التذمر من الآليات المهينة. وهذه هي مناسبة المعارضة والتناقض وتحين الفرصة. ويرجع هذا إلى أن الأوقات التي تميز تفكك الحضارات تزيد من تعقيد العمليات الداخلية والخارجية.

ومن الناحية الطبيعية والأيديولوجية، ولأسباب تاريخية فريدة نوعا ما، تجاوزت الشعوب الأفريقية تدهور نظام عالمي وانفجار نظام آخر (كما يمكن القول). وهذه مرحلة وجود مرعبة وغير مؤكدة. فإذا أردنا أن نجتازها، يجب ألا نأخذ شيئا ميتا، وأن نختار بحكمة من بين من يموتون.

والأمم الصناعية تدمر نفسها بنفسها. وهناك أمم أخرى ستتأثر أيضا بالطبع. ولكن الأسطورة السلالية التي صاحبت التكوين الصناعي الرأسمالي وقدمت هياكله الاجتماعية لم تقدم بدائل واضحة حقيقية. إذ إن المعارضات الاجتماعية والأيديولوجية والسياسية التي ظهرت داخل المجتمعات الغربية أثبتت أنها ليست على مستوى المهمة. فقد اكتسبت أهمية تاريخية فقط عندما وجدت صدى لها في وعي شعوب العالم الثالث. حيث امتزجت هناك مع ثقافات أخرى، وحلت محلها بين الأولويات الاجتماعية والرؤى التاريخية الغربية جدا على مواقع أصولها. وكانت هذه الأمثلة عبارة عن الثورات الاجتماعية الريفية بين القرويين الهنود في المكسيك في أوائل هذا القرن؛ والثورات الاجتماعية والاضطرابات القومية المتزامنة داخل الإمبراطورية الروسية؛ والحركات الريفية الثورية في الصين والهند؛ وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، كان هناك حركات التحرر القومي في مدغشقر

وكوبا، وعلى قارات أفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. واكتسب نقد النظام الرأسمالي العالمي قوة محددة، ليس من حركات العمال الصناعيين في العواصم، ولكن من حركات الشعوب "المتخلفة" في العالم. ولا تستطيع سوى الغطرسة العنصرية الموروثة والمبررة، والأوهام المدعمة بالعلوم الزائفة، أن تضفي الشرعية على إنكار هذه الأحداث. وقد أثبتت الماركسية الغربية - في كل من صورتيها الإنسانية النقدية والعلمية - أنها ليست راديكالية بما يكفي لكشف واقتلاع النظام العنصري الذي يلوث تطبيقاتها التحليلية والفلسفية، أو لكي تصل إلى توافق فعال مع مضامين أصولها الطبقية الخاصة بها. ونتيجة لذلك، فقد فهمت خطأ على أنها شيء على غير حقيقته: أي نظرية "شاملة" للتحرر. وكانت الأخطاء المستمرة رهيبة أحيانا، حيث كانت ترفع في أعقابها مبادئ يقينية تتصف باليأس.

ويشير التراث الراديكالي للسود إلى تناقض أكثر اكتمالا. ففي الممارسة الاجتماعية والسياسية، اكتسبت قوتها المباشرة من الحاجة إلى الاستجابة إلى التهديدات المستمرة للشعوب الأفريقية، والمميزة للنظام العالمي الحديث. وعبر أجيال عديدة، كانت خصوصية المقاومة - التي كانت تضمن فترات هدنة مؤقتة فقط في أحسن الأحوال - تفسح الطريق أمام حتمية الأعمال الجماعية الأوسع. وهناك لغات خاصة وثقافات وحساسيات اجتماعية تطورت في الوعي التاريخي العالمي. وانتهت فروق المكان السياسي والزمان التاريخي بحيث أن صناعة هوية جماعية سوداء واحدة يمكن أن تغمر القوميات. ويوجد في الشتات الأفريقي هوية تاريخية واحدة تتعارض مع الحرمان المنهجي للرأسمالية العنصرية. ومن الناحية الأيديولوجية، فإنها

تربط الألم بالهدف، والتجربة بالتوقعات، والوعي بالعمل الجماعي. وهي تتعمق مع كل خيبة أمل من توافق أو وساطة زائفة، وتتبلور في محاور تتزايد باستمرار بسبب الخداع والقهر. ويتزايد تصميم التراث الراديكالي للسود مع تحويل كل جيل لبيانات تجربته إلى أيديولوجية تحرر. وقد أوشك تجريب رصيد التغير السياسي الغربي، خاصة القومية والكفاح الطبقي، على التوقف. إذ إن راديكالية السود تتخطى تلك التقاليد لكي تتمسك بسلطتها الذاتية. وسوف تصل إلى نقاط مقاومة هنا، وتمرد هناك، وحركات ثورية شعبية في أماكن أخرى. ولكن كل مثال سيتشكل بالتراث الراديكالي للسود في شكل وعي بالآخرين، والوعي بأنه لم يعد هناك شيء يمكن الرجوع إليه. ونظرا لأن هذا التراث تشكل بتجربة طويلة وقاسية، ويكمن في التطور الأفريقي تحديدا، فإنه سيؤكد على عدم التوفيق بين التحرر والفناء.

لقد وصلت الحركات القومية الراديكالية في عصرنا في أفريقيا والشتات الأفريقي إلى لحظة تاريخية حيث أصبحت أعداد كبيرة من الشعوب السوداء في العالم تقع تحت تهديد الفناء المادي أو الوعد بالضعف المستمر المخيف. حيث تزايدت حدة وتكرار المجاعات التي تصاحب دائما تغلغل النظام الرأسمالي العالمي في المجتمعات. وأصبح شائعا منظر ملايين اللاجئين الأفارقة، الذين يقفون عاجزين خارج حدود الإحساس الإنساني، بأجساد هزيلة تأكل نفسها، أمرا شائعا. وأصبح الهجوم المنهجي على سياسة السود الراديكاليين، والتلاعب بالدمى السياسية القابلة للرشوة، يمثل أحداثا تقليدية. وعندما يجد السود نوعا ما من الحد الأدنى للوجود كمصدر للعمالة الرخيصة، فإن البطالة العالية والأوضاع السكنية والصحية التي تقترب من

مستوى الإبادة الجماعية تتفشى بينهم. وقد تضاءلت أوهام الاستعمار الجديد وعلاقات السلالات. ففي العواصم والسجون وغيبوبة المخدرات، أصبح استخدام السلطات العامة والمواطنين العاديين للقوة القاتلة، وأعمال الإهانة الكثيرة الناتجة عن الفصل العنصري، أمرا وبائيا. ويتسلط على رؤوس الجميع، وخاصة سكان العالم الثالث، نظام القوى النووية الساحقة. فلا يمر يوم واحد بدون تأكيد القدرة والرغبة في استخدام القوة في العالم الثالث. وليس من حق شعب واحد أن يفرض الحل أو يشخص المشكلة. ولكن هناك حضارة مهووسة بفروضها وتناقضاتها الشاذة تتسلط على العالم. ويعتبر التراث الراديكالي للسود المعارض لهذه الحضارة والواعي بذاته جزءا من الحل. وسواء كانت ستظهر معارضات أخرى من داخل المجتمع الغربي أو خارجه أم لا، فإن هذا الأمر لا يزال مثار جدال. ولكن في الوقت الحاضر يجب أن نمثل نحن هذه المعارضة.

هوامش الكتاب

مقدمة

الكتاب بقلم روبن كيلي:

(١) بالنسبة لتركيب مفهوم "التحيز للون الأبيض"، انظر:

- Theodore W. Allen, The Invention of the White Race, vol. 1, Racist Oppression and Social Control (London: Verso, 1994);
- David R. Roediger, The Wages of Whiteness (London: Verso, 1991), and Toward the Abolition of Whiteness: Essays on Race, Politics, and Working Class History (London: Verso, 1994);
- Alexander Saxton, The Rise and Fall of the White Republic: Class Politics and Mass Culture in Nineteenth Century America (London: Verso, 1990);
- Noel Ignatiev, How the Irish Became White (New York: Routledge, 1995);
- Eric Lott, Love and Theft: Blackface Minstrelsy and the American Working Class (New York: Oxford University Press, 1993);
- Matthew Frye Jacobson, Whiteness of a Different Color: European Immigrants and the Alchemy of Race (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1998).

- وقد ظهر نصان مهمان بعد عمل روبنسون يرجعان الراديكالية الأوروبية إلى أوائل التنوير على الأقل، وهما:

- George L. Mosse, Toward the Final Solution: A History of European Racism (Madison: University of Wisconsin Press, 1985);
- David Theo Goldberg, Racist Culture: Philosophy and the Politics of Meaning (London: Basil Blackwell. 1993).

(٢) بالإضافة إلى مناقشة كوكس في الفصل الأول من هذا الكتاب، أقام روبنسون علاقة صريحة بين عمله وعمل كوكس في الملاحظة ٤٧ من الفصل الرابع لاحقا. حيث طور روبنسون تحليله لإسهام كوكس في نقد المسيرة التاريخية للماركسية في مقاله:

- "Oliver Cromwell Cox and the Historiography of the West", Cultural Critique 17 (Winter 1990/91): 5-20;
- Oliver Cox, Capitalism as a System (New York: Monthly Review Press, 1964).

(٣) انظر روبنسون، ٤٦، لاحقا. وبعد ذلك، توضع الإشارات إلى هذه الطبعة من هـذا الكتاب بين أقواس في النص.

(4) Martin Bernal, Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization, vol. 1. The Fabrication of Ancient Greece, 1785-1985 (New Brunswick: Rutgers University Press, 1987);

- Mary Lefkowitz, Not Out of Africa: How Afrocentrism Became an Excuse to Teach Myth as History (New York: Basic Books, 1996).

- وبالنسبة للمصادر التي اعتمد عليها روبنسون، انظر الملاحظات ٥٣-١٢٩ في الفصل الرابع، لاحقا. وهناك تدخل حديث ورائع في هذه النقطة في:

- Wilson Jeremiah Mosse, Afrotopia: The Roots of African American Popular History (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

(5) Edward Said, Orientalism (New York: Pantheon, 1978).

(٦) بالطبع، لا يمكن أن يقول روبنسون إن هؤلاء الرجال الثلاثة هم فقـط مـن واجهـوا واعتنقوا التراث الراديكالي للسود في الواقع. ولكنه يقدم فقط مجرد افتتاحية، حيث يحدد موقع ثلاث شخصيات جسدت حياتهم وأعمالهم هذه الأفكار بوضوح. ويمكن للمرء أن يوسع تحليله ليشمل أميلكار كابرال، فرانتس فانون، كلاوديا جـونز، إيمـي وسـوزان هاردنج، ويفريدو لام، "الملكة الأم" أودلي مور، مـارتن ديلانـي، المـؤرخ فنـسنت هاردنج، والموسيقي/المؤلف الموسيقي/المؤلف المسرحي أرشي شيب، وغيرهم.

(٧) إيرنيست ألين، مكالمة هاتفية مع المؤلف، ٧ أبريل، ١٩٩٦؛

- Huey P. Newton, Revolutionary Suicide (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1973), 71-72;

- "The California Revolt", Liberator 3, no. 3 (March 1963): 14-15.

- وقد يكون جديرا بالذكر أن أحد منشورات روبنسون الدراسية المبكرة كان دراسـة عن مالكوم إكس؛ انظر:

- Robinson, "Malcolm Little as a Charismatic Leader", Afro-American Studies 3 (1972): 81-90.

(8) Harold Cruse, "Revolutionary Nationalism and the Afro-American", in Rebellion or Revolution? (New York: Morrow. 1968). 74-75; originally published in Studies on the Left 2, no. 3 (1962): 12-25.

(9) Robinson, The Terms of Order: Political Science and the Myth of Leadership (Albany: State University of New York Press, 1980).

(10) Chinweizu, The West and the Rest of Us: White Predators, Black Slaves, and the African Elite (New York: Vintage, 1975);

- Angela Davis, Women, Race, and Class (New York: Random House, 1981);
- Vincent Harding, There Is a River: The Black Struggle for Freedom in America (New York: Random House, 1983);
- V. P. Franklin, Black Self-Determination: A Cultural History of the Faith of Our Fathers (Westport: Greenwood Press, 1984);
- Manning Marable, Blackwater: Historical Studies in Race, Class Consciousness, and Revolution (Dayton, Ohio: Black Praxis Press, 1981), and "How Capitalism Underdeveloped Black America (Boston: South End Press, 1982);
- Cornel West, Prophesy Deliverance: An Afro-American Revolutionary Christianity (Philadelphia: Westminster, 1982).

- إنني مدين لفرانكلين لرؤيته في مشاكل النشر المحيطة بهذه الكتب وما شابهها. حيث أخبرني قصة طريفة عن جهوده للعثور على ناشر لكتابه "حق تقرير مصير السود". حيث كتب إلى توني موريسون، الذي كان آنذاك محررا في "راندوم هاوس" والشخص الأكثر مسئولية عن نشر العديد من الكتب الراديكالية للسود، وربما أرسل مسودته إليها للاطلاع. وكانت دار النشر قد نشرت كتاب شنوايتسو "الغرب وبقيتنا"، الذي لم يحظ بأي إعلان أو مراجعات، وهكذا حذرت موريسون فرانكلين من صعوبة نشر دراسات راديكالية للسود. بل إنه نشر لدى مطبعة جرينهاوس، ولخيبة أمله فقد لقي كتابه هذا - مثل "ماركسية السود" وغيره - نفس المعاملة. (وقد أعيد طبع كتاب فرانكلين بعد ذلك بعنوان:

- "Black Self-Determination: A Cultural History of African American Resistance [Brooklyn: Lawrence Hill Books, 1992].

- ونظرا لإدراكه لمؤامرة الصمت هذه، فقد أخذ فرانكلين على عاتقه ترويج مجموعة دراساته الراديكالية؛ حيث شملت جهوده مراجعة مطولة "لماركسية السود"، ونسخة مختصرة له نشرت في:

- Phylon 47, no. 3 (1986): 250-51.

- حوار فرانكلين مع المؤلف، ٢٤ أكتوبر ١٩٩٨؛ وخطاب فرانكلين للمؤلف، ٢ نوفمبر، ١٩٩٨.

(11) Cornel West, "Black Radicalism and the Marxist Tradition". Monthly Review 40, no. 4 (September 1988): 51-56;

- Leonard Harris, "Historical Subjects and Interests: Race, Class, and Conflict", in The Year Left 2: An American Socialist Yearbook, ed. Mile Davis, Meaning Marable, et al. (London: Verso, 1987), 90-105.

- وكانت معظم المراجعات عبارة عن ملخصات صغيرة مع ملاحظات نقدية عابرة قليلة. انظر مراجعة فرانكلين في:

- Phylon 3, no. 3, (1986): 250-51;
- Charles Herrod, Canadian Review of Studies in Nationalism 15, nos. 1-2 (1988): 153;
- Errol Lawrence, Race and Class 26, no. 2(Autumn 1984): 100-102.

(12) West, "Black Radicalism and the Marxist Tradition", 51.

(13) Winston James, Holding Aloft the Banner of Ethiopia: Caribbean Radicalism in Early-Twentieth Century America (London: Verso, 1998).

- وقد انطلق جيمس في تفسير الوجود الطاغي للهنود الغربيين في الحركات الراديكالية للسود واليسار الأمريكي. حيث يركز تفسيره على خصوصيات تاريخ الكاريبي وخصائص المهاجرين أنفسهم. فقد كانت هذه الموجة المبكرة من الهنود الغربيين المهاجرين تتكون بصفة عامة من رجال ونساء من هذه "السلالة" يتمتعون بتعليم متميز، مهن راقية، مكانة محمية قانونا كرعايا بريطانيين، وخبرة في السفر والسياحة الدولية، وخبرة سياسية بالكاريبي، والتزام قليل أو معدوم بالمسيحية، واتجاه نحو المواجهة المباشرة وليس التراجع. ويقول جيمس إنهم كانوا ميالين للراديكالية لهذه الأسباب. ومع ذلك، تشير القراءة المتأنية لهذا الكتاب إلى أن العديد من هذه الخصائص، خاصة فيما يتعلق بالتعليم والخبرة السياسية، يمكن أن توجد بين أعضاء البرجوازية الصغيرة السود الراديكاليين المولودين في أمريكا. وفي الواقع، وبناء على رؤى أميلكار كابرال، حدد روبنسون الدور الرئيس للتعليم الاستعماري في تكوين طبقة المفكرين السود الراديكاليين، ولكن بينما يركز جيمس على "حب القراءة" كخاصية ثقافية كاريبية فريدة، يقترح روبنسون تفسيرا أكثر تعقيدا يرتبط بمتطلبات الإمبراطورية. إذ إن الحكام الاستعماريين، خاصة في الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، حاولوا جاهدين أن يشكلوا طبقة من الموظفين - برجوازية صغيرة سوداء راغبة وقادرة على إدارة الأمور نيابة عن النظام الإمبراطوري. وعلى أي حال، كان حب القراءة منتشرا بنفس القدر بين الشعوب السوداء المولودة في أمريكا، كما جاء في كتاب دو بويز "إعادة بناء السود"، وكتاب فرانكلين الأحدث "حق تقرير مصير السود".

والأهم من ذلك، أن نتائج روبنسون أثارت التساؤلات حول تعميمات جيمس المتعلقة بأن الهنود الغربيين تبنوا تقليد "الهجوم المباشر" على قوى القهر، بينما تبنى السود في أمريكا الشمالية عدم الاستيعاب، أو "ارتداء القناع". واكتشف روبنسون وجود اتجاه لدى أفارقة العالم الجديد لتجنب المواجهة المباشرة واستخدام العنف في الكاريبي وأمريكا الشمالية؛ وبدلا من ذلك، كان هؤلاء الأفارقة في العالم الجديد يحاولون إعادة تكوين حياة قروية على أرض أجنبية. وفي الواقع، ركز روبنسون كثيرا على غياب العنف في أرجاء الشتات والأهمية الكبيرة للحالة الروحية والنفسية. وعلى الرغم من أنني لا أعتقد أن هذه المواقف متناقضة، فأنني أعتقد أن رؤى روبنسون، التي تطورت منذ حوالي عقدين تقريبا، ربما أثرت أو عقدت مناقشة جيمس.

وكذلك، فإنه بينما يعترف روبنسون بالأعداد الكبيرة من راديكاليي الكاريبي في نيويورك خلال الحرب العالمية الأولي والفترة التالية للحرب مباشرة – وهي فترة ومكان دراسة جيمس الثرية والتفصيلية بصورة لا تصدق – لأن نطاق دراسة روبنسون يمتد عالميا وعبر فترة زمنية أطول، كان قادرا على تحديد الدافع نحو راديكالية السود عبر الشتات. وحتى إذا أردنا ببساطة أن نقصر نطاقنا على الولايات المتحدة القارية، فإنه بمجرد أن نترك مدينة نيويورك ونستكشف الجنوب، والغرب الأوسط (خاصة أوكلاهوما) والساحل الغربي، سنجد أن الهنود الغربيين ليسوا بارزين في الحركات الراديكالية.

(14) Paul Gilroy, The Black Atlantic: Modernity and the Double Consciousness (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1993).

– ومن المدهش أن كتاب "الأطلنطي الأسود" يذكر روبنسون مرة واحد فقط لإثارة انتقاد بناء على ما يبدو أنه سوء قراءة للنص. حيث يختلف جيلوري مع روبنسون على استخدام مصطلح "التراث الراديكالي للسود"، لأنه يمكن أن يشير إلى أن العناصر الراديكالية في هذا التراث هي التي تمثل خصائصه السائدة... ولأن فكرة التراث قد تبدو مغلقة جدا، ونهائية جدا، ومتناقضة جدا، مع التجربة الثانوية للحداثة التي شكلت جزئيا تطور هذه الأشكال الثقافية". (١٢٢) ومع ذلك، لا يستخدم روبنسون مصطلح "سلالي" كطريقة لاستبعاد الخصائص الأخرى لحياة وفكر وكفاح السود، بل على العكس، يمثل هذا المصطلح طريقة لتحديد مصدر معارضة الرق، الزنجي، وأنماط القمع المختلفة الأخرى التي نتجت عن الرأسمالية العنصرية والاستعمار والإمبريالية. وهو يستخدم مصطلح "التراث" ليشير ببساطة إلى الحاجة إلى رؤية بعيدة، لأن حجته تستند إلى رؤيته بأن منطق الرق والرأسمالية لا يفسر معارضة السود، ولا طبيعتها الخاصة، ولكن روبنسون يرى أننا نحتاج إلى إرجاع المقاومة إلى الأفارقة الذين كانوا موجودين لحظة إدماجهم في النظام الرأسمالي العالمي. ولا يعتبر التراث الراديكالي للسود شيئا ساكنا، ولكنه عملية محملة ليس فقط بالفكر والحياة الأفريقية، بل وبالفكر والحياة الأوروبية أيضا، ويرتبط مباشرة بالأشكال قبل الحديثة من الراديكالية الأوروبية واختراع الزنوج لاحقا.

(15) Melville Herskovits, The Myth of the Negro Past (New York: Harper and Brothers, 1941), and The New World Negro: Selected Papers in Afro-American Studies (Bloomington: Indian University Press, 1966);

- Leonard Barrett, Soul-Force: African Heritage in Afro-American Religion (Garden City, N. Y.: Anchor Press, 1974);
- Roger Bastide, African Civilisations in the New World (London: C. Hurst, 1971), and The African Religions of Brazil: Toward a Sociology of the Interpretation of Civilisations (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978);
- Winifred Vass, The Bantu Speaking Heritage of the United States (Los Angeles: Center for Afro-American Studies, University of California, 1979);
- Sidney Mintz and Richard Price, The Birth of African American Culture: An Anthropological Perspective, 2d ed. (Boston: Beacon Press, 1992);
- Richard Price, First Time: The Historical Vision of an Afro-American People (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1983).

(16) Gwendolyn Midlo Hall, Africans in Colonial Louisiana: The Development of Afro-Creole Culture in the Eighteenth Century (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1992);

- Carolyn Fick, The Making of Haiti, The Saint-Domingue Revolution from Below (Knoxville: University of Tennessee Press, 1990);
- Michael Mullin, Africa in America: Slave Acculturation and Resistance in the American South and the British Caribbean, 1736-1831 (Urbana: University of Illinois Press, 1992);
- Joao Jose Reis, Slave Rebellion in Brazil: The Muslim Uprising of 1835 in Bahia (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1995);
- Robert Farris Thompson, Flash of the Spirit: African and Afro-American Art and Philosophy (New York: Vintage, 1983);
- Margaret Washington Creel, "A Peculiar People": Slave Religion and Community-Culture Among the Gullahs, (New York: New York University Press, 1988);
- Sandra T. Barnes, ed., Africa's Ogun: Old World and New (Bloomington: Indiana University Press, 1989);

- George Brandon, Santeria from Africa to the New World: The Dead Sell Memories (Bloomington: Indiana University Press, 1993);
- Joseph Holloway and Winifred Vass, The African Heritage of American English (Bloomington: Indiana University Press, 1993), and "Working the Spirit: Ceremonies of the African Diaspora (Boston: Beacon Press, 1994);
- Karen Fog Olwig, Cultural Adaptation and Resistance on St. John: Three Centuries of Afro-Caribbean Life (Gainesville: University of Florida Press, 1985);
- Jim Wafer, The Taste of Blood: Spirit Possession in Brazilian Candomble (Philadelphia University of Pennsylvania Press, 1991).

– ومن بين هذه الكتب الجديدة، هناك كتاب أعتقد أنه يشترك في ارتباط عميق مع "ماركسية السود" هو كتاب ستيرلنج ستكي:

- Sterling Stuckey, Slave Culture: Nationalist Theory and the Foundations of Black America (New York: Oxford University Press, 1987).

– حيث يركز على "صيحة الحلقة ring shout" كعنصر رئيس في بناء ثقافة السود وأيديولوجية المعارضة. وكذلك يُرجع كتاب "ثقافة الرقيق" الذي نشر بعد "ماركسية السود" بأربع سنوات الجذور الأفريقية للمعارضة الشعبية للسود إلى الرأسمالية العنصرية، ويظهر كيف أن مفهوم صيحة الحلقة في المجتمع – كاستعارة وممارسة – شكل مفكرين سود متنوعين مثل ديفيد ووكر، هنري هايلاند جارنت، دو بويز وبول روبسنون.

(١٧) تبنى عدد من الدارسين – أغلبهم من المفكرين الراديكاليين السود – القضايا المتصلة بالأفكار التي في "ماركسية السود". وبينما لا يوجد لدي مجال للإشارة إلى كل الأعمال المثيرة التي أعرفها، فإنني أقدم عينة صغيرة منها. فبالإضافة إلى النصوص المذكورة سابقا ولاحقا (فضلا عن عمل روبنسون الذي استمر في استكشاف الحركات الراديكالية والمفكرين وثقافة السود)، انظر:

- Rod Bush, We Are Not What We Seem: Black Nationalism and Class Struggle in the American Century (New York: New York University Press, 1999);
- Hazel Carby, Reconstructing Black Womanhood (New York: Oxford University Press, 1987), and Race Men (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1998);

- Angela Y, Davis, Blues Legacies and Black Feminism: Gertrude "Ma" Rainy, Bessie Smith, and Billie Holiday)New York: Pantheon, 1998);
- Kevin Gaines, Uplifting the Race: Black Leadership, Politics, and Culture in the Twentieth Century (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1996);
- Farah Jasmine Griffin, Who Set You Flowin'?: The African-American Migration Narrative (New York: Oxford University Press, 1995);
- Michael Hanchard, Orpheus and Power: The Movimento Negro of Rio de Janeiro and Sao Paulo, Brazil, 1945-1988 (Princeton University Press, 1994);
- Gerald Horne, The Fire This Time: The Watts Uprising and the 1960s (Charlottesville: University Press of Virginia, 1995);
- Tera Hunter, To Joy My Freedom: Southern Black Women's Lives and Labors after the Civil War (Cambridge, Mas.: Harvard University Press, 1997);
- Lewis Gordon, Her Majesty's Other Children: Sketches of Racism From a Neo-Colonial Age (Luham, Md.: Rowman and Littlefield, 1997), and "Fanon and the Crisis of European Man: An Essay on Philosophy and the Human Sciences (New York: Routledge, 1995);
- Joy James, Transcending the Talented Tenth: Black Leaders and American intellectuals (New York: Routledge, 1997);
- Robin D. G. Kelley, Hammer and Hoe: Alabama Communists during the Great Depression (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1990), and "Race Rebels: Culture, Politics, and the Black Working Class (New York: Free Press, 1994);
- George Lipsitz, A Life in the Struggle: Ivory Perry and the Culture of Opposition (Philadelphia: Temple University Press, 1988);
- Brenda Gayle Plummer, Rising Wind: Black American and U.S. Foreign Affairs, 1935-1960 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1996);
- Tricia Rose, Black Noise: Rap Music and Black Culture in Contemporary America (Hanover: Wesleyan University Press, 1994);
- Timothy B. Tyson, Radio Free Dixie: Robert Williams and the Roots of Black Power (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1999);

- Penny von Eschen, Race against Empire (Ithaca: Corneil University Press, 1997);
- Koomozi Woodard, A Nation within a Nation (Chapei Hill: University of North Caroiina Press, 1998);
- Ciyde Woods, Deveiopment Arrested: Race, Power, and the Blues in the Mississippi Delta (London: Verso, 1998);
- as well as forthcoming books by: Barbara Bair, Elsa Barkley, Nahum Chandler, Cathy Cohen, Gina Dent. Brent Edwards, Grant Farred, Ruth Wiison Giimore, Adam Green, Jonathan Holloway, Peniel Joseph, Chana Kai Lee, Wahneema Lubiano, Tony Monteiro, Jeffery Perry, Vijay Prashad, Barbara Ransby, Nikhii Singh, Tracye Matthews, Genna Rae McNeii, Tiffany R. L. Patterson, Linda Reed, Uia Tayior, Akinyele Umoja. And Cynthia Young.

(18) Quote from "Surrealism and Blues", Living Blues 25 (Jan.-Feb. 1976): 19.

(19) Franklin Rosemont, ed., Andre Breton: What is Surrealism?: Selected Writings (New York: Pathfinder, 1978, 37;
  - The Surrealist Group of France, "Murderous Humanitarianism", Race Traitor (Special Issue- Surrealism: Revoiution against Whiteness) 9 (Summer 1998): 67-69, originally published in Negro: An Anthology, ed. Nancy Cunard (London: Wishart and Company, 1934);
  - Michaei Richardson, ed., Refusal of the Shadow: Surrealism and the Caribbean (London: Verso, 1996).

(20) Max-Poi Fouchet, Wifredo Lam, 2d ed. (Barceiona: Ediciones Polgrafa, S. A. 1989), 38, 192, 196;
  - Aime Cesaire, Discourse on Colonialism, trans. By Joan Pinkham (New York: Monthiy Review Press, 1972). 67;
  Eugene E. Miiier, Voice of a Native Son: The Poetics of Richard Wright (Jackson: University Press of Mississippi, 1990), 78-85.

(21) Cheikh Tidiane Syiia, "Surreaiism and Biack Art", Arsenai: Surreaiist Subversion 4 (1980): 128-29.

تصدير

لطبعة عام ٢٠٠٠

(١) انظر دراستي القادمة عن تاريخ الاشتراكية الغربية، والتي تحمل عنوان:
- The Anthropology of Marxism (Hanover, N.H.: University Press of New England);
وانظر أيضا المصادر التالية:
- and Cynthia Farrar, The Origins of Democratic Thinking (New York: Cambridge University Press, 1988).

(2) See R. I. Moore, The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe, 950-1250 (New York: Blackwell, 1987);
- Norman Cohn, Pursuit of the Millennium (New York: Oxford University Press, 1961).

(3) See my Black Movements in America (New York: Routledge, 1997).

(4) Michael Foucault, The Order of Things (London: Tavistock Publications, 1970), 255ff.

(5) Leo Rauch, ed., Hegel and the Human Spirit (Detroit: Wayne State University Press, 1983), 166.

(6) Karl Marx, "Towards a Critique of Hegel's Philosophy of Right: Introduction". In Karl Marx: Selected Writings, ed., David McLellan (New York: Oxford University Press, 1977). 69.

(7) Sheldon Wolin, the Policies and Vision (Boston: Little, Brown, 1960).

(٨) انظر تعليقات ماركس السطحية نوعا ما على النساء والأطفال في "رأس المال"، حيث يرى أنهم يشكلون جزءًا من جيش الاحتياطي الذي يستخدم عرضيا لتأخير معدل الفائدة المتراجع، وقارنها بمضامين بحثه في الاستقصاءات البرلمانية عن عمل الأطفال، والذي يصف استغلالا أكثر استمرارا لعمالة الأطفال. وفي وقت مبكر، في "الأيديولوجية الألمانية" (١٨٤٤)، كان ماركس يقول ضمنا إن السيطرة على تكاثر الإناث في المجتمع القبلي هي التي بدأت أول تقسيم للعمل في تاريخ الإنسانية.

(9) Andre Gunder Frank, ReOrient: Global Economy in the Asian Age (Berkeley: University of California Press, 1998).

- ويعلق فرانك قائلا: "لا يقتصر جوزيف نيدهام على تسجيل الاختراعـات الـصينية الشهيرة مثل البارود، والورق، والطباعة، والبوصلة. ولكنه يدرس أيضا الانصهار وأكسجة الحديد، تقنية الصلب، الساعات الميكانيكية، والأدوات الهندسية مثل أحزمة الحركة، وأساليب السحب بالسلاسل لتحويل الحركة الدائرية إلى حركة مـستقيمة، القنطرة المجزأة والكباري المعلقة بسلاسل حديدية، ومعدات الحفر العميق، وقوارب التجديف بالعجل، وأشرعة المقدمة والأشرعة الخلفية، والمقصورات المضادة للماء والتطورات التقنية في صواري السفن، وغير ذلـك". (١٩٣) ويقـرر أيـضا أن: "الرياضيات والفلك في الهند كانت متقدمة جدا بالنسبة للأوروبيين، بحيث استوردوا الجداول الفلكية والأعمال المتصلة بها من الهند في القرنين السابع عـشر والثـامن عشر. وفي الطب، جاءت نظرية وممارسة التحصين ضد الجدري من الهند". ثـم يواصل فرانك مسحه للمزيد من الدراسات الحديثة عن "تـصدير العلـوم والتقنيـة الهندية المتعلقة ببناء السفن والنسيج والتعدين". (١٩٤)

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٣٦.

(١١) أرسطو، "السياسة"، ١٢٥٥ ب١٢.

(١٢) انظر ماركس، الفصل السادس من كتاب "رأس المال"، في: كارل ماركس، كتابات مختارة، ٥١٢.

(١٣) بالنسبة لتأثر ماركس بأرسطو، انظر الفصلين الأول والثاني من:

- G. E. M. de Ste. Croix, The Class Struggle in the Ancient Greek World (Ithaca: Cornell University Pres, 1981); and Scott Meikle, Aristotle's Economic Thought (Oxford: Clarendon, 1995).

(١٤) لمعرفة بعض أتباع أرسطو المعاصرين، انظر:

- Thomas K. Lindsay. "Was Aristotle Racist, Sexist, and Anti-Democratic?", The Review of Politics 56 (Winter 1994): 127-51;

- Peter Garnsay, Ideas of Slavery from Aristotle to Augustine (New York: Cambridge University Press, 1996),

- حيث يتتبع تأثير أرسطو حتى أول ٤٠٠ سنة من المسيحية؛

- Sir Moses Finley, Ancient Slavery and Modern Ideology (London: Penguin, 1986),

- حيث يتتبع تأثير أرسطو حتى العصر الحديث.

(١٥) روبنسون، "حركات السود في أمريكا"، ٣٢-٣٦.

(16) See Robinson, "In the Year 1915: D. W. Griffith and the Whitening of America", Social Identities 3 (June 1997): 161-92.

الفصل الأول

(١) يتمثل أحد التعبيرات غير العادية عن التوقعات المرتبطة بظهور الرأسمالية في نقد ماركس اللاذع للأهمية التاريخية العالمية للبرجوازية:

"عندما تسيطر البرجوازية في أي مكان فإنها تنهي كل العلاقات الإقطاعية والأبوية والمثالية. فقد مزقت البرجوازية بلا رحمة العلاقات الإقطاعية المختلفة التي تربط الإنسان "بسادته الطبيعيين"، ولم تترك أية رابطة أخرى بين الإنسان وغيره سوى المصلحة الذاتية المجردة، وسوى "المدفوعات النقدية"....

وقد جردت البرجوازية كل مهنة شريفة آنذاك من هالة قداستها....

ونزعت البرجوازية عن الأسرة حجابها العاطفي....

ولا تستطيع البرجوازية أن تعيش دون إحداث ثورة في أدوات الإنتاج باستمرار، وبالتالي علاقات الإنتاج، ثم كل علاقات المجتمع من خلالها...

وفرضت البرجوازية من خلال استغلالها للسوق العالمي طبيعة كونية على الإنتاج والاستهلاك في كل دولة. راجع في ذلك:

- Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, in Robert Tucker [ed.], The Marx-Engels Reader, W. W. Norton, New York, 1972, pp. 337-38.

- وهناك صيغة أكثر حداثة لهذه الرؤية للرأسمالية، تعكس آراء مؤلفها وآراء مديري المؤسسات متعددة الجنسيات (أو العالمية)، وهي صيغة أقل شاعرية ولكنها أكثر تأكيدا. وتذهب هذه الرؤية إلى أن " قوة المؤسسة العالمية تنبع من قدرتها الفريدة على استخدام التمويل والتقنية ومهارات التسويق المتقدمة لتحقيق تكامل الإنتاج على النطاق العالمي، وبالتالي تحقيق الحلم الرأسمالي القديم "بسوق واحد كبير".

انظر في ذلك:

- Richard Barnet and Ronald Muller, Global Reach, Simon and Schuster, New York, 1974, p.18.

(2) Paul Sweezy et al., The Transition from Feudalism to Capitalism, New Left Books, London, 1976;

وانظر أيضا:

- Karl Marx, Pre-Capitalist Economic Formations, International Publishers, New York, 1965.

(3) Fernand Braudel, Capitalism and Material Life, 1400-1800, Harper and Row, New York, 1973, pp. xiii-xv.

(4) Karl Marx, The German Ideology, in Robert Tucker, op. cit., pp. 158-61.

(5) Robert Latouche, The Birth of Western Economy, Barnes and Noble Inc., New York, 1961, p. 309.

(6) Petr Kropotkin, Mutual Aid, Extending Horizon Books, Boston, n. d., pp. 117-18; Henri Pirenne, Mohammed and Charlemagne, Unwin University Books, London, 1968, pp. 17-19, pp 184-85;

وانظر أيضا:

- William C. Bark, Origins of Medieval World, Stanford University Press, Stanford, 1958, pp. 26-27.

- ويذكرنا دنيس هاي بذلك فيقول: "لم تكن أوروبا تعني الكثير لأي من الإغريق أو الرومان. فقد سيطر الخوف من الفرس على موقف الإغريق من القارات، ولكن إمبراطورية الإسكندر الأكبر كانت في آسيا، وليس في أوروبا، في حين غزا أحد ملوك الرومان بقاياها مما حقق تقدما كبيرا في شمال وغرب أوروبا. وكان البحر الداخلي هو الذي يربط العالم الإغريقي معا، ومن بعده عالم روما، حيث ربط بين جميع المناطق ما عدا الإمارات الأكثر بعدا، والتي كانت مهد الحضارة الإغريقية، والتي ضمها الرومان باعتبارها "البحر المتوسط" على الرغم من نفورهم من المغامرات البحرية. وفيما وراء سكون البحر المتوسط (كما أصبح يسمى في العصور اللاحقة) والقواعد الأمامية للنظام الذي فرضه غزاة البحر المتوسط، الإغريق والرومان، كانت هناك البربرية. ولم يكن البرابرة - كما يعرفهم الرومان جيدا - مقصورين على قارة معينة، بل كانوا يثيرون المشاكل في أوروبا ذاتها".
انظر في ذلك:

- Hay, Europe: The Emergence of an Idea, Edinburg University Press, Edinburg, 1968, p. 4.

(7) Oscar Halecki, The Millennium of Europe, Notre Dame University Press, South Bend, Indiana, 1963, p. 50.

(8) Denis de Rougemont, The Idea of Europe, Macmillan Co., New York, 1966, pp. 47-49, 53; And Duncan McMillan, "Charlemagne Legends", Encyclopaedia Britannica, William Benton, Chicago, 1965, 5:291-92.

(9) H. Munro Chadwick, The Nationalities of Europe and the Growth of National

Ideologies, Cambridge University Press, Cambridge, 1945, pp. 50-75.

(١٠) بالإضافة إلى الإيطالية والهيلينية والهندية والإيرانية والأرمينية، يقال أحيانا إن هذه اللغات تشكل اللغات الهندوأوروبية؛ انظر في ذلك:

- G. L. Brook, A History of the English Language, W. W. Norton and Co. Inc. New York, 1958, pp. 30-60.

(11) Chadwick, op. cit., pp. 14-49.

(١٢) كما يقول شادفيك، ربما كانت لغة الباسك "تمثل لغة أو إحدى لغات الأيبيريين القدامى"، المرجع السابق، ص ٤٩. ويقول بروك إن هناك دليلا يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد على أن اللغات الأتروريكانية والأوسكانية والأمبريانية كانت موجودة في إيطاليا؛

- Brook, op. cit., pp. 36-37.

(13) Henri Pirenne, op. cit., pp. 17-71.

(١٤) بيرنه، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧.

(١٥) نفس المرجع، ص ٢٨، ٣٢.

(١٦) نفس المرجع، ص ٣٧. ويقول بيرنه إن جاوتير Gautier حدد عدد الأفارقة الرومان بما يتراوح ما بين ٧ إلى ٨ ملايين نسمة في القرن الخامس، وإن دورين Doren قدر أن عدد سكان إيطاليا كان يتراوح ما بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في نفس القرن.

(17) Latouche, op. cit. p. 70.

(18) Ibid., pp. 59-60; Pirenne, op. cit., pp. 75-79.

(19) Frank Snowden, Blacks in Antiquity, Harvard University Press, Cambridge, 19970, pp. 170-71.

(٢٠) يقول كل من بيرنه ولاتوش إنه قبل تصاعد الضغوط السياسية على القبائل الألمانية بسبب الشعوب "البربرية" اللاحقة بفترة طويلة - أي الإيرانيين والمنغوليين والسلاف والمجريين - كان القوط مدفوعين بالأسباب الاقتصادية أساسا للاندماج مع الشعوب الأكثر إنتاجية في الإمبراطورية.

- Pirenne, op. cit., pp. 37-39; Latouche, op. cit., pp. 42-45.

(21) David Brion Davis, The Problems of Slavery in Western Civilization, Cornell University Press, Ithaca, 1966, pp. 29-61.

- كان لانقطاع التواصل التاريخي والثقافي الذي حدث بين تفكك الحضارة الإغريقية الرومانية وظهور الحضارة الجرمانية أهمية كبيرة في وقت ما بالنسبة للطبقة المثقفة الأوروبية الغربية. فطبقا لكتاب الجرمانية Germania، الذي كتبه المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus في القرن الأول، والذي قارن بين تفكك روما والحيوية العسكرية للقبائل الجرمانية، كانت هناك أساطير

عن الأصول تميز الثقافات والسلالات العليا عن الثقافات والسلالات الدنيا. ومؤخرا، منذ القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين، كان الدارسون الإنجليز والألمان والفرنسيون يميزون أصولهم "الخاصة" السلالية والفلسفية والثقافية الجرمانية عن الأصول السابقة (مثل السلتية والإغريقية الرومانية) والشعوب المزعومة التي ظهرت لاحقا (مثل النورماندية).

- See Reginald Horsman, Race and Manifest Destiny, Harvard University Press, Cambridge, 1981, pp. 9-42.

- ويذكرنا جورج موسى George Mosse بأن مقتبسات من كتـــاب "الجرمانيـــة" كانـــت جزءا من المناهج المعيارية "لتعليم التاريخ الدستوري الإنجليزي حتـــى بعـــد الحـــرب العالمية الثانية".

- Mosse, Toward the Final Solutuin, J. M. Dent and Sons, London, 1978, p. 48.

(٢٢) بالنسبة للرق الإغريقي والروماني، انظر:

- William L. Westermann, The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity, American Philosophical Society, Philadelphia, 1955; Smowden, op. cit.

- وبالنسبة للحقبة الإقطاعية، انظر:

- R. Welldon Finn, An Introduction to Domesday Book, Longmans, London, 1963, pp. 118-21, as cited by Davis, op. cit., pp. 38-39, and Iris Origo, "The Domestic Enemy: The Eastern Slaves in Tuscany in the Fourteenth and Fifteenth Centuries," Speculum 30, no., 3 (July 1955): 321-66;

وانظر أيضا:

- Latouche, op. cit., pp. 123-25.

- وبالنسبة لتجارة جنوة والبندقية، انظر:

- Henri Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, Harcourt, Brace and World, New York, 1937, pp. 16-20;
- Davis, op. cit., pp. 43-52;
- Fwrnand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Harper and Row, New York, 1976, 1:290-93 and 2:754-55.

- ويعتمد كل من ديفز وبراودل كثيرا على عمل:

- Charles Verlinden, L'esclavage dans l'Europe medievale. Vol. 1, Peninsule Iberique, Brugge, France, 1955.

- وبالنسبة للعصر الحديث، انظر:

- Williams, Capitalism and Slavery, Capricorn Books, New York, 1966.

(23) Davis, op. cit., pp. 33-37.

(24) Immanuel Wallerstein, The Modern World System, Academic Press, New York, 1974, pp. 86-90.

- وفي هذا الصدد يرغب فالرشتاين في التمييز بين الأوضاع الاقتصادية والقانونية السياسية لرق slavery العالم الجديد و"قن serfdom" الرأسمالية ("العمل القسري بالمحاصيل النقدية") في شرق أوروبا وبين "الشعوب المستعبدة Encomienda" في العالم الجديد في القرن السادس عشر. إذ كان تعريفه "للعمل القسري بالمحاصيل النقدية" أنه ذلك النظام من التحكم في العمل الزراعي يطلب فيه من المزارعين - حسب عملية قانونية تفرضها الدولة - أن يعملوا جزءًا من الوقت على الأقل في منطقة كبيرة تنتج بعض المنتجات للبيع في السوق العالمي"، ص ٩١). ويبدو أن هذا التعريف كان بمثابة وصف للرق slavery. وتتمثل النقطة المهمة هنا في أنه لا يميز بمفرده بين الأشكال المتميزة من العمل القسري. ويلاحظ "ديفيد بريون ديفز" أنه بالنسبة لحقبة العصور الوسطى على الأقل، لم تكن التمييزات قاطعة الدلالة في الحياة اليومية كما يرى الدارسون المعاصرون.

- Davis, op. cit., 33.

(25) Pirenne, Mohammed and Chalemagne, op. cit., p. 140.

- حيث كتب بيرنه في ملحوظة على النص: "كانت هذه الأشياء باقية: اللغة، و العملة، والكتابة (البردي) الأوزان والمكاييل، وأنواع المواد الغذائية شائعة الاستخدام، والطبقات الاجتماعية، الدين - وكانت هناك مبالغة في دور الآرية - الفن، القانون، الإدارة، الضرائب، التنظيم الاقتصادي". انظر في ذلك المرجع السابق.

(26) Latouche, op. cit., pp. 97-116, Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., pp. 39-40.

(27) Dirk Jellema, "Frisian Trade in the Dark Ages," Speculum 30, no. 1 (January 1955): 15-36; Latouche, op. cit., 120-23.

- يمثل تراجع التجارة في أوروبا الميروفنجية جانبا مهما من محاولة تحدي "نظرية" هنري بيرنه، القائلة بأن الغزو الإسلامي لأوروبا أدى إلى نهاية تجارة البحر المتوسط الأوروبية، وصاحبته آثار اجتماعية وثقافية، وأدي إلى بداية حضارة أوروبية "جديدة" بداية من إمبراطورية شارلمان. انظر:

- Mohammed and Charlemange, op. cit., pp. 162-85; Latouche, op. cit., pp. 117-88; Bark, op. cit., pp. 6-28; and Alfred Havighurst (ed.), The Pirenne Thesis, D. C. Health and Co., Boston, 1958.

(28) Latouche, op. cit., p. 139.

(29) Pirenne, Mohammed and Charlemange, op. cit., pp. 184-85; Braudel, op. cit., p. 222.

(30) Latouche, op. cit., pp. 173-74.

(31) Ibid., pp. 297-98.

- وحتى بحلول القرن السادس عشر، كان التناقض في الحياة الحضرية لا يزال كبيرا بين الظهير الأوروبي والبحر المتوسط، حيث يقول براودل: "كان إقليم البحر المتوسط في القرن السادس عشر (ويجب توسيعه إلى أقصاه عند الحديث عن المدن) فريدا في ضخامته. ففي القرن السادس عشر لم يكن هناك أي إقليم في العالم يتمتع بمثل هذه الشبكة الحضرية المتطورة. وكانت باريس ولندن على أعتاب مستقبلهما الحديث. ولكن مدن الأراضي المنخفضة (هولندا) وجنوب ألمانيا (تحفزت اقتصاديا بسبب التجار والبحارة من الجنوب (مثل هولندا)، بينما سبحت ألمانيا في مجد البحر المتوسط. وإلى الشمال من تلك الدول كانت هناك المدن الصناعية الصغيرة لرابطة الهانزا. وعلى الرغم من أن الأخيرة كانت منتعشة وجميلة، فإنها لم تكوّن شبكة مترابطة ومعقدة مثل شبكة البحر المتوسط. ففي عالم البحر المتوسط كانت المدينة تتبع الأخرى في خطوط لا تنتهي، تميزها مدن عظيمة مثل: البندقية، جنوة، فلورنسا، ميلانو، برشلونة، أشبيلية، الجزائر، نابولي، القسطنطينية، القاهرة".

- Braudei, The Mediterranean, op. cit., pp. 277-78.

(٣٢) "وصف راؤول جلابر Raoul Glaber بإصرار يقرب من السادية المجاعة المروعة التي سبقت سنة ١٠٣٣. حيث ذكر مثلا أنه في سوق تورنوس Tournus في بورجاندي Burgundy كان هناك رجل يبيع لحما بشريا مطهوا سلفا في كشك جزار".

- Latouche, op. cit., p. 298.

(33) Bark, op. cit., pp. 70-82.

(34) Pirenne, The Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., pp. 44-49; and Lopez and Raymond, Medieval Trade in the Mediterranean World, Oxford University press, Oxford, 1955. Pp. 87-104.

(35) Pirenne, Medieval Cities, Their Origins and the Revival of Trade, Princeton University Press, Princeton, 1948, p. 140.

(36) Pirenne, Economic and Sociai History of Medievai Europe, op. cit., p. 44.

(37) Pirenne, Medieval Cities, op. cit., p. 6.

(38) Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., p. 40.

(39) Pirenne, Medieval Cities, op. cit., pp. 114-15.

- على الرغم من أن دينيس هاي يختلف مع تفسير بيرنه لأصول هؤلاء التجار، فإنه لا يذكر بالتحديد الأساس الذي يثبت رؤيته.

- Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries, Longman, London, 1966, p. 71.

(٤٠) المرجع السابق، ص ١٢٦. ويفسر بيرنه في مكان آخر: "من المحقق تماما أن التجارة والصناعة جذبت عمالتها من بين الناس المعدمين أساسا، والذين يمكن القول إنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع، حيث كانت الأرض فقط هي أساس الوجود".

- Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., p. 45.

(41) Pirenne, Medieval Cities, op. cit., pp. 143-44.

- وفي شرق أوروبا، كانت القصة مختلفة تماما لأن القوى السياسية والاقتصادية للمدن كانت مثالية وقصيرة الأجل: "فقد كانت المدن مضطرة للتخلي عن حقوقها القديمة في إيواء الأقنان، واضطرت أيضا إلى التخلي عن الاتحاد مع المدن الأخرى، وكان المُلاك قادرين على تجنب استخدام المدن كأسواق لحبوبهم ببيعها مباشرة إلى المصدرين"؛

- Hay, op. cit., p. 41.

(42) Pirenne, op. cit., p. 18.

(43) Ibid., pp. 100-101.

(44) ibid., p. 155; Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., pp. 35-36.

(45) Karl Polani, The Great Transformation, Beacon Press, 1957, p. 64.

(46) Ibid.

وانظر أيضا:

Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., pp. 160-66.

(47) Pirenne, Medieval Cities, op. cit., pp. 154-56.

(48) Pirenne, The Economic and Social History of Medieval Europe, op. cit., pp. 57-58;

وانظر أيضا:

- Hay, op. cit., p. 77.

(49) Pirenne, Medieval Cities, op. cit., p. 193; Michael Tigar

وانظر أيضا:

- Madeline Levy, Law and the Rise of Capitalism, Monthiy Review Press, 1977, pp. 80-96.

- وفي مكان آخر، يلخص كل من "تيجار" و"ليفي" مراجعتهما للتوجهات المبكرة لدى البرجوازية ضد النظام الإقطاعي، فيقولان: "كان الإنجاز الكبير للبرجوازية في هذه الفترة (١٠٠٠ إلى ١٢٠٠) يتمثل في انتزاع الاعتراف بالمكانة المستقلة داخل الهيكل الإقطاعي من الأسياد في مئات المناطق المنفصلة. وتطلبت الحركة الحضرية... امتيازا كبيرا آخر من الأسياد، وتمثل ذلك في صفة ومكانة البرجوازية، أي المواطن المتمتع بالحكم الذاتي "burgher, burgess" (ص ١١).

(50) Hay, op. cit., pp. 39, 370.

(51) Ibid., pp. 373-74.

(52) Origo, op. cit., p. 326.

(53) Origo, op. cit., p. 328;

وانظر أيضا:

- Davis, op. cit., p. 43; and Hay, op. cit., pp. 75-76.

(54) Origo, op. cit., p. 336.

(55) Hay, op. cit., p. 76.

- يلاحظ هاي أنه "في هذه المجتمعات التي امتلكت الرقيق في البحر المتوسط المسيحي، لا توجد أدلة كثيرة على أن الرقيق كانوا يستخدمون في الزراعة (المرجع السابق)؛ ولكن تشارلز فيرلندن Charles Verlinden لا يوافق على ذلك، فيذهب إلى أنه "في إسبانيا، كان الإناث من الرقيق أرخص من الذكور بصفة عامة، على الرغم من أن العكس كان صحيحا في معظم إيطاليا". ويرجع هذا إلى أن معظم قوة عمل الرقيق في إسبانيا كانت تستخدم في الزراعة والصناعة، بينما في إيطاليا كان رقيق المنازل ينتشرون في المدن، ولذلك كانت هناك حاجة إلى المزيد من العاملات الإناث".

- Charles Verlinden, "The Transfer of Colonial Techniques from the Mediterranean to the Atlantic", in The Beginnings of Modern Colonization, Cornell University Press, Ithaca, 1970, p. 29.

(٥٦) يذكر تشارلز فيرلندن: "لم تترسخ الكلمة اللاتينية الرقيق sclavus، وهي المصدر المشترك للكلمات المماثلة في مجموعة اللغات اللاتينية خلال تلك الحقبة الأولية (قبل العصور الوسطى) عندما كان الرق منتشرا في كل أوروبا... ولكن عندما تم جلب الرقيق من مصادر جديدة تماما ظهرت وانتشرت مصطلحات أخرى لتشير إلى غير الأحرار، وكان من بينها تلك الكلمة المشتقة من الاسم السلالي لشعوب السُلاف Slav. حيث ظهرت أولا في شكلها اللاتيني في ألمانيا في القرن العاشر.

- Medieval Slavery in Europe Colonial Slavery in America", Verlinden, op. cit., pp. 35-36.

(57) Charles Verlinden, "The Transfer of Colonial Techniques", op. cit., pp. 31-32.

(58) Giuliano Procacci, The History of the Italian People, Wiedenfeld and Nicolson, London, 197-, pp. 44-45.

(٥٩) علق تاوني R. H. Tawney على الأشكال المختلفة للرأسمالية في التاريخ الأوروبي. وكانت مناسبة ملاحظاته تتمثل في مراجعة عمــل مــوريس دوب Maurice Dobb "دراسات في تطور الرأسمالية"،

- Maurice Dobb, "Studies in the Development of Capitalism (Routledge, London, 1946).

- وقد يبدو للوهلة الأولى أن توقيف "دوب" مصطلح الرأسمالية على الإنتاج الــذي يستخدم العمل على أساس عقد أجري لإنتاج فائض القيمة لمالك رأس المال، كان من أجل التهرب من الغموض الكامن في التفسيرات الأقل تقييدا؛ ولكنــه يثيــر مشاكل خاصة به. فلم يقتصر الأمر في ظــاهره علــى أن الرأســمالية الماليــة والتجارية كانت متطورة جدا في الظروف التي كانت فيها المؤســسة مــشروعا ضعيفا. ولم تكن الإشكالية في استبعاد هذه الأشكال الاقتصادية على أساس أنهــا لا تقع داخل الحدود الأربعة لتعريف القرن التاسع عشر. ولكن الأمر يتمثل فــي أن تفسير أصول ونمو الأنشطة الصناعية يتطلب تناولها فــي ضــوء علاقتهــا بتاريخ الأنشطة الأخرى. ومن الواضح أن الرأسمالية في عصرنا تعتمد أساســا على نظام الأجور، وقد أصبح هذا النظام مألوفا لدرجة أنه يغري بمعاملته علــى أنه ثابت تاريخيا".

- Tawney, "A History of Capitalism', Economic History Review, 2d ser., vol. 2, no. 3 (1950): 310-11.

(60) Marian Malowist, "The Economic and Social Development of the Baltic Countries from the Fifteenth to the Seventeenth Centuries", Economic History Review, 2d ser., vol. 12, no. 2 (1959): 17-78; and Wallerstein, op. cit., pp. 21-26.

(61) Hay, op. cit., p. 34.

(62) Ibid., pp. 34-35.

(63) Norman Cohn, The Pursuit of the Millennium, Oxford University Press, New York, 1970. Pp. 198-99;

وانظر أيضا:

- Hay, op. cit., pp. 35-37; and Procacci, op. cit., p. 46.

(64) E. M. Carus-Wilson and Olive Coleman, England's Export Trade, 1275-1547. Oxford University Pres, Oxford, 1963, pp. 201-7.

(65) Hay, op. cit., p. 387.

(66) Ibid., p. 389.

(67) P. Ramsey, "The European Economy in the Sixteenth Century", Economic History Review, 2d ser., vol. 12, no. 3 (April 1960):458.

(68) Hay, op. cit., p. 389.

(69) Ibid; and Wallerstein, op. cit., p. 148.

(70) Halil Inalcik, The Ottoman Empire, Weidenfeld and Nicolson, London, 1966, pp. 133-39.

(71) K. G. Davies, "The Mess of the Middle Class", Past and Present, no. 22 (July 1962): 82.

(73) Davies, op. cit., p. 79.

(٧٤) قدم إيلي هيكشر Eli Heckscher دراسة مهمة عن المذهب التجاري، وإن كانت دراسة معيبة. وفي هذه الدراسة يرى هيكشر "أن أسلوب معاملة كل أنواع الاتجاهات المنفصلة، التي تمهد الطريق للأوضاع الاقتصادية الحديثة في ظل الاسم المشترك "للرأسمالية الحديثة" يبدو مربكا ومنهجا يجب التخلي عنه".

- Mercantilism, George Allen and Unwin, London, 1955,1:14.

(75) Immanuel Wallerstein, op. cit.,p. 133; and Perry Anderson, Lineages of the Absolute State, New Left Books, London, 1974, pp. 40-41.

(76) V. G. Kiernan, "State and Nation in Western Europe', Past and Present, no. 31 (July 1965):34.

(77) Ibid., pp. 25-26.

(٧٨) "الحرب من أجل [المملكة] لم تكن سياسة اختيارية، بل كانت حاجة عضوية... إذ إن أدوات الدولة كلها والتي كان الحكام يقومون بتجميعها كانت بمثابة منتج ثانوي للحرب أساسا. فخلال تطورها - في القرنين السادس عشر والسابع عشر - كانت الحرب مستمرة غالبا، ولكنها بعد ذلك كانت تحدث بصورة متقطعة". المرجع السابق، ص ٣١.

(79) Wallerstein, op. cit., pp. 136-39.

- وللاطلاع على مناقشة مستفيضة للعلاقات بين الدولة والتجار، انظر:

- Heckscher, op. cit., vol. 1. pp. 240-455.

(80) Braudel, the Mediterranean, op. cit., vol 1, p. 334, and vol. 2, p. 695.

(81) D. C. Coleman, "Eli Heckscher and the Idea Mercantilism", Scandinavian Economic History Review, no. 1 (1957): 3-4.

(82) Wallerstein, op. cit., pp. 146-47.

(83) Coleman, op. cit., pp. 18-19; and Carl Bucher, Industrial Evolution, August Kelley, New York, 1968 (Orlo 1901), pp. 136-39.

(84) Heckscher, op. cit., vol. 2. pp. 14-15.

- من الواضح أن فالرشتاين يعاني بعض المشاكل من هذا الارتباط الخاص ببرجوازية القرن السادس عشر. فبينما يعتمد على كيرنان من أجل توصيفه الخاص - على الرغم من بساطته - فإنه يقدم تفسيرا لا يتسق مع التمييز الواجب بين الدولانية والقومية: "لقد اقتصر الأمر على أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في إطار التجارية، حيث وجدت القومية أوائل أنصارها الحقيقيين بين البرجوازيين. ولكن في القرن السادس عشر، لم تكن مصالح البرجوازية قد استقرت بعد على الدولة. وكان هناك عدد أكبر من المهتمين بالاقتصادات المفتوحة مقارنة بالاقتصادات المغلقة. وبالنسبة لبناة الدولة، فقد خاطرت القومية غير الناضجة ببلورتها حول كيان عرقي إقليمي صغير. وعند مرحلة مبكرة، كان يمكن أن يقال إن الدولانية مناقضة للقومية، لأن البرجوازية ذات المشاعر "القومية" كانت أضيق من حدود الدولة الملكية".

- Wallerstein, op. cit., p. 146; Kiernan, op. cit., pp. 29-30.

(85) Coleman, op. cit., 21.

(86) Heckscher, op. cit., vol. 2, p. 18.

(87) Ibid., pp. 18-23; Wallerstein, op. cit., pp. 196-97.

(٨٨) يقول فيرناند براودل: "بداية من القرن السادس عشر، ومع زيادة الازدهار في قرن التجديد هذا، كانت الدول - خاصة تلك التي تريد أن تستمر وتزدهر وتقاوم التكاليف الباهظة للحروب البرية والبحرية - تسيطر على الحياة الاقتصادية وتشكلها، وتخضعها لشبكة من القيود، وتحاصرها في شباكها... وكان ذلك الجزء من الحياة الاقتصادية، الذي كان الأكثر حداثة في ذلك الوقت، والذي يمكن أن نعتبر أنه يعمل في إطار الرأسمالية التجارية واسعة النطاق، يرتبط بهذه التقلبات المالية التي تسببها الدولة".

- Quoted by Wallerstein, op.cit., p. 138 note.

(89) Friedrich Hertz, Race and Civilization, KTAV (no place), 1970, p. 4; Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, Meridian Books, Cleveland, 1958, pp. 1958, pp. 161-65; Henri Peyre, Historical and Political Essays, University of Nebraska, (no place), 1968, pp. 29-30.

- ويعتـــرف بـــايري Peyre بأنـــه مـــدين لجـــاك بـــارزون Jacques Barzun في استشهاداته، انظر:

- The French Race, Kennirat, New York, 1966 Oris. 1432; Race, Harcourt Brace, New York, 1932).

- ويجب أن نذكر أيضا أنه بالنسبة لأسطورة حام وأصولها كتبريـــر لاســـترقاق الأفارقة في أمريكا الشمالية، تجاهل ونتروب جوردان في دراســـته المعتبـــرة "البيض فوق السود"، بالإضافة إلى معظـــم الدارســـين الأمـــريكيين، ظـــاهرة الاتجاهات العنصرية بين الأوروبيين تجاه الأوروبيين الآخرين، على الرغم من ادعائه الاطلاع على الأدبيات المناسبة. انظر في ذلك:

-Winthrop Jordan, 'White Over Black" (University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1968).

(90) Hertz, op. cit., p. 6.

(91) Heckscher, op. cit., vol. 2, p. 18.

(92) V. B. Kiernan, "Foreign Mercenaries and Absolute Monarchy', Past and Present, no. 2 (April 1957): 76-77.

(93) Ibid., p. 68; Braudel, The Mediterranean, op. cit., 2;739-43.

(94) Kiernan, op. cit., p. 74.

(95) Ibid., p. 78.

(96) Ibid., p. 69.

(97) Ibid., p. 72.

(٩٨) يؤكد براودل على أنه كان هناك عدة جوانب أخرى لعلاقة الدولة بالمرتزقة، راجع في ذلك:

- The Mediterranean, op. cit., vol. 2.

وفي هذا المرجع يذهب براوديل إلى أن:

- "قراصنة البحار كانوا يحصلون على مساعدة وتحريض المدن والبلـــدات القويـــة. وكان القراصنة في البر والعصابات يحصلون على مساندة منتظمة مـــن النـــبلاء. وكانت عصابات السطو تعمل غالبا تحت قيادة، أو أحيانا بتوجيه، بعـــض النـــبلاء الحقيقيين" (ص ٧٤٩)؛ وكان للصوصية أسباب أخرى بالإضافة إلى الأزمة فـــي ثروات النبلاء: فقد انطلقت من الريف والعامة على السواء. وكان هذا بمثابة فيض أو "مد فيضان" كما سماه أحد مؤرخي القرن الثامن عشر، والذي أثـــار مجموعـــة أخرى من المصادر. وكرد فعل سياسي واجتماعي (ولكنه لـــيس سياســـيا) كـــان للخصوصية مكونات أرستقراطية وشعبية (في أغلب الأحوال كان "ملوك الجبـــل" في الحملات الرومانية وحول نابولي من القرويين والمتواضعين)" (ص ٧٥١).

(٩٩) حافظت جيوش أوروبا الإمبريالية في القرن التاسع عشر على تقليد الاعتماد على التجنيد من بين الأقليات العرقية أساسا، ومن "الرعاع" والمنبوذين والغرباء والقرويين: فقد أضيف إلى المليون قن في الجيش الروسي كل من البشكير والكالموك والإنجوش والأوسيتيين الآسيويين، وكذلك تزايدت أعداد الكورسيكيين والبريتون في الجيش الفرنسي بإضافة الفرقة المكونة من حملة السيوف الكابيل Kabyle، والسويسريين وغيرهم من المرتزقة، ولكن بحلول منتصف القرن أصبح الجنود من غرب أفريقيا يسيطرون على الجيش نفسه؛ وفي الفلبين كان الجيش الإسباني وطنيا، كما كان الجيش الهولندي في الهند الشرقية؛ وفي الهند، كانت شركة الهند الشرقية وجيش البنجال (١٨٤٢) يستخدمان فيما بينهما حتى ٧٠ ألفا وطنيا في الأفواج الهندية. وفي بريطانيا ذاتها، كان الأيرلنديون يمثلون حوالي ٤٢٪ من الجيش في ١٨٣٢. انظر:

- V. G. Kiernan, European Empires from Conquest to Collapse, Leicester, 1982, pp. 71-32.

(100) Bucher, op. cit., p. 346; Wallerstein, op. cit., p. 117;

وانظر أيضا

- Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, Oxford University Press, London, 1973, pp. 15-25;

- ويعبر براودل عن ذلك بصورة أفضل: "لم يكن هؤلاء المهاجرون الذين لا يمكن الاستغناء عنهم من العمال غير المهرة دائما، أو من الرجال منخفضي المهارة. بل غالبا ما أحضروا معهم تقنيات جديدة كان لا يمكن الاستغناء عنها للحياة الحضرية. حيث لعب اليهود - الذين طردوا بسبب معتقداتهم الدينية وليس بسبب فقرهم - دورا استثنائيا في نقل التقنية... وكان هناك مهاجرون آخرون مهمون، وذلك مثل الفنانين الجوالين الذين جذبتهم المدن المتوسعة التي كانت توسع مبانيها العامة؛ أو التجار، خاصة التجار والمصرفيين الإيطاليين الذين نشطوا أو أسسوا مدنا مثل لشبونة ومرسيليا وإشبيلية و"مدينة دل كامبو" وليون وأنتفيرب. فالمجتمع الحضري يحتاج كل أنواع وأشكال الناس، وليس الأغنياء فحسب. إذ إن المدن جذبت الأثرياء كما جذبت البروليتاريا، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة".

- The Mediterranean, op. cit., 1:336-7.

(101) Wallerstein, op. cit., pp. 118019; Bucher, op. cit., p. 353.

(102) Chaim Bermant, London East End, Macmillan Publishing, New York. 1975, pp. 30-31.

(103) Ibid., p. 43;

وانظر أيضا:

- E. P. Thompson, op. cit., pp. 469-85; Stephen Castles and Godula Kosack, op. cit., pp. 16-17.

(104) Paul Lazarsfeld and Anthony Oberschall, "Max Weber and Empirical Social Research", American Sociological Review30, no.2, (April 1965): 185-88.

(105) Stephen Castles and Godula Kosack, "The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism", New Left Review, no. 73 (May-June 1972): 6; and Bucher, op. cit., pp. 367-68.

(106) David Brody, Steelworkers in America, Harper Torchbooks, New York, 1969, pp. 96-99.

(107) Howard Brett Meleny, The Oriental Americans, Twayne Publishers, New York, 1972; Mary R. Coolidge, Chinese Immigration, Arno Press, New York, 1969, (orig.1909); and Stuart Miller, The Unwelcome Immigrant, University of California Press, Berkeley, 1969.

(١٠٨) تشير كلمة "أمة" من الناحية الاشتقاقية إلى "ميلاد"، أو "ولادة"، ومن ثم إلى عرق أو قرابة أو نوع له أصل مشترك، أو بشكل أوسع لغة مشتركة أو أية مؤسسات أخرى... فلا يقتصر الأمر على وجود ميلاد أصلي وفردي لكل نظام، ولكن هناك ميلاد مستمر لمؤسسات جديدة بداخله، وتحول مستمر للمؤسسات القديمة، وحتى إعادة ميلاد الأمة بعد الموت".

- Max Fish, "The New Science of Giambattista Vico, Cornell University Press, Ithaca, 1970, p. xxiii.

- وانظر أيضا فريدريش هيرتس بالنسبة للمدى الذي كانت المملكة ترغب في الوصول إليه لتحقيق الخداع المناسب: "إن النظرية التي قدمها بودين Bodin سلفا، والتي تقول إن الفرانك Franks كانوا شعبا من الأصل الغالي Gallic وتجولوا في ألمانيا، ثم عادوا من هناك لاحقا وحرروا أخوتهم من نير الرومان. أصبحت هذه النظرية موضع إعجاب في عهد لويس الرابع عشر. ولذلك، لم يكن هناك داخل الشعب الفرنسي تباين سلالي، ولكن كان هناك وحدة قومية من النوع المرغوب جدا لدى الملكية المطلقة. وقد قدمت هذه النظرية تأييدا مناسبا للرغبة في ضم الراين، الذي طالب لويس الرابع عشر باستعادته كإقليم فرنسي قديم"، المرجع السابق، ص ٥.

(109) Kiernan, op. cit., Past and Present, no. 31, p. 27.

(110) Robert S. Lopez, The Birth of Europe, Phoenix House, London, 1966, pp. 103-4.

(111) Robert S. Lope and Irving Raymond (eds.), Medieval Trade in the Mediterranean World, Oxford University Press, Oxford, 1955, pp. 79-80 and 87-107.

(112) Braudel, The Mediterranean, op. cit., 1:321.

(113) ibid., 2:695.

(114) Halil Inalick, The Ottoman Empire, Weidenfeld and Nicolson, London, 1966, pp. 113-39.

(115) Braudel, The Mediterranean, op. cit., 1:336-37.

(116) Ibid, p. 322.

(117) Ibid, p. 344.

(118) Ibid, p. 334.

(119) Ibid, pp. 334-36.

(120) Charles Verlinden, op. cit.; Eric Williams, op. cit.; and David Brion Davis, op. cit.

(121) Karl Mannheim, Ideology and Utopia, Harcourt, Brace and World, New York, 1936, pp. 121-24; and Hertz, op. cit., pp. 6, 10.

(122) T. K. Derry and M. G. Blakeway, The Making of Pre-Industrial Britain, John Murray, London, 1973, passim.

(123) Arendt, op. cit., 165-67; Hertz, op. cit., pp. 1-19.

(124) Reginald Horsman, 1981, pp. 14-15.

(125) Ibid., chap.2.

(126) Louis Snyder, The Idea of Racialism, D. Van Nostrand, Princeton, 1962, pp. 39-40, 20-23, 39-53;

وانظر أيضا:

- Snyder, Race, Longmans, Green and Co., New York, 1939, pp. 93-95; Magnus Hirschfield, Racism, Victor Gollancz, London, 1938.

- من الطريف أن هيرشفيلد تتبع استخدام مصطلح "سلالة race" منذ دخوله في الكتابات العلمية على يد كونت دى بوفون Comte de Buffon في ١٧٤٩، حتى ظهوره في المقدمة النقدية للدورة الصيفية لإيمانويل كانت في ١٧٧٥ في كونيجسبيرج في شكل السلالة البيضاء، السلالة الزنجية، سلالة الهون Huns، السلالة الهندية، والسلالات الهجين، ص ٥١-٥٤).

(127) Eric Hobsbawm, "Some Reflections on Nationalism", in T. J. Nossiter, A. H. Hanson, and Stein Rokkan (eds.), Imagination and Precision in the Social Sciences, Faber and Faber, London, 1972, pp. 385-406.

(128) Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, in Robert Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., 1972, pp. 342-43.

(129) Louis Snyder, The Idea of Racialism, op. cit., 155-65.

- ولمزيد من الاقتباسات من مختلف المفكرين الاشتراكيين في ألمانيا - بما فيهم أدولف هتلر، ألفريد روزنبيرج، إيرنست هاور، فليكس فيشر دودليبن، فيلهلم كليسيروف، إيرنست كريك، هيرمان جاوش - بالإضافة إلى مختارات مناسبة من قوانين نوريمبرج (١٩٣٥)، وانظر أيضا:

- Mannheim, op. cit., pp. 134-46; M. N. Roy, Fascism, Best Books, Jijnasa, 1976, pp. 33-43;

وانظر أيضا:

- Renzo De Felice, Interpretation of Fascism, Harvard University Press, Cambridge, 1977, pp. 176-78.

(130) William Styron, "Hell Reconsidered", New York Review of Books, 1978, pp. 10-12, 14.

الفصل الثاني

(1) E. P. Thompson, The Making of the English Working Class, p. 9.

(٢) إذا كنت أتذكر جيدا، فقد ذكر طومسون السود في دراسته للطبقات العاملة الإنجليزية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في مناسبتين فقـط. حيـث تتمثل الحالة الأولى في إشارته إلى حرفي أسود؛ بينما تمثلت الثانية في ظهور رجل أسود كتمثيل للشيطان في كابوس تذكره وزير منشق.

(٣) تكفي الاقتباسات من الدراسات العديدة للتاريخ الاشتراكي لإظهار اسـتمرار ارتبـاط الاشتراكية "بالثورتين". حيث كتب جورج لشتهايم George Lichtheim في تصديره: "يتمثل الغرض من العمل الحالي... في توضيح أصول الاشتراكية، كنظرة عالميـة وكاستجابة خاصة من العمال والمثقفين على الاضطراب المزدوج للثورة الفرنـسية والثورة الصناعية"،

- The Origins of Socialism, Praeger, New York, 1696, p. vii,

– وعلى الرغم من أن كول G. D. H. Cole لم يكن يتقبل إلى حد ما التقسيم الزمنـي والحسم الخاص بالثورة الصناعية، فإنه استسلم لملاءمة العبارة ودلالاتها العامـة. حيث يذكر: "من الشائع الآن القول إنه منذ ١٧٨٩ فصاعدا كانـت أوروبـا فـي مخاض ثلاثة أنواع من التغير الثوري – التغير السياسي والاجتماعي الذي تجسده الأحداث في فرنسا وانعكاساتها في الدول الأخرى؛ والتغير الصناعي الذي يتميـز بظهور الطاقة البخارية والتطبيق الموسع للأساليب العلمية في الصناعة والهندسة الميكانيكية والمدنية، وفي طبيعة الحياة الريفية"،

- A History of Socialist Thought, vol. 1, Socialist Thought, the Forerunners, 1789-1850, St. Martin's Press, New York, 1953, p. 10.

(4) Asa Briggs, "The Language of "Class" in Early Nineteenth-Century", in Asa Briggs and John Saville (eds.), Essays in Labour History, Macmillan, London, 1960, p. 43,

- Melvin Kranzberg, "Industrial Revolution", in Encyclopedia Britannica, 19665, 12: 210-15.

(5) A. E. Musson, "Continental influences on the Industrial Revolution in Great Britain", in Barrie Ratcliffe (ed.). Great Britain and Her World, 1750-1914, Manchester University Press, Manchester, 1975, p. 73.

– بالنسبة إلى التصنيع في فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر، انظر

- W. O. Henderson, The Industrial Revolution in Europe, Quadrangle, Chicago, 1961, pp. 86-88.

(٦) يذكر موسون Musson مثلا أنه: "بالنسبة لصهر وتنقية الخامات التعدينيــة... كــان رأس المال الألماني... مهما لغاية. إذ كانت التقنية التي تعمل بطاقة المياه وعمليات التنقيب في المناجم متطورة أكثر... من الخبرة الهولندية والألمانية. حيــث دخلــت أفران النفخ وصب الحديد من القارة الأوروبية إلى إنجلترا في القرن السادس عشر، وأعقبها معامل طرق وسحب منتجات الحديد". المرجع السابق.

(7) E. J. Hobsbawm, 'Economic Fluctuations and Some Social Movements Since 1800", in Economic History Review, 2nd ser., vol. 5, no. 1 (1952): 17,19.

(٨) يحذر هوبسباوم بقوله: "تتمثل أفضل مؤشراتنا في معدلات الوفيات (توقع الحياة عند الميلاد، الطفولة، الجدري، الوفيات، إلخ)، ومعدلات الأمراض والبيانــات القياســية الأنثروبولوجية. ولكننا للأسف نفتقر في بريطانيا إلى أية بيانات قياسية أنثروبولوجية مثل البيانات الفرنسية، وإلى أي مؤشر للصحة مثل نسبة المتطوعين المرفوضــين. وليس لدينا أية أرقام مفيدة عن الأمراض"،

- "The British Standard of Living 1790-1850", in Hobsbawm, Labouring Men, Weidenfeld and Nicolson, London, 1964, p. 71,

– صدرت تعليقات هوبسباوم في سياق الجدل حول تفسير "المتفائلين" للنتائج الاجتماعية لظهور أشكال الإنتاج الصناعية؛ حيث يتفق هوبسباوم مع "المتشائمين". "من الخطــأ الآن الاعتقاد بأن التصنيع المبكر كان كارثة على الفقراء العاملين... فضلا عــن أن مستوى معيشتهم قد انخفض. حيث يقترح هذا المقال أن يظهر أن الرؤية المقبولــة حاليا تعتمد على أدلة غير كافية... فمن الخطير أن نــرفض إجمــاع المعاصــرين الأذكياء المطلعين على التصنيع، حيث كان معظمهم يتبنى الرؤية المتــشائمة كمــا يعترف بذلك حتى النقاد... ومن أجل الملاءمة، فإننا نــسمي الرؤيــة الكلاســيكية (ريكارد، مالتوس، ماركس، توينبي، هاموند) بالرؤية المتشائمة، بينما نسمي الرؤية الحديثة (كابهام، آشتون، هايك) بالمدرسة المتفائلة". المرجع السابق، ص ٦٤.

(9) Norman Longmate, The Workhouse, St. Martin's Press, New York, 1974, pp. 45ff;

– وللمزيد من الأدلة على عداء الطبقة الحاكمة تجاه الفقراء والاستخدام العقابي لبيوت العمل، انظر:

- E. P. Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., pp. 266-68.

(10) Hobsbawm, "The British Standard", op. cit., p. 73.

(11) Longmate, op. cit., p. 44; and Thompson, op. cit., pp. 217-24.

(١٢) انظر مناقشة هوبسباوم لأنماط البطالة والاضطرابات الاجتماعية وطريقة تأثرها بالتقارب في القرن التاسع عشر بين الركود في القطاع الزراعي وأنماط الدورات الاقتصادية الصناعية الأقل موسمية،

- "Economic Fluctuations", op. cit., pp. 4-9.

(13) ibid., pp. 10-11, and Thompson, op. cit., pp. 219-21.

(14) Hobsbawm, "The British Standard", op. cit., p. 74.

(15) Thompson, op. cit., p 250.

(16) Thompson, ibid.

(17) Hobsbawm, "The British Standard", op. cit., p. 73.

(18) Thompson, op. cit., pp. 247-48.

- يعلق طومسون قائلا: "يبدو أن عوائد "مسيرة التقدم" كانت تتحقق دوما لصالح شخص آخر... لأن عدم الأمان الخاص كان مجرد واجهة لعدم الأمان العام لكل المهارات خلال هذه الفترة" (ص ٢٤٨).

(19) Brian Inglis, Poverty and the Industrial Revolution, Hodder and Stoughton, London, 1971, passim; and A. J. Taylor, "Progress and Poverty in Britain", History 45 (Feb. 1960): 16-31.

(20) Thompson, op. cit., pp. 320-21.

(٢١) يرى هوبسباوم أنه "يجب تعلم عادة التضامن الصناعي، مثل عادة العمل لأسبوع منتظم، وكذلك يجب تعلم حاسة طلب الامتيازات عندما تكون الظروف مواتية، وليس عندما يتطلب الجوع. وهكذا توجد فجوة زمنية طبيعية، قبل أن يصبح العمال الجدد حركة عمالية "فعالة"... وهناك عوامل مختلفة يمكن أن تسبب هذا الدخول المتأخر بصورة مصطنعة للعمال في نشاط العمل المنظم. إذ إن أخبار الاضطرابات العمالية في أماكن أخرى يمكن أن تنتشر بمجرد أن تدخل المنطقة الجديدة. وكذلك الأمر بالنسبة للأحداث والضغوط السياسية، مثل الانتخابات العامة الفرنسية في ١٩٣٦، أو تشكيل مؤتمر حكومات الولايات في الهند في ١٩٣٧".

- "Economic Fluctuations", op. cit., p. 21.

(22) J. L. Hammond, "The Industrial Revolution and Discontent", Economic History Review 2, no. 2 (January 1930): 224-25.

(23) ibid., pp. 221, 223.

(24) Asa Briggs, op. cit., p. 64.

- من اللافت أن الابن الأكبر لميل Mill، جون ستيوارت ميل، أظهر التوافق الأسري في آرائه الخاصة في الطبقات العاملة. حيث يقول نيكولاس مانسيرج Nicholas Mansergh إنه "بعد أن ذكر ميل في "الحكومة النيابية" أن الحزب المحافظ كان بحكم قانون إنشائه أغبى حزب، ذكر في مذكرة أخرى أن الطبقات العاملة الإنجليزية كانت مخادعة على الرغم من أنها تختلف عن نظيراتها في بعض الدول الأخرى من حيث الخجل منها".

- The Irish Question, 1840-1921, University of Toronto, 1965, p. 117.

(25) Hobsbawm, "The Machine Breakers", in Labouring Men, op. cit., pp. 5-22; and George Rude's essay on "Luddism", in his "The Crowd in History", John Wiley and Sons, New York, 1964, pp. 79-92.

(26) Hobsbawm, ibid., pp. 10-11.

(27) Ibid.; and Hobsbawm "Economic Fluctuations", op. cit., pp. 5-9; and Thompson, op. cit., pp. 25-28.

(28) Ibid., p. 13.

(٢٩) انظر إلى الانتقال الحذر الذي فعله ماركس في "البيان الشيوعي" (مرجع سابق) من مناقشته للبرجوازية إلى تفسيره لظهور البروليتاريا في التاريخ. حيث قدم كورنيليوس كاستروياديس Cornelius Castoriadis فكرة أن الطبقة التي تتحدد بتاريخ البرجوازية، والطبقة بالنسبة إلى البروليتاريا، هما أمران مختلفان عمليا وفلسفيا: "إن تاريخ حركات العمال هو تاريخ نشاط البشر الذين ينتمون إلى الفئة الاقتصادية الاجتماعية التي أوجدتها الرأسمالية. فمن خلال نشاطها ونشاط الآخرين الذين يكافحون إلى جانبها، حولت هذه الفئة نفسها إلى طبقة من نوع لا يقدم التاريخ نظيرا لها".

- "On the History of the Workers' Movement", Telos, no. 30 (Winter 1976-77): 38.

(30) Rude, op. cit., p. 230; L. P. Curtis, Jr., Anglo-Saxons and Celts, University of Bridgeport, Bridgeport, 1968, pp. 31-33.

(31) J. L. Hammond, op. cit., pp. 215-26; and Hobsbawm, "History and "The Dark Satanic Mills" and "The Standard of Living Debate: A Postscript", in Labouring Men, op. cit.

(٣٢) يظهر أحد مضامين الاعتراف بأن الطبقة العاملة الصناعية في أوائل القرن التاسع عشر كانت طبقة أقلية في تنازل هاموند إلى كلافام Clapham، والذي يقول: "يحق للدكتور كلافام ... الإشارة إلى أنه في ١٨٣١ كانت تجارة المباني تستخدم أرباب أسر أكثر من صناعة القطن، وأن عدد عمال القطن كان يقل كثيرا عن عدد خدم المنازل. ومن المؤكد أن الأضرار أو الخسائر التي صاحبت الثورة الصناعية وقعت على جزء فقط من سكان الطبقة العاملة، وليس على الجزء الأكبر". وكما رأينا في النص، فإن هاموند لا يتفق مع كالفام، ولكنه يعترف بسلامة تأكيداته؛ وبأسلوب مماثل، يجب أن نذكر أن هوبسباوم ومايهيو وطومسون انضموا إلى المتفائلين بناء على المدى الإحصائي لمصداقية وسلامة البيانات.

(33) Thompson, op. cit., pp. 828-28.

(34) Ibid., p. 831; and R. A. Huttenback, Racism and Empire, Cornell University Press, Ithaca, 1976, pp. 15-22.

(35) Royden Harrison, "The British Labour Movement and the International in 1864', In Ralph Miliband and John Saville (eds.), The Socialist Register 1964, Merlin Press, London, 1964, pp. 293-308.

(36) Ibid., p. 306; and W. H. Fraser, "Trade Unionism", in J. T. Ward (ed.). Popular Movements c. 1830-1850, Macmillan, London, 1970, p. 113.

– وبالنسبة لدور المسألة الأيرلندية في تراجع العمالة الإنجليزية عن الممارسة الطبقية، انظر

- Mansergh, op. cit., pp. 113-21.

(37) Thompson, op. cit., pp. 828-29.

(38) Eric William, Capitalism and Slavery, op. cit., Maurice Dobb, op. cit.; and R. H. Tawney, op. cit.

(39) Edward Norman, A History of Modern Ireland, Allen Lane the Penguin Press, London, 1971, pp. 33-44.

(40) Thomas W. Heyck, The Dimensions of British Radicalism: The Case of Ireland, University of Illinois Press, Urbana, 1974, p. ix.

(41) James Froude, The English in Ireland, Scribner, Armstrong, New York, 1874, 3:11-17.

(42) Michael Hechter, Internal Colonialism, University of California Press, Berkeley, 1975, pp. 72-73.

(٤٣) من أجل معالجة موجزة نوعا ما للأنجلوسكسونية كأيديولوجية، انظر

- **L. P. Curtis, Jr., op. cit., pp. 10-14.**

- حيث يعرف كورتس هذه الأيديولوجية باختصار بأنها "١- سلالة أو شعب محدد وموثق تاريخيا يعرف بالأنجلوساكسون يشترك في روابط دم مشتركة، وفي اللغة والأصل الجغرافي والثقافة... ويرجع إلى اليوت **Jutes** والإنجليز **Angles** والسكسون **Saxons**... فيما بين بحر البلطيق والغابة السوداء. ٢- التمتع بالحريات المدنية والدينية... في مجتمعات أنجلوساكسونية أساسا... ترجع إلى العبقرية الخاصة بالأنجلوساكسون في الشئون السياسية. ٣- مجموعة من الفضائل والمواهب التي جعلتهم متفوقين في كل الجوانب المهمة بالنسبة إلى أية مجموعة سلالية أو ثقافية أخرى مقارنة في العالم. ٤- بعض الخصائص الأنجلوساكسونية الخاصة مثل العقل والالتزام وضبط النفس وحب الحرية وكراهية الفوضى، واحترام القانون وعدم الثقة بالعاطفة، تنتقل في الواقع من جيل... إلى جيل من خلال الوراثة التي تتحدد بيولوجيا. ٥- التهديدات... من التدهور السلالي من خلال قيود وضغوط مجتمع صناعي ومتحضر جدا، أو "انتحار سلالي" من خلال التحديد المتعمد لحجم الأسرة، أو البغاء وتلوث الدماء الأنجلوساكسونية بالاختلاط بالدماء "الأجنبية"، سواء كانت أيرلندية أو يهودية أو إيطالية أو فرنسية، إلخ" (ص ١١-١٢).

(44) James A. Froude, The English in Ireland, op. cit., 1873, 1:14.

(٤٥) المرجع السابق. تحمل تعليقات فرود بعض التشابه مع تعليقات كارل ماركس، انظر

- **"Outline of a Report on the Irish Question to the Communist Educational Association of German Workers in London", In the Marx-Engels collection entitled "Ireland and the Irish Question, International Publishers, New York, 1972, p. 127.**

(46) Ibid., p. 16.

(47) Ibid., pp. 24-25.

(48) Ibid., p. 35; Hechter, op. cit., p. 72.

(49) Hechter, op. cit., p. 72.

- يتلاعب هشتر قليلا بالبيانات (حيث يضع قانون الاتحاد الأيرلندي في ١٨٠١، بينما تاريخه الرسمي في ١ أغسطس ١٨٠٠) وبالتقسيم الزمني أيضا. وكذلك بدأت سياسة مزارع أيرلندا في ظل حكم إليزابيث الأولى، وليس جيمس الأول، انظر

- **Froude, op. cit., 1:49-51; and Mansergh, op. cit., p. 40.**

(٥٠) كانت هذه التمردات الكبرى تحت قيادة شين أونايـــل Shane O'Neill فـــي ١٥٥٩؛ وقيادة أمراء فيتزجرالدز Fitzgeralds من الأسرة الحاكمة لإمارة ديزمونـــد (فـــي جنوب أيرلندا) فيما بين ١٥٦٨-١٥٨٣؛ ثم بقيادة أونايل، الحاكم السابق لتيـــرون، وبقيادة أودونيل O'Donell من ١٥٩٤-١٦٠٣. انظر في ذلك:

Froude, op. cit., 1:52-65.

- اسم "أونيل O'Neill" عبارة عن لقب أيرلندي لسلطة ما قبل الغزو، وكان يستخدم "كرمز للسيادة المستقلة الأيرلندية" (ص ٥٩).

(51) R. D. Edwards' contribution on "The Tudors", in the essay "Ireland", In Encyclopedia Britannica, 1965, 12:556-57.

(52) Mansergh, op. cit., p. 40.

(٥٣) يقتبس فرود أرقام "بيتي" من كتابه "الحـــسابات الـــسياسية Political Arithmetick" (١٦٩٩)؛

وانظر أيضا: Froude, op. cit., 1:133.

وقد عرّف ماركس "بيتي" في وقت مبكر نوعا ما بأنه "أبـــو الاقتـــصاد الـــسياسي الإنجليزي"، ولكنه وصفه بأنه "مجرد مغامر طائش جشع عديم الضمير"، انظر

- Marx, A Contribution to the Critique of Political Economy, International Publishers, New York, 1970 (orig. 1859), pp. 53 and 55.

- وبالنسبة لاهتمامات بيتي بأيرلندا، انظر

- Eric Strauss, Irish Nationalism and British Democracy, Colombia University Press, New York, 1951, pp. 13-16.

(54) Froude, ibid., pp. 219-85.

(٥٥) يؤكد هشتر أنه: "منذ بداية "استقرار كرومويل" أصبحت الاختلافات الدينيـــة تمثـــل خط التقسيم السياسي السائد في المجتمع الأيرلندي. إذ إن سياسة كرومويـــل تجـــاه معتنقي الكاثوليكية كانت قاسية. حيث كان رجال الدين الكاثوليك يقتلون أينما وجدوا في فترة معينة. أما الشيء الأكثر أهمية فهو أن ملاك الأراضي الكاثوليك، ســـواء كانوا من أصول أنجلونورماندية أو أيرلندية، كانوا يجردون من أراضيهم كثيرا؛ ثم كانت هذه الأراضي المصادرة تستخدم لدفع رواتب قادة كرومويل العسكريين فـــي الحملة الأيرلندية. وبحلول ١٦٨٨، كان حوالي ٨٠٪ من الأراضي الأيرلندية فـــي أيدي البروتستانت الإنجليـــز والأســـكتلنديين". Hechter, op. cit., p. 103. ويـــذكر ماركس شكلا آخر من العقاب في عهد كرومويل كان يتمثل في "بيع الكثيـــر مـــن الأيرلنديين كرقيق في جزر الهند الغربية".

- Marx, "outline of a Report", op. cit., p. 128.

(56) Hechter, ibid., pp. 84, 93-94.

(٥٧) المرجع السابق، ص ٩٢.
وقد انتهز إنجلز الفرصة ليلوم "ملاك الأراضي الأيرلنديين والبرجوازية الإنجليزية" الذين اعتبروا وضع أيرلندا في القرن التاسع عشر ظاهرة طبيعية: "فبالمقارنة مع إنجلترا، كانت أيرلندا أكثر ملاءمة لتربية الماشية إجمالا؛ ولكن إذا قارنا إنجلترا بفرنسا، فإنها تعتبر أيضا أكثر ملاءمة لتربية الماشية. فهل يجب علينا أن نستنتج أن كل إنجلترا يجب أن تتحول إلى مراعٍ للماشية، وأن كل السكان الزراعيين يجب أن يرسلوا إلى مدن المصانع أو إلى أمريكا؟"

- Engels, "History of Ireland", in Marx and Engels, Ireland and the Irish Question, op. cit., p. 190.

– وللمزيد عن آثار التجارة الحرة على الصناعة الأيرلندية، انظر

- Strauss, op. cit., p. 120.

(58) Thompson, op. cit., p. 429.

(59) Ibid., p. 432.

(٦٠) المرجع السابق، ص ٤٣٢-٤٣٣. وللمزيد عن "إيقاع العمل" وعن المعالجة المناسبة "للمزاج البوريتاني" للعمال الإنجليز، انظر مقال طومسون:

- Thompson, "Time, Work-Discipline, and Industrial Capitalism", in Past and Present, no. 38 (December 1967): 56-97.

(61) Friedrich Engels, The Condition of the Working Class in 1844, George Allen and Unwin, London, 1950 (orig. 1854) p. 92.

– يؤيد شتراوس آراء طومسون في "التجربة المريكة للعمل في المعامل والمناجم" بالنسبة للعمال الإنجليز كسبب في القوة المتفوقة للعمال الأيرلنديين، انظر

- Strauss, op. cit., p. 122.

– ومع ذلك، يتفق تقييمه النهائي مع تقييم إنجلز (ص ١٢٤).

(62) Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., pp. 424-25.

(63) Eric Strauss, op. cit., pp. 126-27; and J. T. Ward, Chartism, Harper and Row, New York, 1974, pp. 64-65, 77.

(64) Strauss, op. cit., pp. 72, 127-31; and Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., p. 443.

(65) Engels, Condition of the Working Class, op. cit., p. 124.

- كان إنجلز مثل الكثيرين من كتاب القرن التاسع عشر يميل إلى استخدام مصطلح "سلالة" بالمعنى البيولوجي وبمعنى الطبقة. ويتضح الارتباك الذي ترتب على ذلك لدى كل من إنجلز وقرائه في الفقرات التي تلي تلا الواردة في النص: "كان يمكن أن تحافظ الأنانية الشديدة للبرجوازية الإنجليزية على سيطرتها على الطبقة العاملة بدرجة أكثر قوة لو كانت الطبيعة الأيرلندية الكريمة حتى الخطأ، والمحكومة بالمشاعر أساسا، لم تتدخل وتؤثر على الطبيعة الإنجليزية الرشيدة الرزينة، من خلال اختلاط السلالات من ناحية، ومن خلال الاتصال العادي في الحياة من ناحية أخرى. وفي ضوء كل هذا، فإنه ليس مدهشا أن الطبقة العاملة أصبحت تدريجيا سلالة منفصلة كلية عن البرجوازية" (المرجع السابق).

(66) Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., p. 443.

(67) Ward, Chartism, op. cit., pp. 239-43; Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., p. 441; and Strauss, op. cit., pp. 126-27.

(68) Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., p. 226;

- كان "النقل" يتم بالطبع إلى مستعمرات عقابية مثل نيو سوث ويلز أو خليج بوتاني Botany Bay في أستراليا، وكان يتضمن بالضرورة الحكم بالسجن عدة سنوات. انظر أيضا

- Engels, Condition of the Working Class, op. cit., pp. 212-27.

(69) W. E. B. Du Bois, "The African Roots of the War", Atlantic Monthly, May 1`915, pp. 707-14.

- لقد استخدم دي بوا عبارة "أرستقراطية العمل" للإشارة إلى النصيب المادي للعمال الصناعيين الأوروبيين، مقارنة بالأوضاع المتردية للقرويين والعمال الزراعيين في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكان استخدامه لهذا المصطلح يسبق استخدام لينين له ("الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية"، والذي قدمه لينين إلى ناشره في صورة مسودة في يونيو ١٩١٦، انظر

- V. L. Lenin, Selected Works, International Publishers, New York, 1967, 1:859, n. 317,

وهو يختلف كثيرا عن إشارة لينين إلى قادة نقابات العمال بهذا المصطلح.

(٧٠) تعتبر تعليقات ماركس على هذه الهجرة من أيرلندا طريفة: "لقد نجت إحدى البلاد - أيرلندا - من الثورة حتى آخر فرد بسبب الهجرة إلى هذا البلد [الولايات المتحدة]؛ وبعد ذلك ذكرت صحيفة لندن تايمز أن هذه الهجرة أيضا "منعت المدافع من الانتشار في شوارع لندن، ولكن الإمبراطورية الهندية تعتبر بعيدة جدا بالنسبة إلى إنقاذنا".

- "Parliamentary Debate on India", New York Daily Tribune, 25 June 1853,

- وذلك كما أعيد طبعه في

- Shlomo Avineri (ed.), Karl Marx on Colonialism and Modernization, Anchor Books, Garden city, 1969, p. 87.

(71) Strauss, op. cit., pp. 158-69.

- وهناك قوة أخرى كان يمكن أن تلعب دورا مهما في "التنشئة الاجتماعية" للطبقة العاملة الإنجليزية، هي المدارس العامة، ولكنها لم تظهر حتى منتصف القرن تقريبا. ففي الواقع، لم يبدأ دعم الدولة للمدارس حتى ١٨٣٣ عندما قدمت المنح السخية إلى الجمعيتين الأكثر مساهمة في التربية "الأخلاقية" لأطفال الطبقة العاملة، وهما "جمعية المدارس البريطانية والأجنبية" و"الجمعية الوطنية". ولكن الدولة ذاتها لم تقدم التعليم العام حتى خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. وتشهد الكتب الدراسية لتلك الفترة على الاهتمام بالأنجلوسكسونية في تعليم الطبقة العاملة. انظر

  - William Lazonick, "The Subjection of Labour to Capital: The Rise of the Capitalist System', Review of Radical Political Economics 10, no. 1 (Spring 1978): 10-14, and R. Webb, The British Working Class Reader, Kelley, New York, 1971, chaps. 2 and 3.

(٧٢) خطاب من ماركس إلى إنجلز، ١٠ ديسمبر ١٨٦٩، في

- Ireland and the Irish Question, op. cit., p. 284.

- من الواضح أن عمق المشاعر بين العمال الأيرلنديين والبريطانيين خيب آمال ماركس، فذهب يقول: "يوجد في كل مركز صناعي وتجاري في إنجلترا الآن طبقة عاملة "مقسمة" بين معسكرين "متعاديين": البروليتاريا الإنجليزية والبروليتاريا الأيرلندية. إذ إن العامل الإنجليزي العادي يكره العامل الأيرلندي كمنافس يخفض مستوى معيشته. وبالنسبة للعامل الأيرلندي، فإنه يشعر بأنه عضو في "الأمة الحاكمة"، وبالتالي يحول نفسه إلى أداة للأرستقراطيين والرأسماليين في بلده ضد أيرلندا، وبالتالي يقوي سيطرتهم على "نفسه". ويراعي التحيزات الدينية والاجتماعية والقومية ضد العامل الأيرلندي. ويشبه موقفه تجاهه موقف "الفقراء البيض" من "الزنوج" في ولايات الرقيق السابقة في الولايات المتحدة. ويرد الأيرلندي على ذلك بالاهتمام بماله الخاص. فهو يرى في العامل الإنجليزي مجرد متواطئ وأداة غبية "للحكم الإنجليزي في أيرلندا". خطاب ماركس إلى سيجفريد ماير وأوجست فوجت، ٩ أبريل ١٨٧٠، المرجع السابق، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(73) Strauss, op. cit., pp. 142-69.

(74) Ibid., 119-21.

(75) Castles and Kosack, "The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism", op. cit., pp. 5-10.

- قدم ويليام لازونيك William Lazonick نظرية مكملة للنظرية الحالية تؤكد على أهمية التقسيمات العرقية والقومية في الطبقة العاملة الإنجليزية. فمن خلال التركيز على تقسيمات العمل حسب النوع، سجل لازونيك كيف أن هذا التقليد "قبل الرأسمالي" أثر على تنظيم ووعي الطبقة العاملة: "أدى قبول تقسيم العمل بناء على النوع من جانب النقابات التي يسيطر عليها الذكور إلى ظهور إمكانية - وربما حتى ضرورة - سياسات الطبقة العاملة الأبوية" (ص ٩). ويقرر أيضا أن "اندماج الثقافة الأبوية قبل الرأسمالية في مجال الإنتاج الرأسمالي ومجال سياسات الطبقة العاملة، ساعد على استمرار التفاوت الاقتصادي بين النوعين، مما جعل نساء الطبقة العاملة يعتمدن ماديا على أجر رجال الطبقة العاملة" (ص ١٠).

- Lazonick, op. cit.

(٧٦) انظر مناقشة افنري لماركس عن البروليتاريا، في

- Avineri, The Social and Political Thought of Karl Marx, Cambridge University Press, Cambridge, 1968, pp. 52-64.

(٧٧) انظر الاقتباس من "الاتصال السري Confidential Communication" الذي أرسله ماركس إلى الرئيس التنفيذي لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الألماني في ٢٨ مارس ١٨٧٠، كاستجابة على انتقاد باكونين لاستغلال المسألة الأيرلندية في صراعات الفصائل داخل "الجمعية الدولية للعمال". ويمكن مراجعة ذلك في:

- Ireland and the Irish Question, op. cit., 160-63; and P. Berresford Ellis, A History of the Irish Working Class, George Braziller, New York, 1973, pp. 122-51.

(78) Avineri, The Social and Political Thought of Karl Marx, op. cit., p. 61; Isaiah Berlin, "Historical materialism", in Tom Bottomore (ed.), Karl Marx, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1973. Pp. 64-65.

(79) Engels to Joseph Bloch, 21-22 September 1890, in Robert Tucker, op. cit., p. 642.

(٨٠) كتب إنجلز ذات مرة أن "التاريخ... ببساطة عبارة عن التوفيق بين جميع المجالات - السياسية، القانونية، الفلسفية، واللاهوتية - التي تنتمي إلى "مجتمع" وليس إلى الطبيعة فقط".

- Engels to Franz Mehring, 14 July 1893, ibid., p. 649.

(٨١) وكتب إنجلز في خطاب أرسله إلى كونراد شمدت Conrad Schmidt في أكتــوبر ١٨٩٠: "نظرا لأن فلسفة كل حقبة تمثل مجالا واضحا في تقسيم العمل، فإنه يكون لها شرط مسبق يتمثل في مادة فكرية معينة تنتقل إليها من سابقاتها التي تستمد منها بدايتها". المرجع السابق، ص ٦٤٦-٦٤٧.

(٨٢) خطاب إنجلز إلى جوزيف بلوش، المرجع السابق، ص ٦٤١. حيث أعــاد إنجلــز صياغة مقال ماركس الافتتاحي "الثامن عشر من برومير لويس بونــابرت" "The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte". فقد ذهب إنجلز إلى أن "الرجــال يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه كما يرغبون تماما؛ فهم لا يصنعونه تحــت ظروف اختاروها بأنفسهم، ولكن تحت ظروف وجدوها وظهرت وانتقلت بــصورة مباشرة من الماضي. ويمثل فكر كل الأجيال السابقة كابوسا بالنسبة لعقل الأحياء". انظر في ذلك Tucker, op. cit., p. 437.

ومن ناحية أخرى، كان لدى جورج لوكاكس رؤية مختلفة إلى إمكانــات المعرفــة النقدية (ويتطابق هذا الموقف مع موقف الشابين اللذين تعاونا في البيان الــشيوعي: "بقدر ما تستطيع الرأسمالية تحقيق التهيئة الاجتماعية لكل العلاقات، بقدر ما يمكن تحقيق المعرفة الذاتية، والحقيقية، أي المعرفة الذاتية الحقيقيــة للإنــسان ككــائن اجتماعي".

- Luckacs, History and Class Consciousness, MIT Press, Cambridge, 1968, p. 237

(83) Berlin, op. cit., p. 67.

الفصل الثالث

(1) Norman MacKenzie, Socialism: A Short History, Harper Colophon, New York, 1969, p. 20; and Cole, A History of Socialist Thought, op.cit., 1:8-9.

- يريد لشتهايم منا أن نبدأ تاريخ الاشتراكية (كما فعل هو) بأول ظهور لكلمة "الاشتراكية" (حوالي عام ١٨٣٠)، لأنه "عند التعامل مع تيار سياسي وأيديولوجي كبير لا يمكن استبعاد الأسلوب الذي يعبر عن نفسه به" (ص ٣). ولكن يجب أن نتذكر أنه ينتمي إلى تلك المدرسة من الدارسين التي تستطيع الكتابة عن تاريخ الاشتراكية التي "تمثل جزئيا قصة حركة كان يجب أن تحرر نفسها من الأوهام الموروثة قبل أن تستطيع تحقيق الوعي بطبيعتها الحقيقية".

- George Lichtheim, The Origins of Socialism, Praeger, New York, 1969.

(2) Norman Cohn, The Pursuit of the Millennium, op. cit., p. 187.

(3) Ibid., pp. 191-99.

(4) Ibid., p. 195.

(5) Ibid., pp. 198-280, and Friedrich Engels, The Peasant War in Germany, in Leonard Krieger (ed.), The German Revolution, University of Chicago Press, 1967, pp. 35-52.

(٦) بالنسبة لروسو كأحد الأمثلة، انظر

- Cole, op. cit., pp. 14-16.

وبالنسبة لظهور طبقة "الشيوعية البدائية" تاريخيا، كمثال آخر، انظر

- The German Ideology, op. cit., by Marx and Engels.

(7) Engels, "Socialism: Utopian and Scientific", in Robert Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., p. 607; Karl Marx, "On the Jewish Question", ibid., p. 49.

- حيث أعلن إنجلز أن: "المعارضة الثورية للإقطاع كانت حية طوال العصور الوسطى. وطبقا لأوضاع ذلك الوقت، كانت تظهر إما في شكل لامبالاة (تصوف)، كالهرطقة العلنية، أو في شكل تمرد مسلح. وفي الحالة الأولى، من المعروف أن هذا أمر كان لا يمكن الاستغناء عنه للمصلحين في القرن السادس عشر... وفي الشكلين الآخرين من هرطقة العصور الوسطى، نجد منذ وقت مبكر منذ القرن الثاني عشر مؤشرات الانقسام الكبير بين الطبقة الوسطى والمعارضة العامية القروية التي أدت إلى انهيار حرب القرويين. ويتضح هذا الانقسام طوال أواخر العصور الوسطى".

- The Peasant War in Germany, op. cit., p. 35.

(8) E. J. Hobsbawm, "Trends in the British Labour Movement since 1850", in Labouring Men, op. cit., esp. pp. 323-325; T. J. Nossiter, "Shopkeeper Radicalism in the 19th Century", in T. J. Nossiter, A. H. Hanson, and Stein Rokkan (eds,), Imagination and Precision in the Social Sciences, Faber and Faber, London, 1972, pp. 407-8; Albert Soboul, The French Revolution: 1787-1799, Random House, New York, 1974, pp. 3-31; and E. J. Hobsbawm, The Age of Revolution: 1789-1848, Mentor, New York, 1962, pp. 285-90. 357-58.

(9) Albert Fried and Ronald Sanders (eds.), Socialist Thought, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1964, pp. 15-16.

- ترك مورلي – وهو كاتب من القرن الثامن عشر مجهول الأصل – تأثيرا كبيرا على بابيوف الراديكالي الفرنسي الذي ناقشناه في النص التالي.

(١٠) العبارتان الأخيرتان ترجعان إلى

- G. D. H. Cole, op. cit., p. 14; see also Marx and Engels, The Communist Manifesto, op. cit., p. 346.

(11) Herbert Marcuse, Reason and Revolution, Beacon Press, Boston, 1968, pp. 323-28.

(12) Karl Marx, "Theses on Feurbach", in Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., p. 109; John Passmore, The Perfectibility of Man, Duckworth, London, 1970, pp. 212-38.

(13) J. A. Schumpeter, Capitalism, Socialism and Democracy, Unwin, London, 1965, pp. 12-13.

(14) Lichtheim, op. cit., pp. 3, 9.

(١٥) يوضح ديفيد مكليلان مثلا أنه "بصفة عامة، تميل عضوية "الدولية" إلى التكون من الحرفيين أكثر من البروليتاريا الصناعية".

- Karl Maex: His Life and Thought, Harper Colophon, New York, 1973, p. 387.

(16) David McLellan, Marx before Marxism, Macmillan, London, 1970, p. 13.

(17) Karl Marx, The Holy Family, as quoted by Georg Lukas, History and Class Consciousness, MIT Press, Cambridge, 1968, p. 46.

(١٨) كتب لينين في ١٩٠١/١٩٠٢: "قلنا إنه كان لا يمكن أن يكون هناك وعي "اجتماعي ديمقراطي" بين العاملين. وإنه كان يجب إحضاره لهم من الخارج. حيث يوضح تاريخ كل الأمم أن الطبقة العاملة – بجهدها الخاص تماما – قادرة على تطوير وعي نقابات العمال فقط، أي الاقتناع بأنه يجب الانضمام إلى النقابات، ومواجهة أصحاب الأعمال، والكفاح لإجبار الحكومة على إصدار التشريعات العمالية الضرورية، إلخ. ومع ذلك، نمت نظرية الاشتراكية من النظريات الفلسفية

والتاريخية والاقتصادية التي شرحها الممثلون المتعلمون للطبقات الثرية، من خلال المفكرين. إذ إن مؤسسي الاشتراكية العلمية الحديثة - ماركس وإنجلز - كانا ينتميان إلى المفكرين البرجوازيين حسب مكانتهم الاجتماعية".

- Lenin, What Is to Be Done? in Lenin, Selected Works, International Publishers, New York, 1967, 1:122.

- وقد اعترف ماركس بأصوله الطبقية في "البيان الشيوعي": "أخيرا، وفي الأوقات التي يقترب فيها الصراع الطبقي من الساعة الحاسمة... ينتقل جزء من البرجوازية إلى البروليتاريا، وخاصة جزء من الأيديولوجيين البرجوازيين الذين رفعوا أنفسهم إلى مستوى الفهم النظري للحركة التاريخية ككل".

- Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., p. 343.

- وفي وقت لاحق، في ١٨٦٧، أوضح ماركس تماما إتقانه لدوره في حركة العمال في خطاب إلى إنجلز: "وفي الثورة التالية، والتي ربما تبدو أقرب مما يبدو، سيكون لدينا (أنت وأنا) هذا المحرك القوي [الدولية] في أيدينا" (في مقابل كونها في أيدي "هؤلاء الحمقى من أتباع بيير جوزيف برودون "Proudhonists أو "التأرجح بين أعضاء النقابات الإنجليز").

- Quoted by William Lazonick, "The Subjection of Labour to Capital: The Rise of the Capitalist System", Review of Radical Political Economics 10, no. 1 (Spring 1978): 23.

- وللاطلاع على الصيغة الكاملة للخطاب، انظر

- McLellan, Karl Marx, op. cit., p. 378.

(19) Karl Marx, The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte, in Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., pp. 462-464.

(20) Karl Marx, The Communist Manifesto. Ibid., p. 345.

(21) For England, see Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., p. 213, and Rude, op. cit., p. 84; for France, see, Marx, The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte, op. cit., p. 515; Rude, op. cit., pp. 164, 176; and G. D. H. Cole, A History of Socialist Thought, op. cit., 1:18.

(22) Albert Soboul, op. cit., 46-47, 52.

(23) Rude, op. cit., pp. 240-41.

(24) Soboul, op. cit., pp. 18, 488-92.

(٢٥) كول، المرجع السابق، ص ٢٠. ويقرر لشتهايم أنه "هكذا ربما يمكن أن يقال إن الجناح المتطرف من الثورة الفرنسية قد أدى إلى ظهور مجموعة من الأفكار التي لم تستمر بنجاح في فرنسا، ولكن قدر لها أن تصبح فعالة سياسيا في روسيا. حيث يتمثل العامل الحاسم في الاعتقاد بأن إلغاء الفقر يتطلب ديكتاتورية مؤقتة تجرد الأغنياء الذين يسيطرون فعليا على السلطة أيضا. حيث تمارس هذه الديكتاتورية باسم الشعب (أو البروليتاريا) وسوف تتوقف عندما تتم إزالة أعدائها بالقوة أو جعلهم بلا ضرر"، مرجع سابق، ص ٢٢. وانظر أيضا

- David Caute, Communism and the French Intellectuals, 1914-1960, Macmillan, New York, 1964, pp. 13, 286, 290.

(26) Lichtheim, op. cit., p. 21.

(27) Soboul, op. cit., pp. 14-18.

(28) Caute, op, cit., and Soboul, op. cit., pp. 410-38.

(29) Soboul, op. cit., p. 438.

(30) Ibid., p. 491.

(31) Cole, A History of Socialist Thought, op. cit., 1:20-21.

(٣٢) المرجع السابق، ص ١٨. حيث يعلق سوبول بالقول: "تميز التنظيم السياسي "للمؤامرة Conspiracy" بالاختلاف عن الأساليب التي كانت تستخدمها الحركة الشعبية حتى ذلك الوقت. ففي قلب هذه المنظمة كانت هناك المجموعة القائدة، والتي يساندها عدد قليل من المناضلين الأقوياء، ثم تأتي حلقة المتعاطفين، والتي تتكون من وطنيين وديمقراطيين، الذين لم يكونوا متورطين في السرية، والذين يبدو أنهم لم يعتنقوا المثل الثورية الجديدة؛ وأخيرا، هناك الجماهير ذاتها، والتي كانت تشجع على المشاركة. سوبول، مرجع سابق، ص ٤٩٠-٤٩١.

(33) David Caute, op. cit., p. 290.

(34) Robert Tucker, Philosophy and Myth in Karl Marx, Cambridge University Press, Cambridge, 1971, pp. 73-105; Franz Mehring, Karl Marx, The Story of His Life, University of Michigan Press, Ann Arbor, 1969, pp. 15-57; and David McLellan, Karl Marx, op. cit., pp. 16-77.

(35) Karl Marx (Maurice Dobb, ed.), A Contribution to the Critique of Political Economy, International Publishers, New York, 19070, p. 20.

(36) Karl Marx and Friedrich Engels, The German Ideology, in R. Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., pp. 113-57.

(٣٧) انظر خطابات ماركس إلى كوجلمان في ١٢ و١٦ أبريل ١٨٧١، في

- Karl Marx and Friedrich Engels, Selected Works, International Publishers, New York, 1972, 1:679; and Engels, "Introduction to Karl Marx's Work: The Class Struggles in France 1848 to 1850", ibid., p. 651; and Mehring, op. cit., pp. 156-59, 215, 447-54.

(38) McLellan, Karl Marx, op. cit., pp. 290-259; and Mehring, op. cit., pp. 208-24.

(٣٩) كانت أهم هذه الصراعات مع كل من كارل فوجت Karl Vogt؛ فرديناند لاسال Ferdinand Lassalle (الذي أسماه ماركس "اليهودي القذر")؛ جيوسيب مازيني Giuseppe Mazzini؛ بل ومعركة واحدة، على الأقل، مع إنجلز عقب وفاة ماري بيرنز Mary Burns). وبالنسبة للصراع مع فوجت، انظر

- McLellan, Ibid., pp. 310-15; and Mehring, op. cit., 280-97; for Lasalle, McLellan, ibid., pp. 315-25; and Mehring, ibid., pp. 265-78; for Mazzini, McLellan, ibid., pp. 258-61; and Mehring, ibid., pp. 341-42, for Engels see McLellan, ibid., pp. 278-80, 331-31; and Mehring, ibid., pp. 303-5.

(٤٠) كتب ماركس في خطاب إلى فرديناند فرايليجراث Ferdinand Freiligrath: "بعد حل "الاتحاد" في نوفمبر ١٨٥٢ بناء على اقتراحي، لم أعد أنتمي إلى أية "جمعية" سواء سرية أو علنية، ولن أفعل هذا؛ وهكذا فإن الحزب بهذا المعنى العابر تماما لم يعد موجودا بالنسبة لي منذ ثمان سنوات... وهكذا فإنني لا أعرف شيئا عن الحزب، بمعنى خطابك، منذ ١٨٥٢"، اقتباس مكليلان، المرجع السابق، ص ٣١٣-٣١٤.

(41) Mehring, op. cit., p. 276.

(42) G. O. Griffith, Mazzini, Prophet of Modern Europe, Hodder and Stoughton, London, 1932, pp. 64, 235-36; and Stringfellow Barr, Mazzini, Portrait of an Exile, Holt, New York, 1935, pp. 238-40.

(43) R. R. Palmer, with Joel Colton, A History of the Modern World, Knopf, New York, 1959. P. 514.

(44) Lynn Case, Franco-Italian Relations, 1860-1865, AMS Press, New York, 1970 (orig. 1932), pp. 3-31.

(45) Franz Mehring, op. cit., pp. 268-69; see also Sir Adolphus W. Ward, Germany, 1815-1890,Cambridge University Press, Cambridge, 1917, 2:33-47,

- للاطلاع على تطور حركة "الرابطة الوطنية Nationalverein" والمشاركة الألمانية في الحرب الإيطالية.

(46) Geoffrey Barraciough, The Origins of Modern Germany, Capricorn, New York, 1963, p. 414; and James Joll, "The German Confederation, 1815-1866, "Encyciopedia Britannica, 1965, 10:310-16.

(47) Barraciough, op. cit., p. 412.

(48) Georgr Lichtheim, Marxism: An Historicai and Criticai Survey, Praeger, New York, 1973, pp. 69-70.

(49) W. O. Henderson, The industrial Revoiution in Europe, op. cit., pp. 21-22; and Friedrich Engeis, Germany: Revoiution and Counter-Revolution, in Leonard Krieger (ed.), the German Revoiution, op. cit., pp. 126-29.

(٥٠) باراكلوف، مرجع سابق، ص ٤١٤. وعلى الرغم من أن باراكلوف يعتبر بعض ملاحظات إنجلز على الفشل النهائي للطبقات الوسطى في محاكمة ثورة ديمقراطية أمرا طارئا، فإنه (يبدو) أنه يتبنى ملاحظات كتلك التي كتبها إنجلز: "من الواضح تماما من تاريخ كل الشعوب الحديثة أن السكان الزراعيين - نتيجة انتشارهم على مساحات شاسعة، وصعوبة تحقيق اتفاق بين أية نسبة كبيرة منها - لا يستطيعون أبدا محاولة تكوين حركة مستقلة ناجحة؛ فهم يحتاجون إلى المحفز الأولى من سكان المدن الأكثر تركيزا وتنويرا والأسهل حركة".

- Germany: Revolution and Counter-revoiution, op. cit., p. 131.

(51) Barraciough, op. cit., pp. 414-16.

(52) Barraclough, ibid.; and Engeis, Germany: Revoiution and Counter-revolution, op. cit., pp. 168-77.

(53) Lichtheim, Marxism, op., cit., p. 78.

- ويؤكد لشتهايم في مكان آخر: "يتعلق الأمر بتذكر أنه في ١٨٤٨ استطاع الرجلان علنا وسرا ربط نفسيهما بقضية الوحدة القومية الألمانية، بينما ظلا صادقين بالنسبة للمبادئ الواردة في منشورات "الاتحاد الشيوعي". وفي ظل الظروف الألمانية، كانت القومية جزءًا مكملا من البرنامج الديمقراطي، الذي كانت المجموعة "الشيوعية" ملتزمة به، لأنها كانت تمثل الجناح اليساري المتطرف من الحركة الديمقراطية". المرجع السابق، ص ٧٢.

(54) Barraclough, op. cit., pp. 417-18.

(55) ibid., p. 421.

(56) McLellan, Karl Marx, op. cit., pp. 316-17; and Mehring, op. cit., pp. 270-71.

(٥٧) يذكر هندرسون أنه "في ١٨٦١ عندما كان ماركس يزور لاسال في برلين، كتب إلى إنجلز أنه كان هناك اعتقاد في أرفع الدوائر العسكرية أن "البو والراين" كتبه قائد بروسي".

- Henderson, The Life of Friedrich Engels, vol. 1, Frank Cass, London, 1976, p. 209.

(58) Mehring, op. cit., pp. 274-75.

(59) As quoted by Anthony Smith, Theories of Nationalism, Harper and Row, New York, 1971, p. 73.

(60) Mehring, op. cit., p. 272.

(61) Arno Schirokauer, Lassalle, The Power of Illusion and the Illusion of Power, George Allen and Unwin, London, 1931, pp. 202-3.

- من المثير للسخرية أن حساسية لاسال للعقلية المزدحمة للقومية جعلته يقترب من الغوغائية في عيون بعض معاصريه وزملائه. وفي هذا المثال تحديداً، كانت غرائزه التحليلية صحيحة، فقد كانت القومية الألمانية تتعارض مع الوعي الثوري. انظر

- George Brandes, Ferdinand Lassalle, Bergman, New York, 1968 (orig. 1874 and 1875), p. 190; and Mehring, op. cit., p. 276.

(62) McLellan, Karl Marx, op. cit., p. 317.

(63) Mehring, op. cit., p. 271.

(64) McLellan, Karl Marx, op. cit., p. 317.

(٦٥) يفسر كول جزئيا الاختلافات بين ماركس/إنجلز ولاسال بصورة منهجية: "لا شك في أن هناك الكثير من الأشياء المشتركة بينهم من الناحية النظرية؛ ويبدو أن القضايا التي تقسمهم غير مهمة بالنسبة لمعظم أتباعهم. أما في السياسة العملية، فقد كانا طرفي نقيض، لأن ماركس كان مع البرجوازية ضد الدولة البروسية، بينما كان لاسال مستعدا تماما للانضمام إلى الدول البروسية ضد البرجوازية".

- Cole, A History of Socialist Thought: Socialist Thought, Marxism and Anarchism, 1850-1890, vol. 2, Macmillan, London, 1954, p. 72.

(66) Mehring, op. cit., pp. 271-72.

(٦٧) انظر في ذلك:

Horace Davis, "Nations, Colonies and Social Classes: The Position of Marx and Engels", Science and Society 29, no. 1 (Winter 1965): 42; Anthony Smith, op. cit., p. 301; and Solomon Bloom, The World of Nations, Columbia University Press, New York, 1941, p. 194.

- (كان بلوم يفضل أن يعتبر ماركس شخصية "غيورة" في خلافاته مع لاسال بدلا من أن ينسبها إلى قومية ماركس، على الرغم من أن أدلة بلوم - كما يرى ديفز - تؤيد التفسير الثاني).

(٦٨) للمزيد عن طموحات ماركس السياسية، انظر

- McLellan, Karl Marx, op. cit., p. 378; and Cole, A History of Socialist Thought, op. cit., 2:74.

(69) Karl Marx, Capital, International Publishers, New York, 1977, 1:737.

(70) ibid., pp. 747-48.

(71) ibid., p. 754.

(72) Ibid., p. 757.

(٧٣) في ١٨٨٧/١٨٨٨، كتب إنجلز: "منذ نهاية العصور الوسطى، كان التاريخ يتحرك نحو أوروبا المكونة من دول قومية كبيرة. حيث تمثل هذه الدول القومية فقط الإطار السياسي العادي للطبقة البرجوازية المهيمنة... وكذلك فإنها تعتبر شرطا مسبقا لا يمكن الاستغناء عنه لتحقيق التعاون الدولي المتجانس بين الأمم، والذي بدونه لا يمكن أن يتحقق حكم البروليتاريا".

- Engels, The Role of Force in History, International Publishers, new York, 1972, pp. 29-30.

(٧٤) في مايو ١٨٧٥، كتب ماركس إلى فصيل إيسناخ Esenach في "الحركة الديمقراطية الاجتماعية الألمانية": "إن حزب العمال الألماني... يظهر أن أفكاره الاجتماعية ليست متعمقة، من حيث إنها بدلا من معالجة المجتمع القائم، كأساس للدولة القائمة... فإنها تعامل الدولة كما لو كانت كيانا مستقلا يملك أسسه الفكرية والأخلاقية والتحررية الخاصة به... ولكن "مجتمع اليوم" مجتمع رأسمالي، يوجد في كل الدول المتحضرة، وهو متحرر من خليط العصور الوسطى بصورة أو بأخرى، ومتكيف بصورة أو بأخرى مع التطور التاريخي الخاص بكل دولة، ومتطور بدرجة أو بأخرى".

- Marx, "Critique of the Gotha Program", in Robert Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., p. 394.

(٧٥) "يجب أن تشكل الحقبة البرجوازية من التاريخ الأساس المادي للعالم الجديد - فمن ناحية، هناك التفاعل العالمي القائم على الاعتماد المتبادل للإنسانية، ووسائل هذا التفاعل؛ ومن ناحية أخرى، هناك تطور القوى الإنتاجية للإنسان وتحول الإنتاج المادي إلى هيمنة علمية على العوامل الطبيعية".

- Marx, "The Future Results of British Rule in India", in Shlomo Avineri, Karl Marx on Colonialism and Modernization, Doubleday, Garden City, 1968, p. 138.

(76) Karl Marx, The Class Struggle in France, 1848-50, in Saul Padover (ed.) Karl Marx: On Revolution, McGraw-Hill, New York, 1971, p. 162.

(77) Karl Marx, The Communist Manifesto, op. cit., p. 339; For Lichtheim, see his "Marxism: An Historical and Political Study", op. cit., p. 86.

(٧٨) "تقوم البرجوازية - من خلال التحسن السريع في كل أدوات الإنتاج، والتسهيل الكبير في وسائل الاتصال - بجذب كل الأمم إلى الحضارة، حتى أكثرها بربرية".

- Marx, The Communist Manifesto, op. cit., p. 339.

(٧٩) تجد البرجوازية نفسها متورطة في معركة مستمرة. في البداية مع الأرستقراطية، ثم مع بعض أقسم البرجوازية ذاتها، والتي أصبحت مصالحها متناقضة مع تقدم الصناعة؛ وفي جميع الحالات مع برجوازية الدول الأجنبية". المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٨٠) المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٨١) يتكهن لشتهايم بأنه: "على عكس معظم المنظرين السياسيين الألمان في عصره، خاصة الليبراليين، يعتبر ماركس إنجلترا وليس فرنسا الاستثناء من القاعدة الأوروبية العامة. حيث كانت فرنسا الحالة "التقليدية": كانت فرنسا مركز الإقطاع كما كانت في العصور الوسطى، ولذلك فإن حياتها الوطنية الآن تقدم أوضح رؤية ممكنة للصراعات الطبقية التي كانت تقسم المجتمع، حتى إذا كانت بريطانيا أكثر تقدما اقتصاديا على نفس الطريق. ولكن فرنسا كانت أيضا "النموذج" من حيث أن مؤسساتها السياسية قد أعيد تنظيمها على أساس أعظم وأنجح "الثورات البرجوازية".

- Lichtheim, Marxism: An Historical and Critical Study, op. cit., pp. 86-87.

(82) Shlomo Aveneri, Karl Marx on Colonialism and Modernization, op. cit., p. 469; Karl Marx and Friedrich Engels, The Russian Menace to Europe, Paul Blackstock and Bert Hoselitz (ed.), Free Press, Glencoe, 1952, pp, 216-18, 274-75.

(83) Marx and Engels, The Russian Menac, op. cit., p. 278;

- وانظر المرجع السابق، ص ٢٨٠، بالنسبة للترجمة الإنجليزية للطبعات الألمانية في ١٨٦٧ و ١٨٧٢.

(٨٤) يبدي لشتهايم الملاحظة الطريفة التالية: "بعد أن تبنى بقدر من الرفض لرؤيــة أن التحرر الوطني في أيرلندا يجب أن يسبق الثورة الديمقراطية في إنجلتــرا، ولــيس العكس، استمر ماركس ينصح بالعلاقة الاتحادية بين الدولتين بدلا مــن الانفــصال الكامل. وأصبح هذا لاحقا بمثابة الموقف "الاجتماعي الديمقراطي" المعيــاري مــن المسائل القومية، بل إنه وجد صدى كبيرا في اللينينية".

- Lichtheim, Marxism: An Historical and Critical Study, op. cit., p. 84.

(85) Engels, The Role of Power in History, op. cit., pp. 34-35.

- ولمناقشة ماركس وإنجلز كقوميين ألمانيين (وخاصة تحول إنجلز من شاب قومي إلى دولي)، انظر

- Horace Davis, op. cit., pp. 44-51.

(86) Lichtheim, Marxism: An Historical and Critical Study, op. cit., p. 85; Horace Davis, Nationalism and Socialism, Monthly Review, New York, 1967, pp. 3, 22-23, 218; Mihailo Makovic, "Stalinism and Marxism", in Robert tucker, Stalinism, W. W. Norton, New York, 1977, pp. 315-17.

- (يرى ماكوفيتش أن موقف إنجلز تشكل خلال ثورات ١٨٤٨/١٨٤٩ عندما كانت الجيوش المناهضة للثورة منظمة بين السلاف لقمع الحركات الاجتماعية في وسط وشرق أوروبا).

(87) Marx and Engels, Ireland and the Irish Question, op. cit.

(88) Michael Lowy, "Marxists and the National Question", New Left Review, no. 96 (March/April 1976); 82-83.

(89) Horace Davis, "Nations, Colonies and Social Classes: The Position of Marx and Engels", op. cit., pp. 28-31.

(90) Engels, "The Magyar Struggle", in Marx and Engels, The Revolutions of 1848, International Publishers, New York, 1973, pp. 221-23.

(٩١) كان هناك اتجاه نحو الاقتصادية في اعتقاده بأن "معايرة الإنتاج الصناعي وظروف الحياة المقابلة" يساعد على إزالة الحواجز القومية... والعداوات، على الرغم من أن الاختلافات القومية يمكن أن تكون مساوية ببساطة للاختلافات في عملية الإنتــاج". لوفي، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٩٢) يرجع مثل هذا القول أساسا إلى المبادئ المحافظة في المدرسة التاريخية فــي القــانون، وليس إلى الأفكار الثورية في المادية التاريخية". المرجع السابق، ص ٨٤.

(93) Horace Davis, Nationalism and Socialism, Monthly Review Press, New York, 1967, pp. 50-51.

(94) Davis, ibid, p. 57.

(95) See "The National Question", an appendix to Peter Nett's Rosa Luxemburg, Oxford University Press, Oxford, 1969, pp. 500-519.

(96) See Lowy, op. cit., p. 91; and George Haupt, Michael Lowy, Claudie Weill, Les Marxistes et la Question Nationale, Francois Maspero, Paris, 1974, pp.50-52.

(97) Lowy, op. cit., pp. 93-94; and Haupt, Lowy, Weill, op. cit., 23, 30, 45-50; see also J. V. Stalin, "Marxism and the National Question', in Works, Foreign Languages, Moscow, 1953, 2:300-381.

(98) Franz Borkenau, World Communism, University of Michigan Press, Ann Arbor, 1971, (orig. 1939), p. 94.

(99) Lowy, op. cit., pp. 89-91.

(100) Ibid., p. 90.

(101) Ibid., p. 96; and Haupt, Lowy, Weill, op. cit., 52-61.

(102) Joseph Stalin, "Marxism and the National Question", op. cit., 307.

- يدعي لوفي خطأ (مرجع سابق) أن لينين كانت لديه عدة مناسبات للإشارة إلى عمل ستالين، ولكنه لم يكن مهتما بذلك أبدا. ويمكن توضيح موقف لينين بالملاحظات الموجودة في الملحوظة ١٣٠. ستالين، المرجع السابق، ص ٤١٧-٤١٨.

(103) Ibid., p. 321.

(104) Tom Nairn, "The Modern Janus", New Left Review, no.94 (November-December 1975): 21.

(105) Ibid., pp. 10, 12, 13.

(106) Jean Baudrillard, The Mirror of Production, Telos, St. Louis, 1975, p. 33.

(107) Alex Callinicos, Althusser's Marxism, NLB, London, 1976, p. 87.

(108) Theodore Draper, The Roots of American Communism, Viking, New York, 1957, chap. 5.

(109) Letter to Joseph Bloch, 21/22 September 1890, in Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, op. cit., p. 642.

(110) Letter to Franz Mehring, 14 July 1893, ibid., p. 650.

(111) Nairn, op. cit., p. 25.

(112) Ibid., p. 17.

(١١٣) كتب ريموند ويليامز: "ليس من الصعب العثور على سبب هذا الضعف في الماركسية: فهو يكمن في صياغة الأساس والبناء الفوقي الموروث، والذي حول بسرعة تفكيرا وتمثيلا وتعبيرا أيديولوجيا بسيطا إلى انتهاك للبناء الفوقي بمنتهى البساطة".

- Williams, "Literature and Sociology', New Left Review, no. 67 (May-June 1971): 9.

(114) George Lukacs, op. cit., 110-49.

(١) يقول ديفيد كرونون E. David Cronon في ١٩٧٢: "ظهر الزعيم الأسود ماركوس جارفي Garvey فجأة في الوقت الذي كانت فيه الجماهير الزنجية تنتظر "النبي موسى الأسود" الذي يخلصهم من العبودية، فأصبح ماركوس الوسيلة التي يستطيعون من خلالها التعبير عن تطلعاتهم وسخطهم العميق. ومع ذلك، لم يواصل تيار القومية السوداء تدفقه رغم دور ماركوس في فتح آفاق أمام عقول الزنوج" راجع في ذلك.

- "Afterword: An Enduring Legacy", in E. David Cronon (ed.), Marcus Garvey, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1972, p. 168.

– ويواصل كرونون تفسيره لتاريخ جارفي على أنه كيان تاريخي فريد، انظر في ذلك الكتاب الذي ألفه كرونون:

- Black Moses: The Story of Marcus Garvey and the Universal Negro Improvement Association, University of Wisconsin Press, Madison, 1955.

– وقد بنى كرونون شخصية جارفي ووصف أيديولوجيته الاجتماعية بطريقة مختلفة عما ذهب إليه جورج شيبرسون خاصة فيما يتعلق بالجذور التاريخية، انظر :

- George Shepperson "Garvey as Pan-Africanist", in Cronon (ed.), Marcus Garvey, op. cit., pp. 144-47.

– والأهم من ذلك، أن كرونون تجاهل الرؤية التاريخية الأوسع التي صاغها كيرل جيمس C.L.R James في وقت مبكر في ١٩٣٨. فقد قال جيمس "على الرغم من أن تيار التاريخ يتراجع غالبا ويتحول أحيانا، فإنه يوحد الروافد الغربية والمتنوعة في منطقه الشامل عندما ننظر إليه من أعلى. فقد كان توريو سان دومينجو، الذراع الأسود في الحرب الأهلية، غير واعين ولكنهم كانوا بمثابة قوة كامنة في مسيرتين عظيمتين قبل الحضارة الحديثة... وهذا هو الذي ينقذنا من الكآبة ويستثمر سجلا من الفشل غير المريح بصورة جيدة. فالأفريقي يقاوم ويحطم قيوده من أجل حرية أوسع من حريته".

- C. L. R. James, A History of Pan-African Revolt, Drum and Spear, Washington, D.C., 1969 (originally published in 1938), pp. 99-100.

(٢) انظر في ذلك تيودور دريبر:

- **Theodore Draper (The Rediscovery of Black Nationalism, Secker and Warburg, London, 1971)**

وعلى الرغم من أن تيودور دريبر كان واحدا من أوائل مؤرخي ما بعد الحرب الذين "اكتشفوا" التقليد القومي - وهو يرجع بدايات قومية السود إلى "الهجرة" (ص ٤) في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر - فإن عمله كان جدليا نوعا ما. فبافتراض وجود مظهرين متعارضين لقومية السود: "الهجرة" و"السكون الداخلي"، يقول دريبر إن قومية السود كانت دائما ذات أهمية محدودة بين السود. وربما يمكن إدراك الدقة التي أجرى بها بحثه بمراجعة معالجته لحركة هجرة القرن التاسع عشر. وبصفة عامة، يعاني تحليله من تركيز غير منهجي على آراء وأفعال الأحرار السود، وعلى "عينات" موضع تساؤل نوعا ما للرأي العام، فهو على سبيل المثال يقول:

"تفضل الغالبية العظمى من الزنوج الأمريكيين شن معركة شرسة لتصبح جزءًا من القومية التي ولدت فيها، بدلا من المخاطرة بفقدان ما لديها بدون تحقيق ما وعدت به" (ص ١٢).

وبالطبع كانت "الغالبية العظمى" التي يشير إلها دريبر تتمثل في حوالي نصف مليون من السود الأحرار في فترة ما قبل الحرب. ويبدو أن "عينته" كانت مقصورة على النجاحات المحدودة في "الجمعية الأمريكية لاستعمار الشعب الحر الملون في الولايات المتحدة" (حوالي ١٢ ألف مستعمر أسود في الخمسين سنة الأولى منذ بدايتها في ١٨١٧)؛ والمعرفة السطحية بالإعلانات المناهضة للاستعمار؛ وتردد مارتن ديلاني (ص ٢١-٤١)؛ والتحفظات الواقعية لمشجعي الاستعمار مثل هنري تورنر، جيمس هولي، هنري جارنيت (ص ٤٢-٤٧). وبالرغم من أن دريبر يعترف بأن ١٠ آلاف على الأقل من السود هاجروا إلى هاييتي في أوائل القرن التاسع عشر، وهاجر عدد مماثل إلى كندا (ص ١٩)؛ كانت تلك المعارضة للاستعمار تكتيكية أحيانا (لمواصلة الضغط على الرق)، وكانت تعتمد أحيانا على تصورات مشوهة لأفريقيا (ص ١٨) أو مصالح طبقية خاصة "لطبقة وسطى" زنجية صاعدة (ص ٤٥-٤٦)، وبطريقة ما حصل عدد قليل من أمثلة الإعلانات المناهضة للاستعمار ومعالجة حركات الهجرة التي يسيطر عليها إعادة تركيب النشاط السياسي لدى ديلاني (٢٠ من ٣٣ صفحة) على وزن أكبر من عشرات الآلاف الذين هاجروا في مطلع القرن التاسع عشر والأعداد المجهولة التي تركت الولايات المتحدة (والعالم الجديد أحيانا) مبكرا.

- Immanuel Geiss, The Pan-African Movement, Methuen, London, 1974, pp, 52-57; Floyd Miller, The Search for a Black Nationality, University of Illinois Press, Urbana; William Bittle and Gilbert Geiss, The Longest Way Home, Wayne State University Press, Detroit, 1964; and Edwin Redkey, Black Exodus, Yale University Pres, New Haven, 1969).

- ولا يفسر تركيز دريبر على معارضة "جمعية الاستعمار" انتشار جمعيات وحركات هجرة السود، ولا التمييز الذي كان سائدا آنذاك بين الاستعمار الأفريقي والمصالح في هاييتي، وكندا، وأمريكا اللاتينية، وأوهايو، و"الحدود الغربية"، كمواقع للاستيطان المستقبلي. ولو كان ديلاني مؤيدا مترددا للهجرة، فإن جيمس فورتن وريتشارد ألين كانا معارضين مترددين (انظر ميلر، مرجع سابق). ويعتمد دريبر على مقال لويس مهلنجر لإثبات الرفض الشعبي "لجمعية الاستعمار":

- Louis Mehlinger, "The Attitudes of the Free Negro toward African Colonization" (Journal of Negro History 1, no. 3 [July 1916]: (176-301).

- وربما أشار إلى أن مصدر مهلنجر الرئيس يتمثل في:

- William Lloyd Garrison, "Thoughts on African Colonization (Garrison and Knapp, Boston, 1832), and "Thoughts on Colonization",

- والذي سجل احتجاجات ليست بعيدة تماما عن تأثير جاريسون. وقد ذهب مهلنجر إلى أن:

"ويليام لويد جاريسون نظم اجتماعات احتجاجية سوداء عديدة تعلن أن السود لن يتركوا الولايات المتحدة" (ميلر، مرجع سابق، ص ٥٥). (وكان جاريسون بدوره مقتنعا بالازدواجية العنصرية المزعومة للجمعية من جانب الاستعماريين السود السابقين فورتن وألين):

- William L. Katz, "Earliest Responses of African Negros and Whites to African Colonization", introduction to Garrison, "Thoughts on African Colonization, Arno, New York, 1968, pp. i-ix.

- ومع ذلك، يشير مهلنجر إلى أمثلة عديدة لسود شماليين وجنوبيين يساندون الاستعمار، على الرغم من أن يتجاهل ذكر الآثار (السلبية) للهجرة غير الناجحة لها ييتي في عشرينيات القرن التاسع عشر (المرجع السابق، ص ٧٤-٨٢) أو دورها في دفع أنصار إلغاء الرق من المواقف التدريجية من الرق إلى "المباشرة" (المرجع السابق، ص ٩٠) وانظر كذلك:

- John L. Thomas, The Liberator: William Lloyd Garrison, Little, Brown, Boston, 1963, p. 465.

- ويبدو أن دريبر كان مقتنعا أيضا بأن خصائص الهجـرة والاسـتعمار والـسكون الداخلي يمكن أن تتحدد باعتبارها "تخيلات بيضاء" أساسا (دريبر، مرجع سـابق، ص ١٣، ١٤، ٤٨، ٥٧). ومن الواضح أن مثال دريبر منتشر، انظر مثلا:

- **Raymond Hall, Black Separatism in the United States, University Press of New England, Hanover, 1978, pp. 21, 33-37.**

- وكان هول مثل دريبر، حيث لم يبذل جهدا أكبر لاستكشاف مشاعر هؤلاء الـسود (الرقيق أو الأحرار) الذين كانوا خارج طبقة النخبة والذين كانوا بالتالي يسيطرون على السجل التاريخي. وتعتبر دراسـة ردكـاي **Redkey** للفتـرة ١٨٩٠-١٩١٠ محاولة لطرح هذه القضية: "سواء كان يعرف أم لا، فقد كـان جـارفي **Garvey** جزءا من تراث طويل لقومية السود في الولايات المتحدة. وكذلك كان أتباع جارفي يمثلون نفس المزارعين الهامشيين السود الجنوبيين الذين استجابوا لنداءات الهجرة من الأسقف تورنر وأتباعه قبل ذلك بجيل... وبالنسبة لنمط حركات هجرة الأفارقة المبكرة، استجاب السود من الطبقة الدنيا بشغف عندما أشـار مـاركوس جـارفي العظيم إلى الطريق. ونظرا لأنهم لم يعودوا معزولين في مزارع متناثرة ومقيـدين بالأوضاع الجنوبية كما كان أتباع تورنر، قامت بروليتاريا الـسود التـي كانـت متزاحمة في المعازل الحضرية ومتحررة من وهم مساكنها الجديدة بنشر القوميـة سريعا وبعيدا. وربما كان جارفي ذاته أجنبيا، ولكن الملايين من أتباعـه أظهـروا استجابة أمريكية قديمة لقومية السود". انظر ردكاي، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(٣) وفي عمل مميز بطريقة أخرى، نجد أن إيسين أودوم **E. U. Essien-Udom** في دراسـته لحركة المسلمين الأمريكيين السود، والتي أرجعـت جـذورها القوميـة الـسوداء إلـى "عقلانية الزنوج" في مطلع القرن التاسع عشر (بول كوفي **Paul Cuffe** وحركة الهجرة)، ميز قومية الزنوج باعتبارها اهتماما مطلقا برفاهية السود الأمريكيين.

- **Black Nationalism, University of Chicago Press, 1962, pp. 17-19.**

- وأعلن كوفي ذاته عن اهتمامه بطريقة مختلفة، حيق قال:

"بعد معرفتي بأن هناك مستوطنة لشعب ملون في سيراليون تحت الوصاية المباشـرة لقوة متحضرة، شعرت طوال هذه السنين الماضية باهتمام كبير بشأنهم، ورغبة في أن يصبح سكان هذه المستعمرة مستقرين في الحقيقة، وبالتـالي يكونـون فعـالين فـي تطورها بين أخوتنا الأفارقة"؛ بل إنه بذل جهـدا خـلال زيارتـه (١٨١٠-١٨١١) للمستعمرة لثني قبيلة "مندنجو **Mendingo**" عن مواصلة التورط في تجـارة الرقيـق: "ولأنهم كانوا غير راغبين في الخضوع لقيود الرق، فقد سعيت لإبراز ذلـك كـدليل لإقناعهم بخطئهم. ولكن تحيزهم جعلهم لا يعترفون".

- Paul Cuffe, "A Brief Account of the Settlement and Present Situation of the Colony of Sierra Leone in Africa', in Adelaide C. Hill and Martin Kilson (eds.), Apropos of Africa, Frank Cass, London, 1969, pp. 14, 17-18.

– وبالنسبة لإهمال التراث التاريخي لراديكالية السود، انظر مقالات ردكاي البيليوجرافية، مرجع سابق، ص ٣١٢، وميلر مرجع سابق، ص ٢٨١.

(4) Walter Rodney, 'Upper Guinea and the Significance of the Origins of African Enslaved in the New World", Journal of Negro History 54, no. 4 (October 1969): 345.

(5) G. W. F. Hegel, The Philosophy of History (ed.) Friedrich Dover, New York, 1956, pp. 80, 93, 96, 99.

– ومن الطريف أن يوهان جوتفريد فون هيردر Johann Gottfried von Herder، المفكر الألماني في القرن الثامن عشر، والذي يعرف هيجل عمله جيدا (نحن نعرف أن هيجل لم يعترف بتأثير هيردر أبدا) كان واحدا من الفلاسفة الأوروبيين القلائل الذين حاولوا التواصل مع التراث القومي خارج أوروبا: "نادرا ما يسمع أوروبي من مواطن دولة أخرى عبارة المدح، "إنه رجل عاقل مثلنا!". وكذلك فإن: "الأوروبي ليس لديه فكرة عن العواطف المتأججة والخيالات التي تموج في صدور الزنوج، وليس لدى الهندي Hindoo فكرة عن الرغبات العارمة التي تطارد الأوروبي من أحد طرفي العالم إلى الآخر".

- Herder, Reflection on the Philosophy of the History of Mankind, University of Chicago Press, 1968, (orig. 1784- 91), pp. 32, 75.

– وبالنسبة إلى علاقة هيجل بهيردر، انظر مقدمة فرانك مانويل، مرجع سابق، ص xvii.

(٦) يذكرنا ونتروب جوردان بقدم هذه الأفكار في معالجته "لتقييم اللون valuation of color" لديفيد هيوم: "كان هيوم مقتنعا بأن الشعوب القريبة من القطبين وفي العروض المدارية كانت متدنية كثيرا مقارنة بمن يعيشون في المناطق المعتدلة، وهذا اعتقاد يمكن إرجاعه تاريخيا عبر الفكر الأوروبي إلى الإغريق – الذين عاشوا أيضا في مناطق معتدلة.

ثم يواصل جوردان مقتبسا من هيوم مباشرة:

"إنني أميل إلى الشك في الزنوج، وفي كل أجناس البشر الآخرين بصفة عامة (لأن هناك أربعة أو خمسة أجناس مختلفة) على أنهم أدنى من البيض طبيعيا. فلم تكن هناك أية أمة متحضرة بلون بشرة سوى الأبيض، ولا حتى أي فرد بارز في العمل أو الفكر. ولا يوجد صانعون مهرة بينهم، ولا فنون، ولا علوم".

- Jordan, White Over Black, Penguin, Baltimore, 1969, p. 253.

- (ولا يتفق فنلي L. Finley أو فرانك سنودن Frank Snowden مع تفسير جــوردان للفكر السلالي بين "القدماء". حيث يدعيان أن الــوعي الــسلالي لــدى الإغريــق والرومان كان يميل إلى الموضوعية وليس عدم العقلانية.
- Finley, "Between Slavery and Freedom", Comparative Studies in Society and History 6, no. 3 (April 1964): 246;
- Snowden, Blacks in Antiquity, Harvard University Press, Cambridge, 1970, pp. 176-95.
- (كانت رؤية جوردان تقابل رؤية فريدريش هيرتس حسب رأي لويس روشامس:
- Louis Ruchames: Racial Thought in America, Grossett and Dunlap, New York, 1969, pp. 1-2).
- نظرا لأن الاستعراض الكامل لمدى اعتماد المؤرخين والمحللين الاجتماعيين على الرؤية العالمية الأوروبية النزعة كأساس لأعمالهم سيكون أمرا مملا، بسبب جوهر وطبيعة أبعادها، سنكتفي بأمثلة قليلة مستمدة من أعمال الدارسين البارزين. وعندما ننتقل من هيجل وهيوم، نجد مجموعــات إدوارد كــار Edward H. Carr واســعة الانتشار من محاضرات كمبردج:
- Edward H. Carr, What is History? (Vintage, New York, 1961).
- حيث ذكر كار في محاضرته الأخيرة: "يقتصر الأمر على القرنين الأخيرين فقــط على أقصى تقدير، حتى في الدول المتقدمة القليلة، بالنسبة إلى بداية انتشار الوعي الاجتماعي والسياسي والتاريخي الذي يشمل معظم السكان. ويقتصر الأمر علــى الوقت الراهن فقط، حيث أصبح ممكنا للمرة الأولى أن نتصور وجود عالم كامــل يتكون من شعوب دخلت إلى التاريخ بالمعنى الكامل وأصــبحت موضــع اهتمــام المؤرخ، وليس الإداري الاستعماري أو الأنثروبولوجي" (ص ١٩٩). ففي ١٩٦٩، تذكر بونيفيس أوبيشيري Boniface Obichere، أســتاذ التــاريخ النيجيــري، أن: "أستاذ الكرسي الملكي الحالي للتاريخ الحديث في أكسفورد، هوج تريفور روبيــر، عبر عن رأيه بأنه لا يعتقد أن أفريقيا وآسيا كان لهما أي تاريخ، باستثناء التــاريخ الذي بدأه المشروع الأوروبي في هذه الأماكن". وتذكر أيضا، "أن كل تاريخ أفريقيا كان – حسب كلمات الأستاذين روبنسون وجالاجر في عمله الــذي يحمــل اســم "أفريقيا ورجال فيكتوريا" – مجرد "ملحوظة كبيرة" على شيء كانت بريطانيا تفعله في آسيا أو في إنجلترا، وهكذا".
- Obichere, "African History and Western Civilization", in Armstead Robinson, Craig Foster, and Donald Ogilvie (eds.) Black Studies in the University, Bantam, New York, 1969, pp. 87,88.

- وتوضح دراسة محاضرة تريفور روبير أن اتهام أوبيشيري كان يحمل على الجانب الحسن، حيث جاء فيه ما يلي:

"ربما سيكون في المستقبل بعض التاريخ الأفريقي لندرسه. ولكن في الوقت الحالي لا يوجد شيء: فهناك فقط تاريخ الأوروبيين في أفريقيا. أما الباقي فهو عبارة عن ظلام، مثل تاريخ أمريكا قبل وصول الأوروبيين وكولومبس. والظلام ليس مادة للتاريخ. وأرجو ألا يساء فهمي. فأنا لا أنكر أن الناس وجدوا حتى في الدول المظلمة والقرون المظلمة، ولا أنه كان لديهم حياة سياسية وثقافة مهمة لعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا؛ ولكنني أعتقد أن التاريخ نوع من الحركة، بل والحركة الهادفة أيضا. فالتاريخ ليس مجرد أوهام عن الأشكال والأزياء المتغيرة، والمعارك والغزوات، والأسر واغتصاب السلطة، والأشكال الاجتماعية والتحلل الاجتماعي... إذ يمكننا أن نهمل تاريخنا الخاص ونسلي أنفسنا بالتحركات غير المجزية للقبائل البربرية في أرجاء العالم بديعة المناظر وغير المناسبة: إذ إن الدور الرئيس لهذه القبائل في التاريخ في رأيي يتمثل في اطلاع الحاضر على صورة الماضي الذي هرب منه بالتاريخ؛ أم أنه يجب على أن أتجنب سخط مؤرخي العصور الوسطى بالقول: الماضي الذي تغير منه؟".

- The Rise of Christian Europe I: The Great Recovery", in the Listener, 28 November 1963, p. 871.

- وللاطلاع على ملخص لتطور الفكر الأوروبي عن الشعوب غير الغربية، انظر:

- Philip Curtin, "Introduction: Imperialism as Intellectual History", in Curtin (ed.), Imperiaiism, Walker, New York, 1971, pp. xiii-xvil.

- والاطلاع على أمثلة محددة في العلوم الاجتماعية، انظر:

- Bernard Magubanc, "A Critical Look at Indices Used in the Study of Social Change in Colonial Africa", Current Anthropology 12, nos. 4-5 (October-December 1971): 419-31.

(٧) في بعض الحالات، نجد حتى أكثر الدارسين حرصا لا يزالون يترددون في الاعتراف بوجود السوابق الأوروبية لنظام الرق في عمالة الأفارقة. فمثلا، يقول إدموند مورجان في دراسته لفرجينيا الاستعمارية، عند تلخيص طبيعة "المشروع الخاص" في ظل المستعمرة: "يمكن أيضا أن نعتبر أن سكان فرجينيا بدؤوا يتحركون نحو نظام للعمل يعامل الناس كالأشياء". وعلى الرغم من الأمر يبدو كما لو كان مورجان يصف "البدايات" الأول لهذا النظام، فإن هذا لا يتفق مع الأدلة التي جمعها هو بنفسه، مما دفعه (في فقرة سابقة) إلى ملاحظة: "عندما يذهب العامل إلى فرجينيا، فإنه يصبح مجرد شيء لعدد من السنوات، أي يصبح سلعة لها ثمن". بل إن مورجان واجه هذا النظام سلفا في البلد الأصلية: "بعد أن أصبح العمل أكثر قيمة في إنجلترا ذاتها، أحدث الطلب قدرا معينا من البيع والشراء في المتدربين الصناعيين.

- Edmond Morgan, American Slavery, American Freedom, W. W. Norton, New York, 1975, 129, 128.

– ومن المؤكد أن التصريح بالنظام السلالي الذي تطور لقرون داخل أوروبا كان في ذهن بنيامين فرانكلين عندما كتب: "يعتبر عدد الشعب الأبيض النقي في العالم صغيرا جدا نسبيا. وكل أفريقيا سوداء أو سوداء صفراء. وآسيا سوداء صفراء أساسا. وأمريكا كذلك كلها (باستثناء القادمين الجدد). وفي أوروبا، نجد أن الإسبان والإيطاليين والفرنسيين والروس والسويديين، ينتمون بصفة عامة إلى ما يسمى أصحاب البشرة الداكنة؛ كما أن الألمان أيضا - باستثناء الساكسون فقط - مع الإنجليز يشكلون المكون الرئيس للشعب الأبيض على وجه الأرض. وأنا أتمنى أن تزيد أعدادهم".

- Quoted by Winthrop Jordan, op. cit., p. 254.

– وكما يعلق جوردان، "إذا كان الأوروبيون من البيض، فإن بعضهم أكثر بياضا من بعض" (المرجع السابق).

(8) "Uncle Tom at Home", anonymous contributor, Putnam's Monthly 8, no. 43 (July 1856): 4-5.

– ويعتبر هذا المقال مثالا تقليديا على سعة المعرفة تحت عنوان خاطئ؛ إذ إن مؤلفه يعتمد كثيرا على تقارير مستكشفين علميين مثل:

- Heinrich Barth, Travels and Discoveries in North and Central Africa, 5 vols., Longmans Green, London, 1857),

– ويعتمد أيضا على مغامرين عسكريين:

- Major Denham, Captain Clapperton, and the late Dr. Oudney, Travels and Discoveries in Northern and Central Africa, 4 vols., John Murray, London, 1831).

– وخلال الفترة القصيرة لصدور شهرية بوتنام Putnam Monthly، (١٨٥٣-١٨٥٨) تمكنت من ان تواجه بفعالية صفوة المجلات الأدبية التي كانت تنتج في نيويورك وبوسطون، انظر:

- Algernon Tassin, The Magazine in America, Dodd, Mead, New York, 1916, pp. 205-31, 315).

– ومن المثير للسخرية، أنه على الرغم من تعاطف هيئة تحريرها مع رهاب الزنوج، وتكرار نشرها لإسهامات من كتاب في "ولايات الرق"، فإنها لم تفلت من احتقار الأدب الجنوبي. انظر:

- Frank L. Mott, A History of American Magazines, 1741-1850, vol. 1, Harvard University Press, Cambridge, 1939, p. 648;

- "A Special Edition Note for the People South of Mason and Dixon's Line", Putnam's Monthly 3, no. 15 [March 1854]: 343-44;
- Tassin, op. cit., p. 186.

(٩) للاطلاع على الخلفية والطبيعة العامة لرد الفعل على قانون الرقيق الهارب لسنة ١٨٥٠، انظر:

- Mary F. Berry, Black Resistance, White Law, Appleton-Century-Croft, New York, 1971, pp. 72-77;
- John Hope Franklin, From Slavery to Freedom, Knopf, New York, 1967, pp. 260-66, 367-70;
- William Z. Foster, The Negro People in American History, International, New York, 1970, pp. 167-71.

- ويركز فوستر بصفة خاصة على العنف الذي صاحب صدور وتطبيق القانون؛ وهو العنف الذي كان مقاوما وملتزما في نفس الوقت. وبناء على العدد الأول من نيويورك تايمز (١٨/٩/١٨٥١)، خلط فوستر للأسف الأحداث في كريستيانا، بنسلفانيا التي تضمنت ويليام باركر. حيث اعتبر فوستر أن باركر "زنجي حر" بينما كانت القضية أن باركر من الرقيق الهارب من ماريلاند. وكذلك، كان باركر هو الذي ساعد على تشكيل منظمة للقصاص ضد إمساك الرقيق في منطقة كريستيانا. وكانت هذه المجموعة هي التي قاومت محاولات استعادة ممتلكات الرقيق. انظر:

- William Parker's account, "Fugitives Resist Kidnapping', in Charles Nichols (ed.), Black Men in Chains, Lawrence Hill, New York, 1972, pp. 281-315;
- For John Brown, see Stephen Oates, To Purge This Land with Blood, Harper Torchbooks, New York, 1970.

(١٠) يستنتج ميلتون كانتور في مقاله عن أمريكا في القرن السابع عشر أن "الزنجي كان حينئذ مقيدا دائما بسلاسل مادية وأنثروبولوجية. ولكي يضمن الكتاب المؤيدون للرق استمرار مهانته، وضعوا أمامه كل العقبات. حيث بـرروا الرق بالمناخ والضرورة الاقتصادية؛ والاعتماد على التاريخ، والإنجيل، والقدر الإلهي. وكان يقال في الحقبة الاستعمارية إن أمريكا الإنجليزية لا يمكن أن تتطور بدون هذه المؤسسة الخاصة. فقد كان الرجال البيض غير قادرين بدنيا على العمل في المناخ الحار؛ وكان الزنوج وحدهم يتمتعون بهذه القدرة". ولم تكن هذه الآراءمقصورة على المؤيدين للرق: "كانت هذه الإدانة لعدم المساواة منتشرة جدا لدرجة أن الكثيرين من الكتاب مناهضي الرق اعترفوا بها".

- "The Image of the Negro in Colonial Literature", in Seymour Gross and John Edward Hardy (eds.), Images of the Negro in American Literature, University of Chicago Press, 1966, pp. 43, 31;
- Matthew Mellon, Early American Views on Negro Slavery, Bergman, New York, 1969; and
- Jordan, op. cit., pp. 253-55, 286, 305-7.

(11) David Brion Davis, The Problem of Slavery in Western Culture, Cornell University Press, Ithaca, 1966, p. 543.

(١٢) لكي يحافظ الجنوب على دخله بدون التضحية أو بذل الجهد، لجأ إلى منهج الاختلافات السلالية الذي يؤكد أن الذكاء المرتفع والكفاءة العالية مستحيلان بالنسبة لعمل الزنوج. ونظرا للرغبة في هذا العذر لتبرير كسلهم، فإن أصحاب المزارع وجدوه واخترعوه وأثبتوه بسهولة. وتحول القادة الدينيون الخانعون إلى "لعنة كنعان"؛ وقام العلماء المزيفون بجمع واستكمال كل المناهج المتاحة عن الدونية السلالية؛ وقامت المدارس المنتشرة والدوريات المتشدقة بتكرار هذه الأساطير، حتى أصبح يستحيل على المزارع المتوسط المولود بعد ١٨٤٠ ألا يؤمن بأن القوانين الصحيحة في علم النفس والاقتصاد والسياسة تتوقف عند السلالة السوداء".

- W. E. B. Bois, Black Reconstruction in America, 1860-1880, World Publishing, Cleveland, 1969, pp. 30-39.

– واكتشف بنيتا باري Barry Benita أن المجتمع الإنجليزي في الهند والمفكرين الإنجليز في الوطن ألفوا "أسطورة" مماثلة تتعلق بالهنود. انظر:

Benita Barry, Delusions and Discoveries, University of California Press, Berkeley, 1972, pp. 111-70.

(13) David Brion Davis, op. cit., pp. 464-82; Cantor, op. cit., p. 53; and Jordan, op. cit., ch. 13.

(١٤) يعلق ديفيز بأن "إحدى أشمل الدراسات الحديثة لإحدى ثقافات غرب أفريقيا تقدم صورة مشابهة كثيرا لصور تقارير القرن الثامن عشر"،

- Davis, op. cit., p. 465.

– حيث يشير ديفيز فيما سبق إلى عمل:

- Melville and Frances Herskovitts (see ibid., note 47).

(15) Ibid.

(١٦) يقرر ديفز في مقدمته: "أود أن أظهر أن الرق كان دائما مصدرا للتوتر الاجتماعي والنفسي، ولكنه كان يرتبط في الثقافة الغربية بمناهج دينية وفلسفية معينة منحته أعلى موافقة. وأصبح التناقض الكامن في الرق أكثر وضوحا عندما كانت هذه المؤسسة ترتبط ارتباطا وثيقا بالاستعمار الأمريكي، الذي كان يعتبر أيضا أنه يقدم فرصة للإنسانية لتكوين مجتمع أكثر كمالا". المرجع السابق، ص ix.

(١٧) يجب على المؤرخ، مثل الدارس المعاصر للوعي السلالي لدى الأطفال الصغار جدا، أن يظل مترددا بل ومتشككا فيما إذا كان الرجال البيض يستجيبون أصلا بصورة عكسية للون الزنجي بسبب تقييم ثقافي مسبق عارض تماما على اللون الأسود، في حد ذاته، أو نفور غريزي قائم على عمليات فسيولوجية أو ربما الخوف من الليل الذي يمكن أن تكون له قيمة تكيفية في التطور الإنساني، أو ارتباط القذارة والبشرة السوداء بالطبقات الدنيا في أوروبا؛ أو ارتباط اللون الأسود بالزنوج الذين كانوا أدنى في الثقافة أو المكانة". جوردان، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(١٨) ديفز، مرجع سابق، ص ٤٤٧.

(١٩) المرجع السابق، ص ٤٥٥-٤٥٩.

(٢٠) يستنتج بريان ستريت، في إعادة صياغته لتاريخ العلاقة بين الفكر العلمي والنظريات السلالية التي انتشرت عبر الأدب الإنجليزي في العصر الفيكتوري، أنه: "بعد تحديد العلاقة بين الثقافة والسلالة، والخصائص الطبيعية والذهنية، فإن أية مشاعر شخصية تتعلق "بخصائص" السلالات الأخرى يمكن منحها تأييدا علميا. فإذا كانت معايير التمييز بين السلالات تعتمد على مثل هذه الاعتبارات الشخصية، يستطيع فولتير وروسو ادعاء أن الزنوج كانوا أدنى طبيعيا من الأوروبيين في القدرة العقلية، ويستطيع هيوم ادعاء أنه "لم تكن هناك أبدا أمة متحضرة ذات أي لون سوى الأبيض"... ومع كل هذه المبررات يستطيع بلومنباخ Blumenbach ادعاء أن القوقازيين كانوا الأكثر جمالا... وظهرت الشوفينية في صورة "علمية" في أواخر القرن التاسع عشر".

- The Savage in Literature, Routledge and Kegan Paul, London, 1975, pp. 54-55.

- في ١٨٩٤، اخترق السير هاري جونستون، أول مفوض في أفريقيا الوسطى البريطانية، حاجزا معينا في النظرية السلالية بطرح أحد الحلول للمستقبل الذي يمكن أن يكون بائسا للسلالات الدنيا: "بصفة عامة، فإنني أعتقد أن المزيج الأصفر الذي يحتاجه الزنجي يجب أن يأتي من الهند، وأن شرق أفريقيا وأفريقيا الوسطى البريطانية يجب أن تصبح أمريكا الهنود. إذ إن اختلاط هاتين السلالتين سيمنح الهنود التطور البدني الذي ينقصهم، وهم بدورهم سينقلون إلى ذرياتهم نصف الزنجية الصناعة والطموح والتطلع نحو الحياة المتحضرة التي يفتقدها الزنوج بصورة واضحة".

- Quoted by H. Alan Cairns, Prelude to Imperialism, Routledge and Kegan Paul, London, 1965, p. 207.

(21) Michael Banton and Jonathan Harwood, The Race Concept, Praeger, New York, 1975, pp. 13-42.

- ويذكرنا فيليب كورتن بأن "وفيات السكان الأصليين" كانت تعتبر دليلا على الوضع السلالي الطبيعي لدى العلماء البريطانيين في القرن التاسع عشر، حيث يقول:

"كانت الشعوب البائدة كلها من "السلالات الملونة"، بينما كان من يقومون بالإبادة من الأوروبيين دائما. ويبدو واضحا أنه كان هناك نوع من القانون الطبيعي للعلاقات بين السلالات، إذ إن إبادة غير الأوروبيين كانت جزء من التطور الطبيعي للعالم".

- The image of Africa, University of Winconsin Press, Madison, 1964, p. 374.

(22) See Wesley Frank Carven, The Legend of the Founding Fathers, New York University Press, New York, 1956, pp. 39-44, 56-85.

(٢٣) ولا يزال ممكنا اكتشاف أمثلة أو أشكال لأسطورة الأسس الأمريكية في الكتب الدراسية المعاصرة. فعندما قرر ميلتون كمنجس Milton Cummings وديفيد وايز David Wise - تحت العنوان الفرعي "تناقض الديمقراطية الاستعمارية" أن "أمريكا الاستعمارية لم تكن مكانا ديمقراطيا جدا بالمعايير المعاصرة"، كان اقتراحهم أن هناك دفاعا عن المجتمع الاستعماري في حد ذاته (فضلا عن مضمون أن معايير الديمقراطية الأكثر معاصرة قد تحققت).

- See Cummings and Wise, Democracy Under Pressure, Harcourt, Brace, Jovanovich, New York, 1977, p. 38.

- ومهما كانت معايير القرن السابع عشر التي تخيلها كمنجس ووايز، فإنه يصعب وصفها بأنها ديمقراطية أو أساسا للغز: "كان يمكن استغلال سكان فيرجينيا بشدة، بصورة قانونية أو غير قانونية، جزئيا لأنهم كانوا قد اختيروا لهذا الغرض: فقد أحضروا إلى المستعمرة من أجل استغلالهم. فمنذ البداية كان الإنجليز يفكرون في ممتلكاتهم في العالم الجديد كمكان يمكن فيه استغلال الناس الذي كانوا غير مفيدين في أوطانهم". مورجان، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

- "أحضر المستوطنون الأوائل الفوارق الطبقية من العالم القديم معهم عبر المحيط. حيث عدلت البرية الأمريكية وعقدت هذه الفوارق، ولكنها لم تتخلص منها. وكلما تزايد عدد السكان - وكلما تزايدت الثروة وكلما زاد تعقيد المجتمع - زادت حدة الفوارق بين الطبقات العليا والدنيا. حيث وفر العمال البيض المتعاقدون مؤقتا قوة عمل الطبقة الدنيا الأساسية في القرن السابع عشر، والرقيق الزنوج في القرن الثامن عشر، وكان كل منهما يستكمل بعمال المدن من كل الأنواع".

- Howard Zinn, The Politics of History, Beacon Press, Boston, 1970, p. 60.

(٢٤) يخبرنا روي نيكولز Roy Nichols بأنه في خمسينيات القرن التاسع عشر "كان واحد وثلاثون من أحزاب الولايات، بالإضافة إلى بعض المجموعات المختلفة في هذه المناطق، يعرفون باسم الديمقراطيين، ونظموا بأنفسهم "الديمقراطية الأمريكية" في التقاليد القومية". "وعلى الرغم من ادعاءاتهم غير الرسمية، كانت هذه أحزاب أقلية، تمثل مصالح معينة ومناطق معينة. وأدى تأثير النزاعات الطائفية على تنظيم المناطق الجديدة إلى فساد هذا النسيج التوافقي في خمسينيات القرن التاسع عشر. "وكان معارضو الديمقراطيين قد بدؤوا إطلاق هذا النداء. حيث سمعت دعوات إلى قبول المبدأ الديمقراطي كوسيلة لإحلال التعامل العادي محل النفي الطائفي للأقليات؛ ولم تكن هناك قاعدة أكثر عدالة من إرادة الأغلبية. ومع ذلك، لم تستطع هذه الكلمات المرنة أن تجعل الجنوبيين ينسون تحذير تعداد السكان. فإذا أصبح صوت الأغلبية يمثل إرادة الجمهورية، فإنهم قد يصبحون تحت رحمة جيرانهم في الولايات الحرة. وكانوا يخشون من طغيان الأرقام. ومن الواضح أن جهود المتحدثين الشماليين لجعل الديمقراطية صيغة متكاملة كان لديها فرصة أكبر قليلا للنجاح مقارنة بعمل معارضيهم الجنوبيين لضمان قبول الإقليمية والاعتراف بحق الأقلية في الاعتراض". وعلى الرغم من أنها كانت تبدو بسيطة كما كانت، فإن هذه "الفرصة" كانت بمثابة مخاطرة كبيرة للطبقة الحاكمة الجنوبية. فقد أصبحت أحد العوامل التي أدت إلى الحرب الأهلية.

- Nichols, The Distribution of American Democracy, Collier Books, New York, 1962, pp. 20, 52.

(25) Edmond Morgan, op. cit., p. 90.

- بعد ذلك بقليل، وضع مورجان هذه الاتجاهات في مصطلحات أكثر سياسية وسلالية: "كان المبرر المعياري للرق في القرن السابع عشر يتمثل في أن أسرى الحروب رهنوا حياتهم ويمكن استرقاقهم. ومع ذلك، لم يفكر الإنجليز في استرقاق السجناء في الحروب الأوروبية... ولكن كان هناك أمر مختلف بالنسبة للهنود. فمهما كانت الأمة أو القبيلة أو الجماعة الخاصة التي ينتمون إليها، فإنهم لم يكونوا متحضرين، ولا مسيحيين؛ وربما لم يكونوا آدميين بالطريقة التي كان عليها الأوروبيون المسيحيون البيض. ولم تكن محاولة منحهم مكانة في المجتمع أمرا جيدا - فهم يقفون خارج المجتمع". المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(26) Franklin, "Observations concerning the increase of Mankind, Peopling of Countries, &c," in The Papers of Benjamin Franklin, Leonard W. Labaree (ed.), Yale University press, New Haven, 1961, p. 228.

- وقد اختتم فرانكلين هذا المقال بقوله: "وكما يمكن أن أقول، وبينما كنا نجوب كوكبنا بتطهير أمريكا من الغابات، ومن ثم نجعل هذا الجانب من الأرض يعكس ضوء أقوى في أعين سكان المريخ والزهرة، فلماذا نسود سكانها أمام الكائنات الأعلى؟ ولماذا نزيد أبناء أفريقيا بزرعهم في أمريكا، حيث لدينا فرصة عادلة باستبعاد كل السود والصفر وزيادة البيض والحمر المفضلين؟ ولكن ربما أكون متحيزا للون بشرة بلدي، لأن هذا النوع من التحيز يعتبر طبيعيا بالنسبة للإنسانية". المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(27) See Morgan, op. cit., pp. 327-37, 305-15.

- وبمراجعة سجلات محكمة مقاطعة لانكستر، بفرجينيا، يستنتج سميث ما يلي: "في ١٧٥٧، لم تكن هناك قضايا عمال، ولا في ١٧٦٤، حيث يمكن أن نستنتج من ذلك أن الرقيق حلوا عمليا محل العمال البيض... وتعتبر هذه الأرقام نمطية، بقدر ما أستطيع استكشافه، لأية مقاطعة استعمارية في هذه المناطق. سميث، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(28) Hofstadter, America at 1750, Alfred Knopf, New York, 1971, p. 34.

(29) See A. E. Smith, op. cit., chapters 11 and 12; Hofstadter, op. cit., pp. 49-58.

- وفي محاولتها لتقييم مدى استبعاد الطبقة الحاكمة خلال الفترة السابقة على الحقبة الثورية، لاحظت لندا جرانت دى باو Linda Grant De Pauw تحفظا غير عادي بين الأكاديميين الذين سبقوها الذين درسوا تلك الفترة، حيث ذهبت إلى القول: "يتمثل أقصى تقدير لعدم الحرية في أمريكا الاستعمارية فيما وجدته عند هوارد زين الذي قدر أن نحو ثلث السكان كانوا في رق بدني أو اقتصادي".

- Howard Zinn, The Politics of History, Beacon Press, Boston, 1970, p. 60; De Pauw "Land of the Unfree: Legal Limitations on Liberty in Pre-revolutionary America', Maryland Historical Magazine 68, no. 4 (Winter 1973): 356, n. 9.

- وكما يوضح الاقتباس الوارد في النص أعلاه، كانت دى بوا أقل شراهة كثيرا.

(30) De Pauw, op. cit., p. 356; Ferdinand Lundberg, Cracks in the Constitution, Lyle Stuart, New York, 1980, p. 18.

(٣١) إذا كانت "الديمقراطية" تتضمن الحكم بموافقة المحكومين، أو على الأقل موافقة معظم أولئك المحكومين، وليس مجرد نخبة الذكور البيض البالغين، فإن أولئك المؤرخين - من بانكروفت حتى براون - والذين وصفوا المجتمع الأمريكي في منتصف القرن الثامن عشر بأنه "ديمقراطي" يكونون مخطئين ببساطة". المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(32) See Morgan, op. cit., pp. 250-70.

(33) A. E. Smith, op. cit., p. 285; Hofstadter, op. cit., p. 34.

(34) Smith, op. cit., pp. 286-88.

(35) Hofstadter, op. cit., p. 34.

(٣٦) قضت الأغلبية العظمى منهم وقتها بدون معاناة الحاجة أو القسوة المفرطة، وحصلوا على مستحقات حريتهم بدون التقاضي من أجلها، ولم يتركوا أية أدلة يمكن من خلالها معرفة قصص مسارات حياتهم. ويجب التركيز على هذه النقاط، وذلك لأن كل تقارير عمل البيض تقريبا تعتمد أساسا على هذه السجلات لدى هذه المحاكم". سميث، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٣٧) يرغب مورجان في القول إنه "في أعين الإنجليز غير الفقراء، كان الفقراء يحملون الكثير من علامات سلالة غريبة". مورجان، مرجع سابق، ص ٣٢٥-٣٢٦. ولكنه يعلن في اللحظة التالية: "من المؤكد أن الفقر لم يكن يورث جينيا... إذ إن الفقراء لم يولدوا بلون آخر يختلف عن بقية السكان، ولكن التشريع استطاع تقديم بديل للون" (المرجع السابق). ويبدو أنه يربط بصفة خاصة بين التحيز السلالي والاختلافات في اللون؛ أي إنه بدون اللون يمكن أن يظهر التحيز مثل العنصرية فقط: "ولا يختلف الإغراء الكامن وراء هذه المقترحات [استرقاق الفقراء] ووراء العديد من مشروعات مساكن العمال كثيرا عن نوع الإغراء الذي نسميه اليوم العنصرية" (المرجع السابق، ص ٣٢٥). ومع ذلك، تشير التشابهات التي يسردها بين سيطرة الإنجليز على الأيرلنديين في القرن السادس عشر وعلى الأمريكيين المحليين من القرن السابع عشر فصاعدا، إلى خلاف ذلك، (انظر المرجع السابق ص ٢٠). فهنا أيضا مثال آخر على إنكار وجود عنصرية أوروبية ضد الأوروبيين الآخرين من الناحيتين التحليلية والتاريخية.

(38) A. E. Smith, op. cit., pp. 288-89.

(٣٩) "بداية من ١٧٢٨، بدأت حركة متزايدة بسرعة من أيرلندا، وحتى الآن كان أكبر عدد من العاملين والمخلصين يأتي من هذا البلد خلال القرن الثامن عشر... وبدأت الهجرة الألمانية، التي كانت في المرتبة الثانية بعد الأيرلندية، حوالي ١٧٢٠، ووصلت إلى ذروتها في منتصف القرن، ولكنها لم تزد مثل الإنجليز والأيرلنديين خلال سبعينيات القرن الثامن عشر". المرجع السابق، ص ٣٣٦. وانظر أيضا، هوفشتادتر، مرجع سابق، ص ١٧-٣٠.

(٤٠) سميث، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٤١) المرجع السابق، ص ٣٢٥.

(42) Nicholas Canny, "The Ideology of English Colonization: From Ireland to America", William and Mary Quarterly, 3d ser., vol. 30, no. 4 (October 1972): 596-97.

(43) Hofstadter, op. cit., pp. 19-24.

(44) Quoted by Hofstadter, ibid., p. 32.

(٤٥) سجل صمويل كريسلوف Samuel Krislov واقعة طريفة تؤكد الاهتمام المتزايد بمقاومة السود في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر: "في ١٨٠٢، وفي خطاب سري إلى رئيس لجنة مجلس الشيوخ، حث مدير البريد الجنرال جديون جرانجر على [إصدار نص للبريد يحظر تشغيل السود]، مشيرا إلى أن هناك اعتراضات على حاملي البريد "بصورة لطيفة بحيث لا توضع في تقرير يمكن أن يصبح علنيا، ومع ذلك فهي مهمة بحيث لا تستبعد أو تترك بدون الاهتمام المناسب". إن دورا مثل توزيع البريد يمكن أن يعلم الزنوج النهج الخبيث "فحقوق الإنسان لا تعتمد على لونه". حيث حذر الجنرال من "كل شيء يؤدي إلى زيادة معرفتهم بالحقوق الطبيعية، والناس والأشياء، أو يزودهم بفرصة الترابط واكتساب ونقل المشاعر، وتأسيس سلسلة أو خط من التواصل".

- Krislov, The Negro in Federal Employment, University of Minnesota Press, Minneapolis, 1967, p. 9.

- وقد صدر هذا النص وظل في القانون (وإن لم يكن في الواقع) حتى ١٨٥٦.
انظر أيضا ماري فرانسيس بيري، مرجع سابق، ١-١٧.

(٤٦) أعلن روجر تاني Roger Taney كبير قضاة المحكمة العليا الأمريكية بأغلبية الآراء في ١٨٥٧ أن تسوية قضية دريد سكوت ضد سانفورد أرست هذا الوضع طبقا لقانون البلاد حتى إلغائه الفعلي حسب تعديلات الحرب الأهلية. وقال تاني في تلخيص "التاريخ العام لكل أمة أوروبية" إن دستور الولايات المتحدة لا يشمل حقوقا للسود: "كانوا يعتبرون لأكثر من قرن كائنات أقل مرتبة، وكانوا لا يصلحون بتاتا للدخول مع السلالة البيضاء في علاقات اجتماعية أو سياسية؛ وأنهم في حالة متدنية جدا لدرجة أنه ليس لهم الحقوق التي كان الإنسان الأبيض ملتزما باحترامها؛ وأن الزنجي يمكن أن يقتصر على الرق حقا وقانونا لمصلحته". وأضاف، "فإذا كانت اللغة - كما كانت تفهم في ذلك الوقت - تشملهم، فإن سلوك السادة المميزين الذين صاغوا إعلان الاستقلال سيكون غير متسق تماما وبصورة فاضحة مع المبادئ التي أكدوها؛ وبدلا من تعاطف البشرية الذي نشدوه بثقة، سيستحقون ويتلقون التوبيخ والسخط العام. ومع ذلك، كان الرجال الذين صاغوا هذا الإعلان عظاما - في مكتسباتهم الأدبية، وإحساسهم بالشرف، وعدم تأكيد مبادئ لا تتسق مع المبادئ التي كانوا يعملون عليها.

فقد كانوا يتقنون فهم معاني اللغة التي استخدموها، وكيف سيفهمها الآخرون؛ وعرفوا أنه لن يفترض في أي جزء من العالم المتحضر أنها تشمل السلالة الزنجيـــة، التـــي استبعدت بالاتفاق العام من الحكومات المتحضرة وأسرة الأمم، وحكم عليها بالرق".

- Ruchames, op. cit., pp. 398-400.

وفي ضوء ميله إلى "التاريخ العام"، فلو كان موضوع مـــساواتهم الاجتماعيـــة قـــد عرض على تاني، لكان قد توصل إلى نتائج مماثلة بشأن أغلبية أعضاء "الـــسلالة البيضاء". فقبل تكوين التوافق السلالي، في كل من أوروبا والعالم الجديـــد، كانـــت الدونية "السلالية" لمعظم هؤلاء غير البيض مستقرة لدى الطبقات المتعلمة والمثقفة. وفي الواقع، كان بعض معاصري تاني يخشون من أن قراره كان يشير إلـــى "أنـــه كانت هناك قيود دستورية على مستوى الاتحاد أو الولايات على ســلطة الولايـــات الشمالية في الحفاظ على وضعها الحر، وحماية ســـكانها الـــسود والبـــيض داخـــل أو خارج أماكن إقامتهم".

- William Wiecek, "Slavery and Abolition Before the United States Supreme Court, 1820-1860", Journal of American History 65, no. 1 (June 1978): 55.

- وفي مقال مفيد جدا وإن كان مكتوبا بطريقة مثيرة أحيانا عن التـــاريخ القـــانوني للرق في الولايات المتحدة، يذكرنا كاير ناش A. E. Keir Nash بأن محاكم الدولة لم تميز بصورة منهجية حقوق البيض عن حقوق الرقيق السود والأحرار السود.

- Nash, "Reason of Slavery: Understanding the Judicial Role in the Peculiar Institution", Vanderbilt Law Review 32, no. 1 (January 1979): 7-218.

- وهكذا يبدو مناسبا أن نؤكد أن نظم العدالة في الدولة خلال النـــصف الأول مـــن القرن التاسع عشر لم تكن تقتصر فقط على "هيمنة البيض" كمـــا قـــال ميـــشيل هندوس أحد نقاد ناش.

- See Hindus, "Black Justice Under White Law: Criminal Prosecutions of Blacks in Antebellum South Carolina", Journal of American History 63, no. 3 (December 1976): 599.

- ومع ذلك، فبينما يعترف ناش بأن هناك شيئًا ما بشأن فكرة أن تـــاريخ القـــانون الجنائي في المجتمعات الغربية "يعكس" أصول ذلك القانون في عقوبات الرقيـــق (ربما للرقيق الأوروبيين) وتوسع هذه العقوبات "من الطبقات الدنيا فصاعدا عبر الطبقات الاجتماعية فإن الاقتراح الذي يرجع أصله إلى تورستن سيلين في:

- J. Thorsten Sellin, "Slavery and the Penal System", Elseiver, New York, 1976, p. viii,

لم يتوافق مع اقتراح هندوس بأن سمة أخرى لقوانين العقوبات في القرن التاسع عشر كانت تتمثل في الهيمنة الطبقية. انظر هندوس، مرجع سابق، ص ٥٧٥-٥٧٦.

وربما يظهر تجنب ناش لهذا التفسير المحتمل بصورة واضحة جدا في أحد اهتماماته في مقاله: بناء معارضة تجريبية ساذجة تاريخيا (يسمي ناش هذه الشخصية "اليميني المتلطف" وفي مرات أخرى "الجنوبي الصامت") لنقاده ومنافسيه الأكاديميين (مرجع سابق، ص ٣٠-٧٠).

ونظرا لأن الذات المتغيرة عند ناش مقتنعة كثيرا بمواجهة معارضي ناش بمجموعات إحصائية من "الأدلة" البديلة، فإن الأشكال الهيكلية والعمليات التاريخية التي انتقلت من العالم القديم وظهرت في العالم الجديد، والتي زودت أمريكا في القرن التاسع عشر باقتصادها السياسي وسياق نظمها القانونية، تعرضت للتجاهل كثيرا. وعل سبيل المثال، فإن يمينية ناش فشلت في تحديد الدقة الإحصائية لأعداد الإدانات والبراءات والاتهامات ومدد العقوبات، إلخ، كما فشلت في مراعاة "جرائم الكلام" التي كان الرقيق والأحرار السود مسئولين عنها (انظر هندوس، مرجع سابق، ص ٥٨٧-٥٨٩).

وكان الرقيق يجلدون بسبب السلوك غير اللائق "بعد" تبرئتهم من التهم الموجهة إليهم (المرجع السابق، ص ٥٩٣)؛ كما أن أعداد إعدامات الرقيق كانت تنخفض ربما بسبب احتمال طلبات التعويض من ملاكهم (المرجع السابق، ص ٥٩٦)؛ وكانت أدلة المحاكمات تتشوه كثيرا بسبب القيود المفروضة على شهادة الرقيق (المرجع السابق، ص ٥٧٨).

(47) Marx to P. V. Annenkov, Brussels, 28 December 1846, reprinted in Karl Marx, The Poverty of Philosophy, International Publishers, New York, 1971, p. 188.

- يمكن الاطلاع على معالجة للعبودية والرأسمالية الصناعية في الفصل الحادي والثلاثين من كتاب ماركس "رأس المال"، الذي يقول فيه:

"كان اكتشاف الذهب والفضة في أمريكا، واستئصال واسترقاق ودفن السكان الأصليين في المناجم، وبداية غزو ونهب جزر الهند الشرقية وتحويل أفريقيا إلى منطقة للصيد التجاري للسود، يشير إلى الفجر الوردي لعصر الإنتاج الرأسمالي. وكانت هذه الأعمال الملحمية تمثل اللحظات الأولى للتراكم البدائي".

- Marx, Capital, vol. 1, International Publishers, New York, 1977, p. 751.

- وهناك الكثير من الصواب، كما هناك الكثير من الخطأ هنا. فبعد أن وصف ماركس التراكم البدائي ووضعه بين مرحلتي الإقطاع والرأسمالية بمائة سنة، حاول المنظر الأسود أوليفر كوكس Oliver C. Cox، أن يصحح خطأ ماركس:

"بدأ [ماركس] تحليله لطبيعة الرأسمالية من حيث كان يجب أن ينتهي؛ وكما هو شائع في الاقتصاد التقليدي، اعتبر الأشياء التي كان يجب أن تكون محور دراسته مجرد أشياء فرعية... إذ إن "تراكمه البدائي" ليس أكثر من مجرد تراكم رأسمالي أساسا؛ وكذلك فإن افتراض أن المجتمع الإقطاعي تحلل قبل المجتمع الرأسمالي يعني إفراط التركيز على هشاشة الإقطاع وتقليل أهميته في تطور الرأسمالية".

- **Cox, Capitalism as a System, Monthly Review Press, New York, 1964, pp. 213-14.**

- ومع ذلك، لا يزال هناك بين الكثيرين من الماركسيين المعاصرين اتجاه نحو إساءة فهم وتفسير أهمية وتطبيق مفهوم التراكم البدائي. فمثلا، يبدو تشارلز بوست **Charles Post** – في مقال حديث عن الرأسمالية في القرن التاسع عشر – مقتنعا بصياغة مفهوم قوة عمل الرق في ضوء التراكم البدائي، بينما يتجاهل تماما تطبيقاته على "قوة عمل المهاجرين".

- **See Post, "The American Road to Capitalism", New Left Review 133 (May-June 1982): 31-35, 44-45.**

(٤٨) يبدو إيوجين جينوفيس **Eugene Genovese** وإليزابيث فوكس جينوفيس **Elizabeth Fox-Genovese** – باعتبارهما اثنين من أبرز المؤرخين الأمريكيين الذين يربطون أعمالهم بالفئات والعلاقات التحليلية المرتبطة بماركس – ملتبسين جدا بالنسبة للعلاقة بين إنتاج الرقيق والتصنيع. حيث تميز ملاحظاتهما باستمرار أجزاء من نظام اقتصادي عالمي أو دولي عن أجزاء أخرى طبقا لأنماط الإنتاج. وهكذا فقد ميزا مؤخرا بين "اقتصاديات الرق في العالم الجديد" و"اقتصاديات العمل الحر" في أمريكا الشمالية وأوروبا. وهكذا فإن الدافع المنطقي لقولهما يحول هذه التمييزات إلى تعارضات بين الرق ("قبل الرأسمالي" أو "علاقات الإنتاج القديمة") والتصنيع داخل اقتصاد معين" (مثل الجنوب الأمريكي). وترتب على ذلك في أعمالهما ظهور تصميم مبتسر للنظام العالمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يؤكده إدراك مقتضب بالتطور التاريخي للنظام وأشكال تكاملاته. ولنقارن مثلا بين الجملتين التاليتين اللتين تأتيان بعد بعضهما في مقال واحد: "ظهرت [الاقتصادات الاستعمارية الحديثة والمزارع] من نمط الإنتاج الرأسمالي العالمي، وعملت في سوق عالمية منذ البداية وبالتعريف الحقيقي. ولكنها اعتمدت آنيا على الرق أو نظم عمل تابعة أخرى حرمتها من أفضل المزايا الاجتماعية والفكرية والاقتصادية لسوق قوة العمل، بما يتناقض مع تلك السوق في العمل ذاته التي جعلتها رأسمالية عمل الرق ممكنة". بل إن: "التوسع الاستعماري للرأسمالية لم يقتصر على استيعاب النظم الاقتصادية قبل الرأسمالية فحسب، ولكنه صنعها أيضا. إذ إن استرقاق القرويين الروس خلال وبعد القرن السادس عشر، والاسترقاق الثاني في أوروبا الشرقية، والاستغلال الاقتصادي

للمجتمعات الهندية المرتفعة في المكسيك وبيرو، وظهور نظم الرق القائمة على المزارع في السهول المنخفضة الأمريكية، يمكن اعتباره بمثابة أشكال متباينة من التوسع الرأسمالي الاستعماري من هذا المنظور. فهي لا تمثل كثيرا قوة رأس المال التجاري في تكييف نظم العمل غير الحر مع الطلب المرتفع للأسواق الكبيرة في أوروبا الغربية، والتي قامت بذاتها بصورة محيرة على العمل الحر - ولكنها مثلت تقدما كبيرا على البدائل شبه الإقطاعية، لأنها سمحت بالمزيد من الرشادة الاقتصادية وسوق عمل أكثر مرونة".

- "The Slave Economies In Political Perspective", Journal of American History 66, no. 1 (June 1979): 22.

- اللغز ليس مصطلحا تحليليا، وخاصة بالنسبة للماركسيين، ومن الواضح أنه غير دقيق هنا. ومن الصعب أيضا أن نفهم كيف أن الرأسمالية يمكن أن "تصنع" أشكال العمل قبل الرأسمالية.

(49) See Eric William, Capitalism and Slavery, Capricorn, New York, 1966, pp. 98-107; and Walter Rodney, How Europe Underdeveloped Africa, Bogle-L'Ouverture, London, 1972, pp. 92-101.

(50) Cox, op. cit., pp. 165-66.

(51) William, op. cit., p. 52.

(52) Philip Curtin, "The Atlantic Slave Trade, 1600-1800', in J. E. A. Ajayi and Michael Crowder (eds.), History of West Africa, Columbia University Press, New York, 1972, 1:240.

(٥٣) من الطريف في هذا الصدد أن نتذكر انطباعات الكونت قسطنطين دى فولني Count Constantine De Voiney عقب رحلته إلى مصر في ١٧٨٣-١٧٨٥، والتي يقول فيها:

"ولكن بالعودة إلى مصر، فإن الدرس الذي تلقنه للتاريخ يحتوي على العديد من الانعكاسات للفلسفة. ويا له من موضوع للتدخل، أن ترى البربرية والجهل الحالي لدى الأقباط، وهم أحفاد التحالف بين العبقرية الفذة للمصريين والعقلية اللامعة للإغريق! فكر فقط في أن هذه السلالة السوداء، وهم عبيدنا وموضع احتقارنا اليوم، هي نفس السلالة التي ندين لها بآدابنا وعلومنا وحتى استخدام الكلام! وتخيل أخيرا أنه في وسط الشعوب التي تسمي نفسها أعظم أصدقاء الحرية والإنسانية، وافق الإنسان على أقسى أنواع الرق، وتساءل ما إذا كان لدى السود نفس نوعية ذكاء البيض!"

- Quoted by Cheikh Anta Diop, The African Origin of Civilization, Lawrence Hill, New York, 1974, pp. 27-28.

(54) Hermann Kees, Ancient Egypt, University of Chicago Press, Chicago, 1961, pp. 52-53, 100-101.

(55) Margaret S. Drowser, "Egypt: Archaeology and History', in Encyclopaedia Britannica, University of Chicago Press, Chicago, 1965, 8: 37.

(56) Diop, op. cit., p. 110.

(57) Frank Snowden, Blacks in Antiquity, Harvard University Press, Cambridge, 1970, pp. 103-4.

(58) Ibid; and Drowser, op. cit., p. 40; George Thompson, The First Philosophers, Lawrence and Wishart, London, 1977, (orig. 1955), pp. 191-93.

(59) See Snowden, op. cit., pp. 286-87; note 55.

(٦٠) "قصة الملك سيزوستريس في أوروبا وبعض جنوده الذين استقروا على نهر فاسيس Phasis River رويت في تقرير هيرودوت عن الكولشيان Colchians، وفسرت على أنها دليل على تقليد تاريخي يتمثل في وجود إثيوبيين بين قوات سيزوستريس المصرية". سنودين، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٦١) المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٦٢) انظر العمل الاستثنائي لجورج جيمس: "التراث المسروق":

- George James, Stolen Legacy, Philosophical Library, New York, 1954 (republished by Julian Richardson, San Francesco, 1970), chapters i-iii.

– ونظرا لأن عمل جيمس يصعب الحصول عليه أحيانا، فإننا ننصح القارئ بأن المصادر (غير الأعمال الأولية) التي يعتمد عليها عادة هي:

- Henri Frankfort, The Ancient Egyptian Religion, Harper, New York, 1961;

- Eva Sandford, The Mediterranean World in Ancient Times (publisher unlisted).

– واعتمد يوسف بن يوشنان Yosef ben-Jochannan بدوره على جيمس لمعالجة هذه الحقبة في عمله الخاص، مثل:

- Africa: Mother of Civilization, Aikebu-Lan, New York, 1971, pp. 375-440.

– وانظر أيضا: ديوب، مرجع سابق، ص ٤٥. ويمكن أيضا الاطلاع على:

- Edward Zeller, Outlines of the History of Greek Philosophy, Routledge and Kegan Paul, London, 1948, pp. 8, 23, 26-93;

- Theodor Gomperz, Greek Thinkers, John Murray, London, 1906, 1;5-16, 43;

- Margaret Murray, The Splendour That Was Egypt, Sidgwick and Jackson, London, 1964, (orig. 1949);

Henry Oleia, 1979, and Lanciany Keita, 1979.

(٦٣) "يحدد التراث اليوناني إقامة المستعمرات المصرية في اليونان بحوالي [منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد]: حيث استقر كيكروبس Cecrops في أتيكا Attica؛ واستقر داناوس Danaus، أخو إيجبتوس Aegyptus في أرجوليس؛ حيث علم الإغريق الزراعة بالإضافة إلى التعدين (الحديد)". ديوب، مرجع سابق، ص ١١٠.
وانظر أيضا تيماوس Timaeus لأفلاطون بالنسبة إلى اقتراح أن العلاقات الإغريقية الأفريقية كانت مجرد ذكريات غامضة بحلول القرن الرابع قبل الميلاد.
ويذكر جورج جيمس:
"كانت إحدى السياسات العسكرية التي تبنتها السلطات العسكرية الإغريقية في الإسكندرية تتمثل في إصدار الأوامر إلى الكهنة المصريين البارزين من أجل المعلومات المتعلقة بالتاريخ والفلسفة والديانة المصرية... وبالتالي، يقال لنا إن بطليموس الأول (سوتر) Ptolemy I Soter - لكي يحصل على أسرار الحكمة المصرية أو نظام الأسرار - أمر مانيثون Manetho الكاهن الأعظم لمعبد إيزيس في سمنود (سيبينيتوس Sebennytus) في الصعيد، أن يكتب فلسفة وتاريخ الديانة المصرية. وبالتالي، نشر مانيثون عدة مجلدات تتعلق بهذه المجالات، وأصدر بطليموس أمرا يحظر ترجمة هذه الكتب التي كان يجب أن تحفظ في خزانة في المكتبة، ليقوم الكهنة المصريون بتعليمها للإغريق". راجع في ذلك جيمس، مرجع سابق، ص٤٩-٥٠.
ويخبرنا دروسر: "ربما كان لدى الكاهن مانيثون مصادر أفضل [من هيرودوت] عندما كتب عمله "تاريخ مصر Aegyptiaca" حوالي ٢٤٠ ق م: وتوضح الاقتباسات الباقية من هذا العمل - والتي أساء نسخها الكتاب التقليديون المتأخرون التي اقتبسوها لأغراضهم الجدلية الخاصة - مدى قيمة هذا العمل المفقود. وكما هو الحال، فإن قائمة مانيثون التي تضم ثلاثين أسرة من ملوك مصر الفرعونية - بالرغم من الأشكال المشوهة للأسماء وسوء نسخ الأشكال - تخطت بنجاح اختبار علم الآثار ولا تزال تعتبر لدى علماء المصريات أساس التاريخ المركب لمصر". دروسر، مرجع سابق، ص ٣١. ولنتذكر أن مانيثون كان يكتب بعد هيرودوت بمائتي سنة!
(٦٤) هاجم تيلور A. E. Taylor الطبيعة التاريخية لكتاب تيماوس، ولكن تفسيره لهذا الجزء من الحوار حوله إلى هراء غير هادف؛ انظر:
- **A. E. Yaylor, Plato, The Man and His Work, World Publishing, Cleveland, 1966, pp. 348-40.; and Margaret Murray, op. cit., p. 53.**
(65) Drowser, op. cit., p. 31.
(66) Diop, op. cit., p. 150.

(67) Snowden, op. cit., p. 109, 289-90; and Diop, op. cit., pp. 85-98;

- Boyce Rensberger, "Nubian Monarchy Called Oldest", New York, Times, 1 March 1979, pp. A1 and A16,

- حيث تبدأ بما يلي: "إن أدلة أقدم أسرة تم التعرف عليها في تاريخ البشرية، والتي تسبق ظهور أقدم الملوك المصريين بأجيال عديدة، تم اكتشافها في تحف من النوبة القديمة في أفريقيا... حيث تشير النتائج الحديثة إلى أن النوبيين القدماء ربما كانوا قد وصلوا إلى هذه المرحلة من التطور السياسي في وقت مبكر يصل إلى سنة ٣٣٠٠ ق م، أي بعدة أجيال قبل أقدم أسرة مصرية موثقة". وبالنسبة للرؤية السائدة - والتي تفترض أن العلاقة كانت عكس ذلك - انظر:

- Charles C. Seligman, Egypt and Negro Africa, Routledge, and Sons, London, 1933.

(68) See Kees, op. cit., pp. 334-35.

(69) See Snowden, op. cit., pp. 112, 126; and Keith Irvine, The Rise of the Colored Races, W. W. Norton, New York, 1970, pp. 16-17.

(٧٠) "يتمثل أكثر التفسيرات إقناعا للتماثيل الحجرية الزنجية التي وجدت في قبرص في أن المنحوتات كانت صورا لإثيوبيين في الخدمة المدنية والعسكرية للمصريين خلال الاحتلال المصري للجزيرة في ظل أماسيس Amasis (٥٦٨-٥٢٥ ق م). حيث اكتشفت هذه المنحوتات في أيلا إيريني Ayla Irini، وكما يقول جيرشتاد E. Gjerstad على أساس النمط إنها لا يمكن أن تكون أحدث من ٥٦٠ ق م.

(٧١) المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٢.

(٧٢) المرجع السابق، ص ١٣٦-١٤١.

(٧٣) المرجع السابق، ص ١٤١-١٤٢.

(٧٤) المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٧٥) إيرفين، مرجع سابق، ص ٢٢-٢٣. "في أوروبا الغربية، حيث كان معظم الناس يعيشون في قرى وأكواخ، وكانوا مشغولين بمشاكل الحياة... وفي عالم عاش فيه عمالقة مثل يأجوج ومأجوج، وأولئك ممن لا رؤوس لهم، وأعينهم في بطونهم، وسكان الكهوف في ليبيا - سكان الكهوف أصحاب القدم الواحدة الذين كانوا يحمون أنفسهم من حرارة الشمس بالاستلقاء على ظهورهم ويستخدمون أقدامهم الضخمة كمظلة - فإن حقيقة أن بعض أشكال البشرة الملونة سجلت بين الغرباء لا بد أنها ظهرت كتفصيل بسيط". المرجع السابق.

(76) See Walter Ullmann, The Growth of Papal Government In the Middle Ages, Methuen, London, 1965, p. 88.

(77) Sheidon Wolin, The Politics of Vision, Little, Brown, Boston, 1960, p. 105.

(٧٨) نتيجة التأمل في أهمية القرن السادس عشر لأوروبا الغربية، كتب هربرت بترفيلد Herbert Butterfield: "حتى فترة ليست طويلة قبل عصر النهضة، ظلت القيادة الفكرية للحضارات التي وجدت في هذا الربع من العالم في أراضي في النصف الشرقي من البحر المتوسط أو في إمبراطوريات امتدت أبعد من ذلك إلى ما نسميه الشرق الأوسط. وبينما كان أجدادنا الأنجلوساكسون شبه برابرة، كانت القسطنطينية وبغداد مدينتين ثريتين بصورة خرافية تحتقر تخلف الغرب المسيحي".

واستطرد ليقول:

"طوال ألفي سنة، كان المظهر العام للعالم وأنشطة الإنسان يختلف قليلا بصورة مدهشة [بالنسبة للأوروبيين الغربيين] - فقد كان خط الأفق كما هو دائما - وذلك لدرجة أن الناس لم يكونوا يدركون أي تقدم أو أية عملية في التاريخ، ما عدا ظهور مدينة أو دولة بسبب جهودها أو حسن حظها، بينما تسقط أخرى... أما الآن [في القرن السابع عشر] فقد أصبح التغير سريعا بحيث أصبح ملحوظا بالعين المجردة، وأصبح سطح الأرض وأنشطة الإنسان يتغيران في قرن أكثر مما حدث سلفا في ألف سنة".

- The Origins of Modern Science, Free Press, New York, 1957, pp. 187-88, 199.

- وبالنسبة للقرن السابع عشر، وخاصة في إنجلترا، انظر ماري بوس هول:

- Mary Boas Hall, "Scientific Thought", in Allardyce Nicoll (ed.), Shakespeare in His Own Age, Shakespeare Survey 17, Cambridge University Press, Cambridge, 1964, pp. 138-51.

- وحتى الدبلوماسية الدولية كانت ملحوظة بمفاهيم العصور الوسطى، انظر:

- Franklin L. Baumer, "England, The Turk, and the Common Corps of Christendom', American Historical Review 50, no. 1 (October 1944): 26-48.

- وبينما كان ويليام كارول بارك يرفض قبول المسحة الكئيبة "لعصر الظلام"، إلا إنه كان يصرح بأنه حدث "انحراف كبير من فلسفة العلم إلى فلسفة اللاهوت" خلال العهد البابوي والفترة الإقطاعية التي تلته. انظر:

- William Carroll Bark, Origin of the Medieval World, Stanford University Press, Stanford, 1958, p. 72;

- Reginald Poole, Illustrations of the History of Medieval Thought Learning, Dover, New York, 1960, pp. 198-245;

- Frances A. Yates, The Occult Philosophy in the Elizabethan Age. Routledge and Kegan Paul, London, 1979.

(79) Norman Cantor (ed.), The Medieval World, 300-1300, Macmillan Company, New York, 1963, p. 111;

- Hugh Trevor-Roper, "The Rise of Christian Europe: The Dark Ages", The Listener, 12 December 1963, pp. 975-79.

– ويؤكد تريفور روبر بشدة نوعا ما أن: "الرجعيين القدامى كانوا يعتقدون أن الأدب الوثني بالتعريف كان موضع شك: وعلى الأقل لا يمكن جعله آمنا بالحذف الحذر: ومع ذلك، ألم يكن الإسرائيلي ممنوعا من زواج أسيرة وثنية، على الرغم من أنه أمر مرغوب، ما لم يحلق رأسها ويقص أظافرها أولا؟

- (Deut. Xxl, 12). "The Rise of Christian Europe: The Medieval Renaissance", The Listener, 26 December 1963, p. 1062.

(80) Ralph Lerner and Muhsin Mahdi (ed.), Medieval Political Philosophy, Free Press of Glencoe, New York, 1963, p. 13.

– بالنسبة للاهتمام بالهرطقة في أوروبا في العصور الوسطى، انظر:

- Norman Cohn, The Pursuit of the Millennium, Oxford University Press, New York, 1970;

- Trevor-Roper, "The Medieval Renaissance", op. cit., pp. 1064-65.

(81) Maxime Rodinson, Mohammed, Vintage, New York, 1974, p. 297.

(82) Eugene A, Myers, Arabic Thought and the Western World in the Golden Age of Islam, Frederick Ungar Publishing, New York, 1964, pp. 76-77.

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٣٢-١٣٣. "أدى اكتشاف أن العرب مثل البيزنطيين أيضا يمتلكون مفتاح هذا العلم الجديد إلى جعل أوروبا في حالة ضجيج، وأرسل "السادة" الجدد في طلبه إلى كل نقاط الاتصال".

- Hugh Trevor-Roper, "The Medieval Renaissance', op. cit., p. 1062.

(84) Myers, Ibid., p. 96; Trevor-Roper, ibid., pp. 1063-64.

(85) Ralph Austin, "The Islamic Slave Trade Out of Africa (Red Sea and Indian Ocean)", In Henry Gemery and Jan Hogendorn (eds.), The Uncommon Market: Quantitative Studies in Atlantic Slave Trade, Academic Press, New York, 1979.

(86) Daniel Pipes, "Black Soldiers in Early Muslim Armies', The International Journal of African Historical Studies 13, no. 1 (1980): 87-94.

(87) Michael Tigar and Madaleine Levy, Law and the Rise of Capitalism, Monthly Review Press, New York, 1977, pp. 55, 61;

- E. R. Chamberlin, Everyday Life in Renaissance, Capricorn Books, New York, 1967, pp. 64-65;
- Hugh Trevor-Roper, The Rise of Christian Europe: the Crusades', The Listener, 19 December 1963, p. 1022.

(88) See Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in Age of Philip II, Harper and Row, New York, 1973, 2:743-44.

(89) Frank Bloch, French Rural History, University of California Press, Berkeley, 1966, pp. 7-8; Braudel, The Mediterranean, op. cit., pp. 142-43; Wallerstein, op. cit., pp. 44-45.

- يستنتج ويليام مكنايل William McNeill – بناء على عمل إيمانويل لو روي لادوري Emmanuel Le Roy Ladurie، ولامب H. H. Lamb، ما يلي:

"في أوروبا، تصاعد "العصر الجليدي الصغير" الذي بدأ حوالي ١٣٠٠ فيما بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠، وأعقبه درجات حرارة أدفأ في القرن العشرين".

- McNeill, Plagues and People, Anchor Books, Garden City, 1977, p. 297 n 23.

- ويوضح فالرشتاين – بالإشارة إلى عمل جوستاف أترستورم – نقطة مماثلة حيث يقول:

"يذكرنا أترستورم بأن التغير المناخي ربما كانله تأثير خاص على التحول في أوروبا. فلابد من أن الزراعة البدائية في العصور الوسطى كانت أكثر اعتمادا على المناخ المناسب مقارنة بالزراعة الحديثة ذات المعايير التقنية العالية". فالرشتاين، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٩٠) طرح هوج تريفور روبر هذا الأمر بصورة دراماتية، حين ذهب يقول:

"تتمثل رؤيتي في أن الحروب الصليبية لم تكن مجرد حركة دينية... بل إنها لم تكن في حد ذاتها سبب انطلاق أوروبا. فقد كانت جزءًا من عملية أكبر وأوسع: وهي العملية التي كان يمكن رؤيتها في جميع أنحاء أوروبا وعلى كل حدود المسيحية الغربية: وراء البرانس ووراء الألب، وعلى الحدود الاسكتلندية، وفي أيرلندا. وهذه العملية تتعلق بشمال أوروبا أساسا. فهي تقوم على نمو سكاني جديد، وعلى تقنيات جديدة، زراعية واجتماعية وعسكرية... وكما يقول جيبون Gibbon، ربما كانت الحروب الصليبية تحولا لهذا التوسع الكبير إلى جانب الإمبريالية غير المربحة؛ وربما كانت الإمبريالية لا تنفصل عن التوسع".

- The Rise of Christian Europe, Harcourt, Brace and World, New York, 1965, pp. 127-28.

(٩١) "كان التجار يدفعون غرامات باستمرار على انتهاك أي قـــانون يتعلــق بأعمـــالهم، واستمر الأمر كما كان سابقا. وكانت ثروة البندقية وجنوة تتكون من التجـــارة مـــع الكفار في مصر وسوريا، بالغم من الحظر البابوي. وكان يقال إنه قبل القرن الرابع عشر كان الناس "يصعب عليهم تصور الخزائن الحديدية للتجـــار بـــدون صـــورة الشيطان متربعا على الغطاء". ويصعب تقدير ما إذا كان التاجر يرى الشيطان وهو يعد النقود، أو كان يعيش بإحساس بالذنب".

- **Barbara Tuchman, A Distant Mirror, Ballentine Boks, New York, 1977, p. 38.**
- **Iris Origo, The Merchant of Prato, Alfred Knopf, New York, 1957, pp. 80-, 123;**
- **Tigar and Levy, op. cit., pp. 74-75.**

(٩٢) "في القرون الأولى كان شرق ووسط أوروبا مصدرا ثريا وكانت التجارة فيمـــا كـــان يسمى "السلاف" (الصقالبة) في أيدي المسيحيين واليهود حتى يباعوا إلى أيدي التجار المسلمين على شواطئ البحر المتوسط أو بحر قزوين. ومنذ القرن الحـــادي عـــشر، عندما بدأت كيانات سياسية أقوى تظهر في أوروبا، بدا هذا المصدر في النـــضوب، ولكن الرقيق من أصل أوروبي كان يتم الحصول عليهم بالإغارة والقرصـــنة داخـــل البحر المتوسط وعلى ساحل الأطلنطي. ولم يكن لدى القوى المـــسيحية الأوروبيـــة في المنطقة أي تردد في الدفع للمسلمين بعملتهم. وكان هناك مصدر آخر كبير للرقيق في وسط آسيا، موطن قبائل بدوية متعددة تتحدث لغات تركية".

- **J. O. Hunwick, "BlackAfricans in the Islamic World: An Understudied Dimension of the Black Diaspora", Tarikh 5, no. 4 (1978): 23.**

- وبالنسبة للتجارة الأوروبية البينية في الرقيق، انظر: إيريس أوريجو: "لقد كـــان قصور العمل بعد الطاعون الأسود في ١٣٤٨هو الذي أدى إلى انتعاش الطلـــب على رقيق المنازل فجأة، وأحضرهم إلى إيطاليا من إسبانيا وأفريقيا، بل ومـــن البلقان والقسطنطينية وقبرص وكريت، وحتى من شواطئ البحـــر الأســـود... وكان الكثير منهم من الأطفال في عمر التاسعة والعاشرة، وكانوا ينتمون إلـــى عدد كبير من السلالات: التتار أصحاب العيون المائلـــة والبـــشرة الـــصفراء، الشراكسة أصحاب الملامح الجميلة والوسيمة، الإغريق، الروس، الجـــورجيين، وجماعات قبلية من القوقاز مثل الليسغ **Lesghians**، والآلن **Alans**. حيث كان آباؤهم يبيعونهم مقابل الخبز، أو يخطفهم التتار المغيرون أو البحارة الإيطاليون، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في تانا، كافا، القسطنطينية، قبرص، وكريت، إلى أرصفة موانئ البندقية وجنوة، حيث كان التجـــار يـــشترونهم ويقـــدمونهم للعملاء في الداخل".

- **Origo, The Merchant of Prato, op. cit., p. 90.**

- وبالنسبة للبابا يوحنا الثاني والعشرين، انظر المرجع السابق، ص ٨.

(٩٣) فالرشتاين، مرجع سابق، ص ٢١-٢٤. ويفضل توشمان ترويض الأسس الـــسكانية والمناخية والتقنية والاجتماعية والسياسية مع الأزمة. مرجع سابق، ص ٢٤-٤٨.

(94) Trevor-Roper, Rise of Christian Europe, op. cit., p. 177.

(95) Jean Richard, "The Mongols and the Franks", Journal of Asian History 3, no. 1 (1969): 45.

– ويخبرنا بيتر فورباث بقدر أكبر قليلا من القصة: "في ١٢٢١، ومع تحطـــم الحملـــة الصليبية الخامسة في الهزيمة في القاهرة، كتب جاك فتري، أسقف إيكر آخر الولايات الصليبية الباقية، إلى البابا هونوريوس الثالث أنه "قد ظهر حامي جديد وقوي للمسيحية. وهو الملك داوود ملك الهند، الذي تولى ميدان المعركة ضد غير المؤمنين علـــى رأس جيش حجمه لم يسبق له مثيل". وكان يعتقد أن هذا الملك داود - الذي كان يسمى عادة بريستر جون طبقا للأسقف جاك - هو ابن أو حفيد بريستر جون الذي كـــان منتظـــرا وقت الحملة الثانية... ولكن اتضح أن هذا الملك هو جنكيز خان".

- Forbath, The River Congo, D. P. Dutton, New York, 1979, p. 28.

(96) Jean Richard, ibid., p. 48.

(97) See R. S. Lopez, H. A. Miskimin, and Abraham Udovitch, "England to Egypt, 1350-1500: Long-term Trends and Long-distance Trade', in M. A. Cook (ed.), Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day, Oxford University Press, London, 1970, as cited by Wallerstein, op. cit., p. 40 n. 85.

(98) William McNeill, op. cit., pp. 133-34.

(99) Ibid., chap. 4: Tuchman, op. cit., pp. 92-102.

(100) Trevor-Roper, Rise of Christian Europe, op. cit., pp. 119-20.

(101) Americo Castro, The Structure of Spanish History, Princeton University Press, Princeton, 1954, p. 670.

– ولمزيد من التفاصيل عن الدور الإنجليزي - بناء على التقارير المعاصرة التـــي كتبها إنجليزي وألمانيان -) (المرجع السابق). انظر:

- Violet Shillington, "The Beginnings of the Anglo-Portuguese Alliance", Transitions of the Royal Historical Society 20 (1906): 109-32;
- Edgar Prestage, "The Anglo-Portuguese Alliance", ibid., 4th ser., vol. 17 (1934): 69-100.

(102) Wallerstein, op. cit., pp. 49ff.

(103) See Charles Verlinden, "The Italian Colony of Lisbon and the Development of Portuguese Metropolitan and Colonial Economy", in Verlinden collection of essays, The Beginnings of Modern Colonization, Cornell University Press, Ithaca, 1970, pp 98-112.

- يمكن الاطلاع على لمحة خاطفة لأهميـة التجـار الإيطـاليين فـي التجـارة الأوروبية والمتوسطية، وهياكل بيوتهم التجارية ومصارفهم، في دراسة أوريجو التفصيلية لداتيني:

- (The Merchant of Plato, op. cit.), pp. 70-73.

(104) See Verlinden, "Some Aspects of Slavery in Medieval Italian Colonies", ibid., pp. 79-97.

(105) Castro, op. cit., p. 668.

(106) See C. R. Boxer, Four Centuries of Portuguese Expansion, 1415-1825, Witwatersrand University press, Johannesburg, 1965, p. 6 (as cited by Wallerstein, op. cit., p. 50 n. 133).

(107) See Harold Livermore, "Portugal", in Encyclopaedia Britannica, 1965, 18:276;

- C. Raymond Beazley, "Prince Henry of Portugal and His Political, Commercial and Colonizing Work", American Historical Review 17, no. 2 (January 1923): 253-54;
- A. J. R. Russell-Wood, Fidalogs and Philanthropists, University of California Press, Berkeley, 1968, pp. 6-7.

(١٠٨) كاسترو، مرجع سابق، ص ٦٦٨-٦٦٩. وقد استغرق كاسـترو وقتـا ليعتـرف باختلافاته مع الدارسين البرتغاليين: "من الواضح... أن الدافع العسكري ومساندة تجزئة شبه الجزيرة لم يظهرا تلقائيا ...إذ إن الدافع المبدئي لذلك التمرد لا يكمن في الطبيعة غير البرتغالية لتلك البلد... وهذا هـو الـسبب فـي أن طـريقتين متناقضتين بوضوح لفهم أصل البرتغال - طريقتي وطريقة المؤرخين البرتغاليين الذين يعارضونها - يمكن أن تكونا صحيحتين معا". المرجع السابق، ص ٦٦٩.

(109) See Livermore, op. cit., pp. 275-76.

(110) Francis M. Rogers, "The Attraction of the East and Early Portuguese Discoveries", Luso-Brazilian Review 1, no. 1 (June 1964): 46.

- ويستطرد روجرز ليذكرنا بالمثالية الثرية الواردة في الخطاب الذي يفترض أنــه كتبه بريستر جونز في ١١٦٥ وقبوله العام العظيم طوال الثلاثة قــرون التاليــة تقريبا. ومهما كانت أصول الخطاب (يدعي بعض الدارسين أنه كتب عن طريق أو على مسئولية فريدريك بارباروسا؛ بينما يدعي آخــرون أن مؤلفــه راهــب مسيحي شرقي مجهول) فإنه وصف عالم بريستر جون بأسلوب يــضع أوروبــا المعاصرة موضع الخجل، من الناحيتين المادية والاجتماعية. فقد كان الخطــاب انتقادا لأوروبا وتأخرها وفوضاها وفسادها وتحللها الأخلاقي. انظر أيضا:

- Vsevolod Slessarev, Prester John: The Letter and the Legend, University of Minnesota Press, Minneapolis, 1959;
- Robert Silverberg, The Realm of Prester John, Doubleday, Garden City, 1972, pp. 40-73.

(111) Robert Silverberg, op. cit., p. 194.

(١١٢) يمكن استخلاص أن الأمير كان رجلا ذا شخصية غير عادية من الأسطر التاليــة المقتبسة من معاصره ومؤرخ الــبلاط، جــومز إيــانيس دي آزورارا Gomes Eannes de Azurara التي يقول فيها:

"لم تعرف الرفاهية ولا الجشع طريقها إلى قلبه، لأنه بالنسبة للرفاهية كان زاهــدا جدا لدرجة أن حياته كلها مرت في أنقى عفة، حيث استعادته الأرض إليها ثانيــة عند موته بكرا... ويصعب حصر عدد الليالي التي قضاها ولم تعرف عيناه النوم فيها؛ وكان جسده متغيرا جدا بسبب التقشف لدرجة أنه يبدو كما لــو كــان دون هنري Henry Don قد شكل طبيعته لتكون مختلفة عن الآخرين... وقــد تنــاول الخمر لفترة قصيرة جدا في حياته، وكان ذلك في شبابه، ولكنه امتنع عنها تمامــا بعد ذلك... وكان يقضي نصف العام تقريبا في الصيام، وكانــت أيــدي الفقــراء لا ترتد خاوية أبدا في حضرته".

- G. E. de Azurara, The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea, C. R. Beazley and E. Prestage (eds.), Burt Franklin and E. Prestage (eds.), Burt Franklin Publisher, New York, 1896, vol. 1, chap. 4, pp. 12-15.

(113) Francis Rogers, op. cit., p. 50.

(114) Gomes Eannes de Azurara, op. cit., chap. 7, pp. 27-30.

(115) Robert Silverberg, op. cit., p. 197.

(١١٦) المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠٥.
في سنة ١٤٨٧، أرسل الملك خواو الثاني King Joao II (١٤٩٥-١٥٢١) كوفيلها Covilha (كوفيلهاو Covilhao) في بعثة "لاكتشاف ومعرفة بريستر جون". حيث سافر كوفيلها ورفيقه ألفونسو دى بايفا Alfonso de Paiva عن طريق برشلونة، نابولي، رودس، الإسكندرية، والقاهرة. ورحلوا من هناك إلى الطور وسواكن وعدن مع قوافل المسلمين. وانفصلا في عدن، حيث انطلق كوفيلها شرقا إلى كلكتا، وانطلق جوا Goa وأورموز بايفا Paiva Ormuz إلى إثيوبيا. وعندما عاد كوفيلها إلى القاهرة، علم بموت بايفا (إما في القاهرة أو في إثيوبيا، حيث تختلف التقارير). وتنكر كوفيلها في هيئة مسلم وانطلق أولا إلى جدة والمدينة ومكة، ووصل أخيرا إلى الحبشة في وقت ما في ١٤٩٠ تقريبا. وبعد ذلك بثلاثين سنة، في ١٥٢٠، روى قصته لرودريجو دى ليما Rodrigo de Lima وفرانسيسكو الفاريس Francisco Alfarez. وظل في الحبشة عند رحيلهما، وظل ضيفا مكرما لدى مضيفه، "بريستر جون".

- See also Francisco Alfares, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Years 1520-1527, Lord Stanley of Alderley (ed.), Burt Franklin Publisher, New York, 1970, And Boxer, op. cit., p. 12.

(١١٧) هونفيك J. O. Hunwick، مرجع سابق، ص ٢٢. وأطلق ويليام مككي إيفانز William McKee Evans الادعاء الفريد بأنه "في ضوء المواقف السلالية والاجتماعية المنفتحة للرسول وأصحابه الكرام، فإنه من المثير للسخرية أن أراضي الإسلام أصبحت مهد الترتيب الطبقي السلالي الحديث، والعديد من الأفكار التي لا تزال تستخدم لتبرير امتيازات خاصة يحددها لون البشرة وغيرها من الصفات السلالية. فقد كان المسلمون يتطلعون إلى أخوة عامة للمؤمنين. ولكن كان من أبرز إنجازاتهم الفعلية صياغة علاقات جديدة بين السواد والمهانة. ففي ظل المسلمين أصبح الرق مؤسسة سلالية أساسا".

- ("From the Land of Kanaan to the Land of Guinea: The Strange Odyssey of the 'Sons of Ham'", American Historical Review 85, no. 1 [February 1980]: 28).

- ويعتمد منطق ادعاء إيفانز على عدة افتراضات:

١- "أن ظهور الإسلام ألغى من تجارة رقيق البحر المتوسط مصدرا مهما للرقيق فاتح البشرة... [لأن]... الشريعة الإسلامية... تقضي بأنه لا يمكن أن يباع مسلم مولود حرا كرقيق" (المرجع السابق)؛

٢- "خلال العصور الوسطى المتأخرة، تطور عدد من الدول الأوروبية، مع منظمات عسكرية متطورة تستطيع رد تحدي الإسلام ضربة بضربة... وانخفض عدد الرقيق الأوروبي المتاح للشراء خلال العصور الوسطى المتأخرة بسبب الأوضاع السياسية الأكثر تنظيما في فرنسا وإنجلترا والإمبراطورية الألمانية ودول أخرى... وانخفض العرض من أوروبا إلى الحد الأدنى، وكان هؤلاء يأتون أساسا من أراضي السلاف". (المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩)؛

٣- عاش معظم الأفارقة السود في مجتمعات مشتتة عرقيا، تتبادل العداء غالبا، ولا تستطيع مقاومة غارات السودانيين أو الدول الإسلامية الأخرى". (المرجع السابق، ص ٢٩). وأخيرا، يقول إيفانز إن الأساطير السلالية تظهر لتبرير وتدعيم علاقات القوة السائدة. ولكن كيفية دخول أساطير الترتيب الطبقي السلالي إلى عالم أوروبا المسيحية ليست واضحة في تقرير إيفانز. حيث جاء المثال الوحيد الذي أشار إليه إيفانز من سرد آزورارا لقصة "بريري نبيل" ساوم بنجاح على تحرير نفسه من قبضة آسريه المسيحيين مقابل عشرة "بربر سود". ومع ذلك، كان مبرر المبادلة لا يرجع إلى البربر - مهما كان الأمر - ولكنه كان يرجع إلى آزورارا الذي أشار إلى الأسطورة اليهودية المسيحية عن أبناء نوح (حيث أخطأ آزورارا في اعتبار أن حام، "أبا كنعان" هو قابيل). ومع ذلك، كان إيفانز متأكدا من أنه: "عندما أعادت الأحداث التاريخية توجيه تجارة الرقيق، وعندما دخل الرقيق الأوروبي ما سماه المرجع الرئيس [تشارلز فيرلندن] في رق العصور الوسطى بفترتها "الزنجية"، بدأ المسيحيون ينظرون إلى السود بطرق كانت تميز الدول الإسلامية المرتبة طبقيا وسلاليا لحوالي سبعة قرون" (المرجع السابق، ص ٣٨-٣٩).

ويعترف إيفانز بأن "مرجعه الرئيس عن العلاقات والأوضاع السلالية الإسلامية يتمثل في أطروحة جيرنوت روتر غير المنشورة:

- **Gernot Rotter, "Die Stellung des Negers in der Islamisch-arabischen Geselschaft bis XVI Jahrhundert", 1967.**

- وتتمثل المصادر الأخرى الهامة في:

- **Bernard Louis, Race and Color in Islam, Harper and Row, New York, 1970;**
- **Adam Mez, The Renaissance of Islam, Luzac and Co., London, 1937.**

- وظهر عمل روتر غير المنشور لأول مرة بنفس القدر من الأهمية في عمل برنارد لويس. انظر:

- **Race and Color, p. 1 n. 1.**

- ولمعالجة التيارات الفكرية التي كان يسبح فيها لويس، انظر:
- Edward Said, Orientalism, Pantheon, New York, 1978, pp. 315-21;
- Maxine Rodinson, "The Western Image and Western Studies of Islam", in Joseph Schacht and C. E. Bosworth (eds.), The Legacy of Islam, Oxford University Press, London, 1974, pp. 9-62.
- ومع ذلك، كان استخدام إيفانز لمصادره يبدو غريبا أحيانا، فمثلا، يستخدم عمل إيريس أوريجو لتأكيد ادعائه بأن أوروبا المسيحية وحكامها كانوا يمنعون الرقيق المسيحيين من الدخول في تجارة المسلمين. وفي نفس الصفحة التي أشار إليها إيفانز تحديدا، يقول أوريجو شيئا مختلفا تماما: "ومع ذلك، يتضح تماما أن العديد من تجار جنوة والبندقية في البحر الأسود كانوا لا يكترثون كثيرا بما إذا كانت البضائع البشرية التي يحملونها مطهرة بالمعمودية أو لا. وتوضح أعمال البيع في كافا وبيرا في ١٢٨٩ أن العديد من الرقيق الذين بيعوا هناك كانوا ينتمون إلى شعوب تعتنق إما العقيدة الكاثوليكية أو الأرثوذوكسية، لأنهم كانوا يشملون الشركس والإغريق والروس والجورجيين واللسغ والآلن... ولم يمنع هذا من بيعهم"، ("العدو المحلي"، مرجع سابق، ص ٣٢٨).

ويؤكد إيفانز:

"كان العبيد من السود غالبا في مصر خلال الفترة ٩٥٠-١٢٥٠ تقريبا" (إيفانز، مرجع سابق، ص ٢٦، م ٢٨).

وفي موضع آخر يقول:

"أدى الترتيب الطبقي السلالي الإسلامي إلى أن تصل قيمة الرقيق الأبيض غير المدرب إلى ١٠٠٠ دينار، بينما الرقيق الأسود "لا يزيد عن ٢٥-٣٠ دينارا" (المرجع السابق، ص ٢٩، م ٤١)، وأن أحد مظاهر احتقار المسلمين للسود كان يتمثل في الاعتقاد بأن "السود كانوا 'متقلبين وكسالى. وكان الرقص وتبديد الوقت متأصلا في طبيعتهم. ويقولون: لو سقط الزنجي من السماء على الأرض لبدد الوقت وهو يسقط" (المرجع السابق، ص ٣٢). ويعتبر ما كتبه ميز فعلا مثيرا في المقارنة. حيث كتب ميز عن الرقيق في مصر: "في القرن الرابع/العاشر، كانت مصر وجنوب أفريقيا وأمريكا الشمالية بمثابة "الأسواق الرئيسة" للرقيق السود" (ميز، مرجع سابق، ص ١٥٧).

ويعلق ميز على أسعار الرقيق قائلا: "مثل العامل الزنجي اليوم، كان رقيق المنازل الأسود يعمل حارسا في الأساس. ففي المجتمع الذي يقدر الشعر الجيد والموسيقى الجميلة فوق كل شيء آخر، لا بد أن يكون الطلب كبيرا على الأولاد

والبنات الموهوبين والمدربين فنيا... وبالنسبة للبنات المدربات جيدا، كان السعر يتراوح من ١٠ مارك إلى ٢٠ ألف مارك... وكما هو الحال معنا، فإن المغنين المشهورين والفنانات لهم أسعار خيالية. فقد بيعت مغنية واحدة في دائرة ارستقراطية مقابل ١٠٠٠٠ دينار (١٠ آلاف مارك)، حيث حصل الوسيط على ١٠٠٠ دينار" (المرجع السابق، ص ١٥٧-١٥٨). وقدم ميز أيضا تفسيرا مختلفا قليلا لرقص السود. حيث أضاف ميز أسلوبه الخاص إلى ملاحظات الطبيب النسطوري المسيحي ابن بُطلان Ibn Butlan (حوالي أوائل القرن الحادي عشر) الذي أشار إليه إيفانز لوصف موقف المسلمين من السود والرقص، وذكر: "يجب أن يرقص الزنجي دائما. فهو مثل الألماني عندما ينفض عنه غبار يوم العمل، يشعر بعاطفة قوية للغناء" (المرجع السابق، ص ١٦١، م ٢). ويبدو إيفانز ماكرا أيضا في إعادة البناء التاريخي كما هو في إشاراته المرجعية البحثية. ولنقارن تعليقه: "عمل عشرات الآلاف من الأفارقة السود في مشروعات استصلاح الأراضي في العراق مثلا. وكان السود يعملون أيضا في مناجم النحاس والملح في الصحراء. فحيثما يكون العمل صعبا والظروف قاسية، يحتمل أن نجد الرقيق السود" (ص ٣٠).

ويقدم هونفيك وصفا كاملا نوعا ما. "في عدد محدود من الأمثلة، كان عمل الرقيق الأسود يستخدم في الأعمال الزراعية كبيرة النطاق، كما كان يستخدم أيضا على نطاق أقل في التعدين والصناعة. ويتمثل أشهر الأمثلة وأفضلها توثيقا على "رق المزارع" في استخدام أعداد كبيرة من رقيق شرق أفريقيا - الزنج - في تجفيف السبخات الملحية عند مصب نهري دجلة والفرات حول البصرة... حيث دخل الزنج التاريخ في ٨٦٨ فقط عندما بدأوا ثورتهم التي استمرت خمسة عشر عاما والتي هزت أسس الخلافة العباسية". ويستطرد هومفيك: "وبمجرد أن حققت الحركة نجاحا، انضم إليها بعض قوات السود من حرس الخلافة الذين أرسلوا لمحاربتها، وبعض البدو وعرب الأهوار... وبنى الزنج عاصمة خاصة بهم، "المختارة"، ومدينة أخرى محصنة، "المنيعة". وفي ٨٧٠، استولوا على ميناء أوبولا Ubulla البحري المزدهر، وفي ٨٧١، اجتاحوا البصرة بمذبحة هائلة... واستمر الوضع هكذا حتى ٨٨٠، عندما استطاع أخو الخليفة - الذي تحرر من اهتمامات عسكرية أخرى ملحة - اتخاذ خطوات جادة ضد الزنج. ومع ذلك، استغرق الأمر ثلاث سنوات من الحملات الصعبة جدا لسحق الحركة والاستيلاء على مدنها... وانتهت التجربة الكبرى "لرق المزارع" في العالم الإسلامي بكارثة" (هونفيك، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤). ويذكر هونفيك أيضا المجموعة الكبيرة من مهن الرقيق السود في المجتمع الإسلامي: رقيق المنازل،

مسئولو العوائد، الشعراء، الموسيقيين، الجنود المحترفين، الخصيان، الحكام، والإداريين الاستعماريين، والدارسين، والمحظيات، وغير ذلك كثير (انظر أيضا: رالف أوستن، مرجع سابق).

ويتمثل التناقض الأخير في نظرية إيفانز في إجمالها حسب كلماته هو. حيث أقحم مناقشة عدد من الحكام المسلمين الذين كانوا من السود، والشكاوى السلالية لعدد من الشعراء المسلمين المرموقين الذين كانوا من السود أيضا، وقدم الملاحظات التالية:

"على الرغم من الاستقطاب العام للمجتمع الإسلامي إلى السود منخفضي المكانة والبيض مرتفعي المكانة، لم يكن هناك حاجز لوني محدد بوضوح" (إيفانز، مرجع سابق، ص ٣١). ويجب أن نذكر أيضا أن إيفانز كتب مبكرا: "في سياقات معينة، خاصة عند مقارنة أنفسهم بالشعوب الشمالية، كان العرب في تلك الفترة يعتبرون أنفسهم "من السود" (ص ٢٤، م ٢٣). وكذلك، فإنه يصر على أن مصطلحي "مملوك" و"عبد" يستخدمان لتمييز الرقيق الأوروبيين عن غيرهم، بينما يعلق ديفيد ايالون على الاستخدام المتغير لمصطلح "مملوك" في دراستيه التاليتين:

- **"Studies on the Structure of the Mamluk Army"< pt. 2, Bulletin of the School of Oriental and African Studies 15 (1953): 466;**
- **"Studies in Al-Jabarti', in Studies on the Mamluis in Egypt, Variorum Press, London, 1977, pp. 316-17.**

- وأخيرا، "كانت مواقف المسلمين من السود مختلطة، ولكن في خضم تناقضهم، يمكن أن نستنبط من هنا وهناك معظم الأفكار التي تشكل تلك المجموعة من الأفكار التي تعتبر بمثابة التحيز السلالي الغربي الحديث" (ص ٣١-٣٢). ولم يوضح إيفانز كيف استطاع "مجتمع ملون **pigmentocracy**" طبقي سلاليا (بتعبير إيفانز) أن يتجنب تكوين حاجز اللون. واختصارا، تعتبر نظرية إيفانز معيبة نظريا، ولا تساندها "أدلته"، وهناك شك في ملاءمتها في هذا الوقت الذي تجددت فيه العداوة الغربية تجاه الشعوب الإسلامية. وكذلك، يبدو أنه لم يقترب أبدا من تفسير سبب أو كيف أن المفكرين في مجتمع معاد فكريا للمعتقدات الإسلامية، ولديه وعي سلالي قديم وحديث بذاته، سوف يهتمون أو يحتاجون للاهتمام باستعارة هذه الأيديولوجية الاجتماعية المتناقضة.

(118) Hunwick, op. cit., p. 28.

(١١٩) يقول نورمان دانيال: "تتمتع معظم النقاط التي لخصتها بتاريخ طويل. واهم هذه النقاط هي"

"أن هناك طبيعة مخادعة" أو "زائفة" لادعاء محمد النبوة، بينما كان متآمرا طموحا، وقاطع طريق، وفاسقا؛ وزاعما بان الإسلام يعوض قصور المسيحية؛ وما طرحه من مجموعة هرطقات، خاصة فيما يتعلق بالثالوث؛ والافكار المعدة سلفا ولتي طرحها القرآن عن المسيح؛ وت-أثير الراهب المسيحي المهرطق بحيرا (سرجس Sergius) وغيره من المعلمين عليه؛ والأهمية القصوى الممنوحة لقضيتين أخلاقيتين، الاعتماد العام على القوة، والانحلال الشخصي المفترض في الأمور الجنسية؛ سخرية وإغراء الجنة القرآنية، الشك في الأخلاق الحتمية والمرتبطة بالقضاء والقدر؛ الاهتمام بالممارسات الدينية الإسلامية، والتصريح بأن بعض الممارسات الإسلامية أمثلة حسنة، ولكن معاملة العبادة بصفة عامة عبثيا؛ وقد سيطر هذا الاحتقار الفكري لمحمد والإسلام - مع بعض الاختلافات في التركيز ولكن مع استمرار كبير في اتجاه - على الفكر المسيحي والأوروبي لفترة طويلة".

- Islam and the West, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1960, p. 276. (See also pp. 144-46).

(120) Norman Daniel, The Arabs and Medieval Europe, Longman, London, 1979, p. 115.

(121) Ibid., pp. 327-28.

(122) Davis, The Problem of Slavery in Western Culture, op. cit., p. 94.

(١٢٣) "كان لفلسفة أرسطو تأثير كبير على إسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لدرجة أن أي هجوم عليه 'كان يعتبر هرطقة خطيرة'، وتمتع كتاب "السياسة" باحترام فائق جدا".

- Mavis Campbell, "Aristotle and Black Slavery: A Study in Race Prejudice', Race 15, no. 3 (January 1974): 285-86.

(124) Ibid., p. 286.

(125) Ibid., pp 290-91.

(126) William Westermann, The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity, American Philosophical Society, Philadelphia, 1955, p. 156.

(127) Trevor-Roper, Rise of Christian Europe, op. cit., pp. 88-89.

(١٢٨) تذكر عباس حمداني أن: "تشارلز نويل يقول إن 'كلمة الهند في العصور الوسطى لم يكن لها معنى جغرافي دقيق لدى الأوروبيين؛ فقد كانت تعبيرا ملائما يشير إلى الشرق فيما وراء العالم الإسلامي'".

- Columbus and the Recovery of Jerusalem"< Journal of the American Oriental Society 99, no. 1 (January-March 1979): 39.

- ويقول حمداني لاحقا أن "جورج كمبل في كتابه 'الجغرافيا في العصور الوسطى':

- George Kimble, Geography in the Middle Ages (London, 1938, 128 n).

يلاحظ أن مصطلح "جزر الهند" عبارة عن مصطلح غامض، لأنه في العصور الوسطى كان هناك ثلاثة أماكن باسم الهند على الأقل هي: "الهند الصغرى"، و"الهند الكبرى"، و"الهند الثالثة"، أي الهند والسند والزنج. وتقع المنطقتان الأوليان في آسيا، وتقع الأخيرة في أفريقيا (إثيوبيا)'". المرجع السابق، ص ٤٦، م ١١.

(129) G. K. Hunter, "Elizabethans and Foreigners', in Awardyce Nicoll (ed.), Shakespeare in His Own Age, Shakespeare Survey 17, Cambridge University Press, Cambridge, 1964, p. 40.

الفصل الخامس

(1) Alan Manchester, British Preeminence in Brazil: Its Rise and Decline, Octagon Books,,, New York, 199964, p. 1.

(2) Immanuel Wallerstein, The Modern World-System, Academic Press, New York, 1974, p. 24; Boxer, Four Centuries, op. cit., p. 9.

(3) Walierstein, op. cit., p. 47.

(٤) "طبقا للمؤرخين، فإن فكرة تنفيذ "الاسترداد" في شمال أفريقيا ظهرت نتيجة الحاجة إلى العثور على استخدام مفيد لمن عاشوا على الغارات الحدودية لحوالي ربع قرن، وبسبب رغبة أبناء الملك جون في أن يكونوا فرسانا مسلحين في صراع حقيقي كالذي عرفه الجيل القديم".

- H. V. Livermore, "Portuguese History", in H. V. Livermore (ed.), Portugal and Brazil, Clarendon Press, Oxford, 1963, p. 59, Partially cited in Wallerstein, op. cit., p. 46.

(5) See pp. 118ff, chapter 4; and especially Rogers op. cit., pp. 54ff.

(٦) يقول ليفرمور: "مع انتهاء الأسرة القديمة، ذهب بعض النبلاء القدامى إلى قشتالة واختفوا من البرتغال. واستولى على أماكنهم نبلاء جدد تكونوا من أتباع جون الأفيسي، وكانوا جميعا تقريبا رجالا حديثي الثراء وطموحين وموالين".

- Livermore, "Portuguese History", op. cit., p. 60.

- يقدم فالرشتاين توصيفا طريفا للبرجوازية البرتغالية حين يقول:

"لم تتعارض مصالح البرجوازية مع مصالح النبلاء. فقد كانت البرجوازية مستعدة للرأسمالية الحديثة بسبب الممارسة المستمرة لتجارة المسافات الطويلة، وبسبب تجربة الحياة في إحدى أكثر المناطق اعتمادا على النقود في أوروبا (بسبب التعامل الاقتصادي مع عالم البحر المتوسط الإسلامي)، وحاولت البرجوازية أيضا أن تهرب من حدود السوق البرتغالية الصغيرة".

- Wallerstein, op. cit., pp. 51-52.

- وكان تفسيره للعلاقة بين هذه البرجوازية ونظيرتها في جنوة يختلف عن تفسيري (انظر النص) ويفتقد إلى الاقتباسات العلمية المؤيدة.

(7) M. Postan, "The Fifteenth Century", Economic History Review 9, no. 2 (May 1939): 165.

- ففي هذا المقال القصير، يروي بوستان قصة تدهور الإنتاج المحلي الإنجليـزي - الزراعي والصناعي - والتجارة الخارجية في القرن الخامس عشر.

(8) Livermore, "Portuguese History", op. cit., pp. 58-59.

- يحتمل أن ليفرمور كان يشير إلى معاهدة وندسور وليس وستمنستر.

- See Manchester, op. cit., p. 2, see also Carus Wilson, "The Overseas Trade of Bristol", in Eileen Power and M. M. Postman (eds.), Studies in English Trade in the Fifteenth Century, Routledge and Kagan Paul, London, 1951, p. 220.

(9) Carus Wilson, op. cit., p. 220.

- يقول ألان مانشستر إنه في القرن السابع عشر "[قدم] التجار البريطانيون في لـشبونة... شكوى ضد عدم تنفيذ امتيازاتهم العادلة، مـع أوراق معينـة توضـح طبيعـة هـذه الامتيازات. وحسب الترتيب الزمني، كانت هذه الوثائق هي: وثيقـة ترجـع إلـى ١٠ أغسطس ١٤٠٠، يقدم فيها خواو الأول للإنجليز نفس الامتيازات المقدمـة للجنـويين؛ وثيقة بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٤٥٠، يقدم فيها أفونسو الخامس للإنجليز الحق فـي قـاض خاص في كل القضايا التجارية التي يمكن أن تنشأ بينهم وبين البرتغاليين؛ وثيقة بتاريخ ٢٨ مارس ١٤٥١، من أفونسو الخامس، يمنح الحق للإنجليز بالحياة والتحرك حـسب إرادتهم في المملكة البرتغالية؛ ومرسوما تجاريا بتاريخ ٧ فبراير ١٤٩٥، يمـنح فيـه مانويل امتيازات خاصة للتجار من مدن ألمانية بعينها.

- Manchester, op. cit., p. 5.

- وعلى عكس مانشستر، لم يحاول ويلسون التوفيق بين حقيقة هـذه العلاقـة بـين "الدولتين" وتفضيله للأمة كوحدة للتحليل التاريخي. وقد أساء هذا إليه كثيرا عنـدما كان يجب عليه أن يتناول في صفحات قليلة (المرجـع الـسابق، ص ٢٢٢-٢٢٤) موضوع القرصنة بين "البرتغاليين والإنجليز". فلا بد أنه كان يتناول أجزاء تنظيمية مختلفة، بعضها متوافق مع التعاون المتبادل والمصالح المشتركة، والبعض الآخـر غير متأثر بمعاهدات التحالف ولا يزال يمارس العداء المتبادل والمنافسة الشرسة.

(10) Charles Verlinden, "Italian Influence in Iberian Colonization', Hispanic American Historical Review 33, no. 2 (May 1953): 199; and Wallerstein, op. cit., pp. 49ff.

(11) Virginia Rau, "A Family of Italian Merchants in Portugal in the XVth Century: The Lomellini', in Studi in Onore di Armando Sapori, Instituto Editoriale Cisalpino, Milano, 1957, 1:717.

(١٢) يعلق فيرلندن: "بعد ظهور تجار فلورنسا في السجلات البرتغالية في ١٣٣٨... جاء ذكر تجار ميلان وبياتشنتا Piacentine (شمال إيطاليا) ولومبارديا فقط، وتجارة جنوة في كثير من الأحيان. ولكن يجب ألا يعتقد المرء أن تجار البندقية لم يلعبوا دورا مهمًا في البرتغال... ومع ذلك، يبدو أن وضع تجار البندقية وبيسانتا كان أكثر أهمية، خاصة في لشبونة ذاتها".

- Verlinden, The Italian Colony of Lisbon and the Development of Portuguese Metropoiitan and Coioniai Economy", in Verlinden, The Beginnings ,of Modern Colonization, op. cit., p. 101.

(١٣) كتب فيرلندن عن أسرة بيتزانيو Pezagno (بيسانيو Pessagno): "إن التاجر سالفيتو بيسانيو، عضو أسرة جنوية لعبت دورا كبيرا في تجارة الأطلنطي – خاصة مع إنجلترا – والتي زودت البرتغال بسلسلة من أمراء البحار منذ ١٣١٧ فصاعدا، مات في فاماجوستا Famagusta نحو نهاية القرن".

- Verlinden, "Some Aspects of Slavery in Medieval Italian Colonies", op. cit., p. 89; see also Verlinden, "The Italian Colony of Lisbon", ibid., pp. 98-99 n.3.

(14) Rau, op. cit., p. 718.

(15) See H. V. Livermore, "Portuguese History", op. cit., pp. 60-61; Rau, op. cit., passim; and Verlinden, "The Italian Colony of Lisbon", op. cit., p. 52.

(16) Wallerstein, op. cit., p. 52.

(١٧) انظر فيرلندن.

ويعتبر بارتولوميو ماركيوني Partolomeo Marchionni الأكثر شهرة بين التجار الإيطاليين في البرتغال. ولكن الشخص الذي ظهر بنفس الاسم في ١٥١١ بين تجار القماش على السفينة "بريتوا Pretoa" شخص آخر، وربما كان أحد أقارب الشخص الذي ظهر حوالي ١٤٤٣ بالنسبة إلى اتفاقية المرجان. ولا شك أن الشخص الثاني الذي يحمل نفس الاسم هو الذي تحمل مهمة تزويد بيرو دا كوفيلهاو وأفونسو دى بايفا بالمال خلال مسار رحلتهما بحثا عن الهند وبريستر جون".

- Verlinden, "The Itallan Colony of Lisbon", op. cit., p. 107.

(18) Verlinden, "Italian Influence in iberian Colonization", op. cit., pp. 202-3.

(19) Verlinden, "Navigateurs, merchands et coions italiens au service de la decouverte et de la colonisation portugalse sous Henri le Navigateur", Le Moyen Age 64, no. 4 (1958): 468-70.

(20) See Montague Guiseppi, "Alien Merchants in England in the Fifteenth Century", Transactions of the Royal Historlcal Society, new ser., vol. 9 (1895): 88-90;

- W. I. Haward, The Financial Transactions between the Lancastrian Government and the Merchants of the Staple from 1449 to 1461;, in Eileen Power and M. M. Postan, op. cit., p. 315; and
- Martin Holmes, "Evil May-Day, 1517', History Today 15, no. 9 (September 1965): 642-43.

(21) Guiseppi, op. cit., p. 94.

(22) Thrupp. "The Grocers of London, A Study of Distributive Trade", In Eileen Power and M. M. Postan, op. cit., pp. 250-290.

(23) Rau, op.cit., p. 723; Carus Wilson, op. cit., p. 221; and Verlinden, "The Italian Colony of Lisbon", op. cit., pp. 104-5.

(24) Carus Wilson, op. cit., p. 225; see also Guiseppi, op. cit., pp. 90, 93; and Verlinden, "The Italian Colony of Lisbon", op. cit., p. 111.

(25) Boxer, Four Centuries of Portuguese Expansion, op. cit., p. 14.

(٢٦) يسجل كوروين C. A. Curwen ما يلي:

"في العام الثالث من حكم [يونج لو Yung Lo] (١٤٠٥) بدأت السلسلة الشهيرة من الحملات البحرية السبع التي تعتبر أعظم المفاخر البحرية في جميع العصور. وكانت بقيادة مسلم صيني خصي في البلاط يدعى شنج هو Cheng Ho. وفي الرحلة الأولى كان الأسطول يتكون من ٦٣ سفينة، مزودة بمقصورات مضادة للماء، ويقال إن أكبرها كان طولها أكثر من ٤٠٠ قدم وعرضها ١٨٠ قدما، وبها أربعة طوابق. وكان مجموع أفرادها ٢٧٥٦٠، يشمل القوات والمسئولين والضباط و١٨٠ طبيبا. ووصلت هذه الحملة إلى الهند. وفي الرحلات التالية، زارت سفن شنج هو أكثر من ثلاثين دولة في الأرخبيل والمحيط الهندي، والخليج الفارسي، وعدن، والساحل الشرقي لأفريقيا".

- Curwen, "China", in Douglas Johnson, (ed.), The Making of the Modern World: Europe Discovers the World, Barnes and Noble, New York, 1971, 1:341-42.

- وانظر أيضا مناقشة فالرشتاين لتجارة المسافات الطويلة لإمبراطورية الصين، في فالرشتاين، مرجع سابق، ص ٥٢ ف ف.

(27) William Appleman Williams, "Empire as a Way of Life", The Nation, 2-9 August 1980, p. 104.

(٢٨) من الطريف أن نقارن بين استخدام ويليامز للمثال الصيني ودفاع فالرشتاين عما يسميه "الحجج المادية". حيث كتب ويليامز: "جاء الصينيون، وتاجروا، وراقبوا. ولم يبذلوا جهدا لتكوين إمبراطورية، أو حتى مجال تأثير إمبراطوري. وعند عودتهم لديارهم، أثارت تقاريرهم جدلا كبيرا. حيث اتخذ قرار بحرق أو تدمير الأساطيل الكبرى... ولم يكن الأمر يتمثل في إظهار الصينيين غير مهتمين بطريقة صحيحة، ولا أكثر بياضا من البيض. ولكن الأمر ببساطة كان يتمثل في ملاحظة أن القدرة على تكوين إمبراطورية لا تؤدي تلقائيا أو حتميا إلى حقيقة الإمبراطورية". ويليامز، مرجع سابق، ص ١٠٤.

ومن ناحية أخرى، يبدو فالرشتاين مقتنعا تماما بأن التفسير التطوعي يعتبر كافيا ولكنه غير قاطع أيضا. ويبدو أن حجته تتضمن أن الهيكل الإمبراطوري الصيني كان يعمل بمثابة قيد سياسي وتقني وفكري على تطور البرجوازية - التي تطورت قبل أوانها على نحو ما يتساءل - والمرتبطة بالمزيد من تطور الرأسمالية في الصين والتوسع الاستعماري. واختتم قائلا: "وهكذا فإن الصين كانت أقل استعدادا على أي حال، إذا كان هناك أي شيء يبدو أفضل ملاءمة للوهلة الأولى للتحرك نحو الرأسمالية من حيث وجود بيروقراطية الدولة الكبيرة سلفا، والتقدم الكبير من حيث استعمال النقود في الاقتصاد، وربما التقنية أيضا. فقد كانت مثقلة بالهيكل السياسي الإمبراطوري. وكانت مثقلة "بعقلانية" نظامها القيمي الذي ينكر دور الدولة في التغيير (لو رغبت في استخدامها) والتي وجدها الحكام الأوروبيون في غموض الولاءات الإقطاعية الأوروبية". فالرشتاين، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٢٩) يروي بوكسر أنه: "بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى عدة موانئ عربية سواحيلية على الشاطئ الشرقي لأفريقيا، وصل دا جاما إلى مالندي **Malindi**، حيث تلقى مساعدة أحمد بن ماجد، أشهر ملاح عربي في عصره، وأحد الذين يعرفون المحيط الهندي أفضل من أي شخص آخر على قيد الحياة. فبفضل توجيهه، استطاع البرتغاليون الوصول إلى قاليقوط، المركز التجاري الرئيس لتجارة التوابل... ومن الطبيعي أن ذكرى ابن ماجد لا تزال تتلقى لعنات أغلبية أبناء وطنه وأخوته في الدين، وأنه هو ذاته كان يندب حظه بمرارة عندما تقدم في العمر على ما فعله". بوكسر، مرجع سابق، ص ١٣-١٤.

(٣٠) كتب فيرناند براودل عن القرن السادس عشر: "أدى النشاط التجاري البحري الذي كان يتركز بصورة متزايدة في الغرب إلى اختلال التوازن وظهور الانحطاط الشديد في الحوض الشرقي الذي كان مصدر الثروة لفترة طويلة. وأدى هذا التحول إلى عدم ارتياح ميلانو، ولكنه دفع جنوة والبندقية إلى القمة. فبالنسبة لنصيب جنوة، الذي كان يمثل نصيب الأسد، فقد حازت التجارة الإسبانية والأمريكية... وفي النصف الثاني

من القرن، تولت جنوة القيادة... وكانت المصادر الأجنبية الأكثـــر أهميـــة، وبهـــذه الوسيلة سيطرت البندقية وجنوة على كل الأقاليم المتخلفة اقتصاديا، سواء في شـــرق أوروبا، أو جنوب إيطاليا، أو البلقان، أو فرنسا، أو شبه الجزيرة الأيبيرية". بـــراودل، "البحر المتوسط"، مرجع سابق، ص ١: ٣٩٣.

(٣١) يجب أن يكون المرء واعيا كما يذكرنا روبرت نيتشت Knecht بأنه فـــي "جـــزر الهند... كان تفوق الأوروبيين مقصورًا على البحر".

- Knecht, "The Discoveries", in Douglas Johnson, op. cit., p. 27.

(٣٢) يؤكد جون ويليام بليك في تاريخه الوثائقي "الأوروبيون في غرب أفريقيـــا، ١٤٥٠-١٤٦٠، ج. ١ (Kraus, Nendeln, 1967)، أن السجلات التي جمعها "توضح أنه فيما بين ١٤٥٣ و ١٤٨٠، أرسل البحارة والتجار الأندلسيون العديد من السفن إلى ساحل غرب أفريقيا، وأن حكومة قشتالة ادعت الملكية المطلقة لغينيا". (ص ١٨٦، ١٨٩).

(33) Ibid., p. 191; see also Edgar Prestage, "Vasco da Gama and the Way to the Indies', in Arthur Percival Newton (ed.), The Great Age of Discovery, University of London, London, 1932, p. 49.

(34) Hans Konig, Columbus: His Enterprise, Monthly Review Press, New York, 1976, pp. 13-14.

(35) Arthur P. Newton, "Christopher Columbus and his First Voyage", in Newton (ed.), op. cit., pp. 76ff.

(36) See Newton, op.cit., p. 77; and Konig, op. cit., p. 22.

(37) Newton, op. cit., p. 78.

(٣٨) يعتقد كونيج أن أسرة فيليبا كانت من أصول إيطالية، مرجع سابق، ص ٢٥. ومـــن ناحية أخرى، يوضح تجميع نيوتن لتاريخ أسرتها أن نسبها يحتوي على عناصـــر إيطالية ونبالة برتغالية أقل، مرجع سابق، ص ٧٩.

(39) Arthur Davies, "Origins of Colombian Cosmography", in Studi Colombiana, Stabilimento Arti Grafiche ed Affini, Genova, 1952, 2:59-62.

(40) Ibid., p. 61.

(٤١) المرجع السابق، ص ٦٢. يصف فيرلندن مـــارتن بيهـــاين Martin Behain (أو بيهـــايم Behaim) بأنه فارس ألماني كان يعيش في فايال Fayal فـــي الآزور بحلـــول ١٤٨٦ على الأقل. حيث يفترض في ذلك الوقت أنه كـــان مـــدرجا مـــن الـــبلاط البرتغـــالي في محاولة سيئة المصير لعبور الأطلنطي (انظر النص اللاحق). ولكن كمـــا اتـــضح بعد ذلك فإن بيهاين لم يلحق القارب.

- See Verlinden, "A Precursor of Columbus: The Fleming Ferdinand van Olmen (1487)", in Verlinden, The Beginnings of Modern Colonization, op. cit., 190-91; also see Newton, op. cit., pp. 90-91.

(42) Arthur Davies, op. cit., p. 61.

(43) Verlinden, "A Precursor", op. cit., p. 189.

(44) See Arthur Davies, op. cit., pp. 62-64; and Knecht, op. cit., pp. 29-30.

(45) Verlinden, "A precursor", op. cit., p. 194.

(٤٦) بدأ ومول هذه المشاركة كل من الأزوري الفلمنكي فرديناند فان أولمين Ferdinand van Olmen (والذي يسميه بارثولوميو دى لاس كاسيس باسم هيرنان دى أولموس Hernan de Olmos) والبرتغالي الماديري يوهام أفوسمو دو إيستريتو Joham Afosmo do Estreito. انظر في ذلك فيرلندر، مرجع سابق، ص ١٩٣

(47) Ibid.

(48) Hans Konig, op. cit., 39-40.

(٤٩) يقول لاس كاساس إن الأخوة مارتن، وفرانسيسكو، وبنزون، كانوا يمثلون القوة المسيطرة في بالوس دى لا فرونتيرا (انظر نيوتن، مرجع سابق، ص ٨٧-٨٨). حيث عاد مارتن بعد رحلة عمل إلى روما، زار خلالها البلاط البابوي في ١٤٩١، إلى بالوس بمعلومات تفصيلية عن طريق في الأطلنطي جمعها من المكتبة البابوية. ثم تبادل هذه المعلومات مع كولومبس وساعد على الترتيب مع بينيللي وسانتانجل على فرض غرامة على بالوس توجه لمساندة مشروع كولومبس. وأبحر مارتن وفنسنت مع كولومبس كقبطانين لبنتا ونينا. ومع ذلك، مات مارتن خلال الرحلة الأولى. وبعد ذلك دخلت الأسرة في محاولة قانونية طويلة لضمان ما كانت تفترض أنه نصيبها من الثروة التي حققها كولومبس من العالم الجديد.

(50) Charles Verlinden, "Italian Influence on Spanish Economy and Colonization during the Reign of Ferdinand of Castile", in Verlinden. The Beginnings of Modern Colonization, op. cit., p. 130.

(٥١) المرجع السابق، ص ١١٤-١٢٠. استنتج أمريكو كاسترو ما يلي: "كان لنمط الحياة "الإيطالية" نقاط مشتركة مع اليهود أكثر من المسيحيين الإسبان. ففي العصور الوسطى، كانت هناك أسر من التجار الجنويين الكبار... ؛ واستمر الجنويون في الاشتراك في المفاوضات المصرفية بين إسبانيا وممتلكاتها الأمريكية عندما لم يكن هناك يهود للقيام بذلك". كاسترو، مرجع سابق، ص ٥١٣، ن ٩٨.

(52) Verlinden, "Italian Influence in Iberian Colonization", op. cit., p. 210; Fernand Braudel, The Mediterranean, op. cit., 1:364-65.

(53) Samuel Eliot Morison, "Columbus as a Navigator", in Studi Colombiani, op. cit., 2:39-48; and Admiral of the Ocean Sea, 2 vols., Little, Brown and Company, Boston, 1942.

(54) Newton, op. cit., pp. 88-89.

(٥٥) كانت جنوة... تدير أكبر آلية ائتمانية متقدمة في العصور الوسطى. حيث أظهرت دراسة تفصيلية أن المدينة كانت عصرية سلفا، وسابقة لعصرها، في القرن الخامس عشر، حيث كانت تتداول يوميا تحويلات الكمبيالات واتفاقيات التبادل، وهي شكل مبكر من أساليب مالية عصرية يعرفها المصرفيون اليوم باسم إصدار شيكات بدون رصيد أو كمبيالات وهمية Kite-Flying. إذ إن دور جنوة المبكر كوسيط بين إشبيلية والعالم الجديد، وتحالفها الرسمي مع إسبانيا في ١٥٢٣، قام بالبقية: حيث أصبحت المدينة المالية الرائدة في العالم، في فترة ارتفاع التضخم والرواج الذي ميز النصف الثاني من القرن السادس عشر – قرن جنوة المدينة التي كانت التجارة فيها قد بدأت تبدو نشاطا متدنيا نوعا ما".

- Braudel, The Mediterranean, op. cit., 1:321.

(٥٦) استنتج جاكوب سترايدر Jacob Streider ما يلي:

"طورت دول المدن الإيطالية نظاما استعماريا في البحر التوسط، وكان هذا النظام نمطا ونموذجا لإسبانيا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وحتى بالنسبة إلى هولندا في القرن السابع عشر".

- (Cited by Oliver C. Cox, The Foundations of Capitalism, Philosophical Library, New York, 1959, p. 85 n. 36).

(57) Philip Curtin, "Slavery and Empire", in Vera Rubin and Arthur Tuden (eds.), Comparative Perspectives on Slavery in New World Plantation Societies, Annals of the New York Academy of Sciences, vol. 292, 27 June 1977, p. 3.

(58) Oliver C. Cox, The Foundations of Capitalism, op. cit., p. 70.

(59) Sidney M. Greenfield, "Madeira and the Beginnings of New World Sugar Cane Cultivation and Plantation Slavery: A Study in Institution Building", in Rubin and Tuden (eds.), op. cit., p. 545.

(60) Ibid., pp. 541-42.

(61) Ibid., p. 548.

(62) J. H. Parry, The Establishment of the European Hegemony: 1415-1715, Harper and Row, New York, 1966, p. 73.

(63) Leslie R. Rout, Jr., The African Experience in Spanish America, Cambridge University Press, Cambridge, 1976, p. 28.

(٦٤) أصبح تعبير "معامل الرق" "pieza de Indies" (أو peca de Indias) – (حرفيا قطعة الإنديز piece of the Indies) مقياسا شائعا أو معياريا للرقيق في أواخر القرن السادس عشر. ولكن التوقيت المبكر لكونه أصبح معياريا غير محدد، إلا أن معناه واستخدامه العام وضحه إينريكيوتا فيلا Enriqueta Vila وبوكسر C. R. Boxer. حيث كتب فيلا يقول:

"يمكن أن نرى من دفاتر حسابات مسئولي الخزانة الملكية (لإسبانيا) أنه في بعض الأوقات، عند حصر صغار السود الذين تقل أعمارهم عن ١٢ عاما، المعروفين باسم الأشقياء muleques، كان من المعتاد حسبان كل اثنين منهم بواحد فقط عند دفع الجمارك. وكذلك، فإن الأطفال الرضع، المعروفين باسم الذرية crias أو البامبو bambos، كانوا يعتبرون معفيين من الجمارك ويحسبون مع أمهاتهم "قطعة" واحدة. وكان كل ذلك يطبق بطريقة عشوائية، مع عدم وجود معايير ثابتة. وكان أقدم قرار ملكي ظهر حتى الآن، ينظم دفع الجمارك على هؤلاء السود، بتاريخ ١٢ يوليو ١٦٢٤، موجها من فيليب الرابع إلى كل سلطات جزر الهند، وكان يشمل بعض القواعد الأساسية للتطبيق العام: الطفل البالغ ٧ سنوات يجب أن يحسب نصف رقيق، ويجب ألا تفرض جمارك على من هم دون هذا العمر".

- Vila, "The Large-Scale introduction of African into Veracruz and Cartagena", in Rubin and Tuden (eds.), op. cit., p. 270.

– ومن ناحية أخرى، يؤكد بوكسر: "كان معامل الرق... يعرف في ١٦٧٨ بأنها "زنجي يتراوح عمره ما بين ١٥ إلى ٢٥ سنة؛ ومن ٨ إلى ١٥، ومن ٢٥ إلى ٣٥، يحسب كل ثلاثة باثنين؛ وأقل من ٨، ومن ٣٥ إلى ٤٥، يحسب كل اثنين بواحد، ويتبع الأطفال الرضع أمهاتهم بدون حساب؛ وكل من فوق ٤٥ سنة والمرضي يقدرهم الحكماء حسب حالتهم الصحية".

- Boxer, The Golden Age of Brazil, 1695-1750, University of California Press, Berkeley, 1962, p. 5.

(65) Jan Vansina, Kingdoms of Savanna, University of Wisconsin Press, 1966, p. 53 (cited by J. E. Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Rejoinder by J. E. Inikori", Journal of African History 17, no. 4 [1976]: 613).

(66) Ibid., p. 52.

(67) K. G. Davies, The Royal African Company, Atheneum, New York, p. 13; Enriqueta Vila, op. cit., passim.

(٦٨) فيلا، مرجع سابق، ص ٢٧٥؛ ويقول والتر رودني Walter Rodney إن: "معظـم الرقيق المستوردين إلى المكسيك وأفريقيا الوسطى خلال القـرن الـسادس عـشر وأوائل القرن السابع عشر كانوا من ساحل غينيا العليا".

- Rodney, "Portuguese Attempts at Monopoly on the Upper Guinea Coast, 1580-1650", Journal of African History 6, no. 3 (1965):309.

(69) J. E. Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: An Assessment of Curtin and Anstey', Journal of African History, 17, no. 2 (1976): 204-5.

(70) Roderick MacDonald, "The Williams Thesis: A Comment on the State of Scholarship', Caribbean Quarterly, 25, no. 3 (September 1979): 63.

(71) Curtin, The Atlantic Slave Trade: A Census, op. cit., p. 87.

(٧٢) تعتبر انتقادات إينيكوري مهمة وجديرة بالاقتباس. حيـث كتـب إينيكـوري عـن إحصاءات كورتن: "كل الحسابات التي تتطلبها المعادلة تستخدم رقمين فقط للسكان الرقيق – رقم في بداية الفترة ورقم في نهاية الفترة. وبينما لا يسبب هذا مـشاكل لحسابات الفائدة المركبة... إلا أن نفس الشيء لا ينطبق على السكان الرقيق الذين كانوا يتعرضون لمخاطر جسيمة (والتي قد لا يكون لها نمط منتظم) تـؤثر علـى الحركة السنوية لإجمالي السكان وأرقام الاستيراد".

- Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: An Assessment", op. cit., p. 198.

- ويقول إينيكوري عن حساسيات كورتن التاريخية: "إن مقدار الأدلـة التاريخيـة التي تؤيد قولي في هذا الجانب من ورقتي الأصلية يعتبر كثيرا جدا لدرجـة أن جهل كورتن فقط بالبيانات التاريخية هو الذي جعله يكتب بالطريقة التـي كتـب بها. إذ إن النظرية الإحصائية العامة في الخطأ العشوائي لا تأخذ أولوية علـى البيانات التاريخية... ولا يمكن مواجهة الحجج المتعلقة بعـدم دقـة الـسجلات التاريخية القائمة على كميات كبيرة من البيانات التاريخية إلا من خلال بيانـات تاريخية مناقضة فقط، وليس بنظريات غامضة عن الخطأ العـشوائي... وفـي الحقيقة، فإن كل البيانات التي أدلي بها مسئولون حكوميون، والتي اقتبستها في ورقتي الأصلية، كانت تعتمد على استقصاءات فعلية".

- Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Rejoinder", op. cit., p. 617.

- وأخيرا، يحذر إينيكوري من منطق دفاع كورتن: "يتمثل المدخل إلى الفهم الـسليم لتعليقات كورتن في بيانه أن ما قلته يشكك عمدا في التقديرات بمـا يقلـل حجـم التجارة. ولكن الخطأ العادي بدون تحيز سياسي أو خلافه سيكون أكثر عشوائية... ومع سوء الفهم هذا، يتضح أن المسألة أصبحت قضية عاطفية بالنـسبة لكـورتن ليدافع عن "شرفه" بكل الوسائل... ولكن المنطق الذي ينطبق علـى كـل ورقـة كورتن يتمثل في أن "التحيز السياسي أو خلافه" هو فقط الذي يـستطيع تحويـل تكرار خطأ في مجموعة من التقديرات في اتجاه واحد... ولكن سذاجة هذا المنطق واضحة جدا بحيث لا تستحق التعليق. ويكفي القول إن تكرار الخطأ في مجموعة من التقديرات يمكن أن يتحول في أي اتجاه لعدة أسباب لا تتعلق "بالتحيز السياسي أو خلافه". وفي هذا الصدد، فإن المرء يمكن أن يكون لديه دافع سياسي ومع ذلك ينتج تقديرات دقيقة". المرجع السابق، ص ٦٠٩-٦١٠.

(73) Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Rejoinder", op. cit., p. 615.

(74) D. Eltis, "The Direction and Fluctuation of the Trans-Atlantic Slave Trade, 1821-43: A Revision of the 1845 Parliamentary Paper", unpublished paper presented at the Mathematical Social Science Board Seminar on the Economics of the Slave Trade, Colby College, Waterville, Maine, 20-22 August 1975;

- Roger Anstey, The Atlantic Slave Trade and British Abolition, 1760-1810, Humanities Press, Atlantic Highlands, N. J.;
- and idem., "The Volume and Profitability of the British Slave Trade, 1761-1807", in Stanley Engerman and Eugene Genovese (eds.), Race and Slavery in the Western Hemisphere, Princeton University Press, Princeton, 1975;
- Serge Daget, "La Repression Britannique sur les Negriers Francais du Traffic Illegal: Quelques conditions generals ou specifiques", unpublished paper presented at Maine, 20-22 August 1975;
- Lucien Peytraud, L'Esclavage aux Antilles Francais avant 1789 d'apres des documents inedits des Archives Coloniales, These Presentee a la Faculte des Lettres de Paris, Paris, 1897; and
- Ralph Davis, The Rise of the Atlantic Economies, Weidenfeld and Nicolson, London, 1973.

(٧٥) لا يقدم إينيكوري مجموع تجارة الرقيق عبر الأطلنطي. وقد تم التوصل إلى هذا الرقم بجمع مقادير جزر الهند الغربية الفرنسية، البرازيل، والمستعمرات الإنجليزية التي تظهر في مقالتي إينيكوري، وتقدير رقم لأمريكا الإسبانية يتسق مع معالجة إينيكوري للسكان الرقيق في البرازيل قبل القرن التاسع عشر. ومن خلال مقال إينيكوري الأول:

- Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: An Assessment", op. cit.,

- تصل أرقام جزر الهند الغربية الفرنسية إلى ٣ ملايين. وبالنسبة للمستعمرات البريطانية في القرن الثامن عشر والبرازيل في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت الأرقام ٣,٦٩ مليون، و٣,٧، على التوالي.

- Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Rejoinder", op. cit., pp. 623-24.

(٧٦) بالنسبة إلى بيان كورتن، انظر الملاحظة ٥٢، الفصل الرابع، أو نقد موراي لأرقان كورتن، انظر:

- D. R. Murray, "Statistics of the Slave Trade in Cuba, 1790-1867", Journal of Latin American Studies 3, no. 2 (November 1971): 131-49.

- يتفق ريتشارد بيرز مع كورتن على هذا الأمر: "لاحظ ديبين M. Debien أن تدفق الفلاحين العاملين بالسخرة... تراجع في أوقات مختلفة في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فبعد عام ١٦٦٦ تم إرسال القليل من هؤلاء الفلاحين إلى سانت كريستوفر الفرنسية؛ وبعد عام ١٦٨٥، أرسل القليل أيضا إلى جواديلوب. ويمكن أن نرى نفس التناقض بين مستعمرات السكر المستقرة القديمة، مثل الباربادوس، التي توقفت سريعا عن طلب خدمات أي عمال بيض من أوروبا بالإضافة إلى المتخصصين، والمستوطنات الحديثة مثل جامايكا، التي كانت لا تزال ترحب لفترة بالعمال البيض غير المهرة. واستمر إرسال المتخصصين - التجار، السائقين، وعمال التكرير، والمعلمين الخاصين - إلى المزارع لقرن آخر؛ ولكن المزارع الذي لا يملك سوى يديه فقط لم يعد مطلوبا. فقد حل الأفارقة محله".

- Pares, Merchants and Planters, Economic History Review Supplement, no. e, 1960, p. 19.

(77) See note 47, previous chap.

(78) Williams, Capitalism and Slavery, op. cit., p. 63.

(79) ibid., p. 61.

(80) Herman Merivale, Lectures on Colonization and Colonies, Longman, Green, Longman, and Roberts, London, 1861, (repr. By Augustus Kelley, New York, 1967), p. 302.

(81) Roderick McDonald, op. cit., pp. 65-66.

(82) James Burke, Connections, Little, Brown, Boston, 1978, p. 192.

(83) Robert Carlyle Batie, "Why Sugar, Economic Cycles and the Changing of Staples on the English and French Antilles, 1624-54', Journal of Caribbean History 8 (November 1976): 4-13.

(84) P. G. M. Dickson, The Financial Revolution in England, Macmillan, London, 1967, pp. 55-56.

(85) C. L. R. James, The Black Jacobins, op. cit., pp. 47-48.

(86) Roderick McDonald, op. cit., pp. 63-64.

(87) Richard Pares, op. cit., p. 38.

(88) Ibid., p.50.

(89) Ibid., p. 33; K. G. B. Davies, "The Origin of the Commission System in the West India Trade", Transactions of the Royal Historical Society, 5th ser., vol. 2 (1952): 89-107.

(90) Viva, op. cit., p. 277 n. 9.

(91) Cited by Roderick McDonald In his "Measuring the British Slave Trade to Jamaica, 1789-1808: A Comment", Economic History Review 33, no. 2 (May 1980): 257-58.

(92) Pares, op. cit., pp. 2-6.

(93) Ibid., pp. 11, 63 n. 54; and Batie, op. cit., p. 1.

(94) Pares, op. cit., p. 16.

(95) Richard B. Moore, "On Barbadians and Minding Other People's Business", New World Quarterly 3, nos. 1 and 2, Dead Season and Croptime (1966L1967): 69.

(96) Batie, op. cit., pp. 4-13; and Richard S. Dunn, Sugar and Slaves: The Rise of the Planter Class in the English Indies, 1624-1713, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1972, p. 203.

(97) Batie, op. cit., p. 16.

(98) Ibid., pp. 15, 19.

(99) Curtin, The Atlantic Slave Trade, op. cit., p. 126.

(100) Ibid., pp. 118-26.

(101) See Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade", op. cit., p. 619.

(102) Curtin, The Atlantic Slave Trade, op. cit., p. 119.

– لا تستخدم أرقام كورتن هنا بسبب دقتها، ولكن بسبب أوزانها النسبية.

(103) Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Reminder", op. cit., pp. 612-15.

(105) Curtin, The Atlantic Slave Trade, op. cit., chap. 10.

– يجب أن نتذكر أن هذا الرقم مجرد "تقدير" لعدد الوفيات المرتبطة بتجارة الرقيق البريطانية في القرن الثامن عشر. وبالنسبة لفرنسا خلال نفس القرن، فإن روبرت شتاين Robert Stein الذي (بدون سند) قدر تجارة الرقيق الفرنسية بحوالي ١,١٥ مليون، يدعي أيضا أنه "لا يقل عن ١٥٠ ألفا ماتوا قبل الوصول إلى العالم الجديد، ومات المزيد خلال سنة أو سنتين من وصولهم".

- Stein, Mortality in the Eighteenth-Century French Slave Trade", Journal of African History 21, no. 1 (1980): 35.

(١٠٥) كورتن، المرجع السابق، ص ٢٨٢. وبالنسبة للفترة ١٧١٤-١٧٧٨، فإن شتاين يقدر "معدل" وفيات البحارة في تجارة الرقيق الفرنسية بحوالي ١٣٪ ويقول: "كانت وفيات البحارة في المتوسط أعلى من وفيات الرقيق على الأقل على الساحل وعلى الممر الأوسط Middle Passage".

- Stein, Mortality in the Eighteenth-Century French Slave Trade", op. cit., pp. 36-37.

(106) Curtin, Ibid., pp. 139-40.

(107) Orlando Patterson, The Sociology of Slavery, Fairleigh Dickinson University Press, Rutherford, 1969, pp. 134-44.

(108) Curtain, The Atlantic Slave Trade, op. cit., pp. 91-2.

(109) Ibid., pp. 83, 268.

(110) Inikori, "Measuring the Atlantic Slave Trade: An Assessment", op. cit., p. 222.

(111) Curtain, The Atlantic Slave Trade, op. cit., pp. 144, 156-58.

(112) Gerald Mullin, Flight and Rebellion, Oxford University Press, New York, 1972, p. 7.

(113) Ibid., p. 43.

(١١٤) بالنسبة لخلفية مستوطنات المارون السود في فرجينيا في القرن السابع عشر، ومستوطنات الأفارقة والهنود (السيمينول) في فلوريدا في القرن الثامن عشر، انظر الفصل السابع. وقد قدم جوش جدنجس Josh Giddings (1858) تقريرا مبكرا عن السيمينول.

(115) See Nwabueze F. Okoye, "Chattel Slavery as the Nightmare of the American Revolutionaries", William and Mary Quarterly, 37 (January 1980): 3-5;
- Jeffrey Crow, "Slave Rebelliousness and Social Conflict in North Carolina 1775-1802", William and Mary Quarterly, ibid., p. 89;
- C. L. R. James, "The Atlantic Slave Trade", in James, The Future in the Present, Lawrence Hill, Westport, 1977, p. 246.

(116) Walter Rodney, How Europe Underdeveloped Africa, Howard University Press, Washington D.C., 1972.

(117) Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, in Robert C, Tucker (ed.), The Marx Engels Reader, W. W. Norton, New York, 1978, p. 478.

الفصل السادس

(1) Cabral, "National Liberation and Culture", in Return to the Source, Africa Information Service, 1973, pp. 42-43.

(2) Michael Craton, "Proto-Peasant Revolts?: The Late Rebellions in the British West Indies 1816-1832", Past and Present 85 (November 1979): 120-21.

- تؤيد أعمال روبرت لاكيرته Robert Lacerte عن العقود الأربعة الأولى من استقلال هاييتي توصيف كراتون للنزعات الزراعية الأفريقية فيما يتعلق بزراعة المزارع وحيازة الأراضي. هذا بغض النظر عن التساؤلات والشكوك التي تحيط بميل لاكيرته تجاه تأكيدات وافتراضات بعينها، مثل إصراره على جعل فرنسا "الوطن الأم لهاييتي" ويعلن أن وجود "البيض" كان لا يمكن الاستغناء عنه لانتعاش النشاط الاقتصادي لهاييتي بعد الاستقلال. انظر:

- Lacerte, "The First Land Reform in Latin America: The Reforms of Alexander Petion, 1809-1818", Inter-American Economic Affairs 28, no. 4 (Spring 1975): 77-85;
- Xenophobia and Economic Decline: The Haitian Case, 1820-1843", The Americas 37, no 4. (April 1981): 499-515.

(3) John Blassingame, The Slave Community, Oxford University Press, New York, 1972, pp. 189-216.

(4) Ibid., p. 197.

(5) Ibid., p. 201.

(6) Ibid., p. 213.

(٧) يدعي بلاسنجيم في أكثر من مناسبة أنه "ليس مصادفة أن سامبو في روايات ومسرحيات الجنوب كان خادم المنزل عادة. ونظرا لأن المزارعين لم يكونوا على اتصال وثيق بالعاملين في الحقول غالبا، كان خادم المنزل في السير الذاتية للبيض يصور دائما على أنه مثال الولاء... ويتمثل أحد انعكاسات إخلاص خدم المنازل وانخفاض مستوى الاتصال بين العاملين في الحقول والبيض في أنه في الغالبية العظمى من الحالات التي كان السادة يعتقون فيها الرقيق الأفراد كان ذلك يعني خدم المنازل". (المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١). ومن ناحية أخرى، يذكرنا أوينز بأن: "السادة عذبوا وقتلوا بعض الخدم، وأن رقيق المنازل قتلوا سادتهم. وقد مرت أفعال كثيرة ضد الخدم بلا عقاب... فليس من السهل أن نعمم بشأن رقيق المنازل.

فقد كانوا يشكلون طبقة متنوعة من الملتزمين بالعمل بلا أجر، حيث ساعدوا على تشكيل وإعادة تشكيل طبيعة رقهم في "البيت الكبير". وفي بعض الجوانب، كان رقهم نوعا خاصا من الرق يتسم بامتيازات لم يجربها معظم العاملين في الحقول، أو ليس بنفس الطريقة على الأقل. ومع ذلك، لم يستسلموا لذلك".

- Leslie Howard Owens, This Species of Poverty, Oxford University Press, New York, 1976, p. 120.

- وكذلك يدعي كينيث ستامب في كتابه:

- Kenneth Stampp, The Peculiar Institution, Vintage Books, New York, 1956,

أنه على الأقل كان ربع السكان الرقيق الأمريكيين في القرن التاسع عشر في حيازة مالكي الرقيق "الذين كان تحت سيطرتهم عدد قليل يقرب من نصف دستة من العاملين بالحقول... ونظرا لنقص الحرفيين المهرة في قوة الرقيق الصغيرة، كانوا لا يزالون يحتاجون إلى أداء بعض المهام المتخصصة مثل النجارة وإصلاح الأدوات؛ وفي حالة الطوارئ (نادرا ما كانت المحاصيل تنتقل من زراعة الربيع إلى حصاد الخريف بدون حدوث أزمة من نوع ما) كانوا ينسون فخرهم مؤقتا... فغالبا ما كان السيد يضطر إلى الاختيار بين فقدان محصوله والضغط على رقيقه" (ص ٣٥).

(8) Blassingame, op. cit., pp. 190ff.

(9) Owens, op. cit., p. 78.

(١٠) "وكان في صميم هذا السلوك عدم تكيف الرقيق مع الكثير مما يواجهه في الرق. فقد كان نظام الرق يعمل دائما ضد مصلحة الرقيق، على الرغم من أنه لم يكن يتركه يعمل بجموح. فقد كان الإحباط هائلا". المرجع السابق، ص ٩٤.

(١١) المرجع السابق، ص ٧٩-٩٦.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(١٣) المرجع السابق، ص ٩٦.

(١٤) المرجع السابق، ص ١٠٣.

(١٥) "كان المزارع الجنوبي يعاني - ليس بسبب أخطائه الاقتصادية - فقد كان الأثر النفسي للرق عليه قاتلا. إذ إن مجرد حقيقة أن الإنسان يستطيع طبقا للقانون أن يكون المسيطر الفعلي على عقل وجسد البشر له آثار كارثية. حيث يؤدي ذلك إلى تضخم الذات لدى معظم المزارعين بما يتخطى كل منطق؛ فقد أصبحوا متغطرسين، ومختالين، وملوكا مشاكسين؛ وكانوا يصدرون الأوامر؛ ويضعون القوانين؛ ويصرخون بإصدار الأوامر؛ وكانوا يتوقعون الطاعة واحتقار الذات؛ وكانوا سريعي الغضب ويشعرون بالإهانة بسهولة. وأصبح "شرفهم" شيئا ضخما ومخيفا، حيث يتطلب الإذعان الكبير والمستمر. ونظرا لأنهم كانوا ضعفاء وغير

أكفاء بطبيعتهم، فقد كانوا يغضبون بسهولة وكانوا غيورين وحانقين، بينما كان القليلون المتفوقون منهم بدنيا أو نفسيا يعتقدون أنه لا حدود لقوتهم ونفوذهم الشخصي. وكما تعلم العالم لفترة طويلة، ليس هناك شيء يستطيع أن يدمر الطبيعة البشرية مثل السلطة المطلقة على البشر".

- **W. E. B. Du Bois, Black Reconstruction in Africa, Harcourt, Brace and Company, New York, 1935, p. 52-53.**

- وفي المرجع السابق ذكر دو بويز ما يلي:

"هناك دليل على أن ضرورات التنظيم الاقتصادي كانت تتغير باستمرار وتؤدي إلى تدهور معنوياته وتدفعه للأمام عناصر أكثر فظاعة وصخبا، وأقل تهذيبا، مقارنة بما كان يميز رجال الجنوب المهذبين في الأيام السابقة. ومن المؤكد أن المقامرين الصاخبين المشاكسين الفاجرين الذين كانوا يمثلون الجنوب كثيرا في أواخر الخمسينيات كانوا يؤكدون التدهور الحتمي الذي يسيطر على الناس عندما تطغى رغبتهم في الدخل والترف على احترامهم للبشر" (ص ٤٣). واتساقا مع يأس المنظرين الأيديولوجيين للمزارعين الانفصاليين كان هناك قبل الحرب من عبر عن مشاعره في هذا الاتجاه مثل ماري آن هوايت **Mary Ann White**، وهي سيدة صاحبة مزرعة ("لدينا عدو في أحضاننا يمكن أن يقتلنا في مضاجعنا")، وويليام كيركلاند **William Kirkland** من المسيسبي (الذي أعلن أنه يفضل "إبادته" على أن يضطر للحياة في نفس المجتمع 'مع الرقيق إذا تحرروا'"). واتساقا مع ذلك صرح جيمس رورك **James Roark** بأن: "خلط الحقيقة بالخيال جعل المزارعين يخشون من أن زعماء حركات تمرد الرقيق (أمثال جون بول، بيلي يانك، جوني بور هوايت، ونات تورنر) كانوا جميعا يكمنون كأشباح مفزعة في الظلال. وكانت هذه الرؤية تنغص حياة الجميع وليس الجبناء فحسب".

- **Masters without Slaves, W. W. Norton, New York, 1977, pp. 4, 10, 16.**

(١٦) يمكن أن نجد بين من راجعوا مواقفهم أسماء مثل:

- **Ira Berlin (Masters Without Slaves),**
- **Douglas Daniels (Pioneer Urbanites),**
- **Eric Foner (Free soil, Free Labor, Free Men),**
- **George M. Frederickson (The Black Image in the White Mind),**
- **Eugene Genovese (Roll, Jordan, Roll and From Rebellion to Revolution),**
- **Herbert Gutman (The Black Family and Freedom),**
- **Nathan Huggins (John Brown),**
- **Lawrence Levine (Black, Culture and Black Consciousness),**

- Leon Litwack (Been in the Storm So Long),
- Stephen Oates (To Burge This Land with Blood),
- Nell Irvin Painter (The Exodusters),
- Albert Raboteau (The Slave Religion).
- George Rawick (From Sundown to Sunup),
- Willie Lee Rose (Rehearsal For Reconstruction), and
- Robert Starobin (Industrial Slavery in the Old South).

(١٧) كان توماس جيفرسون - أحد كبار ملاك الرقيق في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وكرئيس للولايات المتحدة خلال جمهوريتها الوليدة - كان يولي أهمية لجيله وللأجيال الأمريكية القادمة من الأدباء، مما يجعل حياته مثالا واضحا للمشاعر المتناقضة والقوى الاجتماعية التي تغمر طبقة السادة (والمدافعين عنها لاحقا). ويسلم ونتروب جوردان بأنه بالنسبة لجيفرسون لم تكن إنسانية الرقيق موضع تساؤل أبدا: "لا شك أن الزنوج كانوا أعضاء في تلك الطبقة. ومن ثم فإن جيفرسون لم يفكر لحظة في إمكانية أنه يمكن استرقاقهم حقيقة".

- White Over Black, Baltimore, 1969, p. 432.

- ولكن حساسيات جيفرسون السلالية خلطت إيمانه بالتطابق الأخلاقي بين البيض والسود بمقاومته لأي اعتبار لتساوي العواطف والقدرات العقلية أو الإحساس بالجمال الإنساني بين السود والبيض. حيث يتعجب جوردان قائلا: "أصبح ارتباك جيفرسون في بعض الأحيان هائلا" (ص ٤٥٣). وربما كان ارتباك جيفرسون ناتجا عن علاقته المزعومة بخادمته الرقيقة سالي هيمنجس Saily Hemings. ومن المؤكد أن هذه العلاقة المزعومة قد أثرت على بعض كتاب سيرته الذاتية مثل:

- John Chester Miller, The Wolf by the Ears, New American Library, New York, 1977.

- حيث بدأ ميلر رفضه للاتهامات التي أثارها جيمس كاليندر James Callender - معاصر جيفرسون - بتأكيده لقارئه أن الآنسة هيمنجس لم تكن "سوداء" كما كانت تسمى أحيانا، ولكنها كانت "ربع زنجية" في الحقيقة. ثم يقول ميلر إن سالي هيمنجس كانت الطفل الأخير من بين ١٤ طفلا ("بدرجات متفاوتة من اللون") ولدوا لرقيقته بيتي هيمنجس Betty Hemings وجون وايليس John Wayles، وهو مزارع ثري من فرجينيا. وبالطبع، كان وايليس أيضا والد مارتا سكيلتون وايليس Martha Skelton Wayles عروس جيفرسون في ١٧٧٢. وفي ١٧٧٣،

مات وايليس وأصبح أطفاله وخليلته الرقيقة ملكا لجيفرسون في مونتيسيلو Monticello (ص ١٦٢)، ويرى ميلر أن: "المعاملة الخاصة التي منحها جيفرسون لبيتي هيمنجس وأطفالها ربما تراجعت، ولكنها لا يمكن أن تكون قد أزالت الإحساس الرهيب بالذنب الذي عاناه جيفرسون نتيجة الاحتفاظ بالأخوة والأخوات غير الأشقاء لزوجته المتوفاة [ماتت في ١٧٨٢] في الرق، خاصة أنه كان يستطيع أن يرى في هؤلاء الملاتو ملامح زوجته هو. ولذلك فإنه لا عجب من أنه أدرك الكراهية الشديدة تجاه تمازج السلالات، مما دفعه إلى تفضيل وضع كل الأمريكيين الأفارقة بعيدا عن احتمال الاختلاط بالبيض. فإذا كان موقفه تجاه الملاتو قد مر بتغير جوهري في ١٧٧٢-١٧٧٣ كما توضح الأدلة، فربما كان ذلك يرجع إلى الاكتشاف المذهل الذي توصل إليه في ذلك الوقت للممارسات الجنسية لوالد زوجته" (ص ١٦٣). ويقول ميلر لاحقا: "بالنسبة لجيفرسون، كانت إقامة علاقة عاطفية سرية مع رقيقة وتربية أطفاله كرقيق يتناقض تماما مع شخصيته، بقدر ما يمكن أن يتحدد ذلك بأفعاله وأقواله" (ص ١٧٧). ولكن "جيفرسون طلب الحكم عليه هنا بأفعاله وليس بأقواله. ولكن بالنسبة إلى قضية الرق في أمريكا، فإنه يظهر ببريق كبير إذا حكمنا عليه بكلماته وليس بأفعاله. لأنه فشل هنا تماما في الارتقاء إلى مفاهيمه الخاصة". "ومن الواضح أن جيفرسون تشارك التحيز العنصري الذي عقد مشكلة تخليص الولايات المتحدة مما سماه "هذا الشر السياسي والأخلاقي الكبير"، "هذه الوصمة في جبين بلدنا". ولكنه نجح في إزالة هذا التحيز من داخله بتخيل أنه كان يعمل استجابة للمراسيم الإلهية" (ص ٢٧٧، ١٧٨). وتتمثل المفارقة الأخيرة في دفاع ميلر عن الأخلاقيات الجنسية لجيفرسون في قوله إن إثبات أن جيفرسون لم تكن له علاقة خاصة مع خادمته يتمثل في أنه أعتق بإرادته خمسة من الرقيق، كلهم من آل هيمنجس. "ولكن سالي هيمنجس لم تكن بين من أعتقهم: حيث ظهر اسمها في قائمة الرقيق في ضيعته وكانت قيمتها تقدر بخمسين دولارا" (ص ١٦٨). ومن الصعب أن يكون ذلك فعل رجل متأثر بالشعور بالذنب من رؤية "ملامح" زوجته الميتة. وهناك سابقة السيد البرازيلي بيدرو دومنجوس Pedro Domingues، "الذي اصابه الوهن والنحول من الغيرة بسبب التفكير في زواج محظيته... حيث منحها حريتها وملكية منزله وثلاثة رقيق بشرط أن تظل بلا زواج لبقية حياتها".

- C. R. Boxer, Women in Iberian Expansion Overseas, 1415-1815, Oxford University Press, 1975, p. 59.

(18) Eric Williams, From Columbus to Castro, Harper and Row, New York, 1970, pp. 37-38.

- كان أحد مؤشرات الموقف الرسمي تجاه العمل الأوروبي يتمثل في الرغبة الواضحة لدى السلطات في التخلي عن الموروثات السلالية لأيبيريا مقابل تكوين مستوطنات استعمارية حيوية. ويقول بوكسر إنه على الرغم من قوة "التحيز السلالي" خلال هذه الفترة من التاريخ الأيبيري ("الموجه ضد "المور" (أي المسلمين) واليهود، لأسباب دينية أساسا") والأفارقة (لارتباطهم بالرق)، كانت الأوامر والتعليمات الملكية ترسل إلى المستعمرات في ١٥٠٣ و١٥١٤ لتشجع على التزاوج بين السلالات بين الأوروبيين والهنود.

- Women in Iberian Expansion, op. cit., pp. 35-37.

(19) Ibid, pp. 37-41.

(٢٠) يشير ريتشارد هارت إلى المؤرخ الأسباني أوفيدو Oviedo الذي كتب في ١٥٤٦ أن التحول الرأسمالي لمزرعة سكر في الهند الغربية "غالبا ما كان يتطلب استثمار ١٠ أو ١٢ ألف دوقية ducats ذهبية قبل أن تكتمل وتصبح جاهزة للعمل. وإذا قلت إن ذلك كان يتطلب ١٥ ألف دوقية فإنني لا أبالغ، لأن ذلك كان يتطلب على الأقل ٨٠ أو ١٠٠ من الزنوج الذين يعملون طوال الوقت، بل ويمكن أن يصل العدد إلى ١٢٠ أو أكثر من أجل العمل الجيد، بالإضافة إلى قطيع أو قطيعين من ألف أو ألفي أو ثلاثة آلاف رأس من الماشية لإطعام العمال، فضلا عن العمال والملاحظين المدربين المكلفين لصناعة السكر، والعربات التي تنقل القصب إلى المعصرة وجلب الخشب".

- Hart, Slaves Who Abolished Slavery, vol. 1, Blacks in Bondage, Institute of Social and Economic Research, University of the West Indies, Jamaica, 1980, p. 17.

(21) Eric Williams, From Columbus to Castro, op. cit., p. 30.

(22) C. H. Haring, The Spanish Empire in America, Harcourt, Brace and World, New York, 1963, p. 41.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣٣. ويختلف نيكولا سانشي ألبورنو Nicolas Sanchez-Albornoz مع هذه الأرقام ولكنه يتوصل إلى نفس النتيجة حين يقول: "لا شك أن الانخفاض كان بنسب كارثية. وحتى مع قبول التقديرات المحافظة، فلا بد أن سكان هسبانيولا قبل رحلات كولمبوس قد انخفض من حوالي مائة ألف إلى بضع مئات فقط في ١٥٧٠. ومن أجل تعويض نقص السكان المحليين، دخل الرقيق الزنوج والهنود من البهاما في تاريخ مبكر. وقد أثبت هذا الإجراء وحده أن نقص السكان هناك كان أسوأ مما كان على الأرض الأم".

- Sanchez-Albornoz, The Population of Latin America: A History, University of California Press, Berkeley, 1974, p. 42.

(24) Sherburne Cook and Woodrow Borah, The Aboriginal Population of Central Mexico on the Eve of the Spanish Conquest, University of California Press, Berkeley, 1963, pp. 72-88.

(25) Cited in Alfred W. Crosby, Jr., The Columbian Exchange, Greenwood Press, Westport, 1977, p. 36. See also Sanchez-Albornoz, op. cit., pp. 60-66.

(26) David Davidson, "Negro Slave Control and Resistance in Colonial Mexico, 1519-1650", Hispanic American Historical Review 46, no. 3 (August 1966): 336.

- يختلف ألفريد كروسبي على دور "الوحشية" في تدمير الشعوب المحلية. إذ يقول: "كان تدمير الأراواك يرجع أساسا إلى القسوة الإسبانية، وقد اتفق على ذلك المؤرخون البروتستانت المحدثين من المنتمين لمدرسة "أسطورة السود"، إضافة إلى الكتاب الإسبان المعاصرين مثل أوفيدو وبارثولوميو دى لاس كاساس. ولا شك أن الإسبان الأوائل استغلوا الهنود بوحشية. ولكن من الواضح أن ذلك لم يكن من أجل القضاء عليهم، وذلك لأن المستعمرين الأوائل كان عليهم مواجهة العجز المزمن في العمل، وكانوا يحتاجون إلى الهنود. ويبدو أن المرض يمثل التفسير المنطقي". (كروسبي، مرجع سابق، ص ٤٥). وهكذا فإن دافع الجشع وجدلية الهيمنة استغلا منطق الحاجة لمواجهة ضحاياهما.

(٢٧) ديفيد ديفيدسون، مرجع سابق، ص ٢٣٦، وللإطلاع على تقييم نقدي للرقم الذي قدره كل من كوك، بوراه، وليسلي بيرد سمبسون، انظر:

- Rudolph A. Zambardino, "Mexico's Population in the Sixteenth Century: Demographic Anomaly for Mathematical Illusion?", Journal of Interdisciplinary History 11, no. 1 (Summer 1980): 1-27,

- وبالنسبة للعالم الجديد بصفة عامة، انظر سانشي ألبورنو، مرجع سابق، ص ٣٢-٣٦.

(28) The works by Sauer (The Early Spanish Main, 1969) and Jaramillo Uribe ("La poplacion indigene de Colombia en el momento de la Conquista y sus transformaciones posteriors", Amuario colombiano de historia social de la cultura 1, no. 2 [1964]: 239-93) are cited by Sanchez-Albornoz, op. cit., p. 54.

- ويشار أيضا إلى جاراميلو أوريب للاقتباس التالي من كتاب الأب جوميلا Father Gumilla والذي يحمل عنوان "صورة نهر الأورينكو Orinoco ilustrado":

"لاحظ المراقبون المحنكون أنه في المناطق التي تناقص فيها السكان الهنود بدرجة ملحوظة، كان الكثير من نساء الهنود بلا أطفال وعقيمات كلية...؛ وفي نفس الأماكن والمناطق، كانت النساء الهنديات المتزوجات من أوروبيين، مولدين، ملاتو، سامبو، وزنوج مرتفعات الخصوبة وينجبن الكثير من الأطفال لدرجة أنهن كن ينافسن اليهوديات في هذا المجال... حيث يتمثل الفرق في أن الهنديات المتزوجات من هنود كن ينجبن أطفالا هنود متواضعين... وكان الأطفال الهنود يخضعون للقهر، ويعيشون بلا معنويات ويخافون ويضطرون لدفع الجزية، والتي كانت على الرغم من عدم ضخامتها تعتبر عبئا ووصمة... وكان لدى معظم الهنود طفل واحد فقط، وذلك لإشباع غريزة البقاء ثم يتناولون الأعشاب لمنع إنجاب المزيد". (سانشي ألبرونو، مرجع سابق، ص ٥٦).

(29) Peter Boyd-Bowman, "Negro Slaves in Early Colonial Mexico", The Americas 26, no. 2 (October 1969): 136.

(30) Bartolome de Las Casas, The Devastation of the Indies: A Brief Account, Seabury Press, New York, 1974, (orig. 1542), p. 27.

(31) Quoted by Eric Williams, From Columbia to Castro, op. cit., p. 43.

(32) Introduction by Hans Magnus Enzensberger to Las Casas. Op. cit., p. 26.

(33) Ibid, pp. 29-30.

(٣٤) "ولكن لماذا الأفارقة كرقيق جدد؟ بسبب استنفاد عرض العمل من السكان المحليين في منطقة المزارع، ولأن أوروبا كانت تحتاج إلى مصدر للعمل من منطقة مأهولة بصورة معقولة تكون متاحة وقريبة نسبيا من منطقة استخدامه. ولكن كان يجب أن يكون ذلك من منطقة تقع خارج اقتصادها العالمي، بحيث تستطيع أوروبا الشعور بعدم القلق من النتائج الاقتصادية التي تتعرض لها المنطقة الموردة نتيجة استنفاد القوى العاملة على نطاق واسع كرقيق. وكانت غرب أفريقيا تحقق ذلك على أكمل وجه".

- Wallerstein, The Modern World System, op. cit., p. 89, and
- Sanchez-Albornoz, op. cit., p. 72.

(35) D. Davidson, op. cit., p. 236.

(٣٦) انظر الفصل الخامس، الملاحظة ٦٨ والنص.

(٣٧) يلخص أنطونيو فاسكو دى إسبينوزا بعض الإجراءات التي اتبعها المستعمرون الإسبان لتأخير فقدان عمالة الهنود: "على الرغم من أن المجلس الملكي للإنديز... حاول

إصلاح هذا الضرر بالمذكرات وتخفيف الصعوبات الكبيرة واسترقاق الهنود، وعين نائب الملك في إسبانيا الجديدة مراقبين على المعاصر... لأن معظم الذين شاركوا في مثل هذه اللجان كانوا يهدفون إلى تحقيق الثراء لأنفسهم... ولأن ملاك المعاصر كانوا يدفعون لهم جيدا، فقد كانوا يتركون الهنود البؤساء في نفس الرق... وكان ملاك المعاصر يخصصون أماكن في هذه المعاصر لإخفاء الهنود البؤساء على غير رغبتهم، بحيث لا يمكن رؤيتهم أو العثور عليهم، ولا يستطيع الرفاق الفقراء الشكوى من أخطائهم".

- Compendium and Description of the West Indies, Smithsonian Institution Press, Washington, D. C. 1942 (orig., 1629), p. 134.

(38) J. H. Parry, Cambridge Economic History of Europe, 4:1999, cited by Wallerstein, op. cit., p. 187 n, 109.

(39) D. Davidson, op. cit., p. 237.

(٤٠) أشار روت Rout إلى أجويري بيلتران Aguirre Beltran، مرجع سابق، ص ٢٧٩. ويلفت إدجار لف وروت الانتباه إلى حقيقة أن البارون ألكسندر فون هومبولدت الديموجرافي التاريخي البروسي في أواخر القرن الثامن عشر، علق في دراسته للمكسيك (Political Essay on the Kingdom of New Spain, 1793)، قائلا: "يبدو أنه لم يكن في كل إسبانيا الجديدة ستة آلاف من الزنوج، ولا أكثر من تسعة أو عشرة آلاف من الرقيق، الذين كان العدد الأكبر منهم ينتمي إلى مينائي أكابولكو Acapulco وفيراكروز Veracruz". انظر

- Love, "Negro resistance to Spanish Rule in Colonial Mexico", Journal of Negro History 52, no. 2 (April 1967): 89.

- ويعلق روت قائلا: "عرض شيربورن كوك Sherburne I. Cook صورة متناقضة، وربما كان أول مستكشف يجري تحليلا دقيقا للتعداد السكاني في ١٧٩٣. حيث كشف كوك أن السلطات الإسبانية قدرت السامبو والسود والملاتو بحوالي ١٢ إلى ١٥٪ من سكان المنطقة الخاضعة لنائب الملك، والبالغ عددهم نحو ٥,٢ مليون نسمة". روت، المرجع السابق.

(٤١) كتب المؤرخ الأسود رينشارد رايت في بداية هذا القرن: "خلال سنة ١٥٠١ خرج كولومبس من حكومة جزر الهند، وربما كان هو ذاته يدرك حقيقة أن الرقيق الزنوج قد دخلوا إلى الممتلكات الأسبانية الجديدة". إذ تمثل سنة ١٥٠١ أقدم إشارة في التاريخ الأمريكي إلى الزنوج القادمين من إسبانيا إلى أمريكا. حيث يقرر السير أرثر هيلبس Arthur Helps في كتابه "الغزو الإسباني في أمريكا Spanish Conquest in

America" أنه في السنة المذكورة صدرت تعليمات إلى السلطات بأنه بينما لا يسمح لليهود ولا المور ولا المتحولين الجدد بالذهاب إلى جزر الهند أو البقاء فيها، 'يسمح للزنوج المولودين تحت قبضة المسيحيين بالانتقال إلى جزر الهند'".

- Wright, "Negro Companions of the Spanish Explorers", American Anthropologist 4, no. 2 (April/June 1902): 218.

- يحمل عمل رايت هذه الملحوظة التي دونها محرر المجلة وجاء فيها: "تزايد الاهتمام بهذه الورقة بسبب حقيقة أنها نتيجة بحث قام به مواطن من تلك السلالة التي لعبت دورا رائدا في اكتشاف واستعمار العالم الجديد". المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٤٢) روت، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٤٣) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.

(٤٤) روت، المرجع السابق؛ رايت، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٤٥) روت، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٧٥.

(47) Peter Gerald, "A Black Conquistador in Mexico", Hispanic American Historical Review 58, no. 3 (August 1978): 452.

(٤٨) المرجع السابق، ص ٤٥٩؛ حيث يذكر جيرالد: "ربما مات جاريدو Garrido في الطاعون الكبير الذي اندلع في ١٥٤٧. ومن ناحية أخرى، كان شخص آخر يدعى جوان جاريدو Juan Garrido حيا في كورنافاكا Cuernavaca في مارس ١٥٥٢". المرجع السابق.

(٤٩) انظر رايت، مرجع سابق، ص ٢٢٣-٢٢٨.

(50) Peter Boyd-Bowman, "Negro Slaves in Early Colonial Mexico", op. cit., pp. 150-51.

- حيث يكرر المؤلف في كتابه هذا الادعاء الرسمي من ألونسو فالينتي على جوان فالينتي من أرشيف بوبلا.

(51) Franco, "Maroons and Slave Rebellions in the Spanish Territories", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, Anchor, Garden City, 1973, p. 36;

- R. R. Wright, op. cit., pp. 220-21;

- Rout, op. cit., p. 75.

(52) Georges Scelle, "The Slave-Trade in the Spanish Colonies of America: The Assiento", American Journal of International Law 4, no. 3 (July 1910): 619.

(53) See Rout, op. cit., pp. 77-79.

(٥٤) المرجع السابق، ص ٩٩. ويعلق هارنج: "في الأيام الأولى في المستعمرات، عندما كان الخوف من تمرد الرقيق منتشرا، كانت بعض التشريعات المحلية المتعلقة بالزنوج بربرية جدا".

- C. H. Haring, The Spanish Empire in America, op. cit., p. 202.

(55) G. Aguirre Beltran, "Races in 17th Century Mexico", Phylon 6, no. 3 (1945): 215.

(56) Colin Palmer, "Religion and Magic in Mexican Slave Society, 1570-1650", in Stanley L. Engerman and Eugene D. Genovese (eds.), Race and Slavery in the Western Hemisphere: Quantitative Studies, Princeton University Press, Princeton, 1975, p. 311.

(57) Boyd-Bowman, op. cit., p. 134.

(58) See Haring, op. cit., p. 206; Rout, op. cit., pp. 104-5; and R. R. Wright, op. cit., p. 222.

- ويتذكر ديفيد ديفيدسون ما يلي: "في ١٥٢٣، قام أول رقيق يثورون في المستعمرة بنصب الصلبان للاحتفال بحريتهم، ومن أجل الإعلان عن أنهم كانوا مسيحيين".

ديفيدسون، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٥٩) روت، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٦٠) المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

(61) Scelle, Histoire Politique de La Traite Negriere aux Indes de Castille, 2 vol., Larose and Forcel, Paris, 1906, 1;167; and Jose L. Franco, op. cit., p. 35.

(62) Quoted by Edgar Love, op. cit., p. 96.

(63) Ibid., pp. 93, 95.

(64) D. Davidson, op. cit., p. 224.

(65) Ibid., pp. 145-46; se also Love, op. cit., p. 94.

(66) D. Davidson, op. cit., pp. 249-50.

(٦٧) لاف، مرجع سابق، ص ٩٧. ويتبع ديفيدسون الجيزويتي جوان لورنسيو Jesuit Juan Laurencio في وصف يانجا Yanga بأنه عضو من شعب "برون "Bron (أي برونج Brong)، وهو شعب يتحدث لغة أكان Akan في غانا المعاصرة. وكان لورنسيو عضوا في حملة بقيادة الكابتن بيدرو جونزالو دى هيريرا التي نجحت في جعل مستوطنة يانجا تدخل في هدنة مع السلطات الإسبانية في الشهور الأولى من ١٦٠٩. ديفيدسون، مرجع سابق، ص ٢٤٧. ويؤكد روت أن يانجا "ادعى أنه أمير كونغولي". مرجع سابق، ص ١٠٦. انظر روت، المرجع السابق، ص ٣٠، ٣٣٦ ن ن، ١، ٢، لمناقشة الارتباك بشأن استخدام مصطلح "برون Bron" و"برارن Brarn" في الجغرافيا التاريخية المكسيكية.

(٦٨) كتب لاف Love: "خلال الجزء الأخير من القرن السادس عشر، كان على الإسبان إخماد تمردات الرقيق في باشـوكا، جوانـاجواتو، ألفـارادو، كوتزاكولاكـوس، ميسانتلا، جالابا، هواتولكو، تلاليكسكويان، زونجوليشيا، ريكونـادا، هواتوسـكو، أوريزابا، ريو بلانكو، أنتون ليزاردو، ميديلين، وكورنافاكا". مرجـع سـابق، ص ٩٨. ويصف لاف أيضا تمرد الرقيق الذي حدث في مكسيكو سيتي فـي ١٦١٢. المرجع السابق، ص ٩٨-٩٩. ولاحظ روت: "طوال قرن بعد ذلك، وفـي نفـس الجوار العام لولاية فيراكروز، كانت اضطرابات الرقيق في معاصر القصب حول مدينة قرطبة Cordoba (١٧٢٥ و١٧٣٥) قد وصلت إلى ذروتها فـي الهـروب الجماعي للرجال المسترقين، والاندلاع المفاجئ لنشاط الهروب الجماعي... وفـي تلك الأثناء، وعلى الساحل الآخر، خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، أنشأ الرقيق الذين كانوا يفرون من موانئ المحيط الهادئ في جواتولكو وأكـابولكو مستوطنات في المرتفعات الساحلية لكوستا شـيكا costa chica". روت، مرجـع سابق، ص ١٠٦-١٠٧.

(69) See William B. Taylor, "The Foundation of Nuestra Senora de Guadalupe de los Morenos de Amapa". The Americas 26, no. 4 (April 1970): 439-46.

(70) See Aquiles Escalante, "Palenques in Columbia", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, op. cit., pp. 76-77; and Rout, op. cit., p. 109.

(71) See Miguel Acosta Saignes, "Life in a Venezuelan Cumbe", in Richard Price, op. cit., pp. 64-73; and Rout, op. cit., p. 111.

(٧٢) يقبل إينيس Ennes تبرير استرقاق السود بأنه كان ضرورة لأن "الأوروبيـين لـم يستطيعوا الصمود في الشمس... ولم يذعن الهنود للعمل المكثف والمستمر الـلازم لتقدم هذه الصناعات". ويواصل تفسيراته السلالية بمدح "سكان منطقـة باوليـستا Paulista في شرق البرازيل الذين قادوا المسيرة بفضل الروح البطولية المغـامرة (هكذا) التي ورثوها عن أجدادهم البرتغال".

- Ennes, "The Palmers Republic of Pernambuco: Its Destruction, 1697", The Americas 5, no. 2 (October 1948): 200.

(73) Ibid., p. 201.

(74) Arthur Ramos, The Negro in Brazil, Associated Publishers, Washington D. C., 1951 (orig. 1939), 39-40.

- ويقول ستيوارت شفارتس: "طوال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ البرازيل، كان هناك خط متصل من مقاومة الرقيق وخوف المستعمرين".

- Stuart Schwarz, "The Mocambo: Slave Resistance in Colonial Bahia", Journal of Social History 3, no. 4 (Summer 1970): 313.

(75) A. J. R. Russel-Wood, "Black and Mulatto Brotherhoods in Colonial Brazil: A Study In Collective Behavior", Hispanic American Historical Review 54, no. (November 1974): 571.

– ويؤكد راسل وود في ص ٥٧٣-٥٧٤ في نفس المقال أن: "وجـــود مجموعـــات الرقيق الهاربين واضطرابات السود والملاتو (والتي تعتبر في الحقيقة أقل حدوثا على خلاف ما تشير إليه المراسلات التي تمت بين المحافظين ومجـــالس المـــدن والمهووسة بالهروب) يمكن أن يقدم كدليل على التماسك النفسي لدى هذا الشعب. وفي الحقيقة، فإن هذه التحالفات التي ثبت أنها مؤقتة وهـــشة جـــدا لـــم تـــستطع مواجهة التحدي لفترة زمنية طويلة". ويشير هذا التعليـــق والتعليقـــات المماثلـــة بالإضافة إلى مراجعات المواد الذاتية والمرجعية لهذا المقال ودراســـته الـــسابقة (Fidalgos and Philanthropists, University of California Press, Berkeley, 1968) إلى أن راسل وود اختار أن يتجاهل أو يستبعد معظم دراســـات الـــسود في البرازيل والتي ركزت على الهاربين.

(76) Schwarz, "The Mocambo", op. cit., p. 317.

(٧٧) تتمثل الأعمال الممثلة لمن لم يذكروا في مكان آخر فيما يلي:

- Edlson Carneiro, Guerras de Los Palmares (1944),
- Ladinos e crioulos (1964);
- Donald Pierson, Negroes In Brazil (1942);
- Raymundo Nina Rodrigues, Os Africanos no Brasil (1935).

(78) Irene Diggs, "Zumbi and the Republic of Os Palmares", Phylon 14, no. 1 (1953): 62.

(79) R. K. Kent, "Palmares: An African State in Brazil", Journal of African History 6, no. 2 (1965): 167-69.

(80) Ibid., p. 162.

(81) Ibid., p. 172.

(82) Ibid., pp. 172-73.

(83) Ramos, op. cit., p. 61; see also Diggs, op. cit., pp. 62-70.

(٨٤) كتب راموس: "قامت تقاليد واستخدامات المستوطنات على أسس البانتو مع بعـــض التغيرات والتعديلات التي تطلبتها حاجات المجتمع في العالم الجديد. ولكن مصادر معلوماتنا ليست كافية بالنسبة لهذه النقطة، بالإضافة إلى نقاط أخرى عديدة"(المرجع

السابق، ص ٦٥). وبعد ذلك بربع قرن تقريبا، أكد كنت أنه: "بافتراض أن مدينة لواندا (على الساحل الغربي لأفريقيا) كانت نقطة الانطلاق الرئيسة لرقيق بيرنامبوكو، والذي تأكد بالأدلة اللغوية، لا يمكن أن يكون نموذج المستوطنات قد جاء من أي مكان آخر سوى وسط أفريقيا. فهل يمكن تحديد ذلك؟... ولكن الإجابة المنطقية تتمثل في أن النظام السياسي لم ينبع من نموذج معين في أفريقيا الوسطى، ولكنه نبع من عدة نماذج. ولكن الدراسة التفصيلية للمستوطنات من خلال مصادر إضافية في سجلات أنجولا وتور دو تومبو Torre do Tombo هي التي يمكن أن تتقح الإجابة". كنت، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٨٥) كتب جورج بالانديير: "يتضمن إجراء تنصيب الحاكم... محاولة التعزيز. وهكذا فإنه في مملكة الكونغو القديمة، كان ذلك يمثل عودة رمزية للأصول، وذلك من خلال طقوس تجمع الملك الجديد والشيوخ والشعب، وتتضمن الشركاء المؤسسين: أحفاد المؤسس وممثلي قدامى شاغلي الإقليم الذي يمثل الإمارة الملكية، والذين أصبحوا "حلفاء" ملوك الكونغو. ويثير هذا أرواح الملوك الأوائل... ويعود ذلك إلى عصر تاريخ أصبح أسطورة، ويكشف أن الملك هو "صانع" وحارس وحدة الكونغو. ولا يقتصر تتويج الملك على تأكيد شرعية السلطة التي يشغلها فحسب، بل يؤكد على تجديد المملكة أيضا. ويعطي الشعب الإحساس ببداية جديدة (الفترة)".

- Balandier, Political Anthropology, Pantheon, New York, 1970, p. 114,
- Balandier, Daily Life in the Kingdom of the Kongo, Meridian, New York, 1969, chap. 1.

(86) Ennes, op. cit., p. 213; Kent, op.cit., p. 173.

(87) Ennes, Ibid., pp. 209-10; Kent, op.cit., pp. 173-74.

(٨٨) يتمثل توضيح الأخلاقيات التي يشير إليها إينيس بالتوافق في المشاعر التي يعبر عنها الكولونيل دومينجوس جورج فيلهو أثناء تبريره لإجباره السكان المحليين الهنود على الالتحاق بجيشه: "إننا نضخم قواتنا، ومن خلالهم سنشن الحرب على أولئك المعاندين الذين يرفضون الاستسلام؛ وإذا استفدنا منهم بعد ذلك في الزراعة، فإننا لا نظلمهم بذلك، لأنه بهذه الطريقة يمكن أن نعولهم هم وأطفالهم كما نعول أنفسنا وأطفالنا؛ وما دام أن هذا ناتج عن استرقاقهم فإنه يعني تقديم معروف لا يقدر بثمن، لأنه يعلمهم الحرث والزرع والحصد والعمل من أجل إعالة أنفسهم – وهو الشيء الذي كانوا يجهلونه قبل أن يعلمهم البيض". إينيس، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(89) Ramos, op. cit., p. 40.

(90) Barbara Klamon Kopytoff, "The Early Development of Jamaican Maroon Societies", William and Mary Quarterly 35, no. 2 (April 1978): 287.

(91) See Irene Wright, "The Spanish Resistance to the English Occupation of Jamaica 1655-1660", Royai Historicai Society, Transactions, 4th ser., vol. 12 (1930): 111-47 (cited by Kopytoff, op. cit., p. 289 n, 4).

(92) See H. Oriando Patterson, "Slavery and Slave Revolts: A Sociohistorical Analysis of the First Maroon War, 1665-1740", in Richard price (ed.), Maroon Societies, op. cit., pp. 253-55.

(93) David Buisseret and S. A. G. Taylor, "Juan de Bolas and His Pelinco", Caribbean Quarterly, 24, nos. 1, 2 (Marsh/June 1978): 5.

(94) Ibid., p. 6.

(95) Kopytoff, op. cit., pp. 288-92; and H. Orlando Patterson, The Sociology of Slavery, Fairleigh Dickinson University Press, Rutherford, 1969, pp. 267-69.

(96) Kopytoff, op. cit., p. 293: and also Patterson, "Slavery and Slave Revolts", op. cit., p. 258.

(97) Kopytoff, op. cit., p. 299.

(98) Michael Craton, Sinews of Empire, Anchor, Garden City, 1974, p. 218; and also Patterson, The Socioiogy of Siavery, op. cit., pp. 185-95.

(٩٩) كتب راموس متذكرا تقارير المستوطنات في منتصف القرن السابع عشر: "كان المجتمع يشمل العديد من الحرفيين وملكا تحكمه عدالة صارمة، حيث لا يسمح برجال الطب ولا أطباء السحر بين شعبه". راموس، مرجع سابق، ص ٥٧.

(100) See Mary Douglas, Purity and Danger, Frederick Praeger, New York, 1966, pp. 94-108.

(101) See "Return of Trials of Slaves: Jamaica, 1814-1818, Colonial Office 137-147, Public Records Office, London.

(102) Patterson, Sociology of Siavery, op. cit., p. 192.

(103) See Monica Schuler, "Alas, Alas, Kongo", A Social History of Indentured African Immigration into Jamaica, 1841-1865, John Hopkins University Press, Baltimore, 1980, pp. 46, 136-37 n. 9; and Craton, Sinews of Empire, op. cit., p. 366 n. 67.

(104) Escalante, op. cit., pp. 77-78.

- يرى لين سميث أن: "بعض المواد مثل الخطاب المؤرخ في ٢٤ يوليـــو ١٥٤٥، والذي أرسله السيد ميجل أمينداريز إلى الملك، يوضح أن الأمر لم يقتصر على وجود عدد كبير من الرقيق في المستعمرة فحسب، بل إن الكثيرين منهم خرجوا عن السيطرة تماما أيضا. حيث أثار هذا المسئول اتهامات خطيرة ضد حكومـــة قرطاجنة، مدعيا أنه طوال أكثر من تسع سنوات كان الرقيق الهاربون خارجين عن السيطرة، ويجبرون الهنود على العمـــل لـــصالحهم، وينهبـــون المـــزارع، ويسرقون النساء. وعندما كتب الخطاب كان الرقيق الهاربون قد أكملوا إغـــارة على أهل تافيم Pueblo of Tafeme، حيث قتلوا أكثر من ٢٠ شخصا، وســـرقوا الذهب وأشياء أخرى ثمينة، ودمروا حقول الذرة، وأخذوا أكثر من ٢٥٠ هنديا".

- Smith, "The Racial Composition the Population of Colombia", Journal of Inter-American Studies 8, no. 2 (April 1966): 229.

- وبالنسبة لاقتصاد إقليم رواسب الذهب، انظر

- William F, Sharp, "The Profitability of Slavery in the Colombian Choco, 1680-1810", Hispanic American Historical Review 55, no. 3 (August 1975): 468-95.

(١٠٥) يقول روت إن بنكوس "سجن وشنق بـــشكل تعـــسفي". روت، مرجـــع ســـابق، ص ١١٠.

(106) Escalante, op. cit., p. 79.

(١٠٧) "في عام ١٧٩٠، كان الكابتن لاتور Captain Latorre يحاول مسح طريق عبـــر المرتفعات من قرطاجنة إلى الداخل، حيث اتصل بالزنوج، وكان الكثير منهم من أحفاد الهاربين من سان باسيليو الذين لم يقبلوا العفو في ١٦١٢ أو ١٦١٣. ونشب عدد من المعارك الدموية قبل الوصول إلى تسوية... وبعد كل ذلك، ظل الهاربون من مستوطنة سان باسيليو الأصلية مستقلين تماما طوال قـــرنين تقريبـــا" (روت، مرجع سابق، ص ١١٠). ويقدم ويليام شارب مفهوما تاريخيا مختلفا عـــن روت وسميث. حيث يعلن شارب: "شكل الهاربون مشكلة مزمنة، وفي الحقيقة كان كل سجل للرقيق يسجل هروب واحد أو أكثر من الرقيق. ومـــع ذلـــك، وباســـتثناء ١٧٢٨، لم يكن هناك هروب جماعي، ومعظم الرقيق الذين هربـــوا فـــي ١٧٢٨ أسروا ثانية بسرعة" (شارب، مرجع سابق، ص ٤٨٠). ونظرا لأن شارب يعتمد على سجلات رسمية، فربما كان قد استخدم شك السيد أمينداريز فـــي المـــصادر الرسمية بصورة بناءة (انظر الملحوظة ١٠٤). وهكذا فإن شـــارب لا يـــستطيع تفسير تأييد سميث المستقل لتقرير أمنداريز، وفي ذلك يقول: "مـــن الطريـــف أن نلاحظ أن هذا الجزء مما يعرف الآن بقسم بوليفار يعتبر واحدا من الأماكن القليلة في كولومبيا التي تأتي منها تقارير عن مجتمعات زنوج لا تزال اللغة والـــرقص والزي الأفريقي محفوظا فيها. ويقال إن هذه المجموعات الصغيرة من الزنـــوج تصر تماما على الزواج بين أفراد القبيلة". سميث، مرجـــع ســـابق، ص ٢٢٩، ملحوظة ٢٣.

(١٠٨) روت، مرجع سابق، ص ١١٢. ويتبع التقرير التالي عن تمردات الرقيق في فنزويلا أسلوب روت كثيرا.

(١٠٩) انظر جوزيه فرانكو، مرجع سابق، ص ٣٦.

(١١٠) "هناك الآن ست قبائل زنوج أدغال وهي: الديوكا Djuka، وساراماكا Saramaka (يتراوح عدد سكان كل منهما ما بين ١٥ ألف إلى ٢٠ ألف نسمة)، والماتاواي Matawai، ألوكو Aluku، باراماكا Paramaka (يقترب عدد سكان كل منها من ألفي نسمة)، وكوينتي Kwinti (أقل من ٥ آلاف نسمة)".

- Richard Price, The Guiana Maroons: A Historical and Bibliographical Introduction, Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1976, pp. 3-4.

111- Ibid., p. 2.

112- Ibid., p. 9.

(١١٣) المرجع السابق، ص ٢١. وتصر مونيكا شولر في كتابتها عن الثورات التي وقعت في سورينام في أواخر القرن الثامن عشر على استمرار النزعة العرقية في المنطقة، ولكنها تعتبر غامضة بالنسبة لمجتمعات الهاربين: "في ١٧٥٧ ثم في ١٧٧٢، اندلعت تمردات الرقيق واسعة النطاق في سورينام. ويبدو أن شعب أكان Akan لعب دروا مهمًا في هذا الشأن، وكان زنوج الأدغال لا يمكن الاستغناء عنهم بالنسبة لهم. حيث استمر تمردهم لعدد من السنوات مع انتقال القيادة فعليا إلى أحد أبناء الهاربين المولود حرا".

- Schuler, "Ethnic Slave Rebellions in the Caribbean and the Guianas", Journal of Social History 3, no. 4 (Summer 1970): 379.

(١١٤) برايز، مرجع سابق، ص ٢١.

(١١٥) المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.

(١١٦) المرجع السابق، ص ٢٤. حيث يشير برايز إلى تقرير كتبه جان هارتسنك في ١٧٧٠.

(١١٧) المرجع السابق: والاقتباس من هيرلاين، ١٧١٨.

(١١٨) المرجع السابق، ص ٢٦.

(١١٩) المرجع السابق، ص ٢٧.

(١٢٠) المرجع السابق، ص ٣.

(121) Johannes King, "Guerrilla Warfare: A Bush Negro View", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, op. cit., pp. 302-4.

(١٢٢) أصبح لتاريخ زنوج الأدغال نهاية طريفة مؤخرا: "عبر الزعماء القبليون لزنوج الأدغال عدة مرات عن رغبتهم في رحلة إلى غرب أفريقيا، أرض أجدادهم، من أجل إعادة التواصل... وقد تحققت الرحلة [الموصوفة هنا] عن طريق حكومة سورينام خلال ثلاثة أسابيع في نوفمبر ١٩٧٠".

- Sylvia W. de. Groot, "The Bush Negro Chiefs Visit Africa: Diary of an Historic Trip", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, pp. cit., p. 388.

- ويسجل دى جروت الملاحظة التالية التي أبداها أحد الزعماء عقب زيارته إلى ملك غاني: "علق جرانمان جازون Granman Gazon وهو يتحدث بأسلوب حكاية رمزية: 'خرج كلب من ساحته. ولم يلاحظ سيده ذلك، أو على الأقل لم يهتم بذلك، ولم يذهب للبحث عنه لإعادته. وعندما شعر الكلب بالجوع في النهاية، حاول أن يجد طريق العودة إلى البيت'. وبينما كان يفسر هذا المعنى، 'نام الكلب وسيده (الملك) لمدة ثلاثمائة سنة. والآن استيقظ الكلب وأيقظ سيده أيضا'" (ص ٣٩٤).

(123) See Rout, op. cit., pp. 119-20; Schuler, "ethnic Slave Rebellions", op. cit., p378-82; Francisco Perez de la Riva, "Cuban Palenques", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, op. cit., pp. 49-50; and Jose L. Franco, op. cit., pp. 41-43.

(١٢٤) "سيطر على الفترة من ١٦٠٠ إلى ١٧٥٠ جهود إنجلترا وفرنسا للإطاحة بهيمنة هولندا أولا، ثم الصعود إلى القمة ثانيا. وفي هذه الفترة الطويلة من الركود النسبي... عانت المناطق الهامشية كثيرا من الاستغلال المفرط للمنتجين المباشرين، وانخفاض ميزة طبقة المستغلين المحليين (انخفضت بالمقارنة بالطبقات المماثلة في الدول الكبيرة)".

- Immanuel Wallerstein, The Modern World System II, Academic Press, New York, 1980, p. 241.

(١٢٥) استخدم طومسون أولا مصطلح "قطع الطريق" لوصف هذه الظاهرة. وفي ١٩٦٥، بينما كان يصف السلطة في إنجلترا والتي تبلورت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كتب: "يجب ألا تعتبرها الأرستقراطية حكومة... ويجب اعتبارها تطفلا - ومجرد احتيال، والتي لا يستطيع الملك ذاته اقتحامها إلا إذا تحول إلى مجرد عامل فيها. ولكنها لم تكن طفيلية تماما: فلا بد من تسيير شئون الدولة، ومن وقت لآخر يجب استرضاء النخبة "المستقلة" - وممثليها في البرلمان - فقد كانت هناك بعض المناسبات (على الرغم من أنها كانت تستدعى للمشهد واحدة تلو الأخرى عندما كان أتباع نامير Namier يقتحمون سجلات آخر المافيات العظيمة) حيث كانت تراعي مصالح الأمة أو الطبقة، وليس الأسرة أو الطائفة. ولم تكن مجرد تطفل فقط أيضا: فنظرا لأنها كانت تدار على هذا النطاق الضخم، ومن قواعد في الثروات الخاصة والعامة بهذا الحجم، وتمارس تأثيرها الذي وصل بكل الوسائل المباشرة إلى الجيش والبحرية والشركات المستأجرة والكنيسة والقضاء،

كان يجب أن تتحول إلى شيء يشبه الضيعة وأن تحيط نفسها بشرنقة من المبررات الأيديولوجية، وأن تتبنى نمط حياة يقوم على الاستهلاك الظاهر - والمثير فعليا - والذي يرتبط بالأرستقراطية الحقيقية".

- Thompson, "The Pecullarltles of the English", in Thompson's The Poverty of Theory, Monthly Review Pres, New York, 1978 (orig. 1965), pp. 258-59; and

- Thompson, Whigs and Hunters, Pantheon, New York, 1974, p. 294.

(١٢٦) "بالنسبة للتجارة الغربية في النصف الأول من القرن الثامن عشر، كان السكر يأتي أولا، ثم الرقيق الذين أنتجوا هذا السكر ثانيا. ومن الواضح أن إنجلترا سيطرت على تجارة العالم في السكر منذ ١٧٠٠، ولكن بحلول ١٧٥٠، انتقلت السيطرة إلى فرنسا".

- Wallerstein, The Modern World System II, op. cit., pp. 269-70.

(127) See F. Nwabueze Okoye, "Chattel Slavery as the Nightmare of the American Revolutionaries", William and Marry Quarterly 37, no. 1 (January 1980): 3-28,

- وذلك للاطلاع على مناقشة دقيقة للألغاز التي تربك القوميين الأمريكيين الذين "ينبع غضبهم من اقتناعهم بأن السود فقط في أمريكا هم الذين يستحقون حالة الرق" (ص ٣).

(128) Monica Schuler, "Ethnic Slave Rebelllons", op. cit., p. 379.

(129) See Forest Wood's Black Scare, op. clt.

(١٣٠) يتذكر جون نيلسون الواعظ الإنجليزي البروتستانتي (الطائفة الميتودية Methodism) في أواخر القرن الثامن عشر أحد كوابيسه: "كنت أحلم بأنني في يوركشير، وكنت ذاهبا من قمة تل جوميرسال إلى كلكهيتون، وفي منتصف الطريق تقريبا، اعتقدت أنني رأيت الشيطان قادما لمقابلتي في شكل رجل أسود طويل، وكان شعر رأسه مثل الثعابين؛... ولكنني تقدمت وفتحت ثيابي، وأظهرت له صدري العاري قائلا، "انظر، هنا دم المسيح". ثم رأيت أنه هرب مني بأسرع مما يستطيع الأرنب".

- Quoted by E. P. Thompson In The Making of The Working English Class, Vintage, New York, 1966, p. 39.

(131) Joshua Giddings, The Exiles of Florida, Follett, Foster and Co., Columbus, 1858, p. 2.

(١٣٢) "كانت تمردات الرقيق حقيقة مألوفة في أمريكا في القرن الثامن عشر. ويمكن أن يفسر هذا لماذا نجد أن معظم المؤرخين الذين درسوا السود في الفترات الاستعمارية والثورية لم ينساقوا أبدا إلى الجدل حول وجود الرقيق المطيعين، والذي سيطر على دارسي الرق في القرن التاسع عشر لفترة طويلة".

- Jeffrey J. Crow, "Slave Rebelliousness and Social Conflict in North Carolina, 1755-1802", William and Marry Quarterly 37, no. 1 (January 1980): 80.
- See also Herbert Aptheker, American Negro Slave Revolts, International Publishers, New York, 1964 (orig. 1943), p. 172;
- Herbert Aptheker, "Negro Slave Revolts in the United States, 1526-1860", in Aptheker, Essays in the History of the American Negro, International; Publishers, New York, 1945, p. 19;
- For the Stono uprising see Peter Wood, Black Majority, Norton, New York, 1975.

133- Gerald (Michael) Mullin, Flight and Rebellion, Oxford University Press, New York, 1972, pp. 89-103.

- تقوم استنتاجات مولين الكلية على دراسة الإعلانات المنشورة في الفترة (١٧٣٦-١٨٠١). وهكذا فإن رقم ١٥٠٠ لا يمكن اعتباره تقديرا حقيقيا لأعداد الهاربين خلال هذه الفترة. حيث يوضح كثير من مؤرخي الرق في سياقات مختلفة أسباب ذلك: "فليس كل المزارعين يعلنون في الصحف المحلية عن الهاربين. والإعلان قد يقود خاطفي الرقيق القساة إلى القضاء".

- Leslie Owens, op. cit., p. 87;

- ويبدو أن الرقيق كانوا يحاولون أو يخططون للتمرد مرارا. ولأسباب واضحة، لا تعتبر المصادر المنشورة دقيقة في هذا الشأن - حيث امتنعت مجلة كارولينا الجنوبية عن ذكر حادثة ستونو Stono التي حدثت على بعد ٢٠ ميلا من مدينة تشارلزتاون Charlestown".

- Peter wood, op. cit., p. 298;

- وقد ذكر هربرت أبتيكر أن: "مجلة كارولينا الجنوبية علقت في ٣١ مايو بالقول: 'قدمت لنا أسباب وجيهة لعدم نشر أية تقارير عن الاضطرابات في هذه المجلة، خاصة في هذا الوقت'".

- Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., p 197, n. 98.

(١٣٤) "خلال العقدين التاليين لسنة ١٦٩٥، عندما وصل إنتاج الأرز إلى ذروته في كارولينا الجنوبية، وصلت نسبة الأفارقة من السكان إلى نسبة الأوروبيين ثم تخطتها. وربما لم يزد عدد السكان السود على عدد السكان البيض حتى ١٧٠٨ تقريبا. ولكن مهما كانت السنة التي تحققت فيها الأغلبية للسود، فإن هذا التطور لم يكن مسبوقا في المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، وكان ظاهرا تماما لفترة طويلة قبل أن يسيطر التاج الإنجليزي على تسوية الممتلكات في ١٧٢٠".

- Peter Wood, op. cit., p. 36.

- ويعلق وود في مكان آخر قائلا: "لا تبدو فكرة أن القادمين الجدد من أفريقيا كانوا يمثلون الرقيق الأكثر ميلا للتمرد، وذلك لأن أواخر ثلاثينيات القرن الثامن عشر - وهي الفترة التي شهدت اضطرابات مثيرة - كانت هي أيضا فترة أكبر استيراد للرقيق. وفي الحقيقة، فإنه لا في وقت سابق ولا في وقت لاحق كان الأفارقة القادمون حديثا (والذين يمكن أن نعرفهم بصورة عمومية بأنهم كل أولئك المهاجرين الرقيق الذين كانوا في المستعمرة لفترة أقل من عقد) يشكلون مثل هذه النسبة الكبيرة من السكان الزنوج في كارولينا الجنوبية. فبحلول ١٧٤٠، وصل عدد السكان السود في المستعمرة إلى ٣٩ ألف نسمة تقريبا". المرجع السابق، ص ٣٠١-٣٠٢. وانظر أيضا

- Mary Berry, Black Resistance/White Law, Appleton-Century-Croft, New York, 1971, p. 3.

(135) Harvey wish, "American Slave Insurrections Before 1861", in William Chace and Peter Collier (eds.), Justice Denied, Harcourt, Brace and World, New York, 1970, p. 84.

(١٣٦) بالنسبة للثورات السابقة، انظر

- Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 173-74, 182-91.

- وبالنسبة للمبادرة الأسبانية في ثلاثينيات القرن الثامن عشر، انظر

- Wood, op. cit., pp. 306-7.

(137) P. Wood, op. cit., p. 306.

(138) Ibid., p. 308;

- Joshua Coffin, "An Account of Some of the Principal Slave Insurrections", in (no author), Slave Insurrections, Selected Documents, Negro University Press, Westport, 1970 (orig. 1860), p. 14.

(139) Ibid., op. cit., pp. 308-9, pp. 322-23.

(140) Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 195-96.

- كان لورانس تاجرا ثريا في شارلستون.

(141) See ibid., pp. 17-18. See also: The Negro in Virginia, Virginia Writers' Project, Hastings House, New York, pp. 147-87.

(142) See "Punishment for a Negro Rebel", Documents, William and Mary Quarterly, ser. 1, vol. 10. No. 3 (January 1902): 178.

(143) Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 169-78; and The Negro in Virginia, op. cit., pp. 126-27, 140-41.

(144) Ibid., p. 179.

(145) Allan Kulikoff, "The Origins of Afro-American Society in Tidewater Maryland and Virginia, 1700-1790', William and Mary Quarterly 35, no. 2 (April 1978): 238-39.

(146) Philip Curtin, The Atlantic Slave Trade, op. cit., p. 143.

(147) See Mullin, op. cit., pp. 110-12, 129.

(148) Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 197, 199-200.

(١٤٩) وردت أرقام تعداد سكان ١٧٩٠ في:

- Ira Berlin, Slaves Without Masters, Vintage, New York, 1974, p. 23.

(150) Jack D. Foner, Blacks and the Military in American History, Praeger, New York, 1974, p. 8.

- وكتب ميشيل مولين: "حذر جورج واشنطون من أنه إذا كان سكان فرجينيا يتمتعون بالحكمة، فإن خائن القوس... دونمور Dunmore يجب أن يسحق فورا، حتى إذا تطلب الأمر قوة كل الجيش، وإلا فإن جيشه سيكبر مثل كرة الثلج المتدحرجة. مولين، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(151) Crow, op. cit., p. 83.

(152) Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 19-20.

(١٥٣) "كان كل من الإدارة البريطانية ورقيق فرجينيا يدركون بعضهم البعض طوال القرن الثامن عشر. ومع اقتراب الثورة، أصبح واضحا بصورة متزايدة للرقيق أن البريطانيين كانوا من الرجال البيض الذين لديهم رؤية مختلفة كثيرا عن الرق مقارنة بسادتهم. وعلى سبيل المثال، شجعت شائعات قضية سومرست Somerset Case الرقيق حتى من أبعد المناطق على الهرب ومحاولة تأمين ممر إلى إنجلترا. (وصلت أخبار قرار اللورد مانسفيلد - الذي حرر في الواقع كل الزنوج الذين جاؤوا إلى إنجلترا كرقيق - إلى المستعمرة في صيف ١٧٧٢)". مولين، مرجع سابق، ص ١٣٠-١٣١.

(154) Crow, op. cit., p. 89.

(155) See Benjamin Quarles, The Negro in the American Revolution, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1940, pp. 51-67;

- Winthrop Jordan, White Over Black, op. cit., pp. 302-3;
- Jack Foner, op. cit., pp. 3-19, 246; and
- Sidney Kaplan, The Black Presence in the Era of the American Revolution, 1770-1800, New York, Graphic Society, Greenwich, 1973, pp. 31-71.

(156) See Benjamin Quarles, "Lord Dunmore as Liberator", William and Mary Quarterly 15, no. w)October 1958): 494-507; and Jack Foner, op. cit., p. 15.

(١٥٧) "حققت الثورة الأمريكية بعض المكاسب للسود. حيث حصل بعض الرقيق في الواقع على الحرية الموعودة مقابل الخدمة العسكرية. ومع ذلك، لم يتحرر كل الرقيق الذين حاربوا من أجل القضية الوطنية في الواقع. ففي ١٧٨٢، باعت فرجينيا كل الرقيق المملوكين للدولة تقريبا. وفي أماكن أخرى، كان على السود مقاومة محاولات سادتهم لإعادة استرقاقهم عند انتهاء مدة التجنيد.... ومن المفارقات أنه يبدو أن الرقيق الذين حصلوا على حريتهم بالخدمة مع الإنجليز كانوا أكثر من الرقيق الذين حصلوا على حريتهم بالخدمة مع الوطنيين". فونر، مرجع سابق، ص ١٧-١٨.

(158) Crow, op. cit., pp. 93-94. See also, Herbert Aptheker, "Maroons Within the Present Limits of the United States', in Richard Price (ed.), Maroon Societies, op. cit., pp. 153-54.

(159) See Aptheker, American Negro Slave Revolts, op. cit., pp. 106-7.

(160) T. O. Ott, The Haitian Revolution, University of Tennessee Press, Knoxvile, 1973, p. 4.

- "ومنذ حوالي نهاية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٧)، وعند توقيع معاهدة ريسفيك Ryswick، حيث حققت فرنسا سيطرة كاملة على الجزء الغربي من هسبانيولا، هاييتي، شهدت المستعمرة ما يمكن أن يطلق عليه "عصر الظلام".

- Alex Dupuy, "Spanish Colonialism and the Origin of Underdevelopment in Haiti", Latin American Perspectives, iss. 9, vol. 3, no. 2 (Spring 1976): 27.

(161) Ibid., p. 5; and T. Lothrop Stoddard, The French Revolution in San Domingo, Houghton Mifflin, Boston, 1914, chapters 4 and 5.

(162) Stoddard, op. cit., pp. 50-52; and David Nicholls, From Dessalines to Duvalier, Cambridge University Press, Cambridge, 1979, pp. 19-24.

(163) Norman Stone, "The Many Tragedies of Haiti", Times Library Supplement, 15 February 1980, p. 161.

(164) James, The Black Jacobins, Vintage, New York, 1963, (orig. 1938). P. 50.

(165) The quote is from Stoddard, op. cit., p. 50.

(166) Ibid., p. 51.

(167) Ibid., p. 53.

(168) Ibid., pp. 62-63.

(169) Yvan Debbasch, "Le Maniel: Further Notes", in Richard Price (ed.), Maroon Societies, op. cit., p. 145;

– وبالنسبة للإسهامات الأخرى في الكاريبي الفرنسي، انظر

- Gabriel Debien, "Marronage in the French Caribbean", ibid., pp. 107-34;
- M. L. E. Moreau de Saint-Mery, "The Border Maroons of Saint-Domingue: Le Maniel", ibid., pp. 135-42; and
- Nicholls, op. cit., pp. 24, 31, 32.

(170) See David Nicholls, op. cit., pp. 24, 261-62; and ott, op. cit., p. 18.

(171) Nicholls, ibid.; James, op. cit., pp. 20-22.

(172) For the "Swiss" see James, op. cit., pp. 98-100; and Ott, op. cit., pp. 51-52.

(173) See David Nicholls, "A Work of Combat: Mulatto Historians and the Haitian Past, 1847-1867", Journal of Interamerican Studies and World Affairs 16, no. 1 (February 1974): 15-38.

(174) Nicholls, From Dessalines to Duvalier, op. cit., p. 31.

– حيث يشير نيكولز إلى

- J. Leyburn, The Haitian People (1941), p. 15.

(175) Ibid.

(١٧٦) كتب شتودارد: "عندما وصلت الإشاعات الأولى إلى فرنسا عن تمرد الزنوج الكبير في أغسطس، ١٧٩١، كتب ضابط متقاعد من الفرسان خطابا مفتوحا إلى إحدى الصحف اليومية محذرا من المبالغة. حيث كان يعتقد أن التقارير التي كانت متداولة آنئذ ربما كانت تستند إلى بعض الأخبار عن الهروب المزمن، وقدم تصورا لتجربته الخاصة التي تصور حالة حرب العصابات الحقيقية". شتودارد، مرجع سابق، ص ٦٤.

(١٧٧) جيمس، مرجع سابق، ص ٥١. حيث كان جيمس يشير مباشرة إلى المؤرخين البريطانيين الذين اهتموا بصفة خاصة بإلغاء بريطانيا للرق، وقد تناول أعمالهم بصفة خاصة إيريك ويليامز في كتابه "الرأسمالية والرق"، مرجع سابق.

(١٧٨) هذا الملخص للأيام الأولى من ثورة هاييتي مقتبس مــن أوت، مرجــع ســابق، ص ٤٧ ف ف؛ وجيمس، مرجع ســابق، ص ٨٥ ف ف. والاقتبــاس الأخيــر من أوت، مرجع سابق، ص ٥١.

(١٧٩) انظر جيمس، متفرقات.

(١٨٠) المرجع السابق، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(181) See Jack D. L. Holmes, "The Abortive Slave Revolt at Point Coupee, Louisiana, 1795", Louisiana History 11, no. 4, (Fall 1970): 341-61.

(182) Eugene Genovese, From Rebellion to Revolution, Louisiana State University Press, Baton Rouge, 1979, pp. 95-96.

(183) W. E. B. Du Bois, Black Reconstruction, Atheneum, New York, 1962, p. 12.

(184) See Robert Conrad, The Destruction of Brazilian Slavery, 1850-1888, University of California Press, Berkeley, 1972, pp. 281-83,

- المصدر الأصلي للرقم هو

- Agostinho Perdigao Malheiro, A escravidao no Brasil, 1944.

(185) See R. K. Kent, "African Revolt in Bahia: 24-25 January 1835", Journal of Social History 3, no. 4 (Summer 1970): 335; and Conrad, op. cit., 6-9.

(186) Quoted by Conrad, op. cit., p. 13.

(187) Ibid., p. 7.

(188) Leslie Bethell, "The Independence of Brazil and the Abolition of the Brazilian Slave Trade: Anglo-Brazilian Relations, 1822-1826", Latin American Studies 1, no. 2 (November 1969): 117.

- ويعلق جواو باندیا كالوجيراس قائلا: "طوال ثلاثة قرون كان الرقيــق يمثلــون الشكل الوحيد من العمل، وكانوا أساس التقدم المادي للبرازيل. وكانــت عمالــة البيض... غير متاحة غالبا".

- Joao Pandia Calogeras, A History of Brazil, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1959, p. 146.

(189) Conrad, op. cit., p 12.

(190) Ibid., p. 13.

(191) Curtain, The Atlantic Slave Trade, op. cit., p. 29.

(192) Bethell, op. cit., pp. 117-18.

- وبالنسبة لسوابق القرن الثامن عشر في فشل السكان الرقيق في البرازيــل فــي التكاثر، انظر

- C. R. Boxer, The Golden Age of Brazil, op. cit., pp. 173-75.

(193) Bethell, op. cit., p. 118; and Craton, Sinews of Empire, op. cit., p. 244.
(194) Conrad, op. cit., p. 4.
(١٩٥) "عندما أصبح قمع [الحكومة البريطانية لتجارة الرقيق] أقوى، توقف استخدام علم البرازيل، وأصبح يحل محله بصورة متزايدة أعلام البرتغال وإسبانيا وأخيرا أمريكا الشمالية. وكانت آخر أمثلة التجارة تتمثل في القارب الشراعي ماري سميث Mary E. Smith، الذي قبض عليه في ميناء سان ماتيوس، إيسبريتو سانتو، وكذلك فيكري Vickery، وكلاهما في ١٨٥٥".
- Jose Honorio Rodrigues, Brazil and Africa, University of California Press, Berkeley, 1965, p. 174.
- ويقول رودريجيوس: "استفاد الرأسماليون الأمريكيون، وبناة السفن في نيويورك، بروفيدنس، بوسطن، سالم، بورتلاند، أو فيلادلفيا وبلتيمور، كثيرا من بيع سفنهم التي بنيت - وهم يعرفون ذلك - لهذه التجارة وبيعت قصدا للرحلات إلى ساحل أفريقيا". (ص ١٧٦).
(١٩٦) بالنسبة لدور بريطانيا في استقلال البرازيل، انظر بتهيل، مصدر سابق، متفرقات. وبالنسبة لدور رأس المال الإنجليزي في تجارة الرقيق البرازيلية، انظر إيريك ويليامز، الرأسمالية والرق، مرجع سابق، ص ١٣٢، ١٧٢، ١٧٦؛ رودرجيوس، مرجع سابق، ص ١٦٥، ١٦٨، ١٨١؛ بتهيل، مرجع سابق، ص ١٢١، ١٣٦؛ كونراد، مرجع سابق، ص ١٤؛
- Alan Manchester, British Pre-eminence in Brazil, Octagon Books, New York, 1964, p. 258 n. 23.
(197) Eric Williams, Capitalism and Slavery, op. cit., p. 172.
- إذ يقول ويليامز: "أخذت البرازيل ١/٢٠ من إجمالي الصادرات البريطانية في ١٨٢١، و١/١٢ في ١٨٣٢؛ وزادت الصادرات بمرتين ونصف". المرجع السابق، ص ١٣٢.
(١٩٨) المرجع السابق، ص ١٧٦.
(١٩٩) مانشستر، مرجع سابق، ص ٢٥٨، م ٢٣.
(٢٠٠) في ١٨٢٧، لاحظ المشرع البرازيلي كونها ماتوس Cunha Matos أن: "إنجلترا تتطلع إلى السيطرة على كل آسيا، وذلك عن طريق المستوطنات والحروب التي تقوم بها في أفريقيا، ولذلك يجب أن يفترض المرء أيضا أنها تتطلع إلى فرض سيطرتها على هذا الإقليم الكبير. حيث تتمتع دول الإقليمين بنفس السلع والمنتجات مثل البرازيل، ونظرا لأن البريطانيين يجب أن يفضلوا مناطقهم الخاصة، فإنهم سيبحثون بكل الوسائل عن وضع العقبات أمامنا؛ ولتحقيق هذا الهدف لا توجد طريقة أفضل من حرمان البرازيل من العمالة الإضافية: وهذه

هي السياسة البريطانية الحقيقية. وأنا أؤمن من أعماق قلبي بأن البرازيل ستتصل إلى الحصول على القطن والأرز من بنجويلا، والشمع من الصين، والسكر من تونكن: وإذا لم يحدث هذا في عصري، فإنه سيحدث في عصر أولادي الذين ربما يتذكرون توقعاتي هذه". اقتباس جوزى رودريجيوس، مرجع سابق، ص ١٥٤-٥٥. ويقول لورنس هل إن: "بعض النقاد الأمريكيين يانكي Yankee يدعون أن البريطانيين كانوا أكثر اهتماما بتأمين احتكار التجار البريطانيين لتجارة أفريقيا مقارنة باهتمامهم برفاهية الزنوج. وكان هذا يفسر رفض الإنجليز تدمير المصانع على الساحل الأفريقي، حيث كانت تخزن كل المؤن التي كانت تستخدم في شراء ونقل الرقيق، من أجل السلع؛ وكان ذلك تفسيرا للمعاهدات العديدة التي كانت ذات طبيعة تجارية أساسا، والتي تفاوضت عليها حكومة لندن مع الزعماء الأفارقة؛ ويؤيد ادعاء أن الطرادات البريطانية كانت تقدم جوائز لصائدي الرقيق بعد صعود الزنوج على السطح أكثر من ذي قبل. وهاجم نقاد آخرون الممارسة البريطانية التي كانت تسمح للزنوج المحررين من المحاكم بالارتباط بمزارعين بريطانيين في جويانا وجزر الهند الغربية لفترات من ثلاث إلى سبع سنوات. وكان من الصعب رؤية كيف يختلف هذا النظام المهني عن الرق الصريح، حيث كان يمتد أحيانا لثلاث فترات متتالية".

- Hill, "The Abolition of the African Slave Trade to Brazil", Hispanic American Historical Review 11, no. 2 (May 1931): 196-97.

(201) Cited by Kent, "African Revolt in Bahia", op. cit., p. 335, See also Conrad, op. cit., p. 283; and J. V. D. Saunders, "The Brazilian Negro", The Americas 15, no, 3 (January 1959): 271.

(٢٠٢) كنت، المرجع السابق، ص ٣٣٩. ومع ذلك، يجب أن نتذكر أن شعوب "أنجولا" القادمة من منطقة يحدها نهر زائير (الكونغو) في الشمال، والأطلنطي في الغرب، ونهر داندي في الجنوب، والكفانجو في الشرق، كانوا مسئولين عن بعض المستوطنات الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي حددها بوكسر: "كان من الواضح أن معظم الرقيق المصنفين على أنهم "عمال مناجم" كانوا ينتمون إلى مجموعة اليوروبا اللغوية، سواء كانوا ناجو Nagos أو جيجي Geges؛ ولكن المصطلح كان يشمل أيضا الفانتي أشانتي Fanti-Ashanti الناطقين بالتوي Twi، من أقصى الغرب والكالابار Calabar أو اليفيك Yefik من أقصى الشرق".

- The Golden Age of Brazil, op. cit., p. 176.

- ويقول كنت إن "الناجو كانت معروفة بأنها اللغة العامة للأفارقة الباهيين منذ مطلع القرن حتى ستينيات القرن التاسع عشر عندما انتقلت إلى البرتغاليين البرازيليين".

- Kent, "African Revolt in Bahia", op. cit., p. 339.

(203) Stuart Schwartz, "The Mocambo: Slave Resistance In Colonial Bahia", op. cit., p. 333.

(٢٠٤) يبدو أن جوزيه رودريجيوس خلط الحقيقة بالخيال عندما كان يكتب عن البرازيل في منتصف ستينيات القرن العشرين: "على الرغم من تنوع القبائل الممثلة في البرازيل، فإن البانتو كانوا مفضلين دائما لأنهم أقل استقلالا، وأكثر خضوعا، وأكثر تحفظا في السلوك، وأكثر احتراما في الحديث، وأكثر قدرة على التكيف. وكانوا يقبلون دين المسيحية، والأشكال الاجتماعية المفروضة عليهم. وكان النمط التقليدي للبانتو يتمثل في الأنجوليين. فقد كانوا أطول من غيرهم من الزنوج، وأقل غلظة، وكانوا قادرين على التواصل، ولبقين، وودودين. وكانت قبائل داهومي (الجيجي Jejes) أقل راحة، ومن أهمها الناجو، والمحمديون، الذين يأتون غالبا من شمال نيجيريا، وكانوا يسمون الماليين Males. وكان الهوسا أقل الزنوج خضوعا في البرازيل". رودريجيوس، مرجع سابق، ص ٤٤-٤٥.

(205) Calogeras, op. cit., 156.

(206) Rollie Poppino, Brazil, the Land and People, Oxford University Preww, New York, 1968, p. 167.

(207) Kent, African Revolt in Bahia", op. cit., p. 340.

(208) Jose Rodrigues, op. cit., p. 45.

- وكما سنرى قريبا، لم يكن رودريجيوس دقيقا. فقد شارك الهوسا في بعض هذه الحركات فقط.

(209) Kent, African Revolt in Bahia", op. cit., p. 343.

(210) Arthur Ramos, op. cit., p. 47.

- وللمزيد عن النساء الأفريقيات في البرازيل، انظر

- Mary Karasch, "Black Worlds in the Tropics: Gilberto Freyre and the Women of Color in Brazil", Proceedings of the Pacific Coast Council on Latin American Studies 3 (1974): 19-29.

(211) Ramos, op. cit., p. 48.

(212) Ibid., p. 44.

(213) Kent, African Revolt in Bahia", op. cit., p. 351-52.

(214) Ibid., p. 355.

(215) Ibid., p. 356.

(٢١٦) يبدو أن راموس قد ربط خطأ بين مجتمع أوبجوني Obgoni في يوروبا والهوسا. "من الضروري أن نتذكر أنه عند تخطيط ثورات الزنوج، كانت مجتمعات الهوسا السرية، المسماة أوبجوني أو أوهوجوبو Ohogobo، تلعب الدور الأهم". راموس، مرجع سابق، ص ٤٦.

(217) Quoted by Kent, African Revolt in Bahia", op. cit., p. 344.

(٢١٨) "في ١٧٤٧، وهي تحديدا السنة التي سمى فيها بيكفورد السكر بقمح الكاريبي، أظهر كيميائي بروسي، مارجراف Margraff، في اتصال بالأكاديمية الملكية للعلوم والآداب في برلين أن أنواعا مختلفة من البنجر المعروف بمذاقه الحلو تحتوي على سكر يمكن استخراجه وبلورته بطريقة بسيطة جدا. وعندما فشل ويلسرز Welsers وحاكم براندنبورج بروسيا في محاولة الحصول على مكان لألمانيا في نطاق الكاريبي، أظهر سكر البنجر أن ذلك المكان لم يكن مهما على أي حال".

- Eric Williams, From Columbus to Castro, op. cit., p. 135.

- وذكر ويليامز أيضا أن "توماس جفرسون تطلع بدوره أيضا في ١٧٩٠ إلى السكر الذي تنتجه عمالة الأطفال، كبديل للقصب الذي ينتجه الرقيق". المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٥. وفي فرنسا، وبعد الحروب الثورية والنابليونية، وخسارة أهم مستعمرات السكر، حلت صناعة بنجر السكر بنجاح محل القصب.

- See W. O. Henderson, The Industrial Revolution in Europe, op. cit., pp. 91-97; and

- Eric Williams, Capitalism and Slavery, op. cit. pp. 145-49.

(219) Williams, Capitalism and Slavery, op. cit. p. 149.

(220) Ibid., pp. 150-51.

(221) Williams, From Columbus to Castro, op. cit., p. 305; and

- Craton, Sinews of Empire, op. cit., 244.

(٢٢٢) "في الحقيقة، تم شحن ما لا يقل عن ٢٢ ألف رقيق ما بين مستعمرات الهند الغربية البريطانية بصورة شرعية بدرجة ما فيما بين ١٨٠٨ و ١٨٣٠". كراتون، المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٢٢٣) المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(224) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 109; and

- Williams, Capitalism and Slavery, op. cit. p. 54.

(225) B. W. Higman, "Slavery Remembered: The Celebration of Emancipation In Jamaica", Journal of Caribbean History 12 (1979): 55-56;

- Curtin, The Atlantic Slave Trade, op. cit., pp. 52-59.

(226) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 109 n. 30.

(227) Mary Reckord, "The Jamaican Slave Rebellion of 1831", Past and Present, 40, July 1968, p. 108.

(228) Craton, Sinews of Empire, op. cit., p. 201; and

- Williams, Capitalism and Slavery, op. cit. pp. 86-87.

(229) Williams, ibid., pp. 87-91.

(230) Craton, Sinews of Empire, op. cit., pp. 201-2 and pp. 205-6.

(231) Ibid., p. 201.

(232) Williams, Capitalism and Slavery, op. cit. pp. 145-46, 142-43.

- وقد أدرك جيمس مبكرا جدا نفس التحول في الولاء: "وجد البريطـانيون أنهـم سيكسبون ولا يخسرون بإلغاء النظام التجاري مع أمريكا. وكان هـذا أول درس كبير في مزايا التجارة الحرة. ولكن إذا كسبت بريطانيا، ستعاني جـزر الهنـد الغربية البريطانية. وبدأت البرجوازية الـصناعية الـصاعدة – التـي شـعرت بطريقها إلى التجارة الحرة والاستغلال الكبير للهند – في انتهاك جـزر الهنـد الغربية، وأطلقت عليها "الصخور العقيمة"، وتساءلت عما إذا كان يجب التضحية بمصالح واستقلال الأمة من أجل ٧٢ ألفا من السادة و ٤٠٠ ألف من الرقيق".

- The Black Jacobins, op. cit., 51-52.

(233) Craton, Sinews of Empire, op. cit., p. 270.

(234) Ibid., pp. 270-71.

(235) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 101-2.

(236) Private letters published under "Negro Insurrection', London times, 5 June 1816.

(237) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 117.

(238) Kopytoff, "The Early Political Development of Jamaican Maroon Societies:, op. cit., p. 300.

(239) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 105 n. 23.

(240) Williams, From Columbus to Castro, op. cit., pp. 304-6.

(٢٤١) أجرى بوكستون Buxton [توماس فويـل Thomas Fowell] مقارنـة ذات دلالـة بين الانخفاض المستمر في السكان الرقيق مقابل الزيـادة فـي الـسود الأحـرار. وأشار إلى أنه في السنوات العشر الأخيرة، تناقص عدد الرقيق فـي المـستعمرات الهندية الغربية، باستثناء المحررين، بحوالي ٤٦ ألف نسمة. ومن ناحيـة أخـرى، تزايد الزنوج الأحرار في هاييتي بحـوالي ٥٠٠ ألـف أو أكثـر مـن الـضعف في عشرين سنة".

- Richard Hat, Slaves Who Abolished Slavery, op. cit., 1:221.

(242) See Review, Proceedings of a General Court Martial held at the Colony House in George Town on Monday 13th Day of October 1823, Edinburgh Review, xl, LXXXIX (March 1824): 244-45, 250-53.

- Also cited in Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 105 n. 23.

(243) Craton, ibid., p. 106. For Smith's death see Proceedings of Court Martial, op. cit., 268ff.

(٢٤٤) "كانت الاستجابة العامة في البرلمان تتمثل في الصدمة من تمرد رقيق ديميـــرارا Demerara، الذي بدا أنه جاء استجابة لإجراءات التحسين، وأنه حدث فيما كـــان يعتبر أفضل الإقطاعيات حكما. المرجع السابق، ص ١٠٩. ولعب الحـــذف فـــي التقرير الرسمي عن التمرد دورا كبيرا في توجيه الرأي العام: انظر

- Proceedings of Court Martial. Op. cit., pp. 258-59.

(245) Slave Rebellion Trials: Jamaica 1832, Public Records Office, Colonial Office (C. O.) 137/185.

(٢٤٦) تعتقد ماري ريكورد أن عددا من الأمثلة الواردة في الدليل المقدم خلال "جلـــسات المحاكمات يثير الشك في الرقم الرسمي للرقيق المقتولين في التمرد". ريكـــورد، مرجع سابق، ص ١٢١. ومن الواضح أنها تميل إلى رقم أعلى. إذ إن ويليام لو ماتيسون قدر الرقم قبل ذلك "بحوالي ٤٠٠".

- William Law Mathieson, British Slavery and Its Abolition, Longmans, Green and Co., London, 1926, p. 214.

- ويتفق بيرن مع رقم ماتيسون.

- W. L. Burn, Emancipation and Apprenticeship in the British West Indies, Jonathan Cape, London, 1937, p. 94.

(247) For Henry Bleby, see his Death Struggles of Slavery, William Nichols, London, 1853.

(248) Reckord, op. cit., p. 120.

(249) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 114.

- ولاحظ ماتيسون: "لم يفقد الكثير من البيض أرواحهم في هذا الصراع - حيـــث لقي عشرة مصرعهم، وقتل اثنان عمدا، واحترق واحد أو اثنان فـــي المنـــازل. وعندما نراعي أن حوالي خمسين ألف رقيق انطلقوا من أسرهم، فـــإن أعمـــال القسوة أو سوء الاستخدام كانت نادرة للغاية؛ ولم تكن هناك حقيقة، أو كان يوجد القليل من الحقيقة، في قصص انتهاك النساء: "إن التفكير المثير لدى نساء البيض في تعرضهن للاغتصاب من الرقيق السود المتمردين الذين يـــسعون للانتقـــام العنصري نادرا ما كان يدفع الرجال البيض إلى أفعال الشهامة. وفي الواقع، لا توجد ولا حالة واحدة مسجلة للاغتصاب خلال هذه الثورات، على الرغم مـــن مقتل عدة نساء من البيض".

- Paterson, "Slavery and Salve Revolts: A Sociohistorical Analysis of the First Maroon War, 1665-1740", op. cit., p. 286.

- وبالنسبة للبرازيل، قدم كنت وشفارتس ملاحظات مماثلة، انظر

- Kent "Palmares: An African State in Brazil", op. cit., p. 170; and
- Schwartz, "The Mocambo: Slave Resistance in Colonial Bahia", op. cit., p. 328.

(250) Patterson, The Sociology of Slavery, op. cit., pp. 282, 276.

(251) Reckord, op. cit., pp. 113-117ff.

(252) Ibid., pp. 109-13, 124-25.

(٢٥٣) تتمثل نظرية النخبة في إعادة كراتون لتناول حجته السابقة في
- Sinews of Empire;
- Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., pp. 116-25.
- وتدخل العناصر السياقية في العناصر التي ذكرها باترسون في كتابه "علم اجتماع الرق"، مرجع سابق، ص ٢٤٧-٢٧٩.

(254) Reckord, op. cit., p. 113; and Bleby, op. cit., pp. 125-30.
- ويقول مافيز كامبل Mavis Campbell: "اكتشفنا لاحقا أن الكثيرين من البيض كانوا يشجعون الرقيق فعلا على الاعتقاد بأنهم حصلوا على حريتهم".
- Campbell. The Dynamics of Change in a Slave Society, Fairleigh Dickinson University Press, Rutherford, 1976, p. 171.
- ويقدم جيمس ستيفن، محامي المكتب الاستعماري، ملاحظات مماثلة، حيث أعلن في مذكرة بتاريخ ٢٢ مارس ١٨٣٢ أن "تهمة إثارة السخط بين الرقيق عن طريق سلسلة من الإساءات العامة والمتعمدة والمنهجية من تصميم الحكومة الإنجليزية، من خلال سلسلة من التحريض المثار لتحدي أكثر الأخطار وضوحا، وإخفاء مؤشرات الكارثة الوشيكة عن السلطات، كانت أمورا مفضلة على أسس يبدو أنه يستحيل دحضها". اقتباس بيرن، مرجع سابق، ص ٩٢.

(255) Bleby, op. cit., p. 127.

(256) W. L. Burn, op. cit., p. 93.

(257) Reckord, op. cit., p. 114.

(258) Ibid., p. 112.

(259) C. O. 137/185, v.i., 467.

(260) Roger Norman Buckley, Slaves in Red Coats, Yale University Press, 1979, pp. 130-43; Bleby, op. cit., p. 10.

(261) Reckord, op. cit., p. 117; Bleby, ibid., pp. 13-15.

(262) Ibid., p. 118.
- وبعد نهاية التمرد، يبدو أن الهروب قد زاد، انظر بليبي، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(263) C. O. 137/185, v.i., 540.

(٢٦٤) يستخدم باترسون الرقم الأقل في "علم اجتماع الرق" مرجع سابق، ص ٢٧٣. ويستخدم كراتون الرقم الأكبر في "ثورات القرويين الرئيسة"، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢٦٥) ريكورد، مرجع سابق، ص ١١٩. وذكرت أيضا أن: "تبلورت مؤامرة مستقلة بين الزعماء في مجموعة صغيرة من الإقطاعيات في بورتلاند، ورسم رقيق ضيعات سانت توماس في الشرق قرب مانشيونيل خططا للاختباء في الأحراش حيث بنوا قرية مخبأة". المرجع السابق، ص ١٠٩ ملحوظة ٣. ويذكر ماتيسون أيضا: "تم اكتشاف نوع من مدن اللاجئين لاحقا في أعمق خبايا الغابات، وكانت مكونة من ٢١ منزلا معدة تماما للسكن". مرجع سابق، ص ٢١٢، ملحوظة ١.

(266) Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit., p. 110.

(267) C. O. 137/185, v.i., 618.

(٢٦٨) "كان الحدث الذي تسبب في جعل زيادة تأجيل مسألة التحرر أمرا مستحيلا يتمثل في التمرد الذي اجتاح جامايكا الغربية من نهاية ديسمبر ١٨٣١، والذي تم قمعه في النهاية في بداية أبريل ١٨٣٢. فقد دمر ممتلكات تساوي أكثر من مليون جنيه إسترليني، وجاء في أعقاب تمردات ومؤامرات أخرى عديدة في مستعمرات السكر الأخرى خلال العقد السابق، بحيث أصبح هذا التمرد دليلا أكيدا على أنه إذا لم يتم إلغاء الرق سريعا من أعلى فإنه سوف يدمر من أسفل".

- Richard Hart, op. cit., p. 223.

- ويقول ريكورد إن القمع الوحشي كبت الرقيق. ريكورد، مرجع سابق، ص ١٢٤-١٢٥.

(296) Hart, ibid., and for the 1832 Reform Bill see, E. P. Thompson, The Making of the English Working Class, op. cit., pp. 807-12, 818-19; and Izhak Gross, "The Abolition of Nero Slavery and British Parliamentary Politics, 1832-33", Historical Journal 23, no. 1 (1980): 65-66, 79-85.

(270) Reckord, op. cit., p. 125.

(271) W. E. B. Du Bois, Black Reconstruction in America, 1860-1880, Meridian, New York, 1962 (orig. 1935), ch. 4; and

- Robert Conrad, op. cit., pp. 184-86, 267-70.

(272) Craton, "The Passion to Exist: Slave Rebellions in the British West Indies 1650-1832", Journal of Caribbean History 13 (1980): 19.

(٢٧٣) ربما يتمثل الاستخدام الأكثر انتشارا لمفهوم جرامشي عن الهيمنة كما طبقت على الرق في استخدام إيوجين جينوفيز في عمله Roll, Jordan, Roll، مرجع سابق. إذ إن معالجة جينوفيز لرق مزارع أمريكا الشمالية كمثال على تحقيق طبقة السادة "السيطرة على الثقافة" (ص ٦٥٨) واجهت تحديا كبيرا من هربرت جوتمان في دراسته التالية:

- Herbert Gutman, The Black Family in Slavery and Freedom, 1750-1925, Pantheon, New York, 1976, cgap. 2;
- Lawrence Levine, Black Culture and Black Consciousness, Oxford University Press, New York, 1977.

- ولاحظ ألان داولي Alan Dawley: "إذا لم يمكن اختزال فكــرة الهيمنـــة إلـــى عناصرها الفكرية أو الثقافية فقط، فهل يمكن أن يكون هناك أيضا شيء خطـــأ في محاولة جينوفيز تجرديها لتفسير حكم سادة الرقيق من حيث "السيطرة على الثقافة؟". فخلال التاريخ الطويل للرق في أمريكا الشمالية، كان حكم المزارعين الكبار مستمرا من خلال الممتلكات: أولا في الأرض، حيــث كانــت الملكيـــة والميراث مقصورين على الأحرار، وثانيا، في الرقيق أنفسهم الذين كانوا بمثابة منقولات يباعون ويشترون بحرية.... ونظـــرا لخـــضوعهم بـــسبب الـــسلالة واضطرارهم للتبعية الاقتصادية، فنادرا ما كانوا يـــستطيعون الوصـــول إلـــى التحالف مع البيض الفقراء. ويأتي على رأس كل هذا أنهم كـــانوا يخـــضعون للضرب بالسياط، والحراسة، والقيود والقوافل. وقد اعتاد السادة على كل هـــذه الأوضاع لمائة وخمسين سنة قبل أن تزدهر الأبوية في المزارع. فهل يمكن أن نعتقد بالنسبة للجيل الذي ولد بعد ١٨٣٠ أن هذه الأنماط من السيطرة السلطوية والاقتصادية قد اختفت؟ بل على العكس، إذ إن رق المزارع يمثل آخر مكـــان للبحث عن مثال لثقافة الهيمنة في أمريكا الشمالية كأساس للحكم الطبقي".

- Dawley, "E. P. Thompson and the Peculiarities of the Americans", Radical History Review 19 (Winter 1978-79): 49-50.

(273) C. L. R. James and George Padmore, "Revolts in Africa:, in "The Future in the Present, Lawrence Hill. Westport, 1977, p. 79.

- وقد ظهر الكثير من هذا المقال - بالإضافة إلى الملاحظات المقتبسة - أولا في

- C. L. R. James, A History of Negro Revolt (1938),

- ثم نشر بعد ذلك في

- A History of Pan-African Revolt, Drum and Spear, Washington, D. C., 1969, pp. 58-59.

- وقد ظهرت ملاحظات مماثلة هنا: انظر

- Proceedings of Court Martial, op. cit., pp. 258-59;
- Bleby, op. cit., passim.

(275) Bernard Magubane, "A Critical Look at Indices Used in the Study of Social Change in Colonial Africa", Current Anthropology 12, nos. 4-5 (October-December 1971): 420.

- وانظر أيضا في نفس العدد الردود على ماجوباني وتعليقاته الختامية.

(276) Lucy Mair, "Anthropology and Colonial Policy", African Affairs, April 1975, p. 194.

- وللمزيد عن الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية والإدارة الاستعمارية، انظر

- David Goddard (ed.), Ideology in Social Science, Vintage, New York, 1973, pp. 61-75; and the articles by Evans-Pritchard, Mary Douglas, Edmund Leach, Lucy Mair, and Rpdney Needham in the Times Library Supplement, 6 July 1973; also see Wendy James, "The Anthropologist as Reluctant Imperialist", Stephen Feuchtwang, "The Discipline and its Sponsors", and Abdel Ghaffar M. Ahmed, "some Remarks from the third World on Anthropology and Colonialism", all in Talal Asad (ed.), Anthropology and the Colonial Encounter, Humanities, New York, 1973, esp., Feuchtwang.

(277) Mair, op. cit., p. 192.

(278) Ibid., p. 191.

(279) Magubane, op. cit., p. 440.

(280) James and Padmore, op. cit., p. 70; see also George Padmore, Pan-Africanism or Communism, Doubleday, New York, 1972.

(281) See Bonnie Keller, "Millenarianism and Resistance: the Xhosa Cattle Killing", Journal of Asian and African Studies 13, nos. 1-2 (January/April 1978): 94-111.

- تبدأ رواية "الأحرار evens" برؤى نونجكوازي Nongquase فتاة صغيرة من الخوسا، وعمها العراف مهلاكازا Mhlakaza، وغيرهما: "كانت وسائل ضمان وصول العصر الذهبي من بين أكثر الوسائل الكارثية التي طلبت من أي شعب مطلقا. حيث كان يجب تدمير قطعان كاملة من الماشية، وهي التي كانت أثمن ممتلكاتهم والتي كانت تمثل بالنسبة لهم الاستمرار والحيوية والثروة لكل مجموعات القرابة الأبوية. وكانوا يؤكدون للرافضين أن قتل القطعان الحية لا يهم كثيرا، لأنهم هم وكل أسلافهم سيعودون لإعادة إعمار الأرض. وكان يطلب من المصدقين استهلاك كل الذرة التي في مخازنهم، لأنهم في صباح التجديد سيجدون المخازن مملوءة ثانية. وكان يجب على الخوسا ألا يزرعوا حقولهم ويجب أن يضحوا بكل الطيور والماشية الصغيرة الأخرى". (ص ١٠٥). وانظر أيضا

- Edward Roux, Time Longer than Rope, University of Wisconsin Press, Madison, 1964, pp. 32-44;
- Elias Canetti, Crowds and Power, Viking Press, New York, 1966, pp. 193-200; and
- J. B. Peires, "Nxele, Ntsidana and the Origins of the Xhosa Religious Reaction", Journal of African History 20, no. 1 (1979): 51-61.

(282) See David Clammer, The Zulu War, St. Martin's, New York, 1973.
- G. H. L. Le May, Black and White in South Africa, American Heritage Press, 1971;
- Roux, op. cit., pp. 45-53, 87-100;
- C. I. R. James, A History of Pan-African Revolt, op. cit., pp. 671;
- James Stuart, A History of the Zulu Rebellion, Macmillan, London, 1913;
- George Shopperson and Thomas Price, Independent African, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1958, pp. 419ff;
- Shula Marks, "The Zulu Disturbances in Natal", in Robert Rotberg (ed.), Rebellion in Black Africa, Oxford University Press, London, 1971, pp. 24-59.

(283) Geraid Bender, Angola Under the Portuguese, University of California Press, Berkeiey, 1978, p. 138;
- Ronald Chilcote, Emerging Nationalism in Portuguese Africa, Hoover Institution, Stanford, 1969.

(284) See ivor Wilks, Asante in the Nineteenth Century, Cambridge University Press, London, 1975;
- David Kimbie, A Politicai History of Ghana: The Rise of Gold Coast Nationalism, 1850-1928, Oxford University Press, Londo, 1963;
- R. H. Kofi, Darkwah, Shewa, Menelik II and the Ethiopian Empire, 1813-1889, Heinemann, London, 1975;
- Harold Marcus, The Life and Times of Menelik II, Clarendon Press, Oxford, 1975;
- Obaro Ikime, "Colonial Conquest and African Resistance in the Niger Delta States", Tarikh 4, no. 3 (1973): 1-13;
- J. A. Atanda, "British Rule in Buganda", Tarikh 4, no. 4 (1974): 37-54;

- Elizabeth Hopkins, "The Nyabingi Cult of Southwestern Uganda", in R. Rotberg (ed.), Rebellion in Black Africa, op. cit., pp. 60-132;
- Ian Clegg, Workers' Self-Management in Algeria, Monthly Review Press, New York, 1971;
- T. O. Ranger, Revolt n Southern Rhodesia, 1896-7, Heinemann, London, 1967;
- D. N. Beach, "Chimurenga: The Shona Rising of 1896-97", Journal of African History 20, no. 3 (1979): 395-420;
- Michael Adas, Prophets of Rebellion: Millenarian Protest Movements against European Colonial Order, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1979; and
- Terence Ranger, "The People in African Resistance: A Review", Journal of Southern African Studies 4, no. 3 (October 1977): 125-46.

– هذا للاطلاع على عينة من الأدبيات في المقاومة الأفريقية.

(286) T. O. Ranger, Revolt in Southern Rhodesia, op. cit., p. 352.

(287) Michael Taussig, "Black Religion and Resistance in Colombia: Three Centuries of Social Struggle in the Cauca Valley', Marxist Perspectives 2, no. 2 (Summer 1979): 88-89.

(١) "لم تحدث أعمال وحشية من الرقيق المتمردين في الولايات المتحدة غالبا. فقد قتل المتمردون البيض، ولكنهم نادرا ما كانوا يعذبونهم أو يشوهونهم. أي أنهم نادرا ما كانوا يرتكبون ضد البيض تلك الفظاعات التي كان البيض يرتكبونها ضدهم بانتظام. وفي أماكن أخرى في نصف الكرة الغربي، عندما كانت حروب الرقيق الهاربين والتمردات واسعة النطاق تشجع على أعمال العنف، وردود الأفعال، والانتقام؛ كان مستوى العنف والوحشية يرتفع أيضا. ولكن في كل مكان كان الوزن الكبير للأدلة يدين الأنظمة التي تمارس الرق بجرائم لا تحصى، ومنها أبشع حالات التعذيب، على كل عمل بربري فردي من الرقيق".

- Genovese, From Rebellion to Revolution, op. cit., p. 109.

(٢) هناك ملاحظتان تقليديتان أبداهما هنري بليبي خلال استكشافه لتمرد جامايكا في ١٨٣١ هما:

- "كانت محاضرات المحامي الموكل بالدفاع عن الرق، السيد بورتفيك، مرتبة للدفاع عن النظام وحمايته وتغطية أو إخفاء وحشيته وقمعه. وقد ركزت هذه المحاضرات في ١٨٣٣ تركيزا كبيرا على حالات القتل والاغتصاب وغيرها من الفظاعات، والتي قيل إن الرقيق ارتكبوها في جامايكا خلال التمردات؛ وكان شعب بريطانيا العظمى يشير إليها على أنها أمثلة على ما يمكن أن يتوقعوه منهم في حالة تحررهم. ولكن حالات قليلة جدا من هذه الأعمال الوحشية ظهرت قبل توثيق الممتلكات العامة". وفي مكان آخر: "أعترف أنني كنت أعتبر ذلك دائما سمة فريدة في تاريخ تلك الفترة، أي حدوث عدد قليل جدا من العمليات الوحشية الموجهة نحو البيض، سواء الذكور أو الإناث، الذين كانوا يقعون أحيانا في أيدي السود. وربما كان حوالي خمسين ألفا من الرقيق قد شاركوا بصورة أو بأخرى في التمرد، ومن بين هؤلاء كان حوالي العشرين فقط - وليس أكثر قطعا - قد ساعدوا بصورة مباشرة في بعض الأعمال الوحشية كالتي أشرنا إليها سلفا".

- Bleby, op. cit., pp. 43 and 47.

(٣) وبالعودة إلى تمرد جامايكا في ١٨٣١، وتمرد الباربادوس المبكر (١٨١٦)، نتذكر وصف ميشيل كراتون للقمع الذي أعقبهما. حيث كتب عن الباربادوس: "كان يتم إطلاق النار على رؤوس الرقيق الهائمين بمجرد رؤيتهم، وكانت بيوت الزنوج تحرق... وكان الأسرى يعذبون... وكان المتمردون المدانون يعدمون علانية

في أجزاء مختلفة من الجزيرة، وكانت أجسادهم - وأحيانا رؤوسهم فقط - تعرض على سكان المناطق التي فروا منها في بعض الحالات" (ص ١٠٢). وكانت الأمور مماثلة في جامايكا بعد ذلك بخمسة عشر عاما: "كان يتم إطلاق النيران على الكثير من الرقيق، بما في ذلك النساء والأطفال، بمجرد رؤيتهم، وكانت أكواخ الرقيق وأوعية المؤن تحرق بصورة منتظمة، وكان هناك العديد من أوامر القتل القانوني من محاكم عسكرية" (ص ١١٠).

- Craton, "Proto-Peasant Revolts?", op. cit.

- تزخر أدبيات مقاومة وقمع السود بمثل هذه الأعمال الوحشية. وبالنسبة لرد فعل الجمهور الإنجليزي، انظر

- Bernard Semmel, Jamaican Blood and Victorian Conscience, Houghton Mifflin, Cambridge, 1963.

(4) Edmond Moran, American Slavery, American Freedom, op. cit., p. 309.

(5) Ibid.

(6) See George Shepperson and Thomas Price, Independent African, op. cit., pp. 272-73, 296-97.

(7) C. L. R. James, The Black Jacobins, op. cit., p. 256; and Genovese, From Rebellion to Revolution, op. cit., pp. 109-10.

(8) Frantz Fanon, The Wretched of the Earth, Grove, New York, 1963.

(9) Genovese, From Rebellion to Revolution, op. cit., pp. 9-11.

- يعتمد الكثير من كلام جينوفيز (الفصل الثالث) على أيديولوجية توسانت لوفراشر. ومع ذلك، لم يكن توسانت المحرك ولا المنظر ولا الأيديولوجي الأخير والمسيطر بالنسبة لثورات الرقيق والثورات الاستعمارية، انظر

- David Nicolls, From Dessalines Duvalier, op. cit., pp. 11, 71.

وللتعرف على ما إذا كان صحيحا أن توسانت قد حقق مكانة مالك الرقيق لنفسه قبل الثورة، انظر:

- David Geggus, "Haitian Divorce": review, Times Literary Supplement, 5 December 1980),

ولو كان ذلك صحيحا فإن هذا يفسر جزء من أساس انجذابه إلى أيديولوجية البرجوازية الثورية الفرنسية، انظر في ذلك:

- see James, The Black Jacobins, op. cit., pp. 91-93.

- وفي القرن الحالي، اقترب أميلكار كابرال من التوصل إلى فهم هذه الظاهرة، انظر في ذلك

- Cedric J. Robinson, "Amilcar Cabral and the Dialectic of Portuguese Colonialism", Radical America 15, no. 3 (May/June 1981): 39-57.

(١٠) في مجلده الذي يحمل عنوان " من روديسيا إلى زيمبابوي" استهل فامبي رسالته بلمدخل التالي: "إلى كل رفاقي الرجال الذين ماتوا في سبيل الحرية". وقد اعتمد في رسالته على ذكرياته الخاصة بالحياة في قرية شيشاواشا عندما كان طفلا هناك في عشرينيات القرن العشرين، ليصور المجتمع الذي يسيطر عليه إعادة تجميع المقاومة... حيث يصف كيف أن الرجال في القرية كانوا يناقشون بانتظام ذكرياتهم عن ١٨٩٦، عندما كانت تواجه القرية أية مشكلة خطيرة... واضطرابات ١٨٩٦، والاستعداد المأساوي للكثيرين من الشعب للتضحية بأرواحهم ومواجهة العدو".

- T.O. Ranger, "The People in African Resistance", op. cit., pp. 126-27.

(11) Mullin, Flight and Rebellion, op. cit., p.42.

(12) Ibid., p. 18.

(١٣) "يقال إن الأفريقي الذي لم يأكل الملحيصبح مثل الساحر... فالأفارقة الذين لا يأكلون الملح يفسرون جميع الأشياء. ولماذا تسمع أنهم يقولون إنهم يطيرون بعيدا (لأنهم) لا يستطيعون تحمل العمل عندما يجلدهم سادتهم؛ وهم يستيقظون ويغنون بلغتهم ويصفقون بأيديهم - هكذا - ثم يتمددون - هكذا - ويعودون للوطن مباشرة. وهم لا يعودون أبدا: اشمائيل وبستر Ishmael Webster. كان لجدتي لأمي خالة عمرها سبعة عشر عاما، وفي يوم من الأيام كانت في المطبخ، ونفخت في يدها توت، توت، ثم اختفت. إنها لم تأكل الملح وعادت إلى أفريقيا: إليزابيث سبنس Elizabeth Spence".

- Monica Schuler, Alas, Alas, Kongo", op. cit., p. 93.

(14) Vittorio Lanternari, The Religions of the Oppressed, New American Library, New York, 1965;

- وبالنسبة للشخصية، انظر

- Cedric J. Robinson, The Terms of Order, State University of New York, 1980, pp. 152-59.

(15) C. L. R. James, The Black Jacobins, op. cit., pp. 20-21, 108-9.

(16) Mullin, Flight and Rebellion, op. cit., p. 159.

(17) Ibid., p. 160;

- وانظر أيضا مناقشة الدين والمقاومة في

- Olli Alho, The Religion of the Slaves, Finnish Academy of Science and Letters, Helsinki, 1976, pp. 224-34.

(18) Amos Tutula, My Life in the Bush of the Ghosts, Faber and Faber, London, 1954.

الفصل الثامن

(1) Eugene Genovese, "The Legacy of Slavery and the Roots of Black Nationalism", in Edward Greer (ed.), Black Liberation Politics: A Reader, Allyn and Bacon, 1971, p. 43.

- وطبقا لجورج رافيك، كان جينوفيز عضوا في الحزب الشيوعي الأمريكي في شبابه. مقابلة مع رافيك في شتاء ١٩٧٦. وظهر أصل مقال جينوفيز في

- Studies on the Left (6, no., 6 [November-December 1966].

- وفي نفس العدد، أخذ هيربرت أبتيكر - وهو أحد النخب البارزة في الحزب الشيوعي الأمريكي ومساهم كبير في تاريخ السود - جينوفيز في مهمة، مصرا على أن يتذكر أن "المؤرخين الراديكاليين البيض اتبعوا وتعلموا من المؤرخين السود" وأنه: "ليس هناك "أسطورة مقاومة السود المسلحة للرق". فهذه ليست أسطورة - على الرغم من أن استخدام كلمة "مسلحة" بلا فاعلية. فهناك حقيقة مقاومة الزنوج للرق - مسلحة وغير مسلحة، وهذه هي الحقيقة الكبرى وهي ليست أسطورة مطلقا". جربر، المرجع السابق، ص ٦٥-٦٦. وقد استعاد جينوفيز اعتباره جزئيا لاحقا (جينوفيز، ١٩٧٤ و١٩٧٩) ولكن افتراضاته التاريخية ظلت موضع شك. انظر

- James D. Anderson, "Aunt Jemima in Dialectics: Genovese and Slave Culture:, Journal of Negro History 61 (January 1976): 99-114;
- Edward Royce, "Genovese on Slave Revolts and Weiner on the Postbellum South", Insurgent Socialist 10 (Fall 1980): 109-17;
- David Gerber, "Can You Keep 'Em Down on the Plantation after They've Read Rousseau", Radical America 15, no. 6 (November-December 1981): 47-56.

(2) See Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Harper and Row, New York, 1976, 2 vol.

(٣) انظر تعليقات اسحاق دويتشر على ليون تروتسكي:

- "On Optimism and Pessimism, the Twentieth Century, and Other Things", in his "The Prophet Armed: Trotsky 1879-1921, Oxford University Press, Oxford, 1979, pp. 53-54.

(4) C. L. R. James, Beyond a Boundary, Hutchinson, London, 1963, p. 43.

(٥) بالنسبة للأبعاد العالمية للدوافع الإمبريالية للطبقات الحاكمة الأوروبية، انظر
- E. D. Hobsbawm, Industry and Empire, Harmondsworth Penguin, 1968;
- Michael Barrett Brown, The Economics of Imperialism, Harmondsworth Penguin, 1974.

- حيث يلاحظ هوبسباوم أنه: "مع استثناءات محددة، بدأت الرأسمالية تسيطر على العالم غير المتقدم من منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، والدخول في استثمار رأسمالي مكثف هناك. وكان القليل جدا من العالم مستعمرا ومحتلا ومحكوما من الخارج فعلا، وكانت الاستثناءات الكبيرة تتمثل في الهند وإندونيسيا الحالية... ففي تاريخ العالم، كانت هذه الحقبة التي تمتد من هزيمة نابليون حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، وربما حتى نهاية القرن إذا أردت، يمكن أن توصف بعصر القوة البريطانية... وفي جميع الأحوال، فإن اللحظة التي كانت فيها الرأسمالية العالمية ناجحة تماما وواثقة وآمنة، كانت قصيرة نسبيا، من منتصف العصر الفيكتوري، والتي يمكن أن تمتد حتى نهاية القرن التاسع عشر".

- "The Crisis of Capitalism in Historical Perspective", Socialist Revolution 30 (October-December 1976): 81.

- وبالنسبة لدور أفريقيا في هذه العملية، انظر
- George Padmore, Africa and World peace, Frank Cass, London, 1972, (original 1937);
- R. E. Robinson and J. A. Gallagher (with Alice Denny), Africa and the Victorians, Macmillan, London, 1961.

(6) M. Perham, "British Native Administration", in Oxford University Summer School on Colonial Administration, Second Session, 27 June-8 July 1938, Oxford University Press, Oxford, 1938, p. 50.

(7) Oliver C. Cox, Caste, Class and Race, Modern Reader, New York, 1970. (Original 1948), p. 360.
- See also George Beckford, Persistent Poverty, Oxford University Press, Oxford, 1972, pp. 39ff and 71ff.

(8) See Wendell Bell, "Inequality in Independent Jamaica: A Preliminary Appraisal of elite Performance", Revista/Review Interamericana (Summer 1977): 294-308;
- Carl Stone, Class, Race and Political Behavior in Urban Jamaica, University of the West Indies, Mona, 1973;

- C. L. R. James, "The West Indian Middle Classes', in spheres of Existence, Allison and Busby, London, 1980, pp. 131-40;
- C. L. R. James, The Black Jacobins, Vintage, New York, 1963, pp. 36-44;
- Nell Painter, Exodusters, Alfred Knopf, New York, 1976, pp. 15ff; and David Nicholls, From Dessalines to Duvalier, Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

(9) See J. L. Miege, "The Colonial Past in the Present";
- Rita Cruise-O'Brien, "Factors of Dependence", in W. H. Morris-Jones and George Fisher (eds.), Decolonization and After, Frank Cass, London, 1980, pp. 43-44 and 283-309;
- Ian Scott, "Middle Class Politics in Zambia", African Affairs 77, no. 308 (July 1978): 321-34;
- Lillian Sanderson, "Education and Administrative Control in Colonial Sudan and Northern Nigeria", African Affairs 74, no. 297 (October 1975): 433;
- Cedric J. Robinson, "Amilcar Cabral and the Dialectic of Portuguese Colonialism", Radical America, May-June 1981, pp. 39-57;
- Ras Makonnen, Pan-Americanism from Within, Kenneth King (ed.), Oxford University Press, London, 1973, pp. 126-27; and
- C. L. R. James, "The West Indian Middle Classes", op. cit.

(١٠) يوجد أحد مصادر الوسائل غير المشروعة أو "الغامضة" التي حقق السود من خلالها الثروة في

- E. Franklin Frazier, The Black Bourgeoisie, Free Press, Glencoe, 1957; and
- E. Franklin Frazier, "Human: All Too Human: The Negro's Vested Interest in Segregation", Survey Graphic, January 1947, pp. 79-81.

(11) See George Shepperson and Tom Price, Independent African, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1958, pp. 242-55; 422-37.

(١٢) يبدو أن هذا كان ينطبق حتى على المبشرين السود. حيث لاحظ ويلسون موسى – عند كتابته عن أليكسندر كرومويل، وهو مبشر أمريكي أفريقي بارز نشط في ليبيريا في الربع الثالث من القرن التاسع عشر – أنه "بالنسبة لكروموبل، كما بالنسبة لمعظم الناس المبتلين بالأنجلوفونية، كانت الثقافة الناطقة بالإنجليزية مرادفا مناسبا تماما للحضارة. وفي مناسبتين على الأقل، كان كروموبل مستعدا لإظهار أنه "من بين الأحداث السعيدة الأخرى كانت حقيقة نفي آبائنا من ديارهم الأفريقية إلى أمريكا، قد منحتنا ومنحت أطفالنا، هذا الشيء الواحد من التعويض على الأقل، أي اكتساب اللغة الأنجلوسكسونية... وأنه كان يستحيل أن نقدر كثيرا العطايا والمنح التي أنعم الله بها علينا، عندما منحنا خطاب شوسر وشكسبير وميلتون ووردسوورث وباكون وبورك وفرانكلين ووبستر".

- Moses, The Golden Age of Black Nationalism, 1850-1925, Archon, Hamden, 1978, p. 66.

(13) A. Victor Murray, "Missions and Indirect Administration", in Oxford University Summer School on Colonial Administration, op. cit., p. 53.

(14) Arthur Mayhew, "Education in the Colonies", ibid., pp. 84-85.

(15) Penelope Hetherington, British Paternalism and Africa, 1920-40, Frank Cass, London, 1978, p. 111.

(16) Lucy Mair, Native Policies in Africa, George Routledge, London, 1936, pp. 168-69.

(17) Owen Clough (ed.), Report on African Affairs for the Year 1933, Empire Parliamentary Association, Billings and Sons, Guildford, 1933, p. 15.

- "خلال فترة الاستعمار، كانت السياسات تطبق، خاصة في الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٥٠، بسحب جزء من السكان الأفارقة إلى المدار غير الأفريقي. وكانت الجهود تبذل خاصة لتدريب هيئة من الأطباء والمحامين والصحفيين والقادة الدينيين والمثقفين كمدرسين وأعضاء هيئات تدريس بالجامعات".

- Peter Gutkind, "The Emergent African Urban Proletariat", Occasional Paper Series, no. 8, Center for Developing Area Studies, McGill University Press, Montreal, February 1974, p. 55.

(18) Elliot Skinner, "The Persistence of Psychological and Structural Dependence After Colonialism", in Aguibou Yansane (ed.), Decolonization and Dependence, Greenwood Press, Westport, 1980, p. 74;

- Henri Grimal, Decolonization: the British French, Dutch and Belgian Empires, 1919-1963, Routledge and Kegan Paul, London, 1978, pp. 37-39.

- يرى هاريس أن: "كان الذي جربته القوى الاستعمارية (ولكنها لم تكن تحبه كثيرا) يتمثل في قومية النخبة، أي القومية المبنية على بعض الشخصيات الأفريقية القوية المتأثرة بالغرب: نكروما، كنياتا، وليوبولد سنجور".

- P. B. Harris, The Withdrawal of the Major European Powers from Africa, Monograph on Political Science, no. 2, University College of Rhodesia, Salisbury, 1969, p. 4.

(19) See Benjamin Quarles, The Negro in the American Revolution, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1961;

- Lerone Bennett, Before the Mayflower, Johnson Publications, Chicago, 1964; and

- Geiss, op. cit., pp. 32-35.

- تأخر تكوين البرجوازية الصغيرة للسود في البرازيل وكوبا بسبب عدد من العوامل المؤثرة. ففي البرازيل، وبعد إلغاء الرق وتشكيل الحكومة الجمهورية في أواخر القرن التاسع عشر، تم استيراد عمال أوروبيين لتوفير القاعدة الاجتماعية للتصنيع، وذلك استجابة جزئيا لفشل السود في تقدير مزايا مبادلة الحرية بالتحول البروليتاري. حيث قال عالم الاجتماع البرازيلي الليبرالي، فبورستان فرنانـدز: "عندما رأى وشعر الزنوج بأنفسهم أحرارا، أرادوا أن يعاملوا معاملة الرجال، أو كما رأوا، مثل أولئك الذين كانوا يسيطرون على حياتهم. ولكن حدث نقص خطير في التكيف لدى الزنوج والملاتو. وأدت مواقف وسلوكيات الرقيق السابقين، الذين اعتبروا حريتهم مطلقة، إلى توتر أصحاب الأعمال البيض. حيث افترض الزنوج أنه نظرا لكونهم "أحرارا"، فإنهم يستطيعون العمل متى وأين شاءوا. وكانوا يميلون إلى عدم الظهور للعمل عندما يكون لديهم نقود كافية في أيديهم للإنفاق لفترة بدون عمل؛ وكانوا لا يحبون الاعتراض عليهم أو تحذيرهم أو توبيخهم".

- Fernandes, "The Weight of the Past", Daedalus 96 (Spring 1967): 563.

- وفي مدن مثل باهيا وساو باولو، ظهرت برجوازية صغيرة للسود في مطلع القرن. ومع ذلك، فنظرا لأن عمالة السود كانت تصبح أقل أهمية للرأسماليين البرازيليين، فإن تلك الطبقة الوسطى لم تحصل على تشجيع أو رعاية بصورة منهجية. وعندما أنتجت منظمات إصلاحية مثل "جبهة السود البرازيلية Frente Negra Brasiliera" كما حدث فيما بين ١٩٢٥ و١٩٣٥، قمعت هذه المنظمات بقسوة. واستمر الأمر كذلك حتى بعد الحرب العالمية الثانية، عندما عادت للظهور نخبة سوداء مكافحة.

- See Florestan Fernandes, The Negro in Brazilian Society", Columbia University Press, 1969, pp. 210-23; and
- Anani Dzidzienyo, "The Position of Blacks in Brazilian Society", Minority Rights Group, no. 7, London, 1979, pp. 2-11.

- وفي كوبا، انهارت الأسس الاجتماعية والسياسية لنخبة البرجوازية الصغيرة للسود أساسا بسبب التناقضات الناتجة عن الحرب الثورية ضد إسبانيا في نهاية القرن التاسع عشر. حيث استمال العسكريون الأمريكيون الثورة إلى الحرب الإسبانية الأمريكية. وخلال الاحتلال العسكري الأمريكي لكوبا، والذي بدأ في ١٨٩٨، تم تدمير (جيش التحرير) الذي كان ثلاثة أرباعه من الكوبيين السود.

- See Lourdes Casal, "Race Relations in Contemporary Cuba:", Minority Rights Group, no. 7, London, 1979, pp. 13-14, and
- Louis A. Perez, Army Politics in Cuba, 1898-1958, University of Pittsburgh Press, Pittsburgh, 1976, pp. 3-9.

- وبمراجعة تعدادات السكان الكوبية في القرن التاسع عشر، والانخفاض في حجم السكان السود والملاتو فيما بين ١٨٨٧ و١٨٩٩، لم يكن بوسع كينيث كيبل سوى التعجب مما إذا كان لا تزال هناك حرب أخرى في الأفق: "هل اقتصرت النتائج السيئة لسياسة إعادة الحشد العسكري الإسباني على السود فحسب؟ وهل كانت الحرب ذاتها حربا سلالية بدرجة أكبر مما صورت، مع تحريض السود في الأغلب ضد البيض؟ وهل تحمل السود في الحقيقة وطأة القتال؟"

- Kenneth Kiple, Blacks in Colonial Cuba, 1774-1899, University of Florida Press, Gainesville, 1976, p. 81.

- ولدى لورديس كاسال شكوك أقل في حدث لاحق في تاريخ كوبا ظل غامضا أيضا، ففي ١٩١٢، وصلت حركة مناهضة السود التي أطلقها جزئيا النفوذ الأمريكي في كوبا إلى ذروتها. وأدى قمع "جمعية الناخبين السود" إلى ثورة مسلحة، و"أدت الحرب السلالية اللاحقة، التي لم تدرس جيدا حتى الآن، إلى القضاء على السود على نطاق واسع في البلاد بنسب تشبه الإبادة الجماعية". كاسال، مرجع سابق، ص ١٤. وكانت هذه "الحرب الصغيرة في ١٩١٢". وتتذكر كاسال وهي صغيرة تستمع إلى قصص أسرتها: "لقد تم اغتيال أحد أعمامي الكبار، ويفترض أن ذلك تم بأمر مونتيجودو Monteagudo، ضابط الحرس الريفي الذي أرعب السود في أنحاء الجزيرة. وسرت قشعريرة في عمودي الفقري عندما سمعت قصصا عن السود الذين كانوا يصادون ليل نهار؛ والرجال السود الذين كانوا يعلقون من أعضائهم التناسلية في أعمدة الإنارة في الميادين المركزية في المدن الكوبية الصغيرة". المرجع السابق، ص ١٢. وانظر أيضا

- Thomas T. Orum, "The Politics of Colour: The Racial Dimension of Cuban Politics during the Early Republican Years, 1900-1912". Ph. D. diss., Department of History, New York University Press, 1975, (cited by Casal).

(20) Alex Dupuy, "Class Formation and Underdevelopment in Nineteenth-Century Haiti", Race and Class 24, no. 1 (Summer 1982): 24.

(21) See David Nicholls, From Dessalines to Duvalier, Cambridge University Press, Cambridge, 1979, passim; and

- Imanuel Geis, op. cit., pp. 316ff.

(٢٢) وبالنسبة لتأسيس هذه المؤسسات وسنواتها الأولي، انظر

- Leslie Fishel Jr. and Benjamin Quarles (eds.), The Black American, Scott, Foreshaw, Morrow, Glenview, 1970, pp. 160ff; and

- Arna Bontemps, 100 Years of Negro Freedom, Dodd, Mead and Co., New York, 1961, passim.

- وبعد مرور ٧٥ سنة تقريبا على تأسيس أول "كلية زنوج"، قـدم العميـد كيلـي ميلر من جامعة هوارد التقييم التالي لعلاقاتها الـسياسية: "قـسم العميـد ميلـر كليات الزنوج إلى ثلاثة أنواع على أساس التركيب السلالي لكلياتهـا. ووضـع لنكولن (بنسلفانيا) وهامبتون في الفئة التي تقع تحت السيطرة المطلقة للبـيض. وكانت الكليات التي تحوي مديرين وهيئات مختلطة تشمل فسك وهوارد، وكانت الكليات التي تقع تماما تحت إدارة ودعـم الزنـوج تتمثـل فـي مورهـاوس، ويلبرفورس، وتوسكيجي".

- Cited by Robert Brisbane, The Black Vanguard, Judson Press, Valley Forge, 1970, p. 103.

- ولكن ثبت بعد ذلك بفترة قصيرة أن تحليل العميد ميلر كان ساذجا. ففي الـسنة التي سبقت شكواه (١٩٢٦)، أدت إضرابات ومظاهرات الطلاب فـي جـامعتي فسك وهوارد إلى تعيين إدارة من السود. ومرت لنكولن أيضا ببعض التغيـرات الإدارية خلال تلك السنة استجابة لشكاوى الطلاب السود والكلية، على الرغم من أن النتائج كانت غير مرضية في هامبتون في ١٩٢٧. بريسبين، مرجع سـابق، ص ١٠١-١١١. وبالرغم من هذه الامتيازات، من الواضح أنه بعد سنوات قليلة عندما فتح تحقيق للكونجرس عن الشيوعية في جامعة هوارد، كانـت الـسيطرة على هذه المؤسسة (وربما الكليات والجامعات المماثلـة) لا تـزال فـي أيـدي مسانديها السياسيين والماليين، أي ممثلي ومسئولي رأس المال الأمريكي.

- See Michael Wreszin, "The Dies Committee", in Arthur Schlesinger, Jr. and Roger Burns (eds.), Congress Investigates, Chelsea House, New York, 1975; and

- August Ogden, The Dies Committee, Catholic University Press of America, Washington, D. C. 1948, p. 87.

(23) Interview with C. L. R. James, Binghamton, New York, Spring 1974.

(24) See James R. Hooker, Black Revolutionary, George Padmore's Path to Pan-Africanism, Praeger, New York, 1970, pp. 2-3; and

- C. L. R. James, Beyond a Boundary, op. cit., pp. 17-18.

(25) Eric Williams, Inward Hunger, Andre Deutsch, London, 1969, pp. 26-30.

(26) See Gordon D. Morgan, "In Memoriam: Oliver C. Cox, 1901-1974",Monthly Review, May 1976, pp. 34-40.

(٢٧) "بالنسبة لي، كان كل شيء على ما يرام، حيث تناولت الأمر من الناحية الفلسفية. حيث كنت أحتقر الأيرلنديين الفقراء والألمان الجنوبيين، الذين استرقوا في المعامل، واعتبرت الأغنياء والموسرين مثل رفاقي الطبيعيين". وبالنسبة للتناقض السلالي المبكر عند دو بويز، انظر

- W. E. R. Du Bois, Darkwater, Constable and Co., London, 1920; and
- Francis Broderick, W. E. R. DuBois: Negro Leader in a Time of Crisis, Stanford University Press, Stanford, 1959, pp. 2-6.

(28) See Michael Fabre, The Unfinished Quest of Richard Wright, William Morrow, New York, 1973, pp. 4-30; and

- Addison Gayle, Richard Wright, Ordeal of a Native Son, Anchor/Doubleday, New York, 1980, pp. 2-5.

(٢٩) في صيف ١٩٥٣، سافر رايت إلى ساحل الذهب (غانا الآن) لمراقبة بدايات الحكم الذاتي المقرر في يوليو من تلك السنة. وقد نشرت مجموعته الخاصة بتلك الرحلة بعنوان

- Black Power (Harper and Brothers, New York, 1954).

- ففي هذا السجل، تذكر حوارا مع Efiduasihene نانا كوامي دوا أوير الثاني، حيث أعلن: "أنا أسود، نانا، ولكنني غربي؛ ويجب ألا تنسى أبدا أننا الغربيون الذين أحضرناك إلى هذا الممر. لقد غزونا بلدكم وحطمنا ثقافتكم باسم الغزو والتقدم. ونحن لم نكن نعرف ما كنا نفعله عندما فعلنا ذلك. فإذا كان الغرب قد تجرأ على شق طريقه معك الآن، فإنهم سوف يستغلون شعبك ثانية ليحلوا مشاكلهم. وهذا ليس من عندي، نانا، ولذلك يجب أن تطلب النصح" (ص ٢٨٨). وقد علقت على أزمة هوية رايت في ساحل الذهب في

- "A Case of Mistaken Identity", paper presented to the African Studies Association Conference, Los Angeles, November 1979.

- وبالنسبة لردود أفعال رايت على مواجهته الأولى مع أفريقيا، انظر

- Gayle, op. cit., pp. 238-44.

(30) Interview with C. L. R. James, Binghamton, New York, 1974.

(٣١) "ولدت الاشتراكية الأوروبية من الثورة الزراعية والثورة الصناعية التي تبعتها... حيث غرست هاتان الثورتان بذور الصراع داخل المجتمع، ولم يقتصر الأمر على ظهور الاشتراكية الأوروبية من هذا الصراع، ولكن روادها حولوا الصراع ذاته إلى فلسفة... والاشتراكي الأفريقي الحقيقي لا ينظر إلى إحدى الطبقات على أنها تمثل أخوته، وإلى الطبقة الأخرى على أنها تمثل أعداءه الطبيعيين. وهو لا يكون تحالفا مع "الأخوة" للقضاء على "غير الأخوة".

- Julius Nyerere, "Ujamaa – The Basis of African Socialism", in Ujamaa: Essays on Socialism, Oxford University Press, Dar Es Salaam, 1979, p. 11.

(٣٢) "ولذلك، فإنه بالنسبة للطبقة العاملة في الأمة الرائدة، يوجد سبب يكفي للتقدم كتفا بكتف مع حكم الأقلية ضد العالم. وبالنسبة للمسائل الإمبريالية، يجب أن نتوقع عادة أن تكون هذه الطبقة قومية، لأن تهديد الوضع الإمبريالي للأمة يميل إلى أن يصبح تهديدا لرفاهيتها هي. وهكذا يستمر الصراع الطبقي في الداخل على النصيب الأكبر من الدخل القومي، كما وضحت سلفا. ولكن هذا الصراع يميل إلى التوقف عندما يبدأ العداء مع الإمبرياليين المنافسين والشعوب المتخلفة المستغلة. ويحتمل أن يثور أعضاء الطبقة العاملة في دولة رأسمالية رائدة غضبا ضد زملائهم الذين ينكرون الأعمال الإمبريالية للحكومة، ويعتبرونهم خونة".

- Oliver C. Cox, Capitalism as a System, Monthly Review Press, New York, 1964, p. 194.

- وقد أعلن كوكس عن الماركسيين ما يلي: "بمجرد قبول المسلمات الماركسية الرئيسة عن طبيعة المجتمع الرأسمالي، لا يستطيع الماركسيون العودة إلى إمبريالية فينيسيا أو الهانزا أو هولندا، أو حتى الإمبريالية الإنجليزية المبكرة من أجل المفاهيم الأساسية لمكونات هذه الظاهرة. وهكذا يصبح الموقف محددا بصورة كبيرة، مما يتطلب عمليات لإحداث تجانس بالعنف في معالجة حقائق التغير الاجتماعي التي تفرض نفسها علينا بلا هوادة. ومن ثم فإن الأفكار الجامدة المتعلقة بدور العمال الصناعيين في الحركات الثورية الحديثة، والتوقعات الماركسية المبكرة التي تعطي أولوية للأمم الصناعية الأكثر تقدما في تتابع الثورات الاشتراكية، تمثل مجرد مشتقات من هذه النظرية". المرجع السابق، ص ٢١٨.

(33) Quoted by David Caute, Communism and the French Intellectuals, 1914-1960, Macmillan, New York, 1964, p. 211.

(١) لإدراك مدى اهتمامات وأنشطة دو بويز، انظر المدح الذي نشر في:

- John Henrik Clarke, Esther Jackson, Ernest Kaiser, J. H. O'Dell (eds.), Black Titan: W. E. B. Du Bois, Beacon Press, Boston, 1970;
- Rayford Logan (ed.), W. E. B. Du Bois: A Profile, Hill and Wang, New York, 1971;
- Daniel Walden (ed.), W. E. B. Du Bois: The Crisis Writings, Fawcett, Greenwich, 1972;
- Broderick, op. cit.

(٢) إن المفكر الأمريكي المحلي الثاني الذي يجب أن يدخل اسمه في أية دراسة للمنظرين الماركسيين الأمريكيين هو سدني هوك Sidney Hook. ومن الواضح أنه نشر عمله "من هيجل إلى ماركس" في الثلاثينيات تحت تأثير جورج لوكاس في سنواته الأولى. وساهم أيضا ببعض المقالات المفيدة في محاولة توسيع المعرفة بـالفكر الماركسي في الولايات المتحدة. راجع:

- ("Materialism", Encyclopedia of Social Sciences, vol. 10, New York, 1933).

- ومع ذلك، نجد أنه مشهور جدا لدى الأجيال اللاحقة بمعاداته للشيوعية. انظر:

- Cristiano Camporesi, "The Marxism of Sidney Hook", Telos (Summer 1972): 115-28;
- C. L. R. James, "The Philosophy of History and Necessity: A Few Words with Professor Hook", in Spheres of Existence, op. cit., pp. 49-58;
- Daniel Bell, Marxism Socialism in the United States, Princeton University Press, Princeton, 1967, pp. 139-40.

- وبعد ذلك بخمسة عشر عاما، خص لينين دانيال دى ليون بذكر خاص؛ انظر:

- New York World, 4 February 1919, p. 2;
- Arthur Liebman, Jews and the Left, John Wiley, New York, 1979, pp. 440-51.

- ومن الناحية الرسمية في الثلاثينيات، كان أبرز مفكر ماركسي أمريكي هو إيرل براودر Earl Browder، الأمين العام للحزب الشيوعي الأمريكي من ١٩٣٠ إلى ١٩٤٥: "وخلال قيادته للحزب الشيوعي الأمريكي، وصفه صديقه المقرب في موسكو جورجي ديمتروت Georgi Demitrott، الذي كان الأمين العام للدولية الشيوعية آنذاك،

بأنه الماركسي الرائد في العالم الناطق بالإنجليزية. ومن ١٩٣٥ إلــى ١٩٤٥، كــان براودر يحظى بمدح واحترام اليسار في الولايات المتحدة، كما كان الأمر بالنسبة إلــى ستالين في الاتحاد السوفيتي. ويصل حجم أعماله المنشورة إلى حوالي مليوني كلمة".

- Philip Jaffe, The Rise and Fall of American Communism, Horizon Press, New York, 1975, p. 17.

– وللاطلاع على رؤية داخلية أخرى لبراودر، أنظر:

- Joseph Starobin, American Communism in Crisis, 1943-1957, University of California Press, Berkeley, 1972, passim.

– وكان كل من جافي وستاروبين متعاطفين مع براودر (وكتبا بعد طرده من القيادة وتجريده من ألقابه لاحقا)، وهكذا أثبتا ضحالته النظرية بصورة أكثر إقناعا، وإن كان ذلك عن غير قصد.

(٣) ونظرا لأن ظاهرة الأسطورة الجماعية تسبق ظهور الدولة الحديثة بــآلاف الــسنين، ونظرا لأن الفكر الغربي أظهر هذه الظاهرة كأحد اهتماماته المستمرة، تعتبر الأدبيات المتاحة هائلة. ومع ذلك، هناك عدد مــن الأعمــال التــي تغطــي مجموعــة مــن التخصصات، والتقاليد الفكرية وحتى المعارف التي يمكن الرجوع إليهــا، وبعــضها تحليلي وبعضها الآخر أيديولوجي. ومع ذلك، يمثل كل منها محاولة لتقديم دليــل، أو على الأقل إظهار، فكرة أن النظم الاجتماعية تكون مصحوبة بمبررات مــصطنعة. ومن بين الأعمال التحليلية:

- Ernst Cassirer, The Myth of the State;
- Murray Edelman, The Symbolic Use of Politics;
- Sigmund Freud, Group Psychology and the Analysis of the Ego;
- Peter Kropotkin, "The State: Its Historic Role";
- Marx and Engels, The German Ideology;
- Wilhelm Reich, The Mass Psychology of Fascism;
- Cedric J. Robinson, The Terms of Order;
- Max Weber, Economy and Society.

– ومن بين الأعمال الأقل تحليلية والأكثر أيديولوجية:

- Robert Dahl, Pluralist Democracy in the United States;
- Hegel, Philosophy of Right;
- Samuel Huntington, Social Order in Changing Societies;
- Seymour M. Lipset, The First New Nation; and
- Plato, Republic.

(٤) تمثل ثقافة الإمبريالية دراسة حالة طريفة للعلاقة بين السلطة وصناع الأساطير. وبالنسبة للإمبريالية البريطانية، تعتبر الدراسات التالية مفيدة:

- Brian Street, The Savage in Literature, Routledge and Kegan Paul, London, 1975;
- Jonah Raskin, The Mythology of Imperialism, Dell, New York, 1971;
- L. P. Curtis, Jr., Anglo-Saxons and Celts, New York University Press, New York, 1968.

- وفي تلخيص مناقشة كورتس للأنجلوسكسونية، أشار ستريت إلى أن كورتس أظهر "كيف أن المؤرخين المعاصرين (كمبل، جرين، ستوبس، فريمان، تشارلز كنجسلي، فرودى) أشاروا دائما إلى هذا التراث السلالي لتفسير التاريخ المعاصر وكونوا علم أنساب الملكية الإنجليزية، والأسر الإنجليزية، والتقاليد الإنجليزية، لتأييد دعاواهم. وكان الخيال الشعبي قادرا على منح حياة دراماتيكية لهذه الدعاوى بعرضها في ضوء شخصيات محددة حققت قدراتها وأفعالها للقارئ ماذا يعني أن يكون إنجليزيا. ووضعت هذه الصفات في مواجهة واضحة مع الأعمال والصفات "المنحطة" للسلالات "الدنيا" في العالم.

- Street, op. cit., p. 19;
- Daniel A. Offiong, "The Cheerful School and the Myth of the Civilizing Mission of Colonial Imperialism", Pan-African Journal 9, no. 1 (1976): 35-54.

(٥) يعتبر عمل فرديناند لوندبيرج آخر إسهام في الكتابات التي تدرس "الآباء المؤسسين" الأمريكيين:

- Ferdinand Lundberg, Cracks In the Constitution, Lyle Stuart, New York, 1980.

- وقد لاحظ جور فيدال في مقاله لمراجعة لوندبيرج أن: "مشرعي الدولة اعتمدوا ٧٤ رجلا للاجتماع. وظهر ٥٥ منهم في ذلك الصيف. ورحل حوالي نصفهم. وأخيرا، "قدم ما لا يزيد عن ٥ رجال معظم المناقشات، ولعب حوالي ٧ آخرون أدوارا مساندة متقطعة". وكان ٣٣ من الذين وضعوا الأطر محامين؛ وكان ٤٤ أعضاء سابقين أو حاليين في الكونجرس؛ وكان ٢١ يعتبرون أثرياء أو أثرياء جدا- وكان واشنطون والمصرفي روبرت موريس (الذي دخل السجن سريعا حيث زاره واشنطون) أغناهم؛ "وكان هناك ١٣ آخرين ما بين موسرين إلى موسرين جدا؛ وكان ١٩ من ملاك الرقيق؛ وكان ٢٥ منهم في الجامعة (وكان من بين الذين "لم" يتخرجوا: واشنطون، هاميلتون، روبرت موريس، جورج ماسون - وكان هاميلتون ممن تركوا الدراسة في كولومبيا).وكان ٢٧ منهم ضباطا في الحرب؛ وكان واحد مسيحيا - وكان الآخرون يميلون إلى الربوبية، وهو التعبير اللطيف في القرن الثامن عشر عن اللاأدرية أو الإلحاد.

- Vidal, "he Second American Revolution?", The New York Review of Books, 5 February 1981, pp. 37-38.

- وبالنسبة إلى الدستور، يقول فيدال: "أراد واضعو الأطر عدم وجود أحزاب سياسية – أو فصائل. وكانت رؤيتهم تتمثل في أن كل الرجال اليمينيين أصحاب الممتلكات سيفكرون بنفس الطريقة في الأمور المتعلقة بالممتلكات. وكان هذا – ولا يزال – صحيحا إلى حد ما". المرجع السابق، ص ٤٢. وانظر أيضا:

- Charles Beard, "Neglected Aspects of Political Science", American Political Science Review 43 (April 1948): 222.

(6) See Frances Fitzgerald, America Revised, Vintage Books, New York, 1980.

(٧) فسر لويس كاس – وزير الحرب، وحاكم إقليم ميتشجان، والوزير الموفد إلى فرنسا، والمرشح الرئاسي – استبعاد الهنود كما يلي: "يبدو أن مبدأ التحسن التدريجي كامن في الطبيعة الإنسانية... فكلنا نكافح في مسار الحياة من أجل اكتساب الشرف أو السلطة أو بعض الأهداف الأخرى، التي يعني الحصول عليها تحقيق أحلام تخيلاتنا، ويحقق مجموع هذه الجهود تقدم المجتمع. ولكن هناك القليل من هذا في دستور المتوحشين".

- Howard Zinn, A People's History of the United States, Harper and Row, New York, 1980, p. 130.

- وكان كاس – مثل سلفه فيما كان يعرف في ذلك الوقت "باستبعاد الهنود" – مسئولا عن مصادرة ملايين الأفدنة من الأمريكيين المحليين، مما شجع "اهتمامهم عكس رغبتهم". "وادعى كاس – المتسم بالفخامة، الطموح، المكرم (منحته هارفارد درجة الدكتوراه الفخرية في القانون في ١٨٣٦، أثناء ذروة استبعاد الهنود) أنه خبير في شئون الهنود. ولكنه أظهر مرارا وتكرارا – كما يقول ريتشارد درينون في (العنف في التجربة الأمريكية: الفوز بالغرب) – "جهلا مدهشا بحياة الهنود" (المرجع السابق). وكتب زن عن الأسطورة الرسمية التي أحاطت بأندرو جاكسون، أحد أسلاف كاس: "إن الكتب الرائدة عن فترة جاكسون والتي كتبها المؤرخون المحترمون ("عصر جاكسون" الذي كتبه آرثر شليسنجر؛ "إقناع جاكسون"، الذي كتبه مارفن مايرز)، لا تذكر سياسة جاكسون تجاه الهنود، ولكن هناك حديثا كثيرا فيها عن الجمارك والمصارف والأحزاب السياسية والبلاغة السياسية. وإذا بحثت في كتب المدارس الثانوية، وفي كتب المدارس الابتدائية، في التاريخ الأمريكي، ستجد جاكسون حارس الحدود، الجندي، الديمقراطي، رجل الشعب – وليس جاكسون مالك العبيد، المضارب في الأراضي، جلاد الجنود المنشقين، مبيد الهنود". المرجع السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(8) See Brown, Bury My Heart at Wounded Knee, Holt, Reinhart and Winston, New York, 1971;

- Vine Deloria, Jr., Custer Died for Your Sins, Macmillan, New York, 1969;
- David Bidney, "The Idea of the Savage in North American Ethnohistory", Journal of the History of Ideas 15, no. 2 (1954): 322-27.

(9) Wesley Frank Craven, White, Red, and Black, University Press of Virginia, Charlottesville, 1971, p. 84.

(١٠) للاطلاع على عرض ممتاز للصناعة المعاصرة للعنصرية العلمية الزائفة، انظر:

- "Racism, Intelligence and the Working Class", Party for Workers Power, Boston, n.d. (after 1973);
- Thomas Gossett, Race: The History of an Idea in America, Southern Methodist University Press, Dallas, 1963.

(11) W. E. B. Du Bois, Black Reconstruction in America, 1850-1880, World Publishing, Cleveland, 1969 (Original 1935), p. 718.

– وبعد دو بويز بثلاثين سنة، كان الجدل حول "مدرسة دانينج" لا يزال مستمرا. وفي ١٩٦٧، أعلن جيرالد جروب وجورج بيلياس أنه "يكمن وراء تفسير مدرسة دانينج افتراضان مهمان. كان الأول يتمثل في أن الجنوب يجب أن يلجأ إلى الاتحاد بسرعة وبدون أن يتعرض لانتقام الشمال... وثانيا، كان يجب أن تسند المسئولية عن الحرية إلى الجنوبيين البيض. حيث كان هؤلاء المؤرخون يعتقدون أن الزنوج لا يمكن أن يندمجوا في المجتمع الأمريكي على قدم المساواة مع البيض، بسبب حالة الرق السابقة وخصائصهم السلالية المتدنية".

- Gerard N. Grob and George A. Billias (eds.), Interpretations of American History, Free Press, New York, 1967, 1:472.

– ومن ناحية أخرى، نجد أنه لا يزال هناك من يبرر دانينج وآخرين. إذ يرى وندل هولمز ستيفنسون أنه: "وضع المتحمسون الجنوبيون التاريخ الطائفي في توازن أفضل، فمثل سابقيهم [الشماليين الشرقيين] أهملوا دور الزنوج، وأغلقوا عقولهم مبكرا دون الدراسة الأنثروبولوجية".

- Stephenson, Southern History in the Making, Louisiana State University Press, Baton Rouge, 1964, p. 250.

(١٢) دو بويز، المرجع السابق، ص ٧٢٣. وفي ١٩٣٩، كان فرانسيس سمبكنز يردد حكم دو بويز: "أدى التفسير المتحيز لإعادة البناء إلى أحد أهم التطورات السياسية في التاريخ الحديث للجنوب، وهو تجريد السود من حق التصويت. وكان التضليل والعنف الذي تحقق به هذا الهدف بداية يبرر على أساس واحد: ذكرى الرعب

المزعوم لإعادة البناء. ولاحقا، ووسط فيضان من المهتمين بهذه الذكرى، اختـرع حكام الجنوب البيض في الاجتماعات الدستورية في أواخر القرن التاسـع عـشر وأوائل القرن العشرين وسائل قانونية للتخلص من تصويت الزنوج. وأكد المبـرر الرئيس لهذا العمل أن "إعادة البناء" كان بمثابة الحقارة والفوضى وسـوء الحكـم والسرقة. وأنا لا أستطيع بأي كلمات أعرفها أن أصوره". وكانت كلمات بن تيلمان هذه تتردد في كل أشكال آراء البيض من كارتر جلاس، هنري جرادي وتـشارلز آيكوك، إلى توم واطسون، هوك سميث، وجيمس فيرداماني".

- Simpkins in Grob and Billias, op. cit., p. 499.

- وبالنسبة إلى إسهامات دانينج وبورجس في تطور العلوم الـسياسية الأمريكيـة، انظر:

- Bernard Crick, The American Science of Politics, Routledge and Kegan Paul, London, 1959, pp. 26-31, 135-37;

- Albert Somit and Joseph Tannenthaus, The Development of (American) Political Science: From Burgess to Behavioralism, Allyn and Boston, 1967, ch. 3.

- وللاطلاع على وصف مبكر لدانينج، انظر:

- Charles Merriam, "William Archibald Dunning", in Howard W. Odum (ed.), American Masters of Social Science, Holt, New York, 1927, pp. 131-45.

(13) Quoted by Raphael Samuel, "British Marxist Historians", New Left Review 124 (March/April 1980): 28. Rainboro is also spelled Rainborough.

(14) Zinn, op. cit., p. 247.

(15) Nell Irwin Painter, Exodusters: Black Migration to Kansas after Reconstruction", Alfred Knopf, New York, 1976, pp. 15ff.

(16) Douglas Daniels, Pioneer Urbanites, Temple University Press, Philadelphia, 1980, p. 44.

(١٧) "تحدد السبب الرئيس "بتفوق البيض" - الذي سمح فـي الواقـع للبـيض الجنـوبيين بتخفيض مرتبة الأحرار إلى طائفة دنيا، حيث حاولوا فعل ذلـك بإصـدار "قـوانين السود" في ١٨٦٥. ولتأكيد هذا السبب في ١٨٦٨، [أعاد جون فان إيفـري ببـساطة نشر كتابه "الزنوج ورق الزنوج" بمقدمة موضوعية وتحت عنوان جديد "تفوق البيض وخضوع الزنوج". وكذلك دخل [يوشيا] نوت في جدل إعادة البناء. حيث أكـد فـي مذكرة في ١٨٦٦ القضية "العلمية" لدونية السود الكامنة كجزء من هجوم على "مكتب فريدمن" وغيره من الجهود الشمالية للتعامل مع قضية السلالة الجنوبية"، وهكذا.

- George Frederickson, The Black Image in the White Mind, Harper and Row, New York, 1971, p. 187.

- وبالطبع، لم يكن السبب الجديد حكرا على "البيض الجنوبيين"، كما تشير العبارة الغامضة؛ انظر:

- Lawanda and John H. Cox, "Negro Suffrage and Republican Politics: The Problem of Motivation in Reconstruction Historiography", In Frank Otto Gatell and Allen Weinstein (eds.), American Themes: Essay in Historiography, Oxford University Press, New York, 1968, pp. 232-60.

- وكذلك وضح فوريست وود هذا في دراسته لفترة ما بعد الحرب العادلة:

- Forrest Wood, Black Scare: the Racist Response to Emancipation and Reconstruction, University of California Press, Berkeley, 1968, pp. 30-36,

- وعلى الرغم من أنه كان قادرا أيضا على التشويش من جانبه: "لم ينشأ الاستغلال السياسي للعنصرية في الولايات المتحدة خلال ستينيات القرن التاسع عشر. ولكن كان هناك فرق بين التعصب قبل الحرب العادلة والتعصب الذي أعقب "إعلان التحرر". فقبل الحرب لم تكن هناك أسباب كثيرة لإثارة الكراهية ضد الزنوج، لأن معظمهم كانوا من الرقيق. ونظرا لأنهم كانوا خاضعين للبيض حسب القانون، لم تكن هناك حاجة لشن حروب بهدف حصارهم في 'موقعهم'" (ص ١٦). وتتضمن سخافة وود العارضة افتراض سلبية السود تجاه القمع؛ واستئصال التناقضات المتجسدة في استغلال عمل الأفارقة والأوروبيين؛ واستبعاد المواجهة السياسية بين رأس المال الزراعي ورأس المال الصناعي في أواخر القرن الثامن عشر؛ وتجاهل الفترة الطويلة لتبرير تجارة الرقيق؛ وإسقاط حركة "إلغاء الرق" من التاريخ. وكما يقول وود، لم يكن الأمر يتمثل في أن "الصورة الذاتية للأنجلوسكسون كانت عملاقا نائما يحتاج إلى من يثيره". المرجع السابق، ص ١٦.

(١٨) "كان الكثيرون من أكبر أساتذة جامعتنا الأوائل في التاريخ الأمريكي تأثيرا قد تعلموا في ألمانيا، حيث أخذوا من أساتذتهم الكثير من النظرة التيوتونية للتاريخ... وكان هذا طبعا مفهوما عنصريا للتاريخ، ويجب ألا يقال إن كل مؤرخينا قبلوه. ولكن الكثيرين فعلوا ذلك".

- Wesley Frank Craven, The Legend of the Founding Fathers, Cornell University Press, Ithaca, 1956, p. 175.

- "وعند مطلع القرن، أصبح الجمهور الأمريكي والمجتمع الأكاديمي بصفة عامة - بتأثير الاتجاهات الاجتماعية الدولية والمحلية التي أكدت تقدم التيوتونية الغربية في مقابل تخلف السلالات الملونة - يؤمنون بالنظريات المتطرفة لدونية السود، وتقبلوا الحرمان من التصويت وفرض التنظيم الاجتماعي الصارم على زنوج الجنوب. وقد عرض المشهد الوضيع المزعوم لمشاركة السود في "إعادة البناء" على أنه عرض عام لإثبات أن الزنوج كانوا غير قادرين على التقدم السياسي؛ وعرض العلماء الاجتماعيون وكتاب الخيال قدرا كبيرا من المواد العنصرية التي أقنعت المستقبل الأمريكي الأبيض بالدونية الثقافية والأخلاقية الفطرية للسود".

- William C. Harris in His introduction to:
- John R. Lynch, The Facts of Reconstruction, Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1970, (orig. 1913), pp. vi-vii.

(١٩) بالنسبة لردود الأفعال المبكرة لبرجوازية السود الصغيرة على الخيال السلالي و"إعادة البناء"، انظر مناقشة شارلوتي فورتن، روبرت فتسجيرالد، توماس فورشن، جون والاس، وجون لينش في:

- Daniel Gray, "Bibliographic Essay: Black Views on Reconstruction", Journal of Negro History 58, no. 1 (January 1973): 73-85;
- Allen W. Jones, "The Black Press in the 'New South': Jesse C. Duke's Struggle for Justice and Equality", Journal of Negro History 64, no, 3 (Summer 1979): 215-28.

- ولم يكن ديوك - محرر صحيفة السود، مونتجومري هيرالد - يثير حفيظة الرجال البيض العنصريين. ففي إحدى مقالاته الافتتاحية الأخيرة في مونتجومري، هاجم إعدام رجل أسود خارج إطار القانون مؤخرا باقتراح أن يسأل من قاموا بذلك أنفسهم: "لماذا تجذب المرأة البيضاء الرجل الزنجي الآن أكثر من الأيام الماضية"... فليس هناك سر في هذا الأمر، ونحن نشك كثيرا في التقدير المتزايد من جوليت البيضاء لروميو الملون". المرجع السابق، (ص ٢٢١). وبعد أن عرض هذه النقطة، غادر المدينة سريعا.

(٢٠) يقول أغسطس لو إن ويليام نيل، الذي كان يكتب في منتصف القرن التاسع عشر، كان أول أمريكي أفريقي يقدم كتابات تاريخية "غير عرقية"، ولكن جورج ويليامز "كان يعتبر أبرز مؤرخ زنجي في العالم" في عصره. إذ إن كتابه "تاريخ قوات الزنوج في حرب التمرد، ١٨٦١-١٨٦٥" (١٨٨٨)، ظل طويلا يمثل عملا متميزا في حد ذاته".

- Low, "Historians", in W. Augustus Low and Virgil Cloft (eds.), Encyclopedia of Black America, McGraw-Hill, New York, 1981, p. 440.

– وهناك مناقشة تفصيلية لويليامز في:

- Earl(ie) E. Thrope, Black Historians, William Morrow, New York, 1970.

– ويناقش جايس عمل ويليام براون المبكر، جايس، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢١) تحدث جون بروس في خطابه إلى جمهور فيلادلفيا في أكتوبر ١٨٧٧ "أسباب وجوب ذهاب الأمريكيين الملونين إلى أفريقيا" كصحفي ملتزم: طوال قرون لم تكن السلالة الملونة متعلمة جيدا. ولكن الحقيقة لم تكن كذلك دائما، ويثبت التاريخ الذي يوضح ما حدث ما يمكن أن يحدث أيضا. فقد كان الأفارقة يملكون جنوب مصر، عندما كتب أشعيا "إن إثيوبيا سترفع يديها حالا إلى السماء". وعندما أضافت ملكة سبأ ثروة إضافية إلى كنوز سليمان، وعندما أصبح أثيوبيا سخيا ومتعلما رسولا للمسيح قبل بولس العبري، كورنيليوس، أو قبل تحول الجنود الأوروبيين. فالسلالة التي منحت قارة أفريقيا العجيبة يمكن أن تكون متعلمة وترتقي إلى الثروة والسلطة والمكانة بين أمم الأرض".

- Philip S. Foner (ed.), The Voice of Black America, Capricorn, new York, 1972, 1:490. See also Moses, op. cit., p. 198.

(22) George Washington William, A History of the Negro Race in America from 1619 to 1880, 2 vols., G. P. Putnam's Sons, New York, 1883.

(٢٣) ظهر هذا المثال سلفا بالنسبة إلى القارة الأفريقية، انظر مناقشة ألكسندر كروميل في ويلسون موسى، مرجع سابق، ص ٥٩-٨٢؛

- David McBride, "Africa's Elevation and Changing Racial Thought at Lincoln University, 1854-1886", Journal of Negro History 62, no., 4 (October 1977): 363-77.

(٢٤) كابد دو بويز معاناة كبيرة في مقال نشر في ١٩٠٣ بعنوان "العُشر الموهوب" لإقرار حقيقة وجود نخبة متعلمة وغنية من السود في الولايات المتحدة. حيث وصف فيه باختصار تاريخ ٣٤ كلية وجامعة للسود كانت موجودة في ذلك الوقت، وقدم بعض التوضيح عن حالة مناهجها؛ وسجل العدد الكلي للخريجين السود من كليات السود والبيض من ١٨٧٦ إلى ١٨٩٩، وعرض عينات ممثلة لوظائفهم، وقدم تقديرا لممتلكاتهم.

- Julius Lester (ed.), The Sevens Son: The Thought and Writings of W. E. B. Du Bois, Vintage, New York, 1971, 1:391;

– وبالنسبة لبدايات طبقة المنظمين في الجنوب بعد إعادة البناء،

- Manning Marable, Blackwater, Black Praxis Press, Dayton, 1981, pp. 353-68; and
- Moses, op. cit., pp. 89-90.

(٢٥) يقدم أريا موسى مثالا مفيدا على المسافة النفسية التي قطعتها الطبقة الوسطى للسود في مناقشته لحركة نادي سيدات السود في أواخر القرن التاسع عشر: "كانت بدايات حركة النادي بين السيدات الأمريكيات الأفريقيات في أوائل القرن التاسع عشر مع تكوين مجموعات في مدن الولايات المتحدة التي كانت الطبقة الوسطى للسود فيها كبيرة بما يكفي لتقديم العضوية". ويقول فاني باربر ويليامز: "كقاعدة عامة، إن اللائي يمكن أن يطلق عليهن أنهن أفضل النساء بالمعنى المناسب في المجتمعات التي نشأت فيها هذه النوادي، أصبحن مهتمات وانضممن إلى أعمال المساعدات". واعتبرت السيدة ويليامز هذا بمثابة رفض لتهمة أن "النساء الملونات المتعلمات والمتمدنات ليس لديهن اهتمام وجداني بسلالتهن". موسى، مرجع سابق، ص ١٠٥.

- See Marable, op. cit., pp. 60-61,

– وانظر أيضا وصف دو بويز "لآلة كوسكجي" في النص، الملاحظة ٤٣.

(٢٦) كتب آلان تريليس عن جماعة بدايات "كو كلوكس كلان": "تتشابه عضوية كلان عبر الجنوب معها في تينيسي؛ فقد كانت تنتمي إلى كل مرتبة وطبقة في مجتمع البيض.... فقد كان استمرار تفوق البيض، والنظام القديم بصفة عامة، يمثل القضية التي اهتم بها كل الرجال البيض من جميع الطبقات".

- Allan Trelease, White Terror, Harper Torchbooks, New York, 1971, p. 51.

– "كانت القيادة داخل المنظمة تنتمي بوضوح إلى الطبقة المهنية الثرية التي حكمت الإقليم قبل أن يحل الراديكاليون محلها سياسيا، ولكن قوتها الاقتصادية والاجتماعية لم تتأثر كثيرا". المرجع السابق، ص ٢٩٦. وعلى مستوى القانون الاتحادي والحقوق المضمونة دستوريا، كانت القصة مشابهة: "إذ اتضح بحلول ١٨٩٠ للزنجي الأمريكي أنه لم يستطع توقع الحصول على العدالة والمعاملة العادلة من خلال العمليات السياسية العادية لحكومات الدولة والولايات، فإنه سيتضح له سريعا أيضا أنه لن يستطيع أن يتوقع الكثير من محاكم البلاد، وخاصة المحكمة العليا في الولايات المتحدة". بريسبرين، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢٧) عبر أحد المتحدثين السود، ويليام هوبر كونسيل، عن فكرة خاطئة لازمته طويلا: "كان لدى كونسيل فكرة مبالغ فيها جدا عن التضامن السلالي للبيض. حيث كان يفترض أن البيض لديهم إحساس كبير بالولاء والاحترام فيما بينهم، وخاصة تجاه الأعضاء الأضعف من سلالتهم. حيث قال كونسيل: 'إنني أحترم الرجل الأبيض لأنه يحترم نفسه. إنني أحترمه لأنه يضع أمه وأخته وزوجته وابنته في مكانة عالية بين النجوم، ويطلق ألف مدفع ويقرر قتل من يحاول الاقتراب منهن. وأنا احترمه لأنه

يبسط ذراعيه القويتين حول كل فتى وفتاة من البيض الفقراء أصحاب الشعر الأحمر والوجه المنمش على سطح الأرض، ويمهد لهم طريق الارتقاء في العالم". وكان هذا بالطبع مجرد هراء بحت في عصر يتصف بتدهور العمل واستغلال النساء والأطفال من خلال قوى المشروع الحر". موسى، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢٩) كانت المسودة الأولى من هذا الفصل تحوي مصطلح "تويتوني" هنا، ولكن كان هناك اعتقاد بأنه يمكن أن يشوش بدلا من أن يوضح. ولا يزال موسى يوضح أن كلا من كورميل وإدوارد ويلموت بليدن، الليبيريين الأمريكيين المولودين في جزر فيريجين Virgin كانا يدركان النماذج الألمانية جيدا. موسى، مرجع سابق، ص ٢٨١، الملاحظة ٢٤.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٣٣) المرجع السابق، ص ١٠٣-٣١. وناقش دو بويز علاقته وعلاقة المفكرين السود الأخرين في بوسطن بالسيدة روفين في:

- The Autobiography of W. E. B. Du Bois, International Publishers, n. p., 1968, pp. 136-37.

- وناقش أيضا مارجريت موراي، زميلته في فيسك والزوجة الثالثة لبوكر واشنطن، المرجع السابق، ص ١١٢. وانظر أيضا: مارجريت واشنطن، بونتمبس، مرجع سابق، ص ١٣٧-١٣٨، ١٦٧.

(٣٤) "كان هناك تفكير في هذا النظام الذي أدى إلى عسكرة التجربة الأكاديمية للسود في مؤسسات مثل هامبتون وتوسكين، حيث كان التعليم لا يقتصر على التجارة، ولكن كان هناك فرض لتنظيم صناعي عسكري دقيق على الحياة المجتمعية". موسى، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣٦) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٣٧) يبدو أن البحث عن الشخصية المحورية وتحديدها يجب أن يكون في ذلك الوقت بمثابة مشروع اختزالي يساء فهمه كثيرا. ويبدو هذا صحيحا بصفة خاصة عندما تخضع الأفكار والأيديولوجية للبحث. وسواء كانت متاحة في الأدبيات الدراسية أو التعليمية، أو ظاهرة في المجموعات الاجتماعية، فإن عناصر الوعي والفكر تكون مشتركة بصفة عامة بحكم قوة الظروف والاستمرارية الاجتماعية والتاريخية واللغة والثقافة والاهتمام. ويمكن اعتبار الإنجازات الفردية بمثابة قمة العزم الجماعي الذي يتصف بظروف استثنائية (الخيال، الموقع، الخ). وهكذا فإنه من المحتمل أن يتكرر، أو أن يكون في عملية الظهور إلى الوجود في مكان آخر، إما آنيا أو غير ذلك.

(٣٨) انظر ثوربي، مرجع سابق.
(٣٩) "كان بليدن من الزنوج القلائل الذين كان لهم تأثير واضح على الأدب والعالم الدراسي الناطق بالإنجليزية في القرن التاسع عشر.... إذ كانت كتاباته مصممة أساسا للدفاع عن السلالة الزنجية. وكانت أفكاره الرئيسة كما يلي: إن سلالة الزنوج كان لها إنجازات سابقة يمكن أن تفخر بها، إن لديها خصائص كامنة خاصة يجب عليها أن تكافح لإظهارها في "الشخصية الأفريقية" المتميزة، وإن الثقافة الأفريقية - بتقاليدها ومؤسساتها - كانت شاملة أساسا وإنه يجب الحفاظ عليها؛ وأخيرا، إن المسيحية كان لها تأثير معوق على الزنوج، بينما كان تأثير الإسلام صحيا - وهذه هي الفكرة الأكثر إثارة للجدل لديه، والتي كتب عنها مطولا".

- **Hollis Lynch, Edward Wilmot Blyden: Pan-Negro Patriot, 1832-1912, Oxford University Press, London, 1970, pp. 54-55;**
- **Moses, op. cit., pp. 42-45.**

(40) Moses, op. cit., pp. 134-36;

- **August Meier, "The Paradox of W. E. B. Du Bois", in Logan, op. cit., p. 83;**
- **Broderick, op. cit., pp. 52-54.**
- وأعيد نشر "الحفاظ على السلالات" في مجموعة الكتابات التي حررها جوليوس ليستر، دو بويز "الابن السابع"، مرجع سابق، ص ١٧٦-١٧٨.

(41) Du Bois, "The Talented Tenth", in The Seventh Son, op. cit., p. 385.

(42) The Autobiography of W. E. B. Du Bois, op. cit., pp. 236-237.

(٤٣) المرجع السابق، ص ٢٣٩. إن روبرت بريزين، الذي يعرف هذا التاريخ جيدا، لأنه كان عالم سياسة بكلية مورهاوس، يساند دو بويز: "انتشرت آراء [واشنطن] على نطاق واسع، وساهم مساندوه الذين شملوا محسنين مثل أندرو كارنجي وجاكوب شيف وجوليوس روزنفالد بمئات آلاف الدولارات لمعهد توسكيجي. وقد أصبح من الصعب على أية كلية أو مؤسسة زنجية أن تحصل على أموال من المحسنين إذا سحب واشنطون موافقته.... وقد عادت هذه النقطة... إلى جون هوب خلال سنواته الأولى كرئيس لكلية مورهاوس". بريسبين، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٤٤) "عندما توضع الأمور في سياقها التاريخي، يسهل تفسير كيف أن الفلسفة الاجتماعية للمؤرخين الزنوج - التي تفتقر للأسف إلى إدراك القوى الديناميكية - تحولت إلى إنجيل إيمرسون البسيط للاعتماد على الذات، والتفاؤل البسيط، والانتظار الطويل للمصير. ومع كل ما قيل، يجب ألا يساء فهمنا. فنحن لا نختلف كثيرا مع هؤلاء المؤرخين. فقد خدموا عصرهم، وفي ذلك الوقت لم يكن في أمريكا كثيرون يدركون ماذا كان يجري... وعندما نعتبر قصة الزنوج منذ التحرر بمثابة سجل

للصدامات والمبررات للدوافع الفردية والجماعية ضد نظام اجتماعي أمريكي في رأسمالية صاعدة، تعمل بداخلها ترتيبات وإجراءات شبه مفصلة للطبقة والطائفة، فإننا عندئذ نبدأ في الفهم".

- Reddick, "A New Interpretation for Negro History", Journal of Negro History 21, no., (January 1937): 26-27.

(٤٥) على أي حال، لم يكن واشنطن يلتزم بأي سلوك للمجاملة الطبقية عند تهديد وضعه السياسي. فقد كان يتلاعب بصحافة الزنوج من خلال الصحف التي كان يدعمها أو يملكها (التي شملت New York Age, Washington Colored American, Alexander's Magazine, Washington Bee، انظر بريسبين، مرجع سابق، ص ٣٨)، ولجأ إلى أساليب أكثر غدرا: "حيث بدأ واشنطن التخطيط لتدمير "حركة نياجرا" منذ يوم بدايتها. وزرع جواسيس ومخبرين داخل المجموعة وحاول فعلا تشجيع الشقاق والانقسام. ومن خلال استغلال تأثيره القوي على محرري وناشري صحف الزنوج، كان قادرا على تفعيل الحجب الجزئي على الأقل لأخبار حركة نياجرا من صحافة الزنوج". المرجع السابق، ص ٤١. وقد وصف دو بويز أسلوب بناء سيطرة جبهة توسكجي بأنه "شرير وغير أمين". دو بويز، السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٤٦) دو بويز، السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢٣٨. يتضح بعض الاهتمام الذي تناولت به الرأسمالية الأمريكية واشنطون وصورته في معظم السير الذاتية الخاصة به، والتي كانت تدخل لإظهار تأثيره على الرأسماليين الذين أعانوه. وقد ضمنوا أن تيارا مستمرا من المنشورات والمحاضرات والخطابات سيخرج من بين يديه بدعم "كتاب الشبح"؛ وضمن كارنجي دخلا مدى الحياة لواشنطن وزوجته الثالثة؛ ووضعوا إلى جواره سكرتيره الشخصي، إيميت سكوت، وهو رجل درس الرعاية السياسية للسود. انظر:

- Bontemps, op. cit.,
- Louis R. Harlan, Booker T. Washington: The Making of a Black Leader, Oxford University Press, New York, 1972.

- وربما يثبت أن الاهتمام بواشنطون كأداة للسيطرة على مفكري البرجوازية الصغيرة للسود كان في محله تماما من خلال الاتجاهات التي سلكها الجيل الثاني من هذه الطبقة. فبعد وفاة واشنطون في ١٩١٥ باثني عشر عاما، ثار الطلاب السود في مؤسسات التعليم العالي للزنوج. انظر بريسبين، مرجع سابق، ص ١٠١-١١١. وبحلول الثلاثينات، كان العالم جورج واشنطن كارفر - "قديس الشعب" في توسكيجي يشعر بالمرارة بسبب تجاربه في الجنوب وأماكن أخرى في البلاد، وإرسال بعض أفضل تلاميذه إلى الاتحاد السوفيتي ووصف السموم للأصدقاء النشطاء الثوريين الذين يمكن أن يستخدموها للموت الأقل ألما في مواجهة الغوغاء البيض.

- Linda O. Hines, "White Mythology and Black Duality: George W. Carver's Response to Racism and the Radical Left". Journal of Negro History 62, no. 2 (April 1977): 134-46.

(٤٧) "وضعت الشعوبية في أذهان السود توقعات حياة معينة مرتفعة، ولم تتحقق هذه التوقعات من خلال أتباع أي من "التسعة السرية" أو "القمصان الحمر" أو أية جماعات إرهابية أخرى. وبحلول ١٩٠٠، كان قد دخل في ماضي السود كل من القوة العنيفة التي منحت لهم وحفظت لهم من جانب حكومات "إعادة البناء"، والتجربة الأكثر واقعية للشعوبية. ففي الحركة الشعوبية، حصل السود على إحساس بأنهم مشاركون على قدم المساواة في العملية السياسية، وليسوا مجرد مستقبلين للحسنات الاتحادية؛ وتحقيق أهدافهم من خلال قوة التصويت. وعملت أعداد من السود وتفاعلت اجتماعيا مع البيض أصحاب المصالح المماثلة على قدر من المساواة النسبية، إن لم يكن الاندماج الحقيقي؛ وخاضوا تجارب التنظيم وإجراء الحملات، وأعمال اللجان، والسياسة الحزبية، واللقاءات القومية؛ والاستماع والتحدث والقراءة عن الأفكار الاقتصادية المتقدمة مثل التعاونيات والنقابات. وكان لا يمكن أن يخرجوا من الحركة بدون تغيير في آمالهم وأهدافهم".

- Florette Henri, Black Migration, Anchor Press, Garden City, 1976, pp. 10-11;
- Zinn, op. cit., pp. 280-89;
- Henri, op. cit., pp. 3-12; and
- C. Vann Woodward, Tom Watson: Agrarian Rebel, Oxford University Press, New York, 1963.

(48) See Ira Katznelson, Black Men, White Cities, Oxford University Press, London, 1973, pp. 106-8.

(٤٩) وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، عندما جمعت بيانات عن الإعدام خارج نطاق القانون، أظهرت التقارير أن إعدام البيض كان أكثر من إعدام السود، إذ إن أرقام ضحايا هذا الإعدام من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٨ كانت ٥٩٥ للبيض و٤٤٠ للسود. وبحلول ١٨٨٩، انعكس الاتجاه، وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، تصاعد إعدام السود كتعبير نهائي عن [الفصل العنصري] لجيم كرو. هنري، مرجع سابق، ص ٤٣.

ويواصل هنري، "إن الأرقام... توضح أنه من بين كل الزنوج الذين أعدموا بهذه الطريقة من ١٨٨٩ إلى ١٩٤١، كان أقل من ١٧٪ منهم متهمين بالاغتصاب. وكان القتل والهجوم الإجرامي أكثر التهم انتشارا... وكان الاغتصاب يحتل المرتبة الثانية. ومن بين الاعتداءات الأخرى التي كان السود يعدمون بسببها... إهانة سيدة بيضاء، الكتابة إلى سيدة بيضاء أو الاهتمام بها، المواعدة أو الهروب مع سيدة

بيضاء... الشهادة في المحاكم لصالح أسود آخر أو ضد أبيض، ممارسة الشعوذة، صفع طفل، إلقاء حجارة، التمرد، نقل الجدري، أو عصيان تنظيمات السفر". المرجع السابق. "ومن ١٨٨٥ إلى ١٩٢٧، وطبقا للأرقام التي نشرت في **World Almanac**، تم إعدام ٣٢٢٦ زنجي في الولايات المتحدة. وخلال نفس الفترة، تم إعدام ١٠٤٧ شخصا من البيض في الولايات المتحدة. ومن ١٨٨٥ إلى ١٨٨٩، تراوح إعدام الزنوج ما بين ٧١٪ إلى ٩٥٪ في السنة. وفي ١٨٩١، تم إعدام ١٢١ زنجيا. ومن ١٨٩١ إلى ١٨٩٥، تراوح إعدام الزنوج من ١١٢ إلى ١٥٥ (١٨٩٢). ومنذ ١٩٠١، لم يصل عدد حالات إعدام الزنوج في أية سنة إلى ١٠٠".

- **Scott Nearing, Black America, Schocken, New York, 1969 (orig. 1929), p. 206.**

- وبالنسبة إلى استخدام العنصرية في تدمير الحركة الشعوبية، انظر زن، مرجع سابق، ص ٢٨٥؛ هنري، مرجع سابق، ص ٩-١٠؛ وودوارد، توم واطسون، مرجع سابق، الفصول ٢١-٢٣.

(٥٠) هنري، مرجع سابق، ص ٥١.

(٥١) "بالنسبة لمعارضة الهجرة من مزارع الجنوب التي تعرضت لخسارة نسبة كبيرة من قوة عملها الرخيصة، والاستنكارات التي أصدرها واشنطن وغيره من المتحدثين السود للمهاجرين بأن الجنوب كان "أفضل" مكان بالنسبة لهم"، انظر هنري، مرجع سابق، ص ٧٣-٧٩.

(٥٢) بدأ تروتر وجورج فوربس، اللذان تخرجا من هارفارد وأمهرست على التوالي في ١٨٩٥ نشر "بوسطن جارديان" للتعبير عن معارضتهم لبوكر واشنطن. وكان هذا في ١٩٠١ قبل سنتين من نشر دو بويز انتقاداته العلنية الأولى لواشنطن في عمله "أرواح الشعب الأسود". حيث أسس تروتر وفوربس وزميلاهما في بوسطن أرشيبالد جريمكى وكليمنت مورجان معارضة قوية لواشنطن، بينما نظم المحاميان فردناند بارنيت وموريس في شيكاغو، والطبيب د. موسل في فيلادلفيا، مجموعات تنتقد برنامج توسكجي في مجتمعاتهم. انظر:

- **August Meier, "Radicals and Conservatives – A Modern View", op. cit., pp. 42-44.**

- "وفي تلك الأثناء، كان واشنطن يستخدم كل سلطته لإسكات المعارضة، وذلك في وقت مبكر منذ ١٩٠٢. حيث استخدم نفوذه الشخصي لإبعاد الناس عن الراديكاليين، وحاول حرمان المعارضين من وظائفهم الحكومية، وكان يرفع دعاوى التمرد على ناقديه كلما أمكن، ويضع الجواسيس في المنظمات الراديكالية، واستخدم نفوذه لدى المحسنين كسلاح فعال في التفاوض مع المعلمين وغيرهم، وحرم ناقديه من المشاركة والدعم في الحملات السياسية، وكان يدعم صحافة الزنوج لتسانده وتتجاهل أو تهاجم المعارضة". المرجع السابق، ص ٤٧. وفي

يوليو ١٩٠٣، كان تروتر وفوربس قادرين أخيرا على ترتيب مواجهة شخصية مع واشنطن في اجتماع في بوسطن. وكانت الخطة تتمثل في مقاطعة واشنطون بأسئلة شائكة، بمساعدة ٣٠ شخصا آخر أو أكثر. ومن الواضح أن شرطة بوسطن كان لديها تحذير مسبق من محامي واشنطن، ويليام لويس، وتم القبض على تروتر عندما وقف لمخاطبة واشنطن. ووقعت عليه غرامة قدرها خمسون دولارا، وحكم عليه بقضاء ثلاثين يوما في السجن. بريسبين، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩، ٢٥٣، ملاحظة ١١. "ووصلت أنباء سجن تورتر في صيف ١٩٠٣ إلى دو بويز في جامعة أتلانتا، حيث كان يدرس مناهج في الاجتماع. ومثل أتباع وأصدقاء تروتر الآخرين، أصبح دو بويز ساخطا.... وهنا قرر دو بويز أن يتخلى عن جهوده لتحسين أحوال الزنوج "بالدراسة العلمية". "وأصبح العمل السياسي والاجتماعي المباشر يمثل الإستراتيجية الجديدة". المرجع السابق، ص ٣٩. ومع ذلك، قدم دو بويز تفسيرا مماثلا لتلك الأحداث، حيث عرض أحداث اجتماع بوسطن في ١٩٠٥ واستطاع أن يقترح أن الأحداث التي تلت - أي تأسيس حركة نياجرا - كانت بناء على مبادرته وليس مبادرة تروتر. السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢٤٨-٢٥١. ويمكن ملاحظة هذا الاتجاه نحو إعادة بناء الأحداث التي شارك فيها بحيث تدور حول شخصيته لدى جايس (مرجع سابق، ص ٢٣٢-٢٣٣) وبريسبين (مرجع سابق، ص ٢٥٣، ملاحظة ١٦). وبالنسبة لأمثلة انتقادات تروتر لواشنطن، انظر:

- Francis Broderick and August Meier (eds.), Negro Protest Thought in the Twentieth Century, Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1965, pp. 25-30.

(٥٣) كما يقول هربرت أبتيكر، محرر أوراق دو بويز، كان عمل جون براون أحب أعمال دو بويز، على الرغم من أنه أدرك أن عمله التاريخي الأول:

- The Suppression of the African Slave Trade to the United States of America, 1638-1870 (Schocken, New York, 1969 (orig. 1896)

- كان أهم أعماله بالمعنى التقليدي.

- Aptheker, "the Historian", in Logan, op. cit., p. 262.

- ويمكن أن يتضح تأكيد كيلي ميلر بأن تروتر نسج "شبكة محكمة" حول دو بويز (انظر ماير، مرجع سابق، ص ٧٥) في البيان المشترك الذي كتبه تروتر ودو بويز لحركة نياجرا في ١٩٠٦، حيث قالا عن جون براون: "نحن لا نؤمن بالعنف، لا بالعنف المهين للغارات، ولا العنف الممجد للجنود، ولا العنف البربري للغوغاء؛ ولكننا نؤمن بجون براون، وبروح العدالة المجسدة، وكراهية الكذب، والرغبة في التضحية بالمال والشهرة والحياة ذاتها على مذبح الحق". دو بويز، السيرة الذاتية، ص ٢٥١.

(٥٤) "هناك موضوع جديد في صفحات عملي دو بويز "الأفق" و"الأزمة" وهو اهتمامه بالحركة العمالية والاشتراكية. ففي وقت ما، كان يعتبر الطبقة العاملة للبيض "ألد معارضي" الزنوج". وبحلول ١٩٠٤، أصبح يعتقد أن التمييز الاقتصادي كان السبب الرئيس لمشكلة السلالات، والشعور بالتعاطف نحو الحركة الاشتراكية. وبعد ذلك بثلاث سنوات، كان يكتب لصالح الاشتراكيين في "الأفق". وفي أماكن أخرى، كان ينصح الاشتراكيين بأن حركتهم لا يمكن أن تنجح ما لم تشمل العمال الزنوج، وكتب أن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة وقت قبل أن يدرك العمال البيض والسود قضيتهم الاقتصادية المشتركة ضد الرأسماليين المستغلين. وعلى الرغم من أن دو بويز صوت في ١٩٠٨ لصالح الاشتراكيين لأنهم لم يكن لديهم فرصة للفوز، فإنه انضم إلى الحزب في ١٩١١. وفي تفسير ماركسي في الصفحات الختامية في "الزنوج"، اعتبر دو بويز أن الزنوج الأمريكيين والأفارقة، والعمال البيض والسلالات الملونة، يتعرضون لاستغلال رأس المال الأبيض الذي يستغل فكرة اختلافات السلالات كمبرر للاستغلال والفصل العنصري والخضوع. وتنبأ بأن الذين يتعرضون للاستغلال من كل السلالات سيتحدون ويطيحون برأس المال الأبيض، أي عدوهم المشترك".

- August Meier, "The Paradox of W. E. B. Du Bois", in Logan, op. cit., p. 82.

(٥٥) "تعتبر الحرب العالمية الحالية ناتجة عن الأحقاد التي أثارها ظهور المجموعات القومية المسلحة للعمل ورأس المال، والتي تهدف إلى استغلال ثروة العالم أساسا – خارج دائرة الأمم الأوروبية. حيث تحارب هذه المجموعات – التي ترعرعت حاقدة ومتشككة في تقسيم غنائم الإمبراطورية التجارية – لتوسيع أنصبتها، وهي تبحث عن التوسع ليس في أوروبا، ولكن في أسيا وخاصة في أفريقيا".

- Du Bois "The African Roots of War", in Clarke et al., op. cit., p. 280)

– وقد ظهر المقال الأصلي في:

- Atlantic Monthly, May 1915, pp. 707-14.

(56) See Du Bois, "Judging Russia", The Crisis 33 (February 1927): 189-90.

– زار دو بويز الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٦، ١٩٣٦، ١٩٤٩، و١٩٥٩، وزار الجمهوريات الأسيوية في رحلته الثانية والأخيرة. وكان ينتقد دائما الدعاية المضادة للسوفيت، ويبدو أنه كان يأمل في أن الثورة ستنجح حتى وفاته. انظر دو بويز، السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص ٢٩-٣٠؛ وانتقاده "لتذبذبات الأمة في حالة روسيا في خطاب إلى فريدا كيرشفي، في ١٣ ديسمبر ١٩٣٩، في:

- Correspondence of W. E. B. Du Bois, 2, Herbert Aptheker (ed.), University of Massachusetts Press, Amherst, 1976, pp. 202-3.

(٥٧) يتمثل أفضل تجميع لعمل دو بويز في حركة عموم الأفارقة في عمل جايس، مرجع سابق، ص ٢٢٩-٢٦٢، وانظر أيضا:

- Richard Moore, "Du Bois and Pan Africa", in Clarke et al., op. cit., pp. 187-212;
- C. L. R. James, "W. E. B. Du Bois", in James, The Future in the Present, Allison and Busty, London, 1977, pp. 202-12.

(٥٨) وصفه هربرت أبتيكر، المفكر الماركسي الأقرب إلى أعمال دو بويز، في معالجته الخاصة "لإعادة بناء السود" بأنه "مثالي - من الناحية الفلسفية - في مجالات تفكيره الرئيسة". أبتيكر، "المؤرخ"، مرجع سابق، ص ٢٦١. ويبدو أن أبتيكر كان يعتقد أن دو بويز اطلع متأخرا جدا على أعمال ماركس ولينين بحيث لم تؤثر عليه كثيرا في فهمه للتاريخ. وكان جورج ستريتور - الذي وصفه أبتيكر بأنه كان قائدا في إضراب الطلاب في جامعة فيسك في ١٩٢٥، والذي طلب منه دو بويز لاحقا أن ينضم إلى هيئة "الأزمة" - واحدا من أكثر نقاد دو بويز المطلعين في اليسار الأسود. حيث كتب ستريتور عددا من الخطابات اللاذعة إلى دو بويز في ١٩٣٥ في موضوعات الماركسية وقدرات الطبقة الوسطى للسود. انظر:

- Aptheker (ed.), The Correspondence of W. E. B Du Bois, op. cit., 2:86-96.

- وكما يقول فرانسيس برودريك، فقد كتب ستريتور في ١٩٤١: "إنه يشك في أنه "مع كل مواهب دو بويز، إلا أنه لم يفعل سوى الالتفات إلى تلك الصفحات القوية، حيث حفر ماركس أثره الواضح على المجتمع الإنجليزي الذي حقق ثروته من خلال تجارة الرقيق الأفارقة. وكان كل بقية الأعمال بالنسبة إلى دو بويز أقرب إلى هيجل، وأنا أشك في أن دو بويز فعل الكثير لهيجل عندما كان طالبا في ألمانيا. برودريك، مرجع سابق، ص ١٤٨، الملاحظة. ويبدو أن فقرات معينة في "'إعادة بناء السود" تؤيد تقييم أبتكر (مثلا، إن النجاح السياسي لمنهج الفصل العنصري، الذي أطاح بإعادة البناء بتوحيد المزارعين والبيض الفقراء، تخطته نتائجه الاقتصادية المدهشة"، ص ٧٠٠)، ولكن يبدو أن القراءة المتأنية للدراسة وحقيقة أن دو بويز درس محاضرات عن ماركس في ١٩٠٤ و١٩٣٣، وأنه نفسه كان دارسا للفلسفة الألمانية، تفند انتقادات ستريتور. انظر:

- Aptheker (ed.), The Correspondence, op. cit., p. 76;
- Broderick, op. cit., op. cit., p. 148;
- Eugene C. Holmes, "W. E. B. Du Bois: the Philosopher", in Clarke et al., op. cit., p. 79.

- واحتراما لأبتيكر الذي تعرضت تفسيراته لماركس للهجوم أيضا، انظر:

- Paul Buhle, "American Marxist Historiography, 1900-1940", Radical America, November 1970, pp. 5-35; and
- James O'Brien et al., "New Left Historians of the 1960s", Radical America, November 1970, pp. 83-84.

- ولا يعتبر "إعادة بناء السود" تمرينا مثاليا في التأريخ. ففي هذا العمل، وفي مناسبات عديدة، يركز دو بويز على الأسس الاقتصادية لصياغة التجربة في إعادة البناء وللتوفيق بين الرأسماليين الصناعيين والرأسماليين الزراعيين الجنوبيين الذين سيطروا على العمل والأرض في فترة ما قبل الحرب. وقد بدأ الوعي السلالي الذي منع تطور الهياكل الديمقراطية في أمريكا كأمر مصاحب لنظام الرقيق، ولكنه اكتسب في النهاية صفة القوة المادية. ومع كل هذا، فقد كانت القوى الاقتصادية هي التي توحد الطبقات الحاكمة للأمة: "فلم تكن السلالة ولا الثقافة التي تمثل الجنوب في ١٨٧٦، ولكن كانت الملكية والامتيازات التي تتجمع إلى نوعها، والامتيازات والملكية التي تسمع وتعرف صوتها". (إعادة بناء السود، مرجع سابق، ص ٦٣٠).

(٥٩) ظهرت فكرة الاستثنائية الأمريكية أو "الأمريكانية" في الحزب الشيوعي الأمريكي في أواخر العشرينيات كتفسير لفشل الحزب في جذب أتباع كثيرين من العمال الأمريكيين. وكان ضعف الحزب ينسب إلى حقيقة أنه على عكس الرأسمالية الأوروبية، كما سماها إيوجين فيرجا، كانت الرأسمالية الأمريكية "لا تزال سليمة". ونظرا لأن "الولايات المتحدة كانت استثناء لقاعدة الانحطاط الرأسمالي"، اقترحت الجلسة الثامنة للدولية الشيوعية في ١٩٢٧ أنها "لا تتوقع ارتفاعا كبيرا في الحركة العمالية الثورية في المستقبل القريب".

- Theodore Draper, American Communism and Soviet Russia, Viking Press, New York, 1960, pp. 270-72.

(٦٠) أعيد نشر محاضرة دو بويز في مؤتمر روزنفالد في:

- Baltimore Afro-American, 20 May 1933, pp. 2-3.

- وطرح كيريل جيمس نقطة مماثلة أثناء مناقشة الديمقراطية المباشرة أمام جمهور ترينيداد في ١٩٦٠. وعند المقارنة بين العالم الحديث وأثينا خلال حقبتها الديمقراطية قبل ٢٠٠٠ سنة أو أكثر، قال جيمس: "كانت أثينا مقسمة إلى ثمان قبائل أو أقسام، وكانوا كل شهر يختارون بالقرعة عددا معينا من الرجال من كل قسم.... وكان هؤلاء يذهبون إلى المناصب الحكومية ويحكمون الدولة طوال ذلك الشهر.... وأنا أشك في أنكم تستطيعون الآن اختيار ثلاثين أو أربعين فردا من أي مكان وتشكيل حكومة منهم، مهما كانت صغيرة، وأن تطلبوا منهم إدارتها.

وليس ذلك لأن الحكم صعب جدا. إذ إن فكرة أن المحليات الصغيرة الموجودة في كل مكان في العالم اليوم لديها مشاكل أكثر صعوبة وتعقيدا من مدينة أثينا، تعتبر سخيفة تماما. (ولكن الفكرة هي أن الناس فقدوا عادة النظر إلى الحكم وإلى بعضهم البعض بهذه الطريقة". فهي ليست في ذهنهم على الإطلاق).

-James, "When We Owe to Ancient Greece", in "Modern Politics", bewick/ed, Detroit, 1973, p. 4.

(61) Du Bois, op. cit.

(٦٢) أكد دو بويز في رسالة إلى جورج ستريتور في ٢٤ أبريل ١٩٣٥: "إنني مقتنع من اتصالي الواسع بالعاملين في الولايات المتحدة في الشمال والجنوب والشرق والغرب بأن الأغلبية العظمى منهم رأسمالية جدا في مثلها ومقترحاتها، وأن آخر شيء يمكن أن يريدوا فعله هو الاتحاد في أية حركة تهدف إلى رفع جماهير الزنوج إلى مستوى المساواة معهم.... وأنا أنظر بدهشة إلى العسكريين الذين يتحركون ضد العنف، ومحبي السلام الذين يريدون الثورة الطبقية مباشرة. فمن الممكن أنه كانت هناك أوقات في العالم لم يكن هناك شيء يحقق التقدم فيها سوى الثورة. وأنا أشك في أن هذا كان صحيحا في روسيا في ١٩١٧. ولا أعتقد أن هذا كان صحيحا في الولايات المتحدة في ١٩٣٥. ولكن سواء كان هذا صحيحا أم لا، فإن الزنوج لم يكن لهم أي دور في أي برنامج يدعو للثورة العنيفة. وإذا شاركوا فإنهم سيجعلون انتصار مثل هذا البرنامج أكثر صعوبة، وسوف يلحقون انتقام سلالة البيض بجموع الزنوج الأبرياء. وستكون النتيجة مرعبة جدا بصورة لا يمكن توقعها. ولذلك فإنني أعارض تماما وبشدة النمط الأمريكي من الشيوعية التي تهدف ببساطة إلى إثارة المشاكل وجعل قوات صدمة الزنوج تدخل في حرب يمكن أن يؤدي الانتصار فيها إلى الإبادة التامة للزنوج الأمريكيين. ولذلك فإنني أهاجم - وسوف أستمر في الهجوم على - الشيوعية الأمريكية في شكلها الحالي، وفي نفس الوقت فإنني أعتبر روسيا الدولة الحديثة الأكثر ملاءمة".

- Aptheker, (ed.), The Correspondence, op. cit., pp. 91-91.

- واتفق ستريتور في رده مع دو بويز على أن "الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة يقوده رجال أغبياء". ولكنه قال: "وهي مع ذلك منظمة للعمال". واقترح أن يبدي دو بويز مزيدا من الاهتمام في المستقبل: "أنت تهاجم الشيوعية الأمريكية، ولكنك لا ترسل أيا من طلابك خارج أتلانتا مسلحا بالتصميم على العمل في الحركة العمالية التي تحدثت عنها ولكنك لم تدرسها". "وأستطيع أيضا أن أهاجم الحزب الشيوعي الأمريكي - لاحظ الفرق - ولكنني أستطيع القيام بدوري في بناء الحركة العمالية وفي محاربة جيم كرو في الحركة العمالية". من ستريتور إلى دو بويز، ٢٩ أبريل ١٩٣٥، المرجع السابق، ص ٩٥، ٩٤.

(٦٣) ترتبت استقالة دو بويز من الرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة NAACP ومن تحرير "الأزمة" في ١٩٣٥ على الصعوبات التي واجهها مع السكرتير التنفيذي، والتر هوايت، الرجل الذي لم يحبه دو بويز ولم يثق فيه. ومع ذلك، تخطى سبب الخلاف حدود الشخصيات والمراوغات الإدارية. وكان أحد العوامل يتمثل في تأثير ظهور "الجمعية العامة لتطوير الزنوج، يونيا UNIA) كمنظمة جماهيرية على تفكير دو بويز. وكمتحدث عن الرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة، كان دو بويز ينتقد وبشدة أحيانا قيادة يونيا. انظر عمله:

- Du Bois, "Marcus Garvey and the NAACP", The Crisis, 35, February 1928, p. 51, cited in D. Walden (ed.), W. E. B. Du Bois: The Crisis Writings, op. cit., pp. 307-10.

- ولكن حتى في أوائل عشرينيات القرن العشرين، كان دو بويز متقبلا لبرنامج يونيا، إذ كانت الخطوط العريضة لخطة جارفي عملية تماما، بغض النظر عن تمميقها ومبالغتها. وكان ما يحاول أن يقوله ويفعله هو أن: الزنوج الأمريكيين يستطيعون من خلال تراكم وإدارة رأس المال وتنظيم الصناعة الانضمام إلى مراكز السود في الأطلنطي من خلال المشروعات التجارية، وبهذه الطريقة يحررون أفريقيا في النهاية كوطن مناسب وحر للسود. وهذا صحيح. وهذا ممكن".

- ("Marcus Garvey", The Crisis 21 (January 1921(: 112-15, cited in Walden, ibid., p. 325).

- وبحلول أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، جرد دو بويز البرنامج مما اعتبره العناصر السلبية، وكان يعرضه كمحور لبرنامجه الخاص للتقدم الاقتصادي للسود الأمريكيين. ودفعت هذه الصيغة "المنقحة" من برنامج يونيا هارولد كروز بعد ذلك بثلاثين عاما إلى التعليق: "اعتقد دو بويز أن فكرة اقتصاد السود المستقل لا يمكن استبعادها بسهولة لأننا في المقام الأول لدينا اقتصاد مستقل جزئيا في الولايات المتحدة". ومع ذلك، علق في ١٩٤٠ بأن برنامجه الاقتصادي لتقدم السود "يمكن إساءة فهمه بسهولة كبرنامج للفصل العنصري الكامل، وحتى للقومية بين السود... وهذا سوء إدراك". ويبدو أنه لم يخطر لدو بويز أن أية إعادة تنظيم اقتصادية دقيقة لوجود الزنوج مفروضة من أعلى، لن تساندها الجماهير الشعبية ما لم تكن هناك دعوة إلى قوميتهم".

- Cruse, The Crisis of the negro Intellectual, William Morrow, New York, 1967, p. 309.

- وعارضت قيادة الرابطة القومية لتقدم الشعوب الملونة NAACP نصيحة دو بويز بتكوين كومنولث تعاوني للسود. انظر برودريك، مرجع سابق، ص ١٦٩-١٧٥. وبالنسبة لبرنامج دو بويز، انظر:

- Du Bois, Dusk of Dawn, Schocken, New York, 1968 (orig, 1940), pp. 197-266.

- وبينما اقترح هنري لي مون أن دو بويز تراجع إلى موقف مشابه لبوكر واشنطن، فإنه من الواضح أن الأمر لم يكن كذلك، لأن دو بويز كان يؤسس خططه بوعي على افتراض "انهيار الرأسمالية". المرجع السابق، ص ١٩٨. (وبالنسبة لتوصيف مون، انظر مون، مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩).

(٦٤) بالنسبة ليونيا وأخوية الدم الأفريقية، انظر:

- Theodore Vincent, Black Power and the Garvey Movement, Ramparts, San Francisco, 1972.

- وانظر النشر المتوقع لأوراق جارفي التي قدمها وحررها روبرت هيل، UCLA. وبالنسبة إلى حالة سكوتسبورو، انظر:

- Dan T, Carter, Scottsboro: A Tragedy of the American South, Oxford University Press, London, 1968.

(٦٥) "قبل أن يجرب قادتنا هذه المهمة الجديدة، كان يجب أن يتعلموا درسا كبيرا". "فطبقاتنا المهنية ليست الأرستقراطيين وسادتنا، ولكنها - ويجب أن تكون - الأكثر كفاءة من خدمنا". مؤتمر روزنفالد، مرجع سابق.

(٦٦) كما سنرى، قال دو بويز إن جذور الكساد في العقد الثالث من القرن العشرين كانت تتمثل في استجابات عمالة البيض لتحرير الرقيق. انظر "إعادة بناء السود"، مرجع سابق، ص٣٠.

(٦٧) مؤتمر روزنفالد، مرجع سابق.

(٦٨) كل الاقتباسات من "إعادة بناء السود" مأخوذة من طبعة مريديان (شركة النشر العالمية)، ١٩٦٩.

(69) See Robert Fogel and Stanley Engerman, Time on the Cross, Little, Brown,, Boston, 1974, 2:20-29.

(٧٠) هذا قريب جدا من إعادة صياغة نص لوصف ماركس للتراكم الأولي في رأس المال، وهو العمل الذي يشير إليه دو بويز كثيرا في إعادة بناء السود.

(71) See Philip Foner, Organized Labor and the Black Worker, 1619-1973, International Publishers, New York, 1976, pp. 4-16; and

- Robert Starobin, Industrial Slavery in the Old South, Oxford University Press, New York, 1970.

(٧٢) "كان يطلب من العامل الأبيض أن يشارك في عوائد استغلال "الآبار والزنوج". فلم يعد الأمر يتمثل ببساطة في أمير التجارة، أو احتكار الأرستقراطية، أو حتى طبقة أصحاب الأعمال، التي تستغل العالم؛ ولكنها الأمة الديمقراطية الجديدة المكونة من

اتحاد رأس المال والعمل". وبينما تعتبر الديمقراطية نموذجا معترفا به في التنظيم الاقتصادي، فإنها تعرب عن نفسها بالسماح بالحصول على جزء من عوائد رأس المال لأرستقراطية العمل فقط - أي العمال الأكثر ذكاء ودهاء. أما العمالة الجاهلة غير الماهرة المضطربة فتشكل مجموعة كبيرة مهددة وثورية إلى حد بعيد في الدول المتقدمة". دو بويز "الأصول الأفريقية للحرب"، مرجع سابق، ص ٢٧٧، ٢٨١.

(٧٣) وفي أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن التاسع عشر - كما يقول ويليام فوستر (وهو المؤرخ الذي رأس مرتين في حياته الحزب الشيوعي الأمريكي كسكرتير عام) - "كان هناك الكثير من النوايا الحسنة بين "اتحاد العمال القومي" و"اتحاد العمال القومي للملونين"، وإذا كانا لم يستطيعا أن يقيما وحدة عملية وثيقة بين العمال الزنوج والبيض، فإن هذا كان يرجع إلى فشلهما في التغلب على عدد من العقبات الخطيرة. حيث كان العمال البيض يميلون إلى استبعاد الزنوج من الأنشطة الماهرة، ورفض العمل معهم في المتاجر، وحرمانهم من اتحادات العمال. وكان هذا الاتجاه الأناني للبيض - والذي كان يسبب الخسائر في حركة العمال في العقود الأخيرة - أمرا واضحا سلفا بين الاتحادات في اتحاد العمل الوطني NLU".

- Foster, The Negro People in American History, International Publishers, New York, 1954, p.351.

- حيث كتب صحفي كان يراقب ملتقى NLU في ١٨٦٩: "عندما يشير مواطن مسيسيبي وضابط اتحادي سابق، عند مخاطبة الملتقى، إلى مندوب ملون سبقه بأنه "السيد المحترم من جورجيا"... وعندما يعلن حرفي ديمقراطي متحمس (من نيويورك) بحذاء أيرلندي ثري أنه لا يطلب لنفسه امتيازا كميكانيكي أو كمواطن لا يرغب في التنازل لأي شخص آخر، أبيض أو أسود... فإن المرء يمكن أن يكون محقا فعلا في تأكيد أن الزمن يسبب تكاليف كبيرة". اقتباس زن، مرجع سابق، ص ٢٣٦-٢٣٧. وانظر أيضا: فونر "العمل المنظم والعامل الأسود"، مرجع سابق، ص٣٠-٦٣ للاطلاع على تاريخ اتحاد العمل الوطني، واتحاد العمل الوطني للملونين CNLU و"فرسان العمل" وغيرها من الاتحادات؛

- Herbert Gutman, "the Negro and the United Mine Workers of America", in Julius Jacobsen (ed.), The Negro and the American Labor Movement, Anchor Books, Garden City, 1968, pp. 119-20.

(74) See Du Bois, "Organized Labor", in Julius Lester (ed.), The Seventh Son, op. cit., 2:301-2.

- وقد ظهرت الافتتاحية أساسا في "الأزمة"، يوليو ١٩١٢.

(75) Karl Marx and Friedrich Engels, The German Ideology, in Robert C. Tucker, The Marx-Engels Reader, W. W. Norton, New York, 1972, p. 128.

(76) See Richard Lichtman, The Fascade of Equality in Liberal Democratic Theory", Socialist Revolution, January 1970, pp. 85-126.

(٧٧) في ١٩٢٥، حلل ماركسي أسود تطورات مجتمعه: "كان النمو البطيء للماركسية بين الزنوج يرجع كله إلى عدم قدرة كل من الديمقراطيين الاجتماعيين والشيوعيين على الاقتراب من الزنوج على أساس خلفيتهم الذهنية، وتفسير أوضاعهم الاجتماعية الخاصة من خلال الصراع الطبقي. ولكن الزنوج السود طوروا برجوازيتهم الخاصة الآن، حتى وإن كانت لا تزال بسيطة. وأصبحت الحدود أكثر حدة بصورة متزايدة في الصراع بين البرجوازية البيضاء والسوداء. حيث تتسابق البرجوازية الصغيرة للزنوج على جماهير الزنوج في صراعها ضد برجوازية البيض الأكثر قوة، وجماهير الزنوج مشبعة بالاعتقاد بأن تدهورها الاجتماعي نابع من حقيقة أنهم ينتمون إلى سلالة مختلفة بصورة واضحة، وأنهم ليسوا من البيض.... ويعتبر الزنجي ثوريا جدا بالمعنى السلالي، وهو ينتقل إلى الحزب الشيوعي الأمريكي لاستغلال مشاعره الثورية السلالية لصالح صراعه الطبقي".

- **James Jackson, "The Negro in America", Communist International, February 1925, p. 51.**

- ولم يكن هذا جيمس جاكسون الذي كان نشطا في الحزب الشيوعي الأمريكي في الأربعينيات وما بعدها، والذي حرر "العامل اليومي" لفترة؛ ولكنه كان فورت هوايتمان الذي وصفه محررو الشيوعية الدولية بأنه "مهاجر [ربما إلى بريطانيا العظمى] من السلالة الزنجية المقهورة". المرجع السابق، ص ٥٣. وقد قدم جورج ستريتور نفس الفكرة إلى دو بويز، ولكن بصورة أكثر بساطة: "ليس هناك شيء اسمه زنجي "يحب" سلالته بأسلوب الاستثمار والأرباح الرأسمالي". ٨ أبريل ١٩٣٥، في أبتيكر (محرر) "مراسلات دو بويز"، مرجع سابق، ٢:٩٠.

(٧٨) محاضرة مؤتمر روزنفالد، مرجع سابق.

(٧٩) خلال العقد الأول بعد الثورة الروسية، كانت الأزمات التي تواجه الاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية العالمية درامانية بسبب صراعات القيادة في روسيا وفي الأحزاب الوطنية في الكومنترن. ففي روسيا، أطلق مرض لينين الطويل والمعوق بصورة متزايدة، ثم موته أخيرا في ١٩٢٤، العنان للأزمات: "على الرغم من وجود الفصائل في عهد لينين، فإنها كانت انتقالية وكثيرا ما كان أعضاؤها يغيرون مواقعهم. [وبحلول ١٩٢٥]، أدى الاصطفاف المتصاعد إلى مواقف متشددة بناء على البرامج والشعارات المتناقضة، ولم يكن يستجيب للتوافق أو المناورات الفردية.... وفوق كل هذا، نبع الانقسام الحاد بين القادة الروس من قرارات السياسات، حول الاشتراكية في إحدى الدول وتفسير وتطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة NEP.... وفي داخل المكتب السياسي، انضم زينوفيف، كامنيف، وتروتسكي إلى اليمين، بينما انضم أليكسي روكوف وميخائيل تومسكي، وكان ستالين في الوسط، على الرغم من أنه ربط نفسه دائما باليمين".

- Heimut Gruber, Soviet Russian Masters the Comintern: Internationai Communism in the Era of Staiin's Ascendancy, Anchor/Doubleday, Garden City, 1974, p. 21.

– حيث يناقش جروبر السياسات المطروحة والتطورات السياسية، المرجع السابق، ص ٢٠-٢٥، ١٧٥-٢٠٠؛ وانظر أيضا:

- Fernando Ciaudin, The Communist Movement: From Comintern to Cominform, Part i, Monthiy Review Pres, New York, 1975, pp. 46-102.

– وبالنسبة للفصائل الأمريكية في صراع القيادة، انظر:

- Benjamin Gitiow, I Confess, E. P. Dutton, New York, 1939, pp. 493-570;
- Theodore Draper, American Communism and Soviet Russia, Viking Press, New York, 1963, chaps. 16, 17 and 18;
- Daniel Bell, Marxian Sociaiism in the United States, Princeton University Press, Princeton, 1967, pp. 133-34.

– وبالنسبة للشيوعيين الأمريكيين السود وصراعات القيادة، انظر:

- Harry Haywood, Biack Boishevik, Liberator Press, Chicago, 1978, pp. 176-91.

– وبالنسبة لأمثلة النظام والانتهازية التي أظهرها العديد من الشيوعيين السود البارزين تجاه التغيرات الكثيرة في "خط" الحزب، انظر عمل نولان الجدلي المناهض للشيوعية، على الرغم من أنه مفيد غالبا:

- Wiiiiam Nolan, Communism versus the Negro, Henry Regnery Co., Chicago, 1951, passim;
- Garry Haywood, For a Revoiutionary Position on the Negro Question, Liberator Press, Chicago, 1975.

(٨٠) كان دو بويز نادرا ما يذكر إنجلز منفردا، وكان يبدو أنه ملتزم تماما بعبارة "ماركس وإنجلز"، مما يشير إلى نقد سابق كان ماركس يشكو منه: "إن الشيء الغريب هو أن ترى كيف أنه يعامل كلينا على أننا شخص واحد: فهو يقول ماركس وإنجلز".

- Letter to Engels, 1 August 1856, cited by S. S. Prawar, Kari Marx and Worid Literature, Oxford University Press, 1976, p. 1.

– وكانت الماركسية اللينينية، التسمية التقليدية لنظريات وسياسات الكومنترن في فترة ما بعد لينين، ترتبط بعقيدة وسياسة ستالين وليس لينين. وغالبا ما تسمي "الستالينية" مؤخرا. انظر:

- Perry Anderson, Considerations of Western Marxism, Verso, London, 1979, pp. 19-21.

(81) See Georg Lukács, "Class Consciousness", in History and Class Consciousness, Merlin Press, London, 1971.

(82) The Writings of Leon Trotsky, Marin Secker and Warburg, London, 1964, 6:336.

(٨٣) يرى إنجلز أن الذين اتبعوه هو وماركس – الماركسيين – كانوا يخضعون للعقيدة والاختزال. فمثلا، عبر إنجلز عن استيائه من الماركسيين "الاقتصاديين" في خطابه إلى جوزيف بلوش في ١٨٩٠، انظر: روبرت وتوكر، مرجع سابق، ص ٦٤٢.

(٨٤) "أدخلت التقاليد الماركسية للدولية الشيوعية الثالثة تغيرات كثيرة في نظرية الطبقة بين الاشتراكيين. فبدلا من اشتقاق نظريتها من دراسة الانقسام الحقيقي للعمل الاجتماعي والتقني داخل الإنتاج الرأسمالي، كان هناك اتجاه نحو دراسة الطبقة العاملة داخل بعد واحد. وكانت الطبقة الثورية التقليدية المثالية تتمثل في عمال المصانع والنقل اليدويين، أي "الطبقة العاملة الصناعية" الشهيرة. وكان العمال في الصناعات الأساسية، أي الذين ينتجون وسائل الإنتاج، يمثلون القاعدة الحرجة لعمل الطبقة الثورية، لأنهم كانوا يحتلون الموقع المركزي داخل نظام الإنتاج". "ويكمن جزء من صعوبة فكرة اليسار القديم عن الطبقة العاملة في نظام الطبقتين الواسع لدى ماركس نفسه... وكان مفهوم الانفصال الكبير بين البرجوازية والبروليتاريا الذي يكون هيكل المجتمع الرأسمالي الموجود في البيان الشيوعي يجرد من الظروف الحقيقية، ويحول إلى عقيدة من خلال ماركسية كل من الحقبة الستالينية والديمقراطيين الاجتماعيين على السواء".

- Stanley Aronowitz, "Does the Unites States Have a New Working Class?", in George Fischer (ed.), The Revival of American Socialism, Oxford University Press, New York, 1971, pp. 188, 189.

- وفي نفس المجلد، تبنى بوب سويزي هذه الانتقادات لنظرية ماركس في الثورة حيث قال: "لاحظ أن بروليتاريا ما أصبحت أكثر الدول الرأسمالية تقدما وقوة، أي الولايات المتحدة، لم تطور أبدا قيادة أو حركة ثورية قوية". "العمال والعالم الثالث"، مرجع سابق، ص ١٥٤-١٦٨. وكان موقف سويزي يتمثل في أن هؤلاء النقاد والماركسيين الأمريكيين الأوائل الذين اعتمدوا على عمال الصناعة للقيام بالثورة لم يقرؤوا ماركس بعناية، ولم يدركوا الأبعاد الحقيقية للرأسمالية: "في نظرية الرأسمالية عند ماركس، لم تكن البروليتاريا ثورية بالضرورة ودائما. فلم تكن ثورية في فترة الصناعة، ولكنها أصبحت كذلك فقط نتيجة دخول الآلات في الثورة الصناعية. ومع ذلك، كانت الآثار طويلة الأجل للآلات مختلفة عن الآثار المباشرة. فإذا ضاعت الفرص الثورية للفترة المبكرة من الصناعة الحديثة، فإن بروليتاريا الدولة الآخذة في التصنيع تميل إلى أن تصبح أقل ثورية. ومع ذلك، لا

يعني هذا أن ادعاء ماركس أن الرأسمالية تنتج أسباب فنائها يعتبر خاطئا". "فإذا اعتبرنا الرأسمالية نظاما عالميا... سنرى أنها تنقسم إلى مجموعة صغيرة من الدول المستغلة ومجموعة أكبر كثيرا من الدول المعرضة للاستغلال. حيث تكون الجماهير في الدول المعرضة للاستغلال قوة في النظام الرأسمالي العالمي، والتي تعتبر ثورية بنفس المعنى ولنفس الأسباب التي جعلت ماركس يعتبر بروليتاريا الحقبة المبكرة من الصناعة الحديثة ثورية. المرجع السابق، ص ١٦٨. وانظر أيضا: دانيال بل، مرجع سابق، ص ١٠٦-١١٦.

(85) See Franz Borkenau, World Communism, University of Michigan Press, Ann Arbor, 1971, pp. 64-65. 84-93; and Bell, op. cit., 102-6.

(86) See Gruber, op. cit., chaps. 1 and 2; and Borkenau, op. cit., chaps. 6, 7, and 8.

(٨٧) هذا هو العرض الأكثر انتشارا للعبارة الموجودة عند ماركس في "إسهام في نقد فلسفة الحق عند هيجل" والتي تقول: "كما أن الفلسفة تجد أسلحتها المادية في البروليتاريا، كذلك تجد البروليتاريا أسلحتها الفكرية في الفلسفة". توكر، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٨٨) "كانت الاشتراكية الدولية مدفوعة في الواقع بدوافع متناقضة، وكانت سياساتها تتصف بغموض كان الاشتراكيون يفضلون تجاهله في ذلك الوقت. حيث وجدوا ملاذا في الحلول والتوافقات قصيرة الأجل، وبالتالي تجنبوا القضايا التي كانت تجبرهم على تحديد مواقفهم. وكان "عجز الدولية الكامل عن معارضة الحرب" يرجع إلى التناقضات العديدة للمنظمة في الأساس وإلى الضعف النظري للإستراتيجية الوقائية التي تحدد الأشكال الدقيقة للاتجاهات والسياسات الاجتماعية. وبناء على رؤية الغالبية للإمبريالية، وعلى التفسير الذي تكذبه الحقائق، فإن الإستراتيجية السلمية للدولية كانت تتصف بتناقضات ملحوظة: الوعي بالمراحل الجديدة في تطور الرأسمالية، وتقدير خطورة التهديد والتفاؤل الكبير فيما يتعلق بنتائج الأزمة التي تجاهلت احتمال الصدام العالمي. ولذلك كانت أنشطة الدولية على الساحة العالمية ارتجالية وناتجة عن خطورة الأزمات. ولم تكن معادلة "الحرب = الثورة"، ولا المعادلة البديلة "الحرب أو الثورة" في أذهان قادة الدولية". ويستحيل قول ما إذا كان قادة الدولية كانوا أسرى أساطيرهم الخاصة، أو ما إذا كان رد فعلهم يمثل المظهر التقليدي لتلك السمة المميزة للدولية الثانية: الممارسة الإصلاحية المعروضة خلف الراديكالية اللفظية".

- Georges Haupt, Socialism and the Great War, Clarendon Press, Oxford, London, 1972, pp. 220-21.

89- See Borkenau, op. cit., pp. 161-70.,

- وبالنسبة لتفاصيل قواعد الدخول إلى الكومنترن، انظر نولان، مرجع سابق، ص ٤-٥.

(٩٠) نولان، مرجع سابق، ص ٤.

(91) Nathan Glazer, The Social Basis of American Communism, Harcourt, Brace and World, New York, 1961, pp. 25-26.

(92) Theodore Draper, The Roots of American Communism, Viking, New York, 1963, p. 31.

(93) Glazer, op. cit., p. 22.

(94) See David Brody, Steelworkers in America, Harvard University Press, Cambridge, 1960, chap. 1.

- وحتى أعضاء الاتحاد العمال الصناعي العالمي Wobblies المكافحون كانوا يجدون صعوبة مع الولاءات العرقية، انظر:

- Melvyn Dubofsky, We Shall Be All: A History of the Industrial Workers of the World, Quadrangle/New York Times, New York, 1969, pp. 24-26, and esp. pp. 350-58.

(95) Gabriel Almond, The Appeals of Communism, Princeton University Press, Princeton, 1965, pp. 141-47.

- وتشترك دراسة ألموند مع غيرها من الأعمال المكتوبة والمنشورة في أوائل الخمسينيات - خاصة تلك الواردة في سلسلة "صندوق الجمهورية" التي حررها كلينتون روسيتر (ديفيد شانون، "انحطاط الشيوعية الأمريكية"؛ تيودور دريبر، "جذور الشيوعية الأمريكية، والشيوعية الأمريكية، وروسيا السوفيتية"؛ دانيال بل، "الاشتراكية الماركسية في الولايات المتحدة"؛ ناتان جليزر، "الأساس الاجتماعي للشيوعية الأمريكية") - في قدر من الاهتمام الحذر بمدى ارتباط اليهود الأمريكيين بالراديكالية في الأجواء القمعية جدا للماركسية. حيث علق جورج رافيك - الذي عمل باحثا مساعدا مع بيل، وجليزر وشانون، بينما كان يعمل لدى الصندوق - قائلا: "بدأ ناتان جليزر بفكرة... محاولة مجموعة كاملة من الناس حول اللجنة اليهودية الأمريكية وفي أماكن أخرى "لتطهير" العفن الأحمر من المجتمع اليهودي. وكان هذا يمثل اهتماما خاصا لدى الأستاذ جليزر، ولدى موشى دشتر (؟) الذي عمل في نفس المكتب، ولدى دانيال بل.... حيث بدأوا بفكرة... وكانت سياسات تلك الفكرة وسياسات صندوق الجمهورية بسيطة جدا: كنا نود أن نقوم بذلك في اليسار المناهض للشيوعية والليبرالية، وأن نقوم بذلك بأنفسنا قبل أن يقوم به مكارثي وغيره، وذلك حتى نستطيع أن نثبت أننا طهرنا بيتنا بأنفسنا". "ويتمثل أحد الأشياء التي استمرت خلال هذه الفترة - والأكثر أهمية من نشر الكتب - في أن كل الناس الذين عملوا كجزء من هذا المشروع

كانوا يشاركون باستمرار في عملية إعادة تأهيل الناس الذين يتركــون الحــزب الشيوعي، بما في ذلك إيرل براودر". مقابلة مع رافيك، شــتاء ١٩٧٦. وكــان إسهام ألموند يتمثل في تحويل القضايا السياسية إلى ظــواهر نفــسية ديناميكيــة وسيكوباتية. انظر مثلا معالجته "لأليس"، ص ٢٨٢-٢٨٤.

(٩٦) "أصدر المؤتمر الثاني للكومنترن إنذارا أخيرا لفرض توحيد الحــزبين الــشيوعي الأمريكي والشيوعي المتحد. وعندما لم يتحقق هذا، أرسل الكومنترن فــي ربيــع ١٩٢١ بعثة إلى الولايات المتحدة تتكون من تشارلز سكوت (الاسم الحزبي لكارل يانسن أو تشارلز جونسون، وهو شــيوعي Lettish، مــن روكــسبوري، ماســا شوستس)، ولويس فرينا، أحد المبعوثين الأمريكيين إلى المــؤتمر الثــاني، وســن كاتاياما، المنفي الياباني الذي أصبح مسئولا في الكومنترن. حيث جمعت هذه البعثة الأحزاب المتحاربة معا في الحزب الشيوعي الأمريكي في مايو ١٩٢١". دريبــر، الشيوعية الأمريكية، مرجع سابق، ٢٥. وانظر أيضا: دريبر، جــذور الــشيوعية الأمريكية، مرجع سابق، ص١٢٨-٢٨١؛ وبالنسبة لفترة التوحيد، انظــر: جيتلــو، مرجع سابق، الفصل الأول.

(٩٧) "كان الشيء المحير والجانب المهم من الحركة الشيوعية الأمريكيــة فــي ١٩١٩ يتمثل في تركيبها القومي. فبالنسبة للحزب الشيوعي، كان الأعضاء الروس يمثلون حوالي ٢٥٪ من الإجمالي، وكانت عضوية كل شرق أوروبا تمثل أكثر من ٧٥٪. وكان الأعضاء المتحدثون بالإنجليزية يمثلون ٧٪ فقط بمجموعة ميتــشجان، و٤٪ فقط بدونها. وعلى الرغم من أن نسبة الأعضاء المتحدثين بالإنجليزية كانت أعلــى في حزب العمل الشيوعي، فإنه كان لا يمكن أن تكون مرتفعة جدا لو أن ٩٠٪ من الحزبين كانوا من الاتحادات ذات اللغات الأجنبيــة". دريبــر، جــذور الــشيوعية الأمريكية، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٩٨) في أواخر الثلاثينيات، كتب جيتلو - وهو أحد الأعضاء المؤسسين للحركة الشيوعية الأمريكية و"مرشح شيوعي لنائب رئيس الولايات المتحدة فــي ١٩٢٤ و١٩٢٨" - "من المؤكد أن تصميم الاتحاد الروسي على السيطرة على الحركــة انطلاقــا مــن اعتبارات قومية روسية كان يميز مراحلها الأولى. وعندما تحقق اتصال أفضل مــع روسيا السوفيتية والدولية الشيوعية، لم يتم التخلص من التراث الروسي، ولم يــصبح الحزب أكثر أمريكية، بل أصبح أكثر روسية". جيتلو، مرجع سابق، ص ٥٧.

(99) See Bell, op. cit., pp. 108-11;
- Melech Epstein, The Jews and Communism, Trade Union Sponsoring Committee, New York, n. d., pp. 252-53;
- Arthur Liebman, op. cit., chap. 8;
- Glazer, op. cit., chaps. 2, 3, and 4.

(١٠٠) فلوريت هنري، مرجع سابق، ص ٦٣-٦٤. وقد رأى تيودور فنسنت - بعد أن خاض بعض التجارب المهنية الخاصة مع صحافة السود (لوس أنجلوس هيرالد دسباتش) أن: "صحافة يونيا كانت الصحافة الحرة الوحيدة المتاحة للسود في العشرينيات والثلاثينيات. وعادة ما كانت أعمال النشر الأخرى الخاصة بالسود مرتبطة بأموال البيض".

- Vincent, Black Power and the Garvey Movement, Ramparts Press, San Francisco, 1972, p. 255.

(101) Henri, ibid., pp. 89-90; and Vincent, ibid., p. 36.

(١٠٢) "لفترة قصيرة في أوائل العشرينيات، أقام أتباع جارفي تحالفا غير مسبوق للسود، حيث شمل قوميين ثقافيين، قوميين سياسيين، ومناهضي الدين المنظم (الملحدين، الانفصاليين، أو الإصلاحيين ببساطة)، وأنصار التمرد المسلح، والمسلمين، والمدافعين عن تحرير المرأة، والمشاركين في الآلة السياسية للديمقراطيين والجمهوريين، وأصحاب المعرفة السطحية من الأجنحة اليسارية، والكثيرين الذين لا يريدون الاتصال بالبيض، وعدد صغير ولكنه مهم من الذين أرادوا أن تتعاون يونيا مع منظمات الحقوق المدنية المتكاملة لإنهاء التمييز والفصل العنصري". فنسنت، المرجع السابق، ص ٢٠. وانظر أيضا:

- Tony Martin, Race First, Greenwood Press, Westport, 1976.

(١٠٣) كان تعديل الرأسمالية الذي كان يمكن أن يوجد في يونيا يتراوح من تجارة التجزئة إلى التعاونيات. وكان لدى جارفي ذاته عداء شديد تجاه الرأسماليين على نطاق البرجوازية الكبيرة، وغالبا ما كان يبدو أنه يتحرك علانية تجاه الالتزام المبدئي بالاشتراكية. "وكان الكثير من سيطرة جارفي على الجماهير يرجع إلى أفكار لا تختلف كثيرا عن الأفكار التي يعتنقها الشيوعيون. وعلى الرغم من اعتناقه الشديد لمبدأ السلالة أولا مثلا، فإنه كان هناك مكون طبقي واضح في تفكير جارفي. ففيما يتعلق بالسلالة البيضاء، كان يرى أن هناك حاجة إلى التضامن بين السلالات، ولكنه داخل السلالة كان يظهر بوضوح أنه يرتبط بالجماهير المقهورة ضد أولئك الذين يدعون مكانة أعلى". توني مارتن، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(١٠٤) "كان جارفي متشائما جدا بشأن مستقبل السود قليلي العدد في نصف الكرة الغربي. ففيما وراء حدود القارة الأم، لم يكن يرى سوى "الحطام والدمار" لشعبه. وبالتالي، كان يطلب استعادة أبناء أفريقيا المنتشرين والمنتهكين إليها. وكان جارفي يدعي أن الوطن "الشرعي والأخلاقي الصحيح" لكل الزنوج هو أفريقيا، ولكنه لم يكن يفضل الخروج الكامل المباشر من العالم الجديد... ولم يكن كل السود مطلوبين في أفريقيا على أي حال. "فبعضهم ليسوا جيدين هنا، ولن يكونوا جيدين هناك طبعا". وكان غير المطلوبين يتمثلون في الكسالى والمعالين".

- Robert Weisbord, Ebony Kinship, Greenwood Press, Westport, 1973, pp. 55-56.

(١٠٥) وضح فايسبورد جزئيا مدى تواطؤ الحكومات الأمريكية والبريطانية على تدمير تأثير يونيا بين الأمريكيين السود، وسكان جزر الهند الغربية وأفريقيا. المرجع السابق، ص ٥٧-٨٢. وقد أرجع روبرت هل في مناقشاته مع هذا المؤلف الهوس الشديد لدى إدجار هوفر بظهور "مسيح أسود" إلى معرفته بيونيا في العشرينيات. فعندما كان هوفر موظفا شابا في "وزارة العدل" أثر كثيرا على تأخير عودة جارفي إلى الولايات المتحدة من أمريكا الوسطى في ١٩٢٢.

(١٠٦) حتى وقت قريب، كانت أهم الأعمال الجادة عن يونيا والحركات الراديكالية الأخرى للسود خلال العشرينيات والثلاثينيات تقوم بها جهات حكومية: "هناك مجموعتان من المختارات الأدبية للمنشورات الراديكالية للسود في فترة الحرب العالمية الأولى؛ ومن المثير للسخرية أن الذي جمعهما جهات حكومية يمينية. وذلك مثل الأعمال التالية:

- Attorney General Mitchell Palmer, "Radicalism and Sedition among the Negroes as Reflected in Their Publications, 1919;
- "Revolutionary Radicalism: A Report of Joint Legislative Committee of New York investigating Activities", 1920.

- فنسنت، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(١٠٧) كما يقول فايسبورد، ربما كان دو بويز قد تمادى في معارضته لجارفي. حيث كان جارفي يشك في أن دو بويز قد ساعد على إفساد العلاقة بين يونيا والنظام الليبيري. ويرى فايسبورد أن الأمر ربما كان كذلك، وأن دو بويز ربما كان يعمل نيابة عن كل من الحكومتين الأمريكية والبريطانية. فايسبورد، مرجع سابق، ص ٧٠-٧٢.

(108) Quoted in Jervis Anderson, A. Philip Randolph, Harcourt Brace Jovanovich, New York, 1973, p. 132.

(109) Claude McKay, Harlem: Negro Metropolis, Harcourt Brace Jovanovich, New York, 1968 (orig. 1940), p. 143.

(110) Vincent, op. cit., p. 19.

- وقد سلفا أشرنا إلى عمل مارتن "السلالة أولا" سلفا. ويعد روبرت هل - محرر أوراق ماركوس جارفي في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس UCLA - حاليا لنشر ما يجب أن يمثل المجموعة الكاملة لوثائق يونيا.

(111) For the Brotherhood, see Vincent, op. cit., pp. 74-85and passim;

- Martin, op. cit., pp. 237-46;

- Draper, American Communism and Soviet Russia, op. cit., 322-32;

- Foner, Organized Labor and the Black Worker, op. cit., pp. 148-49;

- وعلى الرغم من أن كلا من دريبر وفنسنت كانا على اتصال شخصي مع برجس، فإنهما قدما مكانين مختلفين لمولده: نيفيس وسانت كتس على التوالي. ومن المتوقع أن توضح السيرة الذاتية غير المنشورة التي كتبها تيمان تيلور عن برجس في ١٩٨١ العديد من مثل هذه الاختلافات.

(112) See Harry Haywood, Black Bolshevik, op. cit., pp. 122-31.

(113) Vincent, op. cit., pp. 75-76.

(114) Draper, American Communism and Soviet Russia, op. cit., p. 324.

(115) Ibid, p. 506 n. 26.

(١١٦) على الرغم من حسم ارتباك الهوية في الفترة المبكرة من أخوية الدم الإفريقي في النهاية من خلال "التعليم الشفهي للسلالة" (انظر فنسنت، مرجع سابق، ص٤٦-٤٧) و"نظرية الحزام الأسود" الذي نشره الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة CPUSA، فإن التناقضات الأخرى، وخاصة تناقضات البرامج، استمرت. ويمثل برجس ذاته مثالا طريفا على الأهمية الفردية للتناقضات الاجتماعية للولايات المتحدة وجزر الهند الغربية. وكان برجس أوروبيا ظاهريا. ولكن بمجرد أن أصبح هو وجارفي خصمين سياسيين، اتهم جارفي برجس بأنه "سفينة" بيضاء للسود، وقد استغلت يونيا هذه السخرية استغلالا جيدا. حيث اشترى برجس سفينة ليونيا في ١٩٢٤. وكان هذا جزء من محاولة برجس التوفيق بين يونيا والأخوية والحزب الشيوعي في الولايات المتحدة. وكان ذلك بعد ثلاث سنوات من طرد الأخوية من يونيا بالاقتراع العام. ويقال إن برجس كان حساسا تجاه لون بشرته، مما قد يفسر جزئيا منع خطابه الحاد والصعوبة التي واجهها سلفا في تحديد الناس الذين يرتبط بهم. حيث وصف تيودور فنسنت الأخوية بأنها "أول منظمة قومية سوداء يسارية، وواحدة من أولى المنظمات التي تفكر جديا في جمهورية مستقلة للسود في الولايات المتحدة الجنوبية. المرجع السابق، ص ٧٤. ومن ناحية أخرى، وصفها دريبر بأنها "منظمة دعائية صغيرة تمثل نموذجا لحقبة "الزنجي الجديد". "الشيوعية الأمريكية وروسيا السوفيتية"، مرجع سابق، ص ٣٢٥. وهذه مركبات مختلفة بصورة جوهرية. فمثلا، يبدأ فنسنت تعريفه للأخوية بوصف تفصيلي لدورها في الاضطرابات السلالية في ١٩٢١ في توسلا، أوكلاهوما. حيث ركز على الدور الذي لعبته المنظمة في الدفاع عن مجتمع السود في تلك المدينة، والفخر الذي وصفت به الأخوية مشاركتها في أواخر ١٩٢١. (وكان يبدو في البداية أن أخوية الدم الإفريقي ABB تنكر أي دور، حيث جاء نصا: "إن أخوية الدم الأفريقي - التي تعتقد السلطات في توسلا، أوكلاهوما، أنها أثارت

الاضطرابات السلالية في تلك المدينة - أصدرت بالأمس بيانا رسميا ينكر أن هذه المنظمة أو أعضاء فرعها في توسلا كانوا المعتدين بأي شكل من الأشكال في تلك الاضطرابات.... "ويتضمن مقال في التايمز في ٤ يونيو وقوع مسئولية على عاتق الأخوية عن الأحداث الدموية السيئة في توسلا، أوكلاهوما. فليس لدى هذه المنظمة إجابة أخرى سوى التصريح بأن الأخوية مهتمة بجعل الزنوج منظمين للدفاع عن الذات ضد الهجوم الغاشم". النيويورك تايمز، ٥ يونيو ١٩٢١، ص ٢١. وكما يقول فنسنت، بدأت الأخوية بعد ذلك بعدة شهور في دعوة الأعضاء المحتملين بناء على أساس دورها: "ما المنظمة الأخرى التي يمكن أن تباري ذلك السجل الشجاع؟" فنسنت، مرجع سابق، ص ٧٥. وعلى العكس، يقول دريبر إن الأخوية "جذبت الاهتمام القومي بشدة في ١٩٢١، عندما اتهمت زيفا بالمسئولية عن بداية "الاضطرابات السلالية" في توسلا، أوكلاهوما". دريبر، المرجع السابق، ص ٣٢٥. فقد وجد ردبير أنه من الصعب قبول الأدلة على تورط الأخوية في الكفاح النشط بالمقارنة بالدعاية. ويستمر في وصف برامج وأهداف الأخوية: "سلالة محررة؛ مساواة سلالية مطلقة - سياسيا واقتصاديا واجتماعيا - دعم الفخر بالسلالة؛ المعارضة المنظمة بلا توافقات للكوكلوكسية؛ التقارب والانضمام مع الجماهير الداكنة، ومع العمال البيض الثوريين الواعين طبقيا؛ التنمية الصناعية؛ الأجور الأعلى للعمال الزنوج؛ الريع الأقل؛ والجبهة الزنجية الموحدة". المرجع السابق. ومع ذلك، لا يوضح هذا الدليل للأهداف تركيز الأخوية على تأسيس أمة للسود. ولا يوضح أيضا الدور الذي لعبته فكرة برجس عن حق تقرير المصير في صياغة القومية في الحزب الشيوعي الأمريكي.

(١١٧) دريبر، المرجع السابق، ص ٣٢٣.

(118) For Thorne, see Robert A. Hill, "Zion on the Zambezi: Dr. J. Albert Thorne, "A Descendant of Africa, of Barbados", and the African Colonial Enterprise: The Preliminary Stage, 1894-97", paper presented at the International Conference on the History of Blacks in Britain, Institute of Education, University of London, 28-30, September 1981.

(١١٩) انظر: هايوود، بلشفية السود، مرجع سابق، ص ١٢٣-١٢٤: "لقد اعتنقوا "الراديكالية الاقتصادية" وهي تفسير مبسط جدا للماركسية التي مكنتهم من رؤية الجذور الاقتصادية والاجتماعية للقهر السلالي. وتاريخيا، كانت هذه أول محاولة جادة للسود لتبني الرؤية العالمية للماركسية ونظرية الكفاح الطبقي لحل مشاكل الأمريكيين السود".

(١٢٠) دريبر، الشيوعية الأمريكية وروسيا السوفيتية، مرجع سابق، ص ٣٢٨ و٥٠٨، ملاحظة ٤٢.

(١٢١) المرجع السابق، ص ٣٤٣-٣٤٦.

(١٢٢) مارتن، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(١٢٣) يناقش توني مارتن رد فعل جارفي على تقرير موت لينين في يناير ١٩٢٤: "كانت أول استجابة لجارفي تتمثل في برقية إلى كل المؤتمر السوفيتي، وكانت تحوي جزئيا: 'كان لينين بالنسبة لنا واحدا من أعظم المحسنين في العالم. ولتحيا حكومة روسيا السوفيتية". وأعقب ذلك خطاب مطول في قاعة الحرية بعنوان: "موت رجل روسيا العظيم"، حيث أطلق على لينين "ربما كان أعظم رجل في العالم منذ ١٩١٧ وحتى ساعة وفاته في ١٩٢٤". وأعرب عن رؤيته بأن العالم كله سيضطر في النهاية إلى تبني شكل الحكم في روسيا. وافترض أن رسالة عزاء يونيا ستعامل باحترام، حتى على الرغم من "عدم إرسال سفير إلى روسيا بعد، للأسف". ووضح أن لينين كان يمثل الطبقة التي تشمل معظم الإنسانية". مارتن، مرجع سابق، ص ٢٥٢. وبالنسبة لنفور جارفي من الشيوعيين الأمريكيين، انظر المرجع السابق، ص ٢٥٣-٢٦٥.

(124) See Milton Cantor, The Divided Left: American Radicalism, 1900-1975, Hill and Wang, New York, 1978, p. 30;

- Draper, American Communism and Soviet Russia, op. cit., pp. 315-16.

- ولخص لورنس مور تاريخ الاشتراكية الأمريكية والسود في الفترة المبكرة: "ظهر الاشتراكيون الأمريكيون في مطلع القرن مستعدين لتولي قضية العدالة الاقتصادية والاجتماعية للزنوج، عندما كانت كل العناصر الأخرى في المجتمع الأمريكي تتحول بصورة متزايدة ضد الرقيق السابقين". للأسف، فإن ما حدث بعد اجتماع ١٩٠١ وضع هذا الالتزام التقدمي والشجاع موضع تساؤل سريعا. إذ إن قرار الزنوج [في ١٩٠١] والذي يبدو للكثيرين في الحزب كإعلان طبيعي عن منظمة مكرسة لأخوية كل العمال لم يتأكد أبدا. ففي اجتماع ١٩٠٤، رفض الحزب محاولات كتابة وثيقة مماثلة؛ وطوال ١٩١٢، وهي السنة التي حشد فيها الاشتراكيون قصارى قوتهم في الانتخابات الرئاسية القومية، لم تناقش مشكلة الزنوج ثانية في ساحة الاجتماع القومي".

- Moore, "Flawed Fraternity-American Socialist Response to the Negro, 1901-1912", The Historian 32, no. 1 (November 1969): 2-3.

- وكان ملخص دريبر عن الشيوعيين الأمريكيين الأوائل والسود متطابقا تقريبا: "كان الزنوج الأقل عددا في الحركة الشيوعية المبكرة. ويبدو أنه لم يحضر مبعوث زنجي واحد [اجتماعات أحزاب العمال الشيوعية]. وهكذا كانت مشكلة الزنوج صغيرة في الوعي الشيوعي، لدرجة أن برنامج "العمل الشيوعي" لم يكن لديه ما يقوله عنها على الإطلاق. وربط برنامج الحزب الشيوعي "مشكلة العمال الزنوج" بمشكلة العمال غير المهرة. وكان التحليل الرئيس موروثا من الحركة الاشتراكية: "إن مشكلة الزنوج اقتصادية وسياسية. إذ إن القمع السلالي للزنوج يمثل ببساطة تعبيرا عن رقهم وقهرهم الاقتصادي، وكل منهما يؤدي إلى تفاقم الآخر". ولم يبتعد الشيوعيون الأمريكيون عن هذا الاتجاه الماركسي التقليدي حتى العقد التالي. ففي هذا المجال، كما في مجالات أخرى، سار الشيوعيون الأمريكيون في البداية على خطى اليسار التاريخي".

- Draper, The Roots of American Communism, op. cit., p. 192.

(١٢٥) توجد المعالجة الأكثر خيالا تحليليا لهذه القضية في:

- Harold Cruse, The Crisis of the negro Intellectual, William Morrow, New York, 1967, pp. 147-70.

- حيث يقول كروز إنه في العقود الثلاثة الأولى من عمر الحركة، وهي أكثر فترات الحزب نجاحا، هزمت القومية العرقية محاولة الأمركة: "من الواضح أنه لم يتضح للثوريين الزنوج أبدا أنه لم يكن هناك في أمريكا من يملك أكبر إمكانيات لأمركة الماركسية سواهم. ومن المؤكد أن اليهود لم يستطيعوا بعدوانيتهم القومية الناتجة عن معازل الجانب الشرقي أن يظهروا من خلال الماركسية تفوقهم الفكري على الغوييم الأنجلوسكسون. حيث فشل اليهود في جعل الماركسية قابلة للتطبيق على أي شيء في أمريكا سوى الطموحات الاجتماعية لمجموعتهم القومية "الخاصة" أو السمو الذاتي الفردي. ونتيجة لذلك، لم يتحقق غسل أدمغة المفكرين الراديكاليين الزنوج عن طريق الرأسمالية أو البرجوازية الرأسمالية، ولكنه تحقق من خلال المفكرين اليهود في الحزب الشيوعي الأمريكي" (ص ١٥٨). وكما يقول كروز ذاته، فإن ميليش إيشتاين - وهو مفكر يهودي بارز في الحركة من العشرينيات إلى ١٩٣٩ (انظر جليزر، مرجع سابق، ص ٢٠٥-٢٠٦، ملاحظة ٨٦) - أكد إعادة بناء كروز بدون قصد، انظر إيشتاين، مرجع سابق، الفصلين ٣٠ و٣١. ويكمل آرثر ليبمان رؤية كروز: "أثبتت الاتجاهات والقيم التي يعتنقها اليهود وغير اليهود تجاه أنفسهم وتجاه بعضهم إجمالا أنها تعرقل بشدة تطور اليسار "الناجح" في الولايات المتحدة. ففي ظل التقليد الراسخ طويلا للعداوات العرقية في المجتمع - حيث كانت المجموعات العرقية ولا زالت توضع في أدوار

المتنافسين على السلع والخدمات والمناصب النادرة والمرغوبة - لن تكون أية حركة سياسية في هذه البلاد متحررة من التوترات المربكة النابعة من هذه المنافسات العرقية. حيث تفاقمت مشكلة اليسار كثيرا في هذا الصدد بسبب الدور الواضح والبارز جدا لليهود بداخله. وأثبتت الدائرة المفرغة من معاداة السامية والشوفينية والانطوائية اليهودية، والعناصر المقسمة النابعة من التاريخ السياسي والثقافي لأمريكا، أنها تمثل عبئا ثقيلا جدا على اليسار في أمريكا". ليبمان، مرجع سابق، ص ٥٣٤-٥٣٥.

(١٢٦) انظر جيمس جاكسون (لوفيت فورت هوايتمان)، مرجع سابق، ص ٥٢. وكان جورج بادمور لا يزال يستخدم عبارة "الصهيونية" للإشارة إلى يونيا عندما كتب "الوحدة الأفريقية أو الشيوعية"، مرجع سابق، ص ٦٥-٨٢. وبالنسبة لليهود في بداية الحزب الشيوعي الأمريكي، انظر جليزر، مرجع سابق، ص ٤٢، ١٤٨-١٤٨؛ ليبمان، مرجع سابق، ص ٥٨-٦٠؛ جيتلو، مرجع سابق، ص ١٥٧-١٦١؛ دريبر، جذور الشيوعية الأمريكية، مرجع سابق، ص ١٨٨-١٩٣.

(١٢٧) انظر توني مارتن، مرجع سابق، ص ٢٤٩ف ف.

(١٢٨) "كان لينين مجرد اسم يظهر قليلا جدا في الصحافة الاشتراكية الأمريكية، لدرجة أن عددا قليلا جدا من غير الروس كانوا يعرفونه". ويبدو أن اسم لينين ذكر للمرة الأولى في أمريكا في مقال عن "تطور الاشتراكية في روسيا" كتبه وليام إنجلش وولنج في "المجلة الاشتراكية الدولية" في يوليو ١٩٠٧.... ولكن وولنج كان سابقا لاسمه، وسقط لينين من المشهد تماما لعدة سنوات أخرى. وفي المرة التالية، في "المرجع الجديد" قرب نهاية ١٩١٥، ظهر اسم لينين كأحد الموقعين على "بيان تسمرفالد". ونشرت بعض المقتطفات من مذكرة "الاشتراكية والحرب" التي كتبها لينين وزينوفييف في "المجلة الاشتراكية الدولية" في يناير ١٩١٦، مع تعليق إيجابي. ويبدو أن هذا كان أول منشور أمريكي لأي شيء كتبه لينين". دريبر، جذور الشيوعية الأمريكية، مرجع سابق، ص ٧٢-٧٣. "وكان أول اجتماع للينين مع أي أمريكي معروف هو الاجتماع الذي تم في ١٩٠٥ مع الصحفي آرثر بولارد". "وهناك أدلة في أرشيف لينين في موسكو توضح أن العديد من العمال الأمريكيين الآخرين قد سمعوا عن لينين وأنشطته قبل ١٩١٧. ففي ١ ديسمبر ١٩١٣، أرسلت هيئة تحرير "نداء العقل"، وهي أكبر صحيفة اشتراكية أمريكية نشرت في الولايات المتحدة، إلى لينين ١٦ ملزمة من صفحتين، و٨ ملازم من ٣٢ صفحة، تشمل قائمة منشوراتنا حتى الآن". وأرسل نادي الطبقة العاملة في مدينة نيويورك،

في ٣٠ مارس ١٩١٤، "مبلغ ١٤٣٧ كرونة و٩٠ هيلر (٢٩٢,٦١ دولار)، كإسهام من "دائرة العمال" إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي (البلشفي) إلى لينين، الذي كان في المنفي في كراكــاو فــي بولنــدا آنــذاك. وفــي أواخــر ١٩١٥، أرسلت "عصبة الدعاية الاشتراكية" وهي مجموعة يسارية في بوسطن، إلى لينــين نسخة من بيانها".

- Foreword from Daniel Mason and Jessica Smith (eds.), Lenin's Impact on the United States, reprinted in Philip Bart et al. (eds.), Highlights of A Fighting History: 60 Years of the Communist Party, USA, International Publishers, New York, 1979, p. 342.

(129) Draper, American Communism and Soviet Russia, op. cit, p. 321.

(130) V. Lenin, "Left-Wing" Communism-An Infantile Disorder, Selected Works, Progress Publishers, Moscow, 1967, 3;351.

(١٣١) بالنسبة إلى سياق تراجع لينين عن النظرية، انظر:

- Claudin, op. cit, pp. 46-102;
- Roger Pethybridge, The Social Prelude to Stalinism, Macmillan Press, 1977, pp. 40ff; and
- Draper, The Roots of American Communism, op. cit., p248-51.

- وانظر أيضا ألموند، مرجع سابق، ص ٢٧، للاطلاع علــى تقيــيم منــاهض للمذكرة كدليل للحزب.

(132) V. Lenin, The State and Revolution, Selected Works, Lawrence and Wishart, London, 1969, 3:281.

(133) See V. Lenin, "The Tasks of the Proletariat in the Present Revolution", Selected Works, Progress Publishers, Moscow, 1970, pp. 41-47.

(134) Lenin, "left-wing" Communism, op. cit., p. 350.

(135) Theses and Resolutions Adopted at the Third World congress of the Communist International, July 12, 1921.

(136) See Alfred Meyer, Leninism, Praeger, New York, 1962, passim;

- Arthur Rosenberg, A History of Bolshevism, Oxford University Press, London, 1934,

- وخاصة مقدمة الطبعة الفرنسية التي أعدها:

- Georges Haupt, Grasset, Paris, 1967.

(137) Draper, American Socialism and Soviet Russia, op. cit., pp. 320-21.

(138) Claude McKay, A Long Way from Home, Harcourt Brace and World , New York, 1970, (orig. 1937), p. 177.

(139) See Mc Kay, ibid., p. 180; and
- Draper, American Socialism and Soviet Russia, op. cit., pp. 25, 67, 165-66.

(140) Rose Pastor Stokes, "The Communist International and the Negro", The Worker, 10 March 1923: For Stokes, see Vincent, op. cit., p.82 note.

(141) Stoke, ibid.

(142) Ibid.

(143) See Harry Haywood, Black Bolshevik, op. cit., pp. 66-67, 217.

(١٤٤) مات جين جولدن في يوم وصول هـــايوود إلـــى موســـكو، المرجــع الـــسابق، ص ١٥٣-٥٥.

(١٤٥) المرجع السابق، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(١٤٦) بالنسبة إلى ناسانوف، انظر: درييبر، الشيوعية الأمريكيـــة وروســـيا الـــسوفيتية، مرجع سابق، ص ١٧٠، ٣٤٤-٥٠؛ وبالنسبة إلى كاتاياما وناسانوف في روسيا، انظر: هايوود، بلشفية السود، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢١٩. وبالنسبة لمعارضة هايوود المبكرة لقومية السود، انظر المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٨.

(١٤٧) درييبر، المرجع السابق، ص ٣٤٩.

(١٤٨) استطاع جورج شارني أن يتذكر أنه حتى في أواخر الأربعينيات كانت المسألة لا تزال بلا حل في بعض دوائر الحزب: "كان الجدل في المؤتمر عنيفا، خاصة من جانب عدد من المفكرين الزنوج الشبان الذين ظهروا في القيادة الحديثة. فقد كانوا رجالا أصحاب قدرات رائعة، تدربوا في حركة الشباب فـــي الجنـــوب، وكـــان بعضهم من المحاربين القدماء الذين كانوا في الهند وأصبحوا دارسين متميـــزين لكفاحها من أجل الاستقلال القومي. وكانوا يتحدثون بطلاقة تأييدا لنهج حق تقرير المصير. واستخدموا "تقليد" ستالين في المسألة القومية مثل سلطتهم، كمـــا فعـــل هاري هايوود (هكذا)، كريل برجس، وغيرهما ممن مثلوا كادر الزنوج الأول في الحزب قبل ذلك بجيل. ونحن لم نحسم تماما أبدا ما إذا كانت هذه الفكرة قد نبعت من الكومنترن وطبقت على الولايات المتحدة، أو ما إذا كانت نبعت أصـــلا مـــن التجمعات القومية الزنجية المبكرة في الحزب ثم قبلها الكومنترن على مضض".
- Charney, A Long Journey, Quadrangle, Chicago, 1968, p. 193.

(١٤٩) يصور بوجاني دائما على أنه انتهازي كان نطقه "بحق تقرير المصير" للكومنترن يمثل أول شك في المكانة التي حظي بها الحزب الأمريكي في ١٩٢٨.

- Haywood, Black Bolshivism, op. cit., pp. 256-68; and
- Draper, American Socialism and Sovlet Russia, op. cit., pp. 347-49.

- ومع ذلك، كانت العبارة منسوبة إلى ويليام فوستر في عمله:

- William Z. Foster, Toward Soviet America, Hyperion Press, Westport, 1932, pp. 300-306.

(١٥٠) وجد الصهاينة غير التائبين مثل ميليش إيشتاين هذا غير مقبول، انظـر كـروز، مرجع سابق، ص ١٦٤-١٦٨.

(151) Marx and Engeis, The Russian Menace to Europe, Paui Biackstock, Giencoe, 1952, pp. 99-100.

(152) Engels, The Role of Force In History, International Pubiishers, New York, 1977, pp. 29-30.

(١٥٣) انظر الفصل الأول بالنسبة إلى ماركس وإنجلز عن القومية.

(154) Draper, American Socialism and Soviet Russia, op. cit., pp. 349-50.

(155) J. Stalln, "Marxism and the National Question', cited in Draper, Ibid., p. 344.

(156) Draper, Ibid., p. 355; and

- Haywood, For a Revolutionary Position on the Negro Question, op. cit., passim.

(١٥٧) كان ستالين من جورجيا، وكما يقول إسحاق دويتشر، فقد بدأ تطور وعيه السياسي كقومي جورجي؛ انظر: دويتشر، ستالين، مرجع سابق، ص ٦.

(١٥٨) مهما كانت قيمتهم، انظـر الأرقـام الـواردة فـي: جليـزر، مرجـع سـابق، ص ١٧٤-٧٥. وهناك عمل أكثر فائدة يتمثل في عمل مارك نيسون الممتاز.

(159) See Benjamin Quarles, Aliies for Freedom: Blacks and John Brown, Oxford University Press, New York, 1974, pp. 168-69.

(160) See Philip Foner, Organized Labor and the Black Worker, op. cit., pp. 6-10.

(161) Raphael Samuel, "British Marxist Historians I", op. cit., pp. 22-26.

(162) Ibid., p. 23.

(163) Perry Anderson, op. cit., pp. 3-4, 50-53.

(164) See Claudin, op. cit., passim.

(165) Anderson, op. cit., pp. 19-20.

(166) Milton Cantor, op. cit., p. 135.

(167) Anderson, op. cit., p. 69.

(١٦٨) انظر المرجع السابق للاطلاع على معالجة حديثة للتضارب في الفكر الماركسي. ولاحظ أيضا أن أندرسون قصر مسحه على أوروبا الغربية والوسطى.

(169) See Robert Tucker (ed.), Marx-Engels Reader, op. cit.,

- للاطلاع على الإشارات المناسبة إلى "العائلة المقدسة" (ص ١٠٤-١٠٦)؛

- The German Ideology 9pp. 111-164), and The Communist Manifesto (pp. 331-62).

(١٧٠) انظر مناقشة ماركس للبرجوازية الصغيرة الفرنسية في:

- The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte, in Tucker, ibid., passim.

(171) Engels, The German Revolutions, University of Chicago Press, 1967, p. 29.

(172) Du Bois, Black Reconstruction, op. cit., p. 611.

(١٧٣) بالنسبة إلى إدراك لينين لأوضاع الفلاحين، انظر:

- George Lichtheim, Marxism, Praeger, New York, 1973, p. 334, or

- Meyer, Leninism, op. cit.;

- For Trotsky, see Isaac Deutscher, The Prophet Armed, op. cit., pp. 155-58.

(174) Cited in Hamza Alavi, "Peasants and Revolution", The Socialist Register, 1965, p. 247.

(175) Ibid., p. 249.

(176) See Meyer, op. cit., pp. 126-43.

(177) Marx, The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte, op. cit., pp. 123-24.

(178) Engels, The German Revolutions, op. cit., pp. 33, 131.

(179) Du Bois, "The Negro and Radical Thought", in Moon, op. cit., pp. 265-68.

- وقد ظهر هذا المقال أصلا في "الأزمة" كافتتاحية في يوليو ١٩٢١.

(180) "The Problem of the Problems", address to the Ninth Annual Convention of the Intercollegiate Socialist Society, 27 December 1917, published in Philip Foner (ed.), W. E. B. Du Bois, Speaks, Pathfinder Press, New York, 1970, p. 266.

(181) Du Bois, "Judging Russia", in Moon, op. cit., p. 273; editorial in The Crisis, February 1927.

(١٨٢) "يقدم سجل العامل الزنجي خلال إعادة البناء فرصة للدراسة الاستنباطية للنظرية الماركسية في الدولة. وقد أطلقت بداية على هذا الفصل "دكتاتورية بروليتاريا السود في كارولينا الجنوبية"، ولكن بدر إلى ذهني أن هذا لن يكون صحيحا لأن الاقتراع العام لا يؤدي إلى دكتاتورية حقيقية حتى يستخدم العمال أصواتهم

بصورة واعية لتخليص أنفسهم من سيطرة رأس المال الخاص. وكانت هناك دلائل على مثل هذا الهدف بين زنوج كارولينا الجنوبية، ولكنها كانت ترتبط دائما بفكرة سائدة آنذاك، وهي أن المنفذ الحقيقي الوحيد للعامل إلى رأسماله الخاص هو نفسه". "إعادة بناء السود"، مرجع سابق، ص ٣٨١ الملاحظة.

(183) Du Bois, "Judging Russia", op. cit., p. 273.

(184) Du Bois, "A Pageant in Seven Decades", Convocation, Atlanta University Press, in P. Foner (ed.), W. E. B. Du Bois Speaks, op. cit., pp. 65-66.

(185) "Karl Marx and the Negro", in Daniel Walden, op. cit., p. 399; editorial in the "Crisis", March 1933.

(186) "Marxism and the Negro Problem", in Moon, op. cit., (orig. appeared in The Crisis, May 1933).

(187) Alfred Meyer, op. cit., p. 169.

(١٨٨) كانت الاستجابة لإعادة بناء السود مشوشة. انظر:

- (See Jessie Guzman, "W. E. B. Du Bois – The Historian", Journal of Negro Education [Fall 1961]: 377-85).

- فمن ناحية، كان دو بويز يحظى بالمدح من أجل عواطفه ودراسته وكتابته لكتاب يتحدى الوصف لعظمته. ومع ذلك، يقول بعض نقاده إنه لم يكن تاريخا. وبالنسبة للشيوعيين الأمريكيين، كان المدى أكثر ضيقا. حيث انتقد أبرام هاريس، وهو اجتماعي ماركسي أسود، دو بويز على تطبيقه غير الناضج للماركسية بالإضافة إلى الراديكالية.

- (See Harris, "Reconstruction and the Negro", New Republic, 7 August 1935, pp. 367-68).

- وسمى بن شتولبيرج مراجعته "شوفينية السود"، (الأمة، ١٥ مايو ١٩٣٥، ص ٥٧٠-٥٧١) واتفق مع هاريس على النصح بتعليم دو بويز في الماركسية. وعرضت رؤية الحزب الرسمية من خلال جيمس ألين (أو سول أورباخ) الذي كان رئيس "الناشرين الدوليين"، وهي دار نشر الحزب. وكتب هارولد كروز عن رد فعل ألين: "فيما بين ١٩٣٢ و١٩٣٧، كان جيمس ألين مكلفا بكتابة أربعة كتب ومذكرات عن شئون الزنوج. وكان آخرها "إعادة البناء – معركة الديمقراطية". وكان الذي ألهم هذه الدراسة الماركسية المكتوبة على عجل يتمثل في ظهور عمل دو بويز التقليدي عن نفس الفترة في ١٩٣٥... والتي كانت أدق الدراسات التي كتبت عن إعادة البناء من وجهة نظر الزنوج. وخصص جزء جيد من مقدمة كتاب ألين لنقد ماركسي لدو بويز في عمله الجدير بالثناء "إعادة بناء السود" و"أخطائه".

- The Crisis of the Negro Intellectual, op. cit., p. 163.

- وكانت مهمة ألين تتمثل في تخليص حركة الطبقة العاملة من انتقادات دو بويز التي أفصح عنها في محاولته لتحليل الضعف التاريخي للحركة. وحل عمل ألين سريعا محل عمل دو بويز داخل أروقة الحزب. وعرض هو وغيره بنجاح الماركسية الأمريكية من خلال المراجعات النظرية لدو بويز. (انظر تعليقات بول بوهلي في:

- Paul Buhle, "American Marxist Historiography, 1900-1940", Radical America, November 1970, pp. 5-35).

- وهكذا انقض اليسار على "إعادة بناء السود" حتى لم يتبق منه سوى رواية الإنجاز التشريعي للسود. وبدأ عمل هربرت أبتيكر، الدارس الشيوعي البارز لحركات الزنوج، تحت هذه المظلة. (انظر تعليقات جورج شارني على عمل أبتيكر عن الاضطرابات المجرية، شارني، مرجع سابق، ص ٢٩٥). وكانت قوة عمل دو بويز أكبر مما يحتاجه الأيديولوجيون الماركسيون الأمريكيون، ومن ناحية أخرى، كانت أكبر مما يستطيع التاريخ الأكاديمي الأمريكي قبوله. ومر أكثر من عقدين قبل أن يلقى "إعادة البناء" أي اهتمام جاد في أي من الدوائر ثانية. وفي ذلك الوقت، كان دو بويز يقترب من التسعينيات، وتقلص الحزب الشيوعي الأمريكي إلى مجرد فصيل. وبحلول العقد الثالث، كان دو بويز يلقي ظلاله على الجغرافيا التاريخية الأمريكية.

(١) بدأ هوليس لينش - الذي كتب بشكل متوافق مع حكمه التاريخي - دراسته لإدوارد بليدن بالإعراب عن أنه: "ربما كان القرن التاسع عشر القرن الأكثر إذلالا في تاريخ سلالة الزنوج".

- **Hollis Lynch, Edward Wilmot Blyden: Pan-Negro Patriot, 1832-1912, Oxford University Press, Oxford, 1970, p. 1.**

- وكان مبرر لينش يستند على استمرار تجارة الرقيق الأفارقة "على الرغم من جهود البريطانيين المصرين على إيقاف تلك التجارب والحظر القانوني المفروض عليها من جانب الأمم الأوروبية والأمريكية" (المرجع السابق)؛ وربما كان رهاب الزنوج: "ربما كان أعظم خطأ وقع على سلالة الزنوج في القرن التاسع عشر يتمثل في التراكم المتواصل لأسطورة أن الزنوج كانوا أدنى من السلالات الأخرى بطبيعتهم" (المرجع السابق). ولكن الشيء الأكثر إضعافا لفهم لينش لهذه الفترة كان يتمثل في تقليله المستمر من شأن مقاومة السود. إذ إن كلا من ثورة هاييتي ومقاومة الأمريكيين الأفارقة للكونفدرالية كانا مغمورين في ذهن لينش بسبب المواقع والتطورات غير المتوقعة. فبالنسبة للثورة، كان راضيا عن عبارة: "كان زنوج جزر الهند الغربية محظوظين لكونهم أول من حصل على التحرر في العالم الجديد" (المرجع السابق، ص ٢). وبالنسبة للمقاومة، ادعى أنه: "كان الرق راسخا جدا في جنوب الولايات المتحدة لدرجة أنه استغل الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) لإلغاء الرق" (المرجع السابق، ص ١). وفي الواقع، كان تصوير لينش "لعالم الزنوج في القرن التاسع عشر وتطور البطولة السلالية، "الخالي تماما من أية إشارة إلى راديكالية السود الجماعية، يدور حول معضلة البرجوازية الصغيرة للسود ("الزنوج الأحرار") خلال حقب الرق وبعد التحرر. فلا شك أن هذه الفترة بالنسبة إليهم كانت فترة تعيسة.

(٢) "كانت أهم المشاهد في هذا الصدد: غياب البنية التحتية الصناعية بعد الاستقلال، وتطور العلاقات الإقطاعية كأساس في الزراعة، وكفاح القرويين للحفاظ على أراضيهم واكتفائهم الذاتي، ونمو الطبقة الوسطى الريفية مالكة الأراضي، وتكوين بيروقراطية الدولة ذات الرواتب، وعدم قدرة أي من الفصائل المتصارعة المسيطرة في الطبقة الحاكمة على تحقيق هيمنة سياسية واقتصادية حاسمة ومستمرة، وغزو وسيطرة رأس المال الأجنبي، وقد أدى كل ذلك إلى عرقلة كل محاولات تحول رأس المال وتنمية هاييتي خلال القرن التاسع عشر".

- Alex Dupuy, "Class Formation and Underdevelopment in Nineteenth Century Haiti", 1981 (unpublished paper).

(3) W. David McIntyre, Colonies into Commonwealth, Blandford Press, London, 1974, pp. 152-53.

(٤) بالنسبة إلى اضطرابات خليج مورانت في جامايكا في ١٨٦٥، انظر:

- Bernard Semmel, Jamaican Blood and Victorian Conscience, Houghton Mifflin, Cambridge, 1963;

- Peter Abrahams, Jamaica, Her Majesty's Stationary Office, London, 1957, pp. 74-127.

(5) McIntyre, op. cit., pp. 169-72; and

- Christopher Hibbert, The Great Mutiny, Viking Press, New York, 1978.

(٦) بينما كان الحزب الليبرالي في السلطة، "تخلى عن أفغانستان والترانسفال، وترك كوردون في الخرطوم لمعركة رفض أن يثأر لها. وتوغلوا وحاولوا أن يحطموا الإمبراطورية. وكانوا يرغبون في توحيد الإمبراطورية بمنح الحكم الذاتي للأيرلنديين".

- Elie Halevy, Imperialism and the Rise of Labour, A History of the English People in the Nineteenth Century, Ernest Benn, London, 1961, (orig. 1926), 5:10;

- McIntyre, op. cit., pp. 124-28.

(7) Immanuel Geiss, The Pan-African Movement, Methuen, London, 1974, p. 60.

(8) Halevy, op. cit., p. 11.

(٩) "كان جزء كامل من القادة الليبراليين، أتباع اللورد روزبيري، من الإمبرياليين، وخلال السنوات الثلاث للحكومة الليبرالية، كان مكتب الخارجية يتبع سياسة إمبريالية". انظر هالفي، المرجع السابق، ص ٨.

(١٠) "بالنسبة إلى سكان هذه الجزر في بداية هذا القرن، كانت الإمبراطورية البريطانية في جميع الأحوال كما وصفها اللورد كورزون بأنها "الحقيقة التاريخية والسياسية والاجتماعية الكبرى التي تعتبر واحدة من العوامل الموجهة في تاريخ الإنسانية". وكان معظمهم (على الأقل خارج أيرلندا) يبدو أن هذه الإمبراطورية كانت تسير نحو الأفضل.... فقد تربوا منذ المهد على النثر البطولي لروبرت سوثي وتوماس كامبيل. وفي المدرسة كانت عقولهم قد تشكلت من خلال رجال يتمتعون بالبطولة القوية والعقلية البسيطة لتشارلز كنجسلي ووليام جونسن كوري، هذا المتحمس القوي الذي علم الكثيرين من الأعضاء اللاحقين في الطبقة الحاكمة في إيتون،

وليس أقلهم اللورد روزبيري واللورد إيشر. ومن المدارس... انتقل هذا الجيل إلى الجامعات، حيث تواصلوا أساتذة مثل جون روسكين الذي أخبر الحضور في محاضرته الافتتاحية كأستاذ للفنون الجميلة في أكسفورد في ١٨٧٠ بأنه يجب أن تتمثل مهمة الإنجليز - "أصحاب السلالة النقية الممتزجة فقط بأفضل دماء الشمال"- أن تؤسس مستعمرات بأسرع ما يمكن وأبعد ما يمكن، بحيث تتكون من أشد وأقوى رجالها؛ وأن تستولي على كل قطعة أرض فضاء خصبة تستطيع وضع أقدامها فيها، وأن تعلم المستعمرين هناك أن ميزتهم الرئيسة تتمثل في إخلاصهم لبلدهم، وأن هدفهم الأول يتمثل في دعم قوة إنجلترا برا وبحرا". ولو كانوا مؤرخين، يجب أن يطلعوا على أعمال كارليل وفرودي، اللذين نشرا نفس الرسالة".

- Michael Howard, "Empire, Race and War", History Today 31 (December 1981): 5;
- Brian Street, The Savage in Literature, Routledge and Kegan Paul, London, 1975;
- Jonak Raskin, The Methodology of Imperialism, Delta, New York, 1971;
- V. G. Kierman, The Lords of Humankind, Weidenfeld and Nicolson, London, 1969;
- Harvey, op. cit., pp. 18-22.

(11) Halevy, op. cit., pp. 11-12.

(١٢) "كان عمال السخرة [المعزولون من أصول أسبانية وهندية أمريكية وأفريقية مختلطة من فنزويلا]، والمهاجرون الأفارقة، والجنود السابقون السود، وذريتهم، يمثلون جماعات مهمة بين مزارعي الجزيرة في القرن التاسع عشر. ولكن المزارعين في ترينيداد ظهروا مع انسحاب الرقيق السابقين من مزارع السكر بعد ١٨٣٨. وربما غادر حوالي ٧٠٠٠ من الرقيق السابقين الأراضي ليصبحوا أصحاب متاجر. وأصبح حوالي خمسة أسداس من هؤلاء أصحاب أملاك ما بين فدان إلى عشرة أفدنة من الأراضي، ويزرعون المواد الغذائية والكاكاو أساسا، وغالبا ما كانوا يوفرون العمالة المؤقتة للأراضي أثناء الحصاد".

- Bridget Brereton, Race Relations in Colonial Trinidad 1870-1900, Cambridge University Press, Cambridge, 1979, p. 138.

- وكانت دراسة بريريتون ذات أهمية خاصة في الوصفات التالية لترينيداد في القرن التاسع عشر. انظر أيضا:

- Donald Wood, Trinidad in Transition: The Years after Slavery, Oxford University Pres (for the Institute of Race relations), London, 1968, pp. 49ff.

(١٣) كان الانخفاض في إنتاج السكر في ترينيداد خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر يرجع أيضا إلى إهمال الطرق التي كانت تربط المزارع والموانئ في غرب ترينيداد. وكان هذا الإهمال يرتبط بحركة الرقيق السابقين - ومحاولة المزارعين الاحتفاظ بعمالتهم قريبة. وبعد التحرر بثلاثين سنة، واجه الحاكم الجديد، جوردون (المعين في ١٨٦٦) ومدير مصلحة المساحة النتائج السيئة، فقد "رأي جوردون خلال رحلاته المبكرة لأول مرة حالة الطرق. حيث وجد الإهمال في كل مكان. فبينما كان يسافر على الطريق السريع إلى سان فرناندو، انهار جسر متهالك تحت أقدام مجموعته". "وكانت استجابة جوردون فورية... حيث خطط مدير المساحة برنامجا طموحا للطرق الجديدة، إلا أنه واجه بعض المعارضة من المزارعين الذين كانوا يخشون من أن تحسين المواصلات يمكن أن يسحب العمال من أراضيهم". راجع وود، مرجع سابق، ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(١٤) المرجع السابق، ص ٦٣.

(١٥) المرجع السابق. يقول بريريتون: "كان الفيكتوريون مشغولين بالحاجة إلى "صناعة مستقرة"، "وعمالة يعتمد عليها" من جانب السلالات غير البيضاء في الإمبراطورية - من أجل صاحب العمل الأبيض عادة. وكما قالت صحيفة Spectator اللندنية كانت الصناعة المستقرة "تمثل الفضيلة الفريدة من المنظور الإنجليزي، وقامت أسطورة "الزنجي الكسول" بدور مفيد: فقد بررت استغلال أصحاب المزارع للعمال السود، وإهمال الحكومة المزارعين القرويين المستقلين". بريريتون، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(١٦) للاطلاع على معالجة كاملة لمحاولة الحصول على عمالة المهاجرين من جزر الهند الغربية وأفريقيا والولايات المتحدة والصين، انظر: وود، مرجع سابق، الفصلين الرابع والثامن. وبالنسبة للأفارقة المحررين، سجل توماس (جاكوب) الذي سنناقشه في النص "المجموعات القبلية الرئيسة التي أرسلت إلى ترينيداد مثل "الماندنجو، الفولاه، الهوسا، الكالفر، الجالاه، الكارامنت، اليوروبا، الأرادا، الكانجا، التمنيه، الفاي، الإيبو، الموكو، البيبي، الكونجو". بريريتون، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(١٧) انظر وود، مرجع سابق، ص ١٠٧-١١٠.

(١٨) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(19) Brereton, "The Experience of Indentureship: 1845-1917", in John La Guerre (ed.), Calcutta to Caroni: The east Indians of Trinidad, Longman Caribbean, Trinidad, 1974, p. 32.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٢٦.

(21) J. CF. Jha, "Indian Heritage in Trinidad, West Indies", Caribbean Quarterly 19, no. 2 (June 1973): 30.

- "كانت هذه الأوضاع جزءا من طبيعة الحياة، ولكن "التمرد" قمعهم أكثر من هذا. وكان الكثيرون من جيش البنجال من البراهمة والراجبوت من ولايتي أوده والشمال الغربي؛ وكانت الحملة تتقدم وتتراجع على أراضيهم، وكانت المعارك تشن على أحياء كانت مراكز للهجرة الاستعمارية. وعلى سبيل المثال، اندلع قتال عنيف في جونبور، مرزابور، آراه، الله أباد؛ وثارت فرقة المشاة الوطنية ١٧ في أزامجراه في الشهور الأولى من الاضطرابات؛ وحوصرت كاونبور ولوكنو حصارا مريرا. ولكن الأسوأ بالنسبة للمزارعين من المعارك الضارية وحصار المدن كان يتمثل في المناوشات وغارات التطهير في القرى؛ فبالنسبة إليهم كان ذلك أشبه بحلقة من "حرب الثلاثين عاما" منه بحملة منظمة في القرن التاسع عشر". راجع وود، مرجع سابق، ص ١٤٨. وانظر أيضا هيبيرت، مرجع سابق، للاطلاع على تفاصيل أخرى للفظاعات التي ارتكبها البريطانيون والجنود الهنود المتمردون .

(٢٢) انظر جها، مرجع سابق، هنا وهناك. وكان الهندوس يتفوقون على المسلمين بحوالي ٩: ١ تقريبا.

(٢٣) مقتبس من عريضة استعمارية في أغسطس ١٩١٩؛ تطلب الوجود المستمر لحامية بيضاء في ترينيداد، وأشار إليها:

- **Brinsley Samaroo, "The Trinidad Workingmen's Association and the Origins of Popular Protest in a Crown Colony", Social and Economic Studies 21, no. 2 (June 19972): 213.**

(٢٤) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٢٥) وود، مرجع سابق، ص ١٥٢-١٥٣. "كان موكب العزاء الحسيني أكبر احتفال كان الهندوس يشاركون فيه أيضا. وفي الحقيقة، فقد أصبح هذا الاحتفال منذ خمسينيات القرن التاسع عشر بمثابة الاستعراض السنوي للمشاعر الهندية التي تصاعدت في الاضطرابات الحسينية في سان فرناندو في ١٨٨٤. حيث رفعت راية كبيرة في بداية شعائر التعزية (نموذج لضريحي الحسن والحسين، حفيدي النبي محمد) التي كان يقودها راقصان مدربان بمصاحبة قرع الطبول والقتال بالعصا. وفي الماضي كان هناك رقص بالقضبان النارية أيضا، بتدوير قضيب طوله ١٢ قدما وعلى طرفيه قماش مشتعل. وكان حتى غير الهنود يشاركون في هذا الموكب". جها، مرجع سابق، ص ٣١. وبالنسبة لاتجاهات الكريول الأفارقة والهنود الشرقيين تجاه بعضهما، انظر بريريتون، "علاقات السلالات"، مرجع سابق، ص ١٨٨-١٩٠.

(٢٦) كتب أحد الأعضاء البارزين من الطبقة الوسطى الملونة، د. ستيفن مويستر لورنس، في مذكراته المتعلقة بلغة المستعمرين البريطانيين: "ومع ذلك، فإنه عندما نحلل مصطلح "السكان المحليين **native**" بالنسبة إلى الأصل السلالي ومحل الميلاد،

نكتشف التفسير الحقيقي لخطأ كبير يرتكبه الكثير من البريطـانيين بـصفة عامـة والمكتب الاستعماري بصفة خاصة. ولا بد أن هذا التقسيم الطبقي الخاص قد بـدأ منذ فترة طويلة عندما كان الشرق - أي الهند - ملكية استعمارية. ومن الطبيعـي أنه كان هناك القليل من الإنجليز، وأنهم كانوا يذهبون ويعودون باستمرار غالبـا، بحيث أن كل الشعب الهندي كان يشار إليه بعبارة السكان المحليين. وكـان هـذا صحيحا تماما، لأنهم كانوا من أصول هندية صافية وولدوا في الهند. وأصبح هـذا الاستخدام المبرر لمصطلح "السكان المحليين" يمتد إلى الشرق كله، وإلـى أفريقيـا أيضا". "ولكن عندما نتحول إلى جزر الهند الغربية، تأخذ القـضية كلهـا مـسارا مختلفا تماما، وتتطلب المعالجة من زاوية مختلفة تماما". "وبدلا من افتراض أن هذه العوامل في جزر الهند الغربية كان لها نفس الأهمية أو عدم الأهميـة كمـا فـي الشرق، وكانت السلطات البريطانية تعرف الفرق، فإن داوننج ستريت [حيث كان مكتب وزير خارجية المستعمرات يقع هناك بالإضافة إلى رئيس الـوزراء] علـى الأقل - فضلا عن السلطات الدينية - كانت سترتكب أخطاء أقل، بل وربما حققت نجاحات أكثر مما نقله التاريخ المسجل".

- "The Trinidad Water Riot of 1903: Reflections of an Eyewitness", edited by L. O. Laurence, Caribbean Quarterly, 15, no. 4 (December 1969): 13-14.

(27) See Samaroo, op. cit., p. 206.

(28) Wood, op. cit., p. 127.

(29) Brereton, Race Relations, op. cit., p. 148.

(30) Ibid., p. 164.

(31) Ibid., chap. 8; see also
- D. V. Trotman, "The Yoruba and Orisha Worship in Trinidad and British Gulana 1838-1870", African Studies Review, 19, no. 2 (September 1976): 1-17; and
- J. D. Elder, "The Yoruba Ancestor Cult in Gasparillo", Caribbean Quarterly 16, no. 3 (August 1970) (cited by Brereton).

(32) Brereton, op. cit., p162.

(33) Wood, op. cit., p. 136.

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٥٧-١٥٩. "بحلول أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، كان لدى الهنود في ترينيداد بعض الخيول الجيدة التي كانت تفوز بجوائز في السباقات، وأفضل الأبقار الموجودة، وفيما بين ١٨٨٥ و١٩٠٩، كانوا يحوزون ٦٩٠٨٧ فدانا من الأرض". راجع جها، مرجع سابق، ص ٣٠؛ وبالنسبة إلى استمرار الفقر بـين الهنود الشرقيين، انظر أيضا:

- Winston Dookeran, "East Indians and the Economy of Trinidad and Tobago", in John La Guerre, op. cit., pp. 69-83.

(٣٥) وود، مرجع سابق، ص ٢٧٦. وتطورت هذه المحاصيل بإقناع الهنود الشرقيين مبكرا بإحلالها محل واردات الغذاء المألوفة في الوجبات الهندية.

(٣٦) انظر بريريتون، العلاقات السلالية"، مرجع سابق، ص ١٩١-١٩٢.

(٣٧) توقفت الهجرة الصينية وفق اتفاقية كونج في ١٨٦٦. انظر وود، مرجع سابق، ص ١٦٠-١٦٧، للاطلاع على تفاصيل حقبة ترينيداد.

(٣٨) "سيطر الكريول الفرنسيون على نخبة الكريول البيض. حيث كانوا أساسا من البيض من أصول فرنسية، ولكن المصطلح كان مفهوما بصفة عامة على أنه يشمل أولئك الذين ترجع أصولهم إلى الأيرلنديين الإنجليز والإسبان والكورسيكيين وحتى الألمان، الذين ولدوا على الجزيرة، ومعظمهم من الروم الكاثوليك. أما الذين ولدوا في أوروبا ولكنهم يقيمون في ترينيداد لعدة سنوات، والمرتبطون بهذه المجموعة بالزواج، فكانوا يعتبرون أيضا من الكريول الفرنسيين من قبيل المجاملة". بريريتون، مرجع سابق، ص ٣٥. كانت ترينيداد بمثابة وعاء للأرستقراطيين المهاجرين الفرنسيين في جزر الهند الغربية، والذين هربوا من هاييتي والممتلكات الفرنسية الأخرى في أعقاب ثورتي فرنسا وهاييتي.

(٣٩) المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤٠) انظر وود، مرجع سابق، الفصل ١٤.

(٤١) هذه العملية موصوفة في: بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٤٢) انظر لورنس، مرجع سابق؛ وسامارو، مرجع سابق.

(٤٣) بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٤٤) المرجع السابق، ص ٨٦.

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٤٧) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٨) وود، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

(٤٩) بالنسبة إلى خلفية توماس، انظر: بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ٩١-٩٦.

(50) Quoted in C. L. R. James, "Discovering Literature in Trinidad: The 1930s", in Sphere of Existence, Allison and Busby, London, 1980, pp. 241-42.

(٥١) بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥.

(٥٢) المرجع السابق، ص ٩٢-٩٧.

(٥٣) جايس، مرجع سابق، ص ١٧٦. وكانت الرابطة الأفريقية لدى ويليامز متوقعة أيضا في تجربة توماس. "حيث كتب توماس في ١٨٨٩ أنه كان "يألف منذ طفولته المبكرة أعضاء من كل قبيلة أفريقية تقريبا... من الذين جاؤوا إلى جزر الهند الغربية". بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ١٣٤. وبالنسبة إلى تعداده، انظر الملاحظة ٢٣٥.

(٥٤) "كان توماس واحدا من الذين كانوا يعبرون عن فخر سلالي قوي. وكان واعيا جدا بمدى احتقار الذات وكراهية الذات بين رفاقه السود في جزر الهند الغربية. ورأي كيف أن قيم تفوق البيض أصبحت أمرا داخليا، مع ما ترتب على ذلك من نتائج كارثية. وكان أحد عوامل هذه العملية من وجهة نظره يتمثل في تعليم شباب جزر الهند الغربية على أيدي المعلمين البيض. حيث كان يعتقد أن تأثيرهم كان "إلى حد كبير جدا مدمرا للشعور القومي، الذي كان يعني به الوعي السلالي". فقد كان هناك عباقرة من السود على المستوى الفردي. ولكن كان يجب أن يكون هناك "بعض الأطراف القادرة على جمعهم ووضعهم في المحرك الكبير الضروري لتنفيذ الأغراض الحقيقية للسلالة الأفريقية المتحضرة. بريريتون العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٦.

(٥٥) المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥٦) أثار كل من سيلفستر ويليامز وفيبس قضية موقع الطبقات الوسطى في جزر الهند الغربية في حكم مجتمعاتها في مؤتمر الرابطة الأفريقية في لندن في ١٩٠٠؛ جايس، مرجع سابق، ص ١٨٧-١٩٣.

(57) James, The Case for West Indian Self Government, Hogarth, London, 1933K w 10-11.

- ومن الواضح أن المسئولين الاستعماريين لم يكونوا الوحيدين الذين ربما صدموا باكتشاف الهنود الغربيين "المتحضرين". حيث لاحظ د. ستيفن لورانس أنه "ربما كان أفضل تلخيص وأنسب تعليق على هذه المسالة يتمثل في الرد الذي قدمه لصاحبة الجلالة الملكة فيكتوريا في اليوبيل الفضي لتوليها العرش [في ١٨٩٧] المرحوم السيد لازار [إيمانويل مزومبو لازار، المحامي وناقل الملكية، المولود في ترينيداد في ١٨٦٤]، وهو ذاته من أصول أفريقية نقية. حيث سألت صاحبة الجلالة: "هل تتحدثون الإنجليزية في ترينيداد؟" فأجاب: "سيدتي، نحن كلنا إنجليز في ترينيداد". لورانس، مرجع سابق، ص ١٥.

(٥٨) جيمس، المرجع السابق، ص ٣١.

(59) Richard Smali, "The Training of an Intellectual, the Making of a Marxist", in Paul Buhle (ed.), C. L. R. James: His Life and Work, a special issue of Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 13.

- كان جد جيمس لأبيه عامل مرجل، وكان جده لأمه، جوش رودر، سائق محرك. انظر: جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ١٧-١٩، ٢٢-٢٥. حيث وصل هذان الجدان إلى مواقع كانت تحفظ عادة للبيض في القرن التاسع عشر. وكان رودر تحديدا قد اكتسب خبرة بالقاطرات جعلت الطلب عليه كبيرا حتى بعد تقاعده. حيث اكتسب بحماس خبرته من البيض. وفي أحد الأمثلة، بعد أن قام بإحدى معجزاته، وصف جيمس رد فعل الرجل العجوز. "أحاط جمع متحمس برئاسة المدير بجوش يسألونه ما الذي أدى إلى هذه المعجزة. ولكن جوش المحظوظ دائما التزم الصمت فجأة ورفض أن يجيب. ولم يخبرهم أبدا. ولم يخبر أحدا أبدا. بل إن هذا الرجل العجوز العنيد لم يخبرني. ولكن عندما سألته في [أحد] الأيام، "لماذا فعلت ذلك؟" قال ما لم أسمعه من قبل. "لقد كانوا جميعا من البيض من البيض، فلماذا يجب أن أخبرهم؟" المرجع السابق، ص ٢٥.

(٦٠) بريريتون، العلاقات السلالية، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٦١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٦٢) سمول، مرجع سابق، ص ١٣.

(٦٣) جيمس، وراء الحدود، ص ٢٥-٢٦.

(٦٤) سمول، مرجع سابق، ص ١٣. "لذلك كانت لعبة الكريكيت تصور الحياة بالمعنى الحقيقي بصفة عامة في مجتمع جزر الهند الغربية، حيث وجدت ازدواجية مماثلة. حيث كان البيض يظهرون في المستويات العليا من المجتمع، بما لا يتناسب تماما مع نسبتهم في عدد السكان. فكانوا هم القادة، وكان يتوقع من الهنود الغربيين غير البيض أن يتبعوهم. واستمرت القرارات المتعلقة بمن الذي يجب أن يلعب، وعلى أي الملاعب يجب لعب مباريات الاختبار في جزر الهند الغربية، ومقدار رسوم دخول المباريات ومن ثم الأرباح، في أيدي البيض".

- Maurice St. Pierre, "West Indian Cricket _ A Socio-Historical Appraisal, Part I", Caribbean Quarterly 19, no. 2 (June 1973): 8.

(65) James, Beyond a Boundary, op. cit., p. 13.

- See also J. A. Mangan, Athleticism in the Victorian and Edwardian Public School, Cambridge University Press, Cambridge, 1981.

(66) Samaroo, op. cit., pp. 206-7.

(٦٧) للاطلاع على تقرير عن تأسيس حزب العمال البريطاني خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن الحالي، انظر هالفي، مرجع سابق، ص ٢٦١-٢٨١.

(٦٨) سامارو، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٦٩) مكانتير، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٧٠) المرجع السابق، ص ١٣٣-١٣٤.

(71) George Padmore, Africa and World Peace, Frank Cass, London, 1972, p. 235.

- وبالنسبة لتفاصيل قوات السود والبيض التي استخدمتها القوى الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين (حتى أواخر العشرينيات)، انظر:

- Padmore, The Life and Struggle of Negro Toilers, Sun Dance Press, Hollywood, 1971, pp. 111-20.

- وفي مكان آخر، اقتبس بادمور من الجنرال سمتس في جنوب أفريقيا بالنسبة لاستخدام فرنسا للقوات: "خلال السنة الأولى من الحرب، تم تجميع ٧٠٠٠٠ من قوات السود في أفريقيا الغربية الفرنسية. وبحلول ١٩١٨، كانت أفريقيا السوداء قد زودت فرنسا بحوالي ٦٨٠٠٠٠ جندي و ٢٣٨٠٠٠ عامل إجمالا. وقد رأينا ما لم نره من قبل، لقد رأينا الموارد القيمة الهائلة التي تكمن في القارة السوداء".

- Padmore, Pan-Africanism or Communism, Doubleday, New York, 1972, p. 98.

(٧٢) انظر بادمور، الكادحون الزنوج، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٩، بالنسبة إلى الأرقام. وكان هاري هايوود محاربا قديما في الحملات الفرنسية، حيث يصف تجربة قوات الأمريكيين السود في فرنسا في: هايوود، البلاشفة السود، مرجع سابق، ص ٥٣-٧٨. وانظر أيضا معالجة دو بويز في:

- "The Black Man in the Revolution of 1914-1918",

- "An Essay Toward a History of the Black Man in the Great War", In The Seventh Son, Julius Lester (ed.), op. cit., pp 107-15 and 115-57.

(٧٣) سامارو، مرجع سابق، ص ٢١١-٢١٢. كان جيمس دون السن، ولكنه حاول أن يتطوع للمجهود الحربي (ولكن في فوج التجار والمزارعين): "كان الشاب تلو الشاب يذهب (لمكتب التطوع)، ومن الواضح أنني لم أكن أقل من أي منهم في أي شيء. حيث تحدث التاجر إلى كل منهم، وسأل عمن يرجع إليهم، ورتب لاختبار آخر حسب الحاجة. وعندما جاء دوري، تقدمت إلى مكتبه. فألقى نظرة علي، ورأى بشرتي الداكنة، وهز رأسه بقوة، ودفعني بعنف بعيدا". "والشيء المهم أنني لم أنزعج بلا مبرر". جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٧٤) سامارو، المرجع السابق، ص٢١٠-٢١١. وقدم فنس بابتست تفسيرا أكثر وضوحا: "أدت الحرب إلى تصاعد أسعار السلع، وحاول الكاريبي البريطاني المنتج للسلع بامتياز أن يحقق أكبر ثروة من هذا الرواج بقدر الإمكان. وتكشف بعض

الإحصاءات عن جامايكا أنه على الرغم من آثار الحصار البريطاني وحرب الغواصات الألمانية على تجارة الحلفاء بحلول ١٩١٧/١٩١٨، كانت قيم الصادرات مرتفعة حتى على الرغم من وجود انخفاض في الحجم، بسبب الارتفاع العام في أسعار السلع، خاصة الكاكاو والبن". "وبينما كان من الواضح أن أحد عناصر هذا الوضع يتمثل في الجشع الاستغلالي الشديد من جانب طوائف التجار في المجتمع الاستعماري، كان السبب الرئيس يتمثل في الانتقال القسري من الاعتماد على الواردات من بريطانيا إلى الولايات المتحدة وكندا عندما بدأ الحصار ومعركة الأطلنطي في فرض وجودهما في الكاريبي.... وكانت النسبة المرتفعة جدا للواردات من الولايات المتحدة [بالنسبة إلى جامايكا ٦٧,٦٪] تعكس بوضوح بعض التشوهات المتأثرة بالحرب والتي كانت لا تزال مستمرة حتى بعد سنوات الحرب".

- Baptiste, The United States and West Indian Unrest: 1918-1939", Working Paper No. 18. Institute of Social and Economic Research, University of the West Indies, Jamaica, 1978, pp. 5-6.

(٧٥) سامارو، مرجع سابق، ص ٢١١-٢١٦. "كانت هناك اضطرابات في هندوراس البريطانية في يوليو ١٩١٩ ثم في ١٩٢٠؛ وفي جامايكا في مناسبتين في ١٩١٨ وفي ١٩٢٤ أيضا؛ وفي ترينيداد في أواخر ١٩١٩ وأوائل ١٩٢٠؛ وفي سانت لوسيا في فبراير ١٩٢٠؛ وفي البهاماس في ديسمبر ١٩٢٢. ويمكن أن تبدو القائمة أطول من هذا. بابتست، مرجع سابق، ص ٧.

(76) See Small, op. cit., p. 16;

- W. F. Elkins, "A Source of Black Nationalism in the Caribbean: The Revolt of The British West Indies at Taranto, Italy", Science and Society 34 (Spring 1970): 99-103 (cited by Small).

(77) Samaroo, op. cit., p. 219;

- James, The Black Jacobins, op. cit., appendix, pp. 403-4.

- وكانت هناك تجربة مختلفة تماما للسود في مختلف ميادين الحرب، وكانت تتمثل في تفاعلهم الخاص فيما بينهم، المتمثل في اكتشاف القهر المتبادل. حيث يتذكر كلود مكاي تجربته الخاصة في لندن خلال الحرب، "كان أحد النوادي مخصصا للجنود الملونين. وكان يقع في قبو في دروري لين. وكان هناك عدد من الجنود الملونين في لندن، من جزر الهند الغربية وأفريقيا، والقليل من الأمريكيين الملونين، والهنود الشرقيين، والمصريين فيما بينهم... وكنت أذهب غالبا واستمع إلى الجنود وهم يروون قصص تجاربهم في الحرب في فرنسا ومصر والجزيرة العربية. وكان الكثيرون منهم مهتمين بما كان الزنوج الأمريكيون يفكرون فيه ويكتبونه".

- McKay, A Long Way From Home, op. cit., p. 67.

(78) McIntyre, op. cit., pp. 209-10.

- كتب القنصل الأمريكي العامل، هنري بيكر، من ميناء أسباني في ديسمبر ١٩١٩ في برقياته إلى واشنطون عن الاهتمامات السلالية التي يشترك فيها مع المسئولين الاستعماريين في ترينيداد: "تذكرت مقابلة بين حاكم ترينيداد وتوباجو ومدير شركة الإسفلت العامة [حيث كان هناك إضراب متوقع، وكان لدى بيكر عامل ملون مؤتمن] حيث ادعى الحاكم أثناءها أن الحكومة الاستعمارية ليس لديها ثقة في قوة الشرطة المحلية التي كانت تتكون من السود أساسا، ونصح شركات الإسفلت والنفط بتشكيل ميليشيا بيضاء. وكما لو كان يريد أن يظهر أنه يريد هذا الأمر، قدم الحاكم ٢٥ بندقية و ١١ خزنة ذخيرة لتستخدمها الميليشيا. ويعتبر هذا في حد ذاته مؤشرا واضحا على رد الفعل العنصري لدى السلطات، والمدعوم من مصالح البيض المحلية والخارجية، لما كان يعتبر بوضوح حركة "لقوة السود". بابتست، مرجع سابق، ص ١٢. وأوصى بيكر واشنطون: "بأن تقوم بالتدخل على أن يكون ذلك بدعوة السلطات البريطانية، ولكن "في حالة المذبحة المحتملة للسكان البيض"، باستخدام كلماته في رسالة مستقلة". المرجع السابق، ص ١٣.

(٧٩) جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ٧١.

(٨٠) المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٨١) من بين المجموعات العديدة التي نشرها جيمس مع بادمور، ربما كان أشدها تأثيرا هذه الرسالة: "لقد كنا أطفالا معا، وتعودنا الاستحمام في نهر أريما، أسفل مصنع الثلج".

- James, "Discovering Literature in Trinidad: The 1930s", op. cit., p. 238,
- James Hooker, Black Revolutionary, op. cit., pp. 2-3.

(82) Hooker, op. cit., pp. 3-4.

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٦.

(٨٤) المرجع السابق، ص ٣١.

(٨٥) سمول، مرجع سابق، ص ١٧؛ وانظر أيضا: جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٨٦) جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٨٧) "توصل الاستعماريون البريطانيون السابقون إلى الابتعاد عن التوجه البرلماني. وقد فعلت ذلك بعد أن أصبحت ماركسيا".

- Alan J. MacKenzie interview with James, "Radical Pan-Africanism in the 1930s", Radical History Review 24 (Fall 1980): 71.

(٨٨) المرجع السابق.

(٨٩) بالنسبة لنشر أعمال جيمس الكبرى الأولى، بما فيها رواية "زقاق منتي"، انظر:

- Robert A. Hill, "In England, 1932-1938", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 19-27;
- Elliot Paris, "Minty Alley", ibid., pp. 97-98.

(90) James, Beyond a Boundary, op. cit., pp. 118-19.

(91) See Basil Wilson, "The Caribbean Revolution", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 47-54.

(92) Halevy, op. cit., pp. 211-12.

(93) Stuart MacIntyre, A Proletarian Science: Marxism in Britain, 1917-1933, Cambridge University Press, Cambridge, 1980, p. 23.

(٩٤) "لقد ظهرت هنا عقيدة كريهة مستوردة من الخارج، رفضت أن تضع أمام أتباعها نموذجا يخاطب القلب، ولكنها كانت مقتنعة بالإثبات بالحجج العلمية، أو ما تدعي أنه كذلك. وقد وجهت هذه العقيدة الثورة الكاملة في المجتمع، العنيفة في أساليبها، والمفيدة في آثارها. وأسهمت هذه العقيدة في نفور الكثيرين من الإنجليز الذين كانوا طوال ربع القرن الماضي أو أكثر [قبل ١٨٨٤] يقتربون من الاشتراكية بطرق أخرى. واتفاقا مع الماركسيين على شجب النظام الاجتماعي القائم على تعاسة الأغلبية وحرب الجميع ضد الجميع، لم يتفقوا مع التفسير الماركسي للتاريخ. ولم يدعوا الطبقات العاملة إلى استخدام العنف. وكانت معادلة الحرب الطبقية غائبة عن مفرداتهم. فلم يكن روسكين - وهو الرجل الذي ألهمت روحه الاشتراكية البريطانية - ولا ويليام موريس ذاته - على الرغم من أنه ادعى نوعا من الاشتراكية الفوضوية - من الثوريين بالمعنى الدقيق للكلمة. فقد مرت إنجلترا بثورتين - الثورة البيوريتانية في القرن السابع عشر، والثورة الصناعية في القرن الثامن عشر- ولا تزال ظلالهما الداكنة ماثلة على الأرض. وبدون اللجوء إلى العنف، يجب أن تعلم الاشتراكية الأمة فن أن تكون صالحة وسعيدة وتقدر الجمال". هالفي، مرجع سابق، ص ٢٢١-٢٢٢. ويرجع تحيز هالفي إليه هو فقط، ولكن حقيقة محدودية تأثير الماركسية في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعتبر واقعة بصفة عامة. انظر مثلا:

- David Smith, Socialist Propaganda in the Twentieth-Century British Novel, Macmillan Press, London, 1978, pp. 4-10.

(95) See Stanley Pierson, Marxism and the Origins of British Socialism, Cornell University Press, Ithaca, 1973, pp. 67-68.

(96) Stuart MacIntyre, op. cit., p. 17.

(٩٧) بالنسبة للفابيين، انظر بيرسون، مرجع سابق، ص ١٠٦-١٣٩؛ وبالنسبة للإمبريالية الفابية، انظر هالفي، مرجع سابق، ص ١٠٥-١٠٦.

(٩٨) بيرسون، المرجع السابق، ص ١٣٧-١٣٨.

(99) Stuart MacIntyre, op. cit., p. 65.

(100) Neal Wood, Communism and British Intellectuals, Victor Gollancz, London, 1959, p. 23;

- MacIntyre, op. cit., pp. 4-11.

(101) See L. J. MacFarlane, The British Communist Party, MacGibbon and Kee, Worcester and London, 1966, Chap. 7.

(١٠٢) "منذ منتصف ١٩٢٤ حتى "الإضراب العام"، تضاعفت عضوية الحزب، ويرجع ذلك أساسا إلى عمله في مجالات النقابات العمالية والصناعية. وخلال كفاح عمال المناجم في ١٩٢٦، تصاعدت العضوية إلى أكثر من ١٠٠٠٠، ولكنها بدأت في التراجع الحاد بعد أن تبني الحزب اتجاها غير توافقي بصورة متزايدة مع حزب العمل ونقابات العمال. وبحلول نهاية العشرينيات، انخفضت العضوية إلى ٣٢٠٠، أي نفس الرقم الذي كان سائدا في الفترة من ١٩٢٢ إلى منتصف ١٩٢٤ تقريبا. وكان تبني "النهج الجديد" بمثابة العامل الرئيس الذي سرع معدل الانخفاض بعد ١٩٢٨". ماكفارلين، المرجع السابق، ص ٢٨٦؛ وانظر أيضا وود، مرجع سابق، ص ٢٣.

(١٠٣) وود، مرجع سابق، ص ٥٢.

(١٠٤) المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

(105) Stuart MacIntyre, op. cit., p. 19;

- Raphael Samuel, "British Marxist Historians I", New Left Review 120 (March-April 1980): 23-24.

(١٠٦) لم تظهر نخبة مفكرين في بريطانيا، مقارنة بنخبة المفكرين المستقرة منذ فترة طويلة في القارة، حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وكان المثقفون البريطانيون في الأساس من الليبراليين أو المحافظين دائما. ثم فيما بين ١٩٢٨ و١٩٣٣، حدث تغير في توجههم. فقبل بداية العقد الجديد مباشرة، شعر كول "بقلق مزعج" بين المثقفين الشبان. فلم يعد سعيهم للمتعة مرضيا. وظهرت جدية جديدة محل البهجة السابقة. وتزايد الاهتمام بالسياسة. وبينما كان الجنس والجماليات يمثلان الموضوعين الرئيسين للحوار، بدأ كل شخص يتحدث في السياسة. ومع مرور الوقت، تحركت سياسة المثقفين يسارا نحو الاشتراكية والشيوعية. وتحول ما بدأ كيقظة سياسية إلى راديكالية عظيمة". وود، مرجع سابق، ص ٣٧. وبالنسبة لتأثير هذه الحركة على المسيرة التاريخية البريطانية، انظر:

- Eric Hobsbawm, "The Historians' Group of the Communist Party", In Maurice Cornforth (ed.), Rebels and Causes, Lawrence and Wishart, London, 1973, pp. 21-47.

(107) See Stuart Macintyre, op. cit., pp. 47-65;

- Alan McKinnon, "Communist Party Election Tactics: A Historical Review", Marxism Today 24, no. 8 (August 1980): 20-26;
- Henry Pelling, "The Early History of the Communist Party of Great Britain 1920-29", Transactions of the Royal Historical Society, 5th ser. Vol.8 (1958): 41-57;
- John Strachey, "Communism In Great Britain", Current History, January 1939, pp. 29-31; and
- Hugo Diwar, Communist Politics in Britain: The CPCP from its Origins to the Second World War, Pluto Press, London, 1976, chaps, 7-10.

(108) See Folarin Shyllon, "The Black Presence and Experience in Britain: An Analytical Overview", paper presented to the International Conference on the History of Blacks in Britain, University of London, 30 September 1981, p. 7; and Geiss, op. cit., p. 201.

(١٠٩) في سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى، عمل المسئولون الأمريكيون والبريطانيون معا لتنسيق وصول سكان المستعمرات البريطانية السود إلى المدن الناطقة بالإنجليزية: "وطبقا لسجلات الهجرة الأمريكية، استخدمت المملكة المتحدة حتى ٤٣,٩٪ من حصتها فيما بين ١٩٢٥ و١٩٢٩؛ ٢٢,٦٪ منها فيما بين ١٩٣٠ و١٩٣٤؛ و٤,٤٪ فقط في الفترة ١٩٣٦/١٩٤٠. ومن الناحية الفنية، ترك هذا مجالا لهجرة كبيرة إلى الولايات المتحدة من المستعمرات البريطانية في الكاريبي. ومع ذلك، لم يحدث هذا أبدا، أو بالأحرى، لم يسمح له بالحدوث أبدا. فمن خلال إصدار التأشيرات، والمتطلبات المالية الكبيرة، كانت الولايات المتحدة بالموافقة الضمنية للسلطات البريطانية والاستعمارية، تمارس رقابة مشددة جدا على تدفق الهنود الغربيين البريطانيين. وتمثلت النتيجة في انخفاض حاد في أعداد الهنود الغربيين البريطانيين الذين دخلوا إلى الولايات المتحدة بعد ١٩٢٥. ومقارنة بدخول الآلاف سنويا في المتوسط حتى نهاية ١٩٢٤، أصبح المتوسط لبقية سنوات العشرينيات والثلاثينيات مجرد مئات في السنة. ففي ١٩٣٢ مثلا، دخل ١١٣ هنديا بريطانيا غربيا فقط إلى الولايات المتحدة". بابتست، مرجع سابق، ص ١٩-٢٠. ولنتذكر أن هذا كان في فترة حركة سياسية للسود في الولايات المتحدة، حيث لعب الهنود الغربيون أدوارا بارزة: أي في حركة مثل يونيا UNIA، والحزب الشيوعي للولايات المتحدة CPUSA والحركات الطلابية في كليات وجامعات السود، وأخوية الدم الأفريقية ABB، وغير ذلك.

(110) See Ian Duffield, "The Dilemma of Pan-Africanism for Blacks in Britain, 1760-1950", paper presented to the International Conference on the History of Blacks in Britain, op. cit., pp. 7-8.

- (تعتبر رسالة الدكتوراه غير المنشورة، التي أعدها دوفيلد، بمثابة العمل المقبول بصورة قاطعة عن محمد علي دوس بصفة عامة).

- Duffield, "Duse Mohamed Ali and the Development of Pan-Africanism, 1866-1945", Edinburgh University Press, 1971.

- وانظر أيضا جايس، مرجع سابق، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(١١١) روجعت تواريخ هذه المنظمات في: جايس، مرجع سابق، الفصلين ١٤و١٧؛ وانظر أيضا:

- Nigel File and Chris Power, Black Settlers in Britain, 1555-1958, Heinemann Educational Books, London, 1981, pp. 72-77.

(١١٢) بالنسبة إلى بادمور، كريس جونز، آرنولد وارد، انظر: هوكر، مرجع سابق؛ وماكينزي، مرجع سابق؛ وبالنسبة إلى دوت وساكلاتفالا، انظر: ماكفرلين، مرجع سابق؛ وتم الحصول على معلومات بلاكمان من مقابلات معه في لندن، ديسمبر ١٩٨١. ويقول جايس إنه في وقت مبكر منذ ١٨٩٨ كان الحزب الليبرالي يناقش احتمال وقوف رجل أسود في البرلمان ليمثل "مستعمرات ومحميات التاج، أفريقيا الغربية، جزر الهند الغربية، الخ". جايس، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(١١٣) انظر: جايس، مرجع سابق، ص ٣٤٧-٣٥٣؛ وهوكر، مرجع سابق، ص ٤٨-٤٩.

(١١٤) يتمثل التفسير الأكثر تعاطفا مع الإجراءات التي اتخذها ستالين والكومنترن في أن تفكيك معظم الأدوات الدعائية المؤيدة "للثورة العالمية" والتحرر الوطني في المستعمرات كان ضروريا في مقابل التجارة والدخول إلى عصبة الأمم بالنسبة للاتحاد السوفيتي، وتأسيس جبهة بسيطة مناهضة للفاشية "للأمن الجماعي" مع الدول الإمبريالية والرأسمالية. ويواصل القول إن البديل كان يتمثل في توقع اندلاع حرب ألمانية، توافق عليها ضمنا الطبقات الحاكمة في إنجلترا، وفرنسا، وأمريكا، والتي عبر المؤتمر السادس للكومنترن عن عداوته المطلقة لها. أما بادمور - الذي قضى في أوائل ١٩٣٣ عدة شهور في سجون السلطات النازية في هامبورج - فإما أنه لم يتأثر بهذا المبرر (كان قدر من الشك أمرا مطلوبا؛ فمنذ أقل من سنة مضت، في ٢٦ يناير ١٩٣٤، استبعد ستالين في المؤتمر السابع لحزب الشيوعي للولايات المتحدة تهديد الفاشية للاتحاد السوفيتي، وذكر حزبه بأن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية أقام "أفضل العلاقات" مع إيطاليا الفاشية.

- Fernando Claudin, The Communist Movement, op. cit., 1:167-77.

- أو أنه لم يعد قادرا على الولاء لحركة عالمية تقودها قيادة وصفها كلودين (الذي طرد من الحزب الشيوعي الأسباني في ١٩٦٥ بعد ٣٢ سنة من العضوية النشطة) بأنها تعاني من "مرض مزمن بشدة، يتمثل في ضمور الحقائق النظرية، بيروقراطية الهياكل التنظيمية، الاصطفاف العقيم، الخضوع غير المشروط لمناورات بطانة ستالين". المرجع السابق، ص ١٦٦. ويوضح أدق بيان لبادمور - نادرا ما كان لاحقا قادرا على "الموضوعية السياسية" بشأن الاتحاد السوفيتي الذي كان يفخر به كثيرا هنا - "خداعا للمصالح الأساسية لشعبي" (هوكر، مرجع سابق، ص ٣١). واقترح فرانز بوركيناو أن العامل القوي الذي ساهم في تقارب الاتحاد السوفيتي مع القوى الإمبريالية كان يتمثل في الصراعات الداخلية في الإدارة السوفيتية. بوركيناو، "الشيوعية العالمية"، مرجع سابق، ص ٣٨٨-٣٩٣. ويقول جايس إن "معظم الشيوعيين الملونين أو المسافرين المرافقين تركوا الحركة" في ذلك الوقت. ويشير إلى بادمور، كوياوتي، وكينياتا كأمثلة. جايس، مرجع سابق، ص ٣٣٨. ويشير بحثي الخاص إلى خلاف ذلك. حيث أظهرت المناقشات مع المحاربين القدماء الأمريكيين الأفارقة في الحرب الأهلية الإسبانية أنه حتى كشف مساعدة السوفيت لإيطاليا خلال الغزو الإيطالي لإثيوبيا في ١٩٣٥ لم يتسبب في تراجعهم (يشير ويليام نولان في عمله "الشيوعية في مواجهة الزنوج"، مرجع سابق، ص ١٣٥، ٢٤٥، الملاحظة ٩٠، إلى مقالات في نيويورك تيمز في ٨ و ١٠ سبتمبر ١٩٣٥). وقد أخبرني جيمس ييتس بأنه: "لم تتح لنا فرصة الذهاب إلى إثيوبيا، كما كان الكثيرون منا يحبون ذلك. ولكن عندما غزت إيطاليا إثيوبيا وسيطرت عليها، تركت نفس هذه القوات هناك وذهبت إلى إسبانيا. وكان هذا بمثابة الوقت والفرصة المناسبة، خاصة بالنسبة للسود، للتطوع والعودة إلى الفاشيين الذين غزوا إثيوبيا". مقابلة، ٢٦ أبريل ١٩٧٨، بنجهامتون؛ وكان لدى هاري هايوود نفس الموقف. مقابلة، ربيع ١٩٧٧، بنجهامتون؛ وانظر أيضا عمله "البلشفي الأسود"، مرجع سابق، ص ٤٤٨-٤٤٩، والفصل ١٨.

(١١٥) جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ١١٤.

(١١٦) "عندما انتهت الحرب، كان مجتمع السود في بريطانيا كبيرا، وربما وصل إلى ٢٠٠٠٠ نسمة، ومع إغلاق المصانع الحربية، انتقلوا إلى مناطق أرصفة الموانئ، خاصة كارديف وليفربول. وخلال الحرب، جمع البحارة السود أموالا جيدة من التجارة عبر البحار، ولكن مع تسريح البحارة البيض الذين كانوا يخدمون في البحرية الملكية، مر السود بوقت عصيب؛ حيث تم استبعادهم لإفساح المجال أمام

البيض المسرحين. وطرد السود من الوظائف التي شغلوها لسنوات لمجرد توفير أماكنهم للبيض". "وأدت مشاعر العداء تجاه السود الذين يتنافسون على الوظائف مع العمال البيض، وردود الأفعال على الزنوج الذين يتزوجون من بيضاوات، إلى اندلاع أعمال عنف أخيرا في ١٩١٩. واجتاحت الاضطرابات العرقية المدن البريطانية مثل ليفربول، كارديف، مانشستر، لندن، هول، باري، نيوبورت - ومون. وفي تقرير أحداث ليفربول، أشارت صحيفة التيمز في ١٠ مايو ١٩١٩ إلى أن الحرب أدت إلى زيادة السود في ليفربول حتى وصل عددهم إلى ٥٠٠٠". فولارين شيلون، مرجع سابق، ص ٨.

(١١٧) في برلين وباريس، انضم الأمريكيون السود مثل إيثيل ووترو، وجوزفين بيكر، إلى التابعين الاستعماريين الفرنسيين؛ وفي بريطانيا، كان جاك جونسون وبول روبسون معاصرين لكل من ليري قسطنطين، والممثل السيراليوني روبرت آدمز.

(118) See Makonnen, op[. cit., p. 133;
- Padmore, Pan-Africanism or Communism, op. cit., p. 95; and
- James, Beyond a Boundary, op. cit., pp. 128-29.

(١١٩) مقابلة مع السيدة فيرونيكا سانكي، ٢٠ يوليو ١٩٨٠، برايتون؛ حيث أسس إدوارد وفيرونيكا سانكي شركة طباعة سانكي في إيكيجا في نيجيريا.

(١٢٠) ماكونين، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(١٢١) المرجع السابق، ص xvii.

(١٢٢) انظر: جايس، مرجع سابق، ٣٥٥، ٣٨٧-٣٩٠.

(١٢٣) "أصبحت عضوا أصيلا في جمعية الناشرين، وتقدمت لإخراج عدد من الأعمال التي تحتاج إلى نشر. إذ كانت هناك مذكرة لكينياتا [كينيا: أرض الصراع]، ونوع من المناقشة السقراطية بين نانسي كونارد وجورج بادمور حول أعباء السود [واجب الرجل الأبيض]، ومخطوطة أعدها إيريك ويليامز [الزنوج في الكاريبي]". ماكونين، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(١٢٤) المرجع السابق، ص ١٢٣.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ١٥٩.

(١٢٦) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(١٢٧) المرجع السابق، ص ١٢٦. وفي أفريقيا، "نجد أن الأوروبيين الذين حاولوا أن يعيشوا نمط الحياة المحلية تلاشوا بسرعة. إذ إن بعض المبشرين الذين حاولوا هذه التجربة فشلوا فشلا ذريعا. حيث سقط الكثير من الرجال البيض الذين هجروا معاييرهم في الشراب واليأس من الذات، وأصبح بعضهم مشوشين لدرجة أنهم حاولوا الهروب من ضخامة القارة، مثل الحيوانات البرية، إلى المخابئ تحت الصخور أو في الكهوف. وكان هذا يسمى "التحول إلى شنزي shenzi".

- Jeremy Murray-Brown, Kenyatta, Fontana/Collins, London, 1974, p. 47.

- ويقول موراي براون إنه بينما كان كينياتا يعيش في بريطانيا، فإنه كان مدفوعا بضغوط مماثلة، ولكنه حلها باكتشاف شجرة مقدسة في حديقته في ستورنجتون، و"حافظ على التواصل مع أرواح شعبه من خلال إراقة الخمور والصلوات". المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥.

(١٢٨) ماكونين، المرجع السابق، ص ١٥٥.

(١٢٩) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(130) See Julian Symons, The Thirties: A Dream Revolved, Faber and Faber, London, 1975, chaps, 5-10;

- Douglas Hill (ed.), Tribune 40, Quartet Books, London, 1977, pp. 1-24;
- Neal Wood, op. cit., pp. 53-63; and
- Davis Smith, op. cit., pp. 48-56.

(131) Symons, ibid., pp. 56-57; and Smith, ibid., pp. 48-49.

(132) Symons, ibid., pp. 56.

(133) Douglas Hill, op. cit., p. 3.

(١٣٤) بالنسبة لإسبانيا، تتذكر جوليان سيمونز أنه: "كان المتمردون [بقيادة فرانكو] مسلحين ببنادق ومدافع ألمانية وإيطالية، بحيث أن إعلان الحكومة البريطانية تبني سياسة عدم التدخل كان في الواقع بمثابة مساندة للتمرد". "إذ يقول ستيفن سبندر إن سياسة عدم التدخل كانت تمثل مساندة بصورة أكثر غرابة ووضوحا وخطورة للتدخل من جانب القوى الفاشية، مقارنة بما كان عليه حظر السلاح في الصراع الحبشي بمثابة هدية الذخيرة والنصر لإيطاليا". سيمونز، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨.

(١٣٥) انظر: فولارين شيلون، مرجع سابق، ص ٩. وربما كان شيلون يعتمد على رسالة الدكتوراه غير المنشورة التي قدمها إيان دوفيلد؛ انظر الملاحظة ١١٠.

(136) Wayne Cooper and Robert C. Reinders, "Claude McKay in England, 1920", New Beacon Reviews, Collection One, 1968, pp. 3-21 (reprinted from Race, ix, 1967).

- يروي كوبر وراينديرز أن: "مككاي أفلت من القبض عليه، ولكن 'سحنته السوداء الكبيرة' [وصف مككاي] لم تمنع المكتب الداخلي و/أو الخارجي من إعداد ملف له. وفي ١٩٣٠، كتب مككاي إلى ماكس إيستمان أن الحكومة البريطانية منعته من زيارة جبل طارق (كان مككاي لا يزال من رعايا بريطانيا) وأن مسئولا فرنسيا في فاس أخبره بأن 'الخدمة السرية البريطانية سجلتني كدعائي'. وبعد

ذلك بسنتين واجه مككاي مشكلة مع القنصل البريطاني في طنجة، ومنع من دخول الأراضي البريطانية - بما في ذلك وطنه جزيرة جامايكا. وفي السنة التالية، اشتكى إلى إيستمان من أن "هؤلاء الأوغاد البريطانيين القذرين الذين يعملون باحترام في الظلام" كانوا يعرقلون رجوعه إلى الولايات المتحدة". المرجع السابق، ص ١٢.

(١٣٧) انظر: هوكر، مرجع سابق، ص ٢٣، ٤٣.

(١٣٨) "ضيق الخناق على الراديكاليين في مستعمرات الكاريبي. حيث قضى بوتلر معظم فترة الحرب حبيسا. وفي جامايكا، كان باستامانتي حبيسا أيضا لفترة في ظل التنظيمات الدفاعية لفترة الحرب. وأظهرت البرقيات من القنصل الأمريكي في كنجستون كيف أن الحكومة الاستعمارية - في مواجهة ردود الأفعال المحلية - انتهزت فرصة السلطة المخولة لها بحكم التنظيمات الدفاعية لاحتجاز الأشخاص الذين يعتبرون "منتقدين بشدة" للإمبريالية البريطانية. وكان أحد هؤلاء المحتجزين ويلفريد دومينجو الذي كان يوصف بأنه "مواطن محلي من جامايكا كان مقيما في نيويورك لبضع سنوات، حيث لعب منها دورا نشطا في سياسة جامايكا. وقد أنزل من سفينة كانت تقله من الولايات المتحدة إلى جامايكا قبل أن ترسو فعلا في كنجستون ووضع في معسكر احتجاز... ومن المعلوم أن الأخبار المتعلقة بأنه كان في طريقه إلى جامايكا كانت قد أرسلت إلى السلطات البريطانية عن طريق شبكات المخابرات الأمريكية والبريطانية في الولايات المتحدة. وكانت المخابرات أحد الوجوه المهمة لتطور التعاون الأنجلوأمريكي وقت الحرب في الدفاع عن الكاريبي، وكان الأمريكيون يقومون بالدور الأكبر". فتز بابتست، مرجع سابق، ص ٤٥-٤٦.

(١٣٩) للاطلاع على تقييم معاصر للمثقفين الماركسيين البريطانيين، انظر مجموعة مقالات طومسون:

- Thompson, The Poverty of Theory, Merlin, London, 1978; and
- Perry Anderson, Arguments Within English Marxism Verso, London, 1980.

(140) James, Beyond a Boundary, op. cit., p. 122.

(141) Richard Small, op. cit., p. 17.

(142) Robert A. Hill, "In England, 1932-1938", op. cit., pp. 23-24.

- وقدم هيل دفاعا عن تروتسكية جيمس جاء فيه: "كان عدد كبير من أتباع تروتسكي، ليس في فرنسا فحسب، ولكن في كل حركات الطبقات العاملة الأوروبية - من أتباع لينين المخلصين الذين ساروا مع تروتسكي، على الرغم من أنهم لم يكونوا راغبين في التسامح مع خداع ستالين، لأنه كان يبدو أنه يوفر

إمكانية استمرار مبادئ لينين السياسية الثورية. وكانت الكوادر التي ارتبط بها جيمس في الحركة التروتسكية تحمل الفكر والممارسات السياسية للينين والبلشفية في ذروتها. و"يمكن تصنيف معظمهم على أنهم تروتسكيين بصورة ثانوية". حيث حصل جيمس منهم على معرفة هائلة بالتكوين الداخلي للحركة الاشتراكية الثورية والدور الخاص الذي لعبه الأعضاء البارزون في تطورها". (المرجع السابق، ص ٢٣). ويعتبر هذا التفسير للتروتسكية صحيحا بصورة جزئية فقط (ويوضح هيل أنه مدين لعمل فرانز بوركيناو - انظر بوركيناو، مرجع سابق، ص ٣٩٦). حيث يتضمن فعلا عبادة الشخصية التي كان الستالينيون يرتاحون إليها، والتي كانت تلصق كثيرا بمن يعارضونهم (إن تاريخ الحركة الشيوعية في الدول الغربية مفعم بالمصطلحات المعروفة التي تنتهي باللواحق التي تدل على الانتماء)، ولكنها تحل ستالين وتروتسكي محل لينين بنفس المنطق). وأنا أستطيع أن أخمن فقط معنى "العمال البارزون"، وإذا كنت قد خمنت بطريقة صحيحة، فإنه يشير إلى أحد العيوب الخطيرة في فكر جيمس، وهو ما سوف استكشفه في هذه المعالجة لثورة هاييتي. وأخيرا، يقدم جيمس في عمله "ملاحظات على النهج الجدلي" (Allison and Busby, London, 1980)، وهو مخطوط يجب على هيل القيام بالكثير للحفاظ عليه، تفسيرا تاريخيا عميقا للتروتسكية، وهو تفسير يضع هذه "الظاهرة" في تاريخ التطور التقدمي للطبقات العاملة. وسوف أحاول توضيح هذا بدرجة أكبر في النص لاحقا.

(143) Sylvia Wynter, "In Quest of Matthew Bondsman: Some Cultural Notes on the Jamaican Journey", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 54.

(144) James, Beyond a Boundary, op. cit., p. 34.

(145) Ibid., p. 47. For Thackeray, see Margaret Forster, William Makepeace Thackeray: Memoirs of a Victorian Gentleman, Quartet, London, 1980.

(146) James, Ibid., p. 37.

(147) See J. A. Mangan, Athleticism in the Victorian and Edwardian Public School. Cambridge University Press, Cambridge, 1981.

- حيث يعتقد مانجان أن دور آرنولد كان مبالغا فيه، ولكنه يؤكد بصفة عامة معالجة جيمس السابقة لظاهرة المدارس العامة؛ انظر مانجان، الفصل الأول.

(١٤٨) جيمس، وراء الحدود، مرجع سابق، ص ١٥٨-١٦٠. ويعلن جيمس أن جريس كان أشهر إنجليزي في عصره، أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويتأسف جيمس على حقيقة أن أيا من تريفيليان أو بوستجيت أو كول في تأريخه لهذا القرن لم يجد مكانا له. ولكنه عندما أعلن أنه: "لم يعد يستطيع أن يقبل نظام القيم الذي لم

يستطع أن يجد مكانا في هذه الكتب لجريس (المرجع السابق، ص ١٥٧)، كان يبدو أيضا أنه قد توصل إلى التوافق مع نوع من الماركسية التي لا تملك لا الخيال ولا الملاءمة السياسية. حيث توافق مع العلاقة بين الثقافة وسلطة الطبقة والسيطرة الاقتصادية التي اختزلت حتى ماركس إلى مجرد اعتراف غامض بالحيرة (انظر موقف ماركس من النموذج الغربي في الفن الإغريقي في عمله: (A Contribution to the Critique of Political Economy). وأدرك جيمس أنه استطرد بعيدا: "حيث صدمه هذا الاقتران كما صدم القليلين من دارسي المجتمع والثقافة في التنظيم الدولي الذي أنتمي إليه". المرجع السابق، ص ١٥١. وعلى الرغم من أنه من الصعب أن تقول ذلك، فإنه سيلفيا ونتر تؤكد تقييم جيمس الذاتي: "إن التطور المشترك لأشكال شعبية جديدة من التنظيم الاشتراكي، أي منظمات نقابات العمال، الأحزاب السياسية، التنظيم الدولي، الأشكال التنظيمية من الكفاح من أجل الديمقراطية الشعبية، مع ظهور الرغبة في الرياضات المنظمة في إطار هذا العقد، ١٨٦٠-١٨٧٠، يقدم الأساس لانعكاس جيمس على تعقيد الحاجات الإنسانية، ولتأكيده الضمني على أن "تحقيق سلطة المرء على كل من المستويين الفردي والجماعي يمثل الأمر الأكثر إلحاحا على الإطلاق... وكان هذا بمثابة توافق صدم جيمس لأنه - على عكس تروتسكي - انتقل خارج إطار "العمل" أحادي المفهوم إلى الإطار الأوسع للتنظير الشعبي". وينتر، مرجع سابق، ص ٥٨.

(149) See Basil Wilson, op. cit., pp. 49-50;

- وانظر أيضا تعليقات إيريك ويليامز القليلة على جيمس في سيرته الذاتية، "الجوع الداخلي"، مرجع سابق.

(١٥٠) انظر طومسون "المقدمة" ومقال "فقر النظرية"، مرجع سابق.

(151) E. P. Thompson, "The Politics of Theory", in Raphael Samuel (ed.), People's History and Socialist Theory, Routledge and Kegan Paul, London, 1981, p. 397.

(152) James, Beyond a Boundary, op. cit., p. 150.

(١٥٣) لا تزال آثار تنشئة جيمس "الفيكتورية" باقية حتى هذا اليوم، وتحظى باهتمام كامل أحيانا في هذا المجلد. "كان الإغريق الأكثر تفتحا سياسيا، وكانوا الأكثر إبداعا فكريا وفنيا من بين شعوب العالم". المرجع السابق، ص ١٥٤. وهذا حكم يصعب مراعاته أو حتى احتماله.

(١٥٤) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(١٥٥) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(١٥٦) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(١٥٧) "قال ووردسوورث إن إنجلترا كانت تحتاج إلى الأخلاق، الفضائل، الحرية، والسلطة. ورأى آرنولد أنه كان لديها السلطة. وكانت الحرية بالنسبة إليه تتجسد في "قانون الإصلاح" الأول. ولكنه كان متأكدا من أن الأخلاق والفضائل كانت غائبة، وكان متأكدا أيضا من أن استمرار غيابها عن الواقع سينتهي إلى تدمير كل من السلطة والحرية. وكانت أجيال مفوهة قد روته كما روت تشارلز ديكنز. وكان آرنولد رجلا ذا مزاج متقلب. حيث قضى حياته معذبا بسبب الخوف من أن إنجلترا (والعالم الحديث كله في الواقع) سوف تنهار تماما بسبب ثورة اجتماعية، وأنها سوف تنتهي إما بالدمار أو بدكتاتورية عسكرية. وكان كل ما فعله من أجل مواجهة هذا. حيث كان يهدف إلى تكوين مجموعة من المتعلمين من الطبقات العليا الذين يستطيعون مقاومة جرائم المحافظين وجشع وخشونة الصناعيين من جهة، والدعاوى الاشتراكية لدى الجماهير المقهورة وغير المتعلمة من ناحية أخرى". المرجع السابق، ص ١٦٠.

(١٥٨) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(159) John Rae, "Play Up, Play Up", Times Literary Supplement, 2 October 1981, p. 1120.

(160) James, Beyond A Boundary, op. cit., p. 164.

(161) Ibid.

(162) Alan McKinnon, "Communist Party Election Tactics", op. cit., p. 23.

(163) See Henry Pelling, A History of British Trade Unionism, Penguin, Harmondsworth, 1976.

(١٦٤) انظر آلان مككينون، مرجع سابق، ص ٢٢-٢٣. ويرى بوريدج أن أحد أسباب حيوية حزب العمل الجديدة: "على الرغم من أن الحزب لم يتبن رسميا موقفا سلميا صريحا، فإن مسالما مخلصا، مثل جورج لانسبوري، كان قائد الحزب من ١٩٣٢-١٩٣٥. وكذلك، فسرت النظرية الاشتراكية الحرب بمصطلحات اقتصادية بأنها صدام الإمبرياليات المتنافسة - أي آخر مراحل الرأسمالية وأكثرها تحللا. وحتى قبل نهاية الثلاثينيات المضطربة، كانت دعوة الحزب إلى منهج الأمن الجماعي لا ترتبط كثيرا بفكرة أن اكتساب الحلفاء ستكون أفضل وسيلة لخوض الحرب. وبدلا من ذلك، تم التركيز كثيرا على حجة أن سياسة الأمن الجماعي ستكون أفضل وسيلة لمنع اندلاع حرب كبرى".

- "British Labour and Hitler's War", Andre Deutsch, London, 1976, pp. 17-18;

- وانظر أيضا نقد جيمس الدقيق لسياسات حزب العمال:

- C. L. R. Jame, "The British Vote for Socialism", in The Future in the Present, op. cit., pp. 106-18 (orig. published 1945).

(١٦٥) يتذكر بيتر بلاكمان الذي ترك الباربادوس في أوائل الثلاثينيات أن دو بويز كــان شخصية مهمة بالنسبة إلى السود في جزر الهند الغربية الذين كــانوا يحــاولون تكوين هويتهم السلالية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى. وقد نتج هذا أساسا عن ظهور مجلة "الأزمة". مقابلة، لندن، ١٨ نوفمبر ١٩٨١. ويظهر جيمس تأثير "إعادة بناء السود" على تفكيره في الثلاثينيات في عدة أماكن، انظر مثلا:

- "Nkrumah and the Ghana Revolution", Lawrence Hill, Westport, 1977, pp. 74-75; "The Making of the Caribbean People", loc. Cit., p. 179;
- Du Bois, in The Future in the Present, op. cit., 202-12;
- George Shepperson and Tom Price, Independent Africa, Edinburgh University Pres, Edinburgh, 1958;
- C. J. Robinson, "Notes Toward a 'Native' Theory of History", Review 4, no. 1) Summer 1980): 45-78 (Shepperson's response follows: "Ourselves as Others", Ibid., pp. 97087);
- for Lamine Senghor, see Geiss, op. cit., pp. 310ff;
- and for Kimbangu, Vittorio Lantenari, Religions of the Oppressed, Alfred Knopf, New York, 1963.

(١٦٦) ماكونين، مرجع سابق، ص ١١٦.وبالنسبة إلى استجابات الأمــريكيين الأفارقــة على الحرب الإيطالية الإثيوبية، انظر:

- S. K. B. Asante, "The Afro-American and the Ital-Ethiopia Crisis, 1934-1936", Race 15, no. 2 (October 1973): 167-84;
- Hayood, Black Bolshevik, op. cit., pp. 448ff; and
- Robert G. Weisbord, Ebony Kinship, Greenwood Press, Westport, 1973, pp. 102-10.

– وبالنسبة إلى الإمبريالية الإيطالية، انظر:

- Miege, L'imperialisme Colonial Italien de 1870 a Nos Jours, SEDES, Paris, 1968, chaps. 13 and 14.

(١٦٧) انظر ماكونين، مرجع سابق، ص ١١٤، للاطلاع على انطباعاته عــن جــيمس. حيث فصل جيمس موقفه في:

- Fenner Brockway's New Leader, in an article entitled "Is This War Necessary?", 4 October 1935, p. 3.

– وانظر أيضا:

- James Maxton and Fenner Brockway, "The War Threat", New Leader, 22 March 1935, pp. 1,3; and

- Brockway, "What Can We Do about Mussolini?", New Leader, 19 July 1935, p. 2.

(168) See James, "Is This War Necessary?", op. cit., p. 3; and the report of James's report at the Spring Conference of the ILP, "The Abyssinian Debate", New Leader, 17 April 1936, p. 4.

- وبالنسبة إلى رأي جيمس في هيلا سيلاسي، انظر ماكونين، مرجع سابق، ص ١١٤، ١٤٨.

(١٦٩) جايس، مرجع سابق، ص ٢٨٠-٢٨١. ويتذكر ماكونين أنه: "يقال... إن عددا من الإثيوبيين المهمين مثل [ووركينيه] مارتن وهيروي... اعتبروا أنفسهم ليسوا زنوجا. وفي الحقيقة، كان يقال إن الإثيوبيين أظهروا نفس هذا الموقف، بعد تتويج هيلا سيلاسي، عندما جاءت بعثة إلى أمريكا. وكان د. ووركينيه مارتن عضوا فيها، ورفض أن يحاضر حتى في جامعة هوارد. وعندما عادت البعثة إلى إثيوبيا، اصطحبت معها اثنين أو ثلاثة فقط من الزنوج فاتحي البشرة، وكان هذا أيضا يبدو دليلا على أنهم يعتبرون أنفسهم من الشعوب البيضاء". "وقد أدى هذا التفضيل الواضح للمهجنين، ورفض الإمبراطور لاستقبال بعثة جارفي، إلى جعل جارفي يشعر بالمرارة تجاه هيلا سيلاسي حتى وفاته. وكانت هذه إحدى القضايا التي اعتدت أنا وجورج بادمور على الخلاف معه عليها، لأنه في ذلك الوقت في لندن، كان هيلا سيلاسي يجسد وحدتنا في أوروبا. ومع ذلك، فإنه من وقت وصول الإمبراطور إلى إنجلترا، كان جارفي ينتقده بشدة لأنه رجل - بدلا من أن يموت في ميدان المعركة حسب تقاليد القادة الإثيوبيين - هرب إلى إنجلترا طلبا للجوء، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الجبان - كما يدعي جارفي - قائدا لمثل هذه الأمة العظيمة؟" ماكونين، مرجع سابق، ص ٧٤-٧٥؛ وانظر أيضا وايزبورد، مرجع سابق، ص ١٠٠-١٠١، ١٠٣.

(170) James, "Fighting for the Abyssinian Empire", New Leader, 5 June 1936, p. 2.

(١٧١) ترجع بعض السلطات الاستعمارية اضطرابات أواخر الثلاثينيات في جزر الهند الغربية إلى الحرب الإيطالية الإثيوبية. ففي ١٩٣٨، أبلغ السير سيلسين جرير جمهوره في سمينار بجامعة أكسفورد عن الإدارة الاستعمارية بأن: "انعكاسات الحرب الإيطالية الحبشية كانت كبيرة وواسعة الانتشار. حيث رأت فيها شعوب جزر الهند الغربية هجوما غير مبرر من الأوروبيين على الأفارقة، وقد أدى هذا إلى إثارة مشاعر العداء السلالي".

- "Unrest in the West Indies", in Oxford University Summer School on Colonial Administration, op. cit., p. 61.

(172) See Hugh Thomas, The Spanish Civil War, Harper and Row, New York, 1961;

- Fernando Claudin, op. cit., pp. 210-42;
- Julian Symons, op. cit., pp. 106-22.

(١٧٣) كان هناك خمسة ألوية: اللواء الحادي عشر الألماني، المعروف بلـواء تيلمـان؛ واللواء الثاني عشر الإيطالي، المعروف بلواء جاريبالدي؛ واللواء الثالث عـشر السلافي، المعروف بلواء دومبروفسكي؛ واللواء الرابع عشر الفرنسي والبلجيكي؛ واللواء الخامس عشر الذي يتكون من المتطوعين البريطانيين (الإنجليز، الكنديين، والأيرلنديين)، والأمريكيين (كتيبة أبراهام لينكولن)، والكـاريبيين، وأمريكيـي أمريكا الوسطى والجنوبية (الكتيبة الأسبانية التاسعة والخمسين).انظر:

- Joseph Brandi (ed.), Black American in the Spanish People's War Against Fascism, 1936-1939, New Outlook Publishers, New York, n. d. [1979?];
- "A Negro Nurse in Republican Spain", The Negro Committee to Aid Spain, New York, 1938 (reissued by Veterans of the Abraham Lincoln Brigade, 1977);
- Salaria Kee (now O'Reilly) was the subject; Haywood, Black Bolshevik, op. cit., chap. 18;
- Interviews with Haywood (Santa Barbara, 6 February 1980) and
- James Yates (Binghamton, 26 April 1978).

– وكلاهما من محاربي إسبانيا القدماء السود. حيث يقدر براندت أنه فيما بين ٨٠ و١٠٠ من الأمريكيين السود تطوعوا في الحرب الأهلية الإسبانية. وبالنسبة إلـى نيـابونجو الأوغندي الذي حارب مع مناهضي الفاشية في إسبانيا، انظر ملاحظة كينيث كنج في: ماكونين، مرجع سابق، ص ١٧٦، ملاحظة ١٦.

(١٧٤) بالنسبة إلى الاضطرابات في ترينيداد، انظر:

- Eric Williams, History of the People of Trinidad and Tobago, People's National Movement Publishing Co., Port-of-Spain, 1962, pp. 2132-42;
- Brinsley Samaroo, "Politics and Afro-Indian Relations in Trinidad", in J. La Guerre, op. cit., pp. 84-97;
- for Jamaica, see Ken Post, Arise Ye Starvelings: The Jamaican Labour Rebellion of 1938 and Its Aftermath, Martinus Nijhoff, The Hauge, 1978.

(175) Cited in Geiss, op. cit., p. 346.

(١٧٦) كان هذا موقف جيمس الذي تبناه في لقاءاتـه مـع تروتـسكي فـي المكـسيك في ١٩٣٩. انظر:

- James, "The Revolutionary Answer to the Negro Problem in the USA", in The Future in the Present, op. cit., pp. 119-27.

– وللاطلاع على المناقشات مع تروتسكي في كويوكان، انظر:

- George Breitman (ed.), Leon Trotsky o Black Nationalism and Self-Determination, Merit Publishers, New York, 1972, pp. 24-48;
- Tony Martin, "James and the Race/Class Question", Race 2 (1972): 183-93; and
- Paul Buhle, "Marxism in the USA", in Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 28-39.

(177) James, "'Civilising the Blacks'", New Leader, 29 May 1936, p. 5.

(١٧٨) ويضيف روبرت هيل عنصرا طريفا ومثيرا إلى تحليل تطور وعي جيمس: "على المستوى الجوهري المرتفع، "هز" روبسون كرجل مفهوم جيمس الاستعماري عن بنية جسم السود. إذ إن البنية القوية لروبسون أعطته تقديرا جديدا للقدرات القوية غير العادية التي يملكها الأفارقة، في كل من العقل والجسد. حيث حطم روبسون القالب الذي وضع فيه المفهوم الهندي الغربي للشخصية البدنية لدى جيمس. فقد كان ذلك الوقت الذي ترعرع فيه الهنود الغربيون السود على نمط غير واع للرجال والنساء الإنجليز البيض باعتبارهم المعايير المطلقة للكمال والتطور البدني. ولم تكن مواجهة جيمس مع روبسون أكثر ظهورا مما كانت عليه في إرغامه على التخلي عن هذه القيم الموروثة". ومن هنا جاء ادعاء الكاتب الحالي أن عمل "اليعاقبة السود" كان يمكن أن يكون مختلفا كثيرا من حيث الجودة في حالة عدم وجود علاقة بين جيمس وروبسون". "في إنجلترا، ١٩٣٢-١٩٣٨"، مرجع سابق، ص ٢٤-٢٥. لقد قابل جيمس روبسون في ١٩٣٦، حيث قام روبسون بالدور الرئيس في إنتاج مسرحية جيمس "توسنت لوتشير". وقد حددت دوروثي بوتلر جيليام في سيرتها الذاتية لروبسون مكان وموعد هذا اللقاء وإنتاج المسرحية في مسرح وستمنستر في أوائل ١٩٣٦.انظر:

- Gillam, Paul Robeson: All-American, New Republic Books, Washington, 1976, pp. 87-88.

– وبالنسبة إلى رأي جيمس في ماركسية روبسون، انظر المرجع السابق، ص ١٢٧،

- James, "Paul Robeson: Black Star", in Spheres of Existence, op. cit., pp. 261-62.

(١٧٩) انظر انتقادات جيمس لبادمور في هذا الموضوع:

- Nkmah and the Ghana Revolution, op. cit., p. 63;

– وبالنسبة إلى كينياتا، انظر موراي براون، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(١٨٠) جيمس، المرجع السابق، ص ٦٩، ٧١. وبالنسبة إلى جيمس في الولايات المتحدة، انظر:

- "James and the Race/Class Question", op. cit., pp. 184-85;

- Buhle, "Marxism in the USA", op. cit., passim.

(١٨١) لخصت هذه الرؤى في القرارات النهائية التي اتخذها مؤتمر الرابطة الأفريقية الخامس في مانشستر، ١٩٤٥: "حيث أخذ أول هذه القرارات - "تحدي القوى الاستعمارية" - خطا وسطا بين الاندفاع الثوري لدى بادمور ونكروما من ناحية، ومفهوم دو بويز الأكثر حرصا في ١٩٤٤، من ناحية أخرى. "كان المبعوثون إلى مؤتمر الرابطة الأفريقية الخامس يؤمنون بالسلام.... ومع ذلك، فإذا كان العالم الغربي لا يزال مصرا على حكم البشرية بالقوة، فإن الأفارقة - وكملاذ أخير - قد يلجأون إلى القوة في سعيهم لتحقيق الحرية، حتى إذا أدت القوة إلى تدميرهم وتدمير العالم أيضا". وكان البيان العام الثاني يتمثل في "إعلان إلى العمال والمزارعين والمثقفين في المستعمرات"، والذي صاغه نكروما، والذي يعبر من جديد عن الرغبة غير المحدودة في الاستقلال: في مواجهة هذا الاستغلال الإمبريالي، يجب على شعوب المستعمرات التركيز على تحقيق القوة السياسية، ولتحقيق هذا الغرض، يعتبر التنظيم الفعال ضروريا. وتمثلت الأساليب المطروحة في الإضراب والمقاطعة - أي الأساليب غير العنيفة للكفاح". جايس، مرجع سابق، ص ٤٠٧.

(182) James, Nkrumah and the Ghana Revolution, op. cit., pp. 73-74.

(١٨٣) حتى وقت قريب، ١٩٧٧، كان جيمس يعلن: "إن المثقف الأفريقي هو الذي يحتل القمة. ويجب أن ينجح، وإلا فإن أفريقيا المستقلة ستغرق: فعلى عكس بريطانيا في القرن السابع عشر، أو فرنسا في القرن الثامن عشر، ليس هناك طبقة يمكن أن ترجع إليها الأمة بعد أن يقود المثقفون الثورة إلى أبعد مدى". المرجع السابق، ص ١٥.

(١٨٤) يرى أزينا نوافور - في أحد أشد انتقادات حركة الرابطة الأفريقية - أن مؤتمر مانشستر يعتبر من اللحظات الأكثر تقدمية في الرابطة الأفريقية. ومع ذلك، يقول نوافور: " لم تقدم الرابطة الأفريقية خيارا ثوريا لتحرير أفريقيا من قرون الغزو والهيمنة والاستغلال الاستعماري. ولكن يجب عدم تقليل قيمة الدور التقدمي بالضرورة والذي لعبته الحركة في اقتراب أفريقيا من حالة الاستقلال، إلا أن القيود الشديدة على النطاق والأسلوب ساهمت بدرجة كبيرة في تشتت المشهد الأفريقي المعاصر، والتخلص من وهم ثمار الاستقلال السياسي. ويبدو أن المراكز العاصفة للاضطرابات الشعبية للتحرر الأفريقي كانت في الواقع تتقدم

بمساعدة أعضاء الرابطة الأفريقية، الذين قدموا أنفسهم للسلطات الاستعمارية باعتبارهم القوى الوحيدة القادرة على كبح عنف الجماهير". "وفي جوانب عديدة، كانت منظمة الوحدة الأفريقية تمثل قمة تجسيد تلك الرابطة الأفريقية التي أرخ لها بادمور. حيث بدأت كحركة سياسية في المنفى، وانتقلت إلى مجموعة من القيادات الأفريقية المتطلعة والمخلصة، الذين قادوا دولهم المختلفة إلى الاستقلال السياسي، وكانت الرابطة الأفريقية حركة محمولة على أعناق وعلى حساب الشعوب الأفريقية ذاتها. ففي أديس أبابا (في ١٩٦٣) صمم هذا الجيل من القادة الأفارقة على تحويل نفسه إلى نوع جديد من "التحالف المقدس" للحفاظ على الوضع القائم الذي ورثوه من سادتهم الاستعماريين. وكان نفورهم من الثورة السياسية شديدا. فكما قال أحدهم بصراحة شديدة: "عندما نتحدث إلى أنفسنا، فإننا نفضل الأشياء على ما هي عليه".

- **Nwafor's "Introduction" to the 1972 reissue of Padmore's Pan-Africanism or Communism, op. cit., pp. xxxvii-xxxviii, xxxix-xl.**

(185) James, The Black Jacobins, op. cit., pp. 375-76.

- وسوف نشير إلى ترقيم الصفحات التالي خلال مناقشات العمل في النص.

(186) Cabral, "The Weapon of Theory", in Revolution in Guiana, Monthly Review Press, New York, 1969, p. 102.

- وتساءل كابرال مبكرا في نفس الخطاب (الذي ألقاه في مؤتمر للقارات الثلاث في هافانا، كوبا، يناير ١٩٦٦): "هل يبدأ التاريخ فقط مع تطور ظاهرة "الطبقة"، وبالتالي الصراع الطبقي؟ فإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فإن ذلك يعني وضع كل فترة حياة الجماعات البشرية منذ اكتشاف الصيد ثم الزراعة المتنقلة والمستقرة، حتى تنظيم القطعان والملكية الخاصة للأرض، خارج التاريخ. وسوف يعني ذلك أيضا – وهو ما نرفض قبوله – أن الجماعات البشرية المختلفة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية كانت تعيش بلا تاريخ، أو خارج التاريخ، في الوقت الذي كانت تئن فيه من قيد الإمبريالية. وسوف يعني أيضا اعتبار أن شعوب دولنا، مثل البالانتي في جويانا، والكوانياما في أنجولا، والماكوندي في موزمبيق، لا تزال تعيش اليوم خارج التاريخ، أو أنها ليس لها تاريخ، إذا جردناها من التأثير الطفيف للاستعمار الذي كانت خاضعة له". المرجع السابق، ص ٩٥.

(١٨٧) كان ماركس، إنجلز، لينين، وتروتسكي من الأيديولوجيين البرجوازيين من حيث أصولهم الاجتماعية وتعليمهم. ويبدو أن ماركس وإنجلز اعترفا بذلك في "البيان الشيوعي": "وهكذا فإن نسبة من البرجوازية تنتقل الآن إلى البروليتاريا، وبصفة

خاصة، هذه النسبة من الأيديولوجيين البرجوازيين الذين رفعوا أنفسهم إلى مستوى إدراك الحركة التاريخية ككل نظريا". وكذلك، وباستثناء إنجلز، لا يبدو أن أحدا منهم خصص وقتا كافيا لدراسة الطبقات العاملة. حيث كانت أعمالهم تركز غالبا على البرجوازية: تواريخها، دولها، إداراتها، تنظيم إنتاجها، وأيديولوجياتها وفلسفاتها. وكان الجميع ينظرون طبعا إلى العمليات التاريخية والاجتماعية لتفكك المجتمعات، أي الثورات، ولكن هذه كانت تمثل تناقضات المجتمعات البرجوازية. وكانت أيضا تمثل الحالة التي لم يهتم بها المثقفون البروليتاريون كثيرا في كتاباتهم. وقد أثار هذا التساؤل التالي: هل الماركسية نظرية من أجل البروليتاريا، أم أنها عن البروليتاريا؟ وقد أجاب ماركسي أمريكي على هذا السؤال بالطريقة التالية: بينما كان الماركسيون يحاولون في الواقع أن يأخذوا في حسبانهم ممارسات البروليتاريا، كانت نظريتهم تثبت أنها عائق أمامهم".

- Dick Howard, The Marxian Legacy, Macmillan, London, 1977, p. 274.

– ويبدو أن طومسون قد توصل إلى نتائج مماثلة في عمله "تكوين الطبقة العاملة الإنجليزية"، مرجع سابق، و"فقر النظرية"، مرجع سابق.

(١٨٨) في ١٩٤٩، كتب كورنيليوس كاستروياديس في "علاقات الإنتاج في روسيا": "لا يمكن أن تكون دكتاتورية البروليتاريا دكتاتورية سياسية ببساطة؛ بل يجب أن تكون الدكتاتورية الاقتصادية للبروليتاريا قبل كل شيء، وإلا فإنها ستكون مجرد قناع لدكتاتورية البيروقراطية". اقتباس ديك هوارد، مرجع سابق، ص ٢٦٦. وقد أثبت كاستروياديس أنه من الماركسيين الأشد انتقادا. حيث تشبه استنتاجاته استنتاجات جيمس التي توصل إليها قبل عشر سنوات في:

- World Revolution, 1917-1936: The Rise and Fall of the Communist International, Martin Secker and Warburg, London, 1937.

– ومن الطريف أن أوليفر كوكس الذي كان يكتب في ١٩٤٨ لم يتوصل إلى أنه يمكنه تسليط عينه الحادة والناقدة على الدولة الروسية؛ انظر:

- Caste, Class and Race, Monthly Review Press, New York, 1948, chap. 11.

(189) James, "The Making of the Caribbean People", op. cit., p. 180.

(١٩٠) هذا هو الموقف الذي تبناه روبرت لاكرت:

- Robert Lacerte, "Xenophobia and Economic Decline: The Haitian Case, 18020-1843", The Americas 37, no. 4 (April 1981): 499-515.

(١٩١) أعاد مارفن وآنا هولواي إصدار الكتاب في ١٩٦٩ من خلال مطبعتهم Drum and Spear Press. وكانت هذه الطبعة بعنوان A History of Pan-African Revolt، وكانت تشمل "خاتمة" تفصل حركات السود فيما بين ١٩٣٩ و ١٩٦٩.

(١٩٢) يذكر ديفيد ويدجيري أنه: "عندما اجتاحت الكارثة "اليسار الألماني"، وتحول ستالين إلى ترويج التحالف اليائس مع "الجبهة الشعبية"، قام جيمس – الذي أصبح الآن محرر صحيفة "العصبة الاشتراكية الثورية" "الكفاح" – بزيارات سرية منتظمة إلى تجمع الثوريين في المنفى في باريس حول تروتسكي. ويقول جيمس "كانت تلك أياما عصيبة جدا"، مستخدما صفة 'عصيبة' بقدر تحمل تروتسكي. وكان هناك شاب ألماني نشط جدا في حركتنا. وفي أحد الأيام وجدناه في قاع نهر السين". وكان جيمس، مع هاربر، المبعوث البريطاني إلى المؤتمر التأسيسي للدولية الرابعة التروتسكية في ١٩٣٨. وكان هذا الشاب مفعما بأمل أنه – في المحرقة المتوقعة – يمكن أن تجد الدولية ذات الرؤية الواضحة طريقة للخروج من هذه الفوضى. ولكن تروتسكي والتروتسكية استسلموا فعلا للقمع الرهيب". "لقاء مع الرفيق جيمس في:

- Urgent Needs 12 (Summer 1981): 116.

(١٩٣) يعتقد توني مارتن أن جيمس كان متأثرا بتروتسكي في "مسألة الزنوج" لسبب جيد. انظر:

- Martin, "C. L. R. James and the Race/Class Question", op. cit., pp. 27-28.

– أما ما كان مفترضا أن يكون ثلاث نسخ أصلية مباشرة للمناقشات بين جيمس وتروتسكي وغيرهما، فقد نشر على النحو التالي:

- Leon Trotsky on Black Nationalism and Self-Determination, George Breitman (ed.), Merit Publishers, New York, 1967.

– ويمكن اكتشاف بعض ملامح هذه المراسلات في تعليقاتهم على "حق تقرير مصير السود":

– "جونسون: أنا سعيد جدا بهذه المناقشة، لأنني أتفق معك تماما. ويبدو أن الفكرة تتمثل في أمريكا التي يجب أن ندعو إليها كما فعل الحزب الشيوعي. ويبدو أنك تعتقد أن هناك احتمالا أكبر لمطالبة الزنوج بحق تقرير المصير بدرجة أكبر مما أراها. ولكننا نتفق تماما على الفكرة التي طرحتها بأننا يجب أن نكون محايدين في هذا التطور.

– تروتسكي: إن "رجعية" العالم هي ما يقلقني.

– جونسون: دعني أقتبس من الوثيقة [ورقة موقف جونسون]: "إذا كان يريد حق تقرير المصير، فمهما كانت الرجعية في كل الجوانب الأخرى، سيكون من شأن الحزب الثوري أن يرفع هذا الشعار". وأنا أرى أن فكرة الانفصال تمثل خطوة للوراء فيما يتعلق بالمجتمع الاشتراكي. فإذا مد العمال البيض أيديهم إلى الزنوج، فلن يحتاجوا إلى حق تقرير المصير.

- تروتسكي: هذا أمر مجرد جدا، لأن تحقيق هذا الشعار لا يمكن الوصول إليه إلا إذا شعر ١٣ أو ١٤ مليون من الزنوج بأن سيطرة البيض قد انتهت. ولكن الكفاح من أجل احتمال تحقيق دولة مستقلة يعتبر دلالة على اليقظة المعنوية والسياسية الكبيرة. وستكون هذه بمثابة خطوة ثورية هائلة.

وسيحقق هذا التصعيد أفضل النتائج الاقتصادية مباشرة". المرجع السابق، ص ٣١-٣٢. وكان "جونسون" هو جيمس طبعا.

(١٩٤) بالنسبة إلى بعض تجاربه في عمل ميسوري، انظر:

- James, "The Revolutionary Answer to the Negro Problem in the USA", and
- "Down with Starvation Wages in South-East Missouri", in The Future in the Present, op. cit.

(١٩٥) كانت "ملاحظات على النهج الجدلي" (أليسون وبوسبي، لندن، ١٩٨٠) في سلسلة الخطابات الأصلية من جيمس إلى زملائه في منظمة جونسون فوريست (انظر لاحقا). وكما يقول روبرت هيل (في اتصال شخصي) كانت تعرف بأوراق "الناظر". ويشير ديفيد ويدجيري إلى قول جيمس إن الخطابات كانت "كتبت في رينو عندما كنت أفكر في الطلاق". ويدجيري، مرجع سابق، ص ١١٦. وقام هيل - بالتعاون مع "مجموعة أصدقاء مواجهة الحقيقة" في ديترويت (التي كانت نواتها تضم الأعضاء القدامى في منظمة جونسون فوريست) بتحرير الخطابات في شكل كتاب في ١٩٦٦. وللاطلاع على بعض تاريخ مجموعة ديترويت، انظر:

- Dan Georgakas, "Young Detroit radicals, 1955-1965", Urgent tasks 12 (Summer 1981): 89-94.

(١٩٦) "على الرغم من أن الحزب الشيوعي وصل إلى أعلى رقم عضوية بحوالي ٨٠٠٠٠ خلال الحرب، فإنه أصبح طرفا فعليا في "رأسمالية الدولة" في روسيا وأمريكا، وذلك كما يشهد كل من معارضته الشديدة لخطة فيليب راندولف "الزحف على واشنطون"، ومساندته القوية "للتعهد بعدم الإضراب" وقيام الحكومة بالملاحقة القضائية للتروتسكيين في مينيابوليس. ومع الانشغال بغزو الجيش الأحمر لأوروبا الشرقية بعد الحرب - اندلعت "الثورة من الأعلى" بسجن أو قتل القوى الراديكالية والديمقراطية المعارضة، كما لو لم يكن هناك شكل آخر ممكن للتحرر - أظهر الاتجاه الشيوعي أن شيئا ما أكبر من مجرد "الخداع" قد حدث. إذ إن العضوية العرقية والسلالية بالحزب - والتي كانت بصورة ما تعوض الكوادر المحدودة خارج قيادة الاتحادات الصناعية - جنحت بعيدا. ومهما كان مستقبلها، فإن الراديكالية الأمريكية ستكون شيئا مختلفا جدا عما كانت عليه".

- Paul Buhle, "Marxism in the USA", op. cit., p.32.

(197) See Stanley Weir, "Revolutionary Artist", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 87;
- Tony Martin, "James and the Race/Class Question", op. cit., pp. 25-26.

(198) See W. Jerome and A. Buick, "Soviet State Capitalism? The History of an Idea", Survey 62 (January 1967); and Martin, ibid.

- وساهم دانيل بيل بصيغة ساخرة من التروتسكية الأمريكية، انظر مثلا:
- Marxian Socialism in the United States, op. cit., pp. 153-57.

(199) See Martin, ibid., and Georgakas, op. cit., passim.

(٢٠٠) جيمس، ملاحظات على النهج الجدلي، مرجع سابق، ص ٧. وسنوضح ترقيم الصفحات التالي في النص.

(٢٠١) "كان لدى لينين تصور عن الاشتراكية. ومن الملحوظ أنه حتى ١٩٠٥ كان يفكر في الاشتراكية من خلال الكوميون دائما. ولكنه تغير بعد ١٩١٧ – ولم يتغير بالنسبة إلى روسيا فقط، بل تغير بالنسبة إلى العالم كله. ويجب أن نفعل نفس الشيء. ولكننا لم نفعل ذلك. وذلك لأنه لو كنا فعلنا ذلك، لكنا تعرفنا في مقالات وأساليب لينين في روسيا من ١٩١٧-١٩٢٣ على أكبر مصدر محتمل للفهم النظري والرؤية لعالم اليوم". المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢٠٢) اقترب جيمس في إحدى المناسبات من الاعتراف بهذا اللغز: "الحزب يمثل معرفة البروليتاريا بوجودها. وبدون هذا الحزب لن تعرف البروليتاريا شيئا. ونحن هنا في قمة التطور الخاص بالمجتمع الطبقي. فالبروليتاريا هي الطبقة التاريخية الوحيدة التي يعتبر الحزب – أي الحزب السياسي – أمرا ضروريا لوجودها... إذ إن البرجوازية لم تجد الحزب السياسي أمرا ضروريا لوجودها أبدا. حيث يتمثل الشكل المميز للقوة السياسية للبرجوازية في تكوين الدولة، وكانت البرجوازية راضية ومزدهرة لفترات طويلة حتى بدون سيطرة سلطة الدولة. فالبرجوازية ليست في حاجة إلى تنظيم خاص للمعرفة. والمجتمع البرجوازي هو مجتمع الإنتاج الرأسمالي، ومن خلال موقعها كوسيط لرأس المال، فإن البرجوازية تمتلك تلقائيا معرفة رأس المال، والعلم، والفن، والدين، وجوهر سياسة البرجوازية الذي يتمثل في الحفاظ على الإنتاج الرأسمالي". "وباستثناء وجودهم كرقيق بأجر، فإن البروليتاريا ليس لهم تاريخ، باستثناء تاريخ منظماتهم السياسية الثورية. وليس هناك طبقة في التاريخ، باستثناء البروليتاريا (وهذا ليس مصادفة أبدا) استهدفت الوصول إلى سلطة الدولة بصراحة وجرأة ونظريا وعمليا. ويمثل تاريخ النظرية والتطبيق لهذه الظاهرة، غير المسبوقة في تاريخ الإنسانية، تاريخ الحزب السياسي البروليتاري". المرجع السابق، ص ١٧٢-٧٣.
وبالنسبة إلى كاسترويادیس، انظر عمله:
- "On the History of the Workers' Movement", Telos 30 (1976): 3-42; and Dick Howard, op. cit., chap. 10.

(٢٠٣) يشير انعكاس (ماركسي) لحظي إلى عدم ملاءمة تصور تروتسكي لروسيا كدولة "عمال منحطين"... إذ إن "الانحطاط" يتعلق بالشكل فقط، وليس بجوهر التكوين الاجتماعي الروسي. ولكن هذا يخلط بين الأشكال القانونية للملكية وعلاقات الإنتاج الحقيقية ذاتها. فبالنسبة إلى ماركس، كانت علاقات الإنتاج هذه تحديدا هي التي تحدد أشكال التوزيع وانعكاسها الفوقي (المشوه). إذ إن التذبذبات في تحليلات تروتسكي الخاصة - مثل تحليل مسألة "تيرميدور"، أو الأساليب التي يجب أن تتبعها "المعارضة" - تنبع من تحديد الشكل والمضمون. ديك هوارد، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٢٠٤) كان العمال هم الذين قاموا بالعمل النظري عن السوفيت.... وهم الذين فكروا في السوفيت. وهم الذين حللوا وتذكروا، وخلال أيام قليلة من ثورة فبراير، نظموا في المراكز الروسية الكبرى هذا التكوين الاجتماعي غير المسبوق. وقد رآه لينين هذه المرة". جيمس، ملاحظات على النهج الجدلي"، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٢٠٥) يقول فنسنت هاردنج أن: "أحد الأشياء التي أتذكرها بمزيج من الحزن والسخرية كان حوار طويل دار بين جيمس وهاري هايوود في منزلنا في أتلانتا. وكان هذا الحوار مركزا جدا - وقد وجدت أنه مثير للسخرية نوعا ما ومحزنا نوعا ما كما قلت، على الرغم من أن الكثير من تطور الحوار كان يحمل الدعابة في طياته - وذلك لرؤية هذين الرجلين الأسودين الخبيرين والموهوبين حقا يتحاوران بدقة حول أفضل تعبير عن أيديولوجية وتنظيم الماركسية. وأنا أعتقد أن هذا الحوار أخذهما معا بعيدا عن المسار العام للكثير من حياة السود، وأنه استنفد قواهما بعيدا عن هذا المسار العام. وكان لدي شعور بأنه كان يمكن أن يكون من الأفضل لو كان هذان الرجلان قد وجدا أرضية مشتركة وطرقا لاستخدام طاقتيهما بعيدا عن هذه الأنماط من الجدل الذي ظهر نتيجة لتجارب أواخر عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وأن هذا كان بمثابة جراح جديدة وتجارب قاسية جدا... وقد كان من الصعب جدا أن أشعر بالأهمية الحقيقية لبعض هذه الحوارات الأيديولوجية التي كانا يجريانها في ذلك الوقت".

- Interviews with Harding by Ken Lawrence, published as "Conversation", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 124.

(206) See John Bracey's "Nello", Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 125.

(207) Paul Buhle/Noah Ignatin/James Early/ Ethelbert Miller interview with James, Urgent Tasks 12 (Summer 1981): 82.

(١) كان النقد الاجتماعي والأدبي عند منكن، والروايات الراديكالية لسنكلير لويس وتيودور ردايزر، بمثابة مدخل رايت التشكيلي إلى الفكر الأمريكي. انظر:

- Michael Fabre, The Unfinished Quest of Richard Wright, William Morrow, New York, 1973, pp. 67-69.

- ومع ذلك، كان لديه علم مسبق بأن أديسون جايلي قال: "لقد اكتشف أن أعمال البيض كانت متهورة غالبا، وكانت المشاجرات تحدث معهم تلقائيا، وذلك لأسباب تبدو غير منطقية أو بدون أسباب مطلقا. وكان من بين وظائفه المبكرة وظيفة حمال في متجر ملابس يملكه رجلان من البيض، أب وابنه. وكانا يتمتعان بسمعة سوء معاملة السود. وقد شهد ضرب وصفع السود مرات عديدة، عندما كانوا يتأخرون عن السداد. وكانت واحدة من أحقر الحالات تتعلق بامرأة سوداء. حيث لم تكن قادرة على سداد دينها، فسحبها الرجلان إلى المتجر وقاداها إلى الغرفة الخلفية، حيث ضربت وركلت. وبعد ذلك ألقيت في الشارع شبه فاقدة الوعي. وظهر شرطي أبيض كما لو كان قد تم استدعاؤه، وحملق باحتقار في المرأة المصابة بالدوار، ثم ألقى القبض عليها بتهمة السكر. وغسل الرجلان أيديهما، وحملقا بشفقة في رايت".

- Gayle, Richard Wright: Ordeal of a Native Son, Anchor Press, Garden City, 1980, p. 35.

- ومن بين الأمثلة العديدة المشابهة لهذا، هناك مثالان آخران بارزان: "لم يستقبل تهديدات [البيض] بالقتل باستخفاف. فقد كان مثال بوب - أخ أحد زملائه - حديثا. إذ كان يشاع عن بوب - الذي كان يعمل في فندق يستقبل عاهرات من البيض - أنه متورط مع إحداهن. فحذره بعض البيض لإنهاء هذه العلاقة. ومهما كان السبب، فإنه لم يقطع هذه العلاقة، فتم إعدامه خارج القانون. وعندما عرض زميله القصة عليه، تأثر رايت بحزن صديقه، ولكنه شعر أيضا بشيء من القلق والخوف الذي أحدثته عملية القتل في كل مجتمع السود. حيث كانت هذه العمليات مصممة للسيطرة على السلوك وكبت الرغبة في التمرد بين السود". المرجع السابق، ص ٣٦. وقبل ذلك، كان إرهاب البيض أقرب من هذا. إذ إن أم رايت أخذت ولديها لتعيش مع أختها مارجريت وزوجها سيلاس. وفي إحدى الليالي لم يعد سيلاس: "وكانت الأجواء في المنزل يخيم عليها الصمت والانتظار اليائس. واستمر الطعام ساخنا في الفرن. وكان كل صوت

داخل أو خارج البيت يسمع بوضوح شديد. وتبادلت الأختان التحديق في الضباب المبكر. وفي وقت لاحق، تنبها إلى طرق على الباب. ولم تكن هذه طرقة سيلاس. بل كانت طرقة الرسول اللعين، أحد السود المجهولين، حيث كان يبلغ رسائل الكوارث بصورة سرية، أحيانا في ظلام الليل أو في الصباح الباكر. وكانت الرسالة قصير ودقيقة: "لقد قتل البيض هوسكينز. وكان على أسرته أن تبقى بعيدا عن المدينة. ولن تكون هناك طقوس نهائية". المرجع السابق، ص ١٧. وكان لمثل هذه التجارب، مع تخلي أبيه عن أسرته، وانهيار أمه وشللها، وإقامته القصيرة والمزعجة في دار الأيتام، آثار متوقعة على شخصية رايت. ولكن يمكن إرجاع معظمها بصورة مباشرة - وليس بصورة غير مباشرة - إلى أسسها في التاريخ الاجتماعي الأمريكي، خاصة حينما كانت عمالة السود تستخدم. ومن الصعب عند هذه النقطة - كما في مثال معالجة مارتن كيلسون النفسية المختزلة لرايت - أن نضعها في إطار "الهامشية". انظر مثلا:

- Kilson, "politics and Identity Among Black Intellectuals", Dissent (Summer 1981): 339-49.

(2) See James Baldwin, "The Exile" and "Alas, Poor Richard", in Nobody Knows My Name, Dial, New York, 1961.

- وكذلك تقارير إيلين رايت عن بالدوين ورايت في:

- Faith Berry, "Portrait of A Man as Outsider", Negro Digest, December 1968, pp. 27-37.

(3) See James Ford, "The Case of Richard Wright", Daily Worker, 5 September 1944.

(4) See Ben Burns, "They're Not Uncle Tom's Children", The Reporter 14, no. 8 (March 1956): 21-23;

- Gayle, op. cit., p. 272.

(5) See "Amid the Alien Corn", Unidentified author, Time, 17 November 1958, p. 28;

- وانظر أيضا تأملات جايلي، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(٦) يقول رايت - الذي كان يصل إلى وثائق مراقبة بشدة من جانب الخارجية الأمريكية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، والاستخبارات المركزية الأمريكية - إن الاستخبارات المركزية الأمريكية كانت "تراقب" محادثات رايت في وقت مبكر منذ أبريل ١٩٥١ (مرجع سابق، ص ٢١٩-٢٢١)؛ وإن قيام رايت "بقيادة 'الطائفة الفرانكوأمريكية' أثارت غضب أطراف في الجيش ومكتب التحقيقات الفيدرالي والاستخبارات المركزية الأمريكية والخارجية الأمريكية" (ص ٢٢١)؛ وإنه في داخل مجموعة المنفيين السود، التي تتكون من "الكتاب، الفنانين، الطلاب، والمؤلفين الموسيقيين،

والموسيقيين، وممثلي الجهات الحكومية المختلفة مثل اليونسكو وهيئة الاستعلامات الأمريكية... كان هناك عدد متزايد من العملاء أو المخبرين التابعين للاستخبارات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي والسفارة الأمريكية (ص ٢٠٧)؛ وإن ملفات هذه الجهات تشير إلى تزايد حركة المراسلات والتقارير والمراقبة على رايت منذ ١٩٥٦ حتى وفاته في ١٩٦٠ (ص ٢٦٢- ٢٦٣). وتناول رايت نفسه أنشطة الاستخبارات المركزية الأمريكية في حركة السود الأمريكيين وفي مجتمع المنفيين في فرنسا في عملين: مخطوطته غير المنشورة " جزيرة الهلوسة "Island of the Hallucination (والتي نشرت لاحقا تحت عنوان" جوع أمريكي "American Hunger) وخطابه للطلاب وأعضاء الكنسية الأمريكية في باريس(٨ نوفمبر ١٩٦٠)، بعنوان "وضع الفنان والمفكر الأمريكي الأسود في الولايات المتحدة". وقد لخص فابر تعليقات رايت في الخطاب، مرجع سابق، ص ٥١٨. وللمزيد عن رايت والاستخبارات المركزية الأمريكية، انظر:

- Constance Webb, Richard Wright, Putnam, New York, 1968, pp. 375-77, 396; and Faith Berry.

- وكان بول روبسون، من بين آخرين، يعاني معاملة مماثلة من الجهات الأمريكية في ذلك الوقت. انظر:

- Philip S. Foner (ed.), Paul Robeson Speaks, Brunner/Mazel, New York, 1978:

- "بالإضافة إلى إلغاء جواز سفر روبسون، ومنعه من مغادرة الأراضي الأمريكية من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٧، كان مسئولو الحكومة الأمريكية يحاولون أيضا التأثير على الرأي العام ضد روبسون: لمنع حكومة أخرى من "تكريم روبسون كإنساني عظيم وناشط في مجال حقوق الإنسان"؛ ومنع روبسون من العمل في الخارج في مجال غير سياسي؛ وتبديد تأثيره السياسي بنشر منشورات تحوي أخبارا ضده؛ واستخدام أو تشجيع إصدار بيانات من قادة سود آخرين ضده" (ص ٤).

(7) See Hoyt Fuller's interviews with Chester Himes in Black World 21 (march 1972): 93

- Webb, op. cit., pp. 312, 417;
- Gayle, op. cit., pp. 135-36.

- وكان شاين محققا في هيئة "لجنة التحقيق الفرعية التابعة لمجلس الشيوخ" برئاسة السيناتور جوزيف مكارثي. ومثل روي كوهن، يبدو أن شاين كان أحد الخطوط العديدة بين مكارثي و"النخبة" التي منح تأييدها السلطة لمكارثي. انظر:

- Michael P. Rogin, The Intellectuals and McCarthy, MIT Press, Cambridge, 1967, p. 250.

(٨) لم يكن لدى ريتشارد وإيلين رايت أوهام كثيرة بشأن أعدائهما، ولكن الأدلة الحاسمة كان يصعب الوصول إليها. انظر بيري، مرجع سابق، ص ٣٤. وكان بعض معارف رايت يشكون في وجود "حملة" ضده، ولكن آخرين وجدوا أنـــه مـــن المعقـــول أن يفترضوا وجود مثل هذه الحملة، انظر:

- Ollie Harrington, "The Mysterious Death of Richard Wright", Daily World, 17 December 1977.

- تجعل مراجعة جايلي لملفات جهات الاستخبارات الأمريكية "النظيفة" النمط الـــذي كان سائدا أقرب إلى الوضوح. فلا تزال هناك مشاكل مزعجـــة بـــسبب الوثـــائق المفقودة والوثائق الخاضعة للرقابة بشدة: "في الحقيقة، فإن عدد الوثائق الخاضعة للرقابة في تلك السنوات الأخيرة المضطربة من حياة رايت يجعل مـــن الـــصعب معرفة مجرد مجالات حياته أو أنشطته التي كانت مستهدفة". جايلي، مرجع سابق، ص ٢٩٠-٢١٩.

(٩) نشر فابر الخطاب التالي من رايت إلى مارجيـــت دى ســـابلونييه فـــي ٣٠ مـــارس ١٩٦٠: "لا تقلقي من وجودي في خطر... فأنا لست مجهولا تمامـــا هنـــا، ولـــدي أصدقاء مقربون في مجلس ديجول ذاته. وبالطبع فأنا لا أريد أن يحدث لـــي شـــيء، ولكن إذا حدث شيء، فإن أصدقائي سيعرفون تماما من أين حدث هذا. وإذا أخبرتك بهذه الأشياء، فإنه يعني أنني أجعلك تعرفين ما يحدث. وفيما يتعلق بالأمريكيين حتى الآن، فإنني أسوأ من الشيوعي، لأن عملي يؤثر كثيرا علـــى سياســـتهم فـــي آســـيا وأفريقيا. وهذه هي المشكلة، فقد طلبوا مني مرارا العمل معهم: ولكني أفضل الموت على ذلك.... ولكنهم يحاولون إلهائي بكل أنواع الحيل الغبية". فابر، مرجع ســـابق، ص ٥٠٩. وتؤكد الملفات التي رآها جايلي أن تأكيدات رايت، حتى خارج توقعـــات فابر: "على الرغم من أنه بالغ في مدى وقصد بعض الهجمات، فإنني أعتقد أن العديد منها كان مصمما لجعله يفقد إحساسه بالحقيقة. وسواء كانـــت ناتجـــة عـــن غيـــرة شخصية، أو مكائد سياسية، أو ضغائن عنصرية، فقد كانت الرغبة في أذى رايت لا خلاف عليها". المرجع السابق، ص ٥٢٤-٥٢٥. وبعد ذلك بسبع سنوات، كان جايلي أكثر ارتيابا: "إن إغراء التوصل إلى استنتاجات تتفق مع مـــن يعتقـــدون أن مكتـــب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات الأمريكية كانا متورطين مباشرة في مـــوت رايت المفاجئ، يعتبر إغراء كبيرا. ومع ذلك، يعتبر القيام بهذا اعتمادا على حقـــائق الوثائق أمرا خطأ. فأنا لم أجد، "ولا أتوقع أن أجد"، أدلة تؤيد هذا التأكيد لدى عـــدد كبير من أصدقاء الكاتب. وما وجدته يمثل نوعا من المضايقات من جانـــب جهـــات حكومية أمريكية، والتي تشبه أحيانا الثأر الشخصي أكثر من تحقيق جمع معلومـــات استخباراتية". جايلي، مرجع سابق، ص XV. ومع ذلك، يعتقد جايلي أن هناك شيئا ما

مفقودا في الوثائق: "ومع ذلك، يمثل دور وزارة الخارجية موضوعا آخر، لأنه هنا حدث الثأر الظاهر. فالوثيقة الوحيدة التي يفترض أنها خرجت من وزارة الخارجية تضع رايت في وضع صعب. حيث تظهر الوثائق التي سربتها وزارة الخارجية إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي قدرا كبيرا من النشاط من جانب "الخدمة الخارجية" خلال الشهور الأخيرة من حياة رايت. ومعظم الوثائق فيها حذف كثير، ولذلك يصعب استيعاب محتواها بوضوح. وسواء كانت هناك أية صلة بين هذا النشاط وموت رايت، فلن يعرف ذلك إلا إذا نشرت الأقسام المحذوفة من الوثائق". المرجع السابق. وكذلك طبعا - كما قال جون ستوكويل، العميل السابق في وكالة الاستخبارات المركزية - كانت وزارة الخارجية في أوائل السبعينيات على الأقل قد طورت إجراءات اتصال تتعلق بعمليات سرية ترفض حتى الوصول إلى من قاموا بالاتصالات فيها. انظر:

- Stockwell, In Search of Enemies, Futura Publications, London, 1979, p. 93.

(١٠) كان العنوان: American Hunger (Harper and Row, New York, 1977)، يمثل العنوان الأصلي الذي اقترحه رايت (بين عناوين أخرى) لمخطوطه غير المنشورة "جزيرة الهلوسة Island of Hallucination". فابر، مرجع سابق، ص ٦١٦. وتمثل المادة التي نشرت تحت العنوان السابق إلى حد بعيد أجزاء من: رواية "صبي أسود: والتي نشرتها دار هابر في نيويورك (Harper, New York, 1945)، ثم حذفتها دار هاربر من تلك الطبعة. ويبدو أن داريل بنكني كان مخطئا عندما افترض في مراجعته لهذا العمل أن رايت نفسه كان مسئولا عن هذا الحذف. انظر:

- "Richard Wright: The Unnatural History of a Native Son", Village Voice, 4 July 1977, p. 80).

- وذلك لأن رايت نشر الكثير من هذه المادة في:

- Atlantic Monthly (August and September 1944)

- تحت عنوان: "حاولت أن أكون شيوعيا".

(11) Robert Bone, the Negro Novel in America, Yale University Press, New Haven, 1965, p. 158.

(12) Ibid., p. 160.

(13) See Bone, Ibid., and Addison Gayle, The Way of the New World, (Doubleday, Garden City, 1976)

- وذلك للاطلاع على هذه التوصيفات لأعمال رايت. ولأسباب وجيهة، لا يشير جايلي إلى العمل السابق في كتابته لسيرة رايت.

(١٤) بالنسبة إلى ساحل الذهب (غانا الآن)، انظر: تقرير رايت:

- Wright, Black Power (Harper, New York, 1954);
- Cedric J. Robinson, "A Case for Mistaken identity", paper presented to the African Studies Association Conference, Los Angeles, 1 November 1979.

(15) Fabre, op. cit., p. xviii.

(16) Harold Cruse, the Crisis of the Negro intellectual. William Morrow, New York, 1971, p. 182.

(17) ibid., p. 188.

(18) Richard Wright, "Blueprint for Negro Writing", New Challenge, Fall 1937, p. 61.

– وأعيد نشر هذا المقال في:

- Race and Class 21, no. 4 (1980).

(١٩) في وقت مبكر من تجربته الحزبية، وبينما كان رايت يفكر في رد فعل أمه على رعب الدعاية الشيوعية، توصل إلى استنتاج أن: "لديهم برنامج، ونموذج، ولكنهم لم يجدوا لغة بعد".

- Richard Grossman (ed.), The God that Failed, Harper, New York, 1965, p. 107.

(20) See Fabre, op. cit., pp. 89-200; and Webb, op[. cit., pp. 114-16.

(21) Daniel Aaron, "Richard Wright and the Communist Party", New Letters (Winter 1971): 178.

(22) Grossman, op. cit., pp. 107-8.

– للاطلاع على بعض المحاولات الطريفة الأخرى لتناول تطور فكر الطبقة العاملة الأمريكية، انظر:

- Stanley Feldstein and Lawrence Costello (eds.), The Ordeal of Assimilation, Doubleday, Garden City, 1974; and the special issue, "The Origins of Left Culture in the US: 1880-1940", Cultural Correspondence/Green Mountain irregulars 6-7 (Spring 1978).23- Wright, "Blueprint", op. cit., p. 59.

(24) See Alfred Meyer, Leninism, Praeger, New York, 1971, pp. 40—41; and

- Leonard Shapiro, "Two Years That Shook the World", New York Review of Books, 31 March 1977, pp. 3-4.

(25) See Geiss, op. cit., pp. 163-75, 213.

(26) Gayle, The Way to the New World, op. cit., chap. 8.

(27) James Baldwin, "Everybody's Protest Novel", in Notes of a Native Son, Dial Press, New York, 1955, p. 22.

(28) Sterling Brown's review in Opportunity, June 1940, p. 185.

(29) Clifton Fadiman's review in the New Yorker, 2 March 1940, p. 6.

(30) Grossman, op. cit., p. 106

(31) Ibid., p. 105.

(32) Ibid., p. 108.

(33) See Benjamin Gitlow, I Confess, op. cit., chap. 15 and 16;
- Joseph Starobin, American Communism in Crisis, op. cit., p. 22.

(34) See Wilson Record, The Negro and the Communist Party, op. cit.;
- Roger Kanet, "The Comintern and the 'Negro Question': Communist Policy in the United States and Africa, 1921-1941:, Survey, Autumn 1973, pp. 86-122.

(35) Fabre, op. cit., p. 137.

(36) Grossman, op. cit., pp. 141-42,

(37) Ibid., p. 1`46.

(38) Ibid.

(39) See Earl Browder, "Democracy and the Constitution", in The People's Front, Internationai Publishers, New York, 1938, pp. 235-48and
- Resolution on the Offensive of Fascism and the Tasks of the Communist international in the Fight for the Working Class Against Fascism:, Communist International, 20 September 1935, p. 951.

(40) Earl Browder, "The 18th Anniversary of the Founding of the Communist Party", in The People's Front, op. cit., p. 271.

(41) Ibid., p. 275.

(42) Browder, "Revolutionary Background of the United States Constitution", ibid., p. 266; and "Twenty Years of Soviet Power", ibid., p. 346.

(43) See Wilhelm Reich, "What Is Class Consciousness?", Sex-Pol: Essays 1929-1934, Lee Baxandall (ed.), Vintage Books, New York, 1972.

(44) Wright to Michael God, reported in Fabre, op. cit., p. 185.

(45) Wright, "How 'Bigger' was Born", introduction to Native Son, Harper, New York, 1966, p. xix.

(46) Ibid., p. xx.

(47) ibid., p. xxiv.

(٤٨) في أبريل ١٩٤٠، كتب رايت إلى جولد: "إذا كان يجب أن أتبع نصيحة بن ديفيد وأكتب عن الزنوج من منظور كيف ينظر إليهم الحزب من ناحية النظرية السياسية، فسأتخلى عن بيجر توماس. وسأصرح ضمنيا بأنهم مفقودون بالنسبة إلينا، وأن الفاشية ستنتصر، لأنها تستطيع وحدها أن تحشد ولاء هؤلاء الملايين الذين سحقتهم وشوهتهم الرأسمالية". فابر، مرجع سابق، ص ١٨٥-١٨٦.

(49) Wright, "How 'Bigger' Was Born", op. cit., p. xix.

(50) Ibid., p. xviii.

(51) Ibid., p. xvii.

(52) Ibid., p. xxiv.

(53) Wright, Native Son, op. cit., pp. 391-92.

(54) See Fabre, op. cit., pp. 184-87.

- وذلك للاطلاع على ردود أفعال أعضاء الحزب على هذه الرواية.

(55) Wright, "Blueprint", op. cit., p. 60.

(56) Jean Baudrillard, The Mirror of Production, Telos Pres, St. Louis, 1975.

(57) See Cornelius Castoriadis, "On the History of the Worker's Movement", Telos, Winter 1976/77, pp. 3-42.

(58) Wright, "Blueprint", op. cit., p. 54.

(59) Ibid., p. 58.

(60) Richard Wright, The Outsider, Harper, New York, 1953, pp. 118-19.

(61) See W. E. R. Du Bois, Black Reconstruction, op. cit., passim

(62) See Theodore Draper, American Communist and Soviet Russia, op. cit.; Dan Carter, Scottsboro, op. cit.; and Wilson Record, "The Negro and the Communism Party, op. cit.

(63) Wright, "Blueprint", op. cit., pp. 62-63.

(64) See Fabre, op. cit., pp. 365ff; and Webb, op. cit., p. 312.

(65) See Cedric J. Robinson, "The Emergent Marxism of Richard Wright's Ideology", Race and Class 19. No. 3 (1978): 221-37.

(66) Richard Wright, White Man Listen!, Doubleday, Garden City, 1957, pp. 34-35.

- وللاطلاع على وظيفة الأسطورة، انظر:

- Cedric J. Robinson, The Terms of Order, State University of New York Press, Albany, 1980.

(67) See Giovanni Piana, "History and Existence in Husserl's Manuscript", Telos 13 (April 1972): 86-164;

- Georg Luckas, "On the Responsibility of Intellectuals", Telos 2, no. 1 (Spring 1969): 123-31;
- William Leiss's review on Hussert and Paul Piccone's "Reading the Crisis", Telos 8 (Summer 1971): 110-21 and 121-29.

(68) Karl Marx, "Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right: Introduction", in Robert Tucker (ed.), The Marx-Engels Reader, W. W. Norton, New York, 1972, p. 12.

(69) Wright, The Outsider, op. cit., p. 129.

(70) Daniel Aaron, op. cit., p. 180.

(71) Wright, The Outsider, op. cit., p. 227.

(72) Ibid., p. 334.

(73) Richard Wright, "the Voiceless Ones", Saturday Review, 16 April 1960, p. 22.

- يمكن تطبيق تحليل سنغ لكروس على رايت (كما يرى): "في معارضة الشيوعية، لا يتخلى كروس عن الماركسية؛ ولكنه يحاول فقط القضاء على طغيان الحـــزب. وعند تبني الوجودية، فإنه لا يتخلى عن الماركسية، ولكنه يظهر وعيه بكل مـــن الوعي الاقتصادي والجمالي".
- Singh, "Marxism in Richard Wright's Fiction", Indian Journal of American Studies 4, nos. 1,2 (June/December 1974): 33-34.
- ولم يكن هذا تحديدا يمثل الموقف الذي تبناه كتاب آخرون خرجوا مـــن الحركـــة الشيوعية مثل جون ديجينز، انظر:
- Diggins, "Buckley's Comrades: The Ex-Communist as Conservative", Dissent, Fall 1975, pp. 370-81.

(74) Wright, White Man Listen!, op. cit., pp. 19-20.

(75) Wright, The Outsider, op. cit., p. 334.

(76) Karl Marx and Friedrich Engels, The Communist Manifesto, in Tucker, op. cit., p. 343.

(77) Wright, The Outsider, op. cit., p. 221.

(78) Marx and Engels, The Communist Manifesto, op. cit., p. 345.

(79) Wright, The Outsider, op. cit., pp. 176-77.

(80) Wright, "Blueprint", op. cit., p. 57.

المراجع

Aaron, Daniel. 1971. "Richard Wright and the Communist Party." *New Letters*, Winter.

Abrahams, Peter. 1957. *Jamaica*. Her Majesty's Stationery Office, London.

"Abyssinian Debate, The." 1936. *New Leader*, 17 April.

Adas, Michael. 1979. *Prophets of Rebellion: Millenarian Protest Movements against the European Colonial Order*. University of North Carolina Press, Chapel Hill.

Ajayi, J. F. A., and Michael Crowder (eds.). 1972. *History of West Africa*, vol. 1. Columbia University Press, New York.

Alavi, Hamza. 1965. "Peasants and Revolution." *The Socialist Register*.

Alho, Olli. 1976. *The Religion of the Slaves*. Finnish Academy of Science, Helsinki.

Alvares, Francisco. 1970. *Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Years 1520–1527*, ed. Lord Stanley of Alderley. Burt Franklin Publisher, New York.

Almond, Gabriel. 1965. *The Appeals of Communism*. Princeton University Press, Princeton.

"Amid the Alien Corn." 1958. *Time*, 17 November.

Anderson, James D. 1976. "Aunt Jemima in Dialectics: Genovese and Slave Culture." *Journal of Negro History* 61.

Anderson, Jervis. 1973. *A. Philip Randolph*. Harcourt Brace Jovanovich, New York.

Anderson, Perry. 1974. *Lineages of the Absolute State*. NLB, London.

——. 1979. *Considerations of Western Marxism*. Verso, London.

——. 1980. *Arguments within English Marxism*. Verso, London.

Anstey, Roger. 1975a. *The Atlantic Slave Trade and British Abolition, 1760–1810*. Humanities Press, Atlantic Highlands, N.J.

——. 1975b. "The Volume and Profitability of the British Slave Trade, 1761–1807." *Race and Slavery in the Western Hemisphere*, ed. Stanley Engerman and Eugene Genovese. Princeton University Press, Princeton.

Aptheker, Herbert. 1945. *Essays in the History of the American Negro*. International Publishers, New York.

——. 1964. *American Negro Slave Revolts*. International Publishers, New York (orig. 1943).

——. 1971. "The Historian." *W. E. B. Du Bois: A Profile*, ed. Rayford Logan. Hill and Wang, New York.

——. 1973. "Maroons within the Present Limits of the United States." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.

—— (ed.). 1976. *The Correspondence of W. E. B. Du Bois*, vol. 11. University of Massachusetts Press, Amherst.

Arendt, Hannah. 1958. *The Origins of Totalitarianism*. Meridian Books, Cleveland.

Aronowitz, Stanley. 1971. "Does the United States Have a New Working Class?" *The Revival of American Socialism*, ed. George Fischer. Oxford University Press, New York.

Asad, Talal (ed.). 1973. *Anthropology and the Colonial Encounter*. Humanities Press, New York.

Asante, S. K. B. 1973. "The Afro-American and the Italo-Ethiopia Crisis, 1934–1936." *Race* 15, no. 2.

Atanda, J. A. 1974. "British Rule in Buganda." *Tarikh* 4, no. 4.

Austen, Ralph. 1979. "The Islamic Slave Trade Out of Africa (Red Sea and Indian Ocean)." *The Uncommon Market: Quantitative Studies in the Atlantic Slave Trade*, ed. Henry Gemery and Jan Hogendorn. Academic Press, New York.

Avineri, Shlomo. 1968. *The Social and Political Thought of Karl Marx*. Cambridge University Press, Cambridge.

—— (ed.). 1969. *Karl Marx on Colonization and Modernization*. Anchor, Garden City.

Ayalon, David. 1953. "Studies on the Structure of the Mamluk Army, Part 2." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 15.

——. 1977. "Studies in Al-Jabarti." *Studies on the Mamluks in Egypt*. Variorum Press, London.

Azurara, G. E. de. 1896. *The Chronicle of the Discovery and Conquest of Guinea*, vol. 1, ed. C. R. Beazley and E. Prestage. Burt Franklin Publisher, New York.
Balandier, Georges. 1969. *Daily Life in the Kingdom of the Kongo*. Meridian Books, New York.
——. 1970. *Political Anthropology*. Pantheon, New York.
Baldwin, James. 1955. *Notes of a Native Son*. Dial Press, New York.
——. 1961. *Nobody Knows My Name*. Dial Press, New York.
Banton, Michael, and Jonathan Harwood. 1975. *The Race Concept*. Praeger, New York.
Baptiste, Fitz A. 1978. "The United States and West Indian Unrest 1918–1939." Working Paper No. 18, Institute of Social and Economic Research, University of the West Indies, Jamaica.
Bark, William C. 1958. *Origins of the Medieval World*. Stanford University Press, Stanford.
Barnett, Richard and Ronald Muller. 1974. *Global Reach*. Simon and Schuster, New York.
Barr, Stringfellow. 1959. *Mazzini, Portrait of an Exile*. Holt, New York.
Barraclough, Geoffrey. 1963. *The Origins of Modern Germany*. Capricorn Books, New York.
Barth, Heinrich. 1857. *Travels and Discoveries in North and Central Africa*. 5 vols. Longmans, Green and Co., London.
Batie, Robert Carlyle. 1976. "Why Sugar? Economic Cycles and the Changing Staples on the English and French Antilles, 1624–54." *Journal of Caribbean History* 8.
Baumer, Franklin L. 1944. "England, the Turk, and the Common Corps of Christendom." *American Historical Review* 50, no. 1.
Barzun, Jacques. 1932. *Race*. Harcourt Brace, New York.
——. 1966. *The French Race*. Kennikat, New York.
Baudrillard, Jean. 1975. *The Mirror of Production*. Telos, St. Louis.
Beach, D. N. 1979. " 'Chimurenga': The Shona Rising of 1896–97." *Journal of African History* 20, no. 3.
Beard, Charles. 1948. "Neglected Aspects of Political Science." *American Political Science Review* 43.
Beazley, C. Raymond. 1923. "Prince Henry of Portugal and His Political, Commercial and Colonizing Work." *American Historical Review* 17, no. 2.
Beckford, George. 1972. *Persistent Poverty*. Oxford University Press, Oxford.
Bell, Daniel. 1967. *Marxian Socialism in the United States*. Princeton University Press, Princeton.
Bell, Wendell. 1977. "Inequality in Independent Jamaica: A Preliminary Appraisal of Elite Performance." *Revista/Review Interamericana*, Summer.
Beltran, G. Aguirre. 1945. "Races in Seventeenth-Century Mexico." *Phylon* 6, no. 3.
Bender, Gerald. 1978. *Angola Under the Portuguese*. University of California Press, Berkeley.
ben-Jochannan, Yosef. 1971. *Africa: Mother of Civilization*. Alkebu-Lan, New York.
Bennett, Lerone. 1964. *Before the Mayflower*. Johnson Publications, Chicago.
Berlin, Ira. 1974. *Slaves without Masters*. Vintage, New York.
Berlin Isaiah. 1973. "Historical Materialism." *Karl Marx*, ed. Tom Bottomore. Prentice-Hall, Englewood Cliffs.
Bermant, Chaim. 1975. *London's East End*. Macmillan, New York.
Berry, Faith. 1968. "Portrait of a Man as Outsider." *Negro Digest*, December.
Berry, Mary F. 1971. *Black Resistance, White Law*. Appleton-Century-Croft, New York.
Bethell, Leslie. 1969. "The Independence of Brazil and the Abolition of the Brazilian Slave Trade: Anglo-Brazilian Relations, 1822–1826." *Latin American Studies* 1, no. 2.
Bidney, David. 1954. "The Idea of the Savage in North American Ethnohistory." *Journal of the History of Ideas*.
Bittle, William, and Gilbert Geis. 1964. *The Longest Way Home*. Wayne State University Press, Detroit.
Blackman, Peter. 1981. Interview with C. J. Robinson, London, 18 November.
Blackstock, Paul, and Bert Hoselitz (eds.). 1952. "Karl Marx and Friedrich Engels." *The Russian Menace to Europe*. Free Press, Glencoe.
Blake, John William. 1967. *Europeans in West Africa, 1450–1460*, vol. 1. Kraus, Nendeln.
Blassingame, John. 1972. *The Slave Community*. Oxford University Press, New York.
Bleby, Henry. 1853. *Death Struggles of Slavery*. William Nichols, London.
Bloch, Marc. 1966. *French Rural History*. University of California Press, Berkeley.
Bloom, Solomon. 1941. *The World of Nations*. Columbia University Press, New York.
Bone, Robert. 1965. *The Negro Novel in America*. Yale University Press, New Haven.
Bontemps, Arna. 1961. *100 Years of Negro Freedom*. Dodd, Mead and Co., New York.
Borkenau, Franz. 1971. *World Communism*. University of Michigan Press, Ann Arbor.
Bottomore, Tom (ed.). 1973. *Karl Marx*. Prentice-Hall, Englewood Cliffs.
Boxer, C. R. 1962. *The Golden Age of Brazil, 1695–1750*. University of California Press, Berkeley.
——. 1965. *Four Centuries of Portuguese Expansion, 1415–1825*. Witwatersrand University Press, Johannesburg.
——. 1975. *Women in Iberian Expansion, 1415–1815*. Oxford University Press, New York.
Boyd-Bowman, Peter. 1969. "Negro Slaves in Early Colonial Mexico." *The Americas* 26, no. 2.

Bracey, John. 1981. "Nello." *Urgent Tasks* 12.

Brandes, George. 1968. *Ferdinand Lassalle*. Bergman, New York (orig. 1874 and 1875).

Brandt, Joseph (ed.). n.d. *Black Americans in the Spanish People's War against Fascism 1936–1939*. New Outlook Publishers, New York.

Braudel, Fernand. 1973. *Capitalism and Material Life, 1400–1800*. Harper and Row, New York.

——. 1976. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, vols. 1 and 2. Harper and Row, New York.

Breitman, George (ed.). 1972. *Leon Trotsky on Black Nationalism and Self-Determination*. Merit Publishers, New York.

Brereton, Bridget. 1974. "The Experience of Indentureship: 1845–1917." *Calcutta to Caroni. The East Indians of Trinidad*, ed. John La Guerre. Longman Caribbean, Trinidad.

——. 1979. *Race Relations in Colonial Trinidad, 1870–1900*. Cambridge University Press, Cambridge.

Briggs, Asa. 1960. "The Language of 'Class' in Early Nineteenth-Century England." *Essays in Labour History*, ed. Asa Briggs and John Saville. Macmillan, London.

Brisbane, Robert. 1970. *The Black Vanguard*. Judson Press, Valley Forge.

Brockway, Fenner. 1935. "What Can We Do about Mussolini?" *New Leader*, 19 July.

Broderick, Francis. 1959. *W. E. B. Du Bois: Negro Leader in a Time of Crisis*. Stanford University Press, Stanford.

Broderick, Francis, and August Meier (eds.). 1965. *Negro Protest Thought in the Twentieth Century*. Bobbs-Merrill, Indianapolis.

Brody, David. 1960. *Steelworkers in America*. Harvard University Press, Cambridge.

Brook, G. L. 1958. *A History of the English Language*. W. W. Norton, New York.

Browder, Earl. 1935. "Resolution on the Offensive of Fascism and the Tasks of the Communist International in the Fight for the Unity of Working Class against Fascism." *Communist International*, 20 September.

——. 1938. *The People's Front*. International Publishers, New York.

Brown, Dee. 1971. *Bury My Heart at Wounded Knee*. Holt, Rinehart and Winston, New York.

Brown, Michael Barratt. 1974. *The Economics of Imperialism*. Penguin, Harmondsworth.

Brown, Sterling. 1940. Review of Richard Wright's *Native Son*. *Opportunity*, June.

Bucher, Carl. 1968. *Industrial Evolution*. August Kelley, New York. (orig. 1901).

Buckley, Roger Norman. 1979. *Slaves in Red Coats*. Yale University Press, New Haven.

Buhle, Paul. 1970. "American Marxist Historiography, 1900–1940." *Radical America*, November.

—— (ed.). 1981. *C. L. R. James: His Life and Work*, special issue of *Urgent Tasks* 12.

——. 1981. "Marxism in the U.S.A." *Urgent Tasks* 12.

Buhle, Paul, Noah Ignatin, James Early, and Ethelbert Miller. 1981. Interview with C. L. R. James. *Urgent Tasks* 12.

Buisseret, David, and S. A. G. Taylor. 1978. "Juan de Bolas and His Pelinco." *Caribbean Quarterly* 24, nos. 1, 2.

Burke, James. 1978. *Connections*. Little, Brown, Boston.

Burn, W. L. 1937. *Emancipation and Apprenticeship in the British West Indies*. Jonathan Cape, London.

Burns, Ben. 1956. "They're Not Uncle Tom's Children." *The Reporter* 14, no. 8.

Burridge, T. D. 1976. *British Labour and Hitler's War*. Andre Deutsch, London.

Butterfield, Herbert. 1957. *The Origins of Modern Science*. Free Press, New York.

Cabral, Amilcar. 1969. *Revolution in Guinea*. Monthly Review Press, New York.

——. 1973. *Return to the Source*. Africa Information Service.

Cairns, H. Alan. 1965. *Prelude to Imperialism*. Routledge and Kegan Paul, London.

Callinicos, Alex. 1976. *Althusser's Marxism*. NLB, London.

Calogeras, Joao Pandia. 1959. *A History of Brazil*. University of North Carolina Press, Chapel Hill.

Campbell, Mavis. 1974. "Aristotle and Black Slavery: A Study in Race Prejudice." *Race* 15, no. 3.

——. 1976. *The Dynamics of Change in a Slave Society*. Fairleigh Dickinson University Press, Rutherford.

Camporesi, Cristiano. 1972. "The Marxism of Sidney Hook." *Telos*, Summer.

Canetti, Elias. 1966. *Crowds and Power*. Viking Press, New York.

Canny, Nicholas. 1972. "The Ideology of English Colonization: From Ireland to America." *William and Mary Quarterly*, 3d ser., vol. 30, no. 4.

Cantor, Milton. 1966. "The Image of the Negro in Colonial Literature." *Images of the Negro in American Literature*, ed. Seymour Gross and John Edward Hardy. University of Chicago Press, Chicago.

——. 1978. *The Divided Left: American Radicalism, 1900–1975*. Hill and Wang, New York.

Cantor, Norman (ed.). 1963. *The Medieval World, 300–1300*. Macmillan, New York.

Carr, Edward H. 1961. *What Is History?* Vintage, New York.

Carter, Dan T. 1968. *Scottsboro: A Tragedy of the American South*. Oxford University Press, London.

Carus-Wilson, E. M., and Olive Coleman. 1963. *England's Export Trade, 1275–1547*. Oxford University Press, Oxford.

Casal, Lourdes. 1979. "Race Relations in Contemporary Cuba." *Minority Rights Group*, no. 7, London.

Case, Lynn. 1970. *Franco-Italian Relations, 1860–1865*. AMS Press, New York (orig. 1932).

Castles, Stephen. 1972. "The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism." *New Left Review*, no. 73.

Castles, Stephen, and Godula Kosack. 1973. *Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe*. Oxford University Press, London.

Castoriadis, Cornelius. 1976–77. "On the History of Workers' Movement." *Telos*, no. 30.

——. 1977. "The Relations of Production in Russia." *The Marxian Legacy*, ed. Dick Howard. Macmillan, London.

Castro, Americo. 1954. *The Structure of Spanish History*. Princeton University Press, Princeton.

Caute, David. 1964. *Communism and the French Intellectuals, 1914–1960*. Macmillan, New York.

Chace, William, and Peter Collier (eds.). 1970. *Justice Denied*. Harcourt, Brace and World, New York.

Chadwick, H. Munro. 1945. *The Nationalities of Europe and the Growth of National Ideologies*. Cambridge University Press, Cambridge.

Chamberlin, E. R. 1967. *Everyday Life in Renaissance Times*. Capricorn Books, New York.

Charney, George. 1968. *A Long Journey*. Quadrangle, Chicago.

Chilcote, Ronald. 1969. *Emerging Nationalism in Portuguese Africa*. Hoover Institution, Stanford.

Clammer, David. 1973. *The Zulu War*. St. Martin's Press, New York.

Clarke, John Henrik, Esther Jackson, Ernest Kaiser, J. H. O'Dell (eds.). 1970. *Black Titan: W. E. B. Du Bois*. Beacon Press, Boston.

Claudin, Fernando. 1975. *The Communist Movement: From Comintern to Cominform*. Penguin, Harmondsworth.

Clegg, Ian. 1971. *Workers' Self-Management in Algeria*. Monthly Review Press, New York.

Clough, Owen (ed.). 1933. *Report on African Affairs for the Year 1933*. Empire Parliamentary Association, Billings and Sons, Guildford.

Coffin, Joshua. 1970. "An Account of Some of the Principal Slave Insurrections." *Slave Insurrections, Selected Documents*. Negro University Press, Westport (orig. 1860).

Cohn, Norman. 1970. *The Pursuit of the Millennium*. Oxford University Press, New York.

Cole, G. D. H. 1953. *A History of Socialist Thought*, vol. 1, *Socialist Thought, The Forerunners, 1789–1850*. St. Martin's Press, New York.

——. 1954. *A History of Socialist Thought*, vol. 2, *Socialist Thought, Marxism and Anarchism, 1850–1890*. Macmillan, London.

Coleman, D. C. 1957. "Eli Heckscher and the Idea of Mercantilism." *The Scandinavian Economic History Review* 5, no. 1.

Conrad, Robert. 1972. *The Destruction of Brazilian Slavery, 1850–1888*. University of California Press, Berkeley.

Cook, M. A. (ed.). 1970. *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day*. Oxford University Press, London.

Cook, Sherburne, and Woodrow Borah. 1963. *The Aboriginal Population of Central Mexico on the Eve of the Spanish Conquest*. University of California Press, Berkeley.

Coolidge, Mary R. 1969. *Chinese Immigration*. Arno Press, New York (orig. 1909).

Cooper, Wayne, and Robert C. Reinders. 1968. "Claude McKay in England, 1920." *New Beacon Reviews*, Collection One (reprinted from *Race* 9, 1967).

Cornforth, Maurice (ed.). 1978. *Rebels and Causes*. Lawrence and Wishart, London.

Cox, Oliver. 1959. *The Foundations of Capitalism*. Philosophical Library, New York.

——. 1964. *Capitalism as a System*. Monthly Review Press, New York.

——. 1970. *Caste, Class and Race*. Modern Reader, New York (orig. 1948).

Craton, Michael. 1974. *Sinews of Empire*. Anchor, Garden City.

——. 1979. "Proto-Peasant Revolts: The Late Slave Rebellions in the British West Indies 1816–1832." *Past and Present*, no. 85.

——. 1980. "The Passion to Exist: Slave Rebellions in the British West Indies 1650–1832." *Journal of Caribbean History* 13.

Craven, Wesley Frank. 1956. *The Legend of the Founding Fathers*. New York University Press, New York.

——. 1971. *White, Red and Black*. University Press of Virginia, Charlottesville.

Crick, Bernard. 1959. *The American Science of Politics*. Routledge and Kegan Paul, London.

Cronon, E. David. 1955. *Black Moses: The Story of Marcus Garvey and the Universal Negro Improvement Association*. University of Wisconsin Press, Madison.

—— (ed.). 1972. *Marcus Garvey*. Prentice-Hall, Englewood Cliffs.

Crosby, Alfred W., Jr. 1977. *The Columbian Exchange*. Greenwood Press, Westport.

Crossman, Richard (ed.). 1965. *The God That Failed*. Harper, New York.

Crow, Jeffrey. 1980. "Slave Rebelliousness and Social Conflict in North Carolina, 1775–1802." *William and Mary Quarterly* 37.

Cruise-O'Brien, Rita. 1980. "Factors of Dependence." *Decolonization and After*, ed. W. H. Morris-Jones and Georges Fischer. Frank Cass, London.
Cruse, Harold. 1967. *The Crisis of the Negro Intellectual*. William Morrow, New York.
Cuffe, Paul. 1969. "A Brief Account of the Settlement and Present Situation of the Colony of Sierra Leone in Africa." *Apropos of Africa*, ed. Adelaide C. Hill and Martin Kilson. Frank Cass, London.
Cultural Correspondence/Green Mountain Irregulars. 1978. "The Origins of Left Culture in the US, 1880–1940," nos. 6–7.
Cummings, Milton, and David Wise. 1977. *Democracy under Pressure*. Harcourt Brace Jovanovich, New York.
Curtin, Philip. 1964. *The Image of Africa*. University of Wisconsin Press, Madison.
——. 1969. *The Atlantic Slave Trade: A Census*. University of Wisconsin Press, Madison.
—— (ed.). 1971. *Imperialism*. Walker, New York.
——. 1972. "The Atlantic Slave Trade, 1600–1800." *History of West Africa*, vol. 1, ed. J. F. A. Ajayi and Michael Crowder. Columbia University Press, New York.
——. 1977. "Slavery and Empire." *Comparative Perspectives on Slavery in New World Plantation Societies*, *Annals of the New York Academy of Sciences*, vol. 292.
Curtis, L. P., Jr. 1968. *Anglo-Saxons and Celts*. New York University Press, New York.
Curwen, C. A. 1971. "China." *The Making of the Modern World: Europe Discovers the World*, vol. 1, ed. Douglas Johnson. Barnes and Noble, New York.
Daget, Serge. 1975. "La repression Britannique sur les Negriers Français du trafic illegal: Quelques conditions generales ou specifiques." Unpublished paper presented in Maine, 20–22 August.
Daniel, Norman. 1960. *Islam and the West*. Edinburgh University Press, Edinburgh.
——. 1979. *The Arabs and Medieval Europe*. Longman, London.
Dalfiume, Richard. 1971. "The 'Forgotten Years' of the Negro Revolution." *Black Liberation Politics: A Reader*, ed. Edward Greer. Allyn and Bacon, Boston.
Daniels, Douglas. 1980. *Pioneer Urbanites*. Temple University Press, Philadelphia.
Darkwah, R. H. Kofi. 1975. *Shewa, Menilek and the Ethiopian Empire, 1813–1889*. Heinemann, London.
Davidson, Basil. 1964. *The African Past*. Little, Brown, Boston.
——. 1981. *The People's Cause: A History of Guerrillas in Africa*. Longmans, Harlow.
Davidson, David. 1966. "Negro Slave Control and Resistance in Colonial Mexico, 1519–1650. *Hispanic American Historical Review* 46, no. 3.
Davies, Arthur. 1952. "Origins of Columbian Cosmography." *Studi Colombiana*, vol. 2, Stabilimento Arti Grafiche ed Affini, Genova.
Davies, K. G. 1962. "The Mess of the Middle Class." *Past and Present*, no. 22.
——. 1970. *The Royal African Company*. Atheneum, New York.
Davies, K. G. B. 1952. "The Origin of the Commission System in the West India Trade." *Transactions of the Royal Historical Society*, 5th ser., vol. 2.
Davis, David Brion. 1966. *The Problems of Slavery in Western Culture*. Cornell University Press, Ithaca.
Davis, Horace. 1965. "Nations, Colonies and Social Classes: The Position of Marx and Engels." *Science and Society* 29, no. 1.
——. 1967. *Nationalism and Socialism*. Monthly Review Press, New York.
Davis, Ralph. 1973. *The Rise of the Atlantic Economies*. Weidenfeld and Nicolson, London.
Dawley, Alan. 1978–79. "E. P. Thompson and the Peculiarities of the Americas." *Radical History Review*, no. 19.
Debbasch, Yvan. 1973. "Le Maniel: Further Notes." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Debien, Gabriel. 1973. "Marronage in the French Caribbean." *Maroon Societies*, ed. Richard Price, Anchor, Garden City.
De Felice, Renzo. 1977. *Interpretations of Fascism*. Harvard University Press, Cambridge.
Deloria, Vine, Jr. 1969. *Custer Died for Your Sins*. Macmillan, New York.
Denham, Major, Capt. Clapperton, and the late Dr. Oudney. 1831. *Travels and Discoveries in Northern and Central Africa*, 4 vols. John Murray, London.
DePauw, Linda Grant. 1973. "Land of the Unfree: Legal Limitations on Liberty in Pre-Revolutionary America." *Maryland Historical Magazine* 68, no. 4.
Derry, T. K., and M. G. Blakeway. 1973. *The Making of Pre-Industrial Britain*. John Murray, London.
Deutscher, Isaac. 1979. *The Prophet Armed: Trotsky 1879–1921*. Oxford University Press, Oxford.
Dewar, Hugo. 1976. *Communist Politics in Britain: The CPGB from Its Origins to the Second World War*. Pluto Press, London.
Dickson, P. G. M. 1967. *The Financial Revolution in England*. Macmillan, London.
Diggins, John. 1975. "Buckley's Comrades: The Ex-Communist as Conservative." *Dissent*, Fall.
Diggs, Irene. 1953. "Zumbi and the Republic of Os Palmares." *Phylon* 14, no. 1.
Diop, Cheikh Anta. 1974. *The African Origin of Civilization*. Lawrence Hill, New York.

Dobbs, Maurice. 1946. *Studies in the Development of Capitalism.* Routledge, London.
Dookeran, Winston. 1974. "East Indians and the Economy of Trinidad and Tobago." *Calcutta to Caroni: The East Indians of Trinidad,* ed. John La Guerre. Longman Caribbean, Trinidad.
Douglas, Mary. 1966. *Purity and Danger.* Frederick Praeger, New York.
Draper, Theodore. 1957. *The Roots of American Communism.* Viking, New York.
——. 1960. *American Communism and Soviet Russia.* Viking, New York.
——. 1971. *The Rediscovery of Black Nationalism.* Secker and Warburg, London.
Drowser, Margaret S. 1965. "Egypt: Archaeology and History." *Encyclopedia Britannica,* vol. 8. University of Chicago Press, Chicago.
Du Bois, W. E. B. 1915. "The African Roots of the War." *Atlantic Monthly* 115.
——. 1920. *Darkwater.* Constable and Co., London.
——. 1921. "Marcus Garvey." *The Crisis* 21, January.
——. 1927. "Judging Russia." *The Crisis* 33, February.
——. 1928. "Marcus Garvey and the NAACP." *The Crisis* 35, February.
——. 1933. Lecture at the Rosenwald Conference. Reproduced in the *Baltimore Afro-American,* 20 May.
——. 1968a. *The Autobiography of W. E. B. Du Bois.* International Publishers, n.p.
——. 1968b. *Dusk of Dawn.* Schocken, New York (orig. 1940).
——. 1969a. *Black Reconstruction in America, 1860–1880.* World Publishing, Cleveland (orig. 1935).
——. 1969b. *The Suppression of the African Slave-Trade to the United States of America, 1638–1870.* Schocken, New York (orig. 1896)
——. 1970a. *Black Titan: W. E. B. Du Bois,* ed. John Hendrick Clarke et al. Beacon Press, Boston.
——. 1970b. *W. E. B. Du Bois Speaks,* ed. Philip Foner. Pathfinder Books, New York.
——. 1971. *The Seventh Son: The Thought and Writings of W. E. B. Du Bois,* vol. 1, ed. Julius Lester. Vintage, New York.
——. 1972a. *W. E. B. Du Bois: The Crisis Writings,* ed. Daniel Walden. Fawcett, Greenwich.
——. 1972b. *The Emerging Thought of W. E. B. Du Bois,* ed. Henri Lee Moon. Simon and Schuster, New York.
——. 1976. *The Correspondence of W. E. B. Du Bois,* vol. 2, ed. Herbert Aptheker. University of Massachusetts Press, Amherst.
Dubofsky, Melvyn. 1969. *We Shall Be All: A History of the Industrial Workers of the World.* Quadrangle/New York Times, New York.
Duffield, Ian. 1981. "The Dilemma of Pan-Africanism for Blacks in Britain, 1760–1950." Paper presented to the International Conference on the History of Blacks in Britain, University of London, September.
Dunn, Richard S. 1972. *Sugar and Slaves: The Rise of the Planter Class in the English West Indies, 1624–1713.* University of North Carolina Press, Chapel Hill.
Dupuy, Alex. 1976. "Spanish Colonialism and the Origin of Underdevelopment in Haiti." *Latin American Perspectives,* iss. 9, vol. 3, no. 2.
——. 1982. "Class Formation and Underdevelopment in Nineteenth-Century Haiti." *Race and Class* 24, no. 1.
Dzidzienyo, Anani. 1979. "The Position of Blacks in Brazilian Society." *Minority Rights Group,* no. 7, London.
Edwards, R. D. 1965. "The Tudors" (part of the essay, "Ireland"), *Encyclopaedia Britannica,* vol. 7.
Elder, J. D. 1970. "The Yoruba Ancestor Cult in Gasparillo." *Caribbean Quarterly* 16, no. 3.
Ellis, P. Berresford. 1973. *A History of the Irish Working Class.* George Braziller, New York.
Elkins, W. F. 1970. "A Source of Black Nationalism in the Caribbean: The Revolt of the British West Indies Regiment at Taranto, Italy." *Science and Society,* no. 34.
Eltis, D. 1975. "The Direction and Fluctuation of the Trans-Atlantic Slave Trade, 1821–43: A Revision of the 1845 Parliamentary Paper." Unpublished paper presented in Maine, 20–22 August.
Engels, Friedrich. 1950. *The Condition of the Working Class in England in 1844.* George Allen and Unwin, London (orig. 1845).
——. 1967a. "The Peasant War in Germany." *The German Revolutions,* ed. Leonard Kriegar. University of Chicago Press, Chicago.
——. 1967b. "Germany: Revolution and Counter-Revolution." *The German Revolutions,* ed. Leonard Kriegar. University of Chicago Press, Chicago.
——. 1972a. *The Role of Force in History.* International Publishers, New York.
——. 1972b. "History of Ireland." *Ireland and the Irish Question,* Karl Marx and Friedrich Engels. International Publishers, New York.
——. 1972c. Introduction to Karl Marx's *The Class Struggles in France, 1848 to 1850. Karl Marx and Friedrich Engels, Selected Works,* vol. 1. International Publishers, New York.
——. 1972d. "Socialism: Utopian and Scientific." *The Marx-Engels Reader,* ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.

——. 1973. "The Magyar Struggle." *The Revolutions of 1848*, Karl Marx and Friedrich Engels. International Publishers, New York.
Engerman, Stanley L., and Eugene D. Genovese (eds.). 1975. *Race and Slavery in the Western Hemisphere*. Princeton University Press, Princeton.
Ennes, Ernesto. 1948. "The Palmares 'Republic' of Pernambuco: Its Final Destruction, 1697." *The Americas* 5, no. 2.
Enzensberger, Hans Magnus. 1974. Introduction. *The Devastation of the Indies: A Brief Account*, Bartolome de Las Casas. Seabury Press, New York.
Epstein, Melech. n.d. *The Jew and Communism*. Trade Union Sponsoring Committee, New York.
Escalante, Aquiles. 1973. "Palenques in Colombia." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Espinosa, Antonio Vazquez de. 1942. *Compendium and Description of the West Indies*. Smithsonian Institution Press, Washington, D.C. (orig. 1629).
Essien-Udom, E. U. 1962. *Black Nationalism*. University of Chicago Press, Chicago.
Evans, William McKee. 1980. "From the Land of Canaan to the Land of Guinea: The Strange Odyssey of the 'Sons of Ham.'" *American Historical Review* 85, no. 1.
Fabre, Michel. 1973. *The Unfinished Quest of Richard Wright*. William Morrow, New York.
Fadiman, Clifton. 1940. Review of Richard Wright's *Native Son*. *New Yorker*, 2 March.
Fanon, Frantz. 1963. *The Wretched of the Earth*. Grove Press, New York.
Feldstein, Stanley, and Lawrence Costello (eds.). 1974. *The Ordeal of Assimilation*. Doubleday, Garden City.
Fernandes, Florestan. 1967. "The Weight of the Past." *Daedalus*, no. 96.
——. 1969. *The Negro in Brazilian Society*. Columbia University Press, New York.
File, Nigel, and Chris Power. 1981. *Black Settlers in Britain, 1555–1958*. Heinemann Educational Books, London.
Finley, M. I. 1964. "Between Slavery and Freedom." *Comparative Studies in Society and History* 6, April.
Finn, R. Weldon. 1963. *An Introduction to Domesday Book*. Longmans, London.
Fisch, Max. 1970. *The New Science of Giambattista Vico*. Cornell University Press, Ithaca.
Fischer, George (ed.). 1971. *The Revival of American Socialism*. Oxford University Press, New York.
Fishel, Leslie, Jr., and Benjamin Quarles (eds.). 1970. *The Black American*. Scott, Foreshaw, Morrow, Glenview.
Fitzgerald, Frances. 1980. *America Revisited*. Vintage, New York.
Fogel, Robert, and Stanley Engerman. 1974. *Time on the Cross*, vol. 2. Little, Brown, Boston.
Foner, Jack D. 1974. *Blacks and the Military in American History*. Praeger, New York.
Foner, Philip (ed.). 1970. *W. E. B. Du Bois Speaks*. Pathfinder Press, New York.
—— (ed.). 1972. *The Voice of Black America*, vol. 1. Capricorn Books, New York.
——. 1976. *Organized Labor and the Black Worker, 1619–1973*. International Publishers, New York.
—— (ed.). 1978. *Paul Robeson Speaks*. Brunner/Mazel, New York.
Forbath, Peter. 1979. *The River Congo*. D. P. Dutton, New York.
Ford, James. 1944. "The Case of Richard Wright." *Daily Worker*, 5 September.
Forster, Margaret. 1980. *William Makepeace Thackeray: Memoirs of a Victorian Gentleman*. Quartet, London.
Foster, William Z. 1932. *Towards Soviet America*. Hyperion Press, Westport.
——. 1970. *The Negro People in American History*. International Publishers, New York.
Franco, Jose L. 1973. "Maroons and Slave Rebellions in the Spanish Territories." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Frankfort, Henri. 1961. *The Ancient Egyptian Religion*. Harper, New York.
Franklin, Benjamin. 1961. "Observations Concerning the Increase of Mankind, Peopling of Countries, etc." *The Papers of Benjamin Franklin*, ed. Leonard W. Labaree. Yale University Press, New Haven.
Franklin, John Hope. 1967. *From Slavery to Freedom*. Knopf, New York.
Fraser, W. H. 1970. "Trade Unionism." *Popular Movements c. 1830–1850*, ed. J. T. Ward. Macmillan, London.
Frazier, E. Franklin. 1947. "Human, All Too Human: The Negro's Vested Interest in Segregation." *Survey Graphic*, January.
——. 1957. *The Black Bourgeoisie*. Free Press, Glencoe.
Frederickson, George. 1971. *The Black Image in the White Mind*. Harper and Row, New York.
Fried, Albert and Ronald Sanders (eds.). 1964. *Socialist Thought*. Edinburgh University Press, Edinburgh.
Froude, James A. 1874. *The English in Ireland*, vols. 1–3. Scribner, Armstrong, New York.
Fuller, Hoyt. 1972. Interview with Chester Himes. *Black World*, no. 21.
Garrison, William Lloyd. 1968. *Thoughts on African Colonization*. Arno, New York (orig. 1832).
Gatell, Frank Otto, and Allen Weinstein (eds.). 1968. *American Themes: Essays in Historiography*. Oxford University Press, New York.

Gayle, Addison. 1976. *The Way of the New World*. Doubleday, Garden City.
——. 1980. *Richard Wright: Ordeal of a Native Son*. Anchor/Doubleday, New York.
Geggus, David. 1980. "Haitian Divorce." *Times Literary Supplement*, 5 December.
Geiss, Immanuel. 1974. *The Pan-African Movement*. Methuen, London.
Gemery, Henry, and Jan Hogendorn (eds.). 1979. *The Uncommon Market: Quantitative Studies in the Atlantic Slave Trade*. Academic Press, New York.
Genovese, Eugene. 1971. "The Legacy of Slavery and the Roots of Black Nationalism." *Black Liberation Politics: A Reader*, ed. Edward Greer. Allyn and Bacon, Boston.
——. 1975. *Roll, Jordan, Roll*. Deutsch, London.
——. 1979. *From Rebellion to Revolution*. Louisiana State University Press, Baton Rouge.
Genovese, Eugene, and Elizabeth Fox-Genovese. 1979. "The Slave Economies in Political Perspective." *Journal of American History* 66, no. 1.
Georgakas, Dan. 1981. "Young Detroit Radicals, 1955–1965." *Urgent Tasks* 12.
Gerber, David. 1981. "Can You Keep 'Em Down on the Plantation after They've Read Rousseau?" *Radical America* 15, no. 6.
Gerhard, Peter. 1978. "A Black Conquistador in Mexico." *Hispanic American Historical Review* 58, no. 3.
Giddings, Joshua. 1858. *The Exiles of Florida*. Follett, Foster and Co., Columbus.
Gilliam, Dorothy Butler. 1976. *Paul Robeson: All-American*. New Republic Books, Washington, D.C.
Gitlow, Benjamin. 1939. *I Confess*. E. P. Dutton, New York.
Glazer, Nathan. 1961. *The Social Basis of American Communism*. Harcourt, Brace and World, New York.
Goddard, David (ed.). 1973. *Ideology in Social Science*. Vintage, New York.
Gomperz, Theodor. 1906. *Greek Thinkers*, vol. 1. John Murray, London.
Gossett, Thomas. 1963. *Race: The History of an Idea in America*. Southern Methodist University Press, Dallas.
Gray, Daniel Savage. 1973. "Bibliographic Essay: Black Views on Reconstruction." *Journal of Negro History* 58, no. 1.
Greenfield, Sidney M. 1977. "Madeira and the Beginnings of New World Sugar Cane Cultivation and Plantation Slavery: A Study in Institution Building." *Comparative Perspectives on Slavery in New World Plantation Societies, Annals of the New York Academy of Sciences*, vol. 292, ed. Vera Rubin and Arthur Tuden.
Greer, Edward (ed.). 1971. *Black Liberation Politics: A Reader*. Allyn and Bacon, Boston.
Grier, Sir Selsyn. 1938. "Unrest in the West Indies." *Oxford University Summer School on Colonial Administration, Second Session, 27 June–8 July*. Oxford University Press, Oxford.
Griffith, G. O. 1932. *Mazzini, Prophet of Modern Europe*. Hodder and Stoughton, London.
Grimal Henri. 1978. *Decolonization: The British, French, Dutch and Belgian Empires, 1919–1963*. Routledge and Kegan Paul, London.
Grob, Gerald N., and George A. Billias (eds.). 1967. *Interpretations of American History*, vol. 1. Free Press, New York.
de Groot, Sylvia W. 1973. "The Bush Negro Chiefs Visit Africa: Diary of an Historic Trip." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Gross, Izhak. 1980. "The Abolition of Negro Slavery and British Parliamentary Politics, 1832–3." *Historical Journal* 23, no. 1.
Gross, Seymour, and John Edward Hardy (eds.). 1966. *Images of the Negro in American Literature*. University of Chicago Press, Chicago.
Gruber, Helmut. 1974. *Soviet Russia Masters the Comintern: International Communism in the Era of Stalin's Ascendancy*. Anchor/Doubleday, Garden City.
Guiseppi, Montague. 1895. "Alien Merchants in England in the Fifteenth Century." *Transactions of the Royal Historical Society*, new ser., vol. 9.
Gutkind, Peter. 1974. "The Emergent African Urban Proletariat." Occasional Paper Series, no. 8, Center for Developing-Area Studies, McGill University, Montreal.
Gutman, Herbert. 1976. *The Black Family in Slavery and Freedom, 1750–1925*. Pantheon, New York.
Guzman, Jessie. 1961. "W. E. B. Du Bois—The Historian." *Journal of Negro Education*, Fall.
Halecki, Oscar. 1963. *The Millennium of Europe*. Notre Dame University Press, Notre Dame.
Halevy, Elie. 1961. *Imperialism and the Rise of Labour: A History of the English People in the Nineteenth Century*, vol. 5. Ernest Benn, London (orig. 1926).
Hall, Marie Boas. 1964. "Scientific Thought." *Shakespeare in His Own Age, Shakespeare Survey* 17. Cambridge University Press, Cambridge.
Hall, Raymond. 1978. *Black Separatism in the United States*. University Press of New England, Hanover.
Hamdani, Abbas. 1979. "Columbus and the Recovery of Jerusalem." *Journal of the American Oriental Society* 99, no. 1.
Hammond, J. L. 1930. "The Industrial Revolution and Discontent." *Economic History Review* 2, no. 2.
Haring, C. H. 1963. *The Spanish Empire in America*. Harcourt, Brace and World, New York.

Harlan, Louis R. 1972. *Booker T. Washington: The Making of a Black Leader*. Oxford University Press, New York.
Harrington, Ollie. 1977. "The Mysterious Death of Richard Wright." *Daily Worker*, 17 December.
Harris, Abram L. 1975. "Reconstruction and the Negro." *New Republic*, 7 August.
Harris, P. B. 1969. *The Withdrawal of the Major European Powers from Africa*. Monographs on Political Science, no. 2. University College of Rhodesia, Salisbury.
Harris, William C. 1970. Introduction. *The Facts of Reconstruction*, John R. Lynch. Bobbs-Merrill, Indianapolis (orig. 1913).
Harrison, Royden. 1964. "The British Labour Movement and the International in 1864." *The Socialist Register, 1964*, eds. Ralph Miliband and John Saville. Merlin Press, London.
Hart, Richard. 1980. *Slaves Who Abolished Slavery*, vol. 1, *Blacks in Bondage*. Institute of Social and Economic Research, University of the West Indies, Jamaica.
Haupt, George. 1967. Introduction to the French Edition. *A History of Bolshevism*, Arthur Rosenberg. Grasset, Paris.
——. 1972. *Socialism and the Great War*. Clarendon Press, Oxford.
Haupt, George, Michael Lowy, and Claudia Weill. 1974. *Les Marxistes et la question nationale*. François Maspero, Paris.
Havighurst, Alfred. 1958. *The Pirenne Thesis*. D. C. Heath, Boston.
Haward, W. I. 1951. "The Financial Transaction between the Lancastrian Government and the Merchants of the Staple from 1449 to 1461." *Studies in English Trade in the Fifteenth Century*, ed. Eileen Power and M. M. Postan. Routledge and Kegan Paul, London.
Hays, Denys. 1966. *Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries*. Longman, London.
——. 1968. *Europe: The Emergence of an Idea*. Edinburgh University Press, Edinburgh.
Haywood, Harry. 1975. *For a Revolutionary Position on the Negro Question*. Liberator Press, Chicago.
——. 1978. *Black Bolshevik*. Liberator Press, Chicago.
Hechter, Michael. 1975. *Internal Colonialism*. University of California Press, Berkeley.
Heckscher, Eli. 1955. *Mercantilism*, vol. 1. George Allen and Unwin, London.
Hegel, G. W. F. 1956. *The Philosophy of History*, ed. C. J. Friedrich. Dover, New York.
Henderson, W. O. 1961. *The Industrial Revolution in Europe*. Quadrangle, Chicago.
——. 1976. *The Life of Friedrich Engels*, vol. 1. Frank Cass, London.
Henri, Florette. 1976. *Black Migration*. Anchor, Garden City.
Herder, Johann Gottfried Von. 1968. *Reflections on the Philosophy of the History of Mankind*. University of Chicago Press, Chicago (orig. 1784–91).
Hertz, Friedrich. 1970. *Race and Civilization*. KTAV, n.p.
Hetherington, Penelope. 1978. *British Paternalism and Africa, 1920–40*. Frank Cass, London.
Heyck, Thomas W. 1974. *The Dimensions of British Radicalism: The Case of Ireland*. University of Illinois Press, Urbana.
Hibbert, Christopher. 1978. *The Great Mutiny*. Viking Press, New York.
Higman, B. W. 1979. "Slavery Remembered: The Celebration of Emancipation in Jamaica." *Journal of Caribbean History* 12.
Hill, Adelaide C., and Martin Kilson. 1969. *Apropos of Africa*. Frank Cass, London.
Hill, Douglas (ed.). 1977. *Tribune 40*. Quartet Books, London.
Hill, Lawrence F. 1931. "The Abolition of the African Slave Trade to Brazil." *Hispanic American Historical Review* 11, no. 2.
Hill, Robert A. 1981a. "Zion on the Zambezi: Dr. J. Albert Thorne, 'A Descendant of Africa, of Barbados,' and the African Colonial Enterprise: The 'Preliminary Stage,' 1894–97." Paper presented at the International Conference on the History of Blacks in Britain, University of London, 28–30 September.
——. 1981b. "In England, 1932–1938." *Urgent Tasks* 12.
Hindus, Michael. 1976. "Black Justice under White Law: Criminal Prosecutions of Blacks in Antebellum South Carolina." *Journal of American History* 63, no. 3.
Hines, Linda O. 1977. "White Mythology and Black Duality: George W. Carver's Response to Racism and the Radical Left." *Journal of Negro History* 62, no. 2.
Hirschfield, Magnus. 1938. *Racism*. Victor Gollancz, London.
Hobsbawm, Eric. 1952. "Economic Fluctuations and Some Social Movements since 1800." *Economic History Review*, 2d ser., vol. 5, no. 1.
——. 1962. *The Age of Revolution: 1789–1848*. Mentor, New York.
——. 1964. *Labouring Men*. Weidenfeld and Nicolson, London.
——. 1968. *Industry and Empire*. Penguin, Harmondsworth.
——. 1972. "Some Reflections on Nationalism." *Imagination and Precision in the Social Sciences*, ed. T. J. Nossiter, A. H. Hanson, and Stein Rokkan. Faber and Faber, London.
——. 1976. "The Crisis of Capitalism in Historical Perspective." *Socialist Revolution*, no. 30.

——. 1978. "The Historians' Group of the Communist Party." *Rebels and Causes*, ed. Maurice Cornforth. Lawrence and Wishart, London.
Hofstadter, Richard. 1971. *America at 1750*. Knopf, New York.
Holmes, Jack D. L. 1970. "The Abortive Slave Revolt at Pointe Coupee, Louisiana 1795." *Louisiana History* 11, no. 4.
Holmes, Martin. 1965. "Evil May-Day 1517." *History Today* 15, no. 9.
Homze, Edward. 1967. *Foreign Labor in Nazi Germany*. Princeton University Press, Princeton.
Hook, Sidney. 1933. "Materialism." *Encyclopedia of Social Sciences*, vol. 10. New York.
——. 1962. *From Hegel to Marx*. University of Michigan Press, Ann Arbor.
Hooker, James R. 1970. *Black Revolutionary: George Padmore's Path from Communism to Pan-Africanism*. Praeger, New York.
Hopkins, Elizabeth. 1971. "The Nyabingi Cult of Southwestern Uganda." *Rebellion in Black Africa*, ed. R. Rotberg. Oxford University Press, London.
Horsman, Reginald. 1981. *Race and Manifest Destiny*. Harvard University Press, Cambridge.
Howard, Dick. 1977. *The Marxian Legacy*. Macmillan, London.
Howard, Michael. 1981. "Empire, Race and War." *History Today*, no. 31.
Hunter, G. K. 1964. "Elizabethans and Foreigners." *Shakespeare in His Own Age, Shakespeare Survey* 17, ed. Allardyce Nicoll. Cambridge University Press, Cambridge.
Hunwick, J. O. 1978. "Black Africans in the Islamic World: An Understudied Dimension of the Black Diaspora." *Tarikh* 5, no. 4.
Huttenback, R. A. 1976. *Racism and Empire*. Cornell University Press, Ithaca.
Ikime, Obaro. 1973. "Colonial Conquest and African Resistance in the Niger Delta States." *Tarikh* 4, no. 3.
Inalcik, Halil. 1966. *The Ottoman Empire*. Weidenfeld and Nicolson, London.
Inglis, Brian. 1971. *Poverty and the Industrial Revolution*. Hodder and Stoughton, London.
Inikori, J. E. 1976a. "Measuring the Atlantic Slave Trade: An Assessment of Curtin and Anstey." *Journal of African History* 17, no. 2.
——. 1976b. "Measuring the Atlantic Slave Trade: A Rejoinder by J. E. Inikori." *Journal of African History* 17, no. 4.
Irvine, Keith. 1970. *The Rise of the Colored Races*. W. W. Norton, New York.
Jackson, James. 1925. "The Negro in America." *Communist International*, February.
Jacobsen, Julius (ed.). 1968. *The Negro and the American Labor Movement*. Anchor, Garden City.
Jaffe, Philip. 1975. *The Rise and Fall of American Communism*. Horizon Press, New York.
James C. L. R. 1933. *The Case for West-Indian Self Government*. Hogarth, London.
——. 1935. "Is This War Necessary?" *New Leader*, 4 October.
——. 1936a. " 'Civilising' the 'Blacks.' " *New Leader*, 29 May.
——. 1936b. "Fighting for the Abyssinian Empire." *New Leader*, 5 June.
——. 1937. *World Revolution, 1917–1936: The Rise and Fall of the Communist International*. Martin Secker and Warburg, London.
——. 1963a. *The Black Jacobins*. Vintage, New York (orig. 1938).
——. 1963b. *Beyond a Boundary*. Hutchinson, London.
——. 1969. *A History of Pan-African Revolt*. Drum and Spear, Washington, D.C. (orig. 1938).
——. 1973. *Modern Politics*. bewick/ed, Detroit.
——. 1974. Interview with C. J. Robinson. Binghamton, New York, Spring.
——. 1977a. *Nkrumah and the Ghana Revolution*. Lawrence Hill, Westport.
——. 1977b. *The Future in the Present*. Lawrence Hill, Westport.
——. 1980a. *Spheres of Existence*. Allison and Busby, London.
——. 1980b. *Notes on Dialectics*. Allison and Busby, London.
——. 1980c. "Radical Pan-Africanism in the 1930s: Interview with Alan J. MacKenzie." *Radical History Review*, no. 24.
James, C. L. R., and George Padmore. 1977. "Revolts in Africa." *The Future in the Present*, C. L. R. James. Lawrence Hill, Westport (orig. 1938).
James, George. 1954. *Stolen Legacy*. Philosophical Library, New York (repr. 1976).
Jellema, Dirk. 1955. "Frisian Trade in the Dark Ages." *Speculum* 30, no. 1.
Jerome W., and A. Buick. 1967. "Soviet State Capitalism?: The History of an Idea." *Survey*, no. 62.
Jha, J. A. 1973. "Indian Heritage in Trinidad, West Indies." *Caribbean Quarterly* 19, no. 2.
Johnson, Douglas (ed.). 1971. *The Making of the Modern World: Europe Discovers the World*, vol. 1. Barnes and Noble, New York.
Joll, James. 1965. "The German Confederation, 1815–1866." *Encyclopaedia Britannica*, vol. 10.
Jones, Allen W. 1979. "The Black Press in the 'New South': Jesse C. Duke's Struggle for Justice and Equality." *Journal of Negro History* 64, no. 3.
Jordan, Winthrop. 1968. *White Over Black*. University of North Carolina Press, Chapel Hill.

Kanet, Roger. 1973. "The Comintern and the 'Negro Question': Communist Policy in the United States and Africa, 1921–1941." *Survey*, Autumn.
Karasch, Mary. 1974. "Black Worlds in the Tropics: Gilberto Freyre and the Woman of Color in Brazil." *Proceedings of the Pacific Coast Council on Latin American Studies*, no. 3.
Katz, William L. 1968. "Earliest Responses of American Negroes and Whites to African Colonization." Introduction to *Thoughts on African Colonization*, William Lloyd Garrison. Arno, New York.
Katznelson, Ira. 1973. *Black Men, White Cities*. Oxford University Press, London.
Kees, Hermann. 1961. *Ancient Egypt*. University of Chicago Press, Chicago.
Keita, Lanciany (Edward Philips). 1977–78. "African Philosophical Systems: A Rational Reconstruction." *Philosophical Forum* 9, nos. 2–3.
———. 1979. "The African Philosophical Tradition." *African Philosophy: An Introduction*, ed. Richard Wright. University Press of America, Washington, D.C.
Keller, Bonnie. 1978. "Millenarianism and Resistance: The Xhosa Cattle Killing." *Journal of Asian and African Studies* 13, nos. 1–2.
Kent, R. K. 1965. "Palmares: An African State in Brazil." *Journal of African History* 6, no. 2.
———. 1970. "African Revolt in Bahia: 24–25 January 1835." *Journal of Social History* 3, no. 4.
Kiernan, V. G. 1957. "Foreign Mercenaries and Absolute Monarchy." *Past and Present*, no. 11.
———. 1965. "State and Nation in Western Europe." *Past and Present*, no. 31.
———. 1969. *The Lords of Humankind*. Weidenfeld and Nicholson, London.
———. 1982. *European Empires from Conquest to Collapse*. Leicester University Press, Leicester.
Kilson, Martin. 1981. "Politics and Identity among Black Intellectuals." *Dissent*, Summer.
Kimble, David. 1963. *A Political History of Ghana: The Rise of Gold Coast Nationalism, 1850–1928*. Oxford University Press, London.
King, Johannes. 1973. "Guerrilla Warfare: A Bush Negro View." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Kiple, Kenneth. 1976. *Blacks in Colonial Cuba, 1774–1899*. University of Florida Press, Gainesville.
Knecht, Robert. 1971. "The Discoveries." *The Making of the Modern World: Europe Discovers the World*, vol. 1. Barnes and Noble, New York.
Koning, Hans. 1976. *Columbus: His Enterprise*. Monthly Review Press, New York.
Kopytoff, Barbara Klamon. 1978. "The Early Development of Jamaican Maroon Societies." *William and Mary Quarterly* 35, no. 2.
Kranzberg, Melvin. 1965. "Industrial Revolution." *Encyclopaedia Britannica*, vol. 12.
Krieger, Leonard (ed.). 1967. *The German Revolutions*. University of Chicago Press, Chicago.
Krislov, Samuel. 1967. *The Negro in Federal Employment*. University of Minnesota Press, Minneapolis.
Kropotkin, Petr. n.d. *Mutual Aid*. Extending Horizon Books, Boston.
Kulikoff, Allan. 1978. "The Origins of Afro-American Society in Tidewater Maryland and Virginia, 1700–1790." *William and Mary Quarterly* 35, no. 2.
Labaree, Leonard W. (ed.). 1961. *The Papers of Benjamin Franklin*. Yale University Press, New Haven.
Lacerte, Robert. 1975. "The First Land Reform in Latin America: The Reforms of Alexander Petion, 1809–1814." *Inter-American Economic Affairs* 28, no. 4.
———. 1981. "Xenophobia and Economic Decline: The Haitian Case, 1820–1843." *The Americas* 37, no. 4.
La Guerre, John (ed.). 1974. *Calcutta to Caroni: The East Indians of Trinidad*. Longman Caribbean, Trinidad.
Lanternari, Vittorio. 1963. *Religions of the Oppressed*. Knopf, New York.
Las Casas, Bartolome de. 1974. *The Devastation of the Indies: A Brief Account*. Seabury Press, New York (orig. 1542).
Latouche, Robert. 1961. *The Birth of Western Economy*. Barnes and Noble, New York.
Laurence, Dr. Stephen Moister. 1969. "The Trinidad Water Riot of 1903: Reflections of an Eyewitness," ed. L. O. Laurence. *Caribbean Quarterly* 15, no. 4.
Lawrence, Ken. 1981. "Conversation: Interview with Vincent Harding." *Urgent Tasks* 12.
Lazersfeld, Paul, and Anthony Oberschall. 1965. "Max Weber and Empirical Research." *American Sociological Review* 30, no. 2.
Lazonick, William. 1978. "The Subjection of Labour to Capital: The Rise of the Capitalist System." *Review of Radical Political Economics* 10, no. 1.
Leiss, William. 1971. "Review on Husserl." *Telos*, no. 8.
LeMay, G. H. L. 1971. *Black and White in South Africa*. American Heritage Press.
Lenin, V. I. 1967a. *Selected Works*, vol. 1. International Publishers, New York.
———. 1967b. *What Is to Be Done? Selected Works*, vol. 1. International Publishers, New York.
———. 1967c. *"Left-Wing" Communism—An Infantile Disorder. Selected Works*, vol. 3. Progress Publishers, Moscow.
———. 1969. *The State and Revolution. Selected Works*, vol. 3. Lawrence and Wishart, London.

———. 1970. "The Tasks of the Proletariat in the Present Revolution." *Selected Works*. Progress Publishers, Moscow.
Leaner, Ralph, and Muhsin Mahdi (eds.). 1963. *Medieval Political Philosophy*. Free Press of Glencoe, New York.
Levine, Lawrence. 1977. *Black Culture and Black Consciousness*. Oxford University Press, New York.
Lewis, Bernard. 1970. *Race and Color in Islam*. Harper and Row, New York.
Lichtheim, George. 1969. *The Origins of Socialism*. Praeger, New York.
———. 1973. *Marxism: An Historical and Critical Survey*. Praeger, New York.
Licktman, Richard. 1970. "The Facade of Equality in Liberal Democratic Theory." *Socialist Revolution*, January.
Liebman, Arthur. 1979. *Jews and the Left*. John Wiley, New York.
Livermore, Harold V. (ed.). 1963. *Portugal and Brazil*. Clarendon Press, Oxford.
———. 1965. "Portugal." *Encyclopaedia Britannica*, vol. 18.
Logan, Rayford (ed.). 1971. *W. E. B. Du Bois: A Profile*. Hill and Wang, New York.
London Times. 1816. Private letters published under "Negro Insurrection," 5 June.
Longmate, Norman. 1974. *The Workhouse*. St. Martin's Press, New York.
Lopez, R. S., H. A. Miskimin, and Abraham Udovitch. 1970. "England to Egypt, 1350–1500: Long-Term Trends and Long-Distance Trade." *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day*. Oxford University Press, London.
Lopez, Robert S. 1966. *The Birth of Europe*. Phoenix House, London.
Lopez, Robert S., and Irving Raymond (eds.). 1955. *Medieval Trade in the Mediterranean World*. Oxford University Press, Oxford.
Love, Edgar. 1967. "Negro Resistance to Spanish Rule in Colonial Mexico." *Journal of Negro History* 52, no. 2.
Low, W. Augustus. 1981. "Historians." *Encyclopedia of Black America*, ed. W. Augustus Low and Virgil Clift. McGraw-Hill, New York.
Lowy, Michael. 1976. "Marxists and the National Question." *New Left Review*, no. 96.
Lukács, Georg. 1968. *History and Class Consciousness*. MIT Press, Cambridge.
———. 1969. "On the Responsibility of Intellectuals." *Telos* 2, no. 1.
Lundberg, Ferdinand. 1980. *Cracks in the Constitution*. Lyle Stuart, New York.
Luxemburg, Rosa. 1969. "The National Question." *Rosa Luxemburg*, ed. Peter Nettl. Oxford University Press, Oxford.
Lynch, Hollis. 1970. *Edward Wilmot Blyden: Pan-Negro Patriot, 1832–1912*. Oxford University Press, London.
Lynch, John R. 1970. *The Facts of Reconstruction*. Bobbs-Merrill, Indianapolis (orig. 1913).
McBride, David. 1977. "Africa's Elevation and Changing Racial Thought at Lincoln University, 1854–1886." *Journal of Negro History* 62, no. 4.
McDonald, Roderick. 1979. "The Williams Thesis: A Comment on the State of Scholarship." *Caribbean Quarterly* 25, no. 3.
———. 1980. "Measuring the British Slave Trade to Jamaica, 1789–1808: A Comment." *Economic History Review* 33, no. 2.
MacFarlane, L. J. 1966. *The British Communist Party*. MacGibbon and Kee, Worcester and London.
MacIntyre, Stuart. 1980. *A Proletarian Science: Marxism in Britain, 1917–1933*. Cambridge University Press, Cambridge.
McIntyre, W. David. 1974. *Colonies into Commonwealth*. Blandford Press, London.
McKay, Claude. 1968. *Harlem: Negro Metropolis*. Harcourt Brace Jovanovich, New York (orig. 1940).
———. 1970. *A Long Way from Home*. Harcourt, Brace and World, New York (orig. 1937).
MacKenzie, Norman. 1969. *Socialism: A Short History*. Harper Colophon, New York.
McKinnon, Alan. 1980. "Communist Party Election Tactics: A Historical Review." *Marxism Today* 24, no. 8.
McLellan, David. 1970. *Marx before Marxism*. Macmillan, London.
———. 1973. *Karl Marx: His Life and Thought*. Harper Colophon, New York.
McMillan, Duncan. 1965. "Charlemagne Legends." *Encyclopaedia Britannica*, vol. 5. University of Chicago Press, Chicago.
McNeill, William. 1977. *Plagues and People*. Anchor, Garden City.
Magubane, Bernard. 1971. "A Critical Look at Indices Used in the Study of Social Change in Colonial Africa." *Current Anthropology* 12, nos. 4–5.
Mair, Lucy. 1936. *Native Policies in Africa*. George Routledge, London.
———. 1975. "Anthropology and Colonial Policy." *African Affairs*, April.
Makonnen, Ras. 1973. *Pan-Africanism from Within*, ed. Kenneth King. Oxford University Press, London.
Makovic, Mihailo. 1977. "Stalinism and Marxism." *Stalinism*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
Malheiro, Agostinho Marques Perdigao. 1944. *A escravidao no Brasil*.

Maolwist, Marian. 1959. "The Economic and Social Development of the Baltic Countries from the Fifteenth to the Seventeenth Centuries." *Economic History Review*, 2d ser., vol. 12, no. 2.
Manchester, Alan. 1964. *British Preeminence in Brazil: Its Rise and Decline*. Octagon Books, New York.
Mangan, J. A. 1981. *Athleticism in the Victorian and Edwardian Public School*. Cambridge University Press, Cambridge.
Mannheim, Karl. 1936. *Ideology and Utopia*. Harcourt, Brace and World, New York.
Mansergh, Nicholas. 1965. *The Irish Question, 1840–1921*. University of Toronto Press, Toronto.
Manuel, Frank. 1956. Introduction. *The Philosophy of History*, G. W. F. Hegel, ed. C. J. Friedrich. Dover, New York.
Marable, Manning. 1981. *Blackwater*. Black Praxis Press, Dayton.
Marcus, Harold. 1975. *The Life and Times of Menelik II*. Clarendon Press, Oxford.
Marcuse, Herbert. 1968. *Reason and Revolution*. Beacon Press, Boston.
Marks, Shula. 1971. "The Zulu Disturbances in Natal." *Rebellion in Black Africa*, ed. Robert Rotberg. Oxford University Press, London.
Martin, Tony. 1972. "C. L. R. James and the Race/Class Question." *Race* 2.
——. 1976. *Race First*. Greenwood Press, Westport.
Marx, Karl. 1965. *Pre-Capitalist Economic Formations*. International Publishers, New York.
——. 1968a. "The Future Results of British Rule in India." *Karl Marx on Colonialism and Modernization*, ed. Shlomo Avineri. Doubleday, Garden City.
——. 1968b. *The Holy Family*, as quoted by Georg Lukács, *History and Class Consciousness*. MIT Press, Cambridge.
——. 1969. "Parliamentary Debate on India." *New York Daily Tribune*, 25 June 1853. Reprinted in *Karl Marx on Colonialism and Modernization*, ed. Shlomo Avineri. Anchor, Garden City.
——. 1970. *A Contribution to the Critique of Political Economy*. International Publishers, New York.
——. 1971a. *The Poverty of Philosophy*. International Publishers, New York.
——. 1971b. *The Class Struggles in France, 1848–50*. *Karl Marx: On Revolution*, ed. Saul Padover. McGraw-Hill, New York.
——. 1972a. *The German Ideology*. *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972b. "Critique of the Gotha Program." *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972c. "Theses on Feuerbach." *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972d. "Confidential Communication, 28 March 1870." *Ireland and the Irish Question*, Karl Marx and Friedrich Engels. International Publishers, New York.
——. 1972e. "On the Jewish Question." *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972f. "Outline of a Report on the Irish Question to the Communist Educational Association of German Workers in London." *Ireland and the Irish Question*, Karl Marx and Friedrich Engels. International Publishers, New York.
——. 1977. *Capital*, vol. 1. International Publishers, New York.
Marx, Karl, and Friedrich Engels. 1952. *The Russian Menace to Europe*, ed. Paul Blackstock and Bert Hoselitz. Free Press, Glencoe.
——. 1972a. *The Communist Manifesto*. *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972b. *Ireland and the Irish Question*. International Publishers, New York.
——. 1972c. *The German Ideology*. *The Marx-Engels Reader*, ed. Robert Tucker. W. W. Norton, New York.
——. 1972d. *Karl Marx and Friedrich Engels, Selected Works*, vol. 1. International Publishers, New York.
——. 1973. *The Revolutions of 1848*. International Publishers, New York.
Mason, Daniel, and Jessica Smith (eds.). 1979. Foreword. *Lenin's Impact on the United States*. Reprinted in *Highlights of a Fighting History: 60 Years of the Communist Party, USA*, ed. Philip Bart et al. International Publishers, New York.
Mathieson, William Law. 1926. *British Slavery and Its Abolition*. Longmans, Green and Co., London.
Maxton, James, and Fenner Brockway. 1936. "The War Threat." *New Leader*, 17 April.
Mayhew, Arthur. 1938. "Education in the Colonies." *Oxford University Summer School on Colonial Administration, Second Session, 27 June–8 July 1938*. Oxford University Press, Oxford.
Mehlinger, Louis. 1916. "The Attitudes of the Free Negro toward African Colonization." *Journal of Negro History* 1, no. 3.
Mehring, Franz. 1969. *Karl Marx, The Story of His Life*. University of Michigan Press, Ann Arbor.
Meier, August. 1971a. "The Paradox of W. E. B. Du Bois." *W. E. B. Du Bois: A Profile*, ed. Rayford Logan. Hill and Wang, New York.
——. 1971b. "'Radicals and Conservatives'—a Modern View." *W. E. B. Du Bois: A Profile*, ed. Rayford Logan. Hill and Wang, New York.

Melendy, Howard Brett. 1972. *The Oriental Americans.* Twayne Publishers, New York.
Mellon, Matthew. 1969. *Early American Views on Negro Slavery.* Bergman, New York.
Merivale, Herman. 1967. *Lectures on Colonization and Colonies.* Augustus Kelly, New York (orig. 1861).
Merriam, Charles. 1927. "William Archibald Dunning." *American Masters of Social Science,* ed. Howard W. Odum. Holt, New York.
Meyer, Alfred. 1962. *Leninism.* Praeger, New York.
Mez, Adam. 1937. *The Renaissance of Islam.* Luzac and Co., London.
Miege, J.-L. 1968. *L'Impérialisme colonial italien de 1870 nos jours.* SEDES, Paris.
——. 1980. "The Colonial Past in the Present." *Decolonization and After,* ed. W. H. Morris-Jones and Georges Fischer. Frank Cass, London.
Miliband, Ralph, and John Saville (eds.). 1964. *The Socialist Register, 1964.* Merlin Press, London.
Miller, Floyd. 1975. *The Search for a Black Nationality.* University of Illinois Press, Urbana.
Miller, John Chester. 1977. *The Wolf by the Ears.* New American Library, New York.
Miller, Stuart. 1969. *The Unwelcome Immigrant.* University of California Press, Berkeley.
Moon, Henri Lee (ed.). 1972. *The Emerging Thought of W. E. B. Du Bois.* Simon and Schuster, New York.
Moore, Richard B. 1966–67. "On Barbadians and Minding Other People's Business." *New World Quarterly* 3, nos. 1–2, Dead Season and Croptime.
——. 1970. "Du Bois and Pan-Africa." *Black Titan: W. E. B. Du Bois,* ed. John Henrick Clarke et al. Beacon Press, Boston.
Moore, R. Lawrence. 1969. "Flawed Fraternity—American Socialist Response to the Negro, 1901–1912." *The Historian* 32, no. 1.
Moreau de Saint-Mery, M. L. E. 1973. "The Border Maroons of Saint-Domingue: Le Maniel." *Maroon Societies,* ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Morgan, Edmund. 1975. *American Slavery, American Freedom.* W. W. Norton, New York.
Morgan, Gordon D. 1976. "In Memorium: Oliver C. Cox, 1901–1974." *Monthly Review,* May.
Morison, Samuel Eliot. 1942. *Admiral of the Ocean Sea.* 2 vols. Little, Brown, Boston.
——. 1952. "Columbus as Navigator." *Studi Colombiani,* vol. 2. Stabilimento Arti Grafiche ed. Affini, Genova.
Morris-Jones, W. H., and Georges Fischer (eds.). 1980. *Decolonization and After.* Frank Cass, London.
Moses, W. J. 1978. *The Golden Age of Black Nationalism, 1850–1925.* Archon Books, Hamden.
Mosse, George. 1978. *Toward the Final Solution.* J. M. Dent and Sons, London.
Mott, Frank L. 1939. *A History of American Magazines, 1741–1850,* vol. 1. Harvard University Press, Cambridge.
Mullin, Gerald (Michael). 1972. *Flight and Rebellion.* Oxford University Press, New York.
Murray, A. Victor. 1938. "Missions and Indirect Administration." *Oxford University Summer School on Colonial Administration, Second Session, 27 June–8 July 1938.* Oxford University Press, Oxford.
Murray, D. R. 1971. "Statistics of the Slave Trade in Cuba, 1790–1867." *Journal of Latin American Studies* 3, no. 2.
Murray, Margaret. 1964. *The Splendour That Was Egypt.* Sidgwick and Jackson, London (orig. 1949).
Murray-Brown, Jeremy. 1974. *Kenyatta.* Fontana/Collins, London.
Musson, A. E. 1975. "Continental Influences on the Industrial Revolution in Great Britain." *Great Britain and Her World, 1750–1914,* ed. Barrie Ratcliffe. Manchester University Press, Manchester.
Myers, Eugene A. 1964. *Arabic Thought and the Western World in the Golden Age of Islam.* Frederick Ungar Publishing, New York.
Nairn, Tom. 1975. "The Modern Janus." *New Left Review,* no. 94.
Naison, Mark. 1971. "Marxism and Black Radicalism in America: Notes on a Long (and Continuing) Journey." *Radical America* 5, no. 3.
——. 1974. "Communism and Black Nationalism in the Depression: The Case of Harlem." *Journal of Ethnic Studies,* Summer.
——. 1978a. "Harlem Communists and the Politics of Black Protest." *Marxist Perspectives* 1, no. 3.
——. 1978b. "Historical Notes on Blacks and American Communism: The Harlem Experience." *Science and Society* 42, no. 3.
——. 1981. "Communism and Harlem Intellectuals in the Popular Front: Anti-Fascism and the Politics of Black Culture." *Journal of Ethnic Studies* 9, no. 1.
Nash, A. E. Keir. 1979. "Reason of Slavery: Understanding the Judicial Role in the Peculiar Institution." *Vanderbilt Law Review* 32, no. 1.
Nearing, Scott. 1969. *Black America.* Schocken, New York (orig. 1929).
Negro in Virginia, The. n.d. Virginia Writers' Project, Hastings House, New York.
Negro Nurse in Republican Spain, A. 1977. The Negro Committee to Aid Spain, reissued by the Veterans of the Abraham Lincoln Brigade, New York (orig. 1938).
Nettl, Peter. 1969. *Rosa Luxemburg.* Oxford University Press, Oxford.
Newton, Arthur Percival (ed.). 1932. *The Great Age of Discovery.* University of London Press, London.

Nicholls, David. 1974. "A Work of Combat: Mulatto Historians and the Haitian Past, 1847–1867." *Journal of Interamerican Studies and World Affairs* 16, no. 1.
——. 1979. *From Dessalines to Duvalier*. Cambridge University Press, Cambridge.
Nichols, Charles (ed.). 1972. *Black Men in Chains*. Lawrence Hill, New York.
Nichols, Roy. 1962. *The Disruption of American Democracy*. Collier Books, New York.
Nicoll, Allardyce (ed.). 1964. *Shakespeare in His Own Age, Shakespeare Survey 17*. Cambridge University Press, Cambridge.
Nolan, William. 1951. *Communism versus the Negro*. Henry Regnery, Chicago.
Norman, Edward. 1971. *A History of Modern Ireland*. Allen Lane/Penguin Press, London.
Nossiter, T. J. 1972. "Shopkeeper Radicalism in the Nineteenth Century." *Imagination and Precision in the Social Sciences*, ed. T. J. Nossiter, A. H. Hanson, and Stein Rokhan. Faber and Faber, London.
Nossiter, T. J., A. H. Hanson, and Stein Rokkan (eds.). 1972. *Imagination and Precision in the Social Sciences*. Faber and Faber, London.
Nwafor, Azinna. 1972. Introduction. *Pan-Africanism or Communism*, George Padmore. Doubleday, New York.
Nyerere, Julius. 1979. *Ujamaa: Essays on Socialism*. Oxford University Press, Dar es Salaam.
Oates, Stephen. 1970. *To Purge This Land with Blood*. Harper Torchbooks, New York.
Obiechere, Boniface. 1969. "African History and Western Civilization." *Black Studies in the University*, ed. A. Robinson, C. Foster, and D. Ogilvie. Bantam, New York.
O'Brien, James, et al. 1970. "'New Left Historians' of the 1960's." *Radical America*, November.
Odum, Howard (ed.). 1927. *American Masters of Social Science*. Holt, New York.
Offiong, Daniel A. 1976. "The Cheerful School and the Myth of the Civilizing Mission of Colonial Imperialism." *Pan-African Journal* 9, no. 1.
Okoye, Nwabueze F. 1980. "Chattel Slavery as the Nightmare of the American Revolutionaries." *William and Mary Quarterly* 37, no. 1.
Olela, Henry. 1979. "The African Foundations of Greek Philosophy." *African Philosophy: An Introduction*, ed. Richard A. Wright. University Press of America, Washington, D.C.
——. 1981. *From Ancient Africa to Ancient Greece*. Select Publishing, Atlanta.
Origo, Iris. 1955. "The Domestic Enemy: The Eastern Slaves in Tuscany in the Fourteenth and Fifteenth Centuries." *Speculum* 30, no. 3.
——. 1957. *The Merchant of Prato*. Knopf, New York.
Orum, Thomas T. 1975. "The Politics of Color: The Racial Dimension of Cuban Politics during the Early Republican Years, 1900–1912." Unpublished Ph.D. diss., Department of History, New York University.
Ott, T. O. 1973. *The Haitian Revolution*. University of Tennessee Press, Knoxville.
Owens, Leslie Howard. 1976. *This Species of Property*. Oxford University Press, New York.
Padmore, George. 1971. *The Life and Struggles of Negro Toilers*. Sun Dance Press, Hollywood.
——. 1972a. *Africa and World Peace*. Frank Cass, London (orig. 1937).
——. 1972b. *Pan-Africanism or Communism*. Doubleday, New York.
Padover, Saul (ed.). 1971. *Karl Marx: On Revolution*. McGraw-Hill, New York.
Painter, Nell Irvin. 1976. *Exodusters: Black Migration to Kansas after Reconstruction*. Knopf, New York.
Palmer, Colin. 1975. "Religion and Magic in Mexican Slave Society, 1570–1650." *Race and Slavery in the Western Hemisphere: Quantitative Studies*, ed. Stanley L. Engerman and Eugene Genovese. Princeton University Press, Princeton.
Palmer, R. R., with Joel Colton. 1959. *A History of Modern Europe*. Knopf, New York.
Pares, Richard. 1960. *Merchants and Planters, Economic History Review* Supplement, no.e.
Parker, William. 1972. "Fugitives Resist Kidnapping." *Black Men in Chains*, ed. Charles Nichols. Lawrence Hill, New York.
Parris, E. Elliot. 1981. "Minty Alley." *Urgent Tasks* 12.
Parry, Benita. 1972. *Delusions and Discoveries*. University of California Press, Berkeley.
Parry, J. H. 1966. *The Establishment of the European Hegemony: 1415–1715*. Harper and Row, New York.
Passmore, John. 1970. *The Perfectibility of Man*. Duckworth, London.
Patterson, H. Orlando. 1969. *The Sociology of Slavery*. Fairleigh Dickinson University Press, Rutherford.
——. 1973. "Slavery and Slave Revolts: A Sociohistorical Analysis of the First Maroon War, 1665–1740." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Peires, J. B. 1979. "Nxele, Ntsidana and the Origins of the Xhosa Religious Reaction." *Journal of African History* 20, no. 1.
Pelling, Henry. 1958. "The Early History of the Communist Party of Great Britain, 1920–9." *Transactions of the Royal Historical Society*, 5th ser., vol. 8.
——. 1976. *A History of British Trade Unionism*. Penguin, Harmondsworth.
Perez, Louis A. 1976. *Army Politics in Cuba, 1898–1958*. University of Pittsburgh Press, Pittsburgh.
Perham, M. 1938. "British Native Administration." *Oxford University Summer School on Colonial Administration, Second Session, 27 June–8 July 1938*. Oxford University Press, Oxford.

Pethybridge, Roger. 1977. *The Social Prelude to Stalinism*. Macmillan, London.
Peyre, Henri. 1968. *Historical and Critical Essays*. University of Nebraska Press, Lincoln.
Peytraud, Lucien. 1897. "L'Esclavage aux Antilles Français avant 1789 d'après des documents inedits des Archives Coloniales." Thèse Presentée a la Faculté des Lettres de Paris, Paris.
Piccone, Paul. 1971. "Reading the *Crisis*." *Telos*, no. 8.
Pierson, Stanley. 1973. *Marxism and the Origins of British Socialism*. Cornell University Press, Ithaca.
Pinckney, Darryl. 1977. "Richard Wright: The Unnatural History of a Native Son." *Village Voice*, 4 July.
Pipes, Daniel. 1980. "Black Soldiers in Early Muslim Armies." *International Journal of African Historical Studies* 13, no. 1.
Pirenne, Henri. 1937. *Economic and Social History of Medieval Europe*. Harcourt, Brace and World, New York.
——. 1948. *Medieval Cities, Their Origins and the Revival of Trade*. Princeton University Press, Princeton.
——. 1968. *Mohammed and Charlemagne*. Unwin University Books, London.
Polanyi, Karl. 1957. *The Great Transformation*. Beacon Press, Boston.
Poole, Reginald. 1960. *Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning*. Dover, New York.
Poppino, Rollie. 1968. *Brazil, the Land and People*. Oxford University Press, New York.
Post, Charles. 1982. "The American Road to Capitalism." *New Left Review*, no. 133.
Post, Ken. 1978. *Arise Ye Starvelings: The Jamaican Labour Rebellion of 1938 and Its Aftermath*. Martinus Nijhoff, The Hague.
Postan, M. 1939. "The Fifteenth Century." *Economic History Review* 9, no. 2.
Power, Eileen, and M. M. Postan (eds.). 1951. *Studies in English Trade in the Fifteenth Century*. Routledge and Kegan Paul, London.
Prawar, S. S. 1976. *Karl Marx and World Literature*. Oxford University Press, Oxford.
Prestage, Edgar. 1932. "Vasco da Gama and the Way to the Indies." *The Great Age of Discovery*, ed. Arthur Percival Newton. University of London, London.
——. 1934. "The Anglo-Portuguese Alliance." *Transactions of the Royal Historical Society*, 4th ser., vol. 17.
Price, Richard (ed.). 1973. *Maroon Societies*. Anchor, Garden City.
——. 1976. *The Guiana Maroons: A Historical and Bibliographical Introduction*. Johns Hopkins University Press, Baltimore.
Procacci, Giuliano. 1970. *The History of the Italian People*. Weidenfeld and Nicolson, London.
Proceedings of a General Court Martial Held at the Colony House in George Town on Monday the 13th Day of October 1823, Edinburgh Review, xl, 89, March 1824.
"Punishment for a Negro Rebel." 1902. Documents, *William and Mary Quarterly*, ser. 1, vol. 10, no. 3.
Quarles, Benjamin. 1958. "Lord Dunmore as Liberator." *William and Mary Quarterly* 15, no. 4.
——. 1961. *The Negro in the American Revolution*. University of North Carolina Press, Chapel Hill.
——. 1974. *Allies for Freedom: Blacks and John Brown*. Oxford University Press, New York.
"Racism, Intelligence and the Working Class." n.d. [post-1973]. Published by the Party for Workers Power, Boston.
Rae, John. 1981. "Play Up, Play Up." *Times Literary Supplement*, 2 October.
Ramos, Arthur. 1951. *The Negro in Brazil*. Associated Publishers, Washington D.C. (orig. 1939).
Ramsey, P. 1960. "The European Economy in the Sixteenth Century." *Economic History Review*, 2d ser., vol. 12, no. 3.
Ranger, T. O. 1967. *Revolt in Southern Rhodesia, 1896–7*. Heinemann, London.
——. 1977. "The People in African Resistance: A Review." *Journal of Southern African Studies* 4, no. 1.
Raskin, Jonah. 1971. *The Mythology of Imperialism*. Dell, New York.
Ratcliffe, Barrie. 1975. *Great Britain and Her World, 1750–1914*. Manchester University Press, Manchester.
Rau, Virginia. 1957. "A Family of Italian Merchants in Portugal in the Fifteenth Century: The Lomellini." *Studi in Onore di Armando Sapori*, vol. 1. Instituto Editoriale Cisalpino, Milano.
Rawick, George. 1976. Interview with C. J. Robinson, Winter.
Reckord, Mary. 1968. "The Jamaican Slave Rebellion of 1831." *Past and Present*, no. 40.
Record, Wilson. 1971. *The Negro and the Communist Party*. Atheneum, New York.
Reddick, Lawrence. 1937. "A New Interpretation for Negro History." *Journal of Negro History* 21, no. 1.
Redkey, Edwin. 1969. *Black Exodus*. Yale University Press, New Haven.
Reich, Wilhelm. 1972. "What Is Class Consciousness?" *Sex-Pol: Essays 1929–1934*, ed. Lee Baxandall. Vintage, New York.
Rensberger, Boyce. 1979. "Nubian Monarchy Called Oldest." *New York Times*, 1 March.
Return of Trials of Slaves: Jamaica, 1814–1818. Colonial Office 137–147, Public Records Office, London.
Richard, Jean. 1969. "The Mongols and the Franks." *Journal of Asian History* 3, no. 1.
Riva, Francisco Perez de la. 1973. "Cuban Palenques." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Roark, James. 1977. *Masters without Slaves*. W. W. Norton, New York.

Robinson, Armstead, Craig Foster, and Donald Ogilvie (eds.). 1969. *Black Studies in the University*. Bantam, New York.
Robinson, Cedric J. 1978. "The Emergent Marxism of Richard Wright's Ideology." *Race and Class* 19, no. 3.
——. 1979. "A Case of Mistaken Identity." Paper presented at the African Studies Association Conference, Los Angeles, 1 November.
——. 1980a. *The Terms of Order*. State University of New York Press, Albany.
——. 1980b. "Notes Toward a 'Native' Theory of History." *Review* 4, no. 1.
——. 1981. "Amilcar Cabral and the Dialectic of Portuguese Colonialism." *Radical America* 15, no. 3.
Robinson, R. E., and J. A. Gallagher (with Alice Denny). 1961. *Africa and the Victorians*. Macmillan, London.
Rodinson, Maxime. 1974a. *Mohammed*. Vintage, New York.
——. 1974b. "The Western Image and Western Studies of Islam." *The Legacy of Islam*, ed. Joseph Schacht and C. E. Bosworth, Oxford University Press, London.
Rodney, Walter. 1965. "Portuguese Attempts at Monopoly on the Upper Guinea Coast, 1580–1650." *Journal of African History* 6, no. 3.
——. 1969. "Upper Guinea and the Significance of the Origins of Africans Enslaved in the New World." *Journal of Negro History* 54, no. 4.
——. 1972. *How Europe Underdeveloped Africa*. Bogle-L'Ouverture, London.
Rodrigues, Jose Honorio. 1965. *Brazil and Africa*. University of California Press, Berkeley.
Rogers, Francis M. 1964. "The Attraction of the East and Early Portuguese Discoveries." *Luso-Brazilian Review* 1, no. 1.
Rogin, Michael P. 1967. *The Intellectuals and McCarthy*. MIT Press, Cambridge.
Rosenberg, Arthur. 1934. *A History of Bolshevism*. Oxford University Press, London.
Rotberg, Robert (ed.). 1971. *Rebellion in Black Africa*. Oxford University Press, London.
Rotter, Gernot. 1967. "Die Stellung des Negers in der islamisch-arabischen Gesellschaft bis XVI Jahrhundert." Unpublished dissertation.
Rougemont, Denis de. 1966. *The Idea of Europe*. Macmillan, New York.
Rout, Leslie R., Jr. 1976. *The African Experience in Spanish America*. Cambridge University Press, Cambridge.
Roux, Edward. 1964. *Time Longer Than Rope*. University of Wisconsin Press, Madison.
Roy, M. N. 1976. *Fascism*. Best Books, Jijnasa.
Royce, Edward. 1980. "Genovese on Slave Revolts and Weiner on the Postbellum South." *Insurgent Sociologist*, no. 10.
Rubin, Vera, and Arthur Tuden (eds.). 1977. *Comparative Perspectives on Slavery in New World Plantation Societies. Annals of the New York Academy of Sciences* 292.
Ruchames, Louis. 1969. *Racial Thought in America*. Grosset and Dunlap, New York.
Rude, George. 1964. *The Crowd in History*. John Wiley and Sons, New York.
Russell-Wood, A. J. R. 1968. *Fidalgos and Philanthropists*. University of California Press, Berkeley.
——. 1974. "Black and Mulatto Brotherhoods in Colonial Brazil: A Study of Collective Behavior." *Hispanic American Historical Review* 54, no. 4.
Said, Edward. 1978. *Orientalism*. Pantheon, New York.
Saignes, Miguel Acosta. 1973. "Life in a Venezuelan *Cumbe*." *Maroon Societies*, ed. Richard Price. Anchor, Garden City.
Samaroo, Brinsley. 1972. "The Trinidad Workingmen's Association and the Origins of Popular Protest in a Crown Colony." *Social and Economic Studies* 21, no. 2.
Samuel, Raphael. 1980. "British Marxist Historians." *New Left Review*, no. 120.
—— (ed.). 1981. *People's History and Socialist Theory*. Routledge and Kegan Paul, London.
Sanchez-Albornoz, Nicolas. 1974. *The Population of Latin America: A History*. University of California Press, Berkeley.
Sanderson, Lillian. 1975. "Education and Administrative Control in Colonial Sudan and Northern Nigeria." *African Affairs* 74, no. 297.
Sandford, Eva. n.d. *The Mediterranean World in Ancient Times*. Publisher unlisted.
Sankey, Veronica. 1980. Interview with C. J. Robinson. Brighton, England, 20 July.
Saunders, J. V. D. 1959. "The Brazilian Negro. *The Americas* 15, no. 3.
Scelle, Georges. 1906. *Histoire Politique de la Traite Negrière aux Indes de Castille*. 2 vols. Larose and Forcel, Paris.
——. 1910. "The Slave-Trade in the Spanish Colonies of America: The Assiento." *American Journal of International Law* 4, no. 3.
Schacht, Joseph, and C. E. Bosworth (eds.). 1974. *The Legacy of Islam*. Oxford University Press, London.
Schirokauer, Arno Lassalle. 1931. *The Power of Illusion and the Illusion of Power*. George Allen and Unwin, London.

Schuler, Monica. 1970. "Ethnic Slave Rebellions in the Caribbean and the Guianas." *Journal of Social History* 3, no. 4.
———. 1980. *Alas, Alas, Kongo: A Social History of Indentured African Immigration into Jamaica, 1841–1865.* Johns Hopkins University Press, Baltimore.
Schumpeter, J. A. 1965. *Capitalism, Socialism and Democracy.* Unwin, London.
Schwartz, Stuart. 1970. "The *Mocambo*: Slave Resistance in Colonial Bahia." *Journal of Social History* 3, no. 4.
Scott, Ian. 1978. "Middle Class Politics in Zambia." *African Affairs* 77, no. 308.
Seligman, Charles C. 1933. *Egypt and Negro Africa.* Routledge and Sons, London.
Sellin, J. Thorsten. 1976. *Slavery and the Penal System.* Elsevier, New York.
Semmel, Bernard. 1963. *Jamaican Blood and Victorian Conscience.* Houghton Mifflin, Cambridge.
Shapiro, Leonard. 1977. "Two Years that Shook the World." *New York Review of Books*, 31 March.
Sharp, William F. 1975. "The Profitability of Slavery in the Colombian Choco, 1680–1810." *Hispanic American Historical Review* 55, no. 3.
Shepperson, George. 1972. "Garvey as Pan-Africanist." *Marcus Garvey*, ed. E. David Cronon. Prentice-Hall, Englewood Cliffs.
———. 1980. "Ourselves as Others." *Review* 4, no. 1.
Shepperson, George, and Thomas Price. 1958. *Independent African.* Edinburgh University Press, Edinburgh.
Shillington, Violet. 1906. "The Beginnings of the Anglo-Portuguese Alliance." *Transactions of the Royal Historical Society* 20.
Shyllon, Folarin. 1981. "The Black Presence and Experience in Britain: An Analytical Overview." Paper presented to the International Conference on the History of Blacks in Britain, University of London, 30 September.
Silverberg, Robert. 1972. *The Realm of Prester John.* Doubleday, Garden City.
Singh, Raman K. 1974. "Marxism in Richard Wright's Fiction." *Indian Journal of American Studies* 4, nos. 1–2.
Skinner, Elliot. 1980. "The Persistence of Psychological and Structural Dependence after Colonialism." *Decolonization and Dependence*, ed. Aguibou Yansane. Greenwood Press, Westport.
Slave Insurrections, Selected Documents. 1970. Negro University Press, Westport (orig. 1860).
Slave Rebellion Trials: Jamaica. 1832. Colonial Office 137–185, Public Records Office, London.
Slessarev, Vsevolod. 1959. *Prester John: The Letter and the Legend.* University of Minnesota Press, Minneapolis.
Small, Richard. 1981. "The Training of an Intellectual, the Making of a Marxist." *Urgent Tasks* 12.
Smith, Abbot E. 1947. *Colonists in Bondage: White Servitude and Convict Labor in America, 1607–1776.* University of North Carolina Press, Chapel Hill.
Smith, Anthony. 1971. *Theories of Nationalism.* Harper and Row, New York.
Smith, David. 1978. *Socialist Propaganda in the Twentieth-Century British Novel.* Macmillan, London.
Smith, T. Lynn. 1966. "The Racial Composition of the Population of Colombia." *Journal of Inter-American Studies* 8, no. 2.
Snowden, Frank. 1970. *Blacks in Antiquity.* Harvard University Press, Cambridge.
Snyder, Louis. 1939. *Race.* Longmans, Green and Co., New York.
———. 1962. *The Idea of Racialism.* D. Van Nostrand, Princeton.
Soboul, Albert. 1974. *The French Revolution, 1787–1799.* Random House, New York.
Somit, Albert, and Joseph Tannenhaus. 1967. *The Development of (American) Political Science: From Burgess to Behavioralism.* Allyn and Bacon, Boston.
"Special Editorial Note for the People South of Mason and Dixon's Line, A." 1854. *Putnam's Monthly* 3, no. 15.
Stalin, J. V. 1953. "Marxism and the National Question." *Works*, vol. 11. Foreign Languages, Moscow.
Stampp, Kenneth. 1956. *The Peculiar Institution.* Vintage, New York.
Starobin, Joseph. 1972. *American Communism in Crisis, 1943–1957.* University of California Press, Berkeley.
Starobin, Robert. 1970. *Industrial Slavery in the Old South.* Oxford University Press, New York.
Stein, Robert. 1980. "Mortality in the Eighteenth-Century French Slave Trade." *Journal of African History* 21, no. 1.
Stockwell, John. 1979. *In Search of Enemies.* Futura Publications, London.
Stoddard, T. Lothrop. 1914. *The French Revolution in San Domingo.* Houghton Mifflin, Boston.
Stokes, Rose Pastor. 1923. "The Communist International and the Negro." *The Worker*, 10 March.
Stolberg, Bett. 1935. "Black Chauvinism." *The Nation*, 15 May.
Stone, Carl. 1973. *Class, Race and Political Behaviour in Urban Jamaica.* Press University of the West Indies, Mona.
Stone, Norman. 1980. "The Many Tragedies of Haiti." *Times Literary Supplement*, 15 February.

St. Pierre, Maurice. 1973. "West Indian Cricket—A Socio-Historical Appraisal, Part 1." *Caribbean Quarterly* 9, no. 2.
Strauss, Eric. 1951. *Irish Nationalism and British Democracy*. Colombia University Press, New York.
Street, Brian. 1975. *The Savage in Literature*. Routledge and Kegan Paul, London.
Stephenson, Wendell Holmes. 1964. *Southern History in the Making*. Louisiana State University Press, Baton Rouge.
Strachey, John. 1939. "Communism in Great Britain." *Current History*, January.
Stuart, James. 1913. *A History of the Zulu Rebellion*. Macmillan, London.
Studi Colombiani, vol. 2. 1952. Stabilimento Arti Grafiche (ed.) Affini, Genova.
Styron, William. 1978. "Hell Reconsidered." *New York Review of Books* 25, no. 11.
Sweezy, Paul. 1971. "Workers and the Third World." *The Revival of American Socialism*, ed. George Fischer. Oxford University Press, New York.
Sweezy, Paul, et al. 1976. *The Transition from Feudalism to Capitalism*. New Left Books, London.
Symons, Julian. 1975. *The Thirties: A Dream Revolved*. Faber and Faber, London.
Tassin, Algernon. 1916. *The Magazine in America*. Dodd, Mead, New York.
Taussig, Michael. 1979. "Black Religion and Resistance in Colombia: Three Centuries of Social Struggle in the Cauca Valley." *Marxist Perspectives* 2, no. 2.
Tawney, R. H. 1950. "A History of Capitalism." *Economic History Review*, 2d ser., vol. 2, no. 3.
Taylor, A. E. 1966. *Plato, the Man and His Work*. World Publishing, Cleveland.
Taylor, A. J. 1960. "Progress and Poverty in Britain." *History* 45, February.
Taylor, Theman. 1981. "Cyril Briggs and the African Blood Brotherhood: Effects of Communism on Black Nationalism, 1919–35." Unpublished Ph.D. diss.
Taylor, William B. 1970. "The Foundation of Nuestra Senora de Guadalupe de los Morenos de Amapa." *The Americas* 26, no. 4.
Thomas, Hugh. 1961. *The Spanish Civil War*. Harper and Row, New York.
Thomas, John L. 1963. *The Liberator: William Lloyd Garrison*. Little, Brown, Boston.
Thompson, E. P. 1966. *The Making of the English Working Class*. Vintage, New York.
——. 1967. "Time, Work-Discipline, and Industrial Capitalism." *Past and Present*, no. 38.
——. 1974. *Whigs and Hunters*. Pantheon, New York.
——. 1978. *The Poverty of Theory*. Monthly Review Press, New York.
——. 1981. "The Politics of Theory." *People's History and Socialist Theory*, ed. Raphael Samuel. Routledge and Kegan Paul, London.
Thomson, George. 1977. *The First Philosophers*. Lawrence and Wishart, London (orig. 1955).
Thorpe, Earl(ie) E. 1970. *Black Historians*. William Morrow, New York.
Thrupp, S. 1951. "The Grocers of London: A Study of Distributive Trade." *Studies in English Trade in the Fifteenth Century*, ed. Eileen Power and M. M. Postan. Routledge and Kegan Paul, London.
Tigar, Michael, and Madeline Levy. 1977. *Law and the Rise of Capitalism*. Monthly Review Press, New York.
Times Literary Supplement. 1973. Articles by E. E. Evans-Pritchard, M. Douglas, Edmund Leach, Lucy Mair, and Rodney Needham, 6 July.
Trelease, Allen. 1971. *White Terror*. Harper Torchbooks, New York.
Trevor-Roper, Hugh. 1963a. "The Rise of Christian Europe I: The Great Recovery." *The Listener*, 28 November.
——. 1963b. "The Rise of Christian Europe: The Dark Ages." *The Listener*, 12 December.
——. 1963c. "The Rise of Christian Europe: The Crusades." *The Listener*, 19 December.
——. 1963d. "The Rise of Christian Europe: The Medieval Renaissance." *The Listener*, 26 December.
——. 1965. *The Rise of Christian Europe*. Harcourt, Brace and World, New York.
Trotman, D. V. 1976. "The Yoruba and Orisha Worship in Trinidad and British Guiana, 1838–1870." *African Studies Review* 19, no. 2.
Trotsky, Leon. 1964. *The Writings of Leon Trotsky*, vol. 6. Martin Secker and Warburg, London.
Tuchman, Barbara. 1977. *A Distant Mirror*. Ballantine Books, New York.
Tucker, Robert. 1971. *Philosophy and Myth in Karl Marx*. Cambridge University Press, Cambridge.
—— (ed.). 1972. *The Marx-Engels Reader*. W. W. Norton, New York.
——. 1977. *Stalinism*. W. W. Norton, New York.
Tutuola, Amos. 1954. *My Life in the Bush of the Ghosts*. Faber and Faber, London.
Ullmann, Walter. 1965. *The Growth of Papal Government in the Middle Ages*. Methuen, London.
"Uncle Tom at Home." 1856. *Putnam's Monthly* 8, no. 43.
Uribe, Jaramillo. 1964. "La publicacion indigene de Colombia en el momento de la Conquista y sus transformaciones posteriores." *Anuario Colombiano de historia social y de la cultura* 1, no. 2.
Vansina, Jan. 1966. *Kingdoms of the Savanna*. University of Wisconsin Press, Madison.
Verlinden, Charles. 1953. "Italian Influence in Iberian Colonization." *Hispanic American Historical Review* 33, no. 2.

——. 1955. *L'esclavage dans l'Europe medievale*, vol. 1. Peninsule Iberique, Bugge, France.
——. 1958. "Navigateurs, marchands et colons italiens au service de la decouverte et de la colonisation portugaise sous Henri le Navigateur." *Le Moyen Age* 64, no. 4.
——. 1970. *The Beginnings of Modern Colonization*. Cornell University Press, Ithaca.
Vidal, Gore. 1981. "The Second American Revolution?" *New York Review of Books*, 5 February.
Vila, Enriqueta. 1977. "The Large-Scale Introduction of Africans into Veracruz and Cartagena." *Comparative Perspectives on Slavery in New World Plantation Societies*, ed. Vera Rubin and Arthur Tuden. *Annals of the New York Academy of Sciences* 292.
Vincent, Theodore. 1972. *Black Power and the Garvey Movement*. Ramparts, San Francisco.
Walden, Daniel (ed.). 1972. *W. E. B. Du Bois: The Crisis Writings*. Fawcett, Greenwich.
Wallerstein, Immanuel. 1974. *The Modern World System*. Academic Press, New York.
——. 1980. *The Modern World System II*. Academic Press, New York.
Ward, Sir Adolphus W. 1917. *Germany 1815–1890*, vol. 2. Cambridge University Press, Cambridge.
Ward, J. T. (ed.). 1970. *Popular Movements c. 1830–1850*. Macmillan, London.
——. 1974. *Chartism*. Harper and Row, New York.
Webb, Constance. 1968. *Richard Wright*. Putnam, New York.
Webb, R. 1971. *The British Working Class Reader*. Kelley, New York.
Weir, Stanley. 1981. "Revolutionary Artist." *Urgent Tasks* 12.
Weisbord, Robert. 1973. *Ebony Kinship*. Greenwood Press, Westport.
Westermann, William L. 1955. *The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity*. American Philosophical Society.
Widgery, David. 1981. "A Meeting with Comrade James." *Urgent Tasks* 12.
Wiecek, William. 1978. "Slavery and Abolition before the United States Supreme Court, 1820–1860." *Journal of American History* 65, no. 1.
Wilks, Ivor. 1975. *Asante in the Nineteenth Century*. Cambridge University Press, London.
Williams, Eric. 1962. *History of the People of Trinidad and Tobago*. People's National Movement Publishing Co., Port-of-Spain.
——. 1966. *Capitalism and Slavery*. Capricorn Books, New York.
——. 1969. *Inward Hunger*. Andre Deutsch, London.
——. 1970. *From Columbus to Castro*. Harper and Row, New York.
Williams, George Washington. 1883. *A History of the Negro Race in America from 1619 to 1880*. G. P. Putnam's Sons, New York.
Williams, Raymond. 1971. "Literature and Sociology." *New Left Review*, no. 67.
Williams, William Appleman. 1980. "Empire as a Way of Life." *The Nation*, 2–9 August.
Wilson, Basil. 1981. "The Caribbean Revolution." *Urgent Tasks* 12.
Wilson, Carus. 1951. "The Overseas Trade of Bristol." *Studies in English Trade in the Fifteenth Century*, ed. Eileen Power and M. M. Postan. Routledge and Kegan Paul, London.
Wish, Harvey. 1970. "American Slave Insurrections before 1861." *Justice Denied*, ed. William Chace and Peter Collier. Harcourt, Brace and World, New York.
Wolin, Sheldon. 1960. *The Politics of Vision*. Little, Brown, Boston.
Wood, Donald. 1968. *Trinidad in Transition: The Years after Slavery*. Oxford University Press, for the Institute of Race Relations, London.
Wood, Forrest. 1968. *Black Scare: The Racist Response to Emancipation and Reconstruction*. University of California Press, Berkeley.
Wood, Neal. 1959. *Communism and British Intellectuals*. Victor Gollancz, London.
Wood, Peter. 1975. *Black Majority*. Norton, New York.
Woodward, C. Vann. 1963. *Tom Watson: Agrarian Rebel*. Oxford University Press, New York.
Wright, Irene. 1930. "The Spanish Resistance to the English Occupation of Jamaica, 1655–1660." *Transactions of the Royal Historical Society*, 4th ser., vol. 12.
Wright, Richard. 1944. "I Tried to Be a Communist." *Atlantic Monthly*, August and September.
——. 1945. *Black Boy*. Harper and Row, New York.
——. 1953. *The Outsider*. Harper, New York.
——. 1954. *Black Power*. Harper and Brothers, New York.
——. 1957. *White Man Listen!* Doubleday, Garden City.
——. 1960. "The Voiceless Ones." *Saturday Review*, 16 April.
——. 1977. *American Hunger*. Harper and Row, New York.
——. 1980. "Blueprint for Negro Writing." *Race and Class* 21, no. 4 (orig. 1937).
Wright, Richard R. 1902. "Negro Companions of the Spanish Explorers." *American Anthropologist* 4, no. 2.
Wynter, Sylvia. 1981. "In Quest of Matthew Bondsman: Some Cultural Notes on the Jamesian Journey." *Urgent Tasks* 12.
Yansane, Aguibou (ed.). 1980. *Decolonization and Dependence*. Greenwood Press, Westport.
Yates, Frances A. 1979. *The Occult Philosophy in the Elizabethan Age*. Routledge and Kegan Paul, London.

Yates, Names. 1978. Interview with C. J. Robinson. Binghamton, New York, 26 April.
Zambardino, Rudolph A. 1980. "Mexico's Population in the Sixteenth Century: Demographic Anomaly or Mathematical Illusion?" *Journal of Interdisciplinary History* 11, no. 1.
Zeller, Edward. 1948. *Outline of the History of Greek Philosophy*. Routledge and Kegan Paul, London.
Zinn, Howard. 1970. *The Politics of History*. Beacon Press, Boston.
——. 1980. *A People's History of the United States*. Harper and Row, New York.

مسرد بأهم الأعلام والمصطلحات الواردة بالكتاب

– الخمسينية Pentecostalism: طائفة مسيحية حديثة تؤكـد علـى دور الروح القدس في الحياة والخبرة المباشرة للمـؤمن لوجـود الـرب. تؤكـد الخمسينية على أن الإيمان ليس مجرد فكرة أو عقيدة نظرية، بـل "تجربـة ممارسة فعالة". وتستند إلى وجود قوة الرب المحركة داخل نفوس وأجـساد المؤمنين. تستمد هذا الطائفة اسمها من الاحتفال الخمسيني Pentecost الـذي يوافق ذكرى مرور خمسين يوما على عيد القيامة (ويعرف بعيد الفصح من الكلمة العبرية القديمة "فيصاح Pesah"، والتي تعني حماية ورعايـة الـرب لليهود في خروجهم من مصر). وفي المسيحية يخلد عيد القيامة ذكرى قيامة (بعث) السيد المسيح في اليوم الثالث لصلبه، وفقا للعقيدة المسيحية. وتعتبـر الطائفة الخمسينية أن هذا اليوم "الخمسيني" للبعث هو نقطة مـيلاد الكنيـسة المسيحية وبداية مهمة المسيحية في العالم.

– الإتروسكان Etruscan: لغة إيطالية قديمة تنـسب لإقلـيم إترورايـا Etruria؛ الأوسكان Oscan لغة قديمة منقرضة كانت تتركز في أجزاء من جنوب إيطاليا، كانت لغة حية خلال الفترة من ٥٠٠ قبل الميلاد إلى ١٠٠٠ ميلاديـة؛ الأمبريان: لغة منقرضة كان يتكلمها شعب الأمبري Umbri فـي إقلـيم أمبيريـا في إيطاليا.

- الأخلاق النيقوماخية Nicomachean Ethics: مجلد من عشرة كتب في الأخلاق، ونيقوماخوس هو ابن أرسطو المهدى إليه النصائح والأخلاقيات التي تضمن للإنسان حياة أفضل.

- أرنولد توينبي: مؤرخ اقتصادي بريطاني وُلد في ٢٣ أغسطس ١٨٥٢ وتوفي في ٩ مارس ١٨٨٣، عُرف بالتزامه نحو المجتمع ورغبته في تحسين الظروف المعيشية للطبقة العاملة.

- الأرواحية Animism (من اللاتينية بمعنى "الروح، الحياة) عبارة عن الاعتقاد الديني بأن الظواهر الطبيعية، بما في ذلك الحيوانات والنباتات وحتى الجمادات أحيانا، لها جوهر روحي. وبالتحديد، تستخدم الأرواحية في أنثروبولوجيا الأديان كمصطلح لأديان الشعوب القبلية المحلية، خاصة قبل تطور الحضارة والأديان المنظمة. تشمل الأرواحية الاعتقاد بأنه ليس هناك فصل بين العالم الروحي أو المادي (الطبيعي)، وأن الأرواح لا توجد في البشر وحسب، ولكنها توجد أيضا في كل الحيوانات والنباتات والصخور والملامح الجغرافية مثل الجبال والأنهار أو الكيانات الأخرى في البيئة الطبيعية. بل إن الأرواحية يمكن أن تنسب الروح إلى مفاهيم مجردة مثل الكلمات أو الأسماء الحقيقية أو الاستعارات في الأساطير.

- إسبانيا الجديدة Nueva Espana: مستعمرات تابعة لإسبانيا عبر البحار كانت تضم ما تمثله اليوم معظم أمريكا الشمالية (إلى الجنوب من كندا) وأمريكا الوسطى والأطراف الشمالية من أمريكا الجنوبية. وكان الاسم يطلق أيضا على مستعمرات إسبانيا في شرق آسيا فيما كان يعرف باسم جزر الهند الشرقية وبصفة خاصة في كل من الفلبين وتايوان وجزر الملوك. .

- الأسينتو Asiento: مصطلح يعود في تاريخ الرق إلى التصريح الذي منحته الحكومة الإسبانية للدول الأخرى بما يسمح لهم ببيع البشر كعبيد إلى المستعمرات الإسبانية، وذلك في الفترة الممتده من ١٥٤٣ وحتى ١٨٣٤.

- الاشتراكية الأيونية (المذهب الأويني) Owenism، فلسفة اشتراكية طوباوية في القرن التاسع عشر منسوبة إلى مؤسسها المُصلح الاجتماعي روبرت أوين Owen ومن سار على نهجة من "الأوينيين". تهدف الأوينية إلى الإصلاح الجذري للمجتمع. أخذت الحركة على عاتقها الكثير من التجارب لإقامة مجتمعات طوباوية قائمة على مبادئ التعاونية والمجتمعية.

- الاشتراكية العلمية Scientific socialism: مصطلح استخدمه فريدريك إنجلز لوصف النظرية الاجتماعية السياسية الاقتصادية، والذي كان كارل ماركس أول روادها. والسبب وراء تسمية تلك الاشتراكية بـ- "العلمية" (بدلا من الاشتراكية الطوباوية) هو أن نظرياتها تقوم على مستوى تجريبي، والملاحظات عنصر أساسي في تطورها، بما يؤدي إلى تعديل عناصر النظرية.

- الأكان Akan: مجموعة عرقية موطنها الأصلي غانا وساحل العاج، ويقترب عددهم اليوم من حوالي ٢٠ مليون نسمة.

- جا- اندانجميGa-Andangme: مجموعة عرقية في توجو ومنطقة أكرا الكبرى في غانا.

- إلبا الشرقية East Elba جزيرة تتبع إقليم توسكانيا في إيطاليا وتقع قبالة الساحل الغربي الأوسط للبلاد.

- إليزابيث الأولى Elizabeth I of England (٧ سبتمبر ١٥٣٣- ٢٤ مارس ١٦٠٣) ملكة إنجلترا وأيرلندا من ١٧ نوفمبر ١٥٥٨ وحتى وفاتها. لُقبت بألقاب مختلفة من بينها "الملكة العذراء" و"المجيدة"، أو "الملكة الصالحة بيس Bess". ورثت الحكم في فترة مضطربة سياسيا، وتبنت نهجا معتمدا على المشورة واستعانت بعدد كبير من المستشارين. كانت أول خطوة تقوم بها كملكة تأسيس الكنيسة البروتستانينية، وتبوأت منها موقع الحاكم العام. وتركت هذه الخطوة بصماتها على المذهب الديني في إنجلترا إلى اليوم. كان من المتوقع أن تتزوج إليزابيث لتقدم وريثًا يكمل سلالة أسرتها، لكنها لم تفعل، على الرغم من طلبات الزواج الكثيرة. وكلما تقدم بها العمر، زادت شهرتها لعذريتها، والاحتفاء بها ظل ملازما لها في الصور، والمواكب، والأدب حتى اليوم.

- أليكسندرينا فيكتوريا Alexandrina Victoria (٢٤ مايو ١٨١٩ – ٢٢ يناير ١٩٠١) ملكة على عرش بريطانيا العظمى وأيرلندا من ١٨٣٧ وحتى ١٨٧٦. وهي ابنة الأمير إدوارد. وتزوجت من ابنة عمها الأمير ألبرت في ١٨٤٠. أنجبت تسعة أبناء تزوجوا من أسر ملكية في عموم القارة الأوربية مما منحها لقب "جدة أوربا". اعتلت العرش وهي دون العشرين وماتت عن عمر ناهز ٨٣ عاما، واستمر حكمها نحو ٦٣ عاما مما حدا بالمؤرخين إلى تسمية فترة حكمها بـ- "العصر الفيكتوري" وقد منح الرحالة الإنجليز في عهدها أسماء عائلتها الملكية أهم وأشهر مناطق منابع نهر النيل مثل: بحيرة فيكتوريا، وبحيرة إدوارد (احتفاء بالأب)، وبحيرة ألبرت (احتفاء بالابن)..

- الأممية الشيوعية (الكومنترن Comintern) تعرف أيضا باسم الأممية الثالثة (١٩١٩-١٩٤٣) منظمة أممية شيوعية تأسست في موسكو عام ١٩١٩. هدفت تلك الأممية إلى محاربة وإسقاط البرجوازية العالمية "بكل الوسائل المتاحة بما في ذلك القوة العسكرية"، وإنشاء الجمهورية السوفيتية الدولية كمرحلة انتقالية نحو الإلغاء الكامل للدولة. عقدت الكومنترن ٧ مؤتمرات عالمية بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٥، وكان لها أيضًا ١٣ "جمعية عمومية موسعة" للجنتها التنفيذية الحاكمة، تقوم بنفس دور المؤتمرات بشكل أكبر. قام جوزيف ستالين بحل الكومنترن رسميا في عام ١٩٤٣.

- أنجلوساكسون Anglo-Saxons: قبائل جرمانية غزت وسكنت بريطانيا في القرن الخامس والسادس، قادمين من شمال ألمانيا وهولندا والدنمارك، حيث اتجهوا نحو بحر الشمال على متن مراكب خشبية واستوطنوا جهات بريطانيا الجنوبية والشرقية. وقد كانوا عندئذ ثلاث قبائل، هم الأنجل والسكسون والقوط.

- أنجليا الشرقية East Anglia: إقليم في شرق إنجلترا، وميدلاندس Midlands: إقليم في وسط إنجلترا.

- أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci (٢٢ يناير ١٨٩١- ٢٧ أبريل ١٩٣٧) مفكر إيطالي، كاتب وسياسي ومنظر سياسي واجتماعي ولغوي. كان عضوا مؤسسا وقائدا للحزب الشيوعي الإيطالي، وسجنه نظام بينيتو موسوليني الفاشي. كان جرامشي واحدا من أهم المفكرين الماركسيين في القرن العشرين، تركزت كتاباته على تحليل الثقافة والقيادة السياسية، وهو معروف بأنه مفكر شديد الأصالة في الفكر الأوروبي الحديث. وهو مشهور بمفهوم "الهيمنة الثقافية cultural hegemony" كوسيلة لاستمرار الدولة في المجتمع الرأسمالي.

– أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (١٥ أبريل ١٥٩٩– ٣ سبتمبر ١٦٥٨) قائد سياسي وعسكري إنجليزي. ولد في طبقة النبلاء الوسطى، وظل غامضًا نسبيًا في الـ– ٤٠ سنة الأولى من حياته. بعد قيامه بتغيير ديانته في الثلاثينيات من القرن السابع عشر، أصبح بروتستانتيا مستقلا. كان يعتقد أن انتصاراته ملهمة بدعم إلهي. تم انتخابه عضوا في البرلمان عدة مرات خلال الفترة من ١٦٢٨–١٦٥٠. دخل الحرب الأهلية الإنجليزية إلى جانب القوات الثورية ضد القوات الملكية وترقى من قيادة فرقة واحدة من الفرسان إلى أحد القادة الرئيسيين للجيش النموذجي الجديد، مؤديًا دورًا مهمًا في هزيمة القوات الملكية. قاد حملة إنجليزية لقمع التمرد في إنجلترا بين عامي ١٦٤٩ و ١٦٥٠، وألحقت هزيمة ساحقة بالثائرين الأيرلنديين وأشاعت مناخا من الرعب والخوف في البلاد.

– إيمليانو زاباتا Emiliano Zapata (1879-1919) مصلح زراعي وقائد جيش تحرير الجنوب خلال الثورة المكسيكية. حملت اسمه حركة زاباتيستا Zapatista جيش زاباتستا للتحرر الوطني Ejército Zapatista de Liberación Nacional, EZLN) (اختصارا EZLN)، وهي جماعة يسارية ثورية مقرها تشياباس Chiapas، الولاية الواقعة في أقصى جنوب المكسيك.

– الإيوي Ewe: مجموعة عرقية في توجو وحوض نهر الفولتا.

– باربادوس Barbados: جزيرة ضمن أرخبيل جزر الأنتيل الصغرى في البحر الكاريبي. يبلغ طولها ٣٤ كم، وعرضها حوالي ٢٣ كم، وتغطي مساحة قدرها ٤٣١ كم٢. تبعد حوالي ١٧٠كم إلى الشمال من جزر جرينادا، و٤٠٠ كم شمال ترينداد وتوباجو.

- بريستر جون Prester John: أسطورة انتشرت في أوروبا فيما بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر، اعتقدت الأسطورة في وجود بطريرك يحكم مملكة مسيحية مفقودة وسط أراضي المسلمين والوثنيين في المشرق. تتألف التقارير المكتوبة عن تلك المملكة من مجموعة متنوعة من الخيال الشعبي في العصور الوسطى. وُصف بريستر جون بأنه حاكم ورع سخي تحت إمرته عالم كامل من الثروات والمخلوقات الغريبة. ضمّت مملكته معجزات البوابات التي تفتح على عالم برابرة يأجوج ومأجوج، ونافورة الشباب، وأحاطت بها الجنة الدنيوية. من بين الكنوز كان هناك مرآة يمكن من خلالها رؤية كل إمارة تابعة لمملكته.

- بليمي Blemmyes: اسم أسطوري (يعني "بلا رأس") لقبائل كان يعتقد أنها تعيش في أفريقيا وبالتحديد في النطاق الممتد من مصر إلى الحبشة. الشكل الخرافي لهذه القبائل يشبهها بأناس لا رؤوس لهم، حيث تبزغ العينان والأنوف والشفاه على الصدور.

- بيدمونت (بيمونت) Piedmont أحد أقاليم إيطاليا العشرين، ويقع في شمال غرب إيطاليا على الحدود مع فرنسا. ويسكنه حوالي ٤,٤ مليون نسمة. ومدينة تورين هي عاصمة هذا الإقليم. واللغة المحلية الرئيسة هي البيمونتية. ويأتي اسم بيدمونت من لاتينية العصور الوسطى، وتعني "عند سفح الجبال". وكان بيدمونت نقطة الانطلاق المبدئية لتوحيد إيطاليا في ١٨٥٩- ١٨٦١، عقب الحروب السابقة غير الناجحة ضد الإمبراطورية النمساوية في ١٨٢٠- ١٨٢١ و١٨٤٨- ١٨٤٩. وأصبحت أسرة سافوي الأسرة الملكية الحاكمة لإيطاليا، وصارت معها تورين عاصمة البلاد. ولكن مع ضم مزيد من الأراضي الإيطالية وتوحيدها حدث انخفاض في أهمية بيدمونت بالنسبة للمملكة ككل، وانتقلت العاصمة إلى فلورنسا، ثم إلى روما.

– بيسا الإنديز peça da India, and pieza de India: وحدة سعر لقيمة العبد (رجلا او امرأة)، وكانت تساوي بيسا كاملة للعبد الذي يتراوح عمره بين ١٥ إلى ٢٥. أما العبد الذي يتراوح عمره بين ٢٥ و ٣٥ أو بين ٨ إلى ١٥ عاما فكان يُثمّن بـ ٢/٣ بيسا. وكان العبيد خارج هذه الفئة العمرية وأولئك العجزة فيقدّرون بقيم أقل تصل إلى نصف أو ربع بيسا.

– بيكارديا Picardy إقليم في شمال فرنسا، الباسك Basque جماعة عرقية تسكن المنطقة الحدودية بين فرنسا وإسبانيا في غرب جبال البرانس (بيرنيه) على ساحل خليج بسكاي الواقع على المحيط الأطلنطي؛ نفاريا Navarre إقليم في شمالي إسبانيا إلى جوار الباسك؛ جالويا Galloway منطقة في جنوب غرب إسكتلندا، دالماشيا Dalmatia: إقليم ساحلي في جنوب غرب يوجسلافيا السابقة (في كرواتيا حاليا)؛ كورسيكا Corsica: جزيرة في البحر المتوسط بين فرنسا وإيطاليا، تتبع اليوم السيادة الفرنسية؛ جلدريا Gueldrian: إقليم في وسط شرق هولندا حاليا. أليجاو Allgaeu: إقليم في جنوب ألمانيا حاليا..

– بيوت العمال Workhouse في إنجلترا وويلز، مكان يتوفر فيه للمعوزين والفقراء الإقامة والعمل. يرجع أول ظهور لهذا المصطلح إلى عام ١٦٣١، في كلمة لعمدة مدينة أبينجدون مُصرحًا فيها "أنشأنا بيتا للعمال في بلدتنا لإلحاق الفقراء بالعمل". ترجع جذور بيت العمل إلى قانون الفقراء لسنة ١٣٨٨، والذي حاول تدارك النقص في العمالة عقب تفشي مرض الطاعون "الموت الأسود" في إنجلترا عن طريق تقييد حركة العمال والتحكم في تنقلاتهم، وأدّى في نهاية المطاف إلى أن تصبح الدولة مسئولة عن مساعدة الفقراء. لكن البطالة الجماعية التي أعقبت الحروب النابليونية

في عام ١٨١٥، والأخذ بتقنية جديدة تحل محل العمال الـــزراعيين بـــشكل خاص، وسلسلة من مواسم الحصاد السيئة، أثبتت بحلول أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أن النظام القائم لإعانة الفقراء غير مـــستدام. وتطلّعـــت بعض السلطات إلى إدارة بيوت العمل بهدف الربح عن طريق الاستفادة من العمل المجاني لنزلاء تلك البيوت، والذين يفتقرون بشكل عام إلى المهارات أو الدوافع التي تؤهلهم للمنافسة في السوق المفتوحة، وكانت تُسند لأغلـــبهم مهام مثل تكسير الصخور، طحن العظام لإنتاج السماد. كان من المتعمـــد أن تكون الحياة في بيت العمل قاسية لتحديد القادرين على العمل مـــن الفقـــراء، ولضمان أن يكون المتقدمون من المُستحقين فعلاً. حلّ القرن التاسع عـــشر ببطء وتحولت بيوت العمل إلى ملاجئ للعجزة والمقعدين والمرضى بدلاً من الفقراء القادرين على العمل، وفي عام ١٩٢٩ سُنّ قانون يـــسمح للـــسلطات المحلية بتسلم مستشفيات بيت العمل كمستشفيات بلدية. على الرغم من إلغاء بيوت العمل بنفس القانون في عام ١٩٣٠، استمر وجود الكثير منها بمُسمى جديد وهو مؤسسات الإعانة العامة وكانت تحت سيطرة السلطات المحليـــة. وظل الأمر كذلك حتى إصدار قانون المعونة الوطنية لعام ١٩٤٨، والـــذي قضى على آخر أثر لقانون الفقراء ومعه بيوت العمل.

– بيوريتانية Puritanism أو تطهُرية: مذهب مسيحي بروتستانتي يجمع خليطًا من الأفكار الاجتماعية، السياسية، اللاهوتية، والأخلاقية. وقد ظهـــر هذا المذهب في إنجلترا في عهد الملكة إليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونادى بإلغاء اللباس والرتب الكهنوتية. وتستند تعاليم هذا المذهب إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدرا وحيدا للعقيدة الدينيـــة

من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة. كثيرًا ما يستخدم مصطلح "البيوريتاني" بشكل خاطئ، ولاسيما على أساس افتراض أنه يعني "التزمت" و"الالتزام بالأحكام المتصلبة". وقد تم التضييق على البيروتانيين في إنجلترا عن طريق القوانين التي تحكم ممارسة الشعائر الدينية، ولكن انتقلت آراؤهم عن طريق الهجرة إلى هولندا ومن بعدها نيو إنجلند، ومع الكهنة الإنجليزيين إلى أيرلندا ومن بعدها ويلز، وانتشرت بعد ذلك في المجتمع العادي عن طريق التبشير والوعظ وأجزاء من النظام التعليمي، وخاصة في بعض كليات جامعة كامبريدج.

- تجديد التعميد Anabaptists: حركة إصلاحية راديكالية مسيحية ظهرت في القرن السادس عشر في أوروبا، اختلف النقاد في مدى ارتباطها بالمذهب البروتستانتي. يشترط الانضمام إلى هذه الحركة المرور بطقس إعادة التعميد (رش الماء الكنسي). وبينما يعتبر أنصار هذه الحركة أن التعميد يستلزم أن يكون الإنسان واعيا وقادرا على الإدلاء بالاعترافات الإيمانية، يسخر في المقابل منتقدو هذه الحركة من أن طقس إعادة التعميد يعيد المنضمين إلى هذه الحركة إلى "طفولة جديدة" يرجع معها الشخص فيها إلى مرحلة الرضاعة. ويرفض أعضاء هذه الحركة اسم "مجددو التعميد"، مدعين أن تعميد الأطفال غير ديني ولاغٍ وباطل لأنه يتم لمن لا إرادة عقلية لديهم، وأن ما يمرون به من تعميد لم يكن "تجديد" لتعميدهم ولكنه في الحقيقة أول تعميد بالنسبة لهم.

- تشامبين Champagne: إقليم تاريخي في شمال شرق فرنسا؛ لومبارديا: Lombardy إقليم في شمال غرب إيطاليا.

– تمرد الفلاحين (أو تمرد الجاكري) Jacquerie: تمرد شعبي في شمال فرنسا في صيف عام ١٣٥٨م خلال حرب المائة عام. عرف في اللغة الفرنسية نسبة إلى الوصف الذي أطلقته السلطة على الفلاحين ذوي الثياب الفقيرة الرثة التي تشبه "أردية الكهنوت المبطنة Jacques " وبالتالي فالجاكري Jacquerie هو ذلك الفلاح المتمرد المرتدي لتلك الملابس. تمكنت الدولة من سحق التمرد بعد عدة أسابيع من الأحداث العنيفة والدموية.

– تمرد بوكسر Boxer Rebellion: حركة قامت بها جمعية الوفاق الصالح في الصين في الفترة بين عام ١٨٩٧ و عام ١٩٠١، والتي عارضت الإمبريالية الأجنبية والمسيحية المرافقة لها. حدثت تلك الانتفاضة على خلفية الجفاف الشديد والاضطراب الاقتصادي الذي تسبب به النفوذ الأجنبي المتزايد. وتراوحت الشكاوى من الغزو السياسي بدءًا من حرب الأفيون والتوغلات الاقتصادية إلى العمل التبشيري المسيحي، والتي لا تستطيع دولة الأمير تشينج الضعيفة التغلب عليها. بعد عدة شهور من العنف المتزايد ضد الوجود الأجنبي والمسيحية في شاندونج والسهل الشمالي الصيني؛ في يونيو عام ١٩٠٠ كان مقاتلو البوكسر مقتنعين بأنهم محصنون ضد الأسلحة الأجنبية، وتمركزوا في بكين واتخذوا شعار "دعم تشينج، إبادة الأجانب"، وأجبروا الأجانب والمسيحيين الصينيين على البحث عن ملجأ في حي الانتداب. ظلّ الدبلوماسيون، والمدنيون الأجانب، والجنود، والمسيحيون الصينيون تحت الحصار في حي الانتداب بواسطة الجيش الإمبراطوري الصيني (الذي ساند البوكسريين) لمدة ٥٥ يومًا. أوفد تحالف الدول الأجنبية ٢٠ ألفًا من القوات المسلحة إلى الصين، أوقعت هزيمة بالجيش

الإمبراطوري الصيني والبوكسريين واستولت على بكين في ١٤ أغسطس، ورفع الحصار عن الدبلوماسيين. وتلا ذلك عمليات نهب للعاصمة وإعدام كل من يشتبه في انتمائه للبوكسريين.

– التوالد الاجتماعي Social Reproduction: انتقال البنى والأنساق والأنشطة الإنسانية وأشكال التفاوت الاجتماعي من جيل إلى جيل آخر في مجتمع بعينه. وهناك عدة عوامل تتحكم في هذا الانتقال مثل الأبعاد الاقتصادية والثقافية والبشرية والاجتماعية.

– التيوتون Teutons: قبيلة جرمانية كانت تعيش في أقصى شمال ألمانيا (منطقة يوتلاند في الدانمارك حاليا).

– الجارامانت Garamantes، كلمة مشتقة على الأرجح من لغة البربر في شمال أفريقيا من كلمة Igherman والتي تعني سكان المدن. أو من كلمة igarraman وتعني "شعوب مقدسة". وهي جماعة سكنت الصحراء واستخدمت نظام الري الجوفي بطريقة شديدة الإتقان، وقاموا بتأسيس مملكة بربرية مزدهرة في منطقة فزان، والتي تقع حاليًا في صحراء ليبيا. شكلّوا قوة محلية في الصحراء في الفترة من عام ٥٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ٧٠٠ ميلادية. هناك القليل من المعلومات المكتوبة عن الجارامنت، حتى إن اسم "جارامنت" هو اسم يوناني تبناه الرومانيون بعد ذلك. تأتي معظم المعلومات من مصادر يونانية ورومانية، وكذلك الحفريات الأثرية في المنطقة، وعلى الرغم من ذلك لا يزال هناك مناطق واسعة لم يتم التنقيب فيها بعد. هناك مصدر مهم آخر للمعلومات، وهي اللوحات الفنية الحجرية الكثيرة، والتي غالبًا تصور الحياة قبل ظهور العالم.

– جزيرة فرنسا Île-de-France: المنطقة المحيطة بباريس، الأكثر ثراء وكثافة في السكان.

– الجمعية التاريخية والأدبية بكنيسة بيتل Bethel Literary and Historical Society: جمعية أسسها دانيال باين Daniel Payne مطران الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية في عام ١٩١٥ على أقل تقدير. كانت تمثل تطورًا مهمًا للغاية في المجتمع الأفرو-أمريكي في واشنطن العاصمة. كان معظم أعضائها الأوائل أعضاء في مطرانية الكنيسة الأسقفية الميثودية الأفريقية حيث كانت تُعقد اجتماعاتهم، مع الحفاظ على الدعوة العامة للسود من جميع أنحاء واشنطن. وسرعان ما تطورت لتصبح جمعية بارزة تناقش القضايا العنصرية في واشنطن العاصمة، ونوقش مشهد فصل الأطفال السود في المدارس بشكل حماسي في الأعوام ١٨٨١/١٨٨٢، وأيضًا أفكار بروكر. تي. واشنطن Booker T. Washington و دو بويز W. E. B. Du Bois في عام ١٩٠٣.

– جمهورية ليجوريا The Ligurian Republic: دولة تابعة قصيرة الأجل أقامها نابليون في ١٤ يونيو عام ١٧٩٧. تكونت من جمهورية جنوة القديمة، والتي تشمل معظم إقليم ليجوريا في شمال غرب إيطاليا والإقطاعيات الإمبريالية الصغيرة التي تملكها أسرة سافوي داخل أراضيها. صدر دستورها الأول في ٢٢ ديسمبر عام ١٧٩٧ مؤسسًا جمهورية إدارية. احتلتها القوات النمساوية لفترة وجيزة في عام ١٨٠٠، ولكن سرعان ما عاد نابليون بجيشه. وتم أيضًا نشر الدستور الجديد في عام ١٨٠١. في يونيو عام ١٨٠٥، تم ضم المنطقة مباشرة إلى فرنسا، وبعد سقوط نابليون في عام ١٨١٤، تم استعادة الجمهورية في الفترة بين ٢٨ أبريل و ٢٨ يولية. بعد مؤتمر فيينا، صارت تابعة لمملكة سيردينيا التي ضمتها في يناير عام ١٨١٥.

- جوزيف نابليون بونابرت، الأخ الأكبر لنابليون (الأول) بونـــابرت، ولد في ٧ يناير ١٧٦٨ وتوفي في ٢٨ يوليو ١٨٤٤. نصّبه نــابليون ملكــا لنابولي وصقلية للفترة من (١٨٠٦-١٨٠٨)، وبعد ذلك لإسبانيا في الفترة من (١٨٠٨-١٨١٣) تحت اسم جوزيف الأول.

- جون براون John Brown: مناضل أمريكي في سبيل حرية العبيــد، ولد في ٩ مايو عام ١٨٠٠ وتوفي في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٩. رأى جــون براون أن العصيان المسلح هو السبيل الوحيد للإطاحة بنظام العبوديــة فــي الولايات المتحدة الأمريكية. في عام ١٨٥٦، ألقي عليه القبض فــي إحــدى المعارك وحكم عليه بالإعدام شنقًا.

- الحرب الإسبانية – الأمريكية Spanish – American War: نزاع مسلح نشب في ١٨٩٨ بين الولايات المتحدة الأمريكية وإســبانيا بــسبب تــدخل الولايات المتحدة في حرب الاستقلال في كوبا تحت شعار مساعدة الــشعوب الخاضعة للاستعمار نحو التحرر. وترتب على ذلك هجوم الولايات المتحــدة على الممتلكات الإسبانية في كل من الكاريبي والمحيط الهادئ، وكانت الفلبين من بينها. ساهم الانتصار الأمريكي على إسبانيا في هــذه الموجهــات إلــى انهيار الإمبراطورية الإسبانية لاحقا.

- حركة أنصار الميثــاق (الميثــاقيون) Chartist movement، حركــة سياسية لطبقة العمال البريطانية من أجل الإصلاح السياسي في الفترة مــن ١٨٣٨ وحتى عام ١٨٤٨، واكتسبت تسميتها من ميثاق الحركة الشعبية لعام ١٨٣٨. وكانت الاسم الجامع لعدد من الجماعات المحلية سيئة التنسيق، والتي شاع تسميتها "اتحاد الرجال العاملين"، والتي بلغت أوجها فــي الأعــوام ١٨٣٩

و١٨٤٢ و ١٨٤٨. بدأت تلك الحركة بين الحرفيين المهـرة فـي الـورش الصغيرة، مثل صانعي الأحذية، وعمال الطباعة، والخياطين، وعمال النسيج بهدف حشد "القوة المعنوية"، لكنها سرعان ما جـذبت دعـاة الإضـرابات والعنف الجسدي. طالب ميثاق الحركة الشعبية بـ ٦ إصـلاحات أساسـية لجعل النظام السياسي أكثر ديمقراطية: (١) حق التصويت لكل رجل بلغ ٢١ عامًا (٢) الاقتراع السري (٣) عضوية البرلمان ليست حكرا على الأثريـاء (٤) منح رواتب لأعضاء البرلمان (ليتمكن الرجال الفقـراء مـن الخدمـة) (٥) مناطق انتخابات متساوية (٦) انتخابـات برلمانيـة سـنوية. وكانـت الميثاقية دستور للقرن الثامن عشر تحـارب الفـساد وتـدعو للديمقراطيـة في مجتمع صناعي.

– حركة تحطيم الآلات Luddism حركة قادها النسّاجون الثائرون ذوو المهارة الذين احتجوا متمردين على الآلات الحديثة التي تسببت فـي تـوفير العمالة وانتشار البطالة في الفترة من عام ١٨١١ وحتى عام ١٨١٧ نتيجـة الثورة الصناعية، وما رافق ذلك من استبدال الحرفيين بعمالة أقـل مهـارة وأدنى أجرًا.

– خليج بيافرا Bight of Biafra: خليج في غرب أفريقيا، محصور بـين دلتا نهر النيجر شرقا ومصب نهر فولتا غربا.

– دعاة المساواة leveler: حركة سياسية ظهرت في منتـصف القـرن السابع عشر، إبان الحرب الأهلية الإنجليزية الأولى. دعـت الحركـة إلـى السيادة الشعبية، والانتخابات الموسعة، والمساواة أمام القـانون، والتـسامح الديني، وغيرها من المبادئ التي ضمها بيان "اتفاق الشعب". لم يكن دعـاة

المساواة حزبًا سياسيًا بالمفهوم المعاصر، ولم يتوافقوا حول بيان محدد لكن كانوا منظمين على المستوى المحلي. أصدروا بعضا من الصحف والعرائض والمنشورات ذات الأغراض السياسية. وكانت الشرائط ذات اللون الأخضر الفيروزي التي توضع على ملابسهم وسيلة لتمييز أنفسهم. بحلول عام ١٦٥٠ عملت السلطة على تهميش دعاة المساواة على نحو ما فعلت تجاه باقي الجماعات المعارضة الأخرى، ولم يعد هناك تهديد حقيقي للنظام القائم.

– الدولانية Statism: اعتقاد بأن علي الحكومة أن تسيطر على السياسة الاقتصادية أو الاجتماعية أو كليهما معا، وتبدو مصطلحا مقابلا لـ "الفوضوية". وتتدرج في مستوياتها من حماية الأمن القومي إلى ضبط مؤسسات الدولة بفروعها المختلفة.

– الدولية International: الاسم الكامل: الدولية السياسية political international، منظمة متعددة الجنسيات تضم أحزابا ونشطاء سياسيين من أرجاء عالمية مختلفة. تعمل المنظمات الدولية معًا على نقط الاتفاق لتنسيق النشاط. زادت شهرتها وتأثيرها منذ بدايتها في اليسار السياسي في أوروبا في القرن التاسع عشر؛ حيث أولى النشطاء السياسيون مزيدًا من الاهتمام إلى التطورات التي تتفق أو تختلف مع أيديولوجياتهم الخاصة في البلدان والقارات الأخرى. بعد الحرب العالمية الثانية، سعت إلى التواصل مع المنظمات الحكومية الدولية وفوق الوطنية مثل الأمم المتحدة ومن بعدها الاتحاد الأوروبي. أنشأت الحركة السياسية الدولية فروعًا إقليمية وفوق وطنية (على سبيل المثال: الفرع الأوروبي، الفرع الأفريقي)، والحفاظ على الأخوّة أو إدارة العلاقات في قطاعات و"أجنحة" (على سبيل المثال: جناح

الشباب، جناح المرأة). وقامت منظمة "الدولية السياسية" في كثير من الأحيان بطرد أحزاب من عضويتها، للتجاوزات المختلفة مثل المخالفات السياسية أو الفساد المالي بين الأعضاء.

– الديمقراطية الجفرسونية، نسبة إلى راعيها توماس جيفرسون Thomas Jefferson. كانت ضمن اثنين من الرؤى والحركات السياسية المهيمنة في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من تسعينيات القرن الثامن عشر وحتى عشرينيات القرن التاسع عشر. شاع استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى الحزب الجمهوري الديمقراطي الذي أسسه جيفرسون في مقابل الحزب الفيدرالي ومؤسسه ألكسندر هاملتون. يؤمن أتباع جيفرسون بالنظام الجمهوري كشكل من أشكال الحكم، والمساواة في الفرص السياسية، يعلون من شأن المزارع العامل في مقابل النخبة الأرستقراطية من التجار والصناع.

– راجوزا Ragusa: إقليم في جنوب شرق أوروبا كان يتعرض للتأثير الإيطالي والنمساوي والعثماني، يتبع دولة كرواتيا حاليا.

– الرؤوس النحاسية Copperhead: مجموعة صاخبة من الديمقراطيين في شمال الولايات المتحدة الأمريكية من الائتلاف الذي عارض الحرب الأهلية الأمريكية، وطالب بتسوية سلمية عاجلة مع الولايات الكونفدرالية. بدأ الجمهوريون في نعت الديمقراطيين الرافضين للحرب بـ"الرؤوس النحاسية" مُشبهينهم بالأفاعي السامة. بينما قبل الديمقراطيون السلميون تلك التسمية، وأعادو تفسير "الرأس" النحاسي باعتباره رمزا للحرية. انتهى بهم الحال إلى الهزيمة بعدما وجهت لهم تهمة التآمر مع الجنوب.

- سا كيلوت Sans-culottes تيار يساري متطرف في الثورة الفرنسية (١٧٨٩-١٨٠٠) مناصر للطبقات العاملة والديموقراطية الشعبية والمساواة والدعوة للبقاء على أهبة الاستعداد لعناصر الثورة المضادة واستخدام العنف للدفاع عن الثورة. وتعني كلمة سا كيلوت "بدون سروال" في إشارة إلى أعضاء هذا التيار من الطبقة الدنيا أصحاب الملابس المهترئة.

- ساراسين Saracen: تسمية كانت أطلقتها السلطات البيزنطية على المسلمين والعرب في شبه الجزيرة العربية وسوريا، وشاعت بصفة خاصة خلال فترة الحروب الصليبية (القرون من العاشر وحتى الخامس عشر). ويرجع البعض أن الاسم كان قد عرف أول مرة في جغرافية بطلميوس حين أشار إلى قبائل عربية في شمال سيناء اسمها "ساراكيني Sarakene". ومن حيث التصنيف يلاحظ أن الساراسين تسمية تعني بصفة عامة "المسلمين العرب المشارقة" في مقابل "المورر Moors" التي تعني بصفة عامة "المسلمين البربر المغاربة".

- سانت هيلانه St.Helena: جزيرة بركانية صغيرة في جنوب المحيط الأطلنطي على مقربة من ساحل جنوب غرب أفريقيا (قبالة أنجولا). لا تزال المملكة المتحدة تحتفظ بها إلى اليوم.

- سلاف Slav: مجموعة عرقية - لغوية تتبع العائلة الهندو - أوربية. يتركز السلاف في شرق ووسط وجنوب أوروبا، وهناك موجات مهمة وصلت إلى شمال غرب آسيا وسيبيريا. وعادة ما يصنف السلاف إلى: "سلاف الشرق" ويمثلهم الروس والبيلاروس والأوكرانيون)، وسلاف الغرب (ويمثلهم البولنديون والتشيك والسلوفاك) و"سلاف الجنوب" وتمثلهم أجزاء

من الوحدات السياسية التي تفككت عن دولة يوجسلافيا (والتي تعني حرفيا "سلاف الجنوب Yug - Slav") في جنوب شرق أوروبا. وأحيانا يتم اللعب بالكلمات (لأغراض عنصرية) بين كلمة سلاف Slav وسليف (عبد/رقيق) Slave.

– سلت Celt: مجموعة عرقية– لغوية من مجتمعات قبلية في العصر الحديدي وأوروبا العصور الوسيطة، جمعتهم لغة وثقافة مشتركة

– سلطة نظام الرق المزرعي Plantocracy: سلطة نظام الرق، والتي تعرف أيضًا بالرقّراطية Slavocracy: طبقة حاكمة، نظام سياسي أو حكومة تتألف من (أو يهيمن عليها) أصحاب المزارع. كان عدد من أوائل المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد يقوم على هذا النظام، والتي كانت عادة ما تتكون من المستوطنات الأوروبية الصغيرة، والتي يعتمد سكانها في أغلبهم على رقيق غرب أفريقيا (بالإضافة إلى أعداد أقل من رقيق عاملين بالسخرة، سواء كانوا في الأصل أوروبيين أو غير أوروبيين)، وبعد ذلك من السود المحررين أو الفقراء البيض كأيد عاملة. ثبُت أن تلك السلطات كانت القوة الحاسمة في الحركة المناهضة لإبطال الاسترقاق.

– السمينويل Seminole: شعب من الأمريكيين الأصليين تعود جذورهم إلى ولاية فلوريدا، واليوم يعيش أغلبهم في أوكلاهوما وأقلية منهم في فلوريدا. في الفترات الاستعمارية حدث بعض الامتزاج العرقي مع الزنوج. ويعتقد أن كلمة سمينويل هي تحوير للمصطلح الإسباني سيمارون cimarrón، والذي يعني "الهارب" أو "الوحشي".

– السياج الإنجليزي English Pale، نطاق جغرافي في أيرلندا كان يقع مباشرة تحت سيطرة الحكومة البريطانية في أواخر العصور الوسطى. تـم تقليصه في أواخر القرن الخامس عشر ليشمل منطقة بطول الساحل الشرقي لأيرلندا. ويعود أصل كلمة سياج Pale إلى الكلمة اللاتينية Palus، والتي تعني الوتد، وبشكل خاص الوتد الذي يستخدم في دعم الأسوار. مـن هنـا جـاء المعنى المجازي للحدود. وتطور المفهوم ليشمل جملة ما هو واقع داخل ذلك السياج، الواقع وراء حدود الدولة التي دقت تلك الأوتاد.

– السيبوي Sepoy: قوات عسكرية هندية دربتها القيـادة البريطانيـة الاستعمارية.

– شيخ أنتا ديوب Cheikh Anta Diop (٢٩ ديـسمبر ١٩٢٣– ٧ فبرايـر ١٩٨٦) مؤرخ، أنثروبولوجي، فيزيائي وسياسي، درس أصول الجنس البشري والثقافة الأفريقية في فترة ما قبل الاستعمار. ولد في السنغال الخاضع للاحـتلال الفرنسي، في أسرة إسلامية عريقة. أكمل تعليمه الأساسي في السنغال ثم سـافر إلى باريس للحصول على تعليم جامعي في كـل مـن الفلـسفة والرياضـيات والكيمياء. تكريما له حملت جامعة داكار (السنغال) اسمه. أولى عنايـة خاصـة بإرجاع أصول الحضارات الأوروبية إلى الأصل الأفريقي.

– الطبقة الثالثة Third Estate (الطبقة العامـة états généraux) جمعيـة تشريعية تضم ممثلين عن مختلف شرائح الجمهور العام الفرنسي أثناء حكـم النظام السابق على الثورة الفرنسية. كان لكل طبقة من الطبقات الـثلاث فـي المجتمع الفرنسي (رجال الدين – النبلاء – الطبقة العامة) جمعية منفصلة تعقد وتُحل بواسطة الملك. لم يكن لها سلطة حقيقية قائمة بذاتها مثلما كان للبرلمان

الإنجليزي، بل كانت هيئة استشارية للملك الفرنسي، مهمتها عرض الالتماسات من مختلف الفئات الاجتماعية وتقوم بالتشاور حول السياسة المالية. استمرت الطبقة العامة في الاجتماع بشكل متقطع حتى عام ١٦١٤، ونادرًا ما اجتمعت مرة أخرى بعد ذلك، ولكن لم يتم حلها بشكل نهائي إلا بعد الثورة الفرنسية. وتتشابه الطبقة العامة إلى حد كبير مع مؤسسات أخرى في أنحاء أوروبا مثل الطبقات العامة في كل من هولندا، البرلمان في إنجلترا، برلمان الملكيات في إسكتلندا، الكورتس في إسبانيا، والدايت Diet في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدايت في الملكيات التاريخية في ألمانيا.

– العُشر الموهوب The Talented Tenth: عبارة ظهرت في عام ١٨٩٦ بين الليبراليين البيض الشماليين، وتحديدًا في الجمعية الإرسالية المعمدانية الأمريكية، وهي جمعية تبشيرية مسيحية دعمها بشدة جون روكفلر John D. Rockefeller. كانت تهدف إلى إنشاء جامعات للسود لتدريب المعلمين الزنوج والنخب السوداء. استخدم دو بويز Du Bois مصطلح "العُشر الموهوب" لوصف احتمالية أن يكون واحدًا من كل عشرة زنوج مُلهما لبني جنسه في العالم، عن طريق أساليب مثل مواصلة تعليمهم، تأليف الكتب، أو الانخراط بشكل مباشر في التغيير المجتمعي. فقد آمن أن السود بحاجة إلى التعليم التقليدي للاستفادة من طاقتهم، بدلاً من التعليم الصناعي الذي روجت له تسوية أتلانتا التي أيّدها بوكر تي واشنطن وبعض الأسخياء من البيض.

– العم توم Uncle Tom: العم توم هو الشخصية الرئيسية في رواية "كوخ العم توم" التي كتبتها الروائية الأمريكية هارييت بيتشر ستاو في عام ١٨٥٢. أصبحت عبارة "العم توم" لقبًا يطلق على الشخص الخانع

والخاضع بدرجة كبيرة للمستبدين البيض في السلطة. هذا اللقب السلبي جاء نتيجة للأعمال الأخيرة التي اقتبست من الرواية الأصلية. في وقت نشر الرواية الأولى في عام ١٨٥١ كان العم توم بمثابة رفض لهذه القوالب النمطية؛ ونجحت الرواية في أنسنة معاناة العبودية للجماهير البيضاء عن طريق تصوير توم في صورة شبيهة بالسيد المسيح الذي استشهد في نهاية المطاف حين ضُرب حتى الموت على يد سيده قاسي القلب بسبب رفضه الوشاية بمكان امرأتين هربتا من العبودية. ودوما ما يترتبط في الذهن مسمى "العم توم" بنقيضه "العم سام".

– العم سام Uncle Sam: بدأ استخدام مصطلح "العم سام" لأول مرة في حرب عام ١٨١٢ التي خاضتها الولايات المتحدة ضد الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية (فيما عرف بحرب الاستقلال الثانية للولايات المتحدة). خلال هذه الحرب كان هناك دور محوري في التأمين الغذائي للقوات الأمريكية لعبه مورد اللحوم صمويل ويلسون Samuel Wilson. وكان الجنود يرحبون بلحوم صمويل ويلسون ويناودنه بالعم سام Uncle Sam (تدليلا لاسم صمويل(Samuel . في تلك الأثناء كان صمويل يضع ختما على اللحوم الصالحة الموردة للجيش بالحرفين U.S، وقد اعتقد الجنود أن الحرفين يرمزان إلى اعتماد العم سام لصلاحية اللحوم، بينما كان صمويل يرمز بالحرفين إلى حكومة الولايات المتحدة United Sates. ومنذ ذلك الحين صارت الولايات المتحدة (الجيش الأمريكي أو حكومته تحديدا) تعرف بشكل غير رسمي باسم "العم سام".

– فالدينس Waldensian: حركة مسيحية (منسوبة إلى اسم مؤسسها) دعت إلى التمسك فقط بتعاليم الإنجيل. ظهرت في مدينة ليون في فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، اعتبرتها كنيسة الروم الكاثوليك حركة مهرطقة وتعرض أعضاؤها للاضطهاد قبل أن تستعيد الحركة نشاطها وتنتقل إلى مناطق مختلفة من العالم في العصر الحديث. الفرانسيسكان Franciscan : طائفة مسيحية تتبع تعاليم القديس فرانسيسكو (فرانسيس الأسيزي St. Francis of Assisi: نسبة إلى بلدة أسيز Assisi في وسط إيطاليا) تتبع هذه الطائفة الكنيسة الكاثوليكية. الكاثار Cathar (من الأصل اللاتيني كاثاروي بمعني "الطاهر أو النقي": حركة مسيحية ظهرت في جنوب أوربا فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. تقوم طائفة الكاثار اعتقاد بالثنائية: أي إن الرب والخلق (العالم) شيئان منفصلان ولا يجمعهما سوى رابط غير مرئي، وبالتالي فالرب غير متابع للخلق ولا مهتم به. اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية حركة مهرطقة واضطهدتها، وأطلقت عليها اسم "كنيسة الشيطان".

– الفرقة ٢٤ مُشاة The 24th Infantry Regiment: كانت الفرقة ٢٤ مُشاه إحدى الوحدات في جيش الولايات المتحدة الأمريكية، والتي نشطت في الفترة من عام ١٨٦٩ حتى عام ١٩٥١، واستأنفت نشاطها مرة أخرى في الفترة من عام ١٩٩٥ حتى عام ٢٠٠٦. اشتهرت تلك الفرقة بتاريخها الحافل المتقلب المشفوع بسجل من الخدمات الجليلة والأداء القتالي الشجاع، شابته بعض الحوادث مثل أحداث الشغب في هيوستن في عام ١٩١٧، والقصور في أوامر القيادة خلال الحرب الكورية.

- فرنسواه نويل بابيوف François-Noël Babeuf(٢٣ نـــوفمبر ١٧٦٠- ٢٧ مايو ١٧٩٧)، محرض ثوري فرنسي وصحفي في فترة الثورة الفرنسية. على الرغم من جهود أصدقائه اليعاقبة لإنقاذه، اعتقل بابيوف وأدين لـــدوره في مؤامرة الأقران. وعلى الرغم من أن كلمات مثل "أناركيـــة" (فوضـــوية) و"شيوعية" لم تكن موجودة أيام بابيوف، فإن الباحثين اســـتخدموها لتحليـــل أفكاره.

- الفريز Fris: مجموعة عرقية - لغوية جرمانيـــة وموطنهـــا فـــي المناطق الساحلية من هولندا وألمانيا. تنسب إلى منطقة محلية فـــي شـــمال ألمانيا تسمى "فريزيا Frisia". ولا يزال نحو نصف مليون إنسان يـــستخدمون اللغات الفريزية، وهي لغة رسمية في كل من هولندا وألمانيا.

- الفلاندرز Flanders: سكان الجزء الناطق بالألمانية في شمال بلجيكا. وكان هذا الإقليم من الناحية التاريخية يشغل بالإضافة إلى شمال غرب بلجيكا مناطق محيطة به في كل من فرنسا وألمانيـــا. وتعـــد العاصـــمة البلجيكيـــة بروكسل هي المركز الثقافي والتاريخي للفلاندرز.

- الفلمنك Flemish Region، أحد ثلاثة أقاليم تـــشكل بلجيكـــا الحديثـــة إضافة إلى إقليم والون وإقليم العاصمة بروكسل.

- فوكايا Phocaea: مدينة يونانية قديمة على الـــساحل الغربـــي مـــن المنطقة المعروفة بـــ"الأناضول" في تركيا حاليا.

- الفولا Fula people: مجموعة عرقية تنتشر في عدة دول، معظمهـــا في غرب أفريقيا، ولكن أيضا في أفريقيا الوسطى والـــسودان فـــي شـــمال أفريقيا. البلدان الأفريقية هي ما يطلـــق عليهـــا حاليًـــا: موريتانيـــا، غانـــا، السنغال،غينيا، غامبيا، مالي، نيجيريا، ســـيراليون، بنـــين، بوركينافاســـو،

الكاميرون، كوت ديفوار، النيجر، تشاد، توجو، وجمهورية أفريقيا الوسطى، ليبيريا، وإلى حد ما في السودان ومصر في الشرق. يمثل الفولا أقلية في البلاد التي يعيشون فيها، ولكن في غينيا يمثلون نسبة ٤٠% من السكان.

- في ولاية ألاباما حاليا.

- فيجي Fiji: أرخبيل من الجزر (يكون اليوم جمهورية فيجي التي استقلت عن المملكة المتحدة في ١٩٧٠) في غرب المحيط الهادئ قبالة السواحل الشمالية الشرقية لأستراليا.

- فيراكروث: ميناء على الساحل الشرقي للمكسيك.

- فيرغوس أوكونور Feargus O'Connor: زعيم ميثاقي أيرلندي (١٨ يوليو ١٧٩٤-٣٠ أغسطس ١٨٥٥). ولد في عائلة أيرلندية بروتستانية وسياسية بارزة. أمضي فترة كبيرة من بداية حياته في رعاية أملاك عائلته في أيرلندا. درس فيرغوس القانون في كلية "الثالثوث المقدس" (ترينيتي) في دبلن، في عام ١٨٢٠. لم يحصل على أي درجة علمية ولكنه دُعي إلى هيئة المحامين الأيرلنديين في عام ١٨٢٠. حيث حلف يمين الولاء ليصبح عضوا في الهيئة، وحرمه والده من الميراث لأنه رأى في ذلك انتقاصا من كرامته كسليل ملوك أيرلندا.

- قرطاجنة: ميناء على الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الجنوبية ضمن الحدود السياسية الحالية لدولة كوبومبيا.

- قضية سكوتسبورو Scottsboro (وتعرف أيضا باسم صبية سكوتسبورو)، حادثة تم فها اتهام ٩ من المراهقين السود باغتصاب سيدتين من البيض خلال رحلة قطار إلى بلدة سكوتسبورو في ولاية ألاباما

عام ١٩٣١. تضمنت الحادثة مجموعة مميزة من القضايا القانونية المنبثقة عن هذا الحادث العنصرية وحق المحاكمة العادلة. اشتملت تلك القضية على التلفيق، وتكوين هيئة محلفين جميعهم من البيض، محاكمات سريعة، محاولة إصدار حكم بالإعدام خارج الإطار القانوني وحشد جماهيري غاضب ضد السود، وبشكل عام تعد مثالاً لسوء تطبيق العدالة. صدر حكم باتهام الصبية جميعًا بالاغتصاب وحُكم عليهم بالإعدام عدا صبي عمره ١٣ عامًا، وكانت الجملة الشائعة في ألاباما في ذلك الوقت هو أن الرجال السود ادينوا باغتصاب السيدات البيض. تمكن الحزب الشيوعي الأمريكي من الدعوة لإعادة المحكمة أمام محكمة أخرى، وهنا ظهرت مفاجأة جديدة حيث اعترفت إحدى السيدتين بأن القصة لها مفبركة، لكن المحكمة أقرت معاقبة الصبية وتم في النهاية تخفيف أحكام الإعدام إلى السجن مدى الحياة والحكم بالإعدام على فرد واحد منهم. تمكن المحكوم عليه بالإعدام من الفرار من السجن وظل مختفيا إلى أن صدر بحقه عفو. تمثل القضية مثالا على العنصرية وفساد القضاء الأمريكي خلال تلك الفترة.

– القوط Goth قبائل جرمانية، تركز نطاقها الجغرافي في البداية في شرق أوروبا وبصفة خاصة من شمال البحر الأسود إلى بحر البلطيق ومن نهر الفولجا إلى نهر الدانوب. تمكنوا في نهاية القرن الرابع الميلادي من الإغارة على الإمبراطورية الرومانية وتدميرها. خلال القرون الثلاثة من الرابع إلى السادس انقسم القوط إلى شعبتين: "القوط الشرقيون" (في شرق أوروبا إلى الشمال من البحر الأسود) و"القوط الغربيون" (في غرب أوروبا وبالتحديد في شبه جزيرة أيبيريا)؛ الواندال Vandals قبائل جرمانية شرقية، تمكنت من غزو واحتلال أجزاء من شمال أفريقيا وأخضعت معظم جزر

البحر المتوسط ونهبت في منتصف القرن الخامس الميلادي مدينة روما، ثم سقطت مملكتهم في عام ٥٣٤ بعد أن دمرتها الدولة البيزنطية؛ سوفي **Suevi**: قبائل جرمانية كانت تشغل نصف مساحة ألمانيا الحالية، اشتهرت في القرن الأول الميلادي. كانت تتسم هذه القبائل بالحراك والانتقال، وخاصة حين كانت تهدد الإمبراطورية الرومانية بزحفها من الشمال من جهة بحر البلطيق باتجاه الجنوب نحو حدود الإمبراطورية؛ البرغند **Burgundians** (البورغانديون): قبيلة في شرق ألمانيا هاجرت من إسكندفيا ثم تحركت غربا، أسست في القرن الأول الميلادي مملكة البرغند، وظل اسمهم موجودا في المنطقة الإقليمية في "بورغاندي" التي تقع اليوم في شرق فرنسا؛ الألاماني **Alemanni**: اتحاد قبلي من السوفي السابق ذكرهم في الأجزاء العليا من حوض نهر الراين. كان نشاطهم حاضرا بين القرن الأول والخامس الميلاديين. يعود اسم ألمانيا الحالي إلى تلك القبائل؛ الفرنك **Franks**: اتحاد قبائل جرمانية عرفت منذ القرن الثالث الميلادي في الحوضين الأوسط والأدنى لنهر الراين. قام الفرنك بالاستيلاء على أجزاء كثيرة من ميراث الإمبراطورية الرومانية، وبصفة خاصة في شطرها الغربي حتى نهاية القرن الثامن الميلادي، تطور الفرنك لاحقا ضمن الإمبراطورية الكارولنجية. وفي العصور الوسطى استخدم مصطلح الفرنك (الفرنج) في حضارات الشرق مرادفا لأوروبا الغربية، نظرا لسيطرتهم على معظم أوروبا الغربية.

– الكارولنجية **Carolingian** نسبة إلى الأسرة التي أسسها كارل مارتل **Charles Martel** في نهاية القرن السابع في شمال غرب أوروبا (شمال ألمانيا حاليا).

– كافا Caffa مدينة في شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود في دولة أوكرانيا اليوم تعرف حاليا باسم فيودوسيا Feodosiya.

– كريول Creole: مصطلح يطلق بصة عامة على كل من ولد وتربى في مناطق المستعمرات خارج الوطن الذي جاء منه ويتحدث لغة أجداده، سواء كان أبيض اللون أو أسود أو مختلط اللون، والشرط هنا لانطباق المصطلح أن يكون سليلا للوافدين الذين أنشأوا أو سكنوا المستعمرات في العالم الجديد. وعلى هذا النحو هناك كريول فرنسيون، كريول برتغاليون، كريول إنجليز، وكريول سود (أفارقة).

– الكورنية Cornish لغة منسوبة إلى الشعب الكورني في المملكة المتحدة حاليا، وبصفة خاصة في ويلز وبريطانيا.

– كورومانتي Coromantee: مسمى مشتق من اسم المدينة الساحلية الغانية كورمانتسي Kormantse، وهو اسم أطلقه تجار الرقيق الإنجليز على الرقيق المجلوبين من شعب Akan من ساحل الذهب (غانا حاليًا). وبفضل خلفيتهم العسكرية ولغتهم المشتركة، نجح الكورومانتيون في تنظيم العشرات من حركات تمرد العبيد في جامايكا وأماكن أخرى في منطقة البحر الكاريبي. وكان لشراستهم وطبيعتهم المتمردة أن استجابت الحكومات الاستعمارية لمطالب أصحاب المزارع البيض في القرن الـ١٨ بحظر جلب رقيق من منطقة ساحل الذهب على الرغم من سمعتهم كعمّال أقوياء. وقد ترك أكان تأثيرا ثقافيا أفريقيًا قويًا على جامايكا.

- الكوك كلوكس كلان Ku Klux Klan: تعرف بـــشكل غيـــر رســـمي بـــ الكلان أو "النظام المقنع"، هو اسم يندرج تحته ثلاث منظمـــات يمينيـــة متطرفة قديمة وحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي دعمت التيارات الرجعية مثل التفوق الأبـــيض، القوميـــة البيـــضاء، ومناهـــضة الهجـــرة، وتم التعبير عنها تاريخيًا عن طريق الإرهاب. منذ منتصف القرن العـــشرين كانت هذه الحركة مناهضة أيضا للشيوعية. تـــصنفها المراكـــز الحقوقيـــة في الولايات المتحدة باعتبارها جماعة تبث الكراهية، ويتراوح عدد أعضائها اليوم ما بين ٥٠٠٠ و ٨٠٠٠.

- الكولاك Kulaks: فئة من المزارعين الأثريـــاء نـــسبيًا فـــي روســـيا والاتحاد السوفييتي سابقًا. يرجع أصل كلمة كولاك Kulak، إلـــى المـــزارعين المستقلين في الإمبراطورية الروسية، والذين تركوا طبقـــة عمـــوم الفلاحـــين وأصبحوا من الأثرياء في عام ١٩٠٦. توسعت تسمية الكولاك في عام ١٩١٨ لتشمل أى فلاح قاوم تسلم محاصيله إلى كتيبة من موسكو. خلال الفترة مـــن ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣، أدرجت الحملة الشاملة لتجميع الفلاحين بقيادة ستالين " الفلاحين المالكين لبقرتين أو خمسة أو ستة فدادين أكثر من جيرانهم" تحـــت اسم الكولاك. وفقًا للنظرية السياسية للماركسية اللينينيـــة فـــي أوائـــل القـــرن العشرين، كان الكولاك أعداء طبقيين بالنسبة للفلاحين الأفقر منهم. وصـــفهم فيلاديمير لينين بـــ "مصاصي الدماء، الخفافيش، لصوص الـــشعب وســـارقي قوته، الذين سمنوا بينما كان الناس يموتون في المجاعة". هـــدفت الماركـــسية اللينينية إلى ثورة لتحرير الفلاحين الفقراء والعمال الـــزراعيين إلـــى جانـــب البروليتاريا (العمال في المناطق الحضرية والـــصناعية). عمليًـــا، أدت تلـــك

النظريات الماركسية اللينينية إلى خراب الاقتصاد الزراعـــي، حيــث ســيطر المسئولون الحكوميون على مزارع الكولاك وقاموا بقتل المقاومين، ثــم تــم ترحيل الآخرين إلى معسكرات العمل. بداية من عــام ١٩٣٢ وحتــى عــام ١٩٣٣، حدثت مجاعات كبيرة، خلفت وراءها ملايين القتلــي فــي مجاعــة أوكرانيا وحدها. كشفت الوثائق في العقود الأخيرة لتلك الفتــرة الزمنيــة، أن "قيادة ستالين" كانت على علم بما يحدث في الريف، وكانت في الواقع تستخدم "المجاعة كوسيلة للإرهاب والانتقام من الفلاحين الذين أبدوا مقاومة".

– لعنة كنعان Curse of Canaan هو الخطأ الشائع الذي اكتسب صــفة الصواب للاسم الصحيح "لعنة حام Curse of Ham": التي جاء في التــوراة أن نوحا أنزلها على ابنه. كان حام بن نوح ارتكب فعلا مشينا، لكن بدلا من أن ينزل نوح لعنته على ابنه حام مباشرة أنزلها على ابن حام: كنعان (على نحو ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١٨-٢٧). وعلى مدار قرون طويلة دارات مناقشات جدلية حول طبيعة اللعن، ولماذا وجه نوح اللعنة إلى كنعان الذي لم يرتكب شيئا بدلا من أن يكون الملعون هو حام المتهم. وتم استغلال تفسير القصة لأهداف عنصرية، فقد استغل اليهود جانبا من القصة لتبريــر الإخضاع القسري للكنعانيين (أجداد الفلسطينيين). ثم جرى تفسير عنــصري آخر، وهو الترويج بأن حام (ذو اللون الداكن) تلقى لعنة من أبيه ليكون عبدا لأخويه سام ويافث! وكان ذلك مبررا دينيا للاستعماريين لاستعباد الــشعوب السوداء (المعلونة) بقرار إلهي.

– لغة الغال Gaelic: إحدى أفرع لغات الجزر السلتية، تمتد عبر رقعة جغرافية من أيرلندا إلى إسكتلندا.

- اللوسيت Lusit: لغة هسبانية قديمة، تعد إحدى لغات العائلة الهند-أوروبية، ويربطها البعض باللغة السلتية في شبه جزيرة أيبيريا.

- لويس نابليون بونابارت (نابليون الثالث) Louis-Napoléon Bonaparte (٢٠ إبريل ١٨٠٨ -٩ يناير ١٨٧٣) كان رئيسا لفرنسا من ١٨٤٨ الي ١٨٥٢ ثم إمبراطورًا لفرنسا تحت اسم نابليون الثالث من ١٨٥٢ الي ١٨٧٠. وكان ابن شقيق ووريث نابليون الأول. انتخب رئيسًا عن طريق التصويت الشعبي في عام ١٨٤٨، وشرع في انقلاب عام ١٨٥١، قبل اعتلائه العرش حاملا اسم نابليون الثالث في ٢ ديسمبر عام ١٨٥٢، الموافق الذكرى الثامنة والأربعين لتتويج نابليون الأول. حكم فرنسا كإمبراطور حتى ٤ سبتمبر ١٨٧٠. أول ما يُذكر لنابليون الثالث هو السياسة الخارجية الحيوية، والتي هدفت إلى التخلص من القيود المفروضة على فرنسا منذ عام ١٨١٥ وإعادة التأكيد على نفوذ فرنسا في أوروبا والإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. في الشرق الأدنى، قاد نابليون مبادرة التحالف ضد روسيا في حرب القرم واستعاد الوجود الفرنسي في بلاد الشام، وادعى لفرنسا دور الحامي للمسيحيين المارونيين. وبالمثل أمنت الحامية الفرنسية في روما الدولة البابوية ضد ضمها إلى إيطاليا. وتم التأكيد على المصالح الفرنسية في الصين في حرب الأفيون الثانية وتمرد تايبينغ، واطلقت حملة فاشلة ضد كوريا في عام ١٨٦٦، في حين فشلت المهمة العسكرية إلى اليابان في منع استعادة الحكم الإمبراطوري. وكان أيضًا التدخل الفرنسي في المكسيك فاشلاً، وانتهي في عام ١٨٦٧ بسبب تصاعد المقاومة المكسيكية والضغط الدبلوماسي الأمريكي. محليًا، وازن نابليون بين المحافظين والليبراليين

في المؤسسة الفرنسية، ولكنه مال تدريجيًا نحو العنصر الليبرالي. كان عهده هو عصر الازدهار والتصنيع في فرنسا، و مهّد لعملية تجديد رئيسية لباريس على يد هاوسمان Haussmann، والذي وضع الخطوط العريضة للمدينة الحديثة. وفي النهاية، وقعت الحرب الفرنسية البروسية في عام ١٨٧٠، والتي أسفرت عن قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة ونفي نابليون الثالث إلى إنجلترا، حيث توفي في عام ١٨٣٧.

- ليجوريا Liguria: إقليم تاريخي في شمال غرب إيطاليا.

- ليموجيس Limoges: مدينة في الجزء الغربي من وسط فرنسا.

- ماركوس جارفي Marcus Garvey: ماركوس موسيا جارفي، زعيم سياسي، ناشر، صحفي، منظم، وخطيب جامايكي، ولد في ١٧ أغسطس عام ١٨٨٧ وتوفى في ١٠ يونية عام ١٩٤٠، والذي كان من أشد المؤيدين لحركات القومية السوداء و القومية الأفريقية، ولتحقيق تلك الغاية أسس الجمعية العالمية لتقدم الزنوج، وعُصبة المجتمعات الأفريقية". وأسس خط النجمة السوداء، وهو جزء من حركة العودة لأفريقيا، والتي شجعت عودة الشتات الأفريقي إلى أراضي أجدادهم. كان جارفي متفردًا في تعزيز الفلسفة الأفريقية لإلهام الحركة الجماهيرية العالمية والتركيز على التمكين الاقتصادي في أفريقيا، والتي عُرفت بالجارفية. نتيجة للدعم من قبل الجمعية العالمية لتقدم الزنوج UNIA كحركة الخلاص الأفريقية، ستصبح الجارفية في نهاية المطاف مُلهمة للحركات الأخرى التي سترى في جارفي "نبيًا". وكان القصد حركة جارفي هو أن يقوم ذوو الأصول الأفريقية بـ "تخليص" أفريقيا، وأن ترحل عنها القوى الاستعمارية الأوروبية. وردت أفكاره

الأساسية عن أفريقيا في مقاله الافتتاحي في دورية "عالم الزنوج" تحت عنوان "الأصولية الأفريقية"، حيث كتب: " اتحادنا يجب ألا يعرف المناخ أو الحدود أو الجنسية... دعونا نستمر معًا تحت كل المناخات وفي كل البلاد".

– المارون Maroon: رقيق نجحوا في الهروب من نير العبودية، كانت أشهر موجات الهروب في أماكن مختلفة من كل من جزر الهند الغربية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، وفي مناطق الهروب والفرار كونوا مستعمراتهم المستقلة. كلمة "مارون" مشتقة من الكلمة الإسبانية cimarrón والتي تعني الهارب أو الفار أو الذي يعيش فوق قمم الجبال حيث Cima تعني قمة.

– المتعهد Encomienda: نظام قانوني تم توظيفه بشكل رئيسي بواسطة التاج الإسباني خلال فترة الاستعمار الإسباني للأمريكتين لتنظيم عمل السكان الأصليين. في المهمة، منح التاج الإسباني عددا محددا من السكان الأصليين للشخص الواحد ليتحمل مسئوليتهم. من الناحية النظرية، كان على متلقي المنحة حماية السكان الأصليين من القبائل المتحاربة، وتعليمهم اللغة الإسبانية ومبادئ العقيدة الكاثوليكية، وفي المقابل انتزاع الجزية منهم في شكل مقابل بجهد العمل، أو ذهب، أو منتجات أخرى. ومن الناحية العملية، لم يكن هناك فرق يذكر بين المتعهد ونظام العبودية الرسمي. فتم إجبار الكثير من السكان الأصليين على العمل الشاق وتعرضوا إلى العقاب الشديد والقتل إذا قاوموا.

– المجلس التنفيـذي Directoire exécutif، أو المعـروف اختـصارا بمجلس المديرين، مجلس قوامه ٥ مديرين مثّلوا السلطة التنفيذية في فرنـسا في أعقاب الثورة الفرنسية، وبالتحديد خلال الفترة من ٢ نوفمبر ١٧٩٥ حتى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩. عُرفت تلك الفترة بالعصر التنفيذي، والتي مثّلت الـدعم للمرحلة الأخيرة في الثورة الفرنسية.

– مدخل إلى كوخ العم توم A Key to Uncle Tome's Cabin" عمل تحليلـي يبين آراء هارييت ستاو في قضية الرق والعبودية. وقد أصدرته ستاو بعد سنة واحدة من روايتها الشهيرة "كوخ العم توم Uncle Tome's Cabin" التي كانت نقطة تحول في العلاقة بين الثقافة وتحرير الرقيق، حيث عرضت الرواية لمعانـاة العبد توم وأسرته في ربق العبودية. ترجم منير البعلبكي رواية "كوخ العم توم" إلى العربية ونشرتها دار العلم للملايين، بيروت عام ١٩٥٣.

– مروى Meroë: مدينة تاريخية في شمال شرق السودان على الضفة الشرقية لنهر النيل، كانت المدينة عاصمة مملكة كـوش لقـرون طويلـة. وبصفة خاصة خلال الفترة التى ازدهرت فيها مملكة نباتا/مـروى، والتـي امتدت من عام ٨٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٥٠ ميلادية. لم يتبق من المدينة اليوم سوى أطلال، إضافة إلى المعلم المميز المتمثل في أكثر من ٢٠٠ هرم بنيت على الطراز النوبي الفريد.

– معاهدة بريست Treaty of Brest-Litovsk: معاهـدة سـلام عُقـدت في ٣ مارس عام ١٩١٨، بين الحكومة البلـشيفية الجديـدة فـي روسـيا (جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية) ودول المركـز (ألمانيـا، النمسا، بلغاريا وتركيا)، والتي أنهت مشاركة روسيا في الحـرب العالميـة

الأولى. تم توقيع الاتفاقية في بريست–ليتوفيسك (الآن بريست، بيلاروسـيا) بعد شهرين من المفاوضات. اجبرت الحكومة السوفيتية على تلك الاتفاقيـة عن طريق التهديد بمزيد من التقدم للقوات الألمانية والنمساوية. بموجب تلك المعاهدة تخلفت روسيا السوفيتية عن التزامات روسيا الإمبريالية تجاه حلف الوفاق الثلاثي. على الرغم من أن تلك المعاهدة أصبحت بائدة بحلول نهايـة العام، فإنها قد وفّرت التفرغ للبلاشفة، والذين يحاربون بالفعل فـي الحـرب الأهلية الروسية، بالتخلي عن مزاعم روسيا في بولندا، وفنلندا، واسـتوانيا، ولاتفيا، وبيلاروسيا، وأوكرانيا، وليتوانيا.

– مورلاتشي Morlachs: تسمية لمجموعة عرقيـة ارتبطـت بـالرعي وعاش سكانها في جبال الألب الدينارية (غرب إقليم البلقان حاليا). كان السكان يهاجرون موسميا للبحث عن أفضل المراعي لقطعان الأغنام بين الجبال صيفا، وعلى سواحل البحر المتوسط شتاء. كانت أكثر الفترات التي اشتهرت فيها هذه المجموعة العرقية فيما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر.

– المونتاناراد Montagnards مصطلح ظهر فـي الـسياق التـاريخي للثورة الفرنسية مشيرا إلى جماعة سياسية، يطلـق علـى أعـضائها اسـم المونتاناراد نسبة إلى كلمة جبل Mountain، والذين اعتادو أن يجلـسوا فـي أعلى المقاعد في الجمعية التشريعية، واستخدم لأول مرة عام ١٧٩٣. ضمت الجماعة رجالا من مختلف الأطياف الفكرية القائمة على الممارسة الفعليـة العنيدة، في مقابل بقية أعضاء الجمعية الذين كانوا يستندون إلـى فلـسفات نظرية. وكان المونتاناراد أعلى أصواتًا في الدفاع عـن الطبقـات الـدنيا، ويستندون إلى المزيد من الخطب الأخلاقية.

– الميركانتية: Mercantilism نزعة تجارية ومذهب اقتصادي يؤسسان لسيطرة الحكومة على التجارة الخارجية بما يضمن الأمن العسكري للدولة وتوسيع نفوذها. انتشر هذا المذهب في أوروبا خلال القرون من السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر. وتسببت الميركانتية في حروب أوروبية متكررة في ذلك الوقت بدافع التوسع الاستعماري.

– الميروفنج Merovingian: أسرة فرعية من الفرنك، بلغت شهرتها السياسية في وسط أوروبا الغربية خلال الفترة من القرن الخامس إلى الثامن. تعود التسمية إلى ملكهم المؤسس ميروفتش Merovech. .

– ناتال Natal: إقليم في أقصى جنوب شرق قارة أفريقيا، بين جبال دراكنسبرج غربا ونهر الليمبوبو شمالا. نظرا لموقعة الاستراتيجي على طرق التجارة فقد وقع تحت رب الاحتلال البرتغالي ثم البريطاني قبل أن يصبح في النهاية جزءًا من جمهورية جنوب أفريقيا في العصر الحديث.

– نوميديا Numidia، مملكة أمازيغية قديمة في شمال أفريقيا قامت في الفترة من ٢٠٢ قبل الميلاد وحتى ٤٦ قبل الميلاد، وكانت تقع فيما يقابل اليوم الجزائر وجزءًا صغيرا من غرب تونس.

– نونجواسي Nongqawuse: امرأة من قبائل الخوصيا (جنوب أفريقيا) ادعت النبوة في ثلاثينيات القرن الثامن عشر وتوفيت في عام ١٨٩٨.. كانت نبوءة هذه المرأة تزعم أن أرواح الأجداد ستطرد البريطانيين من أرض الخوصيا إذا قتل الشعب ماشيته عن آخرها، وقد استجاب كثير من الخوصيا للنبوءة وقتلوا ماشيتهم التي استمرت من عام ١٨٥٦ حتى عام ١٨٥٧ ولم تتحقق النبوءة، وحدث نقص شديد في الغذاء ومجاعة أدت إلى تناقص عدد سكان الإقليم من مائة ألف إلى أقل من ٣٠ ألفا.

– نياسالاند Nyasaland مستعمرة أنشأتها بريطانيا في جنـــوب شـــرق أفريقيا منذ عام ١٩٠٧. عرفت بعد الاستقلال باسم "ملاوي". وتعتبر النياسا واحدة من المجموعات العرقية المتفرعة عن شعوب البانتو المنتـــشرة فـــي أفريقيا جنوب الصحراء.

– نيبال Nepal: إقليم جبلي مغلق في جنوب آسيا بين الهند والصين في جبال الهيمالايا، ظل النظام السياسي بالإقليم منذ القرن الثامن عـــشر ملكيـــا حتى عام ٢٠٠٨ حين تحولت البلاد إلى جمهورية.

– الهانزا Hansa: رابطة تجارية واتحاد للدفاع عن المصالح التجارية والمدن والأسواق التجارية، سيطرت على سواحل شمال أوروبا: من بحـــر البلطيق إلى بحر الشمال، وذلك خلال أواخر العـــصور الوســـطى والفتـــرة الحديثة المبكرة (من القرن الثالث عشر إلي السابع عشر). أسست الرابطـــة نظاما قانونيا وجيوشا لحماية المصالح التجارية لكنها لم تكوِّن نظاما سياسيا من دول – المدن، باستثناء عدد قليل منها كان يتمتع بالاستقلال الذاتي عـــن الرابطة.

– هنري الملاح (1394- 1460) Henry the Navigator هو الابـــن الثالـــث لخواو الأول ملك البرتغال. ويعتبر أول مـــن بـــدأ التوســـع الاســـتعماري الأوروبي، فقد أقنع والده عام ١٤١٥م بشن حملة على مدينة (ســـبتة) فـــي المغرب عبر مضيق جبل طارق. وبالفعل شن الحملة واحتل المدينة. ثم عين حاكمًا لجماعة (فرسان المسيح) واستمر في هذا المنصب حتى وفاته بعد أن قام ببعض الاستكشافات التي كانت مصدر تمويل مهم للبرتغال.

– الهوجونوت Huguenot أعضاء في الكنيسة البروتستانتية الإصلاحية في فرنسا في الفترة الممتدة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. استوحى الهوجونوت أفكارهم من كتابات "جون كالفين" في عام ١٥٣٠ م. وصل الهوجونوت إلى فرنسا فارين من الاضطهاد الديني في كل من إنجلترا، إسكتلندا، الدنمارك، السويد، سويسرا، ألمانيا، ودوقية بروسيا.

– الهوسبتالية Hospitality نظام قانوني خلال حقبة الإمبراطورية الرومانية، كان يمنح ثلث عائدات (رسوم) الأراضي في منطقة معينة كامتياز للقبائل البربرية في مقابل أن تعلن هذه القبائل الولاء للإمبراطور وتوفر الدعم العسكري، بينما تحظى في ذات الوقت بالاستقلال.

– هيسبانيولا Hispaniola: جزيرة كاريبية كبرى تضم دولتين مستقلتين، وهما جمهورية الدومنيكان وهاييتي. تقع الجزيرة بين كوبا في الغرب وبورتوريكو في الشرق. كانت هيسبانيولا أول موقع قامت فيه مستعمرات على يد كريستوفر كولمبس في رحلاته في عام ١٤٩٢ و١٤٩٣. بحسب الحجم السكاني للعالم الآن تحتل هيسبانيولا المركز العاشر بين الجزر الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم، وهي أكثر الجزر اكتظاظًا بالسكان في الأمريكيتين. ومن حيث الحجم والمساحة تعد هسيبانيولا ثاني أكبر جزيرة في منطقة الكاريبي (بعد كوبا) وفي المرتبة الـ ٢٢ بين أكبر الجزر في العالم.

– ويليام "الفاتح the Conqueror" اسم أطلقه النورمان على ملكهم، أما ولیام The bastard فتعني "الابن غير الشرعي" أو في أسوأ التعبيرات "ابن زنا"، وهو الاسم الذي أطلقه أعداء النورمان على هذا الملك.

اليعقوبي **Jacobin**: ذلك الشخص الـذي يـدعم النظـام الجمهـوري المركزي، بسُلطة مُمثلة في المستوى الفيدرالي. بدأت اليعقوبية خلال الثورة الفرنسية، وكان المصطلح يشير على المستوى الشعبي إلى كـل المؤيـدين للآراء الثورية. وعلى وجه التحديد كان يطلق على أعضاء جمعية اليعاقبـة، وهي حركة ثورية سياسية يسارية متطرفة أصبحت أكثر جمعيـة سياسـية مشهورة خلال الثورة الفرنسية. سُميت تلك الجمعية بهذا الاسم نـسبة إلـى الدير الذي كانت الجمعية تلتقي فيه دوما في باريس والواقـع فـي طريـق القديس يعقوب **Rue Saint-Jacques (Latin): Jacobus**.

المؤلف فى سطور:

سيدريك روبنسون Cedric Robinson:

بروفيسور ذو أصل إفريقي يعمل بجامعة سانتا بربــارا فـــي كاليفورنيــا بالولايات المتحدة، تدور أبحاثه حول حركة المقاومة السوداء المناهضة للاستغلال والرق والاستعمار والعنصرية. نشر عددا من الأعمال الفكرية الرائدة عن الفكــر الماركسي وأطياف تطبيقاته. والمؤلف باحث مشهور في تراث الفكــر الراديكــالي والثوري والتحرري الذي قام به السود خارج القارة الأفريقية.

المترجمان فى سطور:

عاطف معتمد:

أستاذ بقسم الجغرافيا، كلية الآداب ــ جامعة القاهرة. حصل على الدكتوراه من جامعة سان بطرسبرج، روسيا عام ٢٠٠١. حائز على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام ٢٠٠٩. باحث ومترجم في قضايا الجغرافيا السياسية والثقافية.

عزت زيان:

أستاذ مشارك بمعهد التخطيط القومي. حصل في عام ١٩٩٨ على دكتوراه في الجغرافيا الاقتصادية من جامعتي القاهرة وماينتس بألمانيا، يعمل خبيرا في معهد التخطيط القومي بالقاهرة ويحاضر في المركز الديموغرافي. له العديد من الترجمات التي تدور حول قضايا السياسة والتنمية والصراعات الدولية.

التصحيح اللغوى: وجيـــه فاروق

الإشـــراف الفنى: حســـن كـــامل